صيد الخاطر

تصنيف

الإمام الحافظ المتفنن

أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي الحنبلي

المتوفى سنة (٥٩٧هـ)

رحمه الله تعالى

حققه عن ثلاث عشرة نسخة خطية

د. محمد عاطف التراس



دار الفتح
للدراسات والنشر

صيد الخاطر

بيانات الإيداع في دائرة المكتبة الوطنية بالمملكة الأردنية الهاشمية

ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد (ت٥٩٧هـ).

صيد الخاطر، أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ)، تحقيق: محمد عاطف التراس. عمان: دار الفتح للدراسات والنشر، ٢٠٢٤.

٩٢٨ص، قياس القطع: ١٧×٢٤سم.

الواصفات: الوعظ والإرشاد/ الفضائل/ الإرشاد الديني/ الثقافة الإسلامية.

التصنيف العشري (ديوي): ٢١٥,١

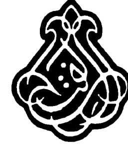
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: (٦٦٢٠/ ١١/ ٢٠٢٤).

الرقم المعياري الدولي (ISBN): ٩٧٨-٩٩٥٧-٢٣-٧١٣-٤



الطَّبْعَةُ الأُولَىٰ

١٤٤٦هـ = ٢٠٢٥م



دار الفتح للدراسات والنشر

أسسها سنة ١٤٢٠هـ= ٢٠٠٠م

د. إياد أحمد الغوج

رقم الهاتف : ٦٤ ٣٥ ٥١٦ ٦ (٠٠٩٦٢)

رقم الجوال : ٤٦٧ ٩٢٥ ٧٧٧ (٠٠٩٦٢)

ص.ب : ١٩١٦٣ عمان ١١١٩٦ الأردن

البريد الإلكتروني : info@daralfath.com

الموقع الإلكتروني : www.daralfath.com

صيد الخاطر

تصنيف

الإمام الحافظ المتفنن

أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي الحنبلي

المتوفى سنة (٥٩٧هـ)

رحمه الله تعالى



حققه عن ثلاث عشرة نسخة خطية



د. محمد عاطف التراس



دار الفتح

للدراسات والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمد لله الذي شرح قلوب عباده المؤمنين لدين الإسلام، ودعاهم - وهو الغنيُّ عنهم - إلى دارِه دارِ السلام، والصلاة والسلام على سيدنا محمدٍ خاتم النبيين، والرضا عن آله وصحبه المُنتجَبين، ومن تبعَهم وسار على مَهيَعِهم إلى يوم الدين، وانتخبَ منهم أعلامًا سجَّلوا لنا حصيلة تجاربهم لتكون منارةً لكل سالك، وعلامةً يهتدي بها المُسترشِدون في دروب المهالك.

وبعد،

فقد كانت أول طبعة اقتنيتُها من كتاب «صيد الخاطر» لمّا كنت في المرحلة الجامعية، وكنت قد شرعتُ وقتئذٍ في تكوين مكتبة خاصة بي تجمع أصول الكتب في كل فنٍّ من الفنون العربية والشرعية، وكان من أمري - كما هو حال كثير من أترابي الطلاب - أني أخطبُ ودَّ الطبعات زهيدة الثمن لقلة ذات يدي، واعتمادي على ما يُعطينيه أبي - عليه رحمة الله - من نفقة شخصية، فبدلًا من أن أشتريَ كتابًا بعشرين جنيهًا أشتري كتابين، فلله درُّها من أيام!

ولم أكن إذ ذاك أعرف معنى كلمة «تحقيق»، ولم تكن لي أيُّ عناية بالطبعات المحقَّقة ولا بمحقِّقيها، فهداني الأدلّاء إلى أشهر كتاب في الزهد والرقائق يصلح لمثلي حينها أن يتوفَّر على قراءته، ألا وهو كتاب «صيد الخاطر» للإمام أبي الفرج ابن الجوزي، فوقعتُ على طبعة دار الفجر للتراث، بتحقيق الدكتور حامد أحمد الطاهر، وصرتُ أقرأ منه يوميًّا خاطرة يزكو بها قلبي.

ثـم تصرَّمت الأيام والسـنون، وطلبت مني زوجـي أُمّ مالك ـ أدام الله بهجتها ـ أن أشـتريَ لها كتابًا في الزهد لتقرأ فيه، فما كان مني إلا أن نصحتُها بما نصحني به الأدلّاء قديمًـا، لكنـي هذه المرة قد عرَفتُ على الحقيقة قيمةَ التحقيق وكيفيةَ تمييز الطبعات صحيحها من سقيمها، فطُفتُ على المكتبات أجردُ كلَّ ما يقع تحت يدي من طبعات الكتاب، فإذا بجُلِّ الطبعات قد اعتمد محقّقوها على طبعات سابقة في نقـل النص، وببعضها قد اعتمد نسـخة خطية واحـدة، ورجعتُ يومها بخفَّي حُنين، ألوم نفسي وتلومني زوجي: أين الكتاب الموعود؟!

ومرَّت الأيام حتى جاءني خبر صدور طبعة جديدة من الكتاب بتحقيق الشيخ طـارق عـوض الله، طبعتهـا دار مـدار الوطن أول مـرّة لعام ٢٠١٦م، وقد اسـتقبلها القُـرّاء بحفـاوة بالغـة لما فيها من زيـادات هائلة لم تُطبع من قبـل، ولاعتمادها أولَ مرة على نُسخ خطية، فطلبتها من مكتبات القاهرة من أقصاها إلى أقصاها، فلم أعثر لهـا علـى أثر، حتى حان موعد معرِض القاهرة الدولي للكتاب لذلك العام، فجُبت المعرِض جيئة وذَهابًا، ولم أرجع إلا بنفس الخُفّين.

حتى صُوِّرت الطبعة، وانتشـرت انتشارًا واسعًا، فما إن طالعتُها حتى راعني ما أجـد من أخطاء في الضبط بالشـكل، فصددتُ زوجي عـن قراءتها حتى لا تقرأ في طبعة كثيرة الأخطاء، فتحجزها الأخطاء عن مواصلة القراءة.

ثم رسخ في نفسي أن الكتاب بحاجة ماسّة لإعادة التحقيق، لكن لِما كان عندي مـن قناعـة أن كتـب ابن الجوزي ضعيفة النُّسـخ الخطيـة، فكنت غيـر مُتكالب على الأمر، حتى جاء يومٌ فاتحني فيه أخي أبو الحسن الدكتور إياد الغوج بشأن الكتاب، وكان حَفِيًّـا بـه، عارفًا بضعفِ طبَعاته، قد جمَعَ له أصـولًا خطيةً عديدة، ورغبَ إليّ في تحقيق الكتاب! فجاءتني الفرصة، وتمثَّلتُ حينها قول محمود سامي البارودي:

خَلِيلَيَّ: ما في الدَّهرِ أطوَلُ حَسرَةً ... مِنَ المَـرءِ يَلقَـى فُرصَـةً فيَخِيمُ

فاهتبلتُ الفرصة، وبدأتُ مُستعينًا بالله، وفي السنة القابلة سنة ٢٠٢٣م، خرجت إلى النور طبعةُ دار ابن كثير من الكتاب بتحقيق الأستاذ أنس تدمري، فطلبتُ نسخة من أحد أصحابي، وما إن فتحتُها وتأمَّلتُها وقلَّبتُ عيني في صفحاتها حتى أيقنتُ أني لا محالة ماضٍ في تحقيق الكتاب.

وما كنتُ أظنُّ يومًا من الدهر أن يكون في المكتبة العربية على سَعتها كتابٌ توفَّرت نُسخُه الخطية، وانتشرت في الناس طبعاته، وصار منه على كلِّ رفٍّ نسخة، ثم إذا جاء مُحقِّقٌ يُعيد تحقيقَه، فيجد عُشرَ مِعشار ما لاقيتُه من مشكلات في نصٍّ ضاعت معالمُه بين تحريفات النُّساخ، وزيادات الناشرين، وأخطاء المُحقِّقين، في حين أنّ الرجُلَ صاحبُ قلم سيّال لا يُسلِمُ قيادَه لأيِّ أحدٍ.

فقد كان ابن الجوزيّ أُمّةً وحدَه، جمع من العلوم ما لم يجمعه عالمٌ في زمانه ولا بعد زمانه، فهو حاملُ لواء الوعظ على مرِّ التاريخ، تصدَّر للوعظ وهو دون العشرين، مُقدَّمٌ بين علماء التفسير، فسَّر القرآن كلَّه على المنبر، علّامةٌ في التاريخ والسِّيَر حتى صار هو نفسه تاريخًا، حافظٌ للحديث، إليه انتهَت معرفة الصحيح من الضعيف، فقيهٌ عليمٌ بمسائل الإجماع والخلاف لم يتقيَّد بمذهبه الحنبلي، صاحبُ مشاركة في علم الطبِّ، أسلمَت له اللغة بعلومها مقاليدَها، فكان ذا مَلَكة لغوية مكَّنته على البديهة من ارتجال عيون الكلام شعره ونثره، مما يحار العقلاء في كُنهه، حتى قال الخليفة فيه يومًا: «ما كأنّ هذا الرجل آدميّ، لِما يقدر عليه من الكلام»[1].

ولكم استوقفَتني له ثلاثُ كلمات: **أولاها** وأخطرها قوله في الخاطرة ١٦٧، وحكاها عنه سِبطُه أبو المظفَّر: «كتبتُ بأصبعي هاتين ألفَي مُجلَّدةٍ، وتاب على

(١) الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب (٢: ٤٧٧).

يديَّ مئةُ ألف، وأسلم على يديَّ عشرون ألف يهودي ونصراني»[١]! **وثانيتها** قوله في الخاطرة ٤٦٦: «لو قلتُ: إنّي طالعتُ عِشرين ألفَ مُجلَّد، كان أكثر، وأنا بعدُ في الطَّلَب»! **وثالثتها** ما قاله هو عن نفسه في اليوم السابع عشر من جُمادى الأُولى لسنة ٥٧٠هـ بعدما ختم تفسير القرآن في مجلس الوعظ على المنبر: «ما عرَفتُ أنّ واعظًا فسَّر القرآنَ كلَّه في مجلس الوعظ منذ نزل القرآن، فالحمد لله المُنعم»[٢]!

فلك أن تتخيَّل رجلًا بهذا الحجم، كان يحضر مجلسَ وعظه الخلفاءُ والوزراءُ، والملوكُ والأمراءُ، والعلماءُ والعامّةُ، والأغنياءُ والفقراءُ، ومن سائر أصناف الناس، وأقلُّ ما كان يجتمع في مجلسه عشرةُ آلاف نفس، وربما اجتمع فيه مئةُ ألفٍ أو يزيدون، كما حكاه ابن كثير[٣].

رجُل بهذا القدر من العلم، رزقه الله صحبة أكابر العلماء حتى بلغ عدد شيوخه من الرجال ٨٦ شيخًا ومن النساء ٣ شيخات، جمعهم هو نفسُه في مجلد كامل، وبلغت مصنَّفاته ٥٧٤ كتابًا، حتى جُمِعَت عناوينها وبياناتها، المخطوطة منها والمطبوعة، فجاءت في مجلد آخر، وبارك الله في عمره حتى تُوفِّي عن ٨٧ سنة، قضاها في الدعوة إلى الله، كيف ستكون خبراته الحياتية لو جمعها في كتاب؟!

ذلكم الكتاب هو كتاب «صيد الخاطر»، الذي تفتَّق عنه ذهن الرجل ليكونَ لمن بعده سِفرًا يَحتَجِنُ خلاصة تجاربه في الدعوة إلى الله، وكان إذا عرضَت له فكرة ينشغل عن كتابتها، فيتأسَّف لأنه لم يدوِّنها في الحال، ومن هنا كانت فكرة الكتاب.

---

(١) مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي (٢٢: ٩٤).

(٢) المنتظم (١٨: ٢١٣).

(٣) انظر: البداية والنهاية (١٦: ٧٠٨).

جاءت موضوعات كتابنا مُتنوِّعة تنوُّعًا يجذب القارئ، ولا يُسلِمُه إلى الكَلال والمَلل، فمنها خواطر تُؤصِّل مبادئ العقيدة الإسلامية، وتُعرِّف العبد بربِّه، وتُرسي له أصول القضاء والقدر ومسائل الإيمان والكفر، ومنها ما جاء في الردِّ على أهل البدع وأصحاب الخُرافات، ومنها ما يصلح أن يُدرجَ تحت الحفاظ على الضروريات الخمس: من حفظ الدين والنفس والمال والنسل والعقل، ومنها ما يُعالج أعمال القلوب، ويسرد منازل السير إلى الله مثل منزلة الصبر والإخلاص والمحبة والرضا والخوف والرجاء، ومنها ما يخص أدب العالم والمتعلِّم من أدبيات وتوجيهات وأولويات، ومنها تأمُّلات من واقع مدرسة الحياة وفقه التعامُل مع الناس وكيفية مخاطبة الملوك بما لا يُخاطَب به العامة، ومنها ما يدور في فلك الوعظ الخالص والإرشاد السلوكي والتربوي، ومجاهدة نزعات النفس البشرية، وغيرها من قضايا لا يستغني عنها قارئ.

ولقد بزَّ ابنُ الجوزي بهذه القضايا الشائكة من سبقه ومن لحقه ممن كتبوا في هذا الصدد، فما إن تطالع مادة كتابه حتى تُقلِّب كفَّيك عجبًا: كيف لرجُل في القرن السادس الهجري أن يكتب في هذه القضايا التي لم يتطرَّق لبعضها المعاصرون؟! حتى قال عنه بَلَدِيِّي أديبُ الدعاة الشيخ محمد الغزالي في مقدمة طبعته من «صيد الخاطر»: «ما من رأيٍ انتهيتُ إليه في كتاباتي الكثيرة إلا وجدتُ هذا المؤلِّف قد سبقني إلى تقريره، وقرنَه بما يدعمُه من نصوص، وما من علةٍ في المجتمع الإسلامي ندَّدتُ بها إلا كان في هذا الكتاب هجومٌ عليها وحصارٌ لوبائها قبل أن تشيع»!

ولك - أخي القارئ - أن تقرأ شاهدًا على هذا الكلام الخواطر المُعنون لها بـ: «سياسة النفس»، و«النظر في المآلات»، و«عاقبة العشق»، و«أولويات طالب العلم»، و«الرد على المبتدعة»، و«الممنوع مرغوب»، و«شرف المال»، و«سرّ

الوقـوع في المعصيـة»، و«كم من مُحتقَر احتيج إليه»، و«معاشـرة الزوجة والولد»، و«إلف العادة»، وغيرها كثير.

أعود فأقول: إنّ كتابًا بهذه الأهمية الكبرى لكلِّ قارئ، ثم تخرج جمهور طبعاته بـلا مقابلة على نُسخ خطيـة، ثم لمّا يُطبع على نُسـخ خطية تأتي بهـذه الصورة من الضعف الذي يفاجئك في محلّه من الدراسة بعدُ، ودعني أضرب مثالًا واحدًا كنتُ كلما وقعَت عيني على طبعة للكتاب جديدة، أذهبُ له لأرى كيف قرأه المحقِّق؟

فـي الخاطـرة ٦٩ يقول ابـن الجوزي فيما حكاه عن أبي بكرِ بنِ مِقسَـم من أنّه صنَّف كتابًا بعنوان «الاحتجاج للقُرّاء»: «فأتى فيهِ بفوائدَ، إلا أنّه أفسدَ عِلمَه بإجازتِه أن يُقـرأ بمـا لـم يُقرأ بـه، ثُمّ تفاقمَ ذلـك مِنه، حتّى أجاز ما يُفسِـدُ المعنـى مِثلَ قولِه تعالـى: ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ﴾ [يوسـف: ٨٠] فقـال: «يصلُـحُ أن يُقال هُنا: (**نَجيًّا**)؛ أي: خلصُوا كِرامًا بُرآءَ مِن السرقة».

كلمـا وقعـت عيني على كلمة «نَجِيًّا» الثانية أقول في نفسـي: أيـن القراءة التي ابتدعها ابن مِقسَم، وجاء فيها بما لم يُقرأ به، وأفسد المعنى، والكلمة بعد الآية هي هـي في الآيـة بنصِّها وفصِّها مُكـرَّرة مرتين بحروفها وحركاتها كمـا هي في القراءة الفاشية قراءة حفص؟! حتى جاء اليوم الذي راجعتُ فيه النصَّ على النُّسخ الخطية، وبان لي من بعض النُّسخ غير المُحرَّفة أنّ القراءة التي قصدها ابنُ مِقسَم هي «**نُجُبًا**» بنـون وجيـم مضمومتين بعدهما باء، لا «نجِيًّـا» بفتح النون ولا بضمِّها كما وقع في سائر طبعات الكتاب التي وقفتُ عليها، وهي كثيرة!

والغريب أنّ سياق الكلام بعدُ وقعَت فيه كلمة من جنس هذه الكلمة، فتحرَّفت كذلك بسبب تحرُّف الأُولى، يقول ابن الجوزي مُعقِّبًا على قراءة ابن مِقسَم: «وهذا سُوءُ فهم للقِصّة؛ فإنّ الذي نُسبَ إلى السرقةِ وظهرت معه ما خلَص، فما الذي ينفعُ

خلاصُهم؟! وإنّما سيقَت القِصّةُ ليُبيِّنَ أنّهم انفردُوا وتشاوروا فيما يصنعُون، وكيف يرجِعون إلى أبيهم وقدِ احتُبِس أخُوهم، فأيُّ وجهٍ **للنَّجاة** هُهنا»؟!

وصوابها: «فأيُّ وجهٍ **للنَّجابة** ههنا»، فتأمَّل كيف تحرَّفت كلمة «للنَّجابة» إلى «للنَّجاة»، فضاع معنى النص، وأنكى من هذا أنّ الخبر بحروفه حكاه ابن الجوزي نفسُه بصورة أوضح في كتابه «المُنتظَم»، وهو مطبوع مُتداول على طرف البنان، وفيه[١]: «لو قُرئ: (خَلَصوا **نُجُبًا**) **بالباء** لكان جائزًا، وهذا مع كونه يخالف الإجماع بعيد من المعنى؛ إذ لا وجه **للنَّجابة** عند يأسهم من أخيهم». انتهى كلامه، ولكنّ أحدًا لم يقابل النص على مصادره، فغاب وجه الصواب!

هذا مثال واحد من عشرات الأمثلة الدالّة على ما طال النصَّ عينَه في طبعاته السابقة من تحريف وتصحيف، ولنَضرِب صفحًا عما وقع في التعليق على النص من إفراط وتعنُّت في بعض طبعاته، وما وقع من تفريط وإعواز في بعضها الآخر، بَلْهَ ما وقع في المقدِّمات القبلية والبعدية لهذه الطبعات.

إنّ هذا الكتاب لَهو سبيكة من سبائك الذهب التي حفل بها تراثنا الإسلامي الضخم الذي خلَّفه لنا أسلافنا، وإنه لحريٌّ بمزيد من العناية والاهتمام، مما أَجاءَنا[٢] إلى جمع كل ما وقع تحت أيدينا من نُسخ الكتاب الخطية في مكتبات العالم، فجمعنا اثنتي عشرةَ نسخةً يتمِّم بعضها بعضًا، بجانب نسخة حجرية، كل هذا لنضمنَ سلامة النص، ولننفيَ عنه الزيف، وكان لزامًا عليَّ أن أُقابل النصَّ على ما اجتمع لدينا من نُسخ خطية حتى وإن كان بعضها من عوائل واحدة، فاكتظَّت الحواشي السفلية بفروق النُّسخ، وجمعتُ النظير على نظيره، وحذفتُ كل ما كان من قبيل الفروق اللفظية التي لا تفيد النصَّ بشيء، وأبقيتُ على المهمّ مما يخدم القارئ.

---

(١) انظر: المنتظم (١٤: ١٧١).

(٢) أجاءنا: اضطرَّنا.

ثم استقبلتُ النصَّ مرةً أخرى أضبطُه ضبطَ إعرابٍ يُزيل اللبس لجمهور القُرّاء، فالكتاب كتاب جماهيري، يقرأ فيه العامّة قبل الخاصّة، وحرَصتُ أن أعنونَ لكلِّ خاطرة لم يُعنونها ابن الجوزي بعنوان موجز مُعبِّر عن مضمون ما تحته، وقد أفدتُ في بعض العناوين من طبعة الشيخ محمد الغزالي، مع حصر كل عنوان بمعقوفَين، ثم جاءت مرحلة التعليق على النص بما يلزم من شرح الكلمات الغريبة، وتخريج الأحاديث النبوية الشريفة، وتوثيق النصوص المنقولة من مصادرها.

وفي النهاية قدَّمت للكتاب بدراسة موجزة تعريفًا بالمصنِّف وكتابه، وما يتبع ذلك من أدبيات فنِّ التحقيق من مقدمات قبلية وأخرى بعدية ، وختمناه بتسعة فهارس فنية.

وفي الأخير أُزجي أسمى آيات الشكر ومعاني العِرفان ـ ولا يشكر الله من لم يشكر الناس ـ لأخي الدكتور أسامة بن عبد الرزاق شيراني، على إهدائي نسخة مكتبة الأحقاف، ثم الشكر لأخي أديب اللغويين طاهر العلواني، على قراءة النص وتصويب ما وقع من أخطاء، ثم الشكر من بعده لأخي بحّاثة اللغويين أحمد عطية على قراءته الثانية قراءة تصحيح وتدقيق، ولا أنسى شكر زوجي أُمّ مالك على ما تكلَّفته معي من عناءِ مقابلة النص على النسخ الخطية، وصبرٍ على وقوفي مليًّا عند كل كلمة مُلبِسة.

والشكر أصالةً لذلكم الصرح الشامخ دار الفتح للدراسات والنشر بالأردن، ولصاحبها فضيلة الدكتور إياد الغوج، حفظه الله ذخرًا للأمة الإسلامية، وجعل داره بالتراث عامرة، على ما قدمه ـ وما يزال ـ من خدمة لتراث المسلمين، والحمد لله رب العالمين.

كتبه
د. محمد عاطف التراس
مدينة نصر بالقاهرة

٢٠ من جمادى الأولى لسنة ١٤٤٦هـ
٢٢ من نوفمبر لسنة ٢٠٢٤م

التعريف بالمؤلف[1]

اسمه ونسبه:

هو الشيخ، الإمام، العلّامة، الحافظ، المفسّر، شيخ الإسلام، مَفخرُ العراق، جمال الدين، أبو الفرج عبدُ الرحمنِ بنُ عليّ بنِ محمدِ بنِ عليّ بنِ عُبيدِ الله بنِ عبدِ الله بنِ حمّادي بنِ أحمدَ بنِ محمدِ بنِ جعفر. وينتهي نسبه إلى القاسمِ بنِ محمدِ بنِ أبي بكرٍ الصدِّيق، القُرشيّ، التيميّ، البكريّ، البغداديّ، الحنبليّ، الواعظ، صاحب التصانيف النافعة.

وكان ابن الجوزيِّ يعتزُّ بنسبه إلى سيدنا أبي بكر الصديق كما جاء في وصيته لولده[2]: «يا بُنيّ: واعلم أننا من أولاد أبي بكر الصديق، وأبونا القاسم بن محمد... ثم تشاغل سلفنا بالتجارة والبيع والشراء، فما كان من المتأخِّرين مَن رُزِق همةً في طلب العلم غيري، وقد آل الأمر إليك، فاجتهِد ألا تُخيِّب ظني فيك ولك».

ولقبُ الجوزي نسبة إلى جعفر الذي هو أحد أجداده، وكان قد نُسِب إلى

---

(١) انظر ترجمته في: مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي (٢٢: ٩٣)، ووفيات الأعيان لابن خلكان (٣: ١٤٠)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٢١: ٣٦٥)، والبداية والنهاية لابن كثير (١٦: ٧٠٦)، والذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب الحنبلي (٢: ٤٥٨)، وطبقات المفسرين للداوودي (١: ٢٧٥)، والأعلام للزركلي (٣: ٣١٦)، وابن الجوزي الإمام المربي والواعظ البليغ والعالم المتفنن لعبد العزيز الغزّولي، وغيرها من كتب التراجم.

(٢) لفتة الكبد (ص٦٣).

فُرْضةٍ من فُرَضِ البصرة تُسمى جَوزة ـ وفُرضةُ النهر: ثُلمتُه، وفُرضةُ البحر: مَحَطُّ السفن ـ وقيل: كان في دارهم شجرة جَوزٍ لم يكن بواسط جَوزةٌ سواها.

مولده ونشأته:

وُلِدَ بمدينة بغداد بدرب حبيب، في سنة ٥١٠هـ على الأشهر، وتُوفي أبوه وليس له من العمر إلا ثلاثة أعوام، ولم تلتفت له أمُّه كما صرَّح ابن الجوزي نفسه بذلك في الخاطرة (١٦٧) من صيد الخاطر، فربَّته عمَّته، وكان أقاربه تُجّارًا في النُّحاس، فربما كتب اسمه في السَّماع: «عبد الرحمن بن علي الصَّفّار»، ثم لمّا ترعرعَ حملته عمَّته إلى شيخه الأول أبي الفضل محمد بن ناصر، فأسمعه الكثير، وأحب الوعظ، ولهج به، فوعظ الناس وهو صبيّ.

يقول ابن الجوزي عن نفسه في الخاطرة رقم (٢٨٦): «تُوفِّي أبي ولي من العمرِ نحوُ سنتَين أو حولها، فلطَفَ الله سبحانه بي في التربية، ورزَقني عُلُوَّ الهِمّةِ في الطفولة، فكنتُ في المَكتَبِ وأنا قرينُ الصِّبيان ـ وهو المُتقدِّم عليهم ـ وكنتُ أتوقُ إلى مجالسِ الوُعّاظِ وأحبُّها من ذلك الزمان، وأحضُرُ وأكتُبُ ما يقولون، واتَّفقَ أنّ شيخَنا أبا الفضلِ بنَ ناصرٍ كان صديقًا لعمّي، فكان يحملُني إلى المشايخ، ويُسمِعُني عواليَ الحديث، ويُثبِتُ ذلك لي».

ثم يقول محدِّثًا بفضل الله عليه: «وركَزَ في طبعي من الطفولةِ السكينةَ والوقار، فما أعلمُ أنّي وقفتُ في طريقٍ مع صبيٍّ مِثلي ألعبُ، ولا ضحِكتُ مع قرينٍ مثلَ ما يجري للصبيان، وكنتُ ربّما جُزْتُ بالرَّحبةِ وأنا طفل، فلا يُعجبني خُلُقُ المُشعبِذِين، وإنّما أقصدُ حَلقةَ المُحدِّث، فأُحضِرُ قلبي لحِفظِ السمر، وأعودُ إلى المنزل، فأكتبُ ذلك بالمعنى، وأمُرُّ على مجالسِ الوُعّاظِ وأنا بعدُ في المَكتَب، فأدخلُ فأكتبُ ما يقولون».

شيوخه:

على أن ابن الجوزي لم يرحل في طلب العلم لكنه كُتِب له تلقِّي العلم على عدد وافر من أكابر علماء عصره، ذلك أن بغداد في عصره كانت حاضرة الخلافة العباسية، وكان طلاب العلم يرحلون إليها لا عنها! وقد كتب ابن الجوزي كتابًا جمع فيه شيوخه، والكتاب مطبوع بعنوان «مشيخة ابن الجوزي»، سرد فيه ٨٦ شيخًا، و٣ شيخات! وعلى رأس شيوخه الذين تأثَّر بهم:

ـ أبو الحسن علي بن عبيد الله بن الزاغُوني (ت٥٢٧هـ)، وقد ورد ذكره في صيد الخاطر في الفصلين رقمَي ١٧٣، ٤٦٩.

ـ عبد الوهاب بن المبارك الأنماطي (٥٣٨هـ)، وقد ورد ذكره في صيد الخاطر في الفصل رقم ٩٤.

ـ موهوب بن أحمد الجواليقي (ت٥٤٠هـ)، وقد ورد ذكره في صيد الخاطر في الفصل رقم ٩٤.

ـ أبو الفضل محمد بن ناصر السَّلَاميّ البغدادي (ت٥٥٠هـ)، وقد تكرَّر ذكره في صيد الخاطر في الفصول أرقام ٢٨٥، ٢٨٦، ٤١٤، ٤٦٦، ٤٨١.

ـ محمد بن عبد الباقي البغدادي (ت٥٦٤هـ)، وقد ورد ذكره في صيد الخاطر في الفصلين رقمَي ٢٨، ٣٨١.

تلاميذه:

كثُر طلاب ابن الجوزي، وكان من أبرزهم[1]:

---

(١) انظر: ابن الجوزي الإمام المربي لعبد العزيز الغزّولي (ص٤٧) وما بعدها.

ـالحافظ عبد الغني المقدسي الدمشقي الحنبلي (ت ٦٠٠هـ)، صاحب «الكمال في أسماء الرجال».

ـمُوفَّق الدين بن قدامة المقدسي الحنبلي (ت ٦٢٠هـ)، صاحب كتاب «المغني».

ـأبو عبد الله بن الدُّبَيْثِيّ، محمد بن سعيد بن يحيى (ت٦٣٧هـ)، وهو من كبار المؤرخين، وله ذيل على تاريخ السمعاني.

ـأبو المظفَّر يوسف بن قِزُغْلِي، المعروف بسبط ابن الجوزي الحنفي (ت٦٥٤هـ)، صاحب كتاب «مرآة الزمان في تواريخ الأعيان»، وقد ترجم فيه ترجمة موسَّعة لجده ابن الجوزي.

ـولده محيي الدين أبو المحاسن يوسف بن الجوزي (ت٦٥٦هـ)، وهو مؤسِّس المدرسة الجوزية بدمشق، وأستاذ دار الخلافة المستعصمية.

مكانته وثناء العلماء عليه:

ـذاع صيتُ ابن الجوزي في دولة الخلافة العباسية من أقصاها إلى أقصاها، وحضر مجالسه الخلفاء والوزراء والعلماء والأعيان، وأقلُّ ما كان يحضر مجلسَه عشرةُ آلاف نفسٍ، وربما حضر عنده مئة ألف، وأوقع الله له في القلوب القبول والهيبة، وكان زاهدًا في الدنيا، مُتقلِّلًا منها، وسمعه سِبطُه أبو المظفَّر على المنبر في آخر عمره يقول في حقِّ نفسه: «كتبتُ بأصبعي هاتين ألفَي مُجلَّدةٍ، وتاب على يدي مئةُ ألف، وأسلم على يدي عشرون ألف يهودي ونصراني»[1]!

---

(١) مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي (٢٢: ٩٤).

ـ وقال أيضًا عن نفسه: «لم يكد يُذكَر لي حديث إلا ويمكنني أن أقول: صحيح أو حسن أو مُحال، ولي في كتبي الوعظية ـ بحمد الله ـ أعمالٌ عجز عنها من تقدَّم... ولقد أقدرني على أن أرتجلَ المجلس كلَّه من غير ذكر محفوظ، وربما قُرِئت عندي في المجلس خمسَ عشرةَ آيةً، فآتي على كلِّ آية بخطبة تناسبها في الحال»(١).

ـ قال عنه تلميذه ابن الدُّبيثي: «صاحب التصانيف في فنون العلم من التفاسير والفقه والحديث والتواريخ وغير ذلك، وإليه انتهت معرفة الحديث وعلومه، والوقوف على صحيحه من سقيمه، وله فيه المصنفات من المسانيد والأبواب والرجال ومعرفة الأحاديث الواهية والموضوعة، والانقطاع والاتصال، وكان من أحسن الناس كلامًا، وأتمِّهم نظامًا، وأعذبهم لسانًا، وأجودهم بيانًا»(٢).

ـ وقال عنه الذهبي: «كان رأسًا في التذكير بلا مدافعة، يقول النظم الرائق، والنثر الفائق بديهًا... وكان بحرًا في التفسير، علّامة في السِّيَر والتاريخ، موصوفًا بحُسن الحديث، ومعرفة فنونه، فقيهًا، عليمًا بالإجماع والاختلاف، جيدَ المشاركة في الطبِّ، ذا تفنُّنٍ وفهمٍ وذكاءٍ وحفظٍ واستحضارٍ، وإكبابٍ على الجمع والتصنيف، مع التصوُّنِ والتجمُّل، وحُسنِ الشارة، ورشاقةِ العبارة، ولُطفِ الشمائل، والأوصافِ الحميدة، والحُرمةِ الوافرة عند الخاص والعام، ما عرفتُ أحدًا صنَّف ما صنَّف»(٣)!

ـ وقال عنه ابن كثير: «أحد أفراد العلماء، برَّزَ في كثير من العلوم، وجمع المصنَّفات الكبار والصغار نحوًا من ثلاثمئة مصنَّف، وكتب بيده نحوًا من ألفَي مُجلَّدة، وتفرَّد بفنِّ الوعظ الذي لم يُسبَق إلى مثله، ولا يُلحَقُ شأْوُه في طريقته وشكله»(٤)!

---

(١) القُصّاص والمُذكِّرين (ص٣٧٣).
(٢) مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي (٢٢: ٩٥).
(٣) سير أعلام النبلاء (٢١: ٣٦٧).
(٤) البداية والنهاية (١٦: ٧٠٧).

مصنفاته:

من الصعب أن يتصدَّر أحد لحصر كتب ابن الجوزي على وجه الدقة، حتى كان ذلك باعثًا للمؤرِّخ العراقي عبد الحميد العَلَوجيّ أن يكتبَ كتابًا بعنوان «مؤلَّفات ابن الجوزي» حصر فيه مؤلَّفات الرجُل مخطوطةً ومطبوعةً، فبلغ عددها ٥٧٤ كتابًا! ولا غرو أن تكثُرَ كتب الرجل في شتى الفنون، فقد حدَّث عن نفسه - كما مرَّ بنا - أنه كتب بيده ألفَي مُجلَّدة!

حتى قال شيخ الإسلام ابن تيمية في أجوبته المصرية فيما حكاه عنه ابن رجب: «كان الشيخ أبو الفرج مُفتيًا كثير التصنيف والتأليف، وله مصنَّفات في أمور كثيرة، حتى عددتُها فرأيتُها أكثرَ من ألف مصنَّفٍ، ورأيتُ بعد ذلك له ما لم أره، وله من التصانيف في الحديث وفنونه ما لم يُصنَّف مثلُه، قد انتفع الناس به، وهو كان من أجود فنونه، وله في الوعظ وفنونه ما لم يُصنَّف مثلُه»[1].

وهذا الحصر وإن كان فيه مبالغة فإنه دالٌّ على موسوعية الرجل وكثرة مصنفاته، وكان لهذه الكثرة تبعاتها التي أخذها العلماء عليه، ونصَّ على هذا ابن رجب الحنبلي بقوله: «كثرة أغلاطه في تصانيفه، وعذره في هذا واضح، وهو أنه كان مُكثِرًا من التصانيف، فيصنف الكتاب ولا يعتبره، بل يشتغل بغيره، وربما كتب في الوقت الواحد من تصانيف عديدة. ولولا ذلك لم يجتمع له هذه المصنَّفات الكثيرة، ومع هذا فكان تصنيفه في فنون من العلوم بمنزلة الاختصار من كتب في تلك العلوم»[2].

(١) الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب (٢: ٤٨٩).
(٢) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (٢: ٤٨٧).

ومن أشهر كتبه في التفسير: «زاد المسير في علم التفسير»، وفي علوم القرآن: «الوجوه والنظائر»، وفي الحديث: «الموضوعات»، وفي الفقه: «المنفعة في المذاهب الأربعة»، وفي التاريخ: «المنتظَم في تاريخ الملوك والأمم»، وفي السير والتراجم: «صفة الصفوة»، وفي الوعظ: «صيد الخاطر»، وفي الطب: «لقط المنافع».

ثم تسلَّط ابنه أبو القاسم عليّ على كتب أبيه فباعها، وكان سببًا في ضياع مكتبة أبيه، كما حكاه سبط ابن الجوزي بقوله: «هو الذي أظهر مصنَّفات والده، وباعها بيعَ العبيد، ولمّا مضى والده إلى واسط كانت كتبه في داره بدرب دينار، فتحيَّل عليها بالليل والنهار حتى أخذ منها ما أراد، وباعها ولا بثمن المداد، وكان أبوه قد هجره مدة سنين، فلما امتُحن أبوه صار ألبًا عليه للمُعادِين، وتُوفي أبوه ولم يشهده»[١].

محنته[٢]:

قلَّ عالم إلا وله محنة مرَّ بها، وكانت محنة ابن الجوزي في أواخر عُمره، ذلك أن الركن عبد السلام بن عبد الوهاب ابن الشيخ عبد القادر الجِيليّ ـ وكان صاحب مصنَّفات كثرت فيها الزندقة وعبادة النجوم ـ قد عقد له الوزيرُ ابنُ يونس الحنبلي مجلسَ مُحاكمة، بمحضر ابن الجوزي وغيره من علماء السُّنة، فحكموا على الركن بحرق كتبه وتسليم مدرسته لابن الجوزي.

فلما ترك الوزارةَ ابن يونس ووَزَرَها ابنُ القصّاب ـ وكان شيعيًّا رافضيًّا خبيثًا ـ سعى في القبض على ابن يونس وأصحابه، فقال له الركن: أين أنت عن ابن الجوزيّ الناصبيّ، وهو أيضًا من أولاد أبي بكر؟!

(١) مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي (٢٢: ١١٧)، والألبُ: القوم يجتمعون على عداوة إنسان.
(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٢١: ٣٧٦)، والذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب (٢: ٥٠٤).

فكتب ابن القصّاب إلى الخليفة الناصر بالله العباسي، وكان الناصر يميل إلى الشيعة، وربما عرَّض بذمِّه ابن الجوزي في بعض مجالسه، فأمر الناصرُ بتسليمه إلى الركن، فجاء الركنُ وأهان ابنَ الجوزي، وأخذه معه في مركبٍ، وعليه غلالة بلا سراويل، وعلى رأسه تخفيفة، وقد كان ناظرُ واسط أيضًا شيعيًّا، فقال له الركن: مكنِّي من هذا الفاعل لأرميه في مطمورة[1]، فزجره، وقال: يا زنديق، أفعلُ هذا بمجرد قولك؟ هاتِ خطَّ أمير المؤمنين، والله لو كان على مذهبي، لبذلتُ رُوحي في خدمته، فلمّا حضرت جموعُ الناس إلى واسط ادَّعى الركن ـ وكذب في دعواه ـ أن ابن الجوزي تصرَّف في وقف المدرسة، واقتطع من مالها!

فخُتمَ على داره، وشُتِّت عياله، ثم أُقعِد في سفينة إلى مدينة واسط، فحُبِس بها خمس سنين من سنة ٥٩٠هـ حتى سنة ٥٩٥هـ، وكان قد قارب الثمانين من عمره، يقيم في بيت حرج، يغسلُ ثوبه، ويطبخُ الشيء، ولم يدخل فيها حمّامًا.

حتى جاء فرج الله للشيخ، ذلك أنّ ولده يوسف عمل واعظًا وتوصَّل إلى أُمّ الخليفة، فأمرت بالإفراج عنه، وعاد أبو الفرج إلى بغداد، وخُلِع عليه، وفرح الناس بقدومه فرحًا عظيمًا، ونُودي له بالجلوس يوم السبت، فما إن صلّى الناس الجمعة حتى عبروا يأخذون مكانات موضع المجلس عند تُربة أُمّ الخليفة، ونزل المطر مدرارًا، وامتلأت البرية بالجماهير حتى ما كان يصل صوت أبي الفرج إلى آخرهم.

وفاته[2]:

بعد عودة ابن الجوزي من واسط استقرَّ به المقام في بغداد حتى جاءه الأجل في ليلة الجمعة بين العشاءين الثاني عشر من رمضان سنة ٥٩٧هـ، وله ٨٧ سنة،

---

(١) المطمورة: مكان تحت الأرض قد هُيِّئ ليُطمَر فيه البُرّ والفول ونحوهما، والسِّجن.

(٢) انظر: البداية والنهاية (١٦: ٧١٠)، والذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب (٢: ٥٠٨).

وحُمِلت جنازته على رؤوس الناس، وصلّى عليه ابنه أبو القاسم عليّ، ودُفِن بباب حرب عند أبيه بالقرب من الإمام أحمد، وكان يومًا مشهودًا، غُلِّقت فيه الأسواق، وقدمت الجموع من أرجاء بغداد، حتى أفطر جماعة من الناس لشدة الحر وكثرة الزحام، فرحمة الله على أبي الفرج ما تعاقب المَلَوان.

وهنا أُقرّر أنّي ـ على عادتي في كتابة التراجم ـ لم أكتب هذه الترجمة إلا بعدما جمعتُها من مظانّها، وطبعتُها، وقرأتُها ثلاثَ مرات قبل البدء، مُستصحِبًا في كل مرة قلمي، أجمع النظير على النظير، وأضع العناوين الجانبية، وأدوِّن الملاحظات، حتى اختمرت في ذهني ثم كتبتُها وأنا مُتشبِّعٌ بالرجل، مُتيَّمٌ به، حزينٌ على وفاته، كأنّه مات البارحة، فعليه رحمات الله تترى إلى يوم الدين.



التعريف بالكتاب

فكرة الكتاب وبواعث تأليفه:

سلك ابن الجوزي في كتابه سبيلًا فريدًا في تأليف مادته الوعظية، هو أقرب إلى ما يكتبه الكُتّاب اليوم - على ما عندهم من خصوصية المادة - من كتب اليوميات والمذكِّرات والكُنّاشات، فكثيرًا ما يرد على خاطر المرء منا فكرة تلمع في ذهنه كالبرق الخاطف، إن كان من أهل اليقظة اهتبلَها فكتبها في الحال، وإلا ندَّت عن ذهنه، وليس إلى الوصول إليها سبيل، إلا بوحي أو تنزيل، كمَثل الحلم الذي يراه النائم حال استطراحته في ثوانٍ معدودة ويُخيَّل إليه أنه قضى فيه ساعات، فإن هو حكاه فور استيقاظه كان بها ونعمت، وإلا كانت الأخرى فتبخَّر.

وهذا الذي تفتَّق عنه ذهنُ ابن الجوزي، وكان من أذكياء العالم، فكلما خطر له خاطر فزع إلى تدوينه، وقد صرَّح بهذا في خطبة كتابه مُبِينًا عن بواعث تأليفه: «لمّا كانتِ الخواطِرُ تجولُ في تصفُّحِ أشياءَ تعرِضُ لها ثُمّ تُعرِضُ عنها فتَذهَب، كان مِن أولى الأمورِ حِفظُ ما يخطُر؛ لكيلا يُنسى. وقد قال عليه الصلاة والسلام: «قَيِّدوا العِلمَ بالكِتاب». وكم قد خَطَر لي شيءٌ فأتشاغلُ عن إثباتِه، فيذهبُ، فأتأسَّفُ عليه، ورأيتُ مِن نفسي أنّني كُلّما فتحتُ بصرَ التفكُّرِ سنحَ لي مِن عجائبِ الغيبِ ما لم يكُن في حِسابِه، فانثال عليهِ مِن كثيبِ التفهيمِ ما لا يجوزُ التفريطُ فيه، فجعلتُ هذا الكِتابَ قيدًا لـ: صيدِ الخاطِر».

مادة الكتاب:

جاءت مادة الكتاب متنوعة بين العلوم الشرعية من عقيدة وتفسير وحديث وفقه ووعظ ومن دونها علوم أخرى، لكن المتأمّل في جمهور معلومات الكتاب يمكنه أن يحصر مادته في كلمتين: «إصلاح الدنيا بالدين»، وقد نصح ابن الجوزي ابنه عليًّا في نهاية كتابه «لفتة الكبد» بقوله[1]: «تلمَّح كتاب (صيد الخاطر) فإنك تقع بواقعات تُصلح لك أمرَ دينك ودنياك».

هذا عنوان عام لمادة الكتاب، وأما عند التفصيل فإن مادة الكتاب تندرج تحت ستة موضوعات رئيسة هي:

- العقيدة في الله والرد على المبتدعة.
- حفظ الضروريات الخمس: الدين والنفس والمال والنسل والعقل.
- أعمال القلوب.
- أدب العالم والمتعلِّم.
- مدرسة الحياة وأدب التعامل مع الناس.
- الوعظ والإرشاد النفسي والسلوكي.

ونظرًا لطبيعة مادة الكتاب القائمة على تدوين الخواطر على مُدَد زمنية طويلة، فإن بعض هذه الخواطر يكون فيه نوع تكرار، وقد أشار ابن الجوزي نفسه إلى هذا بقوله في الخاطرة رقم **٤٢٩**: «**قد كرَّرتُ هذا المعنى في هذا الكتاب**، وهو الأمرُ بحفظِ السرِّ والحذرُ من الانبساطِ فيما لا يصلحُ بين يدَيِ الناس». وكذا ما ورد في الخاطرة رقم **٢٥١**: «من لاحظَ العواقِب ملاحظةً قويّةً لم يَصْفُ له عيشٌ أصلًا، على

---

(١) لفتة الكبد (ص٥٩).

ما سبق ذكرُه في مواضع، فلا بُدَّ مِن نوعِ تغطيةٍ على النفس، بمقدارِ ما يطيبُ العيش».

مصادر الكتاب :

يختلف كتابنا في طبيعة مصادره عن غيره من كتب المكتبة العربية قاطبة في تلكم الحقبة الزمنية الباكرة، ذلك أن جمهور معلومات الكتاب قائم على التقاط الخواطر والوقائع والحوادث وتسجيلها، وقد كان ابن الجوزي صاحب خبرات واسعة فيما يتعلق بشؤون العامة من الناس، فقد عاش حياتَه سوادَها وبياضَها في دعوة الخلق، وكم عرضت له من وقائع مهمة تستحقُّ التأريخ حتى قال عنه ابن كثير: «فلم يزل يُؤرِّخْ أخبار العالم حتى صار هو تاريخًا»[1]!

ولا يعني هذا أن الكتاب خِلوٌ من النقولات عن المصادر، فقد صرَّح ابن الجوزي بالنقل عن بعض الكتب السابقة عليه مثل: «الاحتجاج للقُرّاء» لابن مِقسَم، و«التمهيد» لابن عبد البر، و«التوحيد» لابن خُزيمة، و«الشامل» في أصول الدين للجُويني، و«غريب الحديث» لابن قتيبة، و«قُوت القلوب» لأبي طالب المكّي، و«المدخل إلى كتاب الإكليل» للحاكم، و«المستظهري» لأبي حامد الغزالي، و«المُشكل» لابن الأنباري، كما أنه نقل عن كتبه الأخرى كما هو ظاهر في فهرس الكتب.

هذا، وقد صرَّح بالتحديث المباشر عن شيوخه مثل[2]: عبد الوهاب بن المبارك الأنماطي، ومحمد بن عبد الباقي البغدادي، وأبي حكيم إبراهيم بن دينار النهرواني، وموهوب بن أحمد الجواليقي، وعبد الرحمن بن محمد القزّاز، ويحيى ابن هُبيرة الذُّهلي، وأحمد بن الحسن البنّاء، وهبة الله بن محمد الحصين، وأحمد

---

(١) البداية والنهاية (١٦: ٧٠٧).

(٢) انظر للتوسع: المدخل إلى كتاب صيد الخاطر للدكتور أحمد بن مسفر العتيبي (ص١٦٠) وما بعدها.

الحربي، ويحيى بن نزار، وأبي الفضل محمد بن ناصر السَّلَامِيّ، وأبي الحسن البراندسي، وعلي بن عبيد الله بن الزاغوني.

تحقيق عنوان الكتاب ونسبته إلى مؤلفه:

صرَّح ابن الجوزي نفسه باسم كتابه في مقدمته وخاتمته، ففي المقدمة: «ورأيتُ مِن نفسي أنّني كُلّما فتحتُ بصرَ التفكُّرِ سنحَ لي مِن عجائبِ الغيبِ ما لم يكُن في حِسابِه، فانثال عليهِ مِن كثيبِ التفهيمِ ما لا يجوزُ التفريطُ فيه، فجعلتُ هذا الكِتابَ قيدًا لـ: **صيدِ الخاطِر**»، وفي خاتمته: «بحمدِ الله تعالى قد نجزَ ما توخّاه الفِكرُ الفاتِر، مِن تقييدِ ما جمعهُ القلمُ مِن **صيدِ الخاطِر**، مُقتصِرًا فيهِ على ما به التخلّي من الأمراض النفسيّة، والتحلّي بالآداب الشرعيّة، والأخلاقِ المَرضيّة، جعله الله تعالى خيرَ هادٍ على مِنبرِ الوعظِ والإرشاد، وأنفعَ كِتابٍ تجلّى في مرايا الظهور لهداية العباد، والحمد لله أوّلًا وآخرًا، وصلّى الله على سيدنا محمدٍ وعلى آلِه وصحبِه وسلَّم».

وأجمعتْ طُرُر ثماني نسخ خطية هي (د، س، ر، ك، ق، م، ف، ل) على هذا العنوان أيضًا، ولم يشذَّ إلا طُرَّة النسخة (ح) ففيها «صيد الخواطر» كذا بالجمع! وبقية النسخ الخطية ما بين نسخة لا طُرَّةَ لها أو نسخة مبتورة الأول.

كما نصَّ ابن الجوزي في كتابه[1] على عدد من كتبه الأخرى منها: «الأذكياء»، و«تلبيس إبليس»، و«ذم الهوى»، و«صفة الصفوة»، و«لقط المنافع»، و«المُنتظَم في تاريخ الملوك والأمم»، و«مناقب سفيان الثوري»، و«مناقب أحمد بن حنبل»، و«مناقب الحسن البصري».

---

(١) انظر الفصول: ٣١، ٥٣، ٦٣، ٧١، ١٧٣، ٢٠٢، ٣١٣، ٣٧٦، ٤٣٧، ٤٤١، ٤٧٩.

هـذا مع العلـم أن غالب من ترجم لابن الجوزي ذكـر الكتاب ضمن مصنفاته مثل سبط ابن الجوزي، والذهبي، وابن رجب الحنبلي، والداوودي، وغيرهم[١].

وقـد صرَّح بالنقل عن «صيـد الخاطر» الإمـامُ ابن مفلح في عـدة مواضع من كتابه «الآداب الشرعية الكبرى»[٢]، وكذا نقل عنه السفاريني في «غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب»[٣].

نسبة الزيادة إلى المؤلف :

الظاهر أن ابن الجوزي كان يسـجِّل خواطره في أوقات متباعدة ولم يكتبه مرة واحـدة، وطُبِـع الكتاب عدة طبعات ناقصة، وقد طُبِـع الكتاب أول مرة بهذه الزيادة فـي دار مدار الوطن بتحقيق الشـيخ الفاضل طارق عوض الله، وهذه الطبعة وقعت فيها زيادتان؛ إحداهما الكبرى، والأخرى الصغرى، كذا سميتُهما.

الأولى: الزيادة الكبرى

وهـي فـي طبعتنا تبدأ من الفصل رقم ١٧١ حتى نهايـة الفصل ٢٩٩؛ أي: إنها ١٢٨ فصلًا، والأدلة على نسبة هذه الزيادة إلى المؤلف كثيرة، منها:

الأول: أنها وقعت في ثلاث نسخ خطية هي (ف، ق، ر).

الثاني: أن ابن الجوزي تكلَّم عن سـيرته الشـخصية فيها، ومن ذلك ما وقع في الخاطرة رقم ٢٨٦، التي ذكر فيها طرفًا من طفولته ونشـأته وتلمذته على الشـيوخ،

---

(١) انظـر: مرآة الزمان لسـبط ابن الجوزي (٢٢: ٩٨)، وسـير أعلام النبـلاء (٢١: ٣٦٩)، والذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب الحنبلي (٢: ٤٩٤)، وطبقات المفسرين للداوودي (١: ٢٧٧).

(٢) انظر: (٢: ١٢٣، ١٣٨، ١٤٩، ٢١٧، و٣: ١٩٠).

(٣) انظر: (٢: ٢٢٥، ٢٨٠، ٣٩٠، ٤٠٦، ٤٣٩، ٤٤٧، ٥٣٦، ٥٥٢، ٥٦١).

ومن ذلك قوله: «تُوفِّي أبي ولي من العمرِ نحوُ سنتَين أو حولها، فلطَفَ الله سبحانه بي في التربية، ورزَقني عُلُوَّ الهِمّةِ في الطفولة، فكنتُ في المَكتَبِ وأنا قرينُ الصِّبيان، وهو المُتقدِّم عليهم، وكنتُ أتوقُ إلى مجالسِ الوُعّاظِ وأحبُّها من ذلك الزمان، وأحضُرُ وأكتُبُ ما يقولون، واتَّفقَ أنّ شيخَنا أبا الفضلِ بنَ ناصرٍ كان صديقًا لعمِّي، فكان يحملُني إلى المشايخ، ويُسمِعُني عواليَ الحديث، ويُثبِتُ ذلك لي».

الثالث: الخاطرة رقم ١٧٣ التي عنونتُ لها بـ«مناقب بغداد وتغيُّر الزمان»، وعُظمُ هذه الخاطرة حكاه المصنِّفُ نفسُه عن كتابه «مناقب بغداد»، واشتراك هذه الخاطرة بين الكتابين للمصنِّف نفسِه مما يُستدَلُّ به على صحة نسبة هذه الزيادة إليه.

الرابع: ذكره لبعض كتبه مثل كتاب «صفة الصفوة» بقوله في الخاطرة رقم ١٧٣: «وهذه الأشياءُ يطُولُ ذِكرُها ويكثُر، وقد كان ببغدادَ من العُلماءِ والزُّهّادِ مَن يطولُ الإخبارُ عن أحوالِه، وقد أشرتُ إلى ذِكرِ ساداتِهم في كتابي المُسمّى بـ: صفوة الصفوة»(١).

ويقول أيضًا في الخاطرة رقم ٢٠٢: «فأما كونُ الباءةِ الكثيرِ سريعَ الإهلاك، فإنّه يَهُدُّ القُوى الأصلية، ويُحِلُّ الحرارةَ الغريزية، وله مضارٌّ كثيرةٌ قد ذكرتُها في كِتابي المُسمّى بـ: لقطِ المنافِعِ في الطبِّ».

الخامس: في الخاطرة رقم ٢٨٤ ما يدلُّ على أن ابن الجوزي كان يُملي بعض خواطره على ابنه عليٍّ، وهذا نص كلامه: «حكى لي أبي - مُملِي هذا الكتابِ - قال لي: يا بُنيّ، كنتُ أنا وجماعةٌ من العلماء مثلَ ابنِ الخشّابِ وابنِ لبيدةَ وابنِ شافعٍ وجماعة، كلُّ مَن عثرَ به الوزيرُ يحيى بنُ هُبيرةَ، لمّا كان يُملي كتابَ «الإفصاح في معاني الصحاح» يُملي عليه ما يقعُ له خاطرٌ أو مُطالَعة، فأملى يومًا عليَّ واقعةً قد

(١) كذا في النسخ، يقصد: صفة الصفوة.

وقعَت لي في معنى حديث، فقلتُ له: هذا الواقعُ خطأ، فقال: لا، بل هو عينُ الصواب. فقلتُ له: لا أكتبُه! فقال لي: اكتُبْ ما أُملي عليكَ، فقلتُ: هذا خطأٌ وألححتُ عليه، فقال: من أين أخذتَ هذا؟ فقلتُ: من كتابِ فلانٍ وفلان، فأخذَ الكتب، ونظرَ ما قلتُ، وإذا به هو الصحيحُ لا ما وقعَ له، فقال: صدقتَ، اكتُبِ الآن ما قلتَ، فهو الصواب. قال أبي: فكتبتُه له كما قلتُ. وكان جماعةٌ قد انتُدِبوا لحفظِ كتابِ الوزير، وجعلَ له على ذلك أخبازًا ومُشاهَراتٍ، فبينا أنا ليلةً جالسٌ بحضرة الوزير، وإذا بواحدٍ يقرأُ من حفظِه صورةَ ما كنتُ رددتُه على الوزير، فلمّا أنهى ذلك قال الوزير: يا سادة، هذا كلامُ ابنِ الجوزيّ، فإنّه وقعَ لي كذا وكذا، فقلتُ له: علِّقْه في كتابي، فقال لي: هذا خطأ، فبانَ لي صحةُ قوله، فذهبتُ إليه، وليس هذا من كلامي ولا شرحي، هذا كلام الشيخِ أبي الفرج. قال أبي: فاستحييتُ من ذلك، فلمّا خلوتُ بالوزير قلتُ له: يا مولانا، قلتَ كذا وكذا، فقال: كذبتَ، ما قلتُ كذا، فأوصيتَني فيه وقلتَه، فكان الصحيحُ معك. كتبه عليُّ بنُ الجوزيِّ عن أبيه رضي الله عنهما».

السادس: ذكر ابن الجوزي بعض شيوخه مثل ابن الزاغوني في الخاطرة رقم ١٧٣ فقال: «ورأيتُ بخطِّ شيخِنا أبي الحسنِ بنِ الزاغُونيّ، قال: حدَّثنا غيرُ واحِدٍ أنّهم أحصَوا أضواءَ المُبكِّرين إلى الجامعِ يومَ الجمعة، ينتظرون صلاةَ الجمعة، فعُدُّوا نحوًا من أربعِمئةِ ضوءٍ».

الثانية: الزيادة الصغرى

لم تُطبَع هذه الزيادة إلا في طبعة مدار الوطن، وقد وقعت بين الصفحتين ٥٤٣ و٥٥٨، ومطلعها: «من تفكَّر لأي معنى خُلِق، ولأي مقصد وُجِّه، أيقن أنه في دار رحلة، فجمع للسفر رحله...»، وخُتِمت بـ: «فقلتُ: قولوا لهذا الأحمق الجاهل: إذا رميتَ نطفتك في مستقرِّها، فقال قائل: هذه النطفة الماء تصير آدميًا

عالِمًا ظريفًا حسن الصورة مدبِّرًا حكيمًا يأكل ويشرب، ويحتال على طير السماء وحُوت الأرض؛ أتُراك تصدِّقه أو تكذِّبه؟! والله ما يمكن تكذيبه؛ لأنك».

وهذه قطعة من مخطوطة مبتورة الأول والآخر كما هو ظاهر من النص السابق، والراجح أن هذه الزيادة ليست صحيحة النسبة إلى ابن الجوزي لأدلة، منها:

الأول: أن هذه الزيادة لم ترد في أي نسخة من الأصول المعتمدة الثلاثة عشر التي اعتمدنا عليها، وإنما جاءت في قطعة مستقلة في ثلاث لوحات فقط ضمن مجموع بمكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض تحت الرقم **٤٣٥١**، فمن البعيد أن تستقل قطعة متأخرة بلا أي بيانات ضمن مجموع، مبتورة الأول والآخر، بنص عن المؤلف دون سائر النسخ الخطية!

والثاني: أن هذه القطعة يبدو أنها من اختصار أحد المؤلفين لبعض الخواطر من كتاب «صيد الخاطر»، فقد جاء على طُرَّتها بقلم مغاير: «كلام مفيد جدًّا للإمام عبد الرحمن بن الجوزي ـ رحمه الله تعالى ـ **مختصر من صيد الخاطر**»، والظاهر من خطها أنها منسوخة في وقت متأخِّر جدًّا عن زمن المؤلف بل عن غالب النسخ الخطية المعتمدة في تحقيق الكتاب.

والثالث: أن أسلوب الكاتب وإن كان في الظاهر قريبًا من أسلوب ابن الجوزي، لكنه عند التأمُّل بعيد عنه، فابن الجوزي غالبًا ما كان يختم خواطره بجملة توجز ما تقدم في الخاطرة، ثم ينهيها بدعاء.

والرابع: أنه ورد في هذه الزيادة أثرانِ تكرَّر ذكرهما في كتابنا عدة مرات بألفاظ متقاربة، غير أنهما وردا في الزيادة مختلفَين عما أعاد ابن الجوزي ذكرهما مرات من محفوظه: **أولهما**: قوله ﷺ ـ في الخواطر **٢٠، ٢٨٣، ٣٦٨** من طبعتنا ـ عن أرواح المؤمنين إنها: «في حواصل **طير تَعلُقُ** من شجر الجنة»، بإفراد لفظ «طير»،



والفعل «تَعلُقُ»، غير أنه ورد في الزيادة - ص٥٥٣ من طبعة مدار الوطن - هكذا: «في حواصل **طيور خُضر تأكل** من شجر الجنة»، بالجمع والفعل «تأكل». **والأثر الثاني**: أن النبي ﷺ سابقَ عائشة رضي الله عنها، فقد أورده ابن الجوزي خمسَ مرات هكذا مجرَّدًا في الخواطر ٩٦، ١٠٧، ٢٠٧، ٣٢٨، ٤٨٩ من طبعتنا، غير أنه في الزيادة - ص٥٤٧ من طبعة مدار الوطن - ورد هكذا: «وقد سابق عائشة رضي الله عنها في البرِّيَّة على قدميه مرتين».

ترتيب الكتاب:

استقرَّت الطبعات السابقة جميعًا على ترتيب واحد للكتاب عدا ما وقع في طبعتَي: ابن كثير ومدار الوطن؛ فقد استقلّتا بطبع الزيادة الكبرى، التي وقعت في ثلاث نسخ خطية فقط هي (ف، ق، ر)، فقسَّمَت طبعة ابن كثير الكتابَ ثلاثةَ أقسام: الأول ما أجمعت عليه خمس نسخ خطية، والثاني ما انفردت به نسختان، والثالث - وهو الذي يُمثِّل الزيادة الكبرى - ما انفردت به ثلاث نسخ. فوقعت الزيادة الكبرى بِناءً على هذا التقسيم في نهاية الكتاب.

هذا بخلاف ما وقع في طبعة مدار الوطن التي تبعت ترتيب النسخ الثلاث التي استقلَّت بالزيادة، ثم استكملت النص من بقية النسخ الأخرى.

وقد آثرتُ موافقة ترتيب النسخ الخطية، وأثبتُّ الزيادة حيث وُضعت منها، ولم أتكلَّف نقلها لنهاية الكتاب.

زمن تأليف الكتاب:

وقعت عدة إشارات في كلام المؤلف، منها نستدلُّ على زمن تأليف الكتاب على وجه التقريب:

الأولى في الخاطرة رقم ١٣٨ يقول فيها: «وكان هذا في **سنةِ إحدى وستين وخمسِمئة**، فلمّا دخلتْ **سنةُ خمسٍ وستين [أي: سنة ٥٦٥هـ]** عُوِّضتُ خيرًا من ذلك بما لا يَتقارَبُ مِمّا لا يمنعُ مِنهُ ورعٌ ولا غيرُه».

والثانية في الخاطرة رقم ١٦٧ يقول فيها كأنه يختم حياته وينعَى نفسه: «ولقد تاب على يديَّ في مجالسِ الذِّكرِ أكثرُ من مئتَي ألفٍ، وأسلمَ على يديَّ أكثرُ من مئتَي نفسٍ، وكم سالَت عينُ مُتجبِّرٍ بوعظي لم تكُن تسيل، **ويحِقُّ لمَن تلمَّحَ هذا الإنعامَ أن يرجُوَ التمام**، ورُبّما لاحَت أسبابُ الخوفِ بنظري إلى تقصيري وزَللي».

والثالثة في الخاطرة رقم ٣٠١ يقول فيها: «اشتدَّ الغلاءُ ببغداد **في أوّلِ سنةِ خمسٍ وسبعين [أي: سنة ٥٧٥هـ]**، وكُلَّما جاء الشعيرُ زاد».

والرابعة في الخاطرة رقم ٣٠٦ يقول فيها: «وقد سألتُه [أي: الله سبحانه وتعالى] هذا السُّؤالَ **في ربيعِ الآخرِ مِن سنةِ خمسٍ وسبعين [أي: سنة ٥٧٥هـ]**، **فإن مُدَّ لي أجلٌ**، وبلغتُ ما أَمَّلتُه، **نقلتُ هذا الفصلَ إلى ما بعدُ وبيَّضتُه**، وأخبرتُ ببلوغ آمالي، وإن لم يتَّفقْ ذلك، فسيِّدي أعلمُ بالمصالِح، فإنّه لا يمنعُ بُخلًا، ولا حولَ إلا به».

والخامسة في الخاطرة رقم ٤٨٣ يقول فيها: «اللهمَّ توبةً خالِصةً مِن هذه الأقذار، ونهضةً صادقةً لتصفيةِ ما بقيَ مِن الأكدار، **وقد جِئتُكَ بعد الخمسين** وأنا مِن خَلَقِ المَتاع».

أمر آخر ذلك أن ابن الجوزي ذكر بعضًا من كتبه في كتابنا هذا، وفي هذا أيضًا إشارة إلى تأخُّر كتابنا عن غيره، خاصة أن طبيعة كتب الخواطر واليوميات أنها تُكتَب على فترات زمنية متباعدة، كلما عنَّ له خاطرة دوَّنها.

ينحلُّ من هذا كله أن ابن الجوزي لم يُكمل كتابه حتى سنة ٥٧٥هـ، وهو آخر تاريخ وقع في كتابه يُستدَلُّ به على زمن تأليفه، وكان له من العمر وقتئذٍ ٦٥ سنة، ومن الموضعين الثاني والرابع يُستدَلُّ على أن الرجل ظل يزيد في كتابه دون تبييض حتى أشرف على الرحيل.

المختصرات والتهذيبات على الكتاب[1]:

- أعذب الخواطر مختصر صيد الخاطر، لمحمد بن صالح فرحان، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ.

- بهجة الناظر المنتخب من صيد الخاطر، لمحمد بن علي بن سلوم (ت١٢٤٦هـ)، قيد الطبع.

- الترتيب الزاهر لكتاب صيد الخاطر، لحسين بن محمود الصادق، دار الكتب العلمية.

- جوزيات خواطر من صيد الخاطر، لتركي الميمان، دار الحضارة، الطبعة الأولى، ٢٠٢١م.

- الزهر العاطر بتلخيص صيد الخاطر، لأبي بكر محمد بن عمر الأحسائي الحنفي (ت١٢٧٠هـ).

- مختصر صيد الخاطر، للدكتور أحمد بن عثمان المزيد، مدار الوطن للنشر.

- المدخل إلى كتاب صيد الخاطر، للدكتور أحمد بن مسفر العتيبي، دار اللؤلؤة، الطبعة الأولى، ٢٠٢٠م.

---

(١) انظر: صيد الخاطر بتحقيق أنس تدمري (ص٢٢).

ـ المواعظ من كتاب صيد الخاطر، جمع وترتيب وليد مراد، دار الكتب العلمية.

ـ النفح العاطر من صيد الخاطر فيما يخص المتعلم والعالم، انتقاء وترتيب محمد بركات، دار اللباب، الطبعة الأولى، ٢٠١٦م.

أشهر الطبعات السابقة[١]:

طُبع الكتاب طبعات كثيرة، وأغلب طبعاته لم تعتمد على نسخ خطية، وأحسن أحوالها الاعتماد على نسخة واحدة، ولن ننشغل بالتعليق على كل طبعة، وإنما نسرد المشهور منها فقط:

ـ طبعة دار المنارة بسوريا، تحقيق ناجي الطنطاوي.

ـ طبعة دار نهضة مصر، تحقيق الشيخ محمد الغزالي.

ـ طبعة دار الباز بمكة، تحقيق سيد زكريا.

ـ طبعة دار الفكر بسوريا، تحقيق أسامة محمد السيد.

ـ طبعة الصميعي، تحقيق صالح الونيان.

ـ طبعة دار الأرقم بلبنان.

ـ طبعة دار اليقين بمصر، تحقيق الدكتور عبد الرحمن البر.

ـ طبعة دار ابن رجب بمصر، تحقيق مصطفى العدوي ومحمد العلاوي.

ـ طبعة دار الحديث بالقاهرة، تحقيق السيد محمد سيد.

ـ طبعة دار القلم بسوريا، تحقيق حسن السماحي سويدان.

---

(١) انظر: المدخل إلى كتاب صيد الخاطر للدكتور العتيبي (ص١٠٥، ١٠٦).

ـ طبعة دار اليمامة بسوريا، تحقيق يوسف بديوي.

ـ طبعة دار الرشد بالرياض، تحقيق رمزي السعدي.

ـ طبعة المكتب الإسلامي، تحقيق محمد الأصفر.

ـ طبعة دار ابن حزم.

ـ طبعة دار البيان، تحقيق بشير محمد عيون.

ـ طبعة دار الفكر ببيروت.

ـ طبعة دار الإفهام بالرياض، تحقيق الدكتور محمد بن حمد المنيع.

ـ طبعة مؤسسة الكتب الثقافية، تهذيب وتعليق الشيخ أسامة محمد السيد.

ـ طبعة دار الكتب العلمية، تحقيق عبد القادر أحمد عطا.

ـ طبعة دار الفاروق، تحقيق محمد عبد اللطيف محمد الجمل.

ـ طبعة دار الفجر، تحقيق الدكتور حامد أحمد الطاهر.

قراءة في أهم الطبعات السابقة :

ـ طبعة دار الخانجي:

ظـل كتابنـا حبيس مكتبـات المخطوطـات حتى قيَّـض الله له الكُتُبـيّ الفاضل محمد أمين الخانجي رحمة الله عليه، صاحب مكتبة الخانجي بمصر، سنة ١٩٢٧م، فأخـرج الكتاب مـن عالم المخطوطات إلـى عالم المطبوعـات محقَّقًا على ثلاث نسـخ خطيـة، كما يظهر من الحواشـي السـفلية في التعليق على النـص، وهي طبعة جيدة في نقل النص كما هو من المخطوط دون معارضة بالنسخ الخطية أو تعليقات إلا لمامًا كما هي عادة الطبعات الحجرية.

ـ طبعة دار ابن خزيمة:

صدرت أول مرة عام ١٩٩٧م بتحقيق الشيخ عامر ياسين، وتُعَدّ هذه الطبعة أمثلَ طبعات الكتاب من حيث الضبط بالشكل والتعليق على النص، أما من حيث النص المحقَّق فهي طبعة تجارية هدمَ أركانَها محقِّقها بعدم اعتماده على النسخ الخطية، وقد صرَّح هو نفسه بذلك في مقدمة طبعته بقوله[1]: «كان متن الكتاب موضع عنايتي ومحطَّ نظري، فعملت على إخراجه بصورة حسنة، **واعتمدت لهذا الغرض على أربع نسخ مطبوعة من الكتاب، ذكر أصحابها جميعًا أنهم استفادوا من نسخة مخطوطة للكتاب!** لكن ما ذكر أحد منهم شيئًا عن محلِّ المخطوطة ولا رقمها ولا صفتها ولا عنوانها!! ولا نقل أحد منهم صورة لها!! فاخترتُ اثنتين من هذه النسخ وجعلتهما أساسًا، وأما الأخريين [كذا] فاستئناسًا. ومع هذا؛ **فقد بقيت في المتن فجوات قوية، ومواضع ضعف وركاكة، وأخطاء كثيرة جدًّا في أسماء الرجال والأسانيد أطبقَتْ عليها المطبوعات كلها**؛ مما يوحي بسوء الأصل الخطي، أو سوء قراءته، أو اعتماد اللاحق من المطبوعات على السابق، أو اعتمادها جميعًا على مطبوع قديم... والمهم أنني اعتمدت في إصلاح هذه الفجوات على مصادر التحقيق ومراجع ابن الجوزي وكتب الرجال، وإلا؛ **فأعملتُ الفكر والخيال وسجَّلتُ ما ترجَّح عندي صوابه أو أضفتُ ما يتمِّمُ النقص وأشرتُ إلى ذلك في الحاشية**»!

فإذا كان المحقق الكريم يعيب على أصحاب هذه الطبعات أنهم لم ينصُّوا على بيانات المخطوطة التي اعتمدوها، فكيف به لم يذكر بيانات الطبعات التي اعتمدها هو نفسه؟!

---

(١) (ص٥).

ـ **طبعة مدار الوطن:**

صدرت هذه الطبعة أول مرة بتحقيق فضيلة الشيخ أبي معاذ طارق بن عوض الله، سنة ٢٠١٦م، وكانت أكبر حسناتها أنها أخرجت لنا الزيادة الكبرى من عالم المخطوطات إلى عالم المطبوعات، وقد قابلها المحقق ـ حفظه الله ـ على ست نسخ خطية، وصَّفها توصيفًا موجزًا، فلم يُعنَ بذكر البيانات الأساسية وأهمُّها رقم كل نسخة، ثم إنه لم يُلزِم نفسه ذِكرَ فروق النسخ بحجة أنه كتاب وعظي، ولا داعي لشغل القارئ بأخطاء النُّسّاخ!

ولست هنا بصدد تتبُّع أخطاء هذه الطبعة، وإنما بالمثال يتضح المقال، ولنا معها بعض النظرات:

الأولى: أن المتأمِّل لهذه الطبعة بنظرة عامة يلمح أنها لم تعتنِ بالنص المحقَّق العناية اللازمة، فكثيرًا ما يمر بك ـ أخي القارئ ـ كلمات غير مقروءة في النص، ومكانها في المتن نقاط محصورة بمعقوفين، مع التعليق في الحاشية السفلية أنها كلمة مشتبهة، ودونك الصفحة رقم ٥٠٢ بها خمس كلمات غير مقروءة، فأين اجتهاد المحقق في قراءة النص؟!

الثانية: أن هذه الطبعة هي الطبعة الوحيدة التي نسبت الزيادة الصغرى التي تقدَّم الكلام عنها إلى المصنِّف، ولم تُدلِّل الدراسة على صحة نسبة هذه الزيادة إليه، بل لم تتعرض لنسبة الزيادة الكبرى، ولا نسبة الكتاب كله.

الثالثة: أن الناظر في الحواشي السفلية لهذه الطبعة لا يستوقفه غالبًا إلا تخريج الأحاديث ـ وإن فات بعضها ـ على حساب خدمة النص من شرح لغريب الألفاظ وتوثيق للنقولات وغيره من واجبات المحقِّق.

الرابعة: أن الأخطاء الواقعة في ضبط النص بالشكل فوق الحصر؛ لذا لن ننشغل بها، وما كان من أخطاء تفصيلية سنعرض بعضها مع أخطاء طبعة ابن كثير.

ـ طبعة دار ابن كثير:

صدرت سنة **٢٠٢٣**م، بتحقيق الأستاذ أنس بن محمد تدمري، ومراجعة وتقديم الأستاذ الدكتور أيمن عبد الرزّاق الشوّا، واعتمد المحقق في تحقيق النص على خمس نسخ خطية، وقدم لها بدراسة مختصرة، وعلَّق عليها تعليقات مقتضبة إلا قليلًا، وختمها بخمسة فهارس فنية، ولم يتكلم عن منهج التحقيق، ولم يجمع فهرس المصادر، وتُعَدُّ هذه الطبعة أحدث طبعات الكتاب، وكانت الآمال معقودة عليها في خدمة النص واستدراك ما فات الطبعات السابقة، ولذا فلنا معها وقفة نستعرض فيها ما وقع من أخطاء في النص المحقَّق فقط، متجاوزين عما وقع فيما سواه.

وهذه الأخطاء على ضربين:

الأول: الأخطاء المنهجية

ومن هذه الأخطاء أن المحقِّق أفسد في بعض المواطن أسلوب المؤلف بإقحامه صيغ الصلاة على الأنبياء وصيغ الترضِّي والترحُّم دون اعتماد على النسخ الخطية ولا منهجية علمية، اللهم إلا ما يُشاع بين المحقِّقين من أن الجُمل الدعائية لا يُتقيَّد فيها بنص المخطوط، وإنما يُتسامَح فيها، ففُهِم من ذلك أن الأمر متروك لحرية المحقِّق!

وهذه مسألة توسَّع فيها بعض المحقِّقين حتى أفسدوا نصوص المتقدِّمين، فما رأيك - أيها القارئ الكريم - إن تكرَّر اسم سيدنا نوح عليه السلام في فقرة واحدة خمس مرات: هل يجوز للمحقق أن يُقحم الصلاة عليه في كل مرة؟

فإن قلتَ: نعم، فقد أفسد المحقِّقُ أسلوبَ المؤلف بهذا التكرار الممجوج، وهذا الذي صنعه بعض محقِّقي «صيد الخاطر» لابن الجوزي؛ إذ أفسدوا أسلوب الرجل البليغ بتكرار الجُمل الدعائية بلا مسوِّغ، وبإقحام ما ليس من النص فيه، وإن قلتَ: يذكره أولَ مرة، فقد صار الأمر بلا ضابط: أهي أول مرة في الفقرة أم في الصفحة أم في الكتاب كله؟! وهنا يجب في الجُملة أن يلتزم المحقِّقُ المخطوطاتِ التي بين يدَيه في مسألة الجمل الدعائية ولا يعدوها، من باب تأدية الأمانة كما هي، خاصة إذا كانت النسخ الخطية المعتمدة نسخًا عالية نفيسة، وتبيَّن له من لغة المؤلف التي عايشها أن هذه الجمل مقحمة على كلامه من قِبل النُّسّاخ[1].

وهنا أختار مثالًا واحدًا مما وقع في هذه الطبعة في الخاطرة رقم ٢٩٢، وصيغ الصلاة فيها كاملة مقحمة من المحقق: «هذا آدمُ ﷺ طاب عيشُه في الجنّةِ وأُخرِج منها، ونوحٌ ﷺ سأل في ابنِهِ فلم يُعطَ مُرادَه، والخليلُ ﷺ يُبتلى بالنار، وإسحاقُ ﷺ بالذبح، ويعقُوبُ ﷺ بفقدِ الولد، ويُوسُفُ ﷺ بمُجاهدةِ الهوى، وأيوبُ ﷺ بالبلاء، وداودُ وسليمانُ عليهما الصلاة والسلام بالفتنة، وجميعُ الأنبياءِ على هذا»!

وهاك مثالًا آخر مما أقحمه المحقق في نص المؤلف، ولم يعتمد فيه على النسخ الخطية، وإنما اعتمد على أن نص «صيد الخاطر» جاء في كتاب «المنتظَم» للمصنِّف نفسه بصورة أوسع، فنقل الزيادات التي وقعت في «المنتظم» إلى «صيد الخاطر» على الرغم من أن سياق الكلام مستقيم بغير هذه الزيادات، ودونك نصًّا

---

(١) انظر: تحقيق المخطوطات بين الواقع والنهج الأمثل لعبد الله عسيلان (ص١٦٢).

واحدًا فقط من الخاطرة رقم ٤٠٤، على أن الخاطرة كلها تصلح مثالًا على هذا الإقحام، والمحصور بمعقوفين هو المقحم: «فلمّا وجدَ رَوحَ الهواءِ اشتدَّ بهِ الوجع [والألم]، وأقبلَ يصيحُ [ويخور خوران الثور]، ويقول: رُدُّوني إلى التنُّور، فإنّي إن لم أُرَدَّ مِتُّ، فاجتمعَ نساؤُه وخواصُّه لمّا رأوا [ما به] مِن شدةِ الألمِ والوجعِ [وكثرة الصياح]، فرَجَوا أن يكونَ فَرَجُهُ في أن يُرَدَّ إلى التنُّور، فردُّوهُ [إلى التنور] فسكنَ صياحُه، وتفطَّرتِ النُّفّاخات [التي خرجت ببدنه وخمدت]، وبردَ [في جوفه التنور] فأُخرج، وقد احترقَ وصار أسودَ كالفحمة، فلم تمضِ ساعةٌ حتّى قضى».

الثاني: الأخطاء التفصيلية

لقد جمعتُ أشهر الأخطاء التي وقفتُ عليها في طبعتَي: مدار الوطن وابن كثير؛ لأنهما آخر الطبعات صدورًا، ولم أتكلَّف حصر هذه الأخطاء، وإنما تجاوزت عما وقع من أخطاء في الضبط، وكذا ما وقع من خلل في التعليق على النص، أو في مقدماته القبلية والبعدية، لتكون وقفتنا حصريًّا مع النص المحقَّق.

ثم انتقيتُ أهم هذه الأخطاء، وسلكتُها في ثلاثة جداول:

الجدول الأول: لما وقع من زيادات في النص المحقق، وليس لها أي مستند في النسخ الخطية، ويستقيم النص بدونها، وقسَّمتُ الجدول إلى أربع خانات: الأولى لرقم الصفحة من طبعة مدار الوطن، والثانية لرقم الخاطرة من طبعة ابن كثير، والثالثة لرقم الخاطرة من طبعتنا، والرابعة للجملة التي وقعت فيها الزيادة مع تمييز الزيادة بلون أحمر.

والجدول الثاني: لما وقع من سقط في النص المحقق، وقسَّمتُه كذلك إلى أربع خانات: الأولى لرقم الصفحة من طبعة مدار الوطن، والثانية لرقم الخاطرة

من طبعة ابن كثير، والثالثة لرقم الخاطرة من طبعتنا، والرابعة للجملة التي وقع فيها السقط مع تمييز السقط بلون أحمر.

والجدول الثالث: لما وقع من أخطاء أخرى متنوّعة، وقسّمتُه إلى خمس خانات: الأولى لرقم الصفحة من طبعة مدار الوطن، والثانية لرقم الخاطرة من طبعة ابن كثير، والثالثة لرقم الخاطرة من طبعتنا، والرابعة للجملة التي وقع فيها الخطأ مع تمييز الخطأ بلون أحمر، والخامسة لتصويب الخطأ.

وما تُرك من الخانة الأولى الخاصة بطبعة مدار الوطن فارغًا في كل الجداول فهو على الصواب، وما تُرك فارغًا من الخانة الثالثة الخاصة بطبعتنا فهو موافق في ترقيم الخواطر لطبعة ابن كثير.

أولًا: الزيادة

الصفحة في طبعة مدار الوطن	الخاطرة في طبعة ابن كثير	الخاطرة في طبعتنا	الجملة
٧٧	١٩		مع الإقدام على تضييع مالٍ لا يحِلُّ تضييعه.
	٢٣		ولهذا تستلذُّ الحرامَ ولا تكادُ تستطيبُ الحلال المُباح.
	٢٤		فإنّ الشيطانَ يرى أنّه لا يخلُو لي مجلس وعظ من خلقٍ لا يُحصَون.
	٢٥		ولهم الفضلُ الأكمل إذا أطرقُوا وانكسرُوا وعلِمُوا.
	٢٥		ويقول: إن الحسن أُستاذُنا.
	٢٨		تأمّلتُ في فوائد النكاحِ ومعانيه وموضُوعه.
٩٨	٢٩		كم أُعاقِبُكَ وأنت لا تدري.

الصفحة في طبعة مدار الوطن	الخاطرة في طبعة ابن كثير	الخاطرة في طبعتنا	الجملة
	٣٦		ورُبّما لو قال بعضُ الجُهّال.
	٣٧		ثُـمّ يُحذِّرُها عاجِـلَ العُقوبةِ الحِسّـية كقولِه تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾، والعقوبة المعنويّة كقولِه تعالى.
	٣٨		فمضى وأنكر المنكر، فزال المنكر.
	٤٩		سقاها دماء المارقين وعلها إذا جمعت يومًا وخيف أذاها
	٥٠		كتب ربكم على نفسه الرحمة.
	٥١		حتى بعث إلى المطعم بن عدي وهو مشرك.
	٥٢		ومَن تأمَّل أهدابَ العينِ والحاجِبَينِ وحُسنَ ترتيبِ الخِلقةِ علمَ أنّ الله تعالى زيَّنَ خلق الآدميّ.
	٦٠		حضرنـا عزاءَ رجُلٍ قد ماتَ لـه ولدٌ، فقرأ المُقرِئ: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾.
	٦٤		فرُبّما كان اعترافي بتقصيري أوفى. وبالله التوفيق.
	٨٨		﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.
٢٠٤	٨٩		فلولا هذا العزم ما كان لانبساطه يوم حلف.
٢١٣	٩٨		فهذا الحاصل له تذكيرًا، وما التفتَ قطُّ إلى تذكير.
٢٣٣	١١١		ونـرى أقوامًا يُوَسوَسُـون في الطهارةِ ويسـتعملُون الكثيرَ من الماء.
	١١٤		ثُـمّ قبـلَ شُـروعي فـي الجوابِ أقـول: ينبغـي لمَن يكون له أَنَفةٌ أن يأنفَ مِن التقصير.
٢٩٤	١٥٨		فبينمـا هـو قد دُعِـكَ في تلـك المُدَيـدةِ القريبةِ من الثلاثين.

الصفحة في طبعة مدار الوطن	الخاطرة في طبعة ابن كثير	الخاطرة في طبعتنا	الجملة
	١٧١	٣٠٠	فأبدانُ النشء - أي: الشباب - تغتذي بأكثرَ مِمّا يتحلَّلُ منها.
	١٩٧	٣٢٦	﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.
٥٩٦	١٩٧	٣٢٦	ولا يعترضُ على خالِقِه وموجده.
٦٠٠	٢٠٠	٣٢٩	وقد كان بشرٌ الحافي يجلِسُ في مجلس عِندَ العطّار.
	٢١٠	٣٣٩	فيحتاجُ إلى أن يُعرِّضَ بذكرِ ذلك.
	٢١٧	٣٤٦	ومثلُ قوله: «مَن وضعَ ثيابًا حِسانًا [تواضعًا لله عز وجل وابتغاء وجهه كان حقًّا على الله أن يدخر له عبقري الجنة في تخات الياقوت]».
٦٣٩	٢٢٧	٣٥٦	فتركُوا الحقَّ وقد عرَفُوه، فأُميةُ بنُ أبي الصّلت.
٦٥٠	٢٣٥	٣٦٤	إنما الحبُّ قُبلة وغمزُ كفٍّ وعضُد إنما العشقُ كذا ....
٦٥١	٢٣٦	٣٦٥	وليس لهذا الأملِ مُنتهًى ولا للاغترار حدّ.
	٢٣٧	٣٦٦	﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.
	٢٤٢	٣٧١	ثُمّ بعثها مرة ثالثةً وأمرها أن تُطيلَ القُعودَ عِنده وتُحدِّثَه.
	٢٤٣	٣٧٢	يشيبُ ابنُ آدمَ وتشِبُّ مِنهُ خَصلتان أو خلتان: الحرصُ وطول الأمل.
٦٧٥	٢٥١	٣٨٠	ورُبّما كان ما يتخايلُ لهم مِن أثر الماليخوليا.
٦٨٦	٢٦٠	٣٨٩	فيبقى فؤادي في غِمارِ ذلك اللقاءِ للناسِ أيامًا حتّى ما يسلُو الهوى.

الصفحة في طبعة مدار الوطن	الخاطرة في طبعة ابن كثير	الخاطرة في طبعتنا	الجملة
٦٩٥	٢٦٧	٣٩٦	فقُلتُ: وا عجبًا مِن مُتصدِّين للفتوى الذين لا يعرفُون أُصُولَ الشريعة.
٦٩٥	٢٦٧	٣٩٦	ولو أُذِنَ له ما كان الإذنُ جائزًا.
	٢٦٧	٣٩٦	مَن اكتسبَ مالًا مِن مأثم، فوصلَ به رحِمًا، أو تصدَّقَ به.
٦٩٩	٢٧٠	٣٩٩	وهذا شيءٌ لا يعرِفُه الحِسّ، وإنّما يُقرُّ بِهِ العقلُ ضرورةً، وهو مُتحيِّرٌ بعد هذا الإقرار.
٧٠٠	٢٧٠	٣٩٩	فإذا خفيَ عليه وجهُ الحِكمةِ في فعلِه نسبنا ذلك العجزَ إلى فُهُومِنا.
٧٠٤	٢٧٥	٤٠٤	قد يدَّعي أهلُ كلّ مذهبِ الاجتهادَ في طلبِ الصواب.
٧٠٤	٢٧٥	٤٠٤	فهذا بين معانِدٍ، وبين مقلِّدٍ لا ينظرُ بعقله.
	٢٩٦	٤٢٥	وتكلَّفْ إظهارَ المودّةِ لها كذلك، وإن لم تكُن في قلبك.
	٣٥٧	٤٨٦	فسلِّم تَسلَم، واحذرْ من كل كلمةِ اعتراضٍ.
٨٤٣	٣٧٢	٥٠١	وكذلك الأسرارُ ينبغي أن تُحفظَ منها وأن يحذر منها.
	٤٠٤	٢٠٢	فوُجِّه ذاتَ يومٍ إلى ميخائيلَ الطبيب، [فدعا به] فدخلَ عليه وهو نائمٌ [في مشرفة له] وعليه قطيفةُ خَزٍّ.
	٤٠٤	٢٠٢	فانتقلتَ به على شرابِكَ في ثلاث ليالٍ.
	٤٠٤	٢٠٢	وأتتْ عليهِ الأيامُ والليالي، فسقى بطنُه، فجمعَ [له] الأطباء، فأجمعَ رأيُهم على أنّه لا دواءَ له

الصفحة في طبعة مدار الوطن	الخاطرة في طبعة ابن كثير	الخاطرة في طبعتنا	الجملة
			إلا أن يُسجَّرَ له تُنُورٌ بحَطبِ الزيتون، [ويسخن] حتى يمتلئَ جَمرًا، فإذا امتُلِئَ كُسِحَ ما في جوفِه [فألقي على ظهره] وحُشيَ جوفُه بالرُّطبة، ويقعدُ فيه ثلاثَ ساعاتٍ مِن النهار، وإنِ استَسقى [ماءً] لم يُسقَ، فإذا مضَتْ ثلاثُ ساعاتٍ كوامِلُ أُخرِجَ وأُجلِسَ جِلسةً مُنتصِبًا، [على نحو ما أمروا به]، فإذا أصابهُ الرَّوحُ وجدَ لذلك وجعًا شديدًا.
	٤٠٤	٢٠٢	وقد وُكِّلَ بهِ من يمنعُهُ الماء، ولا يدعُه [أن] يقوم مِن موضِعِه [الذي أقعد فيه] ولا يتحرَّك، فتنفَّطَ بدنُه كُلُّه، وصارت فيه نُفّاخاتٌ مثلُ أكبرِ البِطِّيخ [وأعظمه] فتُرِكَ على حالِه حتى مضتْ [له] ثلاثُ ساعاتٍ من النهار.
	٤٨٨	٢٨٦	وجمعَ لي من أدبٍ في نفسي، وصبرٍ في باطني، مرارات ومداراة للخلق.

ثانيًا: السقط

الصفحة في طبعة مدار الوطن	الخاطرة في طبعة ابن كثير	الخاطرة في طبعتنا	الجملة
	٣٦		﴿لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾.
	١٠٦		فإذا أُمِرَ أحدُهم بالوحيِ انزعجَ أهلُ السماءِ حتى يُخبرَهم بالخبر، فـ﴿إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ﴾.
	١٢٣		فقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾.

الصفحة في طبعة مدار الوطن	الخاطرة في طبعة ابن كثير	الخاطرة في طبعتنا	الجملة
	١٨٩	٣١٨	ما نهى السلفُ عنِ الخوضِ في الكلامِ إلا لأمرٍ عظيم، وهو أنّ الإنسانَ يريدُ أن ينظُرَ ما لا يقوى عليهِ بصرُه.

ثالثًا: الأخطاء الأخرى

الصفحة في طبعة مدار الوطن	الخاطرة في طبعة ابن كثير	الخاطرة في طبعتنا	الجملة بالخطأ	الصواب
٨٦	٢٣		فإنّه يكفي حصرُها في صورة البدن، فإذا حُصِرت في المعنى	في البدن صُورةً، ما حُصِرت
٩٠	٢٦		فكيف بمن صنع	ضيع
٩٢	٢٧		وأنا أعجِزُ عن إدراكِ عِلل أفعاله	علله
	٣١		ولا يُؤيَسُ مِن وُجُودِ مَن يحذُو حذوَهم وإنما كان الفضل	وإن كان الفضل
	٤٨		ولا تتعرَّضي لمصالِحِ البدن، بل وفّريها عليه، وتأولِيه إيّاها	وناوليه إياها
	٥٣		ويضعون الخيوش المضاعفة	ويصنعون
	٥٥		أن يجعل رزقه في غير هذا؟	من
١٧١	٦٩		يصلُحُ أن يُقالَ هُنا: (نجيا)	نُجُبًا
١٧١	٦٩		فأي وجه للنجاة ههنا	للنجابة

الصفحة في طبعة مدار الوطن	الخاطرة في طبعة ابن كثير	الخاطرة في طبعتنا	الجملة بالخطأ	الصواب
	٧٠		فإذا أمنوا بفعلهم الذي ندب إليه العقل	آمنوا
١٧٨	٧١		وما علموا النقل ولا السير	السبر
١٨١	٧١		وحكي لي الشيخ أبو حكيم أن جد آذاذ الحداد	خُذَاداذ
	٧٩		وترى بعين فكرك ماله	مآله
١٩٧ أسقطها	٨٣		وتمكنت عقوبة الإعراض عنهم منهم	فبهم
	٩٢		واسترشدوا العلم واستبدلوا الحكمة	واستدلوا
	٩٨		ولعمري إن هذا حداء أهل الغفلة	حد
	١٠١		فوا عجبًا إذا كان الأكل لا يُبالِي بهِ من أين	الآكل
٢٣٢	١١١		أنّهم لمّا دخلُوا مِصرَ كَممُوا أفواهَ إبِلِهم	كعموا
٢٤٨ مئة كتاب	١٢١		وقد رُوينا أنّ الطبيبَ دخلَ على أبي بكرِ بنِ الأنباريِّ في مرضِ موتِه، فنظرَ إلى مائه.	ما به
	١٤٢		وحكى في عَرصةِ لسانكِ عرائسَ العُلومِ في حُللِ الفصاحة.	وجلّى
	١٤٥		لا تَقنَعُ مِنكَ إلا بتحقيقِ الورع، وتجديد الدين	وتجويد

الصفحة في طبعة مدار الوطن	الخاطرة في طبعة ابن كثير	الخاطرة في طبعتنا	الجملة بالخطأ	الصواب
	١٤٥		ورع المُبتلى يَصيح، فلأنْ يبكيَ الطفَلُ خيرٌ مِن أن يبكيَ الوالد	ودع المبتلى يضجّ
٢٨٢	١٤٨		يمنعُها مِن الوصولِ إلى من زرع الأماني.	إلى مزدرع
	١٥٩		فإنّي كُنتُ في مجلِسِ التذكير، أنصّ أنّ القرآنَ كلامُ الله.	أنصر
٢٩٨	١٦١		وقد سبقَ العالِمُ فضلَ شوطه.	شوط
٢٩٨	١٦١		فإذا طالعَ العالِمُ الأُصوليّ سبقَ هذا العابدَ بحسن الخلق	الأصول
٢٩٨	١٦١		فيعسر على هذا العابِد.	فيعبر
	١٦٣		ثُمّ أعددتُ أعمالًا تمنعُ من المحادثة.	لا تمنع
٣٠٨	١٦٥		ثُمّ سعى بي إلى السُّلطانِ سِعايةً يحرِّض فيها مِن الكذِبِ ما أدهَشني.	يَخرُصُ
	١٦٥		فتجلى لي مِن الأمرِ أنّ العاداتِ غلبَتْ على الناس.	فينحلّ
	١٧٠		ما كتبَ العالم ولا صنَّف.	العلم
	١٨٤	٣١٣	فينبغي أن يتحرَّزَ مِنه، ويشرف أغراضَه بصنوف الاحتيال.	ويسرق
	١٨٥	٣١٤	فالحازِمُ مَن عاملَ الناسَ بالظاهِر، فلا يضيق صدره من سره في صدره.	فيضيق سره في صدره

الصفحة في طبعة مدار الوطن	الخاطرة في طبعة ابن كثير	الخاطرة في طبعتنا	الجملة بالخطأ	الصواب
٥٨٤ وتهيئة	١٨٨	٣١٧	وجاز مِن الزمن، فليُقبِل بكُلّيتِه إلى جمعِ زادِه ولتهيؤ آلاتِ السفرِ.	وليُهيِّئ
٥٨٥	١٩٠	٣١٩	لقد غفلَ طُلّابُ الدنيا عن اللذّةِ فيها، واللذّةُ فيها شرفُ العِلم، وزهرة العِفّة.	وزهوة
	١٩١	٣٢٠	ولمّا رأوا تلفَ الأبدانِ بالبلاء أنكرُوا إعادتَها.	بالبِلى
٥٨٨	١٩٢	٣٢١	ومِنهُم مَن يزيدُ على هذا، فيتشاغلُ بالشكرِ على التوفيقِ لذلك، ومنهم مَن لا يرى ما عمِلَ أصلًا.	وهم
٥٨٩	١٩٣	٣٢٢	إنّما المُؤمِنُ الكامِلُ الإيمانِ ولا يختلِجُ في قلبِهِ اعتِراض.	من لا
٥٨٩	١٩٣	٣٢٢	ويَجُوعُ المُؤمِنون، ويَشبَعُ الكُفّار، ويُعافَى العُصاة، ويُمرض المتقين.	ويَمرَضُ المُتقون
	١٩٤	٣٢٣	فإن قيل: فلا بُدّ مِن اعتِقاده، قلنا: طريقُ السلف أوضحُ محجّة.	اعتقاد
	١٩٧	٣٢٦	وأنا أعلم أنّ في نفسك من هذه الكلمة شيء.	شيئًا
٥٩٤	١٩٧	٣٢٦	﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ أي: أجعلَ لنفسِهِ الناقِصاتِ وأعطاكُم الكامِلِين.	جعل

الصفحة في طبعة مدار الوطن	الخاطرة في طبعة ابن كثير	الخاطرة في طبعتنا	الجملة بالخطأ	الصواب
	٢٠٦	٣٣٥	وما ضرَّهم إذا جاعُوا أو أُنيلُوا بأذًى، فإنّ ذلك يزيد في رفعتِهم.	زاد
٦١٥	٢١١	٣٤٠	ومن أقبحِ أحوالِهم لزُومُهم الأسبابَ التي تجلِبُ لهُم الدنيا، من التخاشُع والتنسُّك في الظاهِر، ومُلازمةِ حثّ العُزلةِ عنِ المُخالطة.	خشن
٦١٧	٢١٣	٣٤٢	فوا أسفًا لمُهدَّدٍ! كم يُقتَلُ قبلَ القتلِ، ويا طِيبَ عيش لموعُودٍ بأزيدِ المُنى	فوا أسف المهدد... ويا طيبَ عيشِ الموعود
	٢١٤	٣٤٣	وهم يضربونه إذا خرج، ويذمون عيشه.	ويُدمون عقبيه
	٢١٧	٣٤٦	فإذا وُفِّقَ الزاهِدُ والواعظُ لم يذكر إلا ما شُهِد بصحتِه.	يذكرا
	٢١٧	٣٤٦	فسُبحان مَن حفظَ هذه الشريعةَ بأخبار أخيار.	بأحبار
٦٣٢	٢٢٣	٣٥٢	فهذا مَثلُ المُؤمِنِ الكامل، يسبقُ الأقرانَ يومِ التجاري.	التخاير
	٢٢٣	٣٥٢	فالجدَّ الجدَّ بأقدامِ المُبادرة	بإقدام
٦٣٦	٢٢٥	٣٥٤	وليرجعْ مُتبصِّر، وليُستعمَلْ فكرٌ.	ويستعمل

الصفحة في طبعة مدار الوطن	الخاطرة في طبعة ابن كثير	الخاطرة في طبعتنا	الجملة بالخطأ	الصواب
٦٣٧	٢٢٦	٣٥٥	وإنّما ينبغي أن يعرِفَ مِن ذلك اليسيرَ.	التسيير
٦٥٢ سقطت	٢٣٧	٣٦٦	عِلـم قطعًا أنّـه لا بُدَّ مِن غارس رباني.	وبانٍ
٦٥٣	٢٣٧	٣٦٦	ثم خلقَه للكفرِ وعذابه.	وعذَّبه
٦٧٠	٢٤٨	٣٧٧	ومِـن أعظـم العُقُوبـةِ لـه العفوُ عن الله.	زلَـلِـه
	٢٥١	٣٨٠	فـإنّ من يدري كيف يُعقَدُ البيعُ بالعِلم.	فإنما
٦٧٩	٢٥٤	٣٨٣	فـإن أعطـى نـزرًا فإنّـه يسـتعبِدُ المُعطى في العُمُر بذلك.	باقي
	٢٥٦	٣٨٥	فـلا ينهوهـم عن خمـرٍ ولا زِنًا وغِيبة.	وزنا
٦٨٣	٢٥٨	٣٨٧	تأمَّلتُ على الخَلقِ وإذا هم في الأولِ حالةً عجيبة.	وأنا في
٦٨٩	٢٦١	٣٩٠	والصِّدقُ في الطلب: أين وجد؟	أجودُها
	٢٦٥	٣٩٤	ومراتـبُ هـذا لا يحتملُهـا الوصف، لكونه دُرّة الوجُودِ	لكنه
	٢٦٧	٣٩٦	فأمّـا إذا كان حرامًـا أو غضبًـا، فكُلُّ تصرُّفٍ فيهِ حرام	غصبًا
	٢٦٨	٣٩٧	فقد ضاعَ العلم، وذهبَ العُمُر.	العمل
٧٠٥	٢٧٦	٤٠٥	ولا بإخـراج المنـيّ وإن وجـدَ شَبَقًا.	ولا يرى إخراج

الصفحة في طبعة مدار الوطن	الخاطرة في طبعة ابن كثير	الخاطرة في طبعتنا	الجملة بالخطأ	الصواب
٧٣٥	٢٩٧	٤٢٦	فإذا اضطُرَّ إلى المُخالِطة، كان على وِفاق كما يتهوّى الضِّفدعُ لحظة.	وفازٍ
٧٥٥	٣١٢	٤٤١	ولبِسَ خاتمًا ثُمّ رماه، وقال: «نظرت إليكُم ونظرت إليه.	نظرة... ونظرة
٨١٩	٣٥٧	٤٨٦	ونسيَ الجاهِلُ الأحمقُ أنه بما يقولُ ويعترضُ ويفعلُ.	ما
٨٢٤	٣٦٠	٤٨٩	قال المَرُّوزِيّ: مدحَ أحمدُ بنُ حنبلٍ النكاح.	المروذي
٨٣٧	٣٦٨	٤٩٧	لترى ما يأتيها به كثيرًا، وليتزوّجْ مَن يُقارِبُه في السِّنّ.	وليتزوَّجْ لُمَتَه من تقاربه
٣٢٨	٣٧٥	١٧٣	كما أنّ بين يدي رواشِنِها خَيطِيّة أو زمون.	زبزبًا
٣٢٧	٣٧٥	١٧٣	وكان قصرُ الوافي عليه ألفُ مِخلاةٍ بين خيلٍ وبِغالٍ.	عليقُه
٣٥٩	٣٩٥	١٩٣	لَو يَسمَعُونَ - كَما سَمِعْتُ - حَدِيثَها	شطر بيت شعريّ سيق على أنه نثر
٣٦١	٣٩٧	١٩٥	فإذا بها جوهر عجيب لا بُدَّ أن يكونَ حيًّا ليُدركَ المعلوم والحِكم	العلوم
٣٦٢	٣٩٧	١٩٥	ورأيتُ العقلَ يراها كالواجبِ في الحكمة؛ لأنّ الحكيمَ لا يفنى مثلَ هذا الآدميّ.	يبني

الصفحة في طبعة مدار الوطن	الخاطرة في طبعة ابن كثير	الخاطرة في طبعتنا	الجملة بالخطأ	الصواب
٣٦٦	٤٠٠	١٩٨	فبانَ من هذا أنّ آخر البُلْغةِ التي تحفظُ البدنَ من الدنيا لازمةٌ.	أخذ
٣٧٧	٤٠٤	١٩٨	كان عندنا شيخٌ صانع، وله غلامٌ في الدُكّان يتعلّم، فنظرتِ امرأةُ الصانع إلى الغلام فأحبّته	صائغ - الصائغ
٣٨٠	٤٠٤	١٩٨	ويضيقَ مِنها أربعة: خَرف الأنف.	خرق
٤٠٢	٤١٥	٢١٣	ولولا الشدائدُ ما عُرِفَ أثرُ زوالِها، فإنّ العاقبةَ لا يُعلمُ مِقدارُها إلا عِندَ المرض.	العافية
٤١٠	٤٢٢	٢٢٠	إذا وليَ أخوكَ وِلايةً فاقنعْ مِنهُ بالسلامة	بالسلام
٤١٩	٤٢٧	٢٢٥	بل ينبغي أن يُداريَهم ويُجافي نفسه ما فعلُوا في حقِّه.	ويخبئ في نفسه
	٤٣٩	٢٣٧	وإذا ذكرتِ ثوابَه استسلمتِ لطلبِ الأجرِ استسلامَ راكبِ البحرِ لطلبِ الربح	الريح
٤٣٦	٤٤١	٢٣٩	وهل هي إلا معبرٌ أو يوم زَور حادي..	رُوزجارِي
٤٤٨	٤٥٢	٢٥٠	ليأنسَ الجِنسُ بالجِنس، ولا يراه جِنسُهُ ناقصًا معيبًا.	يزال
٤٥٩	٤٥٨	٢٥٦	فعُلِّقَ له مِن أوّلِ المُظَفَّرِ به إلى بابِ أبرز.	المُظفّرية

الصفحة في طبعة مدار الوطن	الخاطرة في طبعة ابن كثير	الخاطرة في طبعتنا	الجملة بالخطأ	الصواب
٤٧٩	٤٦٩	٢٦٧	حتى إنه حفظ القرآن في ثنتي عشرة سنة، وما ترك القرآنَ مع صعوبتِه عليه بقوته.	يفوته
	٤٦٩	٢٦٧	لولا الخليفى لكنتُ مُؤذِّنًا.	الخلافة
٤٩٣	٤٧٦	٢٧٤	وإن كان صديقُك يقدرُ على كشفِها ففعلَ - مَنَّ أو تجده - جدَّد ذكرَها.	بَخِلَ
٥٠١	٤٨٠	٢٧٨	ويُحرَسُ مُلكُ داودَ بألوفٍ، فتتسوَّرُ الفتنة عليه المحرابَ.	الفتية
	٤٨٢	٢٨٠	ولم يُقدَّرْ لكِ طبعٌ يحملُ خشونةَ العيش، فسيري حيث سار بك.	فسنرى حيث شاء ربك
٥٢٠	٤٩٠	٢٨٨	وما أبقتْ محبّة في قلبي موضعًا لغيرِه.	محبته
٥٣٧	٤٩٨	٢٩٦	فينحَلُّ من هذا أنّه ينبغي للعاقل أن يثبت في كلِّ شيءٍ.	يتثبَّت



وصف النسخ الخطية المعتمدة في التحقيق

اعتمدتُ في تحقيق هذا المصنَّف النفيس، على اثنتي عشرةَ نسخةً خطية، ونسخةٍ حجرية، وليس من بينها نسخة كاملة للكتاب كله، وإليك التوصيف:

النسخة الأولى: نسخة الفاتح ذات الرمز (ح)

هي من محفوظات مكتبة فاتح التابعة للمكتبة السليمانية بإسطنبول، برقم حفظ (٤٠٠٤)، وهي نسخة مُتقَنة، تقع في (٢٠٠) ورقة، ومسطرتها (٢١) سطرًا تقريبًا، مكتوبة بخط واضح مقروء، وتمايزت فيها العناوين الرئيسة والفرعية بالحُمرة، وكذا نظام التعقيبة.

وجاء على صفحة العنوان: «صيد الخواطر لابن الجوزي رحمة الله عليه»، وفي آخرها: «آخر كتاب صيد الخاطر، ولله الحمد والمنة، وبه التوفيق والعصمة، وحسبنا الله ونعم الوكيل»، ولم يرد تاريخ نسخ في قيد الفراغ، غير أنه يُقدَّر أن تكون من منسوخات القرن العاشر تقريبًا.

وفي أول النسخة بعض النقولات المتعلِّقة بحديث سحر النبي ﷺ وموقف بعض الفِرَق منه، كما وردت عدة نصوص متعلقة بالأوقاف والتملُّكات، وهي:

- «وقف الشيخ أحمد المعروف بجاويش زاده على العلماء، ببلدة قسطنطينية، فيعطى لمن طلب منهم بعد أخذ رهن قوي، أو كفيل ملّي، وجرى ذلك في المحرم الحرام سنة ثلاث وسبعين وألف من هجرة من له العز والشرف».

- «قد وقف هذا الكتابَ المستطابَ حضرةُ سلطاننا الأعظم والخاقان المُفخَّم، خليفة الله تعالى في أرضه، مالك أقاليم العالم في طوله وعرضه، السلطان ابن السلطان الغازي محمود خان، لا زالت دولته باقية إلى آخر الزمان، وقفًا صحيحًا شرعيًّا لمن طالع واستفاد، وأنا الفقير إلى برِّ ربِّه القدير: نعمة الله المفتش بأوقاف الحرمين المُحرَّمين غُفِر له».

- «حازه واستصحبه برهةً من الزمان: الفقير موسى الغريب عن الأوطان، اللهم يا رب لا تُخيِّب أملي في ردي إلى وطني».

- «حازه واستصحبه الفقير إليه سبحانه وتعالى: موسى، غفر الله له ولوالديه والمسلمين، آمين آمين آمين».

- وختم وقف فيه: «الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله».

وقد ورد على حواشيها بعض التعليقات والفوائد والأدعية والعناوين الفرعية.

النسخة الثانية: نسخة دار الكتب المصرية ذات الرمز (د)

هي من محفوظات دار الكتب المصرية حرسها الله، برقم حفظ (١٤٨٨ تصوف طلعت)، وهي نسخة مُتقَنة، تقع في (١٦٠) ورقة، ومسطرتها (٢٥) سطرًا، كُتِبت بخط نسخي غاية في الإبداع، وعلى حواشيها بعض المطالب التي تشير إلى العناوين الفرعية.

وجاء على صفحة العنوان: «كتاب صيد الخاطر لابن الجوزي، رحمه الله تعالى رحمة واسعة»، وفي قيد فراغها: «وهذا آخر صيد الخاطر، والحمد لله وحده، وكان الفراغ من تحبير هذه النسخة المباركة، ظهيرية نهار الثلاثاء، ثاني عشر، شهر

رجب الفرد، من شهور سنة ألف وثلاثمئة واثني عشر من هجرة سيد البشر ﷺ».

وعلى صفحة العنوان صيغة استكتاب، نصُّها: «استكتبه العبيد الأحقر محمد علي ابن ظاهر الوتري، مُسنِد المدينة، لطف الله به»، وتميزت بنظام التعقيبة، ووقع فيها خرم بين الخاطرتين ١٦١ و١٧٤، وسلمت من الآفات بحمد الله.

النسخة الثالثة: نسخة الكويت ذات الرمز (ك)

هي من محفوظات مكتبة الأوقاف، بدولة الكويت، برقم حفظ (٣٩٢)، وهي نسخة جيدة، تقع في (١٧٣) ورقة، ومسطرتها (٢٣) سطرًا تقريبًا، وبها ترقيم للصفحات وآخَر للوحات، وقد نُسِخت كلها بخط واحد، ولم يتميز بها إلا الفصول، فقد كُتِبت بلون أحمر.

وجاء على صفحة العنوان: «هذا الكتاب المسمى: صيد الخاطر»، وأسفل العنوان بعض النصوص النبوية، وفي قيد فراغها: «تم بحمد الله كتاب صيد الخاطر، كتبه الحقير الفقير الراجي عفو ربه العلي الكبير: محمد بن عبد الله بن أحمد الجبرتي، غفر الله له ولوالديه ولأجداده وجداته ومشايخه والمسلمين. وكان الفراغ من النسخ سنة ألف ومئتين وسبع وثمانين في آخر شهر المحرم، والحمد لله رب العالمين».

وفي نهاية النسخة قيد مطالعة نصُّه: «قد نظر فيه وطالعه، ودعا لمؤلفه وباذله وناسخه بالخير سنة (جا١٣)»، ولعل التاريخ المقصود (١٣١٣).

وعلى حواشيها عددٌ من المطالب والعناوين الفرعية، التي كُتِبت بخط مغاير لخط الناسخ، ولم تسلم النسخة من الآفات، فظهر فيها تمزُّق وتفكُّك ورطوبة، على أن هذا لم يؤثِّر في سلامة النص.

النسخة الرابعة: نسخة جامعة الإمام محمد بن سعود ذات الرمز (س)

هي من محفوظات جامعة الإمام محمد بن سعود، بالمملكة العربية السعودية، برقم حفظ (٤٩٥٣)، وهي نسخة جيدة، تقع في (٤٩٦) صفحة، ومسطرتها (١٩) سطرًا، وقع فيها خرم سقطت به الورقتان ٤٨٦ و٤٨٧، وتمايزت فيها العناوين بخط سميك.

وفي مطلع النسخة بعض النقولات والأبيات الشعرية والتراجم، وختمُ المكتبة المركزية بالجامعة على أول النسخة وآخرها، وقد عُنِي الناسخ بفهرستها في نهايتها، وذكر بعد انتهاء الفهرس بعض الفوائد والنقولات عن الأئمة، وختمَ هذه الفوائد بذكر بعض مصنَّفات ابن الجوزي مع عدد الفصول والصفحات في كل منها، وتميَّزت النسخة بنظام التعقيبة، وسلمت من الآفات بحمد الله.

وجاء على صفحة العنوان: «كتاب صيد الخاطر، تصنيف أبي الفرج جمال الدين، عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد بن علي بن الجوزي، الواعظ، الحافظ، العلامة، المُتفنِّن، المشهور، وُلِد في سنة (٥٠٨هـ)، وتُوفي ليلة الجمعة ١٢ رمضان سنة (٥٩٧هـ)، وقد اختصر هذا الكتاب: الشيخ محمد بن سلُوم، وسمّاه: بهجة الناظر المنتخَب من كتاب صيد الخاطر.. بخط الفقير إليه تعالى: محمد بن حمد العسافي»، وفي قيد فراغها: «تم كلام الإمام العلامة أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، رحمة الله عليه في كتاب صيد الخاطر، والله الموفق».

وذكر الناسخ بيانًا بعد انتهاء الكتاب، بيَّن فيه النسخة التي نقل عنها، وتبيَّن بعد النظر أنه نسخها من نسخة الأوقاف الكويتية، وإن كانت قد كثرت في هذه النسخة التصرُّفات اليسيرة من الناسخ في سياقات الجمل، وذلك بزيادة بعض الكلمات التي لا تتفق وبقية النسخ، كما أنها لا تتفق وأسلوب المؤلف، علاوة على أن

السياق يستقيم بدونها؛ لذا آثرتُ أن تكون فروقها الشاذة عن بقية النسخ من نصيب الحواشي السفلية غالبًا.

النسخة الخامسة: نسخة دار الكتب المصرية ذات الرمز (م)

هي من محفوظات دار الكتب المصرية حرسها الله، وهي برقم حفظ (٢٥٩ أخلاق تيمور)، وهي نسخة قيِّمة مُقابَلة ومصحَّحة، تقع في (٢٢٤) صفحة، ومسطرتها (٣٠) سطرًا تقريبًا، كُتِبت بخط نسخي واضح، وعلى حواشيها بعض التصحيحات والمطالب التي تشير إلى العناوين الفرعية، والبلاغات التي تدل في كثير منها على القراءة.

وعلى صفحة العنوان: «كتاب صيد الخاطر، تأليف الإمام الكبير، والعمدة النحرير، الشيخ عبد الرحمن بن الجوزي، رحمه الله تعالى رحمة واسعة»، وفي قيد فراغها: «آخر كتاب صيد الخاطر، ولله الحمد والمنة، وبه التوفيق والعصمة، والحمد لله أولًا وآخرًا، وباطنًا وظاهرًا، فرغت من نسخه: ١٠ شهر الله المحرَّم الحرام، مبتدأ سنة (١٣٢٩هـ)، على نسخة قديمة فارسية الخط، يذكر كاتبها أنه كتبها سنة (١٢٢٤هـ)، وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين»، وبعده: «بلغ مقابلةً وتصحيحًا على حسب الطاقة والإمكان، والحمد لله على التمام، وصلى الله على محمد».

وعليه ختمٌ فيه: «وقف أحمد بن إسماعيل بن محمد تيمور بمصر»، وقد تميَّزت بنظام التعقيبة، وظهر فيها بعض التمزُّق والتفكُّك، وسلمت مما دون ذلك.

النسخة السادسة: نسخة دار الكتب المصرية ذات الرمز (ص)

هي من محفوظات دار الكتب المصرية حرسها الله، وهي برقم حفظ (٥٦٤ تصوف)، وهي نسخة قيِّمة، تقع في (١٩٩) ورقة، ومسطرتها (٢٥) سطرًا،



كُتِبت بخط فارسي جميل، وقع فيها خرم من الخاطرة ١٦١ حتى الخاطرة ١٧٠، وعلى حواشيها بعض التصحيحات والتنبيهات على وجود سقط ونقص ونحو ذلك، كما خلت من صفحة العنوان، وفي قيد فراغها: «آخر كتاب صيد الخاطر، ولله الحمد والمنة، وبه التوفيق والعصمة، وحسبنا الله ونعم الوكيل»، وفي نهايتها بعض الأبيات المنسوبة إلى الإمام الشافعي عليه رحمة الله، وتميَّزت بنظام التعقيبة، وقد سلمت من الآفات بحمد الله.

النسخة السابعة: نسخة الفاتح ذات الرمز (ف)

هي من محفوظات مكتبة فاتح التابعة للمكتبة السليمانية بإسطنبول، برقم حفظ (٢٧١٩)، وهي نسخة مُتقَنة تُعَدُّ من أقدم نسخ الكتاب التي وصلتنا لولا أنها ناقصة الآخر، وتقع في (٢١٨) ورقة، ومسطرتها (١٩) سطرًا تقريبًا، كُتِبت بخط واضح مقروء غالبًا، وتمايزت فيها العناوين الرئيسة والفرعية بخط مختلف، وناسخها ـ كما وقع في مطلعها ـ هو إبراهيم بن أحمد الباعوني.

وعلى صفحة العنوان: «كتاب صيد الخاطر لابن الجوزي رحمه الله، مواعظه حسنة...»، وفي أولها بعض الحِكَم والمواعظ والنقولات، ووردت قصيدة مطلعها:

أيا عَذَباتِ البانِ مِن أيمَنِ الحِمى رَعَى الله عَيشًا في حِماكَ ربحناه

وعليها قيد مطالعة نصُّه: «نظر فيه الفقير إلى الله تعالى محمد بن... الشافعي سنة ٨٧١هـ»، وعلى حواشيها بعض فروق النسخ، مما يدل على أنها قُوبلت على نسخة أخرى.

وتبدأ من مبدأ الكتاب، وتنتهي في أثناء الخاطرة ٢٩٩ إلى قوله: «ثُمّ قال للجاريةِ الأخرى: اسقِيه، فسقَتني فذهبَ ثُلُثٌ آخرُ».

وهذه النسخة على الرغم من أهميتها فإنها كثيرًا ما تسقُط منها بعض الكلمات في أثناء السياق، وهي إحدى النسخ الثلاث التي تضمنت الزيادة الكبرى.

النسخة الثامنة: نسخة مكتبة الأحقاف ذات الرمز (ق)

هي من محفوظات مكتبة الأحقاف باليمن، برقم حفظ (١٧٢٩)، وهي نسخة جيدة، تقع في (١٦٦) ورقة، ومسطرتها (٢١) سطرًا، كُتِبت بخط النسخ، وتمايزت فيها العناوين الرئيسة والفرعية بالحُمرة، ونظام التعقيبة.

وعلى صفحة العنوان: «كتاب صيد الخاطر للإمام العلامة الزاهد أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي، رحمه الله تعالى رحمة واسعة»، وفي قيد فراغها: «نجز تحرير هذا الكتاب المفيد، بقلم الفقير إلى رحمة الله وعفوه: علي ابن محسن المعافى سامحه الله تعالى، على نسخة لا تخلو عن شيء من غلط».

وعلى صفحة العنوان نصوص تملُّكات، وهي: «مما منَّ الله به على عبده عبد الله بن عمر بن أبي بكر بن يحيى، عفا الله عنه ورحمه آمين»، و«دخل في ملك الفقير إلى الله تعالى: سالم بن عوض بن عبد الملك... في ربيع أول سنة ١٢٤٤هـ».

وظهر ختم الهيئة العامة للآثار والمخطوطات الخاص بمكتبة الأحقاف، وكذا بعض التعليقات على حواشيها، وبعض الفروق التي تدل على المقابلة، والنسخة سليمة عما يعيبها من الآفات، اللهم إلا التمزُّق الذي ظهر في أولها، وهي إحدى النسخ الثلاث التي تضمنت الزيادة الكبرى.

النسخة التاسعة: نسخة جامعة الرياض ذات الرمز (ر)

هي من محفوظات جامعة الرياض، بالمملكة العربية السعودية، برقم حفظ (٢٩١)، وهي نسخة جيدة، تقع في (١٩٨) ورقة، ومسطرتها (١٧) سطرًا، وتمايزت

فيها العناوين الرئيسة والفرعية بخط مختلف سميك.

وعلى صفحة العنوان: «كتاب صيد الخاطر، تأليف الإمام العالم الورع الزاهد، الصدر الكبير، جمال الدين، نجم الإسلام، فخر الأنام، زين الأمة، ناصر السنة، أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن الجوزي، عفا الله عنه، آمين آمين»، وجاء في قيد فراغها: «تمَّ الكتاب بحمد الله وعونه، ومنِّه وفضله، والحمد لله على ذلك، وكان الفراغ... يوم الاثنين لعله رابع عشر شهر محرم الحرام، سنة ١٢٢٢هـ».

وورد على صفحة العنوان صيغ تملُّكات لكنها لا تظهر كاملة بسبب الترميم والرطوبة، وكثرت على حواشيها فروق النسخ التي تدل على أنها قُوبلت على نسخ أخرى، والنسخة سليمة عما يعيبها من الآفات، ولا يظهر عليها إلا اليسير من البقع التي لم تؤثِّر في وضوح النص، وقد تكرر ختم مكتبة جامعة الرياض في أكثر من موضع، وظهر فيها أيضًا ختم المكتبة العامة بجامعة الملك سعود.

وهي إحدى النسخ الثلاث التي تضمنت الزيادة الكبرى ، غير أن هذه النسخة كثر فيها التصحيف والتحريف.

النسخة العاشرة: نسخة دار الكتب المصرية ذات الرمز (ي)

هذه قطعة مبتورة الأول والآخر، وليس لها أي بيانات، عدا ختم دار الكتب المصرية في أسفل اللوحة الأولى، عدد لوحاتها (٨٠)، ومسطرتها (٢٥) سطرًا في كل صفحة تقريبًا، كُتبت بخط نسخيّ جميل، تبدأ في أثناء الخاطرة ٣١١ بقوله: «فلقد دانت لك البلاد»، وتنتهي في مطلع الخاطرة ٥٠٠ بقوله: «من تلمّح أحوال الدنيا علم أن مراد».وقد كثُر السواد أسفل كل لوحة منها مما أدى لاختفاء بعض

الأسطر، وقد جاءت عليها بعض التصحيحات، وقد قابلتُها ولم أُثبت من فروقها إلا ما كان ضروريًّا استغناءً عنها بنسخة (د)؛ لأنهما من عائلة واحدة.

النسخة الحادية عشرة: نسخة جامعة الرياض ذات الرمز (ض)

هي من محفوظات جامعة الرياض، بالمملكة العربية السعودية، برقم حفظ (٢١٨)، وهي نسخة قيِّمة، إلا أنها مبتورة الأول والآخر وغير مرتبة، وليس فيها تعقيبة، وتقع في (٨٩) ورقة، ومسطرتها (١٩) سطرًا، وتمايزت فيها العناوين الرئيسة والفرعية بخط سميك، ويظهر أنها من منسوخات القرن التاسع تقريبًا.

وظهر على الحواشي نهايات الأجزاء والكراريس، وعليها تعليقات قليلة، وعدد من التصحيحات، كما ظهرت بعض الآفات كالبُقَع والتمزُّق والتفكُّك، على أن هذه الآفات كلها لم تؤثِّر في وضوح النص وسلامته، وقد حذفتُ فروقها بعد مقابلتها استغناءً عنها بغيرها إلا ما كان لضرورة.

النسخة الثانية عشرة: نسخة جامعة لايبزج ذات الرمز (ل)

هي من محفوظات مكتبة جامعة لايبزج بألمانيا، برقم حفظ (٨٧٤)، وهي قطعة صغيرة من أول الكتاب، تقع في (٢١) لوحة، ومسطرتها (٢١) سطرًا، كُتِبت بخط نسخي، وعلى حواشيها بعض المطالب التي تشير إلى العناوين الفرعية.

وعلى صفحة العنوان: «هذا كتاب صيد الخاطر، لابن الجوزي، رحمه الله تعالى آمين»، وهذه القطعة يُقدَّر أنها من منسوخات القرن العاشر، وقد تميَّزت بنظام التعقيبة، وقد حذفتُ فروقها بعد مقابلتها لاستغنائي عنها بغيرها إلا ما كان لضرورة.

وتبدأ من مبدأ الكتاب وتنتهي في أثناء الخاطرة ٣١ إلى قوله: «إلا أنّ الله تعالى لا يُخلي الأرضَ مِن قائمٍ له بالحُجّة، جامعٍ بين العِلمِ والعملِ، عارفٍ بحُقوقِ الله تعالى، خائفٍ مِنه، فذلك قُطبٌ».

النسخة الثالثة عشرة: نسخة حجرية ذات الرمز (ط)

هي أول طبعة للكتاب صدرت عن دار الخانجي قبل قرنٍ من الزمان، سنة (١٣٤٥هـ = ١٩٢٧م)، وقد اعتنى بها الأستاذ محمد أمين الخانجي عليه رحمة الله، وتقع هذه الطبعة في (٤٥٥) صفحة، وقد اعتمدتْ على ثلاث نسخ خطية مهمة لم نقف عليها بعد بحثٍ، ذُكر في المقدمة اثنتان هما: نسخة دار الكتب المصرية، والنسخة الهندية، والثالثة هي الأحمدية، ذكرها في حواشي الطبعة، وفي نهايتها قائمة تصويبات للأخطاء التي وقعت فيها. وبعد تمام المقابلة على هذه النسخة، حرَصتُ على حذف فُروقها استغناءً عنها بغيرها إلا ما كان لضرورة تخدم استقامة النص أو تُقوّم ما فيه من عوج.

هذا، وكنت قد سعيت في تحصيل نسخة المكتبة العباسية بالبصرة برقم هـ-٤٩ التي تقع في ٣٨٨ص كما أشار لها العلوجي في مؤلفات ابن الجوزي ص١٥٢، ولكني لم أوفق في الحصول عليها بعد طول بحث، والحمد لله.



منهج التحقيق

- نسختُ النصَّ وَفقَ قواعد الإملاء المعاصرة، وحرَصتُ على احترام نص المؤلف، فلم أتدخَّل فيه إلا ما كان لضرورة - وهو قليل - مع حصره بين معقوفين.

- قابلتُ النص على ثلاث عشرة نسخة خطية يتمِّمُ بعضها بعضًا؛ إذ ليست للكتاب - فيما نعلم - نسخة كاملة في مكتبات العالم، وبعد تمام المقابلة وإثبات غالب الفروق - ولو كانت فروقًا لفظية - جاءت مرحلة قراءة الفروق قراءة مستقلة؛ لحذف ما كان من قبيل التصحيف والتحريف وهو كثير، وكذا ما كان من فروق لفظية لا تؤثِّر في المعنى، وكذا ما استقلَّت به نسخة واحدة عن سائر النسخ إلا ما كان ذا أهمية في خدمة النص؛ إذ إن الغاية من عمل المحقِّق هي تحقيق نص المؤلف لا تحقيق أخطاء النُّسّاخ.

- ركبتُ منهج التلفيق بين النسخ الخطية مع الاعتداد بالنُّسخ العالية منها؛ إذ إن الكتاب ليس له نسخة كاملة، كما أن النسخ في غالبها متأخِّرة عن زمن المؤلف؛ لذا حرَصتُ على جمع كل ما وقع تحت يدي من نسخ ليطمئنَّ قلبي إلى استكمال نص الكتاب.

- ضبطتُ النصَّ ضبطًا إعرابيًّا، مع العناية بضبط ما كان ملتبسًا على جمهور القرّاء؛ لأن الكتاب كتاب جماهيري يحتاج إليه كل قارئ، واعتنيتُ بالأشعار ضبطًا شبهَ تامّ، مع ذكر بحر البيت بين معقوفين.

- نقلتُ الآيات القرآنية من المصحف محصورة بأقواس مزهَّرة، مع تخريج الآية عَقِيبها في المتن بذكر اسم السورة ورقم الآية، وقد كثر نقل المؤلف الآيات

القرآنيـة مع التصرف فيها على عـادة المتقدِّمين في حذف حرفَي العطف الواو أو الفاء من مطالعها، كما أجمعتْ على هذا نُسَـخ كتابه الخطية، على أن الطبعات السـابقة تصرَّفت في هذا ظنًّا منهم أن هذا من صنيع النُّسّاخ، ومن الأمثلة على هذا قوله في الخاطرة ٦٧ : «وتأمَّل في حالِ يعقوبَ وحذرِه على يُوسُفَ عليهما السلام، حتّى قال: ﴿أَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٣] فقالوا: ﴿أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٧]...».

قلـتُ: والآية الأولى فـي المصحف: «وأخاف» بواو من أولهـا، والثانية المقصودة هنا: «فأكله» بفاء من أولها[١].

ـ خرَّجـت الأحاديـث والآثـار مـن دواوين السـنة النبويـة، مقدِّمًـا للأصح من المصادر، مع الحُكم على الحديث في الغالب.

ـ رجعـتُ إلـى المعاجم اللغوية بأنواعها في شـرح غريب الألفـاظ، مع العناية بالصحـاح وتـاج العروس والمصباح المنير، ولـم أتعرَّض لما كان واضحًا منها كما وقع في بعض الطبعات السابقة؛ لأن شرح الكلمات الواضحة يُذهِب رونق النص، والمصنِّف أديب، فلا يحسُن أن نشرح كل كلمة يُتوهَّم أنها غامضة.

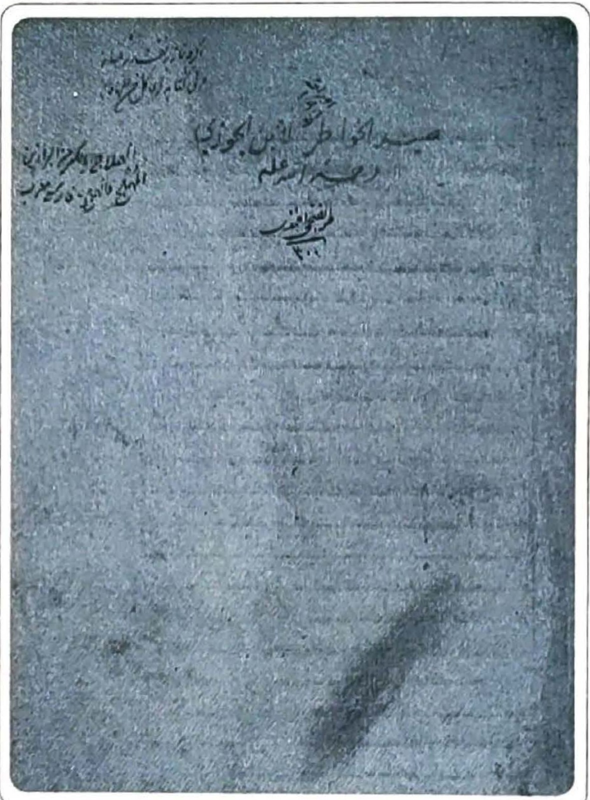
ـ عرَّفتُ الأعلام غير المشهورة عند أول ذكرٍ لهم فقط تعريفًا موجزًا.

ـ عنونـتُ لكل خاطرة لـم يعنونهـا المصنِّف بعنوان موجز معبِّر عن مضمونها، وقد أفدتُ في بعضها من طبعة الشيخ محمد الغزالي عليه رحمة الله.

ـ قدَّمـتُ للكتـاب بمقدمـة ودراسـة موجـزة عرَّفـتُ فيهـا بالمصنِّـفِ وكتابـه وموضوعه وعنوانه ونسبته إلى مؤلِّفه وما يتبع ذلك من أدبيات فنِّ التحقيق.

---

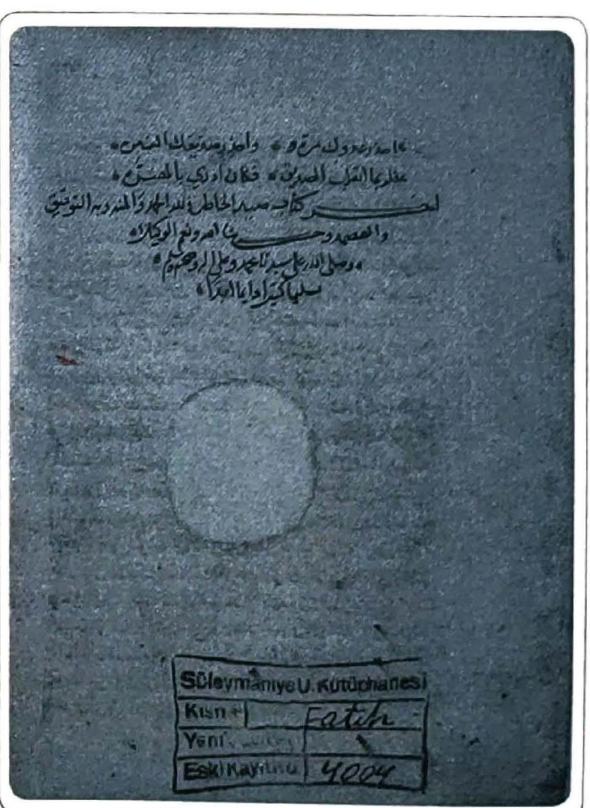
(١) انظـر فـي هـذه القضيـة: بحثي المسـمى «حكـم الاحتجاج بالآيـات القرآنية مـع ترك الـواو والفاء العاطفتين من مطالعها» المنشـور بحولية كلية الدراسـات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية، المجلد الأول من العدد السادس والثلاثين (ص١١٦١).


صيد الخاطر لابن الجوزي
رحمه الله تعالى

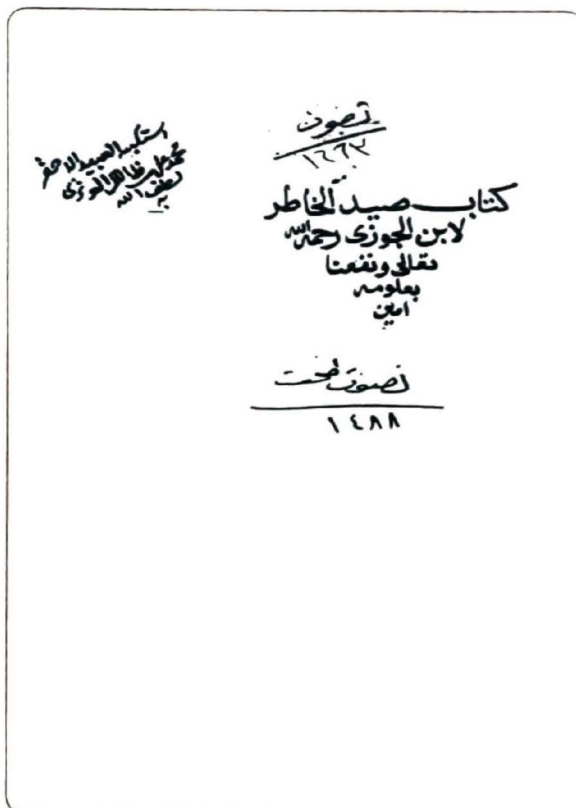
صورة الغلاف من نسخة الفاتح (ح)


بسم الله الرحمن الرحيم

صورة الصفحة الأولى من نسخة الفاتح (ح)



صورة الصفحة الأخيرة من نسخة الفاتح (ح)


تصوف
١٦٦٢
كتاب صيد الخاطر
لابن الجوزي رحمه الله
تعالى ونفعنا
بعلومه
امين

تصوف طلعت
١٤٨٨

صورة الغلاف من نسخة دار الكتب المصرية (د)

صورة الصفحة الأولى من نسخة دار الكتب المصرية (د)

صورة الصفحة الأخيرة من نسخة دار الكتب المصرية (د)

صورة الغلاف من نسخة الكويت (ك)

صورة الصفحة الأولى من نسخة الكويت (ك)

صورة الصفحة الأخيرة من نسخة الكويت (ك)

صورة الغلاف من نسخة جامعة الإمام محمد بن سعود (س)

صورة الصفحة الأولى من نسخة جامعة الإمام محمد بن سعود (س)

صورة الصفحة الأخيرة من نسخة جامعة الإمام محمد بن سعود (س)

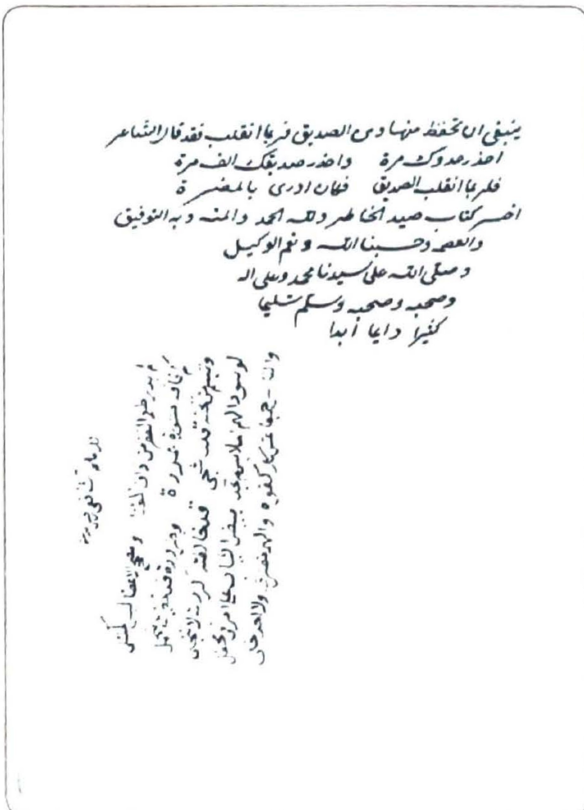
كتاب صيد الخاطر تأليف الإمام
الكبير والعلامة النحرير الشيخ
عبد الرحمن بن الفرج بن الجوزي
الحنبلي رحمه الله عليه رحمة
الأبرار وأسكنه جنات
تجري من تحتها
الأنهار
آمين

صورة الغلاف من نسخة دار الكتب المصرية (م)

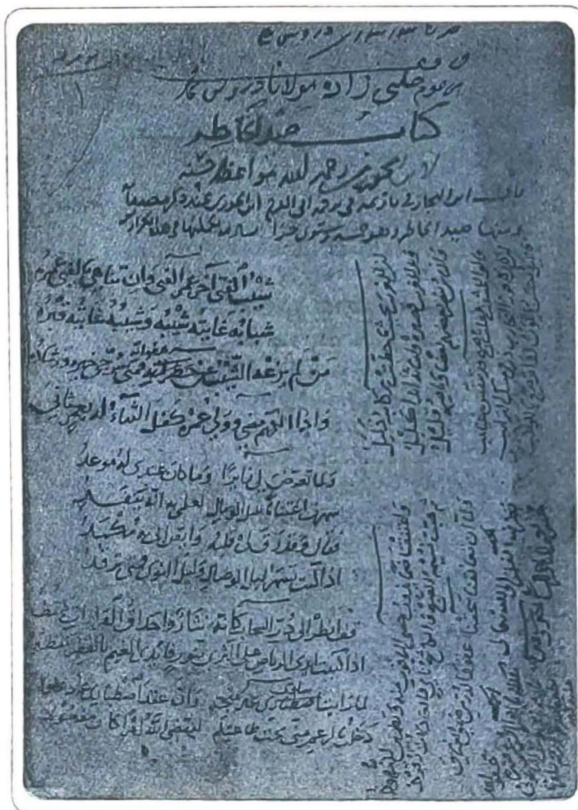
صورة الصفحة الأولى من نسخة دار الكتب المصرية (م)

صورة الصفحة الأخيرة من نسخة دار الكتب المصرية (م)

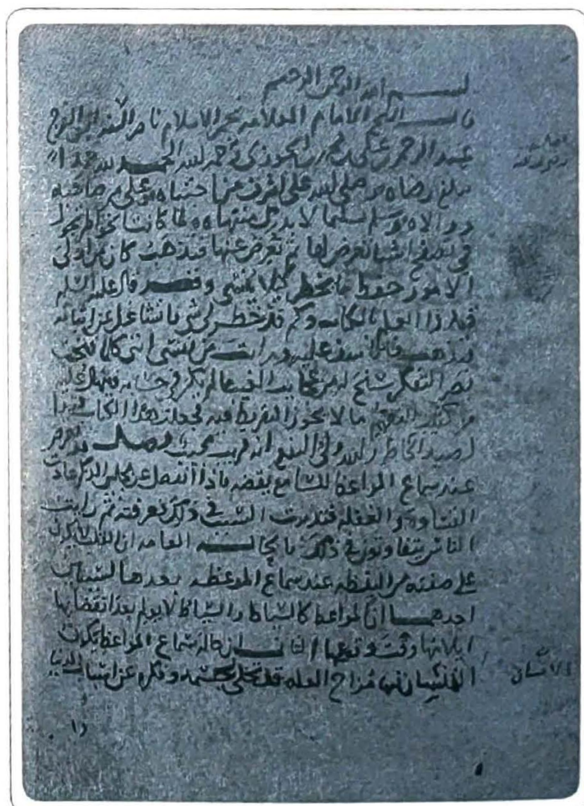
صورة الصفحة الأولى من نسخة دار الكتب المصرية (ص)


ينبغي ان تحفظ منها ومن الصديق فربما انقلب فقد قال الشاعر
احذر عدوك مرة واحذر صديقك الف مرة
فلربما انقلب الصديق فكان ادرى بالمضرة
اخر كتاب صيد الخاطر ولله الحمد والمنة وبه التوفيق
والعصمة وحسبنا الله ونعم الوكيل
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله
وصحبه وصحبه وسلم تسليما
كثيرا دايما أبدا

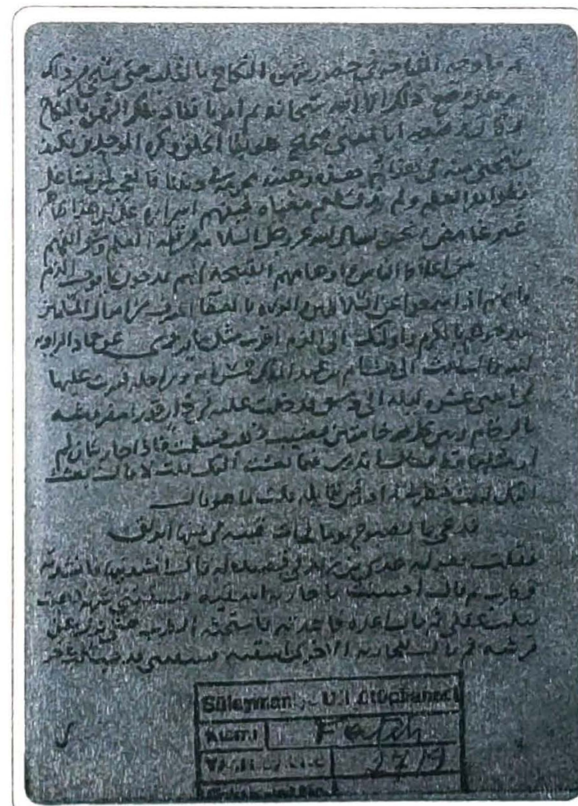
صورة الصفحة الأخيرة من نسخة دار الكتب المصرية (ص)



صورة الغلاف من نسخة الفاتح (ف)



صورة الصفحة الأولى من نسخة الفاتح (ف)



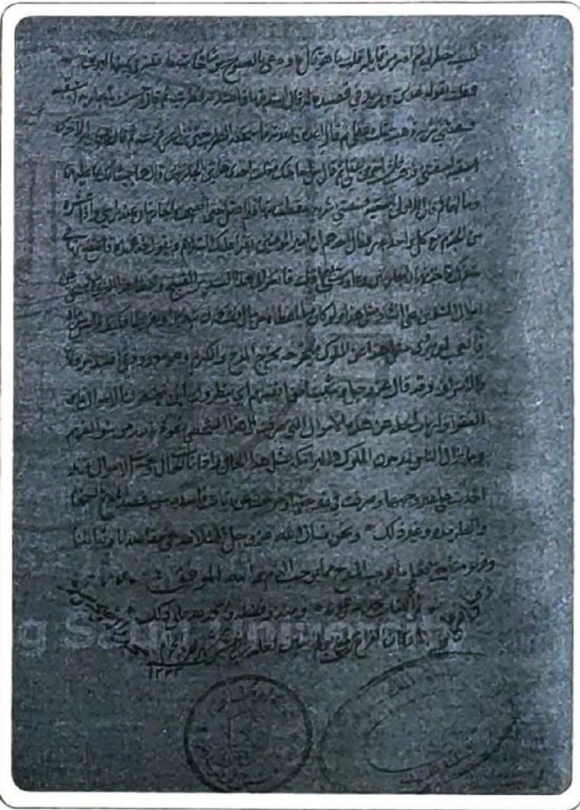
صورة الصفحة الأخيرة من نسخة الفاتح (ف)



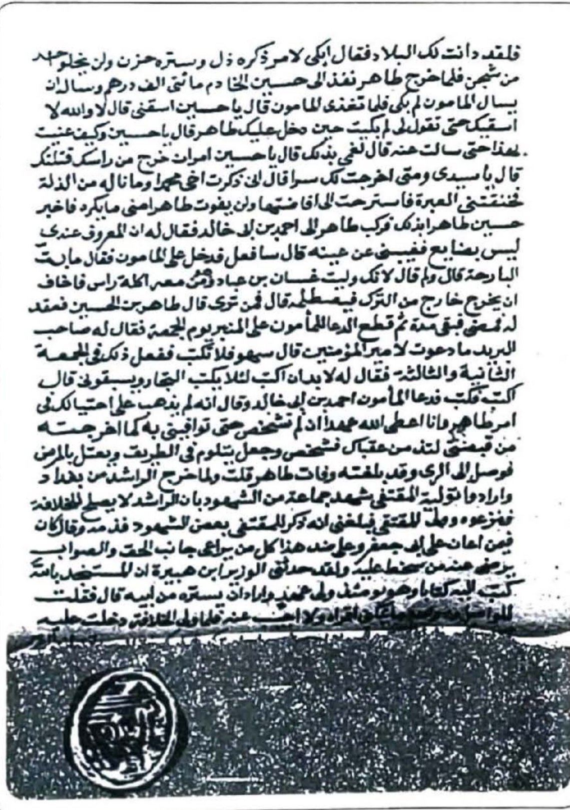
صورة الغلاف من نسخة جامعة الرياض (ر)



صورة الصفحة الأولى من نسخة جامعة الرياض (ر)

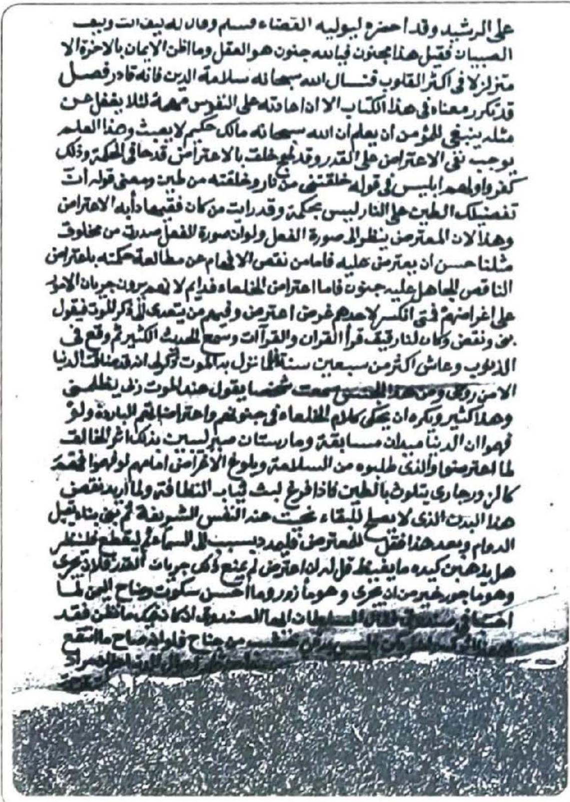


صورة الصفحة الأخيرة من نسخة جامعة الرياض (ر)



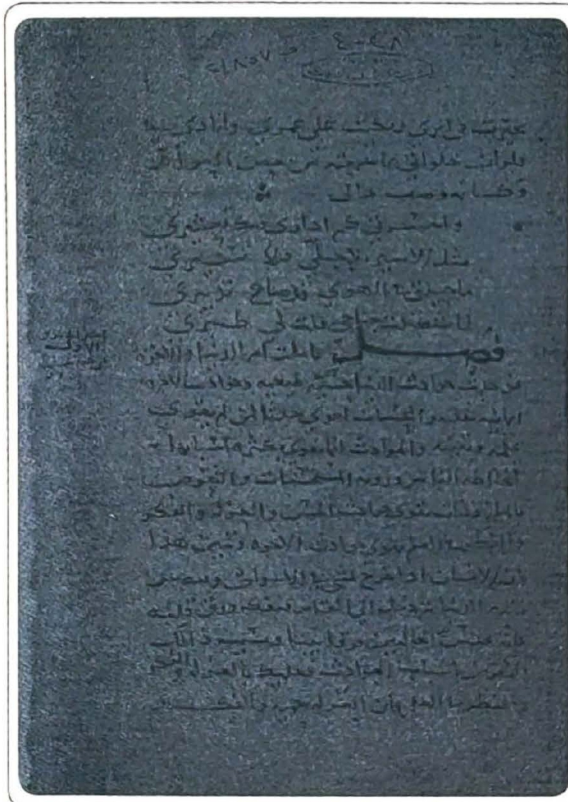
فلقد دانت لك البلاد فقال ابكي لامر ذكره ذل وستره حزن ولن يخلو احد
من شجن فلما خرج طاهر نفذ الى حسين الخادم مائتي الف درهم وسأله ان
يسأل المامون لم بكى فلما تغدى المامون قال يا حسين اسقني قال لا والله لا
اسقيك حتى تقول لي لم بكيت حين دخل عليك طاهر قال يا حسين وكيف عنيت
بهذا حتى سألت عنه قال لغمي بذلك قال يا حسين امر ان خرج من راسك قتلتك
قال يا سيدي ومتى اخرجت لك سرا قال اني ذكرت اخي محمدا وما ناله من الذلة
فخنقتني العبرة فاسترحت الى افاضتها ولن يفوت طاهرا مني ما يكره فاخبر
حسين طاهرا بذلك فركب طاهر الى احمد بن ابي خالد فقال له ان المعروف عندي
ليس ببضايع فغيبني عن عينه قال سافعل فدخل على المامون فقال ما نمت
البارحة قال ولم قال لانك وليت غسان بن عباد خراسان ومعه الحلة راس فاخاف
ان يخرج خارج من الترك فيصطلمه قال فمن ترى قال طاهر بن الحسين فعقد
له فمضى فبقي مدة ثم قطع الدعا للمامون على المنبر يوم الجمعة فقال له صاحب
البريد ما دعوت لامير المؤمنين قال سهو فلا تكتب ففعل ذلك في الجمعة
الثانية والثالثة فقال له لا بد ان اكتب لئلا يكتب التجار فيسبقوني قال
اكتب فكتب فدعا المامون احمد بن ابي خالد وقال انه لم يذهب علي احتيالك في
امر طاهر وانا اعطي الله عهدا ان لم تشخص حتى توافيني به كما اخرجته
من قبضتي لتبذن من عنقك فشخص وجعل يتلوم في الطريق ويعتل بالمرض
فوصل الى الري وقد بلغته وفاة طاهر قلت ولما خرج الراشد من بغداد
واراد وا تولية المقتفي شهد جماعة من الشهود بان الراشد لا يصلح للخلافة
فنزعوه وولي المقتفي فبلغني انه ذكر للمقتفي بعض الشهود فذمه وقال كان
فيمن اعان على ابي جعفر وعلى ضد هذا كل من يراعي جانب الحق والصواب
يرضى عنه من سخط عليه ولقد حدثني الوزير ابن هبيرة ان المستنجد بالله
كتب اليه كتابا وهو يومئذ ولي عهد واراد ان يستره من ابيه قال فقلت
للرسول [illegible] ولا اجيب عنه فلما ولي الخلافة دخلت عليه

صورة الصفحة الأولى من نسخة دار الكتب المصرية (ي)

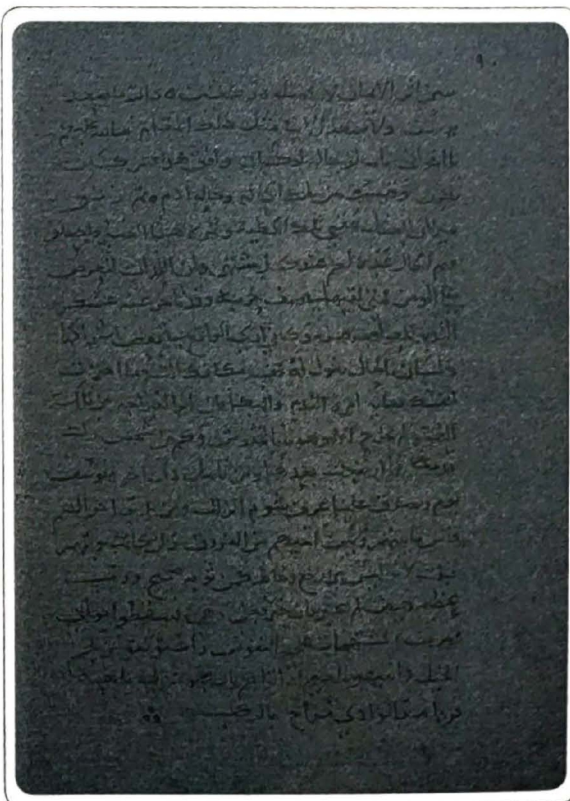


على الرشيد وقد احضره ليوليه القضاء فسلم وقال له يا فلان وبعث
الصبيان فقيل هذا مجنون فيا لله جنون هو العقل وما اظن الايمان بالاخرة الا
متزلزلا في اكثر القلوب فسال الله سبحانه سلامة الدين فانه قادر فصل
قد تكرر معناه في هذا الكتاب الا ان اعادته على النفوس مهمة لئلا يغفل عن
مثله ينبغي للمؤمن ان يعلم ان الله سبحانه مالك حكيم لا يعبث وهذا العلم
يوجب نفي الاعتراض على القدر وقد لهج خلق بالاعتراض قدحا في الحكمة وذلك
كفر واولهم ابليس في قوله خلقتني من نار وخلقته من طين ومعنى قوله ان
تفضيلك الطين على النار ليس بحكمة وقد رايت من كان فقيها دأبه الاعتراض
وهذا لان المعترض ينظر الى صورة الفعل ولو ان صورة الفعل صدرت من مخلوق
مثلنا حسن ان يعترض عليه فاما من نقص الافهام عن مطالعة حكمته بلاعتراض
الناقص الجاهل عليه جنون فاما اعتراض الخلعاء فدايم لا نهم يرون جريان الاحوال
على اغراضهم ففي الكبر لا حدهم غرض اعترض وفيهم من يتصدى لذكر الموت فيقول
بمن ونقص وكان لنا رفيق قرأ القران والقراآت وسمع الحديث الكثير ثم وقع في
الذنوب وعاش اكثر من سبعين سنة فلما نزل به الموت ... الدنيا
الامن ... سمعت شخصا يقول عند الموت ...
وهذا كثير ويكره ان يحكي كلام الخلعاء في جنونهم واعتراضاتهم البارده ولو
فهموا ان الدنيا ميدان مسابقة ومارستان صبر ليبين بذلك اثر المخالفة
لما اعترضوا والذي طلبوه من السلامة وبلوغ الاغراض امامهم لو فهموا الحكمة
كالرجل ... يتلوث بالطين كاذا فرغ لبس ثياب النظافة ولما اريد نقض
هذا البدن الذي لا يصلح للبقاء نحت هذه النفس الشريفة ثم بني بناء يقبل
الدوام وبعد هذا فقل المعترض فليمد حبلا الى السماء ثم ليقطع فلينظر
هل يذهبن كيده ما يغيظ قل له ان اعترض لم يمنع ذلك جريان القدر ... يجري
وهو ما جور خير من ان يجري وهو ما زور وما احسن سكوت جناح اليمين لما
... فقد
...

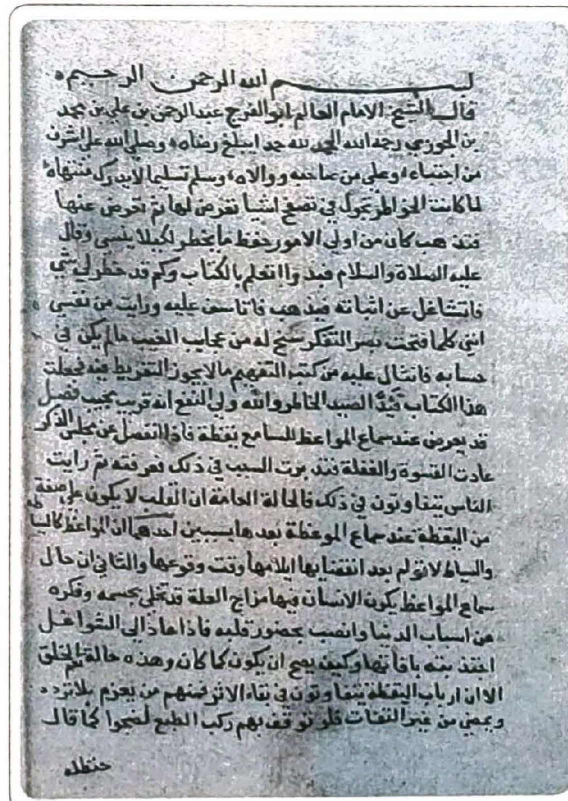
صورة الصفحة الأخيرة من نسخة دار الكتب المصرية (ي)



صورة الصفحة الأولى من نسخة جامعة الرياض (ض)



صورة الصفحة الأخيرة من نسخة جامعة الرياض (ض)



بسم الله الرحمن الرحيم
قال الشيخ الامام العالم ابو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد
بن الجوزي رحمه الله الحمد لله حمدا يبلغ رضاه وصلى الله على اشرف
من اجتباه وعلى من صاحبه ووالاه وسلم تسليما لا يدرك منتهاه
لما كانت الخواطر تجول في تصفح اشيا تعرض لها ثم تعرض عنها
فتذهب كان من اولى الامور حفظ ما يخطر لكيلا ينسى وقال
عليه الصلاة والسلام قيدوا العلم بالكتاب وكم قد خطر لي شي
فاتشاغل عن اثباته فيذهب فاتاسف عليه ورايت من نفسي
انني كلما فتحت بصر التفكر سنح له من عجايب الغيب ما لم يكن في
حسابه فانثال عليه من كثب التفهيم ما لا يجوز التفريط فيه فجعلت
هذا الكتاب قيدا لصيد الخاطر والله ولي النفع انه قريب مجيب فصل
قد يعرض عند سماع المواعظ للسامع يقظة فاذا انفصل عن مجلس الذكر
عادت القسوة والغفلة فتدبرت السبب في ذلك فعرفته ثم رايت
الناس يتفاوتون في ذلك فالحالة العامة ان القلب لا يكون على صفة
من اليقظة عند سماع الموعظة وبعدها لسببين احدهما ان المواعظ كالسياط
والسياط لا تؤلم بعد انقضايها ايلامها وقت وقوعها والثاني ان حالة
سماع المواعظ يكون الانسان فيها مزاح العلة قد تخلى بجسمه وفكره
من اسباب الدنيا وانصت بحضور قلبه فاذا عاد الى الشواغل
اجتذبته بآفاتها وكيف يصح ان يكون كما كان وهذه حالة تعم الخلق
الا ان ارباب اليقظة يتفاوتون في بقاء الاثر فمنهم من يعزم بلا تردد
ويمضي من غير التفات فلو توقف بهم ركب الطبع لضجوا كما قال

حنظلة

صورة الصفحة الأولى من نسخة جامعة لايبزج (ل)

ثم نظرت في النساء فرأيتهن قليلات الدين عظيمات الجهل
ما عندهن من الآخرة خبر إلا من عصمها أبوها فقلت واعجبا من
بقي لخدمة الله عز وجل ومعرفته فنظرت فإذا العلماء والمتعلمون
والعباد المتزهدون فتأملت العباد والمتزهدين فرأيت
جمهورهم يتعبد بغير علم ويأنس إلى تعظيمه وتقبيل يده وكثرة
أتباعه حتى إن أحدهم لو اضطر إلى أن يشتري حاجة من السوق
لم يفعل لئلا ينكسر جاهه ثم تترقى بهم رتبة الناموس إلى
أن لا يعودوا مريضا ولا يشهدوا جنازة إلا أن يكون عظيم القدر
عندهم ولا يتزاورون بل ربما ضن بعضهم على بعض فقد صارت
النواميس كالأوثان يعبدونها ولا يعلمون وفيهم من يقدم
على الفتوى بجهل لئلا يخلو ناموس التصدر ثم يعيبون العلماء
لحرصهم على الدنيا ولا يعلمون أن المذموم من الدنيا ما هم فيه
لا تناول المباحات ثم تأملت العلماء والمتعلمين فرأيت القليل
في المتعلمين من عليه أمارة النجابة لأن أمارة النجابة طلب العلم
للعمل به وجمهورهم يطلب منه ما يصيره شبكة للكسب إما ليأخذ
به قضاء مكان أو ليصير قاضي بلد أو قدر ما يتميز به عن أبناء
جنسه ثم يكتفي ثم تأملت العلماء فرأيت أكثرهم يتلاعب
به الهوى ويستخدمه فهو يؤثر ما يصده العلم عنه ويقبل
على ما ينهاه ولا يكاد يجد ذوق معاملة الله سبحانه وإنما همته
أن يقول إلا أن الله تعالى لا يخلي الأرض من قائم له بالحجة
جامع بين العلم والعمل عارف بحقوق الله خائف منه فذلك
قطب

صورة الصفحة الأخيرة من نسخة جامعة لايبزج (ل)

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الامام العالم، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي، رحمة الله تعالى عليه. الحمد لله حمداً يبلغ رضاه، وصلى الله على أشرف من اجتباه، وعلى من صاحبه ووالاه، وسلم تسليما لا يدرك منتهاه.

لما كانت الخواطر تجول في تصفح أشياء تعرض لها، ثم تعرض عنها فتذهب، كان من أولى الامور حفظ ما يخطر لكيلا ينسى. وقد قال عليه الصلاة والسلام: قيدوا العلم بالكتابة، وكم قد خطر لي شيء، فأتشاغل عن اثباته فيذهب، فأتأسف عليه. ورأيت من نفسي أنني كلما فتحت بصر التفكر، سنح له من عجائب الغيب، ما لم يكن في حساب فأنثال عليه من كثيب التفهيم ما لا يجوز التفريط فيه، فجعلت هذا الكتاب قيدا ـ لصيد الخاطر ـ والله ولي النفع أنه قريب مجيب.

١ ـ فصل ـ قد يعرض عند سماع المواعظ للسامع يقظة، فإذا انفصل عن مجلس الذكر عادت القسوة والغفلة. فتدبرت السبب في ذلك فعرفته ثم رأيت الناس يتفاوتون في ذلك، فالحالة العامة أن القلب لا يكون على صفة من اليقظة عند سماع الموعظة بعدها لسببين: أحدهما أن المواعظ كالسياط، والسياط لا تؤلم بعد انقضائها إيلامها وقت وقوعها، والثاني، أن حالة سماع المواعظ يكون الانسان فيها مزاح العلة، قد تخلى بجسمه وفكره عن أسباب الدنيا، وأنصت بحضور قلبه، فإذا عاد إلى الشواغل اجتذبته بآفاتها، وكيف يصح أن يكون كما كان. وهذه حالة تعم الخلق، إلا أن أرباب اليقظة يتفاوتون في بقاء الأثر، فمنهم من يعزم بلا تردد ويمضي من غير التفات، فلو

صورة الصفحة الأولى من نسخة طبعة الخانجي (ط)

٤٠٥

وكتمان ما لا يصلح اظهاره. ومن الغلط اطلاع الزوجة على قدر المال. فإنه إن كان قليلا هان عندها الزوج، وإن كان كثيرا طلبت زيادة الكسوة والحلي. قال الله عز وجل: «ولا تؤتوا السفهاء أموالكم» وكذلك الولد. وكذلك الاسرار، ينبغي أن تحفظ منها ومن الصديق. فربما انقلب فقد قال الشاعر:

احذر عدوك مرة ... واحذر صديقك ألف مره
فلربما انقلب الصديـ ... ـق فكان أعلم بالمضره

بحمد الله تعالى قد تجز ما توخاه الفكر القار من تقييد ما جمعه القلم من صيد الخاطر. مقتصرا فيه على ما به التخلي من الأمراض النفسية، والتحلي بالآداب الشرعية، والأخلاق المرضية. جعله الله تعالى خيرهاد على منبر الوعظ والارشاد. وأنفع كتاب تجلى في مرايا الظهور لهداية العباد.

والحمد لله أولا وآخرا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

صورة الصفحة الأخيرة من نسخة طبعة الخانجي (ط)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قـال الشـيخُ الإمامُ العالـمُ أبو الفـرج عبدُ الرحمنِ بنُ عليِّ بـنِ مُحمّدِ بنِ الجوزيِّ رحمةُ الله عليه[١]:

الحمدُ لله حمدًا يبلُغُ رضاه، وصلّى الله على أشرفِ منِ اجتباه، وعلى مَن صاحبَه ووالاه، وسلَّمَ تسليمًا لا يُدرَكُ مُنتهاه.

لمّـا كانـتِ الخواطِـرُ تجولُ في تصفُّحِ أشـياءَ تعرِضُ لها ثُـمّ تُعرِضُ عنها فتَذهَـب، كان مِـن أولـى الأمورِ حِفـظُ ما يخطُر؛ لكيلا يُنسـى. وقـد قال عليه الصلاة والسلام: «قَيِّدوا العِلمَ بالكِتاب»[٢].

وكـم قد خَطَر لي شـيءٌ فأتشـاغلُ عن إثباتِـه، فيذهبُ، فأتأسَّـفُ عليه، ورأيتُ مِن نفسي أنّني كُلّما فتحتُ بصرَ التفكُّرِ سنحَ لي مِن عجائبِ الغيبِ مـا لم يكُن في حِسـابِه، فانثال[٣] عليهِ مِن كثيـبِ التفهيمِ ما لا يجوزُ التفريطُ فيـه، فجعلتُ هذا الكِتابَ قيـدًا لـ«**صيدِ الخاطِر**»، والله وليُّ النفع، إنّه قريبٌ مُجيب.

---

(١) الافتتاحية عن (ح، ص، د، م، ك، ر، ق).

(٢) رواه الرامهرمـزي فـي المحـدث الفاصـل (٢٩٩)، وأبو الشـيخ فـي طبقـات المحدثيـن بأصبهان (٤: ١٤٢) مـن حديـث أنـس رضي الله عنـه مرفوعًا، والصواب فيه الوقف كمـا بيَّن الدارقطني في العلل (٢٣٨٩)، وللأثر طرق أخرى.

(٣) في (ف): «فينهال»، وانثال: انصبَّ وتتابع.

١- فَصْلٌ

[أثر الموعظة]

قـد يَعـرِضُ عِند سـماع المواعظِ للسـامعِ يقظةٌ، فإذا انفصـل عن مجلِسِ الذِّكـرِ عادتِ القسـاوةُ والغفلـةُ، فتدبَّرتُ السـببَ في ذلك، فعرَفتُـه، ثُمّ رأيتُ النـاس يتفاوتُـون فـي ذلك؛ فالحالـةُ العامّـةُ أنّ القلبَ لا يكُونُ علـى صِفةٍ مِن اليقظـةِ عِند سـماعِ الموعِظةِ بعدها لسـببَين؛ **أحدهما**: أنّ المواعِظَ كالسِّـياط، والسِّـياطُ لا تُؤلِمُ بعد انقِضائها إيلامَها وقتَ وقوعِها. **والثاني**: أنّ حالةَ سـماعِ المواعِظِ يكُونُ الإنسـانُ فيها مُزاحَ العِلّة، قد تخلّى بجسمِه وفكرِه عن أسبابِ الدنيـا، وأنصـتَ بحُضُورِ قلبِه، فإذا عاد إلى الشـواغِلِ اجتذبتْـه بآفاتِها، وكيف يصِحُّ أن يكُونَ كما كان، وهذه حالةٌ تعُمُّ الخلق؟!

إلا أنّ[١] أربـابَ اليقظـةِ يتفاوتُون في بقاءِ الأثر؛ فمنهم مَن يعزِمُ بلا تردُّد، ويمضـي مِن غيرِ التفات، فلو توقَّـفَ بهم رَكبُ الطبعِ لضجُّوا كما قال حنظلةُ عن نفسِـه: «نافَـقَ حنظلة»[٢]. ومِنهم أقوامٌ يميلُ بهِمُ الطبـعُ إلى الغفلةِ أحيانًا، ويدعُوهم ما تقدَّم مِن المواعِظِ إلى العملِ أحيانًا، فهم كالسُّنبُلةِ تُميلُها الرِّياح. وأقـوامٌ لا يُؤثِّـرُ فيهـم مـا سـمِعوا[٣] إلا بمِقـدارِ سـماعِه، كمـاءٍ دَحرَجتَهُ على صفوانٍ[٤].



---

(١) سقطت من (س، ك).

(٢) مسلم (٢٧٥٠)، من حديث حنظلة رضي الله عنه.

(٣) قوله: «ما سمعوا» عن (ف).

(٤) الصفوان: الحجر الأملس.

٢- فَصْلٌ

[جواذب الطبع إلى الدنيا]

جواذبُ الطبعِ إلى الدنيا كثيرة، ثُمّ هي مِن داخِلٍ ذكرِ الآخِرةِ أمرٌ خارِجٌ عنِ الطبعِ، ثُمّ هي مِن خارِج. ورُبّما ظنَّ مَن لا عِلمَ له أنّ جواذِبَ الآخِرةِ أقوى؛ لِما يسمعُ مِن الوعيدِ في القُرآن، وليس كذلك؛ لأنّ مَثَلَ الطبعِ في مَيلِهِ إلى الدنيا كالماءِ الجاري؛ فإنّه يطلبُ الهبوط، وإنّما رفعُهُ إلى فوقٍ يحتاجُ إلى الكُلَف.

ولهذا جاءت معارِفُ الشرعِ بالترغيبِ والترهيب، تُقوّي جُندَ العقل، فأمّا الطبعُ فجواذِبُه كثيرة، وليس العَجَبُ أن يَغلِبَ، إنّما العَجَبُ أن يُغلَبَ.

٣- فَصْلٌ

[تقدير العواقب]

مَن عايَنَ بعينِ بصيرتِه تناهيَ الأمورِ في بداياتِها نال خيرَها، ونجا من شرِّها، ومَن لم يَرَ العواقِبَ غَلَبَ عليه الحِسُّ، فعاد عليه بالألمِ ما طَلَبَ منه السلامةَ، وبالنَّصَبِ ما رجا منه الراحةَ، وبيانُ هذا في المُستقبَلِ يتبيَّنُ بذِكرِ الماضي، وهو أنّك لا تخلُو أن تكُون عَصَيتَ الله في عُمرِك، أو أطعتَه. فأين لذةُ معصيتِك؟ وأين تعبُ طاعتِك؟ هيهاتَ، رحلَ كُلٌّ بما فيه، فليت الذُّنُوبَ إذ تخلَّت خلَت!

وأزيدُك في هذا بيانًا: مَثِّلْ ساعةَ الموتِ الساعة، وانظُر إلى مرارةِ الحسراتِ على التفريط، ولا أقول: كيف تغلبُ حلاوةُ اللَّذات؟ لأنّ حلاوةَ اللَّذاتِ استحالَت حنظلًا، فبَقِيَت مرارةُ الأسى بلا مُقاوم. أتُراك ما علمتَ أنّ الأمرَ بعواقِبِه؟ فراقِبِ العواقِبَ تَسلَم، ولا تَمِلْ مع هوى الحِسِّ فتندَم.

٤- فَصْلٌ
[التفكُّر في عواقب الدنيا]

مَـن تفكَّـرَ في عواقِبِ الدنيا أخـذَ الحذر، ومن أيقنَ بطُـولِ الطريقِ تأهَّبَ للسَّـفرِ، مـا أعجـبَ أمرَك يـا من يُوقِنُ بأمـرٍ ثُمّ ينسـاه، ويتحقَّقُ ضـررَ حالٍ ثُمّ يغشـاهُ، ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]. تغلِبُـك نفسُـك على ما تظُنُّ، ولا تغلِبُها على ما تستيقنُ! أعجبُ العجائبِ سُـرورُك بغُرورِك، وسهوُك في لهوِك عمّا قد خُبِّئ لك! تغترُّ بصِحتِك وتنسى دُنُوَّ السَّقم، وتفرحُ بعافيتِك غافِلًا عن قُربِ الألم!

لقـد أراكَ مَصـرَعُ غيـرِك مصرعَـك، وأبدى مَضجَعُ سِـواك قبـل المماتِ مضجعَك. وقد شغلكَ نيلُ لذّاتِك عن ذِكرِ خرابِ ذاتِك: [الطويل]

كَأنّكَ لَم تَسـمَعْ بأخبـارِ مَن مَضى ... ولَم تَرَ في الباقِينَ[١] ما يَصنَعُ الدَّهرُ!
فإنْ كُنـتَ لا تَدرِي فتِلـكَ دِيارُهم ... مَحاها مَجالُ الرِّيحِ بَعدَكَ والقَطرُ[٢]!

كم رأيتَ صاحِبَ منزِلٍ ما نزلَ لَحدَهُ حتى نُزِل! وكم شاهدتَ واليَ قصرٍ وَلِيَه عدُوُّهُ لمّا عُزِل! فيا من كُلَّ لحظةٍ إلى هذا يسري، وفِعلُه فِعلُ من لا يفهمُ ولا يدري! [الطويل]

وكَيـفَ تنـامُ العَينُ وهْـيَ قَريرةٌ ... ولَم تَدرِ في أيِّ المَحلَّينِ تَنزِلُ؟!



(١) في (ح): «البازين».
(٢) في (ح): «والقبر».

٥- فَصْلٌ
[لا تحُم حول الحِمى]

مَـن قـاربَ الفِتنةَ بعُدت عنه السـلامة، ومَنِ ادَّعى الصبرَ وُكِلَ إلى نفسِـهِ، ورُبَّ نظرةٍ لم تُناظِر[(١)]، وأحقُّ الأشـياءِ بالضبطِ والقهرِ اللسـانُ والعينُ، فإيّاكَ إيّـاكَ أن تغتـرَّ بعَزمِك على تركِ الهوى مع مُقاربـةِ الفِتنة؛ فإنّ الهوى مُكايِد[(٢)]، وكم مِن شُجاعٍ في صفِّ الحربِ اغتيل، فأتاهُ ما لم يحتسِب ممَّن يأنفُ من[(٣)] النظـرِ إليـه، واذكُر حمزةَ مع وحشيٍّ. [الخفيف]

فتَبَصَّـرْ ولا تَشِـمْ كُلَّ بَـرقٍ[(٤)] ... رُبَّ بَـرقٍ فيـهِ صَواعِـقُ حَينِ[(٥)]
واغضُضِ الطَّرفَ تَستَرِحْ مِن غَرامٍ ... تكتَسِـي فيـهِ ثَـوبَ ذُلٍّ وشَـينِ
فبَـلاءُ الفَتـى مُوافَقـةُ النَّفـ ... ـسِ وبَدءُ الهَوى طُمُوحُ العَينِ[(٦)]

٦- فَصْلٌ
[أعظم المعاقبة]

أعظَمُ المعاقبةِ ألا يُحِسَّ المعاقَبُ بالعقوبة، وأشدُّ مِن ذلك يقعُ[(٧)] السُّرُورُ بما هو عُقوبةٌ كالفرحِ بالمالِ الحرام، والتمكُّنِ مِن الذُّنُوب. ومَن هذه حالُه لا يحـزنُ لفوتِ طاعة[(٨)]. وإنّي تدبَّرتُ أحوالَ أكثرِ العُلماءِ والمُتزهِّدين، فرأيتُهم في عُقوباتٍ لا يُحِسُّـون بها، ومُعظمُها مِن قِبَلِ طلبِهم للرياسـة. فالعالِمُ مِنهم

(١) لم تُناظِر: أي لم تُمهل صاحبها.
(٢) الهوى مُكايِد: عظيم الكيد واسع الحيلة.
(٣) سقطت من (ر، س، د).
(٤) شامَ البرقَ: نظر إليه أين يمطر.
(٥) الحَين: الهلاك.
(٦) الأبيات في مقامات الحريري (ص١٠٣).
(٧) أي: أن يقع، على حذف «أنْ»، وهو جائز.
(٨) في (ك، ح، س، د، م): «لا لفوت طاعة».

يغضبُ إن رُدَّ عليهِ خطؤه، والواعظُ مُتصنِّعٌ بوعظِه، والمُتزهِّدُ منافقٌ أو مُراءٍ. فأوّلُ عُقوباتِهِم إعراضُهم عنِ الحقِّ شُغُلًا بالخَلق، ومِن خفيِّ عُقوباتِهم[١] سلبُ حلاوةِ المُناجاة ولذّةِ التعبُّد.

ولولا رِجالٌ مُؤمنون ونساءٌ مُؤمِناتٌ يحفظُ الله بهم الأرض، بواطِنُهم كظواهِرهم بل أجلى، وسرائرُهم كعلانيتهم بل أحلى، وهِمَمُهم عِند الثريّا بل أعلى، إن عُرِفوا تنكَّرُوا، وإن رُئِيت لهم كرامةٌ أنكَرُوا، فالناسُ في غفلاتِهم، وهم في قَطعِ فَلاتِهم، تُحبُّهم بقاعُ الأرض، وتفرحُ بهم أملاكُ السماء. نسألُ الله عز وجل التوفيقَ لاتِّباعِهم، وأن يجعلَنا مِن أتباعِهم.

٧- فَصْلٌ

[من صُور الدناءة]

من علامةِ كمالِ العقلِ علوُّ الهمةِ، والراضي بالدُّونِ دنيٌّ. [الوافر]

وَلَمْ أَرَ في عُيُوبِ النّاسِ شَيئًا   كَنَقصِ القادِرِينَ عَلى التَّمامِ[٢]

٨- فَصْلٌ

[سبقُ محبة الله]

سبحان مَن سَبَقَت محبّتُه لأحبابِه، فمدحَهم على ما وهبَ لهم، واشترى مِنهم ما أعطاهم، وقدَّمَ المُتأخِّرَ مِن أوصافِهم لموضِعِ إيثارِهم، فباهى بهم في نَومهم، وأحبَّ خُلُوفَ أفواهِهم، يا لها مِن حالةٍ مصُونة، لا يقدِرُ عليها كُلُّ خاطب، ولا يبلُغُ كُنهَ[٣] وصفها[٤] كلُّ طالِب.

---

(١) في (ف): «عقوبتهم».

(٢) ديوان المتنبي (ص٤٨٣).

(٣) كنهُ الشيء: حقيقته.

(٤) سقط «كل طالب... وصفها» من (ف).

٩- فَصْلٌ
[دوامُ الاستعداد للرحيل]

الواجبُ على العاقلِ أخذُ العُدّةِ لرحيلِه، فإنّه لا يعلمُ متى يفجَؤُهُ أمرُ ربِّه، ولا يدري متى يُستدعى. وإنّي رأيتُ خلقًا كثيرًا غرَّهم الشباب، ونسُوا فقدَ الأقران، وألهاهم طُولُ الأمل.

ورُبّما قال العالِمُ المُحصِّنُ لنفسِه: «اشتغِل بالعِلمِ ثُمّ اعمَل به»، فيتساهلُ في الزَّللِ بحُجّة الراحة، ويُؤخِّرُ الرجاءَ لتحقيقِ التوبة، ولا يتحاشى مِن غِيبةٍ أو سماعِها، ومِن كسبِ شُبهةٍ يُؤمِّلُ أن يمحُوَها بالورع، وينسى أنّ الموتَ قد يبغَتُ. فالعاقلُ مَن أعطى كُلَّ لحظةٍ حقَّها مِن الواجِبِ عليه، فإن بغتَهُ الموتُ رُئِيَ مُستعِدًّا، وإن نال الأملَ ازداد خيرًا.

١٠- فَصْلٌ
[ما وجهُ معاقبة العُصاة ؟]

خطرَت لي فكرةٌ فيما يجري على كثيرٍ من العالَم من المصائبِ الشديدة، والبلايا العظيمةِ التي تتناهى إلى نهايةِ الصعوبة، فقُلت: سُبحانَ الله، إنّ الله أكرمُ الأكرمين، والكرمُ يُوجِبُ المُسامَحة، فما وجهُ هذه المُعاقَبة؟!

فتفكَّرتُ فرأيتُ كثيرًا مِن الناسِ في وُجودِهم كالعدم، لا يتصفَّحُون أدِلّة الوحدانية، ولا ينظُرُون في أوامِرِ الله تعالى ونواهيه، بل يجرُون على عاداتِهم كالبهائم، فإن وافق الشرعُ مُرادَهم قَبِلوه؛ وإلا فمُعوَّلُهم على أغراضِهم.

وبعد حُصولِ الدينارِ لا يُبالون: أمِن حلالٍ كان أم حرام؟ وإن سهُلت عليهم الصلاةُ فعلُوها، وإن لم تسهُل تركُوها. وفيهم من يُبارِزُ بالذنوبِ

العظيمةِ مع نوعِ معرفةِ الناهي. ورُبّما قوِيَت معرِفةُ عالِمٍ منهم وتفاقمَت ذُنُوبُه.

فعلِمـتُ أنّ العُقوبـاتِ ـ وإن عظُمَـت ـ دُون إجرامِهم، فـإذا وقعَت عُقوبةٌ لتُمحِّـصَ ذنبًـا صاح مُسـتغيثُهم: تُرى هذا بأيِّ ذنبٍ؟! وينسـى ما قـد كان مِمّا تتزلـزلُ الأرضُ لبعضِـه. وقد يُهانُ الشـيخُ في كِبَرِه حتـى ترحمَه القُلوب، ولا يـدرِي أنّ ذلـك لإهمالِه حقَّ الله تعالى في شـبابِه. فمتى رأيتَ مُعاقَبًا فاعلم أنّه لذُنوب!

١١- فَصْلٌ

[التحاسُد بين العلماء]

تأمَّلـتُ التحاسُـدَ بين العلمـاء، فرأيتُ منشـأَه من حُبِّ الدنيا، فـإنّ عُلماءَ الآخِرةِ يتوادُّون ولا يتحاسـدُون، كما قال عز وجل: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ﴾ [الحشر: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الحشر: ١٠].

وقـد كان أبو الـدَّرداءِ يدعُـو كُلَّ ليلـةٍ لجماعةٍ مِن إخوانِـه[١]. وقال الإمامُ أحمدُ بنُ حنبلٍ لولدِ الشافِعيّ: أبوكَ مِن السِّتّةِ الذين أدعُو لهم وقتَ السَّحَر[٢]. والأمـرُ الفـارِقُ بين الفِئتَين أنّ عُلماءَ الدنيا ينظرُون في الرياسـةِ فيها، ويُحِبُّون كثرةَ الجمعِ والثناء، وعُلماءَ الآخِرةِ بمعزلٍ مِن إيثارِ ذلك، وقد كانُوا يتخوَّفُونه، ويرحمُون من بُلِيَ به. وكان النَّخَعِيُّ لا يستنِدُ إلى سارية[٣]. وقال عَلقَمةُ: أكرهُ

(١) سير أعلام النبلاء (٢: ٣٥١).
(٢) سير أعلام النبلاء (٢٢: ٢٢٧).
(٣) رواه ابن المبارك في الزهد (١٠٩٩).

أن يُوطـأَ عَقِبـي، ويُقال: عَلقَمةُ[١]. وكان بعضُهم إذا جلس إليهِ أكثرُ مِن أربعةٍ قام عنهم[٢]. وكانُوا يتدافعُون الفتوى، ويُحبُّون الخُمُول.

ومَثـلُ القـوم كمَثلِ راكِـبِ البحرِ وقد خَبَّ[٣]، فعِندهُ شُـغلٌ إلـى أن يوقِنَ بالنجـاة، وإنّما كان بعضُهم يدعُو لبعضٍ ويسـتفيدُ مِنـه؛ لأنّهم ركبٌ تصاحبُوا فتوادُّوا، فالأيّامُ واللَّيالي مراحِلُهم إلى سفرِ الجنّة.

١٢- فَصْلٌ

[حياة الأتقياء]

مَـن أحبَّ تصفيـةَ الأحوال، فليجتهدْ في تصفيةِ الأعمـال؛ قال عز وجل: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦]. وقـال النبـيُّ ﷺ فيما يروي عن ربِّه عز وجل: «لو أنّ عِبادي أطاعُوني لسقيتُهم[٤] المطرَ بالليل، وأطلعتُ عليهم الشـمسَ بالنهار، ولم أُسـمِعهم صوتَ الرَّعدِ»[٥]. وقال ﷺ: «البِرُّ لا يَبلى، والإثمُ لا يُنسى، والدَّيّانُ لا ينام، وكما تدينُ تُدانُ»[٦].

وقال أبو سُليمانَ الداراني: مَن صَفَّى صُفِّيَ له، ومَن كدَّرَ كُدِّرَ عليه، ومَن أحسنَ في ليلِهِ كُوفِئَ في نهارِه، ومَن أحسنَ في نهارِهِ كُوفِئَ في ليلِه[٧].

---

(١) رواه زهير بن حرب في العلم (٢٤).
(٢) رواه زهير بن حرب في العلم (٤٥).
(٣) خبَّ البحرُ: اضطرب.
(٤) في (ف): «أسقيتهم».
(٥) رواه أحمـد (٨٧٠٨)، وفيـه صدقـة بن موسـى وهو ضعيف، وفيه سـمير بن نهار، قـال الذهبي في ميزان الاعتدال (٢: ٢٣٤): نكرة.
(٦) رواه عبد الـرزاق فـي مصنفـه (٢١٣٣٣)، والبيهقـي في الأسـماء والصفـات (١٣٢)، وقال: «هذا مرسل»، ورواه ابن عدي في الكامل في ضعفاء الرجال (٧: ٣٥٠) من طريق محمد بن عبد الملك وهو متَّهم.
(٧) رواه عبد الجبار الخولاني في تاريخ داريا (ص١١٧)، وأبو نعيم في الحلية (٩: ٢٥٥).

وكان شيخٌ يدُورُ في[1] المجالِسِ ويقول: مَن سرَّه أن تدُومَ له العافيةُ فليتَّقِ الله عز وجل[2].

وكان الفُضَيلُ بنُ عياضٍ يقول: إنّي لأعصي الله فأعرِفُ ذلك في خُلُق دابَّتي وجاريتي[3].

واعلم ـ وفَّقك الله ـ أنّه لا يُحِسُّ بضربةٍ مُبَنَّجٌ[4]، وإنّما يعرِفُ الزيادةَ مِن النُّقصانِ المُحاسِبُ لنفسِه، ومتى رأيتَ تكديرًا في حالٍ فاذكُر نِعمةً ما شُكِرَت، أو زلّةً قد فُعِلَت، واحذَر مِن نِفارِ النِّعَم، ومُفاجأةِ النِّقَم، ولا تغترَّ بسَعةِ بساطِ الحِلم، فرُبّما عُجِّلَ انقباضُه، وقد قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد: ١١]. وكان أبو عليٍّ الرُّوذباريُّ[5] يقول: مِن الاغترارِ أن تُسيءَ فيُحسَنَ إليك فتتركَ التوبةَ توهُّمًا أنّك تُسامَحُ في الهفوات.

١٣- فَصْلٌ
[أنواع التكليف]

تفكَّرتُ يومًا في التكليفِ، فرأيتُه ينقسمُ إلى سهلٍ وصعب، فأمّا السهلُ فهو أعمالُ الجوارِح، إلا أنّ مِنهُ ما هو أصعبُ مِن بعض؛ فالوضوءُ والصلاةُ أسهلُ مِن الصومِ، والصومُ رُبّما كان عِند قومٍ أسهلَ من الزكاة. وأمّا الصعبُ

---

(١) عن (ف).
(٢) رواه ابن الجوزي في ذم الهوى (ص١٨٥).
(٣) رواه أبو نعيم في الحلية (٨: ١٠٩).
(٤) البَنج بفتح الباء: نبت له حبٌّ، إذا شربه الإنسان خُولط عقله وأورثه النوم، وهو معروف.
(٥) هو أبو علي محمد بن أحمد بن القاسم الروذباري، من كبار الصوفية، أصله من بغداد، سكن مصر، وكان من أهل الفضل، وله تصانيف حسان في التصوف، تُوفي سنة ٣٢٢هـ. انظر: تاريخ بغداد (٢: ١٨٠)، والخبر رواه أبو نعيم في الحلية (١٠: ٣٥٧).

فيتفاوتُ، فبعضُها أصعبُ مِن بعض، فمِن المُستصعَبِ النظرُ والاستدلالُ المُوصِلانِ إلى معرفةِ الخالِق، فهذا صعبٌ عِند من غلبَ عليه أمُورُ الحِسّ، سهلٌ عِند أهلِ العقل.

ومِن المُستصعَبِ غلبةُ الهوى، وقهرُ النفُوس، وكفُّ أكُفِّ الطِّباعِ عنِ التصرُّف فيما يُؤثِرُه، وكُلُّ هذا يسهُلُ على العاقلِ النظرُ في ثوابِه، ورجاءُ عاقبتِه وإن شقَّ عاجِلًا.

وإنما أصعبُ التكاليفِ وأعجبُها أنّه قد ثبتَت حِكمةُ الخالقِ عِند العقل، ثُمّ يراهُ المُتشاغِل[1] بالعِلمِ المُقبِل على العِبادةِ حتّى يعضَّهُ الفقرُ بناجِذَيه، فيذِلُّ للجاهلِ في طلبِ القُوت، ويُغني الفاسِقَ مع الجهلِ حتّى تفيضَ الدنيا عليه. ثُمّ تراهُ يُنشئ الأجسامَ ويُحكِمها، ثُمّ ينقُضُ بناءَ الشبابِ في مبدأ أمرِه وعِند استكمالِ بنائه فإذا بِهِ قد عاد هشيمًا. ثُمّ تراهُ يُؤلِمُ الأطفالَ حتّى يرحَمَهم كُلُّ طبع، ثُمّ يُقالُ له: إيّاك أن تشُكَّ في[2] أنّه أرحمُ الراحِمين. ثُمّ يسمعُ بإرسالِ مُوسى إلى فِرعونَ، ويُقال له: اعتقِد أنّ الله تعالى أضلَّ فِرعونَ، واعلم أنّه ما كان لآدمَ بُدٌّ مِن أكلِ الشجرة، وقد وُبِّخَ بقولِه: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ[3]﴾ [طه: ١٢١].

وفي مِثلِ هذه الأشياءِ تحيَّرَ خلقٌ حتّى خرجُوا إلى الكُفرِ والتكذيب، ولو فتَّشُوا على سرِّ هذه الأشياءِ لعلِموا أنّ تسليمَ هذه الأُمُورِ تكليفُ العقلِ ليُذعِن، وهذا أصلٌ إذا فُهِمَ حصَّلَ السلامةَ والتسليم. نسألُ الله عز وجل أن يكشِفَ لنا من الغوامِض التي حيَّرَت مَن ضلَّ، إنّهُ قريبٌ مُجيب.

---

(١) في (ط): «يُفقِر المتشاغلَ».

(٢) سقطت من (ر، س، ق).

(٣) ليست «فغوى» في (ص، د، م).

١٤- فَصْلٌ
[شرفُ الزمان]

ينبغي للإنسـانِ أن يعرفَ شرفَ زمانِه وقدرَ وقتِه، فلا يُضيِّع مِنه لحظةً في غيـر قُربة، ويُقـدِّمَ الأفضلَ فالأفضلَ مِن القولِ والعمـل، ولتكُن نيتهُ في الخيرِ قائمةً مِن غير فُتورٍ بما لا[1] يعجِزُ عنه البدنُ مِن العمل، كما جاء في الحديث: «نيةُ المُؤمِنِ خيرٌ مِن عملِه»[2].

وقـد كان جماعـةٌ مِـن السـلفِ يُبـادِرُون اللَّحظـات، فنُقِـل عن عامِـرِ بنِ عبدِ قيسٍ[3] أنّ رجُلًا قال له: كلِّمني، فقال له: أمسِكِ الشمسَ.

وقـال ابنُ ثابـتٍ البُنانـيّ: ذهبـتُ أُلقِّنُ أبي، فقـال: يا بُنيَّ دَعنـي، فإنّي في وِردي السادس[4].

ودخلُـوا على بعضِ السـلف عِنـد موتِهِ وهو يُصلّي، فقيل لـه، فقال: الآن تُطوى صحيفتي[5].

فإذا علِم الإنسانُ أنّه[6] وإن بالغَ في الجِدّ، فإنّ الموتَ يقطعهُ عنِ العمل؛ عمِلَ في حياتِهِ ما يدُومُ لهُ أجرُه بعد موتِه، فإن كان لهُ شيءٌ مِن الدنيا وقفَ وقفًا،

---

(١) عن (ف).

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٦٤٤٥) وضعَّفه، والقضاعي في مسند الشهاب (١٤٧)، ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٥٩٤٢) وفيه حاتم بن عباد بن دينار، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢١٢): لم أر من ذكر له ترجمة.

(٣) هو عامر بن عبد قيس التميمي العنبري البصري، أحد ثقات التابعين وزهادهم ومقرئيهم، تُوفي في زمن معاوية، انظر: سير أعلام النبلاء (٤: ١٥)، والخبر رواه ابن الجوزي في حفظ العمر (ص٤٥).

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية (٢: ٣٢٢).

(٥) رواه البيهقي في الزهد الكبير (٤٩٠).

(٦) عن (ف).

وغـرسَ غرسًـا، وكَرى نهرًا، ويسـعى في تحصيـلِ ذُرّيةٍ تذكُـرُ الله بعدهُ فيكُونُ الأجرُ له، أو أن يُصنِّفَ كِتابًا مِن العِلم؛ فإنّ تصنيفَ العالِم ولدُه المُخلَّد، وأن يكُونَ عامِلًا بالخير، عالِمًا فيه، فيُنقَلَ مِن فِعلهِ ما يقتدي الغيرُ به، فذلك الذي لم يمُت.

[البسيط]

.... قَد ماتَ قَومٌ وهُم في النّاسِ أحياءُ[١]

١٥ ـ فَصْلٌ

[شرف الغنى ومُخاطرة الفقر]

رأيـتُ مـن أعظمِ حِيَلِ الشـيطانِ ومكرِه أنه يخبِطُ أربـابَ الأموال بالآمال والتشـاغُلِ[٢] باللـذاتِ القاطعـةِ عـن الآخـرةِ وأعمالِها، فـإذا أهلكَهـم بالمالِ تحريضًـا على جمعِـه، وحثًّا على تحصيلِه، وأمرَهم بحراسـتِهِ بُخلًا به، فذلك مِن متينِ حِيَلِه، وقويِّ مكرِه.

ثُـمّ دفـنَ فـي هـذا الأمـرِ مِن دقائـقِ الحِيَـلِ الخفيّـةِ أن خـوَّفَ مِـن جمعِهِ المُؤمِنيـن، فنفَّـرَ طالـبَ الآخِرة مِنه، وبـادرَ التائبَ يُخرِجُ ما في يـدِه، ولا يزالُ الشـيطانُ يُحرِّضُـه على الزُّهد، ويأمُـرهُ بالترك، ويُخوِّفُه مِن طُرقاتِ الكسـب؛ إظهارًا لنُصحِهِ وحِفظِ دينه، وفي خفايا ذلك عجائبُ مِن مكرِه.

ورُبّما تكلَّمَ الشيطانُ على لسانِ بعضِ المشايخِ الذين يقتدي بهم التائبُ، فيقـولُ لـه: اخرُج مِـن مالِكَ وادخُل في زُمـرة الزُّهّاد، ومتى كان لـكَ غداءٌ أو

---

(١) عجـز بيـت لمعروف الكرخي في تاريخ بغـداد (١٥: ٢٦٣)، وصدره: «موتُ التقيّ حياةٌ لا انقطاعَ لها».

(٢) في (س، م): «بالآمال في التشاغل».

عشاءٌ فلستَ مِن أهلِ الزُّهد، ولا تنالُ مراتِبَ العزم. ورُبّما كرَّرَ عليهِ الأحاديثَ البعيدةَ عنِ الصحة، والوارِدةَ على سببٍ ولِمعنًى.

فإذا أخرجَ ما في يدِه، وتعطَّلَ عن مكاسِبهِ، عاد يُعلِّقُ طمعَه بصِلةِ الإخوان، أو يُحسِّنُ عِندهُ صُحبةَ السُّلطان؛ لأنّهُ لا يقوى على طريقِ الزُّهدِ والتركِ إلا أيّامًا، ثُمّ يعودُ الطبعُ فيتقاضى مطلُوباتِه، فيقعُ في أقبحَ مِمّا فرَّ مِنه، ويبذُلُ أوّلَ السَّلَعِ في التحصيلِ دينَهُ وعِرضَه، ويصيرُ مُتَمَندَلًا به[1]، ويقفُ في مقامِ اليدِ السُّفلى.

ولو أنّه نظرَ في سِيَرِ الرِّجالِ ونُبَلائهم، وتأمَّلَ صِحاحَ الأحاديثِ عن رُؤسائهم؛ لعَلِم أنّ الخليلَ عليه الصلاة والسلام كان كثيرَ المالِ حتّى ضاقَت بلدتُهُ بمواشيه، وكذلك لُوطٌ عليه الصلاة والسلام، وكثيرٌ من الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام، والجمُّ الغفيرُ من الصحابة، وإنّما صبرُوا عِند العُدم، ولم يمتنِعُوا مِن كسبِ ما يُصلِحهم، ولا مِن تناوُلِ المُباحِ عِند الوُجود. وكان أبو بكرٍ رضي الله عنه يخرُجُ للتِّجارةِ والرسُولُ ﷺ حيٌّ.

وكان أكثرُهم يُخرِجُ فاضِلَ ما يأخُذُ مِن بيتِ المال، ويسلَمُ مِن ذُلِّ الحاجةِ إلى الإخوان. وقد كان ابنُ عُمر لا يردُّ شيئًا، ولا يسأل[2].

وإنّي تأمَّلتُ على أكثرِ أهلِ الدِّين والعِلم هذه الحال، فوجدتُ العِلمَ شغَلَهم عنِ المكاسِبِ في بداياتِهم، فلمّا احتاجُوا إلى نُفوسِهم ذلُّوا، وهم أحقُّ بالعِزِّ، وقد كانُوا قديمًا يكفيهم مِن بيتِ المالِ فَضَلاتُ الإخوان، فلمّا عُدِمَت في هذا الأوانِ لم يقدِر مُتديِّنٌ على شيءٍ إلا ببذلِ شيءٍ مِن دينِه، وليتهُ قدَر، فرُبّما تلِفَ الدِّينُ ولم يحصُل له شيءٌ.

---

(١) ويصير مُتمندَلًا به: أي مُمتهَنًا كالمِنديل يُمسَح به الأقذار ويُرمى.

(٢) مسلم (١٠٤٥) من حديث عمر رضي الله عنه بمعناه.

فالواجبُ على العاقِلِ أن يحفظَ ما معه، وأن يجتهِدَ في الكسبِ ليربحَ مُداراةَ ظالم أو مُداهنةَ جاهل، ولا يلتفتَ إلى تُرَّهاتِ المُتصوِّفةِ الذين يدَّعُون في الفقرِ ما يدَّعون، فما الفقرُ إلا مرضُ العَجَزة، وللصابرِ على الفقرِ ثوابُ الصابرِ على المرض، اللهمّ إلا أن يكُونَ جبانًا عن التصرُّف، مُقنَّعًا بالكفاف؛ فليس ذلك مِن مراتِبِ الأبطال، بل هُو مِن مقاماتِ الجُبناءِ الزُّهّاد.

وأما الكاسبُ(١) ليكونَ المُعطِيَ لا المُعطَى، والمُتصدِّقَ لا المُتصدَّقَ عليه؛ فهي مراتبُ الشُّجعانِ الفُضلاء، ومَن تأمَّل هذا علِمَ شرفَ الغِنى ومُخاطرةَ الفقر(٢).

١٦- فَصْلٌ
[فوات الحُظوظ]

تأمَّلتُ أحوالَ الفُضلاءِ، فوَجَدتُهم - في الأغلب - قد بُخِسُوا من حظوظ الدنيا، ورأيتُ الدنيا - غالبًا - في أيدي أهلِ النقائص، فنظرتُ في الفُضلاءِ، فإذا هم يتأسَّفون على ما فاتهم مِمّا ناله أولُو النقص، ورُبّما تقطَّع بعضُهم أسفًا على ذلك.

فخاطبتُ بعض المُتأسِّفين فقلتُ له: ويحكَ، تدبَّرْ أمرَك؛ فأنتَ غالِطٌ من وُجوه:

أحدها: أنّه إن كانت لك هِمّةٌ في طلبِ الدنيا فاجتهِد في طلبها تربحِ التأسُّفَ على فوتِها؛ فإنّ قُعودَك مُتأسِّفًا على ما ناله غيرُك مع قُصور اجتهادِك غايةُ العجز.

---

(١) في سائر النسخ: «المكاسب»، والمثبت عن (م) وحاشية (ق).
(٢) سقطت من (ح، ص).

والثاني: أنّ الدنيا إنّما تُرادُ لتُعبَر لا لتُعمَر، وهذا هو الذي يدُلُّك عليهِ عِلمُك ويبلُغهُ[١] فَهمُك، وما ينالُه أهلُ النقص من فُضولِها يُؤذي أبدانَهم وأديانَهم، فإذا عرَفتَ ذلك ثُمّ تأسَّفتَ على فقدِ ما فقدُه أصلحُ لكَ، كان تأسُّفُكَ عُقوبةً لتأسُّفِكَ على ما تعلَمُ المصلحةَ في بُعدِه، فاقنعْ بذلِك عذابًا عاجلًا إن سلِمتَ مِن العذابِ الآجِل.

والثالث: أنّك قد علِمتَ بخسَ حظِّ الآدميِّ في الجُملةِ[٢] مِن مطاعمِ الدنيا ولذّاتِها بالإضافة إلى الحيوانِ البهيم؛ لأنّهُ ينالُ[٣] ذلك أكثرَ مِقدارًا مع أمن، وأنتَ تنالُه مع خوفٍ وقِلّةِ مِقدار، فإذا ضُوعِفَ حظُّك مِن ذلك لجِنسِك كان لاحِقًا بالحيوانِ البهيمِ مِن جِهةِ أنّه يشغلُه ذلك عن تحصيلِ فضائل، وتخفيفُ المُؤنِ يحُثُّ صاحِبَه على نيلِ مراتِب.

فإذا آثرتَ ـ مع قِلّةِ الفُضولِ ـ الفُضولَ، عُدتَ على ما علِمتَ بالإزراء، فشِنتَ عِلمَك[٤]، ودلَّلتَ على اختلاطِ رأيك.

١٧- فَصْلٌ
[عِصيانُ العلماء]

تأمَّلتُ إقدامَ العُلماءِ بالعِقابِ على شهواتِ النفسِ المنهيِّ عنها، فرأيتُها مَرتبةً تُزاحِمُ الكُفرَ لولا تَلَوُّحُ معنًى، وهو أنّ الناسَ عِند مُواقعةِ المحظُورِ ينقسِمُون:

فمِنهم جاهلٌ بالمحظورِ أنّه محظُور، فهذا نوعُ عذر.

---

(١) في (ك، س، م): «أو يبلغه».
(٢) سقط «في الجملة» من (ف).
(٣) في (د): «لأنه لا ينال».
(٤) سقط «فشنت علمك» من (ف).

ومِنهم من يظُنُّ المحظُورَ مكرُوهًا لا مُحرَّمًا، فهذا قريبٌ مِن الأوّل، ورُبّما دخل في هذا القِسم آدمُ ﷺ.

ومِنهم من يتأوَّلُ فيغلَط، كما يُقال: إنّ آدمَ عليه الصلاة والسلام نُهِيَ عن شجرةٍ بعينِها فأكل من جنسِها لا مِن عينِها.

ومِنهم مَن يعلمُ التحريم، غيرَ أنّ غلباتِ الشهوةِ[1] أنسَتْهُ تذكُّرَ ذلك، فشغلهُ ما رأى عمّا يعلم؛ ولهذا لا يذكُر السارِقُ القطعَ، بل يغيبُ بكُلّيتِهِ في نيلِ الحظّ. ولا يذكُر راكِبُ الفاحِشةِ الفضيحةَ ولا الحدَّ؛ لأنّ ما يرى يُذهِلُهُ عمّا يعلم.

ومِنهم مَن يعلمُ الحظرَ ويذكُرُه، غيرَ أنّه يعلمُ سعةَ العفوِ وعُمُومَ المُسامحة، فيجعلُ في نفسِهِ التوبةَ وإن قدَّم المعصية، كما قال إخوةُ يُوسُف: ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ٩]، فهذا مُخاطِر، ورُبّما استنقذَ بالتوبة؛ لأنّهُ رأى عفوَ الكريمِ أعظمَ من ذنبه[2]، غيرَ أنّ الأخذَ بالحزمِ أولى بالعاقِل، كيف وقد علمَ أنّ هذا الملِكَ الحكيمَ قطعَ اليدَ في رُبعِ دينار، وهدمَ بناءَ الجِسمِ المُحكَمِ بالرَّجمِ بالحِجارةِ لالتِذاذِ ساعة، وخسفَ، ومسخَ، وأغرقَ؟!

١٨ - فَصْلٌ
[قانونُ العدل]

مَن تأمَّلَ أفعالَ الباري سبحانه، رآها على قانونِ العدل، وشاهدَ الجزاءَ مُرصَدًا للمُجازى ولو بعد حين، فلا ينبغي أن يغترَّ مُسامَح؛ فالجزاءُ قد يتأخَّر.

---

(١) في (ك، م): «غلبات الشهوات»، وفي (س): «غليان الشهوات».
(٢) من قوله: «غير أنه يعلم» إلى هنا عن (ف، ر).

ومِـن أقبـحِ الذُّنُوبِ التي قد أُعِدَّ لها الجزاءُ العظيـمُ: الإصرارُ على الذنب، ثُمّ يُصانِعُ صاحِبُه باستغفار، وصلاة، وتعبُّد، وعِنده أنّ المُصانَعةَ تنفعُ.

وأعظـمُ الخلـقِ اغتـرارًا مَن أتى مـا يكرَهُه الله تعالى، وطلبَ مِنـهُ ما يُحِبُّه هـو، كمـا رُوِيَ في الحديـث: «والعاجِزُ مَن أتبعَ نفسَـهُ هواها، وتمنّى على الله الأمانيّ»[١].

ومِمّا ينبغي للعاقِلِ أن يترصَّدَه وُقوعُ الجزاء؛ فإنّ ابنَ سـيرينَ قال: عيَّرتُ رجُلًا فقُلت: «يا مُفلِس»، فأفلستُ بعد أربعين سنة[٢].

وقـال ابنُ الجَـلّاء[٣]: رآنـي شـيخٌ لـي وأنا أنظرُ إلـى أمردَ فقـال: ما هذا؟ لَتجِدَنَّ غِبَّها، فنسيتُ القُرآنَ بعد أربعين سنة.

وبالضـدِّ مِـن هـذا[٤] كُلُّ مَـن عملَ خيـرًا أو صحَّحَ نيـةً، فلينتظِـر جزاءَها الحسـن، وإنِ امتـدَّتِ المُـدّةُ؛ قال الله عز وجـل: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسـف: ٩٠]، وقال عليه الصلاة والسـلام: «مَن غضَّ بصرَه عن محاسِنِ امرأةٍ، أثابهُ الله تعالى إيمانًا يجِدُ حلاوتَهُ في قلبِه»[٥]. فليعلمِ العاقِلُ أنّ ميزانَ العدلِ لا يُحابي.

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٠)، وفيه أبو بكر بن أبي مريم، وهو ضعيف.

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٢: ٢٧١).

(٣) هـو زاهد الشـام أبو عبـد الله أحمد ـ أو محمد ـ بن يحيى، بغدادي سـكن الشـام، صحب أبا تراب الخشـني، وذا النون المصري، وتُوفي سـنة ٣٠٦هـ. انظر: سـير أعلام النبلاء (١٤: ٢٥١)، والخبر في الرسالة القشيرية (١: ٨٤).

(٤) من قوله: «لتجدن» إلى هنا سقط من (ر).

(٥) رواه أحمد (٢٢٢٧٨)، والطبراني في الكبير (٧٨٤٢)، وفيه علي بن يزيد الألهاني وهو ضعيف.

١٩- فَصْلٌ
[انحرافُ غلاة الصوفية]

تأمَّلتُ أحوالَ الصوفية والزُّهّاد، فوجدتُ أكثرَها مُنحرِفًا عن الشريعةِ بين جهلٍ بالشرع وابتداعٍ بالرأي، يستدلُّون بآياتٍ لا يفهَمون معناها، وبأحاديثَ لها أسبابٌ وجمهورُها لا يثبُت.

فمِن ذلك: أنّهم سمِعُوا في القُرآنِ العزيز: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] ﴿أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ﴾ [الحديد: ٢٠]، ثُمّ سمِعُوا في الحديث: «لَلدنيا أهوَنُ على الله مِن شاةٍ ميتةٍ على أهلها»[١]، فبالغُوا في هجرها من غير بحثٍ عن حقيقتها؛ وذلك أنّه ما لم يعرِفْ حقيقةَ الشيء فلا يجوزُ أن يَمدَحَ، ولا أن يَذُمَّ.

فإذا بحثنا عن الدنيا رأينا هذه الأرضَ البسيطةَ التي جُعِلت قرارًا للخلقِ يخرُجُ منها أقواتُهم، ويُدفَنُ فيها أمواتُهم، ومِثلُ هذا لا يُذَمُّ؛ لموضع المصلحة فيه، ورأينا ما عليها مِن ماءٍ وزرعٍ وحيوانٍ، كُلُّه لمصالحِ الآدميّ، وفيهِ حِفظٌ لسببِ بقائه، ورأينا بقاءَ الآدميِّ سببًا لمعرفةِ ربِّه، وطاعتِهِ إيّاه، وخِدمتِه، وما كان سببًا لبقاءِ العارفِ العابدِ يُمدَحُ ولا يُذَمُّ.

فبان لنا أنّ الذمَّ إنّما هو لأفعالِ الجاهِلِ أوِ العاصي في الدنيا؛ فإنّهُ إذا اقتنى المالَ المُباحَ وأدّى زكاتَه لم يُلَمْ، فقد عُلِمَ ما خلَّفَ الزُّبيرُ وابنُ عوفٍ وغيرُهما، وبَلَغَتْ صدقةُ عليٍّ رضي الله عنه أربعين ألفًا، وخلَّف ابنُ مسعودٍ تِسعين ألفًا، وكان الليثُ بنُ سعدٍ يستغلُّ[٢] ....

(١) رواه مسلم (٢٩٥٧) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) يستغل: أي تبلغ غلَّة أرضه.

كُلَّ سنةٍ عِشرين ألفًا[(١)]، وكان سُفيانُ يتَّجِرُ بمال، وكان ابنُ مهديٍّ يستغلُّ كُلَّ سنةٍ ألفَي دينار.

وإنْ أكثرَ من النكاح والسَّراريّ كان ممدُوحًا لا ملومًا[(٢)]؛ فقد كان للنبيِّ ﷺ زوجاتٌ وسراريّ، وجمهورُ الصحابة كانوا على الإكثارِ مِن ذلك، وكان لعليِّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه أربعُ حرائرَ، وسبعَ عشرةَ أمةً، وتزوّجَ ولدُه الحسنُ نحوًا مِن أربعِمئةٍ[(٣)].

فإن طلبَ التزوُّجَ للأولادِ فهو الغايةُ في التعبُّد، وإن أراد التلذُّذَ فمُباحٌ يندرجُ فيهِ مِن التعبُّدِ ما لا يُحصى مِن إعفافِ نفسِهِ والمرأة، إلى غيرِ ذلك.

وقد أنفقَ موسى عليه السلام من عُمرِه الشريفِ عشرَ سِنين في مهرِ بنتِ شُعيب، فلولا أنّ النِّكاحَ من أفضلِ الأشياء لَما ذهبَ كثيرٌ من زمانِ الأنبياءِ فيه، وقد قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: «خيارُ هذه الأُمّة أكثرُها نِساءً»[(٤)]، وكان يطأُ جاريةً له ويُنزِلُ في أُخرى.

وقالت سُرِّيّةُ الرَّبيعِ بنِ خُثَيم: كان الرَّبيعُ يعزِلُ.

وأمّا المَطعمُ فالمُرادُ مِنهُ تقويةُ هذا البدنِ لخِدمةِ الله عز وجل، وحقٌّ على ذي الناقةِ أن يُكرِمَها لتحمِلَه، وقد كان النبي ﷺ يأكُلُ ما وجَد، فإن وجَد اللحمَ أكلَه، ويأكُلُ لحمَ الدَّجاج[(٥)]، ....

(١) سقطت من (ح).

(٢) في (م): «مذمومًا».

(٣) ذكر خبر سيدنا عليّ: أبو طالب المكي في قوت القلوب (٢: ٤٠٨)، وخبر الحسن في سير أعلام النبلاء (٣: ٢٥٣)، وقد أوصى أبوه الناس ألا يزوِّجه الناس، ولكنهم أبَوا لنيل شرف النسب.

(٤) البخاري (٥٠٦٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) البخاري (٥٥١٧) من حديث أبي موسى رضي الله عنه بمعناه.

وأحبُّ الأشياءِ إليهِ الحلوى والعسل[١]، وما نُقِلَ عنهُ أنّه امتنعَ مِن مُباح.

وجيء عليٌّ رضي الله عنه بفالُوذَجٍ فأكلَ مِنه، وقال: ما هذا؟ قالوا: يومُ النَّيرُوز، فقال: نَورِزوا كُلَّ يوم[٢].

وإنّما يُكرَهُ الأكلُ فوقَ الشِّبَع، واللُّبسُ على وجهِ الاختيالِ والبَطَر. وقدِ اقتنعَ أقوامٌ بالدُّونِ مِن ذلك؛ لأنّ الحلالَ الصافيَ لا يكادُ يُمكِنُ فيهِ تحصيلُ المُرادِ، وإلا فقد لبِسَ النبيُّ ﷺ حُلّةً اشتُرِيَت بسبعةٍ وعِشرين بعيرًا[٣]. وكان لتميمٍ الداريِّ حُلّةٌ اشتُرِيَت بألفِ دِرهم، يُصلّي فيها بالليل[٤].

فجاء أقوامٌ فأظهرُوا التزهُّد، وابتكرُوا طريقةً زيَّنَها لهم الهوى، ثُمّ تطلَّبُوا لها الدليل، وإنّما ينبغي للإنسانِ أن يتَّبعَ الدليلَ لا أن يتَّبعَ طريقًا ويتطلَّبَ دليلَها. ثُمّ انقسمُوا.

فمِنهم مُتصنِّعٌ في الظاهِرِ، ليثُ الشَّرى في الباطِن، يتناولُ في خَلواتِهِ الشهوات، وينعكِفُ على اللذّات، ويُري الناسَ بزيِّهِ: أنِّي[٥] مُتصوِّف مُتزهِّد، وما تزهَّد إلا القميص، وإذا نظر إلى أحوالِهِ فعِندهُ كِبرُ فِرعون.

ومِنهم سليمُ الباطِن، إلا أنّه بالشرعِ جاهِل.

ومِنهم مَن تصدَّرَ وصنَّف، فاقتدى بِهِ الجاهِلُون في هذه الطريقة، وكانوا كعُميٍ اتبعُوا أعمى، ولو أنّهم تلمَّحُوا الأمرَ الأوّلَ الذي كان عليهِ الرسولُ ﷺ والصحابةُ رضي الله عنهم لَما زلُّوا.

---

(١) البخاري (٦٩٧٢)، ومسلم (١٤٧٤) عن عائشة رضي الله عنها بمعناه.

(٢) رواه البخاري في التاريخ الكبير (٥: ٣١٢) بمعناه.

(٣) رواه ابن سعد في الطبقات (١: ٣٩٧) عن ابن سيرين مرسلًا.

(٤) رواه ابن سعد في الطبقات (٦: ٢٥٦). (٥) في (د): «أنّه».

ولقد كان جماعةٌ مِن المُحقِّقين لا يُبالُون بمُعظَّمٍ في النفُوس إذا حاد عن الشريعة، بل يُوسِعُونه لومًا؛ فنُقِل عن أحمدَ أنّه قال له المَرُّوذِيّ(١): ما تقولُ في النِّكاح؟ فقال: سُنّةُ النبي ﷺ، فقال: فقد قال إبراهيمُ بنُ أدهمَ(٢)، قال: فصاح بي وقال: جِئتنا ببُنَيّاتِ الطريق(٣)؟!

وقيل له: إنّ سَرِيًّا السَّقَطيَّ(٤) قال: لمّا خلقَ اللهُ تعالى الحُروفَ وقف الألِفُ وسجدتِ الباء، فقال: نفِّرُوا الناسَ عنه.

واعلم أنّ المُحقِّقَ لا يهولُه اسمُ مُعظَّمٍ، كما قال رجُلٌ لعليِّ بنِ أبي طالِبٍ رضي الله عنه: أتظنُّ أنّا نظُنُّ أنّ طلحةَ والزُّبيرَ كانا على الباطِلِ؟ فقال له: إنّ الحقَّ لا يُعرَفُ بالرجال، اعرِفِ الحقَّ تعرِفْ أهلَه.

ولَعَمري إنّهُ قد وَقَرَ في النفُوس تعظيمُ أقوام، فإذا نُقِلَ عنهم شيءٌ فسمعهُ جاهِلٌ بالشرعِ قَبِلَهُ لتعظيمهم في نفسِه، كما يُنقَلُ عن أبي يزيدَ(٥) رضي الله عنه أنّه قال: تراعنَتْ عليَّ نفسي فحلَفتُ لا أشربُ الماءَ سنة.

وهذا إذا صحَّ عنه كان خطأً قبيحًا، وزلّةً فاحِشةً؛ لأنّ الماءَ يُنفِذُ الأغذيةَ إلى البدن، ولا يقُومُ مقامَهُ شيءٌ، فإذا لم يشربْ فقد سعى في أذى بدنِه، وقد

---

(١) هو أحمد بن محمد بن الحجاج، نزيل بغداد، وصاحب الإمام أحمد، تُوفي سنة ٢٧٥هـ. سير أعلام النبلاء (١٣: ١٧٣).

(٢) «بن أدهم» عن (ف).

(٣) بُنَيّات الطريق: الطرق المتشعِّبة من الطريق الأصل، يُضرَب مَثَلًا لمن ترك الجادّة وحاد عن الصواب.

(٤) هو أبو الحسن السري بن مغلس السقطي البغدادي، كان رأسًا في الزهد، وهو أجلُّ أصحاب معروف الكرخي، تُوفي سنة ٢٥٣هـ. سير أعلام النبلاء (١٢: ١٨٥)، والخبر ذكره ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٢: ٨٤) بمعناه.

(٥) هو أبو يزيد البسطامي الزاهد المعروف، والخبر رواه أبو طالب المكي في قوت القلوب (٢: ١١٤).

كان يُستعذَبُ الماءُ لرسُولِ الله ﷺ(١).

أفترى هذا فِعلَ مَن يعلمُ أنّ نفسَه ليست له، وأنّه لا يجُوزُ التصرُّفُ فيها إلا عن إذنِ مالكِها؟!

وكذلك ينقلُون عن بعضِ الصُّوفيةِ أنّه قال: «سِرتُ إلى مكّةَ على طريقِ التوكُّل حافيًا، فكانت الشوكةُ تدخلُ في رِجلي فأحُكُّها بالأرضِ ولا أرفعُها، وكان(٢) عليَّ مِسحٌ(٣)، فكانت عيني إذا آلمَتني أدلكُها بالمِسح، فذهبَت إحدى عينيَّ»، وأمثالُ هذا كثير.

ورُبّما حملَها القُصّاصُ على الكرامات، وعظَّمُوها عِند العوامّ، فيُخايَلُ لهم أنّ فاعِلَ هذا أعلى مرتبةً من الشافِعيِّ وأحمدَ. ولَعَمري، إنّ هذا مِن أعظمِ الذُّنُوبِ وأقبَحِ العُيوب؛ لأنّ الله تعالى قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ﴾ [النساء: ٢٩]، وقال النبيُّ ﷺ: «إنّ لنفسِكَ عليكَ حقًّا»(٤).

وقد طلبَ أبو بكرٍ رضي الله عنه في طريق الهجرةِ للنبيِّ ﷺ ظِلًّا، حتّى رأى صخرةً ففرَش له في ظِلِّها(٥).

وقد نُقِلَ عن قُدماءِ هذه الأُمّةِ بداياتُ هذا التفريط، وكان سببُه مِن وجهَين؛ أحدهما: الجهلُ بالعِلم، والثاني: قُربُ العهدِ بالرهبانية.

(١) مسلم (٢٠٣٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. ومن هنا بداية سقط في (ر).
(٢) من قوله: «فكانت الشوكة...» إلى هنا سقط من (س).
(٣) المِسح بكسر الميم وفتحها: ثوب خشِن غليظ.
(٤) البخاري (١٩٦٨)، ومسلم (١١٥٩) عن ابن عمرو رضي الله عنهما.
(٥) البخاري (٢٤٣٩)، ومسلم (٣٠١٧) عن أبي بكر رضي الله عنه.

وقد كان الحسنُ يعيبُ فَرقَدًا السَّبَخِيَّ(١) ومالكَ بنَ دينارٍ في زُهدِهِما، فرُئِيَ عِندهُ طعامٌ فيهِ لحم، فقال: لا رَغِيفَي مالِكٍ، ولا صَحنَي فَرقَدٍ. ورأى على فَرقَدٍ كِساءً فقال: يا فَرقَدُ، إنّ أكثرَ أهلِ النارِ أصحابُ الأكسية(٢).

وكم قد زوَّقَ قاصٌّ مجلِسَهُ بذِكرِ أقوامٍ خرجُوا إلى السياحةِ بلا زادٍ ولا ماءٍ، وهو لا يعلمُ أنّ هذا مِن أقبَحِ الأفعال، وأنّ الله تعالى لا يُجرَّبُ عليه، فرُبّما سمِعهُ جاهِلٌ من التائبين فخرَج فمات في الطريق، فصار للقائلِ نصيبٌ من إثمه.

وكم يَروُون عن ذي النُّونِ(٣) أنّه لقيَ امرأةً في السياحةِ فكلَّمها وكلَّمَته، وينسَون الأحاديثَ الصحاح: «لا يحلُّ لامرأةٍ أن تُسافِرَ يومًا وليلةً إلا بمَحرَمٍ»(٤).

وكم ينقلُون أنّ أقوامًا مشَوا على الماء، وقد قال إبراهيمُ الحربيُّ(٥): «لا يصِحُّ أنّ أحدًا مشى على الماءِ قطّ». فإذا سمِعُوا هذا قالوا: أتُنكِرُون كراماتِ الأولياءِ الصالِحين؟ فنقُول: لسنا مِن المُنكِرين لها، بل نتَّبعُ ما صحَّ، والصالِحُون هم الذين يتَّبعون الشرع، ولا يتعبَّدُون بآرائهم. وفي الحديث: «إنّ بني إسرائيلَ شدَّدُوا فشدَّدَ الله عليهم»(٦).

وكم يحُثُّون على الفقرِ حتّى حمَلُوا خَلقًا على إخراجِ أموالِهم، ثُمّ آلَ بهم

(١) هو أبو يعقوب فرقد بن يعقوب السبخي الحائك، عابد البصرة المعروف، تُوفي سنة ١٣١هـ. صفة الصفوة لابن الجوزي (٢: ١٦١)، والخبر رواه البخاري في التاريخ الكبير (٨: ٤٢٦).

(٢) رواه ابن سعد في الطبقات (٩: ١٦٩).

(٣) هو أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم، زاهد الديار المصرية، تُوفي سنة ٢٤٦هـ. سير أعلام النبلاء (١١: ٥٣٢).

(٤) البخاري (١٠٨٨)، ومسلم (١٣٣٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) هو أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق الحربي البغدادي، صاحب غريب الحديث، تُوفي سنة ٢٨٥هـ. سير أعلام النبلاء (١٣: ٣٥٦).

(٦) رواه الطبري في تفسيره (٢: ٩٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما من قوله.

الأمرُ؛ إمّا إلى التسخُّطِ عِند الحاجة، وإمّا إلى التعرُّضِ بسُؤالِ الناس.

وكم تأذّى مُسلِمٌ بأمرِهم الناسَ بالتقلُّل! وقد قال النبيُّ ﷺ: «ثُلُثٌ طعامٌ، وثُلُثٌ شرابٌ، وثُلُثٌ نَفَسٌ»(١)، فما قنعُوا حتّى أمَرُوا بالمُبالغةِ في التقلُّل، فحكى أبو طالِبِ المَكِّيُّ في «قُوتِ القُلوبِ»(٢): أنّ فيهم من كان يزِنُ قُوتَه بكَرَبَةٍ(٣) رطبة، ففي كُلِّ ليلةٍ يذهبُ مِن رُطُوبتها قليلٌ(٤)، وكُنتُ أنا(٥) مِمّن اقتدى بقولِه في الصِّبا، فضاقَ المِعَى، وأوجبَ ذلك مرضَ سِنين. أفترى هذا شيئًا تقتضيه الحِكمة، أو ندبَ إليهِ الشرع؟! وإنّما مطيّةُ الآدميِّ قُواه، فإذا سعى في تقليلها ضعُفَ عنِ العِبادة.

فإنّا لو دخلنا ديارَ الرُّومِ فوجدنا أثمانَ الخُمورِ وأُجرةَ الفُجُورِ، كان لنا حلالًا بوصفِ الغنيمة.

أفتُريدُ حلالًا على معنى أنّ الحبّةَ مِن الذهبِ لم تنتقِل مُذ خرجَت مِن المَعدِنِ على وجهٍ لا يجُوز؟ فهذا شيءٌ لم ينظُر فيهِ رسُولُ الله ﷺ؛ أوَليس قد سمِعتَ أنّ الصدقةَ عليهِ حرام، فلمّا تُصُدِّقَ على بَرِيرةَ بلحمٍ فأهدَته جاز له أكلُ تلك العين لتغيُّرِ الوصف؟(٦)

وقد قال أحمدُ بنُ حنبل: أكرهُ التقلُّلَ من الطعام؛ فإنّ أقوامًا فعلُوهُ فعجَزُوا عنِ الفرائض.

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٨٠)، ويحيى بن جابر الطائي القاضي روى عن المقدام بن معد يكرب، مرسل.

(٢) زاد في (ك، س): «قال».

(٣) الكَرَبة: الأصل العريض للسعف إذا يبس.

(٤) زاد في (ض): «قال ابن الجوزي مملي الكتاب».

(٥) زاد في (ق): «ابن الجوزي».

(٦) البخاري (١٤٩٥، ٢٥٧٧)، ومسلم (١٠٧٤) عن أنس رضي الله عنه.

وهـذا صحيـح، فإنّ المُتقلّـلَ لا يزالُ يتقلّـلُ إلى أن يعجِزَ عـنِ النوافِلِ ثُمّ الفرائض، ثُمّ يعجِزَ عن مُباشـرةِ أهلِهِ وإعفافِهم، وعن بذلِ القُوى في الكسـبِ لهم، وعن فِعلِ خيرٍ قد كان يفعلُه، ولا يهُولنَّك ما تسـمعُه مِن الأحاديثِ التي تحـثُّ علـى الجُـوعِ؛ فـإنّ المُرادَ بها إمّـا الحثُّ علـى الصوم، وإمّـا النهيُ عن مُقاوَمةِ الشِّبَع، فأمّا تنقيصُ المطعمِ على الدوام، فمُؤثِّرٌ في القُوى، فلا يجوز.

ثُـمّ فـي هـؤلاءِ المذمومين مَن يرى هجـرَ اللحمِ، والنبـيُّ ﷺ كان يودُّ أن يأكُلَهُ كُلَّ يوم. واسمعْ مِنّي بلا مُحاباةٍ: لا تَحتَجَّنَّ عليَّ بأسماءِ الرِّجالِ فتقولَ: قد قال بِشـرٌ[1]، وقال إبراهيمُ بنُ أدهم؛ فإنّ منِ احتجَّ بالرسُـول ﷺ وأصحابه رِضوانُ الله عليهم أقوى حُجّةً. على أنّ لأفعالِ أولئك وُجُوهًا نحملُها[2] عليهم بحُسنِ الظنّ.

ولقد ذاكرتُ بعضَ مشايخِنا ما يُروى عن جماعةٍ مِن الساداتِ أنّهم دفنُوا كُتُبَهم، فقُلتُ له: ما وجهُ هذا؟ فقال: أحسـنُ ما نقولُ أن نسـكُتَ. يُشيرُ إلى أنّ هذا جهلٌ مِن فاعِلِه. وتأوّلتُ أنا لهم، فقلتُ: لعل ما دفنُوه من كُتُبِهم فيها شيءٌ مِن الرأي، فما رأوا أن يعملَ الناسُ به.

ولقد رَوَينا في الحديثِ عن أحمدَ بنِ أبي الحَوارِيِّ[3]: أنّه أخذ كُتُبَه فرماها فـي البحرِ وقال: نِعمَ الدليـلُ كُنتِ، ولا حاجةَ لنا إلى الدليلِ بعد الوُصُولِ إلى المدلُول!

---

(١) هو بشر بن الحارث، أبو نصر المروزي، ثم البغدادي، الزاهد المشهور بالحافي، تُوفي سنة ٢٢٧هـ. سير أعلام النبلاء (١٠: ٤٦٩).

(٢) في (ك، ح، س، د، م): «على أن أفعال أولئك وجوه يحملها».

(٣) هو أبو الحسن الثعلبي الغطفاني، زاهد أهل الشام، أصله من الكوفة، تُوفي سنة ٢٤٦هـ. سير أعلام النبلاء (١٢: ٨٥)، والخبر رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٠: ٦).

وهـذا - إذا أحسـنّا بهِ الظنَّ - قُلنـا: كان فيها من كلامِهم ما لا يرتضِيه. فأمّا إذا كانـت عُلُومًـا صحيحةً كان هذا من أفحشِ الإضاعـة، وأنا وإن تأوَّلتُ لهم هذا فهو تأويلٌ صحيحٌ في حقِّ العُلماءِ مِنهم؛ لأنّا قد رَوَينا عن سُفيانَ الثوريِّ أنّه قد[1] أوصى بدفنِ كُتُبِه، وكان نَدِمَ على أشياءَ كتبَها عن قومٍ وقال: «حملَني شهوةُ الحديثِ»[2]؛ وهذا لأنّه كان يكتُبُ عنِ الضُّعفاءِ والمتروكين، فكأنّه لمّا عسُر عليهِ التمييزُ أوصى بدفنِ الكُلّ.

وكذلك من كان له رأيٌ من كلامِهِ ثُمّ رجع عنه، جاز أن يدفِنَ الكُتُبَ التي فيها ذلك، فهذا وجهُ التأويل للعُلماء.

فأمّـا المُتزهِّدون الذين رأوا صُورةَ فِعلِ العُلماء، ودفنُوا كُتُبًا صالِحةً؛ لئلا تشـغلَهم عـنِ التعبُّد؛ فإنّه جهلٌ مِنهم؛ لأنّهم شـرعُوا في إطفـاءِ مِصباحٍ يُضيءُ لهم، مع الإقدامِ على تضييع مالٍ لا يحِلُّ.

ومن جُملةِ مَن عملَ بواقِعةٍ في دفنِ كُتُبِ العِلمِ يُوسُـفُ بنُ أسـباط، ثُمّ لم يصبِر عنِ التحديثِ فخلَّطَ فعُدَّ في الضُّعفاء.

أنبأنـا عبدُ الوهّـابِ بنُ المُبارك، قـال: أخبرنا مُحمّدُ بنُ المُظفَّرِ الشـاميّ، قـال: أخبرنـا أحمدُ بـنُ مُحمّدٍ العَتيقـيّ، قال: حدَّثنا يُوسُـفُ بـنُ أحمد، قال: حدَّثنـا مُحمّـدُ بنُ عمـرٍو العُقيليّ، قال: حدَّثنا مُحمّدُ بنُ عيسـى، قـال: أخبَرَنا أحمدُ بنُ خالدٍ الخلّال، قال: سـمِعتُ شُـعَيبَ بنَ حربٍ يقول: قلتُ ليُوسُـفَ ابنِ أسباط[3]: كيف صنعتَ بكُتُبِك؟ قال: جِئتُ إلى الجزيرة، فلمّا نضبَ الماءُ

(١) سقطت من (ف، ق).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٧: ٦٤).

(٣) هو أحد سادات المشايخ، وله مواعظ وحكم. سير أعلام النبلاء (٩: ١٦٩).



دفنتُها، حتّى جاء الماءُ عليها فذهبَت، قُلت: ما حملك على ذلك؟ قال: أردتُ أن يكُون الهمُّ همًّا واحِدًا.

قال العُقيليّ: وحدَّثني آدمُ، قال: سمِعتُ البخاريّ، قال: قال صَدَقةُ: دفنَ يُوسُفُ بنُ أسباطٍ كُتُبَه، وكان بعدُ يُغلَبُ عليه، فلا يجيءُ كما ينبغي(١).

وقال المُؤلِّف: قلتُ: الظاهِرُ أنّ هذه كُتُبُ عِلمٍ ينفع، ولكِنّ قِلّةَ العِلمِ أوجبَت هذا التفريطَ الذي قُصِد بِهِ الخيرُ وهو شرٌّ.

فلو كانت كُتُبُه من جِنسِ كُتُبِ الثوريّ ـ فإنّ فيها عن ضُعفاءَ ولم يصِحَّ له التمييزُ ـ قَرُب الحال، إنّما تعليلُه بجمعِ الهمِّ هو الدليلُ على أنّها ليست كذلك، فانظُر إلى قِلّةِ العِلمِ ماذا تُؤثِّرُ مع أهلِ الخير؟

ولقد بلَغنا في الحديثِ عن بعضِ مَن نُعظِّمُه ونزُورُه أنّه كان على شاطِئ دِجلةَ فبال، ثُمّ تيمَّمَ، فقيل له: الماءُ قريبٌ مِنك، فقال: خِفتُ ألا أبلُغَه.

وهذا وإن كان يدُلُّ على قِصَرِ الأملِ إلا أنّ الفُقهاءَ إذا سمِعُوا هذا الحديثَ تلاعبُوا بهِ مِن جِهةِ أنّ التيمُّمَ إنّما يصِحُّ عِند عدمِ الماء(٢)، فإذا كان الماءُ موجُودًا كان تحريكُ اليدَينِ بالتيمُّم عبثًا، وليس من ضرورةِ وُجُودِ الماء أن يكُونَ إلى جانبِ المُحدِث، بل لو كان على أذرُعٍ كثيرةٍ كان موجودًا، فلا فِعلَ للتيمُّمِ ولا أثرَ حينئذٍ.

ومن تأمَّل هذه الأشياءَ علم أنّ فقيهًا واحِدًا ـ وإن قلَّ أتباعُه، وخَفَّت إذا مات أشياعُه ـ أفضلُ من أُلوفٍ تتمسَّحُ العوامُّ بهم تبرُّكًا، ويُشيِّعُ جنائزَهم ما لا يُحصى. وهلِ الناسُ إلا صاحِبُ أثرٍ يتَّبِعُه، أو فقيهٌ يفهمُ مُرادَ الشرعِ ويُفتي

---

(١) رواه العقيلي في الضعفاء (٤: ٤٥٤).

(٢) سقطت من (ك، ح، د، ل).



به؟ نعوذُ بالله من الجهل، وتعظيمِ الأسلافِ تقليدًا لهم بغيرِ دليل؛ فإنّ مَن ورد المَشربَ الأوّلَ رأى سائرَ المشارِب كَدِرةً. والمحنةُ العظمى مدائحُ العوامّ، فكم غرَّت؟! كما قال عليٌّ رضي الله عنه: «ما أبقى خفقُ النِّعالِ وراءَ الحمقى مِن عُقُولِهم شيئًا»[1].

ولقد رأينا وسمِعنا من العوامِّ أنّهم يمدحُون الشخصَ فيقولُون: لا ينامُ الليل، ولا يُفطِرُ النهار، ولا يعرِفُ زوجة، ولا يذُوقُ من شهواتِ الدنيا شيئًا، قد نحلَ جِسمُه ودقَّ عظمُه، حتّى إنّهُ يُصلّي قاعِدًا، فهو خيرٌ من العُلماءِ الذين يأكُلُون ويتمتَّعُون.

ذلك مبلغُهم من العِلم، ولو علمُوا أنّ الدنيا كلَّها لو جُمِعَت في لُقمةٍ، فتناولها عالِمٌ يُفتي عنِ الله، ويُخبِرُ بشريعتِه، كانت فتوى واحِدةٌ مِنه يُرشِدُ بها إلى الله تعالى خيرًا وأفضلَ من عِبادةِ ذلك العابِدِ باقيَ عُمرِه، وقد قال ابنُ عبّاسٍ رضي الله عنهما: «فقيهٌ واحِدٌ أشدُّ على إبليسَ مِن ألفِ عابِد»[2].

ومن سمِعَ هذا الكلامَ فلا يظُنَّنَّ أنّني أمدحُ مَن لا يعملُ بعِلمِه، وإنّما أمدحُ العامِلين بالعِلم، وهم أعلمُ بمصالحِ أنفُسِهم، فقد كان فيهم مَن يصلُحُ على خشِنِ العيشِ كأحمدَ بنِ حنبل، وكان فيهم مَن يستعملُ رقيقَ العيشِ كسُفيانَ الثوريِّ مع ورعِه، ومالكٍ مع تديُّنه، والشافِعيِّ مع قُوّة فِقهِه.

ولا ينبغي أن يُطالَبَ الإنسانُ بما يقوى عليهِ غيرُه فيضعُفَ هو عنه؛ فإنّ الإنسانَ أعرَفُ بصلاح نفسِه، وقد قالت رابِعةُ: «إن كان صلاحُ قلبِك في الفالُوذَجِ فكُلْه»، ولا تكونَنَّ أيُّها السامعُ مِمّن يرى صُورَ الزُّهد، فرُبَّ مُتنعِّمٍ

(١) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١: ٥٧٤).
(٢) رواه أبو نعيم الأصبهاني في تاريخ أصبهان (١: ٣٧٨).

لا يُريـدُ التنعُّـم، وإنّما يقصِد المصلحة، وليس كُلُّ بدنٍ يقوى على الخُشُـونةِ، خُصوصًـا مَـن قد لاقى الكَدَّ، وأجهدهُ الفكر، وأمضَّهُ[1] الفقر، فإنّه إن لم يرفُقْ بنفسِهِ ترك واجِبًا عليهِ مِن الرِّفقِ بها.

فهذه جُملةٌ لو شرحتُها بذكرِ الأخبارِ والمنقولاتِ لطالت، غيرَ أنّي سطَرتُها على عجلٍ حين جالَت في خاطِري، والله وليُّ النفعِ برحمتِه.

٢٠- فَصْلٌ

[ماهيّة النفس]

قد أشـكَلَ على الناس أمرُ النفْـسِ وماهِيتُها، مع إجماعِهم على وجودِها، ولا يضـرُّ الجهـلُ بذاتهـا مـع إثباتها، ثم أشـكَلَ عليهـم مصيرُها بعـد الموت، ومذهـبُ أهـلِ الحقِّ أنّ لها وُجُودًا بعد موتِها، وأنّهـا تُنعَّمُ وتُعذَّب. قال أحمدُ ابـنُ حنبلٍ: «أرواحُ المُؤمِنين في الجنّـة، وأرواحُ الكُفّارِ في النار»[2]، وقد جاء في أحاديثِ الشهداء: «أنّها في حواصِلِ طيرٍ خُضرٍ تعلُقُ من شجرِ الجنّةِ»[3].

وقـد أخذ بعضُ الجهلةِ بظواهرِ أحاديثِ النعيمِ فقالوا: إنّ الموتى يأكُلُون فـي القُبُـور، وينكِحُون. والصوابُ من ذلك أنّ النفسَ تخـرُجُ بعد الموتِ إلى نعيمٍ أو عذاب، وأنّها تجِدُ ذلك إلى يومِ القيامة، فإذا كانت القيامةُ أُعيدَت إلى الجسـد؛ ليتكاملَ لها التنعُّم بالوسـائط. وقولُه: «في حواصِلِ طيرٍ خُضرٍ» دليلٌ على أنّ النفُوسَ لا تنالُ لذّةً إلا بواسِطة، إلا أنّ تلك اللذّةَ لذّةُ مَطعَمٍ أو مَشرَب،

(١) أمضَّه الشيء: شقَّ عليه تحمُّله.

(٢) رواه ابن أبي يعلى في طبقات الحنابلة (١: ١٨١).

(٣) مسلم (١٨٨٧) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

فأمّا لذّاتُ المعارِفِ والعُلومِ فيجُوزُ أن تنالَها بذاتِها مع عدمِ الوسائط.

والمقصُودُ من هذا المذكُورِ أنّي رأيتُ بعضَ الانزِعاجِ من الموت، ومُلاحظةَ النفسِ بعينِ العدمِ عِنده، فقُلتُ لها: إن كُنتِ مُصدِّقةً للشريعةِ فقد أُخبِرتِ بما تعرِفين، ولا وجهَ للإنكار، وإن كان هُناك ريبٌ في أخبارِ الشريعةِ صار الكلامُ في بيانِ صِحّةِ الشريعة. فقالت: لا ريبَ عِندي، قلتُ: فاجتهِدي في تصحيحِ الإيمان وتحقيقِ التقوى، وأبشري حينئذٍ بالراحةِ مِن ساعةِ الموت، فإنّي لا أخافُ عليكِ إلا مِن التقصيرِ في العمل. واعلمي أنّ تفاوُتَ النعيمِ بمِقدارِ درجاتِ الفضائل، فارتفِعي بأجنِحةِ الجِدِّ إلى أعلى أبراجِها، واحذري من قانصِ هوًى، أو شَرَكِ غِرَّة[1]، والله الموفِّق.

٢١- فَصْلٌ

[شقاءُ أصحاب العقول]

قلتُ يومًا في مجلسي: «لو أنّ الجبالَ حمَلَتْ ما حمَلتُ لعجَزَت»، فلمّا عُدتُ إلى منزِلي قالت لي النفس: كيف قُلتَ هذا؟ ورُبّما أوهمَ الناسَ أنّ بك بلاءً، وأنتَ في عافيةٍ في نفسِك وأهلِك، وهل الذي حمَلتَ إلا التكليفُ الذي يحمِلُه الخلقُ كُلُّهم؟! فما وجهُ هذه الشكوى؟!

فأجبتُها: أنّي لمّا عجَزتُ عمّا حمَلتُ قلتُ هذه الكلِمةَ لا على سبيلِ الشكوى، ولكن للاستِرواح، وقد قال كثيرٌ من الصحابةِ والتابِعين قبلي: «ليتنا لم نُخلَق»[2]، وما ذاك إلا لأثقالٍ عجَزُوا عنها.

---

(١) الشَّرَك بفتحتين: حبالة الصائد، والغِرّة: الغفلة.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٧٤٦٢).

ثُمّ من ظنَّ أنّ[1] التكاليفَ سهلةٌ فما عرَفها. أترى يظُنُّ الظانُّ أنّ التكليفَ غسلُ الأعضاءِ برطلٍ من الماء، أو الوُقوفُ في مِحرابٍ لأداءِ ركعتَين؟ هيهات، هذا أسهلُ التكليف، وإنّ التكليفَ هُو الذي عجزَت عنهُ الجِبال، ومن جُملتِه أنّني إذا رأيتُ القدَر يجري بما لا يفهمُه العقلُ، ألزمتُ العقلَ الإذعانَ للمُقدَّر، فكان من أصعبِ التكليف، وخُصوصًا فيما لا يعلمُ العقلُ معناهُ كإيلامِ الأطفال، وذبحِ الحيوان، مع الاعتقادِ بأنّ المُقدِّرَ لذلِك والآمِرَ بهِ أرحمُ الراحِمين.

فهذا مِمّا يتحيَّرُ العقلُ فيه، فيكُونُ تكليفُه التسليمَ وتركَ الاعتراض، فكم بين تكليفِ البدنِ وتكليفِ العقل! ولو شرحتُ هذا الحالَ[2] لطال، غيرَ أنّي أعتذِرُ عمّا قُلتُه، فأقولُ عن نفسي، وما يلزمُني حالُ غيري: إنني رجُلٌ حُبِّبَ إليَّ العِلمُ من زمنِ الطُّفُولةِ، فتشاغلتُ به، ثُمّ لم يُحبَّبْ إليَّ فنٌّ واحِدٌ مِنهُ بل فُنونُه، ثُمّ لا تقتصِرُ همَّتي في فنٍّ على بعضِهِ بل ترُومُ استقصاءَه، والزمانُ لا يسعُ، والعُمرُ أضيَقُ، والشوقُ يقوى، والعجزُ يُقعِد، فيبقى وقُوفُ بعضِ المطلُوباتِ حسراتٍ، ثُمّ إنّ العِلمَ دلَّني على معرفةِ المعبُود، وحثَّني على خِدمتِه، ثُمّ صاحَت بي الأدِلّةُ عليهِ إليه، فوقفتُ بين يدَيهِ فرأيتُه في نعتِه، وعرَفتُه بصِفاتِه.

وعاينَتْ بصيرتي من ألطافِهِ ما دعاني إلى الهَيمانِ في محبَّتِه، وحرَّكني إلى التخلِّي لخدمتِه، وصار يملكُني أمرٌ كالوَجدِ كُلّما ذكرتُه، فعادَت خَلوتي في خِدمتي له أحلى عِندي من كُلِّ حلاوة، فكُلّما مِلتُ إلى الانقطاعِ عنِ الشواغِلِ إلى الخلوةِ صاح بي العِلم: أين تمضي؟! أتُعرِضُ عنّي وأنا سببُ معرِفتِك؟!

---

(١) سقطت من (ف، ق).

(٢) عن (ك، س، م).

فأقولُ له: إنّما كُنتَ دليلًا، وبعد الوُصُولِ يُستغنى عنِ الدليل، قال: هيهات! كُلّما زِدتُ زادَت معرفتُك بمحبُوبِك، وفهمتَ كيف القُربُ مِنه، ودليلُ هذا أنّك تعلمُ غدًا أنّك اليومَ في نُقصان، أوَما تسمعُه يقولُ لنبيّه ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٤]، ثُمّ ألستَ تبغي القُربَ مِنه؟ فاشتغِلْ بدلالةِ عبادِه عليه، فهي حالاتُ الأنبياءِ عليهم الصلاةُ والسلامُ، أما علِمتَ أنّهم آثرُوا تعليمَ الخلقِ على خَلواتِ التعبُّد؛ لعِلمِهم أنّ ذلك آثَرُ عِند حبيبِهم؟ أمَا قال الرسُولُ ﷺ لعليٍّ رضي الله عنه: «لَأنْ يهديَ الله بك رجُلًا خيرٌ لك مِن حُمرِ النَّعَم»[١]؟

فلمّا فهِمتُ صدقَ هذه المقالةِ تهوَّستُ[٢] على تلك الحالة، وكُلّما تشاغلتُ بجمعِ الناسِ تفرَّقَ همّي، وإذا وجدتُ مُرادي من نفعِهم ضِعتُ أنا، فأبقى في حيِّزِ التحيُّرِ مُتردِّدًا، لا أدري على أيِّ القدمَينِ أعتمِدُ؟!

فإذا وقفتُ[٣] مُتحيِّرًا صاحَ العِلم: قُم لكسبِ قوتِ[٤] العيال، وادأبْ في تحصيلِ ولدٍ يذكُرُ الله. فإذا شرعتُ في ذلك قلَصَ[٥] ضَرعُ الدنيا وقتَ الحَلب، ورأيتُ بابَ المعاشِ مسدُودًا في وجهي؛ لأنّ صِناعةَ العِلمِ شغلتْني عن تعلُّمِ صِناعةٍ، فإذا التفتُّ إلى أبناءِ الدنيا رأيتُهم لا يبيعُون شيئًا مِن سِلَعِها إلا بدِينِ المُشتري، وليتَ مَن نافقَهم أو راءَاهم نال من دُنياهم، بل رُبّما ذهبَ دينُهُ ولم يحصِّل مُرادَه، فإن قال الضَّجَرُ: اهرب، قال الشرع: «كفى بالمرءِ إثمًا أن يُضيِّعُ من يقُوتُ»[٦]، وإن قال العزمُ: انفرِد، قال: فكيف بمَن تعُول؟

(١) البخاري (٢٩٤٢)، ومسلم (٢٤٠٦) من حديث سهل رضي الله عنه.
(٢) التهوُّس: مشي سريع، وهو هنا كناية عما يشبه الجنون.
(٣) في (ف، ك، ح، س): «وقعت».
(٤) سقطت من (ح، ك، س، ص، د).
(٥) قلَص الضَّرع: انقبض.
(٦) رواه أبو داود (١٦٩٢)، وفي مسلم (٩٩٦) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما بمعناه.

فغايةُ الأمرِ أنّني أشرعُ في التقلُّل من الدنيا وقد رُبِّيتُ في نعيمِها، وغُذِّيتُ بِلِبانِها، ولُطفُ مِزاجي فوق لُطفِ وضعِهِ بالعادة، فإذا غيَّرتُ لباسي وخشَّنتُ مطعمي؛ لأنّ القُوتَ لا يحتمِلُ الانبساطَ، نفرَ الطبعُ لِفِراقِ العادة، فحلَّ المرضُ فقطع عن واجِبات، وأوقعَ في آفات، ومعلومٌ أنّ لِينَ اللُّقمةِ يُعيدُ التحصيلَ من الوُجُوهِ المُستطابةِ، وتخشينَها لمَن لم يألفْ سعيٌ في تلفِ النفس.

فأقول: كيف أصنعُ؟ وما الذي أفعل؟ وأخلُو بنفسي في خَلواتي، وأتزيَّدُ من البُكاءِ على نقصِ حالاتي، وأقول: أصِفُ حالَ العُلماءِ وجسمي يضعفُ عن إعادةِ العِلم! وحالَ الزُّهّادِ وبدني لا يقوى على الزُّهدِ! وحالَ المُحبِّين ومُخالطةُ الخَلقِ تُشتِّتُ همِّي، وتنقُشُ صُوَرَ المحبُوباتِ من الهوى في نفسي، فتصدأُ مِرآةُ قلبي!

وشجرةُ المحبّةِ تحتاجُ إلى تربيةٍ[1] في تُربةٍ طيّبة تُسقى ماءَ الخَلوةِ مِن دُولابِ[2] الفكرة.

وإن آثرتُ التكسُّبَ لم أُطِقْ، وإن تعرَّضتُ لأبناءِ الدنيا ـ مع أنّ طبعي الأنفةُ من الذُّلّ وتديُّني يمنعُني ـ فلا يبقى للميل مع هذَينِ الجاذِبينِ أثرٌ، ومُخالطةُ الخلقِ تُؤذي النفسَ مع الأنفاس، فلا تحقيقُ التوبةِ أقدِرُ عليه، ولا نيلُ مرتبةٍ مِن عِلمٍ أو عملٍ أو محبّةٍ يصِحُّ لي، فإذًا رأيتُني كما قال القائل[3]: [البسيط]

أَلقاهُ في اليَمِّ مَكتُوفًا وقالَ لهُ: ... إيّاكَ إيّاكَ أنْ تَبتَلَّ بالماءِ

---

(١) سقط «إلى تربية» من (ف).

(٢) في (ك، س، م): «ديوان»، والدولاب: ما تديره البقر ليسقي الزرع ونحوه.

(٣) ديوان الحلاج (ص١١٩).

تحيَّرتُ في أمري، وبكيتُ على عُمري، وأنادي في فَلَواتِ خلواتي بما[1] سمِعتُه مِن بعضِ العوامِّ، وكأنّه وصفُ حالي[2]: [البسيط]

وا حَسـرَتا! كَم أُدارِي فيكَ تَعثِيرِي مِثلَ الأسِـيرِ بلا حَبلٍ ولا سَـيرِي[3]
ما حِيلَتِي في الهَوى قد ضاعَ تَدبيرِي لَمّا شَكَلتَ جَناحِي[4] قُلتَ لي: طِيرِي

٢٢- فَصْلٌ
[فوائد العُزلة]

تأمَّلتُ أمرَ الدنيا والآخِرة، فوجدتُ حوادثَ الدنيا حسيةً طبعيةً، وحوادثَ الآخرة إيمانيةً يقينيةً، والحِسيّاتُ أقوى حدثًا لمن لم يقوَ عِلمُه ويقينُه، والحوادِثُ إنّما تبقى[5] بكثرةِ أسبابِها، فمُخالطةُ الناس، ورُؤيةُ المُستحسَنات، والتعرُّضُ بالملذُوذاتِ، يُقوِّي حوادثَ الحِسّ، والعُزلةُ والفكرُ والنظرُ في العِلمِ يُقوِّي حوادثَ الآخِرة، ويَبِينُ هذا بأنّ الإنسانَ إذا خرَج يمشي في الأسواق، ويُبصِرُ زينةَ الدنيا، ثُمّ دخَل إلى المقابر، فتفكَّر ورَقَّ قلبُه فإنّه يُحِسُّ بين الحالتَينِ فَرقًا بيِّنًا، وسببُ ذلك التعرُّضُ بأسبابِ الحوادِث[6].

فعليك بالعُزلةِ والفكرِ والنظرِ في العِلم؛ فإنّ العُزلةَ حِميةٌ، والفكرَ والعِلمَ أدويةٌ، والدواءُ مع التخليطِ لا ينفع، وقد تمكَّنَتْ مِنك أخلاطُ المُخالطةِ للخلقِ، والتخليطُ في الأفعال، فليس لك دواءٌ إلا ما وصفتُ لك، فأمّا إذا خالطتَ الخَلقَ وتعرَّضتَ للشهواتِ، ثُمّ رُمتَ صلاحَ القلبِ رُمتَ المُمتنِع.

---

(١) في (ك، س، م): «لما».
(٢) زاد في (ل): «فصل».
(٣) السَّير: القطعة من الجلد تُستعمَل لربط الأشياء.
(٤) شكلتَ جانحي: ربطتَه.
(٥) في (ف، ق): «تقوى».
(٦) سقطت من (ح، ص).

٢٣- فصل
[الممنوع مرغوب]

تأمَّلتُ حرصَ النفسِ على ما مُنِعَت منه، فرأيتُ حرصَها يزيدُ على قدرِ قوَّةِ المنع، ورأيتُ في الشَّربِ الأوّلِ أنّ آدمَ عليه السلام لمّا نُهِيَ عن الشجرةِ حرَصَ عليها مع كثرةِ الأشجارِ المُغنيةِ عنها، وفي الأمثال: «المرءُ حريصٌ على ما مُنِع، وتوّاقٌ إلى ما لم يَنَلْ»، ويُقال: «لو أُمِر الناسُ بالجُوعِ لصبَرُوا، ولو نُهُوا عن تفتيتِ البعرِ لرغِبُوا فيه، وقالوا: ما نُهِينا عنهُ إلا لشيء»، وقد قيل: [البسيط]

.... أَحَبُّ شَيءٍ إلى الإنسانِ ما مُنِعا[١]

فلمّا بحثتُ عن سببِ ذلك وجدتُ سببَين؛ **أحدهما:** أنّ النفسَ لا تصبرُ على الحصر، فإنّه يكفي حصرُها في البدن صُورةً، ما حُصِرَت[٢] في المعنى بمنعِ زاد طيشُها، ولهذا لو قعد الإنسانُ في بيتِه شهرًا لم يصعُب عليه، ولو قيل له: لا تخرُجْ مِن بيتِك يومًا[٣] طال عليه. **والثاني:** أنّها يشُقُّ عليها الدخولُ تحت حُكم؛ ولهذا تستلذُّ الحرامَ ولا تكادُ تستطيبُ المُباح؛ ولذلك يسهُلُ عليها التعبُّدُ على ما ترى، وتُؤثِرُ لا على ما يُؤثَر.

٢٤- فصل
[ضابط العُزلة]

ما زالَت نفسي تُنازعُني لِما يُوجِبُه مجلسُ الوعظِ، وتوبةُ التائبين، ورُؤيةُ الزاهِدين إلى الزُّهد، والانقطاعُ عن الخَلق، والانفرادُ بالآخِرة، فتأمَّلتُ ذلك،

---

(١) عجز بيت للأحوص بن محمد في العقد الفريد (٣: ٢٥٨)، وصدره: «قد زادَهُ كَلَفًا بالحُبِّ أنْ مُنِعتْ».
(٢) في (ط): «فإذا حُصرت».
(٣) زاد في (س): «واحدًا».

فوجدتُ عُمُومَهُ من الشيطان؛ فإنّ الشيطانَ يرى أنّه لا يخلُو لي مجلسٌ من خلقٍ لا يُحصَون، يبكُون ويندبُون على ذُنُوبِهم، ويقومُ في الغالبِ جماعةٌ يتوبُون ويقطعُون شُعورَ الصِّبا، ورُبّما اتّفقَ خمسِين ومئةٌ[1]، ولقد تابَ عِندي في بعضِ الأيّامِ أكثرُ مِن مئة، وعُمُومُهم صبيانٌ قد نشؤوا على اللعِبِ والانهماكِ في المعاصي.

فكأنّ الشيطانَ ـ لبُعدِ غَورِهِ في الشرِّ ـ رآني[2] أجتذِبُ إليَّ مَن أجتذِبُ مِنه، فأراد أن يشغلَني عن ذلك بما يُزخرِفُه؛ ليخلُوَ هو بمَن أجتذبُه من يدِه، ولقد حسَّن إليَّ الانقطاعَ عن المجالِس، وقال: لا يخلُو مِن تصنُّعٍ للخَلق، فقلتُ: أمّا زخرفةُ الألفاظِ وتزويقُها، وإخراجُ المعنى من مُستحسَنِ العِبارة، ففضيلةٌ لا رذيلة، وأمّا أن أقصدَ الناسَ بما لا يجُوزُ في الشرع فمعاذَ الله.

ثُمّ رأيتُه يُريني في[3] التزهُّدِ قطعَ أسبابٍ ظاهِرُها الإباحةُ من الاكتِساب، فقلتُ له: فإن طاب لي الزُّهدُ وتمكّنتُ من العُزلة، فنفدَ ما بيدي، أوِ احتاجَ بعضُ عائلتي، ألستُ أعُودُ القَهقرى؟ فدعني أجمعُ ما يسُدُّ خَلَّتي، ويصُونُني عن مسألةِ الناس، فإن مُدَّ عُمري كان نِعمَ السببُ، وإلا كان للعائلة، ولا أكُونُ كراكِبٍ أراقَ ماءَه لرُؤيةِ سرابٍ، فلمّا ندمَ وقتَ الفواتِ لم ينتفِعْ بالندم، وإنّما الصوابُ توطئةُ المَضجعِ قبل النوم، وجمعُ المالِ السادِّ للخَلّةِ قبلَ الكِبَرِ أخذًا بالحزم، وقد قال الرسول ﷺ: «لَأنْ تترُكَ ورثتَكَ أغنياءَ خيرٌ لك[4] مِن أن تترُكَهم عالةً يتكفّفُون الناس»[5]، وقال: «نِعمَ المالُ الصالِحُ للرجُلِ الصالِحِ»[6].

---

(١) أي: اتفق عددُهم خمسين ومئة.
(٢) نهاية السقط المشار إليه في (ر).
(٣) سقطت من (ف، ر، ق).
(٤) سقطت من (ق).
(٥) سقطت من (ح، ص). والحديث أخرجه البخاري (١٢٩٥)، ومسلم (١٦٢٨) من حديث سعد رضي الله عنه.
(٦) رواه أحمد (١٧٧٦٣) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه، وهو صحيح.

وأمّا الانقطاعُ فينبغي أن تكُونَ العُزلةُ عن الشرِّ لا عنِ الخير، والعُزلةُ عن الشرِّ واجِبةٌ على كُلِّ حال، وأمّا تعليمُ الطالِبين وهِدايةُ المُريدين فإنّه عِبادةُ العالِم، وإنّ من تغفيلِ بعضِ العُلماءِ إيثارَهُ للتنفُّلِ بالصلاةِ والصومِ عن تصنيفِ كِتاب، أو تعليمِ عِلمٍ ينفع؛ لأنّ ذلك بَذرٌ يكثُرُ رَيْعُهُ[1]، ويمتدُّ زمانُ نفعِه.

وإنّما تميلُ النفسُ إلى ما يُزخرِفُه الشيطانُ مِن ذلك لمعنَيين؛ **أحدهما**: حُبُّ البطالة؛ لأنّ الانقِطاعَ عِندها أسهل. **والثاني**: لحُبِّ المِدحة؛ فإنّها إذا توسَّمَت بالزُّهدِ كان ميلُ العوامِّ إليها أكثرَ. فعليك بالنظرِ في الشَّربِ الأوّل، فكُن مع الشَّربِ المُقدَّم، وهم الرسولُ ﷺ وأصحابُه.

فهل نُقِلَ عن أحدٍ مِنهم ما ابتدعهُ جهلةُ المُتزهِّدين والمُتصوِّفة من الانقطاعِ عن العِلم، والانفرادِ عن الخَلق؟ وهل كان شُغلُ الأنبياءِ إلا مُعاناةَ الخلق، وحثَّهم على الخير، ونهيَهم عن الشرّ؟ إلا أن ينقطِعَ مَن ليس بعالِمٍ بقصدِ الكفِّ عن الشرِّ، فذاك في مرتبة المُحتمي يخافُ شرَّ التخليط، فأمّا الطبيبُ العالِمُ بما يتناولُ فإنّه ينتفِعُ بما يناله[2].

٢٥- فَصْلٌ

[العمل بالعلم]

تأمَّلتُ المرادَ من الخَلق، فإذا هو الذلُّ، واعتقادُ التقصير والعجز، ومثَّلتُ العُلماءَ والزُّهّادَ العامِلين صِنفَين: فأقمتُ في صفِّ العُلماء: مالكًا، وسُفيانَ، وأبا حنيفةَ، والشافِعيَّ، وأحمدَ، وفي صَفِّ العُبّاد: مالكَ بنَ دينار، ورابعةَ، ومعرُوفًا الكَرخِيّ، وبِشرَ بنَ الحارِث.

---

(١) الرَّيع: النماء والزيادة.

(٢) في (ك، س، ق، م): «يتناوله».

فكلَّما جدَّ العُبّادُ في العِبادة صاحَ بهم لسانُ الحال: عِباداتُكم لا يتعدّاكُم نفعُها، وإنّما يتعدّى نفعُ العُلماء، وهم ورثةُ الأنبياء، وخُلفاءُ الله في الأرض، وهم الذين عليهم المُعوَّل، ولهم الفضلُ إذا أطرقُوا وانكسرُوا وعلِمُوا صِدقَ تلك الحال، وجاء مالِكُ بنُ دينارٍ إلى الحَسنِ يتعلَّمُ مِنه ويقول: الحسنُ أُستاذُنا.

وإذا رأى العُلماءُ لهم[1] بالعِلمِ فضلًا صاح لسانُ الحالِ بالعُلماء: وهلِ المُرادُ من العِلمِ إلا العمل؟!

وقال أحمدُ بنُ حنبل: وهل يُرادُ العِلمُ إلا لما وصل إليهِ معرُوفٌ[2]؟

وصحَّ عن[3] سفيانَ الثوريِّ قال: وَدِدتُ أن يدي قُطِعَت ولم أكتبِ الحديث[4].

وقالَت أُمُّ الدَّرداءِ[5] لرجُلٍ: أعمِلتَ بما علِمتَ؟ قال: لا، قالت: فلِمَ تستكثِرُ من حُجّةِ الله عليك؟

وقال أبو الدَّرداءِ: ويلٌ لمَن لم يعلمْ ولم يعملْ مرّةً، وويلٌ لمَن علمَ ولم يعملْ سبعين مرّة[6].

وقال الفُضَيل: يُغفَرُ للجاهِلِ سبعُون ذنبًا قبل أن يُغفَرَ للعالِمِ ذنبٌ واحِد[7]،

---

(١) في (ف): «ما لهم».
(٢) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (١٥: ٢٦٥).
(٣) سقطت من (ف، ق).
(٤) رواه يعقوب ين سفيان الفسوي في مشيخته (١٧٣).
(٥) هي أم الدرداء الصغرى، هجيمة ـ أو جهيمة ـ الحميرية، الدمشقية، السيدة، العالمة، التابعية، الفقيهة، زوجة أبي الدرداء. سير أعلام النبلاء (٤: ٢٧٧)، والخبر رواه الخطيب في اقتضاء العلم العمل (٩٢) من قول عائشة رضي الله عنها.
(٦) رواه أبو نعيم في الحلية (١: ٢١١).
(٧) رواه أحمد في العلل ومعرفة الرجال لأحمد رواية ابنه عبد الله (٣: ٨٥).

فما يبلغُ من الكُلِّ قولُه تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١] [الزمر: ٩].

وجاء سُفيانُ إلى رابِعةَ، فجلسَ بين يدَيها ينتفعُ بكلامِها[٢].

فدلَّ العُلماءَ العِلمُ[٣] على أنّ المقصُودَ مِنهُ العملُ به وأنّه آلة، فانكسرُوا واعترفُوا بالتقصير، فحصل الكُلُّ على الاعترافِ والذُّلّ، فاستَخرَجتِ المعرِفةُ مِنهم حقيقةَ العبوديةِ باعترافهم، فذلك هو المقصودُ من التكليف.

٢٦- فَصْلٌ
[منزلةُ المحبة]

تأمَّلتُ قولَه تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، فإذا النفسُ[٤] تأبى إثباتَ محبّةٍ للخالقِ تُوجِبُ قلقًا، وقالت: «محبّتُه طاعتُه»، فتدبَّرتُ ذلك، فإذا بها قد جهِلتْ ذلك لغلبةِ الحِسّ.

وبيانُ هذا أنّ محبّةَ الحِسِّ لا تتعدّى الصُّوَرَ الذاتية، ومحبّةَ العِلمِ والعملِ ترى الصُّوَرَ المعنويةَ فتُحبُّها، فإنّا نرى خلقًا يُحِبُّون أبا بكرٍ رضي الله عنه، وخلقًا يُحِبُّون عليَّ بنَ أبي طالِبٍ رضي الله عنه، وقومًا يتعصَّبُون لأحمدَ بنِ حنبل، وقومًا للأشعريّ، فيقتتلُون ويبذلون النفُوسَ في ذلك، وليسُوا مِمّن رأى صُوَرَ القوم، ولا صُوَرُ القومِ تُوجِبُ المحبّةَ، ولكِن لمّا تُصُوِّرَت لهم

---

(١) في النسخ: «أفمن يعلم كمن لا يعلم»، وهو سهو؛ إذ ليس في القرآن آية بهذا اللفظ، والمثبت هو المراد.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٨: ٢٤١).

(٣) سقطت من (ف، ك).

(٤) سقطت من (ح، ص).

المعانـي فدلَّتهـم علـى كمالِ القومِ في العُلـومِ، وقعَ الحُبُّ لتلـك الصُّوَرِ التي شُوهِدَت بأعيُنِ البصائر.

فكيف بمَن ضيَّع تلك الصُّوَرَ المعنويةَ وأبدلَها؟ وكيف لا أُحِبُّ مَن وهبَ لي ملذُوذاتِ حسّـي، وعرَّفني ملذوذاتِ عِلمي؟! فإنّ الْتِذاذي بالعِلمِ وإدراكَ العُلومِ أولى من جميعِ اللذّاتِ الحِسّـيّة، فهـو الذي علَّمني، وخلقَ لي إدراكًا، وهداني إلى ما أدركتُه.

ثُـمّ إنّـه يتجلّـى لي في كُلِّ لحظـةٍ في مخلُوقٍ جديـدٍ أراهُ فيـهِ بإتقانِ ذلك المصنُـوع وحُسـنِ ذلـك المصنُـوع، فـكُلُّ محبُوباتي منـه وعنه وبه؛ الحِسـية والمعنوية، وتسهيلُ سُبُلِ الإدراكِ به، والمُدرَكاتِ منه، وألذُّ مِن كُلِّ لذّةٍ عِرفاني له، فلولا تعليمُه ما عرَفتُه.

وكيف لا أُحبُّ مَن أنا به، وبقائي مِنه، وتدبيري بيدِه، ورُجُوعي إليه، وكُلُّ مُستحسَنٍ محبُوبٍ هو صَنَعه، وحَسَّنَه وزيَّنَه، وعطفَ النفوسَ إليه؟!

فذلـك الكامِلُ القُدرةِ أحسـنُ مـن المقدُور، والعجيـبُ الصَّنعةِ أكملُ من المصنوع، ومعنى الإدراكِ أحلى عِرفانًا من المُدرَك.

ولو أنّنا رأينا نقشًا عجيبًا لاستغرقَنا تعظيمُ النقّاش، وتهويلُ شأنِه، وظريفُ حكمتِـه عـن حُبِّ المنقُـوش، وهذا مِمّا تترقّـى إليهِ الأفكارُ الصافيـةُ إذا خرقَ نظرَها الحِسّيّاتُ ونفذَ إلى ما وراءَها، فحينئذٍ تقعُ محبّةُ الخالقِ ضرورةً.

وعلى قدرِ رُؤية الصانعِ في المصنُوعِ يقعُ الحُبُّ له، فإنْ قويَ أوجبَ قلقًا وشـوقًا، وإن مـالَ بالعارفِ إلى مقـامِ الهيبةِ أوجبَ خوفًـا، وإنِ انحرفَ به إلى تلمُّحِ الكرم أوجبَ رجاءً قويًا، و﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠].

٢٧- فصل
[التسليمُ أولى]

تأمَّلتُ حالًا عجيبة، وهي أنّ الله سبحانه وتعالى قد بنى هذه الأجسامَ مُتقنةً على قانونِ الحِكمة، فدلَّ بذلك المصنُوعِ على كمالِ قُدرتِه، ولطيفِ حِكمتِه، ثُمّ عاد فنقضَها، فتحيَّرتِ العُقُولُ بعد إذعانِها له بالحِكمةِ في سِرِّ ذلك الفِعل، فأُعلِمَت أنّها ستُعادُ للمَعاد، وأنّ هذه البنيةَ لم تُخلَقْ إلا لتجوزَ في مجازِ المعرِفة، وتَتَّجِرَ في موسِمِ المُعاملة، فسكنَتِ العقولُ لذلك.

ثُمّ رأيتُ أشياءَ مِن هذا الجِنسِ أظرفَ مِنه، مِثلَ اختِرامِ شابٍّ ما بلغَ بعضَ المقصُودِ بنيانُه. وأعجبُ من ذلك أخذُ طِفلٍ من أكُفِّ أبوَيهِ، فهما[1] يتململانِ لفقدِه، ولا يظهَرُ سرُّ سلبِه، والله الغنيُّ عن أخذِه، وهما أشدُّ الخلقِ فقرًا إلى بقائه، وأظرفُ مِنهُ إبقاءُ هَرِمٍ لا يدري معنى البقاء، وليس له فيهِ إلا مُجردُ أذًى.

ومن هذا الجِنسِ تقتيرُ الرِّزقِ على المُؤمِنِ الحكيم، وتوسعتُه على الكافرِ الأحمق؛ في نظائرَ لهذه المذكُوراتِ يتحيَّرُ العقلُ في تعليلها، فيبقى مبهُوتًا.

فلم أزلْ أتلمَّحُ أسرارَ هذه الأشياءِ حتى بانَ لي أنّ تسليمَ ذلك والرضا به فرضُ العقل من[2] جُملةِ التكاليف، فإذا عجزَت قُوى العقلِ عن الاطلاعِ على حِكمةِ ذلك ـ وقد ثبتَ لها حِكمةُ الفاعل ـ علِمَت قُصُورَها عن دَرَكِ جميعِ المطلُوبِ، فأذعنَت مُقِرَّةً بالعجز، وبذلك يُؤدّى مفرُوضُ تكليفِها.

فلو قيل للعقل: قد ثبتَ عِندكَ حِكمةُ الخالقِ بما بنى، أفيجُوزُ أن يقدحَ في

(١) عن (ق).
(٢) من قوله: «أسرار» إلى هنا عن (ف).

حِكمتِه أنّه نقَض؟ لقال: لا[1]؛ لأنّي عرَفتُ بالبُرهانِ أنّه حكيم، وأنا أعجِزُ عن إدراكِ عِللِه، فأُسلِّمُ على رَغمي مُقرًّا بعجزي.

٢٨- فَصْلٌ
[مَقاصدُ النكاح]

تأمَّلتُ فوائدَ النكاحِ ومعانيَه وموضُوعَه، فرأيتُ أنّ الأصلَ الأكبرَ في وضعِهِ وُجودُ النَّسلِ؛ لأنّ هذا[2] الحيوانَ لا يزالُ يتحلَّل، ثُمّ يخلُفُ المُتحلِّلَ الغِذاءُ، ثُمّ يتحلَّلُ من الأجزاءِ الأصليةِ ما لا يخلُفُه شيء، فإذا لم يكُن بُدٌّ من فَنائه، وكان المُرادُ امتدادَ زمانِ الدنيا، جعل النَّسلَ خَلَفًا عنِ الأصل.

ولمّا كانت صُورةُ النكاح تأباها النفوسُ الشريفةُ من كشفِ عورةٍ ومُلاقاةِ ما لا يستحسِنُ لنفسِه، جُعِلتِ الشهوةُ تحُثُّ ليحصُلَ المقصُود.

ثُمّ رأيتُ هذا المقصُودَ الأصليَّ يتبعُهُ شيءٌ آخر، وهو استفراغُ هذا الماءِ الذي يؤذي دوامُ احتقانِه؛ فإنّ المنيَّ ينفصِلُ من الهضمِ الرابع، فهو مِن أصفى جوهرِ الغذاءِ وأجودِه، ثُمّ يجتمع، فهو أحدُ الذخائر للنفس؛ فإنّها تدَّخِرُ - لبقائها وقُوَّتها - الدمَ ثُمّ المنيَّ، ثُمّ تدَّخِرُ الثُّفلَ[3] الذي هو من أعمدةِ البدن، كأنّه يُخوِّفُ[4] عدمَ غيرِه.

فإذا زاد اجتماعُ المنيِّ أقلقَ على نحوِ إقلاقِ البولِ للحاقِن، إلا أنّ إقلاقَه من حيثُ المعنى أكثرُ من إقلاقِ البولِ من حيثُ الصُّورة، فتُوجِبُ كثرةُ اجتماعِه

---

(١) سقطت من (ح). (٢) سقطت من (ك، س، م).

(٣) الثُّفل: هو الفَضلة التي قد فات الطبيعةَ إحالتُه إلى الدم. الحاوي في الطب (٥: ٢٠٠).

(٤) في (د): «الخوف».

وطُولُ احتباسِه أمراضًا صعبةً؛ لأنّه يترقّى من بُخارِه إلى الدماغِ فيُؤذي، ورُبّما أحدثَ سُمِّيَّةً.

ومتى كان المِزاجُ سليمًا فالطبعُ يطلُبُ بُروزَ المنيِّ إذا اجتمع كما يطلُبُ بُروزَ البول، وقد ينحرِفُ بعضُ الأمزجة، فيقلُّ اجتماعُه عنده، فيندُرُ طلبُه لإخراجِه، وإنّما نتكلَّمُ عنِ[1] المِزاج الصحيح، فأقول: قد بيَّنتُ أنّه إذا وقَع به الإنسانُ وطال[2] احتِباسُه أوجبَ أمراضًا، وجدَّد أفكارًا رديئة، وجلبَ العِشقَ والوسوسةَ إلى غيرِ ذلك من الآفات.

وقد نجِدُ صحيحَ المِزاج يُخرِجُ ذلك إذا اجتمعَ، وهو بعدُ مُتقلقِلٌ، فكأنّه الآكلُ الذي لا يشبع، فبحثتُ عن ذلك فرأيتُه وُقوعَ الخللِ في المنكُوحِ؛ إمّا لدمامتِه وقُبحِ منظرِه، أو لآفةٍ فيه، أو لأنّه غيرُ مطلُوبِ النفس، فحينئذٍ يخرُجُ مِنه، ويبقى بعضُه.

وإذا أردتَ معرِفةَ ما يدُلُّكَ على ذلك فقِسْ مِقدارَ خُروجِ المنيِّ في المحلِّ المُشتهى، وفي المحلِّ الذي هو دُونَه كالوطءِ بين الفخِذَينِ بالإضافة إلى الوطءِ في محلِّ النّكاح، وكوطءِ البِكرِ بالإضافة إلى وطءِ الثيِّبِ؛ فعُلِمَ حينئذٍ أنّ تخيُّر المنكُوحِ يستقصي فُضولَ المنيّ، فيحصلُ للنفسِ كمالُ اللذّة، لموضعِ كمالِ بُرُوزِ الفُضول.

ثُمّ قد يُؤثِّرُ هذا في الولدِ أيضًا، فإنّه إذا كان من شابَّينِ قد حبسا أنفُسَهما عنِ النكاح مُدّةً[3] مديدة، كان الولدُ أقوى مِنه من غيرِهما، أو مِن المُدمِنِ على

---

(١) في (ك، ح، س، ر، ل): «وإنما يتكلم على».

(٢) «الإنسان وطال» عن (ف).

(٣) عن (ك، س، ق، م).

النكاحِ في الأغلب، ولِهذا كُرِهَ نِكاحُ الأقارِب؛ لأنّهُ مِمّا يقبِضُ النفسَ عن انبساطِها، فيتخيَّلُ الإنسانُ أنّه ينكِحُ بعضَه، ومُدِحَ نِكاحُ الغرائبِ لهذا المعنى.

ومِن هذا الفنِّ يحصُلُ كثيرٌ من المقصُودِ مِن دفعِ هذه الفُضُولِ المُؤذيةِ بمنكُوحٍ مُستجِدٍّ ـ وإن كان مُستقبَحَ الصُّورةِ ـ ما لا يحصُلُ به في(١) العادة(٢).

ومِثالُ هذا أنّ الطاعِمَ إذا امتلأَ خُبزًا ولحمًا حيثُ لم يبقَ فيهِ فضلٌ لتناوُل لقمة، قُدِّمَت إليهِ الحلوى، فيتناول، فلو قُدِّمَ أعجبُ مِنها لتناول(٣)؛ لأنّ الجِدّةَ لها معنًى عجيب، وذلك أنّ النفسَ تميلُ إلى ما ألِفَت، وتطلُبُ غيرَ ما عرَفَت، ويتخايلُ لها في الجديدِ نوعُ مُراد، فإذا لم تجِد مُرادَها صدَفَت(٤) إلى جديدٍ آخرَ، فكأنّها قد علِمَت وُجُودَ غرضٍ تامٍّ بلا كَدَر، وهي تتخايَلُهُ فيما تراه.

وفي هذا المعنى دليلٌ مدفُونٌ على البعث؛ لأنّ خلقَ همّةٍ ـ مُتعلِّقةٍ بلا مُتعلَّقٍ ـ نوعُ عبثٍ، فافهم هذا.

فإذا رأتِ النفسُ عُيوبَ ما خالطَت في الدنيا عادَت تطلُبُ جديدًا؛ ولذلِك قال الحُكماء(٥): «العِشقُ العمى عن عُيُوبِ المحبُوب، فمَن تأمَّلَ عُيُوبَه سلا»، ولذلك يُستحَبُّ للمرأةِ ألا تبعُدَ عن زوجِها بُعدًا يُنسيهِ إيّاها، ولا تقرَبَ مِنه قُربًا يَمَلُّها، وكذلك يُستحَبُّ له؛ لئلا يَمَلَّها، أو تظهرَ لديهِ مكنُوناتُ عُيُوبِها.

وينبغي له ألا يطَّلعَ مِنها على عورة، ويجتهدَ في ألا يشمَّ مِنها إلا طِيبَ ريح، إلى غير ذلك من الخِصالِ التي تستعملُها النساءُ الحكيمات، فإنّهُنَّ

---

(١) سقطت من (ر، ق، م).
(٢) في (ف، ك، ح، ص، د): «يحصل به العبادة».
(٣) سقط «فلو قدم أعجب منها لتناول» من (ر، ق).
(٤) في (ف): «صرفت».
(٥) ذكره ابن الجوزي في ذم الهوى (ص٢٨٩).

يعلمن ذلك بفِطَرِهِنَّ مِن غيرِ احتياج، فأمّا الجاهِلاتُ فإنّهُنَّ لا ينظُرن في هذا، فيتعجَّلُ التفاتُ الأزواجِ عنهنّ.

فمن أراد نجابةَ الولدِ وقضاءَ الوطرِ فليتخيَّرِ المنكُوح؛ إن كان زوجةً فلينظُر إليها، فإذا وقعَت في نفسِهِ فليتزوَّجْها، ولينظُر في كيفيةِ وقوعِها في نفسِه، فإنّ علامةَ تعلُّقِ حُبِّها بالقلبِ أنّه لا يكادُ يصرفُ الطَّرفَ عنه، فإذا انصرفَ الطَّرفُ قلِقَ القلبُ بتقاضي النظرة[1]، فهذا الغاية، ودُونهُ مراتِبُ على مقاديرِها يكُونُ بُلُوغُ الأغراض.

وإن كان جاريةً تُشترى فلينظُر إليها أبلغَ مِن ذلك النظر، ومن قدَرَ على مُناطقةِ المرأةِ أو مُكالمتِها بما يُوجِبُ التنبيه، ثُمّ ليرى[2] ذلك مِنها، فإنّ الحُسنَ في الفمِ والعينَين، وقد نصَّ أحمدُ على جوازِ أن يُبصِرَ الرجلُ مِن المرأةِ التي يُريدُ نِكاحَها ما هو عورة؛ يُشيرُ إلى ما يزيدُ على الوجه.

ومَن أمكنَه أن يُؤخِّرَ العقدَ أو شِراءَ الجاريةِ لينظُر كيف توقانُ قلبِه؛ فإنّه لا يخفى على العاقِلِ توقانُ النفسِ لأجلِ المُستجِدِّ، وتوقانُها لأجلِ الحُبِّ، فإذا رأى قلقَ الحُبِّ أقدم، فإنّه قد أخبرَنا مُحمّدُ بنُ عبدِ الباقي، قال: أخبرَنا حمدُ ابنُ أحمد، قال: أخبرنا أبو نُعيمٍ، قال: حدَّثنا سُليمانُ بنُ أحمد، قال[3]: حدَّثنا عبدُ الجبّارِ بنُ أبي عامِرٍ، قال: حدَّثني أبي، قال: حدَّثني خالدُ بنُ سلّام، قال: حدَّثنا عطاءٌ الخُراسانيّ، قال: «مكتُوبٌ في التوراة: كُلُّ تزويجٍ على غيرِ هوًى حسرةٌ وندامةٌ إلى يومِ القيامة»[4].

---

(١) تقاضي النظرة: طلبها مرة أخرى.

(٢) في (ف، ص): «يرى».

(٣) سقطت من (ك، س).

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية (٥: ١٩٧).

ثُمّ ينبغي للمُتخيِّر أن يتفرَّسَ الأخلاق، فإنّها من الخفيّ، فإنّ الصُّورةَ إذا خلَت من المعنى كانت كخَضراءِ الدِّمَن(١)، فإن نجابةَ الولدِ مقصُودة، وفراغُ النفسِ من الاهتمامِ بودٍّ محبوسٍ(٢) أصلٌ عظيمٌ يُوجِبُ إقبالَ القلبِ على المُهمّات.

ومَن فرغَ مِن المُهمّاتِ العارضةِ أقبلَ على المُهمّاتِ الأصليّة، ولهذا جاء في الحديث: «لا يقضي القاضي بين اثنَينِ وهو غضبانُ»(٣)، و«إذا وُضِع(٤) العَشاءُ وحضرَتِ العِشاءُ فابدؤوا بالعَشاء»(٥).

فمَن قدَرَ على امرأةٍ صالِحةٍ في الصُّورةِ والمعنى فليُغمِضْ عن عوراتِها(٦)، ولتجتهدْ هي في مراضِيه من غير قُربٍ يُمَلُّ، ولا بُعدٍ يُنسي، ولْتَدُمْ(٧) على التصنُّع له؛ يحصُل(٨) الغرضانِ مِنها: الولدُ وقضاءُ الوطر، مع الاحترازِ الذي أوصيتُ بهِ، تدُومُ الصحبة، ويحصلُ الغَناءُ بها عن غيرِها.

فإن قدَرَ على الاستكثار، فأضاف إليها سِواها، عالِمًا أنّه يبلُغُ الغرضَ الذي يُفرِّغُ قلبَه زيادةَ تفريغ؛ كان أفضلَ لحالِه، فإنْ خافَ مِن وُجودِ الغَيرةِ ما يشغَلُ القلبَ الذي قد اهتمَمنا بجمعِ همِّه، أو خافَ وُجودَ مُستحسَنةٍ تشغَلُ قلبَه عن ذِكرِ الآخِرة، أو تطلبُ مِنهُ ما يُوجِبُ خُروجَه عن الورع، ويدخُلُ فيما

---

(١) في الحديث: «إياكم وخضراء الدِّمن»، يعني المرأة الحسناء في منبت السوء؛ لأن ما ينبت في الدمنة وإن كان ناضرًا لا يكون ثامرًا. الصحاح (خ ض ر).

(٢) في (س): «محسوس».

(٣) البخاري (٧١٥٨)، ومسلم (١٧١٧) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٤) سقطت من (ح، ص).

(٥) البخاري (٦٧١)، ومسلم (٥٥٨) عن عائشة رضي الله عنها، وفي الباب عن ابن عمر وأنس رضي الله عنهم.

(٦) العورات هنا: العيوب.

(٧) في (ح، ص): «وتقدم».

(٨) في (ر): «يحصل له».

أوصيتُ به أنّه يبعُدُ في المُستحسَناتِ العفاف، فليُبالِغ الواجِدُ لهنَّ في حفظهنَّ وسِترِهنَّ. فإن وجدَ ما لا يُرضيه عجَّلَ الاستبدال، فإنّه سببُ السُّلُوِّ، وإن قدَرَ على الاقتصار فإنّ الاقتصارَ على الواحِدةِ أولى، فإن كانت على الغرضِ قنعَ، وإن لم تكُنِ استبدلَ. ونكاحُ المرأةِ المحبُوبةِ يستفرِغُ الماءَ المُجتمِع، فيُوجِبُ نجابةَ الولدِ وتمامَه، وقضاءَ الوطرِ بكمالِه.

ومَن خافَ وُجُودَ الغَيرة فعليهِ بالسَّراريّ، فإنّهُنّ أقلُّ غيرةً، والاستظرافُ لهُنَّ أمكنُ مِن استِظرافِ الزوجات، وقد كان جماعةٌ يُمكنُهمُ الجمع، وكان النِّساءُ يصبِرن.

فكان لداودَ عليه الصلاة والسلام مئة، ولِسُليمانَ عليه الصلاة والسلام ألفُ امرأة، وقد عُلِمَ حالُ نبيِّنا ﷺ وأصحابِه، وقد كان لأميرِ المُؤمِنين عليٍّ رضي الله عنه أربعُ حرائرَ وسبعَ عشرةَ سُرِّيّة، وتزوَّجَ ابنُه الحسنُ رضي الله عنه بنحوِ من أربعِمئةٍ[١]، إلى غيرِ هذا مِمّا يطُولُ ذِكرُه، فافهم ما أشرتُ إليهِ تفُز بهِ إن شاء الله تعالى.

٢٩- فَصْلٌ

[عجائبُ الجزاء]

كُلُّ شيءٍ خلق الله تعالى في الدنيا فهو أُنمُوذجٌ في الآخِرة، وكُلُّ شيءٍ يجري فيها أُنمُوذجُ ما يجري في الآخِرة، فأمّا المخلُوقُ مِنها[٢] فقال ابنُ عبّاسٍ رضي الله عنهما: «ليس في الجنّة شيءٌ يُشبِهُ ما في الدنيا إلا الأسماء»[٣].

---

(١) تقدم في الفصل ١٩.
(٢) سقطت من (ك، س).
(٣) رواه هناد في الزهد (٣، ٨)، والطبري في تفسيره (١: ٤١٦)، وسنده صحيح موقوفًا.



وهذا لأنّ الله تعالى شوَّقَ بنعيمٍ إلى نعيم، وخوَّفَ بعذابٍ مِن عذاب، فأمّا ما يجري في الدنيا فكُلُّ ظالمٍ مُعاقَبٌ في العاجِل على ظُلمِه قبل الآجِل، وكُلُّ مذنبٍ ذنبًا، وهو معنى قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣].

ورُبّما رأى العاصي سلامةَ بدنِه ومالِه فظنَّ أن لا عُقوبةَ، وغفلتُه عمّا عُوقِبَ بهِ عقوبة، وقد قال الحُكماء: «المعصيةُ بعد المعصيةِ عِقابُ المعصية، والحسنةُ بعد الحسنةِ ثوابُ الحسنةِ»[1].

ورُبّما كان العِقابُ العاجِلُ معنويًّا كما قال بعضُ أحبارِ بني إسرائيل: «يا ربِّ، كم أعصِيكَ ولا تُعاقِبُني؟ فقيل له: كم أُعاقِبُكَ ولا تدري، أليس قد حرمتُكَ حلاوةَ مُناجاتي؟!»[2].

فمَن تأمَّل هذا الجِنسَ من المُعاقبةِ وجَدهُ بالمِرصاد، حتّى قال وُهَيبُ بنُ الوَردِ[3] وقد سُئل: أيجِدُ لذّةَ الطاعةِ مَن يعصي؟ فقال: «ولا مَن همَّ».

فرُبَّ شخصٍ أطلقَ بصرَه فحُرِمَ اعتبارَ بصيرتِه، أو لسانَه فحُرِمَ صفاءَ قلبِه، أو آثرَ شُبهةً في مطعمِهِ فأظلمَ سِرُّه، وحُرِمَ قيامَ الليل وحلاوةَ المُناجاة، إلى غيرِ ذلك، وهذا أمرٌ يعرفُه أهلُ مُحاسبةِ النفُوس.

وعلى ضِدِّه يجدُ من يتَّقي الله تعالى مِن حسنِ الجزاءِ على التقوى عاجِلًا، كما في حديثِ أبي أُمامةَ عن النبيِّ ﷺ: «يقولُ الله تعالى: النظرةُ إلى المرأةِ

---

(١) رواه البيهقي في الشعب (٦٨٢٩).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠: ١٦٨).

(٣) في سائر النسخ: «وهب بن الورد»، والصواب ما أثبتناه، وهو أبو أمية وهيب بن الورد المكي، وقيل: اسمه عبد الوهاب، تُوفي سنة ١٥٣هـ. انظر ترجمته وخبره في: سير أعلام النبلاء (٧: ١٩٨، ١٩٩).

سَـهمٌ مسـمومٌ من سـهامِ الشـيطان، مَن تركَه ابتِغـاءَ مرضاتي آتيتُـه إيمانًا يجِدُ حلاوتَه في قلبِه»[(١)]. فهذه نُبذةٌ من هذا الجنسِ تُنبّهُ على مُغفَلِها.

فأمّـا المُقابلـةُ الصريحةُ في الظاهرِ فقلَّ أن تحتبِس، ومن ذلك قولُ النبيِّ ﷺ: «الصُّبحة[(٢)] تمنعُ الرِّزق»، و«إنّ العبدَ ليُحرَمُ الرِّزقَ بالذنبِ يُصيبُه»[(٣)].

وقد روى المُفسِّـرونُ أنّ كُلَّ شـخصٍ مِن الأسـباطِ جاء باثنَي عشرَ ولدًا، وجاء يُوسُـفُ بأحدَ عشـرَ بالهَمّة[(٤)]، ومِثلُ هذا إذا تأمَّلهُ ذُو بصيرةٍ رأى الجزاءَ وفهِم؛ كما قال الفُضَيلُ: إنّي لأعصي الله عز وجل فأعرِفُ ذلك في خُلُقِ دابَّتي وجاريتي»[(٥)].

وعن أبي عُثمانَ النيسابوريِّ[(٦)] أنّه انقطعَ شِسْعُ نعلِه في مُضيِّه إلى الجُمُعةِ، فتعوَّقَ لإصلاحِهِ ساعةً، ثُمّ قال: «إنما انقطعَ لأنّي ما اغتسلتُ للجُمُعة».

ومِـن عجائـبِ الجـزاءِ في الدنيـا: أنّه لمّـا امتدَّت أيـدي الظُّلم مِـن إخوةِ يُوسُـفَ ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ﴾ [يوسف: ٢٠]، امتـدَّت أكُفُّهـم بيـن يدَيـهِ بالطلبِ يقولـون: ﴿وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ﴾ [يوسف: ٨٨]. ولمّـا صبرَ هو يـومَ الهَمّةِ ملكَ المرأةَ

---

(١) تقدم في الفصل ١٨.

(٢) الصُّبحة: النوم أول النهار، والحديث ضعيف؛ رواه عبد الله ابن الإمام أحمد في زوائد المسند (٥٣٠)، وفيه ابن عياش، وهو ضعيف في روايته عن غير أهل الشام، وفيه ابن أبي فروة، وهو متروك.

(٣) رواه ابن ماجه (٩٠، ٤٠٢٢) فيه عبد الله بن أبي الجعد، وهو مجهول الحال.

(٤) رواه الطبري في تفسيره (١٣: ٩٢) بأسانيد ضعيفة.

(٥) تقدم في الفصل ١٢.

(٦) هو أبو عثمان سعيد بن إسماعيل بن سعيد بن منصور النيسابوري، الحيري، الصوفي، تُوفي سنة ٢٩٨هـ. سير أعلام النبلاء (١٤: ٦٢)، والخبر في الرسالة القشيرية (١: ١٠٩).

حـلالًا، ولمّا بغَت عليهِ بدعواها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا﴾ [يوسف: ٢٥] أنطقَها الحقُّ بقولِها: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ﴾ [يوسف: ٥١].

ولو أنّ شـخصًا تركَ معصيةً لأجل الله تعالى لرأى ثمرةَ ذلك، وكذلك إذا فعـلَ طاعةً، وفي الحديث: «إذا أملقتُم فتاجِـرُوا الله بالصدقةِ»[1]؛ أي: عامِلُوه لزيادةِ الأرباحِ العاجِلة.

ولقـد رأينـا مَن سـامحَ نفسَـه بما يمنعُ مِنـهُ الشـرعُ طلبًا للراحـةِ العاجِلة، فانقلبَت أحوالُه إلى النُّغَصِ العاجِلة، وعُكِسَتْ عليهِ المقاصِد.

حكى بعضُ المشـايخِ أنّه اشـترى في زمنِ شبابِه جارية، قال: فلمّا ملكتُها تاقَـت نفسـي إليها، فما زِلتُ أسـألُ الفُقهاءَ لعـلَّ مخلُوقًا يُرخِّـصُ لي، فكُلُّهم قال: لا يجُوزُ النظرُ إليها بشهوة ولا لمسُها ولا جِماعُها إلا بعد حيضِها، قال: فسـألتُها فأخبرَتنـي أنهـا اشـتُرِيَت وهي حائضٌ، فقلـتُ: قرُبَ الأمر. فسـألتُ الفُقهاءَ، فقالوا: لا يُعتَدُّ بهذهِ الحيضةِ حتّى تحيضَ في مُلكِه. قال: فقلتُ لنفسي ـ وهي شـديدةُ التَّوَقانِ لقُوّةِ الشـهوة، وتمكُّنِ القُدرة، وقُربِ المُصاقبةِ[2] ـ: ما تقُولين؟ فقالت: الإيمانُ بالصبرِ على الجمرِ، شِئتَ أو أبيتَ، فصبرتُ إلى أن حانَ ذلك، فأثابني الله تعالى على ذلك الصبرِ بنيلِ ما هو أعلى مِنها وأرفعُ.



(١) ذكره أبو منصور الثعالبي في الإعجاز والإيجاز (ص٣٩) من غير سند عن علي رضي الله عنه من قوله.

(٢) صاقبه: واجهه.



٣٠- فَصْلٌ

[الأدلة على الحقّ]

نظرتُ في الأدلّةِ على الحقِّ سبحانه وتعالى، فوجدتُها أكثرَ مِن الرَّملِ، ورأيتُ من أعجبها أنّ الإنسانَ قد يُخفي ما لا يرضاهُ الله عز وجل، فيُظهِرُه الله سُبحانه عليهِ ولو بعد حين، ويُنطِقُ الألسِنةَ به وإن لم يُشاهِدْهُ الناس.

ورُبّما أوقع صاحِبَه في آفةٍ يفضحُه بها بين الخلق، فيكُون جوابًا لكُلِّ ما أخفى من الذنوب؛ وذلك ليعلمَ الناسُ أنّ هُنالِك مَن يُجازي على الزَّلل، ولا ينفعُ مِن قَدَرِهِ وقُدرَتِهِ حِجابٌ ولا استتار، ولا يُضاعُ لديهِ عمل.

وكذلك يُخفي الإنسانُ الطاعاتِ، فتظهرُ عليه، ويتحدَّثُ الناسُ بها وبأكثرَ مِنها، حتى إنّهم لا يعرِفون له ذنبًا، ولا يذكُرونه إلا بالمحاسِنِ؛ ليعلمَ أنّ هُنالِك ربًّا لا يُضيعُ عملَ عامِلٍ.

وإنّ قُلوبَ الناسِ لَتعرفُ حالَ الشخصِ وتُحبُّهُ أو تأباه، وتذمُّهُ أو تمدحُه، وربما لم يتحقَّقْ ما بينه وبين الله تعالى، فإنّه يكفيه كُلَّ همٍّ، ويدفعُ عنهُ كُلَّ شرٍّ، وما أصلحَ عبدٌ ما بينَه وبينَ الخلقِ دون الحقِّ إلا انعكسَ مقصودُه، وعاد حامِدُه ذامًّا.

٣١- فَصْلٌ

[طبقاتُ الغافلين]

تأمّلتُ الأرضَ ومن عليها بعينِ فِكري، فرأيتُ خرابَها أكثرَ من عُمرانِها، ثُمّ نظرتُ في المعمُورِ منها، فوجدتُ الكُفّارَ مُستولِين على أكثرِه، ووجدتُ أهلَ الإسلامِ في الأرضِ قليلًا بالإضافةِ إلى الكُفّار.

ثُمّ تأمّلتُ المُسلِمين فرأيتُ الأكسابَ قد شغلَت جُمهورَهم عنِ الرازِق، وأعرضَت بهم عن العِلم الدالِّ عليه، فالسُّلطانُ مشغولٌ بالأمرِ والنهيِ واللذّاتِ العارِضةِ له، ومياهُ أغراضِهِ جاريةٌ لا مُنكِرَ لها، ولا يتلقّاهُ أحدٌ بموعِظةٍ بل بالمديحةِ التي تُقوِّي هوى النفس، وإنّما ينبغي أن تُقاوَمَ الأمراضُ بأضدادِها، كما قال عمرُ بنُ المُهاجِر: قال لي عُمرُ بنُ عبدِ العزيز: «إذا رأيتَني قد حِدتُ عنِ الحقِّ فخُذْ بثيابي وهُزَّني، وقُل: ما لكَ يا عُمرُ؟»[1]، وقال عُمرُ بنُ الخطّاب: «رحِمَ الله مَن أهدى إلينا عُيُوبَنا»[2].

فأحوجُ الخلقِ إلى النصائحِ والمواعِظِ السُّلطانُ، وأمّا جُنودُه فجُمهورُهم في سُكرِ الهوى وزينةِ الدنيا، وقد انضافَ إلى ذلك الجهلُ وعدمُ العِلم، فلا يُؤلِمُهم ذنب، ولا ينزعِجُون من لُبسِ حرير أو شُربِ خمر، حتّى رُبّما قال بعضُهم: أيش[3] يعملُ الجُنديُّ، أيلبسُ القُطن؟! ثُمّ أخذُهم للأشياء من غيرِ وجهِها، فالظلمُ معهم كالطبع!

وأربابُ البوادي قد غمرَهم الجهل، وأهلُ القُرى، فكذلك تقَلُّبُهم في الأنجاسِ والتهوين لأمرِ الصلوات، ورُبّما صلَّتِ المرأةُ مِنهنَّ قاعدة.

ثُمّ نظرتُ في التُّجّارِ، فرأيتُهم قد غلبَ عليهم الحِرص، حتّى لا يرون سِوى وُجوهِ الكسبِ كيف كانت، وصار الرِّبا في مُعاملاتِهم فاشيًا، فلا يُبالي أحدُهم مِن أين حصلَ له الدنيا، وهم في بابِ الزكاةِ مُفرِّطُون، ولا يستوحِشُون مِن تركِها إلا من عصمَ الله تعالى.

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٥: ٢٩٢) بمعناه.

(٢) رواه ابن سعد في الطبقات (٣: ٢٧٣) نحوه.

(٣) أيش: منحوت من «أي شيء»، وقد تكلمت به العرب.

ثُـمّ نظـرتُ فـي أربـابِ المعـاشِ، فوجدتُ الغـشَّ فـي مُعاملاتِهـم عامًّا، والتطفيف والبخس، وهم مع هذا مغمُورُون بالجهل، ورأيتُ عامّةَ من له ولدٌ يشغلُه ببعضِ هذه الأشغال طلبًا للكسبِ قبل أن يعرِفَ ما يجِبُ عليه، وما يتأدَّبُ به.

ثُمّ نظرتُ في النِّساءِ فرأيتُهنَّ قليلاتِ الدِّين، عظيماتِ الجهل، ما عِندهُنَّ مِن الآخِرةِ خبَرٌ إلا مَن عصمَ الله.

فقلتُ: وا عجبًا! فمَن بقيَ لخدمة الله عز وجل ومعرِفتِه؟! فنظرتُ، فإذا العُلماءُ والمُتعلِّمُون والعُبّادُ والمُتزهِّدون.

فتأمَّلتُ العُبّادَ والمُتزهِّدين، فرأيتُ جُمهُورَهم يتعبَّدُ بغيرِ عِلم، ويأنسُ إلى تعظيمِه، وتقبيلِ يده، وكثرةِ أتباعِه، حتّى إنّ أحدَهم لو اضطُرَّ إلى أن يشتريَ حاجةً مِن السُّوقِ لم يفعل؛ لئلّا ينكسرَ جاهُه، ثُمّ تترقّى بهم رُتبةُ النامُوسِ[1] إلى ألّا يعودُوا مريضًا، ولا يشهَدُوا جنازةً إلا أن يكُونَ عظيمَ القدرِ عِندهم، ولا يتزاورُون، بل رُبّما ضَنَّ بعضُهم على بعضٍ، فقد صارتِ النواميسُ كالأوثانِ يعبُدُونها ولا يعلمون.

وفيهم مَن يُقدِمُ على الفتوى بجهل؛ لئلّا يُخَلَّ ناموسُ التصدُّر، ثُمّ يعيبُون العلماءَ لحرصِهم على الدنيا، ولا يعلمُون أنّ المذمُومَ من الدنيا ما هم فيه، لا تناوُلُ المُباحات.

ثُمّ تأمّلتُ العُلماءَ والمُتعلّمين، فرأيتُ القليلَ في المُتعلّمين مَن عليهِ أمارةُ

---

(١) رتبة الناموس: رتبة الشهرة والشرف، وكلمة «النامّوس» كثيرة الدوران في كتابنا كما سيأتي. انظر: تكملة المعاجم العربية لدوزي (١٠: ٣١٥).

النَّجابة؛ لأنّ أمارةَ النَّجابةِ طلبُ العِلم للعملِ به، وجمهورُهم يطلُبُ ما يُصيِّرُه شَبَكَةً للكسب؛ إمّا ليأخُذَ قضاءَ مكان، أو ليصيرَ قاضيَ بلد، أو قدْرَ ما يتميَّزُ به عن أبناءِ جنسِه، ثُمّ يكتفي.

ثُمّ تأمَّلتُ العُلماء، فرأيتُ أكثرَهم يتلاعبُ بِهِ الهوى ويستخدِمُه، فهو يُؤثِرُ ما يصدُّه العِلمُ عنه، ويُقبِلُ على ما ينهاه، ولا يكادُ يجدُ ذوقَ مُعاملةِ الله سُبحانه، وإنّما هِمَّتُه أن يقُولَ، إلا أنّ الله تعالى لا يُخلي الأرضَ مِن قائمٍ له بالحُجّة، جامِعٍ بين العِلمِ والعملِ، عارِفٍ بحُقوقِ الله تعالى، خائفٍ مِنه، فذلك[1] قُطبُ الدنيا، ومتى ماتَ أخلفَ الله تعالى عِوضَه، ورُبّما لم يمُت حتّى يرى من يصلُحُ للنيابةِ عنه في كُلِّ نائبة، ومِثلُ هذا لا تخلُو الأرضُ مِنه، فهو في مقام النبيِّ في الأُمّة، وهذا الذي أصِفُه يكُونُ قائمًا بالأصول، حافظًا للحدود، ورُبّما قلَّ عِلمُه، أو قلَّت مُعاملتُه، فأمّا الكامِلون في جميعِ الأدواتِ فيندُرُ وجُودُهم، فيكُونُ في الزمانِ البعيدِ مِنهم واحِد.

ولقد سبَرتُ السلفَ كُلَّهم، فأردتُ أن أستخرجَ مِنهم مَن جمعَ بين العِلمِ حتّى صار من المُجتهدين، وبين العملِ حتّى صار قُدوةً للعابِدين، فلم أرَ أكثرَ مِن ثلاثة؛ **أوّلُهم**: الحسنُ البصريّ، **وثانيهم**: سُفيانُ الثوريّ، **وثالثُهم**: أحمدُ ابنُ حنبل. وقد أفردتُ لأخبار كُلِّ واحِدٍ مِنهم كِتابًا، وما أُنكِر على مَن ربَّعهم بسعيدِ بنِ المُسيِّب.

وإن كان في السلفِ ساداتٌ إلا أنّ أكثرَهم غلبَ عليهِ فنٌّ، فنقصَ من الآخَر، فمِنهم من غلبَ عليهِ العِلم، ومِنهم من غلبَ عليهِ[2] العمل، وكُلٌّ

(١) هنا انتهت نسخة لايبزج المرموز إليها بالرمز (ل).

(٢) سقط «فن فنقص من... غلب عليه» من (ح، ص).

هؤُلاءِ كان له الحظُّ الوافرُ من العِلمِ، والنصيبُ الأوفى مِن المُعاملةِ والمعرفة، ولا يُؤيَسُ مِن وُجودِ مَن يحذُو حذوَهم وإن كان الفضلُ بالسبقِ لهم، فقد أطلعَ الله عز وجل الخَضِرَ على ما خفيَ عن مُوسى عليهما السلام، فخزائنُ الله مملوءة، وعطاؤه لا يقفُ على شخص.

ولقد حُكِيَ لي عنِ ابنِ عَقِيلٍ أنّه كان يقولُ عن نفسِه: «أنا عُمِلتُ في قالبٍ ثُمّ كُسِر». وهذا غلط! فمِن أين له؟! فكم مُعجَبٍ بنفسِهِ كُشِفَ له مِن غيرِه ما عاد يحتقرُ نفسَهُ على ذلك! وكم مِن مُتأخِّرٍ سبقَ مُتقدِّمًا! وقد قيل: [البسيط]

إنّ اللّياليَ والأيّامَ حامِلةٌ ... ولَيسَ يَعلَمُ غَيرُ الله ما تَلِدُ

٣٢- فَصْلٌ
[ميلُ النفس إلى الشهوات]

رأيتُ ميلَ النفس إلى الشهوات زائدًا في المقدار، حتّى إنّها إذا مالَت مالَت بالقلبِ والعقلِ والذهن، فلا يكادُ يُنتفَعُ بشيءٍ من البدن. فصِحتُ بها يومًا وقد مالَت بكُلِّيتها إلى شهوة: وَيحَكِ! قِفي معي[1] لحظةً أُكلِّمْكِ كلِماتٍ، ثُمّ افعلي ما بدا لكِ. قالت: قُل؛ أسمع. قُلتُ: قد تقرَّرَ قِلّةُ ميلكِ إلى المباحاتِ من الشهوات، وأمّا جُلُّ ميلِكِ إلى المُحرَّمات، فأنا أكشفُ لكِ عن الأمرَين، فرُبّما رأيتُ الحُلوَينِ مُرَّين.

أمّا المباحاتُ من الشهوات فمُطلَقةٌ لكِ، ولكِنَّ طريقَها صعب؛ لأنّ المالَ قد يعجِزُ عنها، والكسبَ قد لا يُحصِّلُ مُعظمَها، والوقتُ الشريفُ يذهبُ بذلك، ثُمّ شُغِلَ القلبُ بها قبل التحصيل، وفي حالةِ الحُصول، ويحذرُ

(١) سقطت من (ح، ص).

الفوات، ثُمّ يُنغِّصُها من النقصِ ما لا يخفى على مُميِّز؛ إن كانت مَطعمًا فالشِّبَعُ يُحدِثُ آفات، وإن كان شخصًا فللمللِ أو الفِراقِ أو سُوءِ الخُلُق. ثُمّ ألذُّ النِّكاحِ أكثرُه إيهانًا للبدن، إلى غيرِ ذلك مِمّا يطولُ شرحُه.

وأمّا المُحرَّماتُ فيشتمِلُ على ما أشرنا إليهِ من المُباحات، ويزيدُ بإيهانِ العِرضِ، وخوفِ عِقابِ الدنيا وفضيحتِها، ووعيدِ الآخِرة، ثُمّ الجزعِ كُلَّما ذكرها التائب.

وفي قُوّةِ قهرِ الهوى لذّةٌ تزيدُ على كُلِّ لذّة. ألا ترى إلى كُلِّ مغلُوبٍ بالهوى كيف يكُون ذليلًا؛ لأنّه قُهِر، بخلافِ غالبِ الهوى، فإنّه يكونُ قويَّ القلب عزيزًا؛ لأنّه قَهَر؟!

فالحذرَ الحذرَ[1] من رُؤيةِ المُشتهى بعينِ الحُسنِ كما يرى اللِّصُّ لذّةَ أخذِ المالِ من الحِرزِ ولا يرى بعينِ فكرِه القطع. وليفتحْ عينَ البصيرةِ لتأمُّلِ العواقب، واستِحالةِ اللذّةِ نَغصة، وانقلابِها عن كونِها لذّةً؛ إمّا لمللٍ، أو لغيره من الآفات، أو لانقطاعِها بامتناعِ الحبيب، فتكونُ المعصيةُ الأولى كلقمةٍ تناولَها جائع، فما ردَّتْ كلبَ الجُوعِ، بل شهَّتِ الطعام، وليتذكَّرِ الإنسانُ لذّةَ قهرِ الهوى مع تأمُّلِ فوائدِ الصبرِ عنه، فمَن وُفِّقَ لذلك كانت سلامتُه قريبةً منه.



(١) سقطت من (ك، س).

٣٣- فَصْلٌ

[الشواغِل عن الله]

خطَر لي خاطر[١]، والمجلِسُ قد طاب، والقُلوبُ قد حضرَت، والعُيونُ جارية، والرُّؤوسُ مُطرِقة، والنفُوسُ قد ندِمَت على تفريطِها، والعزائمُ قد نهضَت لإصلاحِ شُؤونها، وألسِنةُ اللَّومِ تعملُ في الباطِن على تضييعِ الحزمِ وتركِ الحذر، فقلتُ لنفسي: ما بالُ هذه اليقظةِ لا تدوم، فإنّي أرى للنفس واليقظة في المجلِسِ مُتصادفاتٍ، فيتصادقانِ[٢]، فإذا قُمنا عن هذه التربةِ وقعتِ الغُربة!

فتأمَّلتُ ذلك، فرأيتُ أنّ[٣] النفسَ ما تزالُ مُتيقِّظةً، والقلبَ ما يزالُ عارِفًا، غيرَ أنّ القواطِع كثيرة، والفكرُ الذي ينبغي استعمالُه في معرِفةِ الله سبحانه وتعالى قد كَلَّ مِمّا يُستعمَلُ في اجتلابِ الدنيا، وتحصيلِ حوائجِ النفُوس، والقلبُ مُنغمِسٌ في ذلك، والبدنُ أسيرٌ مُستخدَم.

بينا الفكرُ يجولُ في اجتِلابِ الطعامِ والشرابِ والكِسوة، وينظُرُ في مُددِ ذلك وما يدَّخِرُه لغدِه وسَنتِه، اهتمَّ بخُروجِ الحدثِ وتشاغلَ بالطهارة، ثُمّ اهتمَّ بخُروج الفَضَلاتِ المُؤذيةِ - ومِنها المنيُّ - فاحتاج إلى النِّكاح، فعلِم أنّه لا يصِحُّ إلا باكتسابِ كسبِ الدنيا، فتفكَّرَ في ذلك، وعملَ بمُقتضاه، ثُمّ جاء الولدُ، فاهتمَّ بهِ وله، وإذا الفكرُ عامِلٌ في أصُولِ الدنيا وفُرُوعِها.

فإذا حضرَ الإنسانُ المجلِسَ فإنّه لا يحضُرُ جائعًا ولا حاقِنًا، بل يحضُرُ

---

(١) عن (س).

(٢) في (ح، ك، ق، د، م): «أرى النفس... مصادفان فيتصادفان»، والمثبت عن (س).

(٣) سقطت من (ف، س).

جامعًا لهمِّه، ناسيًا ما كان من الدنيا على فِكرِه، فيخلُو الوعظُ بالقلب، فيُذكِّرُهُ ما أَلِفَ، ويجذبُه بما عرَف، فينهضُ عُمّالُ القلبِ في رُزداقِ[1] عِرفانِه، فيُحضِرُون النفسَ إلى بابِ المُطالبةِ بالتفريط، ويُؤاخِذُون الحِسَّ بما مضى مِن التخليط، فتجري عُيونُ الندم، وتنعقِدُ عزائمُ الاستدراك.

ولـو أنّ هـذه النفسَ خلَت عـنِ المعهُوداتِ التـي وصفتُها، لتشـاغلَت بخِدمـةِ بارِئهـا، ولو وقعَت في سَـورة[2] حُبِّه لاستوحشَـت عنِ الكُلِّ شُـغلًا بقُربِه؛ ولهذا اعتمد الزُّهّادُ الخَلوات، وتشاغلُوا بقطع المُعوِّقات، وعلى قدرِ مُجاهدتِهـم فـي ذلك نالُوا مِن الخِدمة مُرادَهـم، كما أنّ الحصادَ على مِقدارِ البَذر.

غيرَ أنّي تلمَّحتُ في هذه الحالةِ دقيقةً، وهو أنّ النفسَ لو دامَت لها اليقظةُ لو قعَت فيما هو شرٌّ مِن فوتِ ما فاتها، وهو العُجبُ بحالها، والاحتقارُ بجنسِها، ورُبّما ترقَّتْ لقُوّة عِلمِها وعِرفانِها إلى دعوى: «لي، وعِندي، وأستحِقُّ»، فتركَها فـي حَومـةِ ذُنُوبِها تتخبَّـطُ، فإذا وقفَت على الشـاطِئ قامَت بحـقِّ ذلِّ العُبُودية أولى لها.

هـذا حُكمُ الغالـبِ من الخَلق، ولذلك شُـغِلوا عن هذا المقـام، فمَن بذرَ فصلحَ له، فلا بُدّ لهُ مِن هفوةٍ تُراقبها عينُ الخوفِ من عقابها، تصحُّ له عُبُوديتُه، وتسـلمُ لـه عِبادتُه. وإلـى هذا المعنى أشـار الحديثُ الصحيح: «لو لـم تُذنِبُوا لذهبَ الله بكُم وجاء بقومٍ يُذنِبون فيستغفِرُون فيغفرُ لهم»[3].

(١) الرُّزداق: موضع فيه مزدرع وقرى أو بيوت مجتمعة.

(٢) سَورة كل شيء: شِدّته.

(٣) مسلم (٢٧٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٣٤- فصل
[مفاهيم مغلوطة]

تفكَّرتُ فرأيتُ أنّ حفظَ المالِ منَ المُتعيَّن، وما يُسمِّيهِ جهلةُ المُتزهِّدين توكُّلًا - من إخراجِ ما في اليد - ليس بالمشرُوع، فإنّ النبيَّ ﷺ قال لكعبِ بنِ مالِك: «أمسِكْ عليكَ بعضَ مالِك»(١)، أو كما قال له، وقال لسعدٍ: «لأَنْ تَترُكَ ورثَتَكَ أغنياءَ خيرٌ مِن أن تَترُكَهم عالةً يتكفَّفُون الناس»(٢).

فإنِ اعترضَ جاهِلٌ فقال: «فقد جاء أبو بكرٍ رضي الله عنه بكُلِّ مالِه»(٣)، فالجواب: أنّ أبا بكرٍ صاحِبُ جأشٍ وتجارة، فإذا أخرج الكُلَّ أمكنَه أن يستدينَ عليهِ فيَتمَعيَش.

فمَن كان على هذه الصِّفةِ لا أذمُّ إخراجَهُ لمالِه(٤)، وإنّما الذمُّ مُتطرِّقٌ إلى مَن يُخرِجُ مالَه وليس مِن أربابِ المَعاش، أو يكُونُ مِن أُولئك إلا أنّه ينقطِعُ عنِ المَعاش فيبقى كَلًّا(٥) على الناسِ يستعطيهم ويعتقِدُ أنّه على الفتوح، وقلبُه مُتعلِّقٌ بالخَلق، وطمعُه ناشِبٌ فيهم، ومتى حُرِّك بابُه نهض قلبُه وقال: رِزقٌ قد جاء.

وهذا أمرٌ قبيحٌ بمن يقدِرُ به على المعاش، وإن لم يقدِرْ كان إخراجُ ما يملِكُ أقبحَ له(٦)؛ لأنّهُ يتعلَّقُ قلبُه بما في أيدي الناس، ورُبّما ذلَّ لبعضِهم، أو

(١) البخاري (٦٦٩٠)، ومسلم (٢٧٦٩) من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه.
(٢) تقدم في الفصل ٢٤.
(٣) رواه الحاكم وصحَّحه على شرط مسلم في المستدرك (١٥١٠) عن عمر رضي الله عنه.
(٤) في (ق): «لماله كله».
(٥) كَلًّا: عِبئًا.
(٦) عن (ف، ر).

يتزيَّـنُ له بالزهـد، وأقلُّ أحوالِه أنّـه يُزاحِمُ الفُقراءَ والمكافيـفَ والزَّمْنى[١] في الزكاة.

فعليكَ بالشَّربِ الأوّل، فانظُر: هل فيهم مَن فعلَ ما يفعلُه جهلةُ المُتزهِّدين؟ وقد أشـرتُ في أوّلِ هذا إلى أنّهم كسبُوا وخلَّفُوا الأموال، فرِدْ إلى الشَّربِ[٢] الأول الـذي لـم يُطـرَقُ؛ فإنّهُ الصافي، واحـذرْ مِن المَشـارِعِ المطرُوقةِ بالآراءِ الفاسِـدةِ الخارِجةِ في المعنى كالكَمِينِ على الشـريعة، مُذعنة[٣] بِلسانِ حالِها: أنّ الشرعَ ناقصٌ يحتاجُ إلى ما تمَّت به، بما تمَّت به.

واعلـم ـ وفَّقَـكَ الله تعالـى ـ أنّ البدنَ كالمَطيّـة، ولا بُدّ مِن عَلـفِ المَطيّة والاهتمامِ به، فإذا أهملتَ ذلك كان سببًا لوُقوفِكَ عنِ السير، وقد رُئِيَ سلمانُ رضـي الله عنـه يحمِـلُ طعامًا على عاتقِه، فقيـل له: أتفعلُ هـذا وأنتَ صاحِبُ رسُولِ الله ﷺ؟ فقال: «إنّ النفسَ إذا أحرزَتْ قُوتَها اطمأنَّت»[٤]. وقال سُفيانُ الثوريّ: «إذا حصَّلتَ قُوتَ شهرٍ فتعبَّد»[٥].

وقد جاء أقوامٌ ليس عِندهم سِوى الدعاوى فقالوا: هذا شـكٌّ في الرازِقِ، والثقـةُ بـه أولـى، فإيّاك وإيّاهم، ورُبّمـا وردَ مِثلُ هذا عن بعضِ صُـدورِ الزُّهّادِ مِنَ السلفِ، فلا يُعوَّلُ عليه، ولا يهُولَنَّكَ خِلافُهم. فقد قال أبو بكرٍ المَرُّوذِيّ: سـمِعتُ أحمـدَ بنَ حنبلٍ يُرغِّـبُ في النكاح، فقلـتُ له: «قـال ابنُ أدهمَ»، فما

(١) الزَّمنى: جمع زَمِن، وهو المريض الذي لا يُرجى برؤه.
(٢) في (ك، ح، س، ق، ص، م): «المشرب».
(٣) في (ف): «فخدعته».
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في إصلاح المال (٩٢).
(٥) رواه أبو نعيم بمعناه في حلية الأولياء (٧: ١٧).

تركني أتمّمُ حتّى صاحَ عليَّ، وقال: «أذكُرُ لكَ حالَ رسُـولِ الله ﷺ وأصحابِه وتأتيني ببُنَيّاتِ الطريق؟!»(١).

واعلم - وفَّقكَ الله - أنّه لو رفضَ الأسـبابَ شـخصٌ يدَّعي التزهُّد، وقال: لا آكلُ ولا أشربُ، ولا أقـومُ مـن الشـمس في الحرّ، ولا أسـتدفئُ فـي البردِ؛ كان عاصيًا بالإجماع، وكذلك لو قال وله عائلة: لا أكتسبُ ورِزقُهم على الله، فأصابهم أذًى؛ كان آثمًا، كما قال عليه الصلاة والسـلام: «كفى بالمرءِ إثمًا أن يُضيِّعَ مَن يقوتُ»(٢).

واعلم أنّ الاهتمامَ بالكسبِ يجمعُ الهمَّ، ويُفرِّغُ القلب، ويقطعُ الطمعَ في الخَلـق، فـإنّ الطبع له حقٌّ يتقاضاه، وقد بيَّنَ الشـرعُ ذلك، فقال: «إنّ لنفسِـكَ عليكَ حقًّا، وإنّ لعينِكَ عليكَ حقًّا»(٣). ومِثالُ الطبعِ مع المُريدِ السالِكِ كمَثَلِ كلـبٍ لا يعـرِفُ الطـارِق، فكُلُّ مَن رآهُ يمشـي نبحَ عليـه، فإن ألقى إليهِ كِسـرةً سكتَ عنه، فالمُرادُ من الاهتمام بذلك جمعُ الهمِّ لا غير، فافهم هذه الأصُول؛ فإنّ فهمَها مهمٌّ.

٣٥- فَصْلٌ
[مَصايد الهلاك]

تأمَّلـتُ شـهواتِ الدنيا، فرأيتُها مصايـدَ هلاك، وفُخوخَ تلـفٍ، فمَن قويَ عقلُه على طبعِه وحكمَ عليهِ سَلِمَ(٤)، ومَن غلبَ طبعُه فيا سُرعةَ هلكتِه، ولقد رأيـتُ بعضَ أبنـاءِ الدنيا كان يتتـوَّقُ في التسرِّي(٥)، ثُـمّ يستعمِلُ الحراراتِ

(١) تقدم في الفصل ١٩.
(٢) تقدم في الفصل ٢١.
(٣) تقدم في الفصل ١٩.
(٤) في (ح، ق، د): «فسلم».
(٥) في (ف، ر): «كان يتتوَّق في شراء الجواري».

المُهيِّجةَ للباءة، فما لبثَ أنِ انحلَّت حرارتُه الغريزيةُ وتلفَ!

ولم أرَ في شهواتِ النفسِ أسرعَ هلاكًا مِن هذه الشهوة؛ فإنّه كُلَّما مالَ الإنسانُ إلى شخصٍ مُستحسَنٍ أوجبَ ذلك حركةَ البَاهِ(١) زائدًا عن العادة، وإذا رأى أحسنَ مِنهُ زادتِ الحركةُ وكثرَ خُروجُ المنيِّ زائدًا عنِ الأوّل، فيفنى جوهرُ الحياةِ أسرعَ شيء، وبالضدِّ مِن هذا أن تكُونَ المرأةُ مُستقبَحةً فلا يُوجِبُ نِكاحُها خُروجَ الفضلةِ المُؤذيةِ كما ينبغي، فيقعُ التأذِّي بالاحتباسِ وقُوّةِ التَّوقِ إلى منكُوح.

وكذلك المُفرِطُ في الأكلِ، فإنّه يجني على نفسِه كثيرًا مِن الجِنايات، والمُقصِّرُ في مقدار القُوتِ كذلك، فعلمتُ أنّ أفضلَ الأُمُورِ أوساطُها.

والدُّنيا مفازةٌ، فينبغي أن يكُونَ السابِقُ فيها العقل، فمَن سلَّمَ زِمامَ راحِلتِه إلى طبعِه وهواهُ فيا عجلةَ تَلَفِه، هذا فيما يتعلَّقُ بالبدن والدنيا، فقِسْ عليهِ أمرَ الآخِرة، وافهم.

٣٦ـ فَصْلٌ
[الزهد المُصطَنع]

بلغني عن بعض زُهّادِ زمانِنا أنّه قُدِّمَ إليه طعامٌ، فقال: لا آكلُ، فقيل له: لِمَ؟ قال: لأنّ نفسي تشتهيه، وأنا مُنذُ سِنين ما بلَّغتُ نفسي ما تشتهي! فقلتُ: لقد خَفِيَتْ طريقُ الصوابِ عن هذا مِن وجهَينِ ـ وسببُ خفائها عدمُ العِلم ـ:

أمّا الوجه الأول: فإنّ النبيَّ ﷺ لم يكُن على هذا ولا أصحابُه، وقد كان ﷺ يأكُلُ لحمَ الدجاج، ويُحِبُّ الحلوى والعسل(٢).

(١) في (ح، س، ق): «الباءة»، والباه: النكاح.
(٢) تقدم في الفصل ١٩.

ودخل فَرقَدٌ السَّبَخيُّ على الحسَنِ وهو يأكُلُ الفالُوذَجَ، فقال: يا فَرقَدُ، ما تقُولُ في هذا؟ فقال: لا آكُلُه، ولا أُحِبُّ مَن أكلَه، فقال الحسَنُ: لُعابُ النَّحلِ بلُبابِ البُرِّ مع سَمنِ البقرِ، هل يعيبُه مُسلِم[١]؟!

وجاء رجُلٌ إلى الحسَنِ، فقال: إنّ لي جارًا لا يأكُلُ الفالُوذَجَ! فقال: ولِمَ؟ قال: يقول: لا أُؤدِّي شُكرَه. فقال: إنّ جارَك جاهِلٌ، وهل يُؤدِّي شُكرَ الماءِ البارِد[٢]؟!

وكان سفيانُ الثوريُّ يحمِلُ في سفرِه الفالُوذَجَ والحَمَلَ المَشوِيَّ، ويقول: إنّ الدابّةَ إذا أُحسِنَ إليها عمِلَت[٣].

وما حدثَ في الزُّهّاد بعدهم أمورٌ مِن هذا الفنّ مسرُوقةٌ من الرهبانية، وأنا خائفٌ من قولِه تعالى: ﴿لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾ [المائدة: ٨٧].

ولا يُحفَظُ عن أحدٍ من السلفِ الأوّلِ من الصحابة مِن هذا الفنِّ شيءٌ إلا أن يكُونَ ذلك لعارِضٍ.

وسببُ ما يُروى عن ابنِ عُمرَ رضي الله عنهما أنّه اشتهى شيئًا، فآثرَ به فقيرًا، وأعتقَ جاريتَهُ رُمَيثةَ، وقال: «إنّها أحبُّ الخلقِ إليَّ»[٤]. فهذا وأمثالُهُ حسن؛ لأنّه إيثارٌ بما هو أجوَدُ عِند النفسِ من غيرِه، وأكثرُ لها من سِواه، فإذا وقعَ في بعضِ الأوقاتِ كُسِرَت بذلك الفِعلِ سَورةُ هواها أن تطغى بنيلِ كُلِّ

(١) ذكره الثعلبي في تفسيره (١١: ٤٧١).

(٢) رواه محمد بن سعد في الطبقات الكبير (٩: ١٧٧).

(٣) رواه ابن حمكان في الفوائد والأخبار (٣٥).

(٤) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين (٦٥١٥).

ما تُريد. فأمّا مَن دام على مُخالفتِها على الإطلاقِ فإنّه يُعمي قلبَها، ويُبلِّدُ خواطِرَها، ويُشتِّتُ عزائمَها، فيُؤذيها أكثرَ مِمّا ينفعُها، وقد قال إبراهيمُ بنُ أدهمَ: «إنّ القلبَ إذا أُكرِهَ عَمِيَ»[1].

وتحت ما قلتُه سِرٌّ لطيف، وهو أنّ الله عز وجل قد وضعَ طبيعةَ الآدميِّ على معنًى عجيب، وهو أنّها تختارُ الشيءَ من الشهوات ما يُصلِحُها، فتعلمُ باختيارِها له صلاحَه لها، وصلاحَها به، وقد قال حُكماءُ الطبِّ: «ينبغي أن يُفسَحَ للنفسِ فيما تشتهي مِن المطاعِم، وإن كان فيه نوعُ ضرر؛ لأنّها إنّما تختارُ ما يُلائمُها، فإذا قمعَها الزاهِدُ في مِثلِ هذا عاد على بدنِه بالضرر».

ولولا جواذِبُ في الباطِنِ من الطبيعة ما بقيَ البدن، فإنّ الشهوةَ للطعامِ تثورُ[2]، فإذا وقعَتِ الغُنيةُ بما يتناولُ كفَّتِ الشهوة، فالشهوةُ مُريدٌ ورائد، ونعمَ الباعِثُ على مصلحةِ البدنِ هي، غيرَ أنّها إذا أفرطَت وقع الأذى، ومتى مُنِعَت ما تُريدُ على الإطلاقِ، مع الأمنِ مِن فسادِ العاقِبة، عاد ذلك بفسادِ أحوالِ النفسِ ووهنِ الجِسم، واختِلافِ السقمِ الذي تتداعى بِهِ الجُملة، مِثل أن يمنعَها الماءَ عِند اشتدادِ العطش، والغذاءَ عِند الجُوع، والجماعَ عِند قُوّة الشهوة، والنومَ عِند غلبتِه، حتّى إنّ المُغتمَّ إذا لم يتروَّحْ بالشكوى قتلَه الكَمَدُ. فهذا أصلٌ إذا فهِمَهُ هذا الزاهِدُ علِمَ أنّه قد خالفَ طريقَ الرسولِ ﷺ وأصحابِه من حيثُ النقل، وخالفَ الموضُوعَ في الحِكمة.

ولا يلزمُ على هذا قولُ القائل: «فمِن أين يصفُو المَطعَم؟» لأنّه إذا لم

---

(١) رواه البلاذري في أنساب الأشراف (٢: ٣٥٩) عن علي رضي الله عنه من قوله، وفيه: فإن القلب إذا أُكرِهَ ملَّ.

(٢) في (ح، د): «تبور».

يصفُ كان التركُ وَرَعًا، وإنّما الكلامُ في المَطعَم الذي ليس فيه ما يُؤذي في بابِ الورع، وكان ما شرحتُه جوابًا للقائل: «ما أُبلِّغُ نفسي شهوةً على الإطلاقِ».

والوجه الثاني: أنّي[1] أخافُ على الزاهِد أن تكُونَ شهوتهُ انقلبتْ إلى التركِ، فصار يشتهي ألا يتناولَ، وللنفسِ في هذا مكرٌ خفيٌّ، ورياءٌ دقيق، فإن سلِمتْ من الرياءِ للخلقِ كانتِ الآفةُ من جِهةِ تعلُّقِها بمِثلِ هذا الفِعلِ، وإدلالِها[2] في الباطِن به، فهذه مُخاطرةٌ وغلط.

ورُبّما قال بعضُ الجُهّال: «هذا صدٌّ عن الخيرِ والزُّهدِ»، وليس كذلك؛ فإنّ الحديثَ قد صحَّ عن النبيِّ ﷺ أنّه قال: «كُلُّ عملٍ ليسَ عليهِ أمرُنا فهو ردٌّ»[3]. ولا ينبغي أن يُغترَّ بعبادةِ جُرَيج، ولا بتقوى ذي الخُويصِرة.

ولقد دخلَ المُتزهِّدُون في طرقٍ لم يسلُكْها الرسولُ ﷺ ولا أصحابُه؛ من إظهارِ التخشُّعِ الزائدِ في الحدِّ، والتنوُّقِ[4] في تخشينِ المَلبس، وأشياءَ صار العوامُّ يستحسِنُونها[5]، وصارت لأقوامٍ كالمعاشِ يجتنُون من أرباحِها تقبيلَ اليد، وتوفيرَ التوقير، وحِراسةَ النامُوس، وأكثرُهم في خلوتِهِ على غيرِ حالتِهِ في جَلوتِه. وقد كان ابنُ سيرينَ يضحكُ بين الناسِ قهقهةً، وإذا خلا بالليلِ فكأنّه قتلَ أهلَ القرية. نسألُ الله تعالى عِلمًا نافعًا، فهو الأصل، فمتى حصلَ أوجبَ معرِفةَ المعبُودِ عز وجل، وحرَّكَ إلى خِدمتِهِ بمُقتضى ما شرعَه وأحبَّه، وسلكَ بصاحِبه طريقَ الإخلاص.

---

(١) سقطت من (ف). (٢) الإدلال: الافتخار.

(٣) البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) التنوُّق في الشيء: تجويده وتزيينه، والمراد هنا: التعمُّق والمبالغة.

(٥) في (ح): «يستخشنونها».

وأصلُ الأصُولِ العِلم، وأنفعُ العلمِ النظرُ في سِيَر الرسولِ ﷺ وأصحابِه؛ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

٣٧- فَصْلٌ

[جهادُ النفس]

تأمَّلتُ جهادَ النفسِ فرأيتُه أعظمَ الجهاد، ورأيتُ خلقًا مِن العُلماءِ والزُّهّادِ لا يفهمُون معناه؛ لأنّ فيهم من منعَها حظوظَها على الإطلاق، وذلك غلطٌ من وجهَين:

أحدهما: أنّه رُبَّ مانعٍ لها شهوةً أعطاها بالمنعِ أوفى مِنها، مِثلَ أن يمنعَها مُباحًا فيشتهرُ بمنعِه إيّاها ذلك، فترضى النفسُ بالمنع؛ لأنّها قد استبدلَت به المدح، وأخفى من ذلك أن يرى ـ بمنعه إيّاها ما منع ـ أنّه قد فَضَلَ مَن سِواهُ مِمّن لم يمنعْها ذلك، وهذه دفائنُ تحتاجُ إلى مِنقاشِ فَهِمٍ يُخلِّصُها.

والوجه الثاني: أنّنا قد كُلِّفنا حِفظَها، ومن أسباب حِفظِها ميلُها إلى الأشياء التي تُقيمُها، فلا بُدَّ من إعطائها ما يُقيمُها، وأكثرُ ذلك أو كُلُّهُ ما تشتهيه، ونحنُ كالوكلاء في حفظها؛ لأنّها ليست لنا، بل هي وديعةٌ عِندنا، فمنعُها حُقُوقَها على الإطلاقِ خطر.

ثُمّ رُبَّ شدٍّ أوجبَ استرخاء، ورُبَّ مُضيِّقٍ على نفسِهِ فرَّتْ مِنه، فصعُبَ عليهِ تلافيها، وإنّما الجِهادُ لها كجِهادِ المريضِ العاقِلِ يحمِلُها على مكرُوهِها في تناوُلِ ما ترجُو به العافية، ويُذوِّبُ في المرارةِ قليلًا من الحلاوة، ويتناولُ من الأغذيةِ مِقدارَ ما يصِفُه الطبيب، ولا تحمِلهُ شهوتُه على مُوافقةِ غرضِها مِن مطعمٍ رُبّما جرَّ جوعًا، ومِن لُقمةٍ رُبّما حرَمَت لُقمات.

فكذلـك المُؤمِـنُ العاقِـلُ لا يترُكُ لِجامَهـا، ولا يُهملُ مِقودَهـا، بل يُرخي لهـا فـي وقتٍ والطِّوَلُ[١] بيدِه، فما دامَت علـى الجادّةِ لم يُضايِقْها في التضييقِ عليهـا، فإذا رآها قد[٢] مالَت ردَّها باللُّطف، فإن ونَتْ وأبَتْ، وإلا[٣] فبالعُنف، ويحبسُها في مقامِ المُداراة كالزوجة التي مَبنى عقلِها على الضعفِ والقِلّة، فهي تُدارى عند نُشوزِها بالوعظ، فإن لم تصلُح فبالهجر، فإن لم تستقِم فبالضرب، وليس في سِياطِ التأديبِ أجودُ من سوطِ عزم.

هذه مُجاهدةٌ من حيثُ العمل، فأمّا من حيثُ وعظُها وتأنيبُها فينبغي لمَن رآها تستكنُّ للخلق، وتتعرَّضُ بالدناءةِ من الأخلاقِ، أن يُعرِّفَها تعظيمَ خالقِها لها[٤]، فيقول: ألستِ التي قال فيكِ: خلقتُكِ بيديّ[٥]، وأسجدتُ لكِ ملائكتي، وارتضاكِ للخِلافةِ في أرضِه، وراسلكِ[٦]، واقترضَ مِنكِ واشترى[٧]؟!

فـإن رآهـا تتكبَّـرُ قال لها: هل أنـتِ إلا قطرةٌ مِن ماءٍ مَهين، تقتُلكِ شَـرقةٌ، وتُؤلِمُكِ بَقّةٌ[٨]؟! وإن رأى تقصيرَها عرَّفَها حقَّ الموالي على العبيد، وإن وَنَت في العمل حدَّثها بجزيل الأجر، وإن مالَت إلى الهوى خوَّفها عظيمَ الوِزر، ثُمّ يُحذِّرُها عاجِلَ العُقوبةِ الحِسّية كقولِه تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٤٦]، والمعنويّـة كقولِـه تعالـى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ

---

(١) الطِّوَل بكسر ففتح: الحبل الذي يشد به الدابة. (٢) سقطت من (ف).

(٣) سقط من (د). (٤) سقطت من (ر، ق).

(٥) يشير إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥].

(٦) في (ر، ق): «وأرسلك». وراسلك: أي أرسل لك الرسل وأنزل الكتب.

(٧) يشير إلى الآيتين: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

(٨) البقّة: البعوضة.

يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]. فهـذا جهادٌ بالقول، وذاك جهادٌ بالفِعل.

٣٨- فَصْلٌ
[لماذا ندعو فلا نُجاب ؟]

رأيـتُ مـن البـلاء العُجاب أنّ المؤمـنَ يدعو فلا يُجـابُ، فيُكـرِّرُ الدعاءَ، وتطـولُ المُـدّةُ، ولا يرى أثـرًا للإجابة، فينبغي له أن يعلـمَ[1] أنّ هذا من البلاءِ الـذي يحتاجُ إلى صبـر، وما يعرِضُ للنفسِ من الوسـاوسِ في تأخيرِ الجوابِ مرضٌ يحتاجُ إلى طِبّ.

ولقـد عـرضَ لي من هذا الجِنس، فإنّه نزلَت بـي نازِلةٌ، فدعوتُ وبالغتُ، فلم أرَ الإجابة، فأخذ إبليسُ يجُولُ في حَلباتِ كَيدِه، فتارةً يقول: الكرمُ واسِعٌ والبُخلُ معدُومٌ، فما فائدةُ تأخيرِ الجواب؟ فقلتُ له: اخسأ يا لعين، فما أحتاجُ إلى مُتقاضٍ، ولا أرضاكَ وكيلًا.

ثُمّ عُدتُ إلى نفسـي، فقلتُ: إيّاكِ ومُسـاكنةَ وسوسـتِه، فإنّه لو لـم يكُن في تأخيرِ الإجابةِ إلا أن يبلُوَكِ المُقدِّرُ في مُحاربةِ العدُوِّ لكفى في الحِكمة. قالت: فسَـلْني عن تأخيرِ الإجابة في مِثلِ هذه النازِلة. **فقلتُ**: قد ثبتَ بالبُرهانِ أنّ الله عز وجل مالِكٌ، وللمالِكِ التصرُّفُ بالمنعِ والعطاء، فلا وجهَ للاعتراضِ عليه.

والثاني: أنّه قد ثبتَت حِكمتُه بالأدلّةِ القاطِعة، فرُبّما رأيتِ الشيءَ مصلحةً والحِكمةُ لا تقتضيه، وقد تَخفى الحكمةُ فيما يفعلُه الطبيبُ[2] مِن أشياءَ تُؤذي

---

(١) سقط «أن يعلم» من (ك، م).

(٢) سقطت من (ف).

في الظاهرِ يقصِدُ بها المصلحة، فلعلَّ هذا مِن ذاك.

والثالث: أنّه قد يكونُ التأخيرُ مصلحةً، والاستعجالُ مَضرَّة، وقد قال النبيُّ ﷺ: «لا يزالُ العبدُ بخيرٍ ما لم يستَعجِل، يقول: دعوتُ فلم يُستجَبْ لي»[1].

والرابع: أنّه قد يكونُ امتناعُ الإجابةِ لآفةٍ فيك، فرُبّما يكونُ في مأكُولِكِ شُبهة، أو قلبُكِ وقتَ الدعاءِ في غفلة، أو تُزادُ عقوبتُكِ في منعِ حاجتِك لذنبٍ ما صدقتِ في التوبةِ مِنه. فابحثي عن بعض هذه الأسباب، لعلّكِ تقعي[2] بالمقصُود.

كما رُوِيَ عن أبي يزيدَ رضي الله عنه: أنّه نزلَ بعضُ الأعاجِم في داره، فجاء فرآه فوقفَ ببابِ الدار، وأمرَ بعضَ أصحابه فدخل، فقلعَ طينًا جديدًا قد طيَّنَه، فقام الأعجميُّ وخرجَ. فسُئل أبو يزيدَ عن ذلك، فقال: هذا الطينُ مِن وجهٍ فيهِ شُبهة، فلمّا زالتِ الشُّبهةُ زال صاحِبُها.

وعن إبراهيمَ الخوّاصِ[3] رحمةُ الله عليه أنّه خرجَ لإنكارِ مُنكَر، فنبحَه كلبٌ، فمنعَه أن يمضيَ، فعادَ ودخلَ المسجِد وصلّى، ثُمّ خرج، فبَصبَصَ[4] الكلبُ له، فمضى، وأنكر، فزال المُنكَر، فسُئل عن تلك الحال، فقال: كان عِندي مُنكَر، فمنعني الكلبُ، فلمّا عُدتُ تُبتُ مِن ذلك، فكان ما رأيتُم.

---

(١) رواه أحمد في المسند (١٣٠٠٨) من حديث أنس رضي الله عنه، وبلفظ قريب عند البخاري (٦٣٤٠)، ومسلم (٢٧٣٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) كذا في جميع النسخ، والجادة: «تقعين» بإثبات النون رفعًا.

(٣) هو أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل، من أهل سُرّ من رأى، وهو أحد شيوخ الصوفية، وممن يُذكَر بالتوكل، وكثرة الأسفار إلى مكة وغيرها على التجريد، تُوفي سنة ٢٩١هـ. تاريخ بغداد (٦: ٤٩٣).

(٤) بصبص: حرَّك ذيله رِضًا.

والخامس: أنّـه ينبغـي أن يقـعَ البحثُ عن مقصُـودِكِ بهـذا[1] المطلُوب، فرُبّمـا كان فـي حُصُولِه زيادةُ إثم، أو تأخيرٌ عن مرتبةِ خير، فكان المنعُ أصلح، وقد رُوِيَ عن بعضِ السـلفِ أنّه كان يسـألُ الله الغزوَ، فهتفَ به هاتِف: إنّك إن غزوتَ أُسِرتَ، وإن أُسِرتَ تنصَّرتَ[2].

والسادس: أنّه رُبّما كان فقدُ ما فقدتِيه[3] سببًا للوقوفِ على البابِ واللَّجَأ، وحُصُولُه سـببًا للاشـتغالِ به عن المسـؤُولِ، وهذا الظاهر، بدليلِ أنّه لولا هذه النازِلةُ ما رأيناكِ على بابِ اللَّجَأ.

فالحـقُّ عـز وجل علِمَ منَ الخلقِ اشـتغالَهم بالبِرّ عنـه، فلذعَهم في خِلالِ النِّعَـمِ بعـوارِضَ تدفعُهم إلى بابِه يسـتغيثون به، فهذا مـن النِّعَم في طيِّ البلاء، وإنما البلاءُ المحضُ ما يشغلُكِ عنه، فأمّا ما يُقيمُكِ بين يدَيه ففيه جمالُكِ[4].

وقـد حُكِيَ عـن يحيى البكّاءِ[5] أنّه رأى ربَّه عز وجـل في المنام، فقال: يا ربِّ، كم أدعُوك ولا تُجيبُني! فقال: يا يحيى، إنّي أُحِبُّ أن أسمعَ صوتَك.

وإذا تدبَّرتِ هذه الأشـياءَ تشـاغلْتِ بما هو أنفعُ لكِ مِن حُصُولِ ما فاتكِ مِن رَفْعِ خلل، أو اعتذارٍ مِن زلل، أو وُقوفٍ على الباب، أو تسـليمٍ[6] إلى ربِّ الأرباب.

---

(١) في (ح، د): «هذا».

(٢) ذكره الرافعي في التدوين (١: ٣٩٩) عن سفيان.

(٣) في (ر): «فقدتِه»، والمثبت عن بقية النسخ، وهي لغة حكاها سيبويه في كتابه (٤: ٢٠٠).

(٤) في (ح، ص، د): «يديه، فبه جمالك».

(٥) هـو شـيخ بصري، مُحـدِّث، فيه لين، من موالي الأزد. سـير أعـلام النبـلاء (٥: ٣٥٠)، والخبر في الرسالة القشيرية (٢: ٤٢٣).

(٦) سقط «أو تسليم» من (ح، ص).

٣٩- فَصْلٌ
[تهوين المُصيبة]

مَن نزلَتْ به بليّةٌ فأراد تمحيقَها[١]، فليتصوَّرها أكثرَ مِمّا هي تَهُن، وليتخايلْ ثوابَها تضمحلَّ[٢]، وليتوهَّم نُزُولَ أعظمَ مِنها يَرَ الربحَ في الاقتصار عليها، وليتلمَّحْ سُرعةَ زوالِها، فإنّه لولا كربُ الشِّدّةِ ما رُجِيَت ساعاتُ الراحة، وليعلم أنّ مُدّةَ مُقامِها عِندهُ كمُدّة مُقامِ الضيف، فليتفقَّدْ حوائجَه في كُلِّ لحظة، فيا سُرعةَ انقضاءِ مُقامِه، ويا لذّةَ مدائحهِ وبِشرِه في المحافِل، ووصفِ المُضِيف بالكرم.

فكذلك الشِّدّة؛ ينبغي أن يُراعيَ الساعات، ويتفقَّدَ فيها أحوالَ النفس، ويتلمَّحَ الجوارحَ مخافةَ أن تبدُوَ مِن اللسانِ كلمةٌ، أو مِن القلبِ تسخُّطٌ، فكأن قد لاحَ فَجرُ الأجر[٣]، فانجابَ[٤] ليلُ البلاء، ومُدِحَ الساري بقطعِ الدُّجى، فما طلعَت شمسُ الجزاءِ إلا وقد وصل منزِلَ السلامة.

٤٠- فَصْلٌ
[فضل العلم]

لمّا رأيتُ رأيَ نفسي في العِلم حسنًا، فهي تُقدِّمهُ على كُلِّ شيء، وتعتقدُ الدليلَ، وتُفضِّلُ ساعةَ التشاغُلِ به على ساعاتِ النوافِل، وتقول: أقوى دليلٍ لي على فضلِهِ على النوافِلِ أنّي رأيتُ كثيرًا مِمّن شغلَهم نوافِلُ الصلاةِ والصومِ

---

(١) التمحيق: مبالغة من المحق، وهو الإزالة.

(٢) سقطت من (ك، ح، س، ص، د، م).

(٣) في (ف): «الآخر».

(٤) انجاب: انكشف وزال.

عـن نوافِـلِ العِلمِ عـاد ذلك عليهم بالقدحِ فـي الأُصُول؛ فرأيتُهـا في هذا على الجادّةِ السليمةِ والرأيِ الصحيح.

إلا أنّـي رأيتُهـا واقِفةً مع صُورة التشـاغُل بالعِلم، فصِحـتُ بها: فما الذي أفادكِ العِلم؟ أين الخوفُ؟ أين القلقُ؟ أين الحذرُ؟ أوَما سمِعتِ بأخبارِ أخيارِ الأحبارِ في تعبُّدِهم واجتِهادِهم؟! أما كان الرسـولُ ﷺ سـيِّدَ الكُلِّ، ثُمّ إنّهُ قام حتّـى وَرِمَـت قدماه[1]؟! أمـا كان أبو بكرٍ رضي الله عنه شَـجِيَّ النَّشِـيج، كثيرَ البُـكاء[2]؟! أمـا كان في خدِّ عُمرَ رضي الله عنه خطّانِ مِن آثارِ الدموع؟![3] أما كان عُثمـانُ رضـي الله عنـه يختِمُ القُرآنَ في ركعةٍ[4]؟! أمـا كان عليٌّ رضي الله عنـه يبكـي بالليـلِ فـي مِحرابِهِ حتّـى تَخضَـلَّ لحيتُه بالدمـوع ويقول: يـا دُنيا، غُرِّي غيري[5]؟! أما كان الحسـنُ البصريُّ على قُوّةِ القلق؟! أما كان سـعيدُ بنُ المُسيِّبِ مُلازِمًا للمسجِد، فلم تفُتْه صلاةٌ في جماعةٍ أربعين سنة[6]؟! أما صام الأسـودُ بـنُ يزيـدَ[7] حتّى اخضرَّ واصفـرَّ؟! أما قالت بنتُ الرَّبيعِ بـنِ خُثَيم له: مـا لـي أرى الناسَ ينامُون وأنتَ لا تنام؟ فقـال: إنّ أباكِ يخافُ البَيات[8]؟! أما كان أبو مُسـلِم الخَوْلانيُّ يُعلِّقُ سـوطًا في المسـجِد يُؤدِّبُ به نفسَه إذا فترَ[9]؟!

(١) البخاري (٦٤٧١)، ومسلم (٢٨١٩)، من حديث المغيرة بن شعبة بمعناه.

(٢) البخاري (٦٧٩) من حديث عائشة رضي الله عنها، بمعناه.

(٣) رواه أحمد في الزهد (٦٣٨).

(٤) رواه ابن المبارك في الزهد (١٢٧٥).

(٥) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٥١٠٨).

(٦) رواه أبو نعيم في الحلية (٢: ١٦٣).

(٧) هـو أبو عمـرو النخعي، الكوفـي، كان مخضرمًا أدرك الجاهلية والإسـلام، تُوفي سـنة ٧٥هـ. انظر ترجمتـه وخبـره في: سـير أعلام النبـلاء (٤: ٥٠، ٥٢)، وعلّق الذهبي على الخبـر بقوله: وكأنه لم يبلغه النهي عن ذلك، أو تأوّل.

(٨) رواه المروذي في الورع (٢٥٣).

(٩) انظر: سير أعلام النبلاء (٤: ٩).

أما صام يزيدُ الرقَّاشيُّ[١] أربعين سنةً، وكان يقول: وا لَهفاهُ، سبقَني العابِدُون وقُطِعَ بي؟! أما صام منصُورُ بنُ المُعتمِرِ أربعين سنة[٢]؟! أما كان سفيانُ الثوريُّ يبكي الدمَ مِن الخوف[٣]؟! أما كان إبراهيمُ بنُ أدهمَ يبُولُ الدمَ مِن الخوف؟! أما تعلمِين أخبارَ الأئمّةِ الأربعةِ في زُهدِهِم وتعبُّدِهِم: أبو حنيفةَ، ومالكٌ، والشافعيُّ، وأحمدُ؟!

فاحذري من الإخلادِ إلى صُورة العِلمِ مع تركِ العمل به؛ فإنّها حالةُ الكُسالى، وخافي من الوقوفِ مع صورة التعبُّد من غير الإيغال في العلم؛ فإنها حالةُ[٤] الزَّمنى: [المتقارب]

وخُذْ لَكَ مِنكَ عَلى مُهلَةٍ ... ومُقبِلُ عَيشِكَ لم يُدبِرِ
وخَفْ هَجمةً لا تُقِيلُ العِثارَ ... وتَطوِي الوُرُودَ على المَصدَرِ
ومَثِّلْ لِنَفسِكَ أيَّ الرَّعِيلِ[٥] ... يَضُمُّكَ في حَلْبَةِ المَحشَرِ[٦]

٤١- فَصْلٌ
[العلم والعبادة]

مما يزيدُ العلمَ عندي فضلًا أنّ قومًا تشاغلُوا بالتعبُّد عن العلم فوقفُوا عن الوصول إلى حقائق الطلب، فرُوِيَ عن بعضِ القدماءِ أنّه قال لرجُل: «يا

---

(١) هو يزيد بن أبان الرقاشي البصري، كان من رؤوس الزهد والعبادة. انظر ترجمته وخبره في: حلية الأولياء (٣: ٥٠).

(٢) رواه ابن الجوزي في صفة الصفوة (٢: ٦٥).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (١: ٨٩).

(٤) من قوله: «وخافي» إلى هنا عن (ف).

(٥) قوله: «أي الرعيل» في (ف): «أن الرحيل».

(٦) أنشدها ابن أبي الدنيا في التوبة (٨٨) لعلي بن جبلة.

أبا الوليـد، إن كُنـتَ أبا الوليد»! يتـورَّعُ أن يُكنِّيَه ولا ولدَ له. ولو أوغلَ هذا في العلـم لعلِـم أنّ النبيَّ ﷺ كنّى صُهيبًا أبا يحيى[١]، وكنّى طِفلًا: «يا أبا عُمَير، ما فعلَ النُّغَير؟»[٢].

وقـال بعـضُ المُتزهِّديـن: قيـل لي يومًـا: كُلْ مِن هـذا اللَّبن، فقلـتُ: هذا يضُرُّني. ثُمّ وقفتُ بعد مُدّةٍ عِند الكعبة، فقلتُ: اللهمّ إنّكَ تعلمُ أنّي ما أشركتُ بكَ طرفةَ عينٍ، فهتفَ بي هاتِفٌ: ولا يومَ اللَّبن[٣]؟!

وهـذا لـو صـحَّ جاز أن يكُـونَ تأديبًا لـه[٤]؛ لئلّا يقفَ مع الأسبابِ ناسيًا للمُسبِّبِ، وإلا فالرسولُ ﷺ قد قال: «ما زالَت أكلةُ خيبرَ تُعاوِدُني حتّى الآن، قطَعَت أبهَرِي»[٥]، وقال: «ما نفعَني مالٌ كمالِ أبي بكر»[٦].

ومِـن المُتزهِّديـن أقـوامٌ يـرون التـوكُّلَ قطـعَ الأسـبابِ كُلِّها، وهـذا جهلٌ بالعِلـم؛ فإنّ النبيَّ ﷺ دخلَ الغار[٧]، وشـاورَ الطبَّ[٨]، ولبِسَ الدرع[٩]، وحفرَ

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٧٣٨).

(٢) البخاري (٦١٢٩)، ومسلم (٢١٥٠) عن أنس رضي الله عنه، والنُّغير: هو تصغير النُّغر، وهو طائر يشبه العصفور، أحمر المنقار.

(٣) رواه أبو بكر الكلاباذي في التعرف لمذهب أهل التصوف (ص١٥٠).

(٤) سقطت من (س، م).

(٥) أخرجـه أبو نعيـم في الطـب (٨٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنـه، وبلفظ قريب في البخاري (٤٤٢٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٦) رواه الترمذي (٣٦٦١)، وهو صحيح.

(٧) البخاري (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١).

(٨) روى مسـلم (٢٢٠٧) عن جابر قال: بعث رسـول الله ﷺ إلى أُبيّ بن كعب طبيبًا، فقطع منه عرقًا، ثم كواه عليه.

(٩) رواه أبو داود (٢٥٩٠) عن السائب بن يزيد، عن رجل، قد سمّاه.

الخندق[١]، ودخلَ مكّةَ في جِوارِ المُطعِمِ بنِ عديٍّ وكان كافرًا[٢]، وقال لسعدٍ: «لَأنْ تدعَ ورثتَكَ أغنياءَ خيرٌ لك[٣] مِن أن تدعَهم عالةً يتكفَّفُون الناسَ»[٤].

فالوقوف مع الأسبابِ مع نِسيانِ المُسبِّبِ غلط، والعملُ على الأسبابِ مع تعلُّقِ القلبِ بالمُسبِّبِ هو المشرُوع، وكُلُّ هذه الظُّلُماتِ إنّما تُقطَعُ بمِصباحِ العِلم، ولقد ضلَّ مَن مشى في ظُلمةِ الجهلِ أو في زُقاقِ الهوى.

٤٢- فَصْلٌ
[المُفاضلة بين الملائكة والأنبياء]

ما أزالُ أتعجَّبُ ممَّن يرى تفضيلَ الملائكة على الأنبياء والأولياء، فإن كان التفضيلُ بالصُّوَر فصُورةُ الآدميِّ أعجبُ مِن ذوي أجنِحة، وإن تُركتْ صُورةُ الآدميِّ لأجلِ أوساخِها المنُوطةِ بها فالصُّورةُ ليستِ[٥] الآدميّ، إنّما هي قالب، ثُمّ[٦] قدِ استُحسِن مِنها ما يُستقبَحُ في العبادة، مِثلَ خُلُوفِ فمِ الصائم، ودمِ الشُّهداء، والنومِ في الصلاة، فبقيَت صُورةً معمُورة، وصار الحُكمُ للمعنى. ألهم مرتبةٌ يُحِبُّهم، أو فضيلةٌ يُباهي بهِم؟! وكيف دار الأمر، فقد سجدُوا لنا، وهو صريحٌ في تفضيلِنا عليهم.

فإن كانت الفضيلةُ بالعِلم فقد عُلِمَتِ القِصّةُ يومَ ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾[٧] [البقرة: ٣٢] ﴿يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم﴾[٨] [البقرة: ٣٣]. وإن فُضِّلَتِ الملائكةُ بجوهريّةِ

---

(١) البخاري (٣٠٣٤) من حديث البراء رضي الله عنه بمعناه.

(٢) رواه الطبري في تاريخه (٢: ٣٤٨)، وهو ضعيف.

(٣) سقطت من (س، ق).

(٤) تقدم في الفصل ٢٤.

(٥) زاد في (ق): «هي».

(٦) زاد في (س): «إنه».

(٧) زاد في (د): «إلا».

(٨) زاد في (ق، د): «بأسمائهم».

ذواتِهم فجوهريّةُ أرواحِنا مِن ذلك الجِنس، وعلينا أثقالُ أعباءِ الجسم.

تالله لولا احتياجُ الراكِبِ إلى الناقةِ فهو يتوقَّفُ لطلبِ عَلَفِها، ويَرفُقُ في السَّيرِ بها لطَرقِ أرضِ مِنًى قبل العشر(١).

وا عجبًا، أتُفضَّلُ الملائكةُ بكثرة التعبُّد؟! فما ثَمّ صادٌّ(٢). أوَيُتعجَّبُ من الماء إذا جرى، أو مِن مُنحدِرٍ يُسرِع؟! إنّما العجبُ مِن مُصاعِد.

بلى، قد يُتصوَّرُ مِنهم الخِلاف ودعوى الإلهيّة لقُدرتِهم على دكِّ الصُّخُور وشقِّ الأرض؛ ولذلك تُوُعِّدُوا: ﴿وَمَن(٣) يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَۚ﴾ [الأنبياء: ٢٩]، لكِنّهم يعلمُون عُقُوبةَ الحقِّ فيحذرُونه. فأمّا بُعدُنا عنِ المعرفةِ الحقيقية، وضعفُ يقيننا بالناهي، وغلبةُ شهوتِنا مع الغفلة، يحتاجُ إلى جِهادٍ أعظمَ من جِهادِهم.

تالله لو ابتُلِيَ أحدُ المُقرَّبين بما ابتُلينا به، لم يقدِرْ على التماسُك. يُصبحُ أحدُنا وخطابُ الشرعِ يقولُ له: اكسَبْ لعائلتِك واحذَرْ في كسبِك، وقد تمكَّن مِنهُ ما ليس مِن فِعلِه، كحُبِّ الأهل، وعُلُوقِ الولدِ بنِياطِ القلب، واحتياجِ بدنِه إلى ما لا بُدّ مِنه.

فتارةً يُقالُ للخليلِ عليه السلام: اذبحْ ولدَك بيدك، واقطعْ ثمرةَ فُؤادِك بكفِّك، ثُمّ قُم إلى المَنجَنيقِ لتُرمى في النار، وتارةً يُقالُ لمُوسى عليه السلام: صُمْ شهرًا ليلًا(٤) ونهارًا. ثُمّ يُقالُ للغضبان: اكظِم، وللبصير: اغضُض، ولِذي

(١) يقصد عشر ذي الحجة.

(٢) أي: فما ثَمّ صادٌّ للملائكة عن العبادة. وفي (س): «صعاد»، وكتب على هامشها تعليقًا: «في المفردات: وأما الإصعاد فقد قيل: هو الإبعاد في الأرض».

(٣) في (د): «من» بلا واو قبلها.

(٤) سقطت من (ح، ص).

المِقول: اصمُت، ولمُستلِذِّ النوم: تهجَّد، ولِمن مات حبيبُه: اصبِر، ولمن أُصيبَ في بدنِه: اشكُر، وللواقفِ في الجهادِ بين اثنين: لا يحِلُّ أن تفرَّ.

ثُمّ اعلم أنّ الموتَ يأتي بأصعبِ المرارات، فينزِعُ الرُّوحَ عنِ البدن، فإذا نزل فاثبُت، واعلم أنّكَ مُمزَّقٌ في القبرِ، فلا تتسخَّطِ الآن ما يجري بهِ القَدَر، وإن وقعَ بكَ مرضٌ فلا تَشْكُ إلى الخَلق.

فهل للملائكةِ مِن هذه الأشياءِ شيءٌ؟ وهل ثَمّ إلا عِبادةٌ ساذَجةٌ[1] ليس فيها مُقاواةُ[2] طبعٍ، ولا ردُّ هوًى؟ وهل هي إلا عِبادةٌ[3] صُوريّةٌ بين رُكوعٍ وسجودٍ وتسبيحٍ؟ فأين عِبادتُهم المعنويّة من عِباداتِنا؟! ثُمّ أكثرُهم في خدمتِنا؛ بين كَتَبةٍ علينا، ودافِعين عنّا، ومُسخَّرين لإرسالِ الريحِ والمطر، وأكبرُ وظائفهم الاستغفارُ لنا، فكيف يُفضَّلُون علينا بلا عِلّةٍ ظاهرة؟!

أوَما حُكَّت على مَحَكِّ التجاربِ منهم هارُوتُ ومارُوتُ، فخرجُوا أقبحَ مِن بَهرَجٍ[4]؟ ولا تظُنَّنَّ أنّي أعتقِدُ في تعبُّدِ الملائكةِ نوعَ تقصير؛ لأنّهم شديدُو الإشفاقِ والخوف لعلمِهم بعظمةِ الخالِق، لكنَّ طُمأنينةَ مَن لم يُخطئ تُقوّي نفسَه، وانزِعاجَ الغائصِ في الزللِ يُرقِّي رُوحَهُ إلى التراقي.

فاعرِفُوا إخواني شرفَ أقدارِكُم، وصُونُوا جواهِرَكُم عن تدنيسِها بلُؤمِ الذنوب، فأنتم مَعرِضُ[5] الفضلِ على الملائكة، فاحذرُوا أن تحطَّكُم الذنوبُ إلى حضيض البهائم، ولا حولَ ولا قُوّةَ إلا بالله العليّ العظيم.

---

(١) عبادة ساذجة: أي غير بالغة ليس فيها مقاومة طبع.

(٢) المقاواة: المغالبة.

(٣) من قوله: «ساذجة» إلى هنا ليس في (ف).

(٤) البهرج: الرديء من الشيء.

(٥) في (ك، ح، ر، ص، د، م): «بعرض».

٤٣- فَصْلٌ
[النجاة في التسليم]

رأيتُ كثيرًا من الخلق، وعالِمًا من العلماء، لا ينتهون عن البحثِ عن أصولِ الأشياء التي أُمِرُوا بعِلم جُمَلِها من غير بحثٍ عن حقائقها، كالرُّوح مثلًا، فإنّ الله تعالى سترَها بقولِه تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥]؛ فلم يقنعُوا، وأخذُوا يبحثون عن ماهيتِها ولا يقعُون بشيء، ولا يثبُتُ لأحدٍ مِنهم بُرهانٌ على ما يدَّعيه، وكذلك العقل، فإنّه موجُودٌ بلا شكّ، كما أنّ الرُّوحَ موجُودةٌ بلا شكّ، وكلاهما يُعرَفُ بآثارِه لا بحقيقةِ ذاتِه.

فإن قال قائل: فما السرُّ في كتمِ هذه الأشياء؟ قلتُ: لأنّ النفسَ ما تزالُ تترقّى من حالةٍ إلى حالة، فلوِ اطَّلعَتْ على هذه الأشياءِ لترقَّتْ إلى خالِقِها، فكان سترُ ما دُونه زيادةً في تعظيمِه؛ لأنّه إذا كان بعضُ مخلُوقاتِه يُعلَمُ جملةً[1] فهو أجلُّ وأعلى.

ولو قال قائل: ما الصواعِق؟ وما البرق؟ وما الزلازِل؟ قُلنا: شيءٌ مُزعِج، ويكفي. والسرُّ في سترِ هذا أنّه لو كُشِفَت حقائقُهُ خَفَّ مِقدارُ تعظيمِه.

ومَن تلمَّحَ هذا الفصلَ علِمَ أنّه فصلٌ عزيز، فإذا ثبتَ هذا في المخلُوقاتِ فالخالِقِ أجلُّ وأعلى، فينبغي أن يُوقفَ في إثباتِه على دليلِ وُجُودِه، ثُمّ يُستدَلَّ على جوازِ بعثِه رُسُلَه، ثُمّ تُتلقّى أوصافُه من كُتُبِه ورُسُلِه، ولا يُزادُ على ذلك. ولقد بحثَ خلقٌ كثيرٌ عن صِفاتِه بآرائهم، فعادَ وبالُ ذلك عليهم.

وإذا قُلنا: إنّه موجُود، وعلِمنا مِن كلامِهِ أنّه سميعٌ بصيرٌ حيٌّ قادِر؛ كفانا

---

(١) في (ك، س): «جهله».

هذا في صِفاتِه، ولا نخُوضُ في شيءٍ آخر[١]. وكذلك نقول: مُتكلِّمٌ، والقُرآنُ كلامُه، ولا نتكلَّفُ ما فوق ذلك.

ولم يقُل السلفُ: تِلاوةٌ ومتلُوٌّ، وقراءةٌ ومقرُوءٌ، ولا قالوا: استوى على العرشِ بذاتِه، ولا قالوا: ينزِلُ بذاتِه. بل أطلقُوا ما وردَ مِن غيرِ زيادة، ونفَوا ما ثبتَ بالدليلِ مما لا يجوزُ عليه.

وهذه كلماتٌ كالمِثال، فقِسْ عليها جميعَ الصِّفات تفُزْ سليمًا مِن تعطيل، مُتخلِّصًا من تشبيه.

٤٤- فَصْلٌ
[منزلةُ الغفلة]

رأيتُ أكثرَ الخلقِ في وجودِهم كالمعدُومين، فمنهم مَن لا يعرفُ الخالق، ومنهم مَن يُثبِتُه على مقتضى حِسِّه، ومنهم من لا يفهمُ المقصودَ من التكليف، فترى المُترسِّمين[٢] بالزُّهدِ يدأبون في القيامِ والقُعُود، ويترُكون الشهوات، وينسَون ما قد أنِسُوا به مِن شهوة الشُّهرة، وتقبيل الأيادي، ولو كُلِّمَ أحدُهم قال: ألمِثلي يُقالُ هذا؟ ومِن فلانٍ الفاسِق؟! فهؤُلاءِ لا يفهمُون المقصود، وكذلك كثيرٌ من العُلماءِ في احتِقارِهم غيرَهم، والتكبُّرِ في نفوسهم.

فتعجَّبتُ كيف يصلُحُ هؤُلاءِ لمُجاورةِ الحقِّ وسُكنى الجنّة؟! فرأيتُ أنّ الفائدةَ في وجُودِهم في الدنيا تُجانِسُ الفائدةَ في دخولِهم الجنّة، فإنّهم في الدنيا بين مُعتبَرٍ به يُعرِّفُ عارِفَ الله سُبحانه نِعمةَ الله عليهِ بما كُشِفَ لهُ

---

(١) سقطت من (ح، ص).

(٢) في (ف، س، ر): «المتوسمين»، والمترسمون بالزهد: المتصفون به.

مِمّـا غُطِّـيَ عن ذاك، ويتمُّ النظامُ بالاقتِداءِ بصُوَرِ أولئك، فإنّ العارِفَ لا يتّسِـعُ وقتُـه لمُخالطـةِ مَن يقفُ مع الصُّـوَر، فالزاهِدُ كراعي البَهـم، والعالِمُ كمُؤدِّبِ الصبيان، والعارِفُ مُلقِّنُ الحِكمة، ولولا نَقّاطُ[١] المَلِكِ وحارِسُـهُ ووقّادُ أتُونِه ما تمَّ عيشُـه. فمِن تمامِ عيشِ العارِف استِعمالُ أولئك بحسَـبِهم، فإذا وصلوا إليـهِ حُرِّرَ مانِعُهم[٢]، وفيهم مَن لا يصِلُ إليه، فيكونُ وجودُ أولئك كزيادةِ «لا» في الكلام؛ هي حشوٌ، وهي مُؤكِّدة.

فإن قال قائل: فهَبْ هذا يصِحُّ في الدنيا، فكيف في الجنّة؟! والجواب: أنّ الأُنـسَ بالجيـرانِ مطلُوب، ورُؤيةُ القاصِرِ مِن تمامِ لذّةِ الكامِل، ولِكُلٍّ شِـربٌ، ومَن تأمَّل ما أشرتُ إليه كفاهُ رمزُ لفظي عن تطويلِ الشرح.

٤٥ـ فَصْلٌ
[التعلُّق بالله وحده]

لمّا تلمَّحتُ تدبيرَ الصانع في سَوقِ رزقي بتسخير السحاب، وإنزالِ المطرِ برفـقٍ، والبـذرُ تحت الأرضِ كالموتى قـد عَفِنَ ينتظِرُ نفخةً مـن صُورِ الحياة، فـإذا بهـا[٣] اهتـزَّ خَضِرًا، وانقطـعَ عنه المـاءُ، مَدَّ يـدَ الطلبِ يستعطي، وأمالَ رأسَه خاضِعًا، ولبسَ حُلَلَ التغيُّر، فهو مُحتاجٌ إلى ما أنا مُحتاجٌ إليهِ من حرارةِ الشـمس، وبُـرودةِ الماء، ولُطفِ النسـيم، وتربيـةِ الأرض، فسُـبحانَ مَن أراني ـ فيما يُربِّيني به ـ كيف تربيتي في الأصل.

---

(١) في (ق): «يقاظ»، والنقّاط: مستخرِج النفط وبائعه، وهنا: العامل المُوكَّل به.

(٢) في (ك، س، ق، م): «ما معهم».

(٣) في (ط): «فإذا به».

فيـا أيَّتُهـا النفسُ التـي قد اطَّلعـتِ على بعـض حِكَمِه سـبحانه؛ قبيحٌ بكِ ـ والله ـ الإقبـالُ علـى غيـرِه، ثُمّ العجـبُ كيف تُقبِليـنَ على فقيرٍ مِثلِـكِ يُنادي لسانُ حالِه: «بي مِثلُ ما بكَ يا حمامُ»! فارجِعي إلى الأصلِ الأوّل، واطلبي مِن المُسبِّب، ويا طُوبى لكِ إن عرَفتِيه[1]؛ فإنّ عِرفانَه مُلكُ الدنيا والآخِرة.

٤٦- فَصْلٌ
[الترخُّص وخوادع التأويلات]

كنـتُ فـي بدايـة الصَّبوة قـد أُلهِمتُ سـلوكَ طريـقِ الزُّهّـاد بإدامـةِ الصومِ والصـلاة، وحُبِّبـت إليَّ الخَلـوة، فكُنتُ أجِـدُ قلبًا طيِّبًا، وكانـت عينُ بصيرتي قويّةَ الحِدَّة، تتأسَّفُ على كلِّ[2] لحظةٍ تمضي في غيرِ طاعة، وتُبادِرُ الوقتَ في اغتنامِ الطاعات، ولي نوعُ أُنسٍ وحلاوةُ مُناجاة.

فانتهـى الأمـرُ إلى أن صار بعـضُ وُلاةِ الأُمُورِ يستحسِـنُ كلامي، فأمالني إليـه، فمـالَ الطبـع، ففقـدتُ تلك الحـلاوة، ثُـمّ اسـتمالني آخـرُ، فكُنـتُ أتَّقي مُخالطتَـه ومطاعِمَـه لخوفِ الشُّبُهات، وكانت حالتي قريبة، ثُـمّ جاء التأويل، فانبسطتُ فيما يُباح، فعُدِمَ ما كُنتُ أجِدُ، وصارتِ المُخالطةُ تُوجِبُ ظُلمةً في القلب، إلى أن[3] عُدِمَ النُّورُ كُلُّه، فكان حنيني إلى ما ضاع مِنّي يُوجِبُ انزِعاجَ أهلِ المجلِس، فيتُوبُون ويُصلِحُون، وأخرُج مُفلِسًا فيما بيني وبين حالي.

فكثُـر ضجيجي من مرضي، وعجزتُ عن طِبِّ نفسـي، فلجأتُ إلى قُبُورِ الصالِحين، وتوسَّلتُ في صلاحي، فاجتذبني لُطفُ مولاي بي إلى الخَلوة على

---

(١) «عرفتيه» بإثبات الياء: سبق أن ذكرنا أنها لغة لبعض العرب.

(٢) عن هامش (ف).

(٣) بداية سقط في (س).

كراهـةٍ مِنّي، ورَدَّ[1] قلبي عليَّ بعد نُفـورِه عنّي، وأراني عيبَ ما كُنتُ أُوثِره[2]، فأفقـتُ مِـن مرضِ غفلتي، وقُلتُ في مُناجاةِ خلوتي: سـيدي، كيف أقدرُ على شُـكرِك، وبأيِّ لسـانٍ أنطِقُ بمدحِك؛ إذ لـم تُؤاخِذْني على غفلتي، ونبَّهتَني من رقدتي، وأصلحتَ حالي على كُرهٍ مِن طبعي؟! فما أربحَني فيما سُلِب مِنّي إذ كانـت ثمرتُه اللَّجَأَ إليك! وما أوفرَ جمعـي إذا كانت ثمرةُ إقبالِك عليَّ الخلوةَ بك! وما أغناني إذ أفقرتَني إليك! وما آنسَني إذ أوحشتَني بالتجارب لخلقِك!

آهٍ على زمانٍ ضاعَ في غيرِ خِدمتِك، أسفًا لوقتٍ مضى في غيرِ طاعتِك! قد كُنتُ إذا انتبهتُ وقتَ الفجرِ لا يُؤلِمُني نومي طُولَ الليل، وإذا انسلخَ عنّي النهارُ لا يُوجعُنـي ضيـاعُ ذلك اليوم، وما علِمـت أنّ عدمَ الإحسـاسِ لقُوّةِ المرض. فالآن قد هبَّتْ نسـائمُ العافية، فأحسسـتُ بالألم، فاستدللتُ على الصحة، فيا عظيمَ الإنعام تمِّمْ لي العافية.

آهٍ مِن سُـكرٍ لم يُعلَم قدرُ عَربدتِه إلا في وقتِ الإفاقة! لقد فُتِقَ ما يصعُبُ رتقُـه، فـوا أسـفًا علـى بِضاعـةٍ ضاعَت، وعلى مـلّاحٍ تعِـبَ في موجِ الشـمالِ مُصاعِدًا مُدّةً، ثُمّ غلبَه النومُ فرُدَّ إلى مكانِه الأول.

يا مَن يقرأُ مسـطُور شَـكواي مِن حالي، اسـمع[3] تحذيـري من التخليط، فإنّـي ـ وإن كُنـتُ خُنـتُ نفسـي بالفعـل ـ نصيـحٌ لإخوانـي بالقول. احـذرُوا ـ إخواني ـ من الترخُّصِ فيما لا يُؤمَنُ فسادُه، فإنّ الشيطانَ يُزيِّنُ المُباحَ في أوّلِ مرتبة، ثُمّ يجُرُّ إلى الجُناح، فتلمَّحُوا المآل، وافهمُوا الحال، ورُبّما أراكُم الغايةَ الصالِحة، وكان في الطريقِ إليها نوعُ مُخالفة.

---

(١) في (ف): «ورَدّه».
(٢) في (ق): «عليه».
(٣) سقط «مسطور... اسمع» من (ك، ح، ص، د، م).

فيكفي الاعتبارُ في تلك الحالِ بأبيكُم: ﴿هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]؛ إنّما تأمَّلَ آدمُ الغاية ـ وهي الخُلد ـ ولكنّه غلِطَ في الطريق. وهذه أعجبُ مصايدِ إبليسَ يصيدُ بها العُلماء؛ يتأوّلُون لعواقِبِ المصالِحِ فيستعجِلُون ضررَ المفاسِد.

مِثالُه أن يقُولَ للعالِم: ادخُل على هذا الظالِم فاشفعْ في مظلوم، فيستعجِلُ الداخِلُ رُؤيةَ المُنكَرات، ويتزلزلُ دينُه، ورُبّما وقعَ في شَركٍ صار به أظلمَ مِن ذلك الظالِم، فمَن لم يثقْ بدينه فليحذرْ من المصائد؛ فإنّها خفيّة.

وأسلمُ ما للجبانِ العُزلة، خُصُوصًا في زمانٍ قد مات فيه المعرُوف، وعاشَ المنكَر، ولم يبقَ لأهلِ العِلم وقعٌ عِند الوُلاة، فمَن داخَلَهم دخلَ معهم فيما لا يجُوز، ولم يقدِر على جذبِهم مِمّا هم فيه.

ثُمّ مَن تأمَّلَ العُلماءَ الذين يعملُون لهم في الولايات، يراهم مُنسلِخِين من نفعِ العِلم، قد صارُوا[1] كالشُّرَط، فليس إلا العُزلةُ عنِ الخلق، والإعراضُ عن كُلِّ تأويلٍ فاسِدٍ في المُخالطة، ولَأنْ أنفعَ نفسي وحدي خيرٌ لي مِن أن أنفعَ غيري وأتضرَّر.

فالحذرَ الحذرَ من خوادعِ التأويلات، وفواسِدِ الفتاوى، والصبرَ الصبرَ على ما تُوجِبُه العُزلة، فإنّه إنِ انفردتَ بمولاكَ فتحَ لكَ بابَ معرِفتِه، فهان كُلُّ صعب، وطاب كُلُّ مُرّ، وتيسَّرَ كُلُّ عَسِير، وحصَّلتَ كُلَّ مطلُوب، والله الموفِّق بفضلِه، ولا حول ولا قُوّة إلا به.



(١) في (ف، ح، ص، م): «صار».

٤٧- فَصْلٌ
[فساد التأويل]

تأمَّلتُ على نفسي تأويلًا في مُباحٍ أنالُ به شيئًا مِن الدنيا، إلا أنّه في بابِ الورع كَدَر، فرأيتُه أوّلًا قد احتلبَ دَرَّ الدِّين، فذهبَتْ حلاوةُ المُعاملةِ لله تعالى، ثُمّ عادَ فقَلَصَ ضَرعُ حَلْبي له، فوقع الفقدُ للحالَين، فقلتُ لنفسي: ما مَثَلُكِ إلا كمَثَلِ والٍ ظالم، جمعَ مِن غيرِ حِلِّه، فصُودِر، فأُخِذَ مِنه الذي جمع، واجترَّ ما لم يَجمَع. فالحذرَ الحذرَ من فسادِ التأويل؛ فإنّ الله تعالى لا يُخادَع، ولا يُنالُ ما عِندَه بمعصيتِه.

٤٨- فَصْلٌ(١)
[إصلاح البدن سببُ صلاح الدين]

رأيتُ نفسي كلَّما صفا فِكرُها، أو اتَّعظَت بدارِجٍ(٢)، أو زارَت قبورَ الصالحين، تتحرَّكُ همّتُها في طلب العُزلة والإقبال على مُعاملة الله تعالى، فقلتُ لها يومًا - وقد كلَّمتني في ذلك -: حدِّثيني ما مقصُودُكِ؟ وما نهايةُ مطلوبِكِ؟ أتُراكِ تُريدين مِنّي أن أسكُنَ قفرًا لا أنيسَ به، فتفُوتَني صلاةُ الجماعة، ويضيعَ مِنّي ما قد علِمتُه لفَقدِ مَن أُعلِّمُه، وأن آكُلَ الجَشْبَ(٣) الذي لم أتعوَّده، فيقعَ نِضْوِي طَلْحًا(٤) في يومَين، وأن ألبسَ الخشِنَ الذي لا أُطيقُه، فلا أدري - مِن كَربِ مَحمُولي - أين أنا، وأن أتشاغلَ عن طلبِ ذُرّيةٍ تتعبَّدُ بعدي، مع بقاءِ القُدرةِ على الطلب؟

---

(١) هنا نهاية السقط المشار إليه في (س). (٢) درج الرجل: مات.

(٣) في (س، م): «الخشن». والجَشبُ: الغليظ الخشن.

(٤) النضو: المهزول من الإبل، والطلح: مهزول مجهود.

تالله ما نفعَني العِلمُ الذي بذلتُ فيهِ عُمري، إن وافَقتُكِ، وأنا أُعرِّفكِ غلطَ ما وقعَ لكِ بالعِلم: اعلمي أنّ البدنَ مَطِيّة، والمَطِيّةُ إذا لم يُرفَقْ بها لم تصِلْ براكبها إلى المنزِل، وليس مُرادي بالرِّفقِ الإكثارَ مِن الشهوات، وإنما أعني أخذَ البُلغةِ[1] الصالِحةِ للبدن، فحينئذٍ يصفُو الفكر، ويصحُّ العقل، ويقوى الذهن.

ألا ترى إلى تأثيرِ المُعوِّقاتِ عن صفاءِ الذهنِ في قوله عليه الصلاة والسلام: «لا يقضي القاضي بين اثنَينِ وهو غَضبان»[2]؟! وقاسَ العلماءُ على ذلك الجُوعَ وما يجري مَجراهُ من كونه حاقنًا أو حاقبًا[3]. وهلِ الطبعُ إلا ككَلبٍ يشغلُه الأكلُ، فإذا رُمِيَ له ما يتشاغَلُ به طاب له الأكل؟!

فأمّا الانفِرادُ والعُزلةُ فعنِ الشرّ لا عنِ الخير، ولو كان فيما وقعَ لكِ خيرٌ لنُقِلَ عن رسُولِ الله ﷺ وعن أصحابِه رضي الله عنهم.

هيهاتَ، لقد عرَفتِ أنّ أقوامًا دامَ بهم التقلُّلُ واليُبسُ إلى أن تغيَّرَتْ فِكَرُهم، وقَوِيَ الخلطُ السوداويُّ عليهم، فاستوحشُوا مِن الناس، ومِنهم مَن اجتمعَت له من المآكِلِ الرَّديّة أخلاطٌ مَجّة[4]، فبقِيَ اليومَ واليومَينِ والثلاثةَ لا يأكُل، وهو يظُنُّ ذلك من أمدادِ اللُّطف، وإذا به من سُوءِ الهضم، وفيهم مَن ترقّى به الخلطُ إلى رُؤيةِ الأشباح، فيظُنُّها الملائكة!

فالله الله في العِلم، والله الله في العقل، فإنّ نورَ العقلِ لا ينبغي أن يُتَعرَّضَ بإطفائه، والعِلمُ لا يجوزُ الميلُ إلى تنقيصِه، فإذا حُفِظا حَفِظا وظائفَ الزمان،

(١) البُلغة: ما يُتبلَّغ به من العيش.

(٢) تقدم في الفصل ٢٨.

(٣) الحاقن: من احتبس بوله، والحاقب: من احتبس غائطه.

(٤) في (ف): «فجة».

ودفَعـا مـا يُـؤذي، وجلَبا مـا يصلُحُ، وصـارتِ القوانينُ مُسـتقيمةً فـي المطعم والمشرب والمُخالطة.

فقالت لي النفس: فوظِّفْ لي وظيفةً، واحسَبني مريضًا قد كُتِبت له شَربة، فقلتُ لها: قد دللتُكِ على العِلم، وهو طبيبٌ مُلازِم، يصفُ كُلَّ لحظةٍ لكُلِّ داءٍ يعرِضُ دواءً يُلائم.

وفـي الجُملـةِ ينبغي لكِ لزومُ تقـوى الله عز وجل في المنطِـقِ والنظر[1]، وجميعِ الجوارِح، وتحقيقِ الحلالِ في المطعم، وإيداعِ كُلِّ لحظةٍ ما يصلُحُ لها مِـن الخَير، ومُناهبةِ الزمانِ في الأفضـل، ومُجانبةِ ما يُؤدِّي إلى ما يُؤذي[2] مِن نقصِ[3] رِبح، أو وُقوعِ خُسران.

ولا تعملي عملًا إلا بعد تقديمِ النية، وتأهَّبي لمُزعِجِ الموت، فكأنْ قد[4]، ومـا عِنـدكِ مِن مجيئه فـي أيِّ وقتٍ يكُـون، ولا تتعرَّضي لمصالِـحِ البدن، بل وفِّريهـا عليـه، وناوِليه إيّاهـا على قانونِ الصواب لا علـى مُقتضى الهوى؛ فإنّ إصلاحَ البدنِ سببٌ لإصلاحِ الدِّين.

ودعِـي الرُّعُونـةَ التي يـدُلُّ عليها الجهلُ لا العِلم؛ مِن قـولِ النفس: «فُلانٌ يـأكُلُ الخَـلَّ والبَقل، وفلانٌ لا ينامُ الليـل»، فاحمِلي ما تُطيقِين، وما قد علِمتِ قُـوةَ البـدنِ عليـه، فإنّ البهيمـةَ إذا أقبلَت إلى نهرٍ أو سـاقيةٍ، فضُرِبَت لتقفزَ، لم تفعل حتّى تزِنَ نفسَـها، فإن عَلِمتْ فيها قُوّةَ الطَّفْرِ طَفَرَت[5]، وإن علِمَت أنّها لا تُطيقُ لم تفعلْ ولو قُتِلَت.

---

(١) في (ف، ر، ق): «والمنظر».

(٢) سقط «إلى ما يؤذي» من (ف).

(٣) سقط «من نقص» من (ر).

(٤) فكأن قد: أي فكأن قد جاء الموت.

(٥) الطفر: الوثوب في ارتفاع.

وليس كُلُّ الأبدانِ تتساوى في الإطاقة، ولقد حملَ أقوامٌ من المُجاهَداتِ في بداياتِهم أشياءَ أوجبَت أمراضًا قطعتْهم عن خير، وتسخَّطَت قلوبُهم بوُقُوعِها، فعليكَ بالعِلم؛ فإنّهُ شِفاءٌ من كُلِّ داء، والله الموفِّق.

٤٩- فَصْلٌ
[الردُّ على المُشبِّهة]

عجبتُ من أقوام يدَّعون العِلم، ويميلون إلى التشبيه بحملِهم الأحاديثَ على ظواهرها، فلو أنّهم أمرُّوها كما جاءت سلِمُوا؛ لأنّ مَن أمرَّ ما جاء ومرَّ[1] من غير اعتراضٍ ولا تعرُّضٍ فما قال شيئًا لا له ولا عليه.

ولكِنّ أقوامًا قَصُرَت علومُهم فرأوا أنّ حملَ الكلامِ على غيرِ ظاهِرِه نوعُ تعطيل، ولو فهِمُوا سعةَ اللُّغةِ لم يظنُّوا هذا، وما هم إلا بمثابةِ قولِ الحجّاجِ لكاتبِه، وقد مدحَتْه الخنساء[2]، فقالت: [الطويل]

إذا هَبَطَ الحَجّاجُ أرضًا مَرِيضةً ... تَتَبَّعَ أقصى دائها فشَفاها
شَفاها مِن الداءِ العُضالِ الذِي بها ... غُلامٌ إذا هَزَّ القَناةَ سَقاها

فلمّا أتمَّتِ القصيدةَ قال لكاتبِه: اقطعْ لسانَها. فجاء ذاك الكاتِبُ المُغفَّلُ بالمُوسى، فقالت له: ويلك! إنّما قال: أجزِلْ لها العطاء، ثُمّ ذهبَت إلى الحجّاج، فقالت: كاد والله يقطعُ مِقوَلي. فكذلك الظاهِريةُ الذين لم يُسلِّمُوا بالتسليم، فإنّه مَن قرأ الآياتِ والأحاديثَ ولم يزِدْ لم ألُمْه، وهذه طريقةُ السلف.

---

(١) في (ك، س): «وأقر».

(٢) الصواب أنها ليلى الأخيلية لا الخنساء؛ لأن الأخيرة ماتت قبل عهد الحجاج، والأبيات في ديوان ليلى (ص١٢١).

فأمّا مَن قال: الحديثُ يقتضي كذا، ويُحمَلُ على كذا، مِثل أن يقولَ: «استوى على العرشِ بذاتِه، وينزِلُ إلى السماءِ الدنيا بذاتِه»، فهذه زيادةٌ فهِمَها قائلُها[1] مِن الحِسِّ لا من النقل.

ولقد عجِبتُ لرجُلٍ أندلُسيٍّ يُقال له: ابنُ عبدِ البرّ، صنَّف كِتابَ «التمهيد»، فذكر فيهِ حديثَ النزُولِ إلى السماءِ الدنيا[2]، فقال: «هذا يدُلُّ على أنّ الله تعالى على العرش؛ لأنّه لولا ذلك لما كان لقولِه: (ينزِلُ) معنًى».

وهذا كلامُ جاهِلٍ بمعرِفةِ الله عز وجل؛ لأنّ هذا استسلفَ مِن حِسِّهِ ما يعرِفهُ مِن نزُولِ الأجسام، فقاسَ صِفةَ الحقِّ عليه، فأين هؤُلاءِ واتِّباعُ الأثر؟! ولقد تكلَّمُوا بأقبحِ ما يَتكلَّمُ به المُتأوِّلُون، ثُمّ عابُوا المُتكلِّمين.

واعلم أيّها الطالِبُ للرشاد أنّه قد سبقَ إلينا من العقلِ والنقلِ أصلانِ راسِخانِ عليهما مرُّ الأحاديثِ كُلِّها؛ أمّا النقلُ فقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ[3] وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ومَن فهِمَ هذا لم يحمِلْ وصفًا له على ما يُوجِبُه الحِسّ، وأمّا العقلُ فإنّه قد علمَ مُباينةَ الصانعِ للمصنوعات، واستدلَّ على حُدُوثِها بتغيُّرِها، ودخولِ الانفعالِ عليها، فثبتَ له قِدَمُ الصانِع.

وا عجبًا كُلَّ العجبِ مِن راوٍ لم يفهَم، أليس في الحديث الصحيح: «أنّ الموتَ يُذبَحُ بين الجنةِ والنار»[4]؟ أوَليس العقلُ إذا استُفتي في هذا صرفَ الأمرَ عن حقيقتِه لِما ثبتَ عنده مَن فهم ماهِيّةِ الموت، فقال: الموتُ عرَضٌ

(١) في (ف، ك، ح، ص، م): «قائله».

(٢) البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) الآية إلى هنا في (ر، ق، ص، د، م).

(٤) البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

يُوجِبُ بُطلانَ الحياة، فكيف يُماتُ الموت؟ فإذا قيل له: فما تصنعُ بالحديث؟ قال: هذا ضربُ مَثلٍ بإقامةِ صُورة ليُعلَمَ بتِلكَ الصُّورةِ الحسيةِ فواتُ ذلك المعنى.

قُلنا له: فقد رُوِيَ في الصحيح: «تأتي البقرةُ وآلُ عِمران كأنّهما غَمامَتانِ»[١]، فقال: الكلامُ لا يكُونُ غمامةً، ولا يُشبَّهُ بها، قُلنا له: أفتُعطِّلُ النقل؟ قال: لا، ولكن يأتي ثوابُهما. قُلنا: فما الدليلُ الصارِفُ لكَ عن هذه الحقائق؟ فقال: عِلمي بأنّ الكلامَ لا يُشبَّهُ بالأجسام، والموتَ لا يُذبَحُ ذبحَ الأنعام، ولو عِلمتُم سعةَ لُغةِ العرب ما ضاقَت أعطانُكم من سماع مِثلِ هذا. فقال العُلماء: صدقتَ، هكذا نقولُ في تفسيرِ مجيء البقرة، وفي ذبحِ الموت.

فقال: وا عجبًا لكُم، صرفتُم عنِ الموتِ والكلامِ ما لا يليقُ بهما؛ حِفظًا لِما علِمتُم مِن حقائقِهما، فكيف لم تصرِفُوا عنِ الإلهِ القديمِ ما يُوجِبُ التشبيهَ له بخلقِه، بما قد دلَّ الدليلُ على تنزيهِه عنه؟! فما زال يُجادِلُ الخُصُومَ بهذه الأدلّةِ ويقول: لا أقطعُ حتّى أُقطَع، فما قطعَ حتّى قُطِع.

٥٠- فَصْلٌ
[سرُّ حذف آية الرجم]

تفكَّرتُ في السرِّ الذي أوجبَ حذفَ[٢] آية الرجم من القرآن[٣] لفظًا مع ثبوت حُكمِها إجماعًا، فوجدتُ لذلِك معنيَين؛ أحدهما: لُطفُ الله تعالى بعِبادِه في أنّه لا يُواجِهُهم بأعظمِ المشاقّ، بل ذكرَ الجَلْد، وسترَ الرجم. ومن

---

(١) مسلم (٨٠٤) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

(٢) سقطت من (ح، ق، ص).

(٣) سقط «من القرآن» من (ك، س، م).

هـذا المعنـى قـال بعضُ العُلمـاء: إنّ الله تعالى قـال في المكرُوهـات: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣] علـى لفـظ مـا لـم يُسَـمَّ فاعِلُـه، وإن كان قد علِم أنّه هو الكاتِب، فلمّا جاء إلى ما يُوجِبُ الراحةَ قال: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢]. **والوجـه الثاني**: أن يُبيِّنَ بذلكَ فضلَ الأُمّةِ في بذلِها النفُوسَ قُنُوعًا ببعـضِ الأدِلّـة، فإنّ الاتفاقَ لمّا وقعَ على ذلك الحُكـم كان دليلًا، إلا أنّه ليس كالدليـل المُتّفَـقِ لأجلِـه. ومِـن هذا الجِنس شُـروعُ الخليلِ ﷺ في ذبـحِ ولدِهِ بمنام، وإن كان الوحيُ في اليقظة آكَدَ.

٥١- فَصْلٌ
[قانون الأسباب والمُسبَّبات]

عرضَتْ لي حالةٌ لجأتُ فيها بقلبي إلى الله تعالى وحدَه عالمًا بأنّه لا يقدرُ على جلبِ نفعي ودفعِ ضُرّي سـواه، ثُمّ قُمتُ أتعرَّضُ بالأسـباب، فأنكرَ عليَّ يقينـي، وقـال: هذا قدحٌ في التوكُّل، فقلتُ: ليـس كذلك، فإنّ الله تعالى وضعَ مِنَ الحِكَم، وكان معنى حالي: أنّ ما وضعتُ لا يُفيد، وأنّ وجُودَه كالعدم.

وما زالتِ الأسـبابُ في الشـرعِ كقولِه تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ [يوسف: ٤٧].

وقد ظاهَر النبيُّ ﷺ بين دِرعَين، وشـاوَر طبيبَين، ولمّا خرجَ إلى الطائف لم يقدِر على دُخُولِ مكّةَ حتّى بعثَ إلى المُطعِمِ بنِ عديٍّ، فقال: «أدخُلُ[١] في جوارِك». وقد كان يُمكِنُه أن يدخُلَ مُتوكِّلًا بلا سببٍ.

---

(١) سقطت من (ح، ص)، والخبر تقدم في الفصل ٤١ وكذا ما قبله.

فإذا جعلَ الشرعُ الأُمُورَ منُوطةً بالأسبابِ كان إعراضي عنِ الأسبابِ دفعًا للحِكمـة. ولهـذا أرى أنّ التداويَ مندُوبٌ إليه، وقد ذهـبَ صاحِبُ مذهبي[(١)] إلـى أنّ تركَ التـداوي أفضل، ومنعني الدليلُ مِن اتباعِهِ فـي هذا؛ فإنّ الحديثَ الصحيـحَ[(٢)] أنّ النبـيَّ ﷺ قال: «ما أنزلَ الله داءً إلا وأنزلَ له دواءً، فتداوَوا»[(٣)]، ومرتبةُ هذه اللفظةِ الأمرُ، والأمرُ[(٤)] إمّا أن يكُونَ واجِبًا أو ندبًا، ولم يسبقْه حظر فيُقالَ: هو أمرُ إباحة.

وكانـت عائشـةُ رضـي الله عنهـا تقـول: تعلَّمتُ الطـبَّ من كثـرةِ أمراضِ رسُـول الله ﷺ، وما يُنعَتُ له[(٥)]. وقال ﷺ لعليِّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه: «كُلْ من هذا؛ فإنّه أوفقُ لكَ مِن هذا»[(٦)].

ومَن ذهبَ إلى أنّ تركَهُ أفضلُ احتجَّ بقولِه عليه الصلاة والسلام: «يدخُل الجنّةَ سبعُون ألفًا بلا حِسابٍ»، ثُمّ وصفَهم فقال: «لا يكتوُون، ولا يسترقُون، ولا يتطيَّرُون، وعلى ربِّهم يتوكَّلُون»[(٧)].

وهذا لا يُنافي التداويَ؛ لأنّه قد كان أقوامٌ يكتوُون لئلّا يمرضُوا، ويسترقُون لئلّا تُصيبَهم نكبة، وقد كوى عليه الصلاة والسـلام أسـعدَ بنَ زُرارةَ رضي الله

---

(١) على حاشية (س): «يعني الإمام أحمد بن حنبل».

(٢) سقط من (د).

(٣) رواه أبـو داود (٣٨٧٤) مـن طريق إسـماعيل بن عيـاش، وقد اختلف عليه فيـه، ورواه بلفظ قريب البخاري (٥٦٧٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) سقطت من (ح، ص).

(٥) رواه أحمد (٢٤٣٨٠) وفيه أبو معاوية عبد الله بن معاوية الزبيري، وهو ضعيف.

(٦) رواه الترمـذي (٢٠٣٧)، وأبـو داود (٣٨٥٦)، وابن ماجـه (٣٤٤٢)، تفـرَّد بـه فليـح بـن سـليمان الخزاعي، وهو ضعيف.

(٧) البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢٢٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

عنه[١]، ورخَّصَ في الرُّقيةِ في الحديثِ الصحيح[٢]، فعلِمنا أنّ المُرادَ ما أشرنا إليه.

وإذا عرَفتَ الحاجةَ إلى إسهالِ الطبع، رأيتَ أكلَ البَلُّوطِ مِمّا يمنعُ منه عِلمي، وشُرْبَ ماء التمرِ الهِندي[٣] أوفقَ.

وهذا طِبّ، فإذا لم أشربْ ما يُوافِقني، ثُمّ قُلت: «اللهمّ عافِني»، قالت لي الحِكمة: أما سمِعتَ: «اعقِلها وتوكَّل»[٤]؟ اشربْ وقُل: عافِني، ولا تكُن كمَن بين زَرعِهِ وبين النهرِ كفٌّ من تُراب، تكاسلَ أن يرفعهُ بيدِه، ثُمّ قام يُصلِّي صلاةَ الاستسقاء.

وما هذه الحالةُ إلا كحالِ مَن سافرَ على التجريد[٥]، وإنّما سافر على التجريد؛ لأنّه يُجرِّبُ بربّه عز وجل: هل يرزُقُه أو لا؟ وقد تقدَّم الأمرُ إليه: ﴿وَتَزَوَّدُواْ﴾ [البقرة: ١٩٧] فقال: لا أتزوَّد، فهذا هالِكٌ قبل أن يُهلِكَه. فلو جاء وقتُ صلاة، وليس معهُ ماء، لِيمَ على تفريطِه، وقيل له: هلّا[٦] استصحبتَ الماءَ قبل المفازة!

فالحذرَ الحذرَ مِن أفعالِ أقوامٍ دقَّقُوا فمَرقُوا عنِ الأوضاعِ الدينية، وظنُّوا أنّ كمالَ الدينِ بالخُروج عنِ الطباع، والمُخالفةِ للأوضاع، ولولا قُوّةُ العِلمِ

(١) رواه الترمذي (٢٠٥٠) من حديث معمر عن الزهري عن أنس، وهذا مما أخطأ فيه معمر؛ لأن الزهري يرويه عن أبي أمامة مرسلًا، والله أعلم.
(٢) البخاري (٥٧٤١).
(٣) في (ف، ح، ص، د، م): «هندي». والبَلُّوط: شجر له حمل يؤكل، ويُدبَغ بقشره.
(٤) رواه الترمذي (٢٥١٧) وقال: قال عمرو بن علي: قال يحيى: وهذا عندي حديث منكر.
(٥) أي: ليس معه شيء من زاد ونحوه.
(٦) سقطت من (ف).

والرُّسُوخُ فيه لَما قدرتُ على شرحِ هذا ولا عرفتُه. فافهم ما أشرتُ إليه، فهو أنفعُ لكَ من كراريسَ تسمعُها، ولكن مع أهلِ المعاني لا مع أهلِ الحشو.

٥٢- فَصْلٌ

[النظافة]

تلمَّحتُ على خلقٍ كثيرٍ من الناس إهمالَ أبدانِهم، فمِنهم مَن لا يُنظِّفُ فمَهُ بالخِلالِ بعد الأكل، ومِنهم مَن لا يُنقِّي يدَيهِ في غسلِها مِن الزَّهَم[١]، ومِنهم مَن لا يكادُ يستاك، وفيهم مَن لا يكتحِل، وفيهم مَن لا يُراعي الإبط[٢] إلى غيرِ ذلك، فيعودُ هذا الإهمالُ بالخللِ في الدينِ والدنيا.

أمّا الدينُ فإنّه قد أمرَ المُؤمِنَ[٣] بالتنظُّفِ والاغتِسالِ للجُمُعة؛ لأجلِ اجتِماعِه بالناس، ونهى عن دُخُول المسجِد إذا أكلَ الثُّوم، وأمرَ الشرعُ بتنقيةِ البراجِم، وقصِّ الأظفار، والسواكِ، والاستحدادِ، وغيرِ ذلك من الآداب، فإذا أهملَ ذلك تركَ مسنُونَ الشرع، ورُبّما تعدّى بعضَ ذلك إلى فسادِ العبادة، مِثل أن يُهمِلَ أظفارَه فيجمعَ تحته الوسخَ المانِعَ للماء في الوضوء أن يصِل.

وأمّا الدنيا فإنّي رأيتُ جماعةً من المُهمِلين أنفُسَهم يتقدَّمُون إلى السِّرار، والغفلةُ التي أوجبَت إهمالَهم أنفُسَهم، أوجبَها[٤] جهلُهم بالأذى الحادِثِ عنهم، فإذا أخذُوا في مُناجاةِ السِّرِّ لم يُمكِن أن أصدفَ عنهم؛ لأنّهم يقصِدُون السِّرَّ، فألقى الشدائدَ مِن ريحِ أفواهِهم، ولعلَّ أكثرَهم مِن وقتِ انتباهِهم ما أمرَّ إصبعَهُ على أسنانه.

---

(١) الزَّهَم بفتحتين: الدسم.
(٢) سقطت من (ح، ص).
(٣) سقطت من (ر).
(٤) في سائر النسخ: «أوجب»، والمثبت عن (د).

ثُمّ يُوجِبُ مِثلُ هذا نُفُورًا للمرأة، وقد لا تستحسِنُ ذِكرَ ذلك للرجُل، فيُثمِرُ ذلـك التِفاتَها عنه، وقـد كان ابنُ عبّاسٍ رضي الله عنهما يقول: «إنّي لَأحِبُّ أن أتزيَّنَ للمرأةِ كما أُحِبُّ أن تتزيَّنَ لي»[١].

وفـي النـاسِ مَن يقول: هذا تصنُّع، وليس بشـيء؛ فـإنّ الله تعالى زيَّننا لمّا خلقنا؛ لأنّ للعين حظًّا في النظر، ومَن تأمَّل أهدابَ العينِ والحاجِبَينِ وحُسنَ ترتيبِ الخِلقةِ علمَ أنّ الله تعالى زيَّنَ الآدميّ.

وقد كان النبيُّ ﷺ أنظفَ الناسِ وأطيبَ الناس، وفي الحديثِ عنه ﷺ[٢]: يرفعُ يدَيهِ حتّى تبينَ عُفْرَةُ إبطَيه[٣]، وكان سـاقُه رُبّما انكشفَت، فكأنّها جُمّارة، وكان لا يُفارقُـه السـواك، وكان يكـرهُ أن يُشَـمَّ مِنـهُ ريحٌ ليسـت طيبـة[٤]، وفي حديثِ أنسٍ الصحيح: «ما شانَه الله ببيضاءَ»[٥].

وقـد قالتِ الحُكماء: مَن نظَّـفَ ثوبَه قلَّ همُّه، ومَن طابَ ريحُه زاد عقلُه. وقـال عليـه الصـلاة والسـلام لأصحابِـه[٦]: «ما لكُـم تدخُلـون علـيَّ قُلْحًا؟! اسـتاكُوا»[٧]. وقـد فُضِّلـتِ الصـلاةُ بالسِّـواكِ علـى الصـلاةِ بغيرِ سِـواك[٨].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٢٠٤٠٤). (٢) من قوله: «أنظف الناس» إلى هنا سقط من (د).

(٣) العُفرة: بياض تخالطه حُمرة. والحديث أخرجه البخاري (٦٦٣٦) من حديث أبي حميد الساعدي رضي الله عنه.

(٤) البخاري (٦٩٧٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥) مسـلم (٢٣٤١) من حديث أنس رضي الله عنه. والحديث محمول على أن تلك الشـعرات البيض لم يتغير بها شيء من حُسنه ﷺ، كما قاله ابن حجر في فتح الباري (٦: ٥٧٢).

(٦) سقطت من (ف).

(٧) القَلَح: صفرة تعلو الأسنان. والحديث ضعيف؛ رواه أحمد (١٨٣٥)، فيه أبو علي الزراد وهو مجهول.

(٨) رواه أحمد (٢٦٣٤٠)، رواه محمد بن إسحاق، عن الزهري، عن عروة، عن عائشـة، ولم يسـمع ابن إسحاق هذا الحديث من الزهري.

فالمُتنظِّف يُنعِّمُ نفسَه، ويرفعُ مِنها عَنَدَها[١].

وقد قال الحُكماء: مَن طالَ ظُفرُه قصُرَت يدُه. ثُمّ إنّهُ يقرَبُ مِن قُلوبِ الخلق، وتُحبُّه النفُوس لنظافتِه وطيبِه، وقد كان النبيُّ ﷺ يُحبُّ الطِّيبَ، ثُمّ إنّه يُؤنِسُ الزوجةَ بتلك الحال، فإنّ النِّساءَ شقائقُ الرِّجال، فكما أنّه يكرهُ الشيءَ مِنها فكذلك هي تكرهُه، ورُبّما صبرَ هو على ما يكرهُ وهي لا تصبِر.

وقد رأيتُ جماعةً يزعُمُون أنّهم زُهّاد، وهم مِن أقذرِ الناس؛ وذلك لأنّهم ما قوَّمَهم العِلم. وأمّا ما يُحكى عن داودَ الطائي[٢] أنّه قيل له: «لو سرَّحتَ لحيتَك»، فقال: «إنّي عنها مشغُول»، فهذا قولُ مُعتذِرٍ عنِ العمل بالسُّنّةِ والإخبار عن غَيبتِه عن نفسِهِ بشِدّةِ خوفِهِ من الآخِرة، ولو كان مُفيقًا لذلك لم يترُكْه، فلا يُحتَجُّ بحالِ المغلُوبين. ومَن تأمَّل خصائصَ الرسولِ ﷺ رأى كاملًا في العِلمِ والعمل، فبه يكونُ الاقتداء، وهو الحُجّةُ على الخلق.

٥٣- فَصْلٌ
[الحكمة من الحرِّ والبرد]

تأمَّلتُ مبالغةَ أربابِ الدنيا في اتقاء الحرِّ والبرد، فرأيتُها تعكسُ المقصودَ في باب الحِكمة، وإنما تُحصِّلُ مُجرَّدَ لذّةٍ، ولا خيرَ في لذّةٍ تُعقِبُ ألمًا، فأمّا [في][٣] الحرِّ فإنّهم يشربون الماءَ المثلُوج، وذلك على غايةٍ في الضرر، وأهلُ الطِّبِّ[٤]

---

(١) العندُ: الميل والانحراف.

(٢) هو أبو سليمان داود بن نصير الطائي، الكوفي، الإمام الفقيه الزاهد أحد الأولياء، تُوفي سنة ١٦٢هـ. سير أعلام النبلاء (٧: ٤٢٢)، والخبر ذكره أبو طالب المكي في قوت القلوب (٢: ٢٤٣).

(٣) ما بين المعقوفين زيادة من المحقق ليستقيم السياق.

(٤) قوله: «وأهل الطب» في (ف، ك، ح): «والطب».

يقولون: إنّهُ يُحدِثُ أمراضًا صعبةً يظهرُ أثرُها في وقتِ الشيخُوخة، ويصنعُون الخُيوشَ المُضاعفة. وفي البرد يصنعُون اللُّبُود[1] المانعة للبرد.

وهذا من حيثُ الحِكمةُ يُضادُّ ما وضعَه الله تعالى؛ فإنّه جعلَ الحرَّ لتحلُّلِ الأخلاط، والبردَ لجُمودِها، فيجعلون هم جميعَ السَّنةِ ربيعًا، فتنعكِسُ الحِكمةُ التي وُضِعَ الحرُّ والبردُ لها، ويرجِعُ الأذى على الأبدان.

ولا يظُنَّنَّ سامِعُ هذا أنّي آمُرهُ بمُلاقاةِ الحرِّ والبرد، وإنّما أقولُ له: لا يُفرِط في التوقّي، ويعرضُ في الحرِّ لما يُحلِّلُ بعضَ الأخلاطِ إلى حدٍّ لا[2] يُؤثِّرُ في القُوّة، وفي البردِ بأن يُصيبَك مِنهُ الأمرُ القريبُ لا المُؤذي؛ فإنّ الحرَّ والبردَ لِمصالحِ البدن.

وقد كان بعضُ الأمراءِ يصُونُ نفسَه مِن الحرِّ والبردِ أصلًا، فدادَ جوفُه[3]، فماتَ عاجِلًا، وقد ذكرتُ قِصّتَه في كِتابِ «لقطِ المنافِعِ في علمِ الطِّبِّ».

٥٤- فَصْلٌ
[الصبرُ على القضاء]

ليس في التكليفِ أصعبُ من الصبرِ على القضاء، ولا فيه أفضلُ من الرضا به، فأمّا الصبرُ فهو فرض، وأمّا الرضا فهو فضل. وإنّما صَعُبَ الصبرُ لأنّ القدَرَ يجري في الأغلبِ بمكرُوه النفس، وليس مكرُوهُ النفسِ يقِفُ على المرضِ والأذى في البدن، بل هو يتنوَّعُ حتّى يتحيَّرَ العقلُ في جريانِ القدَر.

---

(١) اللُّبود: الثياب من الصوف أو الشعر.

(٢) في (ك، ح، ر، ص، د، م): «لا أن».

(٣) داد: صار فيه الدود.

فمـن ذلـك أنّك إذا رأيـتَ مغمُورًا بالدنيا، قد سـالَت لـه أوديتُها، حتّى لا يـدري مـا يصنـعُ بالمـال، فهـو يصُوغـه أوانـيَ يسـتعمِلُها، ومعلُـومٌ أنّ البلّورَ والعقيقَ والشَّبهَ[1] قد يكُونُ أحسـنَ مِنها صُورةً، غيرَ أنّ قِلّةَ مُبالاتِه بالشـريعةِ جعلَت عِنده وُجودَ النهيِ كعدمِه. ويلبَسُ الحرير، ويظلِمُ الناس، والدُّنيا مُنصبّةٌ عليـه، ثُـمّ يرى خلقًا مِـن أهلِ الدينِ وطُـلابِ العِلمِ مغمُورِيـن بالفقرِ والبلاء، مقهُورِيـن تحـتَ وِلايةِ ذلك الظالِم، فحينئذٍ يجِدُ الشـيطانُ طريقًا للوسـواسِ، ويبتـدئ بالقـدحِ في حِكمةِ القدَر، فيحتاجُ المُؤمِـنُ إلى صبرٍ على ما يلقى من الضُّرِّ في الدنيا، وعلى جِدالِ إبليسَ في ذلك، وكذلك في تسليطِ الكُفّارِ على المُسـلِمين، والفُسّـاقِ على أهلِ الدين، وأبلغُ مِن هذا إيلامُ الحيوان، وتعذيبُ الأطفـال، ففـي مِثلِ هذه المواطـنِ يتمحّضُ الإيمان. ومِمّا يُقـوّي الصبرَ على الحالتين: النقل، والعقل:

أمّا النقل فالقُرآنُ والسُّنّة.

أمّا القُرآن فمُنقسِمُ إلى قِسمين:

أحدهما: بيانُ سببِ إعطاءِ الكافرِ والعاصي، فمِن ذلك قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، ﴿وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ﴾ [الزخرف: ٣٣]، ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا[2] فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦]، وفي القُرآن مِن هذا كثير.

والقسـم الثانـي: ابتـلاءُ المُؤمِنُ بمـا يلقى، كقولـه تعالـى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ﴾[3] [آل عمران: ١٤٢]، ﴿أَمۡ

---

(١) في (ق، ص): «والمشبه».

(٢) الآية إلى هنا في (ر، ق، ص، م).

(٣) ليست هذه الآية في (ف، ر).

حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٤]، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ﴾ [التوبة: ١٦]، وفي القُرآن مِن هذا كثير.

وأمّا السُّنّة فمُنقسِمةٌ إلى قولٍ وحالٍ.

أمّا الحال فإنّه ﷺ كان يتقلَّبُ على رِمالِ حصيرٍ تُؤثِّرُ في جنبِه، فبكى عُمرُ رضي الله عنه وقال: «كِسرى وقيصرُ في الحريرِ والدِّيباج!»، فقال له ﷺ: «أفي شكٍّ أنتَ يا عُمرُ[1]؟ ألا ترضى أن تكُونَ لنا الآخِرةُ ولهم الدنيا؟»[2]. وأمّا القولُ فكقولِه عليه الصلاة والسلام: «لو أنّ الدنيا تُساوي عِند الله جناحَ بعُوضةٍ ما سقى كافرًا مِنها شربةَ ماءٍ»[3].

وأمّا العقلُ فإنّه يُقوِّي عساكرَ الصبرِ بجُنود؛ مِنها: أن يقول: قد ثبتَت عِندي بالأدلّةِ القاطعةِ حِكمةُ المُقدِّر، فلا أترُكُ الأصلَ الثابتَ لما يظُنُّه الجاهِلُ خللًا[4]. ومِنها: أن يقول: ما قدِ استهولتَهُ أيُّها الناظِرُ من بسطِ يدِ العاصي هي[5] قبضٌ في المعنى، وما قد أُثِرَ عِندك من قبضِ يدِ الطائع بسطٌ في المعنى؛ لأنّ ذلك البسطَ يُوجِبُ عِقابًا طويلًا، وهذا القبضُ يُؤثِرُ انبساطًا في الأجرِ جزيلًا، فزمانُ الرجُلَينِ ينقضي عن قريب، والمراحِلُ تُطوى، والرُّكبانُ في الحديث. ومِنها: أن يقول: قد ثبتَ أن المُؤمِنَ بالله كالأجير، وأنّ زمنَ التكليفِ كبياضِ نهار، ولا ينبغي للمُستعمَلِ في الطينِ أن يلبسَ نظيفَ الثياب، بل ينبغي

(١) «يا عمر» عن (د).

(٢) البخاري (٢٤٦٨)، ومسلم (١٤٧٩) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٣) رواه الترمذي (٢٣٢٠)، وفيه عبد الحميد بن سليمان، وهو ضعيف.

(٤) سقطت من (ك، س، م).

(٥) سقطت من (ك، ح، ق، د، م).

أن يُصابِرَ ساعاتِ العملِ، فإذا فرغَ تنظَّفَ ولبسَ أجودَ ثيابه، فمَن ترفَّه وقتَ العملِ ندمَ وقتَ تفريقِ الأُجرة، وعُوقِبَ على التواني فيما كُلِّف.

فهذه النُّبَذُ تُقوِّي أَزرَ الصبر، وأزيدُها بسطًا فأقول: أتُرى إذا أُريدَ اتِّخاذُ شُهداء، فكيف لا يُخلَقُ أقوامٌ يبسُطُ أيديَهم لقتلِ المُؤمِنين، أفيجوز أن يفتِكَ بعُمرَ إلا مِثلُ أبي لُؤلُوة؟ وبعليٍّ إلا مِثلُ ابنِ مُلجِم؟ أفيصلحُ أن يقتُلَ يحيى بنَ زكريا إلا جبّارٌ كافر؟!

ولو أنّ عينَ الفهمِ زالَ عنها غِشاءُ العَشا لرأتِ المُسبِّبَ لا الأسباب، والمُقدِّرَ لا الأقدار، فصبرتَ على بلائه إيثارًا لما يُريد، ومِن هُهُنا ينشأُ الرِّضا، كما قيل لبعضِ أهلِ البلاء: ادعُ الله بالعافية، فقال: أحَبُّه إليَّ أحَبُّه إلى الله عز وجل! [المتدارك]

إن كانَ رِضاكُم في سَهَرِي فسَلامُ الله على وَسَنِي(١)

٥٥- فَصْلٌ
[درجاتُ الرضا بالقضاء]

لمّا أنهيتُ كتابةَ الفصل المُتقدِّم هتفَ بي هاتفٌ من باطني: دعني من شرح الصبر على الأقدار؛ فإنّي قد اكتفيتُ بأُنمُوذجِ ما شرحتَ، وصِفْ حالَ الرضا؛ فإنّي أجدُ نسيمًا من ذِكره فيه رَوحٌ للرُّوحِ، فقلتُ: أيها الهاتِفُ اسمعِ الجوابَ وافهمِ الصواب؛ إنّ الرِّضا مِن جُملةِ ثمراتِ المعرِفة، فإذا عرَفتَه رَضِيتَ بقضائه، وقد يجري في ضِمنِ القضاءِ مراراتٌ يجِدُ بعضَ طعمِها الراضي.

(١) لعبدِ الغافر السروستاني الفقيه الشافعي في المستفاد من ذيل تاريخ بغداد (٣٠١).

وأمّا العارفُ فتقِلُّ عِنده المراراةُ لقُوّةِ حلاوةِ المعرفة، فإذا ترقّى بالمعرفةِ إلى المحبّةِ صارَت مرارةُ الأقدارِ كما قال القائل(١): [المجتث]

عَذابُـهُ فيـكَ عَـذبُ ... وبُعـدُهُ فيـكَ قُـربُ
وأنتَ عِنـدِي كرُوحِي ... بَـل أنـتَ مِنهـا أحَبُّ
حَسـبِي مِنَ الحُبِّ أنّي ... لِـمـا تُـحِـبُّ أُحِـبُّ

وقال بعضُ المُحبِّين في هذا المعنى(٢): [الوافر]

ويَقبُحُ مِن سِواكَ الفِعلُ عِندِي ... فتَفعَلُـهُ فيَحسُـنُ مِنـكَ ذاكا

فصـاح بـي الهاتِـف: حدِّثني بمـاذا أرضى؟ قـدِّر أنّـي أرضى فـي أقدارِه بالمرضِ والفقر، أفأرضى بالكسـل عن خِدمتِـه، والبُعدِ عن أهلِ محبّتِه؟ فبيِّنْ لي ما الذي يدخُلُ تحت الرضا مِمّا لا يدخُل. فقلتُ له: نِعْمَ ما سألتَ، فاسمعِ الفرقَ سماعَ مَن ألقى السمعَ وهو شهيد: ارضَ بما [كان](٣) مِنه، فأمّا الكسلُ والتخلُّـفُ فذاك منسُـوبٌ إليـك، فلا ترضَ به مـن فعلِك، وكُنْ مُسـتوفيًا حقَّه عليك، مُناقِشًا نفسَك فيما يُقرِّبُك مِنه، غيرَ راضٍ مِنها بالتواني في المُجاهدة.

فأمّا ما يصدُرُ من أقضيتِه المُجرَّدة التي لا كسبَ لك فيها فكُن راضيًا بها، كمـا قالـت رابِعةُ رحمةُ الله عليها، وقـد ذُكِرَ عِندها رجُلٌ مِـنَ العُبّادِ يلتقِطُ مِن مَزبلةٍ فيأكُل، فقيل: هلّا سـألَ الله تعالى أن يجعلَ رِزقَهُ مِن غيرِ هذا؟! فقالت: «إنّ الراضـيَ لا يتخيَّـر، ومَن ذاقَ طعـمَ المعرِفةِ وجدَ فيهِ طعـمَ المحبّة، فوقع الرضا عِنده ضرورةً»(٤).

(١) الأبيات للحسين بن منصور كما في آثار البلاد للقزويني (ص١٦٧).
(٢) هو لسمنون المحب في طبقات الأولياء لابن الملقن (ص١٦٩).
(٣) ما بين المعقوفين عن (ط).
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في الرضا عن الله بقضائه (٢١).

فينبغي الاجتهادُ في طلبِ المعرفةِ بالأدلّة، ثُمّ العملُ بمُقتضى المعرفةِ بالجِدِّ في الخدمة، لعلَّ ذلك يُورثُ المحبّة؛ فقد قال سبحانه وتعالى: «لا يزالُ العبدُ يتقرَّبُ إليّ بالنوافلِ حتّى أحِبَّه، فإذا أحببتُهُ كُنتُ سمعَهُ الذي يسمعُ به، وبصرَهُ الذي يُبصِرُ به»(١). فذلكَ الغِنى الأكبر، ووا فقراه!

٥٦- فَصْلٌ

[حاجة طالب العلم إلى المَعاش]

رأيتُ جمهورَ العلماء يشغلُهم طلبُهم للعلم في زمن الصِّبا عن المعاش، فيحتاجون إلى ما لا بدَّ منه، فلا يصِلُهم من بيت المال شيءٌ ولا من صلاتِ الإخوان ما يكفي، فيحتاجون إلى التعرُّض بالأنذال، فلم أرَ في ذلك مِن الحِكمة إلا سببَين؛ أحدهما: قمعُ إعجابِهم بهذا الإذلال. والثاني: نفعُ أولئك بثوابِهم.

ثُمّ أمعنتُ الفكر، فتلمَّحتُ نُكتةً لطيفة، وهو أنّ النفسَ الأبيّةَ إذا رأت حالَ الدنيا كذلك لم تُساكِنْها بالقلب، ونبَتْ(٢) عنها بالعزم، ورأتْ أقربَ الأشياءِ شبهًا بها مَزبلةً عليها الكِلاب، أو غائطًا يُؤتى لضرورة. فإذا نزلَ الموتُ بالرحلةِ(٣) عن مِثلِ هذه الدار، لم يكُن للقلبِ بها مُتعلَّقٌ مُتمكِّن(٤)؛ فتهُونُ حينئذ.



---

(١) البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في (ف): «نأت»، ونبا عن الشيء: تجافى عنه.

(٣) في (ر): «بالرحل».

(٤) في (ف، ح، ق، د): «بتمكن».

٥٧- فَصْلٌ

[وجوب التلطُّف بالبدن]

ما زال جماعةٌ من المتزهِّدين يُزْرُون(١) على كثيرٍ من العلماء إذا انبسطوا في مباحات، والذي يحمِلُهم على هذا الجهلُ، فلو كان عِندهم فضلُ عِلمٍ ما عابوهم. وهذا لأنّ الطباعَ لا تتساوى، فرُبَّ شخصٍ يصلُحُ على خُشونةِ العيش، وآخرَ لا يصلُحُ على ذلك، ولا يجُوزُ لأحدٍ أن يحمِلَ غيرَه على ما يُطيقُه هو.

غيرَ أنّ لنا ضابِطًا هو الشرعُ، فيه الرُّخصةُ، وفيه العزيمةُ، فلا ينبغي أن يُلامَ من حصرَ نفسَه في ذلك الضابِط، ورُبَّ رُخصةٍ كانت أفضلَ مِن عزائمَ لتأثيرِ نفعِها، ولو علِم المُتزهِّدُون أنّ العِلمَ يُوجِبُ المعرِفةَ بالله تعالى، فتَنبَتُّ القلوبُ مِن خوفِه، وتنحَلُ الأجسامُ للحذرِ منه، فوجبَ التلطُّفُ بالأجسام حِفظًا لقُوتِ الراحِلة.

ولأنّ آلةَ العِلمِ والحِفظِ القلبُ والفكرُ، فإذا رُفِّهتِ الآلةُ جادَ العمل، وهذا أمرٌ لا يُعلَمُ إلا بالعِلم، فلِجهلِ المُتزهِّدين بالعلمِ أنكرُوا ما لم يعلمُوا، وظنُّوا أنّ المُرادَ إتعابُ الأبدان، وإنضاءُ الرواحِل(٢)، وما علِمُوا أنّ الخوفَ المُضني يحتاجُ إلى راحةٍ مُقاوِمة، كما قال القائل(٣): «رَوِّحُوا القُلوبَ تَعي الذِّكر».



---

(١) يُزرُون: يعيبون.

(٢) إنضاء الرواحل: إتعابها حتى تهزل.

(٣) هو قسامة بن زهير كما في حلية الأولياء (٣: ١٠٤).

٥٨ـ فَصْلٌ
[شرفُ العلم]

ليس في الوجود شيءٌ أشرفُ من العلم، كيف لا وهو الدليل، فإذا عُدِمَ وقعَ الضلال؟! وإنّ مِن خفيِّ مكائدِ الشيطانِ أن يُزيِّنَ في نفسِ الإنسانِ التعبُّد؛ ليشغلَهُ عن أفضلِ التعبُّد، وهو العلم، حتّى إنّه زيَّنَ لجماعةٍ مِن القدماءِ أنّهم دفنُوا كُتُبَهم ورمَوها في البحر، وهذا قد وَرَدَ عن جماعة.

وأحسنُ ظنّي بهم أن أقول: كان فيها شيءٌ مِن رأيهم وكلامِهم، فما أحبُّوا انتشارَه، وإلا فمتى كان فيها عِلمٌ مُفيدٌ صحيحٌ لا يُخافُ عواقِبُه، كان رميُها إضاعةً للمال لا يحلّ.

وقد دنَت[1] حيلةُ إبليسَ إلى جماعةٍ مِنَ المُتصوِّفة، حتّى مَنعُوا مِن حملِ المحابرِ تلامِذتَهم، حتّى قال جعفر الخُلديّ[2]: «لو ترَكني الصُّوفيةُ جِئتُكم بأسنادِ الدنيا، كتبتُ مجلِسًا عن عبّاسٍ الدُّوريِّ[3]، فلَقِيني بعضُ الصُّوفية، فقال: دعْ عِلمَ الورق، وعليكَ بعِلمِ الخِرَقِ».

ورُئيَتْ مِحبرةٌ مع بعضِ الصُّوفية، فقال له صُوفيّ: استُر عورتَك[4]! وقد أنشدُوا للشبليّ[5]: [المتقارب]

---

(١) في (ف، ر، ق): «دبت».

(٢) هو أبو محمد جعفر بن محمد البغدادي، الإمام القدوة المُحدِّث شيخ الصوفية، تُوفي سنة ٣٤٨هـ. سير أعلام النبلاء (١٥: ٥٥٨).

(٣) في النسخ: «ابن عباس الدوري»، والتصويب عن المصادر، وهو أبو الفضل عباس بن محمد الدوري، ثم البغدادي، الإمام، الحافظ، الثقة، الناقد، تُوفي سنة ٢٧١هـ. سير أعلام النبلاء (١٢: ٥٢٢)، والخبر رواه المحسن بن علي التنوخي في نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة (٣: ١١٧).

(٤) المنتخب من معجم شيوخ السمعاني (ص١٥٠).

(٥) انظر: مرآة الزمان (١٧: ٢٥١).

إذا طالَبُونــي بعِلــمِ الوَرَقْ   بَــرَزتُ عَلَيهم بعِلمِ الخِرَقْ

وهذا مِن خفيِّ حِيَلِ إبليسَ، ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ [سبأ: ٢٠]، وإنّما فعلَ وزيَّنَهُ عِندهم لسببَين؛ أحدهما: أنّه أرادهم يمشُون في الظُّلمة. والثاني: أنّ تصفُّحَ العِلمِ كُلَّ يومٍ يزيدُ في العالِم، ويكشِفُ له ما كان خفيَ عنه، ويُقوّي إيمانَه ومعرِفتَه[1]، ويُريهُ عيبَ كثيرٍ من مسالِكِه إذا تصفَّحَ مِنهاجَ الرسولِ ﷺ والصحابة.

فأراد إبليسُ سدَّ تلك الطُّرُقِ بأخفى حيلة، فأظهرَ أنّ المقصُودَ العملُ، لا العِلمُ لنفسِه، وخفيَ على المخدُوعِ أنّ العِلمَ عملٌ، وأيُّ عملٍ!

فاحذر مِن هذه الخديعةِ الخفيّة؛ فإنّ العِلمَ هو الأصلُ الأعظم، والنُّورُ الأكبر، ورُبّما كان تقليبُ الأوراقِ أفضلَ من الصوم، والصلاة، والحجّ، والغزو. وكم مِن مُعرِضٍ عنِ العِلم يخوضُ في عذابٍ مِن الهوى في تعبُّده، ويُضيِّعُ كثيرًا من الفرضِ بالنفل، ويشتغلُ بما يزعمُهُ الأفضلَ عنِ الواجِب، ولو كانت عِنده شُعلةٌ مِن نُورِ العِلمِ لاهتدى. فتأمَّل ما ذكرتُ لكَ ترشُد إن شاء الله تعالى.

٥٩- فَصْلٌ
[سياسة النفس]

مرَّ بي حمّالانِ تحت جِذعٍ ثقيل، وهما يتجاوبانِ بإنشاد التنغُّم وكلمات الاستراحة، فأحدُهما يُصغي إلى ما يقولُه الآخرُ ثم يُعيدُه أو يُجيبُه بمثلِه، والآخرُ هِمّتُه مِثلُ ذلك، فرأيتُ أنّهما لو لم يفعلا هذا زادتِ المشقّةُ عليهما،

---

(١) في (ف، ح، ق، ص): «معرفته» بدون واو.

وثقُل الأمر، وكُلَّما فعلا هذا هان الأمر. فتأمَّلتُ السببَ في ذلك، فإذا به تعليقُ فِكرِ كُلِّ واحِدٍ مِنهما بما يقولُه الآخر، وطَرَبُه به، وإجالةُ فِكرِه في الجوابِ بمِثلِ ذلك، فينقطِعُ الطريق، ويُنسى ثِقَلُ المحمول.

فأخذتُ مِن هذا إشارةً عجيبة، ورأيتُ الإنسانَ قد حُمِّل مِن التكليفِ أُمورًا صعبة، ومِن أثقلِ ما حُمِّلَ مُداراةُ نفسِه، وتكليفُها الصبرَ عمّا تُحِبُّ وعلى ما تكره، فرأيتُ الصوابَ قطعَ طريقِ الصبرِ بالتسليةِ والتلطُّفِ للنفس، كما قال الشاعر: [البسيط]

فإنْ تَشَكَّتْ فعَلِّلْها المَجَرَّةَ مِن ... ضَوءِ الصَّباحِ وعِدْها بالرَّواحِ ضُحَى

ومِن هذا ما يُحكى عن بشرٍ الحافي رحمةُ الله عليه: سارَ[١] ومعهُ رجُلٌ في طريق، فعطِشَ صاحِبُه، فقال له: أشربُ من هذه البئر؟ فقال بشرٌ: اصبِر إلى البئرِ الأُخرى، فلمّا وصلا إليها قال له: البئرُ الأُخرى. فما زال يُعلِّلُه، ثُمّ التفتَ إليه، فقال له: هكذا تنقطعُ الدنيا[٢].

ومَن فَهِمَ هذا الأصلَ علَّلَ النفسَ وتلطَّفَ بها، ووعدَها الجميل لتصبِر على ما قد حُمِّلَت، كما كان بعضُ السلفِ يقولُ لنفسِه: «والله ما أُريدُ بمنعِكِ مِن هذا الذي تُحبِّينَ إلا الإشفاقَ عليكِ».

وقال أبو يزيدَ رحمةُ الله عليه: «ما زِلتُ أسُوقُ نفسي إلى الله تعالى وهي تبكي حتّى سُقتُها وهي تضحكُ»[٣].

---

(١) في (د): «أنه سار».

(٢) ذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة (١: ٤٧٧).

(٣) ذكره ابن الجوزي في المدهش (ص٤٦٣).

واعلم أنّ مُداراةَ النفسِ صعبة[1]، والتلطُّفَ بها لازِم، وبذلك ينقطِعُ الطريق، فهذا رمزٌ إلى الإشارة، وشرحُه يطُول.

٦٠- فَصْلٌ
[مُنكرات مجالس الوعظ]

تأمَّلتُ أشياءَ تجري في مجالس الوعظ يعتقدُها العوامُّ وجُهّالُ العلماء قُربةً، وهي مُنكرٌ وبُعدٌ، وذاك أنّ المُقرِئَ يُطرِبُ ويُخرِجُ الألحانَ إلى الغِناء، والواعِظَ يُنشِدُ بتطريبِ أشعارَ المجنُونِ وليلى، فيُصعَقُ هذا، ويخرِقُ ثوبَه هذا، ويعتقِدانِ ذلك قُربة، ومعلومٌ أنّ هذه الألحانَ كالمُوسيقى، تُوجِبُ طربًا للنُّفوس، فالتعرُّضُ بما يُوجِبُ الفسادَ غلطٌ عظيمٌ، وينبغي الاحتِسابُ على الوُعّاظ في هذا.

وكذلك المَقابِريّون مِنهم؛ فإنّهم يُهيِّجون الأحزان؛ ليكثُرَ بُكاءُ النساء، فيُعطَون على ذلك الأُجرة، ولو أنّهم أمَرُوا بالصبرِ لم تُرِدِ النِّسوةُ ذلك، وهذه أضدادٌ للشرع. قال ابنُ عَقِيل: «حضرنا عزاءَ رجُلٍ قد ماتَ له ولدٌ، فقرأ المُقرِئ: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤]، فقُلتُ: هذه نياحةٌ بالقُرآن»[2].

وفي الوُعّاظ مَن يتكلَّمُ على طريقِ المعرفةِ والمحبّة، فترى الحائكَ والسُّوقيَّ الذي لا يعرِفُ فرائضَ تلك[3] الصلاةِ يُمزِّقُ أثوابَه؛ دعوى لمحبّةِ الله تعالى.

---

(١) عن (ر).
(٢) رواه ابن الجوزي في المنتظم (١٧: ١٤٨).
(٣) سقطت من (ف، ك، س، ر، د، م).

والصافي حالًا مِنهم - وهو أصلحُهم - يتخايلُ بوهمِه شخصًا هو الخالِق، فيبكيه شوقًا إليه؛ لِما يسمعُ من عظمتِه ورحمتِه وجمالِه، وليس ما[١] يتخايلُونه المعبُود[٢]؛ لأنّ المعبودَ لا يقعُ في خيال.

وبعد هذا فالتحقيقُ مع العوامّ صعب، ولا يكادُون ينتفِعُونُ بمُرِّ الحقّ، إلا أنّ الواعِظَ مأمورٌ بألا يتعدّى الصواب، ولا يتعرَّضَ لِما يُفسدُهم، بل يجذِبُهم إلى ما يُصلحُ بألطفِ وجه، وهذا يحتاجُ إلى صِناعة، فإنّ مِنَ العوامّ مَن يُعجِبُه حُسنُ اللفظ، ومِنهم من يُعجِبُه الإشارة، ومِنهم من ينقادُ ببيتٍ مِن الشعر[٣].

وأحوَجُ الناسِ إلى البلاغةِ الواعِظُ؛ ليجمعَ مطالبَهم، لكنّه ينبغي أن ينظُرَ في اللازمِ والواجِب، وأن يُعطيَهم مِن المُباحِ في اللفظِ قَدرَ المِلحِ في الطعام، ثُمّ يجتذِبَهم إلى العزائم، ويُعرِّفَهم الطريقَ الحقّ. وقد حضرَ أحمدُ بنُ حنبلٍ فسمِع كلامَ الحارثِ المُحاسبيّ، فبكى، ثُمّ قال: «لا يُعجبني الحُضور»[٤]. وإنّما بكى لأنّ الحالَ أوجبتِ البُكاء.

وقد كان جماعةٌ مِن السلفِ يرَون تخليطَ القُصّاص، فينهَون عنِ الحُضورِ عِندهم، وهذا على الإطلاقِ لا يحسُنُ اليوم؛ لأنّه كان الناسُ في ذلك الزمانِ مُتشاغِلين بالعِلم، فرأوا حُضورَ القَصصِ صادًّا لهم، واليومَ كثُر الإعراضُ عن العِلم، فأنفعُ ما للعامّيِّ مجلِسُ الوعظ؛ يرُدُّهُ عن ذنب، ويُحرِّكهُ إلى توبة، وإنّما الخللُ في القاصّ، فليتّقِ الله عز وجل.

---

(١) في (ك، س، م): «مما».

(٢) سقطت من (ك، س).

(٣) سقط «من الشعر» من (ف).

(٤) ذكره ابن الجوزي في تلبيس إبليس (ص١٥٠) بمعناه.

٦١- فَصْلٌ
[الردُّ على المتأوِّلين]

مِن أضرِّ الأشياء على العوامِّ كلامُ المُتأوِّلين والنُّفاةِ للصفات والإضافات، فإنّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالغُوا في الإثبات، ليتقرَّرَ في أنفُسِ العوامِّ وجودُ الخالِق؛ فإنّ النفوسَ تأنسُ بالإثبات، فإذا سمِعَ العامّيُّ ما يُوجِبُ النفيَ طردَ عن قلبِهِ[١] الإثبات، فكان أعظمَ ضررٍ عليه، وكان هذا المُنزِّهُ من العُلماءِ ـ على زعمِهِ ـ مُقاوِمًا لإثباتِ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالمحو، وشارِعًا في إبطالِ ما يُفتُون به.

وبيانُ هذا أنّ الله تعالى أخبرَ باستوائه على العرش، فأنِسَتِ النفوسُ إلى إثباتِ الإلهِ ووجُودِه، وقال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقال: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٦]، ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [البينة: ٨]، وأخبر أنّه ينزلُ إلى السماءِ الدنيا[٢]، وقال: «قُلوبُ العِبادِ بين إصبعَينِ من أصابع الرحمن»[٣]، وقال: «كتبَ التوراةَ بيدِه»[٤]، و«كتبَ كِتابًا فهو عِنده فوقَ العرشِ»[٥]، إلى غيرِ ذلك مِمّا يطُولُ ذِكرُه.

فإذا امتلأ العامّيُّ والصبيُّ مِن الإثبات، وكاد يأنسُ مِن الأوصافِ بما

(١) سقطت من (ك، س، م).

(٢) تقدم في الفصل ٤٩.

(٣) سقط «من أصابع الرحمن» من (ر، ق، ص، د، م)، والحديث أخرجه مسلم (٢٦٥٤) من حديث ابن عمرو رضي الله عنهما.

(٤) مسلم (٢٦٥٢)، وأبو داود (٤٧٠١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) البخاري (٣١٩٤)، ومسلم (٢٧٥١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

يفهمُـه الحِسّ، قيـل لـه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، فمحا مِن قلبِهِ ما نقشَهُ الخيال[١]، وتبقى ألفاظُ الإثبات مُتمكِّنة، ولهذا أقرَّ الشرعُ على مِثلِ هذا، فسَمِعَ مُنشِدًا يقول: [الوافر]

.... وفَوقَ العَرشِ رَبُّ العالَمِينا

فضحِـك[٢]. وقال له آخر[٣]: أوَيضحكُ ربُّنا؟ فقال: «نعم»[٤]، وقال: «إنّه على عرشِه هكذا»[٥]. كُلُّ هذا ليُقرِّر الإثباتَ في النفوس.

وأكثـرُ الخلـقِ لا يعرِفُون الإثبـاتَ إلا على ما يعلمُون مِن الشـاهِد، فيقنعُ مِنهـم بذلـك إلى أن يفهمُوا التنزيه، ولهذا صُحِّحَ إسـلامُ مَنِ اعتصمَ مِن القتلِ بالسُّجُود.

فأمّـا إذا ابتُـدِئَ بالعامّيّ الفارغِ مِن فَهم الإثبات، فقُلنا: «ليس في السـماء، ولا علـى العـرش، ولا يُوصَفُ بيدٍ، وكلامُه صِفةٌ قائمةٌ بذاتِه، وليس عِندنا مِنهُ شـيء، ولا يُتصوَّرُ نزولُه»؛ انمحى مِن قلبِهِ تعظيمُ المُصحَف، ولم يترصَّع في سِرِّه إثباتُ إله.

وهذه جِنايةٌ عظيمةٌ على الأنبياء تُوجِبُ نقضَ ما تعِبُوا في بيانِه، ولا يجوزُ لعالِمٍ أن يأتِيَ إلى عقيدةِ عامّيٍّ قد أنِسَ بالإثبات فيُهوِّشُها؛ فإنّه يُفسدُه ويصعبُ صلاحُه.

---

(١) سقطت من (ف).

(٢) رواه الدارمي في الرد على الجهمية (٣٤)، وهو ضعيف.

(٣) سقطت من (ك، س).

(٤) رواه أحمد (١٦١٨٧)، وفيه وكيع بن حدس، وهو مجهول الحال.

(٥) رواه أبو داود (٤٧٢٦) من طريق محمد بن إسحاق، وهو مدلس ولم يصرح بالتحديث.

فأمّا العالِمُ فإنّا قد أمِنّاه؛ لأنّه لا يخفى عليهِ استِحالةُ تجدُّدِ صفة الله تعالى، وأنّهُ لا يجُوزُ أن يكُونَ استوى كما يُعلَم، ولا يجُوزُ أن يكُونَ محمُولًا، ولا أن يُوصَفَ بمُلاصقةٍ ومسٍّ، ولا أن ينتقِل.

ولا يخفى عليه أنّ المُرادَ بتقليبِ القُلوبِ بين أصبعَينِ الإعلامُ بالتحكُّم في القُلُوب؛ فإنّ ما يُديرهُ[1] الإنسانُ بين أصبُعيهِ[2] هُو مُتحكِّمٌ فيهِ إلى الغاية، ولا يحتاجُ إلى تأويلِ مَن قال: «الإصبعُ الأثرُ الحسن، فالقُلُوبُ بين أثرَينِ مِن آثارِ الربوبية، وهما الإقامةُ والإزاغة»، ولا إلى تأويلِ مَن قال: «يداهُ نِعمتاه»؛ لأنّهُ إذا فُهِمَ أنّ المقصُودَ الإثبات ـ وقد حُدِّثنا بما نعقِل، وضُرِبَتْ لنا الأمثالُ بما نعلم، وقد ثبتَ عِندنا بالأصلِ المقطوعِ به أنّه لا يجُوزُ عليهِ ما يعرِفهُ الحِسّ ـ علِمنا المقصُودَ بذِكرِ ذلك.

وأصلَحُ ما نقولُ للعوامّ: أمِرُّوا هذه الأشياءَ كما جاءت، ولا تتعرَّضُوا لتأويلها، وكُلُّ ذلك يُقصَدُ بهِ حِفظُ الإثبات، وهذا الذي قصدَه السلف، وكان أحمدُ يمنعُ من أن يُقال[3]: «لفظي بالقُرآنِ مخلوقٌ أو غيرُ مخلُوق». كُلُّ ذلك ليحملَ على الاتِّباع، وتبقى ألفاظُ الإثباتِ على حالِها.

وأجهلُ الناسِ مَن جاء إلى ما قصدَ النبيُّ ﷺ تعظيمَه، فأضعفَ في النفوس قُوى التعظيم، قال النبيُّ ﷺ: «لا تُسافِروا بالقُرآنِ إلى أرضِ العدو»[4]، ويُشيرُ إلى المُصحَف، ومنعَ الشافِعيُّ أن يحمِلَه المُحدِثُ بعِلاقتِه تعظيمًا له، فإذا جاء

(١) في (ك، ح، س): «يدبره».

(٢) سقط «الإعلام بالتحكم... بين أصبعيه» من (ص).

(٣) رواه عبد الله بن أحمد بن حنبل في السنة (١٧٨).

(٤) البخاري (٢٩٩٠)، ومسلم (١٨٦٩) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

مُتحذلِقٌ فقال: «الكلامُ صِفةٌ قائمةٌ بذاتِ المُتكلِّم»، فمعنى قولِه هذا أنّه ما هاهُنا شيءٌ يُحترَم، فهذا قد ضادَّ بما أتى به مقصُودَ الشرع.

وينبغي أن يفهمَ أوضاعَ الشرعِ ومقاصِدَ الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام، وقد منَعوا من كشفِ ما قد قنع الشرعُ بسَترِه[1]؛ فنهى رسولُ الله ﷺ عنِ الكلامِ في القدَر، ونهى عن الاختلاف؛ لأنّ هذه الأشياءَ تُخرِجُ إلى ما يُؤذي، فإنّ الباحِثَ عنِ القدَرِ إذا بلغَ في فهمِه إلى أن يقولَ: «قضى وعاقَب»، تزلزلَ إيمانُه بالعدل، وإن قال: «لم يُقدِّر ولم يقضِ»، تزلزلَ إيمانُه بالقُدرة والمُلك، فكان الأَولى تركَ الخوضِ في هذه الأشياء.

ولعلَّ قائلًا يقول: هذا منعٌ لنا عن الاطلاعِ على الحقائق، وأمرٌ بالوقوفِ مع التقليد. فأقول: لا، إنّما أُعلِمُكَ أنّ المُرادَ مِنك الإيمانُ بالجُمَل، وما أُمِرتَ بالتنقير، مع أنّ قُوى فهمِكَ تعجِزُ عن إدراكِ الحقائق.

فإنّ الخليلَ عليه الصلاة والسلام قال: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ﴾ [البقرة: ٢٦٠] فأراهُ ميتًا حَيِيَ، ولم يُرِهِ كيف أحياه؛ لأنّ قُواهُ تعجِزُ عن إدراكِ ذلك. وقد كان النبيُّ ﷺ ـ الذي بُعِثَ ليُبيِّنَ للناسِ ما نُـزِّلَ إليهم ـ يقنعُ مِن الناسِ بنفسِ الإقرارِ واعتقادِ الجُمَل.

وكذلك كانتِ الصحابة، فما نُقِلَ عنهم أنّهم تكلَّمُوا في تلاوةٍ ومتلُوّ، وقراءةٍ ومقرُوء، ولا أنّهم قالوا: «استوى» بمعنى: استولى، و«ينزِلُ» بمعنى: يرحم، بل قنعُوا بإثباتِ الجُمَلِ التي تُثبِتُ التعظيمَ عِند النفوس، وكفُّوا كفَّ الخيالِ بقولِه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

---

(١) عن (ف).

ثُـمّ هـذا مُنكَـرٌ ونكيرٌ إنّما يسـألانِ عنِ الأُصُـولِ المُجمَلة، فيقـولان: مَن ربُّك؟ وما دينُك؟ ومَن نبيُّك؟ ومَن فهِمَ هذا الفصلَ سلِمَ مِن تشبيهِ المُجسِّمة، وتعطيلِ المُعطِّلة، ووقفَ على جادّةِ السلفِ الأُوَل، والله الموفق.

٦٢- فَصْلٌ
[نعمةُ السمع والبصر]

قـرأتُ هـذه الآيـة: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ [الأنعام: ٤٦] فلاحَـت لـي منهـا إشـارة، كِـدتُ أطيـشُ مِنهـا، وذلك أنّـه إن كان عنى بالآيـة نفسَ السـمعِ والبصر؛ فإنّ السـمعَ آلةٌ لإدراكِ المسـموع، والبصـرَ آلةٌ لإدراكِ المُبصَـرات، فهما يعرِضانِ ذلك على القلبِ فيتدبّرُ ويعتبر، فإذا عُرِضَتِ المخلوقاتُ على السمعِ والبصرِ، فأوصـلا إلـى القلبِ أخبارَها، مـن أنّها تدلُّ على الخالِـق، وتحمِلُ على طاعةِ الصانع، وتُحذِّرُ مِن بطشِهِ عِند مُخالفتِه، وإنْ عنى معنى السمعِ والبصر؛ فذلك يكُونُ بذُهُولِهما عن حقائقِ ما أدركا شُـغُلًا بالهوى، فيُعاقَبُ الإنسـانُ بسـلبِ معاني تلك الآلات، فيرى وكأنّه ما رأى، ويسمعُ وكأنّه ما سمِع، والقلبُ ذاهلٌ عمّـا يتـأذّى به، فيبقى الإنسـانُ خاطِئًا على نفسِـه، لا يدري ما يُـرادُ به، لا يُؤثِّرُ عِنـده أنّـه يبلـى، ولا تنفعُـه موعِظـةٌ تُجلى، ولا يـدري أين هو؟ ولا مـا المُرادُ مِنه؟ ولا إلى أين يُحمَل؟ وإنّما يُلاحِظُ بالطبعِ مصالِحَ عاجِلتِه، ولا يتفكَّرُ في خُسرانِ آجِلتِه، لا يعتبرُ برفيقِه، ولا يتّعظُ بصديقِه، ولا يتزوَّدُ لطريقِه، كما قال الشاعر: [البسيط]

النـاسُ في غَفلةٍ والمَوتُ يُوقِظُهم ... وما يُفيقُـونَ حَتّى يَنفَـدَ العُمُرُ

يُشَـيِّعُون أهالِيهِـم بجَمعِهِـمُ ... ويَنظُـرُونَ إلى ما فيهِ قد فَتَرُوا[1]
ويَرجِعُـونَ إلى أحـلامِ غَفلَتِهِم ... كَأنّهُـم ما رأوا شَـيئًا ولا نَظَرُوا

وهـذه حالـةُ أكثـرِ الناس، فنعُوذُ باللهِ من سـلب فوائـدِ الآلات؛ فإنّها أقبحُ الحالات.

٦٣- فَصْلٌ
[ذمُّ الهوى]

نظـرتُ فيما تكلَّم به الحكماءُ في العِشـق وأسـبابه وأدويتـه، وصنَّفتُ في ذلـك كِتابًا سـمَّيتُه بـ«ذمّ الهـوى»، وذكرتُ فيه عنِ الحُكماء أنّهم قالوا: سـببُ العشقِ حركةُ نفسٍ فارِغة، وأنّهم اختلفُوا؛ فقال قومٌ منهم: لا يعرِضُ العشقُ إلا لظرافِ الناسِ، وقال آخرُون: بل لأهلِ الغفلةِ مِنهم عن تأمُّلِ الحقائق.

إلا أنّه خطر لي بعد ذلك معنًى عجيبٌ أشـرحُه هاهُنا، وهو أنّه لا يتمكَّنُ العشـقُ إلا مـع واقِـفٍ جامِـد، فأمّا أربـابُ صُعودِ الهِمـم فإنّها كُلَّمـا تخايلَت مـا تُوجِبُـه المحبّةُ، فلاحَت عُيوبُه لهـا إمّا بالفكرِ فيه أو بالمُخالطة له، تسـلَّت وتعلَّقت بمطلُوبٍ آخرَ. فلا يقِفُ على درجةِ العشـقِ المُوجِبِ للتمسُّكِ بتلك الصُّورة، العامي عن عُيوبها إلا جامِدٌ واقِف.

وأمّـا أربـابُ الأنفةِ مِن النقائـص فإنّهم أبدًا في الترقِّـي، لا يصدُّهم صادٌّ، فـإذا علِقـتِ الطباعُ بمحبّةِ شـخصٍ لم يبلُغُوا مرتبةَ العشـقِ المُسـتأثِر، بل رُبّما مالُوا ميلًا شديدًا؛ إمّا في البدايةِ لقِلّة التفكُّر، أو لقلّةِ المُخالطةِ والاطلاعِ على العيـوب، وإمّا لتشـتُّتِ بعـضِ الخِـلالِ الممدوحةِ بالنفُـوس مِن جِهةِ مُناسِـبةِ

(١) في (د): «قبروا».

وقعَت بين الشخصَين - كالظريفِ مع الظريفِ والفطِنِ مع الفطِنِ - فيُوجِبُ ذلك المحبّة، فأمّا العشقُ فلا، فهم أبدًا في السير[١]، فلا يُوقَف، وإبلُ الطبع تتبعُ حادي الفهم؛ فإنّ للطبعِ مُتعلَّقًا لا نجدُه في الدنيا، لأنّه يرومُ ما لا يصِحُّ وُجُودُه مِن الكمالِ في الأشخاص، فإذا تلمَّحَ عُيُوبَها نفرَ.

وأمّا مُتعلَّقُ القلوبِ من محبّةِ الخالِقِ البارئ فهو مانِعٌ لها مِن الوقوفِ مع سِواه، وإن كانت محبّتُه لا تُجانِسُ محبّةَ المخلُوقين، غيرَ أنّ أربابَ المعرِفة وَلْهى[٢]، قد شغلَهم حُبُّه عن حُبِّ غيرِه، وصارت الطباعُ مُستغرقةً[٣] لقوّةِ معرِفةِ القلوبِ به[٤] ومحبّتِها، كما قالت رابعةُ[٥]: [الطويل]

أُحِبُّ حَبِيبًا لا أُعابُ بحُبِّهِ وأحبَبتُمُ مَن في هَواهُ عُيُوبُ

ولقد رُوِيَ عن بعضِ فُقراءِ الزُّهّاد أنّه مرَّ بامرأةٍ فأعجبَتْه، فخطبها إلى أبيها، فزوَّجه، وجاء بهِ إلى المنزِل، وألبسهُ غيرَ[٦] خُلْقانِه، فلمّا جنَّ الليلُ صاحَ الفقير: ثيابي ثيابي[٧]، فقدتُ ما كُنتُ أجِدُه.

فهذه عثرةٌ في طريقِ هذا الفقير، دلَّتهُ على أنّه مُنحرِفٌ عنِ الجادّة، وإنّما تعتري هذه الحالاتُ أربابَ المعرِفةِ بالله عز وجل وأهلَ الأنفة من الرذائل. وقد قال ابنُ مسعود: «إذا أعجبتْ أحدَكُم امرأةٌ فليتذكَّرْ مثانتَها»[٨].

(١) في (ك، ح، ص، د، م): «اليسير».
(٢) الوَلَه: مرتبة من مراتب الحب.
(٣) هنا سقطت لوحة من (ر).
(٤) سقطت من (ح، ص، م).
(٥) انظر: مرآة الزمان (١٧: ٣٥٩).
(٦) في (ف): «ألبسه خير».
(٧) سقط من (ق، ص).
(٨) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (١٨٠٩٢) من قول إبراهيم النخعي، وقوله: «مثانتها» كذا في النسخ، والذي في المصادر: «مناتنها».

ومِثالُ هذه الحالِ أنّ العقلَ يغيبُ عِند استحلاء تناولِ المُشتهى مِن الطعامِ عن التفكُّر في تقليبه في الفمِ وبلعِه، ويذهلُ عِند الجِماعِ عن مُلاقاة القاذُورات لقوّةِ غلبة الشهوة، وينسى عِند بلعِ الرُّضابِ استِحالتَه عنِ الغذاء، وفي تغطيةِ تلكَ الأحوالِ مصالح، إلا أنّ أربابَ اليقظةِ يعتريهم من غيرِ طلبٍ لها في غالبِ أحوالِهم، فيُنغِّصُ عليهم لذيذَ العيش، ويُوجِبُ الأنفةَ مِن رذالةِ الهوى.

وعلى قدرِ النظر في العواقِبِ يخِفُّ العِشقُ عن قلبِ العاشِق، وعلى قدرِ جُمودِ الذهنِ يقوى القلق. قال المُتنبي[1]: [السريع]

لَو فَكَّرَ العاشِقُ في مُنتَهى حُسنِ الذي يَسْبِيهِ لَم يَسْبِهِ

ومجموعُ ما أردتُ شرحَه أنّ طباعَ المُتيقِّظِين تترقّى، فلا تقفُ مع شخصٍ مُستحسَن، وسببُ ترقِّيها الفكرُ في نقصِ ذلك الشخصِ وعُيوبِه، أو في طلبِ ما هو أتمُّ مِنه، وقلوبُ العارِفين تترقّى إلى معرُوفِها، فتعبُرُ في معبرِ الاعتبار.

فأمّا أهلُ الغفلةِ فجُمودُهم في الحالتَين، وغفلتُهم عن المقامَين، يُوجِبُ أسرَهم وقسرَهم وحيرتَهم[2].

٦٤- فَصْلٌ
[بين منزلتَي الخوف والرجاء]

عرضَ لي أمرٌ يحتاجُ إلى سُؤالِ الله عز وجل ودُعائه، فدعوتُ وسألتُ، فأخذ بعضُ أهلِ الخيرِ يدعُو معي، فرأيتُ نوعًا من أثرِ الإجابة، فقالت لي نفسي: هذا بسُؤالِ ذلك العبدِ لا بسُؤالِك. فقلتُ لها: أمّا أنا فإنّي أعرفُ من

---

(١) ديوان المتنبي (ص٥٥٨).

(٢) في (ف، ق): «وحسرتهم».

نفسي مِن الذنوبِ والتقصير ما يُوجِبُ منعَ الجواب، غيرَ أنّه يجُوزُ أن يكُونَ أنا الذي أُجبتُ؛ لأنّ هذا الداعيَ الصالِحَ سليمٌ مما أظنُّه مِن نفسي؛ إذ معي انكِسارُ تقصيري، ومعهُ الفرحُ بمُعاملتِه، ورُبّما كان الاعترافُ بالتقصيرِ أنجحَ في الحوائج، على أنّني أنا وهو نطلُبُ مِن الفضل لا بأعمالِنا، فإذا وقفتُ أنا على قدمِ الانكسارِ مُعترِفًا بذُنُوبي، وقلتُ: أعطُوني بفضلِكم، فما لي في سواكَ شيءٌ آمَنُ به[1]. ورُبّما تلمَّحَ ذاك حُسنَ عملِه، وكان صادًّا له. فلا تكسِريني أيّتها النفس، فيكفيني كسرُ عِلمي بي لي.

ومعي مِن العِلمِ المُوجِبِ للأدب، والاعترافِ بالتقصير، وشدّةِ الفقرِ إلى ما سألتُ، ويقيني بفضلِ المطلُوبِ منه؛ ما ليس مع ذاك العابد، فباركَ الله له[2] في عبادتِه، فرُبّما كان اعترافي بتقصيري أوفى.

٦٥- فَصْلٌ
[مراتب الأفهام]

قرأتُ من غرائبِ العلم، وعجائبِ الحِكَمِ على بعض مَن يدَّعي العلم، فرأيتُه يتلوّى مِن سماع ذلك، ولا يطَّلعُ على غَورِه، ولا يَشرَئِبُّ[3] إلى ما يأتي، فصدَفتُ عن إسماعِه[4] شيئًا آخرَ[5]، وقلتُ: إنّما يصلحُ مثلُ هذا لذي لُبٍّ يتلقّاه تلقِّيَ العطشانِ الماءَ.

---

(١) في (د): «فما في سؤالي شيء أجبت به»، والمثبت عن (ف، م).

(٢) عن (ف).

(٣) يشرئب: يتطلّع.

(٤) هنا نهاية السقط المشار إليه في (ر) في الفصل ٦٣.

(٥) سقطت من (ر، ق).

ثُمّ أخذتُ من هذا إشارة، فقلتُ: لو كان هذا يفهمُ ما جرى، ومدحَني لحُسنِ ما صنعتُ، لعظُمَ قدرُه عِندي، ولأريتُه محاسِنَ مجمُوعاتي وكلامي، لكِنّه لمّا لم أرهُ أهلًا صرفتُها عنه، وصدَفتُ[1] بنظري إليه.

وكانتِ الإشارةُ أنّ الله عز وجل قد صنَّفَ هذه المخلُوقاتِ فأحسنَ التركيب، وأحكمَ الترتيب، ثُمّ عرضَها على الألباب، فأيُّ لُبٍّ أوغَلَ في النظرِ مدحَ على قدرِ فهمِه، فأحبَّه المُصنِّف.

وكذلك أنزلَ القُرآنَ يحتوي على عجائبِ الحِكَم، فمَن فتَّشَهُ بيدِ الفَهم، وحادثَه في خَلوة الفكر، استجلبَ رِضا المُتكلِّم به، وحظيَ الزُّلفى لديه، ومَن كان للذهنِ مُستغرِقَ الفهمِ بالحسيّات صُرِفَ عن ذلك المَقام؛ قال الله عز وجل: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

٦٦- فَصْلٌ

[ثمرة طول العُمر]

دعوتُ يومًا فقلتُ: «اللهمَّ بلِّغني آمالي من العلم والعمل، وأطِل عُمري لأبلُغَ ما أُحِبُّ من ذلك»، فعارضَني وسواسٌ من إبليسَ، فقال: ثُمّ ماذا؟ أليس الموت؟ فما الذي ينفعُ طُولُ الحياة؟ فقُلتُ له: يا أبلهُ، لو فهمتَ ما تحت سُؤالي علمتَ أنّه ليس بعبثٍ، أليس في كُلِّ يومٍ يزيدُ عِلمي ومعرِفتي؛ فتكثُرَ ثِمارُ غَرسي، فأشكرَ بَذري يومَ حصادي؟

أفيسرُّني أنّني مِتُّ مُنذُ عِشرين سنة؟ لا والله؛ لأنّي ما كُنتُ أعرِفُ الله تعالى عُشرَ معرِفتي به اليوم، وكلُّ ذلك ثمرةُ الحياةِ التي فيها اجتنيتُ أدِلّةَ

---

(١) في (ك، س، ق): «وصرفت».

الوحدانيـة، وارتقيتُ عن حضيضِ التقليدِ إلى يَفاعِ[1] البصيرة، واطَّلعتُ على عُلُـومٍ زاد بهـا قدري، وتجوهرَتْ بها نفسـي، ثُمّ زاد غَرسـي لآخِرتي، وقوِيَتْ تِجارتي في إنقاذ المُباضِعِين من المُتعلِّمين[2].

وقـد قـال لسـيِّدِ المُرسـلين ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، وفـي صحيح مُسلم من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنّه قال: «لا يزيـدُ المُؤمِـنَ عُمُرُه إلا خيرًا»[3]، وفي حديثِ جابـرِ بنِ عبدِ الله رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنّ مِن السعادةِ أن يطولَ عُمُرُ العبدِ ويرزقَه الله عز وجل الإنابة»[4]. فيا ليتني قدرتُ على عُمُرِ نُوحٍ عليه السلام، فإنّ العِلمَ كثير، وكُلَّما حصلَ مِنه حاصلٌ رفَع ونفَع.

٦٧- فَصْلٌ
[مُساكنة الأسباب تُوجِبُ المعاقبة]

قلـوبُ العارفيـن يُغارُ عليهـا من الأسـباب، وإن كانت لا تُسـاكنُها؛ لأنّها لمّـا انفـردَت لمعرفتِها انفردَ لهـا بتولِّي أمُورِها، فإذا عرضت بالأسـباب مُحِيَ أثـرُ الأسـبابِ ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾ [التوبة: ٢٥].

وتأمَّـل في حالِ يعقوبَ وحذرِه على يُوسُـفَ عليهما السـلام، حتّى قال: ﴿أَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٣] فقالُـوا: ﴿أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٧]،

---

(١) اليفاع: المشرف من الأرض والجبل.

(٢) المباضعون من المتعلمين: الذين يضاربون بعلمهم.

(٣) مسلم (٢٦٨٢).

(٤) رواه أحمد (١٤٥٦٤)، فيه الحارث بن أبي يزيد، وهو مجهول الحال.

فلمّا جاء أوانُ الفرجِ خرج يهوذا بالقميصِ، فسبقَته الريحُ ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٩٤].

وكذلك قولُ يُوسُفَ عليه السلام للساقي: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢] فعُوقِبَ بأن لَبِثَ سبعَ سِنين، وإن كان يوسفُ عليه السلام يعلمُ أنّه لا خلاصَ إلا بإذنِ الله تعالى، وأنّ التعرُّضَ بالأسبابِ مشروع، غيرَ أنّ الغَيرةَ أثَّرتِ العُقُوبة.

ومن هذا قِصّةُ مريمَ عليها السلام ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: ٣٧]، فغار المُسبِّبُ من مُساكنةِ الأسباب: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: ٣٧].

ومن هذا القبيل ما يُروى عنِ النبيِّ ﷺ أنّه قال: «أبى الله أن يرزُقَ عبدَهُ المُؤمِنَ إلا مِن حيثُ لا يحتسِبُ»[(١)].

والأسبابُ طريق، ولا بدَّ من سلوكها، والعارفُ لا يُساكنُها، غير أنه يُجَلَّى له أمرُها ما لا يُجَلَّى لغيره من أنها لا تُساكَن، ورُبّما عُوقِبَ إن مالَ إليها، وإن كان ميلُه لا يقبلُه، غيرَ أنّه أقلُّ الهفواتِ يُوجِبُ الأدب. «لَأَطُوفَنَّ الليلةَ على مئةِ امرأةٍ تلدُ كُلُّ واحِدةٍ مِنهنَّ غُلامًا، ولم يقُل: إن شاء الله، فما حملَت إلا واحدة، جاءت بشِقِّ غلام»[(٢)].

ولقد طرقَتني حالةٌ أوجبَتِ التشبُّثَ ببعض الأسباب، إلا أنّه كان من ضرورةِ ذلك لقاءُ بعضِ الظَّلَمة، ومُداراتُه بكلِمة، فبينا أنا أُفكِّرُ في تلك الحالِ

---

(١) رواه البيهقي في الشعب (١١٥٢) وقال: وهذا حديث لا أحفظه على هذا الوجه إلا بهذا الإسناد، وهو ضعيف بمرة.

(٢) البخاري (٤٩٤٤)، ومسلم (١٦٥٤).

دخل عليَّ قارئٌ فاستفتح، فتفاءلتُ بما يقرأ، فقرأ: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣]، فبُهِتُّ مِن إجابتي على خاطري، وقلتُ لنفسي: اسمعي فإنّني طلبتُ النصرَ في هذه المُداراة، فأعلمَني القُرآنُ أنّني إذا ركنتُ إلى ظالمٍ فاتَني ما ركنتُ لأجلِه من النصر. فيا طُوبى لمَن عرَفَ المُسبِّبَ وتعلَّقَ به؛ فإنّها الغايةُ القُصوى، فنسألُ الله أن يرزُقنا.

٦٨- فَصْلٌ
[درجاتُ الإيمان]

المؤمنُ لا يبالغُ في الذنوب، وإنما يقوى الهوى، وتتوقَّدُ نيرانُ الشهوة فيتحدَّر، وله مرادٌ لا يعزمُ المُؤمِنُ على مُواقعتِه، ولا على العَودِ بعد فراغِه، ولا يستقصي في الانتقام إن غَضِب، وينوي التوبةَ قبلَ الزلل.

وتأمَّلْ إخوةَ يُوسُفَ عليهم السلام؛ فإنّهم عزمُوا على التوبةِ قبل إبعادِ يُوسُف، فقالُوا: ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾، ثُمّ زاد ذلك تعظيمًا، فقالُوا: ﴿أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾، ثُمّ عزمُوا على الإنابةِ فقالُوا: ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ٩]، فلمّا خرجُوا به إلى الصحراء همُّوا بقتلِه بمقتضى ما في القلوب من الحسد، فقال كبيرُهم: ﴿لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ [يوسف: ١٠] ولم يُرِد أن يموتَ[١]، بل ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾، فأجابُوا إلى ذلك.

والسببُ في هذه الأحوال أنّ الإيمانَ على حسبِ قُوّته؛ فتارةً يردُّها عِند الهمّ، وتارةً يضعُف فيردُّها عِند العزم، وتارةً عن[٢] بعضِ الفعل، فإذا غلبتِ

---

(١) سقطت من (ح، ص).

(٢) كتب على حاشية (ك، ح): «لعله: عند».

الغفلـة، وواقـعَ الذنـب، فترَ الطبـع، فنهضَ الإيمـانُ العدل، فيُنغِّـصُ[1] بالندم أضعافَ ما التذَّ.

٦٩- فصل

[غُرور العِلم]

أفضـلُ الأشـياء التزيُّدُ من العِلم، فإنّه مَنِ اقتصرَ علـى ما يعلمُهُ فظنَّهُ كافيًا اسـتبدَّ برأيـه، وصار تعظيمُهُ لنفسِـه مانِعًا له مِن الاسـتفادة والمُذاكـرة لِيَبينَ له خطـؤه، ورُبّمـا كان مُعظَّمًـا في النفُوس، فلم يُتجاسَـرْ على الـردِّ عليه، ولو أنّه أظهرَ الاستفادةَ لأُهدِيَتْ إليه مَساوِيه، فعاد عنها.

ولقـد حكـى ابنُ عَقيلٍ عن أبي المعالـي الجُوينيِّ أنّه قـال: «إنّ الله تعالى يعلمُ جُمَلَ الأشـياءِ ولا يعلمُ التفاصيل»! ولا أدري أيُّ شُـبهةٍ وقعَت في وجهِ هذا المِسكينِ حتّى قال هذا!

وكذلك أبو حامِدٍ حين قال: «النزُولُ التنقُّل، والاسـتواءُ مُماسّـة». وكيف أصِـفُ هذا بالفقـهِ والزُّهدِ وهو لا يدري ما يجُوزُ على الله مِمّا لا يجُوز؟! ولو أنّه تركَ تعظيمَ نفسِه لردَّ صِبيانُ الكُتّابِ رأيَه عليه، فبان له صِدقُه.

ومن هذا الفنِّ: أبو بكرِ بنُ مِقسَـمٍ[2]؛ فإنّه عمِل كِتابَ «الاحتجاج للقُرّاءِ» فأتى فيهِ بفوائدَ، إلا أنّه أفسدَ عِلمَه بإجازتِه أن يُقرَأ بما لم يُقرَأ به، ثُمّ تفاقمَ ذلك مِنه، حتّى أجاز ما يُفسِـدُ المعنى مِثلَ قولِه تعالـى: ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ

---

(١) في (د): «فينقص».

(٢) هو العلامة، المقرئ، أبو بكر محمد بن الحسن بن مقسم البغدادي العطار، شيخ القراء، تُوفي سنة ٣٥٤هـ. سير أعلام النبلاء (١٦: ١٠٥). والخبر في المنتظم (١٤: ١٧١)، وبغية الوعاة (١: ٨٩).

نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠] فقال: «يصلُحُ أن يُقال هُنا: (نُجُبًا)؛ أي: خلصُوا كِرامًا بُرآءَ مِن السرقة».

وهذا سُوءُ فهم للقِصّة؛ فإنّ الذي نُسِبَ إلى السرقةِ وظهرت[1] معه ما خلَص، فما الذي ينفعُ خلاصُهم؟! وإنّما سِيقَت القِصّةُ ليُبيِّنَ أنّهم انفردُوا وتشاوروا فيما يصنعُون، وكيف يرجِعون إلى أبيهم وقدِ احتُبِس أخُوهم، فأيُّ وجهٍ للنَّجابةِ ههنا؟!

ومَن تأمَّلَ كِتابَه رأى فيهِ من هذا الجِنسِ ما يزيدُ على الإحصاءِ أكثرَ مِن هذا الفنِّ القبيح، ولو أنّه أصغى إلى عُلماءِ وقتِه، وتركَ تعظيمَ نفسِه، لبانَ له الصواب، غيرَ أنّ اقتصارَ الرجُلِ على عِلمِه إذا مازجَهُ نوعُ رُؤيةٍ للنفسِ، حَبْسٌ عن إدراكِ الصواب، نعُوذُ بالله مِن ذلك.

٧٠- فَصْلٌ

[الإدلال بالعبادة]

تأمّلتُ قوله عز وجل: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١٧]، فرأيتُ فيهِ معنًى عجيبًا، وهو أنّهم لمّا وُهِبَت لهم العُقُول، فتدبَّرُوا بها عيبَ الأصنام، وعلِمُوا أنّها لا تصلحُ للعِبادة، فوجَّهوا العِبادةَ إلى مَن فطرَ الأشياء؛ كانت هذه المعرِفةُ ثمرةَ العقلِ الموهُوبِ لهم الذي بهِ باينوا البهائم، فإذا آمنُوا بفعلِهم الذي ندبَ إليهِ العقلُ الموهُوبُ فقد جهِلُوا قدرَ الموهُوب، وغفلُوا عمَّن وهبَ، وأيُّ شيءٍ لهم في الثمرةِ، والشجرةُ ليست مِلكًا لهم؟!

---

(١) في (ح، ص، د): «فظهرت».

فعلى هـذا كُلُّ مُتعبِّدٍ ومُجتهدٍ في عِلمٍ وعملٍ، إنّما رأى بنُورِ اليقظةِ وقُوّةِ الفهـمِ والعقـلِ صوابَ ما سـلك(١)، فوقـعَ على المطلُـوب، فينبغـي أن يُوجِّهَ الشُّكرَ إلى مَن بعثَ له في ظلامِ الطبعِ القَبَسَ.

ومن هذا الفنِّ حديثُ الثلاثةِ الذين دخلُوا الغار، فانحطَّتْ عليهم صخرة، فسدَّتْ بابَ الغار، فقالوا: تعالَوا نتوسَّلْ بصالحِ أعمالِنا، فقال كُلٌّ مِنهم: فعلتُ كذا وكذا(٢).

وهـؤُلاء إن كانـوا لاحظُـوا نِعمـةَ الواهِبِ للعِصمـةِ عنِ الخطأ، فتوسَّـلُوا بإنعامِـهِ عليهـم الـذي أوجبَ تخصيصَهم بتلـكَ النعمةِ عن أبناءِ جِنسِـهم، فبه توسَّلُوا(٣) إليه، وإن كانوا لاحظُوا أفعالَهم، فلمحُوا جزاءَها، ظنًّا مِنهم أنّهم هم الذيـن فعلُـوا، فهم أهـلُ غَيبةٍ لا حُضور، ويكونُ جوابُ مسـألتِهم لقطعِ مِنَنِهم الدائمة.

ومِثلُ هذا رُؤيةُ المُتّقي تقواه، حتّى إنّه يرى أنّه أفضلُ مِن كثيرٍ مِن الخَلق، ورُبّما احتقرَ أهلَ المعاصي، وتشمَّخوا(٤) عليهم.

وهـذه غفلـةٌ في طريـقِ السُّـلُوك، ورُبّما أخرَجَـتْ، ولا أقولُ لـك: خالِطِ الفُسّاقَ احتقارًا لنفسِك، بل اغضَبْ عليهم، وأعرِضْ عنهم في الظاهِر، وتلمَّحْ جريانَ الأقدارِ عليهم في الباطِن(٥). فأكثرُهم لا يعرفُ لمَن عصى، وجمهورُهم

---

(١) «ما سلك» عن (ر).

(٢) البخاري (٢٢١٥)، ومسلم (٢٧٤٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) كتب على حاشية (ك): «لعله: توصلوا».

(٤) في (ط): «وتشمَّخ».

(٥) سقط «وأعرض عنهم... عليهم في الباطن» من (ص).

لا يقصِدُ العِصيان، بل يُريدُ مُوافقةَ هواه، وعزيزٌ عليهِ أن يعصي، وفيهم مَن غلبَ عليهِ تلمُّحُ الحِلم والعفو، فاحتقرَ ما يأتي لقوّةِ يقينِه بالعفو. وهذه كُلّها ليست باعتذارٍ لهم، ولكِن تلمَّحْها أنتَ يا صاحِبَ التقوى، واعلَم أنّ الحُجّةَ عليكَ أوفى مِنَ الحُجّةِ عليهم؛ لأنّكَ تعرِفُ مَن تعصي، وتعلمُ ما تأتي.

بلِ انظُر إلى تقليبِ القُلُوبِ بين إصبعَين[1]، فرُبّما دارتِ الدائرةُ فصِرتَ المُنقطِع، ووُصِلَ المقطوع. فالعجبُ مِمّن يُدِلُّ[2] بخيرٍ يعملُه، وينسى مَن أنعمَ ووفَّق.

٧١- فَصْلٌ
[الردُّ على المُبتدِعة]

اعلم أنّ شرعَنا مضبوطُ الأصول، محروسُ القواعد، لا خللَ فيه ولا دخَلَ، وكذلك كلُّ الشرائع، إنما الآفةُ تدخلُ مِن المُبتدِعين في الدينِ أو الجُهّالِ؛ مِثل ما أُثِر عن النصارى حين رأوا إحياءَ الموتى على يدِ عيسى عليه السلام، فتأمَّلُوا الفِعلَ الخارِقَ للعادةِ الذي لا يصلُحُ للبشر، فنسبُوا الفاعِلَ إلى الإلهية، ولو تأمَّلُوا ذاتَه لعلِمُوا أنّها مُركَّبةٌ على النقائصِ والحاجات، وهذا القدرُ يكفي في عدم صلاحِ إلهيّتِه، فيُعلَمُ حينئذٍ أنّ ما جرى على يدَيهِ فِعلُ غيرِه.

وقد يُؤثّرُ ذلك في الفُرُوعِ مِثل ما رُوِيَ أنّه فُرِضَ على النصارى صومُ شهر، فزادُوا عِشرين يومًا، ثُمّ جعلُوهُ في فصلٍ مِن السَّنةِ بآرائهِم. ومن هذا الجِنس تخبيطُ اليهود في الأُصُولِ والفُرُوع.

---

(١) تقدم في الفصل ٦١.

(٢) أدلّ بعمله: أُعجِبَ به.

وقد قاربَ الضُّلَّالُ في أُمّتِنا هذه المسالِكَ، وإن كان عُمُومُهم قد حُفِظَ مِن الشركِ والشكِّ والخِلافِ الظاهرِ الشنيع؛ لأنّهم أعقلُ الأُممِ وأفهمُها، غيرَ أنّ الشيطانَ قاربَ بهم، ولم يطمعْ في إغراقِهم، وإن كان قد أغرقَ بعضَهم في بحارِ الضلال.

فمِن ذلك أنّ الرسولَ ﷺ جاء بكتابٍ عزيزٍ مِن الله عز وجل، قيل في صِفتِه: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وبيَّنَ ما عساهُ يُشكِلُ مِمّا يُحتاجُ إلى بيانِه بسُنَّتِه، كما قيل له: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، فقال بعد البيان: «تركتُكُم عليها بيضاءَ نقيّة»[١]، فجاء أقوامٌ، فلم يقنَعُوا بتبيينِه، ولم يرضَوا بطريقةِ أصحابِه، فبحثُوا، ثُمّ انقسمُوا: فمِنهم مَن تعرَّضَ لِما تعِبَ الشرعُ في إثباتِه في القُلُوب، فمحاهُ مِنها؛ فإنّ القُرآنَ والحديثَ يُثبتانِ الإلهَ عز وجل بأوصافٍ تُقرِّرُ وجُودَهُ في النفوس كقولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقولِه تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقولِه تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه: ٣٩]، وقولِ النبيِّ ﷺ: «ينزِلُ الله إلى السماءِ الدنيا»،[٢] و«يبسُطُ يدَه لمُسيءِ الليلِ والنهارِ»[٣]، و«يضحكُ»[٤]، و«يغضبُ».

وكُلُّ هذه الأشياء، وإن كان ظاهِرُها يُوجِبُ تخايُلَ التشبيه، فالمُرادُ مِنها إثباتُ موجُودٍ، فلمّا علمَ الشرعُ ما يطرُقُ القُلُوبَ مِن التوهُّماتِ عِند سماعِها، قطعَ ذلك بقولِه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

---

(١) رواه أحمد (١٥١٥٦) فيه مجالد، وهو ضعيف.

(٢) تقدم في الفصل ٤٩.

(٣) مسلم (٢٧٥٩) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم (١٨٧).

ثُـمّ إنّ هـؤُلاءِ القومَ عادُوا إلى القُـرآنِ الذي هو المُعجِزُ الأكبر، وقد قصدَ الشـرعُ تقريـرَ وجُـودِه، فقـال: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَـٰهُ﴾ [القدر: ١]، ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]، ﴿فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ﴾ [القلم: ٤٤]، ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ [الأنعام: ٩٢]، وأثبتَـه فـي القُلـوبِ بقولِه تعالـى: ﴿فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، وفـي المصاحِـفِ بقولِـه تعالـى: ﴿فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ [البروج: ٢٢]، وقولِ الرسولِ ﷺ: «لا تُسافروا بالقُرآنِ إلى أرضِ العدو»(١).

فقـال قومٌ مِن هؤُلاء: مخلوق. فأسـقطُوا حُرمتَه مِن النفُـوس، وقالُوا: لم ينـزِلْ ولا يُتصـوَّرُ نزُولُـه، وكيـف تنفصـلُ الصفةُ عـن الموصُـوف، وليس في المُصحَفِ إلا حِبرٌ وورقٌ؟ فعادُوا على ما تعبَ الشارِعُ في إثباتِه بالمحو.

كما قالوا: إنّ الله عز وجل ليس في السماء، ولا يُقال: استوى على العرش، ولا: ينزِلُ إلى السماءِ الدنيا، بل ذاك رحمتُه، فمَحَوا مِن القُلُوبِ ما أُريدَ إثباتُه فيها، وليس هذا مُرادَ الشارِع.

وجاء آخرُون فلم يقِفُوا على ما حدَّه الشرع، بل عمِلُوا فيه بآرائهم، فقالوا: الله على العرش، ولم يقنَعُوا بقولِه: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ودفنَ لهم أقوامٌ مِن سلفِهم دفائن، ووضعَت لهم الملاحِدةُ أحاديثَ، فلم يعلمُوا ما يجُوزُ عليه مِمّا لا يجُوز، فأثبتُوا بها صِفاته، وجُمهُورُ الصحيحِ مِنها آتٍ علـى توسُّـعِ العـرب، فأخـذُوهُ هم على الظاهِـر، فكانوا في ضـربِ المَثَلِ كجُحـا، فـإنّ أُمَّـهُ قالت له: احفظِ البابَ، فقلعَه ومشـى به، فأُخِـذَ ما في الدار، فلامَته، فقال: إنّما قُلتِ: احفظِ البابَ، وما قُلتِ: احفظِ الدار!

(١) تقدم في الفصل ٦١.

ولمّا تخايلُوا صُورةً عظيمةً على العرش، أخذُوا يتأوّلُون ما يُنافي وجُودَها على العرش، مثل قوله: «ومن أتاني يمشي أتيتُه هَرولةً»(١)، فقالوا: ليس المُرادُ به دُنُوَّ الذات، وإنّما المُرادُ قُربُ المنزِلِ والحظِّ. وقالوا في قولِه تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ﴾ [البقرة: ٢١٠]: هو محمُولٌ على ظاهرِها في مجيء الذات، فهم يُحِلُّونه عامًا ويُحرِّمُونه عامًا!

ويُسمُّون الإضافاتِ إلى الله تعالى صِفاتٍ؛ فإنّه قد أضاف إليهِ النفخَ والرُّوح، وأثبتُوا خلقَه باليد، فلو قالوا: خلقَه؛ لم يُمكِن إنكارُ هذا، بل قالوا: هي صِفةٌ تولّى بها خلقَ آدمَ دُونَ غيرِه، وإلا(٢) فأيُّ مزيّةٍ كانت تكونُ لآدم؟! فشغلَهم النظرُ في فضيلةِ آدمَ عنِ النظرِ إلى ما هو يليقُ بالحقِّ مِمّا لا يليقُ به؛ فإنّه لا يجُوزُ عليهِ المسُّ، ولا العملُ بالآلات، وإنّما آدمُ إضافتُه إليه.

فقالُوا: نُطلِقُ على الله تعالى اسمَ الصُّورةِ لقولِه: «خلقَ آدمَ على صُورتِه»، وفهمُوا هذا الحديث، وهو قولُه عليه الصلاة السلام: «إذا ضربَ أحدُكُم فليجتنِبِ الوجهَ، ولا يقُل: قبَّحَ الله وجهَك، ولا وجهًا أشبهَ وجهَك، فإنّ الله خلقَ آدمَ على صُورتِه»(٣).

فلو كان المُرادُ به الله عز وجل لكانَ وجهُ الله سُبحانهُ يُشبِهُ وجهَ هذا المُخاصِم؛ لأنّ الحديثَ كذا جاء: «ولا وجهًا أشبهَ وجهَك».

---

(١) البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

(٢) عن (ف).

(٣) صحيح من غير هذه الزيادة: «ولا يقل: قبّح الله وجهك، ولا وجهًا أشبه وجهك»، فقد تفرّد بها بلفظ قريب ابنُ عجلان، عن المقبري، عن أبي هريرة، وبغير هذه الزيادة رواه البخاري (٢٥٦٠)، ومسلم (٢٦١٢).

ورَوَوا حديثَ خولةَ بنتِ حكيم: «وإنّ آخِرَ وطئةٍ وطِئها الله بوَجٍّ»[١]، وما علمُوا النقلَ ولا السَّبرَ، وقولَ الرسولِ ﷺ: «اللهمَّ اشدُدْ وطأتَكَ على مُضَر»[٢]، وأنّ المُرادَ بهِ[٣] آخِرُ وقعةٍ قاتلَ فيها المُسلِمُون بوَجٍّ - وهي غزاةُ حُنينٍ - فقالوا: نحمِلُ الخبرَ على ظاهرِه، وأنّ الله وَطِئَ ذلك المكان. ولا شكَّ أنّ عِندهم أنّ الله تعالى كان في الأرضِ ثُمّ صَعِدَ إلى السماء!

وكذلك قالوا في قولِه ﷺ: «إنّ الله لا يملُّ حتّى تملُّوا»[٤]، قالوا: يجُوزُ أنّ الله يُوصَفُ بالملل، فجهِلُوا اللُّغة، وما علمُوا أنّه لو كانت «حتّى» هاهنا للغاية لم تكُن بمدح؛ لأنّه إذا ملَّ حين يملّ، فأيُّ مدحٍ؟! وإنّما هو كقولِ الشاعِر[٥]: [المديد]

صَلِيَتْ مِنّي هُذَيلٌ بخَرقٍ ... لا تَمَلُّ الشَّرَّ حَتّى يَمَلُّوا

والمعنى: لا يملُّ وإن ملُّوا.

وقالوا في قولِه عليه الصلاة والسلام: «الرَّحِمُ شُجنةٌ مِن الرحمنِ، تتعلَّقُ بحِقوَيِ الرحمنِ»[٦]، فقالوا: الحِقوُ: صِفةُ ذاتٍ.

وذكرُوا أحاديث، لو رُوِيَت في نقضِ الوضوء ما قُبِلت، وعُمُومُها وضعتْه المَلاحدة. كما يُروى عن عبدِ الله بنِ عمرٍو قال: «خلقَ الله الملائكةَ مِن نُورِ

---

(١) رواه أحمد (٢٧٣١٤)، فيه ابن أبي سويد، وهو مجهول.
(٢) البخاري (٨٠٤)، ومسلم (٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) سقطت من (ف، س).
(٤) البخاري (٤٣)، ومسلم (٧٨٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٥) نُسِب لابن أخت تأبّط شرًّا، ولخلف الأحمر في الحماسة (١: ٤٠٢).
(٦) رواه ابن حبان في صحيحه (٤٢٢) عن أبي هريرة، وشطره الثاني رواه الطبراني في الأوسط (٣٣٢١) عن أبي هريرة. والشُّجنة: الشعبة من كل شيء.

الذِّراعَينِ والصدر»[١]، فقالوا: نُثبِتُ هذا على ظاهرِه، ثُمّ أرضَوُا العوامَّ بقولِهم: ولا نُثبِتُ جوارِح، فكأنّهم يقولون: فُلانٌ قائمٌ، وما هو قائمٌ!

واختلفَ قولُهم: هل يُطلَقُ على الله عز وجل أنّه جالِسٌ أو قائم، كقولِه تعالى: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ [آل عمران: ١٨]؟! وهؤلاءِ أخسُّ فهمًا من جُحا؛ لأنّ قولَه: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ لا يُرادُ بهِ القيام، وإنّما هُو كما يُقال: «الأميرُ قائمٌ بالعدل».

وإنّما ذكرتُ بعضَ أقوالِهم؛ لئلّا يُسكَنَ إلى شيءٍ مِنها، فالحذرُ مِن هؤلاءِ عِبادةٌ، وإنّما الطريقُ طريقُ السلف، على أنّني أقولُ لك: قد قال أحمدُ بنُ حنبلٍ رحمةُ الله عليه: «مِن ضِيقِ عِلمِ الرَّجُلِ أن يُقلِّدَ في دينِهِ الرِّجال»[٢]، فلا ينبغي أن تسمعَ عن مُعظَّمٍ في النفُوس شيئًا في الأُصُولِ فتُقلِّدَه فيه.

ولو سمِعتَ عن أحدٍ ما لا يُوافِقُ الأُصُولَ الصحيحةَ فقُل: هذا مِن الراوي؛ لأنّهُ قد ثبتَ عن ذاك الإمامِ أنّه لا يقولُ في شيءٍ برأيِه، فلو قدَّرنا صِحَّتَهُ عنهُ فإنّهُ لا يُقلَّدُ في الأصول، ولا أبو بكرٍ ولا عُمرُ رضي الله عنهما، فهذا أصلٌ يجِبُ البِناءُ عليه، فلا يهولنَّكَ ذِكرُ مُعظَّمٍ في النفُوس.

وكان المقصُودُ من شرح هذا أنّ دينَنا سليم، وإنّما أدخلَ أقوامٌ فيهِ ما تأذَّينا بـه، ولقد أدخلَ المُتزهِّدُون في الدينِ ما يُنفِّرُ الناس، حتّى إنّهم يرون أفعالَهم فيستبعِدُون الطريق.

---

(١) رواه البيهقي في الأسماء والصفات (٧٤٤) وقال: وقد بلغني أن ابن عيينة رواه عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو، فإن صح ذلك فعبد الله بن عمرو قد كان ينظر في كتب الأوائل، فما لا يرفعه إلى النبي عليه السلام يحتمل أن يكون مما رآه فيما وقع بيده من تلك الكتب.

(٢) رواه ابن أبي يعلى في طبقات الحنابلة (١: ٢١٧).

وأكثرُ أدلّةِ هذه الطريقِ القُصّاص؛ فإنّ العامّيَّ إذا دخلَ إلى مجلِسِهم، وهو لا يُحسِنُ الوُضوء، كلَّموه بدقائقِ الجُنيد، وإشاراتِ الشِّبلِيّ[١]، فرأى ذلك العامّيُّ أنّ الطريقَ الواضِحة لزومُ زاوية، وتركُ الكسبِ للعائلة، ومُناجاةُ الحقِّ في خلوة، على زعمِه؛ مع كونه لا يعرِفُ أركانَ الصلاة، ولا أدَّبَه العِلم، ولا قوَّمَ أخلاقَه مُخالطةُ العُلماء، فلا يستفيدُ من خلوتِه إلا كما يستفيدُ الحِمارُ مِن الإصطبل، فإنِ امتدَّ عليهِ الزمانُ في تقلُّلِه زاد يُبسُه، فرُبّما خايلَت لهُ الماليخُوليا[٢] أشباحًا يظُنُّهم الملائكة، ثُمّ يُطأطِئُ رأسَه، ويمُدُّ يدَيه للتقبيل!

فكم قد رأينا مِن أكّارٍ[٣] تركَ الزرعَ وقعدَ في زاوية، فصار إلى هذه الحالة، فاستراحَ مِن تعبِه، فلو قيل له: عُدْ مريضًا، قال: ما لي عادة. فلعنَ الله عادةً تُخالِفُ الشريعة.

فيرى العامّيُّ بما يُورِدُه القُصّاصُ طريقَ الشرعِ هذه لا التي عليها الفُقهاء، فيقعون في الضلال. ومِن المُتزهِّدين مَن لا يُبالي: عمِلَ بالشرعِ أم لا! ثُمّ تتفاوَتُ جُهّالُهم؛ فمِنهم مَن سلكَ مذهبَ الإباحة، ويقول: الشيخُ لا يُعارَض، وينهمِكُ في المعاصي، ومِنهم من يحفظُ نامُوسَه، فيُفتي بغيرِ عِلم؛ لئلا يُقال: الشيخُ لا يدري!

ولقد حدَّثني الشيخُ أبو حكيمٍ رحمةُ الله عليه أنّ الشريفَ الدّحاليَّ[٤] - وكان يُقصَدُ ويُزارُ ويُتبرَّكُ به - حضر عِنده يومًا، فسُئل أبو حكيم: هل تحِلُّ

(١) هو أبو بكر البغدادي من أصحاب الجنيد، تُوفي سنة ٣٣٤هـ. سير أعلام النبلاء (١٥: ٣٦٧).

(٢) الماليخوليا: ضرب من الجنون.

(٣) الأكّار: المُزارِع.

(٤) أحد كبار الصوفية، ولم نقف له على ترجمة.

المُطلَّقةُ ثلاثًا إذا ولدتْ ذكرًا؟ قال: فقلتُ: لا والله. فقال لي الشريف: اسكُتْ، فوالله لقد أفتيتُ الناسَ بأنّها تحلُّ مِن ههُنا إلى البصرة!

وحكى لي الشيخُ أبو حكيم، أنّ خُذاداذَ الحَدّادَ ـ وكان يُتوسَّمُ بالعِلم ـ جاءت إليهِ امرأة، فزوَّجَها مِن رجُل، ولم يسألْ عنِ انقضاءِ العِدّة، فاعترضَها الحاكِم، وفرَّق بينها وبين الزوج، وأنكرَ على المُزوِّج، قال: فلقيتْه المرأة، فقالت: يا سيِّدي؛ أنا امرأةٌ لا أعلم، فكيف زوَّجتَني؟ فقال: دعي حديثَهم؛ ما أنتِ إلا طاهِرةٌ مُطهَّرةٌ!

وحدَّثني بعضُ الفُقهاء عن رجُلٍ مِنَ العُبّاد، أنّه كان يسجُدُ للسهوِ[١] سِنين، ويقول: والله ما سهوتُ ولكِن أفعلهُ احترازًا، فقال له الفقيه: قد بطَلتْ صلاتُك كُلُّها؛ لأنّك زِدتَ سُجودًا غيرَ مشرُوع.

ثُمّ مِن الدَّخَلِ الذي دخلَ في ديننا طريقُ المُتصوِّفه، فإنّهم سلكُوا طُرُقًا أكثرُها يُنافي الشريعة، وأهلُ التديُّنِ مِنهم يُقلِّلُون ويتخفَّفون، وهذا ليس بشرع، حتّى إنّ رجلًا كان قريبًا مِن زماني، يقالُ له: كثيرٌ، دخلَ إلى جامع المنصور، وقال: «إنّي[٢] عاهدتُ الله عهدًا ونقضتُه، فقد ألزمتُ نفسي ألا تأكُلَ أربعين يومًا»، فحدَّثني من رآه أنّه بقيَ عشرةَ أيّام، ثُمّ في العشرِ الرابعِ أشرفَ على الموت، قال: فما انقضَت حتّى تفرَّغ[٣]، فصُبَّ في حلقِه ماء، فسمِعنا له نشيشًا[٤] كنشيشِ المِقْلَى، ثُمّ مات بعد أيّام. فانظُروا إلى هذا المِسكينِ وما فعلهُ به جهلُه!

---

(١) سقطت من (ح، ص).
(٢) سقطت من (ح، ص).
(٣) في (ف): «يتفوّع». ومعناها: يتقيّأ.
(٤) النشيش: صوت غليان الماء وغيره.

ومِنهم مَن فسَحَ لنفسِهِ في كُلِّ ما يُحِبُّ مِن التنعُّم واللذّات، واقتنعَ مِن التصوُّف بالقميصِ والفُوَطِ والعِمامةِ اللطيفة، ولم ينظُر مِن أين يأكُل، ولا مِن أين يشرب، وخالطَ الأُمراءَ مِن أربابِ الدنيا، ولُبّاسِ الحرير، وشُرّابِ الخُمور حِفظًا لمالِه وجاهِه.

ومِنهم أقوامٌ عمِلُوا سُننًا لهم، تلقَّوها مِن كلِماتٍ أكثرُها لا يثبُت.

ومِنهم مَن أكبَّ على سماعِ الغِناءِ والرقصِ واللعِب، ثُمّ انقسموا[1] هؤلاء: فمِنهم مَن يدَّعي العِشقَ فيه، ومِنهم مَن يقولُ بالحُلول، ومِنهم مَن يسمعُ على وجهِ الهوى واللعِب، وكِلا الطريقينِ يُفسِدُ العوامَّ الفَسادَ العامَّ.

وهذا الشرحُ يطول، وقد صنَّفتُ كُتُبًا ترى فيها البسطَ الحسَن إن شاء الله تعالى، مِنها: «تلبيسُ إبليس».

والمقصودُ أن تعلمَ أنّ الشرعَ تامٌّ كامل، فإن رُزقتَ فهمًا له فأنتَ تتَّبعُ الرسولَ ﷺ وأصحابَه، وتتركُ بُنَيّاتِ الطريق، ولا تُقلِّدُ دينَكَ الرِّجال، فإن فعلتَ فإنّكَ لا تحتاجُ إلى وصيةٍ أُخرى، واحذرْ جُمودَ النَّقَلة، وانبساطَ المُتكلِّمين، وجُوعَ المُتزهِّدين، وشَرَهَ أهلِ الهوى، ووُقوفَ العُلماءِ على صُورةِ العِلمِ مِن غيرِ عمل، وعملَ المُتعبِّدين بغيرِ عِلم.

ومَن أيّدهُ الله تعالى بلُطفِه رزقَه الفَهم، وأخرجَه عن رِبقةِ التقليد، وجعله أُمّةً وحدَه في زمانِه، لا يُبالي بمَن عبث، ولا يلتفتُ إلى مَن لام، قد سلَّمَ زِمامَهُ إلى دليلٍ في واضِح السبيل. عصمَنا الله وإيّاكُم مِن تقليدِ المُعظَّمين، وألهمنا اتِّباعَ الرسولِ ﷺ؛ فإنّه دُرّةُ الوُجُود، ومقصُودُ الكونِ، صلى الله عليه وسلم وعلى آلِه وأصحابِه وأشياعِه، ورزقنا اتِّباعَه مع أتباعِه.

---

(١) في (ف): «انقسم».

٧٢- فَصْلٌ
[التقوى أصلُ السلامة]

اعلم أنّ الزمانَ لا يثبُتُ على حالٍ كما قال عز وجل: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، فتارةً فقرٌ، وتارةً غِنًى، وتارةً عِزٌّ، وتارةً ذُلٌّ، وتارةً يفرحُ الموالي، وتارةً يشمتُ الأعادي، فالسعيدُ مَن لازمَ أصلًا واحِدًا على كُلِّ حال، وهو تقوى الله عز وجل، فإنّه إنِ استغنى زانَته، وإنِ افتقرَ فتحَتْ له بابَ الصبر، وإن عُوفيَ تمَّتِ النِّعمةُ عليه، وإنِ ابتُليَ جمَّلَته، ولا يضُرُّه إن نزلَ بِهِ الزمانُ أو صعِد، أو أعراهُ أو كساه[1]، أو أشبعَه أو أجاعَه؛ لأنّ جميعَ تلك الأشياءِ تزُولُ وتتغيَّر.

والتقوى أصلٌ للسلامة، حارسٌ لا ينام، يأخُذُ باليدِ عِند العثرة، ويُوافِقُ على الحدود، والمُنكِرُ مَن غرَّته لذّةٌ حصلَت مع عدمِ التقوى، فإنّها ستَحُولُ وتُخلِّيهِ خاسِرًا. ولازِمِ التقوى في كُلِّ حال؛ فإنّك لا ترى في الضِّيقِ إلا السَّعة، وفي المرضِ إلا العافية، هذا نقدُها العاجِل، والآجِلُ معلُوم.

٧٣- فَصْلٌ
[جهادُ الهوى]

تأمَّلتُ أمرًا عجيبًا، وأصلًا ظريفًا، وهو انهيالُ الابتلاء على المُؤمِن، وعرضُ صُوَرِ اللذّاتِ عليهِ مع قُدرتِه على نيلِها، وخُصُوصًا ما كان في غيرِ كُلفةٍ مِن تحصيلِه، كمحبُوبٍ مُوافِقٍ في خَلوةٍ حصينة، فقلتُ: سُبحان الله! ههُنا يَبِينُ أثرُ الإيمان، لا في صلاةِ ركعتَين، والله ما صعِدَ يُوسُفُ عليه السلام ولا سعدَ إلا في مِثلِ ذلك المَقام.

---

(١) «أو كساه» عن (ر).

فبالله عليكم - يا إخواني - تأمَّلُوا حالَه لو كان وافقَ هواه مَن كان يكُون؟! وقيسُوا بين تلك الحالةِ وحالةِ آدمَ عليه السلام، ثُمّ زِنُوا بميزانِ العقلِ عُقبى تلك الخطيئة، وثمرةَ هذا الصبر، واجعلُوا فهمَ الحالِ عُدّةً لكم عِند كُلِّ مُشتهًى.

وإنّ اللّذّاتِ لتُعرَضُ على المُؤمِن، فمتى لقيَها في صفِّ حربِه - وقد تأخَّر عنه عسكرُ التدبُّرِ للعواقِب - هُزِم، وكأنّي أرى الواقعَ في بعضِ أشراكِها، ولِسانُ الحالِ يقُولُ له: قِفْ مكانَك، أنتَ وما اخترتَ لنفسِك. فغايةُ أمرِه الندمُ والبُكاء، فإن آثرَ إخراجَه مِن تلك الهُوّة لم يخرُجْ إلا مَوهُونًا بالخُدُوش، وكم مِن شخصٍ زلَّتْ قدمُه فما ارتفعَت بعدها!

ومَن تأمَّلَ ذُلَّ إخوةِ يُوسُفَ عليهم السلام يومَ[1]: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ [يوسف: ٨٨] عرَفَ شُؤمَ الزلل، ومَن تدبَّر أحوالَهم قاسَ ما بينهم وبين أخيهم مِن الفُروق، وإن كانت توبتُهم[2] قُبِلَت؛ لأنّهُ ليس مَن رقعَ وخاطَ كمَن ثوبُه صحيح. ورُبَّ عظمٍ[3] هِيضَ[4] لم ينجبِر، فإن جُبِرَ فعلى وهًى، فتيقَّظُوا - إخواني - لعرضِ المُشتهَياتِ على النفُوس، واستوثِقُوا مِن لُجُمِ الخيل، وانتبِهوا للغَيمِ إذا تراكَمَ بالصُّعودِ إلى تَلْعَةٍ[5]؛ فرُبّما مدَّ الوادي فراحَ بالرَّكب.



---

(١) زاد في (ق): «قالوا».

(٢) زاد في (س): «قد».

(٣) في (ف، ك، ح، ص): «عظيم».

(٤) هِيضَ: انكسر.

(٥) التلعة: مجرى الماء من أعلى الوادي.

٧٤- فَصْلٌ

[أسرار إجابة الدعاء]

تأمَّلتُ حالةً عجيبة، وهو أنّ المُؤمِنَ تنزِلُ به النازِلة، فيدعُو ويُبالِغ، فلا يرى أثـرًا للإجابـة، فإذا قاربَ اليأسَ نظرَ حينئذٍ إلى قلبـه، فإن كان راضيًا بالأقدار، غيـرَ قَنوطٍ مِن فضلِ الله عز وجل، فالغالِبُ تعجيلُ الإجابةِ حينئذٍ؛ لأنّ هُنالك يصلُحُ الإيمان، ويُطرَدُ[1] الشيطان، وهُناك تبينُ مقاديرُ الرِّجال، وقد أُشيرَ إلى هـذا فـي قولِه تعالـى: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِ[2]﴾ [البقرة: ٢١٤].

وكذلك جرى ليعقُوبَ عليه السـلام؛ فإنّه لمّا فقدَ ولدًا وطالَ الأمرُ عليه، لم ييئسْ من الفرجِ، فأخذَ ولدَه الآخر، ولم ينقطِعْ أملُه مِن فضلِ ربِّه، فقال[3]: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ﴾ [يوسف: ٨٣]، وكذلك قال زكريّا: ﴿وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا﴾ [مريم: ٤].

فإيّـاكَ أن تسـتطيلَ مُـدّةَ الإجابـة، وكُـنْ ناظـرًا إلى أنّـه المالِـك، وإلى أنّه الحكيمُ في التدبير، والعالِمُ بالمصالِح، وإلى أنّه يُريدُ اختبارَك ليبلُوَ أسرارَكم، وإلـى أنّـه يُريـدُ أن يرى تضرُّعَـك، وإلى أنّه يُريـدُ أن يأجُرَك بصبـرِك، إلى غيرِ ذلك، وإلى أنّه يبتليكَ بالتأخير، لتُحارِبَ وسوسةَ إبليس، وكُلُّ واحدةٍ مِن هذه الأشـياءِ تُقوِّي الظنَّ في فضلِه، وتُوجِبُ الشـكرَ له، إذ أهَّلَكَ بالبلاءِ للالتفاتِ إلى سُؤالِه، والفقرُ المُضطرُّ إلى اللَّجأ إليه غنًى كُلُّه.

---

(١) عن (ر).
(٢) زاد في (ق): «ألا إن نصر الله قريب».
(٣) سقطت من (ك، ح، س، ص).

٧٥- فَصْلٌ
[حكمةُ الغرائز في الأبدان]

لمّـا كان بدنُ الآدميّ لا يقُومُ إلا باجتلابِ المصالحِ ودفعِ المُؤذي، رُكِّبَ فيـهِ الهوى؛ ليكونَ سـببًا لجلـبِ النافعِ، والغضبُ ليكونَ سـببًا لدفعِ المُؤذي، ولـولا الهـوى فـي المَطعمِ ما تناولَ الطعـام، فلم يقُم بدنُه، فجُعِل لَـه إليهِ مَيلٌ وتَـوقٌ، فـإذا حصَل له قدرُ ما يُقيمُ به[1] بدنَه زال التوق، وكذلك في المَشـربِ والمَلبسِ والمَنكح.

وفائـدةُ المنكـحِ مِـن وجهَيـن؛ أحدهمـا: إبقـاءُ الجِنـس، وهـو مُعظـمُ المقصُودَيـن. والثاني: دفعُ الفَضلةِ المُحتقِنةِ المُـؤذي احتقانُها. ولولا تركيبُ الهوى المائلِ بصاحِبِهِ إلى النكاحِ ما طلبَهُ أحد، ففاتَ النسل، وآذى المُحتقِن.

فأمّـا العارِفـون فإنّهـم فهِمُوا المقصُـود، وأمّـا الجاهِلُون فإنّهـم مالُوا مع الشهوةِ والهوى، ولـم يفهمُوا مقصُودَ وضعِها، فضاعَ زمانُهم فيما لا طائلَ فيه، وفاتهم ما خُلِقُوا لأجلِه، وأخرجهم هواهم إلى فسـادِ المال، وذَهابِ العِرضِ والدين، ثُمّ أدّاهم إلى التّلف.

وكم قد رأينا مِن مُتنعِّمٍ يُبالغُ في شِراءِ الجواري، ليُحرِّكَ طبعَه بالمُستجِدّ، فما كان بأسرعَ مِن أن وهَنَت قُواهُ الأصلية، فتعجَّل تلفَه، وكذلك رأينا مَن زاد غضبُه، فخرجَ عنِ الحدّ، ففتكَ بنفسِه وبِمَن يُحِبُّه.

فمَن علِم أنّ هذه الأشياءَ إنّما خُلِقَت إعانةً للبدنِ على قطعِ مراحِلِ الدنيا، ولـم تُخلَـق لنفسِ الالتذاذ، وإنّمـا جُعِلتِ اللذّةُ فيها كالحِيلةِ فـي إيصالِ النفعِ

---

(١) سقطت من (ف، ح، ر).

بهـا؛ إذ لـو كان المقصُودُ التنعُّمَ بها لمـا جُعِلتِ الحيواناتُ البهيميةُ أوفى حظًّا مِن الآدميِّ مِنها؛ فطُوبى لمَن فهِمَ حقائقَ الوضع، ولم يَمِلْ به الهوى عن فهمِ حِكَمِ المخلُوقات.

٧٦- فَصْلٌ
[عاقبةُ المعصية]

مَـن تأمَّل عواقِبَ المعاصي رآها قبيحـةً، ولقد تفكَّرتُ في أقوامٍ أعرِفُهم، يُقِـرُّون بالزِّنا وغيـرِه، فأرى مِن تعثيرهم في الدنيا مع جَلادتِهم ما لا يقِفُ عِند حدٍّ، وكأنّهم قد أُلبِسُوا ظُلمةً، فالقُلُوبُ تنفِرُ عنهم، فإنِ اتّسع لهم شيءٌ فأكثرُه مِـن مـالِ الغيـر، وإن ضاق بهم أمـرٌ أخذُوا يتسـخَّطُون على القـدَر. هذا، وقد شُغِلوا بهذه الأوساخِ عن ذِكرِ الآخِرة.

ثُمّ عكستُ، فتفكَّرتُ في أقوامٍ صابَرُوا الهوى، وتركُوا ما لا يحِلّ، فمِنهم مَن قد أينَعت له ثمراتُ الدنيا مِن قُوتٍ مُستلَذّ، ومِهادٍ مُستطاب، وعيشٍ لذيذ، وجاهٍ عريض، فإن ضاق بهم أمرٌ وسَّـعَه الصبر، وطيَّبه الرِّضا، ففهمتُ بالحالِ معنـى قولـه تعالـى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

٧٧- فَصْلٌ
[الأُنس بالله]

ينبغـي للعاقـلِ أن يُلازِمَ بابَ مولاهُ علـى كُلِّ حال، وأن يتعلَّقَ بذيلِ فضلِه إن عصى وإن أطاع، وليكُن له أُنسٌ في خَلوتِه به، فإن وقَعَت وَحشـةٌ فليجتهِد

في رفعِ المُوحِش، كما قال الشاعر(١): [المتقارب]

أمُسـتَوحِشٌ أنتَ مِمّـا جَنَيتَ فأحسِـنْ إذا شِـئتَ واستَأنِسِ

فإن رأى نفسَه مائلًا إلى الدنيا طلبَها مِنه، أو إلى الآخِرةِ سأله التوفيقَ للعملِ لهـا، فإن خافَ ضررَ ما يَرومُه مِن الدنيا سـألَ الله إصـلاحَ قلبه، وطِبَّ مرضِه، فإنّـه إذا صلَـحَ لم يطلُبْ ما يُؤذيه، ومَـن كان هكذا كان في العيش [الرَّغَد](٢)، غيـرَ أنّ مِـن ضـرورةِ هذه الحالِ مُلازمةَ التقوى، فإنّـه لا يصلُحُ الأُنسُ إلا بها، وقد كان أربابُ التقوى يتشاغلُون عن كُلِّ شيءٍ إلا عنِ اللَّجَأ والسُّؤال.

وفي الحديث أنّ قُتيبةَ بنَ مُسلِمٍ(٣) لمّا صافَّ التُّركَ هالَه أمرُهم، فقال: أين مُحمّدُ بنُ واسع؟ فقيل: هو في أقصى المَيمَنة، جانحٌ على سِيَةِ قوسِه(٤)، يُومئ بإصبعِـه نحوَ السـماء، فقال قتيبة: تِلك الإصبعُ الفـارِدةُ أحَبُّ إليّ مِن مئةِ ألفِ سيفٍ شـهير، وسِـنانٍ طَرِيرٍ(٥)، فلمّا فُتِحَ عليهم قال له: ما كُنتَ تصنعُ؟ قال: آخُذُ لكَ بمجامِعِ الطُّرُق(٦).

٧٨- فَصْلٌ
[كتمانُ الأمور فعل الحازم]

ينبغـي لمَـن تظاهَرَت نِعَمُ الله عـز وجل عليهِ أن يُظهِر مِنها مـا يُبِينُ أثرَها، ولا يَكشِـفَ جُملتَها، وهذا مِن أعظمِ لذّاتِ الدنيا التي يأمُرُ الحزمُ بتركِها، فإنّ

(١) بلا نسبة في التذكرة الحمدونية (٥: ٤٨). (٢) عن (ط).
(٣) هو أبو حفص الأمير المشـهور فاتح خوارزم وبخارى وسـمرقند وفرغانة وبلاد الترك، تُوفي سـنة ٩٦هـ. سير أعلام النبلاء (٤: ٤١٠).
(٤) سِيَة القوس: طرفاها. (٥) طرير: محدَّد.
(٦) رواه ابن قتيبة في عيون الأخبار (١: ٢٠٤)، والدينوري في المجالسة وجواهر العلم (١٨١١).

«العين حقٌّ»[١]. وإنّي تفقَّدتُ النِّعَم، فرأيتُ إظهارَها حُلوًا عِند النفس، إلا أنّها إن أُظهِرَت لوَديدٍ لم يُؤمَن تشعُّثُ باطِنِه بالغيظ[٢]، وإن أُظهِرَت لعدُوٍّ فالظاهِرُ إصابتُه بالعينِ لموضعِ الحسدِ، إلا أنّني رأيتُ بُعدَ الحسودِ كاللازِم، فإنّه في حالِ البلاءِ يتشفّى، وفي حالِ النِّعمِ يُصيبُ بالعين.

ولَعَمري إنّ المُنعَمَ عليهِ يَشتهِي غيظَ حسودِه، ولكِنّه لا يُؤمَنُ أن يُخاطِرَ بنعمتِه، فإنّ الغالِبَ إصابةُ الحاسِدِ لها بالعين، فلا يُساوي الالتِذاذُ بإظهارِ ما غِيظَ بهِ[٣] ما أفسدَتْ عينُه بإصابتِها.

وكتمانُ الأُمُورِ في كُلِّ حالٍ فِعلُ الحازم، فإنّه إن كشفَ مِقدارَ سِنّهِ استهرمُوه إن كان كبيرًا، أو احتقرُوه إن كان صغيرًا، وإن كشفَ ما يعتقدُه ناصَبَه الأضدادُ بالعداوة، وإن كشفَ قدرَ مالِه استحقرُوه إن كان قليلًا، وحسدُوهُ إن كان كثيرًا. وفي هذه الثلاثةِ يقولُ الشاعِر[٤]: [الكامل]

احفَظْ لِسانَكَ لا تَبُحْ بثَلاثةٍ: سِنٍّ ومالٍ ما استَطَعْتَ ومَذهَبِ
فعَلَى الثَّلاثةِ تُبتَلى بثَلاثةٍ بمُمَوِّهٍ ومُمَخرِقٍ ومُكَذِّبِ

وقِسْ على ما ذكرتُ ما لم أذكُره، ولا تكنْ مِن المَذاييعِ النُّذُر[٥]، الذين لا يحمِلُون أسرارَهم حتى يُفشُونها[٦] إلى مَن لا يَصلُح، ورُبَّ كلِمةٍ جرى بها اللسان، هلكَ بها الإنسان.

---

(١) البخاري (٥٧٤٠، ٥٩٤٤)، ومسلم (٢١٨٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) في (ف): «بالغبطة». (٣) في (ف): «غبط به».
(٤) لأبي علي البغدادي في معجم الأدباء (٣: ١٠٨٣).
(٥) المذاييع: جمع مِذياع، وهو من يبادر إلى إفشاء السرّ، والنُّذُر: جمع نذير، وهو من يُنبىء بشرّ.
(٦) «يفشونها» كذا في النسخ بإثبات النون.

٧٩- فَصْلٌ
[العبرة من العثرة]

رأيتُ كُلَّ مَن يعثُرُ بشيءٍ أو يَزلَقُ في مطرٍ يَلتفِتُ إلى ما عثرَ به، فينظُرُ إليه، طبعًا موضُوعًا في الخلقِ؛ إمّا ليحذرَ مِنهُ إن جاز عليهِ مرّةً أُخرى أو[1] من مثلِه، أو لينظُرَ - مع احتِرازِه وفهمِه - كيف فاته التحرُّزُ مِن مِثلِ هذا؟! فأخذتُ من ذلك إشارةً، وقُلت: يا مَن عثرَ مِرارًا؛ هلّا أبصرتَ ما الذي عثَّرك، فاحترزتَ مِن مِثلِه، أو قبَّحتَ لنفسِك - مع حزمِها - تلك الوقعة[2]، فإنّ الغالِبَ مِمَّن يلتفِتُ أنّ معنى التفاتِه: كيف عثَر مِثلي - مع احترازِه - بمِثلِ ما أرى؟!

فالعجبُ لك؛ كيف عثرتَ بمِثلِ الذنبِ الفُلانيِّ والذنبِ الفُلانيّ؟! كيف غرَّك زُخرفٌ تعلَمُ بعقلِك باطِنَه، وترى بعينِ فِكرِك مآلَه؟! كيف آثَرتَ فانيًا على باقٍ؟! كيف بِعتَ بوَكْسٍ[3]؟! كيف اختَرتَ لذّةَ رَقدةٍ على انتباهِ مُعاملةٍ؟!

آهٍ لك! لقدِ اشتَريتَ بما بِعتَ أحمالَ ندمٍ لا يُقِلُّها ظهرٌ، وتنكيسَ رأسٍ أمسى بعيدَ الرفع، ودُموعَ حزنٍ على قُبحِ فِعلٍ ما لمَددِها انقِطاع، وأقبحُ الكُلِّ أن يُقال لك: بماذا؟ ومن أجلِ ماذا؟ وهذا على ماذا؟! يا مَن قَلَبَ الغُرُورُ عليه الصَّنجةَ[4]، ووُزِنَ له والميزانُ راكِب[5].



(١) سقطت من (ك، ح، س، د).
(٢) في (د): «الواقِعة».
(٣) الوكس: النقصان.
(٤) الصنجة: هي السنجة التي يُوزَن بها.
(٥) الميزان راكب: متعطِّل لا يتحرَّك.

٨٠- فصل

[ثمرةُ التقوى]

تأمَّلتُ قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]، قال المُفسِّرون: «هُداي: رسُولُ الله ﷺ وكتابي»، فوجدتُه على الحقيقةِ أنّ كُلَّ مَن اتبعَ القُرآنَ والسُّنّةَ، وعملَ[١] بما فيهما، فقد سلِمَ مِنَ الضلالِ بلا شكٍّ، وارتفعَ في حقِّه شقاءُ الآخِرةِ بلا شكٍّ إذا ماتَ على ذلك، وكذلك شقاءُ الدنيا، فلا يشقى أصلًا، ويُبيِّنُ هذا قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]، فإن رأيتَه في شدّةٍ فله مِن اليقينِ بالجزاءِ ما يُصيِّرُ الصّابَ[٢] عِنده عسلًا، وإلا غلبَ طيبُ العيشِ في كُلِّ حال.

والغالِبُ أنّه لا ينزِلُ بِهِ شدّةٌ إلا إذا انحَرفَ عن جادّةِ التقوى، فأمّا المُلازِمُ لطريقِ التقوى فلا آفةَ تطرُقُه، ولا بليّةَ تنزِلُ به، هذا هو الأغلب، فإن ندرَ مَن تطرُقُهُ البلايا مع التقوى فذاك في الأغلبِ لتقدُّمِ ذنبٍ يُجازى عليه.

فإن قدَّرنا عدمَ الذنبِ فذاك لإدخالِ ذَهَبِ صبرِهُ كِيرَ البلاء، حتى يخرُجَ تِبرًا أحمر، فهو يرى عُذوبةَ العذاب؛ لأنّه يُشاهَدُ المُبتلى في البلاءِ ولا ألمَ[٣].
قال الشِّبليّ: «أحَبّكَ الناسُ لنعمائِك، وأنا أُحِبُّكَ لبلائك»[٤].



---

(١) في (ف، ح، ر): «عمل» بدون واو قبلها.

(٢) في (ف): «الصَّبِر»، والصابُ: عصارة شجر مرّ، وكلاهما بمعنًى قريب.

(٣) قوله: «ولا ألم» في (ف، س): «والألم».

(٤) رواه أبو عبد الرحمن السلمي في طبقات الصوفية (ص٢٦٢).

٨١- فَصْلٌ
[لذّة المعصية ساعة]

لا ينالُ لذّةَ المعاصي إلا سكرانُ الغفلة، فأمّا المُؤمِنُ فإنّه لا يلتذُّ؛ لأنّه عِند التذاذِه يقِفُ بإزائهِ عِلمُ التحريم، وحذرُ العُقُوبة، فإن قَوِيتْ معرفتُه رأى بعينِ عِلمِهِ قُربَ الناهي، فيتنغَّصُ عيشُهُ في حالِ التِذاذِه، فإن غلبَ سُكرُ الهوى كان القلبُ مُتنغِّصًا بهذه المُراقبات، وإن كان الطبعُ في شهوتِه، وما هي إلا لحظة.

ثُمّ خُذْ ما تلقى[1] مِن غريمِ ندمٍ مُلازِم، وبُكاءٍ مُتواصِل، وأسفٍ على ما كان مع طُولِ الزمان، حتى إنّه لو تيقَّنَ العفوَ وقفَ بإزائهِ حَذَرَ العِتاب، فأُفٍّ للذنوب؛ ما أقبحَ آثارَها! وما أسوأَ أخبارَها! ولا كانت شهوةٌ لا تُنالُ إلا بمِقدارِ قُوّةِ الغفلة.

٨٢- فَصْلٌ
[عُزلة العالم عن الشرّ]

بَكَرتُ يومًا أطلُبُ الخَلوةَ إلى جامعِ الرُّصَافة، فجعلتُ أجُولُ وحدي، وأتفكّرُ في ذلك المكانِ ومَن كان بِهِ من العُلماءِ والصالِحِين، ورأيتُ أقوامًا قد جاوَرُوا فيه، فسألتُ أحدَهم: مُنذُ كم أنت هاهُنا؟ فأومَأ إليّ: قريبٌ من أربعين سنةً، فرأيتُه في بيتٍ[2] كثيرِ الدَّرَنِ والوَسَخ، وجعلتُ أتفكّرُ في حبسِه لنفسِهِ عنِ النّكاحِ هذه المُدّة، فأخذتِ النفسُ تُحسِّنُ ذلك، وتذمُّ الدنيا والاغتِرارَ بها، فأقبلَ العِلمُ يُنكِرُ على النفس، ونهَضَ الفهمُ لحقائقِ الأمور، وموضوعُ الشرعِ يُقوّي ما قال العِلم، فيَنحلُّ مِن ذلك أن قُلتُ للنفس: اعلمي أنّ هؤلاءِ على ضربَين:

---

(١) «ما تلقى» عن (ف).

(٢) في (ر): «ثوب».

منهم مَن يُجاهِدُ نفسَه في الصبرِ على هذه الأحوال، فتفوتُه فضائلُ المُخالَطةِ لأهلِ العِلمِ والعمل، وطلبِ الولد، ونفعِ الخَلق، وانتفاعِ نفسِه بمُجالسةِ أهلِ الفهم، فيحدثُ له مِن نفسِه حالةٌ تُشابهُ فيها الوحش، فيُؤثِرُ الانفرادَ لنفسِ الانفراد، ورُبّما حُبِسَ الطبع، وساءَ الخُلُق، ورُبّما حدثَ مِن حبسِ مائهِ المُحتقَنِ سُمِّيّةٌ أفسدَت بدنَه وعقلَه، ورُبّما أورثَته الخَلوةُ وسوسةً، ورُبّما ظنّ أنّه مِن الأولياءِ واستغنى بما يعرِفُه، ورُبّما خَيَّلَ له الشيطانُ أشياءَ مِن الخيالات، وهو يعدُّها كرامات، ورُبّما ظنَّ أنّ الذي هو فيه الغاية، ولا يدري أنّه إلى الكراهةِ أقربُ، فإنّ رسولَ الله ﷺ نهى أن يبيتَ الرَّجُلُ وحدَه[1]، وهؤلاءِ كُلٌّ مِنهم يبيتُ وحدَه، ونهى عنِ التبتُّل[2]، وهذا تبتُّل، ونهى عن الرهبانية[3]، وهذه رهبنةٌ[4]. وهذا مِن خفيِّ خُدَعِ إبليسَ التي يُوقِعُ بها في وَرطاتِ الضلالِ بألطفِ وجهٍ وأخفاه.

والضربُ الثاني: مشايخُ قد فَنُوا، فانقطَعوا ضرورةً؛ إذ ليس لأحدِهم مأوًى، فهم في مقامِ الزَّمْنَى[5].

وإن كان الضربُ الأوّلُ قد قطعُوا حَبلَ[6] نُفوسِهم في العلمِ والعملِ والكسب، وتعلَّقت هِمَمُهم بفتوحٍ تطرُقُ عليهم الباب، فرَضُوا بالعمى بعد البصر، وبالزَّمَنِ بعد الإطلاق.

---

(١) رواه أحمد (٥٦٥٠) عن ابن عمر مرفوعًا، وصحَّح إسناده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٢٠٨).

(٢) البخاري (٥٠٧٣، ٥٠٧٤)، ومسلم (١٤٠٢) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بمعناه.

(٣) رواه الدارمي (٢٢١٥) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وهو صحيح.

(٤) «وهذه رهبنة» عن (ر).

(٥) الزَّمِن: المريض الذي لا يُرجى برؤه.

(٦) في (ح، د): «حِيَل»، والمثبت عن (ف)، وعلى هامشها عن نسخة: «حُلّ».

فقالت لي النفس: لا أرضى لك هذا الذي تقُولُه، فإنّك إنّما تميلُ إلى آثارِ نِكاحِ المُستحسَنات، والمطاعِمِ المُشتهَيات، فإذا لم تكُن مِن أهلِ التعبُّدِ فلا تَطعَن فيهِم. فقُلتُ لها: إن فهمتِ حدَّثتُكِ، وإن كُنتِ تُقلِّدين صُوَرَ الأحوالِ فلا فهمَ لكِ.

أمّا المُستحسَناتُ فإنّ المقصودَ مِن النّكاحِ أشياء، مِنها: طلبُ الولد. ومِنها: شِفاءُ النفس بإخراجِ الفضلةِ المُؤذية، وكمالُ خروجِها لا يكُونُ إلا بوجُودِ المُستحسَن، واعتَبِر هذا بالوطءِ دون الفرج، فإنّه لا يُخرِجُ مِنَ الفضلاتِ ما يَخرُجُ بالوطءِ في الفرج، وبتمامِ خُروجِ تِلك الفضلةِ تفرُغُ النفسُ عن شواغِلِها، فتدري أين هي؟ كما نأمُرُ القاضيَ بالأكلِ قبل الحُكم، وننهاهُ عنِ الحُكمِ وهو غضبانُ أو حاقِن. وبكمالِ بُلوغِ هذا الغرضِ يكُونُ كمالُ الولد؛ لتمامِ النُّطفةِ التي تَخلّق مِنها، ثُمّ للنفسِ حظٌّ، فهي تستوفيه استيفاءَ الناقةِ حظَّها مِن العلفِ في السَّفر، وذلك يُعينُ على سَيرِها.

وأمّا المطاعِمُ فالجاهِلُ مَن يطلبُها لِذاتِها أو لنفسِ لذّاتِها، وإنّما المُرادُ إصلاحُ عزمِ الناقةِ لجمعِ هَمِّها، ونَيلِ مُرادِها مِن غرضِها الصارِفِ لها عنِ الفِكرِ في هواها.

وإذا تأمّلتَ حالَ الشَّربِ الأوّل رأيتَ مِن هذا عجبًا، فإنّ النبيَّ ﷺ اختار لنفسِه عائشةَ رضي الله عنها، وكانت مُستحسَنة، ورأى زينبَ فاستحسَنها فتزوَّجها، وكذلك اختارَ صفيّةَ، وكان إذا وُصِفَ له امرأةٌ بعثَ يخطبُها، وكان لعليٍّ رضي الله عنه أربعُ حرائرَ وسبعَ عشرةَ سُرِّيّةً، مات عنهُنّ، وقبل هذه الأُمّةِ فقد كان لداودَ عليه السلام مئةُ امرأة، ولسُليمانَ عليه السلام ألفُ امرأة[1].

(١) تقدم في الفصلين ١٩، ٢٨.

فمَنِ ادَّعى خللًا في هذه الطُّرُق، أو أنّ هؤُلاءِ آثرُوا هواهم، وأنفَقُوا بَضائعَ العُمـرِ في هذه الأغراض، وغيرُها أفضل، فقـدِ ادَّعى على الكامِلين النُّقصانَ، وإنّما هو الناقصُ فهمُه لا هم.

وقـد كان سُـفيانُ الثـوريُّ إذا سـافر، ففي سُـفرتِهِ حَمَلٌ مَشـوِيٌّ وفالُوذجٌ، وكان حسنَ المَطعَم، وكان يقول: «إنّ الدابّةَ إذا لم يُحسَنْ إليها لم تَعمَل»[١].

وهـذه الفنونُ التي أشَـرتُ إليها إن قُصِدَت للحاجةِ إليهـا، أو لقضاءِ وَطَرِ النفسِ منها، أو لبلوغِ الأغراضِ الدينيّةِ والدُّنيويّةِ مِنها؛ فكُلُّه قصدٌ صحيح، لا يُعكِّرُ عليهِ حالَه، ومَن يقومُ ويقعُدُ في ركعاتٍ لا يفهمُ معناها، وفي تسبيحاتٍ أكثرُ ألفاظِها رديّة.

كلّا ليـس إلا العِلـمُ الـذي هو أفضلُ الصفات، وأشـرفُ العِبـادات، وهو الآمِـرُ بالمصالِح، والناطِقُ بالنصائح، ثُمّ منفعةُ العِلمِ معروفة، وزُهدُ الزاهِدِ لا يتعدّى عتبةَ بابِه، وقد قال النبيُّ[٢] ﷺ: «لأَن يهديَ الله بكَ رجُلًا خيرٌ لك مِمّا طلعَت عليهِ الشمسُ».

ثُـمّ اعتَبِر فضلَ الرُّسُـلِ على الأنبيـاءِ عليهم الصلاة والسـلام، والجوارحِ على التي لا تصيدُ، والطينِ الذي يُعمَلُ مِنهُ ما يُنتفَعُ بِهِ على الطينِ الذي[٣] في المَقلَع[٤].

وغايـةُ العلمـاءِ تصرُّفُهـم بالعلـمِ فـي المُبـاح، وأكثـرُ المُتزهِّدِيـن جهلة،

---

(١) تقدم في الفصل ٣٦.

(٢) ليس في (ك، ح، س)، والحديث تقدم في الفصل ٢١.

(٣) عن (س، ر).

(٤) المقلع: المكان الذي تُقلَع منه الحجارة التي لا نفع منها.

يستعبِدُهم تقبيلُ اليدِ لأجلِ تركِهم ما أُبيح[١]، فكم قد[٢] فوَّتتِ العُزلةُ عِلمًا يصلُحُ بِهِ أصلُ الدين، وكم أوقَعَت في بليّةٍ هلكَ بها الدين؟! وإنّما عُزلةُ العالِمِ عن الشرِّ فحسب، والله المُوفِّق.

٨٣- فَصْلٌ
[عواقبُ المعاصي]

ينبغي لكُلِّ ذي لُبٍّ وفِطنةٍ أن يحذرَ عواقِبَ المعاصي، فإنّه ليس بين الآدميِّ وبين الله تعالى قَرابةٌ ولا رَحِم[٣]، وإنّما هو قائمٌ بالقِسط، حاكمٌ بالعدل، وإن كان حِلمُه يسعُ الذنوبَ إلا أنّه إذا شاء عفا، فعفا[٤] كُلَّ كثيفٍ مِن الذنوب، وإذا شاء أخذَ باليسير، فالحذرَ الحذر.

ولقد رأيتُ أقوامًا مِن المُترَفِين كانُوا يتقلَّبون في الظُّلمِ والمعاصي باطِنةً وظاهِرةً، فبُغِتوا من حيثُ لم يَحتسِبوا، فقُلِعت أصولُهم، ونُقِضَ ما بَنَوا مِن قواعِدَ أحكمُوها لذراريِّهم، وما كان ذلك إلا أنّهم أهملُوا جانِبَ الحقِّ عز وجل، وظنُّوا أنّ ما يفعلونه مِن خيرٍ يُقاوِمُ ما يجري مِن شرٍّ، فمالَت سفينةُ ظُنُونِهم، فدخلَها مِن ماءِ الكيدِ ما أغرقَهم.

ورأيتُ أقوامًا مِن المُنتسبين إلى العِلم أهمَلُوا نظرَ الحقِّ عز وجل إليهم في الخلَوات، فمحا محاسِنَ ذِكرِهم في الجلَوات، فكانوا موجُودِين كالمعدُومِين، لا حلاوةَ لرؤيتِهم، ولا قلبَ يحنُّ إلى لقائهم.

---

(١) زاد في (س): «له».

(٢) سقطت من (ر، د).

(٣) زاد في (ك، ح، س): «ولا له عز وجل رقة».

(٤) زاد في (س): «عن».

فالله الله في مُراقبةِ الحقِّ عز وجل، فإنّ ميزانَ عدلِه تَبينُ فيهِ الذَّرّة، وجزاؤُه مُراصِدٌ[١] للمُخطِئ ولو بعد حين، ورُبّما ظنَّ العفوَ وهُو إمهالٌ، وللذُّنوبِ عواقِبُ سيئة. فالله الله، الخَلَواتِ الخَلَواتِ[٢]، البواطنَ البواطنَ، النّياتِ النّياتِ، فإنّ عليكُم مِن الله عينًا ناظرةً، وإيّاكُم والاغترارَ بحِلمِه وكرمِه، فكم استَدرج! وكونوا على مراقبةِ الخطايا مُجتهِدِين في محوِها، وما شيءٌ ينفعُ كالتضرُّعِ مع الحِميةِ عن الخطايا، فلعلَّه[٣].

وهذا فصلٌ إذا تأمَّلهُ المُعامِلُ لله[٤] تعالى نفعَه. ولقد قال بعضُ المُراقِبين لله تعالى: قدَرتُ على لذّةٍ هي غايةٌ وليستْ كبيرةً، فنازَعَتني نفْسي إليها اعتمادًا على صِغرِها، وعِظَمِ فضلِ الله تعالى وكرمِه، فقلتُ لنفْسي: إن غَلبتِ هذه فأنتِ أنتِ، وإذا أتيتِ هذه فمَن أنتِ؟! وذكَّرتُها حالةَ أقوامٍ كانُوا يُفسِحُون لأنفُسِهم في مُسامَحة؛ كيف انطوتْ أذكارُهم، وتمكَّنتْ عقوبةُ الإعراضِ عنهم منهم؟ فارعَوتْ[٥] ورجعتْ عمّا همَّتْ به، والله الموفِّق.

٨٤- فَصْلٌ

[صغائرُ الذنوب]

كثيرٌ مِن الناسِ يتسامحُون في أُمورٍ يظُنُّونها قريبةً، وهي تقدحُ في الأُصُول، كاستعارةِ طُلّابِ العِلمِ جُزءًا لا يرُدُّونه، وقصدِ الدخولِ على مَن يأكُلُ ليأكلَ معه، وتناولِ طعامٍ لم يُدعَ الإنسانُ إليه، والتسامُحِ بعِرضِ العدُوِّ التذاذًا بذلِك واستصغارًا لمثلِ هذا الذنب، وإطلاقِ البصرِ في المُحرَّم هوانًا بتِلك الخطيئة،

---

(١) في (ف، ر): «مرصد».

(٢) سقطت من (ك، ح، س، د).

(٣) أي: فلعله ينفع.

(٤) في (ر): «العامل لله».

(٥) ارعوى: رجع وكف.

وفتـوى مَـن لا يعلمُ لئلّا يُقال: هـو جاهِل، ونحوِ ذلك مِمّا يُظَـنُّ صغيرًا، وهُو عظيم.

وأهـوَنُ مـا يصنعُ ذلك بصاحِبِهِ أن يحطَّه مِـن مرتبةِ المُتميِّزين بين الناس، ومِن مقامِ رِفعةِ القدرِ عِند الحقّ، ورُبّما قيل له بلسانِ الحال: يا مَنِ اؤتُمِنَ على أمرٍ يسيرٍ فخان، ما بليةُ خطئك فاتّقِ به. قال بعضُ السلف: تسامَحتُ بلُقمة، فتناوَلتُها، فأنا اليومَ أربعِين سنةً إلى خَلْف[1].

فالله الله، اسمعُوا مِمّن قد جرَّبَ، كُونُوا على مُراقبة، وانظُرُوا في العواقِب، واعرفُوا عظمـةَ الناهي، واحـذرُوا مِن نفخةٍ تُحتقَر، وشَـرَرةٍ تُستصغَر، فرُبّما أحرَقَت بلدًا.

وهذا الذي أشرتُ إليهِ يسيرٌ يدُلُّ على كثير، وأُنمُوذجٌ يُعرِّفُ باقيَ المُحقَّراتِ مِـن الذنـوب، والعِلـمُ والمراقبـةُ يُعرِّفانِك ما أخلَلـتَ بذِكـرِه، ويُعلِّمانِك ـ إن تلمَّحتَ بعينِ البصيرةِ ـ أثرَ شُؤمِ فِعلِه، ولا حولَ ولا قُوّةَ إلا بالله العليّ العظيم.

٨٥ـ فَصْلٌ
[منزلةُ التوبة]

رأيـتُ مِن نفسـي عجبًا، تسـألُ الله عز وجـل حاجاتِها، وتنسـى جِناياتِها، فقلـتُ: يـا نفسَ السُّـوء[2]، أوَمِثلُكِ ينطِق؟! فإن نطقَ فينبغي أن يكُونَ السُّـؤالُ العفوَ فحسـب. فقالت: فمِمَّـن أطلُبُ مُراداتي؟ قلتُ: مـا أمنعُكِ مِن[3] طلبِ المُـراد، إنّمـا أقـول: حَقِّقي التوبـةَ وانطِقي، كما نقولُ في العاصي بسـفرِه ـ إذا

(١) رواه المالِيني في الأربعون في شيوخ الصوفية (ص١٤٨).
(٢) سقطت من (ف). (٣) سقطت من (ك، س).

اضطُرَّ إلى الميتةِ ـ: لا يجُوزُ له أن يأكُل، فإن قيل لنا: أفيمُوت؟! قُلنا: لا، بل يتُوبُ ويأكُل.

فالله الله من جُرأةٍ على طلبِ الأغراض، مع نِسيانِ ما تقدَّمَ مِن الذنوبِ التي تُوجِبُ تنكيسَ الرأس، ولئن تشاغَلتِ بإصلاحِ ما مضى، والندمِ عليه؛ جاءتكِ مُراداتُك، كما رُوِي: «مَن شغَلهُ ذِكري عن مسألتي أعطيتُه أفضلَ ما أُعطي السائلِين»[1]. وقد كان بشرٌ الحافي يبسُطُ يدَيهِ للسُّؤال، ثُمّ يُسبِلُهما ويقول: «مِثلي لا يسأل؛ ما أبقتِ الذُّنُوبُ لي وجهًا».

وهذا يختصُّ ببشرٍ لقوّةِ معرفتِه، كان وقتَ السُّؤالِ كالمُخاطِبِ كِفاحًا، فاستحيا للزلل. فأمّا أهلُ الغفلةِ فسُؤالُهم على بُعدٍ. فافهم ما ذكرتُه، وتشاغَل بالتوبةِ مِن الزلل.

ثُمّ العجبُ مِن سُؤالاتِك، فإنّكَ لا تكادُ تسألُ مُهِمًّا مِن الدنيا، بل فُضولَ العيش، ولا تسألُ صلاحَ القلبِ والدينِ مِثلَ ما تسألُ صلاحَ الدنيا. فاعقِلْ أمرَك، فإنّك مِن الانبساطِ والغفلةِ على شفا جُرُفٍ، وليكُن حسراتُك على زلّاتِكَ شاغِلةً لك عن مُراداتِك، فقد كان الحسنُ البصريُّ شديدَ الخوف، فلمّا قيل له في ذلك قال: «وما يُؤمِّنُني أن يكُونَ اطَّلعَ عليَّ في بعضِ ذُنُوبي، فقال: اذهبْ؛ لا غفَرتُ لك؟!»[2].



(١) رواه الترمذي (٢٩٢٦) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، وفيه محمد بن الحسن بن أبي يزيد؛ قال أحمد بن حنبل في العلل رواية ابنه عبد الله (٣: ٢٩٩): ما أراه يسوي شيئًا.

(٢) رواه ابن المبارك في الزهد (١٤٩٩)، وأبو نعيم في الحلية (٢: ١٣٤).

٨٦- فَصْلٌ
[غُرور عابد]

أعجبُ العجبِ دعوى المعرِفةِ مع البُعدِ عنِ العِرفانِ بالله، ما عرَفهُ إلا مَن خـاف مِنه، فأمّا المُطمئـنُّ فليس مِن أهلِ المعرِفة، وفي المُتزهِّدِين أهلُ تغفيلٍ يكادُ أحدُهم يُوطِّنُ على أنّه وليٌّ ومحبوبٌ ومقبول، ورُبّما توالَت عليهِ ألطافٌ ظنَّها كرامات، وينسـى الاسـتدراجَ الذي لَفَّتْ مُساكنتُه الألطاف، ورُبّما احتقرَ غيرَه، وظنَّ أنّ مَحِلَّتَه محفوظة به، تغرُّه رُكيعاتٌ ينتصِبُ فيها، أو عِبادةٌ يَنصَبُ بها، ورُبّما ظنَّ أنّه قُطبُ الأرض، أو أنّه لا يَنالُ مقامَه بعده أحدٌ، وكأنّه ما عِلمَ أنّه بينا مُوسى مُكالَمٌ نُبِّئَ يُوشَع، وبينا زكريا عليه السلام مُجابُ الدعوةِ[١] نُشِر بالمِنشار، وبينا يحيى عليه السلام يُوصَفُ بأنّه سيِّدٌ سُلِّط عليهِ كافِرٌ احتزَّ رأسَه، وبينا بِلعامُ[٢] مع الاسـمِ الأعظمِ صار مَثَلُهُ كمَثَلِ الكلبِ، وبينا الشـريعةُ يُعمَلُ بها نُسِختْ وبطَل حُكمُها، وبينا البدنُ معمورٌ أُخرِبَ وسُلِّط البلاءُ عليه، وبينا العالِمُ يَدأبُ حتى ينالَ مرتبةً يعتقدُها، نشَـأ طِفلٌ في زمانِه، فترقّى إلى سـيئِ[٣] عيُوبِه وغلطِه.

وكم مِن مُتكلِّمٍ يقول: ما مِثلي لو عاش، فسمعَ ما حدثَ بعده مِن الفصاحةِ عدَّ نفسَه أخرَسَ. هذا وعظُ ابنِ السَّمّاكِ وابنِ عمّارٍ وابنِ سَمعُون عندنا[٤]؛ لا

---

(١) سقطت من (ف).

(٢) ذكر المفسرون أنه المقصود بقوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ۞ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

(٣) في هامش (د): «لعله: سبر».

(٤) عن (ف، ر).

يصلُحُ لبعضِ تلامذتِنا، ولا يرضاه، فكيف نُعجَبُ بنفوسنا، ورُبّما أتى بعدنا مَن لا يعدُّنا؟!

فالله الله مِن مُساكنةِ مسكنٍ ومُخالفةِ مقام، وليكُنِ المُتيقِّظُ على انزعاج، مُحتقرًا للكثيرِ من طاعاتِه، خائفًا على نفسِه مِن تقلُّباتِه، ونُفُوذِ الأقدارِ فيه، واعلم أنّ تلمُّحَ هذه الأشياءِ التي أشرتُ إليها يضربُ عُنُقَ العُجْب، ويُذهِبُ كِيرَ الكِبر.

٨٧- فَصْلٌ

[اليقين في السرّاء والضرّاء]

مَن عاشَ مع الله عز وجل طيِّبَ العيشِ في زمنِ السلامةِ، خِفتُ عليهِ في زمنِ البلاء، فهُناك المَحَكُّ. إنّ المَلِكَ عز وجل بينا يبني نَقَض، وبينا يُعطي سَلَب، فطِيبُ العيشِ والرِّضا هُناك يَبِينُ، فأمّا مَن تواصَلَت لديهِ النِّعَم فإنّه يكُونُ طيِّبَ القلبِ لتواصُلِها، فإذا مسَّتهُ نفحةٌ مِن البلاء فبعيدٌ ثبوتُه. قال الحسنُ البصريّ: «كانُوا يتساوَون في وقتِ النِّعَم، فإذا نزلَ البلاءُ تبايَنوا»[١].

فالعاقِلُ مَن أعدَّ ذُخرًا، وحصَّلَ زادًا، وازدادَ مِن العُدَدِ للقاءِ حربِ البلاء، ولا بُدَّ من لقاءِ البلاء، ولو لم يكُن إلا عِند صرعةِ الموت، فإنّها إن نزلَت - والعياذُ بالله - فلم تجِد معرفةً تُوجِبُ الرِّضا أو الصبر؛ أخرجَت إلى الكُفر.

ولقد سمِعتُ بعضَ مَن كُنتُ أظُنُّ فيهِ كثرةَ الخير، وهو[٢] يقولُ في ليالي موتِه: «ربِّي هو ذا يظلِمُني»! فلم أزلْ مُنزعِجًا مُهتمًّا بتحصيلِ عُدّةٍ ألقى بها

(١) رواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (١٩١٧)، والبيهقي في السنن الصغير (١٦).
(٢) سقطت من (ك، س).

ذلك القُرب. كيف وقد رُوِيَ أنّ الشيطانَ يقولُ لأعوانِه في تلك الساعة: «عليكُم بهذا، فإن فاتكُم لم تقدِرُوا عليه»؟! وأيُّ قلبٍ يثبُتُ عِند إمساكِ النفَس، والأخذِ بالكَظَم[1]، ونزعِ النفسِ والعِلمِ بمُفارقةِ المحبُوباتِ إلى ما لا يدري ما هو، وليس في ظاهِرِه إلا القبرُ والبِلى.

فنسألُ الله عز وجل يَقِينًا يَقِينا شرَّ ذلك اليوم، لعلَّنا نصبِرُ للقضاء، أو نرضى به، ونرغبُ إلى مالِكِ الأُمُورِ في أن يهبَ لنا مِن فواضِلِ نِعَمِهِ على أحبابِه، حتى يكُونَ لقاؤُهُ أحبَّ إلينا مِن بقائنا، وتفويضُنا إلى تقديرِه أشهى عندنا مِن اختيارِنا، ونعُوذُ بالله مِن اعتِقادِ الكمالِ لتدبيرِنا[2]، حتى إذا انعَكس علينا أمرٌ عُدنا إلى القدَرِ بالتسخُّط، فهذا هو الجهلُ المَحض، والخِذلانُ الصريح، أعاذنا الله مِنه.

٨٨- فَصْلٌ
[سعادةُ العارفين]

ليس في الدنيا ولا في الآخِرةِ أطيَبُ عيشًا مِن العارِفِين بالله عز وجل، فإنّ العارِفَ له مُستأنِسٌ بِهِ في خَلوتِه، فإن عمَّت نِعمةٌ عِلمَ مَن أهداها، وإن مرَّ مُرٌّ حلا مذاقُه في فيه لمعرِفتِه بالمُبتلِي، وإن سألَ فتعوَّقَ مقصُودُه صارَ مُرادُه ما جرى بِهِ القدرُ؛ عِلمًا مِنهُ بالمصلحةِ بعد يقينِه بالحِكمة، وثقتِه بحُسنِ التدبير.

وصِفةُ العارفِ أنّ قلبَه مُراقِبٌ لمعروفِه[3]، قائمٌ بين يدَيه، ناظرٌ بعينِ اليقينِ إليه[4]، فقد سرى مِن بركةِ معرِفتِه إلى الجوارحِ ما هذَّبَها. [البسيط]

---

(١) الكَظَم: مَخرَج النَّفَس من الحَلق.
(٢) سقط «لتدبيرنا» من (ر، ق).
(٣) مراقب لمعروفه: مراقب لربّه كما هو ظاهر السياق.
(٤) سقطت من (ر، ق).

فـإنْ نَطَقــتُ فلَـم أنطِـقْ بغَيرِكُمُ وإنْ سَـكَتُّ فأنتُم عِقدُ إضماري[١]

إذا تسـلَّطَ علـى العـارِفِ أذًى أعـرضَ نظـرُه عـنِ السـبب، ولـم يرَ سِـوى المُسـبِّب، فهو في أطيبِ عيشٍ معه؛ إن سـكتَ تفكَّر في إقامةِ حقِّه، وإن نطقَ تكلَّم بما يُرضيه، لا يسكُنُ قلبُهُ إلى زوجةٍ ولا إلى ولد، ولا يتشبَّثُ بذيلِ محبّةِ أحـد، وإنّما يُعاشِـرُ الخلـقَ ببدنِه، ورَوحُه عِند مالكِ رُوحِـه، فهذا الذي لا همَّ عليـهِ فـي الدنيا، ولا غمَّ عِنده وقتَ الرحيلِ عنها، ولا وحشـةَ له في القبر، ولا خوفَ عليهِ يومَ الحشر.

فأمّـا مَـن عدِمَ المعرِفةَ فإنّه مُغتـرّ، لا يزالُ يضِجُّ مِنَ البـلاء؛ لأنّه لا يعرِفُ المُبتلِي، ويستوحِشُ لفقدِ غرضِه؛ لأنّه لا يعرِفُ المصلحة، ويستأنِسُ بجنسِه؛ لأنّـه لا معرِفـةَ بينـهُ وبين ربِّه، ويخـافُ مِن الرحيـل؛ لأنّه لا زادَ لـه ولا معرِفةَ بالطريق.

وكـم مِـن عالِـمٍ وزاهِدٍ لم يُرزَقـا مِن المعرِفـةِ إلا ما رُزِقهُ العامّـيُّ البطّال، ورُبّما زاد عليهما، وكم مِن عامّيٍّ رُزِقَ مِنها ما لم يُرزقاهُ مع اجتهادِهما، وإنّما هي مواهِبُ وأقسام، ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ [المائدة: ٥٤].

٨٩- فَصْلٌ
[عزُّ التقوى وذلُّ المعصية]

بـالله عليكَ يـا مرفُوعَ القَدرِ بالتقوى، لا تَبِعْ عِزَّهـا بذُلِّ المعاصي، وصابِرْ عطشَ الهوى في هجيرِ[٢] المُشتهى، وإن أمضَّ وأرمَض[٣]، فإذا بلَغتَ النهايةَ

(١) أورده التوحيدي في الصداقة والصديق (ص٣٨)، بلا نسبة.

(٢) الهجير: شدة الحر. (٣) أرمض: أحرق.

مِن الصبرِ فاحتكِم وقُل: هو مقامُ مَن لو أقسمَ على الله لأبرَّه.

تالله لولا قوّةُ[١] صبرِ عُمَرَ ما انبسطَت يدُه بضربِ الأرضِ بالدِّرّة[٢]، ولولا جِدُّ أنسِ بنِ النضرِ في تركِ هواهُ، وقد سمِعتَ مِن آثارِ عَزمَتِه: «لَئن أشهَدَني الله مَشهَدًا لَيرَيَنَّ الله ما أصنعُ»، فأقبلَ يومَ أُحُدٍ يُقاتِلُ حتى قُتِلَ، فلم يُعرَفْ إلا ببنانِه[٣]، فلولا هذا العزمُ ما كان لانبساطِه يومَ: «واللهِ لا تُكسَرُ سِنُّ الرُّبيِّع»[٤] وجهٌ.

باللهِ عليكَ تذوَّقْ حلاوةَ كفِّ الكفِّ عنِ المَنهيّ، فإنّها شجرةٌ تُثمِرُ عِزًّا في الدنيا وشرفًا في الآخِرة، ومتى اشتدَّ عطشُكَ إلى ما تهوى، فابسُطْ أناملَ الرجاءِ إلى مَن عِنده الرِّيُّ الكامل، وقُل: قد عِيلَ[٥] صبرُ الطبعِ في سِنِيهِ العِجاف، فعجِّل لي العامَ الذي أُغاثُ فيهِ[٦] وأعصِر.

باللهِ عليكَ تفكَّر فيمَن قطعَ أكثرَ العُمُرِ في التقوى والطاعة، ثُمّ عَرضَت له فتنةٌ في الأخير؛ كيف نطحَ مَركبُه الجُرُفَ[٧]، فغرقَ وقتَ الصُّعود. أُفٍّ - والله - للدنيا، لا بل للجنّة، إن أوجبَ نَيلُها إعراضَ الحبيب.

إنّما نسبُ العامّيِّ باسمِه واسمِ أبيه، فأمّا ذوُو الأقدارِ فالألقابُ قبلَ الأنساب، قُل لي: مَن أنتَ؟ وما عمَلُك؟ وإلى أيِّ مقامٍ ارتفعَ قدرُك؛ يا مَن لا يصبرُ لحظةً عمّا يشتهي؟

---

(١) سقطت من (ك، ح، س).
(٢) الدِّرّة: السوط.
(٣) البخاري (٢٨٠٥) من حديث أنس رضي الله عنه بمعناه.
(٤) البخاري (٢٧٠٣) من حديث أنس رضي الله عنه بمعناه.
(٥) عِيل: غُلِب.
(٦) سقطت من (ك، ح).
(٧) الجرف: شق الوادي إذا حفر الماء في أسفله.

بالله عليك، أتدري مَنِ الرجُل؟! الرجُلُ ـ والله ـ مَن إذا خلا بما يُحِبُّ مِن المُحرَّم، وقدرَ عليه، وتَقَلقَلَ عطشًا إليه، نظرَ إلى نظرِ الحقِّ إليه، فاستحيا مِن إجالةِ همِّه فيما يكرهُه، فذهبَ العطش، كأنَّكَ ما تترُكُ لنا إلا ما لا تشتهي، أو ما لا تصدُقُ الشهوةُ فيه، أو ما لا تقدِرُ عليه! كذا ـ والله ـ عادتُك إذا صدَقتَ أُعطِيتَ كِسرةً لا تصلُحُ لك، أو في جماعةٍ يمدحُونك.

هيهاتَ والله، لا نِلتَ وِلايتَنا حتى تكُونَ مُعاملتُك لنا خالصةً، تبذُلُ أطايِبَكَ، وتتركُ مُشتهياتِكَ، وتصبرُ على مكرُوهاتِكَ، عِلمًا مِنكَ ـ إن كُنتَ مُعامِلًا ـ بأنّك أجيرٌ وما غَرَبتِ الشمس[1]، فإن كُنتَ مُحبًّا رأيتَ ذلك قليلًا في جنبِ رِضا حبيبِك عنك، وما كلامُنا مع الثالث[2]!

٩٠- فَصْلٌ
[أسرار الحِكمة]

رأيتُ في العقلِ نوعَ مُنازعةٍ للتطلُّعِ إلى جميعِ حِكَمِ الحقِّ عز وجل في حُكمِه، فربّما لم يتبيَّنْ له بعضُها ـ مثلَ النقضِ بعدَ البناءِ ـ فيقفُ مُتحيِّرًا، ورُبّما انتهزَ الشيطانُ تِلكَ الفُرصةَ فوسوسَ إليه: أين الحِكمةُ مِن هذا؟ فقلتُ له: احذر[3] أن تُخدَعَ يا مِسكين، فإنّه قد ثبتَ بالدليلِ القاطِعِ ـ لِما رأيتَ من إتقانِ الصنائع عندكَ ـ حِكمةُ الصانِع، فإن خفيَ عليكَ بعضُ الحِكَم فلِضَعفِ إدراكِك.

ثُمّ ما زالت للمُلوكِ أسرار، فمَن أنتَ حتى تطَّلعَ بضعفِكَ على جميعِ

---

(١) يعني: ما انقضى النهار حتى تأخذ أجرتك.

(٢) الثالث: هو الذي ليس بمحب ولا بأجير، وهو العاصي.

(٣) زاد في (س): «من خدع الشيطان».

حِكَمِه؟! يكفيك الجُمَل، وإيّاك إيّاك أن تتعرَّضَ لِما يخفى عليك، فإنّك بعضُ موضُوعاتِه، وذرّةٌ مِن مصنُوعاتِه، فكيف تتحكَّمُ على مَن صدرتَ عنه؟!

ثُـمّ قد ثبَتَتْ عِندكَ حِكمتُه وحُكمُهُ ومُلكُـه، فأعمِلْ آلتَكَ على قدرِ قُوَّتِكَ فـي مُطالعةِ ما يُمكـنُ مِن الحِكَم، فإنّه سـيُورِثُكَ الدَّهَشَ، وغمِّضْ عمّا يخفى عليك، فحقيقٌ بذي البصرِ الضعيفِ ألا يُقاويَ[1] نُورَ الشمس.

٩١- فَصْلٌ
[مُجاهدة النفس]

أعجـبُ الأشـياءِ مُجاهـدةُ النفـسِ؛ لأنّها تحتـاجُ إلى صِناعـةٍ عجيبة، فإنّ أقوامًا أطلَقوها فيما تُحِبُّ فأوقعَتهم فيما كرِهُوا، وإنّ أقوامًا بالغُوا في خلافِها حتى منعُوها حظَّها وظلَموها حقَّها، وأثَّر ظُلمُهم لها في تعبُّداتِهم.

فمِنهم مَن أساءَ غِذاءَها، فأثَّرَ ذلك ضعفَ بدنِها عن إقامةِ واجِبِها، ومنهم مَن أفردَها في خلوةٍ أثمرتِ الوحشةَ مِن الناس، وآلَت إلى تركِ فرضٍ أو فضلٍ؛ من عيادةِ مريض، أو برِّ والدة.

وإنّما الحازمُ مَن تعلَمُ نفسُـه مِنه الجِدَّ وحِفظَ الأُصُول، فإذا فسـحَ لها في مُبـاحٍ لم تتجاسـرْ أن تتعـدّاه، فيكُونُ معها كالمَلِكِ إذا مـازحَ بعضَ جُندِه، فإنّه لا ينبسِـطُ إليهِ الغُلام، فإن انبسـطَ ذكرَ هيبةَ المَملكة، فكذلك المُحقِّقُ يُعطيها حظَّها، ويستوفي مِنها ما عليها.



---
(١) يقاوي: يغالب.

٩٢- فصل
[إضاعةُ الوقت]

رأيتُ عُمومَ الخلائقِ يدفعُون الزمانَ دفعًا عجيبًا، إن طالَ الليل فبحديثٍ لا ينفع، أو بقراءةِ كِتابٍ فيهِ غَزاةٌ وسَمَرٌ، وإن طالَ النهارُ فبالنوم، وهم في أطرافِ النهارِ على دِجلةَ أو في الأسواق، فشبَّهتُهم بالمُتحدِّثينَ في سفينة، وهي تجري بهم، وما عِندَهم خبر.

ورأيتُ النادِرين قد فهمُوا معنى الوجُود، فهم في تعبئةِ الزادِ والتأهُّبِ للرحيل، إلا أنّهم يتفاوتُون، وسببُ تفاوُتِهم قِلّةُ العِلمِ وكثرتُه بما يَنفُقُ في بلَدِ الإقامة[1]: فالمُتيقِّظون منهم يتطلَّعُون إلى الأخبارِ بالنافقِ هُناك، فيستكثِرُون منه، فيزيدُ ربحُهم. والغافِلُون مِنهم يحمِلُون ما اتّفق، ورُبّما خرجُوا لا مع خَفِير[2]، فكم مِمّن قد[3] قُطِعَتْ عليهِ الطريقُ فبقيَ مُفلِسًا.

فالله الله في مواسِمِ العُمر، والبِدارَ البدارَ قبلَ الفوات، واسترشِدُوا العِلم، واستدِلُّوا الحِكمة، ونافِسُوا الزمان، وناقِشُوا النفوس، واستظهِرُوا بالزاد، فكأن قد حَدا الحادي، فلم يُفهَمْ صوتُه مِن وقعِ دمعِ الندم.

٩٣- فصل
[تخليط العلماء والزُّهّاد]

أضرُّ ما على المريضِ[4] التخليط، وما مِن أحدٍ إلا وهو مريضٌ بالهوى، والحِميةُ عنه رأسُ الدواء، والتخليطُ يُدِيمُ المرض، وتخليطُ أربابِ الآخِرةِ على ضربَين؛ أحدهما: تخليطُ العُلماء، وهو إمّا لمُخالَطةِ الأضدادِ كالسلاطين، فإنّهم

---

(١) بلد الإقامة: المراد الآخرة.

(٢) الخفير: المراد القرآن والسنة.

(٣) سقطت من (س، ر، ق).

(٤) زاد في (س): «هو».

يُضعِفُون قُوى يقينِهم كُلّما زادَت المُخالطة، ويَقدَحون في دليلِهم عِندَ المُريدِين، فإنّي إذا رأيتُ طبيبًا يُخلِّطُ ويَحميني شكَكتُ أو وقَفت. والثاني: تخليطُ الزُّهّاد، وقد يكونُ بمُخالطةِ أربابِ الدنيا، وقد يكونُ بحِفظِ النامُوسِ في إظهارِ التخشُّع لاجتِلابِ محبّةِ العوامّ.

فالله الله، فإنّ ناقدَ الجزاءِ بصير، والإخلاصُ في الباطِن، والصِّدقُ في القلب، ونِعم طريقُ السلامةِ سَترُ الحال.

٩٤- فَصْلٌ
[الدليلُ بالفعل أرشدُ]

لقيتُ مشايخَ أحوالُهم مُختلفةٌ يَتفاوَتون في مقاديرِهم في العِلم، فكان أنفعُهم لي في صُحبتِه العامِلَ مِنهم بعِلمِه، وإن كان غيرُه أعلَمَ مِنه، ولَقِيتُ جماعةً مِن عُلماءِ الحديثِ يحفظُون ويعرِفُون، ولكِنّهم كانوا يَتسامحُون بغِيبةٍ يُخرِجُونها في مخرجِ جرحٍ وتعديل، ويأخُذُون على قِراءةِ الحديثِ أُجرةً، ويُسرِعُون الجوابَ لئلّا ينكسِرَ الجاه، وإن وقعَ خطأً.

ولقيتُ عبدَ الوهّابِ الأنماطيَّ[1]، فكان على قانُونِ السلف، لم يُسمَعْ في مجلِسِه غِيبة، ولا كانَ يطلُبُ أجرًا على سماعِ الحديث، وكُنتُ إذا قرأتُ عليهِ أحاديثَ الرقائقِ بكى واتَّصلَ بُكاؤُه، فكُنتُ - وأنا صغيرُ السِّنّ حينئذٍ - يعمَلُ بُكاؤُهُ في قلبي ويبني قواعِد، وكان على سَمتِ المشايِخِ الذين سمِعنا أوصافهم في النَّقل[2].

---

(١) هو أبو البركات عبد الوهاب بن المبارك بن بندار البغدادي، أحد ثقات السلف، تُوفي سنة ٥٣٨هـ. سير أعلام النبلاء (٢٠: ١٣٤).

(٢) سقط «في النقل» من (ك، س).

ولقيتُ الشيخَ أبا منصورٍ الجَوالِيقيَّ، فكان كثيرَ الصمت، شديدَ التحرِّي فيما يقول، مُتقِنًا مُحقِّقًا، ورُبّما سُئلَ المسألةَ الظاهِرةَ التي يُبادِرُ بجوابِها بعضُ غِلمانِه، فيتوقَّفُ فيها حتى يتيقَّن، وكان كثيرَ الصومِ والصمت[١].

فانتفعتُ برُؤيةِ هذَينِ الرجُلَينِ أكثرَ مِن انتِفاعي بغيرِهما، ففهِمتُ مِن هذه الحالةِ أنّ الدليلَ بالفعلِ أرشدُ من الدليلِ بالقول. ورأيتُ مشايخَ كانت لهم[٢] خَلواتٌ في انبساطٍ ومِزاح، فراحُوا عنِ القُلُوب، وبدَّدَ تبديدُهم ما جمعُوا مِن العِلم، فقلَّ الانتفاعُ بهم في حياتِهم، ونُسُوا بعد مماتِهم، فلا يكادُ أحدٌ يلتفِتَ إلى مُصنَّفاتِهم.

فالله الله في العملِ بالعِلم، فإنّه الأصلُ الأكبر، والمِسكينُ كُلُّ المِسكينِ مَن ضاعَ عُمُرُه في عِلمٍ لم يعمَلْ به، ففاتتهُ لذّاتُ الدنيا وخيراتُ الآخِرة، فقدِمَ مُفلِسًا على قُوّةِ الحُجّةِ عليه.

٩٥- فَصْلٌ
[يُمهِل ولا يُهمِل]

سُبحانَ المَلكِ العظيمِ الذي مَن عرَفَه خافَه، وما أمِنَ مكرَه قطُّ مَن عرَفَه. لقد تأمَّلتُ أمرًا عظيمًا؛ أنّه عز وجل يُمهِلُ حتى كأنّه يُهمِل، فترى أيديَ العُصاةِ مطلَقةً، كأنّه لا مانِع، فإذا زاد الانبِساطُ، ولم ترعوِ العُقُول، أخَذَ أخْذَ جبّارٍ.

وإنّما كان ذلك الإمهالُ ليبلُوَ صبرَ الصابِر، وليُمليَ في الإمهالِ للظالِم، فيُثبِّتَ[٣] هذا على صبره، ويُجازيَ هذا بقبيحِ فِعلِه، مع أنّ هنالِكَ مِن الحِكَمِ

---

(١) سقطت من (ف).
(٢) سقطت من (ك، ح، س، ق).
(٣) في (ف، ك، ق): «فيثيب».

فـي طـيِّ ذلك ما لا نعلمُه، فإذا أَخَذَ أَخْذَ عُقُوبةٍ رأيـتَ على كُلِّ غلطةٍ نَقفةً[١]، ورُبّمـا جُمِعـت فضُـرِبَ العاصـي بالحجـرِ الدامِـغ، ورُبّما خفيَ علـى الناسِ سببُ عُقوبتِه، فقيل: فلانٌ مِن أهلِ الخير، فما وجهُ ما جرى له؟ فيقولُ القدرُ: حُدودٌ لذُنوبٍ خفيّة، صار اسـتيفاؤُها ظاهِرًا، فسُـبحانَ مَن ظهرَ حتى لا خفاءَ به، واسـتترَ حتى كأنّه لا يُعرَف، وأمهلَ حتى طُمِعَ في مُسـامحتِه، وناقشَ حتى تحيَّرتِ العُقُولُ مِن مُؤاخذتِه، فلا حولَ ولا قُوّةَ إلا به.

٩٦- فَصْلٌ
[التلطُّف بالنفس]

تأمَّلتُ العِلمَ والمَيلَ إليه والتشـاغُلَ به، فإذا هو يُقوّي القلبَ قُوّةً تميلُ بهِ إلـى نوعِ قسـاوةٍ[٢]، ولـولا قُوّةُ القلبِ وطُـولُ الأملِ لم يقعِ التشـاغُلُ به، فإنّي أكتُـبُ الحديـثَ، أرجُـو أن أرويَه، وأبتدِئُ بالتصنيـف[٣]، أرجُـو أن أُتِمَّه، فإذا تأمَّلتُ إلى بابِ المُعاملاتِ قلَّ الأمل، ورقَّ القلب، وجاءتِ الدُّمُوع، وطابتِ المُناجاة، وغشِيتِ السكينةُ، وصِرتُ كأنّي في مَقامِ المُراقبة، إلا أنّ العِلمَ أفضلُ وأقوى حُجّةً، وأعلى رُتبةً، وإن حدثَ مِنهُ ما شكوتُ مِنه.

والمُعاملـةُ، وإن كثُـرتِ الفوائـدُ التـي أشَـرتُ إليهـا مِنها، فإنّهـا قريبةٌ إلى أحوالِ الجبانِ الكسـلانِ الذي قدِ اقتنعَ بصلاحِ نفسِـهِ عن هِدايةِ غيرِه، وانفردَ بعُزلتِهِ عنِ اجتذابِ الخلقِ إلى ربِّهم، فالصوابُ العُكوفُ على العِلمِ مع تلذيعِ النفـسِ بأسـبابِ المُرقِّقـات، تلذيعًا لا يقدحُ فـي كمالِ التشـاغُلِ بالعِلم، فإنّي

---

(١) في (ك، س): «نقطة»، والمثبت عن (ف، ح)، يقال: نقَفتُ رأسه بالعصا أنقُفه نقفًا: إذا علوتها، وهو أيسر الضرب.

(٢) في (ف، س): «فساد».

(٣) بعدها في (ف): «الكثير».

لَأكرهُ لنفسـي ـ مِن جِهةِ ضعفِ قلبي ورِقَّتِه ـ أن أُكثِرَ زيارةَ القُبُور، وأن أحضُرَ المُحتضَرِين؛ لأنّ ذلك يُؤثِّرُ في فكري، ويُخرِجُني عن حيِّزِ المُتشاغِلين بالعِلمِ إلى مقامِ الفكرِ في الموت، ولا أنتفِعُ بنفسي مُدّةً.

وفصلُ الخِطابِ في هذا أنّه ينبغي أن يُقاوَمَ المرضُ بضِدِّه، فمَن كان قلبُهُ قاسِيًا شـديدَ القسـوة، وليس عِنده مِن المُراقبةِ ما يكفُّهُ عنِ الخطأ؛ قاومَ ذلك بذِكرِ الموت، ومُحاضرةِ المُحتضَرين، فأمّا مَن قلبُهُ شديدُ الرِّقة، فيكفيهِ ما به، بل ينبغي له أن يتشـاغلَ بما يُنسـيهِ ذلك لينتفِعَ بعيشِـه، وليفهمَ ما يُفتي به، وقد كان الرسـولُ ﷺ يمزح، ويُسـابِقُ عائشـةَ رضي الله عنها[1]، ويتلطَّفُ بنفسِـه، فمَن سـبرَ سِـيرتَه عليه الصلاة السـلام فهِم مِـن مضمُونِها ما قُلتُـه مِن التلطُّفِ بالنفس.

٩٧- فَصْلٌ
[تمثُّل ساعة الاحتضار]

أظـرفُ الأشـياءِ إفاقـةُ المُحتضَـرِ عِندَ موتِه، فإنّـه ينتبهُ انتباهًـا لا يُوصَف، ويقلـقُ قلقًـا لا يُحَـدُّ، ويتلهَّفُ علـى زمانِهِ الماضي، ويـودُّ لو تُـرِكَ والتدارُكَ، وتَصدُقُ توبتُه على مِقدارِ يقينِهِ بالموت، ويكادُ يقتُلُ نفسَه قبلَ موتِها بالأسف.

فلو وُجِدت ذرّةٌ مِن تِلكَ الأحوالِ في أوانِ العافية، حصلَ كُلُّ مقصُودٍ مِن العمـلِ بالتقـوى، فالعاقِلُ مَن مثَّلَ تِلكَ السـاعة، وعمِلَ بمُقتضى ذلك، فإن لم يتهيَّأ تصويرُ ذلك على حقيقتِه تَخايَله على قدرِ يقظتِه، فإنّه يكُفُّ كفَّ الهوى، ويبعثُ على الجِدِّ.

---

(١) رواه أحمد (٢٤١١٩) من حديث عائشة رضي الله عنها، وهو صحيح.

فأمّا مَن كانت تِلكَ الساعةُ نُصبَ عينَيه كان كالأسيرِ لها، كما رُوِي عن حبيبٍ العجميِّ[1] أنّه كان إذا أصبَحَ يقولُ لامرأتِه: «إن مِتُّ اليومَ ففُلانٌ يُغسِّلُني، وفُلانٌ يحمِلُني».

وقال معروفٌ لرجل: «صلِّ بنا الظُّهر»، فقال: «إن صلَّيتُ بكُمُ الظُّهرَ لم أُصلِّ بكمُ العصر»، فقال: «وكأنّك تُؤمِّلُ أن تعيشَ إلى العصر! نعُوذُ باللهِ مِن طُولِ الأمل»[2]. وذكرَ رجُلٌ رجُلًا بين يدَيه بغِيبةٍ فجعلَ معروفٌ يقولُ له: «اذكُرِ القُطنَ إذا وضعُوه على عينَيك»[3].

٩٨- فَصْلٌ
[إشارات المُتيقِّظين]

رُبّما أخذَ المُتيقِّظُ بيتَ شِعر، فأخَذَ مِنهُ إشارة، فانتفعَ بها، قال الجُنيد: ناوَلَني سَرِيٌّ رُقعةً[4] فيها مكتوبٌ: سمِعتُ حاديًا في طريقِ مكّة - شرَّفها الله تعالى - يقول[5]: [الرجز]

أبكِي وما يُدرِيكِ ما يُبكِينِي ... أبكِي حِذارًا أن تُفارِقِينِي
وتَقطعِي حَبلِي وتَهجُرِينِي

فانظُر - رحمك الله ووفَّقك - إلى تأثيرِ هذه الأبياتِ عِندَ سريٍّ، حتى أحبَّ أن يُطلِعَ[6] مِنها الجُنيدَ على ما اطَّلعَ عليه، ولم يصلُحْ للاطلاعِ على مِثلِها إلا

(١) هو أبو محمد البصري، زاهد أهل البصرة، وصاحب الحسن البصري، وكان مجاب الدعوة. سير أعلام النبلاء (٦: ١٤٣)، والخبر رواه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل (٦٤).
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل (١٠٢) بنحوه.
(٣) رواه ابن حمكان في الفوائد والأخبار (٨٧). (٤) سقطت من (ف).
(٥) الرسالة القشيرية (٢: ٥٠٢). (٦) سقطت من (ف).

الجُنيد، فإنّ أقوامًا فيهم كثافةُ طبع، وخُشـونةُ فَهم، قال بعضُهم لمّا سـمِعَ مثلَ هـذه: إلـى مَن يُشـارُ بهـذه؟! إن كان إلى الحـقّ، فالحقُّ عز وجل لا يُشـارُ إليهِ بلفظِ تأنيث، وإن كان إلى امرأة، فأين الزُّهد؟!

ولَعَمـري إنّ هـذا حدُّ أهلِ الغفلةِ إذا سـمِعُوا مِثلَ هـذا، ولِذلِكَ يُنهى عن سماعِ القصائدِ وأقوالِ أهلِ الغِناء؛ لأنّ الغالِبَ حملُ تِلكَ الأبياتِ على مقاصِدِ النفـس، وغلباتِ الهوى، ومن أين لنا مِثلُ الجُنيدِ وسَـرِيٍّ؟ فإذا وجَدنا مِثلَهما فهما خبيرانِ بما يسمعان.

فأمّـا اعتـراضُ هـذا الكثيفِ الطبـعِ فالجواب: أنّ سَـرِيًّا لم يأخذِ الإشـارةَ مِـن اللفـظ، ولم يَقِسْ ذلكَ علـى مطلُوبِه، فيُصيِّرَه تأنيثًا أو تذكيـرًا، وإنّما أخذَ الإشارةَ مِن المعنى، فكأنّه يُخاطِبُ حبيبَه بمعنى الأبيات، فيقول: أبكي حِذارًا مِـن إعراضِـك وإبعادِك، فهذا الحاصِلُ له، وما التفـتَ قطُّ إلى تذكير، ولا إلى لفظِ تأنيث، فافهم هذا.

ومـا زال المُتيقِّظون يأخُذُون الإشـارةَ مِن مِثلِ هـذا، حتى كانوا يأخذُونها مِـن هذا الذي تقولُه العامّـة، ويُلقِّبونه بـ«كان وكان»[1]. فرأيتُ بخطِّ ابنِ عَقيلٍ عن بعضِ مشايِخِهِ الكِبار، أنّه سمِعَ امرأة تُنشِد: «غَسَّلتُ لَهُ طُولَ اللَّيل، فرَّكتُ له طُولَ النهار، خَرَجَ يُعايِنُ غَيرِي، زَلَقَ وَقعَ فِي الطِّين»[2].

فأخـذَ من ذلك إشـارةً معناها: يا عبدِي، إنّي حسَّـنتُ خَلقَكَ، وأصلحتُ شأنَكَ، وقوَّمتُ بِنيتَكَ، فأقبَلتَ على غيري، فانظُر عواقِبَ خِلافِكَ لي.

---

(١) لعله من الغناء الشعبي.

(٢) معجم السفر (١٣).

وقال ابنُ عَقِيل: وسمِعتُ امرأةً تقول: مِن هذا الـ«كان وكان» كلِمةٌ بقيتْ في قلقِها مُدّةً: «كم كُنتُ بالله أقولُ لك، لذا التواني غائلةٌ، وللقبيحِ خميرةٌ تبينُ بعد قليل».

قال ابنُ عَقِيل: فما أوقعَهُ مِن تخجيلٍ على إهمالِنا لأمُورٍ غدًا تبينُ خمائرُها بين يدَيِ الله تعالى[1].

٩٩- فَصْلٌ
[الورع]

أمكنَني تحصيلُ شيءٍ من الدنيا بنوعٍ من أنواعِ الرُّخَص، فكُنتُ كُلَّما حصلَ شيءٌ مِنهُ فاتَني مِن قلبي شيء، وكُلَّما استنارَت لي طريقُ التحصيلِ تجدَّدَ في قلبي ظُلمة، فقُلتُ: يا نفسَ السُّوءِ، الإثمُ حَزّازُ القُلُوب[2]، وقد قال: «استفتِ نفسَك»[3]، فلا خيرَ في الدنيا كُلِّها إذا كانَ في القلبِ من تحصيلِها شيءٌ أوجبَ[4] نوعَ كَدَرٍ، وإنّ الجنّةَ لو حُصِّلَت بسببٍ يقدحُ في الدينِ أو في المُعاملةِ ما لذَّت، والنومُ على المزابِلِ مع سلامةِ القلبِ مِنَ الكَدَرِ ألذُّ مِن تُكَأَةِ المُلوك.

وما زِلتُ أغلِبُ نفسي تارةً وتغلِبُني أُخرى، ثُمّ تدعو الحاجةُ إلى تحصيلِ ما لا بُدَّ لها مِنه، وتقول: فما أتعدّى في الكسبِ المُباحِ في الظاهِر، فقلتُ لها:

---

(١) ذكره ابن مفلح في الآداب الشرعية والمنح المرعية (٢: ١١٢).

(٢) رواه هناد بن السري في الزهد (٢: ٤٦٥)، عن ابن مسعود موقوفًا فقال فيه: «حَوَّازُ».

(٣) رواه أحمد (١٨٠٠١)، قال البخاري في التاريخ الكبير (١: ٤٤٢): ولم يذكر سماع بعضهم من بعض.

(٤) زاد في (ف، ر، ق): «ذلك».

أليس الورعُ يمنعُ مِن هذا؟ قالت: بلى، قُلتُ: أليس القسوةُ في القلبِ تحصلُ به؟ قالت: بلى، قُلتُ: فلا خيرَ لكِ في شيءٍ هذا ثمرتُه.

فخَلوتُ يومًا بنفسي، فقلتُ لها: ويحكِ، اسمَعي أُحدِّثْكِ: إن جمَعتِ شيئًا مِن الدنيا مِن وجهٍ فيهِ شُبهة، أفأنتِ على يقينٍ مِن إنفاقِه؟ قالت: لا، قُلت: فالمِحنةُ أن يَحظى بهِ الغيرُ ولا تنالين إلا الكَدَرَ العاجِل، والوِزرَ الذي لا يُؤمَن!

ويحكِ، اترُكي هذا الذي يمنعُ مِنهُ الورعُ لأجلِ الله، فعامِليهِ بتركِه، فكأنّكِ لا تُريدِينَ أن تترُكي إلا ما هو مُحرَّمٌ فقط أو ما لا يصِحُّ وجهُه! أوَما سمِعتِ أنّ «مَن تركَ شيئًا لله عَوَّضَهُ الله خيرًا مِنه»[١]؟!

أمَا لكِ عِبرةٌ في أقوامٍ جمَعُوا فحازهُ سِواهم، وأمَّلُوا فما بلغُوا مُناهم؟ كم مِن عالِمٍ جمعَ كُتُبًا كثيرةً ما انتفع بها! وكم مِن مُنتفِعٍ ما عِنده عشرةُ أجزاء! كم مِن طيِّبِ العيشِ لا يملكُ دينارَين! وكم مِن ذي قناطِرَ مُنغَّصٌ!

أما لكِ فِطنةٌ تتلمَّحُ أحوالَ مَن يترخَّصُ مِن وجهٍ، فيُسلَبُ مِنهُ مِن أوجُهٍ؟! رُبّما نزلَ المرضُ بصاحِبِ الدارِ أو ببعضِ مَن فيها، فأنفَقَ في سَنتِهِ أضعافَ ما ترخَّصَ في كسبِه، والمُتَّقي مُعافًى.

فضجَّتِ النفسُ مِن لومي، وقالت: إذا لم أتعدَّ واجِبَ الشرع، فما الذي تُريدُ مِنّي؟! فقُلتُ لها: أضِنُّ بكِ عنِ الغَبن، وأنتِ أعرفُ بباطِنِ أمرِك، قالت: فقُل لي: ما أصنعُ؟ قُلتُ: عليكِ بالمُراقبةِ لمَن يراكِ، ومَثِّلي نفسَكِ بحضرةِ مُعظَّمٍ مِنَ الخلق، فإنّكِ بين يدَيِ الملِكِ الأعظم، يرى مِن باطِنِكِ ما لا يراهُ المُعظَّمون مِن ظاهِرِك، فخُذي بالأحوط، واحذَري مِنَ الترخُّصِ في بيعِ

(١) بعدها في (ف، ر، ق): «أمثاله»، والحديث أخرجه أحمد (٢٠٧٣٩) بمعناه، وهو صحيح.

اليقيـنِ والتقـوى بعاجِلِ الهوى، فإنْ وَقَعَ الطبعُ مِمّـا[١] تلقَينَ فقُولي له: مهلًا، فما انقَضتْ مُدّةُ الإشارة، والله مُرشِدُكِ إلى التحقيق، ومُعينُكِ على التوفيق.

١٠٠- فَصْلٌ

[العقوبة بالمِرصاد]

ما زِلتُ أسـمعُ عن جماعـةٍ مِن الأكابرِ وأربابِ المناصِب، أنّهم يشـربُون الخُمُورَ ويفسُـقُون ويظلِمُون، ويفعلُون أشـياءَ تُوجِبُ الحُدود، فبقِيتُ أتفكَّر، وأقُـول: متـى يثبُتُ على مِثلِ هـؤُلاءِ ما يُوجِبُ حدًّا؟ فلو ثبـتَ فمَن[٢] يُقيمُه؟ وأستبعِدُ هذا في العادة؛ لأنّهم في مقامِ احتِرامٍ لأجلِ مناصِبِهم.

فبقِيـتُ أتفكَّـرُ في تعطيلِ الحـدِّ الواجِبِ عليهـم، حتى رأيناهم قـد نُكِبُوا وأُخِـذُوا مـرّاتٍ، ومـرَّت عليهـم العجائـب، فقُوبِـلَ ظُلمُهـم بأخـذِ أموالِهـم، وأُخِـذَت مِنهـم الحُـدودُ مُضاعفةً بعد الحبـسِ الطويل، والقيـدِ الثقيل، والذُّلِّ العظيم، وفيهم مَن قُتِلَ بعد مُلاقاةِ كُلِّ شِدّة، فعَلِمتُ أنّه ما يُهمِلُ شيئًا، فالحذرَ الحذرَ، فإنّ العُقُوبةَ بالمِرصاد.

١٠١- فَصْلٌ

[نعمةُ المال]

اجتهـادُ العاقـلِ فيما يُصلِحُـه لازِمٌ له بمُقتضى العقلِ والشـرع، فمِن ذلك حِفـظُ مالِه، وطلـبُ تنميتِه، والرغبةُ في زيادتِه؛ لأنّ سـببَ بقاءِ الإنسـانِ مالُه، فقـد نُهِـيَ عـنِ التبذيرِ فيه، فقيـل لـه: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾، فأُعلِمَ أنّه سببٌ لبقائه، ﴿ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء: ٥] أي: قِوامًا لمعاشِكُم، وقال

---

(١) في (ف، ر، ق): «بما».

(٢) قوله: «ثبت فمن» سقط من (ر).

عـز وجـل: ﴿وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقـال تعالـى: ﴿وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

ومن فضيلةِ المالِ أنّ الله تعالى قال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وقـال تعالـى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقـال تعالى: ﴿يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ [البقرة: ٢٦١]، وقـال تعالـى: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ﴾ [الحديد: ١٠].

وجعـلَ المـالَ نِعمةً، وزكاتَه تطهيرًا، فقال تعالـى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]. وقـال النبـيُّ[(١)] ﷺ: «نِعـمَ المـالُ الصالِـحُ للرجلِ الصالحِ»، وقال: «ما نفعَني مالٌ كمالِ أبي بكرٍ»[(٢)].

وكان أبو بكرٍ رضي الله عنه يخرُجُ إلى التجارة، ويترُكُ رسولَ الله ﷺ، فلا ينهاهُ عن ذلك، وقال عمرُ بنُ الخطّابِ رضي الله عنه: «لَأن أمُوتَ بين شُعْبتَي جبـلٍ أطلُـبُ كَفافَ وجهـي، أحَبُّ إليَّ مِـن أن أمُوتَ غازيًا في سـبيلِ الله»[(٣)]، وكان جماعـةٌ مِـن الصحابةِ رضـي الله عنهم يتَّجـرُون، ومِن سـاداتِ التابِعين سـعيدُ بـنُ المُسـيِّب، فمـات وخلَّـف مـالًا، وكان يحتكِـرُ الزيـت[(٤)]، وما زال السلفُ على هذا.

---

(١) سقطت من (ك، ح، س)، والحديث تقدم في الفصل ٢٤.

(٢) تقدم في الفصل ٤١.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في إصلاح المال (٢٠٧)، وفيه أبو عقيل يحيى بن المتوكل، وهو ضعيف.

(٤) رواه أحمـد (١٥٧٦١)، وفي هامشـه عن السـندي: قوله: «يحتكر الزيـت»؛ أي: يرى أن الاحتكار الممنوع مخصوص بالقوت، ولا يشمل نحو الزيت.

ثُمّ قد[1] تعرِضُ نوائبُ كالمرض، يُحتاجُ فيها إلى شيءٍ مِن المال، فلا يجِدُ الإنسانُ بُدًّا مِن الاحتيالِ في طَلِبَتِه، فيبذُلُ عِرضَهُ أو دينَه، ثُمّ للنفسِ قُوّةٌ بدنيةٌ عِند وُجُودِ المال، وهو معدودٌ عِند الأطبّاءِ مِن الأدوية؛ حِكمةٌ وضعَها الواضِع.

وإنّما نبغَ أقوامٌ طلبُوا طريقَ الراحة، فادَّعوا أنّهم مُتوكِّلة، وقالوا: نحنُ لا نُمسِكُ شيئًا، ولا نتزوَّدُ لسفر، ورِزقُ الأبدانِ يأتي. وهذا على مُضادّةِ الشرع، فإنّ رسُولَ الله ﷺ نهى عن إضاعةِ المال[2]، ومُوسى عليه السلام لمّا سافرَ في طلبِ الخَضِرِ تزوَّد، ونبيُّنا ﷺ لمّا هاجرَ تزوَّد[3]، وأبلغُ مِن هذا قولُه تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧].

ثُمّ يدَّعي هؤُلاءِ المُتصوِّفةُ بُغضَ الدنيا! فلا يفهمُون ما الذي يَنبغِي أن يُبغَض، ويرون زيادةَ الطلبِ للمالِ حِرصًا وشرَهًا!

وفي الجُملة إنّما اختَرعُوا بآرائهم طريقًا فيها شيءٌ مِن الرهبانيةِ إذا صدقُوا، وشيءٌ مِن البَهرَجةِ إذا نصبُوا شِباكَ الصيدِ بالتزهُّد، فسمَّوا ما يصلُ إليهم مِن الأرزاق: فُتوحًا!

قال ابنُ قتيبةَ في «غريبِ الحديثِ» في قولِه ﷺ: «واليدُ العليا»[4] قال: هي المُعطِيةُ. قال: فالعجبُ عِندي مِن قومٍ يقولُون: هي الآخِذةُ، ولا أرى هؤُلاءِ القومَ إلا قومًا استطابُوا السؤالَ، فهم يحتجُّون للدناءة، فأمّا الشرائعُ فإنّها بريئةٌ مِن حالِهم.

---

(١) سقطت من (ك، ح، س).

(٢) البخاري (٦٤٧٣) من حديث المغيرة رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري (٣٩٠٥) بمعناه من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) البخاري (١٤٢٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وفي الحديث: «ضاقَ البلدُ بمواشِي إبراهيمَ ولُوطٍ عليهما السلام فافترقا»[١]، وكان شُعيبٌ عليه السلام كثيرَ المال، ثُمّ قدَّمَه طمعُه في زيادة الأجرِ مِن مُوسى عليه السلام، فقال: ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ [القصص: ٢٧].

وكان ابنُ عَقيلٍ رحمه الله يقول: «مَن قال: إنّي لا أُحبُّ الدنيا فهو كذّاب، فإنّ يعقوبَ عليه السلام لمّا طُلِب مِنهُ ابنُهُ[٢] بنيامينُ قال: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ﴾ [يوسف: ٦٤]، فقالوا: ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ [يوسف: ٦٥]، فقال: خُذُوهُ».

وقال بعضُ السلف: «مَنِ ادَّعى بُغضَ الدنيا فهو عِندي كذّابٌ إلى أن يثبُتَ[٣] صِدقُه، فإذا ثبتَ صِدقهُ[٤] فهو مجنُونٌ».

وقد نفَّرَ جماعةٌ مِنَ المُتصوِّفةِ خَلقًا مِن الخَلقِ عنِ الكسب، وأوحَشُوا بينهم وبينه، وهُو[٥] دأبُ الأنبياءِ والصالِحِين، وإنّما طلبُوا طريقَ الراحةِ، وجلسُوا على الفتوح، فإذا شبِعُوا رقَصُوا، فإذا انهضمَ الطعامُ أكلُوا، فإن لاحَت لهم حيلةٌ على غنيٍّ أوجبوا عليهِ دعوةً؛ إمّا بسببِ شُكر، أو بسببِ استغفار، وأطمُّ الطامّات: ادِّعاؤُهم أنّ هذا قُربةٌ!

وقدِ انعقدَ إجماعُ العُلماءِ أنّ مَن ادَّعى الرقصَ قُربةً إلى الله تعالى كفَر، فلو أنّهم قالُوا: مُباح، كان أقربَ حالًا؛ وهذا لأنّ القُرَبَ لا تُعرَفُ إلا بالشرع، وليس في الشرعِ أمرٌ بالرقصِ ولا ندبٌ إليه.

---

(١) الظاهر أنه من كلام المؤرخين ولا يصح مرفوعًا.

(٢) سقط «ابنه» من (ر، ق).

(٣) زاد في (س): «عندي».

(٤) سقط «فإذا ثبت صدقه» من (ر، ق).

(٥) زاد في (س): «أي: الكسب».

ولقد بلغَني عن جماعةٍ مِنهم، أنّهم كانُوا يُوقِدُون الشمعَ في وجُوهِ المُردان، وينظُرُون إليهم، فإذا سُئلُوا عن ذلك سخِرُوا بالسائل، وقالوا: نعتَبرُ بخلقِ الله! أفتُراهم أقوى مِن النبيِّ ﷺ حين أجلسَ الشابَّ الذي وفدَ عليهِ مِن وراءِ ظهرِه، وقال: «وهل كانت فِتنةُ داودَ إلا مِن النظر؟!»[١].

هيهات! لقد تملَّكَ الشيطانُ تِلكَ الأزِمّةَ، فقادَها إلى ما أراد، والعجبُ مِمّن يذُمُّ الدنيا، وهو يأكُلُ فيشبع، ولا ينظُرُ مِن أين المَطعم!

وما زال صالِحُو السلفِ[٢] يُفتِّشُون على المَطعِم، حتى كان إبراهيمُ بنُ أدهمَ يسهرُ هو وأصحابُه ويقولُون: مع مَن نعملُ غدًا؟ وكان سَرِيٌّ السقطيُّ يُعرَفُ بطِيبِ الغِذاء، وله في الورعِ مقامات، فجاء قومٌ يتسمَّون بالصُّوفية، يدَّعُون اتِّباعَ أُولئكَ السادة، ويأكُلُونَ مِن مالِ فُلان، وهم يعرِفُون أُصُولَ تِلك الأموال، ويقولُون: رُزِقنا.

فوا عجبًا إذا كان الآكِلُ لا يُبالِي بهِ من أين[٣]؟ ولا امتناعٌ مِن شهوةٍ ولا تقلُّلٌ، ولا يخلُو الرِّباطُ[٤] من المطبخ، ولا ينقطِعُ ليلة، وأصلُه مِن مالٍ قد عُرِف مِن أين هو، والحَمامُ دائر، والمُغنِّي يدُقُّ بدُفٍّ فيهِ جلاجلُ، ورفيقُه بالشَّبّابة[٥]، وسُعدى وليلى في الإنشاد، والمُردانُ في الشَّمعِ، ثُمّ يذُمُّ الدنيا بعد هذا! فقولُوا لنا: مَن يتلهّى بالناس؟ ولكِن مَن مرَّت عليهِ زَرجنتُهم[٦] فإنّه أخسُّ مِنهم.

---

(١) قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٥: ٣٧٧): هذا حديث منكر.

(٢) زاد في (ك، س): «كانوا».

(٣) «لا يبالي به» عن (د).

(٤) الرباط: مكان تجمُّع المتصوِّفة.

(٥) الشَّبّابة: الزَّمّارة.

(٦) الزرجنة: الخديعة.

١٠٢- فصل
[تأمُّلات رحلة الحج]

عرضَ لي في طريقِ الحجِّ خوفٌ مِن العرب، فسِرنا على طريقِ خيبرَ، فرأيتُ مِن الجِبالِ الهائلةِ والطُّرُقِ العجيبةِ ما أذهلَني، وزادت عظمةُ الخالقِ عز وجل في صدري، فصارَ يعرِضُ لي عِندَ ذِكرِ تِلكَ الطريقِ نوعُ تعظيمٍ لا أجِدُه عِند ذِكرِ غيرِها.

فصِحتُ بالنفس: ويحكِ، اعبُري إلى البحر، وانظُري إليهِ وإلى عجائبِه بعينِ الفكر؛ تُشاهِدي أهوالًا هي أعظمُ مِن هذه، ثُمّ اخرُجي عنِ الكونِ والتَفتي إليه، فإنّكِ تَرَينَه بالإضافةِ إلى السماواتِ والأفلاكِ كذرّةٍ في فلاة، ثُمّ جُولي في الأفلاكِ، وطُوفِي حولَ العرشِ، وتلمَّحي ما في الجِنانِ والنيران، ثُمّ اخرُجي عنِ الكُلِّ والتَفتي إليه، فإنّكِ تُشاهِدينَه في قبضةِ القادرِ الذي لا تقفُ قُدرتُه عِند حدٍّ، ثُمّ التفتي إليكِ، فتلمَّحي بدايتَكِ ونهايتَكِ، وتفكَّري فيما قبلَ البدايةِ وليسَ إلا العدم، وفيما بعد البِلى، وليس[1] إلا التُّراب.

فكيف يأنسُ بهذا الوجُودِ مَن نزلَ بعينِ فِكرِهِ المبدأُ والمُنتهى؟! وكيف يغفُلُ فِعلُ القُلُوبِ عن ذِكرِ هذا الإلهِ العظيم؟! باللهِ لو صَحَتِ النفوسُ من سُكرِ هواها لذابَتْ مِن خوفِه، أو لغابتْ من حُبِّه، غيرَ أنّ الحِسَّ غلَب، فعظُمَت قُدرةُ الخالقِ عِند رُؤيةِ جبل، وإنّ الفِطنةَ لو[2] تلمَّحتِ المعانيَ لدلَّتِ الذرّةُ عليهِ أوفى مِن دليلِ الجبل، سُبحانَ مَن شغلَ أكثرَ الخلقِ بما هم فيهِ عمّا خُلِقُوا له، سُبحانه!

---

(١) في (ك، ح، س): «ليس».
(٢) سقطت من (ف، ر، ق).

١٠٣- فَصْلٌ
[للبلايا نهايات]

للبلايا نهاياتٌ معلومةُ الوقتِ عِند الله عز وجل، فلا بُدَّ للمُبتلَى مِن الصبرِ إلـى أن ينقضـيَ أوانُ البـلاء، فـإن تَقلقَلَ قبـلَ الوقتِ لم ينفَـعِ التقلقُل، كما أنّ المـادّةَ إذا انحـدَرَت إلـى عُضـوٍ فإنّهـا لـن ترجع، فلا بُـدَّ مِن الصبـرِ إلى حينِ البطالة، فاستعجالُ زوالِ البلاءِ مع تقديرِ مُدّتِهِ لا ينفع، فالواجبُ الصبر، وإن كانَ الدُّعـاءُ مشـرُوعًا، ولا يُنتفَـعُ إلا به، إلا أنّه لا ينبغي للداعي أن يستعجل، بل يتعبَّدُ بالصبرِ والدعاءِ والتسليمِ إلى الحكيم، ويقطعُ الموادَّ التي كانت سببًا للبـلاء، فـإنّ غالِبَ البـلاءِ أن يكُونَ عُقُوبـة. فأمّا المُسـتعجِلُ فمُزاحِمٌ للمُدبِّر، وليـس هذا مقـامَ العُبُودية، وإنّما المقامُ الأعلى هو الرِّضا، والصبرُ هو اللازِم، والتَّلاحِي بكثرةِ الدعاءِ نِعمَ المُعتمَدُ، والاعتراضُ حرام، والاستعجالُ مُزاحَمةٌ للتدبير، فافهَم هذه الأشياء، فإنّها تُهوِّنُ البلاءَ إن شاء الله تعالى.

١٠٤- فَصْلٌ
[منزلةُ الصبر]

ليـس فـي الوجُودِ شـيءٌ أصعـبُ من الصبـر: إمّا عن المحبُـوب، أو على المكرُوهـات، وخُصُوصًـا إذا امتـدَّ الزمـان، أو وقـعَ اليأسُ مِـن الفرج، وتلك المُدّةُ تحتاجُ إلى زادٍ تقطَعُ بهِ سيرَها[1].

والزادُ يتنوَّعُ مِن أجناس، فمنه تلمُّحُ مِقدارِ البلاء، وقد يُمكِنُ أن يكُونَ أكثرَ، ومنه أنّه في حالِ فوتها أعظمُ مِنها، مِثل أن يُبتلى بفقدِ ولدٍ وعِندهُ أعزُّ مِنه، ومِن

(١) في (ف): «قفرها»، وفي (ح، د، ص): «نفرها»، وفي (ط): «سفرها»، والمثبت عن (س).

ذلك: رجاءُ العِوَضِ في الدنيا، ومِنه تلمُّحُ الأجرِ في الآخِرة، ومِنه التلذُّذُ بتصويرِ المدحِ والثناءِ مِن الخلقِ فيما يمدحُون عليه، والأجرِ مِن الحقِّ عز وجل، ومِن ذلك العِلمُ[١] بأنّ الجزعَ لا يُفيد، بل يفضحُ صاحِبَه، إلى غيرِ ذلك مِن الأشياءِ التي يقدحُها العقلُ والفكر، فليس في طريقِ الصبرِ نفقةٌ سِواها، فينبغي للصابرِ أن يشغلَ بها نفسَه، ويقطعَ بها ساعاتِ ابتلائه، وقد صبَّحَ المنزِلَ.

١٠٥ - فَصْلٌ

[الحِكمة من تأخير الإجابة]

ينبغي لمَن وقعَ في شِدّةٍ ثُمّ دعا، ألا يختلجَ في قلبِه أمرٌ مِن تأخُّرِ الإجابةِ أو عدمِها؛ لأنّ الذي إليهِ أن يدعُو، والمدعوُّ مالكٌ حكيم، فإن لم يُجِبْ فَعَلَ ما يشاءُ في مُلكِه، وإن أخَّرَ فعلَ بمُقتضى حِكمتِه، فالمُعترِضُ عليهِ في سِرِّه خارِجٌ عن صِفةِ عبدٍ، مُزاحِمٌ بمرتبةِ مُستحِقٍّ.

ثُمّ ليعلمْ أنّ اختيارَ الله عز وجل له خيرٌ مِن اختيارِه لنفسِه، فرُبّما سألَ سيلًا[٢] سالَ به، وفي الحديثِ أنّ رجُلًا كانَ يسألُ الله عز وجل أن يرزقَه الجِهاد، فهتفَ بِهِ هاتف: «إنّكَ إن غزوتَ أُسِرتَ، وإن أُسِرتَ تنصَّرتَ»[٣].

فإذا سلَّمَ العبدُ تحكيمًا لحِكمتِه وحُكمِه، وأيقنَ أنّ الكُلَّ مُلكُه، طابَ قلبُه، قُضِيت حاجتُه أو لم تُقضَ، وفي الحديث: «ما مِن مُسلِمٍ دعا الله تعالى إلا وأجابَه، فإمّا أن يُعجِّلَها، وإمّا أن يؤخِّرَها، وإمّا أن يدَّخِرَها له في الآخِرة»[٤].

---

(١) سقطت من (ك، ح، س، د). (٢) في (ح): «سؤلًا».

(٣) تقدم في الفصل ٣٨.

(٤) رواه أحمد (١١١٣٣) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

فإذا رأى يومَ القيامةِ أنّ ما أُجيبَ فيهِ قد ذهبَ، وما لم يُجَبْ فيهِ قد بقيَ ثوابُه، قال: ليتكَ لم تُجِبْ لي دعوةً قطّ. فافهَم هذه الأشياء، وقد سلِمَ قلبُكَ مِن أن يختلِجَ فيهِ ريبٌ أو استعجال.

١٠٦- فَصْلٌ

[فضلُ العالم على العابد]

مَن أرادَ أن يعرِفَ رُتبةَ العُلماءِ على الزُّهّاد، فلينظُرْ في رُتبةِ جِبريلَ وميكائيلَ ومَن خُصَّ مِن الملائكةِ بولايةٍ تتعلَّقُ بالخلق، وباقي الملائكةِ قيامٌ على أقدامِ التعبُّدِ في مراتبِ الرُّهبانِ في الصوامِع، وقد حظيَ أولئك بالتقريبِ على مقاديرِ عِلمِهم بالله تعالى، فإذا أُمِرَ أحدُهم بالوحيِ انزعجَ أهلُ السماءِ حتى يُخبرَهم بالخبر، فـ﴿إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ﴾[1] [سبأ: ٢٣]، كما إذا انزعجَ الزاهِدُ من حديثٍ يسمعُه سألَ العُلماءَ عن صحّتِه ومعناه، فسُبحانَ مَن خَصَّ الخصوصَ بخصائصَ شرُفُوا بها على جِنسِهم.

ولا خَصِيصةَ أشرفُ مِن العِلم، بزيادتِه صارَ آدمُ مسجُودًا له، وبنقصانِه صارتِ الملائكةُ ساجِدةً، فأقربُ الخلقِ مِن الله العُلماء، وليس العِلمُ بمجرَّدِ صُورتِه هو النافِعَ، بل معناه، وإنّما ينالُ معناهُ مَن تعلَّمهُ للعملِ به، فكُلَّما دلَّهُ على فضلٍ اجتهدَ في نَيلِه، وكُلَّما زادَ نهاهُ عن نقصٍ بالغَ في مُباعدتِه، فحينئذٍ يكشِفُ العِلمُ له سِرَّه، ويسهُلُ عليهِ طريقُه، فيصيرُ كمُجتذَبٍ يحُثُّ الجاذِب، فإذا حرَّكهُ عجَّلَ في سَيرِه.

والذي لا يعملُ بالعِلمِ لا يُطلِعُه العِلمُ على غَورِه، ولا يكشِفُ له عن سِترِ

---

(١) البخاري (٤٧٠١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

سِرِّه، فيكونُ كمجذوبٍ لجاذبِ جاذَبَه[1]. فافهمْ هذا المَثل، وحسِّنْ قصدَك، وإلا فلا تتعَبْ.

١٠٧ـ فَصْلٌ
[المُوازنة بين الدنيا والآخرة]

اعلـم أنّ أصلحَ الأُمورِ الاعتدالُ في كُلِّ شيءٍ، وإذا رأينا أربابَ الدنيا قد غلبَت آمالُهم، وفسدَت في الخيرِ أعمالُهم، أمَرناهم بذكرِ الموتِ والقُبُورِ والآخِرة، فأمّا إذا كان العالِمُ لا يغيبُ عن ذِكرِه الموت، وأحاديثُ الآخِرةِ تُقرَأُ عليهِ وتجري على لسانِه، فتَذكارُهُ الموتَ ـ زيادةً على ذلك[2] ـ لا تُفيدُ إلا انقطاعَه بمرَّة.

بل ينبغي لهذا العالِمِ الشديدِ الخوفِ من الله تعالى، الكثيرِ الذِّكرِ للآخِرة، أن يُشاغِلَ نفسَه عن ذِكرِ الموت، ليمتدَّ نفَسُ أملِه قليلًا، فيُصنِّفَ، ويعملَ أعمالَ خيرٍ، ويقدِرَ على طلبِ ولد، فأمّا إذا لهجَ بذكرِ الموتِ كانت مفسدتُه عليهِ أكثرَ مِن مصلحتِه.

ألم تَسمَع أنّ النبيَّ ﷺ سابقَ عائشةَ رضي الله عنها، فسبَقته، وسابقَها فسبقَها[3]؟ وكان يمزحُ ويُشاغِلُ نفسه؟ فإنّ مُطالعةَ الحقائقِ على التحقيقِ تُفسدُ البدن وتُزعجُ النفس، وقد رُوِيَ عن أحمدَ بنِ حنبلٍ رحمةُ الله عليه أنّه سألَ الله تعالى أن يفتحَ عليهِ بابَ الخوف، ففتحَ عليه، فخاف على عقلِه، فسأل الله أن يردَّ ذلك عنه. فتأمَّلْ هذا الأصل، فإنّه لا بُدّ مِن مُغالطةِ النفس، وفي ذلك صلاحُها، والسلام.

---

(١) في (ك، ح): «كمحدوث لحادث حادثه».
(٢) بعدها في (ر): «القدر».
(٣) تقدم في الفصل ٩٦.

١٠٨- فَصْلٌ
[طلبُ المعالي]

مَن أعملَ فِكرَه الصافيَ دلَّه على طلبِ[١] أشرفِ المقاماتِ، ونهاهُ عنِ الرِّضا بالنقصِ في كُلِّ حالٍ، وقد قال أبو الطيِّبِ المتنبِّي[٢]: [الوافر]

ولَم أرَ في عُيُوبِ الناسِ شَيئًا   كنَقصِ القادِرِينَ عَلى التَّمامِ

فينبغي للعاقِلِ أن ينتهيَ إلى غايةِ ما يُمكِنُه، فلو كان يُتصوَّرُ للآدميِّ صُعُودُ السماوات، لَرأيتَ مِن أقبحِ النقائصِ رِضاهُ بالأرض، ولو كانتِ النبوّةُ تحصُلُ بالاجتِهادِ، لرأيتَ المُقصِّرَ في تحصيلِها في حَضِيضٍ[٣]، غيرَ أنّه إذا لم يُمكِن ذلك فينبغي أن يُطلَبَ المُمكِن.

والسِّيرةُ الجميلةُ عِندَ الحُكماء خُروجُ النفسِ إلى غايةِ كمالِها المُمكِنِ لها في العِلمِ والعمل.

وأنا أشرحُ مِن ذلك ما يدُلُّ مذكُورُه على مُغفَلِه: أمّا في البدنِ فليستِ الصُّورةُ داخِلةً تحتَ كسبِ الآدميّ، بل يدخُلُ تحتَ كسبِه تحسينُها وتزيينُها، فقبيحٌ بالعاقلِ إهمالُ نفسِه.

وقد نبَّه الشرعُ على الكُلِّ بالبعض، فأمرَ بقصِّ الأظفار، ونتفِ الإبط، وحلقِ العانة[٤]، ونَهى عن أكلِ الثُّومِ والبصلِ النِّيءِ؛ لأجلِ الرائحة[٥]، وينبغي

---

(١) سقطت من (س، ر، ق).

(٢) ديوان المتنبي (ص٤٨٣).

(٣) الحضيض: القرار من الأرض عند منقطع الجبل.

(٤) بمعناه في البخاري (٥٨٨٩)، ومسلم (٢٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) بمعناه في البخاري (٨٥٤)، ومسلم (٥٦٣) من حديث جابر رضي الله عنهما.

لـه أن يقيسَ على ذلـك، ويطلُبَ غايةَ النظافةِ ونهايةَ الزينة، وقد كان النبيُّ ﷺ يُعرَفُ مجيؤُه بريحِ الطِّيب، فكان الغايةَ في النظافةِ والنزاهة.

ولستُ آمُرُ بزيادةِ التقشُّفِ الذي يستعملُه المُوسوَسُ أوِ المُترَفُون، ولكِنَّ التوسُّطَ هو المَحمُود، ثُمّ ينبغي له أن يَرفُقَ ببدنِه الذي هو راحِلتُه، ولا ينقُصَ مِن قُوتِها، فتنقُصَ قُوّتُها.

ولستُ آمُرُ بالشِّبَعِ الذي يُوجِبُ الجُشاء[1]، إنّما آمُرُ بالتوسُّط، فإنّ قُوى الآدميّ كعينِ جارية، كم فيها مِن منفعةٍ لصاحبِها ولغيرِه؛ ويُعينُ صانعًا، ولا يلتفتُ إلى قولِ المُوسوَسِين مِن المُتزهِّدِين، الذين جدُّوا في التقلُّل، فضعُفُوا عنِ الفرائض، وليس ذلك مِن الشرع، ولا نُقِلَ عن الرسُولِ ﷺ ولا أصحابِه، إنّما كان الرسُولُ ﷺ وأصحابُه إذا لم يجِدُوا جاعُوا، ورُبّما آثرُوا فصبرُوا ضرورة.

وكذلك ينبغي أن ينظُرَ لهذه الراحِلةِ في عَلفِها، فرُبَّ لُقمةٍ منعَتْ لُقمات، فلا يُعطيَها ما يُؤذيها، بل ينظُرُ لها في الأصلح، ولا يتلفَّتُ إلى مُتزهِّدٍ يقول: لا أُبلِّغُها الشهوات، فإنّ النظرَ ينبغي أن يكُونَ في حِلِّ المَطعَم، وأخذِ ما يُصلِحُ بمِقدار.

ولم يُنقَلْ عنِ الرسولِ ﷺ ولا أصحابِه رضي الله عنهم ما أحدثَهُ المُوَسوَسُون من تركِ المُشتهَياتِ على الإطلاق، إنّما نُقِلَ عنهم تركُها لسبب؛ إمّا للنظرِ في حِلِّها، أو للخوفِ مِن مُطالبةِ النفسِ بها في كُلِّ وقت، ونحوِ ذلك.

ثُمّ ينبغي له أن يجتهِدَ في التِّجارةِ والكسب، ليفضُلَ على غيرِه ولا يفضُلَ

---

(١) زاد في (س): «به». والجُشاء: هو صوت مع ريح يحصل من الفم عند حصول الشِّبَع.

غيرُه عليه، وليبلُغْ مِن ذلك غايةً لا تمنعهُ عنِ العِلم. ثُمّ ينبغي له أن يطلُبَ الغايةَ في العِلم، ومِن أقبحِ النقصِ التقليدُ، فإن قَوِيت همّتُه رقَّتهُ إلى أن يختارَ لنفسِه مذهبًا ولا يتمذهبَ لأحد، فإنّ المُقلّدَ أعمى يقودُه مُقلَّدُه. ثُمّ ينبغي أن يطلُبَ الغايةَ في معرفةِ الله تعالى ومُعاملتِه، وفي الجُملةِ لا يترُكُ فضيلةً يُمكنُ تحصيلُها إلا حصَّلَها، فإنّ القُنُوعَ بأنزلِ المنازلِ حالةُ الأراذل. [المتقارب]

فكُنْ رَجُلًا رِجلُهُ في الثَّرى وهامةُ هِمَّتِهِ في الثُّرَيّا[1]

ولو أمكَنكَ عُبورُ كُلِّ أحدٍ مِن العُلماءِ والزُّهّادِ فافعَل، فإنّهم كانُوا رِجالًا وأنتَ رجُل، وما قعدَ مَن قعدَ إلا لدناءةِ الهِمّةِ وخساستِها.

واعلم أنّكَ في مَيدانِ سِباق، والأوقاتُ تُنتهَب، ولا تخلُد إلى كسل، فما فاتَ ما فاتَ مَن فاتَ[2] إلا بالكسل، ولا نالَ مَن نالَ إلا بالجِدِّ والعزم، وإنّ الهِمَمَ لتغلِي في القُلُوبِ غليانَ ما في القُدور، وقد قال بعضُ مَن سلفَ[3]: [المديد]

لَيسَ لِي مالٌ سِوى كَرمِي فبِهِ أمنِي مِنَ العَدَمِ
قَنِعَتْ نَفسِي بما رُزِقَتْ وتَمَطَّتْ في العُلا هِمَمِي

١٠٩- فَصْلٌ
[أهمية المال للعالِم]

ليس في الدنيا أنفعُ للعُلماءِ مِن جمعِ المال للاستغناءِ عنِ الناسِ، فإنّه إذا ضُمَّ إلى العِلمِ حِيزَ الكمالُ، وإنّ جمهورَ العُلماءِ شغلَهم العِلمُ عنِ الكسب،

(١) لأبي الحسن النعيمي في الدر الفريد للمستعصمي (٢: ٢٨٨).
(٢) في (ط): «فما فات من فات».
(٣) لأبي العير في مختصر تاريخ دمشق (٣: ٣١١).

فاحتاجُوا إلى ما لا بُدَّ مِنه، وقلَّ الصبرُ، فدخلُوا مداخِلَ شانتهم وإن تأوَّلُوا فيها، إلا أنّ غيرَها كان أحسنَ لهم.

فالزُّهريُّ مع عبدِ الملك، وأبو عُبيدةَ مع طاهرِ بنِ الحُسين، وابنُ أبي الدنيا مُؤدِّبُ المُعتضِد، وابنُ قتيبةَ يُصدِّرُ كتابَه بمدحِ الوزير(١)، وما زال خَلَفٌ مِن العُلماءِ والزُّهّادِ يعيشون في ظلِّ جماعةٍ مِن المعرُوفِين بالظُّلم، وهؤلاء وإن كانوا سلكُوا طريقًا مِن التأويل، فإنّه فُقِدَ مِن قُلوبِهم وكمالِ دينِهم أكثرُ مِمّا نالُوا مِن الدنيا.

وقد رأينا جماعةً مِن المُتصوِّفةِ والعُلماءِ يَغشَونَ الوُلاةَ لأجلِ نَيلِ ما في أيدِيهم، فمِنهم مَن يُداهِنُ ويُرائي، ومِنهم مَن يمدحُ بما لا يجُوز، ومِنهم مَن يسكُتُ عن مُنكَر، إلى غيرِ ذلك مِن المُداهَنات، وسببُها الفقر، فعَلِمنا أنّ كمالَ العِزِّ وبُعدَ الرياءِ إنّما يكُونُ في البُعدِ عنِ العُمّالِ الظَّلَمة.

ولم نرَ مَن(٢) صحَّ له هذا الأمرُ إلا في أحدِ رجُلَين: إمّا مَن كان له مالٌ كسعيدِ بنِ المُسيِّب، كان يتّجِرُ في الزيتِ وغيرِه، وسُفيانَ الثوريِّ، كانت له بضائعُ، وابنِ المُبارك. وإمّا مَن كان شديدَ الصبرِ قَنوعًا بما رُزِقَ وإن لم يكفِه، كبِشرٍ الحافي، وأحمدَ بنِ حنبل. ومتى لم يجدِ الإنسانُ كصبرِ هذَين، ولا كمالِ أُولئك، فالظاهِرُ تقَلُّبُه في المِحَنِ والآفات، ورُبّما تلِفَ دينُه.

---

(١) الزهري هو محمد بن مسلم بن شهاب، الإمام العَلَم، وعبد الملك هو ابن مروان الخليفة المعروف، وأبو عبيدة هو معمر بن المثنى صاحب مجاز القرآن، وطاهر بن الحسين هو قائد جيوش الخليفة المأمون، وابن أبي الدينا هو عبد الله بن محمد البغدادي صاحب التصانيف، والمعتضد هو الخليفة العباسي أحمد بن الموفق بالله بن المتوكل، وابن قتيبة هو عبد الله بن مسلم صاحب أدب الكاتب الذي صدَّره بمدح الوزير أبي الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان.

(٢) زاد في (ف): «صفيّ».

فعليكَ - يا طالبَ العِلم - بالاجتهادِ في جمعِ المالِ للغِنى عنِ الناس، فإنّه يجمَعُ لكَ دينكَ، فما رأينا - في الأغلبِ - مُنافقًا في التديُّنِ والتزهُّدِ والتخشُّع، ولا آفةً طرأتْ على عالِم، إلا بحُبِّ الدنيا، وغالِبُ ذلك الفقر. فأما مَن كان له مَن يكفيه(١)، ثُمّ يطلبُ بتلكَ المُخالَطةِ الزيادةَ، فذلكَ معدودٌ في أهلِ الشَّرَه، خارِجٌ عن حيِّزِ العُلماء، نعُوذُ بالله من تِلكَ الأحوال.

١١٠- فَصْلٌ
[الفقهُ أفضل العلوم]

أعظمُ دليلٍ على فضيلةِ الشيءِ النظرُ إلى ثمرتِه، ومَن تأمَّلَ ثمرةَ الفِقهِ عِلمَ أنّه أفضلُ العُلوم، فإنّ أربابَ المذاهِبِ فاقُوا بالفِقهِ على الخلائقِ أبدًا، وإن كان في زمنِ أحدِهم مَن هو أعلمُ مِنه بالقرآنِ أو بالحديثِ أو باللُّغة.

واعتبر هذا بأهلِ زمانِنا، فإنّكَ ترى الشابَّ يعرفُ مسائلَ الخِلافِ الظاهِرة، فيُستَفتَى، ويعرفُ حُكمَ الله تعالى في الحوادِثِ ما لا يعرفُه النحريرُ مِن باقي العُلماء.

وكم قد رأينا مُبرِّزًا في عِلمِ القُرآنِ أو في الحديث، أو في التفسير، أو في اللُّغة، لا يعرِفُ - مع الشيخوخة(٢) - مُعظمَ أحكامِ الشرع، ورُبّما جهلَ عِلمَ ما ينُوبُه في صلاتِه، على أنّه لا ينبغي للفقيهِ أن يكُونَ أجنبيًّا من باقي العُلوم، فإنّه لا يكُونُ فقيهًا، بل يأخُذُ مِن كُلِّ علمٍ(٣) بحظّ، ثُمّ يتوفَّرُ على الفِقه، فإنّه عِزُّ الدنيا والآخِرة.

(١) في (ط): «ما يكفيه».
(٢) سقط «مع الشيخوخة» من (ك، س)، وسقطت «مع» من (ح، ق).
(٣) سقطت من (ف، ح، ر).

١١١- فَصْلٌ
[محاذرةُ الهوى]

رأيتُ كثيرًا مِن الناسِ يتحرَّزون مِن رشاشِ نَجاسة، ولا يتحاشَون مِن غِيبة، ويُكثرون من الصدقة، ولا يُبالُون بمُعاملاتِ الرِّبا، ويتهجَّدون بالليل، ويؤخِّرون الفريضةَ عنِ الوقتِ، في أشياءَ يطُولُ عددُها؛ مِن حِفظِ فُروعٍ وتضييعِ أصول، فبحثتُ عن سببِ ذلك، فوجدتُه من شيئين؛ أحدهما: العادة. والثاني: غلبةُ الهوى في تحصيلِ المطلُوب، فإنّه قد يغلِبُ فلا يترُكُ سمعًا ولا بصرًا.

ومِن هذا القبيلِ أنّ إخوةَ يُوسُفَ قالوا حينَ سمِعُوا صوتَ المُنادي: ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠]: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ [يوسف: ٧٣]. فجاء في التفسير: أنّهم لمّا دخلُوا مِصرَ كَعَمُوا[1] أفواهَ إبلِهم؛ لئلّا تتناولَ ما ليس لهم، فكأنّهم قالُوا: قد رأيتُم ما صنَعنا بإبلنا، فكيف نسرِق؟! ونسُوا هم تفاوُتَ ما بين الورعِ في اختطافِ أكلةٍ لا يملكُونها، وبين إلقاءِ يُوسُفَ في الجُبِّ وبيعِهِ بثمنٍ بخس!

وفي الناسِ مَن يُطيعُ في صِغارِ الأُمورِ دونَ كِبارِها، وفيما كُلفتُه عليهِ خفيفةٌ أو مُعتادة، وفيما لا ينقُصُ شيئًا مِن عادتِه في مطعمٍ وملبس، فنرى أقوامًا يأخُذُون بالرِّبا، ويقولُ أحدُهم: كيف يراني عدُوّي بعينِ أنّي بِعتُ داري، أو تغيّر مَلبُوسي ومَركُوبي؟ ونرى أقوامًا يُوَسوَسُون في الطهارةِ ويستعملُون الكثيرَ، ولا يتحاشَون مِن غِيبةٍ[2]! وأقوامًا يستعملُون التأويلاتِ الفاسدةَ في تحصيلِ أغراضِهم، مع عِلمِهم أنّها لا تجوز، حتى إنّي رأيتُ رجلًا مِن أهلِ

(١) كعمَ فمَ البعير: شدَّ فاه لئلّا يعضَّ أو يأكل. والخبر ذكره الثعلبي في تفسيره (١٥: ٨٩).
(٢) في (ح): «عيبة».

الخيرِ والتعبُّد، أعطاهُ رجُلٌ مالًا ليبنيَ بهِ مسجِدًا، فأخذهُ لنفسِه، وأنفقَ عِوَضَ الصحيحِ قُراضةً[١]، فلمّا احتُضِرَ قال لذلِك الرجل: اجعَلني في حِلٍّ، فإنّي فعلتُ كذا وكذا. ونرى أقوامًا يترُكون الذنوبَ لبُعدِهم عنها، فقد أَلِفُوا الترك، وإذا قربُوا مِنها لم يتمالكُوا، وفي الناسِ مِن هذه الفُنونِ عجائبُ يطُولُ ذِكرُها.

وقد علِمنا أنّ خلقًا مِن عُلماءِ اليهودِ كانوا يحملون ثِقلَ التعبُّدِ في دينِهم، فلما جاء الإسلامُ وعرَفُوا صِحّته لم يُطيقُوا مُقاومةَ أهوائهم في محوِ رياستِهم، وكذلك قيصر، فإنّه عرَفَ رسُولَ الله ﷺ بالدليل، ثُمّ لم يقدِر على مُقاومةِ هواهُ وتركِ مُلكِه.

فالله في تضييعِ الأصول، ومِن إهمالِ سرحِ الهوى، فإنّه إن أُهمِلَت ماشيتُه نفَشَت في زُروعِ التُّقى، وما مَثَلُ الهوى إلا كسبعٍ في عُنُقِهِ سِلسِلة، فإنِ استوثقَ مِنهُ ضابطُه كفَّه، وربّما لاحَت له شهواتُه الغالبةُ عليه، فلم تُقاومْها السلسلةُ، فأفلَتَ، على أنّ مِن الناسِ مَن يكُفُّ هواهُ بسِلسِلة، ومِنهم مَن يكُفُّه بخَيط، فينبغي للعاقلِ أن يحذرَ شياطينَ الهوى، وأن يكُونَ بصيرًا بما يقوى عليهِ مِن أعدائه، وبمَن يقوى عليه.

١١٢- فَصْلٌ
[حُسن الظن ورطة]

مِن أعظمِ الغلطِ الثقةُ بالناس، والاسترسالُ إلى الأصدِقاء، فإنّ أشدَّ الأعداءِ وأكثرَهم أذًى: الصديقُ المُنقلِبُ عدُوًّا؛ لأنّه قدِ اطّلعَ على خفيِّ السرّ. قال الشاعِر[٢]: [مجزوء الكامل]

(١) القراضة من المال: خسيسه ورديئه.
(٢) البيتان لعلي بن عيسى في محاضرات الأدباء للراغب (٢: ٢٣).

احــــذَرْ عَـــــدُوَّكَ مَـــرَّةً ... واحــذَرْ صَدِيقَكَ ألفَ مَرَّهْ

فلَرُبَّمــا انقَلَــبَ الصَّدِيـــ ... ـقُ فكانَ أدرَى[1] بالمَضَرَّهْ

واعلم أنّ مِن الأمرِ الموضُوعِ في النفوس: الحسدَ على النِّعَم، والغِبطةَ، وحُبَّ الرفعة، فإذا رآكَ مَن يعتقِدُكَ مِثلًا له، وقدِ ارتقيتَ عليه، فلا بُدَّ أن يتأثَّر، ورُبّما حسَد، فإنّ إخوةَ يُوسُفَ عليهم السلام مِن هذا الجِنسِ جرى لهم.

فإن قُلتَ: كيف يبقى الإنسانُ بلا صديق؟! قلتُ لك: أتُراكَ ما تعلمُ أنّ المُجانِسَ[2] يحسُدُ، وأنّ أكثرَ العوامّ يعتقدُون في العالِم أنّه لا يتبسَّم، ولا يتناولُ مِن شهواتِ الدنيا شيئًا، فإذا رأوا بعضَ انبساطِه في المُباحِ هبطَ مِن أعيُنِهم؟ فإذا كانت هذه حالةَ العوامّ، وتِلك حالةَ الخواصّ، فمع مَن تكُونُ المُعاشرة؟!

لا؛ بل ـ والله ـ ما تصحُّ المُعاشرةُ مع النفس؛ لأنّها مُتلوِّنة، وليس إلا المداراةُ للخلقِ والاحترازُ مِنهم، واتّخاذُ المعارِف مِن غيرِ طمعٍ في صديقٍ صادِق، فإن نَدَرَ فليكُن غيرَ مُماثل؛ لأنّ الحسدَ إليهِ أسبق، وليكُن مُرتفِعًا عن رُتبةِ العوامّ، غيرَ طامِعٍ في نيلِ مقامِك، وإن كانت مُعاشرةُ هذا لا تَشفِي؛ لأنّ المُعاشرةَ ينبغي أن تَكُونَ بين العُلماءِ للمُجانِس، لزمهم مِن الإشاراتِ في المُخالطةِ ما تطيبُ به المُجالسة، ولكِن لا سبيلَ إلى الوِصال.

ومِثلُ هذه الحال أنّك إنِ استخدمتَ الأذكياء عرَفُوا باطِنَك، وإنِ استخدمتَ الأبلهَ انعكسَت مقاصِدُك، فاجعلِ الأذكياءَ لحوائجِكَ الخارِجة، والبُلهَ لحوائجِكَ في منزِلك؛ لئلّا يعلمُوا أسرارك، واقنعْ مِن الأصدقاءِ بمَن

---

(١) في (ف، ر، ق): «أعرف».

(٢) في (ف): «المجالس».

وصفتُه لك، ثُمّ لا تلقَهُ إلا مُتدرِّعًا دِرعَ الحذر، ولا تُطلِعْهُ على باطنٍ يُمكِنُ أن يُستَرَ عنه، وكُنْ كما يُقالُ عن الذئب[1]: [الطويل]

يَنــامُ بإحــدى مُقلَتَيــهِ ويَتَّقــي بأُخرى الأعاديَ فهْوَ يَقظانُ هاجِعُ

١١٣- فَصْلٌ

[أهميةُ المال للعالِمِ]

رأيـتُ جماعةً مِمّن أفنى أوائلَ عُمُرِهِ وريعانَ شـبابِهِ في طلبِ العِلم يصبرُ على أنواعِ الأذى، وهجرِ فنونِ الراحاتِ؛ أنَفةً مِن الجهلِ ورذيلتِه، وطلبًا للعِلمِ وفضيلتِـه، فلمّـا نال مِنهُ طرفًا رفعَه عن مراتبِ أربابِ الدنيا، ومَن لا عِلمَ له إلا بالعاجِلِ ضاق بهِ معاشُـه، فسـافرَ البلادَ يطلبُ مِن الأراذِل، ويتواضعُ للسِّـفلةِ وأهلِ الدناءةِ والمُكّاسِ وغيرِهم.

فخاطبـتُ بعضَهـم وقلـتُ: ويحـكَ، أيـن تِلـك الأنفةُ مِـن الجهـلِ، التي سـهرتَ لأجلِها، وأظمـأتَ نهارَكَ بسـببِها، فلمّا ارتفعتَ وانتفعـتَ عُدتَ إلى أسـفلِ سـافِلين؟ أفما بقيَ عِنـدكَ ذرّةٌ مِن الأنفةِ تنبُو بها عـن مقاماتِ الأراذل، ولا معك يسـيرٌ من العِلم يسيرُ بك عن مُناخِ الهوى، ولا حصَّلتَ بالعِلمِ قُوّةً تجذِبُ بها زِمامَ النفسِ عن مراعي السُّـوء؟ غيرَ أنّه يَبِينُ لي أنّ سـهرَكَ وتعبَكَ كأنّه كان لنيلِ الدنيا.

ثُمّ إنّي أراكَ تزعُمُ أنّك تُريدُ شـيئًا من الدنيا لتسـتعينَ بهِ على طلبِ العِلم، فاعلم أنّ التفاتَكَ إلى نوعِ كسـبٍ تسـتغني بهِ عنِ الأراذلِ أفضلُ مِن التزيُّدِ في عِلمِـك، فلـو عرَفـتَ ما تَنقُصُ بهِ لـم ترَ ما قد عزمـتَ عليهِ زيادةً. ومما يحتوي

---

(١) البيت لحميد بن ثور في ديوانه (ص٣١٧).

عليـهِ هذا العزمُ السَّـفرُ الذي كُلُّهُ مُخاطرةٌ بالنفس، وبـذلُ الوجهِ - الذي طالما صِينَ - لمَن لا يصلُحُ التِفاتُ مِثلِك إلى مِثلِه.

وبعيدٌ[1] أن تقنعَ بعدَ شُروعِكَ في هذا الأمرِ بقدرِ الكَفاف، وقد علمتَ ما في السؤالِ بعد الكفافِ مِن الإثم، وأبعدُ مِنه أن تقدِرَ على الورعِ في المأخُوذ! ومَن لكَ بالسلامةِ والرُّجُوعِ إلى الوطن؟ وكم رمى قَفرٌ في بواديهِ مِن هالِكٍ!

ثُـمّ مـا تُحصِّلُه يفنـى، ويبقى مِنهُ ما أُعطـي، وعيبُ المُتَّقين إيّـاك، واقتِداءُ الجاهِليـن بـك، ويكفيـكَ أنّـكَ عُدتَ علـى ما عِلمتَ مِـن ذمِّ الدنيا بشَـينِه؛ إذ فعلتَ ما يناقضُه، خصوصًا وقد مرَّ أكثرُ العُمُر، ومَن أحسنَ فيما مضى يُحسِنُ فيما بقي.

١١٤- فَصْلٌ
[أولوياتُ طالب العلم]

رأيتُ الشَّـرَهَ في تحصيلِ الأشـياءِ يُفوِّتُ النفـسَ مقصودَها، وقد رأينا مَن كان شَـرِهًا في جمعِ المال، فحصلَ له الكثيرُ مِنه، وهو حريصٌ على الازديادِ، ولو فهِمَ عِلم أنّ المُرادَ مِن المالِ إنفاقُهُ في العُمُر، فإذا أنفقَ العُمرَ في تحصيلِه، فاتَ المقصُودانِ جميعًا! وكم رأينا ممَّن جمعَ المالَ ولم يتمتَّعْ به، فأبقاهُ لغيرِه، وأفنى نفسَه! كما قال الشاعِر[2]: [البسيط]

كَـدُودةِ القَزِّ ما تَبنِيـهِ يَهدِمُها ... وغَيرُهـا بالـذي تَبنِيـهِ يَنتَفِعُ

وكذلـك رأينـا خلقًا كثيرًا يحرِصُون على جمعِ الكُتُب، فيُنفِقُون أعمارَهم

---

(١) في (ف): «ويبعد».

(٢) لأبي علي البغدادي في مرآة الزمان (١٩: ٣٥٤).

في كتابتِها، وكذلك أهلُ الحديثِ يُنفِقُون الأعمارَ في النَّسخِ والسماعِ إلى آخِرِ العُمر، ثُمّ ينقسِمون: فمِنهم مَن تَشاغلَ بالحديثِ وعلمِه وتصحيحِه، ولعلَّه لا يفهمُ جوابَ حادِثة، ولعلَّ عِندهُ لحديثِ: «أسلَمُ سالَمَها الله»[1] مئةَ طريق! وقد حُكِيَ لي عن بعضِ أصحابِ الحديثِ أنّه سمِعَ «جزءَ ابنِ عَرفة» عن مئةِ شيخ، وكان عِندَه سبعُون نُسخة.

ومِنهم مَن يجمعُ الكُتُبَ ويسمعُها، ولا يدري ما فيها، لا مِن حيثُ صِحّتُها، ولا مِن فهمِ معناها، فتراهُ يقول: الكِتابُ الفُلانيُّ سماعي، وعِندي به نُسخة، والكِتابُ الفُلانيُّ والفُلانيّ، فلا يعرِفُ عِلمَ ما عِندهُ من حيثُ فهمُ صحيحِه مِن سقيمِه، وقد صدَّهُ اشتِغالُه بذلِك عن المُهِمِّ مِن العِلم! فهم كما قال الحُطَيئة[2]:

[الطويل]

زَوامِلُ للأخبارِ لا عِلمَ عِندَها ... بمُتقَنِها إلا كعِلمِ الأباعِرِ
لَعَمرُكَ ما يَدرِي البَعِيرُ إذا غدا ... بأوساقِهِ أو راحَ ما في الغَرائرِ

ثُمّ ترى مِنهم مَن يتصدَّرُ، ويفتقرُ الزمانُ إلى تصدُّرِه للرواية، فيمُدُّ يدَهُ إلى ما ليس مِن شُغلِه، فإن أفتى أخطأ، وإن تكلَّمَ في الأُصُولِ خلَّط، ولولا أنّي لا أُحِبُّ ذِكرَ الناسِ لَذَكرتُ مِن أخبارِ كِبارِ عُلمائهم وما خلَّطُوا ما يُعتبَرُ به، ولكنّه لا يخفى على المُحقِّقِ حالُهم.

فإن قال قائل: أليس في الحديث: «منهُومانِ لا يشبعانِ: طالبُ عِلمٍ وطالبُ

---

(١) البخاري (٣٥١٣)، ومسلم (٢٥١٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

(٢) لمروان بن أبي حفصة في الكامل للمبرد (٣: ٩٨). والزوامل: جمع زاملة وهي البعير، والأباعر: جمع بعير، والأوساق: جمع وسق وهو الحمل، والغرائر: جمع غريرة وهي الأكياس التي توضع فيها الأحمال.

دنيا»[١]؟ قُلت: أمّا العالِمُ فلا أقولُ له: اشبَعْ من العِلم، ولا اقتَصِرْ على بعضِه، بل أقُولُ له: قدِّمِ المُهِمّ، فإنّ العاقِلَ مَن قدَّرَ عُمُرَه[٢] وعملَ بمُقتضاه، وإن كانَ لا سبيلَ إلى العِلمِ بمِقدارِ العُمر، غيرَ أنّه يَبنِي على الأغلب، فإن وصلَ فقد أعدَّ لكُلِّ مرحلةٍ زادًا، وإن ماتَ قبل الوُصُولِ فنيَّتُه تَسلُكُ.

فإذا علِمَ العاقِلُ أنّ العُمرَ قصير، وأنّ العِلمَ كثير، فقبيحٌ بالعاقِلِ الطالِبِ لكمالِ الفضائلِ أن يتشاغلَ مثلًا بسماعِ الحديثِ ونَسخِه؛ ليُحصِّلَ كُلَّ طريق، وكُلَّ رواية، وكلَّ غريب، وهذا لا يفرُغُ مِن مقصُودِه مِنهُ في خمسين سنة، خصوصًا إن تَشاغلَ بالنَّسخ؛ ثُمّ لا يحفظُ القُرآن، أو يتشاغلُ بعُلومِ القُرآنِ ولا يعرفُ الحديث، أو بالخِلافِ في الفِقهِ ولا يعرفُ النقلَ الذي عليهِ مدارُ المسألة.

فإن قال قائل: فدبِّر لي ما تختارُ لنفسِك، فأقول: ذو الهِمّةِ لا يخفى مِن زمانِ الصِّبا، كما قال سُفيانُ بنُ عُيينة: قال لي أبي وقد بلغتُ خمسَ عشرةَ سنةً: «إنّه قد انقضَت عنك شرائعُ الصِّبا، فاتَّبِعِ الخيرَ تكُنْ مِن أهلِه»، فجعلتُ وصيّةَ أبي قِبلةً أميلُ إليها، ولا أميلُ عنها[٣].

ثُمّ قبلَ شُروعي في الجوابِ أقول: ينبغي لمَن له أَنَفةٌ أن يأنفَ مِن التقصيرِ المُمكِنِ دفعُه عنِ النفس، فلو كانت النبوّةُ مثلًا تأتي بكسبٍ لم يجُز له أن يقنعَ بالولاية، ولو تصوَّرَ أن يكون مثلًا خليفةً لم يحسُنْ بِهِ أن يقنعَ بإمارة، ولو صحَّ له أن يكُونَ مَلِكًا لم يرضَ أن يكُونَ أميرًا.

---

(١) رواه البزار في مسنده (٤٨٨٠).

(٢) في (ف، ر، ق): «علمه».

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في النفقة على العيال (٣٥٦) عن سفيان بن عمرو بن عتبة.

والمقصودُ أن ينتهيَ بالنفسِ إلى كمالِها المُمكنِ لها في العِلمِ والعمل، وقد علِم قِصرَ العُمرِ وكثرةَ العِلمِ، فيبتدِئُ بالقُرآنِ وحفظِه، وينظُرُ في تفسيرِه نظرًا مُتوسِّطًا لا يخفى عليهِ بذلِك مِنهُ شيء، وإن صحَّ له قِراءةُ القراءاتِ السبعة، وشدا أشياءَ مِن النحو، وكُتب اللُّغة.

وابتدأ بأصُولِ الحديث من حيثُ النقلُ - كالصحاحِ والمسانيدِ والسُّننِ - ومن حيثُ عِلمُ الحديث - كمعرِفةِ الضُّعفاءِ والأسماءِ - فلينظُر في أُصُولِ ذلك، وقد رتَّبَ العُلماءُ مِن ذلك ما يَستغني بِهِ الطالِبُ عن التعب.

ولينظُر في التواريخ ليعرفَ ما لا يستغني عنه؛ كنَسَبِ الرسولِ ﷺ وأقاربه وأزواجِه وما جرى له، ثُمّ ليُقبِل على الفِقه، فلينظُر في المذهبِ والخِلاف، وليكُنِ اعتمادُه على مسائلِ الخلاف، فلينظُر في المسألةِ وما تحتوي عليه، فيطلبُه مِن مَظانِّه؛ كتفسيرِ آيةٍ وحديثٍ وكلِمةِ لُغة، ويتشاغلُ بأُصُولِ الفِقهِ وبالفرائض، وليعلَم أنّ الفِقهَ عليهِ مدارُ العُلوم.

ويكفيهِ من النظرِ في[1] الأصولِ ما يُستدَلُّ بِهِ على وُجُودِ الصانِع، فإذا أثبتَه بالدليلِ وعرفَ ما يجُوزُ عليهِ مِمّا لا يجُوز، وأثبتَ إرسالَ الرُّسُل، وعلِمَ وجُوبَ القبولِ مِنهم، فقدِ احتوى على المقصُودِ مِن عِلمِ الأُصُول، فإنِ اتَّسعَ الزمانُ للتزيُّدِ من العِلمِ فليكن من الفقه، فإنّه الأنفع.

ومهما فُسِحَ له في المُهَلِ، فأمكنَه تصنيفٌ في عِلم، فإنّه يُخلِّفُ بذلِك خَلفَه خَلَفًا صالِحًا، مع اجتهادِه في التسبُّبِ إلى اتّخاذِ الولَد.

ثُمّ يعلمُ أنّ الدنيا مَعبَرة، فيلتفتُ إلى فهمِ[2] مُعاملةِ الله عز وجل؛ فإنّ

---

(١) زاد في (س): «علم».
(٢) سقطت من (ك، س، ر).

مجمُـوعَ ما حصَّلَه من العِلمِ يدلُّهُ[1] عليه، فإذا تعرَّض لتحقيقِ معرِفتِه، ووقفَ علـى بـابِ مُعاملتِه، فقلَّ أن يقِفَ صـادِقٌ إلا ويُجذَب إلى مقـامِ الوِلايَة، ومَن أُرِيدَ وُفِّق.

وإنّ الله عـز وجـل أقوامًـا يتولّـى تربيتَهم، ويبعـثُ إليهم في زمـنِ الطُّفولةِ مُؤدِّبًا يُسـمّى العقل، ومُقوِّمًا يُقالُ له: الفهم، ويتولّى تأديبَهم وتَثقِيفَهم، ويُهيِّئُ لهـم أسـبابَ القُـربِ مِنه، فـإن لاح قاطعٌ قطَعهـم عنه، وإن تعرَّضـت بهم فِتنةٌ دفعَها عنهم، نسألُ الله عز وجل أن يجعلَنا مِنهم، ونعُوذُ بهِ مِن خِذلانٍ لا ينفعُ معهُ اجتِهاد.

١١٥- فَصْلٌ
[منزلة المُراقبة]

إنّ للخلوةِ تأثيراتٍ تبينُ في الجَلوة، وكم مِن مُؤمنٍ بالله عز وجل يحترمُهُ عِندَ الخَلوات، فيترُكُ ما يشتهي حذرًا مِن عقابِه، أو رجاءً لثوابِه، أو إجلالًا له، فيكُونُ بذلِك الفِعلِ كأنّه طرحَ عُودًا هِنديًّا على مِجمَر، فيفُوحُ طِيبُه، فيستنشِقُهُ الخلائق، ولا يدرُون أين هو؟

وعلـى قدرِ المُجاهـدةِ في تركِ ما تقوى محبتُه، أو علـى مِقدارِ زيادةِ وقعِ ذلـك المحبوبِ المترُوكِ يزيدُ الطِّيب، ويتفـاوَتُ تفاوُتَ العُـود، فترى عُيُونَ الخلقِ تُعظِّمُ هذا الشـخص، وألسِـنتُهم تمدحُه، ولا يعرِفُون لِمَ؟ ولا يقدِرُون على وصفِه لبُعدِهم عن حقيقةِ معرِفتِه.

وقـد تمتـدُّ هذه الأراييحُ بعد الموتِ على قدرِهـا، فمِنهم مَن يُذكَرُ بالخيرِ

---

(١) في (ك، س، ر): «يدل».

مُدّةً[1] مَدِيدةً، ثُمّ يُنسى، ومِنهم مَن يُذكَرُ مئةَ سنة، ثُمّ يخفى ذِكرُه وقبرُه، ومِنهم أعلامٌ يبقى ذِكرُهم أبدًا.

وعلى عكسِ هذا مَن هابَ الخلقَ، ولم يحترِمْ خلوتَه بالحقّ، فإنّه على قدرِ مبارزتِهِ بالذُّنوب، وعلى مقاديرِ تِلك الذنوب، يفوحُ مِنهُ ريحُ الكراهة، فتَمقتُه القُلُوب، فإن قلَّ مِقدارُ ما جنى قلَّ ذِكرُ الألسُنِ له بالخير، وبقيَ مُجرَّدُ تعظيمِه، وإن كثُرَ كان قُصارى الأمرِ سُكوتَ الناسِ عنه؛ لا يمدحُونه ولا يذُمُّونه.

ورُبَّ خالٍ بذنبٍ كان سببَ وقوعِه في هُوَّةِ شقوةٍ في عيشِ الدنيا والآخِرة، وكأنّه قيل له: ابقَ بما آثرتَ، فيبقى أبدًا في التخبيط، فانظُروا -إخواني- إلى المعاصي أثّرت وعثّرت. قال أبو الدَّرداء رضي الله عنه: «إنّ العبدَ ليخلُو بمعصيةِ الله تعالى، فيُلقي الله بُغضَه في قُلوبِ المُؤمِنين من حيثُ لا يشعُر»[2]. فتلمَّحوا ما سطَرتُه، واعرفُوا ما ذكرتُه، ولا تُهمِلُوا خلواتِكم ولا سرائرَكم، فإنّ الأعمالَ بالنية، والجزاءَ على مِقدارِ الإخلاص.

١١٦- فَصْلٌ

[منزلةُ الرضا]

مَن عرَفَ جريانَ الأقدارِ ثبتَ لها، وأجهلُ الناسِ بعد هذا مَن قاواها؛ لأنّ مُرادَ المُقدّرِ الذُّلُّ له، فإذا قاوَيتَ القدر، فنِلتَ مُرادَكَ مِن ذلك، لم يَبقَ لك ذُلّ، مِثالُ هذا أن يجوعَ الفقير، فيصبِرَ قدرَ الطاقة، فإذا عجزَ خرجَ إلى سُؤالِ الخلق مُستحِيًا مِن الله كيف يسألُهم؟! وإن كان له عُذرٌ بالحاجةِ التي ألجأتهُ غيرَ أنه

---

(١) سقطت من (ف، ح، ر).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (١: ٢١٥) من طريق سالم بن أبي الجعد عن أبي الدرداء، ولم يدرك أبا الدرداء. جامع التحصيل في أحكام المراسيل (ص١٧٩).

يـرى أنّـه مغلوبُ الصبر، فيبقـى مُعتذِرًا مُسـتحِيًا[١]، وذاك المُـرادُ منه. أوَليس يخـرُجُ النبـيُّ ﷺ مـن مكّـة، فلا يقدرُ على العـودِ إليها حتى يدخُـلَ في خِفارةِ المُطعِمِ بنِ عَدِيٍّ وهو كافِر[٢]؟! فسـبحانَ مَن ناطَ الأُمُورَ بالأسـباب؛ ليحصُلَ ذُلُّ العارِفِ بالحاجةِ إلى التسبُّب.

١١٧- فَصْلٌ
[منزلةُ الصبر]

سُـبحانَ المُتصـرِّفِ في خلقِـهِ بالاعتِـزازِ والإذلالِ ليبلُوَ صبرَهـم، ويُظهِرَ جواهِرَهم في الابتِلاء.

هذا آدمُ ﷺ تسجُدُ له الملائكة، ثُمّ بعدَ قليلٍ يخرجُ مِن الجنّة، وهذا نُوحٌ عليه السـلام يُضرَبُ حتى يُغشـى عليه، ثُمّ بعد قليلٍ ينجُو في السفينة، ويَهلِكُ أعـداؤُه، وهـذا الخليلُ عليه السـلام يُلقى في النار، ثُمّ بعـد قليل[٣] يخرُجُ إلى السلامة، وهذا الذبيحُ يُضجَعُ مُستسلِمًا، ثُمّ يَسلَم، ويبقى المدح، وهذا يعقوبُ عليه السلام يذهبُ بصرُه بالفِراق، ثُمّ يعودُ بالوصل، وهذا الكليمُ عليه السلام يشتغِلُ بالرعي، ثُمّ يرقى إلى التكليم، وهذا نبيُّنا ﷺ، يُقال له بالأمس: اليتيم، ويُقلَّبُ في عجائبَ[٤] يُلاقِيها مِن الأعداءِ تارةً، ومِن مكائدِ الفقرِ أخرى، وهو أثبتُ مِن جبلِ حِراء، ثُمّ لمّا تمّ مُرادُهُ مِن الفتح، وبلغَ الغرضَ مِن أكبرِ المُلوكِ وأهلِ الأرض، نزلَ بهِ ضيفُ النُّقلة، فقال[٥]: «وا كَرْباهُ».

---

(١) زاد بعدها في (ق): «من الله».
(٢) تقدم في الفصل ٤١.
(٣) سقط «بعد قليل» من (ف، ك، ح، ر).
(٤) زاد في (س): «من الرب الرحيم».
(٥) الـذي قـال: «وا كربـاه» فاطمـة رضي الله عنها، وليسـت من كلام رسـول الله ﷺ، ولعله سـهو من المصنف.

فمَن تلمَّحَ بحرَ الدنيا، وعلمَ كيف تُتلقى الأمواج، وكيف يصبرُ على مُدافعةِ الأيّام، لم يستهولْ نُزُولَ بلاء، ولم يفرحْ بعاجلِ رخاء.

١١٨- فَصْلٌ
[التلطُّف بالنفس]

ينبغي للعاقلِ ألّا يُقدِمَ على العزائمِ حتى يزِنَ نفسَه: هل يُطيقُها؟ ويُجرِّبَ نفسَه في رُكوبِ بعضِها سِرًّا مِن الخلق، فإنّه لا يأمنُ أن يُرى في حالةٍ لا يصبِرُ عليها، ثُمّ يعودُ فيُفتضَح. مثالُه: رجُلٌ سمِعَ بذِكرِ الزُّهّاد، فرمى ثيابَه الجميلةَ، ولبسَ الدُّون، وانفردَ في زاوية، وغلبَ على قلبِه ذِكرُ الموتِ والآخِرة، فلم يَلبَثْ مُتقاضي الطبعِ أن ألَحَّ بما جرتْ بِهِ العادة.

فمِن القومِ مَن عادَ بمرّةٍ[1] إلى أكثرَ مِمّا كانَ عليه؛ كأكلِ الناقِهِ[2] مِن مرض، ومنهم مَن توسَّطَ الحال، فبقي كالمُذبذَب. وإنّما العاقِلُ هو الذي يستُرُ نفسَه بين الناسِ بثوبٍ وسط؛ لا يُخرِجُه من أهلِ الخير، ولا يُدخِلهُ في زيِّ أهلِ الفاقةِ، فإن قَوِيت عزيمتُهُ عملَ في بيتِهِ ما يطيق، وتركَ ثوبَ التجمُّلِ لسترِ الحال، ولم يُظهِرْ شيئًا للخلق، فإنّه أبعدُ مِن الرياء، وأسلمُ مِن الفضيحة.

وفي الناسِ مَن غلبَ عليهِ قِصَرُ الأملِ وذِكرُ الآخِرة، حتى دفنَ كُتُبَ العِلم، وهذا الفِعلُ عِندي من أعظمِ الخطأ، وإن كان منقولًا عن جماعةٍ مِن الكِبار، ولقد ذكرتُ هذا لبعضِ مشايخِنا، فقال: أخطؤوا كُلُّهم.

وقد تأوَّلتُ لبعضِهم بأنّه كان فيها أحاديثُ عن قومٍ ضُعفاء، ولم يُميِّزُوها ـ كما رُوِي عن سُفيانَ في دفنِ كُتُبِه ـ أو كان فيها شيءٌ من الرأي، فلم يُحِبُّوا

---

(١) في (ق): «تمرّده».
(٢) الناقه: الذي أفاق من مرض من قريب.

أن يُؤخَـذَ عنهـم، فكان مـن جنسِ تحريـقِ عُثمانَ رضي الله عنـه للمصاحِف؛ لئـلّا يُؤخـذَ بشـيءٍ مِمّا فيها مِـن المُجتمَعِ على غيـرِه، وهذا التأويـلُ يصِحُّ في حـقِّ عُلمائهـم، فأمّا غَسـلُ أحمدَ بـنِ أبي الحـواريّ كُتُبَه وابنِ أسـباطٍ فتفريطٌ محضٌ[1].

فالحـذرَ الحـذرَ مِن فِعلٍ يمنعُ مِنهُ الشـرع، أو من ارتكابِ مـا يُظَنُّ عزيمةً وهو خطيئة، أو مِن إظهارِ ما لا يقوى عليهِ المُظهِر، فيرجِعُ القَهقَرى، و«عليكُم مِن العملِ بما تُطيقُون»[2] كما قال ﷺ.

١١٩- فَصْلٌ
[إيثارُ العاجل على الآجل]

أجهـلُ الجُهّـالِ مَن آثـرَ عاجِلًا على آجِل[3]، لا يأمنُ سُـوءَ مَغبَّتِه، فكم قد سَـمِعنا عن سُـلطانٍ وأميرٍ وصاحِبِ مال، أطلقَ نفسَـهُ في شـهواتِها، ولـم ينظُرْ فـي حـلالٍ وحرام، فنـزلَ بهِ مِن الندمِ وقتَ الموتِ أضعـافُ ما التذَّ، ولقيَ مِن مريرِ الحسـراتِ ما لا يُقاوِمهُ ولا ذرّةً منه كُلُّ لذّة، ولو كان هذا فحسـبُ لكفى حُزنًـا، فكيـف والجزاءُ[4] الدائمُ بين يدَيه؟ فالدنيا محبوبةٌ مطلوبةٌ[5] للطبع، لا ريبَ في ذلك، ولا أُنكِرُ على طالِبِها ومُؤثِرِ شـهواتِها، ولكِن ينبغي له أن ينظُرَ في كسـبِها، ويعلمَ وجهَ أخذِها؛ لتسـلمَ له عاقِبةُ لذّتِه، وإلا فلا خيرَ في لذّةٍ مِن بعدِها النار.

---

(١) تقدم خبرهما في الفصل ١٩.

(٢) البخاري (٤٣)، ومسلم (٧٨٥) من حديث عائشة رضي الله عنها بمعناه.

(٣) «على آجل» عن (س).

(٤) في (ف، ر، ق): «الحزن».

(٥) سقطت من (ك، ح، س، ص، د).

وهل عُدَّ في العقلاءِ قطُّ مَن قيل له: اجلِسْ في المملكةِ سنةً ثُمّ نقتُلُك؟! هيهات، بل الأمرُ بالعكس، وهو أنّ العاقِلَ مَن صابرَ مرارةَ الجَهدِ سنةً بل سِنين؛ ليستريحَ في عاقبتِه، وفي الجُملة أُفٍّ للذّةٍ أعقبتْ عُقُوبة.

وقد أخبرَنا عبدُ الرحمنِ بنُ مُحمدٍ القزازُ، قال: أخبرَنا أبو بكرٍ الخطيبُ، قال: أخبرَنا الحسنُ بنُ أبي طالبٍ، قال: حدَّثنا يُوسُفُ بنُ عُمرَ القوّاسُ، قال: حدَّثنا الحُسينُ بنُ إسماعيلَ إملاءً، قال: حدَّثنا عبدُ الله بنُ أبي سعدٍ، قال: حدَّثنا مُحمدُ بنُ مسلمةَ البلخيُّ، قال: حدَّثنا مُحمّدُ بنُ عليٍّ القُوهُسْتانيُّ، قال: حدَّثنا دُلَفُ بنُ أبي دُلَف، قال: رأيتُ كأنّ آتيًا أتى بعد موتِ أبي، فقال: أجِبِ الأمير، فقمتُ معه، فأدخَلني دارًا وحِشةً وَعِرةً سوداءَ الحيطانِ مُقلَعةَ السُّقوفِ والأبواب[1]، ثُمّ أصعَدني درجًا فيها، ثُمّ أدخَلني غُرفة، فإذا في حيطانِها أثرُ النيران، وإذا في أرضِها أثرُ الرماد، وإذا أبي عُريانٌ واضِعًا رأسَه بين رُكبتَيه، فقال لي كالمُستفهِم: دُلَفُ؟ قُلتُ: نعم، أصلَحَ الله الأمير، فأنشأ يقول: [الخفيف]

أبلِغَنْ أهلَنا ولا تُخفِ عَنهم ... ما لَقِينا في البَرزَخِ الخَنّاقِ
قَد سُئِلنا عَن كُلِّ ما قَد فَعَلنا ... فارحَمُوا وَحشَتِي وما قَد أُلاقِي

أفهمتَ؟ قُلت: نعم، فأنشَأ يقُول[2]: [الوافر]

فَلَو أنّا إذا مِتنا تُرِكنا ... لَكانَ المَوتُ راحةَ كُلِّ حَيِّ
ولَكِنّا إذا مِتنا بُعِثنا ... ونُسألُ بَعدَهُ عن كُلِّ شَيِّ



(١) في (س): «الحيطان مغلقة الأبواب والسقوف».
(٢) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (١٤: ٤١٥).

١٢٠- فَصْلٌ
[أنواع اللّذات]

اللّذاتُ كُلُّها بين حسيٍّ وعقليٍّ، فنهايةُ اللّذاتِ الحسيةِ وأعلاها النكاحُ، وغايةُ اللّذاتِ العقليّةِ العِلمُ، فمَن حصلَت له الغايتانِ في الدنيا فقد نال النهاية، وأنا أُرشِدُ الطالِبَ إلى أعلى المطلُوبَين، غيرَ أنّ للطالبِ المرزوقِ علامةً، وهو أن يكُونَ مرزُوقًا عُلوَّ الهِمّة، وهذه الهمّةُ تُولَدُ مع الطفل، فتراهُ مِن زمنِ طُفُولتِه يطلُبُ معاليَ الأمُور، كما يُروى في الحديثِ أنّه كان لعبدِ المُطَّلبِ مِفرَشٌ في الحِجر، فكان النبيُّ ﷺ يأتي وهو طفلٌ، فيجلسُ عليه، فيقولُ عبدُ المُطَّلب: «إنّ لابني هذا شأنًا»[1].

فإن قال قائل: فإذا كانت لي همّة، ولم أُرزَق ما أطلُب، فما الحيلة؟ فالجواب: أنّه إذا امتنعَ الرِّزقُ مِن نوعٍ لم يمتنِع من نوعٍ آخر، ثُمّ مِن البعيدِ أن يرزُقَك همّةً ولا يُعينَك، فانظُر في حالِك، فلعلّه أعطاكَ شيئًا ما شكرتَه، أو ابتلاك بشيءٍ مِن الهوى ما صبرتَ عنه.

واعلَم أنّه رُبّما زوى[2] عنكَ مِن لذّاتِ الدنيا كثيرًا؛ ليُوفِّرَك على لذّاتِ العِلم، فإنّك ضعيفٌ رُبّما لا تقوى على الجمع، فهو أعلمُ بما يُصلحُك.

وأمّا ما أردتُ شرحَه لك، فإنّ الشابَّ المُبتدِئَ في طلبِ العِلمِ ينبغي له أن يأخُذَ مِن كُلِّ عِلمٍ طرفًا، ويجعلَ عِلمَ الفقهِ الأهمّ، ولا يُقصِّرَ في معرفةِ النقلِ، فبه تبينُ سِيَرُ الكامِلين، وإذا رُزِقَ فصاحةً مِن حيثُ الوضع، ثُمّ أُضيفَ إليها

(١) رواه أبو الوليد الأزرقي في أخبار مكة (١: ٣١٥)، وهو ضعيف.
(٢) زوى الشيءَ: نحّاه وأبعده.

معرفةُ اللُّغةِ والنحو، فقد شُحِذَت شفرةُ لسانِه على أجودِ مِسَنٍّ، ومتى طلبَ العِلمَ لمعرفةِ الحقِّ وخدمةِ الله عز وجل، فُتِحَت له أبوابٌ لا تُفتَحُ لغيرِه.

وينبغي له بالتلطُّفِ أن يجعلَ جُزءًا من زمانِه مصرُوفًا إلى توفيرِ الاكتسابِ والتجارة، مُستنيبًا فيها، غيرَ مُباشرٍ لها، مع التدبيرِ في العيشِ المُمتنعِ مِن الإسرافِ والتبذير، فإن رَقّاهُ العِلمُ والعملُ به إلى درجةِ المعرفة لله عز وجل، فرُبّما شغلَتهُ لذّةُ ما وصلَ إليهِ عن كُلِّ شيء، ويا لها حالةً سليمةً من آفة.

وإن وجدَ مِن طبعهِ مُنازعًا إلى الشوقِ في النِّكاح، فليتخيَّرِ السَّراريّ، فإنّ الحرائرَ ـ في الأغلبِ ـ غُلّ، وليعزِلْ عنِ المملوكاتِ إلى أن يُجرِّبَ خُلُقَهُنَّ ودينَهُنّ، فإن رضيَهنَّ طلبَ الولدَ مِنهنّ، وإلا فالاستبدالُ بهِنَّ سهل، ولا يتزوَّجْ حُرّةً إلا أن يعلمَ أنّها تصبرُ على التزويجِ عليها والتسرِّي، وليكُن قصدُه الاستمتاعَ بها لا إجهادَ النفسِ في الإنزال، فإنّ ذلك يهدِمُ قُوّتَه، فيضعفُ الأصل.

فهذه الطريقُ هي[1] الجامعةُ بين لذّتَي الحِسِّ والعقل، ذكرتُها على وجهِ الإشارة، وفَهمُ الذكيِّ يُملِي عليهِ ما لم أشرحْه.

١٢١ـ فَصْلٌ
في تعليم حفظ العلم

اعلَم أنّ العلمَ يفتقِرُ إلى دوامِ الدراسة، ومِن الغلطِ الانهماكُ على الإعادةِ ليلًا ونهارًا، فإنّه لا يلبثُ صاحِبُ هذه الحالِ إلا أيّامًا، ثُمّ يفتُرُ أو يمرَض.

وقد رُوينا أنّ الطبيبَ دخلَ على أبي بكرِ بنِ الأنباريِّ في مرضِ موتِه، فنظرَ إلى ما به، وقال: قد كنتَ تفعلُ شيئًا لا يفعلُه أحدٌ، ثُمّ خرجَ، فقال: ما

(١) «الطريق هي» عن (ف).

يجيءُ منه شيء، فقيل له: ما الذي كُنتَ تفعل؟ قال: كُنتُ أُعيدُ كُلَّ أسبُوعٍ عشرةَ آلافِ ورقة.

ومِن الغلطِ حِفظُ الكثيرِ أو الحِفظُ مِن فُنونٍ، فإنّ القلبَ جارِحةٌ من الجوارحِ، فكما[1] أنّ مِن الناسِ مَن يحمِلُ المئةَ رِطل، ومِنهم مَن يَعجِزُ عن عِشرين رِطلًا، فكذلك القُلُوب. فليأخُذِ الإنسانُ على قدرِ قُوّتِه ودُونها، فإنّه إذا استنفدَها في وقتٍ ضاعَت مِنهُ أوقات، كما أنّ الشَّرِهَ يأكلُ فضلَ لُقيمات، فيكُونُ سببًا إلى منعِ أكلات.

والصوابُ أن يأخذَ قدرَ ما يُطيقُ، ويعيدَ في وقتَين مِن النهارِ والليل، ويُرَفِّهَ القُوى في بقيّةِ الزمان، والدوامُ أصلٌ عظيم، فكم مِمَّن تركَ بعد الحفظ، فضاعَ زمنٌ طويلٌ في استرجاعِ محفُوظٍ قد نُسِي.

وللحفظِ أوقاتٌ مِن العُمر، فأفضلُها الصِّبا وما يُقاربُه من أوقاتٍ من[2] الزمان، وأفضلُها إعادةً الأسحارُ وأنصافُ النهار، والغُدُواتُ خيرٌ من العَشِيّات، وأوقاتُ الجوعِ خيرٌ من أوقاتِ الشِّبَع.

ولا يُحمَدُ الحفظُ بحضرةِ خُضرةٍ ولا على شاطِئ نهَر؛ لأنّ ذلك يُلهي، والأماكِنُ العاليةُ للحفظِ خيرٌ من السوافل، والخلوةُ أصل، وجمعُ الهمِّ أصلُ الأصول، وترفيهُ النفس من الإعادةِ يومًا في الأسبوع؛ ليثبتَ المحفوظ، وتأخُذَ النفسُ قُوّةً كالبُنيانِ يُترَكُ أيّامًا حتى يستقرَّ ثُمّ يُبنى عليه.

وتقليلُ المحفوظِ مع الدوام أصلٌ عظيم، وألا يشرعَ في فنٍّ حتى يُحكِمَ ما قبله، ومَن لم يَجِدْ نشاطًا للحفظِ فليترُكْه، فإنّ مُكابرةَ النفسِ لا تصلُح.

---

(١) في (ك، ح، س، ص، د): «وكما».

(٢) سقطت من (د).

وإصلاحُ المِزاجِ مِن الأصولِ العظيمة، فإنّ للمأكولاتِ أثرًا في الحِفظ. قال الزُّهريّ: «ما أكلتُ خَلًّا منذُ عالَجتُ الحِفظ»(١)، وقيل لأبي حنيفة: «بمَ يُستعانُ على حفظِ الفقه؟» فقال: «بجمعِ الهمّ»(٢)، وقال حمّادُ بنُ سلمة: «بقِلّةِ الغَمّ»، وقال مكحول: «مَن نظَّفَ ثوبَه قلَّ همُّه، ومَن طابَت ريحُه زادَ عقلُه، ومَن جمعَ بينهما زادت مُروءتُه»(٣).

وأختارُ للمُبتدئ في طلبِ العِلم أن يُدافِعَ النكاحَ مهما أمكن، فإنّ أحمدَ ابنَ حنبلٍ لم يتزوَّجْ حتى تمَّت له أربعون سنةً، وهذا لأجلِ جمعِ الهَمّ، فإن غلبَ عليهِ الأمرُ تزوَّجَ واجتهدَ في المُدافعةِ بالفِعل، لتتوفَّرَ القُوّةُ على إعادةِ العِلم.

ثُمّ لينظُر ما يحفظُ مِن العِلم، فإنّ العُمُرَ عزيزٌ والعِلمَ غزير، وإنّ أقوامًا يصرِفون الزمانَ إلى حفظِ ما غيرُه أولى مِنه، وإن كان كُلُّ العُلومِ حسنًا، ولكِنّ الأولى تقديمُ الأهمِّ والأفضل، وأفضلُ ما تُشوغِلَ بهِ حفظُ القُرآن، ثُمّ الفقه، وما بعد هذا بمنزِلةِ تابِع، ومَن رُزِقَ يقظةً دلَّته يقظتُه، فلم يَحتَجْ إلى دليل، ومَن قصدَ وجهَ الله تعالى بالعِلمِ دلَّه المقصُودُ على الأحسن، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة:٢٨٢].



(١) رواه الفسوي في المعرفة والتاريخ (١: ٦٣٣).
(٢) رواه الخطيب في الفقيه والمتفقه (٢: ١٨٤).
(٣) رواه أبو نعيم في الحلية (٥: ١٨٤).

١٢٢- فَصْلٌ
[الاغترارُ بالسلامة]

مَـن أرادَ دوامَ العافيةِ والسـلامةِ فليتّقِ الله عز وجـل، فإنّه ما مِن عبدٍ أطلقَ نفسَـه في شـيءٍ تُنافِيه التقوى ـ وإن قلَّ ـ إلا وجدَ عقوبةً عاجِلةً أو آجِلةً، ومِن الاغترارِ أن تُسيءَ، فترى إحسانًا، فتظُنَّ أنّك قد سُومِحتَ، وتنسى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]، ورُبّما قالتِ النفس: إنّه يغفُر، فتسامَحَت، ولا شكَّ أنّه يغفِرُ، ولكِن لمَن يشاء.

وأنا أشـرحُ لك حـالًا، فتأمَّلهُ بفكرِك تعرِف معنى المغفـرة، وذلك أنّ مَن هفـا هفـوةً لـم يَقصِدها، ولـم يعزِمْ عليهـا قبل الفعل، ولا عزمَ علـى العودِ بعد الفعـل، ثُـمّ انتبَـه لِما فعل، فاسـتغفَر الله، كان فِعلُه ـ وإن دخلَـه عمدٌ ـ في مقامِ خطأ، مِثلَ أن يعرِضَ له[١] مُستحسَن، فيغلِبَه الطبع، فيُطلِقَ النظر، ويتشاغلَ في حالِ نظرِه بالتذاذِ الطبعِ عن تلمُّحِ معنى النهي، فيكُونَ كالغائبِ أو كالسكران، فإذا انتَبهَ لنفسِهِ ندِمَ على فعلِه، فقامَ الندمُ يَغسلُ تلك الأوساخَ التي كانت كأنّها غلطةٌ لم تُقصَد، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

فأمّـا المُداوِمُ على تلك النظرةِ، المُـردِّدُ لها، المُصرُّ عليها، فكأنّهُ في مقامِ مُتعمِّدٍ للنهي، مُبارزٍ بالخلاف، فالعفوُ يبعُدُ عنهُ بمِقدارِ إصرارِه، ومِن البعيدِ[٢] ألا يـرى الجـزاءَ على ذلك، كما قال ابنُ الجَلّاء: رآني شـيخي وأنا قائمٌ أتأمَّلُ حَدَثًا نصرانيًّا، فقال: «ما هذا؟ لَترينَّ غِبَّها ولو بعدَ حين»، فنسـيتُ القُرآنَ بعدَ أربعينَ سنة[٣].

---

(١) سقطت من (ف، ص).
(٢) في (ك، ح، س، د): «البعد».
(٣) تقدم في الفصل ١٨.

واعلم أنّ مِن أعظمِ المِحَنِ الاغترارَ بالسلامةِ بعد الذنب، فإنّ العُقُوبةَ تتأخَّر، ومن أعظمِ العُقُوبةِ ألا يُحِسَّ الإنسانُ بها، وأن تكُونَ في سلبِ الدين، وطمسِ القلب، وسُوءِ الاختيارِ للنفس، فيكُونَ مِن آثارِها سلامةُ البدنِ وبُلُوغُ الأغراض.

قال بعضُ المُعتبِرين: أطلقتُ مرّةً[1] نظري فيما لا يحِلُّ لي، ثُمّ كُنتُ أنتظِرُ العُقُوبة، فأُلجِئتُ إلى سفرٍ طويلٍ لا نيّةَ لي فيه، فلقِيتُ المَشاقّ، ثُمّ تعقَّبَ ذلك موتُ أعزِّ الخلقِ عِندي، وذَهابُ أشياءَ كان لها وقعٌ عظيمٌ عِندي، ثُمّ تلافيتُ أمري بالتوبة، فصلحَ حالي، ثُمّ عادَ الهوى، فحملَني على إطلاقِ بصري مرّةً أُخرى، فطمَسَ قلبي، وعَدِمتُ رقَّتَه، واستُلِبَ مِنّي ما هو أكثرُ مِن فقدِ الأوّل، ووقعَ لي تعويضٌ عنِ المفقودِ كان فقدُه أصلح، فلمّا تأمَّلتُ ما عُوِّضتُ وما سُلِبَ مِنّي، صِحتُ مِن ألمِ تِلكَ السِّياط، فها أنا أُنادِي مِن على الساحِل: يا[2] إخواني! احذرُوا لُجّةَ هذا البحر، ولا تغترُّوا بسُكُونِه، وعليكُم بالساحِل، ولازِمُوا حِصنَ التقوى، فالعُقُوبةُ مُرّة، واعلمُوا أنّ في مُلازمةِ التقوى مراراتٍ مِن فقدِ الأغراضِ والمُشتهَيات، غيرَ أنّها في ضربِ المَثَلِ كالحِميةِ تُعقِبُ صِحةً، والتخليطُ رُبّما جلبَ موتَ الفجأة.

وباللهِ[3] لو نِمتُم على المزابِلِ مع الكِلابِ في طلبِ رِضا المُبتلِي، كان قليلًا في نَيلِ رِضاه، ولو بلَغتُم نِهايةَ الأمانيِّ مِن أغراضِ الدنيا مع إعراضِه عنكُم، كانت سلامتُكم هلاكًا، وعافيتُكم مرضًا، وصحَّتُكم سقمًا، والأمرُ بآخِرِه، والعاقِلُ مَن تلمَّحَ العواقِب.

(١) سقطت من (ك، ح، س، ص، د).
(٢) سقطت من (ك، ح، س، ص، د).
(٣) زاد في (س): «عليكم».

وصابِرُوا - رحِمكُم الله تعالى - هَجِيرَ البلاء، فما أسرعَ زوالَه! والله المُوفِّق؛ إذ لا حولَ إلا به، ولا قُوّةَ إلا بفضلِه.

١٢٣- فَصْلٌ
[الردُّ على بدعة خلق القرآن]

قـدمَ إلـى بغـدادَ جماعةٌ من أهـلِ البـدعِ الأعاجِـم، فارتقَوا منابِـرَ التذكيرِ للعوامّ، فكان مُعظمُ مجالِسِـهم أنّهم يقولون: ليس لله في الأرضِ كلام، وهل المُصحـفُ إلا ورقٌ وعَفـصٌ وزاجٌ[١]؟ وإنّ الله ليس في السـماء، وإنّ الجاريةَ التي قال لها النبيُّ ﷺ: «أين الله؟»[٢] كانت خرساءَ، فأشارت إلى السماء؛ أي: ليـس هو مِـن الأصنامِ التي تُعبَدُ في الأرض، ثُمّ يقولـون: أين الحُرُوفيةُ الذين يزعُمُون أنّ القرآنَ حرفٌ وصوت؟ هذا عِبارةُ جبريل.

فمـا زالُـوا كذلـك، حتى هانَ تعظيـمُ القُرآنِ في صُـدُورِ أكثرِ العـوامّ، وصار أحدُهم يقول: هذا هو الصحيح، وإلا فالقُرآنُ شيءٌ يجيءُ به[٣] جِبريلُ في كِيسٍ!

فشكا إليَّ جماعةٌ مِن أهلِ السُّنّة، فقلتُ لهم: اصبِرُوا، فلا بُدَّ للشبهاتِ أن تَرفعَ رأسَها في بعضِ الأوقات، وإن كانت مدمُوغةً، وللباطِلِ جولة، والدَّجّالُونَ كثير، وقد لا يخلُو بلدٌ مِمَّن يضرِبُ البهرجَ على مِثْلِ سِكّةِ السُّلطان[٤].

---

(١) العفص: نبات يؤخذ منه الحبر، والزاج: هو الشبّ اليماني، يُستعمَل في خلطة حبر الكتابة.

(٢) مسلم (٥٣٧) من حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه، وفيه: فقال لها: «أين الله؟» قالت: في السماء، قال: «من أنا؟» قالت: أنت رسول الله، قال: «أعتِقْها؛ فإنها مؤمنة». انتهى لفظ الحديث، وليس فيه دليل على أن الجارية كانت خرساء.

(٣) سقطت من (ح، ص).

(٤) أي: لا يخلو بلد ممن يُزيِّفون العملة وفق صورة عملة السلطان.

قال قائل: فما جوابُنا عن قولِهم؟ قلتُ: اعلَم - وفَّقكَ الله تعالى - أنّ الله عز وجل ورسُولَهُ قَنِعا مِن الخلقِ بالإيمانِ بالجُمَل، ولم يُكلِّفا معرِفةَ التفاصيل؛ إمّا لأنّ الاطلاعَ على التفاصيلِ يُخبِّطُ العقائد، وإمّا لأنّ قُوى البشرِ تعجِزُ عن مُطالعةِ ذلك.

فأوّلُ ما جاء به الرسولُ ﷺ إثباتُ الخالق، ونزلَ عليهِ القرآنُ بالدليلِ على وجُودِ الخالقِ بالنظرِ في صُنعِه، فقال تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾ [النمل: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، وما زالَ يستدِلُّ على وجُودِهِ بمخلُوقاتِه، وعلى قُدرتِهِ بمصنُوعاتِه.

ثُمّ أثبتَ نبوّةَ نبيِّه بمُعجزاتِه وكان مِن أعظمِها القُرآنُ الذي جاء به، فعجزَ الخلائقُ عن مِثلِه، واكتفى بهذه الأدِلّةِ جماعةٌ من[1] الصحابة، ومضى على ذلك القرنُ الأوّلُ والمَشرَبُ صافٍ لم يتكدَّر، وعَلِم الله عز وجل ما سيكونُ من البدعِ، فبالغَ في إثباتِ الأدِلّة، وملأَ بها القُرآن.

ولمّا كان القُرآنُ هو منبعَ العُلوم، وأكبرَ المُعجزاتِ للرسول، أكَّدَ الأمرَ فيه، فقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ٩٢]، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ [الإسراء: ٨٢]، فأخبَر أنّه كلامُهُ بقولِه تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الفتح: ١٥]، وأخبَر أنّه مسموعٌ بقولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وأخبَر أنّه محفوظ، فقال تعالى: ﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، وأخبَر أنّه مكتوبٌ ومتلوٌّ، فقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ

---

(١) سقطت من (ف، ك، ح، ر، ص).

بِيَمِينِكَۖ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، إلى ما يطولُ ذكرُه مِن تَعدادِ الآياتِ في هذه المعاني التي تُوجِبُ إثباتَ القُرآن.

ثُمّ نزّه نبيَّهُ ﷺ عن أن يكُونَ أتى بهِ مِن قِبَل نفسِه، فقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [السجدة: ٣]، وتوعَّده[1] لو فعَل، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ [الحاقة: ٤٤]، وقال في حقِّ الزاعمِ أنّه كلامُ الخلقِ حين قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر: ٢٥-٢٦].

ولمّا عذَّبَ كُلَّ أُمّةٍ بنوعِ عذابٍ تولّاهُ بعضُ الملائكة ـ كصيحةِ جِبريلَ عليه السلام بثمودَ، وإرسالِ الريحِ على عاد، والخسفِ بقارون، وقلبِ جِبريلَ دارَ لُوطٍ عليهما السلام، وإرسالِ الطيرِ الأبابيلِ على مَن قصدَ تخريبَ الكعبة ـ تولّى هو بنفسِهِ عِقابَ المُكذِّبين بالقُرآنِ، فقال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِۖ﴾ [القلم: ٤٤]، ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [المدثر: ١١]؛ وهذا لأنّه أصلُ هذه الشرائع، والمُثبِتُ لكلِّ شريعةٍ تقدَّمت؛ لأنّ جميعَ المِلَلِ ليس عِندهم ما يدُلُّ على صِحةِ ما كانوا فيهِ إلا كِتابَنا؛ لأنّ كُتُبَهم غُيِّرت وبُدِّلت.

وقد علِمَ كُلُّ ذي عقلٍ أنّ القائلَ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٥] إنّما أشار إلى ما سمعَه، ولا يختلفُ أُولُو الألبابِ وأهلُ الفهمِ للخطابِ أنّ قولَه: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ [الشعراء: ١٩٢] كنايةٌ عن القرآن، وقولَه: ﴿نَزَلَ بِهِ﴾ [الشعراء: ١٩٣] كنايةٌ أيضًا عنه، وقولَه: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾ [الأنعام: ٩٢] إشارةٌ إلى حاضر. وهذا أمرٌ مستقرٌ لم يختلِف فيهِ أحدٌ مِن القدماءِ في زمنِ الرسولِ ﷺ والصحابةِ رِضوانُ الله عليهم.

---

(١) المثبت عن (س)، وفي سائر النسخ: «وتواعده».

ثُمّ دسَّ الشيطانُ دسائسَ البدع، فقال قوم: هذا المُشارُ إليهِ مخلوقٌ، فثبتَ الإمامُ أحمدُ رحمه الله ثُبُوتًا لم يثبُتْه أحدٌ[1] غيرُه على دفعِ هذا القول؛ لئلا يتطرَّقَ إلى القرآنِ ما يمحُو بعضَ تعظيمِه في النفوس، ويُخرِجُهُ عنِ الإضافةِ إلى الله عز وجل، ورأى أنّ ابتداعَ ما لم يُقَلْ فيهِ لا يجوزُ استعمالُه، فقال: كيف أقولُ ما لم يقُل؟!

ثُمّ لم يختلفِ الناسُ في غير ذلك، إلى أن نشَأ عليُّ بنُ إسماعيلَ الأشعريّ[2]، فقال مرّةً[3] بقولِ المُعتزلة، ثُمّ عَنَّ له، فادَّعى أنّ الكلامَ صِفةٌ قائمةٌ بالنفس! فأوجبَت دعواهُ هذه أنّ ما عِندنا مخلوق، وزادَت فخبطتِ العقائد، فما زالَ أهلُ البدعِ يجُولُون في تيّارِها إلى اليوم.

والكلامُ في هذه المسألةِ مُرتَّبٌ بذكرِ الحُجَجِ والشُّبَهِ في كُتُبِ الأُصُول، فلا أُطِيلُ به هاهُنا، بل أذكرُ لك جُملةً تكفي مَن أراد الله عز وجل هُداه: وهو أنّ الشرعَ قنَعَ منّا بالإيمانِ جُملةً، وبتعظيمِ الظواهِر، ونهى عنِ الخوضِ فيما يُثيرُ غُبارَ شُبهةٍ، ولا تقوى على قطعِ[4] طريقِه أقدامُ الفهم.

وإذا كان قد نهى عنِ الخوضِ في القدَر، فكيف يُجيزُ الخوضَ في صِفاتِ المُقدِّر؟! وما ذاك إلا لأحدِ الأمرَين اللذَين ذكرتُهما؛ إمّا لخوفِ إثارةِ شُبهةٍ تُزلزلُ العقائد، أو لأنّ قُوى البشرِ تعجزُ عن إدراكِ الحقائق.

فإذا كانت ظواهِرُ القرآنِ تُثبتُ وجودَ القرآنِ فقال قائل: ليس هاهنا قُرآن، فقد ردَّ الظواهرَ التي تعِب الرسولُ ﷺ في إثباتِها، وقرَّر وجُودَها في النفُوس،

---

(١) سقطت من (ك، ح، س، ص، د).

(٢) هو أبو الحسن الأشعري، إمام المتكلمين، تُوفي سنة ٣٢٤هـ. سير أعلام النبلاء (١٥: ٨٥).

(٣) في (ف): «مدة».

(٤) سقطت من (ف).

وبماذا يُحِلُّ ويُحرِّم، ويبتُّ ويقطعُ، وليسَ عِندنا مِن الله تعالى تقدُّمٌ بشيءٍ[١]؟! وهل للمُخالفِ دليلٌ إلا أن يقول: «قال الله»، فيعودَ فيُثبتَ ما نفى؟! فليس الصوابُ لمَن وُفِّقَ إلا الوُقُوفَ مع ظاهرِ الشرع!

فإنِ اعترضَه ذو شُبهة، فقال: هذا صوتُك، وهذا خطُّك، فأين القرآن؟! فليقُل له: قد أجمَعنا أنا وأنتَ على وُجُودِ شيءٍ بهِ نحتجُّ جميعًا، وكما أنّك تُنكِرُ عليَّ أن أُثبتَ شيئًا لا يتحقَّقُ لي إثباتُه حِسًّا[٢]، فأنا أُنكِرُ عليكَ كيف تَنفِي وُجُودَ شيءٍ قد ثبتَ شرعًا؟!

وأمّا قولهم: هل في المُصحفِ إلا ورقٌ وعَفصٌ وزاجٌ؟! هذا كقولِ القائل: هل الآدميُّ إلا لحمٌ ودم؟! هيهات! إنّ معنى الآدميِّ هو الرُّوح، فمَن نظرَ إلى اللحمِ والدمِ وقفَ مع الحِسِّ.

فإن قال: فكذا أقول: إنّ المكتوبَ غيرُ الكتابة[٣]، قُلنا له: وهذا مِمّا نُنكِرُه عليك؛ لأنّه لا يثبُتُ تحقيقُ هذا لكَ ولا لخصمِك، فإن أردتَ بالكتابةِ الحبرَ وتخطيطَه فهذا ليس هو القرآن، وإن أردتَ المعنى القائمَ بذلك، فهذا ليس هو الكتابة.

وهذه الأشياءُ لا يصلحُ الخوضُ فيها، فإنّ ما دُونها لا يُمكنُ تحقيقُه على التفصيل؛ كالرُّوح مثلًا، فإنّا نعلمُ وجُودَها في الجُملة، فأمّا حقيقتُها فلا، فإذا جهِلنا حقائقَها كنّا لصفاتِ الحقِّ أجهل، فوجبَ الوُقُوفُ مع السمعيّات، مع نفيِ ما لا يليقُ بالحقّ؛ لأنّ الخوضَ يزيدُ الخائضَ تخبيطًا، ولا يُفيدُه تحصيلًا،

---

(١) تقدُّم بشيء: أي علم سابق.

(٢) في (ف): «أثبت شيئًا على ألا يتحقق في إثباته حسًّا».

(٣) في (ك، س): «الكتاب».

بـل يُوجِـبُ عليـهِ نفـيَ ما يثبُتُ بالسـمعِ مِـن غيرِ تحقيـقِ أمرٍ عقلـيّ، فلا وجهَ للسلامة إلا طريقُ السلف، والسلام.

وكذلـك أقـول: إنّ إثبـاتَ الإلـهِ بظواهرِ الآياتِ والسُّـننِ ألـزَمُ للعوامِّ مِن تحديثِهـم بالتنزيه، وإن كان التنزيـهُ لازمًا، وقد كان ابنُ عَقِيلٍ يقول: «الأصلحُ لاعتقادِ العوامِّ ظواهرُ الآيِ والسُّنن؛ لأنّهم يأنَسُون بالإثبات، فمتى محَونا ذلك مِن قلوبِهم زالتِ السياساتُ والحِشمةُ[١]، وتهافُتُ العوامِّ في التشبيهِ أحَبُّ إليَّ مِن إغراقِهم في التنزيه؛ لأنّ التشبيهَ يغمسُهم في الإثبات، فيطمعُون ويخافُون شيئًا قد أنِسُـوا إلى ما يُخـافُ مِثلُه ويُرجى، فالتنزيهُ يرمي بهـم إلى النفي، ولا طمـعَ ولا مخافـةَ مِـن النفي، ومَن تدبَّر الشـريعةَ رآها غامسـةً[٢] للمُكلَّفِين في التشبيهِ بالألفاظِ التي لا يُعطي ظاهِرُها سواه، كقولِ الأعرابيّ: أوَيضحكُ ربُّنا؟ قال: نعم[٣]، فلم يَكفَهِرَّ مِن هذا القول».

١٢٤- فَصْلٌ
[تكاليف عُلوّ الهمة]

أعظـمُ البلايا أن يُعطيَك هِمّةً عاليةً ويمنعَك مِن العملِ بمُقتضاها، فيكُونَ مِـن تأثيـرِ هِمَّتِـك الأنفـةُ مِن قبُـولِ إرفـاقِ[٤] الخلق، استـثقالًا لحمـلِ مِنَنِهم، ثُـمّ يبتليَـكَ بالفقرِ فتأخُـذَ مِنهـم، ويَلطُفَ مِزاجُـك، فلا تقبلُ مِـن المأكُولاتِ مـا سـهُلَ إحضـارُه، فتحتـاجُ إلى فضلِ نفقـة، ثُمّ يُقلِّـلَ رزقَك، ويُعلِّـقَ همَّتَك

(١) في (ف، ر): «والخشية».
(٢) في سائر النسخ: «عامة»، والتصويب عن سير أعلام النبلاء (١٩: ٤٤٨)، ونصوص الشريعة قرآنًا وسنةً شاهدة بالتنزيه ولا تغمس في التشبيه.
(٣) تقدم في الفصل ٦١.
(٤) أرفقَ به: نفعَه.

بالمُستحسَنات، ويقطعَ بالفقرِ السبيلَ إليهِنّ، ويُريَكَ العُلومَ في مقامِ معشُوق، ويُضعِفَ بدنَك عنِ الإعادة، ويُخليَ يدَيكَ مِن المالِ الذي تُحصِّلُ بهِ الكُتُب، ويُقوِّيَ تَوقَكَ إلى درجاتِ العارِفِين والزُّهّاد، ويُحوِجَكَ إلى مُخالطةِ أربابِ الدنيا، وهذا البلاءُ المُبين.

وأمّا الخسيسُ الهِمّةِ الذي لا يستنكِفُ مِن سُؤالِ الخلق، ولا يرى الاستبدالَ بزوجتِه، ويكتفي بيسيرِ العِلم، ولا يَتُوقُ إلى أحوالِ العارِفين، فذاكَ لا يُؤلِمُهُ فقدُ شيء، ويرى ما وجدَ هو الغاية، فهو يفرحُ فرحَ الأطفالِ بالزخارِف، فما أهونَ الأمرَ عليه!

إنّما البلاءُ على العارِفِ ذي الهِمّةِ العالية، الذي تدعُوهُ هِمّتُه إلى جمعِ الأضدادِ للتزيُّدِ مِن مقامِ الكمال، وتقصُرُ خُطاهُ عن مدارِكِ مقصُودِه، فيا له مِن حالٍ ينفدُ في طريقِهِ زادُ الصابِرين!

ولولا حالاتُ غفلةٍ تعتري هذا المُبتلى يعيشُ بها لكان دوامُ مُلاحظتِهِ للمقاماتِ يُعمِي بصرَه، واجتهادُه في السُّلُوكِ يُحفِي قدمَه، لكنَّ مُلاحظاتِ الإمدادِ له، تارةً ببلوغِ بعضِ مُرادِه، وتارةً بالغفلةِ عمّا قصد. وهذا كلامٌ عزيز، لا يفهمُه إلا أربابُه، ولا يعلمُ كُنهَه إلا أصحابُه.

١٢٥- فَصْلٌ
[حلاوةُ الصبر]

تراعَنَت عليَّ نفسي في طلبِها شيئًا مِن أغراضِها بتأويلٍ فاسِد، فقلتُ لها: باللهِ عليكِ تصبَّري، [فإنّ][1] في المعبَرِ شُغلًا، يحذرُ الغرقَ مِن كثرةِ الموجِ

(١) زيادة من المحقق ليستقيم السياق.

عـنِ التنـزُّهِ فـي عجائبِ البحر. إذا همَمـتِ بفعلٍ فقدِّري حُصُولَـه، ثُمّ تلمَّحي عواقِبَـه ومـا تَجتَنينَ مِـن ثمراتِه، فأقلُّ ذلك الندمُ على ما فعلـتِ، ولا يُؤمَنُ أن يُثمِرَ غضبَ الحقِّ عز وجل وإعراضَهُ عنكِ، فأُفٍّ للقاطِعِ عنهُ ولو كان الجنّةَ.

ثُـمّ اعلمـي ـ أيّتُهـا النفـسُ ـ أنّه ما يَمضِي شـيءٌ جُزافًا، وأنّ ميـزانَ العدلِ تَبينُ فيهِ الذَّرّة، فتلمَّحي الأمواتَ والأحياء، وانظُري إلى مَن نُشِر ذِكرُه بالخيرِ والشرّ، وزيادةِ ذلك ونُقصانِه.

فسُـبحانَ مَـن أظهرَ دليلَ الخَلَـواتِ على أربابِها! حتـى إنّ حبّاتِ القُلُوبِ تتعلَّقُ بأهلِ الخير، وتنفِرُ مِن أهلِ الشرِّ مِن غيرِ مُطالعةٍ لشيءٍ مِن أعمالِ الكُلّ.

قـال إبليـس: أوَتتـرُكُ مُـرادَكَ لأجـلِ الخلـق؟ قلـتُ: لا، إنّما هـذا بعضُ الثمراتِ الحاصلةِ مِن طريقِ الغرض[1]، ونحنُ نرى مَن يَمشِي ثلاثين فرسخًا ليقال: ساعٍ، فالمُتَّقي قد نالَ شرفَ الذِّكرِ ـ وإن لم يقصِدْ نَيلَ ذلك ـ مُترجِّحًا[2] له في وزنِ الجزاء، ﴿سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم: ٩٦].

قالتِ النفس: لقد أمرتَني بالصبرِ على العذاب؛ لأنّ تركَ الأغراضِ عذاب. قُلت: لكِ عنِ الغرضِ عِوَض، ومِن كُلِّ متروكٍ بدَل، وأنتِ في مقامِ مُستعبَدٍ، ولا يصلـحُ للأجيـرِ أن يلبـسَ ثيـابَ الراحةِ في زمـانِ الاسـتئجار، وكلُّ زمانِ المُتَّقي نهارُ صومٍ، ومَن خافَ العقابَ تركَ المُشتهى، ومَن رامَ القُربَ استعملَ الورع، وللصبرِ حلاوةٌ تبينُ في العواقِب.



(١) في (ك، ح، ص): «العرض».

(٢) في (ف، ك، ح، ر): «مسترجحًا».

١٢٦- فَصْلٌ
[خساسةُ الهمم]

مَـن نازَعتـهُ نفسُـهُ إلى لـذّةٍ مُحرَّمة، فشـغلهُ نظـرُهُ إليهـا عن تأمُّـلِ عواقِبِها وعِقابِها، وسمِعَ هُتافَ العقلِ يُناديه: ويحكَ! لا تفعلْ، فإنّكَ تقِفُ عنِ الصُّعود، وتأخُذُ في الهُبوط، ويُقالُ لك: ابقَ بما اخترتَ. فإن شغلَه هواه، فلم يلتفتْ إلى ما قيل له، لم يزلْ في نُزول، وكان مَثَلُه في سوءِ اختيارِه كالمَثَلِ المضروب: أنّ الكلبَ قال للأسـد: يا سـيِّدَ السِّـباعِ غَيِّرِ اسمي، فإنّه قبيح، فقال له: أنتَ خائن، لا يصلُحُ لك غيرُ هذا الاسـم، قال: فجَرِّبني، فأعطاهُ شِـقّةَ لحمٍ، وقال: احفظْ لي هذه إلى غدٍ، وأنا أُغيِّرُ اسـمَك، فجاعَ وجعلَ ينظُرُ إلى اللحمِ ويصبِر، فلمّا غلبَتهُ نفسُه قال: وأيُّ شيءٍ باسمي؟ وما كلبٌ إلا اسمٌ حسن، فأكل[1]. وهكذا الخسيسُ الهِمّةِ القَنوعُ بأقلِّ المنازل، المُختارُ عاجِلَ الهوى على آجِلِ الفضائل.

فالله الله في حريقِ الهوى إذا ثار، وانظُر كيف تُطفِئُه، فرُبَّ زلّةٍ في بئرٍ بوار، ورُبَّ أثرٍ لم ينقلِع، والفائتُ لا يُستدرَكُ على الحقيقة، فابعُد عن أسبابِ الفتنة، فإنّ المُقاربةَ محنة، لا يكادُ صاحِبُها يسلمُ، والسلام.

١٢٧- فَصْلٌ
[حربُ الشيطان]

رأيـتُ الخلقَ كُلَّهم فـي صفٍّ مُحاربةٍ، والشـياطينُ يرمُونهم بنَبلِ الهوى، ويضرِبونهـم بأسـيافِ[2] اللذّة، فأمّا المُخلِّطون فصرعـى من أولِ وقتِ اللقاء،

(١) ذكره ابن رجب في شرح حديث مثل الإسلام (ص٢٠٤).
(٢) في (ف، ر): «بسياط».

وأمّا المُتَّقون ففي جهدٍ جهيدٍ مِن المُجاهدة، فلا بُدَّ - مع طولِ الوُقوفِ في المُحاربة - من جِراح، فهم يُجرَحون ويُداوَون، إلا أنّ القتل محفوظ، بلى إنّ الجِراحةَ في الوجهِ شينٌ باقٍ، فليحذرْ ذلك.

١٢٨ - فَصْلٌ

[الدنيا فخّ]

الدنيا فخٌّ، والجاهِلُ بأولِ نظرةٍ وقع، فأمّا العاقِلُ المُتَّقي فهو يُصابرُ المجاعة، ويدورُ حولَ الحَبِّ، والسلامةُ بعيدة، فكم ممَّن صابرَ واجتهدَ سِنين، ثُمّ في آخِرِ الأمرِ وقع! فالحذرَ الحذرَ، فقد رأينا مَن كان على سَنَنِ الصواب، ثُمّ زَلَّ على شفيرِ القبر.

١٢٩ - فَصْلٌ

[مرارةُ الذنوب]

اعلمُوا - إخواني ومَن يقبلُ نصيحتي - أنّ للذنوبِ تأثيراتٍ قبيحةً، مراراتُها تزيدُ على حلاوتِها أضعافًا مُضاعفةً، والمُجازِي بالمِرصاد، لا يسبقهُ شيءٌ ولا يفُوتُه، أوَليس يُروى في التفسير: أنّ كُلَّ واحِدٍ مِن أولادِ يعقوبَ عليهم السلام - وكانوا اثنَي عشرَ - وُلِدَ له اثنا عشرَ ولدًا إلا يُوسُفَ عليه السلام فإنّه وُلِدَ له أحدَ عشرَ، وجُوزيَ بتلك الهَمّةِ، فنُقِصَ ولدًا[1]؟

فوا أسفًا لمضروبٍ بالسِّياطِ ما يُحِسُّ بالألم، ولِمُثخَنٍ بالجراحِ وما عِندَه من نفسِه خبر، ولمُتقلِّبٍ في عُقوباتٍ ما يدري بها، ولَعمري إنّ أعظمَ العُقُوبةِ ألا يُدرى بالعُقُوبة.

---

(١) تقدم في الفصل ٢٩.

فوا عجبًا للمُغالِطِ نفسَه! يُرضي ربَّه بطاعة، ويسرقُ معصية، ويقول: حسنةٌ وسيئةٌ. وَيْكَ[١]! مِن كِيسِكَ تُنفِق، ومِن بضاعتِكَ تهدِم، ووجهَ جاهِكَ تَشِين، وَيحَكَ[٢]! رُبَّ جراحةٍ قتلَت، ورُبَّ عثرةٍ أهلكَت، ورُبَّ فارِطٍ لا يُستدرَك، وَيحَكَ! انتبِه لنفسِكَ ما الذي تنتظرُ بأوبتِك؟ وماذا تترقَّبُ بتوبتِك؟ آلمَشِيبَ؟ فها هو أوهنَ العظمَ، فماذا بعدَ رحيلِ الأولادِ والأقارِبِ إلا اللَّحاق؟!

قدِّر أنّ ما تُؤمِّلُهُ مِن الدنيا قد حصل، فكان ماذا؟! إمّا هو عاجِل، فشغلكَ عاجلًا[٣]، ثُمّ آخِرُ جُرعةِ اللذةِ شَرقةٌ، [و]إمّا[٤] أن تُفارقَ محبُوبَك ويُفارِقَك، فيا لها جرعةً مريرة، تودُّ عِندها أن لو لم تَرَهُ.

آهٍ لمحجوبِ العقلِ عنِ التأمُّل، ولمصدودٍ عن الوُرودِ وهُو يرى المَنهل، أما في هذه القُبُورِ نذيرٌ؟ أما في كُرُورِ الزمانِ زجرٌ؟! أين مَن ملكَ وبلغَ المُنى فيما أمَّل؟ نادِهم في ناديهم، هيهاتَ صَمُّوا عن مُناديهم، فلو أنّ حسابَهم بالموت، إنّما القُبُورُ هُنَيّةٌ.

العملَ حَصِّلْ يا معدومًا بالأمس، يا مُتلاشيَ الأشلاءِ في الغد، بأيِّ وجهٍ تلقى ربَّك؟ أيُساوي ما تنالُه مِن الهوى لفظُ عِتابٍ؟! باللهِ إنّ الرحمةَ بعد المُعاتبةِ رُبّما لم تَستوفِ قلعَ البُغضةِ[٥] مِن صميمِ القلب، فكيف إن عقَبَ العتابَ عقابٌ؟!

وقد أخبرَنا عبدُ الرحمنِ بنُ مُحمّدٍ القزّازُ، قال: أخبرَنا أبو بكرٍ الخطيب،

---

(١) وَيْكَ: كلمة تعجُّب أو زجر. (٢) عن (ف).

(٣) على حاشيتها في (س): «لعله: آجلًا».

(٤) في جميع النسخ: «إما» بلا واو قبلها، وزدتُها ليستقيم السياق.

(٥) في (ف): «بلغ النغصة».

قال: أخبرَنا مُحمّدُ بنُ الحُسينِ المُعدَّل، قال: أخبرَنا أبو الفضلِ الزهريّ، قال: أخبرَنا أحمدُ بنُ مُحمّدٍ الزَّعفراني، قال: حدَّثنا أبو العبّاسِ بنُ واصِلٍ المقرئُ، قال: سمِعتُ مُحمّدَ بنَ عبدِ الرحمنِ الصَّيرفيّ، قال: «رأى جارٌ لنا يحيى بنَ أكثمَ بعد موتِه في منامِه، فقال له: ما فعلَ بكَ ربُّك؟ فقال: وقفتُ بين يدَيهِ فقال لي: سَوءةً لك يا شيخُ. فقلتُ: يا ربِّ إنّ رسُولَك قال: إنّك لتستحيي مِن أبناءِ الثمانين أن تُعذِّبَهم، وأنا ابنُ ثمانين، أسيرُ الله في الأرض[1]، فقال لي: صدقَ رسُولي، قد عفوتُ عنك»[2].

وفي روايةٍ أُخرى: عن مُحمّدِ بنِ مُسلِمِ الخَوّاصِ قال: «رأيتُ يحيى بنَ أكثمَ في المنام، فقلت: ما فعلَ الله بك؟ فقال: أوقفَني بين يدَيهِ، وقال لي: يا شيخَ السُّوء، لولا شيبتُكَ لأحرقتُك بالنارِ»[3].

والمقصُودُ من هذا النظرُ بعينِ الاعتبار: هل يفي هذا بدُخُولِ الجنّة، فضلًا عن لذّاتِ الدنيا؟ فنسألُ الله عز وجل أن يُنبِّهَنا مِن رقداتِ الغافلِين، وأن يُرِيَنا الأشياءَ كما هي؛ لنعرِفَ عُيُوبَ الذنوب، والله الموفِّق.

١٣٠- فَصْلٌ
[منزلةُ التقوى]

ضاق بي أمرٌ أوجبَ غمًّا لازمًا دائمًا، وأخذتُ أُبالِغُ في الفِكرِ في الخلاصِ مِن هذه الهمومِ بكلِّ حيلةٍ وبكلِّ وجه، فما رأيتُ طريقًا للخلاص، فعرضَت

(١) رواه أحمد (١٣٢٧٩) بسند ضعيف، وفيه: «فإذا بلغ تسعين، غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وسُمِّي أسير الله في أرضه».

(٢) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٦٤: ٩٠).

(٣) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (١٦: ٢٩٧).

لـي هذه الآيـة: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ [الطلاق: ٢]، فعلِمتُ أنّ التقوى سـببٌ للمَخرَجِ مِن كُلِّ غمّ، فمـا كان إلا أن هَمَمتُ بتحقيقِ التقوى، فوجدتُ المَخرَج.

فـلا ينبغـي لمخلوقٍ أن يتوكَّلَ أو يتسـبَّبَ أو يتفكَّرَ إلا في طاعةِ الله تعالى وامتثالِ أمرِه، فإنّ ذلك سببٌ لفتحِ كُلِّ مُرتَجٍ[1]. ثُمّ أعجَبُهُ أنّه يكُونُ مِن حيثُ لـم يُقـدِّرهُ المُتفكِّـرُ المُحتالُ المُدبِّر، كما قال عز وجـل: ﴿وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق: ٣]. ثُـمّ ينبغـي للمُتَّقـي أن يعلـمَ أنّ الله عـز وجـل كافِيه، فلا يُعلِّـق قلبَـه بالأسـباب، فقد قال عـز وجـل: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطلاق: ٣].

١٣١- فَصْلٌ
[الحكمة من تأخُّر الإجابة]

مِـن العجـبِ إلحاحُـكَ في طلـبِ أغراضِـك، وكُلَّمـا زاد تعويقُهـا[2] زاد إلحاحُـك، وتنسـى أنّها قد تمتنعُ لأحـدِ أمرَينِ: إمّا لمصلحتِـك، فرُبّما مُعجَّلٌ آذى، وإمّـا لذنوبِـك، فـإنّ صاحِـبَ الذنُـوبِ بعيـدٌ مِـن الإجابة، فنظِّـفْ طُرُقَ الإجابـةِ مِن أوسـاخِ المعاصـي، وانظُر فيما تطلُبُه: هل هـو لإصلاحِ دينِك، أو لمجرَّدِ هواك؟ فإن كان للهوى المُجرَّد، فاعلم أنّ مِن اللُّطفِ بك والرحمةِ لك تعويقَه، وأنتَ في إلحاحِك بمثابةِ الطفل، يطلُبُ ما يُؤذيه، فيُمنَعُ رِفقًا به، وإن كان لصلاحِ دينِك، فرُبّما كانتِ المصلحةُ تأخيرَه، أو كان صلاحُ الدينِ بعدمِه.

---

(١) مُرتَج: مغلق.

(٢) سقط «زاد تعويقها» من (ص).

وفي الجُملة: تدبيرُ الحقِّ عز وجل لك خيرٌ مِن تدبيرِك، وقد يمنعُك ما تهوى ابتلاءً ليبلُوَ صبرَك، فأرِهِ الصبرَ الجميلَ ترَ عن قُربٍ ما يسُرُّ، ومتى نظَّفتَ طُرُقَ الإجابةِ مِن أدرانِ الذنُوب، وصبرتَ على ما يقضيهِ لك، فكلُّ ما يجري أصلحُ لك[1]؛ عطاءً كان أو منعًا.

١٣٢- فَصْلٌ

[الاستعدادُ للموت]

يجِبُ على مَن لا يدري متى يَبغَتُ الموتُ أن يكُونَ مُستعِدًّا، ولا يغترَّ بالشبابِ والصِّحّة، فإنّ أقلَّ مَن يمُوتُ الأشياخ، وأكثرَ مَن يموتُ الشُّبّان، ولِهذا يندُر من يكبَر. وقد أنشَدوا[2]: [الوافر]

يُعَمَّرُ واحِدٌ فيَغُرُّ قومًا ويُنسَى مَن يَمُوتُ مِن الشَّبابِ

ومن الاغترارِ طُولُ الأمل، وما مِن آفةٍ أعظمُ مِنه، فإنّه لولا طُولُ الأملِ ما وَقَع إهمالٌ أصلًا، وإنّما تُقدَّمُ المعاصي، وتُؤخَّرُ التوبةُ لطُولِ الأمل، وتُبادَرُ الشهوات، وتُنسى الإنابةُ لطُولِ الأمل.

وإن لم تستطعْ قصرَ الأملِ فاعملْ عملَ قصيرِ الأمل، ولا تُمسِ حتى تنظُرَ فيما مضى مِن يومِك، فإن رأيتَ زلّةً فامحُها بتوبة، أو خَرقًا فارقَعهُ باستغفار، وإذا أصبَحتَ فتأمَّلْ ما مضى في ليلِك، وإيّاكَ التسويفَ، فإنّه أكبرُ جنُودِ إبليس[3]: [المتقارب]

---

(١) سقطت من (ك، س).

(٢) أنشده أبو نعيم في الحلية (٧: ٢٧٧) في ترجمة سفيان بن عيينة.

(٣) تقدمت الأبيات في الفصل ٤٠.

وخُـذ لَكَ مِنـكَ عَلـى مُهلةٍ ومُقبِـلُ عَيشِـكَ لَـم يُدبِـرِ
وخَفْ هَجمةً لا تُقِيـلُ العِثارَ وتَطوِي الوُرُودَ على المَصدَرِ
ومَثِّـلْ لِنَفسِـكَ أيُّ الرَّعِيلِ[1] يَضُمُّكَ فـي حَلبةِ المَحشَـرِ

ثُمّ صوِّر لنفسِكَ قِصَرَ العُمُر، وكثرةَ الأشغال، وقوّةَ الندمِ على التفريطِ عِندَ الموت، وطُولَ الحسـرةِ على البِدارِ بعد الفوت، وصوِّر ثوابَ الكامِلِين وأنتَ ناقص، والمُجتهدِين وأنت مُتكاسـل، ولا تُخلِ نفسَـكَ مِن موعظةٍ تسـمعُها، وفكـرةٍ تُحادِثُهـا[2] بها، فـإنّ النفسَ كالفَرَسِ المُتشـيطِن؛ إن أهمَلتَ لِجامَه لم تأمـنْ أن يَرمـيَ بـك، وقد ـ واللهِ ـ دنَّسـتكَ أهـواؤُك، وضيَّعتَ عمـرَك، فالبِدارَ البِدارَ في الصِّيانة، قبل تَلَفِ الباقي بالصَّبابة، فكم تعرقلَ في فخِّ الهوى جناحُ حازِم، وكم وقعَ في بئرِ بَوارٍ مخمُورٌ، ولا حولَ ولا قُوّة إلا بالله.

١٣٣ـ فَصْلٌ
[تجويدُ التوبة]

الحـذرَ الحـذرَ من المعاصي، فإنّ عواقِبَها سـيِّئةٌ، وكم مِن معصيةٍ لا يزالُ صاحِبُها في هُبوطٍ أبدًا مع تعثيرِ أقدامِه، وشـدّةِ فقرِه، وحسـراتِه على ما يفُوتُه مِن الدنيا، وحسرةً لمَن نالها.

فلـو قاربَ زمانَ جزائه على قبيحِه الذي ارتكبه، كان اعتِراضُه على القدرِ فـي فواتِ أغراضِه يُعيدُ العذابَ جديدًا، فوا أسـفًا لمُعاقَـبٍ لا يُحِسُّ بعقُوبتِه، وآهٍ مِن عِقابٍ يتأخَّرُ حتى يُنسى سببُه، أوَليس ابنُ سيرينَ يقول: «عيَّرتُ رجلًا

(١) جاء في حاشية (ف): «رعله بالرمح، وأرعله: طعنه».
(٢) في (ر): «تجاذبها».

بالفقـر، فافتقـرتُ بعـد أربعين سـنة»، وابنُ الجـلّاءِ يقول: «نظرتُ إلى شـابٍّ مُستحسَنٍ، فنسيتُ القُرآنَ بعد أربعين سنة»[١]؟ فوا حسرةَ مُعاقَبٍ لا يَدرِي أنّ أعظمَ العُقُوبةِ عدمُ الإحساسِ بها.

فـالله الله فـي تجويدِ التوبةِ عسـاها تكُفُّ كفَّ الجزاء، والحـذرَ الحذرَ مِن الذنُـوب، خُصُوصًـا ذُنوبَ الخلوات، فـإنّ المُبارزةَ لله تعالى تُسـقِطُ العبدَ مِن عينِـه، وأصلِـحْ[٢] مـا بينَـك وبينَه في السـرّ، وقد أصلـحَ لكَ أحـوالَ العلانية، ولا تَغتـرِرْ بسِـترِه أيُّها العاصي، فرُبّمـا يُجذَبُ عن عورتِـك، ولا بحِلمِه فرُبّما بَغَتَ العِقابُ، وعليكَ بالقلقِ واللُّجوءِ إليهِ[٣] والتضرُّع، فإن نفعَ شـيءٌ فذلك، وتقوَّتْ بالحُزن، وتَمَزَّزْ كأسَ الدمع، واحفِرْ بمِعوَلِ الأسى قَلِيبَ قلبِ الهوى، لعلكَ تُنبِطُ[٤] مِنَ الماءِ ما يغسلُ جِرمَ جُرمِكَ[٥].

١٣٤- فَصْلٌ
[منزلةُ المراقبة]

إخواني، اسمعُوا نصيحةَ مَن قد جَرَّبَ وخَبَرَ: إنّه بقدرِ إجلالِكُم لله يُجلُّكُم، وبمِقـدارِ تعظيـمِ قدرِه واحترامِه يُعظِّمُ أقدارَكُم وحُرمتَكُم، ولقد رأيتُ ـ والله ـ مَن أنفقَ عُمُرَه في العِلمِ إلى أن كبِرَتْ سِنُّه، ثُمّ تعدّى بعضَ الحُدُود، فهان عِند الخلق، وكانوا لا يلتفتُون إليه، مع غزارةِ عِلمِه وقوّةِ مُجاهدتِه.

---

(١) سقط من قوله: «وابن الجلاء» إلى هنا من (ح، ص)، والخبر تقدم هو والذي قبله في الفصل ١٨.

(٢) زاد في (س): «في».

(٣) سقطت من (ف، ك، ح، ص).

(٤) نبط الماء: نبع.

(٥) الجرم بكسر الجيم: الجسد، وبضمها: الجريمة.

ولقد رأيتُ مَن كان يُراقبُ الله عز وجل في صَبوتِه ـ مع قُصورِه بالإضافةِ إلى ذلك العالِم ـ فعظَّمَ الله عز وجل قدرَه في القُلُوبِ حتى عَلِقَتْه[1] النفُوس، ووصفَته بما يزيدُ على ما فيه من الخير، ورأيتُ مَن كان يرى الاستقامةَ إذا استقام، فإذا زاغَ مالَ عنه اللُّطف، ولولا عُمومُ السَّترِ وشُمولُ رحمةِ الكريمِ لافتضحَ هؤلاءِ المذكُورون، غيرَ أنَّه في الأغلبِ تأديبٌ وتلطُّفٌ في العِقاب، كما قيل[2]: [المتقارب]

ومَن كانَ في سُخطِهِ مُحسِنًا فكَيفَ يَكُونُ إذا ما رَضِي؟!

غيرَ أنَّ العدلَ لا يُحابي، وحاكِمَ الجزاءِ لا يجُور، وما يضيعُ عِند الأمينِ شيءٌ.

١٣٥ - فَصْلٌ
[للبلايا أوقات قد تطول]

أيُّها المُذنِب، إذا أحسَستَ نفحاتِ الجزاءِ فلا تُكثِرنَّ الضجيج، ولا تقُولنَّ: قد تُبتُ وندمتُ، فهلّا زال عنّي مِن الجزاءِ ما أكره؟! فلعلَّ توبتَكَ ما تحقَّقتْ، وإنّ للمجازاةِ زمانًا يمتدُّ امتدادَ المرضِ الطويل، فلا تنجَعُ فيهِ الحِيَلُ حتى ينقضيَ أوانُه.

وإنّ بين زمانِ ﴿وَعَصَىٰٓ﴾ [طه: ١٢١] إلى إبّانِ[3] ﴿فَتَلَقَّىٰٓ﴾ [البقرة: ٣٧] مُدّةً مَديدة، فاصبِر أيُّها الخاطِئُ حتى يتخلَّلَ ماءُ عينَيك خلالَ ثوبِ القلبِ المُتنجِّس، فإذا عصرَتهُ كَفُّ الأسى، ثُمّ تكرَّرَت دُفَعُ الغَسلات، حُكِمَ بالطهارة.

---

(١) عَلِقته: تمكَّن حُبُّه منها.

(٢) لعبد المحسن بن محمد في مرآة الزمان (١٨: ٣٤٣).

(٣) في (ف): «أوان». يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]، وقوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧].

بقيَ آدمُ عليه السلام يبكي على زلَّتِهِ ثلاثَمئةِ سنة[١]، ومكثَ أيوبُ عليه السلام في بلائه[٢] ثمانيَ عشرةَ سنة[٣]، وأقام يعقوبُ يبكي على يُوسُفَ عليهما السلام ثمانينَ سنة[٤].

وللبلايا أوقاتٌ ثُمّ تنصرِم، ورُبَّ عُقُوبةٍ امتدَّت إلى زمانِ الموت، فاللازِمُ لك أن تُلازِمَ مِحرابَ الإنابة، وتجلسَ جِلسةَ المُستجدِي، وتجعلَ طعامَك القلق، وشرابَك البكاء، فرُبّما قدِمَ بشيرُ القَبول، فارتدَّ يعقوبُ الحُزنِ بصيرًا، وإن مِتَّ في سِجنِ شَجَنِك، فرُبّما نابَ حُزنُ الدنيا عن حُزنِ الآخِرة، وفي ذلك ربحٌ عظيم.

١٣٦- فَصْلٌ
[الندمُ توبة]

الواجبُ على العاقلِ أن يحذرَ مَغَبّةَ المعاصي، فإنّ نارَها تحتَ الرماد، ورُبّما تأخَّرتِ العُقُوبةُ ثُمّ فَجأت، ورُبّما جاءت مُستعجِلة، فليُبادِرْ بإطفاءِ ما أُوقِدَ مِن نيرانِ الذنُوب، ولا ماءَ يُطفِئُ تِلك النارَ إلا ما كان من عينِ العين[٥]، لعلَّ خصمَ الجزاءِ يرضى قبل أن يبُتَّ الحاكِمُ حُكمَه.

١٣٧- فَصْلٌ
[وجوبُ التوبة]

وا عجبًا مِن عارفٍ بالله عز وجل يُخالفُه ولو في تَلَفِ نفسِه، هل العيشُ إلا معه؟! هلِ الدنيا والآخِرةُ إلا له؟ أُفٍّ لمُترخِّصٍ في فِعلِ ما يكرهُ لنَيلِ ما يُحِبُّ، تاللهِ لقد فاته أضعافُ ما حصَّل، أقبِل على ما أقُوله يا ذا الذوق، هل وقعَ لك

(١) رواه ابن أبي الدنيا في التوبة (١٥٤).
(٢) سقط «في بلائه» من (ك، س).
(٣) رواه البزار في مسنده (٦٣٣٣).
(٤) رواه أحمد في الزهد (٤٣٠).
(٥) يقصد: دمع العين.

تعثيرٌ في عيش، وتخبيطٌ في حالٍ إلا حالَ مُخالفتِه؟ [السريع]

ولا انثَنَى عَزمِيَ عَن بابِكُم إلا تَعَثَّـــرتُ بأذيالِـــي[١]

أمـا سـمِعتَ تلك الحِكايـةَ عن بعضِ السـلف، أنّه قال: رأيتُ على سُـورِ بيروتَ شابًّا يذكرُ الله تعالى، فقلتُ له: ألكَ حاجةٌ؟ فقال: إذا وقَعَت لي حاجةٌ سألتُه إيّاها بقلبي، فقضاها.

يا أربابَ المُعاملة، بالله عليكُم لا تُكدِّرُوا المَشرَب، قِفُوا على بابِ المُراقبةِ وُقـوفَ الحُـرّاس، وادفعُوا مـا لا يصلُحُ أن يلجَ فيفسـدَ، واهجُـرُوا أغراضَكُم لتحصيلِ محبوبِ الحبيب، فإنّ أغراضَكُم تحصُل.

علـى أنّني أقـول: أُفٍّ لمَن تركَ بقصدِ الجزاء، أهذا شـرطُ العُبُودية؟ كلّا، إنّمـا يَنبغِـي لـي إذا كُنـتُ مملُوكًا أن أفعـلَ ليَرضى لا لأُعطى، فـإن كُنتَ مُحبًّا رأيتَ قطعَ الآرابِ[٢] في رِضاهُ وصلًا.

اقبل نُصحي يا مخدُوعًا بغرضِه: إن ضعُفتَ عن حملِ بلائه فاستغِث به، وإن آلمَـكَ كَربُ اختيـارِهِ فإنّك بين يدَيه، ولا تيئسْ مِن رَوحِهِ وإن قويَ خِناقُ البلاء، بالله إنّ موتَ الخادمِ في الخِدمةِ حسنٌ عِند العقلاء.

إخواني، لِنفسي أقُول، فمَن له شِربٌ معي فليَرِد: أيّتُها النفسُ، لقد أعطاكِ ما لم تأمَلي، وبلَّغكِ ما لم تطلُبي، وسترَ عليكِ مِن قبيحِكِ ما لو فاحَ ضَجَّتِ المَشامُّ، فما هذا الضجيجُ مِن فوتِ كمالِ الأغراض؟! أمملُوكةٌ أنتِ أم حُرّةٌ؟ أما علمتِ أنّكِ في دارِ التكليف؟!

---

(١) للمرتضى الشهرزوري في وفيات الأعيان (٣: ٥٢).

(٢) الآراب: جمع أرَب، وهي الحاجة.

وهـذا الخِطـابُ ينبغي أن يكُونَ للجُهّال، فأين دعـواكِ المعرفة؟! أتُراهُ لو هبَّتْ نفحةٌ فأخذتِ البصر، كيف كانت تطيبُ لكِ الدنيا؟! وا أسفًا عليكِ، لقد غُشِّيَتِ البصيرةُ التي هي أشـرف، وما عَلِمتِ كم أقول: عسـى ولعلّ؟! وأنتِ في الخطأ إلى قُدّامٍ.

قرُبَت سـفينةُ العُمرِ مِن سـاحِلِ القبر، وما لكِ فـي المَركبِ بِضاعةٌ تربح، تلاعبَـت بـكِ[1] في بحرِ العُمـرِ ريحُ الضعف، ففرَّقَت تلفيـقَ القُوى، وكأن قد فَصَلَتِ المَركبُ. بلغتِ نهايةَ الأجلِ وعينُ هواكِ تتلفَّتُ إلى الصِّبا، بالله عليكِ لا تُشمِتي بكِ الأعداء، هذا أقلُّ الأقسام.

وأوفـى منهـا أن أقول: بالله عليكِ لا يفوتنَّكِ قدمُ سـابقٍ مـع قُدرتِكِ على قطـعِ المِضمار، الخلوةَ الخلوة، واسـتحضِري قرينَ العقـل، وجُولِي في حَيرةِ الفِكر، واستدرِكي صُبابةَ الأجلِ قبلَ أن تميلَ بكِ الصَّبابةُ[2] عنِ الصواب.

وا عجبًـا كُلَّمـا صعِـدَ العُمـرُ نزلـتِ، وكُلَّمـا جـدَّ المـوتُ هَزَلـتِ، أتُراكِ مِمَّـن خُتِـمَ له بفتنـة، وقُضِيَتْ عليهِ عِند آخِـرِ عُمرِه المِحنـة؟! كان أوّلُ عُمرِكِ خيـرًا مِـن الأخير، كُنتِ في زمنِ الشـبابِ أصلحَ مِنكِ في زمنِ أيّامِ المَشـيب، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، نسألُ الله عز وجل ما لا يحصُلُ مطلُوبُنا إلا به، وهُو توفيقُه؛ إنّه سميعٌ مُجيب.



(١) سقطت من (ك، ح، س، ص، د).

(٢) صُبابة الأجل: بقية العمر، والصَّبابة: الهوى والشوق.

١٣٨- فَصْلٌ
[من ترك شيئًا لله]

قـدَرتُ فـي بعضِ الأيـامِ على شـهوةٍ للنفس هـي عِندها أحلى مـن الماءِ الـزُّلالِ فـي فمِ الصادي، وقال التأويل: ما هاهنا مانِـعٌ ولا مُعوِّقٌ إلا نوعُ ورع، وكان ظاهِـرُ الأمـرِ امتنـاعَ الجواز، فتـردَّدتُ بين الأمرَين، فمنعـتُ النفسَ عن ذلـك، فبقيـتْ حَيرتي لمنعِ ما هو الغايةُ في غرضِها من غيرِ صادٍّ عنه بحالٍ إلا حذرَ المنعِ الشرعي.

فقلـتُ لها: يا نفسُ والله ما مِن سـبيلٍ إلى مـا لا يُؤمَنُ من دونه، فتَقَلقَلَتْ، فصِحـتُ بهـا: كـم وافقتُكِ فـي مُرادٍ ذهبـتْ لذّتُه، وبقيَ التأسُّـفُ علـى فِعلِه؟ فقدِّري بلوغَ الغرضِ مِن هذا المُراد، أليس الندمُ يبقى في محلِّ اللذّةِ أضعافَ زمانِها؟ فقالت: كيف أصنع؟ فقُلت(١): [الطويل]

صَبَـرتُ ولا والله مـا بِـي جَـلادةٌ ... عَلَى الحُبِّ لَكِنّي صَبَرتُ عَلَى الرَّغمِ

وها أنا أنتظرُ مِن الله عز وجل حُسنَ الجزاءِ على هذا الفِعل.

وقـد تركـتُ باقـيَ هذه الوِجهةِ البيضـاءِ أرجُو أن أرى حُسـنَ الجزاءِ على الصبر، فأسطُرَه فيهِ إن شاء الله تعالى، فإنّه قد يُعجِّلُ جزاءَ الصبرِ، وقد يُؤخِّرُه، فإن عجَّلَ سَـطَرتُه، وإن أخَّر فما أشـكُّ في حُسـنِ الجزاءِ لمَن خاف مقامَ ربِّه، فإنّه مَن تركَ شيئًا لله عوَّضَهُ الله خيرًا مِنه.

ووالله إنّـي مـا تركتُه إلا لله تعالى، ويكفينـي تركُهُ ذخيرةً، حتى لو قيل لي: أتذكُـرُ يومًا آثرتَ الله على هواك؟ قُلتُ: يـومَ كذا وكذا، فافتخِري أيّتُها النفسُ

---

(١) لأبي العتاهية في ديوانه (ص٤٠٩).

بتوفيقِ مَن وفَّقك، فكم قد خذلَ سِواكِ! واحذَرِي أن تُخذَلي في مِثلِها، ولا حولَ ولا قُوّةَ إلا بالله العليّ العظيم.

وكان هذا في سنةِ إحدى وستين[١] وخمسِمئة، فلمّا دخلتْ سنةُ خمسٍ وسِتّين عُوّضتُ خيرًا من ذلك بما لا يَتقارَبُ مِمّا لا يمنعُ مِنهُ ورعٌ ولا غيرُه، فقلتُ: هذا جزاءُ التركِ لأجلِ الله سبحانهُ في الدنيا، ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ﴾ [يوسف: ٥٧]، والحمدُ لله تعالى.

١٣٩- فَصْلٌ
[ذَهاب العاجلة]

لا أُنكِرُ على مَن طلبَ لذةَ الدنيا مِن[٢] طريقِ المُباح؛ لأنّه ليس كُلُّ[٣] أحدٍ يقوى على الترك، إنّما المِحنةُ مَن طلبَها فلم يَجِدْها أو أكثرَها إلا مِن طريقِ الحرام، فاجتَهد في تحصيلها، ولم يُبالِ كيف حصَلتْ! فهذه المحنةُ التي بُخِسَ العقلُ فيها حقَّه، ولم ينفعْ صاحِبَه وجُودُه؛ لأنّه لو وُزِنَ ما أُوثِرَ وعِقابُهُ طاشَت كِفّةُ اللذّةِ التي فَنِيَتْ عِند أوّلِ ذرّةٍ مِن جزائها.

وكم قد رأينا مِمَّن آثَرَ شهوتَهُ فسلَبتْ دينَه، فليعجبِ العاقلُ حين التصفُّحِ لأحوالِهم كيف آثرُوا شيئًا ما أقاموا معه، وصارُوا إلى عقابٍ لا يُفارِقُهم؟!

فالله الله في بَخسِ العُقُولِ حقَّها، ولينظُرِ السالكُ أين يضعُ القدم؟ فرُبَّ مُستعجِلٍ وقعَ في بئرِ بَوارٍ، ولتكُن عينُ التيقُّظِ مفتوحةً، فإنّكم في صفِّ حربٍ لا يُدرى فيهِ مِن أين يُتلقَّى النَّبل؟ فأعِينُوا أنفُسَكُم، ولا تُعينُوا عليها.

---

(١) في (ف): «وخمسين».

(٢) عن (د).

(٣) سقطت من (ك، س).

١٤٠- فَصْلٌ
[استشعار القُرب]

الحقُّ عز وجل أقربُ إلى عبدِه مِن حبلِ الوريدِ، لكنّه عامَلَ العبدَ مُعاملةَ الغائبِ عنه، البعيدِ مِنه، فأمرَ بقصدِ بيتِه ورفعِ اليدَين إليه، والسُّؤالِ له، فقُلُوبُ الجُهّالِ تستشعِرُ البُعد، ولذلك تقعُ مِنهم المعاصي؛ إذ لو تحقَّقَتْ مُراقبتُهم للحاضرِ الناظرِ لكَفَّتِ الأكُفَّ عن الخطايا، والمُتيقِّظون علمُوا قُربَه، فحضرَتهم المُراقبة، وكفَّتهم عن الانبساط، ولولا نوعُ تغطيةٍ على عينِ المُراقبةِ الحقيقيّةِ لَما انبسطَتْ كفٌّ بأكلٍ، ولا قدَرتْ عينٌ على نَومٍ[١]، ومن هذا الجِنس: «إنّه لَيُغانُ على قلبي»[٢].

ومتى تحقَّقتِ المُراقبةُ حصلَ الأُنس، وإنّما يقعُ الأُنسُ بتحقيقِ الطاعة؛ لأنّ المُخالفةَ تُوجِبُ الوحشة، والمُوافقةَ مَبسَطةُ المُستأنِسين، فيا لَذّةَ عيشِ المُستأنِسين[٣]، ويا خسارةَ المُستوحِشين.

وليستِ الطاعةُ كما يظُنُّ أكثرُ الجُهّالِ أنّها في مُجرَّدِ الصلاةِ والصيام، إنّما الطاعةُ المُوافقةُ بامتثالِ الأمرِ واجتِنابِ النهي، هذا هو الأصلُ والقاعِدةُ الكُلّية.

فكم مِن مُتعبِّدٍ بعيدٌ؛ لأنّه مُضيِّعٌ للأصل وهادِمٌ للقواعِدِ بمُخالفةِ الأمرِ وارتكابِ النهي، وإنّما المُحقِّقُ مَن أمسكَ ذُؤابةَ[٤] ميزانِ المُحاسبةِ للنفس،

---

(١) سقط «على نوم» من (ك، ح، س، ص)، والمثبت عن (ف).

(٢) مسلم (٢٧٠٢) مرفوعًا من حديث الأغر المزني رضي الله عنه، والمقصود: ما يغشى القلب من السهو الذي لا يخلو منه البشر.

(٣) سقط «فيا للذة عيش المستأنسين» من (ف).

(٤) الذؤابة: أعلى الشيء.

فأدّى ما عليهِ واجتنبَ ما نُهِيَ عنه، فإن رُزِقَ زيادةَ تنفُّلٍ، وإلا لم يضُرَّه، والسلام.

١٤١- فَصْلٌ

[لذّات الدنيا منقوصة]

الدنيا في الجُملة مَعبَر، فينبغي للإنسانِ ألا يُنافسَ لذّاتِها، وأن يعبُرَ الأيام، فإنّه لو تفكَّر في كيفيةِ الذبائحِ ووسخِ مَن يُباشِرُها، وعملِ الكامَخ[١] وغيرِها مِن المأكُولات، ما طابَت له، ولو تفكَّر في جَوَلانِ اللُّقمةِ في الفمِ مُختلِطةً[٢] بالرِّيق، ما قدرَ على إساغتِها، فلا يخلُو مِن حالَين: إمّا أن يُريدَ التنعُّمَ باللذّاتِ المُباحات، أو يُريدَ دفعَ الوقتِ بالضرُورات، وأيّهما طلبَ فلا ينبغي له أن يبحثَ فيما ينالُه عن باطنِه، فإنّه لو نظرَ إلى عورةِ الزوجةِ نَبَا عنها، وقد قالَت عائشةُ رضي الله عنها: «ما رأيتُه مِن رسُولِ الله ولا رآهُ مِنّي»[٣].

فينبغي للعاقلِ أن يكُونَ له وقتٌ معلوم، يأمُرُ زوجتَه بالتصنُّعِ له فيه، ثُمّ يُغمِضُ عن التفتيش ليطيبَ له عيشُه، وينبغي لها أن تتفقَّدَ مِن نفسِها هذا، فلا تحضُرُه إلا على أحسنِ حال، وبمِثلِ هذا يدُومُ العيش، فأمّا إذا حصلَت البِذلةُ[٤] بانَت بها العُيُوب، فنبَتِ النفسُ، وطلبَت الاستبدال، ثُمّ يقعُ في الثانيةِ مِثلُ ما وقعَ في الأُولى، وكذلك ينبغي أن يتصنَّعَ لها كتصنُّعِها له ليدُومَ الوُدُّ بحُسنِ الائتِلاف.

---

(١) في (ف، ر): «الطابخ». والكامخ بفتح الميم وربما كُسِرت: ما يُؤتدَم به، ويقال له: المُرِّيُّ.

(٢) في (ف، ص): «متلطخة».

(٣) رواه أبو الشيخ الأصبهاني في أخلاق النبي ﷺ (٧٤٠)، وفيه محمد بن القاسم الأسدي، وهو ليس بشيء.

(٤) البِذلة بكسر الباء: ما يُمتهَن من الثياب ويُبتذَل.

ومتى لم يَجرِ الأمرُ على هذا في حقِّ مَن له أَنَفةٌ مِن شيءٍ تنبُو عنه النفس، وقعَ في أحدِ أمرينِ: إمّا الإعراضُ عنها، وإمّا الاستبدالُ بها، ويحتاجُ في حالةِ الإعراضِ إلى صبرٍ عن أغراضِه، وفي حالةِ الاستبدالِ إلى فضلِ مُؤنة، وكلاهما يُؤذِي، ومتى لم يَستعمِل ما وصَفنا له[1] لم يَطِبْ له عيشٌ في مُتعة، ولم يقدِرْ على دفعِ الزمانِ كما ينبغي.

١٤٢- فَصْلٌ
[نِعم لا تُحصى]

نازَعَتني نفسي إلى أمرٍ مكرُوهٍ في الشرعِ، وجعلَت تنصِبُ لي التأويلات، وتدفعُ الكراهة، وكانت تأويلاتُها فاسدةً، والحُجّةُ ظاهرةً على الكراهة، فلجأتُ إلى الله تعالى في دفعِ ذلك عن قلبي، وأقبلتُ على القراءة، وكان درسي قد بلغَ إلى سُورةِ يُوسُف، فافتتحتُها، وذلك الخاطِرُ قد شغلَ قلبي حتى لا أدري ما أقرأ، فلمّا بلغتُ إلى قولِه تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ [يوسف: ٢٣] انتبهتُ لها، وكأنّي خُوطِبتُ بها، فأفقتُ مِن تلك السَّكرة.

فقُلت: يا نفسُ، أفهمتِ؟ هذا حُرٌّ بِيعَ ظُلمًا، فراعى حقَّ مَن أحسنَ إليه، وسمّاهُ مالكًا، وإن لم يكُن عليهِ ملكٌ، فقال: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾، ثُمّ زاد في بيانِ مُوجِبِ كَفِّ كَفِّه عمّا يُؤذيه، فقال: ﴿أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾، فكيف بكِ وأنتِ عبدٌ على الحقيقةِ لمولًى ما زال يُحسِنُ إليكِ مِن ساعةِ وجُودِك؟! وإنّ سَترَهُ عليكِ الزَّللَ أكثرُ مِن عددِ الحصى.

أفما تذكُرين كيف ربّاكِ، وعلّمكِ، ورزقَكِ، ودافعَ عنكِ، وساق الخيرَ

---

(١) سقطت من (ك، ح، س، د).

إليكِ، وهداكِ أقومَ طريق، ونجّاكِ من كُلِّ كيد، وضمَّ إلى حُسنِ الصُّورةِ الظاهِرةِ جودةَ الذهنِ الباطِن، وسهَّلَ لكِ مداركَ العُلوم، حتى نِلتِ في قصيرِ الزمانِ ما لم يَنَلهُ غيرُكِ في طويلِه! وجَلّى في عَرصةِ[1] لسانكِ عرائسَ العُلومِ في حُلَلِ الفصاحة، بعد أن سترَ عن الخلقِ مَقابِحَك، فتلقَّوها مِنكِ بحُسنِ الظنِّ، وساقَ رِزقَكِ بلا كُلفةِ تكلُّفٍ، ولا كَدَرِ مَنٍّ، رغدًا غيرَ نَزرٍ؟!

فوالله ما أدري أيَّ نِعمةٍ عليكِ أشرحُ لكِ؟ أحُسنَ الصُّورةِ وصحةَ الآلات، أم سلامةَ المزاجِ واعتدالَ التركيب، أم لُطفَ الطبعِ الخالي عن خساسة، أم إلهامَ الرشادِ منذُ الصِّغَر، أمِ الحِفظَ بحُسنِ الوقايةِ عنِ الفواحِش والزلل، أم تحبيبَ طريقِ النقلِ واتِّباعَ الأثَرِ مِن غيرِ جُمودٍ على تقليدٍ لمُعظَّم، ولا انخِراطٍ في سِلكِ مُبتدِع؟ ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

كم كائدٍ نصبَ لكِ المكائدَ فوَقاكِ؟ كم عدوٍّ حطَّ مِنكِ بالذمِّ فرَقَّاكِ؟ كم أعطشَ مِن شرابِ الأمانيِّ خَلقًا وسَقاكِ؟ كم أماتَ مَن لم يبلغْ بعضَ مُرادِكِ[2] وأبقاكِ؟ فأنتِ تُصبحِين وتُمسِين سليمةَ البدنِ محرُوسةَ الدين، في تزيُّدٍ مِن العِلمِ وبلوغِ الأمل، فإن مُنِعتِ مُرادًا، فرُزِقتِ الصبرَ عنهُ ـ بعدَ أن تبيَّنَ لكِ وجهُ الحِكمةِ في المنع ـ حتى يقعَ اليقينُ بأنّ المنعَ أصلح.

ولو ذهبتُ أعُدُّ من هذه النعمِ ما يَسنَحُ ذِكرُه، امتلأتِ الطُّرُوسُ[3] ولم تنقطِعِ الكتابة، وأنتِ تعلمِين أنّ ما لم أذكُرهُ أكثرُ، وأنّ ما أومأتُ إلى ذِكرِهِ لم يُشرَح، فكيف يحسُنُ بكِ التعرُّضُ لِما يكرهُه؟! ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

---

(١) العرصة: الفِناء.
(٢) في (ك، س): «مراده».
(٣) الطُّروس جمع طِرس بكسر الطاء: الصحيفة.

١٤٣- فصل

[مُقاربة الفتنة]

ما رأيتُ أعظمَ فِتنةً مِن مُقاربةِ الفتنةِ، وقلَّ أن يُقارِبَها إلا مَن يقعُ فيها، «ومَن حامَ حولَ الحِمى يُوشِكُ أن يقعَ فيه»(١). قال بعضُ المُعتبِرين: قَدَرتُ مرّةً على لـذّة، ظاهِرُها التحريمُ وتحتمِلُ الإباحة؛ إذِ الأمرُ فيها مُتردِّدٌ، فجاهدتُ النفسَ فـي الأخـذِ بالأحوطِ والامتِناع، فقالـتِ النفس(٢): أنتَ ما تقـدِرُ، فلهذا تترك، فقارِبِ المقدُورَ عليه، فإذا تمكَّنتَ فترَكتَ كُنتَ تاركًا حقيقةً، ففعلتُ وتركتُ.

ثُمّ عاوَدَت مرّةً أخرى في تأويلٍ أرتْني فيهِ الجواز، وإن كان الأمرُ يحتمل، فلمّا وافقتُها أثَّر ذلك ظُلمةً في قلبي لخوفِ أن يكُونَ الأمرُ مُحرَّمًا، فرأيتُ أنّها تـارةً تقوى عليَّ بالرُّخَصِ والتأويل، وتارةً أقـوى عليها بالمُجاهدةِ والامتناع، فـإذا رخَّصـتُ لم آمَنْ أن يكُونَ ذلك الأمرُ محظورًا، ثُمّ أرى عاجِلًا تأثيرَ ذلك الفِعلِ في القلب.

فلمّا لم آمَنْ عليها بالتأويلِ تفكَّرتُ في قطعِ طمعِها مِن ذلك الأمرِ المُؤثِّر، فلم أرَ ذلك إلا بأن قلتُ لها: قدِّري أنّ هذا الأمرَ مُباحٌ قطعًا، فواللهِ الذي لا إلهَ إلا هو لا عُدتُ إليه، فانقطعَ طمعُها باليمينِ والمُعاهدة، وهذا أبلغُ دواءٍ وجدتُه في امتناعِها؛ لأنّ تأويلَها لا يبلغُ إلى أن تأمُرَ بالحِنثِ والتكفير.

فأجـوَدُ الأشـياءِ قطعُ أسـبابِ الفتن، وتـركُ الترخُّصِ فيما يجُـوز، إذا كان حامِلًا ومُؤدِّيًا إلى ما لا يجوز، واللهُ الموفِّق.

---

(١) البخاري (٥٢) من حديث النعمان رضي الله عنه.

(٢) من قوله: «في الأخذ بالأحوط» إلى هنا عن (ف، ر).

١٤٤- فَصْلٌ
[سَكرةُ الهوى]

لولا غَيبةُ العاصي في وقتِ المعاصي كان كالمُعانِد، غيرَ أنّ الهوى يَحُولُ بينه وبين الفهمِ للحال، فلا يرى إلا قضاءَ شهوتِه، وإلا فلو لاحَت له المُخالفةُ خرجَ مِن الدينِ بالخِلاف، فإنّما يقصِدُ هواهُ فيقعُ الخِلافُ ضمنًا وتبعًا، وأكثرُ ما يقعُ هذا في مُقاربةِ الفِتنة، وقلَّ مَن يسلمُ عِند المُقاربة؛ لأنّه كتقديمِ نارٍ إلى حَلْفاءَ[1].

ثُمّ لو ميَّزَ العاقلُ بين قضاءِ وَطَرِهِ لحظةً وانقِضاءِ باقي العُمرِ بالحسرةِ على قضاءِ ذلك الوطر؛ لَما قرُب مِنهُ ولو أُعطِيَ الدنيا، غيرَ أنّ سكرةَ الهوى تحُولُ بين الفكرِ وذلك.

آهٍ، كم مِن معصيةٍ مضتْ في ساعتِها، كأنّها لم تكُن، ثُمّ بقيتْ آثارُها، وأقلُّها ما لا يبرحُ مِنَ المرارةِ في الندم، والطريقُ الأعظمُ في الحذرِ ألا يتعرَّضَ لسببِ فتنة، ولا يُقاربَ، فمَن فهمَ هذا، وبالغَ في الاحتراز، كان إلى السلامةِ أقرب.

١٤٥- فَصْلٌ
[أشدُّ الناس بلاءً]

البلايا على مقاديرِ الرجال، فكثيرٌ مِن الناسِ تراهم ساكتِين راضِين بما عِندهم مِن دينٍ ودُنيا، وأُولئك قومٌ لم يُرادُوا لمقاماتِ الصبرِ الرفيعة، أو عُلِمَ

(١) الحلفاء: نبت عشبي من الفصيلة النجيلية، أطراف ورقه مستدقة حادة، تصنع من أوراقه الحُصر والسِّلال والورق.

ضعفُهم عن مُقاوَمةِ البلاءِ فلُطِفَ بهم، إنّما المِحنةُ العُظمى أن تُرزَقَ هِمّةً عاليةً لا تَقنَعُ مِنكَ إلا بتحقيقِ الورع، وتجويدِ الدين، وكمالِ العِلم، ثُمّ تُبتلى بنفسٍ تميلُ إلى المُباحات، وتدَّعي[1] أنّها تجمعُ بذلِك همَّها، وتشفي مرضَها، لتُقبلَ مُزاحةَ العِلّةِ على تحصيلِ الفضائل.

وهاتانِ الحالتانِ كضِدَّين؛ لأنّ الدنيا والآخِرةَ ضَرَّتان، واللازمُ في هذا المقامِ مراعاةُ الواجبات، وألا يُفسَحَ للنفسِ في مُباحٍ لا يُؤمَنُ أن يتعدّى مِنهُ إعراضٌ عن واجب، ودعِ المُبتلى يَضِجُّ، فلأنْ يبكيَ الطفلُ خيرٌ مِن أن يبكيَ الوالد.

واعلم أنّ فتحَ بابِ المُباحاتِ رُبّما جرَّ أذًى كثيرًا في الدين، فأوثِقِ السِّكرَ[2] قبلَ فتحِ الماء، والبَسِ الدِّرعَ قبلَ لقاءِ الحرب، وتلمَّحْ عواقِبَ ما تجني الأوائلُ تلمُّحَ اللاعبِ بالشِّطرنجِ نِهايةَ الثقلِ قبلَ تحريكِ اليد، واستظهِرْ في الحذرِ باجتنابِ ما يُخافُ مِنه وإن لم يُتيقَّن.

١٤٦- فَصْلٌ
[أولوياتُ طالب العلم]

ينبغي لطالبِ العِلمِ أن يكُونَ جُلُّ هِمَّتِه مصرُوفًا إلى الحفظِ والإعادة، فلو صحَّ صرفُ جميعِ الزمانِ إلى ذلك كان الأَولى، غيرَ أنّ البدنَ مَطيّة، وإعدادَ السَّيرِ مَظِنّةُ الانقِطاع، ولمّا كانتِ القُوى تكِلُّ فتحتاجُ إلى تجديد، وكان النَّسخُ والمطالعةُ والتصنيفُ لا بُدّ مِنه، مع أنّ المُهمَّ الحِفظُ؛ وجبَ تقسيمُ الزمانِ على الأمرَين، فيكونُ الحفظُ في طرفَي النهارِ وطرفَي الليل، ويُوزَّعُ الباقي بين عملٍ بالنَّسخِ والمطالعة، وبين راحةٍ للبدنِ وأخذِ لحظِّه.

---

(١) زاد في (ك، س): «بذلك».

(٢) السِّكر: ما يُحبَس به الماء.

ولا ينبغي أن يقعَ الغَبنُ بين الشُّركاء، فإنّه متى ما[١] أخذَ أحدُهم فوقَ حقِّهِ أثَّـرَ الغَبنُ وبانَ أثرُه، وإنّ النفسَ لَتهرُبُ إلى النَّسخِ والمُطالعةِ والتصنيفِ عنِ الإعـادةِ والتكرار؛ لأنّ ذلك أشـهى وأخفُّ عليها، فليحـذرِ الراكِبُ مِن إهمالِ الناقة، ولا يجوزُ له أن يحمِلَ عليها ما لا تُطيق.

ومـع العـدلِ والإنصـافِ يتأتّى كُلُّ مُـرادٍ، ومَن انحرفَ عنِ الجـادّةِ طالتْ طريقُـه، ومَـن طـوى منازِلَ في منـزِلٍ أوشـكَ أن يفُوتَه ما جَدَّ لأجلِـه، على أنّ الإنسانَ إلى التحريضِ أحوج؛ لأنّ الفُتورَ أولى مِن الجِدّ.

وبعـدُ، فالـلازمُ في العلمِ طلـبُ المُهمّ، فرُبَّ صاحِـبِ حديثٍ حفظَ مثلًا لحديثِ: «مَن أتى الجُمعةَ فليغتسل»[٢] عِشرين طريقًا، والحديثُ قد ثبتَ مِن طريقٍ واحِدٍ، فشـغلَهُ ذلك عن معرفةِ آدابِ الغُسـل، والعُمرُ أقصرُ وأنفسُ مِن أن يُفرَّطَ مِنهُ في نفَس، وكفى بالعقلِ مُرشدًا إلى الصواب مَن عضَّدَه التوفيقُ.

١٤٧- فَصْلٌ
[صلاحُ السرائر]

إذا صـحَّ قصـدُ العالِمِ اسـتراحَ مِـن كُلَفِ التكلُّـف، فإنّ كثيرًا مِـن العُلماءِ يَأنَفون مِن قول: «لا أدري»، فيحفظُون بالفتوى جاهَهم عِند الناس؛ لئلّا يُقال: جهِلُوا الجواب، وإن كانُوا على غيرِ يقينٍ مِمّا قالوا، وهذا نهايةُ الخِذلان.

وقد رُوِي عن مالكِ بنِ أنسٍ: أنّ رجلًا سألهُ عن مسألة، فقال: «لا أدري»، فقال: سافَرتُ البلدانَ إليكَ. فقال: ارجعْ إلى بلدِك، وقُل: سألتُ مالكًا فقال:

---

(١) سقطت من (ف).

(٢) البخاري (٨٧٧)، ومسلم (٨٤٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

«لا أدري»[(١)]. فانظُر إلى دينِ هذا الشخصِ وعقلِه، كيف استراحَ مِن الكُلفة، وسلِمَ عِند الله عز وجل، ثُمّ إن كان المقصُودُ الجاهَ عِندهم فقُلوبُهم بيدِ غيرِهم.

والله لقد رأيتُ مَن يُكثرُ الصلاةَ والصومَ والصمتَ، ويتخشَّعُ في نفسِه ولباسِه، والقُلُوبُ تنبُو عنه، وقدرُه في النفُوسِ ليس بذاك، ورأيتُ مَن يلبسُ فاخِرَ الثياب، وليس له كبيرُ نفلٍ ولا تخشُّع، والقُلُوبُ تتهافتُ على محبَّتِه، فتدبَّرتُ السبب، فوجدتُه السريرة، كما رُوِيَ عن أنسِ بنِ مالِك، أنّه لم يكُن له كبيرُ عملٍ مِن صلاةٍ وصوم، وإنّما كانت له سريرة، فمَن أصلحَ سريرتَه فاحَ عبيرُ فضلِه، وعَبقتِ القُلُوبُ بنشرِ طِيبِه، فالله الله في السرائر، فإنّه ما ينفعُ مع فسادِها صلاحُ ظاهِر.

١٤٨- فَصْلٌ
[الحكمة من تأخُّر الإجابة]

نزلتْ بي شِدّة، وأكثرتُ مِن الدعاء، أطلُبُ الفرجَ والراحة، وتأخَّرتِ الإجابةُ، فانزعجَتِ النفسُ وقلِقَت، فصِحتُ بها: وَيحَكِ! تأمَّلي أمرَكِ، أمملوكةٌ أنتِ أم حرَّةٌ مالكة؟ أمُدبَّرةٌ أنتِ أم مُدبِّرةٌ؟! أما علمتِ أنّ الدنيا دارُ ابتلاءٍ واختبار؟! فإذا طلبتِ أغراضَكِ ولم تصبري على ما يُنافي مُرادَكِ، فأينَ الابتلاء؟ وهل الابتلاءُ إلا الإعراضُ وعكسُ المقاصِد؟ فافهمي معنى التكليف، وقد هان عليكِ ما عزَّ وسهُلَ ما استُصعِبَ.

فلمّا تَدبَّرتْ ما قُلتُه سكنَتْ بعضَ السُّكون، فقلتُ لها: وعِندي جوابٌ ثانٍ، وهو: أنّكِ تقتضِين الحقَّ بأغراضِكِ، ولا تقتضِين نفسَكِ بالواجبِ له،

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٦: ٣٢٣) بنحوه.

وهـذا عيـنُ الجهل، وإنّما كان ينبغي أن يكُونَ الأمـرُ بالعكس؛ لأنّكِ مملوكة، والمملُـوكُ العاقـلُ يُطالِـبُ نفسَـه بأداءِ حـقِّ المالِك، ويعلمُ أنّـه لا يجبُ على المالكِ تبليغُه ما يهوى.

فسـكنتْ أكثـرَ مِن ذلك السُّـكون، فقلتُ لها: وعِندي جـوابٌ ثالث، وهو أنّكِ قدِ اسـتبطأتِ الإجابة، وأنتِ سَـدَدتِ طُرُقَها بالمعاصي، فلو قد[1] فَتَحتِ الطريقَ أسـرَعَتْ، كأنّكِ ما علمتِ أنّ سـببَ الراحةِ التقوى، أوَما سمِعتِ قولَه تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا * وَيَرۡزُقۡهُ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، ﴿يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ [الطلاق: ٤]؟ أوَمـا فهمـتِ أنّ العكسَ بالعكس؟ آهِ مِن سُـكرِ غفلةٍ صار أقوى مِن كُلِّ سِكْرٍ في وجهِ مياهِ المُراد، يمنعُها مِن الوصولِ إلى مُزدَرَعِ[2] الأماني.

فعرفـتِ النفسُ أنّ هذا حقٌّ، فاطمأنّت، فقلتُ: وعِندي جوابٌ رابع، وهو أنّـكِ تَطلُبيـن ما لا تعلمِيـن عاقِبتَه، ورُبّما كان فيهِ ضـررُك، فمَثَلُكِ كمَثَلِ طِفلٍ محمُومٍ يطلبُ الحلوى، والمُدبِّرُ لكِ أعلمُ بالمصالِح، كيف وقد قال: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢١٦]؟!

فلمّـا بـان الصوابُ للنفسِ فـي هذه الأجوبـة زادت طُمأنينتُها، فقلتُ لها: وعنـدي جـوابٌ خامس، وهو أنّ هذا المطلُوبَ يَنقُـصُ مِن أجرِكِ، ويحُطُّ من مرتبتِـكِ فـي الآخـرة، فمنـعُ الحقِّ لكِ ما هذا سـبيلُه عطـاءٌ مِنهُ لـك، ولو أنّكِ طلبـتِ مـا يُصلِحُ آخِرتَكِ كان أولى لكِ، فأولى لكِ أن تفهَمِي ما قد شـرحتُ، فقالت: لقد سَرحتُ في رياضِ ما شرحتَ، فهِمْتُ[3] إذ فَهِمتُ.

(١) سقطت من (س، د).
(٢) المُزدرَع: مكان الزرع.
(٣) هِمتُ: من الهُيام.

١٤٩- فَصْلٌ
[شرفُ المال]

حضَرنا بعضَ أعزِية أربابِ الأموال، فرأيتُ العُلماءَ أذلَّ الناسِ عِندهم وعند أنفسِهم، فالعُلماءُ يتواضعُون لهم، ويذِلُّون لموضِعِ طمعِهم فيهم، وهم لا يحفِلُون بهم لِما يعلمُونه مِن احتياجِهم إليهم، فرأيتُ هذا عيبًا في الفريقَين؛ أمّا في أهلِ الدنيا فوجهُ العَتبِ أنّهم كانُوا ينبغي لهم[1] تعظيمُ العِلم، ولكِن لجهلِهم بقدرِه فاتهم، وآثرُوا عليهِ كسبَ الأموال، فلا ينبغي أن يُطلَبَ مِنهم تعظيمُ ما لا يعرِفُونه ولا يعلمُون قدرَه.

وإنّما أعودُ باللومِ على العُلماء، وأقول: ينبغي لكم أن تصونُوا أنفُسَكُم التي شرُفت بالعِلمِ عن الذُّلِّ للأنذال، وإن كُنتُم في غِنًى عنهم كان الذُّلُّ لهم والطلبُ مِنهم حرامًا عليكُم، وإن كُنتُم في كَفافٍ فلِمَ لم تُؤثِرُوا التنزُّهَ عنِ الذُّلِّ بالعِفّةِ عنِ الحُطامِ الفاني الحاصلِ بالذِّلّة؟!

إلا أنّه يَتخيَّلُ لي مِن هذا الأمرِ أنّي علمتُ قِلّةَ صبرِ النفسِ على الكَفافِ والعُزُوفِ عنِ الفُضول، فإن وُجِدَ ذلك مِنها في وقتٍ لم يُوجَد على الدوام، فالأَولى للعالِمِ أن يجتهِدَ في طلبِ الغِنى، ويُبالِغَ في الكسب، وإن ضاع بذلِك عليهِ كثيرٌ مِن زمانِ طلبِ العِلم، فإنّه يصونُ بعَرَضِهِ عِرضَه، وقد كان سعيدُ بن المُسيِّبِ يتّجِرُ في الزيت، وخلّف مالًا، وخلّفَ سُفيانُ الثوريُّ مالًا، وقال: «لولاكَ لَتَمَندَلُوا بي»[2].

---

(١) سقط «احتياجهم إليهم... كانوا ينبغي لهم» من (ف).

(٢) تقدم خبر سعيد بن المسيب الأول في الفصل ١٠٩، والثاني معناه: لولا المال لصار كالمنديل الذي يُسمح به ويُرمى.

وقد سبقَ في كتابي هذا في بعضِ الفُصولِ شرفُ المال، ومَن كان مِن الصحابةِ والعُلماءِ يَقتَنِيه، والسرُّ في فعلِهم ذلك، وحثّي طالِبي العِلمِ على ذلك: ما بيَّنتُهُ مِن أنّ النفسَ لا تثبُتُ على التعفُّف، ولا تصبرُ على دوامِ التزهُّد، وكم قد رأينا مِن شخصٍ قَوِيَتْ عزيمتُه على طلبِ الآخِرة، فأخرجَ ما في يدَيه، ثُمّ ضعُفَت فعاد يكتِسبُ مِن أقبحِ وجهٍ!

فالأَولى ادِّخارُ المالِ والاستغناءُ عنِ الناس؛ ليخرجَ الطمعُ مِن القلب، ويصفُوَ نشرُ العِلمِ مِن شائبةِ ميلٍ، ومَن تأمَّلَ أخبارَ الأخيارِ مِن الأحبار[1]، وجدهم على هذه الطريقة.

وإنّما سلكَ طريقَ الترفُّهِ عنِ الكسبِ مَن لم يُؤثَر عِنده بذلُ الدينِ والوجه، فطلبَ الراحةَ ونسيَ أنّها في المعنى عناءٌ، كما فعلَ جماعةٌ مِن جُهّالِ المُتصوِّفةِ في إخراجِ ما في أيديهم، وادِّعاءِ التوكُّل، وما علمُوا أنّ الكسبَ لا يُنافي التوكُّل، وإنّما طلبُوا طريقَ الراحة، وجعلُوا التعرُّضَ للناسِ كسبًا، وهذه طريقةٌ مُركّبةٌ من شيئين؛ أحدهما: قِلّةُ الأنَفةِ على العِرض، والثاني: قِلّةُ العلم.

١٥٠- فَصْلٌ
[سرُّ الوقوع في المعصية]

تأمَّلتُ وقُوعَ المعاصي مِن العُصاة، فوجدتُهم لا يقصِدُون العِصيانَ، وإنّما يقصدُون مُوافقةَ هواهم، فيقعُ العِصيانُ تبعًا، فنظرتُ في سببِ ذلك الإقدام، مع العلمِ بوقوعِ المُخالفة، فإذا به مُلاحظتُهم لكرمِ الخالِق وفضلِه الزاخِر، ولو أنّهم تأمَّلُوا عظمتَه وهيبتَهُ ما انبسطَت كفٌّ بمخالَفةٍ.

---

(١) سقط «من الأحبار» من (ك، س).

فإنّـه ينبغـي ـ والله ـ أن يُحـذَرَ مِمَّن أقلُّ فِعلِه تعميـمُ الخلقِ بالموت، حتى إلقـاءُ الحيـوانِ البهيمِ للذبـح، وتعذيبُ الأطفال بالمرض، وفقـرُ العالِم وغِنى الجاهِل.

فليَعرِضِ المُقدِمُ على الذنوبِ على نفسِهِ الحذرَ مِمَّن هذه صِفتُه، فقد قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨]، ومُلاحظةُ أسبابِ الخوفِ أدنى إلى الأمنِ مِن مُلاحظةِ أسبابِ الرجاء، فالخائفُ آخِذٌ بالحزم، والراجي مُتعلِّقٌ بحبلِ طمع، وقد يُخلَفُ الظنُّ.

١٥١- فَصْلٌ
[عِفّة العالم]

رأيتُ عُمومَ أربابِ الأموالِ يستخدِمون العُلماءَ ويستذِلُّونهم بشيءٍ يسيرٍ يُعطونهـم مِـن زكاةِ أموالِهم، فإن كان لأحدِهم ختمةٌ قال: فلانٌ ما حضرَ، وإن مرِض قال: فلانٌ ما تردَّد، وكلُّ مِنَّتِه عليهِ شيءٌ نزرٌ يجِبُ تسليمُه إلى مِثلِه! وقد رضيَ العُلماءُ بالذُّلِّ في ذلك لموضعِ الضرورة.

فرأيـتُ أنّ هـذا جهـلٌ مِن العُلمـاءِ[١] بما يجِـبُ عليهم مِن صيانـةِ العِلم، ودواؤُهُ مِـن جهتَيـن؛ إحداهمـا: القناعةُ باليسير، كمـا قيل: مَن رضـيَ بالخَلِّ والبقلِ لم يستعبِدْهُ أحدٌ[٢]. والثاني: صرفُ بَعضِ الزمانِ المصروفِ في خِدمةِ العِلمِ إلى كسبِ الدنيا، فإنّه يكونُ سببًا لإعزازِ العِلم، وذلك أفضلُ من صرفِ جميعِ الزمانِ في طلبِ العِلمِ مع احتمالِ هذا الذُّلّ.

---

(١) سقط «بالذل في ذلك... جهل من العلماء» من (ف).

(٢) زاد في (س): «وإن حل».

ومَن تأمَّلَ ما تأمَّلتُه، وكانت له أَنَفة، قدَّرَ قُوتَه، واحتفظَ بما معه، أو سعى في مكتسَـبٍ يكفُّه، ومَن لم يَأنَفْ من مِثلِ هذه الأشياء لم يحظَ مِن العِلمِ إلا بصُورتِه دُون معناه.

١٥٢ـ فَصْلٌ

[اتباعُ الدليل]

مـدارُ الأمـرِ كُلِّه على العقل، فإنّـه إذا تمَّ العقلُ لم يعمـلْ صاحِبُه إلا على أقوى دليل، وثمرةُ العقلِ فهمُ الخطاب، وتلمُّحُ المقصُودِ مِن الأمر، ومَن فهمَ المقصُودَ وعمِلَ على الدليلِ كان كالباني على أساسٍ وثيق.

وإنّـي رأيـتُ كثيرًا مِن الناسِ لا يعملُون على دليـل، بل كيف اتَّفق، ورُبّما كان دليلُهـم العـادات، وهذا أقبحُ شـيءٍ يكون، ثُمّ رأيتُ خلقًـا كثيرًا لا يُثبتون الدليـلَ بطريـقِ إثباتِه، كاليهُودِ والنصـارى، فإنّهم يُقلِّدون الآبـاء، ولا ينظُرُون فيما جاء مِن الشرائع: هل هو[1] صحيحٌ أم لا؟!

وكذلـك يُثبتـون الإلـه، ولا يعرفُون ما يجُـوزُ عليهِ مِمّا لا يجُوز، فينسُـبُون إليهِ الولد، ويمنعُون جوازَ تغييرِه ما شـرع، وهؤُلاءِ لم ينظُرُوا حقَّ النظر، لا في إثباتِ الصانعِ وما يجُوزُ عليه، ولا في الدليلِ على صِحّةِ النُّبوّات، فتقعُ أعمالُهم ضائعةً، كالباني على رمل، ومِن هذا القبيلِ في المعنى: قومٌ يتعبَّدُون ويتزهَّدُون وينصَبُون أبدانَهم في العملِ بأحاديثَ باطِلة، ولا يسألُون عنها مَن يعلم.

ومِـن النـاسِ مَن يُثبِتُ الدليل، ولا يفهمُ المقصُـودَ الذي دلَّ عليهِ الدليل، ومن هذا الجِنسِ قومٌ سـمِعُوا ذمَّ الدنيا، فتزهَّدُوا، وما فهمُوا المقصُود، فظنُّوا

(١) سقطت من (ح، ص).

أنّ الدنيا تُذَمُّ لذاتِها، وأنّ النفسَ تجِبُ عداوتُها لنفسِها[١]، فحملُوا على أنفُسِهم فوق ما يُطاق، وعذَّبُوها بكلِّ نوع، ومنَعوها حُظُوظَها جاهِلين بقوله عليه الصلاة والسلام: «إنّ لنفسِكَ عليكَ حقًّا»[٢]، وفيهم مَن أدَّت بِهِ الحالُ إلى تركِ الفرائض، ونُحولِ الجسم، وضعفِ القُوى، وكلُّ ذلك لضعفِ الفهمِ للمقصُودِ والتلمُّحِ للمُراد.

كما رُوِيَ عن داودَ الطائيّ، أنّه كان يتركُ ماءً في دَنٍّ تحتَ الأرض، فيشربُ مِنه وهو شديدُ الحرّ، وقال لسُفيان: إذا كُنتَ تأكُلُ اللذيذَ الطيِّب، وتشربُ الماءَ البارِدَ المُبرَّد، فمتى تُحِبُّ الموتَ والقُدومَ على الله[٣]؟

وهذا جهلٌ بالمقصُود، فإنّ شُربَ الماءِ الحارِّ يُورِثُ أمراضًا في البدن، ولا يحصلُ بِهِ الرِّيّ، وما أُمِرنا بتعذيبِ أنفُسِنا في الصُّورة، بل بخلافِ ما تدعُو إليهِ ممّا نهى الله عنه، وفي الحديثِ الصحيح: «أنّ أبا بكرٍ رضي الله عنه لمّا حلبَ له الراعي في طريقِ الهِجرة، صبَّ الماءَ على القَدَحِ حتى بردَ أسفلُه، ثُمّ سقى رسُولَ الله ﷺ»[٤]، وفرشَ له في ظلِّ صخرة[٥]، وكان يُستعذَبُ لرسولِ الله ﷺ الماء[٦]، وقال: «إن كان عندكُم ماءٌ بات في شَنٍّ وإلا كَرَعنا»[٧].

ولو فهِم داودُ رحمه الله أنّ إصلاحَ علفِ الناقةِ مُتعيِّنٌ لقطعِ المنزل، لم يفعل هذا. ألا ترى إلى سفيانَ الثوريّ، فإنّه كان شديدَ المعرِفةِ والخوفِ، وكان

(١) سقطت من (ك، ح، س، ص، د).
(٢) تقدم في الفصل ١٩.
(٣) رواه أبو نعيم في الحلية (٧: ٣٤٦).
(٤) البخاري (٢٤٣٩).
(٥) تقدم في الفصل ١٩.
(٦) تقدم في الفصل ١٩.
(٧) البخاري (٥٦٢١) من حديث جابر رضي الله عنه، وكرَع في الماء: تناوله بفِيه من موضعه من غير أن يشرب بكفَّيه ولا بإناء.

يأكُلُ اللذيذَ، ويقول: «إنّ الدابّةَ إذا لم يُحسَنْ إليها لم تَعمَل»[1].

ولعلَّ بعضَ مَن يسمع كلامي هذا يقول: هذا ميلٌ على الزُّهّاد. فأقول: كُن مع العُلماء، وانظُر إلى طريقِ الحَسَنِ، وسُفيانَ، ومالكٍ، وأبي حنيفةَ، والشافِعيِّ، وأحمدَ، وهؤلاءِ أُصولُ الإسلام، ولا تُقلِّد دينَك مَن قلَّ علمُه وإن قويَ زُهدُه، واحمل أمرهُ على أنّه كان يُطيقُ هذا، ولا تقتدِ بهم فيما لا تُطِيقُه، فليس أمرُنا إلينا، والنفسُ وديعةٌ عِندنا. فإن أنكرتَ ما شرحتُه فأنتَ مُلحَقٌ بالقومِ الذين أنكرتُ عليهم، هذا رمزٌ إلى المقصود، والشرحُ يطول.

١٥٣- فَصْلٌ
[اتباعُ الدليل]

الواجِبُ على العاقلِ أن يتَّبِعَ الدليلَ، ثم لا ينظُرَ فيما يجني مِن مكرُوهٍ. مِثالُه: أنّه قد ثبتَ بالدليلِ القاطعِ حِكمةُ الخالِقِ عز وجل ومُلكُه وتدبيرُه، فإذا رأى الإنسانُ عالِمًا محرومًا، وجاهِلًا مرزوقًا أوجَبَ عليهِ الدليلُ المُثبِتُ حِكمةَ الخالِقِ التسليمَ إليه، ونِسبةَ العجزِ عن معرِفةِ الحِكمةِ إلى نفسِه.

فإنّ أقوامًا لم يفعلُوا ذلك جهلًا منهم، أفتراهم بماذا حكمُوا بفسادِ هذا التدبير؟ أليس بمقتضى عُقُولِهم؟ أوَما عُقُولُهم مِن جُملةِ مواهِبِه؟! فكيف يُحكَمُ على حِكمتِه وتدبيرِه ببعضِ مخلوقاتِه التي هي - بالإضافةِ إليهِ - أنقصُ مِن كُلِّ شيءٍ؟!

ولقد بلغَني عنِ اللعينِ ابنِ الراوَنديّ[2]، أنّه كان جالسًا على الجِسرِ وفي

(١) تقدم في الفصل ٣٦.

(٢) هو أبو الحسين أحمد بن يحيى، الزنديق الشهير، كان من متكلمي المعتزلة، ثم تزندق واشتهر بالإلحاد، وألَّف في الطعن في الشريعة، تُوفي سنة ٢٩٨هـ. لسان الميزان (١: ٦٩٥).

يدِه رغيفٌ يأكلُه، فجازت خيلٌ وأموال، فقال: لمَن هذه؟ فقيل: لفُلانِ الخادِم، فجـازَت خيلٌ وأموال، فقال: لمَـن هذه؟ فقيل: لفُلانِ الخادِم، فلمّا مرَّ الخادِمُ رأى شـخصًا مُحتقَـرًا، فرمـى الرغيفَ إلـى ناحيتِه وقال: وهـذا لفُلان! ما هذه القِسمة؟!

ولـو فكَّـر المُدْبِرُ[1] لَبانَتْ له وجُوهٌ، أقلُّها: جهلُه بمَن يدَّعي معرفتَه، وقِلّةُ تعظيمه، وذلك يُوجِبُ عليهِ أشدَّ مِمّا كان فيهِ مِن تضييقِ العيش، ولكنّه ميراثُ إبليس، حيثُ اعتقدَ سُوءَ التدبيرِ في تفضيلِ آدمَ عليه السلام، فالعجبُ من تِلميذٍ يَتعالَمُ على أُستاذه، ومِن مملُوكٍ يَتِيهُ بمالِهِ[2] على سيِّدِه.

ومما ينبغـي أن يُتَّبعَ فيهِ الدليـل، ولا يُلتفَتَ إلى ما جَنَتِ الحال: أنّ العِلمَ أشـرفُ مُكتسَـبٍ، وقد رأى جماعةٌ مِن الجهلةِ قِلّةَ حُظُوظِ العُلماءِ مِن الدنيا، فأَزرَوا على العِلمِ وقالوا: لا فائدةَ فيه؛ وذلك لجهلِهم بمِقدارِ العِلم، فإنّ تابعَ الدليل لا يُبالِي ما جنى، وإنّما يَبِينُ الاختبارُ بفقدِ الغرض.

ولو لم يكُن مِن الدليلِ على صِدقِ نبيِّنا ﷺ إلا إعراضُهُ عنِ الدنيا، وتضييقُ العيشِ عليه، ثُمّ لم يُخلِّفْ شيئًا، وحرمَ أهلَـهُ الميراثَ، فدلَّ على صِدقِ طلبِهِ لمطلُوبٍ آخرَ.

ورُبّمـا رأى الجاهِلُ قومًا مِن العُلماءِ يفعلـون خطيئة، فيُزرِي على العِلم، ويدَّعيهِ نقصًا، وهذا غلطٌ كبير، فليتَّقِ الله العاقِلُ، وليعملْ بمُقتضى العقلِ فيما يُؤمَرُ بهِ مِن طاعةِ الله تعالى والعملِ بالعِلم، وليعلَمْ أنّ الابتلاءَ في الصبرِ على فواتِ المطلُوبات، وليلزمِ اتباعَ الدليلِ وإن جنى مكرُوهًا، والله المُوفِّق.

---

(١) في (ف): «المعترض».

(٢) سقطت من (ك، ح، س، ص، د).

١٥٤- فَصْلٌ
[مخالفةُ الهوى]

قرأتُ سُورةَ يُوسُف، فتعجَّبتُ مِن مدحِهِ عليه السلام على صبرِه وشرحِ قِصّتِهِ للناس، ورفعِ قدرِهِ بتركِ ما ترك، فتأمَّلتُ خبيئةَ الأمرِ، فإذا هي مُخالفةٌ للهوى المكرُوه، فقلتُ: وا عجبًا! لو وافقَ هواهُ مَن كان يكون؟ ولمّا قد خالَفه لقد صار أمرًا عظيمًا تُضرَبُ الأمثالُ بصبرِه، ويُفتخَرُ على الخلقِ باجتهادِه، وكُلُّ ذلك قد كان بصبرِ ساعة، فيا له عِزًّا وفخرًا، يُقاوِمُ كلَّ لحظةٍ من ذكرِه أمثالَ ساعةِ الصبرِ عنِ المحبوب. وبالعكسِ مِنهُ حالةُ آدمَ في مُوافقتهِ هواه، لقد عادتْ نقيصةً في حقِّهِ أبدًا، لولا تدارُك: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِۚ﴾.

فتلمَّحُوا ـ رحمكُم الله ـ عاقِبةَ الصبرِ ونهايةَ الهوى، فالعاقِلُ مَن ميَّز بين الأمرَينِ الحُلوَين والمُرَّين، فإنّ مَن عدلَ ميزانُه، ولم تَمِلْ بهِ كِفّةُ الهوى، رأى كُلَّ الأرباحِ في الصبر، وكُلَّ الخُسرانِ في مُوافقةِ النفس، وكفى بهذا موعِظةً في مُخالفةِ الهوى لأهلِ النُّهى، والله الموفِّق.

١٥٥- فَصْلٌ
[أهمية الرقائق والسِّيَر]

رأيتُ الاشتغالَ بالفِقهِ وسماعِ الحديثِ لا يكادُ يَكفِي في[1] صلاحِ القلبِ إلا أن يُمزَجَ بالرقائق، والنظرِ في سِيَرِ السلفِ الصالحِين، فأمّا مُجرَّدُ العِلمِ بالحلالِ والحرام فليس له كبيرُ عملٍ في رِقّةِ القلب، وإنّما تَرِقُّ القلوبُ بذكرِ رقائقِ الأحاديثِ وأخبارِ السلفِ الصالِحِين؛ لأنّهم تناوَلُوا مقصُودَ النقل،

---

(١) سقطت من (ك، س).

وخرجُوا عن صُوَرِ الأفعالِ المأمُورِ بها إلى ذوقِ معانيها والمُرادِ بها.

وما أخبرتُكَ بهذا إلا بعد مُعالَجةٍ وذوق؛ لأنّي وجدتُ جُمهُورَ المُحدِّثين وطلابَ الحديثِ همّةُ أحدِهم في الحديثِ العالي وتكثيرِ الأجزاء، وجُمهورَ الفُقهاءِ في علومِ الجدلِ وما يُغالَبُ بهِ الخصم، وكيف يَرِقُّ القلبُ مع هذه الأشياء؟! وقد كان جماعةٌ مِن السلفِ يقصِدون العبدَ الصالِحَ للنظرِ إلى سَمتِه وهَديِه، لا لاقتباسِ علمِه، وذلك أنّ ثمرةَ عِلمِهِ هَديُه وسَمتُه. فافهَم هذا، وامزُجْ طلبَ الفقهِ والحديثِ بمطالعةِ سِيَرِ السلفِ والزُّهّادِ في الدنيا؛ ليكونَ سببًا لرقّةِ قلبك.

وقد جمعتُ لكلِّ واحِدٍ مِن مشاهيرِ الأخيارِ كتابًا فيهِ أخبارُه وآدابُه، فجمعتُ كِتابًا في أخبارِ الحسَن، وكتابًا في أخبارِ سُفيانَ الثوريّ، وإبراهيمَ ابنِ أدهم، وبشرٍ الحافي، وأحمدَ بنِ حنبل، ومعرُوفٍ[1]، وغيرِهم من العُلماءِ والزُّهّاد، والله المُوفّق للمقصُود.

ولا يصلُحُ العملُ مع قِلّةِ العِلم، فهما في ضربِ المَثَلِ كسائقٍ وقائد، والنفسُ بينهما حَرُونٌ[2]، ومع جِدِّ السائقِ والقائدِ ينقطِعُ المنزِل، ونعُوذُ بالله من الفُتُور.

١٥٦ - فَصْلٌ

[تتبّع الرُّخص]

ترخَّصتُ في شيءٍ يجُوزُ في بعضِ المذاهب، فوجدتُ في قلبي قسوةً عظيمةً، وتَخايَلَ لي نوعُ طردٍ عنِ الباب، وبُعدٌ وظُلمةٌ تكاثَفَتْ.

---

(١) زاد في (س): «الكرخي».

(٢) حَرُون: أي لا تنقاد.

فقالت نفسي: ما هذا؟ أليس ما خرجتَ عن إجماع الفُقهاء؟! فقُلتُ لها[١]: يا نفسَ السوء، جوابُكِ من وجهَين؛ أحدهما: أنّكِ تأوَّلتِ ما لا تعتقدِين، فلوِ استُفتِيتِ لـم تُفتِ بما فعلتِ. قالت: لو لم أعتقِد جوازَ ذلك ما فعلتُه. قُلتُ: إلا أنّ اعتقادَكِ ما تَرضَينهُ لغيرِكِ في الفتوى. والثاني: أنّه ينبغي لكِ الفرحُ بما وجدتِ مِن الظُّلمةِ عَقِيبَ ذلك؛ لأنّه لولا نُورٌ في قلبِكِ ما أثَّر مِثلُ هذا عِندك. قالت: فلقد استَوحَشتُ لهذه الظُّلمةِ المُتجدِّدةِ في القلب، قلتُ: فاعزِمي على الترك، وقَدِّري ما تَركتِ جائزًا بالإجماع، وعُدِّي هجرَه ورعًا، وقد سلِمتِ.

١٥٧- فَصْلٌ
[كم من مُحتقَرٍ احتيجَ إليه]

ممّا أفادَتني تجارِبُ الزمان: أنّه لا ينبغي لأحدٍ أن يُظاهِرَ بالعداوةِ أحدًا مهما استطاعَ، فإنّه رُبّما يحتاجُ إليه، وإنّ الإنسانَ قد لا يظنُّ الحاجةَ فيحتاجُ إليه يومًا ما، كما قد يحتاجُ إلى عُوَيدٍ منبوذٍ[٢] لا يُلتفَتُ إليه، وكم مِن مُحتقَرٍ احتِيجَ إليه، وإن لم تقعِ الحاجةُ إلى ذلك الشخصِ في جلبِ نفعٍ وقعتِ الحاجةُ في دفعِ ضررٍ، ولقدِ احتجتُ في عُمري إلى مُلاطفةِ أقوامٍ ما خطرَ لي قطُّ وقُوعُ الحاجةِ إلى التلطُّفِ بهم.

واعلَم أنّ المُظاهرةَ بالعداوةِ قد تجلِبُ أذًى مِن حيثُ لا يُعلَم؛ لأنّ المُظاهِرَ بالعداوةِ كشاهِرِ السيفِ ينتظرُ مَضرِبًا، وقد يلوحُ مَضرِبٌ خفيّ، وإنِ اجتهد المُتدرِّعُ في سترِ نفسِه، فيغتنمُهُ ذلك العدو.

فينبغي لمَن عاش في الدنيا أن يجتهِدَ في ألا يُظاهِرَ بالعداوةِ أحدًا؛ لِما

---

(١) سقطت من (ك، س).

(٢) زاد في (س): «بالأرض».

بيَّنتُ من وقوعِ احتياجِ[1] الخلقِ بعضِهم إلى بعض، وإقدارِ بعضِهم على ضررِ بعض. وهذا فصلٌ مُفيدٌ تَبينُ فائدتُه للإنسانِ مع تقلُّبِ الزمان.

١٥٨- فَصْلٌ
[اجتماع المحبوب عند قُربِ الرحيل]

رأيتُ النفسَ تنظُرُ إلى لذّاتِ أربابِ الدنيا العاجِلةِ وتنسى كيف حصلَت، وما يتضمَّنُها مِن الآفات، وبيانُ هذا أنّكَ إن رأيتَ صاحِبَ إمارةٍ وسَلطَنة، فتأمَّلتَ نِعمتهُ، وجدتَها مشُوبةً بالظُّلم، فإن لم يَقصِده هو حصلَ مِن عُمّالِه، ثُمّ هو خائفٌ مُنزعِجٌ في كُلِّ أمُورِه، حذِرٌ من عدوٍّ دُونهُ أن يَسُمَّه[2]، قلِقٌ مِمَّن هو فوقهُ أن يعزلَه، ومِن نظيرِه أن يكيدَه، ثُمّ أكثرُ زمانِه مضى في خِدمةِ مَن يخافُهُ مِن السلاطين، وفي حِسابِ أموالهم، وتنفيذِ أوامِرِهم التي لا تخلُو مِن أشياءَ مُنكَرة، وإن عُزِلَ أربى ذلك على جميعِ ما نالَ مِن لذّة، ثُمّ تلك اللذةُ تكونُ معمُورةً بالحذرِ فيها ومِنها وعليها.

وإن رأيتَ صاحِبَ تِجارةٍ رأيتَه قد تقطَّعَ في البلاد، فلم يَنَلْ ما نال إلا بعد عُلُوِّ السِّنِّ وذَهابِ زمانِ اللذّة، كما حُكِي أنّ رجُلًا مِن أولادِ الرُّؤساء، كان حالَ شَبيبتِه فقيرًا، فلمّا كبرَ استغنى، وملكَ أموالًا، واشترى عبيدًا مِن التُّركِ وغيرِهم، وجواريَ مِن الرُّوم، فقال هذه الأبياتَ في شرحِ حالِه[3]: [البسيط]

ما كُنتُ أرجُوهُ إذ كُنتُ ابنَ عِشرينا ... مَلَكتُهُ بَعدَ أن جاوَزتُ سَبعِينا
تُطِيفُ بي مِنَ بَنِي الأتراكِ أغزِلَةٌ ... مِثلُ الغُصُونِ عَلَى كُثُبانِ يَبرِينا

---

(١) عن (د). (٢) سقط «أن يسمه» من (ف).
(٣) ذكر هذه الأبيات ابن خلكان في وفيات الأعيان (٤: ٢٠٩).

وخُـرَّدٌ[1] مِـن بَناتِ الـرُّومِ رائقَةٌ يَحكِينَ بالحُسنِ حُورَ الجَنّةِ العِينا
يَغمِزنَنِـي بأسـارِيعَ[2] مُنَعَّمـةٍ تَـكادُ تُعقَـدُ مِـن أطرافِهـا لِينـا
يُـرِدنَ إحيـاءَ مَيْـتٍ لا حَـراكَ بهِ وكَيفَ يُحيِيـنَ مَيتًا صارَ مَدفُونا؟!
قالُـوا: أنِينُكَ طُولَ الليلِ يُسـهِرُنا فما الذي تَشتَكِي؟ قُلتُ: الثمانِينا!

وهـذه الحالةُ هي الغالبة، فإنّ الإنسـانَ لا يـكادُ يجتمِعُ له كُلُّ ما يُحِبُّ إلا عِنـد قُـربِ رحيلِه، فإن بـدرَ ما يحبُّ في بدايةِ شبابِه، فالصبوةُ مانِعـةٌ مِن فَهمِ التدبيـرِ في الالتذاذ، والإنسـانُ في حالةِ الصبوةِ لا يـدري أين هو إلى أن يبلُغ، فـإذا بلـغَ كانت همَّتُه فـي المنكُوحِ كيف اتَّفق، فإن تزوَّجَ جـاء الأولادُ فمنعُوه اللذّة، وانكسرَ في نفسِـه، وافتقَر إلى الكسـبِ عليهم، فبينما هو قد دُعِكَ في تلـك المُدَيـدةِ القريبةِ الثلاثين، وَخَطَهُ[3] الشَّـيبُ، فانفرقَ مِن نفسِـه؛ لعِلمِهِ أنّ النِّساءَ ينفرِقنَ مِنه، كما قال ابنُ المُعتز بالله[4]: [الوافر]

لَقَد أتعَبتُ نَفسِـي في مَشِـيبِي فكَيف يُحِبُّني الخُرُدُ الكِعابُ؟!

فإذا فهمَ المتمتِّعُ بالمستحسَـناتِ وخرجَ عن طلبِ صورةِ النكاحِ لم يجِدْ مالًا يبلُغُ بهِ المُراد، فإنْ كسبَ ضاعَ زمنُ تمتُّعِه، وإذا تمَّ له[5] المطلُوبُ فالشَّيبُ أقبحُ قذًى وأعظمُ مُنغِّص.

ثُمّ إنّ صاحِبَ المالِ خائفٌ على مالِه، مُحاسِبٌ لمُعامِليه، مذمومٌ إن أسرفَ

---

(١) في (ف): «وخوَّدٌ». والخُرَّد، والخُرُد التي في بيت ابن المعتز بعدُ: جمع خريدة، وهي الفتاة البِكر التي لم تُمَسّ.
(٢) في (ف): «بأصابيع»، والأساريع والأصابيع: كلاهما بمعنًى.
(٣) وخطَه: خالطَه.
(٤) ديوان ابن المعتز (ص٩٤).
(٥) سقطت من (ك، ح، س، د).

وإن قتَّر، ولدُهُ يرصُدُ موتَه، وجاريتُه قد لا ترضى بشخصِه، وهو مشغولٌ بحفظِ حَواشِيه[١]، فقد مضى زمانُه في مِحَن، واللذّاتُ فيها خِلَسٌ مُعتادةٌ لا لذّةَ فيها، ثُمّ في القيامةِ يخسرُ الأميرُ والتاجِرُ إلا مَن عصمَ الله.

فإيّاك إيّاك أن تنظُرَ إلى صُورةِ نعيمِهم، فإنّك تستطيبُه لبُعدِه عنك، ولو قد نِلتَه بَـرَدَ عندك، ثُمّ في ضِمنِه مِن مِحَنِ الدنيا والآخِرةِ ما لا يُوصَف، فعليكَ بالقناعةِ مهما أمكن، ففيها سلامةُ الدنيا والدين، وقد قيل لبعضِ الزُّهّادِ ـ وعِندهُ خُبزٌ يابِسٌ ـ: كيف تشتهي هذا؟ فقال: أترُكُهُ حتى أشتهيَه[٢].

١٥٩- فَصْلٌ

[نُصرة عقيدة السَّلف]

وقـعَ بيني وبين بعض أربابِ الوِلاياتِ نوعُ مُعاداةٍ لأجلِ المذهب، فإنّي كُنـتُ في مجلِسِ التذكيرِ أنصرُ أنّ القـرآنَ كلامُ الله، وأنّه قديم، وأُقدِّمُ أبا بكر. واتّفقَ في أربابِ الوِلاياتِ مَن يميلُ إلى مذهبِ الأشعري، وفيهم مَن يميلُ إلى مذهبِ الروافِض، وتمالَؤوا عليَّ في الباطِن.

فقُلـتُ يومًـا فـي مُناجاتي للحقِّ سبحانه وتعالى: سـيِّدي، نَواصِـي الكُلِّ بيـدِك، ومـا فيهم مَن يقدِرُ لـي على ضُرٍّ إلا أن[٣] تُجرِيَهُ علـى يدِه، وأنتَ قُلتَ سُـبحانك: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [البقـرة: ١٠٢]، وطيَّبـتَ قلبَ المُبتلى بقولِك: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١].

---

(١) حواشي الرجُل: أهله وخاصته.

(٢) هو داود الطائي كما في المجالسة وجواهر العلم (٢: ٣٩٨).

(٣) سقط «أن» من (ص).

فإن أجرَيتَ على أيدي بعضِهم ما يُوجِبُ خِذلاني، كان خوفي على ما نصرتَه أكثرَ من خوفي على نفسي؛ لئلّا يقالَ: لو كان على حقٍّ ما خُذِل، وإن نظرتُ إلى تقصيري وذُنوبي، فإنّي مُستحِقٌّ للخِذلان، غيرَ أنّي أعيشُ بما نصرتُه مِن السُّنّة، فأدخِلني في خِفارتِه[1]، وقد استودَعَني إيّاكَ خلقٌ مِن صالِحي عِبادِك، فإن لم تَحفَظني بي فاحفَظني بهم. سيِّدي، انصُرني على مَن عاداني، فإنّهم لا يَعرِفونك كما ينبغي، وهم مُعرِضُون عنكَ على كُلِّ حال، وأنا ـ على تَقصِيري ـ إليكَ أُنسَب.

١٦٠ـ فَصْلٌ
[انحرافُ الصوفية]

رُوِيَ عن الحَلّاجِ الصُّوفيِّ أنّه كان يقعدُ في الشمسِ في الحرِّ الشديد، وعرقُه يسيلُ، فجاز بعضُ العقلاء، فقال له: «يا أحمقُ، هذا تَقاوٍ على الله تعالى»[2]. وما أحسنَ ما قال هذا! فإنّه ما وضعَ التكليفَ إلا على خِلافِ الأغراض، وقد يُخرجُ صاحِبَه إلى أن يعجِزَ عن الصبر، فالجاهِلُ الأحمقُ مَن يتقاوى ويسألُ البلاء؛ كما قال ذلك الأبلهُ: «فكيف ما شِئتَ فاختبِرني»[3].

والسعيدُ مَن ذلَّ، وسألَ العافيةَ، فإنّه لا يُوهَبُ العافيةَ على الإطلاق، فلا بُدَّ مِن بلاء، فلا يزالُ العاقِلُ يسألُ العافيةَ لتغلِبَ على جُمهُورِ أحوالِه، فيقرُبَ الصبرُ على يسيرِ البلاء.

وفي الجُملةِ ينبغي للإنسانِ أن يعلمَ أنّه لا سبيلَ إلى محبُوباتِه، ففي كُلِّ

(١) خِفارته: ذمّته.
(٢) سير أعلام النبلاء (١٤: ٣١٧).
(٣) الرسالة القشيرية (١: ٩١).

جُرعةٍ غُصَص، وفي كُلِّ لُقمةٍ شجًا(١): [الوافر]

ومَن لَم يَعشَقِ الدُّنيا قَدِيمًا ولَكِن لا سَبِيلَ إلى الوِصالِ

وعلى الحقيقةِ ما الصبرُ إلا على الأقدار، وقلَّ أن تجريَ الأقدارُ إلا على خِلافِ مُرادِ النفس، فالعاقلُ مَن دارى نفسَه في الصبرِ بوعدِ الأجر، وتسهيلِ الأمر ليذهبَ زمانُ البلاءِ سالمًا مِن شكوى، ثُمّ يستغيثُ بالله تعالى سائلًا العافية، فأمّا المُتجلِّدُ فما عرَفَ الله قطُّ، نعُوذُ بالله مِن الجهلِ به، ونسألهُ عِرفانَه، إنّه كريمٌ مُجيب.

١٦١ـ فَصْلٌ

[حجزُ النفس عن الشهوات]

الجادّةُ السليمةُ والطريقُ القويمةُ الاقتداءُ بصاحبِ الشرع، والبِدارُ إلى الاستنانِ به، فهو الكامِلُ الذي لا نقصَ فيه، فإنّ خلقًا كثيرًا انحَرفُوا إلى جادّةِ الزُّهد، وحملُوا على أنفُسِهم فوقَ الجُهد، فأفاقوا في أواخرِ العُمرِ والبدنُ قد نُهك، وفاتتْ أمورٌ مُهمّةٌ من العِلمِ وغيرِه، وإنّ أقوامًا انحَرفوا إلى صُورةِ العِلم، فبالغُوا في طلبِه، فأفاقُوا في آخرِ قَدَمٍ، وقد فاتَهم العملُ به.

فطريقُ المُصطفى ﷺ العِلمُ والعملُ والتلطُّفُ بالبدن، كما أوصى عبدَ الله ابنَ عمرٍو(٢)، وقال له: «إنّ لنفسِك عليك حقًّا، ولزوجِكَ عليكَ حقًّا»(٣).

فهذه هي الطريقُ الوسطى الفُضلى، فأمّا اليُبسُ المُجرَّدُ فكم فوَّتَ من عِلم، لو حُصِّلَ نِيلَ بهِ أكثرُ مِمّا نِيلَ بالعمل، فإنّ مَثَلَ العالِمِ كرجُلٍ يعرفُ

---

(١) الشجا مقصور: ما اعترض في الحلق من عظم ونحوه. والبيت للمتنبي في ديوانه (ص٢٦٥).

(٢) هنا بداية خرم في (د) ينتهي في الخاطرة ١٧٠. (٣) تقدم في الفصل ١٩.

الطريق، والعابِدُ جاهِلٌ بها، فيمشي العابِدُ مِن الفجرِ إلى العصر، ويقُومُ العالِمُ قُبيلَ العصر، فيلتقيانِ وقد سبقَ العالِمُ فضلَ شوطٍ.

فإن قال قائل: بيِّن لي هذا، قُلتُ: صُورةُ التعبُّدِ خِدمةٌ لله تعالى، وذلٌّ له، ورُبّما لم يَطَّلعِ العابِدُ على معنى تِلكَ الصُّورة؛ لأنّه رُبّما ظنَّ أنّه أهلٌ لوجودِ الكرامةِ على يدِه، أو أنّه مُستحِقٌّ تقبيلَ يدِه، أو أنّه خيرٌ مِن كثيرٍ مِن[1] الناس، وذلك كُلُّه لقِلّةِ العِلم؛ وأعني بالعِلمِ فهمَ أُصُولِ العِلم، لا كثرةَ الروايةِ ومُطالعةَ مسائلِ الخِلاف.

فإذا طالعَ العالِمُ الأُصُولَ سبقَ هذا العابدَ بحُسنِ خُلُق، ومُداراةِ الناس، وتواضُعِه في نفسِه، وإرشادِه الخلقَ إلى الله تعالى، فيعبُرُ على هذا العابِد، وهُو في ليلِ جهلِه بالحالِ راقِد.

ورُبّما تزوَّجَ العابِد، ثُمّ حملَ نفسَهُ على التجفُّف، فحبسَ زوجتَهُ عن مطلُوبِها، ولم يُطلِّقْها، وصار كالتي حبسَتِ الهِرّة، فلا هي أطعَمَتها، ولا هي أرسلَتها تأكلُ مِن خَشاشِ الأرض[2].

ومَن تأمَّلَ حالةَ الرسولِ ﷺ رأى كاملًا مِن الخَلق، يُعطي كُلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فتارةً يمزحُ ويضحك، ويُداعبُ الأطفال، ويسمعُ الشِّعر[3]، ويتكلَّمُ بالمَعارِيض[4]، ويُحسِنُ مُعاشرةَ النِّساء، ويأكُلُ ما قدرَ عليه وفُتِحَ له وإن كان

---

(١) سقطت من (ك، ح، ص).

(٢) خشاش الأرض: هوامّها وحشراتها. وحديث هذه المرأة عند البخاري (٣٣١٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

(٣) مسلم (٢٢٥٥) من حديث الشريد رضي الله عنه.

(٤) بمعناه البخاري (٦٢٠٩).

لذيذًا كالعسـل والدجاج، ويُسـتعذَبُ له الماء، ويُفرَشُ له في الظل، ولا يُنكِرُ ذلك[١].

ولم يُسمَعْ عنهُ بمِثلِ ما حدثَ بعدَه مِن جُهّالِ المُتصوِّفةِ والمُتزهِّدِين؛ مِن منعِ النفسِ شـهواتِها على الإطلاق، فقد كان يأكلُ البِطِّيخَ بالرُّطَب[٢]، ويُقبِّلُ، ويَمُصُّ اللِّسان[٣]، ويطلُبُ المُستحسَنات.

فأمّا أكلُ خبزِ الشعير، ووزنُ المأكُول، وتجفيفُ البدن، وهجرُ كُلِّ مُشتهًى، فإنّـه تعذيـبٌ للنفس، وهدمٌ للبـدن، لا يقتضيه عقل، ولا يمدحُه شـرع، وإنّما اقتنـعَ أقـوامٌ بالقليلِ من[٤] الأسـبابِ مثلَ أن حدثَت شُـبهةٌ فتقلَّلُـوا، أو اختلطَ طعامٌ بطعامٍ فتورَّعوا.

ثُـمّ كان النبيُّ ﷺ يُوفِّـي العِبادةَ حقَّهـا بقيامِ الليل، والاجتهـادِ في الذِّكر، فعليكَ بطريقِه التي هي أكملُ الطُّرُق، وبشِرعتِه التي لا شَوبَ فيها، ودعْ حديثَ فُلانٍ وفُلانٍ مِن الزُّهّادِ واحمِل أمرَهم على أحسـنِ مَحمَل، وأقِم لهم الأعذارَ مهمـا قـدَرتَ، فإن لم تجِد عُـذرًا فهم مَحجُوجُون بفِعلِـه؛ إذ هو قُدوةُ الخَلق، وسيِّدُ العُقلاء، وهل فسدَ الناسُ إلا بالانحرافِ عن الشريعة؟!

ولقد حدثَتْ آفاتٌ مِن المُتصوِّفةِ والمُتزهِّدِين، خرقُوا بها شـبكةَ الشـريعةِ وعبَروا: فمِنهم مَن يدَّعي المحبّةَ والشـوقَ ولا يعرفُ المحبوب، فتراه يصيحُ ويسـتغيثُ، ويُمزِّقُ ثيابَه، ويخرجُ عن حدِّ الشـرعِ بدعـواهُ ومضمُونِها، ومِنهم

(١) تقدم في الفصل ١٩.

(٢) الترمذي (١٨٤٣).

(٣) لم يصح عن النبي ﷺ شيء في مص لسان زوجاته.

(٤) عن (ف).

مَـن حملَ على نفسِـهِ بالجُوعِ والصومِ الدائم، وقد صـحَّ عنِ النبيِّ ﷺ أنّه قال لعبدِ الله بنِ عمرٍو: «صُمْ يومًا وأفطِرْ يومًا»، فقال: أريدُ أفضلَ من ذلك. فقال: «لا أفضلَ من ذلك»(١). وفيهم مَن خرجَ إلى السياحة، فأفات نفسَه الجماعة.

وفيهـم مَـن دفنَ كُتُبَ العِلمِ وقعدَ يُصلِّي ويصوم، ولم يعلمْ أنّ دفنَها خطأٌ قبيـحٌ؛ لأنّ النفـسَ تَغفُلُ وتحتاجُ إلى التذكيرِ في كُلِّ وقت، ونِعمَ المذكِّرُ كُتُبُ العِلـم، وإنّمـا دخـلَ إبليسُ على كُلِّ قـومٍ مِنهم من حيثُ قـدَر، وكان مقصُودُه بدفنِ الكُتُبِ إطفاءَ المِصباحِ ليسيرَ العابِدُ في الظُّلمة.

وما أحسـنَ ما قال بعضُ العُلماءِ لرجُلٍ سـأله، فقال: «أُريدُ أن أمضيَ إلى جبلِ اللُّكّام(٢)». فقال: «هذه هَركَلة». وهذه كلمةٌ عامّية، معناها: حبُّ البطالة.

وعلـى الحقيقةِ الزُّهّـادُ في مقامِ الخفافيش، قد دفنُوا أنفُسَـهم بالعُزلةِ عن نفعِ الناس، وهي حالةٌ حسـنةٌ إذا لم تَمنَع عن خيرٍ؛ مِن جماعة، واتِّباعِ جنازة، وعيـادةِ مريض، إلا أنّها حالةُ الجُبناء، فأمّا الشُّـجعانُ فهم يتعلَّمُون ويُعلِّمُون، وهي مقاماتُ الأنبياءِ عليهم السلام.

أتُـرى كم بيـنَ العابِدِ إذا نزلتْ به حادِثةٌ وبين الفقيـه؟! باللهِ لو مالَ الخلقُ إلـى التعبُّدِ لضاعتِ الشـريعة، علـى أنّه لو فهمَ معنى التعبُّـدِ لم يقتصِر به على الصـلاةِ والصـوم، فـرُبَّ ماشٍ في حاجةِ مُسـلمٍ فضـلَ تعبُّدُه ذلـك على صومِ سـنة، والعملُ بالبدنِ سـعيُ الآلاتِ الظاهرة، والعِلمُ يحصُلُ(٣) بسعيِ الآلاتِ الباطِنة؛ من العقلِ والفكرِ والفهم، فلذلك كان أشرف.

---

(١) البخاري (١٩٧٦)، ومسلم (١١٥٩).

(٢) اللُّكّام: الجبل المُشرِف على أنطاكية. معجم البلدان (٥: ٢٢).

(٣) سقطت من (ك، س).

فإن قُلتَ لي[١]: كيف تذمُّ المعتزِلِين للشرِّ إلى التعبُّد؟! قُلتُ: ما أذُمُّهم، بل حدثَت مِنهم حوادِثُ اقتضاها الجهلُ مِن الدعاوى والآفاتِ التي سببُها قِلّةُ العِلم، وحملُوا على أنفُسِهم التي ليست لهم عن غيرِ إذنِ الآمِر، ما لم يجُز، حتى إنّ أحدَهم يرى أنّ فِعلَ ما يُؤذِي النفسَ على الإطلاقِ فضيلة، حتى قال بعضُ الحمقى: دخلتُ الحَمّامَ فوجدتُ غفلةً، فآليتُ ألا أخرُجَ حتى أُسبِّحَ كذا وكذا تسبيحةً، فطال الأمر، فمرِضت. وهذا رجُلٌ خاطرَ بنفسِهِ في فِعلِ ما ليس له.

ومِن المُتصوِّفةِ والزُّهّادِ مَن قَنِع بصُورةِ اللباس، وركِبَ مِن الجهلِ في الباطِن ما لا يسعُهُ كِتاب، طهَّر الله الأرضَ منهم، وأعان العُلماءَ عليهم، فإنّ أكثرَ الحمقى معهم، فلو أنكرَ عالِمٌ على أحدِهم مالَ العوامُّ على العالِمِ لقوّةِ الجهل.

ولقد رأيتُ كثيرًا مِن المُتعبِّدِين ـ وهو في مقامِ العجائز ـ يُسبِّحُ تسبيحًا لا يجُوزُ النُّطقُ به، ويفعلُ في صلاتِه ما لم تَرِد به السُّنّة.

ولقد دخلتُ يومًا على بعضِ مَن كان يتعبَّد، وقد أقام إمامًا وهو خلفَه في جماعةٍ يُصلِّي بهم صلاةَ الضُّحى ويَجهَر، فقُلتُ لهم: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «صلاةُ النهارِ عَجماءُ»[٢]، فغضبَ ذلك الزاهِدُ، وقال: كم يُنكِرُ هذا علينا! وقد دخلَ فُلانٌ وأنكر، وفُلانٌ وأنكر، نحن نرفعُ أصواتَنا حتى لا ننام، فقلتُ: وا عجبًا! ومَن قال لكم: لا تناموا؟ أليس في «الصحيحَين» من حديثِ ابنِ عمرٍو، أنّ

---

(١) سقطت من (ك، ح، س، ص).

(٢) رواه عبد الرزاق في المصنف (٤٣٢٩) عن الحسن ومجاهد وأبي عبيدة رحمهم الله من قولهم. والعجماء: السِّرّية.

النبيَّ ﷺ قال له: «قُمْ ونَمْ»[١]؟ وقد كان رسولُ الله ﷺ ينام، ولعلَّهُ ما مضَت عليهِ ليلةٌ إلا ونام فيها.

ولقد شاهَدتُ رجلًا كان يُقالُ له: حُسينٌ القَزوينيُّ بجامِعِ المنصور، وهو يَمشِي في الجامعِ مشيًا كثيرًا دائمًا، فسألت: ما السببُ في هذا المشي؟ فقيل لي: حتى لا ينام.

وهذه كُلُّها حماقاتٌ أوجبَها قِلّةُ العِلم؛ لأنّه إذا لم تأخذِ النفسُ حظَّها مِن النومِ اختلَط العقل، وفات المُرادُ مِن التعبُّد لبُعدِ الفهم.

ولقد حدَّثني بعضُ الصالِحين المُجاوِرين بجامع المنصور، أنّ رجُلًا كان اسمُه كُثيِّرًا دخلَ إليهم الجامع، فقال: إنّي عاهَدتُ الله على أمرٍ ونقضتُه، وقد جعلتُ عُقُوبتي لنفسِي ألا آكُلَ شيئًا أربعين يومًا. قال: فمكثَ مِنها عشرةَ أيامٍ قريبَ الحالِ يُصلِّي في جماعة، ثُمّ في العشرِ الثاني[٢] بان ضعفُه، وكان يُداري الأمر، ثُمّ صار[٣] في العشرِ الثالثِ يُصلِّي قاعِدًا، ثُمّ استُطرِحَ في العشرِ الرابع، فلمّا تمَّتِ الأربعون جِيءَ بنَقُوعٍ[٤] فشربَه، فسمعنا صوتَهُ في حلقِه مثلَ ما يقعُ الماءُ على المِقلى، ثُمّ ماتَ بعدَ أيام.

فقلتُ: يا لله العجب، انظرُوا ما فعلَ الجهلُ بأهلِه، ظاهِرُ هذا أنّه في النار، إلا أن يُعفى عنه، ولو فهمَ العِلمَ وسأل العُلماءَ لعرَّفوه أنّه يجِبُ عليهِ أن يأكُل، وأنّ ما فعلَ بنفسِهِ حرام، ولكِنْ مِن أعظمِ الجهلِ استبدادُ الإنسانِ بعِلمِه.

---

(١) البخاري (٦١٣٤)، ومسلم (١١٥٩).

(٢) زاد في (س): «يصلي قاعدًا وقد».

(٣) سقطت من (ك، س).

(٤) النَّقوع: ما يُنقَع في الماء من الليل لدواء أو نبيذ.

وكلُّ هذه الحوادثِ نشَأت قليلًا قليلًا حتى تمكَّنت، فأمّا الشَّربُ الأوّلُ فلم يكُن فيهِ مِن هذا شيء، وما كانت الصحابةُ تفعلُ شيئًا مِن هذه الأشياء، وقد كانُوا يُؤثِرُون ويأكُلُون دُونَ الشِّبَع، ويصبِرُون إذا لم يجِدُوا.

فمَن أراد الاقتداءَ فعليهِ برسولِ الله ﷺ وأصحابِه، ففي ذلك الشفاءُ والمطلُوب، ولا ينبغي أن يَخلُدَ العاقِلُ إلى تقليدِ مُعظَّمٍ لشِياعِ اسمِه، فيقول: قال أبو يزيد، وقال الثوريُّ، فإنّ المُقلِّدَ أعمى، وكم قد رأينا أعمى[1] يأنَفُ مِن حملِ عصًا، فمَن فهِم هذا المُشارَ إليهِ طلبَ الأفضلَ والأعلى، والله الموفِّق.

١٦٢- فَصْلٌ
[دَخَلُ الفلسفة والرهبنة]

تأمّلتُ الدَّخَل[2] الذي دخلَ في دينِنا في العِلمِ والعملِ، فرأيتُه مِن طريقَين قد تقدَّما هذا الدين، وأُنِسَ بهما:

فأمّا أصلُ الدَّخَلِ في العِلمِ والاعتقادِ فمِن الفلسفة، وهو أنّ خلقًا مِن العُلماءِ في دينِنا لم يَقنَعُوا بما قَنَعَ به رسولُ الله ﷺ للمُسلمين[3] مِن الانعِكافِ على الكِتابِ والسُّنّة، فأوغلُوا في النظرِ في مذاهبِ أهلِ الفلسفة، وخاضوا في الكلامِ الذي حملَهم على مذاهِبَ رديّة، أفسدُوا بها العقائد.

وأمّا أصلُ الدَّخَلِ في باب العملِ فمن الرهبانيّة، فإنّ خلقًا مِن المُتزهِّدِين أخذوا عن الرهبانِ طريقَ التقشُّف، ولم يَنظُروا في سِيَرِ نبيِّنا ﷺ وأصحابِه، وسمِعُوا ذمَّ الدنيا، وما فهِمُوا المقصُود، فاجتمعَ لهم الإعراضُ عن عِلمِ شرعِنا

(١) سقط «وكم قد رأينا أعمًى» من (ف).
(٢) الدَّخَل بفتح الخاء: الفساد.
(٣) عن (ف).

مع سوءِ الفهمِ للمقصُود، فحدثَت مِنهم بدعٌ قبيحة.

فأولُ ما ابتدأ بهِ إبليسُ أنّه أمرَهم بالإعراضِ عن العِلم، فدفنُوا كُتُبَهم وغسلُوها، وألزمَهم زاويةَ التعبُّدِ فيما زعم، وأظهرَ لهم مِن الخُزعبَلاتِ ما أوجبَ إقبالَ العوامِّ عليهم، فجعلَ إلهَهُم هواهُم، ولو علمُوا أنّهم مُنذُ دفَنوا كُتُبَهم وفارقُوا العِلمَ انطفأ مِصباحُهم ما فعلُوا، لكنّ إبليسَ دقيقُ المَنقَب، وفخُّه دفينٌ تحت الأرض، وبالعلمِ يُعلَمُ فسادُ الطريقَين، ويُهتدى إلى الأصوب. نسألُ الله عز وجل ألا يحرمَنا إيّاه، فإنّه النُّورُ في الظُّلَم، والأنيسُ في الوَحدة، والوزيرُ عِند الحادِثة.

١٦٣- فَصْلٌ
[صُحبة البطّالين]

أعُوذُ بالله مِن صُحبةِ البطّالِين، لقد رأيتُ خلقًا كثيرًا يجرُون معي فيما قدِ اعتادَه الناسُ مِن كثرةِ الزيارة، ويُسمُّون ذلك التردُّدَ خدمةً، ويطلبون الجلوس، ويُجرُون فيهِ أحاديثَ الناس، وما لا يعني، ويتخلَّلُهُ غِيبة.

وهذا شيءٌ يفعلُه في زمانِنا كثيرٌ مِن الناس، ورُبّما طلبَه المزُورُ، وتشوَّف إليه، واستوحشَ مِن الوَحدة، وخُصُوصًا في أيّام التهاني والأعياد، فتراهم يمشي بعضُهم إلى بعض، ولا يقتصِرُون على الهناءِ والسلام، بل يَمزُجُون ذلك بما ذكرتُه مِن تضييعِ الزمان.

فلمّا رأيتُ أنّ الزمانَ أشرفُ شيء، والواجبُ انتهابُه بفعلِ الخير، كرهتُ ذلك، وبقيتُ معهم بين أمرَينِ: إن أنكرتُ عليهم ذلك[1] وقعَت وحشةٌ لموضعِ

---

(١) عن (ف).

قطعِ المألوف، وإن تقبَّلتُه مِنهم ضاعَ الزمان[١].

فصِرتُ أُدافِعُ باللقاءِ جَهدي، فإذا غُلِبتُ قصَّرتُ في الكلامِ لأتعجَّلَ الفِراق، ثُمّ أعددتُ أعمالًا لا تمنعُ مِن المُحادثةِ لأوقاتِ لقائهم؛ لئلّا يمضيَ الزمانُ فارغًا، فجعلتُ من المُستعَدِّ للقائهم قطعَ الكاغدِ[٢]، وبَريَ الأقلام، وحزمَ الدفاترِ، فإنّ هذه الأشياءَ لا بُدَّ منها، ولا تحتاجُ إلى فِكرٍ وحُضورِ قلب، فأرصدتُها لأوقاتِ زيارتِهم؛ لئلّا يضيعَ شيءٌ من وقتي، نسألُ الله عز وجل أن يُعرِّفَنا شرفَ أوقاتِ العُمر، وأن يُوفِّقَنا لاغتنامِه.

ولقد شاهَدتُ خلقًا كثيرًا لا يعرِفُون معنى الحياة؛ فمِنهم مَن قد[٣] أغناهُ الله عنِ الكسبِ بكثرةِ مالِه، فهو يقعُدُ في السُّوقِ أكثرَ النهار، ينظُرُ إلى الناس، وكم تمرُّ بهِ مِن آفةٍ ومُنكَر، ومنهم مَن يخلُو بلعبِ الشِّطرَنج، ومِنهم مَن يقطعُ الزمانَ بذكرِ الحوادِثِ مِن السلاطينِ والغلاءِ والرُّخص، إلى غيرِ ذلك.

فعلِمتُ أنّ الله تعالى لم يُطلِعْ على شرفِ العُمرِ ومعرفةِ قدرِ أوقاتِ العافيةِ إلا مَن وفَّقَهُ وألهمَهُ اغتنامَ ذلك، ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥].

١٦٤- فَصْلٌ
[أيُّهما أنفعُ: التصنيفُ أم التدريسُ؟]

رأيتُ مِن الرأيِ القويمِ أنّ نفعَ التصانيفِ أكثرُ مِن نفعِ التعليمِ بالمُشافهة؛ لأنّي أُشافِهُ في عُمُري عددًا مِن المُتعلِّمين، وأُشافِهُ بتصنيفي خلقًا لا تُحصى،

(١) سقطت من (ف).
(٢) الكاغد: القرطاس.
(٣) عن (ف).

ما خُلِقوا بعد. ودليلُ هذا أنّ انتِفاعَ الناسِ بتصانيفِ المُتقدِّمِين أكثرُ مِن انتِفاعِهم بما يستفيدونه مِن مشايخِهم.

فينبغي للعالِم أن يتوفَّرَ على التصانيفِ إن وُفِّقَ للتصنيفِ المُفيد، فإنّه ليس كُلُّ مَن صَنَّفَ صَنَّف، وليس المقصُودُ جمعَ شيءٍ كيف كان، وإنّما هي أسرارٌ يُطلِعُ اللهُ عز وجل عليها مَن شاء مِن عِبادِه[1]، ويُوفِّقُه لكشفِها، فيجمعُ ما فُرِّق، أو يُرتِّبُ ما شُتِّت، أو يشرحُ ما أُهمِل، هذا هو التصنيفُ المُفيد.

وينبغي اغتنامُ التصنيفِ في وسطِ العُمر؛ لأنّ أوائلَ العُمرِ زمانُ الطلب، وآخِرَهُ كَلالُ الحواسّ، ورُبّما خان الفهمُ والعقلُ مَن قُدِّرَ عمرُه، وإنّما يكونُ التقديرُ على العاداتِ الغالبةِ لا أنّه يعلمُ الغيب، فيكونُ زمانُ الطلبِ والحفظِ والتشاغُلِ إلى الأربعين، ثُمّ يبتدئُ بعد الأربعِين بالتصانيفِ والتعليم.

هذا إذا كان قد بلغَ ما يُريدُ مِن الجمعِ والحِفظ، وأُعِينَ على تحصيلِ المطالِب، فأمّا إذا قلَّتِ الآلاتُ عِنده مِن الكُتُب، أو كان في أوّلِ عُمرِه[2] ضعيفَ الطلب، فلم يَنَلْ ما يُريدُه في هذا الأوان، أخَّرَ التصانيفَ إلى تمامِ خمسين سنةً، ثُمّ ابتدأ بعد الخمسين في التصنيفِ والتعليمِ إلى رأسِ السِّتِّين، ثُمّ يزيدُ فيما بعد السِّتّين في التعليم، ويُسمِعُ الحديثَ والعِلم، ويُعلِّل[3] التصانيفَ إلا أن يقعَ مهمٌّ إلى رأسِ السبعين، فإذا جاوزَ السبعين جعلَ الغالِبَ عليهِ ذِكرَ الآخِرةِ والتهيُّؤَ للرحيل، فيوفِّرُ نفسَه على نفسِه إلا مِن تعليمٍ يَحتَسِبُه، أو تصنيفٍ يفتقرُ إليه، فذلك أشرفُ العُدَدِ للآخِرة، ولتكن همَّتُه في تنظيفِ نفسِه، وتهذيبِ خِلالِه، والمُبالغةِ في استدراكِ زلّاتِه، فإنِ اختُطِف في خِلالِ ما

(١) «من عباده» عن (ح).
(٢) في (ف، ر): «أمره».
(٣) يعلّلها: يؤخرها.

ذكَرنـا فنيّـةُ المُؤمِن خيرٌ مِـن عملِه، وإن بلغَ إلى هذه المنازلِ فقد بيَّنّا ما يصلُحُ لكُلِّ منزِل.

وقـد قـال سُـفيانُ الثـوريّ: «مَن بلـغَ سـنَّ رسـولِ الله ﷺ فليتَّخذْ لنفسِـهِ كفنًا»[1]. وقد بلغَ جماعةٌ مِنَ العُلماء سبعًا وسبعين سنة، مِنهم أحمدُ بنُ حنبل، فإن بلغَها فليعلَم أنّه على شفيرِ القبر، وأنّ كُلَّ يومٍ يأتي بعدها مُستطرَف[2].

فـإن تمَّـت له الثمانـون فليجعَلْ هِمّتَه كُلَّهـا مصروفةً إلـى تنظيفِ خلالِه، وتهيئـةِ زادِه، وليجعـل الاسـتغفارَ حليفَه، والذِّكـرَ أليفَه، وليُدقِّقْ في مُحاسـبةِ النفـسِ فـي بـذلِ العِلـم، أو مُخالطةِ الخلـق، فإنّ قُـربَ الاسـتعراضِ للجيشِ يُوجِـبُ عليهم الحـذرَ مِنَ العارض، وليُبالِغْ في إبقاءِ أثرِه قبلَ رحيلِه، مثلَ بثِّ عِلمِه، وإنفاقِ كُتُبِه وشيءٍ مِن مالِه.

وبعدُ، فمَن تولّاهُ الله عز وجل علَّمَه، ومَن أرادهُ ألهمَه. نسألُ الله عز وجل أن يُنعِمَ علينا بأن يتولّانا ولا يتولّى عنا، إنّه قريبٌ مُجيب.

١٦٥- فَصْلٌ

[بين العادات والشرع]

رأيتُ عاداتِ الناسِ قد غَلَبت على عملِهم بالشـرع، فهم يستوحِشُون مِن فِعلِ الشيءِ لعدمِ جريانِ العادة، لا لنهيِ الشرع، فكم مِن رجُلٍ يُوصَفُ بالخيرِ يبيعُ ويشتري، فإذا حصلَت له القُراضةُ باعَها بالصحيحِ مِن غيرِ تقليدٍ لإمامٍ أو عملٍ برُخصةٍ؛ عادةً من القوم، واستثقالًا للاستفتاء.

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٧: ٧٢).

(٢) المستطرَف: المستحدَث.

ونـرى خلقًـا يُحافِظُون على صـلاةِ الرغائب[١]، ويَتَوانَـون عنِ الفرائض، وكثيـرًا مِـنَ المُتصوِّفِيـن لا يستوحِشُـون مِـن ظُلمِ النـاس، ثُـمّ يتصدَّقُون على الفُقراء، ورُبّما تَوانَوا عن إخـراجِ الزكـاة، وتكاسلُوا عن استعمالِ التأويلاتِ فيهـا، ثُمّ إذا حضرَ أحدُهم مجلِسَ وعظٍ بكى كأنّه يُصانِعُ بتلك الحال، ومِنهم مَـن يُخـرجُ بعضَ الـزكاةِ مصانعةً عمّـا لم يُخرجْـهُ، ومِنهم مَن يعلـمُ أنّ أصلَ مالِـه حـرام، ويصعُـبُ عليهِ فراقهُ للعـادة، وفيهم مَن يحلِـفُ بالطلاقِ ويحنَثُ ويرى الفِراقَ صعبًا، فرُبّما تأوَّل، ورُبّما تكاسَلَ عنِ التأويلِ اتّكالًا على عفوِ الله تعالى، ووعدًا مِن النفسِ بالتوبة، ومنهم مَن يرى أنّ استعمالَ الشرعِ رُبّما كان سببًا في تضييقِ معاشِـه، وقد أَلِفَ التفسُّـح، فلا يسـهُلُ عليه فِراقُ ما قد أَلِف، والعاداتُ في الجُملةِ هي المُهلِكة.

ولقد حضرَ عِندي رجُلٌ شيخٌ ابنُ ثمانين سنةً، فاشتريتُ مِنهُ دُكّانًا، وعقدتُ معـه العقـد، فلمّا افترَقنا غدرَ بعد أيّام، فطلبتُ مِنهُ الحُضورَ عِند الحاكِم فأبى، فأحضرتُـه فحلـفَ باليمينِ الغَمُـوس أنّي ما بِعتُه، فقلتُ: ما تدورُ عليهِ السَّـنة، وأخـذ يُبرطِـلُ[٢] لمَـن يحُولُ بيني وبينهُ مِـن الظَّلَمة، فرأيتُ مـن العوامِّ مَن قد غلَبت عليهِ العادات، فلا يلتفتُ معها إلى قولِ فقيه، يقول: هذا ما قبضَ الثمنَ، فكيـف يصِحُّ البيـع؟ وآخرُ يقول: كيف يجُوزُ لك أن تأخُـذ دُكّانَه بغيرِ رِضاه؟ وآخرُ يقُول: يجِبُ عليك أن تُقيلَه البيع.

فلمّا لم أُقِلْه أخذَ هو وأقارِبهُ يأخُذُون عِرضِي، ورأى أنّه يُحامِي عن مِلكِه،

(١) صـلاة الرغائب تُصلّى أول جمعـة من رجب، والأثر الذي ذُكِر فيها كذب موضوع باتفاق العلماء. انظر: مجموع الفتاوى (٢٣: ١٣٢).

(٢) برطلَ المالَ: دفعه على وجه الرشوة.

ثُمّ سعى بي إلى السُّلطانِ سِعايةً يَخرُصُ فيها مِن الكذِبِ ما أدهَشني، وبَرطَلَ مالًا لخلقٍ مِن الظَّلَمة، فبالَغُوا وسَعَوا، إلا أنّ الله تعالى نجّاني مِن شرِّهم.

ثُمّ إنّي أقمتُ عليهِ البيِّنةَ عِند الحاكِم، فقال بعضُ أربابِ[1] الدنيا للحاكِم: لا تحكُم لـه، فوقفَ عنِ الحُكمِ بعد ثُبوتِ البيِّنةِ عِنده، فرأيتُ مِن هذا الحاكِمِ ومِن حاكِمٍ آخرَ أعلى مِنهُ من تركِ إنفاذِ الحقّ حِفظًا لرئاستِهم ما هوَّن عِندي ما فعلَه ذلك الشيخُ حِفظًا لمالِه؛ لجهلِه وعِلمِ هؤلاء.

فيَنحَلُّ لي مِن الأمرِ أنّ العاداتِ غلبَتْ على الناس، وأنّ الشرع أُعرِضَ عنه، وإن وقعَت مُوافقةٌ للشرعِ فكما اتَّفقَ أو لأجلِ العادة، فإنّ الإنسانَ لو ضُرِبَ بالسياطِ ما أفطرَ في رمضان، عادةً قدِ استمرَّت، ويأخذُ أغراضَ الناسِ وأموالَهم عادةً أخرى.

فكم قد رأيتُ هذا الشيخَ يُصلِّي ويُحافِظُ على الصلاة، ثُمّ لمّا خاف فوتَ غرضِهِ ترك الشرعَ جانبًا، وكم قد رأيتُ أولئك الحُكّامَ يتعبَّدُون ويَطلُبُون العِلم، غيرَ أنّهم لمّا خافُوا على رئاستِهم أن تزولَ تركُوا جانِبَ الدين.

ثُمّ إنّ الله تعالى نصَرني عليهِ وتقدَّمَ إليَّ الحاكِمُ بإنفاذِ ما ثبتَ عِنده، ودارتِ السَّنة، فماتَ الشيخُ على قُلٍّ[2]، فنسأل الله عز وجل التوفيقَ للانقيادِ لشرعِهِ ومُخالفةِ أهوائنا.



(١) سقطت من (ح، ص).

(٢) القُلّ: الفقر والحاجة.

١٦٦- فَصْلٌ
[عُزلة العالم]

ما أعرِفُ للعالِمِ قطُّ لذّةً ولا عِزًّا ولا شرفًا ولا راحةً ولا سلامةً أفضلَ مِن العُزلة، فإنّه ينالُ بها سلامةَ بدنِه ودينِه وجاهِه عِند الله عز وجل وعند الخلق؛ لأنّ الخلقَ يهُونُ عليهم مَن يُخالِطُهم، ولا يعظُمُ عِندهم قولُ المخالطِ لهم؛ ولهذا عظُم قدرُ الخُلفاءِ لاحتجابِهم.

وإذا رأى العوامُّ أحدَ العُلماءِ مُترخِّصًا في أمرٍ مباحٍ هان عِندهم، فالواجبُ عليهِ صيانةُ عِلمِهِ، وإقامةُ قدرِ العِلمِ عِندهم، فقد قال بعضُ السلف: «كنّا نمزحُ ونضحك، فإذا صِرنا يُقتدى بنا[١] فما أراهُ يسعُنا ذلك»، وقال سُفيانُ الثوريّ: «تعلَّمُوا هذا العِلمَ واكظِمُوا عليه، ولا تخلِطُوهِ بهزلٍ فتمُجَّهُ القُلُوب»[٢].

فمُراعاةُ الناسِ لا ينبغي أن تُنكَرَ، وقد قال ﷺ لعائشة: «لولا حِدثانُ قومِكِ بالكُفرِ لنقَضتُ الكعبةَ وجعلتُ لها بابَينِ»[٣]، وقال أحمدُ بنُ حنبلٍ في الركعتَين قبلَ المغرِب: «رأيتُ الناسَ يكرهُونها، فتركتُها»[٤].

ولا تسمعْ مِن جاهِلٍ يرى مثلَ هذه الأشياءِ رياء، إنّما هذه صيانةٌ للعِلم، وبيانُ هذا أنّه لو خرجَ العالِمُ إلى الناسِ مكشوفَ الرأس، أو في يدِهِ كِسرةٌ يأكُلُها، قلَّ عِندهم، وإن كان هذا مُباحًا، فيصيرُ بمثابةِ تخليطِ الطبيبِ الآمرِ بالحِميةِ، فلا ينبغي للعالِمِ أن ينبسطَ عِند العوامِّ حِفظًا لهم، ومتى أراد مُباحًا فليستترْ بهِ عنهم.

---

(١) سقطت من (ح، ص)، والخبر رواه أبو نعيم في الحلية (٦: ١٤٣).

(٢) رواه ابن المبارك في الزهد (٢٦٩). (٣) البخاري (١٢٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) بمعناه ذكره ابن القيم في بدائع الفوائد (٤: ١٥٠٨).

وهـذا القدرُ الذي لاحظَه أبو عُبيدةَ حين رأى عُمرَ بنَ الخطّابِ رضي الله عنهما قد قدمَ الشامَ راكبًا على حِمارٍ ورجلاه من جانب، فقال: «يا أميرَ المُؤمنين، يتلقّاكَ عُظماءُ الناس»، فما أحسنَ ما لاحظَ! إلا أنّ عُمرَ رضي الله عنه أراد تأديبَ أبي عبيدةَ بحفظِ الأصل، فقال: «إنّ الله أعزَّكُم بالإسلامِ، فمهما طلبتُم العِزَّ في غيرِه أذلَّكم»(١).

والمعنى: ينبغي أن يكُونَ طلبكُم العِزَّ بالدينِ لا بصُوَرِ الأفعالِ، وإن كانتِ الصُّوَرُ تُلاحَظ، فإنّ الإنسانَ يخلُو في بيتِه عُريانًا، فإذا خرجَ إلى الناسِ لبِسَ ثوبينِ وعمامةً ورداء، ومثلُ هذا لا يكُونُ تصنُّعًا، ولا يُنسَبُ إلى كِبر. وقد كان مالِكُ بنُ أنسٍ يغتسلُ ويتطيَّبُ ويقعُدُ للحديث(٢).

ولا تلتفتْ ـ يا هذا ـ إلى ما ترى مِن تبذُّلِ العُلماءِ على أبوابِ السلاطين، فإنّ العُزلةَ أصوَنُ للعالِمِ والعِلم، وما يخسرُه العُلماءُ في ذلك أضعافُ ما يَرتَجُونه، وقد كان سيِّدُ الفُقهاءِ سعيدُ بنُ المُسيِّبِ لا يغشى الوُلاة، وعن قولِه هذا فسكَتوا عنه، وهذا فِعلُ الحازِم.

فإن أردتَ اللذّةَ والراحةَ فعليكَ ـ أيُّها العالِمُ ـ بقعرِ بيتِك، وكُن مُعتزِلًا عن أهلِكَ يطِبْ لكَ عيشُك، واجعَلْ للقاءِ الأهلِ وقتًا، فإذا عرَفُوه تصنَّعوا للقائك، فكانتِ المُعاشرةُ بذلِك أجوَدَ، وليكن لك بيتٌ في بيتِك تَخلُو فيهِ بربِّك(٣)، وتُحادِثُ سطورَ كتبِك، وتجري في حَلباتِ فكرِك، واحترسْ من لقاءِ الخلق، وخُصُوصًا العوامّ، واجتهِد في كسبٍ يُعِفُّك عنِ الطمع، فهذه نِهايةُ لذّةِ العالِمِ في الدنيا.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٦١١٤).

(٢) رواه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (٩٦١). (٣) عن (ف).

وقـد قيـل لابنِ المُبارَك: مـا لكَ لا تُجالسُـنا؟ فقال: «أنا أذهـبُ فأُجالسُ الصحابةَ والتابِعين»، وأشار بذلِك إلى أنّه ينظُرُ في كُتُبِه[1].

ومتـى رُزِقَ العالِـمُ الغِنـى عـنِ النـاسِ والخلوةَ، فـإن كان له فهـمٌ يجلِبُ التصانيف، فقد تكامَلت لذّتُه، وإن رُزِقَ فهمًا يرتقي إلى مُعاملةِ الحقِّ ومُناجاتِه فقد تعجَّل دُخُولَ الجنّةِ قبل الممات، نسألُ الله عز وجل همّةً عاليةً تسمو إلى الكمال، وتوفيقًا لصالحِ الأعمال، فالسالِكُون طريقَ الحقِّ أفراد.

١٦٧ - فَصْلٌ
[ثمرةُ العلم]

تأمَّلتُ أحـوالَ الناسِ في حالةِ عُلُوِّ أسـنانهم[2]، فرأيتُ أكثـرَ الخلقِ يَبِينُ خَسـارُهم حينئـذٍ، فمنهم مَن بالَـغَ في المعاصي من الشباب، ومِنهم مَن فرَّطَ في اكتسـابِ العِلم، ومنهم مَن أكثرَ الاستمتاعَ باللذّاتِ حينئذٍ، فكلُّهم نادمٌ في حالةِ الكِبَر، حين فواتِ الاستدراكِ لذنوبٍ سَلَفَت، أو قُوًى ضعُفت، أو فضيلةٍ فاتَت، فيمضي زمانُ الكِبَرِ في حسـرات، إن كانت للشـيخِ إفاقةٌ مِن ذُنوبٍ قد سـلفَت قـال: وا أسـفًا على ما جنَيت، وإن لـم يكُن له إفاقةٌ صار مُتأسِّـفًا على فواتِ ما كان يلتذُّ به.

فأمّا مَن أنفقَ عصرَ الشبابِ في العِلم فإنّه في زمنِ الشيخُوخةِ يَحمَدُ جنيَ مـا غـرَس، ويلتـذُّ بتصنيفِ ما جمَـع، ولا يرى ما يفوتُـه مِن لذّاتِ البدنِ شـيئًا بالإضافـةِ إلـى ما ينالُه من لـذّاتِ العِلم، هذا مع وُجُـودِ لذّاتِه في الطلبِ الذي

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٨: ١٦٤).

(٢) في (ح، ص): «شأنهم».

كان يُؤمِّلُ بهِ إدراكَ المطلُوب، ورُبّما كانت تلك الآمالُ أطيبَ مِمّا نِيلَ مِنها، كما قال الشاعِر(١): [البسيط]

أهتَزُّ عِندَ تَمَنِّي وَصلِها طَرَبًا ... ورُبَّ أُمنِيَّةٍ أحلَى مِنَ الظَّفَرِ

ولقد تأمَّلتُ نفسي بالإضافةِ إلى عَشِيرتي الذين أنفَقوا أعمارَهم في اكتسابِ الدنيا، وأنفقتُ زمنَ الصبوةِ والشبابِ في طلبِ العِلم، فرأيتُني لم يَفُتني مِمّا نالُوه إلا ما لو حصلَ لي ندمتُ عليه.

ثُمّ تأمَّلتُ حالي، فإذا عَيشِي في الدنيا أجوَدُ مِن عيشِهم، وجاهي بين الناسِ أعلى مِن جاهِهم، وما نِلتُه من معرِفةِ العِلمِ لا يُقاوَم.

فقال لي(٢) إبليس: ونسيتَ تعبَكَ وسهرَكَ؟! فقُلتُ: أيُّها الجاهِل(٣)، تقطيعُ الأيدي لا وقعَ له عِند رُؤيةِ يُوسُفَ، وما طالَت طريقٌ أدَّت إلى صديق: [الوافر]

جَزَى الله المَسِيرَ إلَيهِ خَيرًا ... وإن تَرَكَ المَطايا كَالمَزادِ(٤)

ولقد كُنتُ في حلاوةِ طلبي للعِلمِ ألقى مِن الشدائدِ ما هو عِندي أحلى مِن العسلِ لأجلِ ما أطلبُ وأرجُو، كنتُ في زمان الصِّبا آخُذُ معي أرغِفةً يابسةً، فأخرُجُ في طلبِ الحديث، وأقعُدُ على نهرِ عيسى، فلا أقدِرُ على أكلِها إلا عِند الماء، فكلَّما أكلتُ لُقمةً شربتُ عليها(٥)، وعينُ هِمَّتي لا ترى إلا لذّةَ تحصيلِ العِلم، فأثمَرَ ذلك عِندي أنّي عُرِفتُ بكثرةِ سماعي لحديثِ سِيَرِ الرسولِ ﷺ

---

(١) البيت للتهامي في الخزانة (٩: ١٤٥).
(٢) سقطت من (س، ر).
(٣) زاد في (س): «هل».
(٤) البيت للمتنبي في ديوانه (ص٩٦).
(٥) زاد في (ك، س): «جرعة».

وأحوالِـه وآدابِه، وأحوالِ أصحابِه وتابعِيهـم، فصرتُ في معرِفةِ طريقِهم كابنِ أجودَ[١].

وأثمـرَ ذلـك عِندي مِـن المُعاملةِ ما لا يُـدرَكُ بالعِلم، حتى إنّنـي أذكرُ في زمـانِ الصبوةِ ووقتِ الغُلمـةِ[٢] والغُربةِ قُدرتي على أشـياءَ كانتِ النفسُ تتُوقُ إليهـا تَوَقانَ العطشـانِ إلى الماءِ الزُّلال، ولـم يَمنَعني عنها إلا ما أثمرَ عِندي[٣] من العِلمِ مِن خوفِ الله عز وجل.

ولولا خطايا لا يخلُو مِنها البشر، لقد كُنتُ أخافُ على نفسي مِن العُجب، غيـرَ أنّـه عز وجـل صانَني، وعلَّمني، وأطلَعَني مِن أسـرارِ العِلـمِ على معرفتِه، وإيثارِ الخلوةِ به، حتى إنّه لو حضرَ معي معرُوفٌ وبِشرٌ لرأيتُمها زحمة.

ثُمّ عاد فغمسَـني في التقصيرِ والتفريط، حتى رأيتُ أقلَّ الناسِ خيرًا مِني، وتارةً يُوقِظني لقيامِ الليلِ ولذّةِ مُناجاتِه، وتارةً يَحرِمُني ذلك مع سـلامةِ بدني، ولولا بشارةُ العِلمِ بأنّ هذا نوعُ تهذيبٍ وتأديبٍ لَخرجتُ؛ إمّا إلى العُجبِ عِند العمل، وإمّا إلى اليأسِ عِند البطالة، لكنّ رجائي في فضلِهِ قد عادَلَ خوفي مِنه.

وقد يغلبُ الرجاءُ بقوّةِ أسبابِه؛ لأنّي قد رأيتُه[٤] ربّاني مُنذ كُنتُ طِفلًا، فإنّ أبي مات وأنا لا أعقِلُ به، والأمُّ لم تَلتَفِت إليّ، فرَكَزَ في طبعي حُبَّ العِلم، وما زال يُوقعُنـي على المُهـمِّ فالمُهمّ، ويحملُني إلى مَـن يحملُني على الأصوب، حتـى قـوَّمَ أمـري، وكم قد قصدَني من عـدُوٍّ صدَّه عنّـي، وإذا رأيتُه قد نصَرني

(١) كابن أجود: أي كالدليل.

(٢) الغُلمة بضم الغين: شدة الحاجة إلى الجماع.

(٣) من قوله: «توقان العطشان» إلى هنا سقط من (ص).

(٤) المثبت عن (ق)، وفي سائر النسخ: «لأني رأيت قد».

وبصَّرني، ودافعَ عني، ووهبَ لي[١]، قَوِيَ رجائي في المُستقبَلِ بما قد رأيتُ في الماضي.

ولقد تاب على يديَّ في مجالسِ الذِّكرِ أكثرُ من مئتَي ألفٍ، وأسلمَ على يديَّ أكثرُ من مئتَي نفسٍ، وكم سالَت عينُ مُتجبِّرٍ بوعظي لم تكُن تسيل، ويحِقُّ لمَن تلمَّحَ هذا الإنعامَ أن يرجُوَ التمام، ورُبَّما لاحَت أسبابُ الخوفِ بنظري إلى تقصيري وزَللي.

ولقد جلستُ يومًا، فرأيتُ حولي أكثرَ من عشرةِ آلاف، ما فيهم إلا مَن قد[٢] رقَّ قلبه، أو دمعَت عينه، فقلتُ لنفسي: كيف بكِ إن نجَوا وهلكتِ؟! فصِحتُ بلِسانِ وجدي: إلهي وسيِّدي، إن قضيتَ عليَّ بالعذابِ غدًا فلا تُعلِمْهم بعذابي؛ صيانةً لكرمِك لا لأجلي؛ لئلا يقولُوا: عذَّبَ مَن دلَّ عليه.

إلهي، قد قيلَ لنبيِّكَ ﷺ: «اقتُلِ ابنَ أُبيٍّ المُنافِقَ»، فقال: «لا يتحدَّثُ الناسُ: أنَّ مُحمَّدًا يقتُلُ أصحابَه»[٣]. إلهي، فاحفَظ حُسنَ عقائدِهم فيَّ بكَرمِكَ أن تُعلِمَهم بعذابِ الدليلِ عليك، حاشاكَ والله يا ربِّ مِن تكديرِ الصافي. [السريع]

لا تَبرِ عُودًا أنتَ رِيشْتُهُ ... حاشا لِبانِي الجُودِ أن يَنقُضا
لا تُعطِشِ الزَّرعَ الذي نَبْتُهُ ... بصَوبِ إنعامِكَ قَد رَوَّضا[٤]



(١) سقطت من (ك، س). (٢) سقطت من (ك، س، ر).
(٣) البخاري (٣٥١٨)، ومسلم (٢٥٨٤) من حديث جابر رضي الله عنه.
(٤) للشريف الرضي في ديوانه (١: ٥٧٥).

١٦٨- فَصْلٌ

[عاقبةُ العشق]

مِن الأُمُورِ التي تَخفَى على العاقلِ أنّه يرى أنّه متى لم يكُن عِندهُ امرأةٌ أو جاريةٌ يهواها هوًى شديدًا، أنّه لا يلتذُّ في الدنيا، فإذا صوَّرَ محبوبًا مملوكًا تَخايَلَ لذّةً عظيمةً، وإذا كان عِندهُ مَن لا يميلُ إليهِ اعتقَد نفسَه محرومًا.

وهذا أمرٌ شديدُ الخفاء، فينبغي أن يُوضَّحَ، وهُو أنّ المملُوكَ مملُوك، ومتى قدرَ الإنسانُ على ما يَشتَهيه ملَّه ومالَ إلى غيرِه؛ تارةً لبيانِ عُيوبه التي تكشفُها المُخالطة، فإنّه قد قال الحُكماء: «العِشقُ: العمى عن عُيوبِ المحبوب»، وتارةً لمكانِ القُدرةِ عليه، والنفسُ لا تزالُ تتطلَّعُ إلى ما لا[1] تقدرُ عليه.

ثُمّ لو قدَّرنا دوامَ المحبّةِ مع القُدرة، فإنّها قد تكونُ، ولكِن ناقصةً بمِقدارِ القُدرة، وإنّما يُقوِّيها تَجَنِّي المحبُوب، فيكونُ تجنِّيه كالامتناع، أو امتناعُه من الموافقة.

فإذا صفا فلا بُدَّ مِن أكدارٍ، مِنها الحذرُ عليه، ومِنها قِلّةُ ميلِه إلى هذا العاشق، وربما تكلَّفَ القُربَ مِنه؛ لعلمِ الإنسانِ بقِلّة ميلِ محبُوبِه إليه، يَنغَصُ بل يُبغِض، فإن خاف مِنهُ خيانةً احتاجَ إلى حِراستِه، فقوِيَت النُّغَص.

وأصلحُ المقدّماتِ التوسُّط، وهو اختيارُ ما تميلُ النفسُ إليه، ولا يرتقي إلى مقامِ العِشق، فإنّ العاشِقَ في عذاب، وإنّما يتخايَلُ الفارغُ مِن العشقِ التذاذَ العاشق، وليس كذلك، فإنّه كما قيل[2]: [الوافر]

---

(١) سقطت من (ح، ص).

(٢) الأبيات بلا نسبة في حماسة أبي تمام (٢: ٩٣).

ومافِي الأرضِ أشقَى مِن مُحِبٍّ وإن وَجَدَ الهَوَى عَذبَ المَذاقِ
تَـراهُ باكِيًـا فـي كُلِّ وَقـتٍ مَخافـةَ فُرقـةٍ أو لاشـتِياقِ
فيَبكِـي إن نَـأوا شَـوقًا إليهم ويَبكِي إن دَنَـوا خَوفَ الفِراقِ
فتَسـخَنُ عَينُهُ عِندَ[1] التداني وتَسـخَنُ عَينُـهُ عِنـدَ الفِراقِ

١٦٩- فصل

[علوُّ الهمة ابتلاء]

ما ابتُلي الإنسانُ قطُّ بأعظمَ مِن عُلُوِّ هِمّتِه، فإنّ مَن عَلَتْ هِمّتُه يختارُ أعاليَ المعالي، وقد لا يُساعدُ الزمان، وقد تضعُفُ الآلةُ، فيبقى في عذابٍ، وإنّي أُعطِيتُ من عُلُوِّ الهِمّةِ طرفًا، فأنا به في عذاب، ولا أقول: ليتَه لم يكُن، فإنّه إنّما يحلُو العيشُ بقدرِ عدمِ العقل، والعاقلُ لا يختارُ زيادةَ اللذّةِ بنقصانِ العقل.

ولقد رأيتُ أقوامًا يصِفُون عُلُوَّ هِمَمِهم، فتأمّلتُها، فإذا بها في فنٍّ واحِد، ولا يُبالُون بالنقصِ فيما هو أهَمّ. قال الرضيّ[2]: [الكامل]

ولِكُلِّ جِسـمٍ في النُّحُولِ بَلِيّةٌ وبَلاءُ جِسمِي مِن تَفاوُتِ هِمّتِي

فنظرتُ فإذا غايةُ أملِه الإمارة.

وكان أبو مُسلِمٍ الخُراسانيُّ في حالِ شبيبتِه لا يكادُ ينام، فقيل له في ذلك، فقال: ذهنٌ صافٍ، وهمٌّ بعيد، ونفسٌ تتوقُ إلى معالي الأمور، مع عيشٍ كعيشِ الهَمَجِ الرَّعاع. قيل: فما الذي يُبرِّدُ غليلَك؟ قال: الظَّفَرُ بالمُلك. قيل: فاطلُبه. قال: لا يُطلَبُ إلا بالأهوال. قيل: فاركبِ الأهوال. قال: العقلُ مانِع. قيل: فما

---

(١) سقطت من (ف).

(٢) البيت لمهيار الديلمي في ديوانه (١: ١٥٥).

تصنع؟ قال: سأجعلُ مِن عقلي جهلًا، وأحاولُ به خطرًا لا يُنالُ إلا بالجهل، وأُدبِّرُ بالعقلِ ما لا يُحفَظُ إلا به، فإنّ الخُمولَ أخُو العدم[1].

فنظرتُ إلى حالِ هذا المِسكين، فإذا به قد ضيَّع أهمَّ المُهمّات، وهو جانِبُ الآخِرة، وانتصبَ في طلبِ الولايات، فكم فتكَ وقتلَ حتى نالَ بعضَ مُرادِه مِن لذّاتِ الدنيا! ثُمّ لم يتنعَّم في ذلك أكثرَ مِن ثمانِ سِنين، ثُمّ اغتِيل، ونسيَ تدبيرَ العقل، فقُتِل ومضى إلى الآخرةِ على أقبحِ حال.

وكان المُتنبِّي يقول[2]: [الطويل]

وفي الناسِ مَن يَرضَى بمَيسُورِ عَيشِهِ ... ومَركُوبُـهُ رِجـلاهُ والثـوبُ جِلدُهُ
ولَكِـنَّ قَلبًـا بيـنَ جَنبَـيَّ مـا لَـهُ ... مَـدًى يَنتَهِي بي فـي مُـرادٍ أحُدُّهُ
يَرَى جِسـمَهُ يُكسَـى شُـفُوفًا تَرُبُّهُ ... فيَختـارُ أن يُكسَـى دُرُوعًـا تهُدُّهُ

فتأمَّلتُ هذا الآخرَ، فإذا نَهمَتُه فيما يتعلَّقُ بالدنيا فحسبُ.

ونظرتُ إلى عُلُوِّ هِمّتي فرأيتُها عجبًا، وذلك أنّني أرُومُ مِن العِلمِ ما أتيقَّنُ أنّـي لا أصِـلُ إليه؛ لأنّني أُحبُّ نَيلَ كُـلِّ العُلومِ علـى اختِـلافِ فنُونِها، وأُريدُ استقصاءَ كُلِّ فنٍّ، وهذا أمرٌ يعجِزُ العُمرُ عن بعضِه.

فإن عرضَ لي ذُو هِمّةٍ في فنٍّ قد بلغَ مُنتهاهُ، رأيتهُ ناقصًا في غيرِه، فلا أعُدُّ هِمّتَه تامّة، مِثلَ المُحدِّثِ فاتهُ الفِقه، والفقيهِ فاتهُ عِلمُ الحديث، فلا أرى الرضا بنقصانٍ مِن العُلومِ إلا حادِثًا عن نقصِ الهِمّة.

ثُمّ إنّني أرُومُ نهايةَ العملِ بالعِلم، فأتُوقُ إلى ورعِ بِشرٍ، وزهادةِ معرُوفٍ،

(١) ذكره الآبي في نثر الدر في المحاضرات (٥: ٤٩).

(٢) ديوان المتنبي (ص٤٥٤).

وهذا - مع مُطالعةِ العلم[١] والتصانيف، وإفادةِ الخلقِ ومُعاشرتِهم - بعيدٌ.

ثُمّ إنّي أرُومُ الغنى عن الخلق، وأستشرِفُ الإفضالَ عليهم، والاشتغالُ بالعِلمِ مانعٌ من الكسب، وقبولُ المِنَنِ[٢] مِمّا تأباهُ الهِمّةُ العالية.

ثُمّ إنّي أتُوقُ إلى طلبِ الأولاد، كما أتُوقُ إلى تحقيقِ التصانيف؛ ليبقى الخَلَفانِ نائبَين عنّي بعد التلف، وفي طلبِ ذلك ما فيهِ مِن شُغلِ القلبِ المُحِبّ للتفرُّد.

ثُمّ إنّي أرُومُ الاستمتاعَ بالمُستحسَنات، وفي ذلك امتناعٌ مِن جِهةِ قِلّةِ المال، ثُمّ لو حصلَ فرّقَ جمعَ الهِمّة.

وكذلك أطلُبُ لبَدَني ما يُصلِحُه مِن المطاعِمِ والمشارِب، فإنّه مُتعوِّدٌ للترفِ واللُّطف، وفي قِلّةِ المالِ مانِع، وكُلُّ ذلك جمعٌ بين أضداد.

فأين أنا وما وصفتُه مِن حالِ مَن كانت غايةُ[٣] همّتِه طلبَ[٤] الدنيا؟ وأنا لا أحبُّ أن يخدِشَ حُصُولُ شيءٍ مِن الدنيا وجهَ ديني بسبب، ولا أن يُؤثِّرَ في عِلمي ولا في عملي.

فوا قلقي مِن طلبِ قيامِ الليل، وتحقيقِ الورعِ مع إعادةِ العِلم، وشغلِ القلبِ بالتصانيف، وتحصيلِ ما يلائمُ البدنَ مِن المطاعم، ووا أسفي على ما يفُوتُني مِن المُناجاةِ في الخَلوةِ مع مُلاقاةِ الناسِ وتعليمِهم، ويا كَدَرَ الورعِ مع طلبِ ما لا بُدّ مِنهُ للعائلة، غيرَ أنّي قد استسلمتُ لتعذيبي، ولعل تهذيبي في تعذيبي؛ لأنّ عَلَيانَ همّتي لطلبِ المعالي المُقرّبةِ إلى الحقّ عز وجل، ورُبّما

(١) عن (ف).
(٢) في (ف، ر): «الشيء».
(٣) سقطت من (ف، ر).
(٤) عن (ف).

كانتِ الحَيرةُ في الطلبِ دليلًا إلى المقصُود، وها أنا أحفظُ أنفاسي من أن يضيعَ مِنها نفَسٌ في غيرِ فائدة، وإن بلغَ همّي مُرادَه، وإلا فـ«نيةُ المُؤمِن أبلغُ مِن عملِه»(١).

١٧٠- فَصْلٌ
[التلطُّف بالنفس]

لمّا سطَرتُ هذا الفصلَ المتقدِّم، رأيتُ إذكارَ النفسِ بما لا بُدَّ لها في الطريقِ مِنه، وهو أنّه لا بُدّ لها مِن التلطُّف، فإنّ قاطِعَ مرحلتَين في مرحلةٍ خليقٌ بأن يقف، فينبغي أن يقطعَ الطريقَ بألطفِ مُمكِن، وإذا تعِبتِ الرواحِلُ نهضَ الحادي يُغنِّيها، وأخذُ الراحةِ للجِدِّ جِدٌّ، وغوصُ السابحِ في طلبِ الدُّرِّ صُعود، ودوامُ السيرِ يَحسُرُ الإبلَ(٢)، والمفازةُ صعبة.

ومَن أراد أن يرى التلطُّفَ(٣) بالنفسِ فلينظُرْ في سِيَرِ الرسولِ ﷺ، فإنّه كان يتلطَّفُ بنفسِه، ويُمازحُ ويُخالطُ النساء، ويُقبِّلُ ويمصُّ اللسان(٤)، ويختارُ المُستحسَنات، ويُستعذَبُ له الماء(٥)، ويختارُ الماءَ البارد، والأوفقَ من المَطاعمِ كلحمِ الظهرِ(٦) والذراعِ(٧) والحلوى(٨).

وهذا كُلُّه رِفقٌ بالناقةِ في طريقِ السير، فأمّا مَن جرَّدَ عليها السوطَ فإنّه

(١) تقدم في الفصل ١٤.
(٢) حسَرَ الإبلَ: ساقها حتى أعياها.
(٣) زاد في (س): «في السير».
(٤) تقدم في الفصل ١٦١.
(٥) تقدم في الفصل ١٩.
(٦) رواه أحمد (١٧٤٤) مرفوعًا: «أطيب اللحم لحم الظهر»، وفيه شيخ مجهول الحال.
(٧) البخاري (٣٣٤٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه: فرفع إليه الذراع، وكانت تعجبه.
(٨) تقدم في الفصل ١٩.

يُوشِكُ ألا يقطعَ الطريق، وقد قال ﷺ: «إنّ هذا الدينَ متينٌ، فأوغِلُوا فيهِ برِفق، فإنّ المُنبتَّ(١) لا أرضًا قطعَ، ولا ظهرًا أبقى»(٢).

واعلَم أنّه ينبغي للعاقلِ أن يُغالطَ نفسَه فيما يكشِفُ العقلُ عن عَوارِه، فإنّ فكرَ المُتيقِّظِ يسبقُ قبلَ مُباشرةِ المرأةِ إلى أنّه اعتناقٌ بجسدٍ يحتوي على قذارة، وقبل بلعِ اللُّقمةِ أنّها مُتقلِّبةٌ في الرّيق، لو أخرجَها الإنسانُ(٣). وفي قُربِ الموتِ وما يجري عليهِ بعدَه لَبَغَّضَ عاجِلَ لذَّتِه، فلا بُدَّ مِن مُغالطةٍ تجري لينتفِعَ الإنسانُ بعيشِه، كما قال لبيد(٤): [الرمل]

فاكذِبِ النَّفسَ إذا حَدَّثتَها ... إنّ صِدقَ النَّفسِ يُزري بالأمَلْ

وقال البُستيّ(٥): [الطويل]

أفِد طَبعَكَ المَكدُودَ بالهَمِّ راحَةً ... تُجَمُّ وعَلِّلْهُ بشيءٍ مِنَ المَزْحِ
ولَكِن إذا أعطَيتَهُ ذاكَ فليكُنْ ... بمِقدارِ ما يُعطَى الطَّعامُ مِنَ المِلْحِ

وقال أبو عليّ بنُ الشِّبل(٦): [الكامل]

وإذا هَمَمتَ فناجِ نَفسَكَ بالمُنى ... وَعدًا فخَيراتُ الجِنانِ عِداتُ
واجعَلْ رَجاءَكَ دُونَ يَأسِكَ جُنّةً ... حَتّى تَزُولَ بهَمِّكَ الأوقاتُ

---

(١) جاء في حاشية (س) تعليقًا: «المنبتّ: أي المنقطع».
(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٤٨٠٦)، وفيه أبو عقيل يحيى بن المتوكل، وهو ضعيف.
(٣) في (ح) بياض قدر أربع كلمات.
(٤) ديوان لبيد (ص١٤١).
(٥) أنشدهما الثعالبي له في اليتيمة (٤: ٣٧٨).
(٦) هنا نهاية الخرم المشار إليه في (د). والأبيات لأبي الفتح البستي في نزهة الأبصار بطرائف الأخبار والأشعار (٢: ٣٢٣).

واسـتُرْ عَنِ الجُلَساءِ بَثَّكَ إنّما جُلَساؤُكَ الحُسّـادُ والشُّمّاتُ
ودَعِ التَّوَقُّـعَ لِلحَـوادِثِ إنّـهُ لِلحَيِّ مِن قَبلِ المَماتِ مَماتُ
فالهَـمُّ لَيسَ لـه ثَبـاتٌ مِثلَما فـي أهلِهِ مـا لِلسُّـرُورِ ثَباتُ
لَولا مُغالَطَـةُ النُّفوسِ عُقُولَها لَم يَصـفُ لِلمُتَيَقِّظِيـنَ حَياةُ

وقال أيضًا[1]: [الوافر]

بِحِفظِ الجِسمِ تَبقَى النَّفسُ فِيهِ بَقـاءَ النـارِ تُحفَـظُ بالوِعـاءِ
فَباليَـأسِ المُمِضِّ فـلا تُمِتْها ولا تَمـدُدْ لها طُـولَ الرجاءِ
وعِدْها فـي شَـدائِدِها رَخاءً وذَكِّرها الشـدائدَ فـي الرخاءِ
يُعَـدُّ صَلاحُهـا هَـذا وهَـذا وبالتَّركِيـبِ مَنفَعـةُ الـدواءِ

وقد كان عُمُومُ السلفِ يخضِّبون الشَّيب؛ لئلّا يرى الإنسانُ مِنهم ما يَكرَه، وإن كان الخِضـابُ لا يُعدِمُ النفسَ عِلمَهـا بذلك، ولكنّه نوعُ مُخادعةٍ للنفس، ومـا زالـت ترى الظاهِـر، وإنّما الفكرُ والعقلُ مـع الغائب، ولا بُـدّ مِن مُغالطةٍ تجري؛ ليتمَّ العيش، ولو عملَ العالِمُ بمُقتضى قِصَرِ الأمل، ما كتبَ العِلمَ ولا صنَّف.

فافهَـم هذا الفصلَ مع الذي تقدَّمه، فإنّ الأوّلَ في مقامِ العزيمة، وهذا في مـكانِ الرُّخصـة، ولا بُدّ للتعبِ من راحةٍ، وإعانةُ الله عز وجل على قدرِ صِدقِ الطلب، وقُوّةِ اللَّجَأ، وخلعِ الحولِ والقُوّة، وهو المُوفِّق.



(١) لأبي الفتح البستي في نزهة الأبصار (٢: ٣٢٣).

١٧١- فَصْلٌ[١]

[علمٌ بلا عمل]

كان العمـلُ بالعِلـم قديمًا جدًّا كلّـه، فقد صار العِلمُ عنـد جمهورِ العُلماءِ صِناعةً، يعملُون مِنهُ ما يُوافِقُ أغراضهم، ويتركون الباقي، فترى العالِمَ في هذا الزمانِ لا يكادُ[٢] يُمسِكُ عن غِيبةٍ، ويتشفّى مِن عِرضِ نظيرِه، ولا يُبالي مِن أين يتناولُ الدنيا.

ثُمّ تراهم يزدحِمُون على المراتب، فالشـاهِدُ يُعطي المالَ لتُقبَلَ شـهادتُه؛ لأنّهـم أحبُّـوا الرُّتبة، ولا عِلمَ لهم، فاقتنعُـوا برُتبةٍ تُقيمُها العوامّ، فيقولون على الباب: «شهادةٌ، حرسَ الله نِعمتَك»، فيقول: «أشهدُ عليكَ، حرسَ الله نِعمتَكَ»، ثُمّ يُحمَلُ الشاهِد، فيشهدُ على[٣] المُكرَهين، وعلى من لا يعرِفُونه، وهو يعلَمُ أنّ المُعـرَّفَ قـد أخَذ مِنـهُ حَبّةً، فعرَّفَه لأجلِهـا، فإذا أدّى الشـهادةَ عِند الحاكِمِ قال: «أعرِفُهُ بنسبِه واسمِه معرِفةً نفَت بالجهالة»، وهو يدري أنّه كاذِبٌ في هذا، وهـذا فِسـقٌ ينافي العدالـة، فحفِظُوا جاهَ الدنيـا، وضيَّعُوا جاهَ الآخِرة. أنشـدنا أبو محمدٍ المُقرئ: [مجزوء الكامل]

عَدِمُـوا العُلُـومَ فأصبَحُوا ... يَتَزاحَمُـونَ على الشَّـهادَهْ
فالعِلْـمُ والإسـلامُ مُـذْ ... طَلَبُوا الشَّـهادَةَ في شَهادَهْ
لا تَـرْكَـنَـنَّ لِـخَـطِّـهِـم ... واللهِ مـا يَسـوِي مِـدادَهْ

---

(١) من أول هذا الفصل حتى نهاية الفصل ٢٩٩ عن ثلاث نسخ فقط هي (ف، ق، ر)، وسقط من بقية النُّسخ.
(٢) سقط «لا يكاد» من (ق).
(٣) سقطت من (ف).

فإن عرفَ أحدُهم شيئًا خطبَ الولاياتِ والقضاء، فلا تسألْ عما يُحكى عنهُ مِن أخذِ الرّشا والبرطِيل[١]، فإن تقدَّمَ السُّلطانُ إليهم بما لا يجُوز فعلُوا، وقالُوا: «ما يُمكِنُ الخِلاف»! ولو كان فيهم دِينٌ لَما تعرَّضوا لما يؤولُ إلى ذلك.

وأمّا انطِلاقُ عُلماءِ عصرِنا في الفتوى بالجهل، فلا تسأل عنهم، وإذا مات لأحدِهم ميتٌ لبِسَ ثيابَ المُصيبةِ سَنة، في أحوالٍ مشهُورةٍ يُغني عِرفانُها عن شرحِها.

وفيهم من تفاقمَ به حُبُّ الرّئاسةِ إلى الموت، حتّى إنّه يُوصي بالقُربِ مِن بعضِ الأئمّة، وإن كان يعلمُ أنّ في ذلك مُزاحمةً للموتى، وكسرًا لعِظامِهم، وإخراجَه[٢] لهم عن أماكِنِهم، وهم[٣] أحقُّ بها للسَّبق.

والطامّةُ الكُبرى رُؤيةُ هؤُلاءِ أنفُسَهم بعينِ أنّهم يصلُحُون لمُزاحمةِ الأكابِر، وقد قيل لعُمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رحمه الله: «تُدفَنُ عِند رسُولِ الله ﷺ؟ فقال: لأن ألقى الله عز وجل بكُلِّ ذنبٍ أحبُّ إليّ مِن أن أرى نفسي أهلًا لذلك»[٤].

وقد قال النبيُّ ﷺ: «كسرُ عظمِ الميِّتِ ككسره حيًّا»[٥]. ورأيتُ في زماني جماعةً أوصَوا بهذا، واستخرجُوا تواقيع، فمِنهم أبو محمدٍ المقرئ؛ استخرج توقيعًا أن يُدفَنَ على جدِّهِ أبي منصُورٍ الخيّاط، فلمّا علِمتُ بهذا قُلت: هذا لبُعدِه عنِ الفِقه.

---

(١) في (ف): «والبواطيل»، والبرطيل: هو الرشوة.

(٢) في (ف، ق): «واطراحه». (٣) سقطت من (ف).

(٤) رواه محمد بن سعد في الطبقات الكبير (٧: ٣٩١).

(٥) رواه أحمد (٢٤٦٨٦) من قول عائشة، قال البخاري في التاريخ الكبير (١: ٤٥١): وغير مرفوع أكثر.

ورأيتُ أبا المعالي بنَ شافِعٍ قدِ استُخرِجَ له توقيعٌ أن يُدفَنَ على شيخِهِ ابنِ عقيل، وكان مِمَّن يُفتي، فعجِبتُ مِن فِعلِه، ووصّى بذلك[1] ابنَهُ أبا الفضلِ أيضًا، واستُخرجَ له توقيع، ودُفِن فوقَ أبيه.

وحدَّثني عبدُ المُغيثِ عنِ القاضي أبي يعلى بنِ الفرّاءِ ـ وكان أحدَ المُدرِّسين المُفتين ـ أنّه سأل في مرضِهِ أن يمضيَ إلى الوزيرِ ابنِ هُبيرة، ويستأذِن له أن يُدفَنَ على أبي الوفاءِ بنِ القوّاس، وهو في دكّةِ قبرِ أحمد[2]، وقال: هو جدّي لأمي، فمضى عبدُ المُغيث، واستأذن الوزير، فأنكر الوزيرُ ذلك، وقال: كيف يجُوزُ لنا أن ننبِشَ قُبورَ الصالِحين؟! فلم يفعل!

فعجِبتُ كيف استجاز ذلك الرجُلُ ما لوِ استُفتي فيهِ لَمنعَ مِنه! وكُلُّ ذلك لحُبِّ الرياسة، فإنّه غطّى على العِلم.

وبلَغني عن أبي الفضلِ بنِ شافِعٍ أنّه أوصى، فقال: لو دفنتُمُوني أربعين سنةً في الدار، فلا تُخرِجُوني إلا إلى[3] دكّةِ قبرِ أحمد.

ولقد قرأتُ بخطِّ ابنِ عَقيلٍ أنّه قال: لمّا حضَرتْ أبا سعيدٍ المَخرميَّ الوفاةُ، غلبَت عليهِ محبّةُ القُربِ مِن أحمدَ رضي الله عنه، فوصّى إلى نقيبِ النُّقَباءِ أن يجعلَ دفنهُ تحت رِجلِ القبر، جهلًا مِنهُ وغفلةً عمّا في طيِّ ذلك مِن الخطأ مِن نبشِ قُبورِ كِرامٍ قد ماتُوا، وأئمّةٍ وفُضَلاءَ قد سبقُوا، فلمّا نُبِش المكانُ برزَت عِظامُهم وتكسَّر بعضُها بالمِسحاة، فخرج مِنها أربعُ أرجُل، وكان في ذلك مِن العِصيان: نبشُ القُبور، ومُزاحمةُ أربابِها الذين[4] كان لهم حقُّ السَّبق،

(١) في (ف): «ورضي بذلك».
(٢) سقطت من (ر، ق).
(٣) سقطت من (ق).
(٤) في (ف): «الذي».

وكسرُ عِظامِهم، مع قولِ النبيِّ ﷺ: «كسرُ عظمِ الميتِ ككسرِه حيًّا»[١]، يعني: في الحُرمة.

قال: وقد كان قبرُ أبي حنيفةَ تحت سقفٍ، عمِلهُ بعضُ الأمراءِ التُّركُمان، وكان قبل ذلك ـ وأنا صبيٌّ ـ عليه خَرْبُشت[٢]، وذلك في سنة ثمانٍ وثلاثين وأربعِمِئة، فلمّا جاء شرفُ المُلك، وكان حنفيًّا مُتعصِّبًا، عزمَ على إحداثِ قُبّة، فبنى هذه القُبّة، وقدَّرَ لها ما بين أُلُوفٍ مِن الآجُرّ، وحفرَ أساسَ القُبّة، وطلبُوا الأرضَ الصلبة، فلم يبلغوا إليها إلا بعد حفرِ سبعةَ عشرَ ذِراعًا في نحوِ سبعةِ أذرع[٣]، فخرج مِن هذا الحفرِ من[٤] عِظام الموتى أربعُمئة ضِلَعٍ، ونُقِلَت جميعُها إلَى بُقعة، وحُفِر لتلك العِظامِ ودُفِنَت.

قال ابنُ عَقيلٍ: فأخذني لذلك المُقيم المُقعِد، وكان خرج في ذلك[٥] الأساسِ شخصٌ مُنتظِمُ العِظام، له ريحٌ كريحِ الكافُور، وتكلَّم الناسُ فيهِ على عادةِ العوامّ، ولا أدري: أطِيبًا كان أو ريحَ العفنِ المُشبَّهِ بريحِ الكافُور[٦]؟ فقُلتُ: هذا بُنيانٌ بُنِيَ على غيرِ تقوى مِن الله، وما يُدريكُم: لعلَّ النُّعمانَ خرجَت عِظامُه في جُملةِ هذه العِظام، وبقيَتِ القُبّةُ فارِغةً مِن مقصُود بانيها؟ فبلغَت كلِمتي إلى شرفِ المُلك، فأنفذ شاكِيًا مِنّي طالبًا مُقابلتي، فأحضرني الشيخُ أبو منصُورِ بنُ يُوسُفَ[٧]، وقال: يا سيدي: ما تعلمُ كيف حالُنا مع هؤُلاءِ

---

(١) تقدم في الفصل ١٧١.

(٢) الخربشت: كلمة فارسية تعني الخيمة، كما في المعجم الذهبي لمحمد التونجي (ص٢٣٥).

(٣) في (ق): «في تسعة أذرع».

(٤) سقطت من (ر، ق).

(٥) زاد في (ف): «في سنها».

(٦) من قوله: «وتكلم الناس» إلى هنا سقط من (ق).

(٧) سقط «ابن يوسف» من (ق).

الأعاجِم؟! فقُلت: يا سيِّدي، ما رأيتُ منكرًا فاحشًا، فما ملكتُ نُفرتي الدينية، والآن، فلا أُعيدُ هذه الكلِمة(١).

١٧٢- فَصْلٌ

[معرفة العبد بربّه]

معرِفـةُ العبـدِ بربِّهِ عز وجـل على ضربَيـنِ: معرِفةُ الأصـل التوحيد، فكُلُّ مُسلِمٍ يعلمُ أنّ له خالِقًا، ومعرِفةٌ خاصّةٌ لها علامات، تزيدُ وتنقُصُ على مِقدارِ قُوّةِ تلك المعرِفة.

فالخوفُ مِن وعيده، والرجاءُ لموعُودِه، والتسليمُ لأمرِه، والقيامُ بفرضِه، والازدِجارُ عن نهيِه؛ علاماتُ معرِفتِه(٢). وإذا أردتَ المعرِفةَ كان هو المُستعانَ في الشـدائد، فإذا زادت صار أنيسًـا في الخَلوات، فإذا زادت امتنعَ الانبسـاطُ بقُـوّةِ الاحتشـام، حتّـى إنّ خلقًا مِن السـاداتِ كانوا لا(٣) يسـتنِدُون أدبًا، وكان الإمامُ لا(٤) يقعُدُ في بيتِهِ مُتربِّعًا.



---

(١) القصة بطولها ذكرها ابن الجوزي في المنتظم (١٦: ١٠١).

(٢) في (ر، ق): «معرفة المسلمين».

(٣) سقطت من (ق).

(٤) سقطت من (ق).

١٧٣- فَصْلٌ

[مناقب بغداد وتغيُّر الزمان](١)

كانتِ الدنيا في نفسِها طيِّبةً، وإن لم تخلُ مِن كَدَر، إلا أنّه كانتِ المُلُوكُ تبسُطُ العدل، فكان سببًا لِعمارةِ الأرض، ومِن أواخِرِ أحوالِ الدنيا بناءُ بغداد.

فإنّ عُلماءَ الأوائلِ قالوا: أقاليمُ الأرضِ سبعة(٢)، فرسمَتها الهِند، فجعلَت صِفتَها كأنّها حلقة: فالإقليمُ الأوّلُ مِنها: إقليمُ بلادِ الهِند، والإقليمُ الثاني: إقليمُ بلاد(٣) الحِجاز، والإقليمُ الثالث: إقليمُ مِصر، والإقليمُ الرابع: إقليمُ بابِل، وهو أوسطُ الأقاليمِ وأعمرُها، وفيهِ جزيرةُ العرب، وفيهِ العِراقُ الذي هو سُرَّةُ الدنيا، وبغدادُ في وسطِ هذا الإقليم، والإقليمُ الخامِس: بلادُ الرُّومِ والشام، والإقليمُ السادِس: بلادُ التُّرك، والإقليمُ السابع: بلادُ الصِّين.

فالإقليمُ الذي فيهِ العِراقُ هو صفوةُ الأرضِ ووسطُها، لا يلحقُ مَن فيهِ عيبُ سَرَفٍ ولا تقتير، ولذلك اعتدلَت ألوانُ أهلِهِ وامتدَّت أجسامُهُم، وسلِمُوا مِن شقرةِ الرُّومِ والصقالبة، ومِن سوادِ الحبشِ وسائرِ أجناسِ السُّودان، ومِن غِلَظِ التُّرك، ومِن جفاءِ أهلِ الجِبال، ومِن دمامةِ أهلِ الصِّينِ ومَن جانسهُم، وكما اعتدلَ أهلُ العِراقِ في الخلق، فكذلك لطُفُوا في الفِطنةِ والأدب(٤).

ولمّا بنى المنصُورُ بغدادَ، فأحسنَ بناءَها، ثُمّ أمر ببناءِ الكَرخ، كانت الأنهارُ

---

(١) عُظم هذه الخاطرة حكاه المصنف نفسه في كتابه مناقب بغداد (ص٢٥ وما بعدها)، وعنه نصوّب بعض الكلمات المحرَّفة في النسخ الخطية، واشتراك هذه الخاطرة بين الكتابين للمصنف نفسه مما يُستدَلّ به على صحة نسبة هذه الزيادة إليه.

(٢) سقط «الأرض سبعة» من (ق). (٣) سقطت من (ف).

(٤) ذكره الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (١: ٣٢).



تجـري بها وتنحرفُ بيـن المحالِّ والدُّور، وكان أكثرُها يأخُذُ مِن نهرِ عيسـى، وكان ببغدادَ سِتونَ ألفَ حمّام، ثُمّ بنى المنصُورُ الرُّصافةَ لولدِه، ومدَّ الجِسر.

وأخبرنـا عبدُ الرحمـنِ بـنُ مُحمّدٍ القزّاز، قـال: أخبرنا أحمدُ بـنُ عليِّ بنِ ثابت، قال: سمِعتُ أبا(١) عليِّ بنَ شاذانَ يقول: أدركتُ ببغدادَ ثلاثةَ جُسُور(٢).

وحدَّثني هِلالُ بنُ المُحسِّن، قال: ذُكِر أنّه أُحصِيَتِ السُّمَيريّاتُ المَعبرانيّاتُ بدجلةَ في أيّامِ أبي أحمدَ المُوفَّق، فكانت ثلاثين ألفًا، قُدِّرَ مِن كَسبِ مَلّاحِيها في كُلِّ يومٍ تسعون ألفَ دِرهم(٣).

وكان ابنُ عَقيـلٍ يقـول: «كان ببـابِ الطاقِ شـارِعٌ مِمّا يلي دِجلـةَ مِن أحدِ جانبَيـه قُصُـورٌ على دِجلةَ كالطِّـرازِ مُمتدَّةٌ مِن عقدِ الجِسـرِ إلى أوائـلِ الزاهِر، وفي جانبِه الآخرِ مساجِدُ أربابِ القُصُور، ومساكِنُ غلمانِهم، وفي خِلالِ ذلك إصطبلاتُهم، وكان قصرُ الوافي عَلِيقُه(٤) ألفُ مِخلاةٍ بين خيلٍ وبغالٍ، وفي آخِرِ هذا السُّوقِ مساكِنُ التُّنّاءِ(٥) والرؤساء، والشوارِعُ والدورُ على نهايةِ الحُسن».

قـال: «وشـاطئُ الجانبِ الغربيّ قُصـورٌ مُنتظِمةٌ ذواتُ دواليبَ(٦) وبسـاتينَ ورَواشِـنَ(٧)، مقابِلةٌ لأمثالِها مِن الجانبِ الشـرقيّ، وبين يـدَي كُلِّ دارٍ خَيطِيّةٌ(٨) مُسرَجةٌ لربِّ الدارِ بالحِليةِ المَلِيحةِ، والرجاشاتِ(٩) العجيبة، والبطُّ يتلاعبُ في

---

(١) سقطت من (ف). (٢) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (١: ٤٣٧).

(٣) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (١: ٤٣٨)، والسميريات: نوع من السفن.

(٤) أي: عليق دوابّه. (٥) التُّنّاء: جمع التاني، وهو صاحب القرية أو الضَّيعة.

(٦) الدواليب: جمع دولاب، والدولاب: الآلة التي تديرها الدابة ليُستقى بها.

(٧) الرواشن: جمع الروشن، وهو الرف.

(٨) الخيطية: ضرب من المراكب الصغيرة. انظر: نشوار المحاضرة (٧: ٨٥).

(٩) الرجاشة: ما يثير العجب في النفس من زينة الأبنية ونقوشها وبديع محاسنها، وفي النسخ: =

مَشـرَعةِ الدار الشـاطئية، ولرُبّما اختلطَت أصواتُ أغانيها برَنيمِ دَوالِيبِها، ونَقِيقِ بطِّها، وضَجّةِ غِلمانِها، ودِجلةُ تسيلُ بين سِمَاطَيْ(١) قُصُورِها الشاطئية بجانبَيها».

قـال: «ولقـد نزلـتُ كثيـرًا في سُـمارِيّةٍ(٢) مُنحـدِرًا، فـلا أزالُ أسـمعُ رَنيمَ الدواليبِ مِن مَشـرَعةِ الجِسـرِ بباب الطاقِ، وإلى باب المراتبِ، وكانت لدُورِ الشطِّ أبوابٌ إلى شوارِعِها، على كُلِّ بابٍ خيلٌ مُسرَجةٌ مُهيَّأة، كما أنّ بين يدَي رواشِنِها خَيطِيَّةً أو زَبزَبًا(٣).

ولقـد رأينا أسـواقَ الكَرخ، وبـابَ الطاقِ، لا يختلطُ العطّـارُون بأربابِ(٤) الزَّهائمِ والروائحِ المُنكَرة، ولا أربابُ الأنماطِ بأربابِ الأسقاط(٥)، ولا أسواقُ البَزّازين بأربابِ الدواجن، حتّى تَكَربلَتِ(٦) الأحوال، وكان لأربابِ المُرُوءاتِ دُرُوبٌ تخُصُّهم كدَربِ الزَّعفرانِيِّ بالكَرْخِ لا يسكُنُ فيه مِن أربابِ المِهَن، بل أهلُ البَزِّ والعِطر، ودَربُ سُلَيمٍ بالرُّصافة مقصورٌ على القضاةِ والشهودِ وكِبارِ التجار، والسُّفنُ المصرفاتُ لا يركبُها إلا أربابُ المُقاطعاتِ: الرجلُ وغُلامُه».

قال: «وكنتُ أسـمعُ من المشـايخ أن بدِجلةَ خمسَـمئةِ سُـمارِيّةٍ مُضفَّرةٍ(٧) مُزيَّنةٍ لا يركبُ فيها إلا ظِرافُ(٨) التجارِ والأجنادُ والملّاحُون بالثياب الجميلة، وجَمَعَـتِ الكَـرخُ منـازلَ عجيبـةً، بديعـةَ البنـاء، فسـيحةَ الـدُّور، وكان بسُـورِ

= «البرخلشان»، والمثبت عن كتاب مناقب بغداد للمصنف، وانظر تعليق محققه عليه (ص٢٩).

(١) السّماطان: الجانبان.

(٢) السُّمارية: نوع من السفن.

(٣) الروشن: الرف والكوة والشرفة. والخيطية والزبزب: كلاهما ضرب من السفن.

(٤) زاد في (ف): «الأسقاط ولا أسوق بأرباب».

(٥) الأسقاط: جمع سَقَط، وهو الساقط من كل شيء والرديء الحقير من المتاع والطعام.

(٦) تكربلت: اختلطت.

(٧) المُضفَّرة: ضرب من السفن، والضفير: شط البحر.

(٨) ظِراف التجار: الحاذقون منهم.

الحَلاوِيِّيـن دارُ كُتُبٍ فيها اثنا عشـرَ ألفَ مُجلَّـدٍ، وكان الناسُ كأنّهم في دعوة، والقُرّاءُ والوعّاظُ وأسبابُ النَّزْهِ[1]».

هذا مِمّا أدركهُ ابنُ عَقيلٍ، وهو مِن المُتأخِّرين.

وقـد حُدِّثنـا أنّ بعضَ وُزراءِ الأعاجِم، وكان يُقالُ له: فخرُ المُلك، ويُكنى أبا غالـب، دخـل بغدادَ قُبيلَ زمـنِ ابنِ عَقيلٍ، فقيل له: إنّ عـادةَ البغداديِّين في رمضـانَ تفرِقةُ الحلوى، فقال: اشـتروا لنا حتّى نُفـرِّقَ على جُندِنا، فمضوا إلى حلاوى بين سُورَيِ الكَرخِ، فقالوا: نُريدُ أن تعملَ لنا ألفَ خُشْكَنانكةٍ[2] في كُلِّ واحِـدةٍ مَنًّا[3]، فقال: خُـذُوا، فقالوا: وعِندك هذا؟ قال: نعـم، فأخبرُوا الوزير، فعَجِب، وقال: قولوا له: كم قد بِعتَ في هذا النصف؟ فسألُوه، فقال: لا أدري، لكِن قد كان عِندي ثلاثُمِئةِ مَنًّا كاغدٍ، وقد نفِدَت في استعمالي لها في الحلوى.

وحدَّثني بهذه الحكايةِ مُحمّدُ بنُ أبي منصُورٍ الحافِظُ عن بعضِ شُيوخِه[4].

وحدَّثنـي مُحمّدٌ قال: قرأتُ بخطِّ طاهرِ النيسـابُوريّ، أنّ فخرَ الملكِ هذا رُفِعَت إليه سِـعايةٌ برجُل، فوقَّع عليها: «السِّـعايةُ قبيحـة، وإن كانت صحيحةً، ولئـن كُنـتَ أخرجتَهـا مُخرَجَ النصح، فخُسـرانُك فيها أكثرُ مـن الربح، وأنا لا أدخلُ في محظور، وأسمعُ قولَ مهتوكٍ في مستور، ولولا أنّكَ في خِفارةِ شيبتِكَ لقابلتُكَ على جريرتِكَ مُقابلةً تُشبِه أفعالَك، وتردعُ أمثالَك، فاستُر على نفسِك

---

(١) أسباب النَّزْه: أصحاب النزاهة، والنزاهة: البُعد عن السوء.

(٢) الخُشـكَنان: خبزة تصنع من خالص دقيق الحنطة وتملأ بالسـكر واللوز أو الفسـتق وتقلى، فارسية معربة. انظر: الوسيط.

(٣) المَنُّ: وحدة الوزن التي تزن رطلين، وهي منصوبة على المفعولية.

(٤) من قوله: «وحدثني بهذه الحكاية» إلى هنا سقط من (ر).

هذا العَيب، واتَّقِ مَن يعلمُ الغيب، فإنّ الله للصالحِ والطالِحِ بالمرصاد»[١].

ورأيتُ بخطِّ شيخِنا أبي الحسنِ بنِ الزاغُونيّ[٢]، قال: «حدَّثنا غيرُ واحِدٍ أنّهم أحصَوا أضواءَ المُبكِّرين إلى الجامعِ يومَ الجمعة، ينتظرون صلاةَ الجمعة، فعُدُّوا نحوًا من أربعِمئةِ ضوءٍ».

وهذه الأشياءُ يطُولُ ذِكرُها ويكثُر، وقد كان ببغدادَ من العُلماءِ والزُّهّادِ مَن يطولُ الإخبارُ عن أحوالِه، وقد أشرتُ إلى ذِكرِ ساداتِهم في كتابي المُسمّى بـ«صفوة الصفوة».

ثم قد كان طُلّابُ العِلمِ والمُتفرِّدون بالزُّهدِ يُواسَوْن بالمالِ العزيز، تارةً من بيت المال، وتارةً من الإخوان، بلا مَنٍّ ولا أذًى، فما أحسنَ ما كانتِ الدنيا بسلاطِينها، وعُلمائها، وزُهّادِها، وتُجّارِها!

وقصةُ دَعلَجٍ[٣] معروفةٌ مشهورة، في أنّه أعطى رجُلًا واحدًا عشرةَ آلافِ دينارٍ في مرّةٍ واحِدة، وكان يعمُرُ المساجِدَ والقناطر.

وحُدِّثنا عن أبي عبدِ الله السَّلَماسِيِّ[٤] - وكان كَسّارًا مِن أهلِ الكَرخ - أنّه استقرضَ مِنهُ السُّلطانُ عشرةَ آلافِ دينار[٥]، واتّفقَ أنّه اشترى شيئًا بعشرةِ

---

(١) ذكره ابن الجوزي في الأذكياء (ص٤٩).

(٢) هو أبو الحسن علي بن عبيد الله بن نصر، شيخ الحنابلة ببغداد، تُوفي سنة ٥٢٧هـ. سير أعلام النبلاء (١٩: ٦٠٥).

(٣) هو أبو محمد دعلج بن أحمد بن دعلج السجستاني المُعدَّل، كان من ذوي اليسار والأحوال، وأحد المشهورين بالبر والإفضال، تُوفي سنة ٣٥١هـ. انظر ترجمته وخبره في: تاريخ بغداد (٩: ٣٦٦، ٣٦٩).

(٤) هو الحسين بن جعفر السَّلَماسي ثم البغدادي، وكان ثقة مشهورًا باصطناع البر، تُوفي سنة ٤٤٦هـ. انظر ترجمته وخبره في: المنتظم (١٥: ٣٤٥).

(٥) من قوله: «في مرة واحدة، وكان يعمر» إلى هنا سقط من (ر).

آلاف، فانقلبَت السُّوقُ فباعهُ بعِشرين ألفًا، وردَّ السُّلطانُ عليه ما استقرضَ، فقال: «لا أقبلُه، هو في حِلٍّ»، فقال السُّلطان: «نحنُ أغنياءُ عن هذا»، فقال: «أنا أسألُكُم قبُولَه[1]؛ لأنّه يأكلُ مِن مالي قومٌ صالِحُون، فإذا علِمُوا بأنّي قبِلتُ مِنكُم لم يأكلوا». وكان يُعطي أبا الحسنِ القزوينيَّ كُلَّ شهرٍ عشرةَ دنانير.

وقد كان للناسِ مِثلُ أبي منصُورِ بنِ يُوسُف، وابنِ رضوان، وابنِ جَرْدةَ[2]، وغيرِهم يتفقَّدون الفُقراء.

وأحسنُ مَن أدركنا زينُ بنُ العطّار، وما كان يُخرِجُ سِوى الزكاة، إلا أنّه كان يعُمُّ بها الخلقَ لكثرتِها، فلقد جاءني يومًا بثيابٍ، وسألني قبُولها، وكانت قيمتُها سِتين دينارًا، وما زال يقُومُ بكتابتي إلى أن مات، فانطبقَ الدفترُ بعده.

ورأينا مِن بُخلِ أهلِ الزمانِ بالزكاةِ الواجِبةِ ما لا يُذكَر، ومِن فُتُورِ طُلّابِ العِلمِ ما لا يُوصَف، ومِن خساسةِ هِمَمِ الطَّلَبةِ للعِلمِ وقُصُورِها ما لا يصلُحُ ذِكرُه.

وفي الجُملةِ انقلبَ الزمانُ وانعكس، فصارتِ العِمارةُ خَرابًا، والكرمُ بُخلًا، وصار مكانُ كُلِّ خيرٍ شرًّا، وكُلِّ عِلمٍ جهلًا، وكُلِّ سلامةِ صدرٍ خُبثًا، وعمَّ الجهلُ العُلماءَ، والرياءُ الزُّهّادَ، والخيانةُ الأصدقاءَ، فعلى الحقيقةِ قد ماتَتِ الدنيا، وزال طِيبُ العيشِ بها وفيها، ونُسِخَت صورتُها، ونُسِخَ معناها،

---

(١) سقطت من (ق).

(٢) أبو منصور هو محمد بن أحمد بن يوسف بن محمد البزاز، صاحب القراءة بالألحان، تُوفي سنة ٤٣٧هـ. وابن رضوان هو أبو الحسين عبد الملك بن عبد الله بن أحمد، وكان خيّرًا صالحًا كثير الصدقة والبر، وكان كاتب المستظهر بالله على ديوان الرسائل، تُوفي سنة ٥٠٦هـ. وأبو جردة هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الحسن، زوج ابنة أبي منصور بن يوسف، وقد وسَّع الله عليه في الرزق، تُوفي سنة ٤٧٦هـ. انظر: تاريخ بغداد (١٢: ١٩٢)، والمنتظم (١٧: ١٢٩)، (١٦: ٢٣٢).

فمـا تطيـبُ لعاقِل، فينبغـي أن يقعَ الزهدُ فيها أنفـةً مِن بَقَّالةِ[١] الأكـدار، ثُمّ لو كانـت[٢] صافيـةً، فأنـتَ قـد تغيَّـرتَ، وتكـدَّرَت حواسُّـك، وضعُفَـت بنيتُك، واشتعل الرأسُ شيبًا، فما يصنعُ بدارٍ معمُورةٍ مَن هو[٣] منقُوصٌ؟!

١٧٤- فَصْلٌ

[المُبالغة في الاحتراز]

ينبغـي للعاقـل أن يُبالـغَ في الاحتـرازِ عن كُلِّ مـا يجُوزُ وُقُوعُـه، فهذا هو الحـزمُ، إلا أنّـه لا ينبغي أن يُظهِـرَ المُبالغةَ في الاحتِراز، فإنّه يعـودُ على مُرادِه بالعكس؛ لأنّه يُنبِّهُ بشِدّةِ الاحتراز على تناوُلِ المحروس.

ومـن أمثـالِ العوامِّ في مثلِ هذا قولُهُم: «شِـدّةُ الشَّـدِّ تُرخِي»، وقال بعضُ الفقهـاء: «إذا أقفـل المُودَعُ صندُوقَ الوديعةِ بقُفلَيـنِ كان عليهِ ضمانُ الوديعة؛ وذلك لأنّه صار بالقُفلَينِ كالمُنبِّهِ على أنّ في الصندوقِ مِن نفائسِ الأموالِ»[٤].

ومن هذا الجِنسِ عملُ العَوسَجِ[٥] على رُؤُوسِ الحيطان؛ ففي ذلك إغراءٌ لمن يُريدُ التسلُّقَ أن يتسلَّقَ؛ لأنّه يقول[٦]: لولا أنّ هُناك ما يخافُ عليهِ لم يَفعَل هذا. وقد تنبَّه بعضُ الشُّرَطِ للسارِق بأن رآهُ يُكثِرُ الدُّعاءَ على اللِّصّ!

وعلـى مـا ذَكَرتُ، فلا ينبغي الإهمالُ للأُمُور، بل يكونُ الاحتِرازُ بالِغًا مِن غيرِ أن يظهر ذلك. وقد بَلَغني من بعضِ الأذكياءِ أنّه دَفَن شـيئًا، فجاء فلم يَرَه، فحمِـد الله تعالـى، ثُمّ حَفَر بعضٌ بعد ذلـك المكانَ فأخرَجَ مـالًا كثيرًا، وقال:

---

(١) البقّالة: الأرض منبتُ البقل.
(٢) سقطت من (ف).
(٣) سقطت من (ر).
(٤) الحاوي الكبير (٨: ٣٧٧).
(٥) العوسج: من شجر الشوك.
(٦) سقطت من (ف).

خِفتُ أن يكُونَ يراني أحدٌ، فدَفَنتُ المال، ثُمّ وَضَعتُ فوقهُ تُرابًا، ثُمّ تركتُ يسيرًا مِن المال، فكان ظنّي صحيحًا، رآني شخصٌ فحَفَر فوَقَع بذلك فقال: هذا هو فحسبُ.

١٧٥ - فَصْلٌ
[الحازم لا يقفُ مع الأسباب]

اعلم أنّ الأسبابَ دَرَجٌ ومَراقٍ إلى معرفةِ المُسبِّب، وعلى قدرِ القُوّةِ يرتفِعُ المُرتقي، وعلى حسبِ ضعفِها يقِفُ، فهو في ضربِ المثالِ كما رُوِيَ في الحديث: «عددُ دَرَجِ الجنّةِ بعددِ آيِ القرآنِ»[١]، يُقالُ للرجُل: اقرأ وارْقَ، فيقرأُ آيةً ويصعدُ درجةً إلى أن يُنجِز ما معه[٢]، فمَن وَقَف مع الأسبابِ ولم يَعبُرها فقد حُرِمَ معنى الإنسانية، وشابَه الحيوانَ البهيمَ في ذلك، فإنّ الفصيلَ لا يرى إلا الأمَّ.

فإذا كُنتَ ترى المخلُوقَ المُعطيَ والحازِم، وترى الثمرةَ مِن الشجرة، فقد شابهتَ البهائم، وهل هَلَكتِ النصارى إلا لوُقُوفِها[٣] مع صُورةِ عيسى، وهل هَلَكتِ المُنجّمُون إلا لوُقُوفِهم مع الحسِّ؟ ولوِ ارتفعتِ الفِكَرُ لرأت أنّ الأجسامَ مُفتقِرةٌ إلى غيرِها مُنفعِلةٌ لا فاعِلة، ولو صُدَّت نملةٌ تمشي على قِرطاسٍ بحركةِ قلمٍ عليه، لكان ينبغي لها لو كان لها ذِهنٌ أن تنظُرَ في الصادِّ، فلو قالت للقلم: لم صَدَدتَني؟ لقال القلم: سَلِي اليدَ التي تُحرِّكُني، ولو قالت لليد لقالت: سَلِي الإرادةَ التي بَعَثتني.

---

(١) رواه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص٨٦)، فيه معفس بن عمران، وهو مجهول الحال.
(٢) رواه الترمذي (٢٩١٤)، وقد اختُلف في رفعه ووقفه.
(٣) سقطت من (ق).

ومِن ترقِّي الفقهاء إلى الأسبابِ رأوا أنّ العطاءَ والمنعَ والضُّرَّ والنفعَ مِنَ المُسبِّب، فلم يلتفِتُوا إلى التعويلِ على السبب. ولمّا رأى هُودٌ عليه السلام أنّ يدَ المُسَبِّبِ آخِذةٌ بنواصي الأسبابِ مُدبِّرةٌ لها، قال للأسباب: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾ [هود: ٥٥-٥٦].

ومَن تلمَّحَ هذا لم يَلُمْ مخلُوقًا ولم يَحمَدهُ إلا بمِقدارِ أمرِ الشرع، وأضاف الأُمُورَ إلى المُسبِّب؛ شاكِرًا لنِعَمِه أو شاكِيًا مِن ذنوبٍ أوجبَت عُقُوبتَه، والسلام.

١٧٦- فَصْلٌ
[إلفُ النعمة]

دوامُ النِّعَمِ على الآدميّ تُنسيهِ قدرها، فإذا فُقِدت عرَفها، وإنّما أعيُنُ الخلقِ إلى فُضُولِ النِّعَم يشكُرُون عليها، وينزعِجُون لفقدِها، فكأنّهُ ليس عليهم نِعمةٌ إلا الزوائد، وهذه غفلةٌ عظيمة، فالواجبُ على الإنسانِ أن ينظُر إلى أُصُولِ النِّعَم، فإذا رأى صِحّة الجسد، والتمكينَ مِنِ اجتذابِ الطعامِ وإساغتِه، وسُهُولةَ اندِفاعِ الأذى، وراحةَ الجِسمِ بالنوم، وارتفاعَ الآلامِ في اليقظة، وحُصُولَ الأمن، ولو لم يكُن إلا سُهُولةُ اجتِذابِ النسيمِ بالنَّفَسِ لترويحِ النَّفْسِ ورَدِّه، ثُمّ سَوقُ الكِفايةِ مِن الرِّزق، وأعظمُ الكُلِّ سلامةُ الاعتقاد؛ فهذه أُصُولٌ قد نُسِيت، وأُهمِل الشُّكرُ عليها، وكأنّها تلزَمُ وتجِبُ وتتعيَّنُ على المُنعِم، فلا يشكُرُها، وإنّما يرى الزيادةَ بعينِ أنّها نِعمة، وينسى هذه.

والله ما يعرِفُ قدرَ النومِ إلا مَن طَرَقه الألمُ بالليل، ولا يعرِفُ قدرَ العافيةِ إلا مَن ألمَّ بهِ ألمٌ، فالعجبُ لمَن أصبحَ سليمَ البدن، مُعافًى مِن ألم، صحيحَ الخِلقة، عِندهُ قُوتُ يومِه؛ كيف لا يُجِدُّ في الشُّكر؟ فإذا حَصَل له شيءٌ مِن النِّعَمِ الزوائدِ أخجَلَهُ ذلك!

فأعجَبُ النِّعَم أنّ كثيرًا مِن الناسِ لا ينالُون القُوتَ إلا بعد ظُلمِ الناس، وأخذِ ما ليس لهُم، فمَن رُزِق حلالًا ولم يُحوَج إلى تعسُّفٍ في رِزقه، فإنّها مِن أعظمِ النِّعَم. ولقد بلغني أنّ رجلًا جارَ على مجذومٍ قد أكلَ طعامًا، وحصلَ بين أسنانِه مِنهُ شيء، فأقلقَه، فقال له: يا أخي، تقدَّمْ إليَّ فخَلِّله بين أسناني، ففعَل، فلمّا زال عنهُ المُؤذي قال: آهٍ، بالله عليكَ يا أخي، هل أدَّيتَ شُكرَ الخِلال؟!

١٧٧- فَصْلٌ
[مَن أنعمُ الناس عيشًا؟]

لا أعرِفُ أنعمَ عيشًا في الدنيا مِن العُلماء العاملين بالعلم؛ لأنّ الدنيا كُلَّها تُرادُ لثلاثةِ أشياءَ: للغنى، والعِزّ، والراحة، فهم باليسيرِ قدِ استغنوا، وبالزُّهدِ في فضولِ العيشِ قد عزُّوا، وبقِلّةِ السعيِ قدِ استراحُوا، طلبُوا العِلمَ بالأدبِ ولقاءِ الأشياخِ العقلاءِ العلماء، فكانت مُخالطتُهم لهم مُخالطةَ الرياضة، فلمّا حصَّلُوا العِلم انفردُوا عنِ السَّفسافِ الذين لا يعرِفُون أقدارَهُم، وعنِ السلاطينِ الذين[1] يبيعُون دينَهم، ومَنِ انقطعَ بعد المخالطة صفَتْ أفكارُه، وخلا بطيبِ عيشِه. فأما المُنقطعُ عن غيرِ رياضةٍ وعلمٍ فهو كالبهيمة، فهؤلاء تعجَّلوا بعلومِهم، فناطقَتْهم فأمرَتْهم ونهَتْهم، فسُمّارُهم كُتُبُهم، ومُحدِّثُهم سِيَرُ مَن كان قبلَهم.

وقد دلَّهُم العقلُ والعِلمُ على الزُّهدِ في الفُضول، وحثَّهم على الغِنى عن الناس، فتارةً يستغنُون بالاكتساب، وتارةً بالقناعةِ بالقليل، ليس للسلطانِ عليهم مِنّة، ولا لعاميٍّ عليهم سلطنة، فهيبتُهم تملأُ القُلُوب، وحُكمُهم على الكُلّ،

---

(١) سقطت من (ف).

وأقلامُهم تُوقِّعُ عن الشرعِ، إن قَوِيَت عزائمُهم على التقلُّلِ مِن المُباحِ فهو راحة، وإن ضعُفت فسَحُوا لها في المُباح، فهُم الناسُ في الدنيا والآخِرة، ولهم خُلِقتِ الداران: الدارُ الأُولى للعِبرةِ والابتلاءِ وإظهارِ الجواهِرِ المُودَعةِ فيهم؛ مِن الصبرِ على القضاء، والرضا بالقدر، وتركِ المحبوباتِ العاجلةِ لامتثالِ أمرِ المُنعِم، فهو كالأجير، غيبوبةُ شمسِهِ نُزُولُ الموتِ به.

ومن ذلك الوقت ترى بقدرِ الأجرِ زحامَ الناسِ على الجنائزِ وزيارتَهم لتِلك القُبُور، وقُبُورُ السلاطينِ لا يُلتفَتُ إليها، والنعيمُ الدائمُ الذي شهِدت به الشريعةُ بعد الموت، وما هي إلا غفوة، وإذا بنافِخِ الصُّورِ قد أيقظَ القومَ فقامُوا، وقد هُيِّئت لهُم المراكِب(١)، ومرُّوا على الصِّراطِ كالبرقِ الخاطِف(٢)، وقيل لهم: لَم تتوقَّفُوا في امتثالِ أمرنا فلا تقِفُوا، ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]، لا تنسَوا لفيفَ الأتباع، واشفعُوا فيمن شِئتُم، تبوَّؤوا مِن الجنّةِ حيثُ شِئتُم وأردتُم، كَتَبتُ لكُم كِتابَ البقاءِ الدائم، وأسجِّلُ به خيرَ الواعدِ لا يتغيَّر، دوامٌ ليس له انقطاع، وأغراضٌ ما لها امتناع، ومُراداتٌ لا تُشترى ولا تُباع، حُلُّوا أرسانَ الهوى فطالما ردَّتكُم، وأطلِقُوا الأعينَ فطالما غَضَضتُم، أنتُم باقُون ببقائي، وبقائي(٣) لا ينقطِع، قد خلعتُ عليكم مِن خِلَعِ قُدرتي أنّكم تقولون للأشياءِ: «كُوني» فتكون.

هذا والله العيشُ في الدنيا والآخرة، لا يناولُ الفَرَطَ عاجلًا، عاقبتُه وَخِيمةٌ، فيا مَن باع نفسَه بغيرِ هذا الثمنِ افسَخْ عَقدَ الهوى ما دام الخِيار.

(١) رواه الترمذي (٢٥٤٣) بمعناه، وهو ضعيف، وانظر: علل ابن أبي حاتم (٢١٣٣).
(٢) بمعناه مسلم (١٩٥).
(٣) سقطت من (ق).

١٧٨- فَصْلٌ
[ما الحكمةُ من دوام تعذيب الكفّار؟]

قال لي قائل: لا أفهمُ معنى دوام التعذيب للكُفّار، وليس ثَمّ تَشَفٌّ، فأجبتُه: أفعالُ الخالقِ سُبحانهُ لا تُعلَّل، ولا يُطَّلَعُ على الحِكمةِ في أكثرِها، فواجبٌ علينا التسليم، ولو قدَّرنا جوازَ الاعتراض عليه، فإنّما يَعترِضُ على الحكيمِ مَن هو أحكمُ مِنه، أفيحسُنُ أن يُعترَضَ بعقلٍ هو وَهَبهُ لنا؟!

قال ابنُ عَقيلٍ في هذا: «أصلُ السُّنّة أنّ الله عز وجل عَدلٌ، يفعلُ ما يشاء»، قال[1]: «غيرَ أنّني إن دخلتُ على جهةِ المُسامحة، فقد علَّلَ سبحانه وتعالى في ذلك، فقال: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]، وعِلمُهُ بذلك جارٍ مجرى إدراكِنا بالحواسّ كُفرَهُم، ولو دام كُفرُهم حسُنَ دوامُ تعذيبِهم، فكذلك إذ كانوا في عِلمِهِ على الكُفر».

قُلتُ: وما يمتنعُ أن يكونوا ـ وهم في النارِ ـ على الاعتراض، واعتقادِ ما لا يحسُن، فيدُومُ العذابُ على مِقدارِ ما في البواطِن؟

١٧٩- فَصْلٌ
[منزلةُ الرضا]

أجِدُ في الناسِ من هو واسِعُ الصدر، طيّبُ القلبِ، مع الفقرِ وضِيقِ اليد، لا ينظُرُ إلى حاجتِه في غدٍ، وأنا بحمدِ الله مِنهم، فإنّي قد عالجتُ مِن الفقرِ أشياءَ، وقد كُنتُ أُصبِحُ وليس عِندي قُوتُ يومي، ولا أعرِفُ له وجهًا، وأنا طيّبُ القلبِ ساكِنُ النفس، وكم مِن يومٍ أصبحتُ لا أملكُ فيه حَبّةً، وثَمّ زوجةٌ وأولاد، ومن

(١) سقطت من (ر).

يتعلَّـقُ بـي جماعة، وقلبي طيِّبٌ كأنِّي أملكُ ألفَ دينار، فما انزعجَ قلبي بالفقر، ولا خَطَـر لـي(١) أنّـي لو مِتُّ بَقِـي أولادي فقراءَ، بل أقـولُ ـ إذا خطر هذا ـ: قد مات أبي، وعاينتُ الفقر، وانصرف الزمانُ على خيرِ حالٍ بين غِنًى وقناعة، فإن أراد أن يُصلِحَ أولادي ويُدبِّرَ أمرَهم كما دبَّر أمري، فَعَل، وإلا فكم مِمَّن خلَّفَ مالًا كثيرًا لأولادِه فلم ينفعْهم، ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

ثُـمّ إنّـي كثيرًا ما رأيتُ من يكونُ معـهُ الدينارُ والمئةُ، وهو في قلق، وأنا لا حَبّةَ معي، وأنا في غِنًى، وإذا قُدِّرَ لي دينارٌ أنفقتُهُ في يومَينِ أو ثلاثةٍ، ولـم أنظُر إلى ما بعد ذلك، وإذا حصَلتْ معي حَبّةٌ فكأنّني قد ضاهيتُ الأغنياءَ بانشـراحِ صدري وطيبِ قلبي.

ورأيـتُ في الناسِ مَـن يقرُبُ مِن هذه الحال، ورأيـتُ بالعكس مَن يكونُ معه وله وهو(٢) ضيِّقُ العَطَن، فقيرُ النفس، كثيرُ الهمِّ.

فتأمَّلتُ السببَ في طِيبِ القلب، فرأيتُهُ يتنوَّعُ إلى ثلاثةِ أقسام: فتارةً يكونُ مِـن سـعةِ الصدرِ خِلقةً ووضعًا، وتارةً يكُونُ مِن ثِقـةِ العبدِ بالله عز وجل، وأنّهُ الـرزّاق، وتـارةً يكونُ مِن شُـعُورِ النفسِ سـعادةً مُعـدَّةً لها، وغِنًـى مُدَّخَرًا لها، والنفوسُ الشريفةُ تشعُرُ الأمرَ قبل كونِه، فكأنّها تطَّلِعُ على عاقِبتِها.

والغالِبُ في العاداتِ أنّ سعةَ الصدرِ وطِيبَ القلبِ حالُ خير، وأنّ كُسُوفَ البالِ وضِيقَ الصدرِ حالُ شرّ، وعلى عكسِ هذه الأسبابِ ضِيقُ الصدر، وضيقُ العَطَن، وأغمضُ الأحوالِ إحساسُ النفسِ ببُلُوغِ الآمال، فكأنّها تعلمُ العواقِبَ بالإحساس.

---

(١) سقطت من (ر).

(٢) سقطت من (ق).

١٨٠- فَصْلٌ
[التنبيهُ إلى فعل القُدرة]

لمّـا كانت حـوادِثُ الأقدارِ[١] تظهرُ عـنِ القُدرةِ، نبّه الخلـقَ عليها[٢] عِند وُجُودِهـا، فالعصا عِنـد الإلقاءِ صارت ثُعبانًا، وكان الإلقاءُ سـرًّا في ﴿ٱنظُرُواْ﴾ [يونس: ١٠١]، وضربُ الميِّتِ ببعضِ البقرةِ عاش عِنده، وعِند ركضِ رِجلِ أيوبَ نبعَت عينُ الماء، وعِند ضربِ البحرِ انفلقَ، وعِند صَيحةِ الصُّورِ عاشَ الموتى، فالمُـرادُ مِـن ذلك تنبيـهُ الخلائقِ على ما تفعلُه القُدرة؛ لا أنّ لهذه الأشـياءِ أثرًا في الفِعل.

١٨١- فَصْلٌ
[دعوى كاذبة]

مـن المُتزهِّديـن أقوامٌ يدَّعُون أنّهم لا يُحِبُّون الدنيـا، ولا وَقْعَ لها عِندهُم، وهـؤُلاءِ لا يخلُـو أحدُهـم مِن حالَين: إمّـا أن يكُون كذّابًا فـي الدَّعوى، ورُبّما ادَّعـى عِنـد العدم، فإذا لاحَت له الدنيا بان كذِبُه في دعواه، أو أن يكُونَ مريضًا مُنحرِفَ المِزاج؛ كالعِنِّينِ في بابِ النِّكاح.

إلا أنّـه قـد بلَغنـا عـن إبراهيمَ بنِ أدهـمَ أنّه قال: «مـا أُراني أُؤجَـرُ على تركِ الشـهوات؛ لأنّي لا أشـتهيها»[٣]. وهـذا محمُولٌ على أحدِ أمرَيـن: إمّا أن يكُونَ لشِـدّةِ خوفِه، وقُوّةِ رغبتِه في الآخِرة، قدِ انحَرف مِزاجُه، فإنّ الثكلى لا تشـتهي الطعام، ومَن تُوُعِّد بالقتلِ رُبّما بَقِي يومَينِ لا يأكُل، فمِثلُ ذلك الصادِقِ الأليَقُ بِهِ

---

(١) سقطت من (ق). (٢) سقطت من (ف).

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٨: ٢٢).

شِـدّةُ الخوفِ التي حَرَفَت[1] مِزاجَه. أو أن يكُونَ يخافُ عواقِبَ الشـهوات، فهو يشتهيها طبعًا، ولا يشتهيها حذرًا مِن أن يقدحَ في منزِلتِه، أو تحُطَّهُ عن رُتبتِه.

فأمّـا مَـن لم يبلُغ مرتبـةَ ابنِ أدهم، فإذا نَقَر في أدنى شـهوةٍ ظـنٍّ، فهو إلى الدَّعوى أقربُ؛ لأنّ الله تعالى خلقَ الخلقَ على تركيبٍ يُخالِفُ هذه الدَّعوى، وإنّما يتُوقُ العِبادُ في العِبادةِ إلى ما يشتهُون في الدنيا.

وفي هؤلاءِ المُدَّعين مَن يقول: لو عُرِضَت عليَّ الجنّةُ ما أعَرتُها الطَّرفَ، ولو أنّه لوَّحَت له سوداءُ لتغيَّر في الحال، نعُوذُ بالله مِن دعوى تُكذِّبُ صاحِبَها سريعًا.

١٨٢- فَصْلٌ
[الرياء مفضُوح]

أربـابُ الرياءِ والنفاقِ ينكشِـفُون، وإن تغطَّوا عن قريـب، ويُذَمُّون، وأهلُ الإخلاصِ وإن سَتَرُوا أعمالَهم ظَهَرت ـ لا عنِ اختيارِهم ـ ومُدِحُوا.

كـم مِـن مُتصنِّعٍ بالَغَ فانكشـفَ وضاعَ مـا عمِلهُ، واعتَبِر هـذا بحالة طريقة العـرب[2]، وهو أنّ العربَ كانوا يجُودُون ويُظهِرُون أنّ طبعَنا الكرم، غيرَ أنّهم مـا أرادُوا مُجـرَّدَ الكرم، بـلِ المدحَ على الكرم، فانكشـفُوا بالقرآنِ والحديثِ: أمّا القرآنُ فقولُه تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ﴾ [الإسراء: ٣١]، وهذا إخـراجٌ لدفائنِ بُخلِهم، وفسَّـر النبـيُّ ﷺ هذه الآيةَ بقولِـه: «ولا تقتُلْ ولدَك[3]

(١) حَرَف الشيءَ: صرفه.
(٢) سقطت من (ف).
(٣) سقطت من (ر)، والحديث رواه البخاري (٦٠٠١)، ومسلم (٨٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

خشيةَ أن يأكُلَ معك»، وقال عليه السلام لعديِّ بنِ حاتِم: «إنّ أباكَ أرادَ أمرًا»[١]، يعني: الذِّكرَ، لا الجُود. ويدُلُّ على بُخلِهم أنّ الزكاةَ مُواساةُ الفقراء، فلمّا ماتَ الرسولُ عليه السلام ارتدُّوا، ومنعُوا الزكاة[٢].

هـذه صِفـةُ العامّة، فـإن ندرَ مَـن طبعُهُ الكـرمُ لا ليُذكَر، فقليلٌ نـادر، وقلَّ أن يقـعَ ذلـك، إلا فيمـن طلبَ الأجرَ بفِعلِ مِن ربِّه عز وجل، كما فعل مُوسـى ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ ولـم يطلُبْ مِنهُما، بل مِن ربِّه، فقال: ﴿إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

١٨٣- فَصْلٌ
[أقسام الخلق]

اعلم أنّ الله عز وجل خلقَ الخلقَ على ثلاثةِ أقسام، فينبغي لك أن تتلمَّحَ نفسَـك مِن أيِّ قبيلٍ أنتَ؟ ولِأيِّ معنًى خُلِقتَ؟ فإنّ الله عز وجل خلَق أقوامًا، فربّاهم مِن الطفولةِ بالتأديبِ الإلهيّ، والتعليمِ الإلهاميّ، وأكثرُهم سـلبَ أباهُ، حتّـى انفـردَ بتربيتِه[٣] بلا سببٍ، فهو يصُونُه ويكفيهِ ويهديـهِ ويُهذِّبُ الأحوالَ له، ثُمّ يُقسَم[٤] هؤلاءِ بين مُلهَمٍ طريقَ العِلمِ، وبين مُنقطِعٍ إلى بابِ الزُّهد، فلا تُعرَفُ لهما صَبوة، ولـو وقعَت له زلـةٌ كانت خفيّةً مغمُورةً.

وإنّ الله تعالى خلقَ آخرِين، فتركهم تركَ الهَمَل[٥]، فالهوى يلعبُ بهم مِن

(١) أخرجه أحمد (١٨٢٦٢)، وفيه مري بن قطري، قال الذهبي في ميزان الاعتدال (٤: ٩٥): لا يُعرف.
(٢) أخرجه بمعناه البخاري (١٤٠٠)، ومسلم (٢٠).
(٣) في (ف): «سلب آباءهم حتى انفردوا بتربية».
(٤) سقطت من (ر).
(٥) الهَمَل بفتحتين: الإبل المُهمَلة، التي تُترَك فترعى بلا راعٍ.

زمنِ الطُّفُولة، والجهلُ قدِ استحوذَ عليهم إلى وقتِ الموت.

فالقِسمُ الأوّلُ صُحاةٌ[١] ما سكِرُوا قطّ، وهذا القِسمُ سُكارى ما أفاقُوا قطّ، والقِسمُ الثالث: قومٌ ابتدؤُوا زمانَهم بالصَّحوِ والجِدّ، إمّا بالعِلمِ أو بالزُّهد، ثُمّ خُتِمَ لهم بالشَّرّ، وهذا الهلاكُ الذي لا دواءَ له. ومِن هؤُلاءِ مَنِ ابتدأ زمانهُ بالشَّرّ، ثُمّ انتبه، فخُتِمَ له بالخير.

فينبغي لمَن رأى ما سبقَ له مِن الخطأ أن ينتبِهَ في وقتِ الانتباه، وأقربُ الحالِ فيهِ وسطَ الغمّ، فإنّ التنبُّهَ فيهِ بالكُهُولةِ والانتباهِ في ذلك الزمانِ محمُودٌ مِن جهات؛ أحدها[٢]: أنّ قُوّةَ الشهوةِ وقُوّةَ الغضبِ قد ضَعُفتا، وكانتا للتقوى كالعدُوَّين، ومِن الغُنمِ ضعفُ الأعداء. والجهة الثانية: أنّ زمانَ الكُهُولةِ زمانُ اعتِدال، فيهِ يقعُ كمالُ التنبُّهِ، وتمامُ العقل، وصِحةُ النظر، فإنّ الصِّبا زمانُ جُنُونٍ وغفلة، والكِبَرَ زمانُ فَناءٍ وضعفِ آلةٍ. والجهة الثالثة: أنّ زمنَ الكُهُولةِ يُمكِنُ فيهِ الجمعُ بين الندمِ على الذُّنُوبِ والاستِدراكِ للفارِط، بخِلافِ زمنِ الشيخُوخة، فإنّه إن حصلَ فيهِ الندمُ لم يُمكِنِ التدارُك.

والتدارُكُ على ضربَين: فِعلُ الطاعات، وتركُ المُشتهَيات، والشيخُ لا يُمكِنُهُ الاستِكثارُ مِن الطاعات، ولا يكونُ تارِكًا للمُشتهَيات، بلِ المُشتهَياتُ قد تركتهُ لموضِعِ عجزِه، فالجِدَّ الجِدَّ عند بيانِ التدبُّر، فما هو إلا الزمانُ الذي قال فيه القائل: الشَّيبُ في العَذَل[٣]، لا ناقةٌ ولا جَمَل.

---

(١) جمع صاحٍ، كقضاة وقاضٍ ورعاة وراعٍ.

(٢) من قوله: «وسط الغم» إلى هنا سقط من (ر، ق).

(٣) العذل: الملامة.

١٨٤- فَصْلٌ

[بغتة العُقوبات]

يـا مُخالِفين، احـذرُوا مِن العُقُوبات، فإنّها بالمِرصادِ، تارةً تتقدَّمُ فتُعاجِل، وتارةً تتأخَّر، وتارةً تُعرَف، وتارةً لا تُعرَف، وتارةً تَعُمُّ، وتارةً تَخُصُّ.

مِـن عُقُوباتِـه الكُلّيّـة: تغريقُ قـومِ نُوحٍ بالطُّوفـان، ولهُ طُوفـانٌ جزئيٌّ وهو أحسـن[1]: أن يحبِـسَ الدِّماءَ في الأبدان والرُّطُوبـات، ثُمّ يطغى على حرارتها مِـن العُـرُوق، فتُورِثُ الاستسـقاءَ والـورم. ومِـن العُقُوباتِ الكُلّيّـة: ريحُ عاد، ومِن الجزئية: حبسُ الرياحِ في البدن، فلا تنفذُ، فيقعُ بها الهلاك، يُسلِّطُ عليك الزُّكام، فيجري مِن أنفِك كالمطر، ويبقى[2] أثرُه في صدرِكَ كالوَجَلِ[3].

يُقـدِّرُ لك الحرارةَ واليُبس، كما يقـعُ على الأرضِ بالجَدب، يأمُرُ العروقَ السـواكنَ فتضـرِب، أوِ الضـوارِبَ فتسكُن، أو يُوقِعُ بين الأخـلاطِ المُتعادِلة، فيجوزُ بعضُها، ويغلِبُ بعضُها، فإذا أنت مِن تأثيرِ ذلك اليابِسِ صريعٌ.

يرميـك بعِلّـةٍ تُسـمّى الجُذام، فيقـذَرُك النـاسُ والأهل، يحبِـسُ النُّورَ عنِ العينِ بعارِض، فإذا البصرُ قد ذَهَب، يُسـلِّط آفةً على السـمع، فإذا بالصَّمَمِ قد نـزَل، يحبِسُ البـول، أو يُرخِي المثانةَ بضربِ القُولَنجِ[4] أو بالإسـهال، يُفسِـدُ الدِّمـاغَ فيذهـبُ الذُّهن، ويُبطِـلُ العقل فيقعُ في الفضيحةِ بيـن الخلق، ينصِبُ على قلبِك الغمَّ كما يُسلِّط الكُسُوفَ على الشمس.

---

(١) سقطت من (ف، ر).

(٢) زاد في (ر): «من».

(٣) في (ف): «كالوحل».

(٤) القولنج: مرض معوي مؤلم يتعسّر معه إخراج ما يخرج بالطبع. القانون في الطب (٢: ٦٢٤).

يُعاقِبُ بفَقدِ الولدِ الحبيب، يُتلِفُ المالَ، فيُحوِجُ إلى الناس، يَمحَقُ البِضاعةَ بقلبِ الأسعار، فلا يعُودُ رأسُ المال، أو يُذهِبُهُ بإنفاذِهِ إلى العطّارين في شِرى حَشائشَ مُرّة، وإلى الأطِبّاءِ في تقطيعِ العُرُوق، فيبكي على ضياعِه، وينسى اكتسابَ المالِ مِن الحرام.

يضرِبُ قارِئَ القُرآنِ بالنِّسيان، فينسى ما حَفِظ، يمنعُ قائمَ الليلِ بحاجز الكسل، يسلُبُ عارِفَه حلاوةَ مُناجاتِه، يفتحُ بابَ الدنيا على العاقل، ويُوسِّعُ له مدخلَ الحِرصِ في آخِرِ العمر، فيستلِبُهُ على أقبحِ حال، فلو رأيتَهُ يمنعُ نفسَهُ شهواتِها حُبًّا لجمعِ المال، ويكتسِبُ مِن كُلِّ رذيلة، فإذا بطارِقِ الموتِ قد نقلَ مالَهُ بوصفِ الميراث، وأبقى عليهِ في دستُورِ كسبِهِ الحِساب.

والله لقد رأينا مَن أفنى عُمُرَهُ في العِلمِ والجِدِّ، فلمّا قارَبت سفينةُ عُمُرِهِ الساحِلَ آثرَ المعاصيَ القِباح، وضُرِبَ على أُذُنِهِ حتّى أُخِذَ على أسمجِ حال. آهِ لمركبٍ لمّا وَصَل الشاطئَ غَرِق، وا حسرةَ مَطعَمٍ بالمرارةِ خُتِم!

ومِن عُقُوباتِه أن يُقعِدَكَ عن نَهَضاتِكَ في مُراداتِك، فيسلُبَكَ نِعمةَ التصرُّف، وكُلُّ هذه العُقُوباتِ مقابِلاتٌ لأمثالِها مِن الذُّنُوب. فإذا قُلتَ: أنّى هذا؟! قيل لك: هو مِن عِند نفسِك!

أتذكُرُ وقد تقاعَدتَ عن امتثالِ أمرِه، وجَنَحتَ إلى رُكُوبِ نهيِه، وبَخِلتَ عليهِ ببعضِ ما وَهَبَ لك، ثُمّ إن ضُمَّ إلى قُعُودِك تضجُّرُ الأهلِ مِنك، وتسخُّطُهم طُولَ بقائك، ثُمّ إن صُرِّح لك بذلك ـ مِثلَ أن تسمعهم يقولون: ما أطولَ عُمُرَك! أراحنا الله مِنك! ـ فيا له مِن سهمٍ لا يُخطِئُ صميمَ الفُؤاد! فاستقِلَّ مِن الذُّنُوبِ التي تُوجَبُ بها، فإن صدقتَ لطَفَ الحقُّ بك، ولم يُسلِّطْ

عليك[١] مِثلَ هذه الأمراض، أو إن سلَّطها عطفَ القُلُوبَ عليك، فرفقَتْ بك.

والله ما أعرِفُ طريقًا للسلامةِ إلا صِدقَ التوبة، والاستدراكَ، ودوامَ اللَّجَأ، والاستغاثةَ؛ كما كان الحسنُ البصريُّ، فإنّه كان يبكي ليلًا ونهارًا، ويقول: «وما[٢] يُؤمِّنّي أن يكُونَ اطَّلعَ على بعضِ ذنوبي فقال: اذهبْ لا غَفرتُ لك؟!»[٣]، وكان يقول: «والله ما حالتي إلا كحالةِ مَن كُسِرَ بهِ مَركبُه، فبقيَ في وسطِ البحرِ على ساحةٍ، فلا يدري أينجُو أم لا؟».

وحالتي أشدُّ، أفدي أقوامًا ما كانوا يغسِلُون آثارَ الذنوبِ بدُمُوعِ الأحزانِ ليلًا ونهارًا، وهم يَشُكُّون في النظافة، وكيف لا يبكي من قد تيقَّنَ الذنوب، وما عرَفَ أثرَ القبُول؟! [الخفيف]

مَأتَمُ المُذنِبِينَ ما يَنقَضِي ... آخِرَ الدَّهرِ أو يَحُلُّوا اللُّحُودَا[٤]

١٨٥- فَصْلٌ

[رحلة الحجّ]

حَجَجتُ إلى بيتِ الله الحرام، فدخلَ إلى قلبي من هيبةِ المكانِ ما لو لم يمزجْهُ الأُنسُ به ما طابَ عيشي، فكُنتُ تارةً أنظُرُ إليهِ بعينِ النِّسبة، فيشتدُّ تعظيمي له، وتارةً بعينِ لُطفِ مالِكِه، فآنسُ بالبيتِ أُنسَ العبدِ ببيتِ[٥] سيِّدِه.

فرأيتُ مِن قِلَّةِ احترام ساكني البلدِ عجائبَ، وما ذاك إلا أنّني أنا رأيتُهُ بعينِ النِّسبة، ورأوهُ بعين المادّة، فهم يرون الحجارة، وأنا أرى الإضافة، وهذه

---

(١) سقطت من (ر). (٢) سقطت من (ر).

(٣) تقدم في الفصل ٨٥.

(٤) لأحمد بن محمد الأزدي في التوبة لابن أبي الدنيا (٣٧).

(٥) سقطت من (ر).

كانت محنةَ إبليسَ، فإنّه نظرَ إلى المادّة، ونسيَ الاختصاصَ والأمر، فسبحانَ من أسكنَ حرمَهُ مِثلَ أُولئك، حتّى إنّهم يأخُذُون المُكسَ عن رُؤُوسِ الحاجِّ، وما قلقتُ لشيءٍ قطُّ قلقي مِن فِعلِهم ذلك.

وكان معنا شيخٌ بغداديٌّ مِن التجّار، فتولّى لهم أخذَ المُكسِ، فهجرتُه، ورأيتُ خَلقًا من أصحابِنا[1] لم يتغيَّروا عليه، فهم يُؤاكِلُونهُ ويُشارِبُونه، فعلِمتُ أنّ الإيمانَ باردٌ في قُلُوبِهم، ورأيتُ[2] مِن عبيدِ مكّة؛ مِن استِلابِ الأموال، وقِلّةِ الاحترامِ بالمكانِ ما أزعَجَني.

ومِن عجائبِ ما رأيتُ أنّهم كانوا يمشون بين يدَيِ الخطيبِ يومَ الجُمُعةِ بمِقلاعٍ يَضرِبُ على غفلةٍ يُزعِجُ المكانَ والناس، فأنكرتُ هذا! فقالوا: هذا شِعارُهُم، فقُلتُ: بئسَ الشعارُ، هذا مكانٌ يجبُ احترامُه عن رفعِ الأصوات، والأذانُ يكفي.

ولقد بلغَني عنِ ابنِ عَقيلٍ أنّه قال[3]: «حَكَى لي أميرُ الجُيُوشِ الخادِمُ أنّه دَخَل مكّةَ في سنةِ عشرٍ وخمسِمئةٍ على وجهِ القهرِ لأهلِ مكّة، بخَفقِ[4] البُنود، وضربِ الكُوساتِ»[5]، مُتبجِّحًا بذلك، نظر إلى إذلال السُّودانِ وأميرِهِم؛ ذاهِلًا بذلك عن حُرمةِ المكان. قال: «فسمِعتُ هذا مِنهُ متعجِّبًا، وشهِد قلبي بأنّه آخِرُ أمرِه، فلم يعُد إليها، وعُوقِبَ فاستُؤصِل لجهلِهِ بحُرمةِ المكان، فإنّ ناقةَ رسولِ الله ﷺ وقفَت، فقالوا: خَلَأَتِ القَصواءُ، فقال: بل حبسَها حابِسُ الفيل»[6]؛ كُلُّ ذلك لتعظيمِ الحرم.

(١) سقط «من أصحابنا» من (ر).
(٢) سقطت من (ر).
(٣) سقطت من (ق)، والخبر حكاه في المنتظم (١٧: ١٤٦).
(٤) في (ف): «بخفف».
(٥) الكوسات: الطبول.
(٦) البخاري (٢٧٣٤). وخلأت: تلكّأت وحَرَنت وأبت المشي. مشارق الأنوار (١: ٤٧٣).

قـال: «ودخـلَ أبو عِمـرانَ المغرِبـيُّ إلـى حـرمِ رسُـولِ الله ﷺ، فـإذا بابنِ الجوهريِّ الواعظِ يعِظُ، ويرفعُ صوتَه، فصاح عليه: لا تَرفَعْ صوتَك، فإنّ التأدُّبَ للرسولِ ﷺ لازمٌ وكأنّه حاضِر».

١٨٦- فَصْلٌ
[مناجاة الخلوة]

عَرَضَـتْ لـي يومًـا مُناجـاةٌ فـي خَلـوَة، فقُلـتُ: إلهـي وسـيِّدي، وذُخري وذخيرتي، كُلَّما نظرتُ إلى ذُنُوبي السـالِفةِ غَمَّضتُ عينيَّ حياءً، وكُلَّما رأيتُك لا تستعمِلُني فيما استَعمَلتَ بِهِ الصالِحين قاربتُ اليأسَ بما أُؤمِّلُ فيك، وكُلَّما رأيتُ العُمرَ ينقضي في غيرِ عملٍ يُرضي، حدَّثتُ نفسي بأنّك لا تَرتَضِيني، ولا تلتفِتُ إليّ.

ثم أعودُ فأذكرُ اصطناعَك لي[١] وتربيتَك إيّاي حين أفقَدتَني أبي وأنا طفلٌ لا أعقِل، فتولَّيتَ تربيتي يتيمًا، ثم ألهَمتَني طلبَ العِلمِ في زمنِ الصَّبْوة، فصار أحبَّ إليَّ من كلِّ محبوب، وميَّزتَني على جميع أهلي بما أوعدتَني من العلمِ[٢] والفهـم، وأدَّبتَنـي من زمنِ الطفولة، فما أذكرُ أنّي لَعِبتُ مع صبيٍّ، ولا ضيَّعتُ الزمـانَ تضييعَ الأطفال، مات أبي ولم يُخلِّفْ لي كثيرَ شـيء، فكَفَلتَني بلا مِنّةِ مخلوقٍ، ولا بإتعابي في كسبٍ.

وألهمتَني اتباعَ أهلِ السُّنّةِ دون المُبتدِعين، وأدَّبتني من حينِ الصِّبا، فكنتُ مـع وقارِ الشـيوخ، وحبَّبتَ إلـيَّ من فنونِ الطُّرُقِ طريقَ العُلمـاءِ والزُّهّاد، فما

---

(١) سقطت من (ر).

(٢) من قوله: «في زمن الصبوة» إلى هنا سقط من (ف).

أنفرِدُ بالعلمِ عن حُبِّ الزهد، ولا بالزهدِ عن طلبِ العلم، حتى قوَّمتَ سُلوكي برياضةِ العلمِ على النهجِ الأقوَم.

ثم[1] أقمتَني أدُلُّ الناسَ عليك، وأُرشِدُ الضالِّين إليك، وأوقَعتَ في القلوبِ مِنّي ما احتَرَموني لأجلِه، وصدَّقُوا حديثي، فدَلَلتُ إليكَ خَلقًا لا أُحصيهم، وأسلَمَ على يديَّ جماعةٌ لا أحفظُ عددَهم، ونشرتَ ذِكري في البلاد، فبلَّغتَني بالعِلمِ ما لم أبلُغْهُ من العِلم.

فالآن لمّا كَبِرتْ سِنّي جاءني إبليسُ يُؤيِسُني من فضلِك، ويُوحِشُ ما بيني وبينك، ويقول: غدًا يرميكَ في سكراتِ الموت، ثُمّ يُلقيكَ إلى البِلى، وما تدري ما يُصنَعُ بكَ بعد ذلك، وأنا أُجيبُه بما أسألُكَ ألا تُكذِّبني فيه:

يا عدُوَّ أبي في الأوّل: أتُريدُ نُصحي أم هلاكي؟ والله لو قطَّعني إربًا إربًا لرأيتُهُ مالِكًا حكيمًا، إنّي لأرجُو لُطفَهُ بي عِندَ الموت، وأرجُو راحتي بعد الموت، وأرجُو مِنهُ كُلَّ خيرٍ يومَ اللقاء، إقبالُه عليَّ في الأولِ عنوانُ ما أرجُوه في الأخير، ما لي ومالِ مآلِه؟ شرفي في ابتلائهِ إيّاي، وجعي في تمزيقهِ لي، إن بدَّدَ جسدي أعاده، وإن نقضَ جسمي شادَه.

ثُمّ ما للعبيدِ وما للسادة؟ أستَوحِشُ مِن طريقٍ فيها الأنبياءُ والأولياءُ والعُبّادُ والزُّهّاد! إذا شاء طيَّبَ الموتَ الصعب، وإذا أراد رَفَعَ الكرب، هو يعلمُ أنّي لا أرجُو لذلك المَصرعِ سِواه، لا كُنتُ يومًا أعترِضُ عليه، ولا عشتُ إذا لم أقفْ بين يدَيه، وعدِمتُ عقلي إذا لم أسِر وقتَ الحاجةِ إليه.

والله ما هي إلا نومةٌ يسيرة، ثُمّ أرجو في الانتباه الخيراتِ الغزيرةَ، كأنّي

---

(١) سقطت من (ر).

والله بالقبور قد تشقَّقَت، وبآمالي في فضلِه قد تحقَّقَت، ودليلي قولُه: «أنا عِند ظنِّ عبدي بي»(١)، وعِزَّتِه ما أظنُّ علَّقَ آمالي بفضلِهِ ثُمّ لا يبتليني، ثُمّ أُقدِّرُ أنّه أدخلَني النار، فقلبي والله باردٌ عنه؛ لعِلمي أنّي مُستحِقّ، وليس لي ـ والله ـ دعوى أبي سليمانَ الدارانيّ حين قال: «وعِزَّتِكَ لئن أدخلتَني النارَ لأُخبِرنَّ أهلَها أنّي كُنتُ أحبُّك»(٢).

أنا ـ والله ـ أقولُ لهم: وعِزّتِهِ وجلالِهِ لو جُمِعَ عذابُكُم عليَّ وحدي لعلِمتُ أنّه بعضُ حقّي، فإنّي أعرَفُ الخلائقِ بذنبي، لكنّني أسألُه: إن عاقبني صبرًا يحمِلُني، فأستعيذُ بالله مِن جزعٍ يُسخِطُني.

وإنّي لأرجُو إن جعلني من أهلِ النارِ أن يُرافِقَ بيني وبين القائل: «يا حنّانُ يا منّانُ»(٣)؛ لأنّ في ذلك بقيةَ معرفة، وعندي خميرةُ معرفة، فإن غُلِبتُ عن ذكرِهِ في النارِ فبحقّي، وإن لَفَظتُ بذِكرِهِ وصَبَرتُ على عذابِهِ فمِن فضلِه.

١٨٧ ـ فَصْلٌ

[موسوعيّة طالب العلم]

رأيتُ هِمَمَ الناسِ متفاوتةً جِدًّا، فقومٌ لا همَّ لهم سِوى الدنيا ولذّاتِها، فهم خَلفَها إلى الموت، وهِمّةُ أحدِهم ما يأكُلُ ويَنكِحُ ويلبَسُ ويَجمَع، فإذا أخلَقَ قُواهُ وكَبِرَت سِنُّه قَعَد يتأسَّفُ على ما كان، فيقول: أذكُر وقد فعلتَ كذا، وأكلتَ كذا، وجمعتَ كذا، وليس عِندَه مِن الآخرةِ ولا مِن ذِكرِ الموتِ خبرُ أُولئك الذين طبعَ الله على قُلُوبِهم.

(١) البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).
(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١٠٤٠).
(٣) رواه أحمد (١٣٤١١)، وهو منكر.

وقـومٌ مالَت بهم هِمَمُهم إلى التزهُّدِ فـي الدنيا، فرأوا ذلك هو المقصُود، ولو أوغَلوا في العِلمِ لفهِمُوا المُراد، وهؤلاءِ مع قِلّةِ عقلِهم وعلمِهم على خطرٍ عظيـم، وهـم إلى الهلاكِ أقرب، ففيهم مَن يمنعُ نفسَـهُ حقَّها الـلازِم، فيُجيعُها ويُعرِّيها ويحمِلُ عليها المشـاقَّ[1] التي لا يَحِلُّ له أن يَحمِلَها عليها، ويرى أنّ تنـاوُلَ تفاحـةٍ تنقُصُ ميزانَه، وأنّ النكاحَ يَشـغَلُه، وأنّ لقاءَ الناسِ يُؤذيه، فيتفرَّدُ كالوحشـيّ، ورُبّمـا عرضَ له إبليسُ فأراهُ حُسـنَ الكراماتِ فهَلَـك، ورُبّما رآهُ الناسُ وتبرَّكوا به، فخرَّبَ بيتَه في مرَّة، فرأى أنّه قد بلَغ إلى مقامِ الوِلاية، فأقام لنفسِهِ النامُـوس، ولـم يخرُجْ ولم يدخُل، واسـتعملَ الصمـتَ والوقارَ لتعظيمِ منزِلتِه.

ولقـد رأيـتُ مِـن المُتزهّدين مَـن لا يبرحُ مِن المسـجِدِ يُصلّي فيـه[2] ليلًا ونهارًا، وقد قَوِيت نفسُـهُ بأنّ ذلك قد شـاع في الدنيا، فكلُّ مَن يُريدُ أن يتطوَّعَ يأتـي إليه، وقد كان صالِحُو السـلفِ لا يفعلُون هذا، فـكان عامِرُ بنُ عبدِ قيسٍ لا يتنفَّل في مسـجدٍ قطُّ[3]، وقال سُـفيانُ الثوريُّ لصاحِبِه: «ما أجرأكَ؛ تُصلّي والناسُ يرونكَ؟!»[4].

ومِـن النـاسِ مَـن عَلَـت هِمَّتُه، فطلـبَ العِلمَ، فمِنهـم مَنِ اقتصـرَ على فنٍّ وتشـاغلَ به، ففاتَتهُ الفُنُونُ المطلُوبة، وفاتَهُ المُرادُ مِن العِلمِ[5] كُلِّه، ومِنهم مَن علَت هِمَّتُه، فأوغلَ في الفُنُونِ، وهذا الذي قصدتُ الكلامَ معهُ في هذا الفصل،

(١) سقطت من (ر).

(٢) سقطت «يصلي فيه» من (ر).

(٣) ذكره ابن الجوزي في تلبيس إبليس (ص١٢٨).

(٤) ذكره ابن الجوزي في تلبيس إبليس (ص٢٥٩).

(٥) سقط «من العلم» من (ق).

فأنـا أُوصيـهِ وأحذِّرُه؛ لأنّ عُلوَّ هِمّتِهِ يسـلكُ به الغايةَ مِـن كُلِّ عِلم[١]، وهذا لا يحتملُه العُمر.

فينبغي له أن يأخُذَ مِن كُلِّ عِلمٍ مُهِمَّهُ، ويقتطِفَ خالِصَه، ثم يعبُرَ إلى العِلمِ الآخرِ قبل أن يُغرِقَه تيارُ ذلك العِلم، فإنّ المقصودَ قطعُ دجلةَ لا نفسُ السباحة، كما قال الشعبيُّ: «العلمُ أكثرُ مِن أن يُحصى، فخُذُوا مِن كُلِّ شيءٍ أحسنَهُ»[٢].

ولـو أنّ العُمـرَ يحتملُ، ما حذَّرتُه من هذا، فإنّ العلمَ كُلَّهُ مطلوب، غيرَ أنّه لو أوغَل مثلًا في عُلومِ الحديثِ مضى العمرُ وجاءت الشيخُوخةُ وهو لا يعرفُ الفقه، وكذلك باقي العُلوم، فينبغي للعالمِ أن يقتطفَ المُهِمَّ مِن كُلِّ شيء، فإذا حصَـل له مقصودُه مـن العُلومِ علِم أنّ المُرادَ مِن العِلـمِ صلاحُ أخلاقِ النفسِ به، ثم نشرُه وتصنيفُه، وهدايةُ الخلق، فإذا صحَّت نيّتُهُ في ذلك كان مِمَّن علِمَ وعمِلَ وعلَّم، فذاكَ يُدعى عظيمًا في ملكُوتِ السماء[٣].

وكم قد رأينا ممن جَدَّ به تيارُ علمٍ وسَـوْرة، فلم يَبرَح ففاتَته أشـياءُ مُهمّة، وكـم رأينـا[٤] مِن واقِفٍ مع صُورةِ العِلم، لم يُكشَـفْ له المرادُ مِنه؛ من معاملةِ الحقِّ به، ونحن نسألُ الله عز وجل مرتبةَ الكمالِ في العِلمِ والعمل، وأن يجعلَه دليلَنا عليهِ وإليه؛ لنَجتَنيَ ثمرتَه، إنّه قادرٌ قريبٌ مجيب.



(١) سقطت من (ق).

(٢) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٥: ٣٨١).

(٣) رواه زهير بن حرب في كتاب العلم (٧).

(٤) من قوله: «ممن جد» إلى هنا سقط من (ق، ر).

١٨٨- فَصْلٌ
[تضييع العُمر]

ما رأيتُ أسهلَ على خلقٍ كثيرٍ مِن تضييعِ العُمرِ[١]، الذي هو أنفَسُ موجُودِ الأنفُسِ، فإنّ الحسنَ البصريَّ قال: «يا ابنَ آدم، إنّما أنتَ أيّام؛ إذا مضى يومُكَ مضى بعضُكَ»[٢].

وقد رأيتُ أكثرَ العوامِّ أو كُلَّهم يُضيِّعُون زمانَهم الفارغ؛ مِن إنفاقِه في حاجةٍ فيما لا فائدةَ فيه، ورُبّما كان فيما يجلِبُ إثمًا، فإذا فَرَغوا لعِبُوا بالشِّطرنجِ أو بالنَّرد، أو قعدُوا عِند المُشعبِذ والمُحدِث، أو على الطريقِ يتفرَّجُون وينظرُون إلى مَن يمُرُّ مِن النِّساء، ويقطعُون طُولَ الليالي في الأحاديثِ الفارِغةِ والأراجيفِ[٣] وغيرِها.

ثُمّ نظرتُ، فإذا كثيرٌ مِن العُلماءِ أو كُلُّهم يُضيِّعُ الزمانَ الشريفَ في فُنُونٍ أُخَرَ: فمِنهم مَن يتصدَّر، ويُحِبُّ التردُّدَ إليهِ والهناءَ له بالأيّامِ الشريفة، ويقول: فلانٌ ما يزُورُنا وفُلانٌ ما نراه، فإذا اجتَمعَ الناسُ عنده تحدَّثُوا بما يُضيِّعُ الزمان، ويحتاجُ هو لكثرةِ المعارفِ إلى مُراعاةِ حُقُوقِهم وحُضُورِ مآتمِهم وأفراحِهم.

وما هذه أفعالَ مَن يعرفُ شرفَ العُمرِ ولا مِقدارَه، وإنّما العالِمُ باللهِ سُبحانهُ هو الذي يعرِفُ شرفَ العُمر، فلا يُنفِقُ مِنهُ لحظةً إلا في طاعة، ويَتحامَى مِن أن[٤] يَضِيعَ عليهِ الزمانُ، ولِهذا هربَ خلقٌ كثيرٌ إلى العُزلة؛ حِفظًا للوقتِ وخوفًا مِن حُقُوقِ المُخالطة.

---

(١) سقطت من (ق).
(٢) رواه أحمد في الزهد (١٥٨٦).
(٣) الأراجيف: الأخبار الكاذبة، ويقال: الأراجيف ملاقي الفتن.
(٤) سقطت من (ف).

فالحذرَ الحذرَ من مجالسةِ الخَلق، خصوصًا مَن هو من غيرِ الجِنس؛ فإنّه إن سار الإنسانُ معهُ مشى على غيرِ الجادّة، وإن سار بهِ في جادّةِ العِلمِ أبى ونسبَهُ إلى سُوءِ الخُلُقِ والمُعاشرة. وأقلُّ ما تُنتِجُ المُخالطةُ سماعُ الغِيبةِ. فأولى ما فعلَ العاقِلُ الانفِرادُ والعُزلةُ عمّا يُؤذِي، وجاهَدَ في ساعاتِ المُخالطةِ مع تقليلِهِ لها جهدَه، فإنّ جواهِرَ الأنفاسِ لا قيمةَ لها، ولا هي شيءٌ عنهُ عِوَضٌ.

١٨٩- فَصْلٌ

[لماذا خُلقنا ؟]

مِن العجائبِ خلقٌ كثيرٌ لا ينظُرُون لماذا خُلِقُوا، ولا ما المُرادُ مِنهم، ولا يتفكَّرُون في أنّ لهم خالِقًا، بل[(١)] يُقِرُّون به[(٢)] تقليدًا، ولو عارَضَهم شُبهةٌ أنكرُوا، فهولاءِ في عِدادِ البهائم، ثم يَنشَأ أحدُهم، همُّهُ ما يأكُلُهُ ويُحصِّلُهُ ويجمعُهُ ويلبَسُهُ وينكِحُه، ولا يدري على الحقيقةِ مَن الخالِق، ولا يهتمُّ بمعرفةِ الصلاة، ويعيشُ سِتّينَ سنةً ولا يُفرِّقُ بين رُكنٍ وهيئةٍ، ولا يهُمُّهُ معرفةُ ذلك.

ولا يُزعِجُهُ الشَّيبُ إلا أن يُبكيَه على فقدِ اللذّاتِ، ولا يُغيِّرُه استلابُ الأقران، ولا يعِظُهُ خرابُ الديار، وغايةُ مُرادِه نيلُ شهواتِه كيف اتَّفقَت! فالعجبُ كيف يُسمّى هؤُلاءِ عُقلاءَ؟ وأين العقلُ منهم؟!

وينبغي للعاقل أن يعلمَ أنّ[(٣)] المُرادَ كُلَّهُ مِن الإيجادِ معرفةُ المُوجِدِ وطاعتُه، ولمّا لم يكُن بُدٌّ مِن التسبُّبِ إلى البقاءِ جعلَ الكسبَ والأكلَ واللذاتِ ليكونَ طريقًا إلى البقاء، بما يتحقَّقُ معرفةُ المُوجِد.

---

(١) سقطت من (ق، ر).
(٢) سقطت من (ق، ر).
(٣) سقطت من (ق).

ثُمّ يُنادَى بالرجُل، فإذا نزَل إلى القبرِ لم يُسأَلْ عن مالِه ولا عن ولدِه، بل يُسألُ عنِ المقصُودِ بوُجُودِه، فيُقال: «مَن ربُّك؟ وما دينُك؟ ومَن نبيُّك؟»(١).

فوا عجبًا لذي عقلٍ ما نفعَه، ولِذي سمعٍ ما أفادَه، أُخرِجَ من الطين، وعاد إلى المَطلَع خزَفًا(٢)، فلا هو عَرَفَ الناظِم، ولا فهِمَ عظمةَ المُفرِّق، فكيف يعرِفُ قدرَهُ الجامعَ بعد ذلك، هيهاتَ، ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ [الإسراء: ٧٢].

١٩٠ـ فَصْلٌ
[علامةُ عقل المرء]

ما زِلتُ أُحسِنُ الظنَّ بالمُسلِمين، وأثقُ إلى كُلِّ أحدٍ، حتّى أبدتِ التجارِبُ وقضى العقلُ بالخطأ في ذلك، وقال: الحزمُ إنّما ينبغي أن يُحسَنَ الظنُّ بمَن ظاهِرُهُ الخير، فيُظَنُّ أنّه لا يُخالِفُ ذلك في الباطِن، فأمّا مَن أماراتُ القبائحِ عليه في الظاهِرِ فبعيدٌ سلامةُ باطنِه، وحُسنُ الظنِّ بهذا بخسٌ لحقِّ العقل؛ إذِ الظاهِرُ عُنوانُ الباطِن.

فينبغي في هذا الزمانِ المرذُولِ الذي قد ظهرَت فيهِ على أكثرِ الناسِ أفعالٌ قبيحة، وعلى المُتزهِّدينَ تصنيفاتٌ لا تخفى على ذي بصيرةٍ؛ ألا يُوثَقَ بمُعامِلٍ، ولا يُلتفَتَ إلى حُسنِ ظنٍّ؛ إلا أن يكُونَ ظاهِرًا لمَن يُشهَدُ بصلاحِه، فكُن مع حُسنِ الظنِّ بذلك الشخصِ على حذر، وقد قال الحُكماء: [البسيط]

لا تَحذَرَنَّ سَليمًا جَرَّ مِئزَرَهُ ... واحذَرْ مَقالةَ مُغْضٍ شَمَّرَ القُمُصَا

(١) البخاري (١٣٦٩)، ومسلم (٢٨٧١) بمعناه.

(٢) الخزف: الفخار.

والله لقد رأيتُ مِن الناسِ عجائبَ ما أبقَت لي حُسنَ ظنٍّ فيهم، فالخيانةُ في المُعامِل، والغشُّ في الصديق، وعدمُ الوفاءِ في المُعاشِر، والتعمُّلُ في المُتزهِّد، والترخُّصُ الباردُ في العالِم، وما بَقِي لي[١] مَن أقتدي به ويحسُنُ ظنّي فيهِ إلا أهلُ القُبورِ مِن السلفِ الصالِح، الذين عرَفتُ بالمنقُولِ الصحيحِ سلامةَ باطِنِهم، وحُسنَ ظاهِرِهم، فبهم ينبغي أن يُقتدى، ولِمِثلِهم يُتَّبع، ونعوذُ باللهِ مِن شرِّ هذا الزمانِ الرذيل الذي زُهّادُهُ ذِئابٌ، وعُلماؤُهُ ذبابٌ.

١٩١- فَصْلٌ
[تلمُّح الأسباب]

إذا دهى الفطِنَ تلمُّحُ السبب، ونظرَ إلى الجالِب، فوا عجبًا لكَ وأنتَ تدَّعي الفِطنة، فترى اختلالَ أُمورِك، ولا تنظرُ في سببِ اختلالها، تالله ما اختلَّت إلا مِن قِبَلِ تفريطِك في حقِّ الخالِق؛ إذ لو استقمْتَ استقامَت، أمَا سمِعتَه يقولُ في حقِّ زكريا عليه السلام: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾، ثُمّ بيَّنَ السببَ، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [الأنبياء: ٩٠]؟

فإذا رأيتَ خيانةً مِن زوجة[٢]، أو عُقوقًا مِن ولدٍ، أو مِحنةً مِن جهةٍ مِن الجِهاتِ، فاعلم ذلك مِن جِهةِ معصيتِك ومُخالفتِك، فبادِرْ إلى الإنابةِ وحقِّق، فإنّه إن عفا عنكَ رأيتَ كُلَّ ما تُسَرُّ به.

أتُراكَ ما تأمَّلتَ خيانةَ[٣] آدم، كيف جرَّت عليه البكاءَ الدائمَ والعناءَ الطويل[٤]؟! أما علِمتَ أنّ نوحًا قال كلمةً: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾، فعُوتِبَ

(١) سقطت من (ف).
(٢) سقط «من زوجة» من (ق)، وسقط «ثُمّ بيَّنَ السبب... من زوجة» من (ر).
(٣) سقطت من (ق، ر).
(٤) تقدم في الفصل ١٣٥.

عليها: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]، فبكى ثلاثمئة عام[١]؟! أما سمِعتَ بأنّ داوُدَ جنى جِنايةً لا تحسُنُ في حقِّ مِثلِه، فجرى عليهِ ما قد بلغك[٢]، وكذلك سُليمانُ وغيرُهم؟[٣]

وبالعكسِ صبرُ يُوسُفَ عن هواه؛ مُراعاةً لتقواه، كيف جلبَ له المَديحة، وأثمرَ له المُلك؟

فيا أعمى البصيرةِ، لو كانت لك عينٌ تتلمَّحُ بها عواقِبَ الأُمور، وقدمٌ تسلُكُ أقومَ المناهِج، لَما رأيتَ تغييرًا قطّ، لكِنَّكَ تضجُّ مِن ألمِ الجِراح، وأنتَ بالسيفِ تُقتَلُ[٤]، وتستغيثُ مِن ألمِ الخِناق، وأنتَ تُوثَقُ بالحبلِ عُنُقُك، انتبِه لنفسِكَ انتباهَ مُنزعِجٍ قد دُهِيَ، لعلَّكَ تستدرِكُ فارِطَ أمرِك.

١٩٢- فَصْلٌ
في مُعاشرة الزوجة والولد

اعلم أنّ المِلحَ في الأُمورِ ينبغي أن يكونَ لأصلِ الوضع، فإنّما وُضِعَ النكاحُ لاتخاذ الولد، ورُكِّبتِ الشهوةُ باعثًا حاثًّا، فإذا كانت الزوجةُ غيرَ مُشتهاةٍ فترتِ الشهوة، فيقلُّ الماءُ الذي يُخلَقُ مِنهُ الولد، فأثَّرَ ذلك في الواطئ وفي الولد.

فأما تأثيرُه في الواطئ فمن وجهَين؛ **أحدهما**: أنّ نكاحَ المبغوضِ فيهِ خصيصةٌ تُؤذي المُجامِعَ. **والثاني**: أنّه لا يخرجُ الماءُ المُحتقِنُ، فيبقى مِنهُ ما يُؤذي بقاؤُه، وكأنّه آكِلٌ ما شبِعَ، وشاربٌ ما رَوِيَ. وأما تأثيرُه في الولد فإنّ الماءَ إذا قلَّ ضعُف.

---

(١) رواه أحمد في الزهد (٢٧٧).
(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٢٠: ٦١).
(٣) ذكره الطبري في تفسيره (٢٠: ٨٧).
(٤) في (ر): «تسفك دمك».

ولمّا كان عمومُ الناسِ لا يُمكنُهم الجمعُ بين الزوجاتِ ولا كثرةُ السراريّ، بحيثُ إنّه إذا فترتِ الهِمّةُ عن واحدةٍ مالَت إلى[1] الأُخرى، ولم يكُن لهم سِوى واحدة؛ كان مِن الصوابِ تعليمُ ما يُديمُ طيبَ النفسِ[2] ليتمَّ المسكن، وتحصلَ قناعةُ النفسِ ومرادُها، وذلك إمّا أن يكونَ في الأوّلِ بتخيُّرِ المرأة، والنظرِ في حُسنِها، وفي الثاني تصنُّعُها وتحسُّنُها، وفي الثالث تجنُّبُها ما يَشِينُ.

ولمّا كانت كثرةُ المخالطةِ تُوجِبُ رؤيةَ القبائح، كان الأَولى تجنُّبَ ما هو سببٌ في الأذى، خصوصًا في حقِّ ذي الأنفةِ والهِمّة، فإنّ في الناسِ مَن له أدنى أنَفة، فإذا قامت نفسُه مِن شيءٍ لم يعُد إليه، وفي الناسِ[3] أنذالٌ لا تُوجِعُهم رؤيةُ القبيح، ولا تُؤثِّرُ فيهم، وإنّما الكلامُ مع العُقلاءِ أُولي الأنفسِ العزيزة.

فينبغي ألا يُضاجعَ الرجلُ المرأةَ إلا في وقتٍ ما، فإنّه قد[4] يكونُ في طولِ النومِ ما يُوجِبُ[5] النُّفُور، فلتكنْ قريبًا مِنهُ على فراشٍ مُنفردٍ، فإذا شاء تقرَّب إليها، وليكن قُربُهُ في أوقاتٍ معلومةٍ عِندَها؛ لتتهيَّأَ لذلك.

وينبغي لها ألا تُشعِرَه بساعاتِ أكلِها وشُربِها وطهارتِها، وألا تبصُقَ وهو يرى، ولا تَمخُط، ولا تُريَهُ فرجَها أصلًا، ولا معايبَها، ولا تُخليَ نفسَها من الطِّيبِ وقتًا ما، ولتُراعِ جميعَ بدنها؛ خصوصًا المَغابِنَ[6] ومواضعَ العَرَق، وأخصُّها الفمُ؛ لأنّه محلُّ التقبيل، ولتُنظِّفْ نفسَها مهما أمكن.

---

(١) سقطت من (ف).
(٢) سقطت من (ر).
(٣) من قوله: «من له أدنى أنفة» إلى هنا سقط من (ق، ر).
(٤) سقطت من (ق، ر).
(٥) سقط «ما يوجب» من (ق).
(٦) المغابن: جمعُ مَغبِن، وهو الإبط وبواطن الأفخاذ عند الحوالب.

وكما ينبغي أن تُراعيَ بدنَها، فلتُراعِ أدبَها، وحُسنَ عشرتِها لـه، فإنّها إذا كانت له(١) كالأمَةِ كان لها كالعبد، ومِن أدبِها قناعتُها باليسير، وتركُ الانبساطِ في طلبِ شيءٍ ما(٢)، وخفضُ صوتِها لـه(٣)، وقيامُها في حالِ قُعودِه، وتركُ خلافِه، وإصلاحُ مالِه، فذاك يرفعُ قدرَها، ولا تَبعُدُ عنهُ فينساها، ولا تُكثِرُ مُضاجَعَتَه فيَملَّها، بل بمِقدارٍ في وقتٍ مخصوص، فتكونُ كلَّ لُقيةٍ كالعروسِ.

وكما أمَرناها نأمُرُهُ أيضًا أن يَستُرَ جسدَهُ عنها، فإنّ جسدَ الآدميِّ ليس بمُستحسَن، خصوصًا الرجُلَ، فلا يكشفُ رأسَهُ - وهي تراهُ - جُهدَه، ولا يُريها عَورتَه، ولا يتعرّى، فإنّ رؤيةَ بدنِ الرجُلِ تبرِّدُ عند النفسِ الاستمتاعَ. قالَت عائشةُ رضي الله عنها: قدِم زيدُ بنُ حارثةَ ورسولُ الله ﷺ في بيتي، فقرعَ البابَ، فقام إليه رسولُ الله ﷺ عُريانًا يجرُّ ثوبَه، والله ما رأيتُه عُريانًا قبلهُ ولا بعدهُ(٤).

ولا ينبغي أن يبصقَ وهي تراه، وليكنْ له مكانٌ ينفردُ به، ولا يحضرُ عندها إلا في وقتِ كمالِه وتمامِه، وليُراعِ نظافةَ نفسِه، وطِيبَ فمِه، وقد قال ابنُ عباسٍ: «إنّي لَأُحِبُّ أن أتزيَّنَ للمرأةِ كما أُحِبُّ أن تتزيَّنَ لي»(٥)، وليُحسِّن أدبَه، كما أمَرناها بحسنِ الأدبِ له.

ولا ينبغي لأحدِ الزوجَين أن يذكرَ للآخرِ شيئًا يَعيبُه به؛ مثلَ أن تقولَ المرأةُ للرجُل: «قد كبِرتَ»، أو يقولَ لها: «قد كَبِرتِ»، أو «في جسمِكِ عيبٌ»، فهذه الأشياءُ تَزرَعُ في القلوبِ البُغضةَ، فإنّ النفسَ تُحِبُّ مَن يمدحُها، وتُبغِضُ مَن يذمُّها وإن كان صادقًا.

---

(١) سقطت من (ف).
(٢) سقطت من (ق، ر).
(٣) سقطت من (ق).
(٤) رواه الترمذي (٢٧٣٢)، وفيه عنعنة محمد بن إسحاق.
(٥) تقدم في الفصل ٥٢.

فينبغي أن يغُضَّ كُلٌّ مِنهما عن عَيبِ الآخر، ويُرِيَهُ أنّه ما يدري بذلك العيب، وإن أمكن أن يقول: «إنّ ذلك يُعجِبُني»، كما رُوِيَ عن نائلةَ بنتِ الفَرافِصةِ[1]، أنّها لمّا تزوجَها عثمان، وأُدخِلَت عليه، قال لها: «إنّ وراءَ ما ترينَ مِن الشَّيبِ علاقةً من شبابٍ»، قالت: «إنّ أعجبَ الرجالِ إليَّ الكهلُ الوقورُ». فهذه امرأةٌ عاقلة، وإن كان في القلبِ غيرُ هذا.

فهذه الأشياءُ المذكورةُ أنموذجُ ما أغفَلْناه، وبها تتمُّ المعاشرة، وتطيبُ المُؤانسة، فأمّا إذا كان الرجلُ مُهمِلًا لنفسِه، أو كانتِ المرأةُ مُهمِلةً لنفسِها، فيا قُربَ وقوعِ الملل، وتنغيصِ العيش، وإنما تتوقُ نفسُ الرجُلِ والمرأةِ إلى الاستبدال؛ لأنّ النفسَ تتخايلُ في الشخصِ الذي لم تُخالِطهُ حُسنًا وجمالًا ليس عنده، فلو قد خالَطَته علِمَت أنّه كالأوّل.

فهذا فصلٌ مفيدٌ، يقيسُ عليهِ العاقلُ ما لم يُذكَر، على أنّه إذا وُهِبَ للمرأةِ عقلٌ دبَّرَت نفسَها، وإذا كانت رَعناءَ[2] لم ينفعْها التقويمُ، وكذلك الرجلُ.

١٩٣- فَصْلٌ

[الغفلة النافعة]

مِن أعظمِ النِّعَمِ على المُتيقِّظِ غفلةٌ يُلدَغُ بها، تكونُ سببًا في حياتِه، ويستعينُ بها على أداءِ التكليف، فإنّ المُتيقِّظَ إذا قويَ تيقُّظُه شاهدَ الحقائق، فكأنّه يرى المعبود، فتتلاشى صفاتُه، ويخرجُ عن حدِّ الثبات.

---

(١) هي نائلة بنت الفرافصة بن الأحوص الكلبية، زوجة أمير المؤمنين عثمان بن عفان، كانت خطيبة شاعرة. انظر ترجمتها في: تاريخ دمشق لابن عساكر (٧٠: ١٣٥)، والخبر ذكره عبد الملك بن حبيب في أدب النساء (ص١٦٠).

(٢) رعناء: حمقاء.



ولمّا انكشفَتِ الحقيقةُ ألقَتِ الخبثَ إلى الأرض، فمُوسى يخِرُّ صَعِقًا، ونبيُّنا يَغُطُّ(١) ويتحدَّرُ عَرَقُه(٢)، ولمّا تجلّى الحقُّ للخليل فقيل له: ألكَ حاجة؟ فقال: أمّا إليك فلا(٣)، وهودٌ يقول: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ [هود: ٥٥]، وبعضُ السِّترِ انكشفَ للسحرة فقالوا: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه: ٧٢]، ورؤيةُ الألطافِ أنطقَت يعقوبَ: ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٧].

فلمّا كان الآدميُّ لا يحتملُ هذا الكُشوفَ غُطِّيَت عنهُ في أكثرِ الأحوال، حتّى قدرَ على الأكلِ والشربِ والنكاحِ، فتمَّ نظامُ الدنيا، وصحَّ البقاءُ فيها، وهذه الغفلةُ النافعةُ ما كانت بمقدارٍ تتعدَّلُ بها اليقظة، وهي كالمِلحِ في العَجِين، فإذا زادت ضرَّت.

على أنّ المُتيقِّظَ لو نُسِبَ إلى الغفلة ـ كيف نُسِبَ ـ فلا بُدَّ مِن غلبةِ اليقظةِ لها، إلا أنّه يَعدِلُ جُهدَه، كما يُسلِّي العاشقُ نفسَه، وفي القلبِ ما فيه مِن لوعةِ الهوى، ومِن هاهنا قيل: لو رأيتُموهم لقُلتُم: مجانين(٤)، وويلٌ للشَّجيِّ مِن الخَليِّ(٥)، ومِن هذا الجنس(٦):

لَو يَسمَعُونَ ـ كَما سَمِعْتُ ـ حَدِيثَها ....

ومثالُ هذا رجلٌ شديدُ الطمع، وآخَرُ قويُّ النزاهة، فالنَّزِهُ يُعجِّبُ أخلاقَ

---

(١) البخاري (٤٣٢٩، ٤٩٨٥)، ومسلم (١١٨٠) من حديث يعلى بن أمية رضي الله عنه بمعناه.

(٢) البخاري (٢، ٣٢١٥)، ومسلم (٢٣٣٣) من حديث عائشة رضي الله عنها بمعناه.

(٣) رواه الطبري في تفسيره (١٦: ٣٠٩)، وقد قاله سيدنا إبراهيم مخاطبًا جبريل عليه السلام.

(٤) ذكره أبو طالب المكي في قوت القلوب (١: ٢٩١).

(٥) معناه: ويل للمهموم من الفارغ. انظر: الزاهر في معاني كلمات الناس (١: ٦٠١، ٦٠٢).

(٦) صدر بيت لكثير في ديوانه (ص٤٤٢)، وعجزه:

.... خَرُّوا لِعَزَّةَ رُكَّعًا وسُجُودَا

الطامع حِدَّتَه في الطمع، والطامعُ يَعجَبُ من شدّةِ تماسُكِ النَّزِه، ويظنُّ أنّه يحملُ عبئًا ثقيلًا في صبرِه، وليس كذلك، بل يرى أنّ التنزُّهَ كاللازمِ مِن الطهارة، فالتفاوتُ بينهما كما قال الإمامُ الشافعيّ[١]: [الوافر]

ومَنزِلةُ السَّفِيهِ مِنَ الفَقِيهِ كَمَنزِلةِ الفَقِيهِ مِنَ السَّفِيهِ
فهذا زاهِدٌ في قُربِ هَذا وهَذا فِيهِ أزهَدُ مِنهُ فيهِ

١٩٤- فَصْلٌ
[إلفُ العادة]

أكثرُ الناسِ قد أنِسُوا من العِبادةِ بصورتِها الواقعةِ مِن الجسدِ كالصومِ والصلاة، وساعدَهم على ذلك العادة، حتّى إنّ الصائمَ في رمضانَ لو ضُرِبَ بالسِّياطِ ما أفطَر، وهو يغتابُ الناسَ ويأخذُ أموالَهم ويظلمُهم، ويفعلُ كُلَّ قبيح، وما ذاك إلا لأُنسِه بالعادةِ في التعبُّد، ورُبّما كان إفطارُه غصبًا.

وفيهم مَن يخرجُ عن جنسَ المُصانَعة، فيظلمُ الناس، ثُمّ يتصدَّقُ بالبعض، ويمتنعُ ليلةَ الجمعةِ من شُربِ الخمر، فإذا رأى أخاه أو ابنَه يشربُ الخَمرَ لا يهجرُه ولا يزجُرُه.

وكُلُّ هذه الأفعالِ بعيدةٌ مِن الإيمان، تدلُّ على أنّ[٢] القومَ ما عندهم[٣] مِن الإيمانِ إلا العادة، وإلا فأين تحقيقُ التصديقِ الذي ثمرتُه اجتنابُ النواهي، وامتثالُ الأوامر، والرضا بالقضاء من غير سخطٍ، وهجرُ القريبِ في ذاتِ الله

(١) ديوان الإمام الشافعي (ص١٨٦).
(٢) سقطت من (ق).
(٣) سقط «ما عندهم» من (ف).

كما ضربَ عمرُ ولدَه الحدَّ[1]، وإخراجُ المحبوبِ من المالِ لأجلِ الله كما أخرجَ أبو الدَّحداحِ بُستانَه في الصدقة[2].

أفتُراني أحكمُ بالإيمانِ لمَن لا يعرفُ أركانَ الصلاة، ولا يُبالي جهلَها أم علِمَها، ولا أدّاها كما ينبغي أو لم يُؤدِّها، ويتوانى في الزكاة، فإذا أخرجَ أخرجَ البعض، وتأوَّلَ في البعضِ تأويلًا لا يسوغُ في الشرع، وباعَ القُراضةَ بالصحيح؛ بيعًا حرامًا بالإجماع، ولم يسهلْ عليهِ تقليدُ[3] فقيه؟

أفتُراني أغترُّ بمُزاحمتِه للناسِ في المسجدِ ليلةَ الرغائب، أو ببكائه في مَجلسِ المَواعظ؟ هيهاتَ، ما هذه صفةَ مؤمنٍ، ولا مَن[4] عنده مِن الإسلامِ إلا اسمُه، ولو حُقِّقَ الأمرُ مع أكثرِ الناسِ أفلسُوا من الإيمان.

١٩٥- فَصْلٌ
[التفكُّر في مَبدأ الخلق]

تفكَّرتُ يومًا في نفسي، فعلِمتُ أنّي مصنوعٌ لصانع، وثبتَ عندي بالدليل حدثُ المُحدَثاتِ، وأنّه لا يجوزُ أن يكونَ المُحدَثُ أحدثَ نفسَه؛ لأنّه إن كان أحدثَها حالةَ العدمِ فمُحال؛ لأنّ المعدومَ لا يكونُ فاعلًا، أو في حالة الوجود، فالموجودُ مُستغنٍ بوجودِه، ولمّا رأيتُ المُحدَثَ موجودًا في زمانٍ دونَ زمانٍ علِمتُ أنّه لو لم يكُن عن مُحدِثٍ لم يكن وجودُه في زمانٍ أولى مِن وجودِه في الزمانِ الذي قبلَه أو بعدَه.

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ برواية يحيى بن يحيى الليثي (٢: ٨٤٢).

(٢) أخرجه أحمد (١٢٤٨٢) من حديث حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس رضي الله عنه.

(٣) سقطت من (ر).

(٤) سقطت من (ف).

ثُـمّ تفكَّـرتُ في مبتدأ الوجود، فإذا النُّطفةُ قدِ استُلَّت مِـن الدم، والدمُ قدِ استُلَّ مِـن الأغذية، والأغذيةُ قدِ استُلَّت مِن العناصرِ الأربعـة: الماءِ والترابِ والنـارِ والهواءِ، فنظرتُ في العناصر، فإذا بها مُتضادّاتٌ مُتنافراتٌ، فعلِمتُ أنّه لا بُدَّ لامتزاجِ هذه المُتنافراتِ من قاهرٍ قهرَها على الامتزاج.

فلمّـا فرغـتُ مِن النظرِ في مبدأ البدنِ رأيتُه مُركَّبًا لراكبٍ وهو النفْس، فإذا بهـا جوهـرٌ عجيب، لا بُـدَّ أن يكونَ حيًّا ليُدركَ العلـومَ والحِكَم، ولا يجوزُ أن يكـونَ عرَضًا؛ لأنّ العرَضَ لا يقومُ بنفسِـه، وهذا صالـحٌ أن يقومَ بدون البدن. وقد نطقَ الشرعُ بذلك، وأخبرَ بخلقِ الأرواحِ قبلَ الأجساد، وأخبرَ بكونِها باقيةً بعد بِلى الأبدان.

فلمّا رأيتُ أنّ بناءَ هذا البدنِ بناءٌ عجيبٌ، ثُمّ رأيتُ النفسَ مِنهُ قريبًا، علِمتُ أنّه لا يُنقَضُ إلا لأمرٍ هو أعجبُ مِن بنائه، ثُمّ نظرتُ في النفسِ بعد فراقِه، فإذا صاحبُ الشـرعِ يقول: «هي في حَواصلِ طيرٍ»[1]، ثُمّ قد وعدَ الكتابُ والسـنةُ بالإعادةِ للبدنِ والنفس.

فرأيـتُ أقوامًا يسـتبعدون ذلك فلم أسـتبعدْه؛ لِما سـبقَ مـن علمي بجمعِ تلـك المُتنافـرات، ثُمّ قد أراني فـي مخلوقاتِه، مثلَ الزئبقِ يُلقـى في ذرّاتٍ من الذهـبِ لا تُحصـى مُتفرِّقاتٍ فـي الترابِ فيجمعُها، والنـارِ تُوقَدُ على النُّحاسِ والذهبِ والفضة، فتُميِّزُ كلَّ نوعٍ إلى جنسِه. إذا كان هذا تمييزَ قوةِ النار، فكيف بالقوةِ الإلهية؟!

فلمّـا جـوَّزَ هذا عندي الإعادةَ، نظرتُ فإذا الشـرعُ قد أوجبَها بما ضمِنَ في القـرآنِ مـن إعادةِ الخَلـق؛ كقولـه: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧]، ورأيتُ العقلَ

(١) تقدم في الفصل ٢٠.

يراها كالواجبِ في الحكمة؛ لأنّ الحكيمَ لا يَبني مثلَ هذا الآدميِّ الذي لا نظيرَ لـه مِن الموجودات؛ ليحيا أيامًا يسـيرةً بنُغَصٍ كثيـرة، ثُم يَنقضُه نقضًا لا لمعنًى، هذا لا يليقُ بالحكمةِ ولا بالقدرةِ ولا بالكَرَم، فأيقنتُ بالبعث، ولم يَبقَ لي تردُّدٌ فيه[١]، بل تجرَّدَ فكري للعملِ بما يصلحُ للبعث، وأنا أسألُ الله عز وجل التوفيق.

١٩٦- فَصْلٌ
[سرائر الزُّهّاد]

اعتبـرتُ على أكثرِ الناسِ خَلّةً مذمومة، ولي فيها نصيب، وهو أنّ أحدَهم لا يكتـمُ شـيئًا مِـن البلاء وإن قلَّ، فإن خُمَّ ضجَّ واسـتغاثَ وشـكا إلى الخَلق، وإن فُقِـدَ لـه غرضٌ ضجَّ وشـكا[٢]، وإن أعوَزَه شـيءٌ وعنده أشـياءُ فاضلةٌ عنِ الحاجـة؛ شـكا ولم يَبغِهـا، ورُبّما وُهِبَت لـه العافيةُ مِن مرضٍ، فـإذا طُرِقَ بابُه للعيادةِ اضطجع، فكأنّه يقولُ لهم بلسانِ الحالِ: ما عُوفِيتُ، وإن فعلَ شيئًا مِن الطاعاتِ لم يقدرْ على كتمانها حتّى يُحدِّثَ بها.

وهذه الأشـياءُ كُلُّها مُعاملاتٌ مع الحقِّ عز وجل، فإظهارُها رياءٌ وشـرك، وما كان السلفُ على هذا، وإنّما رفعَهم الله عز وجل بكتمانِ المُعاملات، فلمّا رأى صدقَهم في الكتمان أظهرَ عليهم من المدائحِ بالطاعاتِ أضعافَ ما عملوا.

شـكا رجلٌ إلى الأحنفِ[٣] بنِ قيسٍ وجعَ ضِرسِـه، ثُم عادَ فشكا، فقال له: قد ذهبتْ عيني مُنذُ سنين ما علِمَ بها أحدٌ[٤]! وكان حسّانُ بنُ أبي سِنانٍ يشتري أهلَ البيتِ فيعتقُهم، ولا يُعلِمُهم من هو[٥]!

---

(١) سقطت من (ف).
(٢) سقط «وإن قل... شكا» من (ر).
(٣) من قوله: «فلما رأى صدقهم في الكتمان» إلى هنا سقط من (ف)، وسقط «ابن قيس» بعدُ من (ق، ر).
(٤) تاريخ ابن معين رواية ابن محرز (٢: ٧٨).
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في الإخلاص والنية (٤٩).

دخـل رجلٌ علـى الإمامِ أحمدَ بنِ حنبلٍ يعودُه، فقال: كيف أنتَ؟ قال[١]: بخير، فقال: هل أُحمِمتَ البارحةَ؟ قال: إذا قُلتُ لكَ: «أنا بخيرٍ» فلا تُحوِجْني إلى ما أكرَهُ!

وكان الفُضَيلُ يقولُ: «أشتهي مرضًا بلا عُوّادٍ»[٢].

وكانوا يتجلَّدون في المرضِ بإظهارِ العافية، فكان إبراهيمُ إذا مرضَ تركَ عنده ما يأكلُه الأصحّاء[٣].

وكان سفيانُ الثوريُّ يقولُ: «ما أعتدُّ بما ظهَر من عَملي»[٤].

ومرضَ يوسـفُ بنُ أسـباطٍ، فنفدَت نفقتُه، فقال لامرأته: هل عِندكِ شيءٌ نبيعُه؟ فقالت: هذه الجابِيَة[٥]، فقال: إذا بِعنا مثلَ هذه ظهرَتْ أحوالُنا.

وسـألتِ امـرأةٌ فقيـرةٌ يومًـا، فقالـت: «ليس لـي شـيءٌ»، فقـام إليها بشـرٌ الحافي[٦] فقال: يا أُختي، الفقرُ سِرُّ الله عز وجل، أظهرتِه[٧]!

وقرأتُ بخطِّ ابنِ عَقيلٍ، قال: حكى لي[٨] بعض الصُّلحاءِ أنّ عبدَ الصمدِ الزاهـدَ كان يعامـلُ خبّـازًا وبقّالًا، فكان يجتمـعُ لهُما عليهِ ديـونٌ كثيرة، فيأتي الرجلُ من أربابِ الأموالِ إلى خبّازِ عبدِ الصمدِ، فيقول: احسُبْ كم لكَ عِندَه، فيحسُـبُه، فيبلـغُ المئتينِ أو الألفَ، فيُعطيه ثمنَ ذلـك، ويقولُ له: باللهِ لا تُعلِمْهُ

---

(١) سقطت من (ف).
(٢) رواه السلمي في طبقات الصوفية (ص٢٥).
(٣) ذكره ابن الجوزي في تلبيس إبليس (ص١٣٨).
(٤) ذكره أبو طالب المكي في قوت القلوب (٢: ٢٦٤).
(٥) الجابية: الحوض الذي يُجمَع فيه الماء للإبل.
(٦) سقطت من (ق).
(٧) رواه ابن حمكان في الفوائد والأخبار (٨٤).
(٨) سقطت من (ق، ر).

مَن قضى عنه، بل قل له: رجلٌ مسلمٌ أحبَّ أن يخفِّفَ به[1] ثِقلَ الدَّينِ عنكَ لأجلِ الله، فكان عبدُ الصمدِ يجيء، فيقولُ له الخبّازُ ذلك فلا يسألُه، بل يقول: «خفَّفَ الله أثقالَه، وأحسنَ جزاءَه»، وكذلك كانُوا يفعلُون مع بقّالِه.

فانظُر إلى هؤلاءِ كيف لم يُراعُوا مطالعةَ المُحسَنِ إليه؛ قُنوعًا مِنهم بعِلمِ الله والتِذاذًا بفعلِ الخير. فأفٍّ ـ والله ـ لنا، ولأحوالِنا السيِّئة: كيف نشكُو مَن ينفعُنا ويضُرُّنا إلى مَن لا ينفعُنا ولا يضُرُّنا؟! ولكن لو عرَفنا طريقَ المُعاملةِ ما كُنّا هكذا، وإنّما ندلُّ على سبيلٍ ما سلكناه، وكيف يعرِفُ الطريقَ مَن لا يعرفُ الذي يُعاملُه؟! وأنا أتوبُ إلى الله تعالى مِمّا كان مِنّي مِن ذلك، وأسألُه الحفظَ فيما بقيَ.

١٩٧ـ فَصْلٌ
[متى تتجهَّز للرحيل؟]

قد ـ والله ـ أنفقتَ عُمرَك في تحصيلِ مصالحِ دنياك، وبالغتَ في الاستظهارِ بتحصيلِ التِّجاراتِ والعَقار، ونظرتَ لنفسِكَ في حالِ الكِبَرِ والضعف، وأعددتَ ما يصلُح[2] لذاك الوقتِ، ثُم جهَّزتَ البنات، وأبضَعتَ البنين[3]، وبالغتَ في جميع[4] ذلك، وذهبَ العمرُ كلُّه فيه، أفترى أنت متى تتجهَّزُ للرحيل؟!

والله إنّه قد يكونُ في جهازِ البيتِ مُمَوَّهٌ بالذهب، أو مَطليٌّ بالفضة، فينطلي على الناظرين، وما يصلحُ لجهازِك أنتَ للآخرةِ إلا الخالصُ مِن البهرج، وإلى

(١) سقطت من (ف، ر).
(٢) في (ر): «يحصل».
(٣) أبضعت البنين: أي جعلتَ لهم بضاعة يتجرون فيها.
(٤) في (ف): «جمع».

اليوم ما حصَّلتَ شيئًا مِن ذلك، ولا بقيَ عُمرٌ تُحصِّلُ فيه؛ لأنّ الصَّبابةَ الباقيةَ زمانُ ضعف، واستطراحٌ للموت. [البسيط]

فهَلْ لِيَ اليَومَ إلا زَفرَةُ النَّدَمِ[١]؟ ....

والله إنّ الابنَ يشتغلُ بمالِكَ عنك، والبنتَ بزوجِها، ولو بَكَوا ما انتَفعتَ، ولـو ناحُوا عليك لتضـرَّرتَ، فبالله عليكَ اصرِفْ مِن هـذا العقلِ الذي أوجبَ حُسنَ التدبيرِ للدُّنيا، والنظرَ[٢] للأولاد؛ طائفةً إلى مصالِحِك.

يـا مَن كسـا الغيرَ وهو عُريـان، وأضاء للناسِ وهو يحتـرق؛ اقبَلْ نُصحي، واستدرِكْ باقيَ الذُّبالة[٣]، وأخرِجِ الفتيلة، وقطِّرْ فضلَ زيت، فرُبَّ جَدبةٍ نَشَلَت ضعيفًا عن السـعيِ، ولو لم يكن إلا إنفاقُ أنفاسِـكَ الباقيةِ على التأسُّف، فإنّها نفقةٌ مُربِحةٌ.

فقد جَرَتْ عادةُ المخدومِين أنّه إذا عجزَ الخادمُ عنِ الخدمةِ أقاموا سواه، وإذا كبِـرَ قالـوا: الـزمْ بيتَـك، فأمّـا الخالقُ سُـبحانه فإنّه قـد رضيَ مِـن العاجِزِ بالمُمكن، فإن لم يُطِقْ أن يصلّيَ قائمًا فجالسًا، فإن لم يُطِقْ فمُضطجعًا، ولقد خفَّفَ الصومَ عنِ المسافر، وأسقطَ شطرَ الصلاةِ رِفقًا به، فلا تحتقرْ يسيرًا مِن الخيرِ في معاملةِ هذا الكريم، فإنّه يُرْبِي اللُّقمةَ ويضاعفُ الحسنةَ.



---

(١) عجز بيت للشريف الرضي في ديوانه (٢: ٢٧٣)، وصدره:

لَم أقضِ مِنكِ لِباناتٍ ظَفِرتُ بها ....

(٢) سقطت من (ف). (٣) الذبالة والفتيلة بمعنًى.

١٩٨- فَصْلٌ

[الغفلة بين المدح والذمّ]

حضرتُ يومًا جنازةً، فتفكَّرتُ[١]، فإذا إقبالُ الإنسانِ على الدنيا غفلةٌ[٢] كثيفةٌ باردة؛ لأنّ الآدميَّ مُركَّبٌ من جسمٍ ونفسٍ، فالجسمُ عن قليلٍ حظُّ التراب، والنفسُ تنتقلُ إلى عالَمٍ آخرَ، ثُمّ إذا أُعِيدا لم يَرجِعا إلى هذا الوطن، بل إلى محلٍّ آخرَ فيثبتُ، لعلمِه بوطن[٣] الإنسانِ بهذا المكانِ من أبردِ الأشياء، وهو كخروج السمكةِ والضِّفدعِ من النهر يطلبُ الهواء، فإنّه لو رآه بعضُ حيواناتِ البرِّ كالغزالِ، فأنِسَ به، وقال له[٤]: «امكُثْ عِندنا»، لم يمكن، ولقال: إن توقَّفتُ ساعةً هلكتُ، وكذلك لو غاصَ الغزالُ في الماء لحظةً، فأنِسَ بِهِ الحُوتُ، وقال: امكُثْ عندنا ساعةً، فإنّه لا يُمكنُه، فكذلك الدنيا[٥] ليست وطنًا للآدميّ، وإنّما هي مَعبَر، لا يحسُنُ توطُّنُه.

والمَركبُ مع قطعِه اليمَّ تضربُه الأمواج، فهو على خطرِ الانكسارِ والغرق، وركونُ الآدميِّ إلى الدنيا غفلةٌ كثيفة، ينهى عنها العقلُ مَن عقلَ وتدبَّر، إلا أنّ الدنيا كالعُشِّ يتربّى فيها الفرخ، فلا بدَّ من مراعاتها، فبذلك حفظُ البدنِ مُتعيِّن، فبانَ من هذا أنّ أخْذَ البُلْغةِ التي تحفظُ البدنَ من الدنيا لازمةٌ، وإنما المذمومُ الركونُ إلى فضولِ العيش[٦]، القاطعةِ عن الآخرة، الشاغلةِ عن الأمور المهمّة.

فأما الزهدُ المشتمِلُ على منعِ النفسِ حقَّها اللازم وما يحفظُها، فمذمومٌ

---

(١) سقطت من (ق، ر).
(٢) سقطت من (ف).
(٣) عن (ر، ق).
(٤) سقطت من (ق).
(٥) سقطت من (ق، ر).
(٦) من قوله: «يتربى فيه الفراخ» إلى هنا سقط من (ف).

غيرُ ممدوحٍ، ولا بُدَّ للإنسانِ في هذه اليقظة مِن أن يَلدغَ نفسَه بغفلةٍ ما، تكونُ بمقدارٍ يمكنُه معه الأكلُ والشربُ والنكاح، ومن العجبِ احتياجُ العاقلِ المُتيقِّظِ إلى استعمالِ الغفلة، فإنّه لا بُدّ له[1] مِنها كما لا بُدّ له مِن دخولِ المِيضأة.

فافهم هذا، ولا تمِلْ إلى الغفلةِ، فتكونَ من أبناءِ الدنيا، ولا إلى اليقظةِ التامّةِ التي أخرَجَت جهلةَ المُتزهّدين إلى السياحاتِ والتخفُّفِ الدائم[2]، فإنّ أقوى الخلقِ يقظةً رسولُ الله ﷺ وأصحابُه، فبهم فليَقتدُوا.

١٩٩- فَصْلٌ
[بدع الزُّهّاد]

تأمَّلتُ هذه المدارسَ المَبنيّةَ للفقه، والأربطةَ للزهد، فرأيتُها وإن اشتملَت على خيرٍ؛ إلا أنّ فيها دفائنَ لإبليسَ، منها: أنّ أربابَها يتركون حضورَ المساجدِ للجماعة، فتفوتُهم هذه الفضيلة، والسعيُ إلى المسجد ـ في روايةٍ عن أحمدَ ـ: لازمٌ[3]، وعند الباقين: فضيلةٌ عظيمةٌ، والخطواتُ إليه بكلِّ خطوةٍ حسنةٌ، فإذا صلَّوا في أماكنِهم فاتَتْهم هذه الفضيلة.

ومِن ذلك أنّ الغالب عليهِمُ العُزوبة، خصوصًا الزُّهّاد، فقد فاتَهم النكاحُ المسنُون أو الواجب.

ومن ذلك أنّهم سلكُوا طريقَ الترهبُن، ولم يكنْ في زمنِ رسولِ الله ﷺ مِن هذا شيء. فإن قيل: فقد كان أصحابُ الصُّفّة[4]، قُلتُ لهم[5]: أولئك مِن المسجدِ ما خرجُوا، ثم كان ذلك عن عَوَزٍ وفقرٍ شديدٍ، بخلافِ من يقصدُ

(١) سقطت من (ف).
(٢) سقطت من (ق، ر).
(٣) مسائل الإمام أحمد رواية ابنه أبي الفضل صالح (٢: ٣٤).
(٤) بمعناه البخاري (٦٤٥٢).
(٥) سقطت من (ف).

الخروجَ من ماله ويترهبنُ، وكم قد أخرجَ إبليسُ من القومِ خلقًا كثيرًا، قوِيَتْ عليهم العُزبةُ فجرَّتهم[١] إلى الفسق، فانعكس المقصودُ بالانفراد، فعليكَ بسيرةِ الرسولِ صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابِه، فالخيرُ كلُّه فيما كانوا عليه، وكُلُّ مُبتدِعٍ بعدَهم فهو ضالٌّ.

وثَـمّ أصـلٌ آخرُ عظيمٌ ما ذكرتُه، وهو أنّه قلَّ أن تُبنى المدارسُ والأربطةُ إلا مِن مالِ سلطانٍ ظالمٍ وغاصبٍ وجائر، فالعجبُ مِن تركِ كسبِ الحلال، وينفردُ بزعمِه للتعبُّد بأكلِ الأموالِ الحرامِ أو الشُّبهة، ويحتجُّ بطلبِ العلمِ أو الزهدِ.

ثُمّ قد يكونُ وقفُ المدارسِ للتفقُّه، فيتفقَّهُ الإنسانُ ويبلغُ المرادَ في سنةٍ وخمسِ سنين، ثم يُقيمُ في المدرسةِ عشرين سنةً وأكثر، ومثلُ هذا لا يجوزُ له أن يأكلَ من وَقفِها، إلا أن يكونَ مُعيدًا، فيكونَ في مرتبةِ[٢] مُعلِّمٍ لا مُتعلِّمٍ.

وكذلك قد يكونُ وقفُ الرباطِ على الصوفية، واختلالُ هذا الشرطِ يحرِّمُ على المُقيمِ[٣] معهم تناولَه؛ لأنّ التصوفَ أخلاقٌ لا خِرَقٌ، فمَن لبِسَ الخِرقةَ، وظنَّ أنّه صوفيّ، مع عدمِ التمسُّكِ بأخلاقِ القوم، فقد أكلَ ما لا يحِلُّ له[٤].

وفي الجُملة فهذه حالةٌ تُسمِّيها العوامُّ: هَركَلة، فإذا مالَ الإنسانُ إلى الرفاهةِ قيل: قد تَهَركَلَ، وما هذه سِيَرَ أهلِ العزائم، فإنّ القُرّاءَ في زمنِ رسولِ الله ﷺ كانوا يَحتَطِبون بالنهار، ويصلُّون بالليل[٥]، فأمّا مَن آثرَ الدَّعةَ والراحة، واقتنعَ بالاسمِ والصورة، مع بُعدِه عن المعنى، فهو أبعدُ ما طُلِب، فافهم ما شرحتُه، ولا تغترَّ بالمُتشبِّهين.

---

(١) سقطت من (ف).
(٢) «في مرتبة» عن (ف).
(٣) سقط «يحرم على المقيم» من (ر).
(٤) سقطت من (ق، ر).
(٥) البخاري (٣٠٦٤) من حديث أنس رضي الله عنه بمعناه.

٢٠٠- فصل
[عذاب القبر: أهو للجسد والرُّوح معًا ؟]

سألَ سائلٌ عن عذابِ القبر، فقلتُ: الإيمانُ بهِ واجب، وقد كان رسولُ الله ﷺ يستعيذُ بالله مِن عذابِ القبر[١]. فقال السائل: ليس مقصودي هذا، ولكن هلِ العذابُ للبدنِ وللرُّوح؟ فقلتُ له: هذا أمر غَيبي، فيجبُ الإيمانُ بهِ كما وردَ مِن غيرِ تفصيل. فقال: ما نفعني هذا.

فقلت: اعلم أنّ الذي يُوجِبُهُ النظرُ أنّ العذابَ والنعيمَ للنفسِ دون البدن، فإن الله تعالى يقول: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾، فأخبرَ أنّ الجُلودَ إذا نضِجَت كان ذلك سببًا[٢] لبُعدِ العذابِ عنها، وأخبرَ بعلّة تبديل الجُلُود، فقال: ﴿لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]، وإذا كان نضجُ الجُلودِ يمنعُ وصولَ العذاب، فكونُه رميمًا أولى، وقال النبيُّ ﷺ: «أرواحُ الشُّهداءِ في حَواصِل طَيرٍ خُضرٍ»[٣]، فجعلَ نعيمَها مُتعلِّقًا بجسدٍ يكونُ فيه، ثُمّ قد ثبتَ أنّ الإدراكَ للنعيمِ والعذابِ إنّما يكونُ بالحسّ، ولا إحساسَ لميِّتٍ.

فقال السائل: فكيف بقوله ﷺ: «أعُوذُ بكَ مِن عذابِ القبرِ»[٤]، وبقوله: «إنّهما يُعذَّبانِ في قبورهما»[٥]، وبقوله: «القبرُ روضةٌ أو حُفرةٌ»[٦]؟ قلتُ: المرادُ بذلك صاحبُ القبر، وإنّما أشار إلى القبر تعريفًا به لصاحبه.

---

(١) البخاري (٦٣٦٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) سقط «ذلك سببًا» من (ف).

(٣) تقدم في الفصل ٢٠.

(٤) البخاري (٨٣٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥) سقط «في قبورهما» من (ق، ر)، والحديث رواه البخاري (٢١٦)، ومسلم (٢٩٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) رواه الترمذي (٢٤٦٠)، فيه عبيد الله بن الوليد الوصافي، وهو متروك، وعطية العوفي، وهو ضعيف.

قال: فما تقول في قوله: «يسمعُون خَفقَ نِعالِكُم»[١]؟ فقلتُ: جوابُه مِن وجهَين؛ **أحدهما**[٢]: أن ذلك يكونُ وقتَ السؤال، وحينئذٍ تُرَدُّ الروحُ إلى الجسد. **والثاني**: أن[٣] تكونَ الإشارةُ إلى صاحبِ القبر، وهي النفس، فيصلُ إليها خفقُ النِّعال؛ لأنّ ذلك الصوتَ يدخلُ في خَرقِ الأذن.

هذا قدرُ ما يُوجِبُهُ النظرُ والاستدلال، ولا يبعُدُ في قدرةِ الله تعالى أن يخلُقَ في البدنِ حسًّا يُدرِكُ به النعيمَ والعذاب، وهو جسم، فإنّ مَن جعلَ في الحَصى أن يُسبِّح، وفي الجِذعِ أن يَحِنَّ، وفي الحَجرِ أن يُسلِّم، وفي آخرَ أن يأخذَ الثيابَ ويذهبَ بها[٤]، وأولجَ في البيضةِ رُوحًا مع استحكامِ المَسامِّ؛ قادِرٌ إلى[٥] أن يُوصِلَ إلى هذه الرِّمَمِ رُوحًا[٦] وكَرْبًا.

٢٠١- فَصْلٌ
[إلفُ العادة]

غلبَتْ على الناسِ العادات، فصارت كأنّها الشريعة، فإنِ التفتوا إلى الشريعةِ ففيما اعتادوا الالتفاتَ إليهِ مِمّا لا يعودُ بنقصٍ في أعراضِهم، ولا يُوجِبُ حملَ مشقّةٍ تصعُبُ. فإن نظرتَ إلى الولاةِ رأيتَهم يسُوسُون المملكةَ بما يُوجِبُ حِفظَها، فيقتُلُون ويقطعُون ويأخذُون الأموالَ ويتناولُونها تناولَ مُتملِّك، فإن وافق مُرادُهم المشروعَ كان المشروعُ تبعًا، وإن لم يُوافِقْ لم يُبالُوا!

---

(١) مسلم (٢٨٧٠) من حديث أنس رضي الله عنه.
(٢) سقطت من (ر). (٣) سقطت من (ف).
(٤) سقطت من (ف)، والإشارة إلى حديث موسى؛ أخرجه البخاري (٣٢٢٣)، ومسلم (٣٣٩).
(٥) سقطت من (ق).
(٦) سقط «مع استحكام... روحًا» من (ر)، وقوله بعدُ: «كربًا» يقال: كرَبَ الأرضَ: أي قلَبَها للحرث.

فمِنهـم الجامعُ للأمـوال بُخلًا، ومِنهم المُبذِّرُ فيها بَطرًا، وقدِ اعتادوا لُبسَ الحريـر، واسـتعمالَ الذهـب، كأنّهُ ما ثَمّ شَـرعٌ، ولا أمرٌ، ولا نهـيٌ، فإذا رضُوا عن شـخصٍ خلعُوا عليه[1] الديباجَ والحرير، والظلمُ قد صار في الوُلاة عادةً، والشريعةُ مطّرحةٌ.

ثُـمّ جَـرَتِ العاداتُ من العلمـاء، فخالطوا الـوُلاة، واعتادوا تـركَ الإنكارِ عليهم، ورُبّما لابسُوا المُحرَّمَ في صُحبتِهم، ويُسمُّون هذا مُداراةً وتَقِيّةً، وليس كذلـك، إنّمـا العذرُ لأحدهم أن لو أُلزِمَ بصُحبـةِ الجائر، فيقتنعُ حينئذٍ بالإنكارِ بالقلبِ إذا لم يَقدِر على النطق، فأمّا أن يُزاحِمَ على سُدَدِهم[2]، ويدَّعي عجزَه عنِ الإنكار، فلا عُذرَ له.

وإنّمـا سلِم مِن هـذه الأحـوالِ أخيارُ السـلفِ مِـن العلماء، مثـلُ الثوريِّ وأحمدَ بنِ حنبل، وقبلهما سعيدُ بنُ المُسيِّبِ في خلقٍ كثيرٍ قصدُوا حِفظَ دينِهم، وأنكـروا إذ قـدرُوا، واعتزلُـوا إذ عجزُوا، فنظرَ الله تعالى إلـى صدقِ قصدِهم، فأبقى أذكارَهم مِن بعدِهم.

وإن نظـرتَ إلـى الجنـود رأيتَهـم قـد عمَّهُـم الجهـلُ بالشـرع، ورأوا كُلَّ المقصودِ تحصيلَ أغراضِهم كيف اتَّفقَت، حتّى إنّ قائلَهم يقول: لا يُنكَرُ على جنديٍّ شُربُ الخمر، ولا لُبسُ الحرير!

وقـد بلغَنـا عنِ الشـاميِّ ـ قاضي القُضـاة ـ أنّ رجُلًا مِن الجُنـدِ ادَّعى عِندهُ علـى رجُـل، فقـال: أين شُـهُودُك؟ فجاء بقـومٍ عليهـم الحرير، فقـال: لا أقبلُ شهادةَ هؤلاء؛ لأنّهم يلبَسون الحرير، فقال له الرجُل: فالسلطانُ يلبَسُ الحرير،

---

(١) سقطت من (ق، ر).

(٢) السُّدَد: جمع سُدّة، وهي الباب.

ووزيـرُه نظـامُ المُلكِ يلبَسُ الحريـر، فقال: لا جَرَمَ، لو شـهِدا عِندي على باقةِ بقلٍ ما قبِلتُهما[١].

وإذا نظرتَ إلى العوامِّ رأيتَ أكثرَهم كالبهائم في الجهل بالشـرع، هِمَّتُهم الاحتيـالُ علـى الدنيـا، لا يدري أحدُهم كم فـي الصلاة رُكنًا! إنّمـا هِمَّتُه البيعُ والشـراءُ، وفكرُه يعملُ في غِشِّ المَبيعِ، ولا يتنقَّصون مِن مُجالسـةِ مولًى، ولا صاحِـبِ أمـردَ، ومن له صبيّـة، وإذا نفقَت مع أحدِهم قطعـةٌ رديئةٌ حملَها إلى الخلاءِ أو صرفَها بعد المغرب[٢].

وإذا نظـرتَ إلـى العلمـاء رأيتَهـم مع العـاداتِ في مرتبـةِ الرئاسـة، وهيبةِ النُّظـراء، فالفقهاءُ قد وضعـوا أوضاعًا في الجدلِ يختصمُـون عليها ويتباهَون بالعليةِ فيها، والحديثُ الذي تُبنى عليهِ المسألةُ لا يعرفُونه.

والمُحدِّثُـون همُّهـم عُلُوُّ السـند لا فهْـمُ الحديث، والغِيبـةُ عِندهم تخرجُ عندهـم بعُـذرِ الجـرحِ والتعديـل، والقُصّاصُ مع مـا أحدثوا من إنشـادِ الغزلِ والهذيـانِ الفـارغ، والصوفيةُ مـع ترقيعِ الخِـرَقِ والتواجُدِ والرقـصِ، ومِن أيِّ مُطبَقٍ جاءهم شيءٌ أخذوه وقالوا: هذا فتوحٌ، فلو قيل لهم: إنّ أبا بكرٍ الصديقَ قاءَ مِن أكلِ شُبهة[٣]، لقالوا: لا ندري ما هذا، نحنُ قد بُعِثَ إلينا رِزقُنا على يدِ مَن كان، فقد أنالهم طلبُ الراحةِ إلى كُلِّ تأويلٍ باطل.

وإن تأمَّلـتَ النسـاءَ رأيتهـنَّ مُضيِّعـاتٍ لحـقِّ الزوج، مُفسِـداتٍ فـي بيته، مُفرِّطاتٍ في حقِّ الحقِّ.

---

(١) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية (١٦: ١٥٣).

(٢) يقصد أن منهم من إذا حلّ ظلام الليل سهل عليه أن يخدع الناس ببيع السلعة الرديئة.

(٣) أخرجه بمعناه البخاري (٣٨٤٢).

وشرحُ هذا يطول، لكنَّ جُملتَهُ أنّ الشريعةَ قد أُعرِضَ عنها، وكأنّها عِندهم في مثابةِ شيخٍ قد كبِر، يستشيرُونهُ عند النوازل، فإن أشار بمقصودِهم، وإلا قالوا: هذا خَرَفٌ!

فأين طريقُ السلفِ الصالح؟! عفَت وعفَت آثارُها، وتغيَّرت، نسأل الله العظيمَ أن يُوفِّقَنا لسلوكِ سبيلِ السلف، واتباعِ مَن مضى مِن المُحقِّقين وسلَف، وأن يُعيذَنا مِن مُزاحمةِ هذا الخَلَف، وأن يحفظَنا مِن الزيغِ والميلِ والحيفِ، فإنّه إذا جاد لَطَفَ وإن عاد عَطَفَ.

٢٠٢- فَصْلٌ

عظيم مما تعمُّ به البلوى [مُعاشرة الزوجات]

اعلم أنّ الآدميَّ مجبولٌ على حُبِّ الهوى والشهواتِ واللذّات، وأعلى درجاتِ اللذّةِ الحِسّيةِ النكاحُ، وفي هذه الطريقِ مِن المخاطراتِ بالأصل - الذي هو النفسُ - ما لا يُؤمَنُ منه الهلاك، فتارةً تكونُ المخاطرةُ بالنفسِ مِن كثرةِ المباشرة، وكم مِن مُفرطٍ في الباءةِ تَعجَّلَ هلاكَه؛ لأنّ المنيَّ أنفَسُ ذخائرِ النفس، وهو مِن الأُصولِ الحاصلةِ لها، فالمُجامِعُ يُخرِجُ أجودَ ما في البدن، ويُخلِّفُ الرديء، وتارةً تكونُ المخاطرةُ من جهة النساء.

فأما كونُ الباءةِ الكثيرِ سريعَ الإهلاك، فإنّه يَهُدُّ القُوى الأصلية، ويُحِلُّ الحرارةَ الغريزية، وله مضارٌّ كثيرةٌ قد ذكرتُها في كِتابي المُسمّى بـ«لقطِ المنافِع في الطبِّ»، وحكيتُ عن مالكِ بنِ أنسٍ أنّه قال: «إنّما هو نورُ عينَيكَ، ومُخُّ ساقَيكَ»(١).

---

(١) ذكره ابن عبد ربه الأندلسي في طبائع النساء (ص٨٥).

فالمُستكثِرُ مِنَ التزويجِ أو الجَواري باحثٌ عن مُدْيةِ حَتفِه، وزائدٌ في عُقدةِ حَبلِه الذي يختنقُ به؛ لأنّ الجِدّةَ لها أثرٌ عظيمٌ من جهةِ أنّها قهرُ ما لم يُقهَر، وملكُ ما لم يُملَك، ورؤيةُ ما لم يُرَ، وتحصيلُ معنًى لم يُحصَّل. ومِن هذا قيل: لكُلِّ جديدٍ لذّةٌ.

ويزيدُها حُسنًا في العينِ تغطيةُ المقابح، ولِهذا إذ اطُّلعَ على العيوبِ مع تطاوُل[1] الزمانِ بَرَدَ ذلك المطلوبُ في النفس، ووقعَ المَلل، وقد قال الحُكماءُ: «العشقُ العمى عن عُيُوبِ المحبوبِ»[2]، فإذا وقعَ المللُ لهذا الشخصِ العليلِ[3] القليلِ التحريكِ للنفسِ، فطلبَ غيرَه، حرَّك، وبين هذا وهذا يذهبُ جوهرُ النفس.

ومِن أعجبِ ما نُقِل إلينا حالُ الواثقِ بالله: أخبرنا عبدُ الملكِ بنُ أبي القاسمِ الكَرُوخيّ، قال: أخبرنا عبدُ الله بنُ محمدٍ الأنصاريّ، قال أبو يعقوب: قال: أخبرنا أبو العباسِ أحمدُ بنُ محمدِ بنِ الحسينِ الرازيّ، [حدَّثنا أبو الحسينِ أحمدُ بنُ محمدِ بنِ معاويةَ الرازيّ][4]، قال: حدَّثنا بكرُ بنُ عبدِ الله بنِ حبيب، قال: سمعتُ مِسعَرَ بنَ محمدِ بنِ وهبٍ، يُحدِّثُ عن المُتوكِّل، قال: كان الواثقُ يُحِبُّ النساء، وكثرةَ الجِماع، فوُجِّه ذاتَ يومٍ إلى ميخائيلَ الطبيب، فدخلَ عليهِ وهو نائمٌ وعليهِ قطيفةُ خَزٍّ، فوقفَ بين يدَيه، فقال: يا ميخائيل، أبغِنِي دواءَ الباءةِ، فقال: يا أميرَ المؤمنين، بدنَك فلا تَهدِمْه، فإنّ كثرةَ الجماعِ تهدمُ البدن،

---

(١) سقطت من (ف).
(٢) تقدم في الفصل ٢٨.
(٣) سقطت من (ر).
(٤) ما بين المعقوفين زيادة عن المنتظم (١١: ١٨٦)، وانظر القصة بتمامها في: سير السلف الصالحين لإسماعيل الأصفهاني (ص ١٠٦٦).

ولا سيما إذا تكلَّفَ الرجلُ ذلك، فاتَّقِ الله في بدنِكَ، وأبقِ عليكَ، فليس لك مِن بدنِك عِوَضٌ، فقال له: لا بُدَّ مِنه[١]، ثم رفعَ القَطِيفةَ عنه، فإذا بين فَخِذَيهِ وَصِيفةٌ قد ضَمَّها إليه، ذكرَ مِن جمالِها وهيئتِها أمرًا عجيبًا، فقال: مَن يصبرُ عن مثلِ هذه؟!

قال: فإن كان ولا بُدَّ فعليكَ بلحمِ السبُعِ، فاؤمُرْ أن يُؤخذَ لكَ مِنهُ رِطلٌ، فيُغلى سبعَ غَلَياتٍ بخَلِّ خَمرٍ عَتيقٍ، فإذا جلستَ على شرابِكَ أمرتَ أن يُوزنَ لك مِنهُ ثلاثةُ دراهِم، فانتقلتَ بِهِ على شرابِكَ ثلاثَ ليالٍ، فإنّك تجِدُ فيهِ بُغيتَكَ، واتَّقِ الله في نفسِكَ ولا تُسرِفْ، ولا تُجاوِزْ ما أمرتُك به.

فلهى عنهُ أيامًا، فبينا هو ذاتَ ليلةٍ جالسٌ على شرابِه، ذكرَه[٢]، فقال: عليَّ بلحمِ السبُعِ الساعةَ، فأُخرِجَ له سبعٌ مِن الجُبِّ، وذُبِحَ من ساعتِه، فأمَر فكُبِّب له مِنه، ثُمّ أمَرَ فأُغلِيَ له منه بالخَلِّ، ثُمّ بُرِّدَ وأُخِذَ يُنتقَلُ به على شرابِه، وأتتْ عليهِ الأيامُ والليالي، فسقى بطنُه، فجمعَ الأطباء، فأجمعَ رأيُهم على أنّه لا دواءَ له إلا أن يُسجَّرَ له تنُّورٌ بحَطَبِ الزيتونِ حتّى يمتلئَ جَمرًا، فإذا امتلأَ كُسِحَ ما في جوفِه وحُشِيَ جوفُه بالرُّطبة، ويقعدُ فيه ثلاثَ ساعاتٍ مِن النهار، وإنِ استَسقى ماءً[٣] لم يُسقَ، فإذا مضَتْ ثلاثُ ساعاتٍ كوامِلَ أُخرِجَ وأُجلِسَ جِلسةً مُنتصِبًا، فإذا أصابهُ الرَّوحُ وجدَ لذلك وجعًا شديدًا، وطلبَ أن يُرَدَّ إلى التنُّور، فتُرِكَ على حالِه تلك، ولا يُرَدُّ إلى التنُّورِ حتى تمضيَ ساعتانِ من النهار، فإذا مضَتْ ساعتانِ مِن النهارِ جرى ذلك الماءُ وخرجَ مِن مخارجِ البول، وإن سُقِيَ ماءً أو رُدَّ إلى التنُّورِ كان تلفُه فيه.

(١) سقطت من (ق).
(٢) في (ق، ر): «ذكر».
(٣) سقطت من (ق، ر).

فأوقَدوا تنُّورًا وأُجلِسَ فيه، فأقبَلَ يستغيثُ ويصيحُ: أحرقتُموني، اسقُوني ماءً، وقد وُكِّلَ بهِ من يمنعُهُ الماء، ولا يدعُه يقومُ مِن موضِعِه، ولا يتحرَّكُ، فتنفَّطَ بدنُه كُلُّه، وصارت فيه نُفّاخاتٌ مثلُ أكبرِ البِطِّيخ، فتُرِكَ على حالِه حتى مضتْ ثلاثُ ساعاتٍ من النهار، ثُمّ أُخرِجَ وقد كاد يحترقُ، فأجلسهُ المُتطبِّبون، فلمّا وجدَ رَوحَ الهواءِ اشتدَّ بهِ الوجع، وأقبلَ يصيحُ، ويقول: رُدُّوني إلى[1] التنُّور، فإنّي إن[2] لم أُرَدَّ مِتُّ، فاجتمعَ نساؤُه وخواصُّه لمّا رأوا مِن شدةِ الألمِ والوجعِ، فرَجَوا أن يكونَ فرَجُهُ في أن يُرَدَّ إلى التنُّور، فردُّوهُ فسكنَ صياحُه، وتفطَّرتِ النُّفّاخات، وبردَ فأُخرِجَ وقد احترقَ وصار أسودَ كالفحمة، فلم تمضِ ساعةٌ حتّى قضى. فإذا كان هذا مِن جناياتِ إكثارِ الوطءِ وجبَ على العاقلِ اجتنابُه إلا لضرورة.

وأما المخاطرةُ مِن قِبَلِ النساء، فإنّ المرأةَ لها هوًى في الرجال، كما لهم فيها، فقد لا تميلُ إلى الشخص، وقد يكونُ منه ما يُوجبُ نُفورَها، كقبحٍ في الصورة أو شَيبٍ أو ضعفِ قوةٍ وغيرِ ذلك، وقد تكونُ[3] مملوكةً ذاتَ ولدٍ، فتعلمُ أنّه لا خلاصَ لها إلا بهلاكه، ودينُهُنَّ قليل.

وقد كان الحسنُ بنُ عليّ[4] رضي الله عنهما تزوَّجَ نسوةً كثيرةً، يزدن على مئتين، فسَقتْه السُّمَّ إحداهُنّ فمات.

وقد سمِعنا ورأينا مِن هذا الجنسِ كثيرًا. وقد حدَّثنا إبراهيمُ بنُ دينارٍ الفقيهُ، قال[5]: كان عندنا شيخٌ صائغٌ، وله غلامٌ في الدُّكّان يتعلَّم، فنظرتِ

---

(١) سقطت من (ق). (٢) سقطت من (ف).

(٣) من قوله: «منه ما يوجب» إلى هنا سقط من (ف).

(٤) تقدم في الفصل ١٩. (٥) سقطت من (ف).

امرأةُ الصائغِ إلى الغلام[١] فأحبَّته، فطبختْ يومًا طبيخًا، وتركَت فيهِ سُمًّا، فلمّا قدَّمَتهُ لزوجِها طرقَ البابَ رجُلانِ مِن أصدقائه، فأذِن لهما، فلم تنطقِ المرأةُ، فأكلُوا، فأمّا أحدُ الصديقَين فمات من ليلته، وأمّا الآخرُ فمات ـ أظنُّه قال ـ بعد أسبوعٍ، وأمّا الزوجُ فما زال يتقلَّبُ في فنونِ الأمراض، حتّى إنّه قال لها يومًا: وَيلَكِ لعلَّكِ أطعَمتِيني[٢]؟ فقالت: نعم، قال: ولِم؟ قالت: أردتُ أن أستريحَ مِنكَ، ثُمّ إنّه مات، فتزوَّجَت بغُلامِه!

فالعاقلُ مَن نظرَ لنفسِه، واحترزَ مِمّا يجوزُ وقوعُه، وآثرَ السلامةَ على المخاطرة، والعجبُ مِمَّن يُؤثِرُ كثرةَ النساء، وينسى ما تحتوي عليهِ الكثرة؛ إمّا مِن تحريكِه لإذهابِ جوهرِه، وإمّا مِن آفاتِهنَّ، ومِنها شتاتُ قلبِه، ومِنها الاحتياجُ إلى الكسبِ الذي قد[٣] يعزُّ حِلُّه، ومِنها حفظُهنَّ مِن الآفات، وذلك يُكدِّرُ العيش، وبعيدٌ فيهِنَّ الدين، والغَيرانُ لا يُؤثِرُ لذَّتَه على العارِ، ومِنها وُجودُ التغايُرِ عليه، وهو أخوَفُ الأمور، ومِنها الغِيرةُ مِن أفعالِه، فرُبّما أهلكتْه، أو أهلكتْه مِنهُنَّ التي يُعرِضُ عنها، وهُنَّ إن لم يُهلِكن بالسُّمِّ أفسَدن بالسِّحر، ورُبّما تسبَّبتِ التي يُعرِضُ عنها في[٤] قتلِ حبيبتِه، فيكونُ بالقتل، كما قال الشاعر[٥]: [مجزوء الكامل]

مــا أخطَأتْــكَ النّائبــا ... تُ إذا أصابَــتْ مَن تُحِبُّ

ومتى خافَهنَّ احترزَ مِنهنَّ، فعُدِمَ لذّةَ العيشِ في المَطعَم، ثُمّ يتصلُ بهِ

---

(١) في (ق): «الرجل».
(٢) كذا في النسخ بياء بعد التاء، وهي لغة قليلة حكاها سيبويه عن الخليل (٤: ٢٠٠).
(٣) سقطت من (ق، ر). (٤) سقطت من (ف).
(٥) البيت للشريف الرضي في ديوانه (١: ١٧٠).

النِّفارُ الدائم، فإذا صعُبَ عليهِ الجمعُ بينهنَّ ـ وطلَّقَ زوجٌ أو باعَ واشترى[١] ـ ولم يأمنْ، تذكَّر خَلّةً جميلةً من المقصودة ـ والمُؤمِنُ أَلُوفٌ ـ فيتنغَّصُ عيشُه، وإذا جمعَ بينهُنَّ كان أصعبَ وأصعبَ؛ للوجوهِ التي قد[٢] سَبَقَت.

ثُمّ إذا كان الرجلُ ـ مع عُلُوِّهِ في السنِّ وعقلِه ـ لا يقنعُ بالواحدة، فكيف بالصبيّةِ الجاهلةِ التي لا تصلُ نوبتُها إليهِ إلا في الأسبوعِ والأسبوعَين؟ فالعجبُ له؛ كيف لا يقيسُ الأحوال؟!

فإن[٣] قال قائل: فقد صددتَني عمّا طُبِعتُ عليه، فكيف الحيلة؟ فالجواب: أنّي كشفتُ لك الحقَّ، وبيَّنتُ لك الصواب.

واعلم أنّه ما خُلِق للآدميِّ في الدنيا لذّة، وإنّما هي مَعبَر، فاجتهدْ في تحصيلِ امرأةٍ كما ينبغي، واقنعْ بها، أو جاريةٍ، ولا تغترَّ بامرأةٍ تلمحُها فتتزوجَ بها، فإنّي سمعتُ شيخًا كبيرَ السنِّ يقول ـ وقد ذكر النِّساء ـ: «إنّهُنَّ آفاتٌ مُلَفَّفات»، فتفكَّرتُ فيما قاله، فعرفتُه، وذلك أنّ الرجلَ يرى المرأةَ في إزارِها ونقابِها، فيُعجِبُهُ ظاهِرُ ما يرى، ورُبّما كشفتْ عن وجهٍ قبيح، يَعجَبُ الناظر، فلا ينبغي أن يغترَّ بذلك الظاهر، فإنّ مِن التغفيل انتقادَ خَلقٍ أو خُلقٍ مِن مُتصنِّع، وخُصُوصًا المرأةَ إذا خطبَها الرجُلُ أو خرجَت مِن بيتِها، فإنّها تتصنَّعُ[٤] بإظهارِ محاسِنِها، وسترِ معايبِها، ورُبَّ وجهٍ كثيرِ الجُدَريّ، قد أثَّر فيه، لم يتبيَّن للناظر، إمّا لبُعدِه عنه، أو لقِلّةِ تأمُّلِه، أو لأَطْلِيَةٍ قد طُلِيَ بها وغُمِرَ، فإذا مضتْ على الصُّحبةِ مُدَيدةٌ كَشَفَت عن عَوارِ ذلك.

---

(١) يعني إن كان زوجًا طلّق إحداهن، وإن كان سيدًا باع أمةً أو اشترى أمةً غيرها.

(٢) سقطت من (ق، ر).

(٣) سقط «الأحوال فإن» من (ق).

(٤) سقط «وخُصُوصًا المرأة... تتصنع» من (ر).

ورُبَّ فمٍ حسنِ الظاهر لكِنّهُ مع تحقيقِ التأمُّلِ يكونُ واسعًا، أو قبيحَ المُبتسَم، أو مُستبشَعَ الأسنان، أو مكسُورَها، ورُبَّ شَعرٍ يُعجِبُ ظاهِرُهُ وقد يكونُ قصيرًا، أو يكونُ في الرأس حَزَازٌ[١]، أو يكونُ بعضُه أبيضَ، ولا يعلمُ، ورُبَّ صدرٍ حسنِ الظاهر، إلا أنّه كثيرُ السَّعة، أو شديدُ الضيق؛ وكلاهما مُستوحَش، ورُبَّ ثديٍ يُرى كأنّه ناهدٌ ومع التأمُّلِ يكونُ طويلًا أو كبيرًا، ورُبَّ بطنٍ لا يُرى قبحُه إلا مع التأمُّل، ورُبَّ جسدٍ خَشِنٍ أو كثيرِ الشَّعر، ورُبّما كان شَعرُه كالزُّبير[٢]، ورُبَّ أشياءَ لا تُدرَكُ إلا مع المُخالطة؛ كالعَرَقِ المُنتِن، وسعةِ الفَرْج.

فرُبَّ مَعانٍ يقبُحُ الحُسنُ بوُجُودِها؛ كسُوءِ الخُلُق، وقُوّةِ الشَّبَق، وعدمِ الصِّيانة، وسُوءِ الأدب، وقِلّةِ الدينِ أو القناعة، إلى غيرِ ذلك.

ولا تقُولنَّ: فإن لم أرضَها طلَّقتُها، فرُبّما تَعلَقُ بولد، ورُبّما يراها تُحِبُّهُ فتُوجِبُ المروءةُ الصبرَ على ما يكره، فيلقى أذًى شديدًا، ورُبّما سحرتُه وآذته، فينبغي لمن أراد النكاحَ المبالغةُ في البحثِ عنِ الخَلقِ والخُلُق، والاستعانةُ على ذلك بالنساءِ المُباطِناتِ للمرأة، بعد أن يحتالَ هو في النظرِ إليها.

ومَن كان مُتأخِّرًا في طلبِ الكمالِ والتمام، فليس له في[٣] مِثلِ الجواري، إلا أنّي أستحبُّ له أن يشتريَ الجواريَ الصغار، اللواتي قاربنَ المُراهَقة، فإنّ المُراهِقةَ قد يعلَقُ قلبُها بهوى شخصٍ قبلَه، والصغيرةُ لا تعرفُ ذلك.

وليطلُبْ مِنهُنَّ السهلةَ الخدِّ، الصغيرةَ الفم، الحسنةَ الثغر، الجَثلةَ الشعر[٤]، النجلاءَ العين، الفصيحةَ اللسان، الرخيمةَ المَنطق، العظيمةَ الكَفَل، المُمتلئةَ

---

(١) الحزاز: هو ما يتعلّق بأسفل الشعر مثل النُّخالة من وسخ الرأس.

(٢) يقصد الزبير بن العوام رضي الله عنه وكان كثير الشعر، كما هو عند الحاكم في المستدرك (٥٦١٥).

(٣) سقطت من (ق، ر).

(٤) الجَثلة الشعر: الشعر الكثير المُلتفّ الليّن.

الأسافل، المُمتدّةَ القوام، البسيطةَ الجسمِ، الدقيقةَ الأنامل، التي لا أثرَ لثديها، فإنّ الكبيرةَ الثدي يَبينُ أثرُهُ مِن الصِّغَر.

وقد قيل: لا تكونُ المرأةُ حسناءَ حتّى يَبيَضَّ مِنها أربعة: اللونُ، وبياضُ بياضِ العين، والأسنانُ، والأظفارُ، ويسودَّ مِنها أربعة: شعرُ الرأس، وشعرُ الحاجبَين، وأشفارُ العينَين، وسوادُ سوادِ العين[١]، ويحمرَّ مِنها أربعة: اللِّثتانِ، والشفتانِ، والوَجنتانِ، وثَمّ[٢]، ويتَّسعَ مِنها أربعة: الجبهةُ، والراحتانِ، والوَركانِ، والصدرُ، ويضيقَ مِنها أربعة: خَرقُ الأنف، وخرقُ الأذنَين، ومَشقُّ الفم، وثمَّ، ويضخُمُ[٣] مِنها أربعة: الساقانِ، والوَركانِ، والعَجُزُ، والرَّكَبُ ـ وهو منبتُ العانة ـ. ويقصُرَ منها أربعةٌ[٤]: خُطاها، وطَرفُها، ولسانُها، وذِكرُها.

والفرقُ بين المرأةِ الجميلةِ والمَليحة: أنّ الجميلةَ هي التي تأخُذُ البصرَ على بُعدٍ، فإذا دنَت لم تكُن كذلك، والمليحةَ[٥] التي كُلّما كرّرْتَ فيها بصرَكَ ازدادت حُسنًا، فينبغي أن تُقدَّمَ المليحةُ على الجميلة، والفرقُ يقعُ بالقربِ والتثبُّتِ.

وذكرَ أعرابيٌّ امرأةً، فقال: «لها[٦] جِلدٌ مِن لُؤلُؤٍ، مع رائحةِ المِسك، وفي كُلِّ عُضوٍ مِنها شمسٌ طالعةٌ»[٧]، ووصفَ آخرُ امرأةً، فقال: «وجهُها عذرُ العاشق».

---

(١) سقط «وسواد سواد العين» من (ر). (٢) ثَمّ: كناية عن الفَرج.

(٣) في النسختين (ر، ق): «ويطول»، وهو تحريف ظاهر، والتصويب عن ذم الهوى (ص٦٣٥)، والنص بتمامه هناك.

(٤) من «أربعة» السابقة إلى هنا سقط من (ف). (٥) سقط «أن الجميلة... المليحة» من (ر).

(٦) سقطت من (ر).

(٧) ذكره الجاحظ في المحاسن والأضداد (ص١٩٣).

فمَن وقعَ بامرأةٍ كما ينبغي فليختبرْ عقلَها، فقد قالت هندُ بنتُ المُهلَّب: «ما تحلّى النساءُ بشيءٍ أحسنَ مِن عقلٍ كامِلٍ، تحتهُ أدبٌ باطِنٌ»[١]. ولينظر في دينِها، فإنّ النبيَّ ﷺ قال: «عليكَ بذاتِ الدينِ تربَتْ يداك»[٢].

ويستفيدُ في شِرَى الجواري الصغارِ فوائدَ، مِنها: تربيتُهنَّ على الأدبِ والتستُّرِ، والخصالِ التي يحِبُّها، ومِنها: أنّ التنعُّم بهِنَّ ألذُّ، كما قال بعضُ الشُّعراء: [مخلع البسيط]

أطيَبُ ما نِلتُ في حَياتِي ضَمُّ الجَوارِي المُراهِقاتِ

ومِنها: أنّه يأمنُ حَبَلهُنّ[٣]، فيتمتَّعُ بهِنَّ آمِنًا لذلك، وإن كان وطءُ مَن لم تبلُغْ غيرَ محمُود، فإن أعجبتهُ وإلا باعَها، وإن كانت بالغةً عَزَلَ عنها سنةً، وجرَّبَ أخلاقَها وثقَّفها بالآداب، ونظرَ إلى صبرِها في الغَيرةِ عِند اشتراءِ غيرِها، فإذا حمِدَ أخلاقَها حسُنَ طلبُ الولدِ مِن مِثلِها، وقد قال بعضُ الحُكماء: «البِكرُ لك، والثيِّبُ عليك، وذاتُ الولدِ لا تقربْها»[٤]. وليتخذْ عجوزًا ديِّنة تكونُ مِن قواعدِ بيتِها، وليأمُرْها سِرًّا بملاحظتِها، وتعليمِها الأدبَ والتوقير، ويا بُعدَ دينِ العجائز.

ويقطعُ الأسبابَ المُفسِدةَ لقلبِها؛ مِن مخالطةِ أبناءِ جنسِها، وسدِّ الرَّوازِنِ[٥]، ومنعِ الخروج، فإنّ النساءَ يُفسِدنَ النساء، ويُحدِّثنَهنَّ بالبَخْت، ويذمُمن المشايخَ عِندهُنَّ، ويذكرنَ الكُسوةَ وغيرَها. وليجعلْ تلك العجوزَ

---

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٧٠: ١٩٣) نحوه.

(٢) البخاري (٥٠٩٠)، ومسلم (١٤٦٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) في (ر): «حيلهن».

(٤) ذكره ابن عبد ربه في طبائع النساء (ص٧٢).

(٥) الروازن: جمع روزن، وهو الكُوّة، مُعرَّب. المغرب في ترتيب المعرب (١: ٣٢٩).

واعظةً لها، تُعلِّمُها حقَّ الرجل، وتُعظِّمُ عِندها قليلَ النفقة، وليحذرْ مِن دخولِ مُراهقٍ إلى بيتِه، وإن كان ولدَه.

ومَن وقعَ بجاريةٍ أو امرأةٍ قريبةٍ مِن غرضِه فليرضَ بها، ولا يطلبِ الأعلى، فما إليهِ سبيل، فإن وجد السبيلَ إليه كانت آفاتُه أكثرَ مِن لذّاتِه، ومِنها: أنّ تلك المرأةَ رُبّما أفسدَت عليه، ومِنها: أنْ رُبّما[1] أحسَّت مِن نفسِها بالجمالِ الفائق، فتراعنَت عليه، وطلبَت فضلَ نفقةٍ، ومِنها: أنّها تتعلَّقُ بقلبه تعلُّقًا يُؤذيه، ورُبّما أوجبَ ذلك انبساطَها عليهِ وإدلالَها، فيذهبُ زمانُه في مُداراتِها، والذلِّ لها، والخوفِ عليها، فرُبّما أبغضَتهُ وأحبَّها فهلك، فلو قُضِيَ فراقٌ صعُبَ التسلِّي.

وقد أخبرَنا محمدُ بنُ أبي[2] منصور، قال: أخبرَنا الحُميديُّ، قال: أخبرَنا محمدُ بنُ سلامةَ القُضاعيُّ، قال: أخبرَنا أبو مُسلِمٍ الكاتبُ، قال: أخبرَنا ابنُ دُريدٍ، قال: أخبرَنا عبدُ الرحمن، عن عمِّه، قال: شاوَرَ رجلٌ مِن العربِ رجلًا في التزويج، فقال له[3]: افعَل، وإيّاكَ والجَمالَ الفائق، فإنّه مَرعًى، فقال الرجل: إنّما نهيتَني عمّا أطلبُ، فقال: أوَما سمِعتَ قولَ الشاعر[4]: [البسيط]

ولن تَرَى الدَّهرَ مَرعًى مُونِقًا أبدًا　　إلا وَجَدتَ بِهِ آثارَ مَأكُولِ

فالأولى بالعاقلِ إذا وجد امرأةً كما ينبغي أو جاريةً أن يتمسَّكَ بها، ولا يُغيِّرها، ولا يُؤذيها، خصوصًا إن كان شيخًا، أو ليس بمستحسَنِ الصورة، وإذا وقع بغرضِه، فليحذرْ كثرةَ الدُّنوِّ مِنه، والقربِ إليه، فإنّ كثرةَ المقاربةِ تُوقِعُ على العيوب، فيقعُ الملل، ولا بُدّ مِن التغميضِ عن العيوب.

---

(١) في (ف، ر): «ومنها وربما».
(٢) سقطت من (ف).
(٣) سقطت من (ر).
(٤) للأحنف بن قيس في رسائل الجاحظ بتحقيق هارون (١: ٣٤٤).

ولا ينبغي أن يُؤاكِلَها، ولا أن ينامَ عِندها؛ بل يجتمعُ بها في أحسنِ ساعاتِه وساعاتِها، ثُمّ يقعُ البُعد، فهذا أدوَمُ للصُّحبةِ وأطيَبُ للعيش، وفي الحديث: أنّ امرأةً عارضَت عُمرَ في أمرٍ كان يُدبِّرُه، فقال: «ما لكُنَّ ولِأُمورِ الرِّجال؟! إنّما المرأةُ لُعبةٌ؛ إذا كان للرجُلِ إليها حاجةٌ دعاها»[١]، وقد ذكر المُتنبّي نحو[٢] هذا المعنى[٣]: [الطويل]

وِلِلخَودِ مِنّي ساعةٌ ثُمّ بَينَنا فَلاةٌ إلى غَيرِ اللِّقاءِ تُجابُ

وليعلمِ العاقلُ أنّ المقصودَ مِن الشخصِ حسنُه وحبُّه لا نفسُ الجِماع، فإنّ الجِماعَ يُفسِدُ المحبّة، وقد كان للرشيدِ ثلاثُ جوارٍ يُحِبُّهُنَّ، ويقولُ فيهنّ[٤]: [الكامل]

مَلَكَ الثَّلاثُ الآنساتُ عِنانِي وحَلَلْنَ مِن قَلبِي بكُلِّ مَكانِ

وكان لأبي دُلَفٍ جاريةٌ، وكان يُسمِّيها: صديقتي، ويقول: ملكَتني وهي مِلكُ يدي[٥]. ومثلُ هذا لا يتمُّ إلا أن تكونَ المرأةُ مع حُسنِها عاقلةً، ولا تتبذَّلُ للرجُل، بل لا تحضرُ عندهُ إلا في حالةِ الكمال، وتُدافِعُهُ عنِ الوطء؛ لا على وجهِ العصيان، ويُواقعُها على ذلك إيثارًا لبقاءِ الحُبِّ. قالتِ امرأةٌ مِن القُدماء[٦]: [الرجز]

ما الحُبُّ إلا قُبَلٌ أو غَمزُ كَفٌّ وعَضُدْ
مَن لَم يَكُنْ ذا حُبّهُ فإنّما يَبغِي الوَلَدْ

---

(١) ذكره الأصفهاني في محاضرات الأدباء (٢: ٢٣٨).
(٢) سقطت من (ف).
(٣) ديوان المتنبي (ص٤٧٩).
(٤) الأغاني (١٦: ٣٧٣).
(٥) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (١٤: ٤١٢).
(٦) ذكره الوشاء في الموشى (ص٥٦).

فأمّـا إذا كان شَـبِقًا لا يَصبِر، مِكثـارًا لا يثبُتُ، أو كانت هي خَرقاءَ لا تُبالي على أيِّ حالٍ أتاها؛ لم يصحَّ وجودُ عيشٍ؛ لأنّ المجنونَ والعاقلَ لا يجتمعان، وأطيَبُ العيشِ عيشُ غافلَين[1]، ورُبّما طيَّبتِ الغفلةُ عيشَ أحمقَين.

والعاقلُ لا ينبغي له أن يُضيِّعَ ماءَهُ الذي هو قِوامُ بدنِهِ إلا لأحدِ سببَين: إمّا أن يكثُـرَ اجتماعُـه فيتخفَّفَ مِنه، وعلامةُ التخفُّف أنّه يُعقِبُ خُرُوجُهُ نشـاطًا أو راحةً، وقوةً، وطيبَ نفسٍ، أو أن يطلبَ ولدًا، وهذا هو الأصلُ في خَلقِ الماء.

فإن غلبَه الهوى لمحبوبٍ فليعلمْ أنّ ذلك يُفسِدُ المحبة، ويزيدُ في الأذى؛ لكثـرة مـا يخرجُ منه، فإذا غلبَ فليُبعِدْ ما بين الزمانَين، فأمّا إذا فعله عادةً، فإنّه ينحِتُ أصلَ قُوّتِهِ بأحدِّ مِبرَدٍ، ويبيعُ جوهرَ جسمِه بأرخصِ ثمنٍ، خصوصًا مَن قد جاوزَ الأربعِين.

٢٠٣- فَصْلٌ
[صفات القديم لا تجدَّد]

قال[2] قائل: أسـمَعُك كثيرًا تقول: إنّ الله عز وجل لا تتجدَّدُ له صفة، فما وجهُ قولِه: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ [الأعراف: ٥٤]؟ فقلتُ: إنّما تجدُّدُ الصفاتُ للمُحدَث، فأمّا القديمُ فذاتُه قديمةٌ وصفاتُه.

وبيانُ هذا أنّ المُتجدِّد هو الذي يجوزُ أن يوجدَ، ويجوزُ ألا يوجدَ، وذاتُ الحقِّ وصفاتُه واجبةُ الوجود، وليست من بابِ الجائزات.

ووجـهُ هـذا أنّ المُتجـدِّدَ مُحدَث، ولا حدثَ للصفـات، كما أنّه لا حدثَ للـذّات، فأمّا الاسـتواءُ على العرشِ فمذهبُ السـلفِ إمـرارُهُ كما جاء مِن غيرِ

(١) في (ق، ر): «عاقلين».

(٢) في (ق، ر): «فإن قال».

خوضٍ في معناه، ولا كلامٍ، مع اعتقادِ الكُلِّ أنّه لا يتجدَّدُ لله صفة.

فـإن تفكَّـرتَ في معنى الاسـتواء، قلتُ لـك: إن عقَلتَ المُسـتوِيَ عقَلتَ معنى الاستواء، فإن لم يسعْكَ ما وسِعَهم، واحتجتَ إلى زيادةِ بيان، قلتُ لك: اعلم أنّ هذا عِندَ القومِ حالٌ لا وصف.

وقد شرحَ هذا المعنى أبو الوفاءِ بنُ عقيلٍ بما لا مزيدَ عليه، فقال: ليس كُلُّ مضافٍ إلى الله سُـبحانه وتعالى، بل لنا مضافاتٌ إليه سـبحانه[1]، وهي أفعال، ولنـا إضافـاتٌ إليـه، وهي أحـوالٌ، وقد ضلَّ فـي ذلك طوائفُ مِـن الخائضِين فـي الأصولِ بغيرِ خبرةٍ بالفروق، فجعلوا الـكُلَّ صفاتٍ، فضلُّوا وأضلُّوا، وقد تخوَّفتِ السـالِميّةُ[2] مِن القول بتجدُّدِ الأحوال؛ ظنًّا منهم أنّها صفات، فقالوا: إنّهـا قديمـة، حيثُ ظنُّـوا أنّها صفة، فأوجَبوا على أنفُسِـهم القولَ بقِـدَمِ العالَمِ الذي كفرَت بهِ الفلاسفة.

فأفضـى بالسـالِميّةِ جهلُهـا بالفرقِ بين الحـالِ والصفةِ إلى القـولِ بأنّ الله سُبحانهُ لم يَزَلْ مُبصِرًا وناظرًا إلى الأشياء، ثُمّ صرَّحُوا بمُحالٍ، فقالوا: مُبصِرًا لها قبل كونِها؛ ظنًّا منهم أنّ وصفَنا له بـ«سامع» كوصفِنا له بـ«سميع»، فقالوا: لم يزل[3] بصيرًا مُبصِرًا، سميعًا سامعًا.

والفـرقُ بيـن الحـالِ والصفـة: أنّ الصفـاتِ ذوات، كمـا نقول في الجسـمِ الأسـود: إنّه مجموعُ ذاتَين: الجسـمِ وذاتِ السواد. والأحكامُ كالأحوال، فشِدّةُ

---

(١) سقط «بل لنا مضافات إليه سبحانه» من (ف، ر).

(٢) السـالمية: تنسـب إلى أبي الحسـن أحمد بن محمد بن سـالم البصري، وإلى أبيه، وأشهر السالمية أبو طالب المكي صاحب قوت القلوب. انظر: تاريخ الإسلام (٨: ١٦١).

(٣) سقطت من (ف).

الخمرِ ذات، وحكمُها التنجيسُ والتحريم، فالأحكامُ ليست بذواتٍ ولا صفات، فالمُحدَثُ وصفاتُـه مُحدَثـة، والقديمُ وصفاتُـه قديمة، وجميعُ صفـاتِ القديمِ واجبـة لـه، لم يتجدَّد له شـيءٌ مِنها؛ كعِلمِهِ وقدرتِه وحياتِـه، فأمّا الأحوالُ فمثلُ كونِه سامعًا لأصواتِ المُحدَثين، ومُبصِرًا لذواتِ خلقِه، واستوائه على عرشِه.

ومن التسـمية نَفَـرَتِ المعتزلة، وكثيرٌ مِن المُتكلِّمين؛ ظنًّـا مِنهـم أنّنا نقولُ في الاستواء: إنّه وصفٌ، فقالوا: العرشُ مُحدَث، فكيف يكونُ الباري مُستوِيًا عليه؟ وإنّما هذه الأشياءُ حال؛ لمّا تجدَّدتِ الأصواتُ كان «سامعًا»، ولم يزلْ «سميعًا»، فالاستواءُ على العرشِ حالٌ مِن أحوالِ الله تعالى؛ كـ«سامع».

٢٠٤- فَصْلٌ
[سياسة النفس]

كم أفسـدَت طريقةُ المتصوِّفةِ والمتزهِّدين مِن بدنٍ ودين(١)؟! فإنّ العوامَّ يعتقدُون فيهم ما لا يعتقدُون في العلماء، فإذا تابُوا وصَحِبُوهم أمرُوهم بالتقلُّل واليُبس؛ وضعُفَـت أبدانُهـم، وتغيَّـرت أذهانُهـم، وخرجُوا إلى أمـراضٍ رُبّما أخرجَتهـم إلـى التلَف، وتركُوا واجبات(٢)، وإن كانت لهم عائلةٌ ضاعَت، وإن كانت لأحدِهم زوجةٌ صارت أيِّمًا؛ وهذا كُلُّه خلافُ الشريعة.

فاسـمَعْ مِن عالِـم نصيح، ودعْ قولَ الجهلةِ المُحرِّفين(٣): لا تمنعْ نفسَـك مـا يُصلِحُهـا، وأنـتَ أعلمُ به، ولا تعملْ في تقليلِ غذائهـا الذي لا قِوامَ لها إلا بـه، بـل إن كانت عادتُك الشِّـبَع، فقلِّـلْ بتدريجٍ إلى أن(٤) تقـفَ النفسَ على ما يُصلِحُها، ويحفظُ قُواها.

---

(١) سقطت من (ف).
(٢) في (ق، ر): «أحباب وأحبات».
(٣) في (ق): «المحرمين».
(٤) سقطت من (ف).

وإيّاك أن تغترَّ بما تسمعُه، أنّ فلانًا بقي عِشرين يومًا لا يأكُل! فليس هذا مِن الشرع، وإن سمعتَه عن قوم صالحين، فإنّ اتّباعَ العِلمِ أولى، ورُبّما يكونُ بعضُ الصالحين قد فعلَه لسببٍ أو لمعنًى، وعليكَ بطريقةِ الرسولِ وأصحابِه، وقد قال أحمدُ بنُ حنبل: «كان ابنُ عبّاسٍ يُواصِل، وأنا أكرهُه»[1]. قلتُ: ولعلّهُ لم يبلغْه النهيُ عنِ الوِصال.

فإذا كان الذي يُصلِحُكَ ملذوذًا، فلا تنظرْ إلى لذّتِه، بل إلى منفعتِه، ولا تقولَنَّ: هذا فيهِ لذّة، فلا أتناولُه، إذا كان مِن[2] حِلٍّ نظرًا إلى منفعتِه، واعلم أنّ لذاذتَه تستخرجُ منكَ عبادةً تُسمّى الشكر، لا تخرجُ إلا عِندَ اللذّات.

والآفةُ العظمى أن تتركَ ما ينفعُك ليُقالَ: زاهد، فهذا هو[3] الهلاكُ والشِّرك الأصغر. ثُمّ إنّ الناسَ يتفاوتُون في المطاعِم، فلا آمرُ البدويَّ بتنعُّم الحَضَريّ، بل كُلٌّ يحملُ ما يُطيقُ ويُصلِحُه، والسلام.

وهذا الذي حذَّرتُ مِنهُ كان شأنَ[4] قدماءِ الصوفية؛ فإنّهم كانوا مُعرِضِين عنِ الدنيا بالكُلية، لكن كانت عباداتُهم بغيرِ عِلم، فأمّا اليومَ فليسوا على تلك الطريق، وإنما أيّامُهم أيامُ أكلٍ وشربٍ، وبقّالُ المطبخِ دائر، والحمّامُ مفتوح، والمطاعمُ الشهية، والأغاني الطيبة، والراحةُ الدائمة، ومُعاشرةُ أكابرِ أهلِ الدنيا، والكِبرُ على الضعفاء، فما عِندهم مِن التصوُّفِ إلا القَمِيص.



(١) لم أقف عليه.
(٢) سقطت من (ر).
(٣) في (ف، ر): «زاهد، فهو».
(٤) سقطت من (ق، ر).

٢٠٥- فَصْلٌ

[مناجاة]

صَفَت لي خَلوة، خطرَت لي فيها مناجاة تروَّحتُ بها، قلتُ فيها: إلهي وسيِّدي، إن أتيتُكَ بشفيع يشفعُ لي، لم أقدرْ على أكثرَ مِن إنعامِكَ في حقِّي باستخراجي من أصلابِ الجُهّال، ورَكْزِ حُبِّ العِلمِ في حَبّةِ قلبي، حتّى أنلتَني مِنهُ خيرًا جمًّا، لا بتحريضِ أبٍ ولا بتحريكِ والدة، ثُمّ عَصمتَني في زمانِ الصَّبوةِ عن مخالطةِ أبناءِ جنسي، وألهمتَني في حالةِ البلوغِ واحتدادِ نيرانِ الهوى للزهدِ في الدنيا، ودوامِ الصوم، وقيامِ الليل.

فلمّا ذهبَ رَيعانُ الصِّبا بلمعِه مع نَيلِ المرادِ مِن العلم، أقمتَني أدعُو الناسَ إليك، وأدلُّ الخلقَ عليك، فقد رجعَ - بسببِ موعظتي - إلى بابِكَ ألوفٌ لا أُحصِيهم، فأنا أتوسَّلُ إليكَ بذلكَ الإقبال، وأستجيرُ بكَ مِن ذُلِّ هذا الإعراض.

إلهي - وعِزَّتِكَ - إنّما يُقطَعُ الرجاءُ مِن جهةٍ، فيتعلَّق بأُخرى، ولا مَرجُوَّ سِواك. سيِّدي، بلغَني أنّ بعضَ الشعراءِ مدحَ بعضَ خلقِك، فقال[1]: [الوافر]

أَأَذكُرُ حاجَتِي أَمْ قَد كَفانِي حَياؤُكَ؛ إنّ شِيمَتَكَ الحَياءُ!

وقال آخرُ لآخر[2]: [الكامل]

فاصبِرْ لعادتِنا التي عَوَّدَتنا أو لا فأرشِدْنا إلى مَن نَذهَبُ

وقال بعضُ خلقِك: «إنّي لأستحيي أن يكونَ ذنبٌ لا يبلغُهُ عَفوي، أو جهلٌ لا يسعُهُ حِلمي»[3].

---

(١) لأمية بن أبي الصلت في ديوانه (ص١٧).

(٢) لبكر بن النطاح في طبقات الشعراء لابن المعتز (ص٤٣٥).

(٣) ذكره أبو منصور الثعالبي في التمثيل والمحاضرة (ص١٣٣).

وبلغنـي أنّ رَجُـلًا زَوَّرَ على ابنِ معروفٍ القاضـي إلى بعضِ الوزراءِ على رأسِ قصة له شفاعةً فيه، فدخلَ ابنُ معروفٍ على الوزير، والرجلُ قائمٌ والقصةُ بيـن يـدَيِ الوزير، فتلمَّحَ القاضي على رأسِ القصـةِ ما قد كتبَ الرجلُ عنه[1]، فأُسقِطَ في يدِ الرجُل، فقال القاضي للوزير: إنّ حقَّ هذا الشخصِ عليَّ أوجبَ أن سـعيتُ بعد كتابتي للشـفاعةِ فيه، فأنعمَ الوزيرُ عليه، وولّاه، وتركَ القاضي شُـغلَهُ الـذي جـاء فيه؛ توفيرًا لشُـغلِ ذلك الشـخص، فلمّا خرجَ قـال القاضي للرجُل: ما كُنّا بالذي نُخيِّبُ من علَّقَ رجاءَهُ بنا[2].

فيا إلهي وسيِّدي، أنتَ خلقتَ تلك الأرواح، وأنتَ أكرمُ وأرحمُ وألطف، ومـا لي إليك وسـيلةٌ سِـوى إنعامِـكَ عليَّ ولُطفِكَ بـي، فبلُطفِـكَ لا تحرِمْنيه، وبِجُودِكَ لا تقطعْنيه، واكشفْ كَربي، فقد مسَّني الضُّرُّ، وأنتَ أرحمُ الراحِمين.

[الخفيف]

لم تَدَعْ لي الذُّنُوبُ عِندَكَ عُذرًا ... طالَما قَد قَبِلتَ عُـذرِيَ دَهـرا
فاعـفُ عَنّي بلا اعتِـذارٍ فإنّي ... بالخَطـايـا أُقِـرُّ سِـرًّا وجَهرا
قِسْ عِقابِي إلى اغتِفارِك وانظُرْ: ... أيُّ هــذا وذاكَ بالعَفوِ أحرى؟
بَيـنَ ذُلِّـي وبَيـنَ عِـزِّكَ بَونٌ ... يَقتَضي لِي مِنَ التَّجاوُزِ شَطرا
ثُمّ إنْ لَم تَصِلْ فعاقِبْ بما شِئـ ... ـتَ ولا تَجعَلِ العُقُوبَةَ هَجرا



(١) سقطت من (ق، ر).
(٢) ذكرها ابن رجب في اللطائف (ص٥٦).

٢٠٦- فَصْلٌ
[قبل فواتِ الأوان]

إنّما أُرسِلَتِ النُّذُرُ لتُنبِّهَ قبلَ هُجُومِ المحذُور، وقد جُعِلَت مبادئُ الضعفِ نذيرًا للموت، فالعاقلُ مَنِ انتبهَ لنفسِهِ إذا جاءتِ الكُهولة، فإنّه زمانُ نُقصانِ القُوَّتَين: الشهوانيّة والغضبيّة، ومَن ضعُفَ عدُوُّهُ فتِلكَ غنيمةٌ ينبغي مبادرتُها، وزمانُ الغنيمةِ التامّةِ حينئذ؛ لأنّ قوةَ الشبابِ قد ذهبَت، وقوةَ الكهولةِ قويّةٌ لضعفِ المُضادّ، فهي كساعاتِ الصحوِ مِن سُكرِ الشباب، وينبغي للصاحي أن يتلافى في[1] زمانِ صحوِهِ ما فرَّطَ فيهِ أيامَ سُكرِه.

وفي حالِ الكُهُولةِ يحسُنُ الندمُ على الماضي، ويصحُّ الاستدراكُ للماضي[2]، فأمّا في الشيخوخةِ فإنّه إنما يقعُ الندمُ فحسب؛ لضعفِ الآرابِ عن الاستدراك. وأعلى مِن هذه المرتبةِ مَن قهرَ هواهُ في حالِ الشباب، فتلك مرتبةٌ عالية، ويليها تداركُ الكهولة، فأمّا الشيوخُ فالمُشاةُ الضعفاء. نسألُ الله عز وجل يقظةً تامّةً وتدارُكًا كاملًا؛ إنّه قادرٌ برحمتِه.

٢٠٧- فَصْلٌ[3]
[تفاوُت الهمم]

مَن خُلِقَ عاليَ الهمّة كان عيشُه دائمَ النغصة؛ لأنّ العقلَ الكاملَ لا يدعُ للجسمِ راحة، كما قال الرضيّ[4]: [الكامل]

ولِكُلِّ جِسمٍ في النُّحُولِ بَلِيّةٌ   وبَلاءُ جِسمي مِن تَفاوُتِ هِمَّتي

(١) سقطت من (ق).
(٢) سقط «ويصح الاستدراك للماضي» من (ف).
(٣) سقطت من (ق، ر).
(٤) تقدم في الفصل ١٦٩.

وسببُ هذا أنّ إشرافَ العقلِ على العواقب، ونظرَه إلى الفضائلِ، يَكُدُّ البدنَ بين طلبِ الأفضلِ وبين الحذرِ من نقصٍ أو عيب، وإنّما تقعُ الراحةُ من بابِ الغفلة، ولا غفلةَ لكاملِ العقل، فلا جَرَمَ ترى أبدانَهم نَحِيلةً، ووجوهَهم مُتغيِّرةً، وبكاؤهم دائم، فهم يُبادِرُون اللحظات، ويُثابرُون على الفضائل، فهم يطلبُون غايةَ العلم، وغايةَ العمل، فيكُدُّون الأبدان. كما قال المُتنبّي[١]: [الخفيف]

وإذا كانَتِ النُّفُوسُ كِبارًا تَعِبَت في مُرادِها الأجسامُ

وهؤلاء القومُ[٢] لا يصلُحُ لأحدٍ مخالطتُهم، إلا أن يكونَ مِن جنسِهم، ثُمّ بعد هذا فإنّ الأولى بهم أن يعدِلُوا ما عِندهم من القلقِ[٣] بما يُوجِبُ نوعَ سكون، ومِن الخوفِ بما يُوجِبُ نوعَ رجاء، وليلطُفوا بأنفسِهم في أن يُفسِحوا لها في بعضِ المباحات، وقد كان النبيُّ ﷺ يمزحُ، ويُكثِرُ النكاح، ويُسابِقُ عائشة[٤]؛ وكلُّ ذلك ليعدِلَ ما عندَه من شِدّةِ الجِدِّ.

ورُبّما رأى منهم هذا بعضُ الجُهّال، فقال: هؤُلاءِ أهلُ جِدٍّ، فما بالُهم يتفسَّحون؟! ولا يدري أنّ الأشياءَ إنّما تُعادَلُ بأضدادِها، فهو لجهلِه أحوَجُ الناسِ إلى ذكرِ الموت، وهم أحوَجُ الناسِ إلى نسيانه؛ لأنّه حاضرٌ بين أعينِهم أبدًا، فقد نغَّصَ عليهم[٥] عيشَ الدنيا، وقد قال بعضُ الحُكماء: «ينبغي للعالِمِ أن يتركَ الفكرَ وقتًا ما؛ لئلّا يُنهِكَ بدنَه بشِدَّةِ الفِكرِ».



---

(١) للمتنبي في ديوانه (ص٢٦١).
(٢) سقطت من (ف).
(٣) سقط «من القلق» من (ق، ر).
(٤) تقدم في الفصل ٩٦.
(٥) سقطت من (ق).

٢٠٨- فَصْلٌ

[الأمزِجة الصحيحة]

قد ظنَّ أقوامٌ أنّ الزهدَ يترقّى بصاحبِه إلى تغييرِ طباعِه، واحتجُّوا بقولِ عيسى بنِ مريمَ عليه السلام في الذهبِ والحجر: «هُما عِندي سواءٌ»(١)، وبقولِ حارثةَ: «استوى عِندي حَجَرُها ومَدَرُها»(٢)، ويقول إبراهيمُ بنُ أدهمَ: «لا أشتهي الشهواتِ»(٣)، ويقول بعضُهم: «ليس بصادقٍ في حُبِّهِ مَن لم يتلذَّذ بصبرِه»(٤).

واعلم أنّ الأمرَ على غيرِ ما وقعَ لهم، فإنّ الله عز وجل ركَّبَ(٥) الأمزجةَ الصحيحةَ مشتاقةً إلى ما يشتهيه الآدميُّ، بكُرهِه مما حلَّ في طباعِها من حُبٍّ وكراهة، فإذا ادَّعى مُدَّعٍ بغير طبعِه لم يخلُ مِن حالَين: إمّا أن يكونَ كذّابًا، أو يكونَ قد حدثَت به آفةٌ، كما قال عُمرُ بنُ الخطّابِ لرجُل(٦): «ما يمنعُك مِن النكاحِ إلا عجزٌ أو فجور!»(٧).

وإنّما أراد عيسى بنُ مريم أنّ الذهبَ والحَجَرَ عندي سواءٌ في أداء الحقوق، وفي الإعراضِ عنهما على سبيلِ الزهد، فأمّا أن يكونا سواءً من حيثُ الطبعُ فلا، فإنّ ذلك عاهةٌ لا يُتمدَّحُ به. وكذلك قولُ حارثة، وكذلك قولُ إبراهيمَ بنِ

(١) ذكره أبو طالب المكي في قوت القلوب (١: ٤٣٨).
(٢) رواه البزار في مسنده (٦٩٤٨)، وضعَّفه العقيلي في الضعفاء (٤: ٤٥٥).
(٣) تقدم في الفصل ١٨١.
(٤) ذكره جعفر السراج في مصارع العشاق (١: ٢٧١).
(٥) سقطت من (ر).
(٦) سقطت من (ف).
(٧) رواه عبد الرزاق في مصنفه (١١٢٢٨).

أدهم: «لا أشتهي»؛ لأنّه لمّا علِمَ أنّه مسؤولٌ عن كسبِ ذلك، وأنّه مُعوِّقٌ له عن الفضائل؛ لم يشتَهِه؛ مِن جهةِ الدين، لا من جهةِ الطبع.

وأمّا مَن تلذَّذَ بالألم - كما قال عبدُ الصمد، وقد قصدَهُ رجُلٌ يومَ عيدٍ بمالٍ، فقال له: «بالله عليكَ دعني أتلذَّذ بفقري»[١] - فإنّه لا يعني من جهةِ الطبع؛ إذ الطبعُ يكرهُ الفقر، وإنّما يعني من جهةِ الإيمان؛ لعِلمِهِ بفضلِ العاقبة.

ويُحقِّقُ ما قُلنا: أنّ يعقوبَ عليه السلام تألَّمَ لفقدِ يُوسُفَ، وبكى، وقال: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾[٢] [يوسف: ٨٤]، وأيوبَ قال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، ونبيُّنا عليه السلام يقولُ: «إنّ العينَ لتدمعُ»[٣]، وقال عند النَّزع: «وا كرباهُ»[٤]، فتأثيرُ الأشياءِ في الطباعِ لا يُنكَر[٥]، وإنّما يتلمَّحُ أقوامٌ عواقبَ الأمورِ كُلَّها، كما يتلمَّحُ المسافرُ الأرباحَ، فينسى تعبَ السفر، ويتلمَّحُ المريضُ العافيةَ في شربِ الدواءِ المُرِّ، فيفرحُ بذلك؛ لما يرجُو، وإن كانت مُعاناةُ الألمِ لا تُنكَرُ. فافهم هذا، ولا تغترَّ بأقوامٍ شطحُوا في الدعاوى، فلو مسَّت أحدَهم قَرصةٌ لاستغاث، وما أهونَ القولَ وما أصعبَ العملَ!

٢٠٩- فَصْلٌ
يتضمَّن نصيحةً لأصحابنا

اعلمُوا - وفَّقكُم الله - أنّكم أصحابُ نقل، وأصحابُ اتِّباع، وإمامُكُم الأكبرُ أحمدُ بنُ حنبل كان هذا شأنَه، فقال[٦] - وهو تحتَ السياطِ -: «كيف أقولُ ما لم

---

(١) ذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة (١: ٥٥٤). (٢) في (ر): ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ﴾ فقط.

(٣) البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٤) تقدم في الفصل ١١٧ مع التعقيب بأن اللفظ لفاطمة رضي الله عنها لا للنبي ﷺ.

(٥) سقط «لا تنكر» من (ر). (٦) سقطت من (ق).

يُقَلْ؟!»[١] وقال بعضُ أصحابه: «لا تُفتِ في مسـألةٍ لم يتقدَّمْكَ فيها إمام»[٢]. وكان يُقـدِّمُ الحديـثَ الضعيفَ على القيـاس؛ كلُّ ذلك إيثارًا للنقـلِ والاتِّباع، ونهى أن يُقال: «لفظي بالقرآنِ غيرُ مخلوق»[٣].

فـإذا ثبـتَ أن الاتباعَ كان شـعارًا له، فإيّاكُم أن تبتدِعُـوا في مذهبه ما ليس مِنـه، فهـل تكلَّم قطُّ في التلاوةِ والمتلُـوِّ، والقراءةَ والمقـروء، وبلغَكُم عنه أنّه قـال: «الاسـتواءُ مِن صفاتِ الـذات، أو مِن صِفاتِ الفعـل»؟ فمِن أين أقدمتُم حتّى تكلَّمتُم بهذه الأشـياء؟! وقال بعضُكم: ينـزلُ بذاتِه، وقال آخر: ينتقلُ إذا نـزل، وقـال آخرُ: يتحرَّك، وقال آخرُ: يُوصَفُ بيدٍ زائدةٍ على الذاتِ. وهذا كلُّه ابتداع، وهو أقبحُ الأشياءِ مِمَّن يُنكِرُ البدعة.

ثُـمّ قُلتُم في الأحاديث: تُمَرُّ على ظاهرِهـا؛ وظاهرُ القدمِ الجارحة، وهذا قبيـح، وإنّمـا ينبغـي أن يُقـال: تُمَرُّ كما جـاءت؛ أي: تُقرَأ ولا يُقالُ فيها شـيءٌ، فافهـم فـرقَ ما بيـن الكلمتَين. وهـل هلكتِ النصـارى إلا بالأخـذِ بالظاهر؟! فإنّهـم لمّـا قيل لهـم في عيسـى: «رُوحُ الله»؛ اعتقـدوا أنّ لله صفـةً، هي رُوح، وَلَجَت في مريم.

فينبغي لمن يتَّبعُ طريقَ السـلفِ أن يُمِرَّ الأحاديثَ على ما جاءت من غيرِ تفسـيرٍ ولا تأويل، ولا يَفهَمَ مِنها ما فُهِم مِن الحِسِّـيّات. فأمّا مَن قال: «استوى علـى العَـرشِ بذاتِـه»، أو «ينتقـلُ فـي نزولِه»، فقـد أجـراهُ مُجرى الحِسِّـيّات، تعالى الله عز وجل عن ذلك، وما جاءت هذه المَفسَدةُ إلا مِن قِبَلِ الزيادةِ على

---

(١) ذكره ابن أبي يعلى في طبقات الحنابلة (١: ٧).

(٢) ذكره ابن حامد الحنبلي في تهذيب الأجوبة (ص١٧).

(٣) تقدم في الفصل ٦١.

النقل، والقولِ بمقتضى الحِسّ، وإلا فمَن قرأ الآيةَ والحديثَ وسكتَ سَلِمَ.

وينبغي ألا يُهمِلَ ما به ثبتَ العقلُ - وهو الأصل - فإنّا بالعقل عرَفنا الخالِقَ، وحكَمنا فيهِ بالقِدَم، وعلى غيرِه بالحدَث، فاصرِفُوا بالعقلِ عنه ما لا يليقُ به، مِن تشبيهٍ أو تجسيم، وأَمِرُّوا الآياتِ والأحاديثَ كما جاءت، مِن غيرِ زيادةٍ ولا نقصانٍ، وقد سَلِمتُم.

ولا تُدخِلُوا في مذهبِ هذا الرجلِ الصالحِ السَّلفيِّ[1] ما ليس مِنه، ولا تُقوِّلُوهُ ما لم يقُل، فلقد كسيتُم هذا المذهبَ شيئًا قبيحًا، حتّى صار لا يُقالُ عن حنبليٍّ إلا: «مُجسّم»، ولو وقفتُم على ما وقَف عليهِ صاحبُ المذهب، لم يتطرَّقْ على المذهبِ شَينٌ.

ثُمّ رتَّبتُم مذهبَكُم بالمعصية لـ«يزيدَ»[2]، وقد عرفتُم مِن صاحبِ المذهبِ جوازَ لعنِه، ولكن خالِفْ تُعرَف[3]. نسألُ الله لنا ولكُم الإصلاح؛ فلقد كثُر فسادُكم.

٢١٠- فَصْلٌ
[منزلةُ التسليم]

قد ثبتَ عند العقولِ النيِّرةِ عظمةُ الخالق، وأنّه المالكُ القادر، فينبغي مع عِلمِها ذلك أن تذِلَّ لقضائه وقدَرِه، غيرَ مُتعرِّضةٍ ولا مُتسخِّطةٍ؛ لأنّ المالكَ يفعلُ في ملكهِ ما يشاء، فإذا نزل المرضُ والنكبةُ أو الموتُ وجبَ على العاقلِ

(١) سقط من (ر).

(٢) يزيد: هو يزيد بن معاوية، وجواز لعنه عن الإمام أحمد في منهاج السنة النبوية (٤: ٥٦٥).

(٣) في (ر): «بعرف».

تسليمُ الأمرِ إلى المالكِ بمُقتضى عِلمِهِ بمُلكِه، وما تسخَّطَ قضاءَهُ مَن عرَفهُ قطُّ. ألا تراهُ يقول لنبيِّه ﷺ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]؟! أتُراهُ يجعلُ شرطَ الإيمانِ زوالَ الحرجِ من قضايا[1] رسولِه، ولا يُريدُ زوالَ الحرجِ في قضاياه وأقدارِه؟! كلّا واللهِ، لا يتحقَّقُ الإيمانُ إلا بالرِّضا بالقضاء؛ لعِلمِ المَقضيِّ عليه أنّه مالكٌ يفعلُ ما يشاء.

وإنّ شهادةَ العقولِ له بذلك تُوجِبُ تسليمَ الأمرِ إليه، ولو قطعَ وأهلَكَ، ولم يَعِدْ، ولم يُجازِ، ولم يُثِبْ. فلو قال[2]: إنّي أبتليكُم، وأحملُ الأثقالَ عليكُم، ثُمّ أُميتُكُم، ولا أبعثُكُم؛ لكان ينبغي للعقول أن تقول: لا اعتراضَ عليكَ في مُلكِكَ، ثُمّ إنّ عِلمي بعظمتِك وقدرتِك[3] تُوجِبُ ذُلّي لك وانقيادي لأمرك.

وقد رُوِيَ أنّه يقولُ لمَلَكِ الموتِ يومَ القيامة: مُتْ، ثم لا تحيا أبدًا[4]، وأنّ مُطيعي الجنِّ يصيرون ترابًا[5]، وأنّه إذا أعاد البهائمَ لإظهارِ قدرتِه، قال: كُوني ترابًا، فتكون[6]، فلو أنّه فعل هذا بابنِ آدمَ لكان ينبغي له أن يُسلِّمَ لأمرِه، ويحقِّقَ طاعتَه؛ لأنّه أهلٌ أن يُطاع؛ إما لكونه مالكًا، أو لكونه قادرًا عظيمًا، قد أدهشَتْ قدرتُه العقول، فهي تَحمِلُ الأبدانَ على الذُّلِّ له والانقيادِ لمرضاتِه.

فكيف ولم يفعلْ هذا؟ بل وعدَ بالنعيم مِن ساعةِ الموت، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ

---

(١) سقطت من (ق).
(٢) سقط «فلو قال» من (ر).
(٣) سقطت من (ف).
(٤) رواه إسحاق بن راهويه في مسنده (١٠) بمعناه، وهو ضعيف.
(٥) مجموع الفتاوى (٤: ٢٣٤).
(٦) رواه عبد الرزاق في تفسيره (٧٨٦) موقوفًا بمعناه.

تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ﴾ [النحل: ٣٢]، ثُمّ وعدَ بحُسنِ المصيرِ بعد الموت، فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۢ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، وقال نبيُّنا ﷺ: «نَسمَةُ المُؤمنِ طيرٌ تَعلُقُ من شجرِ الجنّة»[1]؛ أي: تأكُلُ، وقال: «القبرُ روضةٌ مِن رياضِ الجنةِ أو حُفرةٌ مِن حُفَرِ النارِ»[2].

ثُمّ وعدَ بنجاةِ المؤمنِ من الكربِ في شدائدِ القيامة، فقال: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥]، وقال[3] نبيُّه عليه الصلاة والسلام: «القيامةُ نزهةُ المؤمن»[4]، ثُمّ أظهرَ حِشمةَ المُتَّقي عند بروزِ النار، فهي تُناديه: «جُزْ يا مُؤمِنُ، فقد أطفأ نورُكَ لَهَبي»[5]، ثُمّ وعدَهُ كُلَّ ما تقَرُّ بهِ عينُه، حتّى إلحاقَ ذُرّيتِهِ به، فقال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١].

ثُمّ ذكرَ ما أعدَّ له في الجنة، فأكثرَ مِن ذلك في القرآن، وجمعَ الكلَّ في قوله: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١]، وقال على لسانِ نبيِّه عليه السلام: «يقولُ الله تعالى: أعددتُ لِعبادي الصالِحين ما لا عينٌ رأت، ولا أُذُنٌ سمِعت، ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ»[6].

ثُمّ الخلودُ الدائمُ في جِواره، والوعدُ الكريمُ برؤيتِه ولقائه، ونَيلُ الأغراض، وما لم يخطرْ على القلوبِ مِن حُسنِ عطائه، فوجوبُ طاعتِه، وامتثالُ أمرِه

---

(١) رواه مالك في الموطأ رواية يحيى (٤٩).

(٢) تقدم في الفصل ٢٠٠.

(٣) زاد في (ف): «على لسان».

(٤) لا أصل له.

(٥) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١: ٥٧٨) وقال: تفرَّد به سليم بن منصور، وهو منكر.

(٦) البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤).

ـ ولو لم يُعِدْ بعدَ الموتِ ـ حقٌّ لازمٌ في العقول لموضعِ مُلكِه، والإعادة، وهذا الخيـرُ كُلُّه مع خُلودِ الأبد استرجاعٌ[1] من فضلِه.

فالويلُ لمَن لم يعِشْ معهُ، ولم يمتثلْ أمرهُ، ولم يعلمْ قدرَ نِعَمِه، والخسرانُ العظيمُ لمَن آثرَ خلافَه، وتجافى عن طاعتِه، فلو لم يكُن في مخالفتِه إلا[2] تعثيرُ الأقدامِ في الدنيا، فكيف والعقوبةُ الدائمةُ لمخالفتِه، وأعظمُها إعراضُه؟! نسألُ الله عز وجل أن يجعلَنا مِمَّن أقبلَ إليه، وقبِلَ منه، ولم يُعرِضْ عنه، ولم يعترضْ عليه؛ إنّه قريبٌ مُجيب.

٢١١ـ فَصْلٌ
[موتى في حياتهم]

وا عجبًا مِن عقلٍ يقوى حتّى يبلُغَ إلى مرتبةِ إثباتِ الإلـه، وإصلاحِ أمرِ الدنيا، وحفظِ البدن، والاحتيالِ في المعاشِ بصنُوفِ التصرُّف، ثُمّ يقهرُهُ الهوى، فيقفُ مع أخسِّ النقائص!

وا أسفًا لجوهرٍ بِيعَ[3] بغيرِ ثمن، يدخُلُ إلى هذا الكون، ويُجلِّي عليك عرائسَ الموجودات، ويَعرِضُ الأرباح، ويُحرِّكُ للخدمة، ويُقرِّبُ إلى بابِ المَلِك، فيصيرُ مَيلُكَ إلى الهوى كالساهي كأنّكَ لا تدري ما قيل لك[4]، فتخرُجُ أقبحَ حالًا مِمّا دخلتَ.

أتُرى لو عرَفتِ الجبالُ ما عرَفتَ؟ أما تَدَكدَكَت[5]؟ أتُرى لو أُعِدَّت النارُ للحديد ما ذاب؟ أُفٌّ لمَن لا[6] يأنَفُ من سَبقِ حيوانٍ بهيمٍ له بالتأدُّبِ، يمضي

(١) في (ف): «استرجاح».
(٢) سقطت من (ر).
(٣) سقطت من (ق).
(٤) سقطت من (ر).
(٥) تدكدكت الجبال: تهدَّمت.
(٦) سقطت من (ق، ر).

النهارُ وهمَّتُكَ جمعُ الحُطام، ويذهبُ الليلُ على جَفنِك في المنام، وغايةُ أمرِك قضاءُ وَطَرٍ مِن شهوةٍ تحلُّ مصحفَ[١] بدنِك. أما لك مع قُوّامِ الليلِ بِضاعة، ولا لكَ مع الصُّوّامِ تجارة، ولا في أهلِ المعرفةِ نصيبٌ؟!

وا حسرتا على ميِّتٍ وهو حيٌّ، وعلى دَفِينٍ وهو يمشي على وجهِ الأرض، وعلى جمادٍ يتحرَّك!

٢١٢- فَصْلٌ
[جهالة الزُّهّاد والقُصّاص]

طريقتانِ بُنِيتا على جُرُفٍ هارٍ: الزُّهدُ، والقَصصُ.

فترى الزُّهّادَ - لِقلّةِ عِلمِهم - يبنون أُمورَهم على الأحاديثِ الضِّعافِ والكذبِ، والتي لا أصلَ لها، فرُبّما رأيتَ الزاهِدَ لا يزيدُ على جُبّةِ صُوف[٢]، ويبني على حديثٍ يُروى: «مَن تركَ ثِيابًا حِسانًا خيَّرهُ الله مِن الحُورِ العين»[٣]، وهذا حديثٌ لا يثبُتُ، فلو بلغهُ أنّ النبيَّ ﷺ لبسَ حُلّةً اشتُريت له بسبعةٍ وعشرين بعيرًا، وأنّ تميمًا الداريَّ اشترى حُلّةً بألفِ دِرهم[٤] كان يُصلِّي فيها بالليلِ؛ لقَصُرَ عن هذا.

ورُبّما قال: فقد لبسَ عُمرُ إزارًا فيهِ ثنتا عشرةَ رُقعةً[٥]، وكان عليٌّ يلبَسُ الثوبَ الدُّون، ويقولُ: هو أجدرُ أن يقتديَ بي المرءُ المسلم[٦].

---

(١) سقطت من (ف).
(٢) سقطت من (ق).
(٣) رواه الترمذي (٢٤٨١)، وقال فيه: «حتى يخيِّره من أي حُلَل الإيمان شاء يلبسها»، وانظر: العلل المتناهية في الأحاديث الواهية لابن الجوزي (١١٢٩).
(٤) تقدم وما قبله في الفصل ١٩.
(٥) رواه أحمد في الزهد (٦٥٨).
(٦) رواه البغوي في مسند ابن الجعد (٢١٤٧).

فهذا لا يُنكَر، غيرَ أنّ القومَ فعلُوا هذا في بعض الأوقات، وكان هذا عادةً لهُم، لا يستمرون بها، ولا تعجِزُ أبدانُهم عن حملِها؛ لكونِها عادةً؛ لا أنّهم قصدُوا ما يقصدُه المتزهّد من لُبسِ ثوبٍ يصيرُ بهِ شهرةً، ويعجِزُ بدنُه عن حملِه، ولا أُنكِرُ القنوعَ باليسير، وإنّما أنهى عن شهرةٍ، أو حملٍ على النفس ما تعجِزُ عنه.

ورُبّما رأيتَ الزاهِدَ لا يأكلُ تفاحةً، ويقولُ: الدنيا مذمومة، فيحملُ على نفسِه ما تعجِزُ عنه، ويَحرِمُها قُواها، وقد كان رسولُ الله ﷺ يأكلُ الحلوى والعسلَ والدجاجَ وغيرَ ذلك[1].

وقد كان جماعةٌ مِمَّن يُتبرَّكُ بهم مِن الزُّهّادِ يحملون على أنفسِهم فوقَ الطاقة، كما رَوَينا عن فلانٍ أنّه بقيَ أربعين سنةً يشتهي باذنجانَ، فلا يأكلُ، ويقول: تركتُ هذا لله[2]! وعن فلان أنّه بقيَ أربعين سنةً لا يضعُ جنبهُ إلى[3] الأرضِ! وعن فلان أنّه نظر إلى امرأة، فلطمَ عينَ نفسِه فنفرَت[4].

وأشياءُ يُكرَهُ ذِكرُها عن قومٍ ظنُّنا بهم حسنٌ، ولكنَّ الشرعَ لا يُحابى فيه؛ هؤُلاءِ عصاةٌ لله تعالى بمنعِهم نفوسَهم ما يُصلِحُها، والاضطِجاعَ والنومَ وغيرَ ذلك.

ثُمّ قد جُعِلَ في النفسِ ميلٌ إلى ما يُصلِحُها، فتارةً تميلُ إلى الحامض، وتارةً إلى الحلو، فهي أهدى إلى مصالِحِها، فإذا منعَها الإنسانُ ذلك منعَها

---

(١) تقدم في الفصل ١٩.
(٢) رواه المروذي في الورع (٣٣٣) نحوه.
(٣) سقطت من (ف)، والخبر في تالي تلخيص المتشابه للخطيب (٢٨).
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (٥٠). ونفرت العين: هاجت وورمت.

حقَّهـا، وقـد قـال عليه السـلام: «إنّ لنفسِـكَ عليكَ حقًّـا»[١]، وهل سُـمِعَ عن رسـولِ اللهِ ﷺ وأصحابِـه مثـلُ هذا؟! وإنّما قلَّ عِلمُ أقـوام، فظنُّوا أنّ في نفسِ التركِ قُربةً، وإنّما القربةُ بتركِ ما يُشَـكُّ في كَسبِه، أو بما يُخافُ عاقِبتُه، فافهم هذا، ولا تغترَّ بقولِ مُعظَّمٍ في النفسِ مِن الزُّهّاد قلَّ عِلمُه.

والطريقة الثانية: طريقةُ القُصّاص، فإنّهم - لقِلّةِ علمِهم - يروُون الأحاديثَ الموضوعة، ويُفسِدُون بها قلوبَ الناس، ويُزيِّنون أحوالَ الزُّهّاد[٢]، فيُخرجُونها مُخرجَ المدح، فترى العاميَّ يميلُ إلى ذلك، فيفسُدُ عليهِ بدنُهُ ونفسُه.

ورُبّما قالوا: مَنِ اشترى شيئًا إلى شهرٍ فهو طويلُ الأمل! وينسَون أنّ شُعيبًا اسـتأجرَ مُوسـى عشـرَ سِـنين[٣]. ويقولون: مَن قـال: هذا الطعـامُ يضرُّني فقد أشرك[٤]! وينسَون أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «ما زالت أكلةُ خيبرَ تُعاودُني، فالآن حيـن قطعَـت أبهَري»[٥]. ويسـبُّون مَن يجمعُ المال! وينسَـون مـا كان لطلحةَ والزبير[٦].

وشـرحُ هـذا يطـول، إلا أنّـي أقـول: التحقيقُ في هـذا رفضُ فضـولِ العيشِ الشـاغلةِ عـن الطاعة، المُورِثةِ للعُجب، المُؤثِّرةِ في النظرِ والغفلـة، فأمّا حرمانُ النفسِ حُظُوظَها التي بها يكونُ القوام، فليس مِن الشريعةِ في شيء[٧]، وإنّما هي رهبنةٌ سرقَتها طباعُ الزُّهّادِ مِن شريعة[٨] عيسى عليه السلام، وليست من شريعتِنا.

---

(١) تقدم في الفصل ١٩.
(٢) سقطت من (ق، ر).
(٣) رواه الطبري في تفسيره (١٨: ٢٣٤).
(٤) انظر: تلبيس إبليس (٢: ١٠٩٨، ١٠٩٩).
(٥) تقدم في الفصل ٤١.
(٦) رواه محمد بن سعد في الطبقات الكبير (٣: ١٠١، ٢٠٣).
(٧) سقط «في شيء» من (ق).
(٨) سقطت من (ر).

وإذا أردتَ تحقيقَ هذا فتأمَّلْ على الرسول ﷺ، وعلى صحابته، وانظر: هل سمعتَ عنهم بمِثلِ ما ابتدعَته الزُّهّادُ من تقليلِ المطعمِ والاقتصارِ على خَلَقِ الخبزِ من غيرِ أُدمٍ؟ وإنّما حدثَت بِدَعٌ.

فإن قُلتَ: فقد كان عُمرُ لا ينخُلُ الدقيق![1] قلتُ لكَ[2]: هذا شيءٌ أَلِفهُ القوم، فلم يُؤثِّرْ عِندهُم، فإن كنتَ أَلِفتَ الصُّوفَ بحيثُ لا يُؤذيك، فما أمنعُك، إنّما أمنعُ مُترَفًا يدخلُ في طريقة التزهُّد، فيحملُ على نفسِه ما لا يُطيقُ، أو قاصًّا يُحرِّضُ الناسَ على مثلِ ذلك، ويبنيانِ جميعًا على أحاديثَ واهية، والصحيحُ مِنها قليل، وله فقهٌ ووجوه. نسأل الله عز وجل الفقهَ الذي بِهِ يتخلَّصُ المُشتبِهُ، ويطَّلعُ على بواطنِ الأمور؛ بمَنّهِ وجُودِه.

٢١٣- فصلٌ
[الحِكمة من الابتلاء]

تأمَّلتُ وُقُوعَ الشدائدِ بالمُؤمِن، ووجهَ الحِكمةِ في ذلك، فوجدتُ المُرادَ إقامةَ القلبِ على بابِ الربِّ سبحانه وتعالى، فالشدائدُ تُوجِبُ اللَّجَأ والتضرُّع والاستغاثة بالمُبتلي، وكُلَّما اشتدَّت زاد اللَّجَأُ، وقويَ الانقِطاعُ إليهِ عمّن سِواه، فإذا كشفَ الشدائدَ أوجبَ ذلك الكشفُ قيامَ القلبِ عن بابِ الشُّكر. ولولا الشدائدُ ما عُرِفَ أثرُ زوالِها، فإنّ العافيةَ لا يُعلَمُ مِقدارُها إلا عِندَ المرض، كما قال القائل[3]:

---

(١) رواه المعافى بن عمران الموصلي في الزهد (٢٥٤).

(٢) سقطت من (ر).

(٣) بلا نسبة في الدر الفريد (٨: ٧٩)، وعجزه:

.... ولَولا البَينُ ما طابَ التَّلاقِي

ولَولا الهَجـرُ ما حُمِدَ التداني ....

فبان بهذا أنّ النِّعَمَ في الشـدائدِ أكثرُ مِنها في السـلامة؛ لأنّ الطبعَ يسـرحُ فـي تأديةِ السـلامةِ غافـلًا عنِ المُنعِم، فـإنْ ذكرَهُ فبقلبٍ غافِلٍ، وإنْ شـكرَهُ فلا عـن حُرقـة، والبلايا تُزعِـجُ إزعاجًا، والشـكرُ على زوالِها يُوجِـبُ قوةَ حُضورٍ وإخلاصَ حَمدٍ، هذا مع ما يُدَّخَرُ مِن الأجرِ على البلاءِ للمُؤمِن، فسُبحان مَن في طَيِّ اعتسـافِه[1] إسـعافُه، ونِعْمَ الشيءُ يُوجِبُ إقبالَ العبدِ على معبودِه، فإذًا البلاءُ نِعَمٌ، فافهم هذا، وقد زال التأفُّفُ بالنوازل.

٢١٤- فَصْلٌ
[لماذا لا يُعارَض الحكيم؟]

وا عجبًا مِمَّن يعترضُ بعقلِهِ الناقصِ على تدبيرِ الحكيمِ التامِّ الحِكمة، إذا ثبتَ أنّه مالكٌ وحكيمٌ لم يبقَ للاعتراضِ عليهِ وجه، هذا لو كانت قُوى العقلِ تُدرِكُ كُلَّ شيء، وتعلمُ وُجوهَ الحِكمةِ في كُلِّ أمر، فكيف وهو قاصرٌ؟! لذلك يعجِزُ عن إدراكِ بعضِ المخلوقاتِ فيُسلِّم، ومَن هذا شأنُه فكيف يعترِضُ على الخالق؟!

اقبلْ نُصحي ولا تعترضْ عليهِ بحال؛ إن شِئتَ لكونِه مالكًا وحكيمًا، وإن شئتَ لعجزِك عن إدراكِ حكمتِه.

هـذا مُوسـى على عُلُوّ قـدرِه خفيَ عليهِ مقصُـودُ الخَضِرِ فـي أفعالِه، فقام مُنكِـرًا الحـال، فلمّـا بانَت لـه المصالِحُ فـي تِلكَ الأفعـالِ سـكنَ[2]، وقد كان

(١) يعني أن إسعافه للناس قد يبدو لأول وهلة أنه اعتساف وجَور.

(٢) أخرجه بمعناه البخاري (١٢٢).

الخَضِرُ في مقامِ دُونٍ، ومُوسى في مقامِ كمالٍ، فاعتبِرْ حالكَ مع الحقّ، فالأمرُ عِندك بالعكس؛ لأنّك في مقامِ نقصٍ؛ وأيُّ نقصٍ وهو أكبرُ مِن النقائص؟!

أوَلا يستحي مَن يُسلِمُ رُوحَهُ إلى طبيبٍ نصراني، يتحكَّم في قطعِ جلدِه، وبغيتُه أدوية، يُخاطِرُ بنفسِه؛ تسليمًا لعلمِ ذلك وظنِّهِ[1]، ثم لا يستسلِمُ لحُكمِ بارئه وخالقِه؟! لقد ناقضتَ في ذلك في فعلكَ أقبحَ المُناقضة.

والله لو لم تطَّلعْ على سرِّ تكليفٍ ونزولِ بلاءٍ قطُّ لوجبَ التسليمُ للمالِكِ الحكيم؛ إمّا لكونِهِ مالكًا، أو لكونِهِ لا يعبث، كيف وقد أعلَمَنا بوقوعِ الثوابِ عِندَ النوائب، وما أخلانا مِن عِوَضٍ عن مفقود، ولا مِن جزاءٍ عِند ألم؟! وقد يكونُ البلاءُ عقابًا لذنب، فيُنبِّهُنا بالعقابِ على التحذيرِ مِمّا عاقَبَنا عليه، والتخويفِ من عقابِ الآخِرةِ عليه، فمَن فهِم ما شرحتُه سكنَ للأقدارِ سكونَ مُسلِمٍ مُسلِّم.

٢١٥- فَصْلٌ
[القديم لا يُشبهُ الحادث]

ما أكثرَ مَن يَغلَطُ في الأصول! يقولُ القائل: لوِ انتفى الكلامُ ثبتَ ضِدُّه، وهو الخَرَس، وهذا إنّما يكونُ في المُركَّبات[2] وأهلِ التأليف، فأمّا مَن ليس بمُؤلَّفٍ فلا يثبتُ له الشيءُ لامتناعِ ضِدِّه.

ويقولُ القائل: الله سُبحانهُ في السماءِ، وعِلمُهُ في الأرض. ويُريد: أنّ ذاتهُ في السماءِ على ما يعقلُ هو، فماذا يصنعُ بالعِلم، والعِلمُ صِفةٌ لا تفارِقُ العالِم؟! أفتُراهُ يعني أنّ نفسَ عِلمِهِ في الأرضِ؟ كلّا، وإنّما المعنى أنّ عِلمَه مُحيطٌ بمَن

---

(١) في (ق): «وطبه».
(٢) في (ق، ر): «المدركات».

في الأرض، فقد أوجبَ الدليلُ تأويلَ أحدِ اللفظَين؛ فإنّ أمرَ اللفظِ الثاني على ما جاء في القرآنِ مِن قولِه: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦] لم يكُن أحدٌ أن[١] يردَّ عليه، وإن فهِم مِنهُ ما يفهمُ مِن الأجسام فذاك مُحالٌ في حقِّ الإله.

فالمُنحَلُّ مِن هذا أنّه ينبغي للعاقلِ أن يُمِرَّ الآياتِ والأحاديثَ كما جاءت، ولا يفهمُ مِنها ما يفهمُ مِن صِفاتِ المُؤلَّفين المخلُوقين، فذاك مُحالٌ على الخالِق.

٢١٦- فَصْلٌ[٢]

[قوّة الغفلة]

مِن قُوّةِ الغفلةِ النظرُ إلى صُورةِ الأشياءِ لا[٣] إلى معانيها، ترى الناسَ إذا رأوا خُضرةَ الربيعِ انبسطُوا في الفرحِ واللذّات، وقلَّ مَن ينظُرُ إلى قُدرةِ المُخرِجِ للرَّطبِ مِن اليابس، وللغَضِّ مِن الميِّت، أو أن يتذكَّرَ بذلك بعثَ الموتى بعد التَّلف، كما بعثَ الأغصانَ بعدَ المَحْلِ[٤]، أو أن يستدلَّ بذلك على ما وعدَ به من نعيمِ الجنّة، فيشتاقَ، أو يفهمَ خِطابَ الكُلِّ بلسانِ الإشارةِ إلى الصانع، بل تراهم يشربون الخُمور، ويستعملون الزُّمور، فيُقابلون النِّعَمَ بعصيانِ المُنعِم.

وكذلك عِندَ زيادةِ دِجلَةَ، لا يذكرون بِهِ الطوفان، ولا يخافون الغرق، بل يركَبون السفنَ للمعاصي واللهو، وكذلك يخرجون إلى المقابرِ في ليالي الجُمَع، فيجتمعُون على الحرامِ مِن إطلاقِ الأبصارِ فيما لا يجوز، وهم قُعُودٌ على الرِّمَم؛ ناسِين مَن تحتهم مِن الأُمم.

---

(١) سقطت من (ق، ر).

(٢) سقطت من (ق).

(٣) سقطت من (ف).

(٤) المَحل: الجدب، وهو انقطاع المطر ويبس الأرض من الكلأ.

وهـذا مِـن أعجبِ العجائـب، فإنّهم لو كان لعبُهم في ليالي الجُمَعِ علـى شاطِئِ الماء، أو عِند الحَضَرِ كان أقربَ حالةً، وإنّما يجعلُون ذلك بين القُبُور، ولا يخطرُ على بالِ أحدٍ مِنهم ذكرُ بالٍ، ولا أنّه عِندَ القومِ بعدَ ليالٍ، فيا لها مِن غفلة، ما أكثفَها!

وكذلك يفعلُون في ليلةِ نِصفِ شعبان[1]، فيخرجُون بحُجّةِ الزيارةِ للقبور، فيجري كُلُّ قبيحٍ مِن الرِّجالِ والنِّساء، فهؤُلاء في صورة الأنام، ومعاني الأنعام.

وكذلك يحبِسُـون الطُّيُورَ لطِيبِ النَّغَم، وذلك سـفهٌ وبَطَر، مُرادُهم سماعُ أصواتِهـا، ولـو فهِمُوا أنّ تلك الأصـواتَ نِياحةٌ على[2] فقـدِ الفِراخِ والأوكار؛ لكانُـوا إلـى البـكاءِ أقربَ مِنهم إلـى الفرح. ولقـد فهِمَ هذا بعـضُ المُتيقِّظين، فقال[3]: [الطويل]

أقُولُ وقَد ناحَت بقُربِي حَمامةٌ   أيا جارَتـا ما فاقَ حالُكِ حالِي
تَعالَي تَرَي رُوحًا لَدَيَّ ضَعِيفَةً   تُرَدَّدُ في جِسـمٍ يُعَـذِّبُ بالِي

وقد منعَ أصحابُنا مِن حبسِ الأطيار، وسَـمَّوهُ سفَهًا، وقالُوا: يكفي ذبحُها لحاجةِ الأكل، وما يحسُنُ بعاقلٍ أن يُعذِّبَ حيوانًا مِثلَهُ ليلتذَّ هو!

وقـد حكى بعضُ[4] مَن يُكثِرُ ممارسـةَ الصَّيد: أنّ بعـضَ الكلابِ إذا رأى الغزالَ قد قصَّرَ لمرض، وَرَّى عنه إلى غيرِه، وهذا خُلُقٌ مليحٌ، وهو تركُ الميلِ علـى الضعيف، فبؤسًـا للآدميِّ القاسـي القلب، كيف يرى المِحَـنَ تتابعُ على جنسِه، وهو يُعينُ عليهم؟!

---

(١) لا يصح في فضلها حديث، وانظر: الضعفاء للعقيلي (٣: ٢٩)، وعلل الدارقطني (٩٧٠).

(٢) سقطت من (ق).

(٣) ذكره أبو منصور الثعالبي في يتيمة الدهر (١: ٩٢).

(٤) سقطت من (ق، ر).

ومن أعجبِ ما ترى في حابسِ الأطيارِ الذين يلعبُون بالسُّماني، فإنّه لا صوتَ طيِّبٌ، ولا لونَ مُستحسَن، وهم يبذلُون الرغائبَ فيها، ولقد غفَلَ أكثرُ الناسِ عن الآخِرة، فصارُوا في معاني البهائم.

٢١٧- فَصْلٌ
[المُخاطرة لقصد الرياء]

أكثرُ الناسِ مع الهوى المُجرَّد، وإن قيل: لا يلتفتُون في مُوافقتِه إلى عقلٍ ولا إلى شرع، ومن أعجبِ الأحوالِ خُرُوجُ قومٍ إلى قتلِ السَّبُعِ يتعرَّضُون له، فرُبّما قتلَ بعضَهم، ورُبّما جَرَحَه، والمقصودُ إظهارُ الشجاعة، ولا يُبالي بالمخاطرةِ بالرُّوح، ولا بعقابِ الآخِرة، ولو وُفِّقَ لجاهدَ هواه، غيرَ أنّ جِهادَ الهوى خفيَ عنِ الناس، فهذا لا يعرفُ غيرَ الرياء.

ومن ذلك مشيُ السُّعاةِ في أشدِّ أيامِ الحرِّ، يمشي أحدُهم ثلاثين فرسخًا كُلَّ يوم، فيُخاطِرُ بالرُّوحِ ليُقال: ما أجودَ ما فعلتَ! ولينالَ عَرَضًا من الدنيا، فهو يتركُ الصلاةَ ويخاطرُ بالنفسِ لذلك، كما قيل[١]: [المتقارب]

وكُلُّ امرِئٍ قاتِلٌ نَفسَهُ ... عَلى أن يُقالَ لَهُ: إنَّهُ

وأعجبُ مِنه الذين يتعصَّبُون له، ويُنفقون عليهِ الأموال، ويَخرُجون في نِصفِ النهار، فيمشون الفرسخَ والفرسخَين لتلقِّيه، ولقد قال لي بعضُهم: ادعُ الله له، فقلتُ: يا قليلَ العقل، هذا[٢] لا يخلُو مِن أن يكونَ كافِرًا، وهو مذهبُ أحمدَ لتركِ الصلاة[٣]، أو فاسقًا عِندَ باقي الفُقهاء لتركِ الصلاة،

(١) ذكره ابن الجوزي في ذم الهوى (ص٦٤٢). (٢) سقطت من (ق).

(٣) مسائل أحمد رواية ابنه عبد الله (ص٥٥) وقال: هو عندي بمنزلة المرتد يستتاب ثلاثًا، فإن تاب =

ومخاطرتـه بالرُّوحِ فيما قد نُهِيَ عنـه، فعصبيَّتُكُم له تُعينُه على هذا، ومن أعانَ عاصيًا فقد عصى.

فقال بعضُهم: هذا مِن أهلِ السُّـنّة، وغدًا يعدُو سـاعي الرافِضة. قُلتُ: ما يزيـدُ أن يكُـونَ مِنّا مَن يعصي الله، ولا خيرَ فيمـن يَرضى بإضافةِ هذا إليه، ولو أنّ الناسَ أعرضُوا عن مِثلِ هذا ما سعى أحدٌ، فسعيُهم في المعصيةِ له يُوجِبُ سَعيَه، وحملَه على نفسِه.

ولقد تكلَّمتُ بمثلِ هذا مرّةً، فقال لي بعضُ إخواني: قد شـاع هذا عنك، فلا تفعل، فإنّ أكثرَ صدورِ الدنيا مُتعصِّبُون لهم، فرُبّما قالوا: هذا يذُمُّنا. فقلتُ: وا عجبًا لزمانٍ لا يُمكِنُ فيهِ قولُ الحقِّ!

وكـم قد سـمِعتُ عـن شـيخٍ كبيرِ السِّـنِّ مِمَّـن يتزيَّـا بالعِلم، أنّـه يتعصَّبُ لـه، ويدعو له بالسـلامة، ولكِنّهم شـيوخُ الأسـنان، صبيانُ العُقُـول، ما أدَّبتهم الشريعة، ولا ذاقوا طعمَ الإسلام، إنّما هم مع العادات، نسألُ الله عز وجل أن يجعلَنا مسلمين[1].

٢١٨- فَصْلٌ
[عادات الجهلة]

رأيـتُ كثيرًا مِن الخَلقِ يَحرِفـون[2] في أُمورِهم المحتقَرةِ جريًا مع العادة، فإنّي حضرتُ يومًا في أملاك، فقُدِّمتْ أطباقٌ فيها حلاوة، فرأيتُ خلقًا يملؤون أكمامَهم مِنها، فقلتُ: هذا حرامٌ محض؛ لأنّه إنّما قُدِّمَ ليُؤكَلَ لا ليُحمَلَ، وهذا

= وإلا قُتل.

(١) سقطت من (ر).

(٢) يحرِفون: يعدِلون.



تحريـفٌ ـ فيمـا يُظَـنُّ ـ حقيرٌ، وهو عظيم، فإنّ الآخذين لـو قيل لأحدِهم: خُذْ فوطةَ رجلٍ من رأسة(١) بابِ الدار، قال: لا يحلُّ لي، ولا أفعل، وإنّما جرَوا في هذا مع العادات، ولكِنّها عاداتُ الجهلة.

والعجـبُ أنّ النـاسَ قدِ اختلفُوا: هل يجُوزُ أكلُ الطعـامِ إذا قُدِّم، أو يفتقرُ الأكلُ إلـى إذنٍ مِـن صاحِـبِ الطعـام؟ وقالـوا: لا يجُـوزُ لـلآكِلِ أن يرميَ إلى السِّـنَّورِ لُقمةً. وكان ابنُ سـيرينَ إذا دُعِيَ إلى طعامٍ شـربَ شربةَ سَوِيقٍ قبل أن يحضرَ، ويقولُ: أكرهُ أن أجعلَ سدَّ جُوعي على طعامِ الناس.

وهـذه التحريفـاتُ تقـدَحُ في الديـن(٢)، ومن هذا الجِنس أن يـرى الرجُلُ قومًا قد دُعُوا، فيدخلُ معهم، ولم يُؤذَنْ له، فإنّ رسـولَ الله ﷺ دعاهُ رجُلٌ في جماعـةٍ مِـن أصحابِه، فتبِعَهم رجُل، فقال رسـولُ الله ﷺ: «هـذا قد تبِعنا، فإن شِئتَ أذِنتَ له، وإلا رجَع»(٣).

وهـذا الذي ذكرتُـه أنموذجُ ما يُفعَلُ مِن الأشـياءِ الحقيرة(٤)، وهي عظيمةٌ في بابِ المعاصي.

٢١٩- فَصْلٌ

[فَورة الغضب والرضا]

ينبغـي للعاقل ألا يعمَلَ شـيئًا بفَورتِه، لا فـي الغضب، ولا في الرِّضا، ولا فـي حـالٍ أصلًا تُوجبُها فَورةٌ، فإنّ الإنسـانَ لا يكونُ حينئذٍ مُعتدِلَ الطبع، ولا

---

(١) كذا! (٢) سقطت من (ف).

(٣) البخاري (٢٠٨١) من حديث أبي مسعود البدري رضي الله عنه.

(٤) سقطت من (ق، ر).

يـرى الصـوابَ حينئـذٍ، ولا يَبينُ له، ويكونُ مثلَ العاشـقِ لا يهتـدي إلى الرأيِ الأصوب، فإذا سلا عرَفَ قُبحَ ما كان فيه.

وكذلـك الغضبـان، فإنّه قد يفعـلُ بفَورةِ الغضبِ ما يندمُ عليهِ أشـدَّ الندم، وكذلـك السـكران، وكذلـك الطَّـروب[١]، فإنّـه قد[٢] يهـبُ ويُعطي ثُـمّ يندم، وهاهُنا يجبُ الورعُ في حقِّ المُعطَى، فإنّه ينبغي له أن يتورَّعَ عنِ الأخذ حينئذٍ؛ لأنّ المُعطِيَ مغلوب، فإذا أفاق ندِم.

ومِـن هاهنا قيـل: «لا يَقضِي القاضي[٣] بين اثنينِ وهو غضبانُ»[٤]؛ وذلك لخروجِه عن حدِّ الاعتدال، وكذلك مَن رأى رأيًا لسببٍ اقتضاه، فإنّه ينبغي أن يُجِيـلَ فكرَهُ فيمـا رآهُ في أحوالِه المختلفة؛ ليحكمَ فيـهِ بالأصوبِ عِندَ اعتدالِ مِزاجِه.

ولـولا هـذا الـذي قلتُه ما نُصِـبَ خيارُ المجلس، فإنّ الإنسـانَ قـد يُعجِبُه الشيءُ فيُسَرُّ به، وقد يُخرجُ المالكُ بالبيعِ مِلكَهُ عن يدِه، ولا يتخايلُ السُّلُوَّ عنه، فإذا تيقَّنَ خروجَهُ من يدِه طلبَه، وقد يبذلُ المشـتري ـ لقوةِ رغبتِه في الشـيء ـ فوقَ ثمنِه، فإذا سكن لهيبُ الرغبةِ ندِم، فجعل الشرعُ قدرَ المجلسِ وقتًا للنظرِ والتأمُّل، وقد قال بعضُ الحُكماء: «خَميرُ الرأيِ خيرٌ مِن فَطِيرِه»[٥].

وكذلـك قال الله تعالـى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وذلك يُفيدُ أشـياءَ، مِنهـا: أن يسـكُنَ العازمُ على الشـيء بفَورةِ العزمِ إلـى أن يمضيَ زمانُ المشـاورة، ومِنهـا: أنّه رُبّما رأى الشـيءَ بعيـنِ هواه، والمُشـاوَرُ لا يرى ذلك،

---

(١) الطروب: السريع الهزة والتأثر بما يُطرِب.
(٢) سقطت من (ف).
(٣) سقطت من (ف).
(٤) تقدم في الفصل ٢٨.
(٥) ذكره ابن قتيبة في عيون الأخبار (١: ٨٦).

فيحكمُ المُشاوَرُ بالأصوب؛ لفقدِ هواهُ في المشورة، بخِلافِ صاحِبِها، ومِنها: أنّ إجماعَ الآراءِ يُوجِبُ استِنباطَ الفِكَر، فتخلو كُلُّ فكرةٍ بما عِندها، فيَبينُ الصواب، والحقُّ إذا ظهر لم يَخْفَ.

فيَنحَلُّ مِن هذا أنّه لا ينبغي لمن عَرَضَ له أمرٌ لسببٍ أن يُقدِمَ دون أن يتوقَّفَ لينظرَ في عواقبِ الأمورِ بعد سكونِ فَورةِ الهوى، والسلام.

٢٢٠- فَصْلٌ
[خُمار الرئاسة]

سمِعتُ عن بعضِ القدماءِ أنّه قال: «إذا ولِيَ أخوكَ وِلايةً فاقنعْ مِنهُ بالسلام»[١]، فبحثتُ عنِ السببِ، فإذا به: أنّ[٢] الغالِبَ في ذي الوِلايةِ أنّه يتكبَّرَ بها على أخيه، فلا يصحُّ له أن يطلبَ مِنهُ ما كان في حالِ المشاورة. وللرئاسةِ سُكرٌ، حتّى إنّ خُمارَها[٣] يبقى في الإنسانِ بعد العُطلة، فرُبّما بقيَ في[٤] الأولاد، فيُريدُ ابنُ الوزيرِ الذي قد مات أبوهُ أن يُعامَلَ بما كان يُعامَلُ بهِ أبوه، ويُريدُ مَن كان وزيرًا ثُمّ صُرِفَ أن يُعامَلَ بما كان يُعامَلُ بهِ[٥] وهو وزير، وهذا كُلُّهُ أثرُ خُمارِ الوِلايةِ، فينبغي أن يُتجنَّبَ صاحِبُ الوِلايةِ؛ لأنّ الغالِبَ فيهم ما ذكرتُه.

وإنّما يحملُهم على التكبُّرِ تعظيمُ الرئاسةِ عِندهُم، وإنّما عظُمت عِندهم لعِظَمِ قدرِ الدنيا في أعينهم، وأمّا طُلّابُ الآخِرةِ فهِمّتُهم أعلى مِن هذا، فلا

(١) رواه أبو طالب المكي في قوت القلوب (٢: ٣٨٠) بمعناه.
(٢) سقطت من (ف).
(٣) الخُمار: بقية السُّكر.
(٤) سقطت من (ر).
(٥) سقط «ويريد من كان... به» من (ر).

تُغيِّرُهم ولاياتُ الدنيا، بل رُبّما زادُوا بها تواضعًا، وإنّما همُّهم في مراتِبِ الآخِرة، عليها يُنافِسُون.

ومن هذا ما رُوِيَ عن أبي بكرٍ الصدِّيقِ رضي الله عنه، أنّه لمّا وليَ الخلافةَ سمع امرأةً تقول: كان هذا يحلِبُ لنا، والآن ما يَفعَل، فقال: بل أفعَل، وخرجَ إلى السوقِ بعد الخلافةِ ليتَّجِر[1]. وكان عُمرُ بنُ الخطّابِ رضي الله عنه يدخلُ إلى بيتِ عجوزٍ يكنُسُ ما تحتها[2]. وكان أبو هُريرةَ يحملُ الحطبَ على رأسِه وهو أميرُ المدينة، ويقولُ: طرِّقُوا لأميرِكُم[3]. وكان عُمرُ بنُ عبدِ العزيزِ يقولُ لبعضِ أصحابِه: إذا رأيتَني قد زُغتُ عنِ الحقِّ فخُذْ بتَلْبابي وهُزَّني، وقل: ما تصنعُ يا عُمر[4]؟!

فهؤُلاءِ قومٌ هانتِ الدنيا عِندهم، فلم تعظُم وِلايتُها لديهِم، وما أحسنَ ما قال بعضُ السلف: «مَن تكبَّرَ في وِلايتِه دلَّ على[5] أنّ الوِلايةَ أكبرُ مِنه، ومَن تواضعَ دلَّ على أنّه أكبرُ مِن الوِلاية»[6].

٢٢١- فَصْلٌ
[مُساكنة الأسباب]

كُنتُ أتعرَّضُ بأسبابٍ لتحصيلِ أشياءَ، فيخيبُ الظنُّ فيها، ولا يحصُلُ المقصُود، ثُمّ يحصُلُ المُرادُ في أوقاتٍ مِن غيرِ تعرُّض لسببِه، فتفكَّرتُ في

(١) رواه محمد بن سعد في الطبقات الكبرى (٣: ١٦٨، ١٧٠).

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١: ٤٨).

(٣) رواه أبو داود في الزهد (٢٨٤)، وطرَّق له: جعل له طريقًا.

(٤) تقدم في الفصل ٣١.

(٥) سقطت من (ف، ر).

(٦) ذكره ابن عبد البر في بهجة المجالس وأنس المجالس (٢: ٤٤٧).

ذلك، وإذا بـهِ من جِنس قولِ يُوسُفَ: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]، وقد جاء في التفسيرِ أنّه قد[1] قيل له: لِمَ ذكرتَ مخلوقًا ونسيتَني؟![2] وكذلك قولُ لوطٍ: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾ [هود: ٨٠].

ولو شرحتُ ما جرى لي في عُمري من ذلك[3] لطال. فنافرَتني نفسي يومًا، وقالت: إنّ التعرُّض بالأسبابِ مِن جُملةِ الشرع، وإنّ رسولَ الله ﷺ قد لبِسَ الدِّرع[4]، وقد قال عز وجل: ﴿خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ [النساء: ٧١]، فما وجهُ لومِ النفسِ إذا وقعت مع المشرُوع؟! فقلتُ لها: لا تُبهرِجي عليَّ، فإنّي لا أنكرُ عليكِ التعرُّضَ بالأسباب، وإنّما أنكرُ عليكِ المُساكنةَ للأسباب، ومن هاهنا تُدهَينَ[5]، وكأنّ القلبَ يُعرِضُ عنِ المُسبِّبِ بمقدارِ رُكُونه إلى السبب، فتقعُ العقوبة.

وعلامةُ ذلك أنّه لا يسعى الإنسانُ في السببِ بمقدارِ المشرُوع؛ لأنّ المشرُوع[6] في الأسبابِ مُلابستُها صُورةً، فأمّا مُساكنتُها بالقلبِ فعلى ذلك تقعُ المؤاخذة، ولا يُؤاخَذُ إلا المُتيقِّظُ، كما أُوخِذَ يُوسُفُ.

على أنّني تلمَّحتُ لنفسي معنًى أدقَّ مِن هذا، وهو أنّه سبحانه وتعالى يُريدُ أن يدلَّني عليهِ بفصلِ دليل، وأن يكشفَ بيني وبينه كُلَّ حِجاب، فيُريَني - مع اجتهادي في الأسباب - بُطلانَها؛ لأرى المُسبِّبَ وحدَه، فكأنه يقولُ لي: يا عبدي! أما رأيتَني قد دلَّلتُ عليَّ بكُلِّ دليل، حتى إنّني أخلُقُ أشرفَ المخلُوقاتِ مِن أحسنِ الموادِّ؟ ومَن يخلقُ مثلَك من تلك القطرةِ المَهينةِ ينبغي أن يكُونَ التلمُّحُ لقدرتِه والتعرُّضُ بفضلِه، مع البراءةِ مِن الميلِ إلى الأسباب، فقد علمتَ ما جرى للمُتيقِّظين عِند نظرِهم إلى السبب؛ ﴿وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ

---

(١) سقطت من (ف).

(٢) رواه ابن المقرئ في معجمه (١٦٢).

(٣) سقط «من ذلك» من (ر).

(٤) تقدم في الفصل ٤١.

(٥) تُدهَينَ: تُصابينَ بداهية.

(٦) سقط «لأن المشروع» من (ق).



إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾، ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ﴾ [التوبة: ٢٥].

فسُبحانَ من دلَّلَ عليهِ بكُلِّ دليل، وأخرجَ الخواصَّ من جملةِ العوامّ، فكشف الحُجُبَ، وقطعَ تأثيرَ الأسبابِ، أبى الله أن يرزقَ عبدَهُ المُؤمِنَ إلا مِن حيثُ لا يحتسب.

فإذًا ينبغي أن يكُونَ الوُقُوفُ مع الأسبابِ لامتثالِ أمرِ الشرع، مِثلَ أن يتدرَّعَ في الحرب؛ لقولِه تعالى: ﴿خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ [النساء: ٧١]، ويسعى في طلبِ الرِّزق لقولِه: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك: ١٥]، وقولِه[1]: ﴿وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]، ويكونَ قلبُهُ مع المُسبِّبِ وحدَه، مِن غيرِ تلمُّحٍ للسبب، فإن شكر السببَ فلأمرِ المُسبِّب، كما قال: «ما نفعني مالٌ كمالِ أبي بكرٍ»[2].

وأنا أحكي عن نفسي: قلَّ أن أميلَ إلى سببٍ أرجُو بهِ ردَّ أشياءَ إلا ويُخلِفُ، ثُمّ يأتيني مقصودي مِن غيرِ سببٍ، وما ذاك إلا مِن لُطفِ الحقِّ سُبحانه، فما أدري على أيِّ النِّعمتَينِ أشكرُ: حِراستي مِن الميلِ إلى السبب، أو دلالتي على المُسبِّبِ بعزلِ السبب؟ جلَّ المُنعِمُ عليَّ بما لا أستأهِلُ، والمُعلِّمُ لي بما لم أكن أعلم.

٢٢٢- فَصۡلٌ

[الانشغال بالحديث عن الفقه]

مِن الخطأ العظيم افتتاحُ المُحدِّثِ بما حصَّلَ من أجزاءِ الحديثِ مِن غيرِ اشتغالٍ بالفقه، فإنّي رأيتُ بعضَ مشايخِ الحديثِ يُروى عِندَه في الأجزاءِ

(١) سقطت من (ق).

(٢) تقدم في الفصل ٤١.

أحاديث، فيقولُ بها ويعمل، وهي إمّا منسوخةٌ أو متروكةٌ أو جاءت بمعنًى أو ضعيفةُ النقل.

ولقد قلتُ مرّةً لبعضِ أصحابِ الحديث: يُكرَهُ أن يُجهَرَ بالقراءةِ في تطوُّع النهار. فقال: ففي(١) حديثِ أبي قتادة: «كان رسولُ الله ﷺ يُسمِعُنا الآيةَ بالنهارِ أحيانًا»(٢). قُلتُ: سُبحانَ الله! ما أقلَّ هذا الفقهَ! فإنّ قولَه: «أحيانًا» دليلٌ على الإخفات، وإنّما العادةُ قد جرَت أنّ المصلّيَ خلفَ الإمامِ يُسمَعُ مِنهُ التعوُّذُ والاستعاذةُ والآيةُ، وهذا كُلُّه لا يُسمّى جهرًا.

قال: فما بلغنا حديثٌ يُوجِبُ حظرَ هذا الذي تقول. قُلتُ: وهذا أيضًا قِلّةُ(٣) فَهمٍ، فإنّي ما قُلتُ: إنّه محظُور، وإنّما قلتُ: مكرُوه؛ لأنّه قد جاء في الحديث: «صلاةُ النهارِ عَجماءُ»(٤)، فمَن لم يُفرِّقْ بين محظورٍ ومكروهٍ، فإنّه لا يفهَمُ دينَه.

واعلم أنّ المُحدِّثين في أوّلِ الزمانِ كانُوا إلى الفقهِ أقربَ، فكان الحديثُ حُجّةً لهم(٥) على فِقهِهِم، وجاء أقوامٌ هِمّتُهم الرِّوايةُ لا الدراية، فتراهم يحتجُّون بما يروُون في الحديث، وإن كان مُخالِفًا للإجماع. وبالعكسِ مِن هؤُلاء فقهاءُ زمانِنا، فإنّ هِمّتَهم القياس(٦) والجدل، وهم مِن معرفةِ النقلِ بمَعزِل، وجِنايتُهم على الإسلامِ أيضًا عظيمة، فكم قد خالفُوا في فتواهم بالقياسِ أحاديثَ صِحاحًا.

واعلم أنّ الحديثَ كالأساس، والفِقهَ كالبناء، ولا بناءَ بلا أساس، ولا

---

(١) سقطت من (ف).
(٢) البخاري (٧٦٢)، ومسلم (٤٥١).
(٣) سقطت من (ق).
(٤) تقدم في الفصل ١٦١.
(٥) سقطت من (ف).
(٦) سقطت من (ر).

ينفعُ أساسٌ بلا بناء، وفي الناسِ مَن يجمَعُ بين الشيئينِ إلا أنّه يفوتُه المقصُودُ مِنهُما، وهو تحقيقُ العملِ بهِما، فيظنُّ أنّ المُرادَ العلم، ويغفلُ عن معاملةِ الحقِّ عز وجل به، وربما سامَحَ نفسَه في الهفواتِ ظنًّا منه أنّ ما عنده من العلمِ يحمِيه، ولا يدري أنّ الحُجّةَ عليه آكَدُ، وأنّ عقابَهُ في الذُّنُوبِ أكثر[1]؛ قال عز وجل: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠]، وقال: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩][2].

نسألُ الله عز وجل توفيقًا للجمع بين العلمِ والعمل، ونورًا في أبصارِ بصائرِنا يهدينا إلى المُرادِ مِن العِلمِ والعمل؛ إنّه قريبٌ مجيب.

٢٢٣- فَصْلٌ
[النظرُ في المآلات]

من قِلّةِ الحَزمِ النظرُ في الحالِ لا في المآل، فإنّ كثيرًا مِن الخلقِ ينظرُون إلى عاجلِ الهوى، ولا يلتفِتون إلى ما تَجنِي عواقبُه، وذلك في[3] كُلِّ شيءٍ مِن مَطعمٍ ومَشربٍ ومَنكحٍ وغيرِ ذلك. ومن هؤُلاءِ قومٌ يركبُون البحر، فيرَون بأعينِ الآمالِ الأرباح، ويأنسُون بخشبِ المركب، وينسَون الغرق، ولا يتفكّرُون في أنّ فِعلَهم ذلك مخاطرةٌ بالرُّوحِ التي لها تُرادُ الدنيا.

وكثيرٌ مِن الناسِ يكسبُ قوتَ يومٍ بيوم، وينسى أنّه قد يمرَضُ فينقطعُ عنِ الكسب، ويحتاجُ إلى نفقة، وأنّهُ قد تحترقُ دارُه، وقد يغلُو السِّعر، وقد تجري

---

(١) سقطت من (ق).

(٢) زاد في (ف): «وقال: أفمن يعلم كمن لا يعلم»، وليس آية كما تقدم في الفصل ٢٥.

(٣) سقطت من (ق).

أشياءُ ليست في الحُسبان، وقد يطرقُه الكِبَر، ويحتاجُ إلى مَن يخدمُه، ويذهبُ زمانُ قوّتِه وكسبِه.

فالعاقـلُ من نظرَ في العواقِب، وأعدَّ في السـلامة ما يصلُحُ للعَطب، وفي القُـوّةِ مـا يصلُحُ للضعف. وممّا وُصِفَ بِهِ عُمرُ بنُ الخطّابِ رضي الله عنه، أنّه كان قـد أعدَّ للأُمُـور أقرانَها[1]، فمَن قدرَ على كثرةِ الكسـبِ أعدَّ مِنها وادَّخر، ومَـن كان كسبُهُ قليـلًا فليدَّخِرْ قليـلًا مِنه، فـإنّ القليلَ مع الزمـانِ يجتمع، فإن بَدَهَتهُ نائبةٌ وَجَدَت عُدّةً.

وأهمُّ مِن جميعِ هذا أن يدَّخِرَ لنفسِهِ عملًا صالِحًا يجدُه وقتَ حاجتِه، وأن يتهيَّأ لطارقٍ لا بُدَّ مِنه، ولا يدري متى يفجَؤُه، وقد قيل في جُملةِ ما ذكرتُه[2]:

[المتقارب]

يُمثِّـلُ ذُو اللُّبِّ في نفسِـهِ ... مَصائبَـهُ قبـلَ أن تَنـزِلا
فإن نَزَلَـت بَغتةً لَـم تَرُعْهُ ... لِمـا كانَ فـي نَفسِـهِ مَثَّلا
وذُو الجَهـلِ يَأمَـنُ أيّامَـهُ ... ويَنسَى مَصارِعَ مَن قَد خَلا
فإنْ بَدَهَتـهُ صُرُوفُ الزَّمانِ ... ببَعـضِ مَصائبِـهِ أعـوَلا
ولَو قَـدَّمَ الحَزمَ فـي أمرِهِ ... لَعَلَّمَـهُ الصَّبرُ حُسـنَ البَلا



(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٩٨٣٨).

(٢) لمحمود الوراق في عيون الأخبار (٣: ٦٢).

٢٢٤- فَصْلٌ

[وصيةٌ لمن يُؤثِر بقاء نفسه]

ينبغـي للعاقِـلِ أن[1] يعلـمَ أنّ النـكاحَ يأخُذُ خالِـصَ ما في البـدن، ويترُكُ كَـدَرَهُ، وكم قد رأينا مِمَّن دامَ عليهِ فأسـرعَ تلفُه، وانحلَّت قُواه، فينبغي للعاقلِ أن يُقلِّلَ مِنه، لا سيما إذا كان فِعلُهُ يُضعِفُه، مِثلَ أن يكُونَ باردَ المِزاجِ أو يابِسَه فإيّاهُ وإيّاه.

وأولـى مَـن تَركـهُ مَن كَبِرَت سِـنُّهُ، إلا أنّه ينتفعُ بالتركِ مَن أمعنَ في السِّـنِّ كمـا ينتفـعُ الشـابُّ إذا تـرك، إنّما ينبغي حفـظُ الجوهرِ مِن الأصـل، فمن وُفِّقَ للصـوابِ ادّخَـرَ جوهرًا في شـبابِه، ومِـن زمانِ بُلُوغِه، ورفقَ بنفسِـه، ونظر في مِزاجِه، فإن كان حارًّا رطبًا فعل ذلك[2] في أوقاتٍ، وإن كان باردًا يابسًا تجافى ذلـك أصلًا، فإذا اضطُرَّ فعلَ ذلك في[3] كُلِّ شـهرٍ مـرّةً، فيُبقي خميرةَ الجوهرِ من الشـباب، فينفعُهُ في الكِبَر، وكُلَّما ارتفعَ السِّـنُّ قلَّل، فإذا بلغ الأربعين فإن كان[4] مِزاجُهُ حارًّا رطبًا، وهو تائقٌ إلى ذلك فعلَهُ في كُلِّ أسـبوعٍ مرّةً، وإن لم يكُن مِزاجُهُ صالِحًا ففي كُلِّ شهرٍ أو شهرَين، وكُلَّما عَلَتِ السنُّ أبعدَ، فإذا بلغ السِّتّين فينبغـي له هجرُه، إلا أن يكُونَ سـليمَ المِزاجِ فيُباعـدُ ما بين الفعلَينِ ما استطاع. فهذه وصيةٌ لمن يُؤثِرُ بقاءَ نفسِـهِ وقُوّتِهِ وشـبابِه، ويُريدُ تأخيرَ الشَّيبِ عنه، ويختارُ سلامةَ العقلِ والذهن.

---

(١) سقطت من (ق، ر).

(٢) سقطت من (ر).

(٣) من قوله: «أوقات، وإن كان» إلى هنا سقط من (ق).

(٤) سقطت من (ق).

فأمّا إذا أمعنَ الإنسانُ في ذلك، واستنفدَ جوهرَ القُوّةِ في زمانِ الصِّبا والشباب، ثُمّ تركَ في حالِ الشيخوخة، فإنّه وإن أثَّرَ قليلًا إلا أنّه قد ذهبَ خالِصُ الجوهر، وأساسُ الحائط.

وهذا الذي ذكرتُهُ أصلٌ قد أغفَله كثيرٌ مِن الناس، قد[1] غلبَت على ألبابِهم شهواتُهم، فأرتْهم ما لا يَزِينُ.

فالله الله مِن تركِ التلمُّحِ للعواقبِ والميلِ إلى عاجلِ الهوى، خصوصًا إذا عُلِمَت مضرَّتُه في العاقِبة، ولو كانتِ الدنيا موضوعةً للالتذاذ لم يُبخَسْ مِنها حظُّ الآدميِّ الشريفِ القدر، فإنّ الجَمَلَ يأكلُ أكثرَ مِنه، والعصفورَ يُجامعُ أكثرَ مِنه، وإنّما الدنيا بلاغ.

ولا يصلُحُ الوطءُ إلا لأمرَين؛ أحدهما: طلبُ الولد، ولذلك وُضِع. والثاني: دفعُ الماءِ المُحتقِنِ إذا كثُرَ، فإنّه إذا كثُرَ آذى[2]، فأمّا مَن اتَّخذَ هذا عادةً لنفسِ الالتِذاذ، ولم ينظرْ في جناياته، فبهيمةٌ في مِسلاخِ[3] آدميٍّ.

٢٢٥- فَصْلٌ
[كتمُ السرِّ]

مِن الغلطِ استرسالُ الإنسانِ إلى صديقِه أو خادِمه أو امرأتِه؛ بإطلاعِهِ على أسرارِه، وما يخافُ عاقِبتَهُ إن ظهر، فإنّه قد يتغيَّرُ الصديقُ والخادمُ والزوجة، فيكونُون أعرفَ بموضِعِ المَضرّة؛ لكثرة المخالطة، كما قال القائل[4]:

[مجزوء الكامل]

---

(١) سقطت من (ق، ر).

(٢) من هنا حتى نهاية الفقرة سقط من (ر، ق).

(٣) كذا قرأتها.

(٤) تقدم في الفصل ١١٢.

احـــذَرْ عَـــــدُوَّكَ مَــرَّةً ... واحــذَرْ صَدِيقَكَ ألفَ مَرَّهْ
فلَرُبَّمــا انقَلَــبَ الصَّدِيــ ... ــقُ فكانَ أعرَفَ بالمَضَرَّهْ

فمَن جَرَت له هفوةٌ مِن هذا أو فات(١)، فلا ينبغي أن يبارزَ هؤلاءِ بالعداوة، بل ينبغي أن يُداريَهم ويُخبِّئَ في نفسِه ما فعلُوا في حقِّه، فإن وجد مضربًا يومًا إما فعلَ أو تَرك، وإن لم يجدْ صبرَ ولامَ نفسَه على تفريطِهِ الأوّل.

ومِن قِلّةِ الحزمِ مُبارزةُ العدُوِّ بما في النفس، فإنّه تحريضٌ له على أخذِ آلاتِ الحرب، ورُبّما غفلَ الإنسانُ فأُصيبَت مَقاتِلُه، وأكثرُ الناسِ على هذا يُبالغون في عداوةِ الأعداء، ويزعُمُون أنّهم يشتفُون بما يفعلُون ويقولُـون، ولا يعلمُـون أنّهم يُؤجِّجُون نارًا وينامُون، ورُبّما أثَّرَ فِعلُهم ذلك أضعافَ ما نفَروا مِنه.

ولا ينبغـي أن يُحتقَـرَ العـدُوُّ وإن صغُـر، فإنّ البَقّـةَ تؤذي(٢) الفيـل، وإنّما الحازمُ يجتهدُ في إخفاءِ سِرِّه، ويعاملُ الناسَ بظاهرِه(٣) معاملةَ مُجامَلةٍ، حتّى إذا وقع التبايُنُ يومًا لم يَجِدِ المُعادي هفوةً يتمسَّكُ بها، فإن فرَطَ أمرٌ مِن امرئٍ وفـاتَ فطريقُ الحـزم ألا يُظهِرَ للعدوِّ ما في النفس، بل إن قويَ الحزمُ زِيدَ في إكرامِ العدوّ، ويقصِدُ بذلك كفَّ كفِّه عن الانبساطِ في الباطِن، بالاحتيال على الأذى وحبسِ لسانِه على كلِمة، ورُبّما أعادهُ الإحسانُ صديقًا.

فإن قويَ الإنسـانُ على العفوِ والصفحِ فهي مَرتبةُ الرِّجال، كما قال بعضُ السـلف(٤): «إنّـي لأسـتحي أن يكـونَ ذنبُ مُذنِـبٍ أعظمَ مِن عَفـوِي، أو خطأُ خاطـئٍ لا يبلغُـهُ حِلمـي». ولا آمـرُ الإنسـانَ ـ مع عَفـوِه ـ أن يعـودَ إلى صداقةِ

---

(١) في (ف): «وفات».
(٢) في (ف): «تودي».
(٣) سقطت من (ق).
(٤) هو سيدنا معاوية كما ذكره الزمخشري في ربيع الأبرار ونصوص الأخيار (٢: ١٠٨).

ذلك الشخص؛ لأنّه قد عرَفهُ بالتجريب، وإنّما يصفَحُ في الظاهِر، ويستفيدُ بما جرى عِرفانَ ما لم يكُن يعرِف، وإن كان الإنسانُ لا يقوى على الصفحِ صبرَ إلى وقتِ إمكانِ المجازاة، فأما المُستعجِلُ في مقابلةِ العدوّ فمعلِّمٌ له كيف يُؤدّي، ومُنبّهٌ له على الاحتيالِ في الكيد، وهذا كُلُّهُ يَبِينُ مقداره بقدرِ قُوّةِ العقلِ والذكاءِ والفطنةِ وتلمُّحِ العواقب.

٢٢٦- فَصْلٌ

[بعض التدبير لا يُعلَّل]

ليس في البلايا أشدُّ مِن ابتلاءِ العقلِ، وعِنده تَبِينُ الرجال، إذا نظر العقلُ إلى حِكمةِ الصانع، وحسنِ تدبيرِه في المخلُوقاتِ أذعنَ له، وأقرَّ بالحِكمةِ والقدرة، ثُمّ يرى آثارَ عفوِه عنِ المُذنبين، وحلمِهِ عن الجاهلين، وإجابتِه للداعين، وسترِه للعاصين، فيَعجَبُ من سَعةِ الحلمِ والعفوِ واللطف.

فإذا تلمَّحَ النقضَ بعد الإبرام، والشِّدّةَ بعد الرخاء، واستلابَ الأحباب، وإيلامَ الأطفال، وانعكاسَ الأغراض، وذبحَ الحيوان، وشِدّةَ النزعِ على الموتى، وبِلى الأجساد في اللُّحُود، ثُمّ يعلمُ بالعذابِ الخارجِ عنِ الوصفِ للعُصاة، وبالخلودِ للكُفّار؛ كاد العقلُ يتزلزَل، إلا أن يُثبّتَه خالِقُه، فيعلمُ أنّه كان جوهرةً نفيسةً إلا أنّ فيها أن تَتلقّى معرِفةَ الحِكَم، وليس فيها قُوّةُ الاعتراضِ على الفاطر؛ لأنّها ذرّةٌ من جُملةِ مواهبِه، ودُرّةٌ مِن بعضِ بحارِه.

فإن خاض العقلُ في التعليل قُهِرَ وغُلِبَ؛ لأنّه يقول: قضى وعاقب، وبنى ونقض، وقد كان قادِرًا ألا ينقُضَ، وآلَمَ وابتلى وهو خبيرٌ بالعواقب، وكلَّفَ وهو غنيٌّ عن التعبُّد.

فالواجبُ على العقلِ أن يعلمَ أنّ هذه الأشياءَ تكليفيةٌ، ففرضُه فيها التسليم؛ لعلمِه بنقص المخلوقِ بالإضافةِ إلى الخالق، وعجزِه بالإضافةِ إلى قُدرتِه، وجهلِه بالإضافةِ إلى عِلمِه.

فإن قنعَ بالتعليلِ الإقناعيِّ قُلنا: ابتلى ليُثيبَ، وعاقبَ لأجلِ المُخالفة، وإنِ ارتفع فهمُهُ عن هذا فقال: قد كان قادِرًا أن يُثيبَ لا بابتلاء، وأن يعفوَ عمّن أخطأ. قُلنا له: أصلحُ الأشياءِ لك الاستطراحُ على بابِ التسليم؛ لأنّه قد ثبتَت حِكمتُه بما أظهر من ترتيبِ هذا العالَمِ وتدبيره، وقد ثبتَ مُلكُهُ للكُلِّ، فإذا كان مالكًا ـ والعبثُ عليه مُستحيل، وقد عجزتَ عن تعليلِ أفعالِه ـ وجبَ عليكَ الاستطراحُ، مُقِرًّا بالعجزِ عن دَركِ ما لا تبلغُه.

وليس هذا بعجيبٍ، فإنّ مُوسى عجزَ عن إدراكِ تعليلِ فِعلِ الخَضِر، والخَضِرُ أنزَلُ مرتبةً مِنه، فكيف والأمرُ عِندنا بالعكس؟! فهذا الأصلُ إذا حُقِّقَ تلمُّحُهُ زال الاعتراض، وارتفع التأفُّفُ بالأقدارِ حتى في ساعةِ النزع.

٢٢٧- فَصْلٌ
[ذَهابُ الصالحين]

ما رأيتُ أبردَ ما قد[1] بَقِيَتِ الدنيا في عيني، ما لها وقعٌ أصلًا، فلا أكادُ أفرحُ فيها، لا بمالٍ ولا بولدٍ ولا ببلوغِ غرض، ولقد أخلَقَت عِندي، فصارت كالثوبِ البالي، فلو تبسَّمتُ فيها كان عن تكلُّفٍ شديد، ولقد كانت تُعجِبُني كثيرًا، وكان أشهى الأشياءِ عِندي دارٌ[2] على دِجلَةَ، وبستانٌ أُقيمَ فيه، وراحةٌ

(١) سقطت من (ر).

(٢) كذا في النسخ، فـ«أشهى» خبر مقدم.

أنالُها من فرحة، فلمّا[1] رأيتُ الأقرانَ يرحلون، ويُستلَبون على غفلةٍ مِنهم، حتّى فرغَتِ المَحالُّ والدُّورُ مِمَّن كُنتُ أعرفُه، وبَقِيتُ كالطائرِ بقيَ في المَحمَل، وقد نُسِيَت أقرانه، فهو[2] يستوحشُ لهم تارةً، ويراقبُ فتحَ البابِ أُخرى، فلو أقام ما طاب له.

ولقد هان عليَّ الموتُ كثيرًا، وإن كان لا يهونُ؛ لأنّي رأيتُ الساداتِ والإخوانَ ومن كان يطيبُ العيشُ بهم ومعهم قد ذهبُوا، وأنا على ارتقابِ ما أتاهم صباحًا ومساءً، وأرى مَعاوِلَ النقضِ تعملُ فيَّ من داخِل؛ تُوهِنُ القُوّة، وتُغيِّرُ الحال، فشهوةُ الطعامِ التي كانت شديدةً ضعُفت، وشهوةُ النكاح، وشهوةُ التقدُّمِ في الدنيا، واتفقَ ـ مع هذا ـ قُوّةُ العقل، وحِدّةُ النظر، وجودةُ الفِكر، وانسلخَ زمانُ الصِّبا المعوقِ عن ذلك الذي كان كالسرِّ الشاغلِ صاحِبَه عن فكر.

فصرتُ لو تلمَّحتُ بستانًا كأنّي أرى المقابر، ولو رأيتُ دِجلةَ كأنّي أرى حُفرة؛ لعلمي بأنّ الأيّام تدفعُني عنها، وإنّما تُصانِعُني مصانعةً بغرورِ الأمل، ثم الوَحدةُ عن القُرناءِ والأحبابِ الذين بهم يصفو العيشُ وتطيبُ الدنيا أَمَرُّ الكُلِّ، وكُلَّما ذكرتُ مَن فارَقَني من أهلي وولدي وأقراني وجيراني لم يَطِبْ لي عيش؛ تارةً لفِراقِهم، وتارةً لقُربِ الرحيلِ إليهِم، ثُمّ ألتفِتُ إلى خيمةِ البدن، فأراها تُقوَّضُ، فالضعفُ يقوى، والقوة تذهبُ، فما بقيَ للدنيا عِندي وقعٌ أصلًا.

ونعُوذُ بالله من قُلُوبٍ مُنطمسةٍ؛ لا ترى ما رأيت، فهي آخرُ شوط، وأملُها في أولِ قَدَم، وما سببُ ذلك إلا قِلّةُ العلم، وضعفُ الفكر، فلمّا قويَ علمي وفكري نغَّصا عليَّ لذيذَ الحياة، وأنا أسألُ الله عز وجل أن يجعلَ إقبالي على

---

(١) الظاهر أن جواب «لمّا» محذوف.
(٢) سقطت من (ر، ف).

منـزلِ النُّقلـة؛ لأُصلِحَ ما يصلـحُ له، وأن يُعيذَني من غفلةٍ تُـؤدِّي إلى وراء؛ إنّه قريبٌ مجيب.

٢٢٨- فَصْلٌ
[المُبادرة قبل الفَوت]

ينبغي لمن رزقهُ الله سبحانهُ يقظةً أن يُبادِرَ شبابَهُ قبلَ الهَرَم، وصحتَه قبلَ السَّقَمِ، والبدارُ في دارِ الشبابِ على أضرُب:

مِنهـا: مبادرةُ المُجاهَدةِ للهوى، فإنّ الشبابَ شُعبةٌ مِن الجُنون، فحينئذٍ تحصلُ فضيلةُ: «عَجِبَ ربُّكَ من شابٍّ ليست له صَبوة»[1]، فأمّا الشيخُ فليس معدودًا في المُجاهِدين، إنّما غايتُه حفظُ الختم.

ومِنها: الاستكثارُ من الطاعاتِ، فإنّ المَشيبَ مُقيِّد، فمَثَلُ الشابِّ كمَثَلِ المُقيمِ بمكّة، ينبغي أن يستكثرَ من الطواف، فإنّه إذا رحلَ لم يقدرْ عليه.

ومِنهـا: حفـظُ المـال، والاجتِهـادُ في الكسـب؛ ليُحصِّلَ بذلـك الغِنى وقتَ الحاجةِ والضعف، فيُنفِقُ على نفسِهِ في كِبَرِه، ويرشُـو من يخدمُه مِن أهلِه؛ لئلّا يعدُّوهُ كَلًّا. وقد كان الصاحِبُ بنُ عبّادٍ أخذتهُ عِلّةُ القيام، فكان يضعُ كُلَّما قام مرّةً في مكانِ قيامِهِ عشرةَ دنانير، فيأخذُها الفَرّاشُ الذي يلي خدمتَه؛ لئلّا يتبرَّم به[2].

وينبغي للشابِّ أن يُحصِّلَ مِن العِلمِ في زمانِ الشبابِ ما يرتاحُ إليهِ وقتَ الكِبَر، وأن يدَّخِرَ من قُوّتِهِ ما ينفقُه في كِبَرِه، وذلك بتقليلِ النكاح، فإنّه يحفظُ الأصل، ويُمسِكُ القُوّة، ويُبقِي سوادَ الشَّعر.

---

(١) رواه أحمد (١٧٣٧١)، وفيه ابن لهيعة، وهو ضعيف.

(٢) سقطت من (ف).

فإذا أحسَّ بالضعفِ وابتدأ به الكِبَر، فليعلمْ أنّه نذيرٌ مُستعجِل، فليُقبلْ على الآخِرة، وليعملْ لها ما يمكن، فإن رأى تَوَقانًا إلى النِّساءِ تمَّمَ خَلَلَه بالترغيبِ في المال، ثُمّ بحسنِ الخُلقِ وتجويدِ اللِّباس، وكثرةِ النفقةِ والخِضاب، ومَن حفِظ نفسَه في الشبابِ بمراعاةِ الأسبابِ في بقاءِ سوادِ الشَّعر، بقي له سوادُه كثيرًا.

وأبلغُ ما حُفِظَ به قِلّةُ الجِماع، وأكلُ القلايا[١] والمُنشَّفات، وهجرُ المُبلغِماتِ[٢] كالسمك واللبن، والادِّهانُ بدُهنِ الشُّونيز[٣] والزيتِ ودُهنِ الآس[٤]، ومَن طلى شَعرَهُ في كلِّ أربعةِ أيامٍ بالقَطِرانِ محضًا، ثُمّ صبرَ عليهِ سِتَّ ساعات، وغسلَه في الحمّامِ؛ بقيَ له سوادُ شعرِه ما عاش، فإن غلبَه الشَّيبُ استعمَل الخِضاب.

وليجتهدْ في تحسينِ أخلاقِه مع المرأة، فقد أنبأنا أحمدُ بنُ الحسنِ بنِ البناء، قال: أنبأنا القاضي أبو يعلى مُحمّدُ بنُ الحسين، قال: كان ابنُ الرَّفّاءِ القارئُ[٥] قبيحَ الخَلق، وآثارُ الجُدَريِّ في وجهِه، فابتاع جاريةً ليتسرّى بها، فظهر مِنها البُغض، ولم تُمكِّنْه من نفسِها، فشكا ذلك إلى بعضِ أصدقائه، فقال له: إنّها ظهرَت على أقبحِ ما فيك، وهو وجهُك، وخفيَ عنها أحسنُ ما فيك، وهو صوتُك، فإذا كان الليلُ فدعْها، واصعدْ على سطحِ دارِك واقرأ وجوِّد، ففعَل، فضجَّت السطوحُ بالدُّعاءِ له والاستعاذة، فأصغَتْ إلى تلاوته، فعَمِلَت في قلبها، فأكبَّت على قدمَيهِ تُقبِّلُهما، وجعلَت تتودَّدُ إليه.

---

(١) القلايا: جمع قَلِيّة، وهي ما يُقلى من الطعام ونحوه.

(٢) المُبلغِمات: ما يُولِّد البلغم. انظر: الحاوي في الطب (٦: ٢٢٣).

(٣) الشونيز: الحبة السوداء.

(٤) انظر: الحاوي في الطب (٦: ١١).

(٥) في (ف): «القاضي».

٢٢٩- فَصْلٌ
[فشوُّ الرياء]

كانت أعمالُ الصالِحين كُلُّها في ليلِ الكَتمِ، فصارت أعمالُ زمانِنا في نهارِ الرياءِ، أكثرُهم إن تصدَّق فلِيراهُ الناس، حتّى إنّ مَن يُخرِجُ الزكاةَ يحتالُ في إخراجِ ما يُخرِجُه. بلغَني أنّ فقيرًا بُعِثَ إليهِ غنيٌّ، فلمّا دخلَ[1] عليه قال له: إنّ عليَّ زكاةً، وما معي ذهبٌ، أفتأخذُ عُروضًا؟ قال: نعم، فأخرج له مِنديلًا وحلفَ أنّه باع أخاهُ بعِشرين دينارًا، ثُمّ قال: أتأخذُهُ بعِشرين دينارًا؟ قال: نعم، فلمّا ذهبَ ليخرجَ صاحَ به، وقال: لا شكَّ أنّك تبيعُه! فقال: نعم، قال: فبِعني إيّاه، فقال: خُذْ، فقال: بخمسةِ دنانير، فرماهُ عليهِ الفقيرُ ومضى!

٢٣٠- فَصْلٌ
[التصنُّع بالباطل]

لا يتعمَّلُ للناسِ إلا مَن عظُم قدرُهم عِنده، وقلَّ في عينِهِ نظرُ الحقِّ إليه، فهو يتصنَّعُ لهم ما لا يعملُه في طاعةِ الله، وإنّما يتصنَّعُ لمُعظَّم. اعتبِر هذا في الحيوان، فإنّ الهِرّةَ إذا خاصمَت كلبًا نفشَت جلدَها، وعظَّمَت نفسَها؛ تُقوِّي بذلك ضعفَ جأشِها، فأمّا السبُعُ فإنّه يفترسُ، وما يُغيِّرُ احتقارًا للفريسة، وبُعدًا عن الحاجةِ إلى التصنُّع.



---

(١) سقطت من (ر).

٢٣١- فَصْلٌ

[مُقاربة السلاطين والأمراء]

قـد كفانا كلامُ السـلفِ المُجرِّبيـن(١)، فمن لم يرضَ أن يقتـديَ بهم وجدَ غِبَّ خلافِه، وقد كانوا أعرفَ بالأحوال، وذلك أنّهم نَهَوا عن مقاربةِ السلاطينِ والأُمـراء، وقـد عُـرِف في الشَّـربِ الأوّلِ حـالُ جماعةٍ كان عُمرُ بـنُ الخطّابِ رضـي الله عنـه يدعُوهـم إلى العملِ معـهُ فينفِرُون، مـع عِلمِهم أنّـه لا يُريدُ إلا العدل، وكذلك قال له أُويسٌ حين قال: مَن يأخُذُ الخِلافةَ بما فيها؟ فقال: من سلبَ الله أنفَه(٢).

وقـد عُرِف نفورُ سـعيدِ بنِ المُسيِّبِ عن عبدِ الملِـك(٣)، وامتناعُ عطاءِ بنِ أبي ربـاحٍ وطـاوسٍ مِن أخـذِ أموالِهم(٤)، وهَرَبُ سـفيان(٥)، وما جرى لأحمدَ حين أكرمَهُ المُتوكِّل، فحلف ألا يُحدِّثَ لئلّا يبقى رهينةً عندهم.

ومـا نفَـر القومُ جُزافًا، إنّما كان للنفورِ أسـباب، مِنهـا: أنّ الطبعَ لا يُملَك، والميلَ إلى الدنيا في جِبِلَّةِ النفُوس، فإذا خالطهم الإنسانُ احتقرَ عيشَه، وأحبَّ ما هم فيه، فتحرَّك عليه(٦) همُّه لطلبِ الفضول، ومِنها: أنّه إذا خالطهم سـكتَ عن إنكارِ منكرٍ يراهُ عِندهم، ومِنها: ميلُ القُلُوبِ إليهِم لموضِعِ إحسانِهم.

---

(١) في (ر، ق): «المحدثين».

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٦٨٩٤).

(٣) رواه محمد بن سعد في الطبقات الكبير (٧: ١٣٠).

(٤) رواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (٣٠٥).

(٥) يقصد سـفيان الثـوري، وخبره حكاه ابن خلكان في وفيات الأعيان (٢: ٣٩٠)، والذهبي في سـير أعلام النبلاء (٧: ٢٤٤).

(٦) سقطت من (ر، ف).

وقد رَوَينا عن بلالِ بنِ أبي بُردةَ، أنّه بعثَ إلى مالِكِ بنِ دينارٍ مالًا، فأخذه، واشترى به رِقابًا، فأعتَقها، فجاء إليهِ مُحمّدُ بنُ واسع، فقال: قبِلتَ مِن هذا الظالِم؟! فقال: سلْ أصحابي، فقالوا: إنّه اشترى بها رقابًا فأعتقَها. فقال مُحمّدُ ابنُ واسع: أنشُدُكَ الله: هل قلبُكَ اليومَ له كما كان قبل أن تقبَل؟ فقال: لا. ثُمّ قال مالكُ بنُ دينار: إنّما يَعبُدُ اللهَ مِثلُ مُحمّدِ بنِ واسع، لا مِثلُ الحِمارِ مالِكِ ابنِ دينار[١]. وكذلك قال سفيانُ: ما أخشى إلا مِن إكرامِهم لي[٢].

والقلبُ ضعيف، وبعيدٌ صلاحُ القوم، وما قربَ المُتقرِّبُ إليهم. وقد قال بعضُ السلف: لو دَعَوكَ لتقرأَ عليهم: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فلا تفعَل[٣].

ومِن الغلطِ قولُ الداخلِ عليهم: «إنّما أعِظُهم، فأشفعُ في مظلُوم»، فهو ـ وإن خلَّصَ شخصًا ابتداءً ـ يُعرِّفُك نفسَه، والخُرُوجُ إلى القُرى ـ يستعطي من أهلِها ـ أسلَمُ من الأخذِ مِنهم؛ لما بيَّنّا، ولأنّ جناياتِهم معرُوفة، وعَسفُهم للخَلق[٤]، ثُمّ يستخدمون العالِم، ويطلُبُون مِنه التردُّدَ إليهم[٥]، فما ينالُ من دُنياهم شيئًا إلا وقد أخَذُوا مِن دينِه أكثرَ.

ولقد رأيتُ جماعةً تأوَّلُوا، وحملَهم الفقرُ على مخالطتِهم، فمِنهم مَن هلك، ومِنهم مَن تغيَّر دينُه، ولقد رأينا مَنِ اعتزلهم ما فاته رِزق، بل عاش بلذّةِ القناعة وعزِّ التصوُّن، ورُبّما نال مِنهم ـ مع انقطاعِه عنهم ـ أكثرَ مِمّا ينالُ المُتردِّدُ إليهم.

---

(١) رواه أبو نعيم (٢: ٣٥٤).

(٢) ذكره ابن الجوزي في تلبيس إبليس (ص١٠٩)، والباعث هو أمير البصرة.

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٦: ٣٨٧). (٤) عسفهم للخلق: أي ظلمهم للخلق معروف.

(٥) سقطت من (ف).

وقد قال الرشيد: «جئنا مالكَ بنَ أنسٍ فانتفعنا بعلمِه، وجاءنا سُفيانُ ابنُ عُيينةَ فلم ننتفعْ به»[١]. وقد عرَفتَ قِصّةَ الفُضَيلِ مع الرشيد[٢].

ثُمّ بقدرِ ضِيقِ الرِّزقِ مع البُعدِ عنهُم، أَفَلَسْنا نعلمُ أنّه خيرُ الدين، وأنّ الرِّزقَ المُقدَّرَ لا يتغيّر؟ فحفظُ الدينِ أولى مِن كُلِّ شيء، والسلام.

٢٣٢- فَصْلٌ
[المؤمن يتفقّد إيمانه]

ينبغي للمُؤمِنِ أن يتفقّد إيمانَه عِند نُزُولِ البلايا والآفات كما يتفقّدُ حائطَهُ المائلَ يومَ المطر، وجِذعَ سقفِه المكسورَ عِندَ هبوبِ العواصف، وإنّ المُؤمِنين يمشُون عِندَ العافية على جادّةِ الاستِقامة، فإذا هبّت زعازعُ البلاءِ اختلطَت الجواد.

فليحذرِ المُؤمِنُ أن يُخدَشَ إيمانُه في تلك الحُرُوب، فرُبّما وقعَت مُثلةٌ فزَعزَعَت إيمانَه، فمتى أحسَّ بشيءٍ يُزعزعُ صاحَ بالنفس: وَيلكِ، إنّ الإلهَ مالكٌ، وحكيمٌ، وعالمٌ بالمصالح، ومُجازٍ على الصبر، وأشدُّ الشدائدِ عِند نُزُولِ الموتِ ومُفارقةِ الدنيا، ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

٢٣٣- فَصْلٌ
[أسباب النُّفور]

تأمّلتُ قولَ النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم: «فِراشٌ للرجُل، وفِراشٌ للمرأة، وفِراشٌ للضيف»[٣]، فرأيتُه يُنبِّهُ على حِكمة، ورأيتُ أكثرَ السلاطينِ قد

---

(١) ذكره أبو هلال العسكري في الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه (ص٨٤).
(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٧٠٢٨). (٣) مسلم (٢٠٨٤).

وقعُوا به، فإنّ الآدميَّ كُلَّه عورة، فإذا نام الزوجانِ لم يُؤمَن وُجودُ ما يكُونُ سببًا في النفور؛ ولِهذا قالتْ عائشةُ رضي الله عنها: «ما رأيتُ مِن رسُولِ الله ﷺ ولا رآهُ مِنّي»[1]، وقد قال بعضُ الحُكماء: إذا شِئتَ أن تَسْلى حبيبَكَ فدَعْهُ ينامُ إلى جنبِك، فإنّك إذا وجدتَ مِنهُ ريحًا قبيحةً سلوتَه.

وسببُ المحبّةِ أنّ الإنسانَ يتخايَلُ مِن حبيبِه الكمالَ المُنافيَ للنقائص، فلِهذا يَحسُنُ الانفراد، وليس المُرادُ ألا تقعَ مُضاجَعة، إنّما تكونُ في[2] وقتٍ. وأولى الناس بالتحرُّز المرأة، فلا ينبغي أن يطَّلعَ منها الرجُلُ على مكرُوه، وكذلك ينبغي له.

٢٣٤- فَصْلٌ
[مناجاة]

صَفَت لي خَلوة، فسألتُ مولاي شيئًا مِن المُباحات، فصاح بي الخاطر: ما هذا القدرُ حتّى تسألَه؟ فقلتُ: إظهارُ فاقتي بين يدَي مولاي إلى ما جَبلَني عليهِ مِن الحاجةِ زيادةُ تعظيمٍ له، كيف لا وهو يعلمُ باطني؟!

٢٣٥- فَصْلٌ
[غَلبة الطبع]

مِن الناسِ مَن طبعُه الكرم، فلا يكادُ يُمكنُه يمسِكُ شيئًا يحصُلُ له، كما كان الزهريُّ يقولُ ـ وقد نال مالًا ففرَّقَه ـ: «وجدتُ الكريمَ لا تنفعُهُ التجارب»[3].

---

(١) تقدم في الفصل ١٤١.

(٢) سقطت من (ف).

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١٠٤٥٢).

وهـذه محنـةُ أهـلِ الخير، إذا كان مع أحدِهم شـيءٌ أنفقَه، فـإذا جاء وقتُ فاقـةٍ احتاج، فيتَّجرُ، فيتشـتَّتُ همُّـه. فينبغي لمثلِ هذا أن يُجاهِدَ نفسَـه بحبسِ شـيءٍ مِن المال، أو يُسـلِّمَه إلى غيرِهِ فيُقدِّرَه عليه؛ لئلا يتشتَّتَ هو فيحتاجَ إلى الأرذال، فـإنّ الإنسـانَ قد يُرزَقُ رِزقَ شـهرٍ فـي يوم، فإذا أنفقَـهُ لقيَ المضضَ طُولَ الشـهر، وإنّما يفعلُ ذلك لأنّه لا قدر للدنيا عِنده، وإنّما البخيلُ هو الذي يُحبُّها فيجمعُها، فغايةُ هِمّتِهِ الدنيا، والمؤمنُ المتيقِّظُ عِندهُ شـغل، قدِ اسـتوى حَجَرُها ومَدَرُها.

ومِن الغلطِ أن يرى الإنسانُ سُهُولةَ حُصُولِ المالِ له، مِثلَ أن تُجرَى عليهِ جِرايـةٌ، فيسـكُنَ إلى ذلـك، ويُنفِقَ على قدرِها مُتَّكِلًا على أنّ الشـهرَ الآخرَ لي مِثلُ ذلك، فلوِ انقطعَ ذلك السببُ تحسَّر[1].

وكذلك يقعُ لأكثرِ الفُقراءِ في زمنِ الغلاء، فإنّ أحدَهم قد اعتاد أن يكسبَ القيـراطَ فيكفِيـه، فيبيتُ ولا شـيءَ له، فإذا دهمَهُ غلاءٌ لم يكفِـه القيراطُ تحيَّر. فينبغـي أن يكُـونَ الكسـبُ أكثـرَ[2] مِـن النفقة، حتّـى إن طَرَقَت حاجـةٌ أو نزلَ مرضٌ، قام المُدَّخَرُ خادمًا.

وكذلـك ينبغي للعاقلِ أن يشـتريَ في الرُّخْص؛ لئلّا يحتـاجَ إلى مُضاعفةِ الثمنِ في الغلاء. وكُلُّ هذا إنّما يحصُلُ بمشورةِ العقلِ والنظرِ في عواقب الأمر. نسألُ الله عز وجل توفيقًا يُحصِّلُ لنا كمالَ النظرِ في مصالحِ دُنيانا وأُخرانا التي هي أهمّ، إنّه قديرٌ كريم.

---

(١) بعدها في (ف) كلمة رسمها مشكل.

(٢) سقط «فيكفيه، فيبيت... أكثر» من (ف).

٢٣٦- فَصْلٌ

[بين منزلتَي الخوف والرجاء]

سأل سائلٌ عن قولِه عليه السلام: «لو وُزِنَ خوفُ المُؤمِنِ ورجاؤُهُ لاعتدلا»[١]، فقُلتُ: المُؤمِنُ يُعلِّقُ الخوفَ على عدلِه، والرجاءَ على فضلِه، والأمرانِ مُعلَّقانِ بالحقّ، فيقعُ التساوي، فلا يأسَ لكثرة الفضل، ولا طُمأنينةَ لوُقُوعِ الحُكمِ بالعدل.

واعلم أنّ أحكامَ الحقِّ عز وجل وأفعالَه تختلفُ باختلافِ المُتضادّات؛ بينا هو يبني نَقَضَ، ويُعطي حَرَمَ، ويُعافي أسقَمَ، ثُمّ يعكسُ الأحوال، فيبني المُنتقَض، ويُعطي المحرُوم، ويُعافي السقيم؛ ليكونَ الإنسانُ على رجاءٍ لفضله وخوفٍ من عدلِه. وعدلُه يُصرِّفُه في ملكِهِ على مُقتضى مشيئته، أليس قد أسقطَ شطرَ العِبادةِ الواجبةِ له على المُسافِرِ رِفقًا به، ثُمّ أوجبَ قطعَ اليدِ عند سرقةِ خمسةِ دراهمَ عقوبةً له؟ فلا يأسَ مِن فضلِ مَن ذلك رِفقُه، ولا طمأنينةَ لخوفِ مَن هذا فعلُه.

٢٣٧- فَصْلٌ

[التسليم للقضاء]

قالتِ النفسُ يومًا: حدِّثني عنِ الرضا بالقضاء، كيف هو؟ وكيف يحصُلُ وبين البلاءِ والطبع مباينةُ الأعداء؟ وكيف أرضى بما يُسخِطُ النفسَ ويأباه الطبع؟ وكيف يُقالُ لي: لا تسخطْ فُرقةَ المحبوبِ وحُصُولَ المكرُوه؟

فأجبتُها: إنّكِ ما كُلِّفتِ حُبَّ المكرُوه، ولكِن أحضِري الفِكرَ تعلمي أنّ

---

(١) ذكره السخاوي في المقاصد الحسنة (٩٠٩)، ولا أصلَ له مرفوعًا.

هـذا الفعـلَ مِن مالكٍ حكيـمٍ مُثيبٍ، فإذا عرَفتِ مُلكَهُ سـلَّمتِ إليه، وإذا رأيتِ حِكمتَهُ سلَّمتِ إليه، وإذا ذكرتِ ثوابَه استَسلمتِ لطلبِ الأجرِ استسلامَ راكبِ البحرِ لطلبِ الربح.

فـلا تعتقـدي أنّ الأخيـارَ مـا نالهـم ألـمُ البـلاء، ولـولا ذلـك مـا ارتفعَت أقدارُهـم، ولا تسـمعي قـولَ القُصّاصِ في أنّ القومَ تلقَّوُا البلاء تلقِّيَ مُشـتاق، فلم يجِدُوا له ألمًا، بل وجدتِ الطباعُ الألمَ وصابرتِ النفُوس المكارِه، غيرَ أنّ تلمُّحَ ما ذكرتُ هوَّنَ الشدائدَ وأنسى المكارِه[1]، فكانوا عِند ملاحظتِهم مُلـكَ المُتصرِّف، وحِكمةَ المُقدِّر، وثوابَ المُبتلي، كمُشـاهِداتِ يُوسُـفَ يومَ أُخرِجَ عليهِنَّ، فالأيدي تُقطَع، والألبابُ غائبةٌ في سِفْرِ الحُسن.

٢٣٨- فَصْلٌ

[عجائب الصانع]

الصانعُ المُتقِنُ يُظهرُ عجائبَ صنعتِه؛ ليُسـتدَلَّ على إتقانِه وحكمتِه، والله سُـبحانهُ أودع[2] في هذا الآدميِّ ودائع، هي صبرٌ على مكرُوهٍ لتوقُّعِ محبُوب، ورِضًـا بقـدرِ المالـكِ تسـليمًا لحُكمِه، فلـو بقِيَ آدمُ فـي الجنّةِ كان شـابًّا يرتعُ فـي أغراضِـهِ مِن غيرِ إظهارِ جوهَـرِه، فأُهبِطَ إلى الدنيا حتّى ظهـرَت مِنهُ بدائعُ الودائـع، وظهرَت مِنهُ مِثلُ الخليل، يُضجِـعُ ولدَهُ للذبح، وخَلقٍ يطولُ ذِكرُهم وشرحُ ما جرى لهم مِن الصبرِ على البلاءِ والرِّضا بالقضاء.

فلـو بقـيَ آدمُ فـي الجنّةِ لم تظهرْ تِلـكَ الجواهر، ولا كانـت تطِيبُ الجنّة؛ لأنّه مَن لم يتعبْ لم يعرفْ قدرَ الراحة؛ ولِهذا لا يعرِفُ المُعافى شرفَ العافيةِ

(١) سقطِ «غير أن تلمح... المكاره» من (ر). (٢) سقطت من (ر، ف).

حتّى يذوقَ البلاء، ولهذا جاء في الحديث: «يُفتَحُ للعبدِ في قبرِهِ بابٌ إلى الجنّةِ وبابٌ إلى النار»[1]؛ وذاك لزيادةِ نعيمِ المُؤمِنِ، وزيادةِ حسرةِ الكافِر، وفي هذا المعنى يقولُ الشاعر[2]: [الكامل]

والحادِثاتُ وإنْ أصابَكَ بُؤسُها فهُوَ الذِي أنباكَ كيفَ نَعِيمُها!

٢٣٩- فَصْلٌ
[الدنيا كَبَد]

تأمَّلتُ قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤]، فنظرتُ في التفسير، فقالُوا: في شِدّةٍ يُكابِدُ شدائدَ الدنيا والآخِرة، فرأيتُ أنّ الآدميَّ مُعرَّضٌ للمِحَنِ الدائمةِ المُتَّصِلة، فإن لم يَجبُرْه عز وجل بالجنّةِ وإلا اتَّصلَ التعذيب، فإنّه حين يكُونُ في بطنِ أُمِّهِ يتأذّى بروائحِ المَطعُوماتِ إلى أن تتناولَ الأُمّ، فإذا وُضِع سُقِيَ المرارات، وحُبِسَ بالقُمُط[3]، وعانى الشدائدَ في حَلِّهِ وشَدِّهِ ومشروبِه ومأكولِه، ولقاءَ البردِ والحرّ، وتارةً يحتبسُ البول، وتارةً يمتنِعُ الغائط، وتارةً يُسهِلُ، فيُعاني من كُلِّ ذلك شِدّة، فإذا أَلِفَ الثديَ فُطِم، فعانى الفراقَ الصعبَ للمألوف، وكُلَّما دبَّ وقع، وكُلَّما قام سقط، فإذا استقامَ مشيُه جاءَهُ الحصباءُ والحُمّى، والجُدَريّ والخِتان، فإذا سلِمَ وتهيَّأ للَّعبِ مع أقرانِه حُمِلَ إلى مُعلِّمِ القُرآنِ والخطّ، فحُصِرَ وحُبِسَ عن أغراضِه، وضُرِب، فإذا قاربَ إلى البلوغ حُمِلَ إلى الدُّكّانِ وتعلَّمَ المعاش.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٢٠٦٢) بمعناه.

(٢) لأبي تمام في ديوانه (ص٢٣٥).

(٣) القُمُط: جمع قِماط، وهو الخِرقة التي تُلَفُّ على الصبي.

فبينـا هـو كذلكَ أزعجَهُ مِن باطِنِه تَوَقانُ الشـهوة، فعانى شِـدّةً حتّـى زُوِّج، فما أبصرَ بين يدَيهِ حتّى جاءَ ولدٌ، فحملَ مِن هُمومِهِ وغُمُومِهِ والكَدِّ عليهِ ما أنساهُ نفسَه.

فبينا هو مُنهمِكٌ في الكَدِّ على العائلة، قدِ استغرقَهُ ذلك، وشغلَهُ عن نَيلِ شهواتِه، لاحَ الشَّيبُ فتنغَّصَ العيشُ وانقطعَتِ الآمال، وعلِمَ قُربَ الفراقِ لكُلِّ محبُوب، فإن عَجِلَ اختلاسُه وإلا وقعَ في تيّارِ الضعف، فملَّهُ أهلُه، وقلاهُ محبوبُه، وتضجَّر مِنهُ ولدُه.

هذا، وفي طَيِّ مراحِلِهِ التي ذكرناها من الغموم والهمومِ والحسراتِ على فواتِ الأغراضِ ما يزيدُ وينقصُ على مقدارِ عُلُوِّ الهِمّةِ ونُزُولِها.

ثُمّ في فراقِه للوالدَين والأولادِ والأقرانِ والإخوانِ ما يقصِمُ ظهرَ العيش، فما يفتحُ عينَه ليُبصِرَ راحةً إلا ويدُ التنغيصِ قد طرقَت ذاكَ الجفن.

فالمسكينُ من ساكنَ الدنيا أو مالَ إليها بقلبِه، وهل هي إلا معبرٌ أو يومُ رُوزجارِيّ[1]؟ فليصبرْ على مُدّةِ المشـقّةِ وكأن قدِ انصرمَت، فكُلُّ الخاسِرِ مَن باعَ الباقيةَ بهذه الفانيةِ النغِيصة، والسعيدُ من عَرَفَ الدنيا حقَّ معرفتِها، وأنّها قنطرةٌ للعبور، فتأهَّبَ للجواز، واستظهرَ في الزادِ للرحيلِ إلى النعيمِ الدائمِ الذي لا يبقى معهُ أثرٌ لِما لقِيَ. [الطويل]

ولا خَيرَ في عَيشِ امرِئٍ لم يكُنْ لهُ ... مَـعَ الله فـي دارِ القَـرارِ نَصِيـبُ
فـإن تُعجِـبِ الدُّنيـا أُناسًـا فإنّها ... مَتـاعٌ قَلِيـلٌ والـزَّوالُ قَرِيـبُ[2]

---

(١) الرُّوزجار: هو الذي يعمل في الطين بالمِجرفة نهارًا، وهي مهنة يسيرة حتى قيل: «صوفي بلا صدق الرُّوزجار أحسن منه». انظر: بستان العارفين (ص٣٥).

(٢) بيتان كان يتمثَّل بهما عمر بن عبد العزيز كما في سيرة عمر ومناقبه لابن الجوزي (ص٢٢٦).

٢٤٠- فَصْلٌ

[اتباع الدليل]

تأمَّلتُ الخلق، فرأيتُ المُرادَ مِنهم العُلماءَ والعُبّاد، فتأمَّلتُ العُلماء[١]، فوجدتُهم يسهَرون ليلَهم، ويظمَؤون نهارَهم، ويُقاسُون الفقرَ والذُّلّ، حتّى إذا نالوا العلمَ دامَ في الأغلبِ جُوعُهم وحاجتُهم، وكان غايةُ أمرِهم ترقيعَ يومٍ بيوم، ورئاستُهم على اثنينِ أو ثلاثةٍ يتَّبعون العالِم، يراهم فينقطعُ فؤادُه لفقرِهم وذُلِّهم. وأمّا الزُّهّاد فعلى مُقاساةِ الفقرِ الشديد، وانعكاسِ الأغراض، إلا أنّه إذا[٢] تأمَّلَ الفَطِنُ الأُمُورَ رأى أنّ العُلماءَ هُمُ الناس، وإنِ افتقرُوا، وأنّ الزُّهّادَ هُم المُلوك، وإنِ انعكسَت أغراضُهم، وقلوبُ الملوكِ ترتعدُ لهيبةِ الزُّهّادِ وإجلالِ العُلماء.

فالعاقلُ مَن تبِعَ الدليلَ وسار في المَحجّة، وإن كانت وَعرةً، فإن هو مال عنها فما انتفعَ بدلالةِ الدليل، وصار مِن حزبِ الجُهّال، فليُصابرِ العالِمُ والزاهدُ بيدِ الدنيا، فستُفضي بهِ إلى رياضِ العزِّ، واللهُ المُوفِّقُ لمَن شاء.

٢٤١- فَصْلٌ

[القوّة في محمود الصفات]

رأيتُ الناسَ إذا رأوا زاهدًا وقَعوا على يديهِ يُقبِّلُونها، ويَدهَشُون مِنه، وقد كان ابنُ سيرينَ إذا مشى في السوقِ كبَّرَ الناسُ وسبَّحُوا[٣]، وكان بشرٌ الحافي إذا مشى وقفَ له الناسُ في الطُّرُقاتِ ينظُرُون إليه.

---

(١) سقط «فتأملت العلماء» من (ف). (٢) سقطت من (ر).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في الأولياء (٣١).

فنظرتُ في السببِ في هذا، وإذا بهِ ذلُّ الضعيفِ للقويّ، كما أنّ الإنسانَ إذا رأى تُركيًّا شاهرَ سيفٍ، وقد أقبل إليهِ ولا سِلاحَ معه، ذلَّ واستجدى وتضرَّع؛ لعِلمِهِ بقُوّةِ ذلك وضعفِهِ هو.

وقُـوّةُ الزاهِـدِ صبرُهُ عما انهمكُوا فيه، وسـببُ الصبرِ اسـتهانةُ المحمول، والقـوةُ عليـه، وصبرُ الزاهِـدِ بالقلبِ؛ لأنّـه رأى عيبَ الدنيا، وخـاف عاقبتَها، فحمـلَ هجرَهـا قويًّا بالعـزمِ عليه، وضَعُفَ القـومُ عن هذه القُـوّة، فهم يَذلُّون للزاهدِ ذلَّ الضعيفِ للقويّ.

ولِهذا المعنى تَعجَّبَ الناسُ من حِلمِ القادرِ على المجازاة؛ لأنّهم يضعُفون عن ذلك، وإنّما تشـرُفُ القُوّةُ وتُمدَحُ إذا دَفعَت قُوّةً مذمومة، فالشَّـرَهُ مذمُومٌ، والقناعـةُ قُـوّةٌ تدفعُـه، والجزعُ مذمُـومٌ، والصبرُ قُـوّةٌ تدفعُه، والبخـلُ مذمومٌ، والكرمُ قُوّةٌ تدفعُه، والجبنُ مذمومٌ، والشجاعةُ قُوّةٌ تدفعُه.

٢٤٢- فَصْلٌ
[منزلةُ الصبر]

الصبـرُ عـبءٌ ثقيلٌ يحتاجُ إلى حامِلٍ، ولا حامِـلَ له إلا العقلُ؛ لأنّ العقلَ يـرى العواقِـب، ويعلـمُ أنّ الجـزعَ - وإنِ ارتاحَت به النفسُ - والشـكوى - وإن طَرَحَت ثِقَلًا عنها - لا تنفع، بل تُؤذي.

وصبـرُ المؤمـنِ على المصائبِ يحصُـلُ مِن جِهةِ العقلِ تـارةً، ومنِ طريقِ الشـرعِ في التسـليم للقضاء، والعلمِ بثوابِ الصبرِ وأجرِ المسـلُوب، إلا أنّ الله تعالـى يُفيضُ على بعضِ المُؤمنين مِن الصبـرِ ما يزيدُ على الحدّ، وذاك مُجرَّدُ فضـلٍ وإنعـامٍ خـارجٍ عنِ حدِّ الكسـب، كما قـال الفُضَيلُ يومَ مـاتَ ابنُه - وقد

ضحكَ ـ: «إنّ الله تعالى أحبَّ أمرًا فأحببتُه»[١]. فمَثَلُ هؤلاءِ أن يَهنَؤوا بما وهبَ الله لهم مِن الصبرِ الخارقِ عادةَ الطباعِ.

٢٤٣ـ فَصْلٌ
[أصحاب الذِّكر الحسَن]

العاقلُ مَنِ اجتهد في حياتِه ألا يموتَ ذِكرُه ولا عِلمُه، وسعى في سببِ بقائه، ووصولِ المنافع إليه، وذلك إنّما يكونُ بفعلِ الخير؛ من بناءِ القناطرِ والوقوف، والاجتهادِ في طلبِ الأولادِ والأصدقاءِ المُستغفرين له، وتصنيفِ كُتُبِ العِلم، وتحقيقُ التقوى يبقى أكثرَ من الكلِّ، فإنّ مَن يرى قبرَ معرُوفٍ وبِشرٍ وأحمدَ يعلمُ أنّه لا يخلو أحدُهم كُلَّ يومٍ مِن زائرٍ ورُوّادٍ، يستفتحُ أحدُهم الزيارةَ بقراءةِ آياتٍ يُهديها إليه، فهذه بركةُ التقوى، وهو أدوَمُ من كلِّ شيء، فإنّ لمعروفٍ تحت الأرضِ مِن السنينَ ما يقاربُ الأربعَمئة، وكأنّه اليومَ دفينٌ جديد، والهدايا إليهِ مُتَّصِلة.

فعلمتَ أيُّها الفَطِنُ أنّه ما اقتُنيَ شيءٌ أجوَدُ مِن التقوى، فإذا اقتنى الناسُ الأصدقاءَ يقصدون ذكرَهم بعد موتِهم، وخلافتَهم في أولادِهم وأهلِهم، فاقتنِ مولاك، فإنّه يذكُرُك ويُذكِّرُ الناسَ بك، وقد سُمِع بعضُ الأعرابِ يقُولُ عِند الكعبة: «كُلُّهم له حاجةٌ، وحاجتي إليكَ أن تذكُرَني إذا نسيَني أهلُ الدنيا»[٢].

فبالله عليكَ أحضِرْ قلبَك، واقبَلْ نُصحي، ولا تُنفِقْ عُمُرَك باطلًا في حُبِّ ولدٍ إنْ لم يتمنَّ موتَكَ لم يبالِ به، أو زوجةٍ إنْ لم تنسَ فَقدَك أسرعَتِ التعوُّض، أو صديقٍ يُداجِيكَ لِما يرجُو مِنك، فإذا غِبتَ عنه نسيَك.

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الرضا عن الله بقضائه (٩٠).

(٢) رواه الفاكهي في أخبار مكة (١٩٠٦).

بالله عليك لا تجمعْ لهم بتفريق دينِك، ولا تشتغلْ بهم عنك، واقبَلْ مِنّي، ولازِمْ مَن تحبُّ مُلازمتَه، فقد أوحى إلى بعضِ أنبيائه: «أنا بُدُّكَ اللازِم، فالزَمْ بُدَّكَ»(١)، لازِمْ طاعتَه، وتوفَّرْ على مَراضِيه، وانظرْ أحبَّ الأشياءِ إليهِ فأقبِلْ عليه.

ولا تُظُنَّنَّ أنّي آمُرُكَ بملازمةِ المِحرابِ فقط، فرُبّما كان السعيُ على الوالدَينِ والولدِ أولى، وتلمَّحْ غايةَ ما تقدرُ عليهِ مِن أفضلِ القُربْاتِ إليه، ولا أعرفُ طريقًا أقربَ إليه مِن العِلم، فإنّه يدلُّ عليهِ العالِمَ نفسَه، ويدلُّ المُريدِين الطالبين، والدلالةُ عليهِ أحبُّ الأشياءِ إليه، فإنّها طريقةُ الأنبياء، وإذا اشتغلتَ بالعِلمِ عرَّفكَ ما يعرفُ وما يحبُّ.

وإيّاكَ أن تقفَ مع صورةِ العِلم، بل تلمَّحِ المرادَ منه، فإن رزَقكَ حلاوةَ العِلم، أو ذُقتَ معناهُ، أخذكَ عنكَ وسلبكَ مِنك، وأقامكَ بين يدَي مليكِكَ، فبه تسمعُ، وبه تُبصر، فيا طُوبى لك إن نلتَ هذه المرتبة، فإنّ ما دُونها خُسران.

٢٤٤- فَصْلٌ
[الصبرُ عن الشهوات]

الرجُلُ حقُّ الرجُلِ مَن تكونُ فيهِ قُوّةُ يقظةٍ لا تُغلَب، فإذا مالَ بطبعِهِ غضبٌ مثَّلَ نفسَه(٢) خاليةً من غضبٍ، أو قد سكنَ غضبُها، ثُمّ نظرَ فيما أغضبَه، وفيما غضِبَ له، وفي عاقبةِ بطشِه بالمغضوبِ عليه، وفي ثمرةِ عفوِه، ثُمّ أقدمَ على ما ينبغي أن يُقدِمَ عليه.

وكذلك إذا قَوِيَ شَبَقُه، وعرضَ له محبوبٌ مُمكِن، مثَّلَ نفسَه خاليةً عن

---

(١) ذكره أبو طالب المكي في قوت القلوب (١: ٤٠٨).

(٢) سقطت من (ف).

شـهوة، أو قد[1] قضاها، فحينئذٍ يَبينُ له عيبُ المحبوب، وعيبُ الفعل، وقبحُ العاقبة. وكذلك عِند شَرَهِ الأكل، وقوةِ الظَّمأ، وغيرِ ذلك مِمّا تدعُو إليهِ الطباع. فمـن كانـت له قُـوّةٌ لا تَقهرُه فهـو الرجل، فإن أعطـى النفسَ من ذلـك مُرادَها أعطاها من المُباح الذي لا يندمُ عليهِ في العواقبِ قدرَ حاجتِها.

وقـد بلغَنـا أنّ رجُـلًا كان إذا رأى النـاسَ حَدَسَ برؤيتهم مـا في طباعهم، فصوَّرَ أصحابُ جالينوسَ له صورةَ جالينوس[2]، فلمّا رآها قال: «صاحبُ هذه الصورةِ مِن حالتِهِ كذا وكذا، وهو شديدُ الشَّبَق»، مع عِلمِهم بامتناعِ شيخِهم عن هـذا الأمر، فلمّـا جاؤُوا إليهِ أخبروه بالحال، وقالـوا: «لقد أصاب في وصفِك كُلّه إلا في هذا»، فقال لهم: «أمّا الشَّبَقُ فكما قال، وأمّا العِفّةُ فكما علِمتُم».

واعلـم ـ وفَّقـكَ الله ـ أنّه ما ابتُليَ أحـدٌ ببلاءٍ هو أعظمُ مِن ابتلاء ذي الهِمّةِ العالية، فإنّه يميلُ بطبعِهِ إلى كُلِّ مُستحسَـنٍ ومرغوبٍ فيه، ويرى طريقةً صعبةً أو قادحةً في الفضل، فيصيرُ بما يشـتهي بقوةِ تلك القوةِ التي مدَحناها، ويبقى القلقُ إلى المُشتهى، فأمّا مَن غلبتهُ شهواتُه، ولم ينظرْ في عواقبها، فهو أضعفُ الخَلـق، وأقربُ الأشـياء شـبهًا بِهِ البهائـم. نعوذُ بالله من ضعـفِ البِنية، وخللِ التركيب، ونسألُه إمدادَ التقوى بعونِه؛ إنّه قريبٌ مجيب.

٢٤٥ ـ فَصْلٌ

[عُبّاد العادات]

أكثرُ الناسِ مع العادات لا مع الشرائع، حتّى إنّ صلاتَهم عادة، وصومَهم عادة، وما يستوحِشُون من مخالفةِ الشرعِ بعد موافقةِ العادات، فلو طلع الفجرُ

(١) سقطت من (ر).

(٢) سقطت من (ف).

وهو يتسحَّرُ لبصقَ الماء، ودعا بالويل واستغفر، ولو يخشى جزعًا[1] من غُصّة، فبان أنّه خمرٌ، رمى به على مَهَلٍ مِن غيرِ جزع، وهذا أشدّ؛ لأنّ على هذا غيبوبةَ حدٌّ، وليس على إفطار رمضان.

فهل ترى أحدًا يسألُ عنِ الربا، أو يستوحشُ من فعله، أو يهجو من يفعلُه، أو يُنكرُ على مَن صاغ دَستَ الفِضّةِ لابنتِه، أو على مَن قدَّمَ وقتَ الأملاكِ مِجمرَ الفضة، بل لو قدَّمهُ في مِجمرٍ من الطينِ قطعَته الألسُن؟! ومَن يلطمْ ويحرقْ عند المصيبةِ لا يُلام، ويقال: سُبحانَ مَن يعلمُ أيشٍ في قلبِه، وهذا معذور، لو بكى من غير لطمٍ وتحريقٍ أخذتهُ المَلاوِم، وإن لم يقعدْ للعزاءِ أو يحضُرِ الذين يَرْثُون بالأشعارِ التي تُهيِّجُ البكاء، قالوا: ما كان للميتِ عليهِ من الحقِّ أن يُعملَ له عزاء؟! ولكن ما يمضي الإنسانُ إلا من نفسِه.

ومَن استصحبَ الأمردَ قالوا: هذا غلام، والأمُّ تُعاونُ ولدَها على بُغيتِه مجلسَ الخمر، وتراهُ على الفواحشِ فلا تنهاه، والمحتاجُ إلى أيسرِ نفقةٍ يرهنُ دارَه ويؤدي الرِّبا فلا يُلام، ومَن معهُ عشرون دينارًا يسترهنُ دارًا فيأخُذُ الرِّبا، ويقول: حتّى لا يذهبَ مني فأحتاجَ إلى الناس، ويخطبُ المُهتَرُ[2] فيقال: زوِّجوه، هذا رجلٌ كريمٌ يأكلُ ويشربُ، ويخطبُ صاحبُ الدينِ فيقال: إنّه وَحِشُ الأخلاقِ بخيلٌ.

والويلُ عِندكُم لمن غيَّر ثيابَه قبل مُضِيِّ شهرٍ من المصيبة، أو صعِدَ السطحَ، أو خَضَبَ رِجلَه بالحِنّاء، يعيشُ أحدُكم خمسين سنةً أو سبعين سنةً لا يعرفُ أركانَ الصلاة، يكسِبُ أحدُكم مِن كُلِّ رِبًا ومحنة، فإذا نزلَ بِهِ الموتُ

---

(١) سقطت من (ر).

(٢) المُهتَر: الأحمق الجاهل.

روى الوارثَ، وكيف يُختَمُ لمَن كان[1] ذاك كَسْبَه بخير؟!

تـالله مـا عِندكم إلا اسـمُ الإسـلام، وأنتم عُبّـادُ العاداتِ لا عبيدُ الشـرائع، وأطَـمُّ مـا أنتُم فيهِ أنّكـم إذا عرفتُم قلتُم: مِن أين دُهِينـا؟ وهذا أقبحُ مِن الأول؛ لأنّهم ما علِمُوا أنّ ما فعلُوهُ قد حُرِّمَ.

٢٤٦- فَصْلٌ
[المرء أدرى بحاله]

ما زال إبليسُ يُحسِّـنُ لي السـفر، ويقـول: تنظرُ إلى البـلادِ وتعتبر، وتنفعُ الخلقَ بمواعظِك، فقلتُ له: إنّك تُسِرُّ حَسوًا في ارتِغاءٍ[2]، أنا أعرِفُ مقصودَك، وذاك أنّي إذا سافرتُ فلي في القلوبِ قَبول، وقد شاع ذكري في البلاد، وظاهرُ الحـالِ كثـرةُ الفتوح، وإقبـالُ الدنيا عليّ، وأنـا في بلدي أدفعُ الزمـانَ بمقدار، وهناك لا آمنُ كثرةَ الدنيا، ومتى تدافعَتْ دفعَ الماءِ في الحَلقِ لم يُؤمَنِ الشَّرَق.

وقد عرَفتُ مِن نفسي - لموضعِ فقري - أنّي لا أردُّ ما يجوزُ لي قبولُه، وغايةُ أمري أنّي لا أسألُ الدنيا، فأمّا أن أردَّ المباح، فلا قُوّةَ لي، ولو بعثَ إليَّ أميرُ بلدٍ شيئًا تأوَّلتُ وأخذتُه، والظاهرُ من الأميرِ التخليطُ، فيقعُ التأويلُ والتفسُّـحُ في المباح، فيُعدَمُ نورُ القلبِ الذي أجدُه اليوم، فلا يَفِي إصلاحُ غيري بفسادي.

وقد قلتُ مرارًا: متى أراد سيِّدي خِذلاني أخرجَني، وما دام لُطفُهُ شـاملًا لـي لا أبـرحُ، وقـد مضـى أكثرُ العمـرِ ومـا أخرجَني، بـل أجرى أُمـوري على السـداد، ومـا أعرِفُ من أبناءِ جنسـي مَن نُزِّهَ عنِ الطلبِ مِـن الناسِ والتعرُّضِ

(١) سقطت من (ر).

(٢) يُضرَب مثلًا لمن يريد أن يُعينَك وهو يجرُّ النفع إلى نفسه. انظر: مجمع الأمثال للميداني (٢: ٤١٧).

بهم نَزاهَتي، أفيحسُنُ أن أُعرِّضَ المَركبَ للغَرقِ وقد قاربَتِ الساحل؟ لا بل أبيتُ في دخول الشطِّ خوفًا من صدمة الحافّة. اللهمَّ إنّ هذه نِيّتي، إن وفَّقتني فارحمني، واختم لي بخير، يا مُقلِّبَ القلوب.

٢٤٧- فَصْلٌ

[اليد العُليا خير]

كُلُّ شيءٍ حملَ مِنه مخلوقٌ ذلَّ له، وقد قيل: «ما وَضعتَ يدكَ في قصعةِ أحدٍ إلا وضعتَ خدَّكَ له»، وإنّما تأنَفُ مِن الذلّ النفوسُ الأبيّة. وبالله لو كان الخلقُ لا يمُنُّون بالعطايا لكان ينبغي أن يلحَظَ الارتفاعَ عليهم لمكانِ المساواة، فلا يرضى بالتساوي بل يطلبُ العُلُوّ، فكيف وهم يمُنُّون قولًا وفعلًا؟ أتُراهم لو سكتُوا عنِ القولِ خفيَ على العاقلِ مِنّتهم واعتقادُهم إذلالَه؟!

وقد نبّه الشرعُ على الغِنى عنهم[١]، فقال رسولُ الله[٢] ﷺ: «لأن يأخُذَ أحدُكم حَبلًا ومُديةً فيَحتطِبَ، ثُمّ يبيعَه، خيرٌ مِن أن يسألَ الناس، أعطَوهُ أو منعُوهُ»[٣].

وأقبحُ الأحوالِ السؤالُ، فإنّه كَدٌّ للوجهِ العزيزِ بذُلِّ السؤالِ في حالِ مُخاطرتِه؛ لأنّه لا يدري أيحصلُ المقصُودُ أم لا؟ وقد بيَّنَ عليه السلام وجهَ الأنفةِ لمَن له أنفة، فقال: «اليدُ العُليا خيرٌ مِن اليدِ السُّفلى»[٤]، ولا شكَّ أنّ عُلُوَّ الجنسِ يأباهُ ذو الأنفة.

---

(١) سقطت من (ف).

(٢) «رسول الله» ليست في (ف).

(٣) أخرجه البخاري (١٤٧٠)، ومسلم (١٠٤٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) تقدم في الفصل ١٠١.

أترى بين السماءِ والأرضِ فرقًا من جهةِ الذواتِ أو من جهةِ عُلُوِّ مسافةٍ؟ كلا، بل لأنّ السماءَ في مقامِ المُعطي للأرض؛ تارةً بإنارةِ شمسِها وقمرِها ونجومِها، وتارةً بنزولِ المطرِ المُخرِجِ لنباتِ الأرض، والأرضُ كالمحتاج، والسماءُ كالغنيِّ المعطي[1]، فخُذ من هذا إشارةً إن لم يكن لك أنفة.

٢٤٨- فَصْلٌ
[شرفُ الإنسان بالعقل]

لقد شرُفَ الآدميُّ بالعقلِ على جميعِ الحيوانِ، وبتدبيرِ العقلِ استسخرَ الحيوانات، فالعجبُ له كيف يُخالفُ تدبيرَ العقلِ في بعضِ الأحوال، فيكونُ الحيوانُ أصلحَ حالةً منه؟! أوَليس الكلبُ الصائدُ يحبِسُ الصيد مع جوعِه على مُرسِلِه؛ خوفًا من عقابِه، وحذرًا من سلبِ نعمتِه؟ أفلا ينتبهُ هذا العاقل، فيُراعيَ حُرمتَه، ويحفظَ نعمتَه، ويخافَ أن يُعاقِبهُ المُنعِمُ عليهِ بانبساطِه في حرماته؟

فوا عجبًا، هو الذي علَّمَ الكلبَ أن يحبسَ مع شهواته، فخالف الكلبُ[2] ـ لموضعِ تعليمِهِ ـ هواه، وفعلَ فِعلَ العُقلاء، ولا عقلَ معه، فتركَ مع الشهوة، فكيف نسيَ هذا المُعلِّم؟ وكيف ضيَّع[3] ثمرةَ العقل في موافقةِ الهوى؟!

إنّ النملةَ لتدَّخِرُ مِن صيفِها لشتائها، ثُمّ تُخرِجُ المدفونَ فتُهوِّيه خوفًا عليه، فما الذي ادَّخرتَ لقبرِك؟! وأين نظرُكَ في تصحيحِ عملِك؟! إنّ الفأرةَ لَتحذَرُ من المِصيَدةِ جُهدَها، وإن لم يكن لها خبرٌ بباطنِ الأمر، وإنّ العصفورَ من شِدّةِ المجاعةَ يطولُ حَومُه حولَ الفخّ، ويُرجِّحُ السلامة، هذا الكلامُ لمَن يرى الخطيئةَ فيسرع، أين بيتُ العقل؟!

---

(١) سقط «للأرض تارة... المعطي» من (ف). (٢) سقط «أن يحبس... الكلب» من (ف).
(٣) سقطت من (ر).

وقـد ذكـرَ الحكمـاءُ أنّ الإبـلَ تـأكلُ الحيّات، فتعطشُ عطشًـا شـديدًا(١)، وتمتنعُ من شـربِ الماءِ خوفًا(٢) من أن يدِبَّ السُّـمُّ في جسـمِه فيهلِك، فيقفُ علـى الغدير وهو مجهود، فيعِجُّ(٣) ولا يشـرب، هذا إلهـامٌ قد هُيِّئَت لمُداراتِه، وأنتَ لا تصبرُ عمّا يضرُّك!

إنّ البهيمـةَ لتنقـادُ لسـائقِها، حتّـى إذا جاءت إلى السـاقية فضربَهـا لتقفزَ، وَزَنَتْ قُوَّتَها كما يزنُ العاقلُ حالةَ العواقب، ونظرَت هل في قُواها أن تَطفِرَ(٤) بالحِمـلِ الـذي عليهـا، فإن وجـدَت القُـوّةَ وافيةً بذلـك طَفرَت، وإن أحسَّـت بضعفٍ أخذَت بالحزمِ فلم تَطفِر، وكُلَّما ضربَها مانعَتهُ عن الاستجابةِ لمرادِه، وكأنّها في حالةِ معاناتِها لضربِه تسـخَرُ من عقلِه وتخاطِبُه بلسـانِ الحال: ها أنا صابرةٌ على الضربِ شفقةً على حِملِك، وقد كان حقُّك أن تشكرَني إذ حفِظتُ مالَـك الـذي حملتُه، وحفِظتُ نفسـي التي هي لك، ثم قدِّر أنّي أشـفقتُ على نفسي لا على مالِك، فما ينبغي لكَ أن تلومَ المُحترز. فإذا قهرَها بقُوّةِ الضرب فطَفـرَت فطَفِقَـت ووَقَعَت(٥) ووقـعَ الحِملُ، وقفَ يتخبَّطُ فيما جرى، ولسـانُ الحالِ يقول: أيُّنا كان على الصواب؟!

٢٤٩- فَصْلٌ
[حُفَّت الجنة بالمكاره]

مِـن العجائـب أنّـك تُريدُ جريـانَ الأُمُورِ فـي دارِ التكليفِ والمشـقّةِ على أغراضِـك، فـإذا تحـرَّف أمرٌ عـن مُرادِك ضَـجَّ الباطِـنُ والظاهِـرُ: وا عجبًا! لا

(١) سقطت من (ف).
(٢) سقطت من (ف).
(٣) يعِجُّ: يرفع صوته ويصيح.
(٤) طفر: قفز.
(٥) سقطت من (ر، ف).

لكونك مملوكًا صَبَرتَ، ولا لتسليمِ الحُكمِ إلى الحكيمِ سَكَنتَ، ولا لليقين بأجرِ المُصيبةِ تسلَّيتَ.

ولقد بحثتُ عن سببِ قلقِ النفسِ في مِثلِ هذا الحال، وإذا بها تُريدُ عاجِلَ الدنيا، فتقلقُ لفواتِ مُرادِها مِنها، وتُؤثِرُ أن يكُونَ ما يتعلَّقُ بالتكليف سهلًا كخمسِ صلوات، وصومِ شهر، ويقتصرُ على السهلِ في التكليفِ دون الصعب!

هيهات والله، إنّ أهونَ التكليفِ الوُضُوءُ والصلاةُ والصوم، وإنّما تكليفُ النفسِ الصبرُ على فقدِ المحبُوباتِ ومُقاساةِ المكرُوهات، ورُبَّ مكرُوهٍ في إثرِ مكرُوه، ولرُبّما طال زمنُ المكروه، والظنُّ يرجُو زوالَه، فإذا بلغتِ السِّكّينُ العظمَ، ووقفَ الإنسانُ موقِفَ المُضطرِّ، راجيًا لنجاحِ مُرادِه؛ رُدَّ، والبلاءُ بلا أجرٍ كأجرِ بنيامِينَ في آخِرِ شوطٍ مِن الصبرِ بعد فراقِ يُوسُفَ تِلكَ السنين.

ومتى جرى هذا على قويِّ الإيمان، ووُفِّقَ لحملِه حملَه، ولم يقطَع رجاءَه اتصالُ البلاء، وفي الحديثِ الصحيح: «نحنُ معاشِرَ الأنبياءِ أشدُّ الناسِ بلاءً، الأمثلُ فالأمثل، يُبتلى الرجُلُ على حسبِ دينِه، فإن كان في دينِهِ قُوّةٌ شُدِّدَ البلاءُ عليه»[1]. فمتى أنعمَ الحقُّ عز وجل بمعرفةٍ وإيمانٍ ويقينٍ قَبلَ البلاء، فقد أعطى الزادَ قبل السفر، فهان الأمر.

وإنّما المِحنةُ الكُبرى حُبُّ الدنيا، والتحسُّرُ على فواتِ الأغراضِ مِنها، وضعفُ الإيمانِ واليقين، فيأتي البلاءُ على قلبِ كلِّ[2] غافِل، فالذرّةُ مِنه جَبَلٌ،

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٩٨).

(٢) سقطت من (ر، ف).

وكم قد أخرجَ البلاءُ مؤمنين إلى الاعتراضِ والكُفر! فلا نالُوا ما أرادُوا، والتحقَ بمُصـابِ الدنيـا مُصـابُ الدين. اللهمَّ رحمتَـك يا كريم، ولُطفَـك يا رحيم، لا تُحمِّلنـا مـا لا طاقةَ لنا به، واعفُ عنّا واغفِرْ لنا وارحمْنا، ولا حولَ ولا قُوّةَ إلا بالله العليِّ العظيم.

٢٥٠- فَصْلٌ
[التصنُّع للخلق]

مـن أعجـبِ الأشياء التصنُّـعُ للخلـق، وإنّما هي أيّـامٌ ويمضـي المُتصنِّعُ والمُتصنَّـعُ لـه، ويصيـرُ الكُلُّ رميمًـا، ولا يظُنَّنَّ ظانٌّ أنّي أُشيرُ إلى كُلِّ شـيء، فيقـول: فأمشـي بيـن النـاسِ بلا عِمامـة[1] ولا أُبالـي على أيِّ حـالٍ رُئيتُ، فما المُـرادُ ذلـك، بـلِ التزيُّنُ والتحسُّـنُ للنـاسِ في مِثلِ هـذا الحالِ لا يضـرّ، فإنّ الإنسـانَ يُصفِّـفُ عِمامتَـه، ولـو كان المُـرادُ تغطيةَ الـرأسِ لغطّاهُ كيـف اتّفق، ويلبَسُ القميصَ أحسـنَه إلى خارجٍ، وهذا شيءٌ قد وُضِعَ في الطباع، والصانعُ قد خلقَ الإنسانَ مُزيَّنًا، فقوَّسَ حاجبَيه، ومدَّ قامتَه، وزيَّنَهُ بأنواعِ الزينة؛ ليأنسَ الجِنسُ بالجِنس، ولا يزالُ جِنسُهُ ناقصًا مَعيبًا.

وإنّما أذمُّ مَن تزيَّنَ وتصنَّعَ في بابِ الدينِ للخَلق، فأظهَر لهم ما ليس عندهُ من التخشُّع، وراقبَهم في إنكارِ مُنكَر.

وفي الجملة: مَن أسخط الله برضاهُم، فرُبّما كان قصدُه استجلابَ دُنياهم، فينسـى القدرَ، أو إقبالَ قلوبِهم إليه، فينسـى مُقلِّبَ القُلُوب، ولا ينسـى التصنُّعَ لهم إلا عن غفلةٍ عن صانعِهم، ومَنِ اشتغلَ بالدُّونِ فاتهُ الأعلى.

---

(١) سقط «بلا عمامة» من (ر).

٢٥١- فَصْلٌ
[الغفلة عن المآلات]

اشتدَّ عجبي مِمَّن يرى الحالَ الحاضرة، ولا ينظرُ في العاقبة. لنا جارٌ يزيدُ على سبعين سنة، لا يكادُ يستقرُّ في البلد، بل في الأسفارِ دائمًا، فإذا قدِمَ بعد سنةٍ أو سنتينِ فكأنّه يستوحِشُ مِن بلدِه، فما يُقيمُ إلا اليسيرَ بقدرِ ما يجمعُ متاعًا، ثُمّ يخرُج، فامرأتُه كأنّها أيِّمٌ، وأولادُه كاليتامى، وهو ضعيفُ البدنِ كبيرُ السِّنّ، غير أنّه قد غلبَ على قلبِهِ حُبُّ الدنيا، ولا يتركُهُ هواه فيه ينظرُ إلى المُرادِ مِنه. وهل يُرادُ المالُ لنفسِه، أو للمعاني التي فيه؟! فإذا لم يكُن له وطنٌ ولا زوجة، ولا تمتُّعٌ بولدٍ ولا خادمٍ مع كِبَرِ السِّنّ، فما المقصُودُ مِن المال؟! وهذا لا يكُونُ إلا مِن نسيانِ العواقِبِ والنظرِ في الأخير.

وهذا دأبُ رُكّابِ البحر، فإنّهم ينظُرُون إلى الأرياحِ ويُبصِرُون المَركَب، ولا يتفكَّرُون في الغرق، فهذه محنةُ العُصاة، فإنّهم ينظُرُون إلى عاجلِ اللذّة، ولا يتفكَّرُون في العِقاب، وهذا دأبُ اللُّصوص، فإنّهم يرون أخذَ المال، ولا يتفكَّرُون في أخذِهم وقتلِهم، وهذه محنةُ الشجعان، فإنّهم ينظُرُون في قتلِ مُحارِبيهم، ولا يتفكَّرُون في قتلِهم.

وكُلُّ هذا ينشأ من تركِ ملاحظةِ العواقِب، ومن لاحظَ العواقِب ملاحظةً قويّةً لم يَصْفُ له عيشٌ أصلًا، على ما سبق ذكرُه في مواضِع، فلا بُدَّ مِن نوعِ تغطيةٍ على النفس، بمقدارِ ما يطيبُ العيش. نسألُ الله عز وجل أن يسلُكَ بنا أوسطَ الأمُور، مع سلامةِ الدنيا والدين؛ إنّه سميعٌ قريب.



٢٥٢- فَصْلٌ

[إلفُ الأوطان]

يشتدُّ عجبي مِمَّن لا يُبالي ببُعدِهِ عنِ الوطنِ، واعلم أنّ هذا الكدرَ في طبعِه، فإنّ الصافيَ يتثبَّتُ بالمألوف، ولا مألوفَ كالوطن، وقد قرنَ الله عز وجل القتلَ بفراقِ الوطن، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم﴾ [النساء: ٦٦]، و: ﴿قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا﴾ [البقرة: ٢٤٦]، وكانتِ الحُكماءُ تقول: «أرضُ الرجلِ ظِئرُه، ودارُه مَهدُه»[١].

والغريبُ كالغرسِ الذي زايلَ أرضَه، وفقدَ شِربَه، وهو ذاوٍ لا يَنمِي، وذابلٌ لا ينضُر، وفطرةُ الفَطِنِ معجونةٌ بحُبِّ الوطن؛ ولِهذا قال بُقراط: «يُداوى كُلُّ عليلٍ بعقاقيرِ أرضِه»[٢]، ولمّا غزا إسفنديار بلادَ الخَزَر، اعتلَّ فقيل: ما تشتهي؟ قال: شَمّةً مِن تُربةِ بَلخ، وشَربةً مِن ماءِ واديها. واعتلَّ سابُورُ ذُو الأكتافِ بالرُّوم، وكان مأسورًا في القيد، فعشِقَته بنتُ مِلكِهم، وقالت له: ما تشتهي؟ قال: شَربةً مِن ماءِ دجلةَ، وشميمًا من ترابِ إصطَخر، فغَبَرَت عنه أيامًا، ثُمّ أتَت بماءٍ مِن الفرات، وقبضةٍ من شاطئه، وقالت: هذا مِن دجلة، وهذه من تُربةِ أرضِك، فشَرِبَ بالوهم، واشتمَّ التربة، فنَقِهَ مِن عِلَّتِه[٣]. وقد أنشدُوا في هذا وأكثرُوا، فقال بعضُهم[٤]: [الطويل]

---

(١) ذكره الجاحظ في الرسائل (٢: ٣٨٥)، والظِّئر: المُرضِعة.

(٢) ذكره الجاحظ في المحاسن والأضداد (ص١١٧).

(٣) ذكره الجاحظ في الرسائل (٢: ٤٠٩).

(٤) لنبهان بن علي العبشمي في الكامل للمبرد (١: ٤٦).

يَقَرُّ بِعَينِي أن أُرى في مَكانِهِ ... ذُرى عَطَفاتِ الأجرَعِ المُتَقاوِدِ
وأن أرِدَ الماءَ الذي عَن شِمالِهِ ... طَرُوقًا وقد ملَّ السُّرَى كُلُّ واحِدِ
وأُلصِقَ أحشائي ببَردِ تُرابِهِ ... وإنْ كانَ مَمزُوجًا بسُمِّ الأساوِدِ

وقال آخر: [الطويل]

إذا ما ذَكَرتُ الثَّغرَ فاضَت مَدامِعِي ... وأضحَى فُؤادي نُهبَةً للهَماهِمِ
حَنِينًا إلى أرضٍ بها اخضَرَّ شارِبِي ... وحُلَّتْ بها عَنِّي عُقُودُ التَّمائمِ
وألطَفُ قَومٍ بالفَتى أهلُ أرضِهِ ... وأرعاهُمُ لِلمَرءِ حَقُّ التَّقادُمِ

وقال بعضُهم: «عُسرُكَ في بلدِكَ أعزُّ عليكَ مِن يُسرِكَ في غُربتِك»[(١)]، وأنشدَ[(٢)]: [الوافر]

لَقُربُ الدارِ في الإقتارِ خَيرٌ ... مِن العَيشِ المُوسَّعِ في اغتِرابِ

وكانُوا إذا سافرُوا حملُوا معهم من ترابِ أرضِهِم؛ يستشفُون به، وأنشدُوا في ذلك[(٣)]: [الطويل]

نَسِيرُ على عِلمٍ بكُنهِ مَسِيرِنا ... وعُدَّةِ زادٍ في بقايا المَزاوِدِ
ونَحمِلُ في الأسفارِ مِنّا قُبيضَةً ... مِن المُنتأى النائي لِحُبِّ المَوارِدِ

وقال آخر[(٤)]: [الطويل]

أَحَبُّ بِلادِ الله ما بَينَ صارَةٍ ... إلى قَفَوانٍ أن تَسِحَّ سَحابُها
بِلادٌ بها نِيطَتْ عَلَيَّ تَمائمِي ... وأوَّلُ أرضٍ مَسَّ جِلدِي تُرابُها

---

(١) ذكره الجاحظ في الرسائل (٢: ٣٨٦).
(٢) البيت بلا نسبة في الدر الفريد (٩: ٢٣٥).
(٣) لرجل من بني ضبة في ربيع الأبرار (١: ٢٨٧)، والبيت الأول سقط من (ف).
(٤) بلا نسبة في رسائل الجاحظ (٢: ٣٩٩).

وقال آخر(١): [الطويل]

كَم مَنزلٍ فـي الأرضِ يألفُهُ الفتى ... وحَنينُـــهُ أبـــدًا لأوّلِ مَنــــزِلِ
نقّلْ فؤادَكَ حيثُ شِئتَ مِنَ الهوى ... مـا الحُـبُّ إلا لِلحَبيـبِ الأوّلِ

وقال آخر(٢): [الوافر]

تَمتَّـعْ مِن شَـميمِ عَـرارِ نَجدٍ ... فما بعـدَ العَشِـيّةِ مِـن عَرارِ
ألا يـا حَبَّـذا نَفَحـاتُ نَجـدٍ ... وريّـا رَوضِـهِ غِـبَّ القِطـارِ
وعَيشُـكَ إذ يحلُّ القومُ نَجدًا ... وأنتَ علـى زمانِكَ غيـرُ زارِ
شُـهورٌ يَنقَضِيـنَ ومـا عَلِمنا ... بأنصـافٍ لهُـنَّ ولا سِـرارِ

فهذه صِفاتُ الطباعِ السليمة، وعلى نحوِ هذا إلفُهم كُلَّ شيء، فإنّ المُؤمِنَ يألَفُ ويُؤلَف. ومن أبلغ ما قيل في الإلفِ قولُ المُتنبّي(٣): [الطويل]

حَلَفـتُ أُلوفًا لو رَجَعتُ إلى الصِّبا ... لَفارَقتُ شَيبِي مَوضِعَ القَلبِ باكِيا

فأما الطباعُ التي لا تألفُ صديقًا ولا وطنًا ولا شـيئًا فحاسّـةٌ(٤) قاسية، وإنّ الرقيقَ الطبعِ ليألَفُ حتّى الهِرّ، ويستوحشُ لفقدِ طائـرٍ يكُونُ عِندهُ في البيت. نعُوذُ بالله من قسـاوةِ القلب، وجياشـةِ الطبع، فإنّه ليس مِن صِفاتِ الصالِحين، ولا أخلاقِ المُتَّقين.



---

(١) نسبه الجاحظ في الرسائل (٢: ٤٠١) إلى الطائي.
(٢) الأبيات في شرح المرزوقي (٣: ١٢٢٠) وما بعدها.
(٣) ديوان المتنبي (ص٤٤٢).
(٤) حاسة: أي شديدة.

٢٥٣- فَصْلٌ

[الانقطاعُ عن العلم]

قـلَّ أن تخلـوَ طُـرُقُ الفضائلِ مِن آفةٍ، فـإنّ أفضلَ الأشـياءِ العلمُ والعمل، وقـلَّ أن يُمعِـنَ فـي العِلمِ أحـدٌ إلا ويُعجِبُ نفسَـه، ويحتقرُ مَن دُونـه، ولا يَعُدُّ المُتزهّدين، ولا يحترزُ في كلامِه، ولا يكُونُ له في صفاءِ القُلُوبِ حظٌّ، ولا مع أهلِ الورعِ نصيب، هذا الغالِبُ مِمَّنِ الغالِبُ عليهِ العِلمُ.

وأمّـا الزُّهّـادُ المنقطعُون فلهم آفـاتٌ، مِنها: الانقطاعُ عـنِ العِلمِ الذي هو أفضلُ مِمّا هم فيه؛ لأنّ العِلمَ أوفى العِبادات، وإذا كان سعيُ الجوارِحِ فاضِلًا، فمـا ظنُّـك بالعِلـمِ الذي لا يحصُلُ إلا بسـعيِ القلب، وإنضارِ حلـمِ الفِكر[1]؟ ولولا قِلّةُ عِلمِ المُتزهّدين ما آثرُوا الزهدَ على العِلم.

ومن قِلّةِ عِلمِهم قولُ أكثرِهم: «وهل المُرادُ مِن العِلمِ إلا العمل؟!» وهذا قولٌ صحيح، ولكِنّ معناهُ العملُ بواجِبِ العِلم، ثُمّ إنّ طلبَ العِلمِ أوفى عملٍ كما بيّنّا.

ولقلـةِ عِلـمِ المُتزهّديـن يلعـبُ بهِـمُ الشـيطان، ولا يُمكِنُـهُ ذلـك في حقِّ العُلمـاء، فقد يدخلُ على المُنفرِدِ مِن بابِ احتقارِ الناسِ وقُصورِهم عمّا انفردَ به، والأنفةِ من ذوي الخطايا، ورُبّما درَّجه إلى اسـتعمالِ هيئةٍ تُوجِبُ تخشُّـعًا، يكُـونُ تأثيـرُهُ تقبيـلَ اليد، ورُبّمـا أراهُ تركَ عيـادةِ المرضى وتشـييعِ الجنائزِ في ضمنِ التحذيرِ مِن المُخالطة! وليس التعبُّدُ ما يُخرِجُ عنِ اتِّباعِ السُّنّة.

وقـد يتوقَّـعُ المُتعبِّدُ الجاهلُ حُصُـولَ جاهٍ عِند ربِّهِ في إجابـةِ دُعائه، ونيلِ

---

(١) في (ر، ق): «وإبصار أحلّه الفكر».

أغراضِه، وكراماتٍ يرتقيها، فإذا لم يقعْ مِن هذا شيءٌ تأفَّفَ في باطِنِه تأفُّفَ[١] الأجيرِ الذي لم يُوَفَّ حقَّه! وكُلُّ هذه الآفاتِ سببُها قِلّةُ العِلم.

ولقد زيَّنَ لكثيرٍ مِن العُبّادِ دفنَ كُتُبِهم؛ لأنه علِمَ أنّ العِلمَ نُورٌ يُستضاءُ بِهِ في طريقِ المعاملة، فأراد أن يمشـوا في الظلمة؛ ﴿فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠].

ورُبّمـا بلـغَ مَن سـمِع كلامي هذا أنّ بعـضَ العُلماءِ كسـفيانَ الثوريِّ دفنَ كُتُبَه[٢]! وليعلمْ أنّ ذلك كان لسببٍ، وهو أنّه كان يكتبُ عنِ الضُّعفاء، فاختلطَ الصحيحُ بغيرِه، فدفنَها لهذه العِلّة، فمَن دفنَ كُتُبَه لغيرِ معنًى صحيحٍ فقد خالفَ الشرع، وأضاعَ المال.

فاسـمعْ نُصحـي، واحذرْ مِـن سـبيلِ الرجُلَيـن: العالِمِ الـذي اقتصرَ على الجِدالِ في الفقهِ طلبًا للرياسة، أو نال القضاءَ فلم يُراعِ سِوى منزلتِه، أو زخرفَ المواعِظَ فضيَّق أعينَ شبكتِه؛ والزاهِدِ الذي يتقلَّبُ في جهالتِه، ويتقوَّتُ بتقبيلِ يده، واعتقادِ بركتِه، ويعملُ برأيِهِ دون شرعِ الله وسُنّتِه.

وعليك بطريقِ السلـفِ الصالِح، فإنّها سبيلُ الاستِقامة، ومنهاجُ السلامة، فتلمَّـحْ مِـن الآثارِ آثارَهُم، واسـمعْ مِـن الأخبارِ أخبارَهم، وسَـلِ الله سـبحانه الإعانةَ على اتِّباعهم، وأن يجعلَك من أتباعِهم، فإنّه قريبٌ مُجيب.



---

(١) سقط «تأفّف في باطنه» من (ف).

(٢) تقدم في الفصل ١٩.

٢٥٤- فَصْلٌ
[إخمالُ النفس]

قوّةُ الشُّهرةِ بكثرةِ إخمالِ النفسِ، وشرحُ هذا أنّ مَن قصدَ إخمالَ نفسِه أظهرَها الله عز وجل، ومَن قصدَ إعلاءَها خفضَها، وكُلّما قويَ إخمالُ الإنسانِ لنفسِه زاد اشتِهارُه بين الخلقِ بالخير، كالعُودِ كُلّما تكاثفتِ الثيابُ عليهِ اجتمعَت ريحُه، فإذا فُتِحَ له بابٌ يسيرٌ جاد الريح، وفي الحديث: «مَن تواضعَ لله رفعَه الله»(١)، وفي حديثٍ آخر: «ما مِن آدميٍّ إلا وفي رأسِهِ حَكَمةٌ بيدِ مَلَكٍ؛ إن ترفَّعَ وضعَه، وإن تواضعَ رفعَهُ»(٢).

وهذا لأنّ مَن قصدَ الإخمالَ رضيَ بنظرِ الحقِّ إليهِ وحده، فتحقَّقَت له العُبُوديةُ؛ إذ قد جمعَ همَّهُ(٣) في مراضي مولاهُ فحسب، ومَن أراد أن يُذكَرَ بالخيرِ فقد جعلَ لنفسِه حظًّا مِن التعبُّد، فهو مِن جِنسِ الشِّرك(٤)، والمِسكُ الأذفرُ الخالِصُ لا يكُونُ كالمغشُوش.

ولِهذا المعنى رفعَ الله الذين بالغُوا في إخمالِ نُفُوسِهم، فهذا ابنُ المباركِ يقولُ: «لا يُكتَب كلامي، ومن أنا حتّى يُكتَبَ كلامي؟!» وهذا أحمدُ بنُ حنبلٍ ينهى عن كِتابةِ كلامِه. فقلَّ أن تقعَ مسألةٌ إلا وله فيها نصّ؛ لأنّه بدَّدَ مجموعَ ذكرِ نفسِه بجمعِ ذكرِ ربِّه؛ لئلّا يقعَ في السِّلكِ شركٌ، فجمع له الحقُّ ما بدَّدَ لأجلِه بيدِ البركة، فصار مذهبُه مُدوَّنًا أكثرَ مِن تدوينِ مَن دوَّنَ مذهبَ نفسِه.

---

(١) مسلم (٢٥٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بمعناه.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٢٨٢٨٣) عن عمر بن الخطاب من قوله رضي الله عنه، والحَكَمة: حديدة في لِجام الفَرَس تكون في فمه.

(٣) سقطت من (ف). (٤) سقطت من (ر).

فالله الله في قصدِ الإخلاص، فإنّه الكبريتُ الأحمر، وكان أحمدُ بنُ حنبلٍ يقـولُ: «مـا رفعَ الله القومَ إلا بالإخلاص»، وقال: «مـا رفعَ الله ابنَ المباركِ إلا بخبيئـةٍ كانت لـهُ[1]»[2]، وقد رَوَينا عنِ ابنِ المباركِ أنّـه قاتلَ في صفّ الكُفّار، فقتَل خلقًا مِنهُم وهو مُغطّى الوجهِ حتّى لا يُعرَف، وكان يبكي ولا يُدرى به.

فقد قُلتُ غيرَ مرّة: إنّ مَن أراد إقبالَ القُلُوبِ إليهِ بالمحبة، فليقصِدْ وجهَ الله بعلمِه، فإنّ القُلُوبَ بيدِه، وإيصالَ المُستنشَقِ إلى المُستنشِقِ من جُملةِ صنعتِه، فمَن فاحَت مِنهُ روائحُ الإخلاصِ وجدَ الناسُ طِيبَ طُرّهِ[3] في مُستنشَـقاتِهم، فأحبُّـوه، وإن كان لا يلتفِـتُ إليهم؛ شُـغلًا بمَنِ اشـتغلَ به. نسـألُ الله عز وجل إخلاصًا يُفرِدنا به؛ إنّه كريمٌ مُجيب.

٢٥٥- فَصْلٌ
[نعمةُ التشاغُلِ بالعلمِ]

أسـألُ الله عز وجل أن يُديمَ علينا حُبَّ العِلم، والتشـاغُلَ به، فإنّه النورُ في الظُّلمة، والهادي في الضلالة. كُم قد سمِعتُ عن جماعةٍ من الزُّهّادِ المذكُورين والصالحين المشـهُورين أنّهم كرِهُوا أكثرَ كِتابـةِ الحديثِ والعِلم، وحثُّوا على التعبُّد، حتّى إنّ بعضَهم يقولُ: «ليس طلبُ الحديثِ مِن زادِ القبر»[4]، وبعضُهم يقولُ: «إنّما يُرادُ العِلمُ للعمل»، وغير ذلك.

ولا أحبُّ أن أُسـمِّيَ من قال؛ لأنّ القُلُوبَ قد عبِقَت بمحبّتِهم، وهم أهلٌ

(١) سقطت من (ف).
(٢) ذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة (٢: ٣٣٠).
(٣) طِيب طُرّه: طِيب منظره وحسنه وجماله.
(٤) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١٧٣٣) من قول السري بن المغلس.

للمحبـة؛ لقُـوّة دينِهم وكثرةِ عِبادتِهم، لكِن لقلّةِ علمِهـم قالُوا هذا، وهلِ الدينُ إلا العِلم؟ وهل عُرِفَ الله إلا بالعِلم؟!

فـإن قالُـوا: المُـرادُ معرِفـةُ الواجِـب. قلـتُ: والمنـدوب، والمسـتحَبّ، والمكـروه، والمحـرَّم، والأدب، وما يُقرِّبُ إلى الله تعالى، وما يُبعِدُ مِنه، وهل يشتملُ العِلمُ إلا على هذا؟!

أتُـرى لو تشـاغلَ النـاسُ بالتعبُّدِ ـ كما فعل وُهَيبُ المكّي ـ فحلفَ إنسـانٌ بالطـلاق، أو مـات رجـلٌ ثُمّ مات ورثتُـه، فاحتاجُوا إلى قِسـمةِ التركة، أو غير ذلك مِن دقائقِ الفقه، مَن كان يُوضِّحُ شـرعَ الله وحُكمَهُ في تِلكَ المسـائل؟ أو لـو جـاء كافِرٌ فقال: بيِّنُـوا لي بالدليل وحدانيةَ الإله، أو ذكرَ نصرانيٌّ شُـبهة، أو يهُوديٌّ أو دهريٌّ؟! ما الذي كانت تُغنينا عِبادةُ بشـرٍ الحافي ووُهَيبِ المكّي؟! وقد ارتفع مَن هو أعلى من هذَين، كالحسـنِ البصريِّ، وسـعيدِ بنِ المسيِّبِ، وعطاءٍ، ومُجاهدٍ، والثوريّ، ومالِكٍ، وأحمدَ بنِ حنبل، والشـافِعيّ، بالعِلمِ أو بالتعبُّد؟! هيهات.

والله، لَمسألةٌ رتَّبها الشافِعيّ، وفرَّع عليها، فعَمِل الناسُ بها، أو فتوى أفتى بهـا أحمـد، وذكرَ دليلَها، أو حديثٌ طعنَ فيهِ يحيى بنُ معينٍ أو صحَّحَه، فنُفِيَ حُكمُه أو بقي؛ أفضلُ مِن تنفُّلِ المُتعبِّدِ خمسين سنة.

وهـل يختلـفُ الناسُ فـي أنّ نفعَ العِلم يتعـدّى، ونفعَ العِبـادةِ لا يتعدّى؟ وهـل بُعِـثَ الأنبيـاءُ إلا بالعِلم؟ وأبلغُ من جميـعِ هذا قولُه تعالـى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ﴾ [آل عمران: ١٨]، فبـدأ بنفسِـه، ثُـمّ ثنّـى بملائكته، ثم ثلّث بأُولي العلم.

أوَليس مِن قِلّةِ عِلمِ خلقٍ مِن المُتزهِّدين، دفَنوا كُتُبَهم، وأقبلُوا على التعبُّد؟ فلو علمُوا أنّ هذا لا يحِلُّ ما فعلُوا، وإنّما دفنَها قومٌ مِن العُلماءِ كسفيان(١)؛ لأنّه كان فيها ما لا يصلُحُ مِن الرِّوايةِ عن كذّابين وضعفاء، واختلطَ الأمرُ عليه، فأمّا إذا لم يكُنْ بالكتب آفةٌ فهي عِلمٌ نافعٌ ومالٌ لا وجهَ لتضييعِهِ أصلًا.

فالله الله أن يُفتيَ رجلٌ بما لا يعرف، أو أن يقبَلَ مُستفتٍ مِمَّن ليس مرتبتُه الفتوى، أو أن يُؤثَرَ صومٌ أو صلاةٌ أو حجٌّ على التشاغُلِ بالعِلمِ الذي لا يُعرَفُ الحقُّ إلا به، ولا يُتقرَّبُ إلى الله بسواه، وقد قال لنبيِّه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، ولم يقل: زِدني تعبُّدًا؛ لأنّ التعبُّدَ فعلُ الجوارِح الظاهرة، والعِلمَ مُحصِّلةُ القلب، والقلبُ أشرف، وقد بدأ تعالى بالعِلمِ فقال: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩].

٢٥٦- فَصْلٌ
[غلبةُ العادات]

تأمَّلتُ غلبةَ العاداتِ على الناسِ التي مالت بهم عنِ الشرع، فإذا بها قد عمَّت جماهيرَ العُلماءِ والمتديِّنين. فمِن ذلك أنّي رأيتُ أئمّةَ المساجِدِ يُوقِدُون ليلةَ الجمعةِ النيرانَ الكثيرةَ الخارجةَ في(٢) الحدِّ، ويتباهَون في كثرةِ ذلك، فيجتمعُ في هذا أُمورٌ كُلُّها مُنكَرةٌ قبيحة، فمِنها: كثرةُ النيرانِ تشبُّهًا بالمجوس، ومِنها: إضاعةُ الأموال، حتى إنّهم يُوقِدُون النارَ على منارةِ المسجِدِ ومواضعَ لا يستضيئون بها. وليس في ذلك إلا الرياءُ واللعبُ وإضاعةُ المال، ومن ذلك أنّه كُلَّما كثُرَ هذا كان سببًا لاجتماعِ الناسِ الموجبِ للفساد واللعب، فإنّ تلك

(١) تقدم في الفصل ١٩.
(٢) كذا في النسخ، ولعل الصواب: عن.

الليلةَ تخرُجُ الصبيانُ والنِّساءُ ويمشُون في الظُّلُماتِ لأجلِ النظرِ إلى ذلك، ويعلَمُ أئمّةُ المساجِدِ بهذا، وهم يُبالِغُون في الإيقادِ مع علمِهم بما يتضمَّنُ ذلك، وما رأيتُ مَن يتحاشى مِن[1] هذا؛ لا أهلَ مدرسة، ولا أهلَ مسجِد، ولا صاحِبَ زاوية.

حتّى إنّ بعضَ الصبيانِ ختم، وكان أبوهُ صاحِبَ مالٍ وجاه، فاستعار له أنوارَ الذهبِ والفضة، وعُلِّقَت تنانيرُ وسفنٌ فيها النيرانُ مُوقَدة، وتُحضَرُ مداخنُ الذهبِ والفضة، يُوقَدُ فيها العُود، ومِرَشّاتُ ذهبٍ فيها ماءُ الورد. وهذا من المُنكَراتِ التي غلب فيها العاداتُ وحبُّ اللعب، وتواطأَ الكُلُّ عليها.

ورُبّما احتجُّوا بأنّ عُمَرَ نوَّر المساجِدَ بالمصابيح، والخمسةُ والسّتةُ في المسجد ليس بقبيح؛ لأنّ المُرادَ الضوء، وإنّما يُذَمُّ ما يخرُجُ إلى الإفراطِ والتفريطِ والطُّرُقاتِ التي تقرُبُ مِن المسجِد.

ولقد رأيتُ رجُلًا من المشايخِ القُرّاءِ ختمَ في رمضان، فعلُوا له ما خرجَ عنِ الحدّ، وكان يُمَدُّ الحبال في الشوارع من دارٍ إلى دار، ويُعلَّقُ في ذلك الحبل، وكان مسجدُه ببابِ أبرز، فعُلِّقَ له مِن أوّلِ المُظَفَّرِيّةِ إلى بابِ أبرز، ومُدَّتِ الحبالُ بين كُل تُربتَين، وجُعِلَ على ظُهُورِ التُّرَبِ نيرانٌ كثيرة، وخرجَ الصبيانُ والنِّساء، وخرجَ الوالي يحفظُ الناس، وجرى ما شاء الله مِن كُلِّ قبيحٍ بين القُبُور، وعِندَ الموتى، فلمّا فرغَ الشيخُ من الصلاةِ مشى بين يدَيهِ حمّالٌ قد حملَ على رأسِهِ طِنجِيرَ الأُرز، وقد تركَ في وسطِهِ هُرْدِيَّ[2] قصبٍ طويل، وعلى رأسِه شمعة، وكُنتُ إذ ذاك صبيًّا غيرَ بالغ، فرأيتُ ذلك، وتعجَّبتُ مِنه،

(١) سقطت من (ف).

(٢) الهُردية: قَصَبات تُضَمُّ مَلوِيّةً بِطاقاتٍ من الكَرم. المغرب (٢: ٣٨١).

وقلتُ: ما تركَ[١] هذا الشيخُ الكبيرُ للصبيانِ في اللعبِ شيئًا إلا وقد زاحَمهم عليه!

ورُبّما اعتَقد الحمقى أنّ في هذا زينًا لدينِ الإسلام، ونِواءً[٢] للكُفّار، وهيهات! فإنّ الدينَ لا يُزيَّنُ بما يَنهى عنه.

وكذلك يُزخرفُون المساجِدَ والمصاحف، ويزعُمُون أنّ هذا تعظيمٌ للشرع، وقد نهى رسُولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم عن إضاعةِ المال[٣]، وقد كان الإمامُ أحمدُ بنُ حنبلٍ يخرُجُ لصلاةِ التراويحِ وبيدِه سراج، فيتركُها على درجةِ المسجِدِ ويُصلِّي، وهكذا كان السلف، حتّى قلَّ العِلمُ، وغلبَ الهوى، وصارتِ العاداتُ شرائعَ.

حتّى إنّ بعضَ الحمقى إذا ذُكِر رسُولُ الله ﷺ يقولُ: أزعِجوا أعضاءَكم بالصلاةِ عليه! ورأيتُ بعضَ أئمّةِ المساجِدِ إذا ذُكِر رسُولُ الله ﷺ، فصلّى الناسُ عليه، غضِب مِن كونِهم لا يرفعون أصواتَهم خارجًا عنِ الحدّ! فقلتُ: سُبحان الله! ما أجهلَ هذا بقولِ النبيِّ ﷺ! وقد سمِعَهم يرفَعون أصواتَهم بالتكبير، فقال: «اربَعُوا على أنفُسِكُم، فإنّكُم لا تدْعُون أصمَّ ولا غائبًا، إنّما تدعُون سميعًا قريبًا»[٤]، ولمّا رفعَ أبو محذُورةَ صوتَه بالأذان، قال له عُمر: أما خِفتَ أن تنشقَّ من مُرَيطائكَ[٥]؟![٦]

---

(١) في (ر): «وقلت: أترك».

(٢) نِواء: مُغالَبة.

(٣) تقدم في الفصل ١٠١.

(٤) البخاري (٢٩٩٢) من حديث أبي موسى رضي الله عنه بمعناه.

(٥) المُرَيطاء: ما بين السرة والعانة.

(٦) رواه عبد الرزاق في مصنفه (١٩١٩).

فالحذرَ الحذرَ مِن عاداتٍ قدِ استولَت على الناس، وساكَنَها المُتزَيُّون بالعِلمِ والزُّهدِ لقلّةِ عِلمِهم، فصارت عِندهم كالدين، وسكتَ العُلماءُ عن إنكارِها لبرودةِ الإسلامِ في قُلوبِهم، وغلبةِ العاداتِ عليهم. نسألُ الله عز وجل قُوّةً في الفهم واليقظة، واتّباعًا لطريقِ السلفِ الصالحِ في مناهجِ الهُدى؛ إنّه كريمٌ مجيب.

٢٥٧- فَصْلٌ

[التألّي على الله]

رأيتُ مِن القُصّاصِ مَن إذا تابَ الإنسانُ[١] على يدِهِ، قال له: قل: أنا تائبٌ لا أعودُ أبدًا، فرأيتُ هذا خطأً، كأنّه حَجْرٌ على القَدَر، وقلتُ: لو قال: «عازمٌ على[٢] ألا أعود»؛ كان أصلح، ومِن أين لنا القطعُ على الأقدار؟

وما زال هذا في نفسي، حتّى أخبرنا يحيى بنُ عليّ، قال: حدَّثنا أبو بكرٍ الخيّاط، قال: أخبرنا الحسنُ بنُ الحُسينِ بنِ حَمَكان، قال: حدَّثنا عُمرُ بنُ أحمدَ ابنِ حَرَجَةَ، قال: حدَّثنا أبو بكرِ بنُ مُحمّدِ بنِ الحسنِ البَلَغيّ، قال: حدَّثنا مُحمّدُ ابنُ أبي مروان، عن عيسى بنِ يونس، قال: كنّا عِند مُحمّدِ بنِ كعبٍ القُرَظيّ[٣]، فأتاهُ رجل، فقال: يا أبا عبدِ الله، ما تقُولُ في التوبة؟ قال: ما أحسنَها! قال: أفرأيتَ إن أعطيتُ الله عهدًا ألا أعصيَهُ أبدًا؟ قال: فقال له مُحمّد: فمَن حينئذٍ أعظمُ جُرمًا مِنك؟ تَألّى على الله ألا يُنفِذَ فيكَ أمرَه؟!

---

(١) سقطت من (ر).

(٢) سقطت من (ر، ف).

(٣) في النسخ: «جاء عند محمد بن كعب الديلي»، والتصويب من كتاب القصاص للمصنف (ص٢٣٥)، والفوائد والأخبار لابن حكمان (٥)، والخبر يرويه المصنّف بسنده إلى ابن حكمان.

٢٥٨- فَصْلٌ

[مَذهبُ السلف في الصفات]

جرى بيني وبين أصحابِ الحديثِ يومًا كلامٌ في الأُصول، فقُلت: الصواب مذهبُ السلف، وهو إمرارُ الآياتِ والأحاديثِ كما جاءت مِن غيرِ تفسيرٍ ولا تأويل، وأنا أُنكِرُ على جماعةٍ من أصحابِنا انبسطوا، فتكلَّموا برأيهم وفهمِهم وحَملِهم إيّاهُ على ما يعلمونه مِن الشاهد؛ كقولِ بعضِهم: «استوى على العرشِ بذاتِه».

فقال لي: إنّه قد نُقِل عن جماعةٍ مِن أصحابِنا هذا، فكيف قالُوه؟ قلت: لأنّه حمَلوا ما سمعُوا على المفهوم عِندهم، فوقعَ عندهم[1] الغلط، وذلك أنّهم لما سمِعوا «استوى» فهِمُوا أنّ المُستويَ الذات.

قال لي: فهو غيرُ ذاتِه؟ قلتُ: لا، فإنّ القُرآنَ قد صرَّح فقال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٥٩]، فنحنُ نقُول: «هو استوى على العرش»، ولا نُفسِّرُ هذا، فإذا قُلنا: «ذاتُه على العرش»، فقد فهِمنا مِن كلامِهِ ما نفهَمُه من استوائه على السرير، وكذلك يلزَمُنا في قولِه: «ينزِلُ»[2] أن نقول: «ينزل بذاتِه»، فيُفهَمُ مِن ذلك أن يخلُوَ مِنهُ مكان، ويمتلئَ بِهِ مكان، فإذا كان في السماءِ لم يكُن على العرش؛ وهذا لا يحِلُّ اعتقادُه، وما يُوقِعُ هذا[3] إلا حَملُ الكلامِ على مفهومِنا مِن الشاهِد، وهذا هو التشبيه، وإنّما الصوابُ أن نقُول كما قال، ولا نُفسِّرَهُ ولا نعلَمَ معناه، فما دُهِي مَن دُهِي إلا مِن هذه الجِهة، وهي حَملُ الآياتِ والأحاديثِ على ما يُفهَمُ مِن الشاهِد.

---

(١) سقطت من (ر، ف).

(٢) تقدم في الفصل ٤٩.

(٣) كذا في النسخ، ولعلها: يوقع في هذا.

وقد تَخلَّصَ مِن هذه المِحنةِ جُمهُورُ السلفِ المُتقدِّم، فكانُوا يقُولُون: «أمِرُّوا هذه الأحاديثَ كما جاءت»[1]، وكانُوا يمنعُون من تفسيرِها، ثُمّ جاء قومٌ بعدهم فلم يرتضُوا طريقَهم، فأخذوا يتمتَّعون بالكلامِ الذي أنطقهم بِهِ فهمُ الأوصاف، وحَملُها على الشاهِد.

فمِن الغلطِ القبيحِ ما ذكرهُ أبو بكرِ بنُ خُزَيمة ـ وكان مِن كِبارِ الأئمةِ ـ في «كِتابِ التوحيدِ»، فإنّه ذكر الأحاديث، فلو وسِعهُ ما وسِع مَن قبلهُ مِن الأئمّةِ[2] لسكتَ عِند رِوايتِها، ولكِنّهُ أراد التوسُّعَ فضاق عليهِ الخِناق، فقال في قولِه: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]: لربِّنا عينانِ يُبصِرُ بهما. وأنا أتعجَّبُ مِن أين له هذه التثنية؟! ثُمّ قال: بابُ إثباتِ الرِّجلِ لله سبحانه وتعالى، وإن رغِمَت أُنوفُ المُعطِّلة، قال الله تعالى: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ﴾[3] [الأعراف: ١٩٥] قال: أعلَمنا أنّ مَن لا رِجلَ له ولا يدَ فهو كالأنعام. ولقد طال تعجُّبي مِن هذا الرجُلِ المُنبسطِ في هذا الكلامِ الذي يلزَمُهُ أن يُثبِتَ أُذنًا أيضًا.

وقد حكى الخطّابيُّ عن بعضِ شُيُوخِهم المُحدِّثين أنّه قال: «إن قال لنا قائل: كيف ينزِل؟ قلنا: ينزِلُ كيف شاء، قال: هل يتحرَّك؟ قُلنا: إن شاء تحرَّك، وإن شاء لم يتحرَّك». قال الخطّابيّ: «وهذا خطأ فاحش؛ لأنّ الله تعالى لا يُوصَفُ بالحركة؛ لأنّ الحركةَ والسكونَ يتعاقبانِ في محلٍّ واحِد، وهُما مِن أوصافِ المُحدَث، والله مُتعالٍ عنهما، ولو جرى هذا الشيخُ على طريقِ السلفِ لم يخرُجْ بِهِ القولُ إلى مِثل هذا الخطأ الفاحِش»[4].

---

(١) رواه أبو داود في المراسيل (٧٥).
(٢) سقط «من الأئمة» من (ف).
(٣) قوله: «يمشون بها» ليس في (ف).
(٤) معالم السنن (٤: ٣٣٢).

قلتُ: وقد ذكر أبو بكرِ بنُ الأنباريِّ في «المُشكل» في تفسيرِ قولِه تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾[1] [البقرة: ٢١٠]، فقال: أهلُ وأصحابُ الحديثِ يقولون: يأتي الله كما يشاء، إتيانًا لا زوالَ له ولا نُقلة، ومحظورٌ علينا[2] أن نقول: كيف يأتي؟

قلتُ: وهذا الرجُل أراد أن يجعلَ المجيءَ وصفًا لله سُبحانه، وأن يمتنِعَ مِن تأويلِه، فرمز إلى التأويلِ وما يدري؛ لأنّ صفاتِ الذاتِ لا تدخلُ تحت المشيئةِ ولا الكيفيةِ، وإذا جاء كما شاء دلَّ على تأويلِ الآية.

وقد جاء بعد هؤلاءِ أقوامٌ مِنهم ابنُ حامدٍ، فقال: «الاستواءُ مُماسّةٌ، والنزولُ انتقالٌ». وهذا كُلُّهُ تشبيهٌ، وجهلٌ بالخالق، وحملٌ لأوصافِهِ على الشاهِد، وقد نسيَ هذا المِسكينُ أنّ صِفاتِ الله لا تتجدَّد، ولا يجُوزُ عليه الحركةُ ولا السكون.

وكُلُّ هؤُلاءِ جُهّالٌ بالله تعالى، وما أخوفَني ألا يصِحَّ لهم إيمانٌ ولا يُرفَعَ لهم عملٌ! لأنّهم عبدُوا صُورةً مشبهةَ الصُّوَر، فكانُوا كعُبّادِ الأصنام، تعالى الله عنِ اعتقادِهم المبنيِّ على جهلِهم.

وقال بعضُ مشايخهم: «لمّا خلقَ الأشياءَ خلقَها بصفةِ التحت، وصار الفوقُ له». وهذا قولُ جاهِلٍ بما يجُوزُ على الله سُبحانه؛ لأنّ التحتَ والفوقَ لم يُعرَفْ إلا بوجودِ الأجسام، وإنّما تقابِلُ الأجسامَ أجسامٌ، فأمّا مَن ليس بجسمٍ فلا يُقابِلُ الأجسام، ولو نُوقِشَ هؤُلاءِ الجهلة، وقيل لهُم: إذا ارتفعَ

(١) زاد في (ق): ﴿فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾.
(٢) سقطت من (ف).

شخصٌ إلى العرش، ثُمّ ارتفعَ فوقه، فعلى قولِهم أنّه يصادمُ الذات؛ إذ لا فرقَ بين الجسمِ المرتفِع والعرشِ المُلاصِق.

وقال بعضُ الحمقى مِنهُم: لولا أنّه على العرشِ ما قال: «ينزِلُ». ففَهِمَ هذا مِن الوصفَينِ ما فَهِمَ مِن الأجسام، ونحنُ نبرَأ إلى الله سبحانه مِن اعتقادِ الجُهّالِ المُشبِّهة، ومَن لا يعرفُ الله سبحانه وتعالى ولا ما يجِبُ له، ويتنزَّهُ عنه.

فإن قال قائل: فظاهِرُ الأحاديثِ[1] على خِلافِ هذا. فالجواب: أنّ مُرادَ الشرعِ كان الإثبات، فذكرَ ما يُوجِبُ الإثباتَ من قدَمٍ ويدٍ وسمعٍ وبصرٍ ونزولٍ واستواءٍ، وحدَّثَ القومَ بما يأنَسون بِهِ ويُجوِّزُ للعرب ما يعرفونه، كقولِهِ تعالى: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ [المائدة: ٦٤]، ومعلُومٌ أنّه لم يُرِدِ النفقةَ المعلومةَ الخارجةَ عن يدٍ، وإنّما أراد إخراجَ الأشياءِ بالقدرة، كما يُخرِجُ المُنفِق، وقال: «مَن أتاني يمشي أتيتُهُ هرولةً»[2]، وقال: «يُربِّيها لأحدِكُم فتربُو في كفّ الرحمنِ»[3].

والعُلماءُ فهِمُوا المقصُودَ مِن هذه الأشياء، وجاء قومٌ من[4] شرح ما علمُوا أن سببَ قُلُوبٍ جُمِعَتْ بقصدِ الإثبات، فأَمَرُوا بالإمساكِ عِند ذكرِ الصِّفات، وهذا هو الأجوَد، ولمّا علِمَ الحقُّ سُبحانهُ أنّ ما قد ذُكِر رُبّما أوجبَ تشبيهًا، محا ذلك مِن القُلُوبِ بقوله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى: ١١].

---

(١) سقط «الجهال المشبهة... الأحاديث» من (ف).

(٢) تقدم في الفصل ٧١.

(٣) مسلم (١٠١٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) كذا في النسخ، والسياق مضطرب كما ترى، ولعل إصلاحه أن يقال: «ممن شرح».

فمَن خرجَ عن سَمتِ السلفِ الصالحِ[1] وطريقِهم، وفهِمَ من أوصافِ الحقِّ سُبحانهُ ما يُفهَمُ من صِفةِ الشاهِد، فهو المُبتدِعُ المُشبِّهُ حقًّا، وقد قال أحمدُ في قولِه: ﴿يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٠]: يأتي أمرُه. وهذا لأنّه فهِمَ أنّ الإتيانَ مُستحيلٌ عليه، فأضاف ذلك إلى أمرِه، وقال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد: ٤] بعلمِه، وإنّما تكلَّم في الشيءِ اليسيرِ مِن هذا لينفيَ التشبيه، ولم يرَ أن يُكثِرَ الكلامَ في ذلك، فسدَّ البابَ بالأمر بالتسليم.

فنسأل الله تعالى السلامةَ في عقائدِنا من الشكوك والشُّبَه؛ لنعرفَ ما يجِبُ له ويجوزُ ويستحيل، ونفهمَ رموزَ الشرعِ ومقاصدَه في الخِطاب، ونسلمَ مِن ظنونِ المُشبِّهةِ المُتوهِّمة، الذين فهِمُوا مِن الغائبِ ما فهِمُوا مِن الشاهِد، فتكلَّمُوا وصنَّفُوا، فمِنهم مَن يقول: الاستواءُ صِفةُ ذاتٍ، ومِنهم مَن يقول: صِفةُ فعلٍ، والقِدَمُ عِندهم بعضٌ للقديم، يُوضعُ في النار، ولو سلَّمُوا للمنقولاتِ كما فعلَ السلف، لكِنّهم تكلَّمُوا على مُقتضى فهمِهم للشاهِد، فهلَكُوا، و﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

٢٥٩- فَصْلٌ
[فساد التأويل والتعرُّض للدنيا]

أصلَحُ ما فعل القاصدُ لحفظِ دينِه التقلُّلُ مِن الدنيا، والاقتصارُ على البُلغة، فإنّ مَثَلَ المُوغِلِ فيها كمَثَلِ المُلقي نفسَهُ في البحر، ثُمّ إذا ندِمَ لم ينفعْهُ ندمُه، وإذا أراد أن يتخلَّصَ بالسباحةِ لم يمكنْه.

(١) سقطت من (ف).

وإنّي رأيتُ رجُلَينِ كانا في بدايةِ أمرِهما على غايةِ ما يكونُ مِن الزُّهدِ والصلاحِ وإنكارِ المُنكَر، فألحَّ عليهما الفقر، فداخَلا السُّلطانَ بنوعِ تأويل، وقبِلا مِنهُ لمكانِ الحاجة، فما زالتِ الأُمُورُ ترقّى بِهِما، إلى أن حُكِيَ عنهُما استحلالُ القتلِ للمُسلِمين بالتأويلاتِ الفاسدة، وكِلاهُما أُهلِكَ عاجلًا، فاتَّعظْتُ بهما، وقلتُ لنفسي: إيّاكِ والتبرُّمَ بقلّةِ الدنيا، فإنّكِ على طريقِ السلامة. كما قال الشاعر[1]: [البسيط]

إنّ السلامَةَ مِن لَيلى وجارَتِها ... ألّا تَمُرَّ على حالٍ بِوادِيها

ولقد كُنتُ أتجافى أموالَ السلاطين، وأبالِغُ حتّى إنّه كان بعضُ الوُلاةِ يُنفِذُ لي شيئًا، فلا أتناولُ منه، ويُحضِرُني عِندهُ فأصبرُ على العطشِ ولا أشربُ عِنده الماء، فألحَّ عليَّ الفقرُ والعائلة، فقبِلتُ بتأويلٍ شرعيّ؛ لأنّي رأيتُ أنّ ما في يدِهِ ليس له، إنّما هو من بيتِ المال، وعرَفتُ ذلك الرجُلَ أنّه ينهى عنِ الظُّلمِ ولا يُحِبُّه، فأخذتُ، ثُمّ احتجتُ فأكلتُ.

فوجدتُ على قلبي ظُلمةً لا أصفُها، وترامَت بي إلى أنّي حُرِمتُ قيامَ الليلِ ودمعةَ العين، وصِرتُ أتأوَّلُ في أشياءَ لا تحسُن، فلمّا ذهبَ ذلك الشخصُ عرَفتُ عيبَ ما كُنتُ فيه، كمَن يخرُجُ من المَدبغةِ، فأحسَّ بما كان فيهِ بعد الخُرُوج.

وما زِلتُ أتلافى أمري، وأندَمُ على ما كان مِنّي، حتّى دبَّتِ العافيةُ في قلبي بعد إشرافِه على التلف، وبَقِيَت آثارُ تِلك الأُمُورِ لم تَزُل، فكان من لُطفِ الله تعالى بي سلبُ ذلك الشخصِ بالموت، فتركتني تِلك[2] الأشياءُ لا أنّي تركتُها،

---

(١) بلا نسبة في وفيات الأعيان (٧: ٩١).

(٢) سقط «الأمور لم... تلك» من (ف).

وما استفدتُ من كسبي إلا ندمي على حالي. فالحذرَ الحذرَ مِن فسادِ التأويل، والتعرُّضِ للدُّنيا الساحرةِ الخادعة، والله الموفِّق.

٢٦٠- فَصْلٌ

[خوف العلماء وغفلة الجُهلاء]

تأمَّلتُ السببَ في شِدّةِ خوفِ العُلماءِ بالله سُبحانه، وفي أمنِ[1] الجاهلين بـه، فرأيتُ ذلك مِن بـابِ المعرفةِ بالله وبصفاتِه، فإنّ العُلماءَ المُحقِّقين علمُوا أنّه كما لا شـبهَ لذاته، لا مِثلَ لصفاته، فرحمتُه ليسـت رِقّة، فإنّه يفعَلُ بمُقتضى مشيئتِه في الخلق، ولا يُحابي نَسَبًا ولا شخصًا.

وهـذا الـذي قوّى انزعاجَ العالِمِيـن به، فأمّا الجُهّالُ بـه فقالوا: هو رحيم، وهو أكرمُ مِن أن يعاقِبَ المُوحِّدين له، وحمَلُوا وصفَه بالرحمةِ على ما يعقِلُون مِن صفاتِ الخلق، وظنُّوا أنّهم إذا وقعُوا في النارِ يستغيثُون يرحمُهم كما يرحمُ المخلوقُ المخلوقَ[2]، ولو كانت رحمتُه كرحمتِنا، ما أجاز ذبحَ عصفور، ولا أذاقَ مؤمنًا كأسَ الموت.

فثبَـتَ عِنـد العُلمـاءِ أنّ صفاتِـه لا كالصفـات، كمـا أنّ ذاتَـه لا كالذوات، فقوِيَ قلقُهم، حتّى كان الحسنُ البصريُّ يبكي ليلًا ونهارًا، ويقول: «أخافُ أن يطرحَنـي في النار، ولا يُبالـي»[3]. فافهَم هذا الفصلَ، فتحقيقُه هو الذي أزعجَ العُلماءَ، والغفلةُ عن ذلك هي التي ورَّطَتِ الغافِلين، والسلام.

---

(١) في (ر، ف): «أمر».

(٢) سقطت من (ر).

(٣) ذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة (٢: ١٣٨).

٢٦١- فَصْلٌ
[الانشغالُ بالحديث عن الفقه]

ما رأيتُ أشرفَ للعُمرِ مِن سماعِ الحديثِ، فإنّه إذا وقعَت شهوتُه في القلبِ طلبَ العوالِيَ من الأجزاء، وطلبَ التواريخَ والأسماءَ والكُنى والصفاتِ وأحوالَ الرِّجالِ في القدح والتعديل، إلى غيرِ ذلك، وكُلُّ ذلك سهلٌ شهيٌّ إلى النفس، مع ما يتضمَّنُ مِن الحِكاياتِ والمُلَح.

فلا يزالُ الإنسانُ يكتبُ ويجمعُ ويسمعُ، والشيءُ كثير، وكُلَّما جاء تَضاعَف، إلى أن يفتحَ المُحدِّثُ عينَه بعد خمسين سنةً، فيرى أشياءَ قد فاتتهُ مِن الأحاديثِ والأجزاء، ومع هذا قد فاتهُ الأهمُّ الأكبر، وهو الفقه، ولا يكادُ يدري معنى الحديثِ ولا فِقهَهُ؛ لِما قد استغرقَهُ من كِتابةِ الأحاديث، وهذا شيءٌ لا يكادُ يُملَك، فإنّ طالبَ الحديثِ إذا رأى جزءًا عاليًا، أو فيهِ أحاديثُ مُستحسَنة، لم يصبر عنه. فالمُتيقِّظُ لنفسِه يحذَرُ ذلك مِثلَ ما يحذَرُ السابحُ الوُقُوعَ في السُّؤر[1]، ويأخُذُ الأطرافَ وما لا بُدّ مِنه، ويُسرِعُ إلى الفقهِ الذي هو مقصُودُ الحديث.

وإنّ أقبحَ مِن هذا أن يتشاغلَ طالِبُ العِلمِ بمسائلِ الفقه، ولا يدري ما الحديثُ، فيبني الأحكامَ مُقلِّدًا، ولا يعرفُ الحديثَ الذي عليهِ مدارُ الحُكم، ولا يعرفُ تاريخًا ولا حالًا مِن أحوالِ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وآدابِ أصحابِه، فهذا يكُونُ كالأعمى مُقلِّدًا لغيرِه.

وأقبحُ من الحالتَين أن يتشاغلَ الإنسانُ بالفقهِ والحديث، ويترُكَ المقصُودَ بهما، وهو العمل، وأقبحُ الأحوالِ الثلاثةِ أن يقفَ مع صُورةِ العمل، فلا تُثمِرُ

---

(١) السُّؤر: يريد الفضلة من الماء أو القليل منه، وهو القَدر الذي لا يمكن السباحة فيه.

لـه المعرفـةَ بالمعبـود، ولا الأُنسَ به، بل رُبّمـا أورثَه أصحابًـا، وكُلُّ ذلك إنّما يحصُلُ بتوفيقِ إلهيّ، وإلهامٍ ربّانيّ، وذلك فضلُ الله يُؤتيهِ من يشاء.

٢٦٢- فَصْلٌ

[الرجُل الكامل]

إذا وُهِـب للعبـدِ نظرٌ صحيـحٌ تأمَّلَ الصوابَ بدليلِه، ولـم يُقلِّدْ أحدًا، ولم يَجرِ علـى نمـطٍ واحد، فإنّك ترى خَلقًا مِن القدماءِ غرَّهم النَّسـبُ والشـرفُ، وتشـاغلُوا بمفاخـرِ الآبـاء، وتَعَجرَفُـوا بذلك علـى الفُقراء، وأحبُّـوا الولاياتِ والتقـدُّمَ والرئاسـة، وتـرى خَلقًـا مالُوا إلـى الزهدِ فآثـرُوا الذلَّ والفقـرَ، ورأوُا المباحـاتِ كأنّها محظـوراتٌ، فصاروا كالزَّمْنَى في بـابِ العُطلة، وترى أقوامًا مالُوا إلى صُورةِ العمل، وأقوامًا وقفُوا مع صُورةِ العملِ والتعبُّد، وقومًا تشاغلُوا بجمعِ المال، وكُلٌّ يعملُ على شاكلتِه.

والصوابُ مِن ذلك: إنّما يُلهَمُهُ مَن رُزِقَ عقلًا صحيحًا ونظرًا سليمًا، فهو يتبعُ الأفضل، ويقضي لكُلِّ شيءٍ بمقدارِ ما يَصلُحُ القضاءُ له.

وإذا أردتَ أن تتأمَّـلَ مَـن جُمِعَـت لـه الفضائـلُ كُلُّهـا، فهـو نبيُّنـا مُحمّـدٌ صلى الله عليه وآله وسـلم؛ بينا تراه في الفخرِ يقول: «أنا سـيِّدُ ولدِ آدم»[١] تراهُ فـي التواضُـعِ يقـولُ: «لا تُفضِّلُوني علـى يُونُـس»[٢]، وبينا هو يهَـبُ غنمًا بين جبلَين[٣]، إذا هو يطوي الأيامَ ويشُـدُّ الحَجَر[٤]، وبينا هو ينامُ ويسـتريحُ إذا هو

(١) مسلم (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) البخاري (٣٣٩٦)، ومسلم (٢٣٧٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بمعناه.

(٣) بمعناه في مسلم (٢٣١٢) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٤) سقط «وبينا هو يهب... الحجر» من (ر).

يقـومُ بالليـلِ حتّى وَرِمَت قدماه(١)، وبينا هو يقـولُ: «ما لي ولِلدُّنيا؟»(٢) إذا هو يطلُبُ المُستحسَـناتِ للتزوُّج، وبينا هو يحُثُّ على العِلمِ إذا هو يُحرِّضُ على العِبادة، إلى غيرِ ذلك مِن الفنونِ المتضادّة.

فهذا هو الرجُلُ الكاملُ الذي لم يقفْ مع انبسـاطِ سُـليمان، ولا مع زُهدِ عيسى، بل أعطى الأحوالَ حقَّها، فاعرِفْ رمزَ ما أشرتُ إليه.

٢٦٣- فَصْلٌ
[علامات النَّجابة]

مَخايِـلُ مـا يكُونُ مِن الرجُلِ تَبِينُ للفَطِنِ مِن صِغَرِ الطِّفلِ؛ وذاك أنّ الطِّفلَ يُخلَقُ له ذهنٌ وعقلٌ على مقداره، فإذا رأيتَه يقُولُ للصبيان: «أنا الأميرُ»، فاعلم عُلُوَّ هِمَّتِه، وإذا رأيتَه يقول: مع مَن أكون؟ فاعلم(٣) خِسّةَ هِمَّتِه، وكذلك تَلمَّحْ جميعَ أحوالِه، فإنّها تدُلُّ على عواقبِ أمورِه.

وقـد كان النبـيُّ ﷺ يأتـي وهو صغيرٌ إلـى مجلسِ جـدِّه عبدِ المطَّلبِ في الحِجر، فيقعُدُ في صدرِه، فيقولُ عبدُ المطَّلب: «إنّ لابني هذا شأنًا»(٤).

وقـد كانتِ الشـجاعةُ تُعرَفُ فـي ابنِ الزبيرِ مِن صِغَرِه، حتّـى إنّه كان يومًا يلعبُ مع الصبيانِ وهو صبيّ، فمرَّ رجلٌ فصاحَ عليهم، ففرُّوا ومشى ابنُ الزبيرِ القَهقَرى، وقال: يا صِبيانُ، اجعلُوني أميرَكُم، وشُدُّوا بنا عليه، ومرَّ بِهِ عُمرُ بنُ الخطّابِ رضي الله عنه وهو صبيٌّ يلعَبُ مع الصبيان، ففرُّوا، ووقف، فقال له:

---

(١) تقدم في الفصل ٤٠.
(٢) البخاري (٢٦١٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
(٣) سقط «علو همته...فاعلم» من (ر).
(٤) تقدم في الفصل ١٢٠.

ما لكَ لم تَفِرَّ مع أصحابِك؟ قال: يا أميرَ المُؤمِنين، لم أُجرِمْ فأخافَ، ولم تكنِ الطريقُ ضيِّقةً فأُوسِّعَ لك[1]!

وقد قال النبيُّ ﷺ لابنِ مسعُودٍ أوّلَ ما لقيَه، فقال: علِّمني يا رسُولَ الله، فقال: «إنّك غُلامٌ مُعلَّمٌ»[2]، ودخلَ رسولُ الله ﷺ المُتوضَّأ، فوضعَ له ابنُ عبّاسٍ طَهُورًا، فلمّا خرجَ قال: «اللهمَّ فقِّهْهُ في الدينِ»[3].

وقد كان الشِّبليُّ يرى ابنَ سمعونَ وهو صبيٌّ، فيقول: أيُّ شيءٍ لله في هذا الصبيِّ من العجائب؟! ولو ذكَرنا هذا لطال، وقلَّ أن يكُونَ أحدٌ مِمَّن رَأسَ إلا ورئاستُه مِن الصِّبا تتربّى، وكذلك المُرذَلون مِن الصِّغَرِ تَبينُ عليهم الأحوالُ.

وإنّما هي أخلاقٌ موضوعةٌ في الخَلق، وغايةُ الرياضةِ أن يكُفَّ شرًّا، ويستجلِبَ على الكُرهِ خيرًا، والطبعُ أغلب. قال ابنُ مسعُودٍ: «المُتخلِّقُ إلى أربعين يومًا، ثُمّ يعودُ إلى خُلُقِه الذي هو خُلُقُه»[4].

فإن قال قائل: فهل لي[5] في هذا حِيلةٌ؟ قلتُ: إن غمَّكَ ما ترى مِن نفسِك مِن علاماتِ الإدبار، فذاك إقبالٌ، وإن لم يغُمَّكَ فلا تسألْ سؤالَ نائبٍ عن غيرِه.



---

(١) ذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٨: ١٦٥).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٣٥٩٩) من حديث عاصم بن بهدلة، عن زر بن حبيش، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) البخاري (١٤٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) رواه هناد في الزهد (٢: ٤٣٨) عن كعب الأحبار من قوله.

(٥) سقطت من (ر).

٢٦٤- فَصْلٌ

[بين الخوف والرجاء]

تاقَت نفسي إلى بعضِ الأغراضِ المُباحةِ، فأقبلتُ أسألُ اللهَ سُبحانهُ ذلك، فصاح بي هاتفٌ من نفسي: ومِثْلُكَ ينطقُ وقد فعلتَ ما فعلتَ مِن الذنوب؟! أما سمِعتَ قولَ بشرٍ الحافي: «رُبّما مددتُ يدي للسؤال، ثُمّ أُسبِلُها، وأقول: مِثلي لا يسألُ، ما أبقتِ الذنوبُ لي وجهًا»(١)، فغايةُ أمرِكَ أن يكُونَ سؤالُك: اغفرْ لي، فحسبُ، فأمّا أن تسألَ الراحةَ فتكونَ كمُترخِّصٍ في سَفَرِ المعصية.

فسكنتُ إلى هذا الخاطرِ مُدّةً، وصِرتُ لا أتجاسَرُ على السؤال، وأقول: مِثلي لا يسأل، ثُمّ انبعثَتْ لي فكرة، فعلِمتُ مِن ضرُورةِ وُجُودِ الآدميِّ حاجاتِه، ولا مسؤولَ سوى الخالقِ سبحانه، فإن كان لا يسألُ إلا مَن لا ذنبَ له سُدَّ بابُ الدُّعاءِ، ثُمّ رُؤيةُ السائلِ أنّه لا ذنبَ له أوحشُ مِن الذنب؛ لأنّه يرى أنّه مُستحِقٌّ ومُستأهِلٌ ونظيفٌ، ورُبّما كانت ذِلّةُ المُعترِفِ بذنبِه أبلغَ في الإجابة.

ولي بالأنبياءِ أسوةٌ، فإنّ سُليمانَ عليه السلام مع وقوعِهِ في الفِتنةِ قال: ﴿رَبِّ(٢) ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ [ص: ٣٥]، وما اقتصرَ على الغُفران، ولا وقفَ مع ذُلِّ الخطأ إلا تلمَّحَ كرمَ الكريم، فرأى الذنبَ مُحتقَرًا بالإضافةِ إلى كرَمِه، وأنّه لا مسؤولَ سِواه، فسأل.

ومن هذا القبيلِ جماعةٌ مِن الصحابة، خرجُوا فلقُوا ابنَ الحَضرَميّ، فقتلُوه في أولِ يومٍ من رجب، وكان القِتالُ محظورًا في الأشهر الحُرُم، ولم يعلَمُوا

---

(١) تقدم في الفصل ٨٥.

(٢) قوله: «رب» ليست في (ف).

أنّه أوّلُ يومٍ من[1] رجب، فعيَّرهم المُشرِكُون، فنزلَ عُذرُهم: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِۖ﴾ [البقرة: ٢١٧] الآيةَ، فلمّا رأوا أنّه قد أُقيمَ عُذرُهم، قالُوا: فهل لنا أجرُ الجِهاد، فنزلَت هذه[2] الآيةُ التي بعدها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ﴾ [البقرة: ٢١٨][3].

فقد يُتخيَّلُ لي مِن هذه الملاحظةِ أنّه ينبغي أن يعظُمَ الذنبُ عِندَ المُذنبِ لمكانِ تعظيمِ الناهي، فلا ينساهُ أبدًا، ولا يسكُنُ حتّى يعلمَ الغفران، ولو علِم بقِيَ الحياءُ مِمّا جنى، كما قال الفُضَيل: «وا سوْءَتا منك! وإن عَفوتَ»[4]، وقال الشِّبليّ: «احشُرني أعمى[5]، فما لي عينٌ تراكَ».

ومع هذا فلا ينبغي الوُقُوفُ مع هذا على[6] الإطلاقِ حتّى يكُونَ مانعًا مِن سؤالِ الكريم، بل ينبغي أن يُتلمَّحَ فضلُه، فيُحتقَرَ الذنب، ويقعَ الطلب، وقد كُنتُ تارةً أتلمَّحُ ذنبي، فأقول: مِثلي لا ينطِقُ بسؤالٍ إلا أن يقولَ: ربِّ[7] اغفِر لي، ثُمّ تلمَّحتُ كرمَهُ وفضلَه، فقلتُ: وعِزَّتِكَ إنّ شِدّةَ خوفي قد زاحمَ بي اليأس، وإنّي آنَفُ لكرمِه مِن هذه الحالة[8].

وهاتانِ الخَلّتانِ تعتدلُ عند النظرِ الصحيح، وإليها أُشيرَ بقولِه: «لو وُزِنَ خوفُ المُؤمِنِ ورجاؤُهُ لاعتدلا»[9]، إلا أنّه قد تغلِبُ واحِدةٌ عملًا وحالًا لا اعتقادًا، فيميلُ الإنسانُ إلى مُقتضاها، فيغلِبُ الخوفُ، فيبكي ويحزَنُ ويخرَس، ويغلِبُ الرجاءُ، فيطمَعُ ويُؤنِس، والميلُ إلى إحدى الحالتَينِ خطأٌ محض.

---

(١) سقط «يوم من» من (ف).
(٢) سقطت من (ف).
(٣) رواه الطبري في تفسيره (٣: ٦٤٧).
(٤) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٣٨٩٧).
(٥) سقطت من (ف).
(٦) سقطت من (ر).
(٧) سقطت من (ر، ف).
(٨) سقطت من (ف).
(٩) تقدم في الفصل ٢٣٦.

٢٦٥- فَصْلٌ
[النظرُ في المآلات]

مـن الغلـطِ العظيـمِ تركُ الاحتـرازِ في كلِّ شـيء، وإهمالُ الحـذرِ من كلِّ ممكـنٍ، مثلَ أن يتوانى الإنسـانُ في الاسـتظهارِ بالزادِ والمـاءِ ويقول: معي ما يَكفِينـي إلى المنزلِ، وينسـى أنّه من الجائـزِ أن يتعوَّقَ في الطريق، وكذلك مَن يخرُجُ ماشـيًا إلى مكّةَ ولا يسـتصحبُ أجرةَ الحَمّال؛ ظنًّا منه أنّ سلامتَه وقُوّتَه تدومُ، وينسى أنّه ربما وقفَ، وكذلك مَن يُنفقُ ما يكسبُه يومًا بيومٍ اتّكالًا على عادتِـه في سـلامتِه[١]، وينسـى أنّه قد يمـرَضُ فلا يدري ما يصنـعُ، وأمثلةُ هذا كثيرةٌ.

ومن أطرفِها أن يبدأ الإنسانُ بالطلاقِ الثلاثِ لغضبٍ قد اعتراه وخصومةٍ، وينسـى أنّ تلك الفَورةَ قد تسـكُنُ، وربّما[٢] اقتنعَ الأمرُ[٣] عن حسـرةٍ لا يمكنُ تلافيها.

وأطـرَفُ مـن هذه الحالةِ أن يبـادرَ بطلقة، ثُمّ تقعُ خصومـةٌ، فيُضيفُ إليها أخـرى، فتبقـى الزوجـةُ معـه علـى واحدةٍ، فـلا يمكنُـه إذا جـرتْ خصومةٌ أن ينتصِفَ، ولا أن يؤذيَها بتطليق، ولا أن يذيقَها طعمَ فراقِه إلا بالبتِّ، فإن كان[٤] له إليها ميلٌ تأذّى بالبتِّ، فهو يحذَرُ ذلك فيقفُ، وإن كان لها إليه ميلٌ تأنَّستْ به بعد البتِّ، فهو يحذَرُ ذلك[٥]، فربّما بالغَت في أذاه.

(١) سقط «وينسى أنه ربما وقف... سلامته» من (ر).
(٢) سقطت من (ف).
(٣) اقتنع الأمر: أي ارتفعَ.
(٤) سقطت من (ر).
(٥) سقط «فهو يحذر ذلك» من (ر، ف).

فيَنحَلُّ من هذا أنّه لا ينبغي أن يكونَ التأديبُ والفراقُ إلا بطلقةٍ واحدةٍ، فإن هي ارعوَت وانصلحَت كما ينبغي راجعَها، وإلا ترك، ولا ينبغي أن يُقدِّرَ الاثنين إلا ثلاثًا؛ للمعنى الذي أشرتُ إليه، فليَفهَم ما ذكرتُ، وليُبقِينَّ عليه.

ومما يَلحَقُ بهذا الفصلِ أن يشتريَ الإنسانُ جاريةً، فتُعجِبُه فيسكنُ إليها، وهذا لا ينبغي في أوّلِ الأمر؛ فإنّ لكلِّ قادمٍ دهشةً، ولكلِّ جديدٍ لذّةً، ولا يأمَنُ أن تطَّلعَ على أسرارٍ له يكرهُ إفشاءَها، ثُمّ يكرهُها فيبيعُها ويشتري غيرها، فتحقِدُ عليه فتُفشِي أسرارَه، وتكونُ قادرةً على أذاه، ومن الغلطِ أن يطأها في أوائلِ أمرِه طالبًا للولد، فربّما عَلِقَتْ فتَعرقَل، فإن لم تصلُحْ له أخلاقُها أو بانَت له عيوبُها لم يُمكِنْ أن يتخلَّص.

بل ينبغي للإنسانِ ألا يَروعَه جمالٌ في بدايةِ الأمر، وأن يتحرَّزَ من الجواري المُشترَيات، والنساءِ المَنكُوحات، وليدُمْ على الاحترازِ سَنةً، فإذا رأى بعد السَّنةِ كلَّ ما يصلحُ من خَلقٍ وخُلقٍ طلبَ الولد، وتوطَّنَ مع الاحترازِ الممكنِ أيضًا، فإنّ القلبَ قد[1] يَنبُو بعد سنين، والاحترازُ في المُمكناتِ لازمٌ، ومثلُ هذا انبساطُ الرجالِ إلى صديقٍ وغيرِه. وهذا فصلٌ نافع، يدلُّ على مراقبةِ العواقب، والاحترازِ من[2] المُمكنات، والله الموفّق.

٢٦٦- فَصْلٌ

[نعمُ الله مُتواترة]

والله لقد عجزتُ عن شكرِ مولاي وسيِّدي لتظاهُرِ نِعَمِه الظاهرة، فعظيمُه يفوقُ العدَّ، وكذلك نِعَمُه الباطنة؛ إلا أنّها أظرفُ وأعجبُ، إذا تأمّلتُ بدني

(١) سقطت من (ر). (٢) سقطت من (ف).

وجدتُه صحيحًا، وأعضائي سـليمةً، وخَلقي مُعتدِلًا، ولي إدراكٌ وفهمٌ وذكاء، وهمّةٌ حرَّكتْ إلى طلبِ المعالي في العلوم، وخدمةِ المعبود، واجتنابِ الرذائلِ من الأخلاق، والدَّنايا من الأوسـاخ. ولو ذهبتُ أعُدُّ من هذا الفنِّ طالَ، وإنّما مُرادي الإشارةُ إلى ما يَغمُضُ ويَدِقُّ.

فمن ذلك أنّه زوى عنّي فُضولَ الدنيا، ولـم يُحوِجْني، فإذا نَفِدَتِ النفقةُ أو قُبيلَ النفادِ نَفِدَ بمقدارٍ، ولو اتسعَ لي المالُ لتوسَّعتُ في المطعم، فشغَلني عن السـهرِ والخير، ولربّما أوجب أمراضًا للبدن، فهو يحميني ويجلِبُ لي قدرَ ما يصلُح، والنفسُ تتوقُ إلى فضلِ مطعم، وتحتجُّ بأنّه يُقوِّي البدنَ لطلبِ الخير، وذلك من كلامِ الهوى وزُخرفِه. وكذلك تطلبُ الإكثارَ من النساءِ والجواري، ولا سبيلَ إلى ذلك لعدمِ المال. وقد بانَت لي مصلحةُ العدمِ لحفظِ القوّةِ التي إنفاقُها على العِلمِ والعملِ أولى.

ومن ذلك أنّني كنتُ أتشاغلُ بالوعظ، وأجلِبُ الناسَ إلى بابِ الله تعالى، فاتَّفـقَ انقطـاعُ المذكوريـن كلِّهـم، فأوجَبَ لي انفـرادي وخَلوتي مـن الفوائدِ والتصانيـفِ والبحـثِ بالفِكر عن عيـوبِ الناسِ التي كانت مُغطّـاةً بالمخالطةِ التـي كانت تشـغلُ عنها. فـلا أدري كيف أحمـدُه سـبحانه إذ تولّى مصالحي، وسـاق لي قـدرَ كفايتي، وحماني عن فضولِ الشـهوات، ولـم يلتفت إلى قلقِ الطبع، وتركِ الهوى بهذا.



٢٦٧- فَصْلٌ

على قدر الهمّة يتعبُ الجسم

كما قال المتنبّي(١): [الخفيف]

وإذا كانَـتِ النُّفُـوسُ كِبـارًا تَعِبَتْ فـي مُرادِها الأجسـامُ

إلا أنّ عُلُـوَّ الهمّـةِ يختلـف، فمِـن النـاسِ مَـن همّتُـه فـي الشـرفِ والعُلُوِّ والسلطان، وهي نفوسُ الملوك، ثُمّ لا يبالي أكثرُهم مع تحصيلِ مُرادِه بفواتِ الدين؛ وهذه رفعةٌ أدوَنُ من حضيض، فإنّه لا خيرَ في لذّةٍ مِن بعدها النارُ.

وكذلك تعلو همّةُ التاجرِ في كسبِ المال، ولا يبالي من أين كسَب، ولا ينظُرُ فـي عُمرِه الشريفِ القـدرِ كيف ضاع فـي تحصيلِ حَجَرٍ لا يُرادُ لنفسِه، ونظائـرُ هـؤلاء كثير، وإنّما الغرضُ الـكلامُ في طُلّابِ الآخـرةِ وعُلُوِّ هِمَمِهم، فنقول:

فـي القومِ مَـن تعلو همّتُه ويقلُّ عِلمُه، فيرى كثيرًا من العلماءِ تعلو همّتُهم فـي طلـبِ الحديـث، ويعانون الأسـفارَ البعيـدةَ لنَيلِـه، وقومًا في طلـبِ الفقهِ والنظـر، وقومًـا في طلبِ القرآن، وقومًا في طلبِ العربيـةِ، إلى غيرِ ذلك، ولو قوِيَـت يقظـةُ هؤلاء لعَلِموا أنّ الاقتنـاعَ بأحدِ هذه العلومِ دُونَ غيـرِه دُونٌ، فإنّ شرفَ الهمّةِ يقتضي تحصيلَ الكلِّ، فإذا لم يكنْ فالمُهِمُّ من الكلِّ.

وتـرى قومًـا عَلَـت هِمَمُهـم، وقـلَّ عِلمُهـم، فظنُّـوا أنّ المقصـودَ التعبُّد، فانعكَفوا على الصومِ والصلاة، ورفضِ الشهواتِ، وحمَلوا على الأبدانِ فوق الطاقة، وظنُّوا أنّ ذلك الغاية.

---

(١) تقدم في الفصل ٢٠٧.

وكلُّ هؤلاء بمَعزلٍ عن المقصود، وإنّما المقصودُ العِلمُ والعمل، ثمّ هما مقصودانِ لمعنًى آخرَ، وهو معرفةُ الحقِّ عز وجل بهما، ومعاملتُه، وذلك بالقلبِ قبل القالب، وبالسرِّ قبل الظاهر، فلا ينبغي لذي همّةٍ أن يَقصُرَ عن فضيلةٍ تُمكِنُ، ولكن لمّا كان العمرُ قصيرًا وجبَ استلابُ المُهِمّاتِ من العِلمِ والعملِ والمعاملة، فترى المُتيقِّظَ يملأُ الزمانَ ويبالغ، فلا راحةَ له إلا ما هو فيه من طلبِ الفضائلِ المُقرِّبةِ إلى ربِّه عز وجل، حتّى إنّك ترى العالِمَ يتناولُ اللُّقمةَ بيدِه والكتابُ في يدِه الأخرى؛ لعِلمِه بفضلِ العِلم، وتراه في حالِ بطالتِه يُدِيرُ لسانَه بالذِّكر؛ لئلّا تذهبَ لحظةٌ في غيرِ شيء، وإن سكتَ فقلبُه يجولُ في الفِكر.

وقد كان كبارُ[1] العلماءِ من أهلِ الهِمَمِ يُنافِسون في طلبِ الفضائل، ويستقصون ما يمكنُ، حتّى إنّ عمرَ بنَ الخطّابِ جمعَ كلَّ ما يقدرُ عليه من الفضائل، وقد كانت قراءةُ القرآنِ تصعُبُ عليه، فاجتهد حتّى إنّه حفِظَ البقرةَ في ثنتَي عشرةَ سنةً، وما ترك القرآنَ مع صعوبتِه عليه يفوتُه، ثُمّ صبرَ عن أغراضِه التي تنقُصُ حظَّه في الآخرة، وهجرَ كلَّ ما يخافُ عاقبتَه، وقام بالعدلِ حتّى في نفسِه وأهلِه، ثُمّ تلمَّحَ ما يفوتُه من الفضائل، وانتهبَ كلَّ مُمكِنٍ، حتّى تزوَّجَ أُمَّ كلثومٍ بنتَ عليٍّ عليه السلام؛ لكونِها من فاطمةَ عليهما السلام؛ نظرًا إلى قوله عليه السلام: «كلُّ حَسَبٍ ونَسَبٍ ينقطعُ إلا حَسَبي ونَسَبي»[2]، وتلهَّف على ما لا يصحُّ له، كقوله: «لولا الخلافةُ لكنتُ مُؤذِّنًا»[3].

---

(١) سقطت من (ف).

(٢) رواه عبد الرزاق في مصنفه (١١١٩٦)، وانظر: علل الدارقطني (٢١١).

(٣) ذكره ابن الرفعة في كفاية النبيه في شرح التنبيه (٢: ٤٠١).

وكذلك نُقِل عن بعضِ السلفِ أنّه نظرَ في مرضِه إلى قدَمَيه، فقال: ما اغبرَّت في سبيلِ الله، فتلهَّف على الجهادِ كيف فاته؟! وهذه حالةُ مَن استوفى كلَّ مُمكِنٍ، وتلهَّف على الفائت. وقال أحمدُ في بشرٍ الحافي: «لو تزوَّج كمَلَ أمرُه»(١).

وهذا كلُّه لأنّ القُربَ من الله عز وجل على مِقدارِ الجِدِّ والاجتهادِ في تحصيلِ ما يُقرِّبُ إليه، والدنيا دارُ سباق، ومضمارُ اجتهاد، ومدَّخَرُ رياضة، وعُلُوُّ الدرجاتِ الباقيةِ مبنيٌّ على أساسِ هذا العملِ في الأيّامِ اليسيرة، ومَن وقعَ في بريةٍ يُكثِرُ حملَ ما يُعجِزُه(٢)؛ لعلمِه بحلاوةِ عاقبةِ ما أخذ.

فأمّا أهلُ البطالةِ فلا ينبغي أن يضيعَ الكلامُ في شرحِ أحوالهم، فإنّي قد تجنَّبتُ شرحَ حالِ المُتوسِّطين، وإنّما أشرتُ إلى الكاملين. [البسيط]

لا يَسألُونيَ إلا عَن أوائِلِهم فآخِرُ الرَّكْبِ ما لِي مِنهُمُ خَبَرُ

٢٦٨- فَصْلٌ

[موانعُ الإجابة]

نزلتْ بي شِدّة، فبالغتُ في الدعاء(٣)، وكرَّرتُ، فلم أرَ للإجابة أثرًا، ورأيتُ الأمرَ كُلّما جاء اشتدَّ، وكان إبليسُ يقول لي: الإجابةُ بعيدةٌ منك؛ لأنّك تطلبُ أمرًا بعيدًا في العادة. فقلتُ له: ويلكَ، إنّما أطلبُ من قادرٍ، ولعلَّ مَصلَحتي في قَلقي ودعائي. [المتدارك]

---

(١) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية (١٤: ٢٩٠).

(٢) في (ف): «حمل في ثوبه قدر حمل ما يعجزه».

(٣) سقط «في الدعاء» من (ف).

إن كانَ رِضاكُم في سَهَرِي فسَـــلامُ اللهِ عَلى وَسَنِي[١]

وأقول أيضًا[٢]: [البسيط]

إن كانَ يُوجِبُ ضُرِّي رَحمَتِي فَرِضًا بسُــوءِ حالي وحِــلٌّ لِلضَّنــى بَدَنِي

ثُمّ تفكَّرتُ في موانعِ الإجابة، فرأيتُ مُعظَمَها الذنوب، وعلِمتُ أنّ إخوةَ يُوسُفَ أُخِّرتْ إجابةُ أبيهم في قبولِ توبتِهم عشرين سنةً؛ ليعلَموا مِقدارَ ما فعلوا، ونظرتُ في ذنوبي فرأيتُها أعظمَ من ذنبِ فرعونَ! فقالت لي النفس: ويحكَ، كيف تقولُ هذا؟ ولعلَّه ليس في ذنوبكَ شيءٌ من الكبائر، فكيف تجعلُها أعظمَ من ذنوبِ فرعونَ الذي ادَّعى الربوبية؟!

فقلتُ لها: والله لقد ثبتَ عندي أنّها أعظمُ من ذنوبِ فرعونَ[٣]؛ لأنّ فرعونَ لم يُثبِتْ إلهًا، وإنّما كان يقول: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، فما بارزَ على هذا، غيرَ أنّ خطأَه كان من جهةِ تركِ الاستدلالِ على وجودِ الخالق، وأمّا أنا فإنّي عرَفتُه بالأدلّةِ القطعية، وصيَّرني العِلمُ[٤] ومعاناتُه كأنّي من الخواصِّ المشاهدين، ثُمّ مُخالَفتي[٥] بعد ذلك كالمُعانَدة، غيرَ أنّه يعلَمُ مِن قلبي أنّني لم أقصِدْ قطُّ الخلافَ، ولكنَّ غلباتِ الهوى تُنسي، ومع هذا فالاعترافُ يمحُو الاقتراف.

فنهَضتُ عند هذا الفِكر، فصلَّيتُ ركعتَين، وقلتُ: إلهي، قد كنتُ عزمتُ على زيارةِ قبورِ الصالحين، والاستشفاعِ بهم إليك، ورأيتُ أنّ كرمَك لا

---

(١) تقدم في الفصل ٥٤.

(٢) للحسين بن محمد المعروف بالبارع في المنتظم (١٧: ٢٥٩).

(٣) سقط «الذي ادعى...فرعون» من (ف).

(٤) سقط «وصيرني العلم» من (ف).

(٥) سقط «ثم مخالفتي» من (ف).



يحتاجُ إلى شفيع، فأمّا ذنوبي فإنّي مُقِرٌّ بها، وامتناعُ إجابتي لأجلِها لا أستهوِلُه، بل أعرِفُ بأنّي لو قُطِّعتُ كان بعضَ حقّي، ولقد هالتني ذنوبي لمكانِ معرفتي لعظمتِك، غيرَ أنّ هذه القادحةَ العظيمة[1] ليس لها سوى فضلِك.

إلهي، جاء رجلٌ إلى بعضِ خلقِك، فقال: لي إليك حُوَيجةٌ، فقال: اطلبْ لها رُجَيلًا[2]. وأراد أنّ مِثلَ فضلي لا يُستندَبُ لصغارِ الأمور، وهذه العظائمُ لا يحملُها إلا كرمُك.

إلهي، قد اعترفتُ بذنوبي التي صيَّرتْ نفسي عندي أحقرَ من كلِّ حقير، وأرتْني عظمتَك فوقَ كلِّ عظيم، وأنا أنا، وأنتَ أنتَ، فبِغِناكَ عنّي وفقري إليكَ ارحَمني.

إلهي، لا تُشمِت بي إبليسَ، فإنّي كُلَّما دعوتُك آيَسني، وقال: إلى كم تقولُ ولا يجيب؟!

إلهي، خلقتَني من ضعف؛ فلذلك قلَّ صبري على المكروه.

إلهي، قبيحٌ بمِثلي أن يتجلَّد، وأنت تعلَمُ قلّةَ صبري.

إلهي، كم أشغَلُ نفسي بذكرِ الموتِ وقُربِ الأجلِ عمّا أنا فيه من بلايا النفس، وما ترعَوِي، وقد أظهرتُ ما في باطني من قلّةِ صبري، وقد فوَّضتُ إليكَ جميعَ أمري، فانظر إليَّ بعينِ لُطفِكَ فيما يجري من القضاء؛ يا كريم.



---

(١) سقطت من (ف).

(٢) ذكره الآبي في نثر الدر في المحاضرات (٢: ١٣١).

٢٦٩- فَصْلٌ
[طولُ الأمل]

مـا رأيـتُ مُعوِّقًا عـن الخير مِثلَ طُـولِ الأمل، وقد يقوى عنـد أكثرِ الناسِ حتّى كأنّهم يقطَعُون على البقاء، فيقول أحدُهم: سـأفعلُ كذا بعد سنة، وينسى أنّه قد يُختطَفُ كما قد(١) اختُطِفَ نُظراؤه في العام الماضي(٢).

ومـن قوّةِ الأمـلِ القبيحةِ ركوبُ البحرِ في طلبِ الأرباحِ مُؤمِّلًا السـلامة، والظاهـرُ الهلاك، وليس تاجرُ البحـرِ في مقامِ أمل، بل كأنّه في مقامِ قطعٍ على النجاة، فهو يُخاطرُ ببدنِه ومالِه ونفسِه، وكأنّ الهلاكَ عنه بمَعزِل.

وما تزالُ الآمالُ تقوى عند خَلقٍ كثيرٍ منهم(٣)، حتّى تحمِلَهم على ارتكابِ الفواحشِ مع كِبَرِ السِّـنِّ؛ تأميلًا منهم للتوبةِ بعد انتهاءِ العُمر، ناسِـين أنّ مرضَ الموتِ قد يطرُقُ غفلة، وقد تقوى الآمال، حتّى ربّما اشتدَّت في المرض.

ولقد(٤) رأينا مَن قد أشـفى(٥) في مرضِه، وهو لا يُنفِقُ على نفسِـه مع كثرةِ مالِـه؛ ميلًا للحياة، ولا يُوصِي بشـيء، ولا يتصـدَّقُ بحَبّة، وفيهم مَن يقول: إذا مِتُّ فافعَلوا خيرًا؛ خوفًا إن تصدَّق فيُعافى، فيفقِدُ ما تصدَّق به، حتّى لقد رأيتُ ابنَ ثمانين سـنةً، وله مالٌ كثيرٌ، يقول: إذا مِتُّ تصدَّقوا عنّي بشـيءٍ! ولم يَسهُلْ عليه أن يُخرِجَ شيئًا.

وهذه الفُضولُ في الأملِ يطولُ شرحُها، وإنّما المقصودُ التحذيرُ من آمالٍ لأهـلِ الخيـرِ تصُـدُّ عن المُهِمِّ. مثالـه: أنّ طُولَ الأملِ يحدُو علـى تعلُّمِ العِلم،

(١) سقطت من (ر).
(٢) سقط «في العام الماضي» من (ف).
(٣) سقطت من (ر، ف).
(٤) سقطت من (ف).
(٥) أشفى: اقترب من الموت.

ونسخِ الكتب، والسفرِ في طلبِ الحديث، فينبغي أن يُؤخذَ قَدرُ البُلغة، ويُعبَرَ إلى حالةٍ أخرى.

ومن أعظَمِ خطأ طالبي العِلمِ أنّهم يُسوِّفون بالأعمال، وربّما قصَّروا وزلُّوا، وفيهم مَن يرتكبُ القبائح؛ إمّا لظنِّ أنّ العِلمَ يدفعُ عنهم، وهذا غلط؛ لأنّه إلى أن يُحاجَّهم أَولى، أو للتسويفِ بالإماتة.

والعاقلُ مَن أعطى كلَّ لحظةٍ حقَّها من الاستعدادِ للموت، وصحَّحَ المقاصدَ في طلب العِلمِ، فإنّ المقاصدَ أكبرُ الأعمال، ولم يشغَلْه ما يطلُبُ منه عمّا هو فرضُ وقتِه ولازمُ حالِه، فإنّ إصلاحَ الحالِ كالفرض، وفضولَ العِلمِ من بابِ الفضل، فتلمَّحْ ما أشرتُ إليه، وقِسْ عليه ما لم أذكُر.

٢٧٠- فَصْلٌ

[الخالق لا يَقبل المُصانعة]

ما رأيتُ أطرفَ من حالةِ أقوامٍ يمزُجون أنفسَهم في المعاصي، ثُمّ[١] يُصانِعون الخالقَ سبحانه بصلاةِ ركعتَين أو بصومِ يومٍ أو بصدقة، وقد عِلموا أنّ المخلوقَ لا يرضى في معاملتِه بالمُصانَعة، فكيفَ بالخالقِ الذي لا يقبلُ من العملِ إلا الخالصَ الصافي؟!

ولقد رأيتُ خَلقًا من الظَّلَمة، يغصِبون الأموال، ثُمّ يتصدَّقون ببعضِها، ويبعَثون إلى فقراءِ مكّةَ والمدينة؛ إمّا لظنِّ هذا يدفَعُ عنهم، وذاك أكذبُ الظنّ، أو لطلبِ السُّمعة، وهو الغالِبُ عليهم، فرأيتُ رجلًا كان يظلِمُ الناس، ويطرَحُ عليهم البِياعات، ويبالغُ في أذاهم، ثُمّ يُعطي أقوامًا من العلماءِ والمُتزهِّدين،

---

(١) سقطت من (ر).

ويُزوِّدُهم للحجّ، فتعجَّبتُ منه مرّةً، وتعجَّبتُ من الآخذين منه مرّات. أفترى ما نفعَهم ما علِموا؟! ولكنّهم ظهرَ من أفعالِهم هذه أنّهم إنّما تركوا ما لم يقدِروا عليه من الحرام، فلمّا قدَروا أخذوا.

ورأيتُ أقوامًا من المتصوّفة يُخالطون الظَّلَمةَ ويُصادقونهم، مع عِلمِهم بحالِهم، فالشُّرطيُّ صديقُ الصُّوفيّ، مُتكبّرٌ على الفقراء، فما رأيتُ أطرفَ من صوفيةِ زمانِنا وزُهّادِهم.

ولقد رأيتُ بعضَ المُتزهّدين يزورُه الظَّلَمة، فيهِشُّ إليهم، فأنكرتُ هذا، وقلتُ: مَن قد شاعَ ظلمُه فالإنكارُ عليه يكونُ بهجرِه، فما رأيتُه يوافقُ، فتلمَّحتُ خبيئةً للنفسِ رَديّة، وهي حبُّها لزيارةِ الكُبراء، وهي أن يقال: فلانٌ يقصِدُه الأمراءُ والكُبراء، وإن كان هو ما يريدُ هذا، ولكنّ مُداراتِه لهم تتعلّقُ بإرادةِ نفسِه لذلك، وكذلك امتناعُه من أن يخرُجَ إلى السوقِ فيشتريَ حاجةً، تُظهِرُ له النفسُ أنّ هذا للانقطاع عن الخلق، وتُبطِنُ عنه تربيةَ الجاهِ عند العوامّ بالعُزلة، فالويلُ كلُّ الويلِ لمَن يُعامِلُ مَن يعلمُ السرَّ وأخفى، ثُمّ يقصِدُ البَهرَجة.

٢٧١- فَصْلٌ

[العمل بغير نيّة زائف]

ينبغي للعالِم ألا يعملَ عملًا ولا ينشُرَ عِلمًا إلا بنيّةٍ صادقةٍ، وربّما ظنَّ أنّ نشرَ العِلمِ لا يكونُ إلا بصدقٍ، وليس كذلك، فإنّه إذا ناظرَ لطلبِ الغَلبة، أو حدَّثَ أو صنَّفَ أو فعلَ شيئًا ظاهرُه الخير، وفي باطنِه خبيئةٌ فاسدةٌ، فلْيعلَم أنّ ذلك زيفٌ من الدراهم لا يَنفُقُ[1]، فالويلُ لمَن عملُه كلُّه زائفٌ.

---

(١) ينفُق: يروج.

وقد كان بعضُ الفقهاء لا يُصنِّف كتابًا، ولا يناظرُ في مسألة، حتّى يتوقَّفَ وينوِيَ ويُصحِّحَ القصد، فإن لم يصحَّ له لم يفعل، وصار اليومَ أحسنُ أحوالِ العلماءِ نشرَ العِلم كيف اتَّفق، وبأيِّ نيّةٍ كانت، فاسترخَت طريقُ الإخلاص على المُريدِ السالك؛ لخُلُوِّها عن دليل.

فوا أسفًا على أيّام القومِ كيف لم نُدركْها، وعلى علمائهم، كيف لم نَرهم؟!

[الطويل]

كَفى حَزَنًا بالوالِهِ الصَّبِّ أن يَرى ... مَنازِلَ مَن يَهوَى مُعطَّلةً قَفرا(١)

[الخفيف]

فاتَني أنْ أرى الدِّيارَ بطَرفِي ... فلَعَلِّي أرى الدِّيارَ بسَمعِي(٢)

٢٧٢- فَصْلٌ
[من النعم إيضاحُ الدلائل]

من نعمةِ الله عز وجل على خلقِه أنّه أوضحَ الدلائلَ وكشفَ البراهين، ولم يجعَلِ الشُّبهةَ قادحةً في الدليل، وإن خَدَشَت، ولم يُزِلْ كلَّ الشُّبهات لئلّا يتعطَّلَ العقلُ عن تكليف، فإنّه كلَّفَ دفعَ الشُّبهةِ وتمييزَ الحقِّ من الباطل.

وبيَّنَ هذه الجملةَ بشرحِ حالٍ، وهو أنّه لو قُدِّرَ لدجّالٍ إذا ظهرَ أن يدَّعيَ النبوّةَ لكونِه يخرِقُ العادات، ويقتُلُ شخصًا ثُمّ يُحيِيه، ويأتي بمِثْلِ جنّةٍ ونار؛ لتخبَّطتِ العقائد، ووقعَتِ الشكوكُ في كلِّ شيءٍ كان، لكنّ الله عز وجل صرفَ الدجّالَ عن هذه الدعوى إلى ادِّعاءِ الإلهيّةِ التي قد قامَت الأدلّةُ التي لا

(١) ذكره الخرائطي في اعتلال القلوب (١٩٥). (٢) للشريف الرضي في ديوانه (١: ٦٥٨).

اضطرابَ لها على أنّها مُنزَّهةٌ عن صفاتِ الأجسام، والدجّالُ جسمٌ محصورٌ محدودٌ محمولٌ مَعِيبٌ مُحتاج، وإنّما قال: «إنّ[١] ربَّكم ليس بأعوَرَ»[٢] ليُبيِّنَ أنّه ليس[٣] بذي جوارحَ فتتسلَّطَ عليها النقائصُ.

فلم يتخالَجْ للعقلاء في الدجّال شكّ[٤]، وإن رأوا ما يُشبِهُ المُعجِزة؛ لأنّ العقلَ الذي ينظُرُ إلى[٥] الآيةِ ينبغي أن ينظُرَ إلى مَن صدرَت منه، وإلى ما يدَّعيه، ومعلومٌ أنّ الملَكَ أقربُ إلى دعوى الإلهيّةِ من الأجسام الكثيفة، فإنّه لا يأكلُ ولا يشربُ ولا يَنسُل، ويقدرُ على قلب الصخورِ والجبال، ثُمّ لو قال: «أنا الإلهُ» لنهضَ العقلُ رادًّا عليه بدليلِ الحدَث، وهي الجسميةُ والنُّقلةُ والحركة، فكيف بالدجّالِ الجُسمانيِّ المحصورِ المَعِيب؟!

وإنّما يغترُّ الجُهّالُ بما يرون منه ولا ينظرون إليه، ومَن نظرَ منهم مِمَّن يُجيزُ التجسيم، فعندهم حديثُ الصورةِ والنزولِ الذي يعتقدونه نُقلة، وأنّه في صورةِ شابٍّ عليه حُلّة[٦]، فإذا رأوا شخصًا قد خرَقَ العاداتِ اختاروا أن يكونَ هو، ومَن بلغَ مقدارُ عقلِه إلى اتّخاذِ عِجلٍ إلهًا لا يُنكَرُ اعتقادُه في الدجّال، ولو ظهرَ شيطانٌ فقلبَ بلدًا أو رمى جبلًا وقال: «أنا الإله»، لأسرعَتِ المُشبِّهةُ إلى تصديقِه؛ لِما قد تخمَّر في النفوسِ عندهم من أنّ الإلهَ صورة، ولو فهِموا أنّ الدليلَ على أنّ الله تعالى ليس بجسم، هو الدليلُ على[٧] أنّه واحد؛ لأنّ الجسمَ مُركَّبٌ من جواهر، وهو أكثرُ من واحد.

---

(١) سقطت من (ف).

(٢) البخاري (٧١٣١)، ومسلم (٢٩٣٣) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) سقط «بأعور ليبين أنه ليس» من (ر).

(٤) سقطت من (ر).

(٥) سقطت من (ر).

(٦) المنتخب من علل الخلال (١: ٢٨٣).

(٧) سقط «أن الله...على» من (ف).

ومن هذا القبيلِ نظرُ النصارى إلى الآياتِ الجاريةِ على يدِ عيسى، فادَّعَوا فيه الإلهية، ولم ينظُروا إليه، وأنّ الإلهيّةَ مُنافِيةٌ لذاتِه، وإذا نافَته عُلِمَ أنّ ما ظهرَ على يدِه من غيرِه.

ومما يقاربُ هذا المعنى حَملُ أهلِ التشبيهِ أحاديثَ الصفاتِ على ظواهرِها؛ نظرًا إلى صورةِ ما في الحديث، من غيرِ مراعاةٍ لِما يجبُ للقديم.

واعلم أنّ تخايُلَ ما لا يجوزُ تخايلُه كثيرًا ممّا قد أفسدَ الأديانَ والعقول؛ أمّا الأديانُ فكما ذكَرنا، وأمّا العقولُ فمِثلُ ما يُحكى أنّ رجلًا ضربَ وَتِدًا في مَقبَرة، فعَلِقَ بذيلِه، فقام وأحسَّ بأنّ ذيلَه قد أُمسِك، فتخايَلَ أنّ بعضَ الموتى قد أمسكَه، فمات! فنعوذُ بالله من الخيالات الفاسدة المستحيلة[١].

وإذا ثبتَ بالدليلِ العقليّ أنّه لا يجوزُ عليه الحركةُ ولا السكون، ولا تتجدَّدُ له صفة، بان معنى الأحاديث، فإذا لم يَبِنْ فالسكوتُ أولى ما استُعمل، فأمّا إن أفهَمَ من حديثٍ شيئًا، مِثلَ قوله: «فيأتيهم في غيرِ صورتِه، ثُمّ يأتيهم في صورتِه»[٢]، فلا أقولُ بقولِ مَن يتأوَّلُ ويقول: فيأتيهم في[٣] صورةِ الغضبِ والشِّدّة، ولا أسكتُ كسكوتِ السلفِ الذين ما فسَّروا هذا، بل أقول: يأتي هو بذاتِه في صورة، ثُمّ تتغيَّرُ تلك الصورةُ الذاتية. فهذا جهلٌ[٤] بما يجوزُ على الإلهِ وما لا يجوز، فافهَم هذا الأصلَ تَرشُدْ.



---

(١) في هامش (ف): «لعله: المتخيلة».

(٢) البخاري (٧٤٤٠) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه بمعناه.

(٣) سقط «غير صورة ثم... فيأتيهم في» من (ر).

(٤) سقط «فهذا جهل» من (ق).

٢٧٣- فَصْلٌ
[نصيحةٌ للعُصاة]

أعجبُ العجبِ أنّك تُعرِضُ عن طاعةِ مولاك ولا تمتثلُ أمرَه، لا في غضِّ بصر، ولا في حفظِ لسان، ولا في تنقيةِ مطعم، ولا تدري كيف تُؤدِّي فرائضَه، فلا تكُفُّ نفسَك عن منهيّاتِه، فليس عندَك على الحقيقةِ إلا لَقلَقةُ[1] اللسان، وقيامُ البدنِ في الصلاةِ وقعودُه، والمعاصي قد أحاطت بك من كلِّ جانب.

فإذا سألتَ النِّعَمَ[2] أخذتَها أخذَ المُستوفِي لحقِّه، فإذا فاتكَ غرضٌ دعوتَ لنَيلِ غرضِك، وألححتَ إلحاحًا ما سألتَه في فواتِ أمرِ آخرتِك، فإذا امتنعتِ الإجابةُ - إمّا لعقوبةٍ أو لتنبيهٍ أو لمصلحةٍ - قلتَ: قد دعوتُ وما أجابَني. أتُراكَ أجبتَه يومًا لمّا دعاك؟! هيهاتَ هيهاتَ!

يا مَن لا يستجيبُ له، كيف تُنكِرُ ألّا يستجيبَ منك، ثُمّ لا تعتقدُ أنّ بينكَ وبينَه سليمًا إلا في زمنِ العافية، فإذا ابتلاكَ تَزلزَلتَ. أتُرى ما علِمتَ ما جرى للأخيارِ من البلاء؟! ولكن إذا لم يَعرِفِ المُبتلَى: كيف لا يصحُّ[3]؟!

٢٧٤- فَصْلٌ
في تعليم المُعاشرة

للمخالطةِ مؤنةُ التكلُّفِ للمُماثلِ، والتجمُّلِ للأكابرِ والصدور، وتحمُّلِ الأثقالِ من كلِّ سخيفٍ وشريرٍ ومُنبسطٍ وعتّابٍ، فإذا اضطُرَّ إلى مخالطةِ الناسِ ومعاشرتِهم ما استطاع، ولا بدّ أن يُضطَرَّ إلى ذلك، فينبغي أن يحترزَ في

---

(١) اللقلقة: الصوت في حركة واضطراب. (٢) سقطت من (ف).
(٣) يعني حتى لو لم يعرف الأخيارَ المُبتلَينَ فكيف لا يصير صحيحًا ويكف عن المعاصي؟!

مخالطتِه[١]، فإنّ بعضَهم يصلُحُ للمُجامَلة، وبعضَهم للمُعامَلة، وبعضَهم لدفعِ الشِّرِّير، وبعضَهم للتوصُّلِ إلى الأغراض، فهم كعقاقيرِ العطّارِ وآلةِ المنزل؛ كلٌّ شيءٍ يصلُحُ لشيء.

وكذلك الأصحابُ يُستخدَمُ كلٌّ فيما يصلُحُ له، فلا يُستشارُ النفّاط، ولا يُقامُ في مقامِ الفرّاشِ الكاتبُ، كما أنّ العينَ لا تُستخدَمُ في أشغالِ الأُذُن، فإذا اضطُرَّ إلى مُخالَطتِهم فبحُسنِ الأدبَ للمُتقدِّم، وبالإيثارِ بالكرامةِ للمُماثِل، وبالرِّفقِ بالصاحب. وأشدُّ الأمرِ في حقِّ المُماثِل، فهناك يقعُ الحسد، فحبُّ النفسِ الترفُّع على المِثلِ.

ومتى علِمتَ خطأً من مُخالِط، فإيّاك أن تُطلِعَه عليه، فإنّه يعلَمُ أنّك قد علِمتَ خطأه، فتكتسبَ بذلكَ عداوتَه، إلا أن يكونَ ذلك الأمرُ[٢] في دين، فتلطَّفْ بتنبيهِه عليه، وتُظهِر له أنّه لم يقصِدْ ذاك، فأما إذا وجدتَ مندوحةً عن إعلامِه فالحذرَ الحذرَ.

ومن هذا الجنسِ أن تَرُدَّ خطأً على رجلٍ في جَمع، فإنّه يستفيدُ ما رددتَ، ويتَّخذُكَ عدوًّا.

ومن الخطأ الفاحشِ أن ترى ذا نعمة، وقد عرَفتَ فقرَه قبلَه، فتُوهِمَه أنّكَ تعرِفُ مبدأ أمرِه.

ومن أوحشِ الغلطِ أن تُزاحمَ اثنين، وربّما كانا في سرٍّ فأقلقَهما فِعلُك، أو أن تقطعَ حديثًا على مُتحدِّث، أو أن تعترضَ له في الحديث مُتمِّمَهُ، أو تُعلِمَه أنّك تعرِفُ الحديث، أو تَقطَعَه عن مُهمٍّ هو فيه، أو تقصِدَ الدخولَ عليه في

---

(١) سقط «ما استطاع... مخالطته» من (ف). (٢) سقطت من (ف).

خلوتِه، أو أن تُذكِّرَه مصيبةً قد نسيَها، أو أن تكشفَ عن سيِّئة وهو يحبُّ سترَها.

ومن أفحشِ الخطأ أن تأتيَ إلى شخصٍ يحبُّ شخصًا، فتقبِّحَ له محبَّتَه، وتقعَ في المحبوب، فإنّ هذا ممّا يزيدُه محبّة، ولا تكتسبُ أنتَ سوى العداوة، وإنّما طريقُ ذلك - إذا اضطُررتَ إليه - بالإيماء[1] أو التلطُّفِ بالذم، وذاك بذمِّ الأفعالِ لا بعيبِ الشخص، ومتى رأيتَ كاتمَ سرٍّ، فاطَّلعتَ على سرِّه، فاجتهد ألا يعلَمَ اطِّلاعَك أحدٌ[2]، فإنّه إذا علِمَ تمنّى عدمَك لينكتمَ سرُّه.

ومن أفحشِ التفريطِ مُطاوَلةُ عيادةِ المريض، وحبسُ الحاقن، والحبيبِ عن حبيبِه.

وإيّاكَ إيّاكَ والطمعَ في الصديق أو حملَ ثقلٍ عليه، فإنّه إنّما يَوَدُّك إذا لم تَحمِلْ عليه كَلًّا، واحذرْ أن تَثقُلَ مُجالستُك على صديقِك، فإنّه ربّما خفَّتْ عليه، ومنعَه من استخفافِها عذرٌ باطن، ولا يسكنُ زرعُ المودّةِ في قلبِ مَن تُسدِي إليه النِّعَم، فإنّ النفوسَ قد جُبِلت على حُبِّ مَن أحسنَ إليها، ولا تحتقرنَّ أحدًا، ولا تَلقَه إلا بالتعظيمِ على قدرِ حالِه، بل زِدْه عليها، فإنّك إنّما ترى المتعلِّمَ والصاحبَ بتلك العين، وهو يرى نفسَه أكثرَ من ذلك؛ لأنّه ما من أحدٍ يحتقرُ نفسَه.

واحذرْ كلَّ الحذرِ من الخَلق، فلا تخالطْ إلا لضرورةٍ بمقدار؛ لأنّك إذا خالطتَ العوامَّ استهانوا بك، وقلَّ احترامُهم لعلمِك؛ إذ المُخالَطةُ تُوجبُ قلّةَ الاحترام، وإن خالطتَ الفُهَماءَ أحصَوا عيوبَك، وكانوا أفهمَ لغلطِك، إلا أنّ مُخالَطةَ الجُهّالِ - كمُخالَطةِ السُّكارى - خَطِرةٌ، ومُخالَطةَ الحُكماءِ - كمُخالَطةِ الطبِّ - محمودة.

---

(١) سقطت من (ف).

(٢) سقطت من (ر، ف).

ومتـى أردتَ أن تفعلَ فعلًا بأحد، فأقِمْ نفسَـك مُقامَـه، وانظُر ما يحبُّ أن يؤتـى إليـكَ فائتِه إلـى غيرِك، وإيّـاك أن تُظهِرَ النِّعَمَ الكثيرة، فتتعرَّضَ للحسـدِ والإصابـةِ بالعيـن، بل بمقدار، وكنْ خائفًا من مُعاداةِ الجاهلِ ومن مُخاصمتِه، فإنّ مكالمةَ العاقلِ للجاهلِ كمُخالطةِ الصاحي للسكران.

فأمّـا العـدوُّ العاقـلُ فهـوِّنْ أمـرَه عليـك؛ لأنّ العاقـلَ يُداري، وقـد أجمعَ العقلاءُ على أنّه لو[1] تجاذبَ اثنانِ مُتكافئا القوّةِ شعرةً ما انقطعَت، وإنّما زيادةُ أحدِهمـا فـي الجذبِ تُوجـبُ الانقطـاع. وإذا أردتَ أن تُهلِكَ عـدوَّك فأصلحْ نفسَك وكمِّلْ فضائلَها.

ومـن المُتعيَّـن على مَـن جالَسَ مَلِكًا ألا يمدحَ غيرَه في مجلسِـه، وأن يكُفَّ عمّـا يكـرهُ، وأن يتغالـبَ له إن لعبَ معه، فإنّهم لا يقتنعون بفضلِ السـلطنةِ حتّى يضمُّـوا إليـه فضـلَ كلِّ ذي فضـل، وأن يُرِيَهم أنّـه يتعلَّمُ منهـم ولا يُعلِّمُهم، وأن يتقاصـرَ لهـم وإن كان الأطوَل، ومتى أظهرتَ غلبتَهـم لم تأمنْ حُبَّهم للتوحُّدِ أن يحملَهم على إتلافِه أو إسقاطِ حكمِه بين الناس، فكأنّه يفرحُ ساعةً ويغتمُّ الدهرَ.

ومن المُتعيَّنِ لمَن بَسَطُوه[2] في الخَلوةِ ألّا يُبسَطَ في الجَلوة، فإنّ لكلِّ مَقامٍ مقـالًا. وكذلـك المرأةُ العاقلةُ إذا رأتْ من زوجِها في حالِ المباشـرةِ خضوعًا لغلبةِ الشهوة، ألا تبنيَ عليه في غيرِ تلك الحال.

ولا ينبغـي للمملـوكِ أن يُطلِعَ المَلِـكَ على قوّةِ ذكائه وحدّةِ فطنتِه وشـدّةِ حيلتِه على أعدائهم، فإنّه وإن تقرَّب بذلك إليهم فإنّهم يستشعرون الخوفَ منه أن يُعمِلَ ذكاءَه وفطنتَه في قلبِ دولتِهم.

---

(١) سقطت من (ر).

(٢) كذا في النسخ، ولعل الصواب: «بسطه».

والعلماءُ على نحوِ الملوكِ في استعمالِ الأدبِ معهم، وإن كان العِلمُ يصدُّهم عن الأذى، فإنّ الحقدَ في النفسِ لا يُملَك.

ومتى خالطتَ صديقًا، فتغيَّرَ عليك، فاثبُتْ له ولا تتغيَّر عليه واعذُره، فإنّه ذو أمزجةٍ مختلفة، وأنت لا تثبُتُ لنفسِكَ على حال، فكيف تطلبُ من غيرِك الثبوت؟! ثُمّ كيف تطلبُ منه الاستقامةَ لكَ ولم يستقِمْ لخالقِه؟ فإنّه قد أخبرَ عنه بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ﴾[1] [يونس: ١٢]، فإذا كان هذا فِعلَه مع كاشفِ الضرِّ عنه حقيقةً، فكيف يُنكَرُ منه الغدرُ في حقِّ مخلوقٍ مثلِه؟!

وما ملكتَ أحدًا قطُّ بمِثلِ تواترِ البرِّ والإحسان، فبالمالِ تُصادُ النفوس، والإحسانُ يملكُ القلوبَ، والبرُّ يستعبدُ الأحرار، وأمّا اللئامُ فقهرُهم بالغلبة، ومتى قنَعتَ من الإخوان بدون حقِّك، وأعطيتَهم فوق حقوقِهم؛ استثمرتَ وُدَّهم وأكسبتَهم حياءً وخجلًا.

وإيّاك وإظهارَ النِّعَم لمَن تظنُّ فيه الحسد، فإنّه يحتالُ على زوالِها، واعتبِر بقوله: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾ [يوسف: ٥]. وإيّاك إيّاك ومُخالطةَ الفُسّاق، فإنّك لو سمعتَ أنّ[2] شريكًا خانَ شريكَه لم تُعاملْه، أو طلَّقَ عِدَّةَ زوجاتٍ لم تُزوِّجْه، فكيف بمَن قد خان أوّلَ مُنعِمٍ عليه؟!

وإيّاك أن تشكوَ نازلةً نزلَت بك، فإنّك تشكو مَن ابتلاكَ إلى مَن لا يقدرُ لكَ على فَرَج، فإن كان المشكوُّ إليه صديقًا اغتمَّ، أو عدوًّا فرحَ، وربّما كانت إعانةُ الصديقِ مُعاتبةَ الأقدار، فتأثَمُ وتُؤثِمُ غيرَك، وإن كان صديقُك يقدرُ على

(١) قوله: «كأن لم يدعنا» ليس في (ر). (٢) سقطت من (ف).

كشفِها ففعلَ - مَنَّ أو بَخِلَ - جدَّد ذِكرَها، ويقول: طلبَ فلانٌ منّي، وما أمكَن، فإن قلَّ صبرُكَ فأردتَ التدرُّجَ بالشكوى، فاشكُ إلى القادرِ على الراحة، ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧]، ولا تَستَبطِئَنَّ الإجابة، فهو أخبَرُ بالمصالح.

وإيّاك أن تنقُلَ حديثًا مُؤذيًا إلى أحد، فإنّ النميمةَ من شرِّ الذنوب، واعلمْ أنّه مما ذُمَّ به السِّحرُ أنّه يُفرِّقُ بين المرءِ وزوجِه، فالنميمةُ تُجانِسُه في التفرقة.

ومن الغلطِ القبيحِ أن يُحدِّثَ العالِمُ العوامَّ بما لا يبلغُ أفهامَهم، فإنّ الخُفّاشَ يتأذّى بضوءِ الشمس، أو أن يُخالطَهم بكشفِ جميعِ أحوالِه لهم، فإنّه لو خرجَ إلى الجمعةِ فمشى رُوَيدًا، والعامِّيُّ يغدو، لقال العامِّيُّ عن العالِم: هذا قليلُ الدين، ما يُبالي بفواتِ الصلاة، وربّما وقعَ من ميزابٍ[1] ماءٌ، فصاحَ العامِّيُّ: أماؤُكم طاهرٌ؟ وسكتَ العالِم، فقال العامِّيُّ: لو كان لهذا دينٌ لَبَحث. فالويلُ للعالِمِ من الجُهّال! فينبغي اجتنابُهم مهما أمكن.

ومن الغلطِ أن يقولَ الإنسانُ في جَمع: «لا يكونُ طويلٌ[2] إلا أحمق، ولا طويلُ اللحيةِ إلا قليلَ العقل، ولا يُعرَفُ الأقرعُ جميلًا» ونحوُ ذلك، فربَّما كان فيهم مَن هو كذلك، فحقدَ عليه.

ومن الغلطِ الثقةُ بكلِّ أحدٍ، وفي إخوةِ يُوسُفَ عِبرة.

ومُداراةُ المُعاشرِين مُتعيِّنة، فإنّ الرسولَ صلى الله عليه وآله وسلم لم تكفِه عِزَّةُ النبوّة، حتّى قيل له: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

---

(١) الميزاب: ما يسيل منه الماء من مكان عالٍ. (٢) سقطت من (ف).

ومتى[1] جرَّبتَ على شخصٍ خيانةً أو آفةً مرَّتين، فاعلم أنّها طبعُه فاجتنِبْه، وبعيدٌ أن ينتقلَ الإنسانُ عن طبعِه، وكثيرٌ من الناس كُلَّما أحسنتَ إليه أساءَ إليك، هذه جِبلَّةٌ تكونُ لا تتغيَّر، وإحسانُك إليه لا يُغيِّرُه، فإنّ الماءَ القَراحَ إذا دخلَ إلى قَراحٍ أنبتَ أشجارُه ثمارَها اللذيذةَ وأنبتَ شوكُه السُّلّاء[2]، وكذلك المحلُّ الفاسدُ من البدن، فإنه أيُّ شيءٍ وصلَ إليه من الغذاءِ يُولِّدُ عُفونةً ومِدَّةً، وهذا لا يكونُ إلا فيمَن لا أصلَ له ولا دينَ فيه.

وقد قال الحكماء: لا تصحَبْ فاسقًا، فإنّه يَبيعُك بمَأكَلةٍ وما دونها، فقيل: وما دونها؟ قالوا: يطمعُ فيها ولا ينالُها. ولا تصحَبْ بخيلًا، فإنّه يقطعُك أحوجَ ما تكون إليه؛ ولا كذّابًا، فإنّه يُقرِّبُ منك البعيد، ويُبعِدُ القريب؛ ولا أحمقَ، فإنّه يريدُ أن ينفعَك فيضرُّك!

ومن الأدبِ في المُعاشرةِ أن يكونَ المُعاشِرُ نظيفًا، والنظافةُ في الصورةِ إزالةُ الأدرانِ والأوساخ، وكم قد رأيتُ مَن يُحاضِرُني فيُناجيني، فلا أُطيقُ سماعَ كلامِه لريحِ فمِه، وربما يبقى سنةً لا يَستعملُ سواكًا، وقد أدَّبَ رسولُ الله ﷺ أصحابَه، فقال: «مَن أكلَ من هذه البَقلةِ الخبيثةِ شيئًا فلا يقرَبنَّ مُصلّانا»[3]. إنّ للمُخالطة حكمًا وأدبًا.

وأمّا النظافةُ في المعنى فالتنزُّهُ عمّا يُكدِّرُ مجالسَ الأشراف، والنظافةُ من رذائلِ الكلام، وما تأباه النفوسُ منه، وما يدلُّ على قلّةِ عقلِ الناطقِ به ومروءتِه، فإنّه لو أشاع ذنبًا لمَن خالَطَه يومًا ما، أظهرَ بذلك خيانةَ نفسِه، إذ لم يَكتُم على صاحبِه، وأوحشَ جُلّاسَه من نفسِه؛ لخوفِه أن يأخذَ عليهم كما أخَذَ على ذلك.

---

(١) سقطت من (ف).
(٢) السُّلّاء مقصور وممدود: شوكة النخل.
(٣) مسلم (٥٦٥) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

وفـي الجملـةِ ينبغـي أن يتجنَّبَ كلَّ ما يُسـفِلُ أو يُكدِّرُ، ولـكلِّ قومٍ أدب، وأخصُّ الخَلقِ باستعمالِ التأدُّبِ لَهم العلماءُ والملوك، إلا أنّ الملوكَ يُدقِّقون في آدابِ الدنيا، والعلماءَ يتسهَّلون.

وقد كان بعضُ الصدور لا يغسلُ فمَه من الزُّهُومَةِ(١) حتّى يُنقّي يدَيه؛ لئلّا يرفعَ إلى فمِه شيئًا قد غسلَ به زُهُومةَ يدِه، ويغسلُ يدَه(٢) في الطَّسْتِ المُسْبَكِ لينزلَ الوسخُ إلى قعرِه فلا يُرى، وكان فيهم مَن يأكلُ السَّفَرجَلَ(٣) قبل الطعام؛ لتمتلئَ مواضعُ الخِلالِ به، فلا تصلُ الزهائمُ إليه.

واعلـم أنّ المُخالطـةَ خَطِرة؛ لأنّ المُخالطةَ تفتقرُ إلـى أن يتطلَّعَ إلى معرفةِ مِزاجِ المُخالَط؛ إذ من الناسِ مَن يُعجِبُه قلّةُ الكلامِ بحضرتِه، ومنهم مَن يَعُدُّ ذلك عِيًّا، ويحبُّ الإطباقَ في مدحِه، ومنهم مَن يعتبرُ كثرةَ المدحِ سخرية، ومنهم مَن يحبُّ السؤالَ للحوائجِ والشكرَ على قضائها، ومنهم مَن يكرهُ السؤال.

وأما مُعاشرةُ الأهلِ فينبغي للعاقلِ أن يكونَ مُنبسطًا في أهلِه، مُنقبضًا عنهم، فأمّا الزوجةُ فإنّه إذا لم يَعقِد معها الهَيبةَ انبسـطَت إلى غيرِ حدٍّ، فأوّلُ ما يضيعُ إسـقاطُ الاحتـرامِ، ثُمّ إضاعةُ المال، فينبغـي أن ينقبضَ عنها بعضَ الانقباض، وإلا فسـدَ العيـش، وخصوصًـا في بابِ المـال، فإنّها لا تـزالُ إذا طمِعَت تُنفِقُ وتكتسي، ولا تنظُرُ في عاقبة.

وكذلـك الولـد، فينبغي ألا يُطلَقَ في المال، ولا يُمنَعَ من مُراد؛ لئلّا يتمنّى مـوتَ الوالـد، ولا ينبغـي أن يؤخذَ الولدُ الكبيرُ بما يؤخذُ بـه الولد(٤) الصغير؛ لأنّ الصغيرَ كان مُنقادًا لموضع حاجته، فإذا كَبرَ استقلَّ بنفسِه، فصعُبَ انقيادُه،

---

(١) الزُّهومة: ريح لحم سمين مُنتِن.

(٢) سقط «يده ويغسل يده» من (ف).

(٣) السفرجل: نوع من الفاكهة.

(٤) سقطت من (ف).

فربّمـا نفَـر، كمـا أنّ الجُنديَّ إذا أمَّرَه السـلطان، فإنّه يكثُرُ أتباعُـه، فربّما حدَّثَ نفسَه بالمُقاومة.

وأمّـا الخَدَمُ فهم على ضربَين: دُخلاءُ وخارجـون، فمتى كان الخادمُ أبلَهَ أتعـبَ المخدوم، ولم يفهَمِ الإشـارة، ولم يعلَـمِ المقصود؛ ومتى كان فيه ذكاءٌ وفطنةٌ لم يَستتِرْ دونه سِرّ، فالصوابُ استخدامُ الأولياءِ في الأمورِ الخارجةِ عن المنـزلِ، وإقامتُهم في مقامِ الوكلاءِ، واسـتخدامُ المُغفَّلين في الأمور الداخلة؛ لأنّ كتمَ الأسرارِ مطلوب.

ومن التغفُّلِ تركُ خادمٍ مع جارية، أو مملوكٍ مُراهِقٍ مع امرأة؛ ثقةً بالسلامةِ في الغالب؛ فإنّ ذلك إلى العَطَبِ أقرب.

ومتـى اعتـذرَ الخـادمُ أو الولـدُ فليُقبَـل، وليُترَكْ لهـم موضعٌ للعفّـة؛ لئلّا يضطرُّوا إلى القَحَة في كثرةِ التوبيخ.

ومـن الخطأ تسـليمُ النفقةِ إلى النسـاء؛ لأنّهـنَّ لا ينظُرنَ في عاقبـة، وإنّما يُسلِّمُ إليهنَّ المفضلات، ويحفظُ عليهنَّ الحمل.

وفـي الجملةِ ينبغي أن تكونَ الهَيبـةُ عامّةً على الكلّ، والاحترازُ واقعًا من الكلِّ من غيرِ إعلامٍ بذلك، ثُمّ يمزجُ الهيبةَ بنوعِ انبساط، ترفعُ ثِقَلَ الاحتشام. فينبغي لمَن أراد طِيبَ العيشِ ألا ينبسـطَ إلى زوجاتِه وجواريه مُسترسِلًا، ولا يَترُكهنَّ ينبسطن، بل يستترُ ويستترنَ ليَرَيْنَه على التمام، ويراهنَّ كذلك، فلا يقعُ ملل، ولا تكونُ المُعاشرةُ إلا في وقتِ الصفاء، فأمّا انبساطُ الزوجِ إلى الزوجةِ مطلقًـا، وانبسـاطُها إليه فـي كلِّ وقت، حتّى فـي الأكلِ[1]، ونـومُ أحدِهما إلى

(١) في (ر، ف): «التواكل».

جنبِ الآخر، مع العِلمِ بما لا ينفكُّ منه المخلوق، فإنّه لا يُؤثِرُه[1] إلا الرُّذالةُ الذين لا يستقذرون مَن يبصُق.

٢٧٥- فَصْلٌ
كلُّ شيء يكون لله عز وجل يثبتُ

قال الربيعُ بنُ خُثيم: «ما لم يُرَدْ به وجهُ الله يَضمَحِلّ»[2]، وقد سمعتُ مَن يقول: كيف تقولون: للحقِّ دولةٌ، وللباطلِ جولةٌ؟! ما أرى الأمرَ إلا بالعكس؛ الحقُّ يظهرُ خَلْسًا، والدوامُ للباطل.

فأجبتُ بأنّ هذا باطل؛ لأنّك إنّما تقول هذا لِما ترى من ظُهور البِدَع والظُّلم، والحقُّ حقٌّ وإن لم يُتَّبع، والحقُّ عزيزٌ وإن اضطُهِد، والله تعالى يُثبِّتُه وإن زُلزِل.

واعتَبِر هذا بالنُّبُوّات، فإنّها لمّا كانت لله تعالى ومنه تثبُت، فلا اعتبارَ بمُلكِ فرعونَ سبعَمئة سنة، ولا باضطهادِ الإسرائيليين وذبحِ أبنائهم؛ لأنّ تلك الغاياتِ انحلَّت، فتلمَّحْها يوم: ﴿ءَامَنتُ﴾ [يونس: ٩٠] وفرعونُ في شَرَقِ الغرق، والقومُ قد تملَّكوا ديارَه وديارَ قومِه، وأصبحَت منازلُه كأن لم تَغنَ، فدامَ عليه الدمع، ودامَ لبني إسرائيلَ الأمر، فكأنّه لم يكن في الدنيا إلا ساعةً.

وتلمَّحْ حالَ أحمدَ بنِ حنبلٍ وما جرى له: أين ابنُ أبي دُؤادَ؟ أين مَن أجاب تَقِيّةً أو مالَ إلى أخذِ المال؟ هل كانت إلا غَفوةً؟ وما ضرَّه ضربُه، ولا نفعَتهم استراحتُهم، وبقيَ الذكرُ الجميلُ خالدًا. هذا في أحوالِ الدنيا، فأمّا

---

(١) في (ف): «يؤثر».

(٢) رواه محمد بن سعد في الطبقات الكبير (٨: ٣٠٦).

استقرارُ الخصالِ في الآخرةِ وثبوتُ جزائه، فذاك دوامٌ لا نفادَ له، فافهَم هذا، ولا تغترَّ بسباحةٍ في سُؤر، فعن قليلٍ يغوصُ السابح.

٢٧٦- فَصْلٌ
إياك والظُّلم فإنه شرٌّ مكتسَب

وذاك لأنّ حقوقَ الخلقِ مبنيّةٌ على الشُّحّ، فإذا رفعَ المظلومُ الظالمَ إلى حاكمٍ عدلٍ لم يكنْ بُدٌّ من أخذِ الحقّ، فأمّا ما بينك وبين الحقِّ فأقربُ حالًا؛ لأنّه كثيرُ المُسامحة.

واعلم أنّ الظالمَ متجبِّرٌ على نظيرِه، مستطيلٌ على نهيِ حاكمِه، فما أسرعَ العقوبةَ إليه!

واعلم أنّ الله تعالى يهَبُ من حقوقِه ما شاء، ولا يهَبُ من حقوقِ الخَلقِ شيئًا، ورسولَه عليه السلام يشفَعُ إليه في إسقاطِ حقوقِه، ولا يشفَعُ إلى مخلوقٍ في تركِ حقِّه. ودليلُ هذا أنّه نزَّه شفاعتَه في الدنيا أن يبذلَها لذي دَين، فكان إذا أُتِيَ بمَن يصلِّي عليه، قال: «أعليه[1] دَينٌ؟» فإن قيل: نعم، امتنع من الصلاة عليه[2]، وقد كان يمكنُه أن يشفعَ إلى صاحبِ الدَّين، ولكنّه لم يفعل، فإذا كان هذا فِعلَه في الديونِ التي وقعَت برضا الفريقَين، فكيف يشفَعُ في المظالمِ التي وقعَت على سخطِ المغصوب؟!



(١) سقط «قال أعليه» من (ف).

(٢) البخاري (٢٢٩١) من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه بمعناه.

٢٧٧- فصل
ليس في الدنيا شيء إلا وهو مَشُوبٌ

فالغنى وإن حصلَت به لذّةٌ وراحةٌ، فهو مشوبٌ بمِحَنٍ لا تُحصى، والفقرُ وإن وُجِد منه ألمٌ ففي ضِمنِه راحاتٌ كثيرة، فالعاقلُ مَن نظَرَ نظرَ مُرجِّحٍ.

فإنّ الأغنياءَ يُخاطرون بالنفوسِ في الأسفارِ والبحار، فإذا جمَعوا بُلُوا بحفظِه، وخافوا على المجموع، واحتاجوا إلى مُداراةٍ لصديقٍ، ومُكابدةٍ لحاسدٍ، وكم مقتولٍ لأجلِ مالِه؛ إمّا في البوادي بقُطّاعِ الطريق، أو في بلدِ غربةٍ بتغيُّرِ المِزاج، وربّما وصلَ سليمًا فاحتالَ على قتلِه وارث. ويقابلُ هذه الآفاتِ الغنى عن الخَلق، وقوّةُ القلبِ بالمال، وبلوغُ الأغراض.

وأمّا الفقراءُ فهم وإن استَراحوا من المُخاطرةِ وخملَ ذِكرُهم بالعدَم، وسلِموا من تتبُّعِ الأعداء؛ قابلَ هذه الراحةَ ضعفُ النفسِ وذلُّ الفقيرِ للغنيِّ لموضعِ الحاجة، فإذًا المحمودُ التوسُّط.

٢٧٨- فصل
[التفكّر في حكمة الخالق]

خطرَت لي مناجاةٌ في خَلوةٍ، فقلتُ: إلهي وسيدي! لقد حيَّرَتني أفعالُك، فتركَتني لا أدري أين أنا! سيِّدي، تهيَّأ إبليسُ لتعليمِ الملائكة، وتقدَّمَ بالعبادةِ الزائدةِ عليهم، ويرى أصلَه شريفًا لكونِه من نار، فيُطرَدُ وتُسلَّطُ اللعنةُ عليه أبدًا، وتتقدَّمُ الملائكةُ[1] بكثرةِ العبادة، فتُؤمَرُ بالذلِّ المتجدِّد! ويُحرَسُ مُلكُ

(١) سقطت من (ف).

داودَ بألوفٍ، فتتسوَّرُ الفتيةُ عليه المحرابَ، ويخرُجُ موسى لطلبِ نارٍ فيقعُ[١] بالتكليم، وما جالَ قطُّ في خاطرِه.

وعزَّتِكَ، لقد عرَفتُ أنّ الكلَّ من تقديرِك وتدبيرِك، فما أعتمدُ على عمل، ولا أتجاسرُ على مُساكنةِ أمل، فقَدَمٌ لي على الخوف، وأخرى على الرجاء. كيف لا أكون قلقًا، وبينا آدمُ في مرتبة ﴿ٱسْجُدُواْ﴾ [البقرة: ٣٤] قيل له: ﴿ٱهْبِطُواْ مِنْهَا﴾ [البقرة: ٣٨]؟ أبو طالبٍ مع القربِ مخذولٌ، وسلمانُ مع البُعد مقبول، بَرْصِيصا مع التعبُّدِ مفتون، وبَلْعامُ مع العلمِ مطرود!

وا قلقَ مَن لا يدري ما له عندك، ولا يعلَمُ بماذا جرى قَدَرُك عليه، ولا له اطِّلاعٌ على عِلمِك فيه، وقلبُه كالريشة في أرضٍ صَفصَفٍ[٢] في ريحِ قَدَرٍ عاصف، كلَّما عزمَ على الاستقامة في الجادّة[٣] زلق، كلَّما عوَّلَ على رفعِ بُنيانِ العزمِ هَدَمَ، وها هو قد أشرفَ على شفا جُرُفِ الخاتمة، لا يدري بماذا يُختَمُ له، ولا ماذا يُقضى عليه! أيُّ عيشٍ يطيبُ مع هذه المخاوف؟ وأيُّ جزعٍ ينفع؟ فإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

٢٧٩- فَصْلٌ
[علمٌ لا ينفع]

يا مُزعَجًا من غفلتِه بأنواعِ اليقظة، وقد غلبَه طولُ الوَسَن، كم أراك عَجِبًا من حُسنِ ثيابِك أيّامَ صعودِ بنائك، وأنتَ لا تشكرُ، ثمّ قد بعثَ النُّقلة، وتعرقبَ أساسُ البنيانِ من شَيبٍ، ووَهنِ عظمٍ، وضَعفِ قوّةٍ، وَاحْدِيدَابِ[٤] ظَهرٍ، وأنتَ

(١) سقطت من (ف).
(٢) أرض صفصف: ملساء مستوية.
(٣) سقط «في الجادة» من (ف).
(٤) احدودَب ظهره: ارتفع، ومنه الأحدب.

غافلٌ تسلكُ سوادَ الأعمالِ في زمانِ القُوى، وشَيَّبكَ ـ والله ـ تبييضُ الحساب، وما بقيَ إلا الاستيفاء.

ويحكَ! انظرْ في الحِسبة، وارجعْ في تأمُّلِ النُّقلةِ، فالجَهيدُ على الباب[١]، أما جمعَكَ مِن أضدادٍ تتنافرُ حرارةً وبرودةً ورطوبةً ويُبُوسةً؟ أيشكُّ المُجتمِعُ من أضدادٍ أنّ ثمّ مَن قهرَ[٢]؟! يا مجموعًا قد أُسِرَ باجتماعِه، دَبَّتْ والله الفُرقة! يا مَن قد قُرِّبَتْ إليه نجائبُ الرحيل، وهو مشغولٌ ببناءِ المسكن! يا مَن رحلَ أهلُه وجيرانُه، وهو آخِرُ القوم، أعوذُ بالله من عِلمٍ لا ينفع.

٢٨٠ـ فَصْلٌ
[شرفُ العلم]

رأيتُ نفسي لا تقنَعُ منّي بالتشاغُل بالعِلم، وإنّما تُطالبني بالزهدِ، وتركِ الشهوات، ولزومِ الصوم والسهر، فقلتُ لها: اعلمي أنّ المخلوقين مختلفون، فواحدٌ يحملُ خمسَمئةِ رطل، وآخرُ يعجِزُ عن عشرةِ أرطال، وواحدٌ يأكلُ عشرةَ أرطال، وآخرُ لا يُتِمُّ نصفَ رطل، ولله عز وجل في خلقِه أسرار، فقد جعلَ بعضَهم بصيرًا بأسبابِ الدنيا، فإذا حُدِّثَ بمسألةٍ من العِلمِ سَنةً لم يفهَمْها، وإذا أُقيمَ العالِمُ في صناعة ذلك سَنةً لم يُحسنْها، وقد رُكِّبَ طبعُكِ على حبِّ الدنيا، فأنتِ به أقوَم، ولم يُقدَّرْ لكِ طبعٌ يحملُ خشونةَ العيش، فسنرى حيث شاء ربُّكِ.

واعلمي بعد هذا أنّ حالتَكِ في العِلم إذا صفَت فيها النية، أفضلُ من

---

(١) يقصد أنه قد قارب الأجل.

(٢) في (ق، ر): «أضداد ثم قهر».



فعلِ كلِّ زاهدٍ وصيامِ كلِّ صائم، فإنّ تدريسَ العِلمِ وتصنيفَه أفضلُ من التنفُّلِ بالصومِ والصلاةِ والتسبيح، فما لكِ تُؤثِرين الناقصَ على الكامل؟!

أفي شكٍّ أنتِ من فتوى العِلم؟ فإنّ العِلمَ يُفتي بأنّ الاشتغالَ به أفضل، وقد قال مالكُ بنُ أنس: «ينبغي للإنسانِ أن يعتمدَ من دينِ الله تعالى ما هو فيه أجدى، وأعظمُ غَناءً، فيضعَ نفسَه في ذلك الموضع، فإن كان بالحربِ أبصرَ، وفي القتالِ أخبرَ؛ أشغلَ نفسَه بالجهاد، وإن كان في ذلك نفع للمسلمين، وإن كان لا بصيرةَ له بالحرب، وله بصيرةٌ بالعِلم، فذلك أعمُّ للدين وأفضل. وهل جاهدَ المُجاهِدون إلا بما علَّمَ العلماءُ من الكتاب والسُّنّة؟!».

وما أحسنَ ما قال مالك، فإنّه هو الذي وقعَ لي، وإنّي لو خرجتُ بين الصفَّين للقتال آذيتُ القومَ بانزعاجي، ولو حمَّلتُ بدني شهرًا من الزمانِ ما يُحمِّلُه الزُّهّادُ أبدانَهم من أكلِ الشعير؛ لرأيتُ عجائبَ الأذى، وقد كنتُ في مبدأ أمري فعلتُ هذا فسلكتُ في زمنِ الصبوةِ طريقةَ التقليل، فتأذَّى بدني وعقلي، حتّى خلَّصني من ربقةِ ذلك الجهلِ كَفُّ العِلم، فإيّاكِ إيّاكِ أن تعتقدي أنّ فوق العِلم أفضلَ، فكيف وما خُلِقتِ لذلك؟! قالت: فبيِّن لي دليلًا على فضل العلمِ لأسكُنَ.

قلتُ: الأدلّةُ على ذلك كثيرة، ولكن سأختصرُ لك، فمن القرآنِ قولُه تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ﴾ [آل عمران: ١٨]، وقولُه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ﴾ [المجادلة: ١١]، وقولُه: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ﴾ [الزمر: ٩]، وهو في القرآنِ كثير.

وأمّا السُّـنّةُ فقوله عليه السـلام: «مَن يُرِدِ الله به خيـرًا يفقِّههُ في الدين»[١]، «العلمـاءُ وَرَثةُ الأنبيـاء»[٢]، «يُوزَنُ مِدادُ العلماءِ[٣] فيرجَحُ على دمِ الشـهداء»، والأخبارُ كثيرة.

وأمّا المعقول فإنّ العباداتِ البدنيةَ تحصُلُ بآلاتِ الجسدِ الظاهرة، والعِلمُ يحصُلُ بالقلب والعقل، وذلك أشرف، ثُمّ به يُتوصَّلُ إلى الخلودِ الدائم، ورضا الخالق[٤]، وهو مُستمِرّ مزيد الرفعةِ في الدنيا على أربابِها، فالعالِمُ نائبٌ عن الله تعالـى فـي أرضِه، آمِرٌ عنه، ناهٍ عن قولِه، وبعِلَّةِ العِلمِ سـجدَت الملائكةُ لآدم، وهو مرتبةُ الأنبياء، ثمّ لا يُدرى رضا الحقِّ في ماذا إلا بالعِلم، ولا سـخطُه في أيِّ شـيءٍ إلا بالعِلـم، وزهـادةُ الزاهدِ لا تتعدّى عتبةَ بابِـه، ولربّما زلَّ في زهدِه لقلةِ عِلمِه، والعالِمُ مُهتدٍ بنورِ العِلم، وعِلمُه عامُّ النفعِ باقٍ بعد الموت.

٢٨١- فَصْلٌ
في اليقين

اليقيـنُ أبلـغُ عِلـمٍ مُكتسَـب، وكلُّ أحدٍ يوقنُ بـأنّ الله تعالى يراه، ويسـمعُ كلامـه، إلا أنّ ذلك اليقيـنَ في الاعتقادِ لم يَقوَ بحيث يخرجُ إلى الأفعال، فأمّا المحقّقون فإنّهم لمّا قويَ يقينُهم كانوا في خلواتِهم متأدّبين، كالجالسِ بمَشهَدِ مَلِـكٍ عظيـم، وهو ينظر إليـه، وقد زاد أقوامٌ فلم يمُدُّوا أرجُلَهم ولم يسـتندوا،

---

(١) البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما.

(٢) رواه أحمد في مسنده (٢١٧١٥).

(٣) فـي (ف): «مـداد العلم»، وفي (ر، ق): «مداد العالـم»، والتصويب من المصادر. ولا يصح الخبر، انظر: العلل المتناهية لابن الجوزي (١: ٧١).

(٤) سقط «ورضا الخالق» من (ف).

وقد كان مَن هو أشرفُ منهم يمدُّ رِجلَه ويستندُ، ولكن كان ذلك على قانونِ الأدبِ أيضًا.

فتحقيقُ اليقينِ إذا ظهرَ على الجوارحِ أثمرَ الأدب، وأثّر في المعنى محاسبةَ النفس، وفي الصورةِ حفظَ الجوارح؛ لأنّ مَن أيقنَ أنّ الله تعالى يراه ويسمعُه ويعلمُ باطنَه وظاهرَه[١]؛ تأدَّب، فاحذرْ من خاطرٍ قبيح، أو فعلٍ غير صحيح، أو كلمةٍ تؤذي. على أنّه لا بُدّ من نوعِ غفلة، تغطّي حقائقَ اليقين، تُوجبُ بوجودِها مصلحةً عامّة[٢]، ولولا ذلك ما أكلوا ولا نكحُوا.

٢٨٢- فَصْلٌ
[غَلبةُ الحسّ على العقل]

يتعجَّبُ الناسُ من زاهدٍ قد ذابَ جسمُه في الصيام والقيام؛ يقينًا بالثوابِ، ولا يعجَبون من مسافرٍ رجعَ نِضْوًا[٣] حتّى كسبَ مئةَ دينار، ولا من عيّارٍ[٤] خرجَ لطلبِ غرضٍ فقُتِل[٥]، والسببُ في هذا غلبةُ الحسّ على العقل، فلو غلبَ العقلُ الحِسّياتِ لاستَعظمه ما لا يستعظمون[٦]، ولا استهانوا ما استهوَلوا، أمَا سمعتَ قولَ الشاهدِ عن اليقين: «لو تعلمون ما أعلمُ لضحِكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا»[٧]؟

---

(١) سقطت من (ر، ف).
(٢) سقطت من (ر).
(٣) أي: مهزولًا.
(٤) رجل عيّار: كثير التّطواف والحركة.
(٥) سقطت من (ف).
(٦) سقطت من (ر).
(٧) البخاري (٤٦٢١)، ومسلم (٢٣٥٩).

٢٨٣- فَصْلٌ
[القَدر لا يتغيَّر]

رأيتُ نفسي شديدةَ القلقِ من ذِكرِ الموتِ، كثيرةَ الضجيج، فقلتُ لها: ويحكِ! لا يصلحُ هذا القلق؛ لوجوهٍ:

أوّلها: أنّ الضجيجَ ما ينفعُكِ، ولا بدّ من[١] أن تُوطِّني على أنّ الخالقَ سبحانه يبني ويَهدِم، ويُعطِي ويَمنَع، ويهبُ ويَسلُب، فإن سَلَّمتِ سَلِمتِ، وإن اعترضتِ أثِمتِ، والقدرُ لا يتغيَّر، وقد قال عز وجل: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: ١٥]، وقال عليٌّ عليه السلام للأشعثِ بنِ قيس: «إن صبَرتَ إيمانًا واحتسابًا، وإلا سلَوتَ كما تسلُو البهائم»[٢].

فكأنّكِ يا نفسُ باستغاثتِكِ زِدتِ الكربَ كربًا، ومَن تفكَّر في الموتِ دائمًا ماتَ كلَّ لحظة، فلأنْ يتشاغلَ عن ذكرِه لِيلقاهُ مرّةً خيرٌ له مِن أن يُجدِّدَ على نفسِه كربًا كلَّ لحظة؛ إلا أن يجدَ الإنسانُ غفلة، فيُداويَها بذكرِ الموت، كما قال عليه السلام: «أكثِروا من ذكرِ هاذمِ اللذّات»[٣].

والثاني: أنّ المُتصرِّفَ مالك، واعتراضُ المملوك جنون.

والثالث: أنّه حكيم، وقد تخفى وجوهُ المصالح، وإن كان ظاهرُها أذًى[٤]، ونحن نرى الطفلَ يصيحُ من خروجِه من بطن أمِّه؛ لمفارقةِ إلفِه، ثُمّ يرى أنّ

---

(١) سقطت من (ف).

(٢) ذكره أبو هلال العسكري في الصناعتين: الكتابة والشعر (ص٢١١).

(٣) رواه الترمذي (٢٣٠٧)، وانظر مسائل أحمد رواية أبي داود (١٩٢٢)، وعلل الدارقطني (١٣٩٧).

(٤) سقطت من (ر).

ذلك أصلَح، ويضِجُّ من فَقدِ الرضاع، ويرى أنّ ما تعوَّضَ به أصلَح، فربّما كَرِهْتِ الموت، وكان أصلَح، ولا تَعلمِين.

والرابع: أنّ الشرع المعصوم قد نطقَ بمآلِ أرواحِ المؤمنين، وأنّها «في حواصلِ طيرٍ، تعلُقُ من شجرِ الجنّة»(١)، فما وقعَت النُّقلَةُ للمؤمنِ إلا إلى خيرٍ ممّا كان عليه، وكأنّ الحقَّ عز وجل أعارَهم أجسادًا ليصحَّ التنعُّم، فإذا قامَتِ القيامة، وأُعِيدَتِ الأجسادُ؛ رُدَّتِ العواري وعادتِ الأملاك.

والخامس: أنّ مَن أتلفَ جُثّةً مُعرَّضةً لكلِّ محنة، وأذهبَ حياةً منقطعةً مَشُوبة(٢)، فغرمَ ذلك بإعادةِ الجُثّةِ سليمةً آمنةً من كلِّ آفة، وردَّ الحياةَ سليمةً من انقطاع، باقيةً على الدوام؛ حَسُنَ إتلافُه ما أتلَف.

ثُمّ دَعنِي من هذا؛ أتدري كيف كُوِّنتَ؟! لقد تقلَّبتَ من نُطفةٍ إلى عَلَقةٍ إلى حالٍ بعد حال، ولاقَت منكَ الأمُّ كلَّ مشقةٍ في الحملِ والوضعِ والرضاعةِ والتربية، ثُمّ تولّاكَ الأبُ والمؤدِّبُ بأنواعِ الرياضة، فلمّا تركَّبَتَ واستقام ترتيبُكَ ساومَ فيكَ الخالق، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ﴾ [التوبة: ١١١]، فقام الهوى يُعارض، ليأخذَكَ بلا ثمن. فواهًا لكَ إن فهِمتَ قدرَ الربحِ في معاملة الحقّ، والويلُ لكَ إن بِعتَ الهوى نفسَك مجّانًا، فذاك ـ والله ـ الموتُ الذي لا حياةَ فيه، فعليهِ فاحزَن، لا على موتِ الصورة.



---

(١) رواه مالك في الموطأ برواية يحيى (١: ٢٤٠).

(٢) سقطت من (ف).

٢٨٤- فَصْلٌ

[آدابُ طالب العلم]

أحقُّ الناسِ باستعمالِ أدبِ المعاشرة طُلّابُ العِلم مع مشايخِهم، فإنّه ينبغي للصاحبِ أن يتأدَّبَ لمصحوبِه، ويكونَ معه كالمملوك، ولا يردُّ عليه قولًا يقولُه، فإذا أراد أن يعرِّفَه أنّه أخطأ احتال بوجهٍ لطيف.

مثلَ ما أخبرَنا عبدُ الحقّ، قال: أنا محمّدُ بنُ مرزوق، قال: أنا أبو بكرٍ الخطيب، قال: حدَّثني أبو عبدِ الله محمّدُ بنُ عليٍّ الدامَغاني، قال: سمعتُ القاضيَ أبا عبدِ الله الصيمريَّ يقول: درَّسنا يومًا أبو بكرٍ الخوارزميّ، فحكى في تدريسِه عن محمّدِ بنِ الحسنِ شيئًا وَهِمَ في حكايتِه، وكان محمّدٌ قد نصَّ في «الجامع الصغير» على خلافِه، فلمّا انقضى تدريسُه تركتُ الإعادةَ على الأصحاب، ومضيتُ إلى أبي بكر وقد دخلَ منزلَه، ومعي كتاب «الجامع» لمحمدِ بنِ الحسن، واستأذنتُ على أبي بكر، فأذِنَ لي في الدخول، فدخلتُ وسلَّمتُ عليه، ثُمّ قلتُ له: هاهنا بابٌ فيه شيءٌ قد أشكلَ عليّ، فأحتاجُ إلى قراءتِه على الشيخ، فقال: افعلْ، فقرأتُ من قَبلِ الموضعِ الذي قصدتُ لأجله، إلى أن انتهيتُ إليه وجاوزتُه، فقال أبو بكر: قد كنّا حَكَينا في الدرسِ عن محمّدِ بنِ الحسنِ شيئًا، والنصُّ هاهنا فيه بخلافِه، وهو كذا، فعَرِّف الأصحابَ ذلك حتّى يذكُروه ويعلّقوه على الصواب، أو كما قال».

قلتُ: ولقد عِشنا إلى زمانٍ نرى فيه من التلامذةِ من سوءِ الأدب، وسرعةِ الردِّ على الأشياخِ ما يُستحيا من ذِكرِه، وبلغَنا أنّهم يتخلّفون أشياخَهم بما لا

يصلحُ، وبعيدٌ فلاحُ أولئك، فقد قال إبراهيمُ بنُ أدهم: «كنّا إذا رأينا الشابَّ يتكلَّمُ في الحلقةِ أيِسنا من خيرِه»[١].

والسببُ في قلّة آدابِ هؤلاء أنّهم لا يطلبون العِلمَ للعمل؛ إذ لو طلبوه للعملِ لاستعملوه، فأثَّر فيهم، والذين كانوا يطلبونه لله عز وجل كان أحدُهم إذا طردَه شيخُه صبرَ وثبَت، ولم يكن منه إلا التواضعُ والأدب.

ولقد ساءَت أحوالُ كثيرٍ من الأشياخِ أيضًا لفسادِ مقاصدِهم، فأحدُهم يغضبُ إذا مضى تلميذُه يقرأُ على غيرِه، وفيهم مَن يتخلَّفُ إخوانَه بالغِيبة، وينصرُ الباطلَ في مناظرتِه وهو يعلَمُ أنّه باطل، وقد قال الشافعي: «ما ناظرتُ أحدًا فأحببتُ أن يُخطئَ، ولا باليتُ مع مَن كانَ الحقّ»[٢]. فهذه سيرةُ العلماءِ والتلامذةِ القدماء، وهذه سِيَرُ المتأخِّرين، وبينهما بَونٌ بعيد.

ولقد بلغَنا أنّ عبدَ الغنيّ الحافظَ أخذَ على أبي عبدِ الله الحاكمِ أغلاطَه في كتابٍ عمِلَه وكتبَ بها إليه، فلمّا وصلتْ إليه أملاها على الناس، واستفادها.

نسأل الله عز وجل سلامةَ القصد، وحسنَ الأدب، والعملَ به؛ إنّه قديرٌ كريم.

حكى لي أبي ـ مُملِي هذا الكتابِ ـ قال لي: يا بُنيّ، كنتُ أنا وجماعةٌ من العلماء[٣] مثلُ ابنِ الخشّابِ وابنِ لبيدةَ وابنِ شافعٍ وجماعة، كلُّ مَن عثرَ به الوزيرُ يحيى بنُ هُبيرةَ، لمّا كان يُملي كتابَ «الإفصاح في معاني الصحاح» يُملي عليه ما يقعُ له خاطرٌ أو مُطالَعة، فأملى يومًا عليَّ واقعةً قد وقعَت لي في

(١) رواه البيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (١٧٧٧).
(٢) رواه ابن أبي حاتم في آداب الشافعي ومناقبه (ص٦٨).
(٣) سقط «من العلماء» من (ر).

معنى حديث، فقلتُ له: هذا الواقعُ خطأ، فقال: لا، بل هو عينُ الصواب. فقلتُ له: لا أكتبُه! فقال لي: اكتُبْ ما أُملي عليكَ، فقلتُ: هذا خطأٌ وألححتُ عليه، فقال: من أين أخذتَ هذا؟ فقلتُ: من كتابِ فلانٍ وفلان، فأخذَ الكتب، ونظرَ ما قلتُ، وإذا به هو الصحيحُ لا ما وقعَ له، فقال: صدقتَ، اكتُبِ الآن ما قلتَ، فهو الصواب. قال أبي: فكتبتُه له كما قلتُ.

وكان جماعةٌ قد انتُدِبوا لحفظِ كتابِ الوزير، وجعلَ له على ذلك أخبازًا ومُشاهَراتٍ[١]، فبينا أنا ليلةً جالسٌ بحضرة الوزير، وإذا بواحدٍ يقرأُ من حفظِه صورةَ ما كنتُ رددتُه على الوزير، فلمّا أنهى ذلك قال الوزير: يا سادة، هذا كلامُ ابنِ الجوزيّ، فإنّه وقعَ لي كذا وكذا، فقلتُ له: علِّقْه في كتابي، فقال لي: هذا خطأ، فبانَ لي صحةُ قوله، فذهبتُ إليه، وليس هذا[٢] من كلامي ولا شرحي، هذا كلام الشيخِ أبي الفرج. قال أبي: فاستحييتُ من ذلك، فلمّا خلوتُ بالوزير قلتُ له: يا مولانا، قلتَ كذا وكذا، فقال: كذبتَ، ما قلتُ[٣] كذا، فأوصيتَني فيه وقلتَه، فكان الصحيحُ معك. كتبه عليُّ بنُ الجوزيِّ عن أبيه رضي الله عنهما.

٢٨٥ـ فَصْلٌ

[تلبيسُ إبليس على طالب العلم]

من تلبيسِ إبليسَ على طُلّابِ العلمِ أنّه يُحسِّنُ لطالبِ الحديثِ كثرةَ السماعِ والطلب، فيستكثرُ من طلبِ الحديث، ويمُدُّ الرحلةَ إلى البلدان، والذي في هذا الجزءِ هو في هذا الجزء، ولو كان العمرُ يحتمِلُ لم يكنْ بذلك

(١) الأخباز: جمع خُبز، والمشاهرات: المرتبات الشهرية.

(٢) سقطت من (ف). (٣) سقطت من (ر، ف).

بـأس. وإنّمـا كان هذا ممكنًا في الزمـنِ الأوّل؛ لقلةِ الحديثِ وقربِ الإسـناد، فأمّا اليومَ فقد انتشرَ الأمرُ وزادَ على الحدِّ، فإنّ الزمانَ يمضي في غيرِ ما وُضِع له؛ ذلك لأنّ المرادَ التفقُّهُ في الحديث، لا نفسُ الحديث.

وكثيرٌ من أربابِ التشـاغُلِ بالحديـث يقولُ في آخرِ عمرِه فضيحةً، فمنهم مَن يعمَلُ بما عنده من الأحاديث، وربّما كانت منسوخةً أو ضعيفة، أو جاءت لمعنًى، ولا يدري كلَّ ذلك؛ لتشاغُله بكثرةِ الطُّرُقِ عن الفقه.

ولقد بلغَني عن رجلٍ من المُحدِّثين قرأ على قومٍ في جزء: «أنّ النبيَّ ﷺ نهـى أن يسـقيَ الرجُلُ مـاءَه زَرعَ غيـرِه»[1]. فتفرَّقَ القومُ وهم يسـتغفرون الله، ويقولـون: كنّا إذا فضَلَ من مائنا شـيءٌ أرسـلناه إلـى زرعِ جيراننا، ونحن الآن نستغفرُ الله!

وهذه جنايةٌ على الإسـلام، أعني قـراءةَ مثلِ هذا الجاهلِ للحديث، وإنّما أُريدَ بالحديث: ألا تُوطأَ السبايا الحوامل.

ومـن المُحدِّثيـن مَن كان يُقدِمُ على الفتوى؛ لئلّا يُرى بعينِ أنّه شـيخٌ وهو جاهل، فأنبأنا محمدُ بنُ أبي منصورٍ، قال: أنبأنا محمدُ بنُ الحسنِ بنِ خيرون، قـال: حدَّثنا أحمدُ بنُ محمّدٍ العتيقـي، قال: أخبرَنا عمرُ بنُ حَيوَة، قال: أخبرنا سليمانُ بنُ إسحاقَ الجلّاب، قال: حدَّثنا إبراهيمُ الحربيّ، قال: بلغَني أن امرأةً جـاءت إلـى عليِّ بنِ داود، وهـو يُحدِّث، وبين يدَيه مقـدارُ ألفِ نفسٍ، فقالت له: حلَفتُ بصدقةِ إزاري، قال: بكم اشـتريتِه؟ قالت: باثنينِ وعشـرين درهمًا، قال: اذهبي صُومي اثنينِ وعشرين يومًا، قال: فلمّا مرتْ قال: آه آه غلطنا والله، أمرناها بكفارةِ الظِّهار[2]. قلتُ: فانظر إلى هذه الفضيحة!

---

(١) رواه أبو داود (٢١٥٨).

(٢) ذكره ابن الجوزي في تلبيس إبليس (ص١٠٤).

ومنهم مَن كان يَتلَجْلَجُ، ولا يدري ما يقول، أخبرَنا عبدُ الرحمنِ بنُ محمّدٍ القَزّاز، قال: حدَّثنا أحمدُ بنُ عليّ بنِ ثابت، قال: سمعتُ البرقانيَّ، يقول: قال لي أبو بكرٍ الأبهريُّ الفقيه: كنتُ عند يحيى بنِ محمّدِ بنِ صاعد، فجاءته امرأة، فقالت: أيّها الشيخُ، ما تقولُ في بئرٍ سقطَت فيها دجاجةٌ فماتَت، هل الماءُ طاهرٌ أو نجسٌ؟ فقال يحيى[1]: ويحكِ، كيف سقطَتِ الدجاجةُ في البئر؟ فقالت: لم تكنِ البئرُ مُغطّاةً، فقال يحيى: ألَا غطَّيتِيها حتّى لا يقعَ فيها شيء؟ قال الأبهري: فقلتُ: يا هذه، إن كان الماءُ قد تغيَّر، وإلا فهو طاهر[2].

قلتُ: ويدخلُ الشيطانُ على الفقهاءِ فيُلهيهم بالجدلِ والخصومات، فينقطعُ الزمانُ من غيرِ حصولِ فائدة، ويتشاغلون بذلك عن الحديثِ الذي هو أصلُ الشرع، ويدخلُ على الوُعّاظِ بأنّ المقصودَ ترقيقُ القلوب، فترى أحدَهم يُنشِدُ الأشعارَ الغَزَليّة، والمُقرئَ يَلحَنُ بتطريب، فيوجبُ ذلك ما لا[3] يوجبُ طربُ الغناءِ من التواجُدِ وتمزيقِ الثياب، ويُوهِمُهم أنّ المجلسَ قد طاب، وهذا عينُ المنهيِّ عنه؛ لأنّه إخراجٌ للطبعِ عن الاعتدال، وهل سُمِع من نبيٍّ أو صحابيٍّ أنّهم فعلوا ذلك أو خرجُوا عن الاعتدالِ في حالٍ؟ ويدلُّ على أنّه خروجٌ عن الاعتدال[4]: أنّه إذا زال سببُه استحيا الإنسانُ ممّا اعتراهُ من الطربِ والانزعاج، كما لو خرجَ عن مالِه بمِدحةٍ فأعطى، فإنّه إذا صحى من سُكرِ ذلك ندِم.

ويدخلُ على أهلِ اللغة، فيقول: هذا لسانُ الشريعة، فيشتغلون بالألفاظ عن معرفةِ واجباتِ الشرعِ إلى أن يفنى العمر، وكذلك في النحو، وقد لبَّسَ

(١) سقطت من (ف).
(٢) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (١٦: ٣٤٣).
(٣) سقطت من (ر، ف).
(٤) سقط «في حال... الاعتدال» من (ف).

علـى صاحبِ «فتيـا فقيهِ العرب»[١] لقلةِ فقهِه، فأراه أنّه قد أفتى في المسـائل، وأنّه قد أتى بالمقصود، لا بل أتى بما يعجِزُ أكثرُ الناس عنه، وهو خطأ:

أخبرنا أبو منصورٍ اللغويّ، وأبو الفضلِ بنُ ناصرٍ، وأبو الحسنِ الأنصاريّ، قالـوا: حدَّثنـا أبو زكريـا التِّبريـزيّ، قال: حدَّثنا سـليمُ بـنُ أيوبَ، قـال: حدَّثنا أبو الحسينِ بنُ فارسٍ، قال: قيل لفقيهِ العرب: هل يجبُ على الرجلِ إذا أسهدَ الوضوءُ؟ قال: نعم، والإسهاد أن يُمذيَ الرجُل! وذكر من هذا الجنسِ مسائلَ كثيرةً[٢].

ووجـهُ الخطـأ فـي ذلك أنّه متى كان الاسـمُ مشـتركًا بيـن مُسـمَّيَينِ، كان إطـلاقُ الفتـوى علـى أحدِهما دونَ الآخرِ خطـأً. مثاله أن يقولَ المسـتفتي: ما تقـولُ فـي وطءِ الرجُلِ زوجتَه في قُرئها؟ فإنّ القُرءَ يقعُ عند اللغويِّين والفقهاءِ على الحيضِ وعلى الطُّهر، فقولُ الفقيه: «لا يجوز» ـ إشـارةً إلى الحيض ـ لا يجوز، وقوله: «يجوز» ـ إشارةً إلى الطُّهر ـ لا يجوز؛ بل ينبغي أن يُفصِّل.

وكذلـك لو قال السـائل: هـل يجوزُ للصائـمِ أن يأكلَ بعد طلـوعِ الفجر؟ لـكان ينبغي للفقيهِ أن يقول: الفجرُ فجـرانِ، فيجوزُ له الأكلُ بعد طلوعِ الأوّل دونَ الثاني.

وعلـى هـذا فجميـعُ المسـائلِ التـي ذكرهـا أخطـأ بإطـلاق الفتـوى فيها؛ لوجهيـن؛ أحدهما: لأنّه لم يسـتفصلْ فـي المُحتمَلات. والثانـي: لأنّه صرفَ الفتوى إلى أبعدِ المُحتمَلات، وتركَ الأظهر. وإنّما يقعُ هذا لقلةِ فقهِ النفوس، واستغناءِ الإنسانِ بعلمِه.

---

(١) هو ابن فارس.

(٢) انظر: فتيا فقيه العرب (ص٢١).

ثمّ إنّ إبليسَ حسَّـنَ لكثيرٍ من العلماءِ أنّ العِلمَ يدفعُ عنهم، وأنساهم أنّه حُجّةٌ عليهم، ففسَحُوا لأنفسِهم فيما ينهَى عنه العِلم، وفيهم من لبَّسَ عليه بأنّ المقصودَ نفسُ العِلم، وجاء إلى آخرِين فقال: المرادُ العمل، فشغلَهم بالصومِ والصلاةِ مع قلّةِ العِلم، وأضلَّهم بالرياءِ والعُجبِ والعملِ الباطل.

فالمُوفَّق من استضاء بنور العلم، وأخذَ زُبَدَه، وعرَفَ المقصودَ منه، فإنّ الأحاديثَ تُرادُ لفقهِها، والنحوَ واللغةَ لبيانِ معاني كلام الله عز وجل ورسولِه صلى الله عليه وآله وسلم، والفقهَ لفهمِ مُرادِ الشرع، ثُمّ المرادُ العملُ بذلك لصاحبِ العِلم، وذلك هو الإخلاص. نسأل الله عز وجل فهمًا يُوقعنا على المقصود، ويمنعُنا من الزَّيغ، والله عز وجل قادرٌ كريم.

٢٨٦- فصلٌ
[طرفٌ من السيرة]

لله سبحانه وتعالى عندي من النِّعَم ما لا أُحصيه، ولا يمكنني عَدُّه من زمنِ الطفولة إلى الآن، وذلك يُقوِّي أملي في عفوِه، وإن كانت الذنوبُ تعترضُ فتكادُ تُؤيِّس، غيرَ أنّ اللطفَ أغلبُ، ولولا أنّ التحدُّثَ بالنِّعَمِ شكرٌ ما ذكرتُ هذا، غيرَ أنّي أشكرُ المُنعِم، وأرجو أن يعتبرَ سامع.

تُوفِّي أبي ولي من العمرِ نحوُ سنتَين أو حولها، فلطَفَ الله سبحانه بي في التربية، ورزَقني عُلُوَّ الهِمّةِ في الطفولة، فكنتُ في المَكتَبِ وأنا قرينُ الصِّبيان، وهو المُتقدِّم عليهم، وكنتُ أتوقُ إلى مجالسِ الوُعّاظِ وأحبُّها من ذلك الزمان، وأحضُرُ وأكتُبُ ما يقولون، واتَّفقَ أنّ شيخَنا أبا الفضلِ بنَ ناصرٍ كان صديقًا لعمِّي، فكان يحملُني إلى المشايخ، ويُسمِعُني عواليَ الحديث، ويُثبِتُ ذلك لي.

وركَزَ في طبعي من الطفولةِ السكينةَ والوقار، فما أعلمُ أنّي وقفتُ في طريقٍ مع صبيٍّ مِثلي ألعبُ، ولا ضحِكتُ مع قرينٍ مثلَ ما يجري للصبيان، وكنتُ ربّما جُزْتُ بالرَّحبةِ وأنا طفل، فلا يُعجبني خُلُقُ المُشعبِذين، وإنّما أقصدُ حَلقةَ المُحدِّث، فأُحضِرُ قلبي لحِفظِ السَّمَر[1]، وأعودُ إلى المنزل، فأكتبُ ذلك[2] بالمعنى، وأمُرُّ على مجالسِ الوُعّاظِ وأنا بعدُ في المَكتَب، فأدخلُ فأكتبُ ما يقولون.

ولزِمتُ ابنَ ناصرٍ أكتبُ عنه وأسمعُ معه على المشايخ، إلى أن بلغتُ، فأخرَجَ إليّ ثَبَتَ ما أسمَعَني على الأكابر، فعجِبتُ من تقديرِ الحقِّ ذلك من غيرِ كسبٍ مني، فلحِقتُ بذلك الإسنادِ العالي.

فلمّا بلغتُ ألهمني الحقُّ عز وجل التزهُّدَ والنظرَ في سِيَرِ الصالحين، حتّى قطعتُ بذلك سَورةَ البلوغ، وهداني إلى الفقه، فميَّزتُ به ما يصلُحُ ممّا لا يصلُحُ من سِيَرِ القوم. وما زالتِ الأحوالُ تتقلَّبُ بي على أحسنِ لُطف، وأقواها في اللُّطفِ تحبيبُ العِلمِ إليّ، فكان شِعاري ودِثاري وسَمِيري، وصار القدَرُ يسوقُ إليَّ أصولَ العِلم، ويُطلِعني على عيونِ النُّكَت، ويُعرِّفني غَورَ الأمور.

وآلَ الأمرُ في مجالسي الوعظيةِ إلى أن يحضُرَ المجلسَ عشرةُ آلاف، وأذكرُ لهم[3] سِيَرَ السلف، فتتوبُ المئةُ وحولَهم، ويصلُحُ خَلقٌ كثير، ثُمّ اتَّفقَ قطعُ مجالسِ الوُعّاظ كلِّهم، وانفردتُ بالعِلمِ والتصانيفِ انفرادًا لم أقدرْ عليه قبلَ ذلك لمكان المُخالَطة، فكان الناسُ يدعون الله تعالى، ويسألونه عَودَ مجالسِ الوعظ، ويقولون: فقدنا قُوّتَنا.

---

(١) لعله يقصد السمر في حفظ أحاديثهم التي يتسامرون بها لما فيها من علم.
(٢) سقطت من (ف).
(٣) سقطت من (ف).

وكـم مِـن مُذنبٍ قد رجع، وكم مِن عاصٍ قد صلَح، وكنتُ أنا معهم على ذلك، إلى أن كشـفَ لي غَورُ العِلمِ وتحقيقُ السِّـيَرِ أنّ جمهورَ ما كنّا فيه خطأ، وسببُ الخطـأ تقليـدُ الأشـياخِ والجريُ مـع العادات، وذلـك أنّا رأينـا الناسَ يستعملون في الوعظِ طرائقَ، فسلَكنا أصلحَها، ثُمّ قِسناها بأحوالِ القدماءِ من السلفِ فرأيناها غلطًا[١].

وذلـك أنّ ممّـا كان يجري قراءةَ القُرّاء، وخصوصًا البسـملةَ التي يُوقِّعون بها توقيعَ الأغاني، وكان غيرُنا إذا أنشـدَ الأشـعارَ التي لا تصلُحُ للوعظِ أنشدْنا ما يليقُ بالوعظ، وما قاله أهلُ المعاملةِ والمعرفة، إلا أنّه كان يتّفقُ هذا الإنشادُ مـع ذلك التلحين، فيوجبُ طـربَ الناس، فربّما مزّقوا ثيابَهم وضجُّوا ولطمُوا وخرجُـوا علـى وجوهِهـم، وكان ذلـك يُؤثِّـر في نفسـي أيضًا. ولَعَمـري إنّا ما كنّا نتعدّى ذكرَ السـلفِ والصالحين ممّا يوجبُ القلق، غيرَ أنّ طريقةَ السـلفِ الصالحِ لا ترتضي هذا الحال، وإخراجُ الطباعِ عنِ الاعتدال لا يصلُحُ بحال.

ومما بانَ لي غلطُه أنّا كنّا نذكُرُ عن خيارٍ من الصالحين أشياءَ، بانَ لنا أنّهم غَلِطوا في فعلِها، وكان ذكرُها للعـوامّ لا يصلُحُ، مثلَ أن نقول: كان فلانٌ يبقى ستّين سنةً لا يضطجعُ، وكان أبو يزيدَ حلفَ على نفسِه[٢] ألا يشربَ الماءَ سنةً، وهذه الأشياءُ وأمثالُها غلطٌ من فاعلِها، وذكرُها يُفسِدُ السامعَ ولا يُصلِحُه على قانونِ الشـرع، إلى غيرِ ذلك من الأحوالِ التي انكشـفَ ـ بما أوضحَه الفقهُ[٣] والفهمُ وإدراكُ غَورِ الشرع ـ أنه كلَّه خطأ، وأنّ انقطاعَه كان مصلحةً.

---

(١) سقطت من (ف).

(٢) سقط «على نفسه» من (ف).

(٣) سقطت من (ف).

وما كنتُ بالذي يمكنني تركُه بغتةً، لكنَّ القدرَ دَرَجَني بالقطعِ[١] عنه، ثُمّ بالفكرِ فيه، ثُمّ بمعرفةِ أصولِ الشرعِ التي تنهى عنه، ولو أجذُني على ذلك الأوّلِ كنتُ مُلابِسًا لمكروهِ الشرعِ؛ على أنّ مجلسي كان أصلحَ المجالس، فما كان يمكنُ فقيهًا من الفقهاء ولا مُحدِّثًا ولا أحدًا يطعنُ[٢] في شيءٍ منه؛ لموضعِ اجتهادي في اتّباع الشرع، غيرَ أنّني ميَّزتُ ما ذكرتُ على نفسي بعينِ التحقيق، فرأيتُ أنّه على غيرِ الطريق.

فلله الحمدُ حيثُ رقّاني من مقامٍ إلى مقامٍ هو أعلى منه، وكشفَ لي عوارَ ما بعده منقبةً وفضلًا، فأنا أقول[٣]: [الكامل]

لا زِلتُ أنزِلُ مِن وِدادِكَ مَنزِلًا ... تَتَقاصَرُ الألبابُ دُونَ نُزُولِهِ

وكان عز وجل قد رزقَني الأزواجَ والأولاد، ولم يُحوِجني إلى ذلِّ الخلقِ ولا تعبٍ في كسبٍ، بل كان يلطُفُ بي من حيثُ لا أحتسِبُ، ويَخِيرُ لي في أموري، ويُلهِمني طلبَ العلومِ الأنفعِ والأصلحِ، وما بيَّنَ لي الخِيَرةَ في عاقبتِه، وجعلَ قُوّتي بمقدارٍ لا يشغَلُني ولا يُعوِزُني، وكانتِ النفسُ تتطلَّبُ فضلَ نكاحٍ أو شِرى جارية، فيمنعُني من ذلك تضييقُ اليدِ، ثُمّ بيَّنَ لي في العواقبِ أنّ ذلك خير؛ لترقيةِ القوّة على العلمِ والعمل.

ثُمّ فتحَ لي أبوابَ التصانيف، فجمعتُ من كتبِ الزهدِ والأدبِ ما لم يتهيَّأ لغيري، وجمعَ لي من أدبٍ في نفسي، وصبرٍ في باطني، ومُداراةٍ للخَلق، وصورةٍ ليست بمكروه[٤]، وحبَّبَ إليَّ الخَلوة، وفتحَ لي بابَ معرفةٍ أنِسْتُ فيها

---

(١) سقطت من (ف).

(٢) كذا في النسخ، والمعنى: أن يطعن، وحذف حرف المصدر هنا جائز.

(٣) تاريخ بغداد (٦: ٣٣٧).

(٤) أي: ليس بمكروه رؤيتها.

بخدمتِه، وأوقعَ لي في القلوبِ أكثرَ مِن قدري، فنهضَ خلقٌ كثيرٌ من أبناء جنسي يحسدُونني على الذِّكرِ الجميل، وقَبولِ القول، وظهورِ التصانيف، ونفعِ الناس، فأخذتِ النفسُ تمتعضُ بما يبلغُني عنهم، فصِحتُ بها: ويحكِ! احتقِري مَن لا يُحسَدُ، ثمّ اعلمي أنّ هؤلاء[1] إنّما يحسُدُون على ما يتعلَّقُ بالدنيا، وأنتِ فهِمَّتُكِ مُتعلِّقةٌ بما هو أعلى من هذا، فارحَمِيهم، فإنّهم ما عرَفوا المُعطيَ؛ فلذلك ذمُّوا المُعطَى، ولو عرَفوه لاستغنَوا بمعرفتِه، واشتغلوا بالطلب.

٢٨٧- فَصْلٌ

[عاقبة مُوافقة الهوى]

ما دهى الناسَ كلَّهم إلا موافقةُ الهوى؛ لأنّه يرى العاجلَ ويحثُّ عليه، ولا ينظرُ في عاقبة، وكم وافقتُ الهوى في مباحٍ لم أنظرْ في مآلِه، فيجني عليَّ جنايةَ تأدُّب، ولقد نظرتُ في أمرٍ مُحتقَر، وهو أنّي مشيتُ يومًا في شِدّةِ الحرّ، ثُمّ جئتُ إلى مكانٍ بارد، فمالَ الطبعُ إلى التعرِّي طلبًا للتبرُّد، والعقلُ والعِلمُ يمنعانِ من ذلك إلى أن يسكُنَ العَرَق، فلم أصبرْ وِفاقًا للهوى المَحض، فأصابني من الزُّكامِ مدةً ما قاربَ الأمرُ فيه الموت، فاعتبرتُ بذلك وقلتُ: يا نفسَ السوءِ، انظري ماذا جنى عليكِ الهوى في البدن، فكيف جنايةُ الهوى عليكِ في الدين؟!

يا سبحانَ الله! كيف أقدمتُ على استعجالِ لذّةٍ قد علِمتُ عواقبَها، أتُساوي راحةُ لحظةٍ مرضَ مُدّةٍ، وربّما آلَ الأمرُ إلى الهلاك؟! فالآن قد وُعِظتِ بما جرى لكِ، فإيّاكِ إيّاكِ أن تُوافقي الهوى حتّى تستشيري العقل، فإنّ العقلَ[2]

(١) سقط «أن هؤلاء» من (ر).
(٢) سقط «فإن العقل» من (ف).



ينظُـرُ في العواقب، فإذا فعلتِ من غيرِ استشـارةٍ عطَّلـتِ منافعَه، وكان وجودُه عنـدكِ كالعدم، ثُمّ يُعقِبُكِ فِعلُـكِ ذلك حزنًا أضعافَ فرحِكِ، ومرضًا أضعافَ عافيتِكِ، ورُبَّ لُقمةٍ منعتْ لُقماتٍ، فمراعاةُ العواقبِ إذا فاتَت عاقلًا فقد سُلِبَ فوائدَ عقلِه.

٢٨٨- فَصْلٌ
[الإنسانُ الكامل]

لمّا سَبَرتُ سِيَرَ السلفِ تعلَّقَ قلبي بمحبّةِ أقوامٍ منهم؛ لِما اطَّلعتُ عليه من صفاتِهـم الجميلـة، وإن كنتُ أحِبُّ كلَّ الأخيار، لكن زاد بعضُهم في قلبي على بعض؛ لعُلُوِّ مراتبِهم وفضلِهم، فزادتْ محبَّتي للحسنِ البصريّ، وسفيانَ الثوريّ، وأحمدَ بنِ حنبل، حتّى عُنِيتُ بجميعِ فضائلهم وخصالهم وآدابهم، ومن العُبّاد: إبراهيـمَ بـنِ أدهـم، والفُضَيلِ بـنِ عياض، وبشـرٍ، ومعروفٍ، ورابعـةَ، فجمعتُ فضائلَهم وأخبارَهم، ومن الوُلاةِ: عمرَ بنِ الخطّاب، وعمرَ بنِ عبدِ العزيز.

إلا أنّه دقَّ نظري، وقوِيَ بحثُ فكري، فما في هؤلاء السادةِ إلا مَن أجدُ له حالةً لو تركَها كان أولى، أو أرى أمرًا قد قَصَر عنه، لو فعلَه كان أحسن، فمنهم المشدِّدُ على نفسِه الذي يُحمِّلُها فوق ما لا تُطِيق، ومنهم ومنهم ومنهم.

فما رأيتُ في الوجودِ سيرةَ مخلوقٍ قطُّ تُشـبهُ سـيرةَ نبيِّنا محمدٍ ﷺ، وما أبقتْ محبّتُه في قلبي موضعًا لغيرِه، لا أنّي لا أحبُّهم، ولكن محبَّتي لهم كمحبّةِ الإخوانِ والأهل، ومحبَّتي له عِشق.

فـإذا تأمَّلـتُ ذلـك الشـخصَ الكاملَ لـم أرَ له نظيـرًا إلا مـن الأنبياء، ولا قدَرَ على حالتِه الملائكةُ؛ تارةً يَخشُـنُ في دين الله، فيقول: «لو سـرقَتْ فاطمةُ

لقطعتُها»[١]، وتارةً يلطُفُ: «هلّا سترتَه ولو بثوبِك يا هزّال!»[٢]، وتارةً يقومُ الليلَ حتّى تتورَّمَ قدماه[٣]، وتارةً يتنفَّلُ قاعدًا[٤]، وتارةً يصوم، وتارةً يُفطِر[٥]، وتارةً يُداعِبُ الصبيانَ، ويُمازِحُ النساء؛ ويجري في كلِّ ذي حالٍ مع حالِه، فيجمعُ الأضداد.

ليس معه خشونةُ الزُّهّادِ ولا لِينُ المُترَفِين؛ تارةً يأكلُ العسلَ ويحِبُّ الحلوى[٦]، وتارةً يشُدُّ الحَجَرَ على بطنِه ويُؤثِرُ بالموجود، وكلُّ مَن يجري على حالةٍ واحدةٍ فأمرُه سهل، إنّما الصعوبةُ التقلُّبُ في الأحوال على وجهِ المُداراةِ للدنيا وأهلِها، فإنّ عيسى بنَ مريمَ كان زاهدًا فحسب، وكان في موسى فَظاظة، وكان في إبراهيمَ كرمٌ يغلِبُ عليه، وكان سليمانُ مَلِكًا، وهذا المصطفى قد جمعَ جميعَ خصالِهم؛ جمعَ المعاجِين فركَّبها واستعملَها وزادَ عليها، فلم يجرِ في قانونٍ واحدٍ يصعُبُ معه استعمالُ ضدِّه.

وكان أصحابُه إذا أنشدوا الشِّعرَ سمِع، وإذا تحدَّثوا حديثَ الجاهلية تبسَّم، وإذا طلبوا منه أعطى ما بين جبلَين[٧]، وإذا لم يجِدْ شيئًا رهنَ دِرعَه عند يهوديّ[٨]، وتارةً يبطِشُ بطشَ مَلِكٍ، وتارةً يتواضع: «إنّما أنا ابنُ امرأةٍ من قريشٍ كانتْ تأكلُ القَدِيد»[٩]، فما أحسنَ أخلاقَه التامّةَ الكاملة، التي مَن تأمَّلَها شهِدَ له بالكمالِ السالمِ عن نقص.

---

(١) البخاري (٣٤٧٥)، ومسلم (١٦٨٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أحمد (٢١٨٩٠). (٣) تقدم في الفصل ٤٠.

(٤) بمعناه مسلم (٧٣٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥) البخاري (١٩٦٩)، ومسلم (١١٥٦) من حديث عائشة رضي الله عنها بمعناه.

(٦) تقدم في الفصل ١٩. (٧) تقدم في الفصل ٢٦٢.

(٨) البخاري (٢٠٩٦)، ومسلم (١٦٠٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٩) رواه ابن ماجه (٣٣١٢)، وهو ضعيف، وانظر: علل الدارقطني (١٠٦٣).

فكلُّ شخصٍ ينزلُ في قلبي من المحبوبين يجدُ قلبي مملوءًا بمحبّةِ هذا المصطفى، فينزل أيضًا منه، ولا يكونُ له في السُّوَيداءِ مكان، فأنا أُنشِدُ مُتمثِّلًا في محبَّته[1]: [الكامل]

أفسَدتُمُ نَظَرِي عَلَيَّ فما أرى ... مِن بَعدِكُم حُسنًا إلى أنْ تَقدَمُوا

٢٨٩- فَصْلٌ
[مُناجاة]

صَفَت لي خلوةٌ في مناجاة، فقلتُ: إلهي وسيِّدي، أتمنّى عليكَ أشياءَ كثيرةً، ثُمّ يمتدُّ أملي إلى زيادةٍ تليقُ بفضلِك لا يعرفُها أملي، وكذا ينبغي لمَن طمِعَ في جانبِ كريم، فأمثِّلُ نفسي بالزبيرِ حين أقطعَه النبيُّ ﷺ حُضْرَ فَرَسِه من أرض، فأعدى الفَرَسُ، فلمّا وقفَت رمى سَوطَه[2]. ثُمّ تعرِضُ لي ذنوبي، فتقول: مِثلُكَ يُؤمِّلُ هذه الآمال، وينسى ذنوبَه التي ينبغي أن يكونَ غايةُ أملِه العفوَ عنها، فأقول: وعزَّتِه وجلالِه، إنّي لَآنَفُ لفضلِه أن يكونَ له مُعوِّق، وما قَدرُ ذنوبي مع اعترافي، بالإضافة إلى فضله؟ وها أنا أقولُ كما قال ثُمامةُ لرسول الله ﷺ: «إن تقتُلْ تقتُلْ ذا دمٍ، وإن تعفُ تعفُ عن شاكر»[3].

فقال إبليس: وما قَدرُ شكرِك؟ قلتُ: لا أَمُنُّ به، ولكن أصِفُ ما وَهَبَ لي من الشكر، وهو أنّي معترفٌ بالعجزِ عن الشكر، عالِمٌ ألا أقدِرَ على ذرّةٍ منه؛

---

(١) لشداد بن إبراهيم بن حسن في معجم الأدباء (٣: ١٤١٥).

(٢) رواه أبو داود (٣٠٧٢)، وفي سنده عبد الله العمري، وهو ضعيف، والحُضر: العَدْو والجري؛ والمعنى: أن النبي ﷺ أعطاه المقدار الذي يعدو فيه الفرس حتى يقف، ثم يرمي هو بسوطه، فما كان من مسافة عدو الفرس ورمية السوط فهو له.

(٣) البخاري (٤٣٧٢)، ومسلم (١٧٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بمعناه.

لأنّي إذا شكرتُ كان إلهامي الشكرَ نعمةً تحتاجُ إلى شكر، فاعترافي بالتقصير هو الشكر.

وعزَّتِك، لقد أنِفَ ثُمامةُ لمّا أسَرَه الرسولُ ﷺ أن يدخُلَ في ذِلَّةٍ فيقال: إنّما أسلمَ تحتَ السيف، فأحسَّ الرسولُ بأنفتِه فقال: «أطلِقوه»، فلمّا أُطلِقَ أسلمَ. وأنا وعزَّتِك آنَفُ لفضلِك، وحاشاه أن يمتنعَ لأجل ذنوبي، كيف وذنوبي كالعدمِ في جنبِ ذُلّي واعترافي؟!

ثُمّ حاشاكَ أن تخلُقَ ذَوقًا وما له مَذُوق، أو شمًّا وما له مشموم، فكيف تخلُقُ لي رَومًا للأمورِ العاليةِ وتمنعُني نيلَها؟! اللهمّ إلا أن يكونَ ذلك تعذيبًا، وهو اللائقُ بذنوبي، فإن وقعَ لم أُنكِرْه، ولكنْ حُسنُ ظنّي بفضلِك ألا تتركَني أُساكنُ الخوفَ من الجزاء، وإنّما أمُرُّ به وأدورُ عليه، ولا أسكُنُ إلا إلى قوّةِ الرجاءِ في فضلِك.

فبعزِّك وذُلّي، وغِناكَ وفقري؛ حَقِّقْ أملي في فضلك، ورجائي لإنعامك، وزِدني ما لم يبلُغْه أملي، حتّى أعيشَ في فَناءِ الفضل، فقد تلاشى عندي عملي من الخير، وأكونَ من عُتقاءِ الرحمن.

٢٩٠- فَصْلٌ
[آدابُ طالب العلم]

ليس على الصبيانِ أضرُّ من مُخالطةِ اليقين(١)، فإنّ التقويمَ برؤيةِ الأفعالِ أعظمُ من التقويمِ بالمقال، فانظُر لمَن تُسلِّمُ ولدَك، ولمَن يُخالط، ومَن أصلحَ نفسَه قوَّمَ خَلقًا كثيرًا بذلك، لا يتقوَّمون بكلامٍ طويل، ومثالُ ذلك الطبيبُ إذا

(١) يقصد: أنه ليس أضر على الصبيان من الاختلاط بغيرهم مع سلامة النية لمن يخالطونهم.

احتمى فإنّه يدلُّ على صدقِ ما دعا إليه، فإذا رُئِيَ يُخلِّطُ ساءت الظنونُ في أقواله، فينبغي للإنسانِ ألّا يرى منه ابنُه معصيةً قطّ، فإنّه يؤذيه بكشفِها، ويزرعُ ذلك في قلبِه، وكذلك المشايخُ المُعلِّمون.

وحكى بعضُ المشايخِ قال: صحِبتُ في زمنِ الصِّبا شيخًا من كبارِ العلماء، فرأيتُه يُقبِّلُني، وتارةً يضمُّني إليه، إلى أن رأيتُه يطلُبُ الفاحشة، فنَفرتُ من ذلك. وصغيرُ السنِّ لا يعرفُ ما ينفِرُ منه، قال: فلمّا بلغتُ هانَت عليَّ الذنوب، وكنتُ أقولُ في نفسي: إذا كان مِثلُ ذاك على هذا الوصفِ مع كِبَرِ السنِّ، فالصِّبا والهوى عُذرانِ لمِثلي.

قال: فلمّا قويَ تشاغُلي بالعِلم، وعرَفتُ ما تُوجِبُ التقوى؛ صرتُ لا أترحَّمُ عليه، بل أسبُّه كلَّما ذكرتُه وأقول: لو كانت إليَّ المغفرةُ ما غفرتُ له؛ لأنّه لم يكنْ عنده شَبَق، ولا فيه قوّةُ النهوضِ على قدمِه، ولا جرى هذا منه مرةً فأقولَ: غلطٌ وقعَ، فلولا مِنّةُ الله تعالى عليَّ بالعِلمِ لشككتُ في أمرِ الآخرة.

قال الشيخ: وصحِبتُ شيخًا آخرَ، فكان يرمي كلماتٍ في خلالِ كلامِه، تُشكِّكُ في الخالق، وتردُّ على الأنبياء، فتُوجِبُ إنكارَ البعث، ففارقتُه، ثُمّ حصلَ لي بالعِلمِ أمثالُ الجبالِ من الإيمان؛ لأنّني كنتُ كلَّما ذكرتُ ما كنتُ أسمعُه منه في الصِّبا خدشَ وجهَ عِلمي.

فقد ينحَلُّ من هذا أنّه مَن كان له صبيّ، فلينظرْ كيف يُؤدِّبُه، وإلى مَن يُضيفُه، فإنّ طبعَ الصبيِّ يكبَر، والنقشَ فيه لا يَنقَلِع.

وليحذَرْ مَن صحِبَه صبيٌّ ليتعلَّمَ منه، أن يضحكَ في وجهِه أو يخلوَ به، وهيهاتَ أن يجريَ هذا ممَّن يعرِفُ عِلمَ السلفِ وطريقتَهم، فقد قال يحيى بنُ

معين: «ما طَمِع أمردُ بصُحبتي في طريقٍ، ولا أحمدُ بنُ حنبل»(١).

وإنّما نشأ أقوامٌ قلَّ دينُهم، وقلَّت معرفتُهم بآدابِ السلف، ووقَفوا مع صورةٍ من العِلم، كالجدلِ والفقهِ ونحوِ هذا من العلومِ التي وإن كانت شرعية، إلا أنّ آدابَ الشرعِ الأوّلِ بعيدةٌ منها، فمنهم مَن ترخَّص، ومنهم مَن أقدمَ ولم ينَل، ومنهم مَن تخايَل أنّ العِلمَ يدفعُ عنه، فجَرَوا مع الطباع ففجَرُوا. نسأل الله عز وجل أن يجعلَ عِلمَ السلفِ خليقَنا، وحِفظَ النَّقلِ أليفَنا، وما يُوجِبُ خوفَ الله عز وجل(٢) رفيقَنا، وأن يُلهمَنا رشدَنا؛ إنّه قريبٌ مجيب.

٢٩١- فَصْلٌ
[مُقتضى الحزم]

من الغلطِ العظيمِ مُساكَنةُ الأمل، وإهمالُ الأمورِ، والحزمُ الاحترازُ من كلِّ ما يمكنُ وقوعُه، والاستعدادُ لِما لا بدّ من إتيانِه. ولا يجوزُ للعاقلِ أن يقطعَ زمانَه بالتسويف، ولربّما هجمَ الخوفُ فندمَ وقد فاتَ الاستدراك، بل ينبغي للحازم ألا يمضيَ عليه يومٌ إلا وقد أبرمَ أمورَه، كما رُوِي في «الصحيح»: «ما حقُّ مسلمٍ له مالٌ يُوصي فيه، يبيتُ ليلتَين إلا ووصيتُه عندَ رأسِه»(٣).

ولْيفعَلْ ذلك في جميعِ الأشياء، فيقفْ ما يريدُ أن يقفَه، ويعملْ كلَّ ما يريدُ أن يعملَه، ويجلسْ مُتأهِّبًا للموت، فإذا نزلَ لم يندَم، ويقول: ليتني فعلتُ!

وقد يظنُّ الإنسانُ أنّه يعيشُ الخمسين والستِّين، فيؤخِّرُ أشياءَ، فيبغَته

---

(١) رواه ابن الجوزي في ذم الهوى (ص١١٠).

(٢) سقط «أن يجعل... عز وجل» من (ر).

(٣) البخاري (٢٧٣٨)، ومسلم (١٦٢٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما بمعناه.

الأجـلُ قبلَها، فيندم، كما يظنُّ المسـافرُ أنّ بيـن يدَيه ماءً، فيتركُ الاحترازَ بأخذِ ماء، فلا يجدُ شيئًا فيهلِك.

وقـد يُفـرِدُ الإنسـانُ بعضَ بناتِـه أو بنيه بمـال، ويرجو أن يُعـوِّضَ الآخَر، فتُدركُه المنيةُ على الجَور.

والحاصـلُ من هـذا الكلام كلِّه أنّه ينبغي للإنسـان أن يكونَ على مقتضى الحـزم، فـلا يؤخِّرَ توبة، ولا يأمنَ ما يجوزُ وقوعُـه، ويجمعَ رَحلَه قبلَ رحيله، ويسـتظهرَ بزيـادةِ الـزاد، ويصوِّرَ المـوتَ كلَّ لحظةٍ نـازلًا، كما يريـدُ أن يفعلَ يفعلُـه، فـإنّ حيـاةَ الآدميِّ غنيمة، وبقاءه ربـح، وإلا فالمـوتُ المُتيقَّن، ونقضُ البِنيـة هـو الأمرُ اللازم. نسـأل الله عز وجل يقظـةً تمنعنا حُلولَ النـدم، وحزمًا يؤمِّنُنا زللَ القَدَم، وعقلًا نبني به ما انهدم، واسـتدراكًا للفائت في الوجود قبلَ العَدَم، إنّه سميعٌ قريب.

٢٩٢- فَصْلٌ
[مُصانعة الظَّلَمة]

تأمَّلتُ على أكثرِ زُهّادِ زمانِنا، فرأيتُهم يسرِقون أعراضَ الدنيا في خفيةٍ لئلا تقدَحَ في ظاهرِ زُهدِهم، فمنهم مَن قد قصَرَ زُهدَه على لباسِـه، فلبسَ الصوفَ والفُوَط[١]، وما يزالُ يغشـى السـلاطينَ والظَّلَمة، ويأخذُ مـن أموالِهم ويقول: «هذا رِزقي وقَسمي»، فهذا في مرتبةِ نَهارِيِّ اللصوصِ[٢].

ومنهـم مَـن ينقطعُ عنِ السـلاطين وأبنـاءِ الدنيا الظاهرين، فـإن مرِضَ في

(١) الفوطة: ثوب قصير غليظ يُتخَذ مِئزرًا، كان يُجلَب من السِّند.

(٢) يقصد: اللصوص الذين يسرقون بالنهار.

جيرانِه أحدٌ منهم عادَه مع عِلمِهم بأنّ ذاك من كبارِ الظَّلَمة، ويجعلُ التردُّدَ إليه بحُجّة العيادة، لعل ذاك إذا عُوفي بعثَ له شيئًا أو أتى مسجدَه، فكم يمرَضُ في جيرانه فقيرٌ فلا يعودُه!

ومنهم مَن قد انقطع إلى التعبُّد، فزاره الناسُ لانقطاعِه، وغشِيَه الأمراءُ والسلاطينُ والمبتدِعةُ وغيرُهم، وهو لا يُنكِرُ على ظالم، ولا يكفهرُّ في وجهِ مُبتدِع، بل يلقى الكلَّ بالبِشر؛ إقامةً لسُوقِه وحِفظًا لدُكّانِ زيارتِه، ولو أنّه قصدَ الله تعالى لخرج ومشى في السوقِ واشترى حاجتَه بنفسِه، وقد انقطعَ الناسُ عنه، ولكنّه لا يفعلُ هذا، وتُريه نفسُه أنّ ذلك لقوّة الانقطاع عن الناس، فإنّما هو تربية ناموس، وقد كان بشرٌ الحافي يقعدُ في السوق عند بعضِ العطّارين، ويعملُ أشياءَ يُوهنُ بها جاهَه، وكذا كان الناس.

وفي المُتزهِّدين مَن يُدعى للظَّلَمة في مسجدٍ وهو يسمَعُ، ويمكنُه ألّا يجريَ ذلك ولا يمنعُ منه، حتّى ربّما لُقِّبوا بألقابِ الدينِ وهو لا يُنكِرُ، وربّما كتبَ في السِّرّ، وطلبَ منهم بحُجّةِ الفقراءِ عنده وعِمارةِ الرِّباط أو المسجد، وهو يعلمُ أموالَهم من أين.

فليتَ شِعري، هذا في أيِّ شيءٍ زاهد؟! إنّما توطَّأ مركبَ الراحة، أفتراه يتناولُ الحرامَ من أموالهم أو الشُّبهات، ويصلي فيها بنوه، ويصانعُ الحقَّ بدمعةٍ تجري، ثُمّ إذا علِمَ بصاحبِ دنيا قد مرِضَ بادرَ إليه في السِّرّ.

وعرَفتُ من حالِ مَن يتزهَّدُ ويُومَأ إليه، أنّ بعضَ الظَّلَمةِ مرِضَ في جيرانه، فعاده، فلمّا عُوفي جاء يشكرُه على عيادتِه، فقال له: أريدُ أن تعمُرَ لي في رِباطي هذا موضعًا، فاستحيا ذلك الرجُل فقال: نعم. وهو لا يريد!

فقلتُ: سبحان الله! قد كان ينبغي له أنّه لو سأله أن يعمُرَ فيه شيئًا، لم يتركْه، ولم يصل على بارئه، يستترُ بها ذلك الظّالم.

وهؤلاء كلُّهم ذئابٌ في ثياب، مُتصنِّعون في زهادتهم، أصحابُ دكاكين، لا تُساوي[1] عبادتُهم شيئًا؛ لأنّهم للخلقِ يعملون، وللدنيا يعبدون، وإنّما العُبّادُ كبشرٍ وسفيانَ وإبراهيمَ بنِ أدهم، الذين بواطنُهم ظواهرُهم بل أجلى، ومَذاقُ سرائرِهم ألذُّ من كلِّ حلوٍ وأحلى، ونَقدُهم بلا بهرجٍ، أولئك حزبُ الله، ألا إنّ حزبَ الله هم المفلحون.

٢٩٣- فَصْلٌ
[مُحقَّرات الذنوب والطاعات]

جاء في الحديث: «إيّاكم والمُحقَّراتِ من الذنوب، فإنّ لها من الله طالبًا»[2]، وفي حديثٍ آخر: «مَثَلُ المُحقَّراتِ من الذنوبِ كمَثَلِ قومٍ نزلوا واديًا، فحضرَ صنيعُهم، فلم يجدوا فيه حطبًا، فتفرَّقوا، فجاء هذا بعُودٍ وهذا بعُود، فأوقدوا نارًا، وأنضجُوا ما أرادوا»[3].

فتأمَّلتُ على كثيرٍ من الناسِ أنّهم يحتقرون أشياءَ من الذنوب، وأكثرُ أسبابِ احتقارِهم لها جريانُ عاداتِهم بها، فترى كثيرًا من أهلِ الدينِ والخيرِ لا يتحاشَون من كلمةِ غِيبة، فإذا نُوزِعُوا أخرجُوها في مخرج، فيقول أحدهم[4]:

---

(١) سقطت من (ف).

(٢) ابن ماجه (٤٢٤٣)، وقال الطبراني في المعجم الأوسط (٣٧٧٦): تفرَّد به سعيد بن مسلم بن بانك.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٧٢٤٨) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه موقوفًا.

(٤) سقطت من (ر).

فلانٌ عافاه الله فعل كذا، وما أحببتُ له هذا. ولا يتحاشَـون من نميمة، فيجيءُ الرجـلُ فيقـال: قال فلانٌ عنـك كذا! ولا يتحاشَـون[١] من نظـرةٍ يُطلِقونها، أو كلمةٍ لا تحِلُّ يقولونها.

ومنهـم مَن يجري مع العاداتِ في استعمال الربا وعقـودِه في المبيعات، وعندهـم أنّ هـذا الأمرَ قريب. ومنهـم مَن يصيحُ على والدتـه، وربما ضربها. ومنهم مَن يُطفِّفُ في مِكيالِه وميزانِه جريًا على العادة، وفيهم مَن يجلو القِطَعَ ويصرفُها.

ولو قيل لهؤلاء: أفطِروا يومًا في رمضان، لم يفعلوا ولو ضُرِبوا بالسِّياط؛ عادةً تمتلكُهم، واحتقارًا لتلك الذنوب.

ومنهـم مَـن يترقّى به التفريطُ إلى جمعِ الصلـواتِ بغيرِ عذر، ويحتقرُ هذا الأمـر. ومنهم مَـن يصلِّي الصلاةَ التي ما صَحَّت، ولا يـكادُ ينظرُ في صحَّتها؛ إلى غيرِ ذلك من المُحتقَرات عندهم، وهي عند الله عظيمة.

فينبغي للإنسـان أن يحذَرَ هذه الأشـياء، فرُبَّ يسـيرٍ منها أدخلَ النار، ففي الحديـث: «إنّ الرجُـلَ ليتكلَّمُ الكلمةَ لا يظنُّها بلغَـت ما بلغَت، فيهوي بها في النار سبعين خريفًا»[٢].

والعاقلُ لا يحتقرُ مُخالَفةً قطّ، كما قال بلالُ بنُ سـعد: «لا تنظُرْ في صِغَرِ الخطيئة، وانظر إلى[٣] مَن عصيتَ»[٤]، والحكماءُ يقولون: «رُبَّ حربٍ جُنِيَتْ

---

(١) سقط «كلمة غيبة... يتحاشون» من (ف).

(٢) البخاري (٦٤٧٧)، ومسلم (٢٩٨٨) من حديث أبي هريرة بمعناه، وقال فيه: «أبعد ما بين المشرق والمغرب».

(٣) سقطت من (ر، ف).

(٤) رواه ابن المبارك في الزهد (٧١).

مـن لفظة، ورُبَّ صَبابةٍ غُرِسـت من نظرة». وفـي الحديث الصحيح: «دخلتِ امرأةٌ النارَ في هِرّةٍ ربطتْها، فلا هي أطعمتْها، ولا هي أرسلتْها تأكلُ من خَشاشِ الأرض، فدخلتْ بها النار»[١].

وبالعكس من هذا يحتقرُ الإنسانُ يسيرَ الطاعات، فيتكاسلُ وهو بطّالٌ عن تسبيحةٍ أو ركعتَين، ويحتقرُ كِسرةً صغيرةً ولا يتصدَّقُ بها، ويردُّ السائل، ورُبَّ مُحتقَرٍ مـن الخير أوجـبَ الجنّة، كما صحَّ في الحديث عـن النبيِّ ﷺ: «بينما رجلٌ يمشي، إذ رأى غُصنَ شوكٍ، فرفعَه فدخلَ الجنّة[٢]، وبينما بَغِيٌّ تمشي في بَرِّيّة، فرأتْ كلبًا يأكلُ الثَّرى من العطش، فخلعَت مُوقَها فاستقَت له به فسقَته فدخلَتِ الجنّة»[٣].

وممّـا يُزعِجُ قولُ الحسـن: «أخافُ أن يكـونَ اطَّلعَ عليَّ في بعضِ ذنوبي، فقال: اذهَب، لا غفرتُ لك»[٤].

ومما يقوِّي رجاءَ التائبين أنّ مِسطَحًا قذفَ عائشةَ رضـي الله عنها، وقد عـرَف مـا تُوعِّـدَ به القاذفون، ولم يَسلُبْه الحقُّ اسـمَ الهجرة، وتلطَّـفَ أبا بكرٍ ليعفوَ عنه.

فقد بان من هذا الشرحِ أنّه ينبغي أن يعتدلَ الخوفُ والرجاء، وألا تُحتقَرَ طاعةٌ وإن قلَّت، ولا سيِّئةٌ وإن احتُقِرَت، فمن ورائها طالبٌ، والله الموفِّق.



---

(١) البخاري (٣٣١٨)، ومسلم (٢٦١٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) البخاري (٦٥٢)، ومسلم (١٩١٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) البخاري (٣٤٦٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) تقدم في الفصل ٨٥.

٢٩٤- فَصْلٌ

[الرِّياء]

قد غلبَ على الناس الرياء، فقلَّ مَن ينفكُّ عنه، فترى العالِمَ يحفظُ العِلمَ ويُناظرُ في الفقهِ ويسهرُ في الليلِ ليُقالَ وليُمدَح، والزاهدَ يتركُ اللِّباسَ الحَسَنَ ويقنَعُ بالمطعم الخَشِنِ ليُقالَ وليتبرَّكَ به العوامُّ، فجمهورُ أعمالِهم رياء؛ إن تصدَّق أحدُهم فلِيراهُ الناس، وإن لم يَرَوهُ منَّ على الفقراء أو تحدَّث به، وإن صلّى أو فعلَ خيرًا، ولو رأيتَ أئمّةَ[1] التراويحِ يقرؤون الشواذَّ، ويُعيدون اللفظةَ الواحدةَ مِرارًا، فيقول: «مالِكِ، مَلِكِ، مَلْكِ»[2]؛ وهذا لا يجوزُ أن تُعاد[3] اللفظةُ مرارًا؛ لأنّه يُخرِجُ القرآنَ عن نَظمِه، ومقصودُهم بهذا أنّ فلانًا حافظٌ!

ومن أعجبِ ما رأيتُ أنّ النساءَ إذا مات لهن ميِّتٌ صعِدنَ في الحرِّ إلى السطحِ بعد نومِ الناس، ونزَلنَ قبلَ انتباهِهم؛ لئلّا يقال: فلانةُ تنامُ في السطح. ولبِسنَ خَشِنَ الثيابِ ظاهرًا[4] وحَسَنَها داخلًا.

وقد كثُرَت أحوالُ الرياءِ في الرجالِ والنساءِ في كلِّ فعل، وقلَّ أن ينفكَّ منه أحد، وإنّما يكثُرُ ويقلّ، فينبغي لمَن وفَّقه الله تعالى أن يعلمَ أنّ الرياءَ كالشركِ، ويفهمَ معنى قولِه: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [النساء: ١٤٢]، وقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ [الماعون: ٦]، ويطالعَ الأحاديثَ المذكورةَ في ذمِّ الرياء، فهي كثيرة،

---

(١) سقطت من (ف).

(٢) زاد في (ف): «ملك». وانظر القراءات الواردة فيها في معجم القراءات للخطيب (١: ٨) وما بعدها.

(٣) سقط «اللفظة الواحدة... تعاد» من (ر). (٤) سقطت من (ف).

كقولِ النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم: «يقولُ الله تعالى: مَن عملَ لي عملًا أشركَ فيه غيري، فأنا بريءٌ منه»[(١)]، وكان بعضُ السلفِ يقول: اتَّقوا سرائرَ الشرك، وهو أن تُصلِّيَ، فتلحظَكُ العيون، فتُطيلُ السجود[(٢)]!

وجملةُ الأمر أنّ الرياءَ كلُّ ما قُصِدَ به رؤيةُ الخَلقِ لأداءِ حقِّ الحقِّ. وقد كان السلفُ ينافسون في ذلك، حتّى قال بشرٌ الحافي: إنّ الرجلَ ليُرائي بعد موتِه. قيل: كيف[(٣)]؟! قال: يحبُّ[(٤)] أن يكثُرَ جمعُ جنازتِه. وهذا تدقيقٌ عجيب؛ لأنّه لو أحبَّ الكثرةَ للاستغفارِ له لم يكنْ مذمومًا، وإنّما يحبُّها ليكثُرَ مدحُه، وليقال: لولا أنّه رجلٌ صالحٌ ما كثُروا.

فليتَّقِ الله العبدُ، وليعلمْ أنّ الخلقَ لا يُغنون عنه شيئًا، وأنّ جزاءَه على نيّتِه لا على علانيتِه، وأعمالُ الرياءِ تذهبُ باطلًا ثُمّ[(٥)] يُعاقَبُ عليها، وليتصوَّرْ في نفسِه أنّه بعد قليلٍ يبلى ويبلى مَن راءَاهُ، وتذهبُ المحامدُ وتبقى السرائر.

فلا يحسُنُ للعاقلِ أن يعملَ إلا لله تعالى، ولا يقولَ إلا لله، وأنّه متى صلحَت نيّتُه وأخلصَ عطَفَ الله تعالى القلوبَ إليه، فحصلَ له أضعافُ ما رجا من مدحِ الخلق، كما رُوِي عن بشرٍ أنّه قال: مررتُ بقومٍ وهم يقولون: هذا لا ينامُ الليلَ! والله ما أذكرُ أنّي صلَّيتُ ليلةً إلا نِمتُ بعضَها، ولكنّه إذا رضيَ نشرَ الجميل. ومَن راءى ذُمَّ من حيث يرجو المدح؛ قالتْ عائشةُ رضي الله عنها: «مَن أرضى الناسَ بسخطِ الله عاد حامدُه من الناسِ ذامًّا»[(٦)].

---

(١) مسلم (٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بمعناه.

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٨: ٣٤٣). (٣) سقط «قيل كيف» من (ف).

(٤) سقطت من (ف). (٥) سقطت من (ف).

(٦) رواه أحمد في الزهد (٩١٠).

٢٩٥- فصل
[توبة أقبحُ من معصية]

ما رأيتُ أطرفَ من أفعالِ الظَّلَمة والمُتكبِّرين من أربابِ الدنيا، يستحلُون ما هم فيه، وربما يَستحِلُّونه، فمنهم مَن ليس عنده من الآخرة خبرٌ بحال، ومنهم مَن يُصانعُ بصدقةٍ في وقت، وإدرارِ قوتٍ على فقير، وإخراجِ ماءٍ للسبيل في طريق مكّة، وبناءِ رِباطٍ ومدرسة، ثُمّ لا ينزِعُ عمّا هو فيه من الظُّلم، ويظنُّ أنّ ما يفعلُه من خيرٍ يمحو ما يفعلُه من الشرّ، وينسى أنّ التصدُّقَ بالغصبِ لا يصحُّ، وأنّ ردَّ حبّةٍ من ظُلمٍ أفضلُ من مئة ألفِ دينارٍ صدقةً.

حتّى إنّ أحدَهم يخرُجُ للحجّ فينفقُ ما ليس له وينذُر، وأصلُ[1] مِحَنهم الطَّرْمَذَة[2] والرياء، فإذا رجع من الحجّ - لا بل في الطريق - يبالغ في الظُّلم، ويدخلُ على مَن هو أظلَمُ منه، فيقول: دعوتُ لكَ عند البيت! ويرجعُ شرًّا ممّا كان، فإن أقلعَ وانقطعَ بعد الحجِّ فهو مشغولٌ بأكلِ ما جمعَ من الحرام، لا يردُّه على أربابِه، ولا يبالي باستحلالهم!

ولقد بلغَني عن بعضِ الظَّلَمةِ - وكنتُ قد رأيتُه حجَّ ثم رجَع، فانقطع[3] إلى بيته عن أعمال السلطان - أنّه بعثَ إلى بعضِ مَن كان ظلمَه، فقال له: اجعلني في حِلٍّ. فقال: والله لا أفعل؛ لأنّك أخذتَ منّي خمسةَ آلافِ دينار، وبلّغتَني بها، وقلعتَ بيتي، ومنها شيءٌ لأطفالٍ ومَن لم يبلُغْ. قال: فلمّا لم أفعلْ تركني، فخرجتُ، والله لو أعطاني مئةَ دينارٍ لَفضضتُها على أصحابِ الأموال، وسألتُهم أن يحلّلوه، ولكنّه رأى ذلك صعبًا فأمسك.

---

(١) سقطت من (ف).

(٢) المُطرمِذ: الذي له كلام وليس له فعل.

(٣) في (ف): «ما انقطع».

وكان لهذا الظالمِ حينئذٍ من المالِ والعقارِ كثيرٌ، يمكنُه أن يعطيَ منه خمسةَ آلافٍ وأكثر، يبعثُ إلى بعضِ مَن ظلمَه، يأخذُ منه مئةَ دينارٍ مثلًا، ويعطيه دينارَين ويقول: اجعلني في حِلٍّ، ويرى ذلك المظلومُ أنّ ما قد أُخِذَ منه فات، وقد يئسَ منه، وأنّه إن امتنعَ لم يعطِه شيئًا أصلًا، فيُحلُّه بطَرفِ لسانِه، وقلبُه غيرُ راضٍ، فيقنعُ بذلك!

ثُمّ إنّ هذا الرجلَ لم يتغيَّرْ عليه شيءٌ، فربما كان فيه، إلا أنّه لبِسَ قميصًا من فُوَطٍ، وأمّا تنعُّمُه وتردُّدُ الناس إليه وأكلُه ممّا جمع، فإنّه لم يتغيَّر، وإنّما جعلَ القميصَ وقايةً؛ لئلّا يُصادَر، وعنده أنّه قد عمِل شيئًا، وهؤلاء يلعبون بأنفسِهم، ويظنّون أنّ التوبةَ قميص!

وفيهم مَن يبني تُربةً كأنّ بابَها بابُ بلد، ولا ينزِعُ عن الكِبرِ حتّى في موته، ويزعُمُ أنّه ينتفعُ بجوارِ قومٍ صالحين!

فما أبعدَ هؤلاء عن التوبة وقَبولها! وإنّما التائبُ من الحَيدِ[1] مثل إبراهيمَ ابنِ أدهم، وما يُحكى عنِ الشِّبليّ أنّه قال: ظلمتُ شخصًا بدانقٍ ولا أعرفُه، فقد تصدَّقتُ عنه بألوفٍ، وأنا ألقى الله وذاك في قلبي[2].

وهكذا ينبغي لمن تابَ أن يخرُجَ عن المظالم، ويتّبعَ أهلَها فيردَّها عليهم أو على ورثتِهم، ويبالغَ في الردِّ والاعتذار، ويخرُجَ عن كلِّ مالٍ حرام، ثُمّ ينظرَ من أين يكتسبُ، ومن أين يأكل؟

---

(١) في (ر): «وإنما التائب من الجند»، وفي (ف): «وإنما اتخذ» فقط، والمثبت عن (ق)، والتائب من الحيد: الذي يتوب من الحيدة والانحراف اليسير.

(٢) ذكره الصفوري في نزهة المجالس ومنتخب النفائس (٢: ٤٧).

وقد بلغَنا عن بعضِ مَن سلف، أنّه مات أبوه وكان لا يرضى مالَه، فخرج في جنازته، واعترضَه نهر، فنزلَ فاغتسلَ ووقفَ له الناس، فقال: أُشهِدُكم أنّي لا أرثُ من مالِ أبي شيئًا، فهل فيكم من يتصدَّقُ عليَّ بقميص!

وقد قال الفقهاء: إذا تاب من الغصبِ، والمغصوبُ في يدِه، لم تصحَّ توبتُه، فوا عجبًا من هؤلاء الجُهّالِ الذين يكسبون الحرام، ويُصانعون ببعضِه، وتوبتُهم أقبحُ من معاصيهم. نسأل الله عز وجل يقظةً تُعرِّفنا طريق التوبة، وتُوجِبُ لنا القبول؛ إنّه كريمٌ مجيب.

٢٩٦- فَصْلٌ
[تدبُّر المآل]

من الغلطِ العظيمِ العملُ بمقتضى الحالِ الواقعة، من غيرِ تدبُّرِ المآل، مثاله: أن يسمعَ المواعظ، فيقعَ في قلبه الزهدُ وملازمةُ طريقِ الصالحين، فينهضَ مُعتزلًا للدنيا بالكلّيّة، فربّما طلَّقَ زوجتَه أو أعتقَ أمتَه أو غيَّرَ زِيَّهُ بين الناس، وأخذَ في الصومِ الدائمِ والسهرِ الدائم، وخرجَ ممّا يملكُ، واشتَهرَ ذلك بين الناس؛ وكلُّ هذا كان ثمرةَ ما بدا له بالمواعظِ من الآخرة، وقليلٌ ذلك في جنبِ حالِ المُوفَّق[1]، إلا أنّ ذلك المؤثِّرَ لا يدوم، وتقاضي الطبعِ بما ترَكَ لا يفتُر، فيتَّفقُ عليه عدمُ المؤثِّر وتقاضي الطبع فيعجِز، فقد رأينا مَن رجعَ أقبحَ رجوع!

وما مَثَلُه إلا كمَثَلِ مَن غضِبَ على زوجتِه فاحتدّ، فطلَّقها ثلاثًا، فلمّا سكنَ الغضبُ وتاقتِ النفسُ إليها أخذ يحتالُ في تفسيقِ الوليّ، ويُثبتُ أنّ نكاحَه

(١) في (ف، ق): «الموقن».

كان باطـلًا، وأنّـه وطِئَ فرجًا حرامًا هذه المُـدّة، وأنّ الولدَ الذي له[١] ليس من نكاحٍ صحيحٍ!

فكذلك مَن حصرَ نفسَه من الزُّهّاد وغيَّر ثوبَه، ولم يصبر، ففيهم مَن يعودُ إلى أكثرَ ممّا ترَك، وربما مدَّ يدَه إلى الحرام، وكان السببُ قوّةَ ذلك الحصر، وفيهـم مَـن يستحيي من النـاسِ أن يرجع، فيتسـتَّرُ بالثياب ويفعـلُ في الباطن أضعافَ ما كان فيه من الانبساط؛ وهذا هو النفاق.

ومـن الغلطِ العملُ بمقتضـى الغضب؛ كالمُشـاتمةِ والمُخاصمةِ وضربِ الولد. وكذلك ما تُوجِبُه كلُّ فَورة، كطَرَبِ الممدوح، فإنّه يعطي مالَه ثُمّ يندم، وربما قتلَ الذي يمدحُ بالشجاعة؛ لئلا يُرى بعينِ أنّه جبانٌ!

والصوابُ ألا يعملَ بمقتضى فَورةٍ أصلًا، بل يتثبَّت، كما نُقِل عن[٢] داودَ الطائيّ أنّ نفسَه نازعَته إلى الزهد، وكانت عادتُه حضورَ حلقةِ الفقه، فقال لها: إن صبـرتِ في الحلقة سـنةً ولـم تتكلَّمي بكلمةٍ أفردتُـكِ للزهد، فصبَر، وقال: كانتِ الكلمةُ تخطر لي، فقولها عندي أشـهى من الماءِ البارد، فأُمسِـكُ عنها، فلمّا رأى ثباتَ نفسِه أفردَها للانقطاع.

ولهـذا سُـنَّ في الطـلاق ألا يكونَ إلا فـي طُهرٍ لم يُجامِعْ فيـه المرأة، وأن يوقـعَ طلقـةً ويصبـرَ إلى أن تحيضَ وتطهُـرَ، ثُمّ يوقعَ أخـرى؛ كلُّ ذلك لترجعَ النفسُ إلى مقتضى الاعتدال، ولا تعملَ بمجـرَّدِ الفَورة؛ ولهذا نُهِيَ عن جمعِ الطـلاقِ الثلاث، وهو محـرَّمٌ عند جماعةٍ من العلماء، وقد قال الله تعالى: ﴿لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾ [الطلاق: ١]. وكثيـرًا ممّـا رأينـا مَـن طلَّـقَ وكان لا يستطيعُ أن يرى المرأة، فلمّا وقع الطلاقُ حنَّ إليها، وقلَّ صبرُه عنها.

---

(١) سقط «الذي له» من (ف).

(٢) سقطت من (ف).

فينحَلُّ من هذا أنّه ينبغي للعاقل أن يتثبَّتَ في كلِّ شيءٍ من نيّـةِ زُهدٍ أو تغيُّرِ ثوبٍ أو غضبٍ أو فرحٍ أو عطاءٍ أو منعٍ أو ضربِ الولدِ وغيرِ ذلك، فإنّ المُقتضِياتِ للشيء لا تدوم، فإذا تغيَّرَتْ تغيَّـرَ المُحرِّك، فإذا وقع التثبُّت علِمَ الإنسانُ أين هو، وعمِلَ بعزمٍ معتدلٍ، لم تُحرِّكْه فَورة. ولهذا نُهِيَ القاضي أن يقضيَ وهو غضبانُ أو جائعٌ أو حاقن؛ لخروجِه عن الاعتدال، وأحبُّ ـ خصوصًا لمَن نوى الزهد ـ أن يسرِقَ عرضَه من نفسِه، وألّا يُغيِّـرَ ثوبَيه بين الناس، فإن صحَّ له عزمُه الباطنُ لم يضُرَّه ثوباه، وإن لم يصحَّ له عزمُه الباطنُ[1] لم يُفتضَحْ بين الناس بالعَود.

فهذه نُبَذٌ يُقاسُ عليها كلُّ ما أُغفِلَ من ميلٍ إلى معشوق، ومبالغةٍ في مالٍ يتعرَّض، وغيرِ ذلك، فإنّ الطبعَ لا يبقى على حالِه، ومرورُ الزمانِ ينقل، والنفسُ قد أُغرِيَت بحبِّ ما تُمنَعُ منه. كما قال الشاعر[2]: [البسيط]

وزادَني شَغَفًا بالحُبِّ أنْ مُنِعَتْ ... أحَبُّ شَيءٍ إلى الإنسانِ ما مُنِعا

٢٩٧- فَصْلٌ
في تعليمِ الصبر وتسهيلِ الصعب

اعلم أنّه إنّما يمكنُ استعمالُ الصبرِ مَن كانت عينُه مُلاحِظةً لعاقبتِه، فإنّه يصبرُ غائبًا عمّا يصبرُ عنه حاضرًا بجملتِه عندما يصبرُ لأجلِه؛ فحينئذٍ يهونُ عليه[3] كلُّ صعب، وإنّ المسافرَ في طلبِ الأرباح لا يرى هولَ الطريق، والراكبَ في البحرِ لا يخطرُ على قلبِه الغرقُ، وإنّما يتأمَّلُ ما يرجو من الربح.

---

(١) سقط «له عزمه الباطن» من (ف).

(٢) للأحوص بن محمد الأنصاري في شعره (ص١٩٥).

(٣) سقطت من (ف).

فينبغي لطالبِ الآخرةِ أن يقيسَ على هذه الأحوال، إن كان مُوقنًا بالوعد، ومتى عَلِمنا أنّ كثرةَ النعيمِ على قدرِ قوّةِ الصبرِ اليومَ آثَرنا الصبر، ولو أنّ رجلًا قيل له: «كلُّ سوطٍ نضربُكَ نُعطيكَ مئةَ ألفِ دينارٍ» لأحبَّ كثرةَ العددِ في السِّياط؛ لعلمِه بزوالِ الألمِ عن قريبٍ وحصولِ غايةِ الأمل.

ومن هاهنا هان على الزُّهّاد تركُ الدنيا؛ لأنّهم نظَروا إلى ثمرةِ الصبر، وعلى هذا ينبغي لمَن نزلَتْ به بليّةٌ أن ينظُرَ قُربَ زوالِها وقلّةَ لُبثِها وحلاوةَ ثمرتِها، وأنّه كلَّما زادَتِ الشِّدّةُ زاد الأجر. وهذا الذي تلمَّحَه سُوَيدُ بنُ شُعبةَ لمّا أضنى، فقال: «ما أحِبُّ أنّ الله يقضيني منه قُلامةَ ظُفر». وقال عمرُ بنُ عبدِ العزيز: «اللهمَّ لا تُهوِّنْ عليَّ الموت، فإنّه آخِرُ ما يُكفَّرُ به عن المُسلِم»[1].

فمتى نزلَت بكَ شِدّةٌ فصابِرها، وتلمَّحْ أجرَها وقد هانَت، وإن علَت درجتُك تلمَّحتَ حكمةَ المُبتلِي بها، وإن ارتفعَ عِلمُكَ نظرتَ إلى تصرُّفِ المالكِ في مُلكِه، فلم يَبقَ اعتراض، وأيُّ اعتراضٍ للمملوكِ على مالكٍ حكيم؟! وقد كانوا يُبالغون في الصبر، حتّى إنّ طاوسًا كرِهَ أنينَ المريض[2]، وقال: «وما أنَّ[3] الإمامُ أحمدُ في مرضِه حتّى مات».

وكانوا يُضيفون إلى الصبر عدمَ الشكوى إلى الخَلق. وهذه أحوالُ العلماءِ بالعواقبِ، المُوقِنين بالآخرة، ومَن قاسَ قلّةَ العمرِ بالإضافة إلى بقاءِ أهلِ الجنّةِ في الجنّة، استقلَّ أن لو قُطِّعَ كلَّ يومٍ ألفَ مرّةٍ بالإضافةِ إلى ما يرجو من ثوابٍ دائمٍ غزير. فافهم ما أشرتُ إليه يَهُنْ عليكَ كلُّ شيءٍ حتّى الموت.

(١) رواه أحمد في الزهد (١٧١٨).
(٢) ذكره ابن تيمية في دقائق التفسير (٢: ٢٩٤).
(٣) أنَّ يئِنُّ: توجَّع.

واعلـم أنّ الصبرَ ثمـرةُ العقـل، وهـو أصلُ كلِّ خيـر؛ لأنّه لـولا الصبرُ ما اجتُلِبَ نفع، ولا دُفِعَ ضُرٌّ، فلولا صبرُ الكريم عن المالِ ما سَخِيَ، ولولا صبرُ العفيـفِ عن الدنايا لذلَّ عِرضُه، ولولا صبرُ الشـجاعِ ما نـال الغنيمةَ والمدح، ولولا صبرُ الحكيمِ ما حصلَت فضيلةُ العفو، ولولا صبرُ المُتعلِّمِ ما نال العِلم، ولـولا صبرُ المتَّقي لوقعَ في الزَّلل، فمَـن تأمَّلَ عواقبَ الصبرِ هان الصبرُ عليه في كلِّ أمر.

٢٩٨- فَصْلٌ

[علمٌ بلا فهم]

وقعَـت لي حكايـةٌ عن أبي محمّـدٍ البَربَهـارِيّ، قال: حدَّثني أبو إسـحاقَ الأنبـاريّ، وكان مـن أهـل الطاعـة، قد جبَّ نفسَـه(١) حياءً مـن الله تعالى، لئلّا يخطرَ بقلبه شهوةُ النكاح.

فعجِبـتُ مـن إخـراج البَربَهـارِيّ - وهو من العلمـاء - هذا الـكلامَ مُخرَجَ المـدح، ولـو صـدر هذا من عامِّيٍّ جاهـلٍ كان قبيحًا، ومعلـومٌ أنّ جَبَّ النفسِ معصيـةٌ عظيمـة، ومُخالَفةٌ لله سـبحانه قبيحةٌ، يسـتحِقُّ صاحبُها النار، وشـهوةُ النـكاحِ قـد وضعَها الخالقُ سـبحانه، وحـثَّ عليه، وأمرَ به، وهو سـببٌ لكثرةِ المُسبِّحين، وسُنّةُ الرسولِ صلى الله عليه وآله وسلم، فمقابلةُ ما وُضِعَ من ذلك بمَحقِه قبيح، فإنّ الله تعالى شرَّفَ الرجُلَ بهذا، ورفعَه على مقامِ الأنوثية، وقد أعطى الله عز وجل دون هذا، فقال: ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [النساء: ١١٩].

ثُـمّ إنّ الشـهوةَ التـي تخطـرُ بالقلـبِ لا تـزولُ بالجَـبِّ، وإنّما الآلـةُ تُعدَمُ

(١) جبَّ نفسه: يعني جبَّ الخُصية؛ أي: استأصلها.

والشهوةُ في القلبِ على حالِها. وما وجهُ القباحةِ في حضورِ شهوةِ النكاحِ بالقلب حتّى يُستحيا من ذلك؟ وهل وَضَعَ ذلك إلا الله سبحانه؟ ثُمّ أمرَ بإنفاذِ تلك الشهوةِ بالنكاح، وكان وضعُه إيّاها لمعنًى صحيح، هو بقاءُ الخَلقِ وكثرةُ المُوحِّدين، فكيف يُستحيا منه في هذا؟! ثُمّ هذه رهبنةٌ محرَّمةٌ في دينِنا.

فالعجبُ لمَن تشاغَل بظواهرِ العِلم، ولم يَذُقْ طعمَ معناه فيفهمَ أسرارَه، على أنّ هذا ظاهرٌ غيرُ غامض، ونحن نسألُ الله عز وجل السلامةَ من قلّةِ العِلمِ وسوءِ الفهم.

٢٩٩- فَصْلٌ
[المدح بما يُوجِب الذم]

من أغلاطِ الناسِ وأوهامِهم القبيحةِ أنّهم يمدَحون بما يُوجِبُ الذمّ، فإنّهم إذا سَمِعوا عن السلاطينِ والولاةِ بالعطاءِ المُسرفِ من أموالِ المسلمِين مدحُوهم بالكرم، وأولئك إلى الذمِّ أقربُ. مِثلَ ما يُروى عن حمّادٍ الراوية، أنّه قال: بعثَ إليَّ هشامُ بنُ عبدِ الملكِ خمسَمئةِ دينارٍ[1] وراحلةً، فسِرتُ عليها في اثنتَي عشرةَ ليلةً إلى دمشق، فدخلتُ عليه في دارٍ قَورَاءَ[2]، مفروشةٍ بالرُّخام، وبين كلِّ رُخامتَين قضيبُ ذهب، فسلَّمتُ، فإذا جاريتانِ لم أرَ مِثلَهما قطُّ، فقال: أتدري فيمَ بعثتُ إليك؟ قلتُ: لا، قال: بعثتُ إليكَ لبيتٍ خطرَ لي لم أدرِ مَن قائلُه، قلتُ: ما هو؟ قال[3]: [الخفيف]

فدَعا بالصَّبُوحِ يَومًا فجاءَتْ قَينَــةٌ فــي يَمينِهــا إبرِيــقُ

---

(١) سقطت من (ف).
(٢) القوراء: الواسعة.
(٣) ديوان عدي بن زيد (ص٧٨).

فقلتُ: يقوله عديُّ بنُ زيدٍ في قصيدة له، قال: أنشِدنِيها، فأنشدتُه، فطَرِبَ، ثُمّ قال: أحسنتَ! يا جاريةُ، اسقِيه، فسقَتني شربةً ذهبَت بثُلُثِ عقلي. ثُمّ قال: أعِدْه، فأعدتُه، فاستحثَّه الطربُ حتّى نزلَ عن فرشِه، ثُمّ قال للجاريةِ الأخرى: اسقِيه، فسقَتني فذهبَ ثُلُثٌ آخرُ[1] من عقلي، ثُمّ قال: سَلْ حاجتَكَ، فقلتُ: إحدى هاتَين الجاريتَين، قال: هما لكَ جميعًا بما عليهما وما لهما، ثُمّ قال للأُولى: اسقِيه، فسقَتني شربةً سقطتُ منها، فلم أعقِلْ حتّى أصبحتُ والجاريتانِ عند رأسي، وإذا عشرةٌ من الخَدَم، مع كلِّ واحدٍ بَدْرَةٌ[2]، فقال أحدُهم: إنّ أميرَ المؤمنين يقرأُ عليكَ السلام، ويقول: خُذْ هذه فانتفعْ بها في سفرِك، فأخذتُها والجاريتَين وعاودتُ أهلي[3].

قلتُ: فانظرْ إلى هذا التبذيرِ القبيح، وإعطاءِ هذا الذي لا يستحقُّ من أموالِ المسلمِين على إنشادِ مِثلِ هذا، ولو كان ما أعطاه من مالِ نفسِه كان تبذيرًا وتفريطًا، فكيف وليس من مالِه؟!

فالعجبُ لمَن يروي مِثلَ هذا عن الملوك، فيُخرِجُه مُخرَجَ المدحِ والكرم، وهو معدودٌ في التبذيرِ والإسرافِ، وقد قال عز وجل: ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦٥]؛ أي: ينظُرون أين يضعون الأموال. فأين الفقراءُ وأربابُ الخَلَّة[4] عن هذه الأموالِ التي صُرِفَت إلى هذا الشخص؟! نعوذُ بالله من سوءِ الفهم.

وما يزالُ الناسُ يمدَحون الملوكَ والبرامكةَ بمِثلِ هذا الحال، وإذا تأمّلتَ الحالَ وجدتَ الأموالَ قد أُخِذَت على غيرِ وجهِها، وصُرِفَت في غير حقِّها،

---

(١) هنا نهاية النسخة (ف).

(٢) البدرة: عشرة آلاف درهم.

(٣) ذكره سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان في تواريخ الأعيان (١١: ٢١٥).

(٤) الخَلّة: الحاجة والفقر.

وخَرَجَت عن نِيّاتٍ فاسدة، من قصدِ المدحِ بالسخاء والطَّرمَذَةِ وغيرِ ذلك.

ونحن نسألُ الله عز وجل السلامةَ في مقاصدِنا ونِيّاتِنا وفُهُومِنا، حتّى نعلمَ ما يوجبُ المدحَ ممّا يوجبُ الذمّ، والله الموفّق(١).

٣٠٠- فَصْلٌ

في تعليم التدبير

قوامُ الآدميّ بشيئين: الحرارةِ والرُّطُوبة، ومِن شأنِ الحرارةِ أن تُحلِّلَ الرُّطُوبةَ وتُفنِيَها، فالآدميُّ مُحتاجٌ إلى تحصيلِ خلَفِ المُتحلِّل، فأبدانُ النَّشْءِ(٢) تغتذي بأكثرَ مِمّا يتحلَّلُ منها، والأبدانُ المُتناهيةُ تغتذي بِمقدارِ ما يتحلَّلُ منها، والأبدانُ التي قد أخذتْ(٣) في الهَرَمِ يتحلَّلُ منها أكثرُ مِمّا تغتذي به.

فينبغي للنَّشءِ البالغِ(٤) أن يتحفَّظَ في النِّكاح؛ لأنّه يُربِّي قاعِدةَ قُوّةٍ، يجِدُ أثرَها في الكِبَر، وأمّا المُتوسِّطُ والواقفُ السِّنّ، فينبغي أن يحذرَ فُضولَ الجماع، فإنّ مَن حصلَ له مِثلُ ما يخرُجُ مِنهُ فأسرف، أخذَ مِن الحاصِل، ويُوشِكُ أن يُسرِعَ النفاد.

---

(١) بعدها في (ر): «تمَّ الكتاب بحمد الله وعونه ومَنِّه وفضله، والحمد لله على ذلك، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، وكان الفراغ من رقمه يوم الاثنين لعله رابع عشر شهر محرم الحرام سنة ١٢٢٢». وفي (ق): «نجزَ تحريرُ هذا الكتابِ المفيدِ بقلم الفقير إلى رحمة الله وعفوه عليِّ بنِ محسنٍ المعافى سامحهما تعالى، على نسخة لا تخلو عن شيء من غلط». وبهذا يكون ما بقي من الكتاب قد سقط من هاتين النسختين.

(٢) في (د): «البشر»، وزاد في (س): «أي: الشباب».

(٣) سقط «قد أخذت» من (س).

(٤) جاء هنا في حاشية (م): «مطلب عظيم في السياسة لأمور الدنيا وتعليم الأطفال أمورَ دينهم ودنياهم».

وأمّا الشيخُ فتركُ النِّكاحِ كاللازمِ له، خُصوصًا إذا زاد عُلُوُّ السِّنّ؛ لأنّه يُنفِقُ مِن الجوهَرِ الذي لا يحصُلُ مِثلُهُ أبدًا.

ثُمّ ينبغي أن ينظُرَ العاقِلُ في مالِه، فيكتسبَ أكثرَ مِمّا يُنفِق؛ ليكُونَ الفاضِلُ مُدَّخَرًا لوقتِ العجز، وليحذَرِ السَّرَفَ، فإنّ العدلَ هو الأصلح. ثُمّ ينظرُ في الزوجة، والمطلُوبُ منها شيئان: وُجُودُ الولد، وتدبيرُ المنزِل، فإذا كانت مُبذِّرةً فعيبٌ لا يُحتمَل، فإنِ انضمَّت صِفةُ العَقرِ فلا وجهَ للإمساك، إلا أن تكونَ مُستحسَنةَ الصُّورة، فإن ضُمَّ إليها عقلٌ وعفافٌ حسُنَ الإمساكُ، وإن كانت مِمّا يحتاجُ أن تُحفَظَ فتركُها لازِم.

فأمّا الخَدَمُ فليجتهِد في تحصيلِ خادمٍ لا تستعبدُه الشهوة، فإنّ عبدَ الشهوةِ لـه مولًى غيرُ سيِّده، ولينظُرِ المالِكُ في طَبعِ المملوك، فمِنهُم مَن لا يأتي إلا على الإكرام، فيكرمُه، فإنّه يربحُ محبّتَه، ومِنهُم مَن لا يأتي إلا على الإهانة، فليُدارِهِ وليُعرِضْ عنِ الذُّنوب، فإن لم يُمكِنْ عاتَبَ بلُطف، وليحذرِ العُقُوبةَ ما أمكَن، وليجعلْ للمماليكِ زمنَ راحة، والعجبُ مِمَّن يُعنى بدابّتِهِ وينسى مُداراةَ جاريتِه، وأجوَدُ المماليكِ الصغار، وكذلك الزوجاتُ؛ لأنّهُم مُتعوِّدون خُلُقَ المُشتري. وليحفَظْ نفسَه بالهيبةِ مِن الانحرافِ مع الزوجة، ولا يُطلِعْها على مالِه، فإنّها سفيهةٌ تطلُبُ كثرةَ الإنفاق.

وأمّا تدبيرُ الأولادِ فحِفظُهم مِن مُخالطةٍ تُفسِد، ومتى كان الصبيُّ حَيِيًّا ذا أنَفةٍ رُجِيَ خيرُه، وليُحمَلْ على صُحبةِ الأشرافِ والعُلماء، وليُحذَّرْ مِن مُصاحبةِ الجُهّالِ والسُّفهاء، فإنّ الطبعَ لِصّ، وليُحذَّرِ الصبيُّ مِن الكذِب غايةَ التحذير، ومِنَ المُخالطةِ للصبيان، وليُوصِهِ بزيادةِ البرِّ للوالدَين، وليُحفَظْ مِن مُخالطةِ النِّساء، فإذا بلغَ فليُزوَّجْ بصبيّةٍ لم تعرِفْ غيرَه، فيتفقانِ فينتفعانِ.

هذه الإشارةُ إلى تدبيرِ أمُورِ الدنيا، فأمّا تدبيرُ العِلمِ فينبغي أن يُحمَلَ الصبيُّ مِن حينِ يبلغُ خمسَ[١] سِنين على التشاغُلِ بالقُرآنِ والفِقهِ وسماعِ الحديث، وليُحصِّلْ له المحفوظاتُ أكثرَ من المسمُوعات؛ لأنّ زمانَ الحِفظِ إلى خمسَ عشرةَ سنة، فإذا بلغَ تشتَّت همُّه، فليُضرَبْ تارةً، ويُرشى أُخرى، ليبلُغَ وقد حصَّلَ محفوظاتٍ سَنيّة.

وأوّلُ ما ينبغي أن يُكلَّفَ حِفظُ القُرآنِ مُتقِنًا، فإنّه يثبُتُ ويختلطُ باللحمِ والدم، ثُمّ مُقدِّمةٌ من النحوِ يعرِفُ بها اللحن، ثُمّ الفِقهُ مذهبًا وخِلافًا، وما أمكَنَ بعد هذا مِن العُلومِ حِفظُه فحسنٌ.

وليُحذَّرْ من عاداتِ أصحابِ الحديثِ، فإنّهم يُفنُون الزمانَ في سماعِ الأجزاءِ التي تتكرَّرُ فيها الأحاديث، فيذهبُ العُمرُ وما حصَّلُوا فهمَ شيء، فإذا بلغُوا سِنًّا طلبُوا جوازَ فتوى، أو قراءةَ جُزءٍ مِن القُرآن، فعادوا القَهقَرى، يحفظُون بعد كِبَرِ السِّنّ، فلا يحصُلُ مقصُودُهم، فالحفظُ في الصِّبا للمُهِمِّ من العِلمِ أصلٌ عظيم.

وقد رأينا كثيرًا مِمَّن تشاغلَ بالمسموعاتِ وكتابةِ الأجزاء، ورأى الحفظَ صعبًا، فمالَ إلى الأسهل، فمضى عُمرُه في ذلك، فلمّا احتاجَ إلى نفسِهِ قعدَ يتحفَّظُ على كِبَرٍ، فلم يُحصِّلْ مقصُودَه. فاليقظةَ لفهمِ مَن ذكرتُ، وانظُر في الإخلاص، فما ينفعُ شيءٌ دُونه.



(١) سقطت من (ح، ص).

٣٠١- فصل

[الويل للمُفرِّط المُهمِل]

اشتدَّ الغلاءُ ببغداد في أوّلِ سنةِ خمسٍ وسبعين[١]، وكُلَّما جاء الشعيرُ زاد، فتواقَعَ الناسُ[٢] على اشتراءِ الطعام، فاغتبطَ مَن يستعدُّ كُلَّ سنةٍ بزرعٍ ما يقُوتُه، وفَرِح مَن بادرَ في أوّلِ النَّيْسانِ[٣] إلى اشتِراءِ الطعامِ، فإنّه يُضاعَفُ ثمنُه، وأخرجَ الفُقراءُ ما في بُيوتِهم، فرمَوهُ في سُوقِ الهوان، وبان ذلُّ نفوسٍ كانت عزيزةً.

فقُلتُ: يا نفسُ، خُذي مِن هذه الحالِ إشارةً، ليُغبطَنَّ مَن له عملٌ صالحٌ وقتَ الحاجةِ إليه، وليفرَحنَّ مَن له جوابٌ عند إقبالِ المسألة، وكلُّ الويلِ على المُفرِّطِ الذي لا ينظُرُ في عاقبتِه، فتنبَّهي، فقد نبَّهتُ ناسيَ الدنيا على أمرِ الآخِرة، وبادِري موسمَ الزرعِ ما دامتِ الرُّوحُ في البدن، فالزمانُ كُلُّه تِشرينُ قبلَ أن يدخُلَ نَيسانُ الحصاد وما لكِ زرعٌ، وحاجةُ المُفتقِرين إلى أموالِهم تمنعُهُم مِن الإيثار.

٣٠٢- فصل

[محبةٌ غير مُتبادلة]

تأمَّلتُ حالةً أزعجتني، وهو أنّ الرجُلَ قد يفعلُ مع امرأتِه كُلَّ جميلٍ وهي لا تُحبُّه، وكذا يفعلُ مع صديقِه والصديقُ يُبغِضُه، وقد يتقرَّبُ إلى السلطانِ بكُلِّ ما يقدرُ عليهِ والسُّلطانُ لا يُؤثِرُه، فيبقى مُتحيِّرًا، يقُول: ما حيلتي؟

فخِفتُ أن تكُونَ هذه حالتي مع الخالِقِ سُبحانه، أتقرَّبُ إليهِ وهو لا

---

(١) يعني سنة ٥٧٥هـ.
(٢) تواقع الناس: تقاتلوا.
(٣) النيسان: أحد شهور السنة السريانية، يقابله أبريل في شهور السنة الميلادية.

يُريدُني، ورُبّما يكُونُ قد كتبَني شقيًّا في الأزل. ومن هذا خاف الحسَن، فقال: «أخـافُ أن يكُـونَ اطَّلعَ عليَّ في بعضِ ذُنُوبي، فقال: لا غفرتُ لك»[١]. فليس إلا القلقُ والخوفُ، لعلَّ سفينةَ الرجاءِ تَسلَمُ يومَ دُخُولِها الشاطِئَ من جُرفٍ.

٣٠٣ـ فَصْلٌ
[عدد الأحاديث النبويّة]

جـرى بينـي وبين بعضِ أصحـابِ الحديـثِ كلامٌ في قولِ الإمـامِ أحمد: «صـحَّ الحديـثُ عـن رسُـولِ الله ﷺ سـبعُمئة ألـفِ حديـث»، فقُلتُ لـه: إنّما يعنـي بـهِ الطُّرُقَ. فقـال: لا، إلا المُتُون[٢]. فقُلتُ: هذا بعيـدُ التصوُّر. ثُمّ رأيتُ لأبي عبدِ الله الحاكِم كلامًا ينصُرُ ما قال ذلك الشخص، وهو أنّه قال في كتاب «المدخـل إلـى كِتـابِ الإكليل»: «كيف يجُـوز أن يُقالَ: إنّ حديثَ رسُـولِ الله ﷺ لا يبلغُ عشـرةَ آلافِ حديث، وقد روى عنهُ مِن أصحابهِ أربعةُ آلافِ رجُلٍ وامرأة، صحِبُوه نيِّفًا وعِشـرين سـنةً بمكّة، ثُمّ بالمدينةِ حفِظُـوا أقوالَه وأفعالَه، ونومَه ويقظتَه وحركاتِه، وغيرَ ذلك، سِوى ما حفِظُوا مِن أحكامِ الشريعةِ؟».

واحتـجَّ بقـولِ أحمـد: «صحَّ الحديـثُ عن رسُـولِ الله ﷺ سـبعُمئةِ ألفِ حديثٍ وكسرٌ»، وأنّ إسحاقَ بنَ راهويهِ كان يُملي سبعينَ ألفَ حديثٍ حِفظًا، وأنّ أبا العبّـاسِ بنَ عُقـدةَ قال: «أحفظُ لأهلِ البيتِ ثلاثَمئةِ ألفِ حديثٍ»، قال ابنُ عُقدةَ: «وظهرَ لابنِ كُريبٍ بالكوفةِ ثلاثُمئةِ ألفِ حديثٍ»[٣].

---

(١) تقدم في الفصل ٨٥.

(٢) قوله: «إلا المتون» يعني به: ولكن المتون كذلك.

(٣) سـقط «قـال ابن عقـدة... حديـث» مـن (ح، ص). وأبو العباس بـن عقدة هو أحمد بـن محمد بن سـعيد، أحد أعلام الحديث، ونادرة الزمان، المعروف بالحافظ ابن عقدة، تُوفي سـنة ٣٣٢هـ. انظر ترجمته وخبره في: سير أعلام النبلاء (١٥: ٣٤٠، ٣٤٦)، والمدخل إلى كتاب الإكليل (ص٣٦).

قُلتُ: ولا يحسُنُ أن يُشارَ بهذا إلى المُتُون، وقد عجِبتُ كيف خَفِي هذا على الحاكِم وهو يعلمُ أنّ أجمعَ المسانيدِ الظاهِرةِ مُسندُ أحمدَ بنِ حنبل، وقد طاف الدنيا مرَّتينِ حتّى حصَّله، وهو أربعون ألفَ حديث، منها عشرةُ آلافٍ مُكرَّرة؟

قال حنبلُ بنُ إسحاقَ: جمعَنا أحمدُ بنُ حنبلٍ ـ أنا وصالِحٌ وعبدُ الله ـ وقرَأ علينا «المُسند»، وقال لنا: «هذا كِتابٌ قد جمعتُه مِن أكثرَ مِن سبعِمئةِ ألفٍ وخمسين ألفًا، فما اختَلف المُسلِمُون فيهِ مِن حديثِ رسُولِ الله ﷺ فارجِعوا إليه، فإن وجدتُموه وإلا فليس بحُجّة»[1]. أفترى يخفى على مُتيقّظٍ أنّه أراد بكونِه جمعهُ مِن سبعِمئةِ ألف، أنّه أراد الطُّرُق؛ لأنّ السبعَمئةِ الألفِ إن كانت مِن كلامِ رسُولِ الله ﷺ فكيف أهمَلَها؟

فإن قيل: فقد أخرَجَ في «مسندِه» أشياءَ ضعيفة، ثُمّ أعوذ بالله أن يكُونَ سبعُمئةِ ألفٍ ما تحقَّق منها سوى ثلاثين ألفًا، وكيف ضاعَت هذه الجُملة؟ ولِمَ أُهمِلت وقد وصلتْ كُلُّها إلى زمنِ أحمد، فانتقى منها ورمى الباقي، وأصحابُ الحديث قد كتبُوا كُلَّ شيءٍ مِن الموضُوعِ والكذِب؟

وكذلك قال أبو داود: «جمعتُ كِتابَ السُّنَنِ مِن ستِّمئةِ ألفِ حديثٍ»[2].

ولا يحسُنُ أن يُقال: إنّ الصحابةَ الذين رَوَوها ماتُوا ولم يحدِّثُوا بها التابِعين، فإنّ الأمرَ قد وصلَ إلى أحمد، فأحصى سبعَمئةِ ألفِ حديث، وما كان الأمرُ لِيذهبَ هكذا عاجِلًا. ومعلومٌ أنّه لو جُمِعَ الصحيحُ والمُحالُ الموضوعُ وكُلُّ منقُولٍ عن رسُولِ الله ﷺ ما بَلَغ خمسين ألفًا، فأين الباقي؟!

(١) رواه ابن أبي يعلى في طبقات الحنابلة (١: ١٤٣).
(٢) ذكره ابن الجوزي في المنتظم (١٢: ٢٦٩) وقال فيه: خمسمئة ألف حديث.

ولا يجُوزُ أن يُقال: تلك الأحاديثُ كلامُ التابعين، فإنّ الفُقهاءَ نقلُوا مذاهِبَ القوم، ودوَّنُوها، وأخذُوا بها، ولا وجهَ لتركِها، فعلِمَ كُلُّ ذي لُبٍّ أنّ الإشارةَ إلى الطُّرُق، وأنّ ما توهَّمهُ الحاكِمُ فاسِدٌ، ولو عُرِضَ هذا الاعتراضُ عليهِ، وقيل له: فأين الباقي؟ لم يكُن له جواب، لكنّ الفهمَ عزيز، والله المُنعِمُ بالتوفيق.

ومِثلُ هذا تغفيلُ قومٍ قالوا: إنّ البُخاريَّ لم يُخرِّجْ كُلَّ ما صحَّ عِنده، وإنّ ما أخرَجَ كالأنمُوذج، وإلا فكان يُطوِّل، وقد ذهبَ إلى نحوِ هذا أبو بكرٍ الإسماعِيليّ، وحكى عنِ البُخاريِّ أنّه قال: «ما تركتُ مِن الصحيحِ أكثرُ».

وإنّما يعني الطُّرُق، يدُلُّ على ما قُلتُه: أنّ الدّارقُطنيَّ ـ وهو سيِّدُ الحُفّاظِ ـ جمَعَ ما يلزَمُ البُخاريَّ ومُسلِمًا إخراجُه، ما لم يذكُراهُ أحاديثُ يسيرةٌ، ولو كان كما قالُوا لأخرجَ مُجلَّداتٍ. ثُمّ قوله: «ما يلزَمُ البُخاريَّ» دليلٌ صريحٌ على ما قلتُه؛ لأنّه مَن أخرجَ الأنمُوذجَ لا يلزَمُهُ شيء. وكذلك أخرَج أبو عبدِ الله الحاكِمُ كِتابًا جمعَ فيهِ ما يلزَمُ البُخاريَّ إخراجُه، فذكرَ حديثَ الطائر[1]، فلم يلتفتِ الحُفّاظُ إلى ما قال، فما أقلَّ فهمَ هؤلاءِ الذين شغلَهم الحديثُ.

ومن التدقيقِ الذي لا يلزَمُ في صحةِ الحديث، وإنّما وقعَ لقلةِ الفقهِ والفَهمِ، أنّ البُخاريَّ ومُسلِمًا تركا أحاديثَ أقوامٍ ثِقاتٍ؛ لأنّهم خُولِفوا في الحديث، فنقصَ الأكثرون من الحديثِ وزادُوهم[2]، ولو كان ثَمّ فِقهٌ لعلِمُوا أنّ الزيادةَ مِن الثقةِ مقبولة، وتركوا أحاديثَ أقوام؛ لأنّهم انفردُوا بالروايةِ عن

(١) حديث الطائر حديث طويل فيه قول النبي ﷺ: «اللهم جئني بأحبّ خلقك إليك وإليَّ يأكل معي من هذا الطائر...» الحديثَ، وهو حديث منكر؛ رواه الترمذي في سننه (٣٧٢١)، وانظر: العلل الكبير للترمذي (٦٩٨).

(٢) كذا في النسخ، ولعل الصواب: «وزادوا هم».

شخص، ومعلومٌ أنّ انفرادَ الثقةِ لا عيبَ فيه، وتركُوا مِن ذلك الغرائب، وكُلُّ ذلك سوءُ فهم(١)، ولِهذا لم يلتزمِ الفُقهاءُ هذا، وقالوا: الزيادةُ مِن الثقةِ مقبولة، ولا يُقبَلُ القدحُ حتّى يُبيَّنَ سببُه.

وكلُّ مَن لم يُخالطِ الفُقهاءَ، وجهدَ مع المُحدِّثين، تأذَّى وساءَ فهمُه، فالحمدُ لله الذي أنعَمَ علينا بالحالتَين.

٣٠٤- فَصْلٌ

[إلهامُ الله للنفوس]

اعلم أنّ الله عز وجل وضعَ في النفُوسِ أشياءَ لا تحتاجُ إلى دليلٍ؛ فالنُّفُوسُ تعلمُها ضرُورةً، وأكثرُ الخلقِ لا يُحسنون التعبيرَ عنها، فإنّه وضعَ في النفسِ أنّ المصنوعَ لا بُدَّ له مِن صانع، وأنّ المبنيَّ لا بُدَّ له مِن بانٍ، وأنّ الاثنينِ أكثرُ مِن الواحِد، وأنّ الجسمَ الواحِدَ لا يكُونُ في مكانَين في حالةٍ واحِدةٍ، ومِثلُ هذه الأشياءِ لا تحتاجُ إلى دليل.

وألهمَ العربَ النُّطقَ بالصواب مِن غيرِ لحن، فهُم يفرِّقُون بين المرفُوعِ والمنصوبِ بأماراتٍ في جِبِلَّتهم(٢)، وإن عجَزُوا عنِ النُّطق بالعِلّة.

قال عُثمانُ بنُ جِنّي: سألتُ يومًا أبا عبد الله مُحمّدَ بنَ العَسّافِ العُقيليّ، فقُلتُ له: كيف تقُول: ضربتُ أخُوكَ؟ فقال: أقُولُ: «ضربتُ أخاكَ»، فأدرتُه

---

(١) هذا تجاوز من المصنِّف ـ غفر الله له ـ في حق الإمامين الجليلين الكبيرين البخاري ومسلم غير مقبول؛ لأن الإمامين كان لكل واحد منهما شرطه المعتبَر في تصنيف كتابه، ولهما الحق في ذلك بلا نكير، وقد تلقَّت جماهير الأمة كتابَيهما بالقبول، فهما أصحُّ كتابين بعد كتاب الله، وقد كرَّر ابن الجوزي هذا الكلام في كتابه الموضوعات (١: ٣٤)، وانظر: المدخل إلى كتاب صيد الخاطر (ص٣٩٩).

(٢) الجِبِلّة: الطبيعة والسليقة.

علـى الرفـع، فأبى، وقال: لا أقُـول: «أخُوكَ» أبدًا، قال: فكيـف تقُولُ: ضربَني أخُـوكَ؟ فرفـع، فقُلتُ: أليس زعمتَ أنّكَ لا تقُـولُ: «أخُوكَ» أبدًا؟ فقال: أيشٍ هذا؟ اختلفَت جِهتُهما في الكلام! وهذا أدلُّ شيءٍ على تأمُّلِهم مواقعَ الكلام، وإعطائهم إيّاه في كُلِّ موضعِ حقَّه، وأنه ليس استرسالًا ولا ترخيمًا[1].

قـال عُثمانُ: «واللُّغةُ هي أصواتٌ يُعبِّر بها كُلُّ قومٍ عن أغراضِهِم. والنحوُ انتِحـاءُ سَـمتِ كلامِ العـربِ في تصرُّفِـه مِن إعـرابٍ وغيرِه، كالتثنيـةِ والجمعِ والتحقيرِ والتكسيرِ وغيرِ ذلك؛ لِيَلحَقَ مَن ليسَ مِن أهلِ اللُّغةِ أهلَها»[2].

٣٠٥- فصلٌ مُفيد
[صلاح الأخيار وفساد الأشرار]

تدبَّـرتُ أحـوالَ الأخيارِ والأشـرارِ، فرأيتُ سـببَ صلاحِ الأخيـارِ النظرَ، وسـببَ فسادِ الأشـرارِ إهمالَ النظرِ، وذاك أنّ[3] العاقِلَ ينظُرُ فيعلمُ أنّه لا بُدّ له مِن صانع، وأنّ طاعتهُ لازمة، ويتأمَّلُ معجزاتِ رسُول الله ﷺ، فيُسلِمُ قِيادَه إلى الشـرع، ثُـمّ ينظُرُ فيما يُقرِّبُه إليه، ويُزلِفُه لديه، فإذا شـقَّ عليـهِ إعادةُ العِلم تأمَّلَ ثمرتَه، فسهُل ذلك، وإذا صعبَ عليهِ قيامُ الليل، فكذلك.

وإذا رأى مُشـتهًى تأمَّـلَ عاقِبتَه، فعلِمَ أنّ اللذّةَ تفنـى، والعارَ والإثمَ يبقى، فيَسـهُلُ عليهِ التركُ، وإذا اشـتهى الانتقـامَ مِمَّن يُؤذيه، ذكرَ ثـوابَ الصبرِ وندَمَ الغضبـانِ علـى أفعالِه فـي حالِ الغضب، ثُـمّ لا يزالُ يتأمَّلُ سُـرعةَ ممَرِّ العُمر، فيغتنِمُه بتحصيلِ أفضلِ الفضائل، فينالُ مُناه.

---

(١) الخصائص لابن جني (١: ٧٦).
(٢) الخصائص لابن جني (١: ٣٣، ٣٤).
(٣) سقطت من (ح، ص).

وأمـا الغافـلُ فإنّـه لا يرى إلا الشـيءَ الحاضِر، فمِنهُم مَن لـم يتأمَّلْ معنى المصنـوعِ وإثبـاتَ الصانِع، فجحَـدوا وتركُوا النظـر، وجحدُوا[1] الرُّسُـلَ وما جـاؤوا بـه، ونظرُوا إلى العاجلِ ولم يتفكَّرُوا فـي مَبدئِه ومُنتهاه، فليس عِندهُم مـن عِرفـانِ المَطعَـمِ إلا الأكل. ولـو تأمَّلُوا كيف أُنشِـئَ؟ ولِماذا جُعِـلَ حافِظًا للأبدان؟ لعرَفُوا حقائقَ الأمور. وكذلك كُلُّ شـهوةٍ تعرِضُ لهُم لا ينظرُون في عاقبتِها، بل في عاجلِ لذّتِها.

وكـم قـد جَنَـتْ عليهِم مِن وقـوعِ حدٍّ وقطعِ يـدٍ وفضيحة، فتعجيـلُ اللّذةِ يُفوِّتُ الفضائل، ويُحصِّلُ الرذائل، وسببُه عدمُ النظرِ في العواقِب، وهذا شُغلُ العقل، وذاك المذمُومُ شُـغلُ الهوى، نسـألُ الله عز وجل يقظـةً تُرِينا العواقِب، وتكشفُ لنا الفضائلَ والمعايِب، إنّه قادرٌ على ذلك.

٣٠٦- فَصْلٌ

[همّة المُصنِّف]

خُلِقَـتْ لـي هِمّةٌ عاليـةٌ تطلبُ الغايـات، فعَلَتِ السِّـنُّ وما بلغتُ مـا أمَّلتُ، فأخذتُ أسألُ تطويلَ العُمر، وتقويةَ البدن، وبُلوغَ الآمال، فأنكرتْ عليَّ العاداتُ وقالت: ما جرتْ عادةٌ بما تطلبُ، فقُلتُ: إنّما أطلبُ من قادرٍ يخرِقُ العادات[2].

وقـد قيـل لرجلٍ: لنـا حُوَيجةٌ، فقـال: اطلبوا لهـا رُجَيـلًا[3]! وقيل لآخر: جِئناكَ في حاجةٍ لا تَرزَؤُك[4]، فقال: هلّا طلبتُم لها سفاسِفَ الناس[5]؟!

---

(١) في (ح، ص، د، م): «جحدوا» بغير واو قبلها.

(٢) سقط: «وقالت: ما جرتْ... العادات» من (ص).

(٣) تقدم في الفصل ٢٦٨.

(٤) تَرزَؤُك: تَعِيبك.

(٥) ذكره الجاحظ في الحيوان (٧: ٩٠).

فإذا كان أهلُ الأنَفةِ مِن أربابِ الدنيا يقولُون هذا[1]، فلِمَ لا نَطمَعُ في فضلِ كريمٍ قادر؟ وقد سألتُه هذا السُّؤالَ في ربيعِ الآخرِ مِن سنةِ خمسٍ وسبعين[2]، فإن مُدَّ لي أجلٌ وبلغتُ ما أمَّلتُه نقلتُ هذا الفصلَ إلى ما بعدُ وبيَّضتُه، وأخبرتُ ببلوغ آمالي، وإن لم يتَّفقْ ذلك، فسيِّدي أعلمُ بالمصالِحِ؛ فإنّه لا يمنعُ بُخلًا، ولا حولَ إلا به.

٣٠٧- فَصْلٌ
[الرياء في العبادة]

ما أقلَّ مَن يعملُ لله تعالى خالصًا! لأنّ أكثرَ الناسِ يُحبُّون ظهورَ عباداتهم، وسفيانُ الثوريُّ كان يقُول: «لا أعتدُّ بما ظهر مَن عملي»[3]، وكانُوا يسترُون أنفُسَهم. واليومَ ثيابُ القومِ تُشهِرُهُم، وقد كان أيوبُ السَّختيانيُّ يُطوِّلُ قميصَه حتّى يقعَ على قدَمه، ويقُول: «كانتِ الشُّهرةُ في التطويل، واليومَ الشُّهرةُ في التقصيرِ»[4].

فاعلم أنّ تركَ النظرِ إلى الخلق، ومحوَ الجاهِ مِن قُلُوبِهم بالتعمُّلِ وإخلاصِ القصدِ وسترِ الحال، هو الذي رفعَ مَن رُفِع، فقد كان أحمدُ بنُ حنبلٍ يمشي حافيًا في وقت[5]، ونَعلَيه[6] في يدَيه، ويخرُجُ لِلَّقاط[7]، وبشرٌ يمشي حافيًا على الدوامِ وحدَه[8]، ومعرُوفٌ يلتقطُ النوى.

---

(١) سقطت من (ك، س).
(٢) زاد في (س): «وخمسمئة» بخط مغاير.
(٣) ذكره أبو طالب المكي في قوت القلوب (٢: ٢٦٤).
(٤) رواه ابن سعد في الطبقات الكبير (٩: ٢٤٨).
(٥) رواه ابن الجوزي في مناقب الإمام أحمد (ص٣٣٤) بمعناه.
(٦) «ونعليه» كذا بالياء في النسخ، والخبر رواه ابن الجوزي في مناقب الإمام أحمد (ص٣٠٤) بمعناه.
(٧) رواه ابن الجوزي في مناقب الإمام أحمد (ص٣٠٨)، واللَّقاط: ما تخطئه المناجل، فيلتقطه الناس.
(٨) سقطت من (د)، والخبر رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٨: ٣٤٧) بمعناه.

واليـومَ صـارتِ الرِّياسـاتُ أكثرَ مِـن كُلِّ حاجة[1]، وما تتمكَّنُ الرِّياسـاتُ حتّـى تتمكَّـنَ من القلبِ الغفلةُ، ورُؤيةُ الخلق، ونِسـيانُ الحـقّ، فحينئذٍ تُطلَبُ الرِّياسةُ على أهلِ الدنيا.

ولقـد رأيـتُ مِن النـاس عجبًا، حتّـى مَن[2] يتزيَّـا بالعِلم، إن رآني أمشـي وحـدي أنكرَ علـيّ، وإن رآني أزورُ فقيرًا عظَّم ذلك، وإن رآني أنبسـطُ بتبسُّـمٍ نقصـتُ مِـن عينِه! فقُلـت: وا عجبًا! هذه كانت طريقَ الرسُـولِ ﷺ والصحابةِ رضي الله عنهم.

فصارت أحوالُ الخلقِ نواميسَ لإقامةِ الجاه، لا جَرَمَ - والله - سـقطتُم من عينِ الحقّ، فأسـقطَكُم مِن عينِ الخلق، فكـم مِمَّن يتعبُ في تربيةِ ناموسٍ ولا يُلتفَتُ إليه، ولا يحظى بمُرادِه، ويفوتُه المُرادُ الأكبر.

فالتفِتُـوا - إخوانـي - إلـى إصـلاحِ النيّـات، وتـركِ التزيُّنِ للخلـق، ولتكنْ عُمدتُكـم الاسـتقامةَ مـع الحقّ، فبذلـك صَعِدَ السـلفُ وسـعدُوا، وإيّاكُم وما الناسُ عليهِ اليوم، فإنّه - بالإضافة إلى يقظةِ السلفِ - نومٌ.

٣٠٨- فَصْلٌ

[تأديب الولد]

والله مـا ينفـعُ تأديبُ الوالِدِ إذا لـم يسـبِقِ اختيارُ الخالِقِ لذلـك الولدِ، فإنّه سُـبحانهُ إذا أراد شـخصًا ربّـاه مِـن طُفولتـه، وهداهُ إلـى الصـواب، ودلَّهُ على الرَّشـاد، وحبَّـب إليـهِ ما يصلُـحُ، وصحَّبهُ مَن يصلُـح، وبغَّضَ إليـهِ ضِدَّ ذلك، وقبَّحَ عِندَه سفسافَ الأُمُور، وعصمَهُ مِن القبائح، وأخذ بيدِه كُلَّما عثَر.

---

(١) في (ك، ح، ص، د): «حاجب».

(٢) سقطت من (ص).

وإذا أبغضَ شخصًا تركهُ دائمَ التعثير، مُتخبِّطًا في كُلِّ حال، ولم يخلُقْ له هِمّةً لطلبِ المعالي، وشغَلَهُ بالرذائلِ عنِ الفضائل، وإن قال: لمَ[١] خُصِصتُ بهذا؟ قال الخطابُ الذي لا يُجاب: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠].

٣٠٩- فَصْلٌ
[أدلة وجود الخالق]

مِن أكبرِ الدليلِ على وُجُودِ الخالقِ سُبحانه أنّ هذه النفسَ الناطقةَ المُميِّزةَ المُحرِّكةَ للبدنِ على مُقتضى إرادتِها، ودبَّرتْ مصالِحَها، وترقَّتْ إلى معرِفةِ الأفلاك، واكتسبتْ ما أمكنَ تحصيلُه مِن العُلُوم، وشاهدتِ الصانِعَ في المصنُوع، فلم يَحجُبْها سِترٌ وإن تكاثف؛ لا يُعرَفُ مع هذا ماهيَّتُها، ولا كيفيَّتُها، ولا جوهرُها، ولا محلُّها، يا أسفًا لها، ولا يُفهَمُ مِن أين جاءت؟ ولا يُدرى أين تذهب؟ ولا كيف تعلَّقت بهذا الجسد؟

وهذا كُلُّه يُوجِبُ عليها أن تعتقدَ أنّ لها مُدبِّرًا وخالقًا، وكفى بذلك دليلًا عليه؛ إذ لو كانت وُجِدَت بها، لَما خفيَت أحوالُها عنه[٢]، فسُبحانه[٣] سُبحانه.

٣١٠- فَصْلٌ
[حفظةُ الشريعة]

سُبحانَ مَن منَّ على الخلقِ بالعُلماءِ الفُقهاءِ، الذين فهموا مقصُودَ الأمر ومُرادَ الشارع، فهُم حَفَظةُ الشريعة، فأحسنَ الله تعالى جزاءَهُم، وإنّ الشيطانَ ليتجافاهُم خوفًا مِنهم، فإنّهم يَقدِرُون على أذاه، وهو لا يقدرُ على أذاهُم.

---

(١) سقطت من (ص).
(٢) سقطت من (ح، ص).
(٣) سقطت من (س).

ولقد تلاعبَ بأهلِ الجهلِ والقليلي الفَهم، وكان مِن أعجبِ تلاعُبِهِ أن حسَّنَ لأقوامٍ تركَ العِلم، ثُمّ لم يقنَعوا بهذا حتّى قدحُوا في المُتشاغِلين به، وهذا ـ لو فهمُوه ـ قدحٌ في الشريعة، فإنّ رسُولَ الله ﷺ يقول: «بلِّغُوا عنّي»[1]، وقد قال له ربُّه عز وجل: ﴿بَلِّغۡ﴾ [المائدة: ٦٧]، فإذا لم يتشاغلْ بالعِلم، فكيف يُبلِّغُ الشريعةَ إلى الخلق؟!

ولقد نُقِلَ مِثلُ هذا عن كبارِ الزُّهّاد، كبشرٍ الحافي، فإنّه قال لعبّاسِ بنِ عبدِ العظيم: «لا تُجالِسْ أصحابَ الحديث»[2]، وقال لإسحاقَ بنِ الضيف: «إنّكَ صاحِبُ حديث، فأُحِبُّ ألا تعودَ إليّ»، ثُمّ اعتذرَ فقال: «إنّما الحديثُ فِتنةٌ إلا لمَن أرادَ الله به، وإذا لم يعملْ بهِ فتركُهُ أفضل»[3].

وهذا عجبٌ مِنه! مَن أين له أنّ طُلّابَه لا يُريدُون الله به، وأنّهم لا يعملُون به؟! أوَليس العملُ بهِ على ضربَينِ: عملٌ بما يجِب، وذلك لا يسعُ أحدًا تركُه، والثاني: نافلة، ولا يلزَمُ، والتشاغُلُ بالحديثِ أفضلُ من التنفُّلِ بالصومِ والصلاة.

وما أظنُّه أراد إلا طريقَه في دوامِ الجُوع والتهجُّد، وذلك شيءٌ[4] لا يُلامُ تاركُه، فإنْ كان يُريدُ ألا يُوغِلَ في عُلومِ الحديث، فهذا خطأ؛ لأنّ جميعَ أقسامِهِ محمُودة، أفترى لو تركَ الناسُ[5] طلبَ الحديث، كان بشرٌ يُفتي؟! فالله الله في الالتفاتِ إلى قولِ مَن ليس بفقيه، ولا يَهُولَنَّكَ تعظيمُ اسمِه، فالله يعفُو عنه.

---

(١) البخاري (٣٤٦١) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) رواه الخطيب في اقتضاء العلم العمل (١٤٣).

(٣) رواه الخطيب في اقتضاء العلم العمل (١٤٤).

(٤) سقطت من (ص). (٥) سقطت من (ص).

٣١١- فَصْلٌ
[حفظُ جانب الله]

العاقِلُ مَن يحفظُ جانِبَ الله عز وجل وإن غضِبَ الخلقُ، وكُلُّ مَن يحفظُ جانِبَ[١] المخلُوقين ويُضيِّعُ حقَّ الخالق، يُقلِّبُ الله قلبَ الذي قصدَ أن يُرضيَه، فيُسخِطُهُ عليه. قال المأمونُ لبعضِ أصحابه: «لا تَعصِ الله بطاعتي[٢]، فيُسلِّطَني عليك»[٣].

ولما بالغَ طاهِرُ بنُ الحُسينِ فيما فعلَ بالأمين، وفتكَ به، وصلبَ رأسَه، وإن كان ذلك عن إرادةِ المأمون، ولكن بقيَ أثرُ ذلك في قلبِه، فكان لا يقدِرُ أن يراه.

ولقد دخلَ عليهِ[٤] يومًا، فبكى المأمون، فقال له طاهِر: لِمَ تبكِ، لا أبكى الله عينَكَ[٥]، فلقد دانتْ لكَ البلاد؟! فقال: أبكي لأمرٍ ذِكرُه ذُلّ، وسَترُه حُزن، ولن يخلُوَ أحدٌ مِن شَجَنٍ، فلمّا خرجَ طاهرٌ نفذَ[٦] إلى حُسينٍ الخادِم مئتَي ألفِ دِرهم، وسأله أن يسألَ المأمونَ: لِمَ بكى؟ فلمّا تغدّى المأمونُ قال: يا حُسينُ، اسقِني. قال: لا والله لا أسقِيكَ حتّى تقُولَ لي: لِمَ بَكيتَ حينَ دخلَ عليكَ طاهِر؟ قال: يا حُسين، وكيف عُنِيتَ بهذا حتّى سألتَ عنه؟ قال: لغَمّي بذلك. قال: يا حُسين، أمرٌ إن خرجَ مِن رأسِكَ قتلتُكَ، قال: يا سيدي، ومتى

(١) سقطت من (ك، ح، ص، د).
(٢) سقطت من (د).
(٣) ذكره أبو بكر الطرطوشي في سراج الملوك (ص٧٢).
(٤) سقطت من (ص).
(٥) هنا بداية نسخة دار الكتب المصرية ذات الرمز (ي).
(٦) في (س): «أنفذ».

أخرجتُ لك سِرًّا؟! قال: إنّي ذكرتُ أخي مُحمّدًا، وما نالَه مِن الذِّلَّة، فخَنقَتْني العَبرة، فاسترحتُ إلى إفاضتها، ولن يفُوتَ طاهِرًا مِنّي ما يكره.

فأخبرَ حسينٌ طاهِرًا بذلك، فركبَ طاهِرٌ إلى أحمدَ بنِ أبي خالِد، فقال له: إنّ المعرُوفَ عِندي ليس[1] بضائع، فغيِّبني عن عينِه، قال: سأفعل، فدخلَ على المأمون، فقال: ما بِتُّ البارحة. قال: ولِمَ؟ قال: لأنّكَ ولَّيتَ غسّانَ بنَ عبّادٍ خُراسان، وهو ومَن معه أكلةُ رأس، فأخافُ أن يخرُجَ خارجٌ مِن التُّركِ فيَصطَلِمَه[2]، قال: فمَن ترى؟ قال: طاهِر بن الحُسين. فعقدَ له، فمضى، فبقي مُدّةً، ثُمّ قطعَ الدُّعاءَ للمأمُون على المِنبرِ يومَ الجُمُعة، فقال له صاحِبُ البريد: ما دعوتَ لأميرِ المُؤمِنين! قال: سهوٌ، فلا تكتُبْ، ففعلَ ذلك في الجُمُعة الثانية والثالثة، فقال له[3]: لا بُدَّ أن أكتُبَ؛ لئلّا يكتُبَ التُّجّارُ ويَسبِقُوني. قال: اكتُبْ، فكتبَ، فدعا المأمونُ أحمدَ بنَ أبي خالِد، وقال: إنّه لم يذهبْ عليَّ احتيالُكَ في أمرِ طاهِر، وأنا أُعطي الله عهدًا إن لم تَشخَصْ حتّى تُوافيَني بِهِ كما أخرجتَهُ مِن قبضتي لتذُمَّنَّ عُقباكَ. فشخصَ، وجعلَ يتلوَّمُ في الطريقِ ويعتلُّ بالمرض، فوصلَ إلى الرَّيِّ وقد بلغتهُ وفاةُ طاهِر[4].

قُلتُ: ولمّا خرجَ الراشِدُ مِن بغداد، وأرادوا توليةَ المُقتفي، شهِدَ جماعةٌ مِنَ الشُّهودِ بأنّ الراشِدَ لا يصلُحُ للخلافة، فنزعُوه، ووليَ المُقتفي، فبلغَني أنّه ذُكِرَ للمُقتفي بعضُ الشُّهُود، فذمَّه، وقال: «كان فيمَن أعانَ على أبي جعفر»[5]!

---

(١) سقطت من (ص).

(٢) يصطلمه: يستأصله.

(٣) سقطت من (م).

(٤) ذكره ابن طيفور في كتاب بغداد (ص٢٣).

(٥) أبو جعفر هو أمير المؤمنين الراشد بالله منصور ابن المسترشد بالله الفضل بن أحمد العباسي، وكان حسن السيرة مُؤثِرًا للعدل، قُتِل سنة ٦٣٢هـ، وكان قد استغل السلطان مسعود بن محمد بن مَلِكْشاه خروجَه من بغداد، فاجتمع بالأعيان، وخلعوه، وبايعوا عمَّه المقتفي. انظر ترجمته وخبره في: =

وعلى ضِدِّ هذا كُلُّ مَن يُراعي جانِبَ الحقِّ والصواب، يُرضِي عنهُ مَن سخِطَ عليه.

ولقد حدَّثني الوزيرُ ابنُ هُبيرةَ أنّ المُستنجِدَ بالله كتبَ إليهِ كتابًا، وهو يومئذٍ وليُّ عهدٍ، وأراد أن يستُرَه مِن أبيه. قال: فقُلتُ للواصِل به: والله ما يُمكِنُني أقرؤُه، ولا أُجيبُ عنه. فلمّا وليَ الخِلافةَ دخلتُ عليه، فقُلتُ: أكبرُ دليلٍ على صِدقي وإخلاصي أنّي ما حابيتُكَ في أبيك. فقال: صدقتَ، أنتَ الوزير[1]!

وحدَّثني بعضُ الأصدِقاءِ أنّ قومًا ألحقوا[2] إلى المَخزَنِ بعضَ دَينٍ لهم ليُستخلَصَ، فقال المُسترشِدُ لصاحِبِ المَخزَنِ: خلِّصْه لهم، وخُذْ ما ضمِنُوا لنا، فأحضرَ ابنَ الرُّطبيِّ، وعرضَ الأمرَ عليه، فقال: هذا أمرٌ بظُلم، وما أحكُمُ فيه، فقال: إنّ السلطانَ قد تقدَّم. قال: ما أفعلُ؟ فأحضرَ قاضِيًا آخرَ، فبَتَّ الحُكم، فأُخبِرَ الخليفةُ بالحال، فقال: أمّا ابنُ الرُّطبيِّ فيُشكَرُ على ما قال، وأمّا الآخرُ فيُعزَلُ؛ وذلك لأنّه بان له[3] أنّ الحقَّ ما قاله ابنُ الرُّطبيّ.

وكذلك ما طلبَه السُّلطانُ مِن أن يُلقَّبَ: ملِكَ المُلوك، فاستفتى الفُقهاء، فأجازُوا ذلك، وامتنعَ مِن إجازتِهِ الماوَردِيّ، فعظُم قدرُه عند السُّلطان.

= سير أعلام النبلاء (١٩: ٥٦٨) وما بعدها.

(١) ابن هبيرة هو أبو المظفر يحيى بن محمد الشيباني، الوزير الكامل والإمام العادل صاحب التصانيف، تُوفي سنة ٥٦٠هـ، والمستنجد بالله هو يوسف بن المقتفي السابق ذكره. انظر: المنتظم (١٨: ١٣٩)، وسير أعلام النبلاء (٢٠: ٤٢٦، ٤٢٧).

(٢) في (ك، ح، س، ص): «ألحُوا»، وفي (م): «ألحق»، والمثبت عن (ط).

(٣) سقطت من (س، د). والمسترشد بالله هو أبو الخليفة الراشد السابق ذكره، وابن الرطبي هو أبو العباس أحمد بن سلامة الكرخي، مؤدِّب الخليفة الراشد، تُوفي سنة ٥٢٧هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (١٩: ٥٦١، ٦١٠).

ومِثْـلُ هـذا إذا تُتُبِّـع كثير، فينبغـي أن يُحسِـنَ القصدَ لطاعـة الخالِق، وإن سخِطَ المخلوق، فإنّه يعودُ صاغرًا، ولا يُسخِطَ الخالِق، فإنّه يُسخِطُ المخلوق، فيفوتُ الحظّانِ جميعًا.

٣١٢- فَصْلٌ
مفيد [أصول المُعاشرة]

ينبغـي للعاقـلِ أن ينظُرَ إلى الأُصُولِ فيمن يُخالطُه، ويُعاشِـرُه، ويُشـارِكُه، ويُصادِقُـه، ويُزوِّجُـهُ أو يتزوَّجُ إليه، ثُمّ ينظُرَ بعد ذلك في الصُّوَر، فإنّ صلاحَها دليلٌ على صلاحِ الباطِنِ، أمّا الأُصُولُ فإنّ الشيءَ يرجعُ إلى أصلِه، وبعيدٌ مِمَّن لا أصـلَ لـه أن يكُون فيـهِ معنًى مُستحسَـن، وإنّ المرأةَ الحسـناءَ إذا كانت مِن بيتٍ رديءٍ فقلَّ أن تكُونَ صَيِّنة، وكذلك أيضًا[١] المُخالِطُ والصديقُ والمُباضِعُ والمُعاشِـر. فإيّـاك أن تُخالـطَ إلا مَـن له أصـلٌ يخافُ عليـهِ الدَّنَـس، فالغالِبُ السلامة، وإن وقعَ ذلك كان نادِرًا.

وقـد قـال عُمـرُ بـنُ عبدِ العزيـزِ رضـي الله عنـه لرجلٍ: «أشِـرْ علـيَّ فيمَن أستعمِلُ»، فقال: «أمّا أربابُ الدينِ فلا يُريدُونكَ، وأمّا أربابُ الدنيا فلا تُرِدْهُم، ولكِن عليكَ بالأشراف، فإنّهُم يصُونُون شرفَهم عمّا لا يصلُحُ»[٢].

وقد روى أبو بكرٍ الصُّوليُّ قال: حدَّثني الحُسينُ بنُ يحيى، عن إسـحاقَ قـال: دعانـي المُعتصمُ يومًا فأدخلَني معهُ الحمّام، ثُمّ خرجَ فخلا بي، وقال: يا أبا إسحاق، في نفسي شيءٌ أريدُ أن أسألكَ عنه، إنّ أخي المأمُونَ اصطنعَ قومًا

(١) سقطت من (د).

(٢) ذكره أبو طالب المكي في قوت القلوب (١: ٢٣٣).

فأنجبُوا[١]، واصطفيتُ أنا مِثلَهُم فلم يُنجِبُوا! قُلتُ: ومَن هُم؟ قال: اصطنع طاهِرًا وابنَه وإسحاقَ وآلَ سهلٍ، فقد رأيتَ كيف هم، واصطنعتُ أنا الأفْشِينَ، فقد رأيتَ إلى ما آلَ أمرُه، وأشناسَ، فلم أجِدهُ شيئًا، وكذلك إيتاخُ ووصِيفٌ. قُلتُ: يا أميرَ المُؤمِنين، هاهُنا جوابٌ، عليَّ أمانٌ مِن الغضب؟ قال: لكَ ذلك. قُلتُ: نظرَ أخوكَ إلى الأصولِ فاستعملَها، فأنجبَت فُروعُها، واستعملتَ فروعًا لا أُصُولَ لها، فلم تُنجِبْ، فقال: يا أبا إسحاق، مُقاساةُ ما مرَّ بي طُولَ هذه المُدّةِ أهونُ عليَّ مِن هذا الجواب[٢]!

وأمّا الصُّوَرُ فإنّه متى صحَّت البِنية، ولم يكُن فيها عيبٌ، فالغالِبُ صِحّةُ الباطِن وحُسنُ الخُلُق، ومتى كان فيها عيبٌ، فالعيبُ في الباطِن أيضًا، فاحذرْ مَن بِهِ عاهةٌ كالأقرعِ والأعمى وغيرِ ذلك، فإنّ بواطِنَهم في الغالبِ رديّة.

ثُمّ مع معرِفة أصولِ المُخالِط، وكمالِ صُورتِه، لا بُدَّ مِن التجرِبةِ قبلَ المُخالطة، واستِعمالُ الحذرِ لازم، وإن كان كما ينبغي.



(١) أنجبَ ونجُب بمعنًى؛ أي: نَبُهَ وبان فضله على غيره.

(٢) إسحاق هو ابن إبراهيم المصعبي صاحب شرطة المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل، وطاهر وابنه وآل سهل هم قادة المأمون، والأفشين وأشناس وإيتاخ ووصيف هم غلمان أتراك صنعهم المعتصم وكانت أمُّه تركية حتى صاروا قادة له، فخانه الأفشين في حياته والآخرون بعد وفاته. انظر: صيد الخاطر (ص٤٢٩، هامش ١) طبعة ابن خزيمة، والخبر ذكره الطبري في تاريخه (٩: ١٢٢).

٣١٣- فَصْلٌ
[التلطُّف في طلب الأغراض]

ينبغي أن يكُونَ شُغلُ العاقِلِ النظرَ[١] في العواقِبِ، والتحرُّزَ مِمّا يُمكِنُ أن يكُون، ومن الغلطِ النظرُ في الحالةِ الحاضِرة، كالمُوافِقِ لمعاشِه، ولصحةِ بدنِه، ورُبّما[٢] يجري له مصحُوبُه، فينبغي أن يعملَ على انقطاعِ ذلك، فيكونَ مُستعِدًّا لتغيُّر الأحوال. وكذلك النظرُ في لذّةٍ تفنى وتبقى تبِعتُها وعارُها، وإيثارُ الكسلِ والدَّعةِ لما يجيءُ[٣] مِن بقاءِ الجهل.

وكذلك تحصيلُ المُراداتِ التي لا تحصُلُ إلا بالتلطُّفِ في الاحتيال، خصوصًا إذا أُريدَ مِن ذكيّ، فإنّه يفطِنُ قبلَ تلويح، فمَن أراد غلبةَ الذكيِّ دقَّقَ النظرَ وتلطَّفَ في الاحتيال، وقد ذُكِر في كُتُبِ الحِيَلِ ما يشحذُ الخواطِر، وأتينا بجُملةٍ مِنهُ في «كتابِ الأذكياء».

مِثلُ ما رُوِيَ أنّ رجلًا مِن الأشرافِ كان لا يقومُ لأحدٍ، ولا يغشى أحدًا، فجاز عليهِ بعضُ الوُزراء، فلم يرُدَّ ولم يقُم، فقال ذاك الوزيرُ لرجُل: أخبِرْ فلانًا أنّي قد[٤] كلَّمتُ أميرَ المُؤمنين في حقِّه، وقد أمرَ له بمئةِ ألفٍ، فليحضُر ليقبضَها، فأخبرَهُ ذلك الرجلُ، فقال: إن كان أمرَ لي بشيءٍ فليُنفِذْ إليّ، وإنّما مقصُودُه أن يضعَ مِنّي بالتردُّد عليه.

فمتى وقعَ للإنسانِ مع ذكيّ، فينبغي أن يتحرَّزَ مِنه، ويسرقَ[٥] أغراضَه

---

(١) سقطت من (ص). (٢) في (ي): «وبما».

(٣) في (ي): «بما يجني».

(٤) سقطت من (م).

(٥) المثبت عن (د)، وفي بقية النسخ: «ويشرف».

بصنُوفِ الاحتيال، وينظُرَ فيما يجُوزُ وقُوعُه فليحترِز مِنه[١]، كما ينظُرُ صاحِبُ الرُّقعةِ النَّقَلات[٢].

وكثيرٌ مِن الأذكياءِ لم يقدِروا على أغراضِهم مِن ذكيّ، فأعطَوه وبالغُوا في إكرامِه، ليصيدُوه، فإن كان قليلَ الفِطنةِ وقعَ في الشَّرَك، وإن كان أقوى مِنهُم ذكاءً عِلم أنّ[٣] تحت هذه الخبيئةِ خبيئةً، فزادهُ ذلك احترازًا.

وأقوى ما ينبغي أن[٤] يكُونَ الاحترازُ مِن مَوتُور، فإنّك إذا آذيتَ شخصًا فقد غرستَ في قلبِهِ عداوةً، فلا تأمنْ تفريعَ تِلك الشجرة، ولا تلتفتْ إلى ما يظهرُ مِن وُدٍّ وإن حلف، فإن قاربتَه فكُن مِنهُ على حذر.

٣١٤- فَصْلٌ
في حفظ السرّ

رأيتُ أكثرَ الناسِ لا يتمالكُون مِن إفشاءِ سِرِّهم، فإذا ظهرَ عاتَبوا مَن أخبرُوه به! فوا عجبًا كيف ضاقوا بحبسِه ذَرعًا، ثُمّ لاموا مَن أفشاه؟! وفي الحديث: «استعينُوا على أُمورِكُم بالكتمان»[٥].

ولَعَمري، إنّ النفسَ يَصعُبُ عليها كتمُ الشيء، وترى بإفشائه راحةً، خصوصًا إذا كان مرضًا أو همًّا أو عِشقًا، وهذه الأشياءُ في إفشائها قريبةٌ، إنّما اللازِمُ كتمانُه احتيالُ المُحتالِ فيما يُريدُ أن يُحصِّلَ بِهِ غرضًا، فإنّ مِن سُوء

---

(١) سقط: «ويشرف... فليحترِز مِنه» من (ص).

(٢) يقصد: كما ينظر صاحب رقعة الشطرنج في تنقُّلات أحجاره.

(٣) سقطت من (ص).

(٤) سقط «ينبغي أن» من (س).

(٥) رواه الروياني في مسنده (١٤٤٩)، وفيه سعيد بن سلام العطار، وهو منكر الحديث جدًا.

التدبير إفشاءَ ذلك قبلَ تمامِه، فإنّه إذا ظهرَ بطَلَ ما يُرادُ أن يُفعَل، ولا عذرَ لمَن أفشى هذا النوع، وقد كان النبيُّ ﷺ إذا أراد سفرًا ورّى بغيره[1].

فإن قال قائل: إنّما[2] أُحدِّثُ، قيل له: وكُلُّ حديثٍ جاوزَ اثنينِ شائع، ورُبّما لم يكتُم صديقُك، وكم قد سمِعنا بمَن يُحدِّثُ من المُلوك بالقبضِ على صاحِب، فنمَّ الحديثَ إلى الصاحِبِ وهرَب، ففاتَ السُّلطانَ مُرادُه، وإنّما الرجلُ الحازِمُ الذي لا يتعدّاه سرُّه، ولا يُفشِيهِ إلى أحدٍ.

ومن العجزِ إفشاءُ السرِّ إلى الولدِ والزوجة، والمالُ من جُملةِ السرّ، فاطِّلاعُهم عليهِ إن كان كثيرًا فرُبّما تمنَّوا هلاكَ الموروُث، وإن كان قليلًا تبرَّموا بوجودِه، ورُبّما طلبوا مِن الكثيرِ على مِقدارِ كثرتِه، فأتلفتهُ النفقات.

وسترُ المصائبِ مِن جُملةِ كِتمانِ السرّ؛ لأنّ إظهارَها يسُرُّ الشامِتَ ويُؤلِمُ المُحبّ. وكذلك ينبغي أن يكتُمَ مِقدارَ السِّنّ؛ لأنّه إنّ كان كبيرًا استهرمُوهُ، وإن كان صغيرًا احتقرُوه.

ومِمّا قدِ انهالَ فيهِ كثيرٌ مِن المفرِّطين أنّهُم يَذكُرون بين أصدقائهم أميرًا أو سُلطانًا، فيقُولُون فيه، فيبلغُ ذلك إليه، فيكُونُ سببَ الهلاك، ورُبّما رأى الرجلُ من صديقِه إخلاصًا وافيًا، فأشاعَ سِرَّه إليه، وقد قيل[3]: [مجزوء الكامل]

احــذَرْ عَــدُوَّكَ مَــرَّةً ... واحــذَرْ صَدِيقَكَ ألفَ مَرَّهْ
فلَرُبَّمــا انقلَــبَ الصَّدِيــ ... ــقُ فــكانَ أدرى بالمَضَرَّهْ

ورُبَّ مُفشٍ سِرَّه إلى زوجةٍ أو صديق، فيصيرُ بذلك رهينًا عِنده، ولا

---

(١) البخاري (٢٩٤٧) من حديث عبد الله بن كعب رضي الله عنه.

(٢) سقطت من (س).

(٣) تقدم في الفصل ١١٢.

يتجاسرُ أن يُطلِّقَ الزوجة، ولا أن يهجُرَ الصديق، مخافةَ أن يَظهَرَ سِرُّهُ القبيح، فالحازِمُ مَن عاملَ الناسَ بالظاهِر، فيضيقُ سرُّه في صدرِه، فإن فارَقَتهُ امرأةٌ أو صديقٌ أو خادمٌ لم يقدِرْ أحدٌ مِنهُم أن يقُولَ فيهِ ما يكرهُ.

ومِن أعظمِ الأسرارِ الخَلَواتُ، فلينظرِ الحازِمُ فيها، وليحذرِ مِن الانبساطِ بمرأًى مِن مخلُوق، ومَن خُلِقَ له عقلٌ ثاقِبٌ دلَّه على الصوابِ قبل الوصايا.

٣١٥- فَصْلٌ
[طريقةُ الحفظ]

ما رأيتُ أصعبَ على النفسِ مِن الحِفظِ للعِلمِ والتَّكرار، وخُصُوصًا تكرارَ ما ليس لها في نفسِ تكرارِهِ حظٌّ، مِثلَ مسائلِ الخلاف، بخلافِ الشعرِ والسَّجع، فإنّ لها لذّةً في إعادتِهِ وإن كان يصعُب؛ لأنّها تلتذُّ بهِ مرّةً ومرّتين، فإذا زاد التَّكرارُ صعُب عليها، ولكِن دُون صُعُوبةِ الفِقهِ وغيرِهِ مِن المُستحسَناتِ عند الطبع، فتراها تخلُدُ إلى الحديثِ والشعرِ والتصانيفِ والنَّسخ؛ لأنّه يمرُّ بها كُلَّ لحظةٍ ما لم ترَه، فهو في المعنى كالماءِ الجاري؛ لأنّه يمرُّ بها جزءٌ بعد جُزء، وكذا مَن ينسخُ ما يُحِبُّ أن يسمعَهُ، أو يُصنِّف، فإنّه يلتذُّ بالجِدّةِ ويستريحُ مَن تعبِ الإعادة.

إلا أنّه ينبغي للعاقِلِ أن يكُونَ جُلُّ زمانِه للإعادة، خُصوصًا الصبيَّ والشابّ، فإنّه يستقِرُّ المحفوظُ عِندهما استقرارًا لا يزُول، ويجعلَ أوقاتَ التعبِ مِن الإعادةِ للنَّسخ، ويحذرَ مِن تفلُّتها إلى النَّسخِ عن الإعادة فيقهرَها، فإنّه يحمدُ ذلك حمدَ السُّرى وقتَ الصباح، وسيندمُ مَن لم يحفظْ ندمَ الكُسَعِيِّ[1] وقتَ الحاجةِ إلى النظرِ والفتوى.

---

(١) الكسعيُّ هو رجل يُضرَب به المثل في شدة الندم، حتى قيل: «أندم من الكسعيّ»، وقصته في =

وفـي الحفظ نُكتةٌ ينبغي أن تُلحَـظَ، وهو أنّ الفقيهَ يحفظُ الدرسَ ويُعيدُه، ثُـمّ يترُكُـهُ فينسـاه، فيحتاجُ إلـى زمانٍ آخرَ لحفظِـه، فينبغي أن يُحكِـمَ الحِفظ، ويُكثِرَ التَّكرار، ليُثبِّتَ قاعِدةَ الحِفظ.

٣١٦- فَصْلٌ

[عُزلة العالم والزاهد]

ما أعرِفُ نفعًا كالعُزلةِ عن الخَلق، خُصُوصًا للعالِمِ والزاهِدِ، فإنّك لا تكادُ تـرى إلا شـامتًا بنَكبة، أو حسُـودًا على نِعمـة، ومَن يأخُذُ عليـكَ غلطاتِك، فيا لَلعُزلـةِ ما ألذَّها! سـلِمَت مِن كَـدَرِ غِيبة، وآفاتِ تصنُّع، وأحـوالِ المُداجاة[١]، وتضييعِ الوقت، ثُمّ خلا فيها القلبُ بالفِكرِ؛ لأنّه مُسـتلِذٌّ عنهُ بالمُخالَطة، فدبَّر أمرَ دُنياه وآخرتِه، فمَثَلُهُ كمَثَلِ الحِمية، يخْلُو فيها المِعى بالأخلاطِ فيُذيبُها.

وما رأيتُ مِثلَ ما يصنعُ المُخالِط؛ لأنّه يرى حالتَه الحاضِرة مِن لقاءِ الناسِ وكلامِهِـم، فيشـتغلُ بها عمّا بين يدَيـه، فمَثَلُه كمَثَلِ رجُلٍ يُريدُ سـفرًا قد أزِفَ، فجالَـسَ أقوامًـا، فشـغلوه بالحديث حتّى ضُرِبَ البُوقُ وما تـزوَّد. فلو لـم يكُن في العُزلة إلا التفكُّرُ في زادِ الرحيلِ والسـلامةُ مِن شـرِّ المُخالَطة، كفى، ثُمّ لا عُزلـة على الحقيقة إلا للعالِـم والزاهِد؛ فإنّهما يعلمانِ مقصُودَ العُزلةِ وإن كانا لا في عُزلة.

وأمّا العالِمُ فعِلمُه مُؤنِسُـه، وكتبُه مُحدِّثُه، والنظرُ في سِـيَرِ السلفِ مُقوِّمُه، والتفكُّرُ في حوادثِ الزمانِ السابق[٢] فُرجتُه، فإن ترقَّى بعِلمِهِ إلى مقامِ المعرِفة

= مجمع الأمثال (٢: ٣٤٨).

(١) المُداجاة: المُداراة.

(٢) سقطت من (ك، س).

الكاملةِ للخالِقِ سُبحانه، وتشبَّثَ بأذيالِ محبّتِه، تضاعفَت لذّاتُه، واشتغلَ بها عن الأكوانِ وما فيها، فخلا بحبيبِه، وعملَ معهُ بمُقتضى علمِه.

وكذلك الزاهِدُ تعبُّدُه أنيسُه، ومعبودُه جليسُه، فإن كُشِفَ لبصرِه عنِ المعمُولِ معهُ غابَ عنِ الخَلق، وغابوا عنه.

إنّما اعتزلا ما يُؤذي، فهُما في الوَحدةِ بين جماعة، فهذانِ رجلانِ قد سلِما مِن شرِّ الخلق، وسلِمَ الخلقُ مِن شُرورِهما، بل هُما قدوةٌ للمُتعبِّدين، وعَلَمٌ للسالكين، ينتفعُ بكلامِهما السامِع، وتُحرِّكُ موعِظتُهما المَدامع، وتنتشرُ هيبتُهما في المَجامع، فمَن أراد أن يتشبَّه بأحدِهما فليُصابرِ الخَلوةَ وإن كرهَها، ليُثمِرَ له الصبرُ العسلَ.

وأعوذُ بالله مِن عالِمٍ مُخالِطٍ للعالَم، خُصوصًا لأربابِ المالِ والسلاطين، يَجتلِبُ ويُجتلَبُ ويُختلَبُ[1]، فما يحصُلُ له شيءٌ مِن الدنيا إلا وقد ذهبَ من دينه أمثالُه، ثُمّ أين الأنَفةُ مِن الذُّلِّ للفُسّاق؟!

فالذي لا يُبالي بذلك هو الذي لا يذُوقُ طعمَ العِلم، ولا يدري ما المُرادُ به، وكأنّه بهِ وقد وقعَ في باديةِ حرصٍ وقفرِ أملٍ مُهلِكٍ في تلك البراريّ.

وكذلك المُتزهِّدُ إذا خالطَ وخلَّط، فإنّه يخرُجُ إلى الرياءِ والتصنُّعِ والنِّفاق، فيفُوتُهُ الحظّانِ، لا الدنيا ونعيمُها تحصُلُ له، ولا الآخِرة. فنسألُ الله عز وجل خلوةً حُلوةً، وعُزلةً عن الشرِّ لذّةً، يستصلِحُنا فيها لمُناجاتِه، ويُلهِمُ كُلًّا منّا طلبَ نجاتِه، إنّه قريبٌ مجيب.

---

(١) في (ي): «يجتلب ويحتلب ويختلب»، ويُختلب: يُخادع.

٣١٧- فَصْلٌ
[التزوُّد للآخرة]

ما أبلهَ مَن لا يعلمُ متى يأتيهِ الموت، وهو لا يستعِدُّ للقائه! وأشدُّ الناس بلهًا وتغفيلًا مَن قد عبرَ السِّتّين وقاربَ السبعين، فإنّ ما بينهُما هو مُعترَكُ المنايا، ومَن نازلَ المُعترَكَ استعدَّ، وهو غافلٌ عن الاستِعداد. [الكامل]

قالَ الشَّبابُ: لَعلَّنا في شَيبِنا ... نَدَعُ الذُّنُوبَ فما يَقُولُ الأشيَبُ؟!

والله إنّ الضحِكَ مِن الشيخِ ما له معنًى، وإنّ المِزاحَ مِنهُ باردُ المعنى، وإنّ تعرُّضَه بالدنيا ـ وقد دفعَته عنها ـ يُضعِفُ القُوى ويُضعِفُ الرأي.

وهل بقيَ لابنِ ستّين منزِلٌ؟! فإن طمعَ في السبعين، فإنّما يرتقي إليها بعناءٍ شديد، إن قام دفعَ الأرض، وإن مشى لهثَ، وإن قعدَ تنفَّس، ويرى شهواتِ الدنيا ولا يقدِرُ على تناوُلِها، فإن أكلَ كدَّ المعِدة، وصعُب الهضم، وإن وطِئ آذى المرأة، ووقعَ دَنِفًا[١] لا يقدرُ على ردِّ[٢] ما ذهبَ مِن القُوّةِ إلى مُدّةٍ طويلة، فهُو يعيشُ عيشَ الأسير، فإن طمِع في الثمانين، فهُو يزحفُ إليها زحفَ الصغير. [المتقارب]

وعَشرُ الثمانِينَ مَن خاضَها ... فإنّ المُلِمّاتِ[٣] فيها فُنُونُ

فالعاقلُ مَن فهِمَ مقاديرَ الزمان، فإنّه فيما قيل قبلَ البُلُوغ صبيٌّ ليس على عُمرِه عِيار[٤]، إلا أن[٥] يُرزَقَ فِطنة، ففي بعضِ الصِّبيانِ فطنةٌ تحثُّهُم مِن الصِّغر

---

(١) دَنِفًا: مريضًا.
(٢) سقطت من (م).
(٣) في (ك، ح، س، ص، م): «المسلمات».
(٤) أي: لا يُوزَن عليه عمل.
(٥) سقطت من (س).

على اكتسابِ المكارمِ والعُلُوم، فإذا بلغَ فليعلَم أنّه زمانُ المُجاهدةِ للهوى وتعلُّمِ العِلـم، فـإذا رُزِقَ الأولادَ فهُـو زمانُ الكسـبِ للمُعاملة، فإذا بلـغَ الأربعين انتهى تمامُه، وقضى مناسِكَ الأجل، ولـم يبقَ إلا الانحِدارُ إلى الوطن. [الطويل]

كأنّ الفَتَــى يَرقَى مِن العُمرِ مَعلَمًا إلى أنْ يَجُوزَ الأربَعِينَ ويَنحَطُّ[1]

فينبغـي له عند تمامِ الأربعين أن يجعلَ جُـلَّ هِمّتِه التزوُّدَ للآخِرة، ويكُونَ كُلُّ تلمُّحِه لما بين يدَيه، ويأخذَ في الاستِعدادِ للرحيل، وإن كان الخطابُ بهذا لابنِ عِشرين، إلا أنّ رجاءَ التدارُكِ في حقِّ الصغيرِ لا في حقِّ الكبير.

فإذا بلغَ الستينَ فقد أعذرَ الله إليهِ فـي الأجل[2]، وجاز مِن الزمن، فليُقبل بكُلّيتِه إلى جمعِ زادِه، وليُهيِّئ آلاتِ السفرِ، وليعتقدَ كُلَّ يوم يحيا فيهِ لغنيمةٍ ما هي في الحِساب، خُصُوصًا إذا قويَ عليهِ الضعفُ وزاد فإنّه لا محرِّك كهو.

وكُلّمـا عَلَتْ سِـنُّه فينبغـي أن يزيدَ اجتِهـادُه، فإذا دخلَ في عشـرِ الثمانين فليـس إلا الـوداع، ومـا بقيَ بمكّـةِ العُمرِ إلا أسـفٌ على تفريـط، أو تعبُّدٌ على ضعف. نسألُ الله عز وجل يقظةً تامّةً تصرِفُ عنّا رُقادَ الغفلات، وعملًا صالِحًا نأمنُ معهُ مِن الندم يومَ الانتقال، والله المُوفِّق.



(١) ديوان ابن أبي حصينة (ص١٠).

(٢) روى البخاري (٦٠٥٦) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «أعذرَ الله إلى امرئ أخَّر أجلَه حتى بلَّغه ستين سنة».

٣١٨- فصل

[الخوض في علم الكلام]

ما نهى السلفُ عنِ الخوضِ في الكلامِ إلا لأمرٍ عظيمٍ، وهو أنّ الإنسانَ يُريدُ أن ينظُرَ ما لا يقوى[1] عليهِ بصرُه، فرُبّما تحيَّر فخرجَ إلى الحُجُبِ؛ لأنّا إذا نظَرنا في ذاتِ الخالِق حارَ العقلُ وبُهِتَ الحِسّ؛ لأنّه لا يَعرِفُ شيئًا لا بدايةَ له، لا يَعلَمُ إلا الجسمَ والجوهرَ والعَرَض، فإثباتُ ما يخرُجُ عن ذلك لا يفهمُه. وإن نظَرنا في أفعالِه رأيناه يُحكِمُ البناءَ ثُمّ ينقُضُ، ولا نطَّلعُ على تِلك الحِكمة. فالأَولى للعاقِلِ أن يكُفَّ كفَّ التطلُّعِ إلى ما لا يُطِيقُ النظرَ إليه.

ومتى قام العقلُ، فنظرَ في دليلِ وُجُودِ الخالِقِ بمصنوعاتِه، وأجاز بعثةَ نبيّ، واستدلَّ بمُعجِزاتِه، كفاهُ ذلك أن يتعرَّضَ لِما قد أُغنِيَ عنه، وإذا قال: القُرآنُ كلامُ الله تعالى، بدليل قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، كفاه[2]، وأمّا مَن تَحَذلَقَ فقال: التلاوةُ هي المتلوُّ أو غيرُ المتلوّ، والقراءةُ هي المقروءُ أو غيرُ المقروء، فيُضِيعُ الزمانَ في غيرِ تحصيل، والمقصُودُ العملُ بما فهِم.

وقد حُكِيَ أنّ مَلِكًا كتبَ إلى عُمّالِه في البُلدان: إنّي قادِمٌ عليكُم، فاعملُوا كذا وكذا، ففعلُوا إلا واحِدًا مِنهُم، فإنّه قعدَ يتفكَّرُ في الكتاب، فيقول: أتُرى كتبَه بِمِدادٍ أو بحِبر؟ أتُرى كتبَه قائمًا أو قاعِدًا؟ فما زال يتفكَّرُ حتّى قدِمَ المِلكُ ولم يعملْ مِمّا أمره بِهِ شيئًا، فأحسنَ جوائزَ الكُلّ، وقتلَ هذا.



(١) في (س): «ينظر إلى ما يقوى».

(٢) سقطت من (ح، ص).

٣١٩- فَصْلٌ
[شرفُ لذة العلم]

لقد غفلَ طُلّابُ الدنيا عن اللذّةِ فيها، واللذّةُ فيها شرفُ العِلم، وزهوةُ العِفّة، وأَنَفةُ الحميّة، وعِزُّ القناعة، وحلاوةُ الإفضالِ على الخلق.

فأمّا الالتذاذُ بالمَطعمِ والمَنكحِ فشُغلُ جاهِلٍ باللذّة؛ لأنّ ذاك لا يُرادُ لنفسِه، بل لإقامةِ العِوَضِ في البدنِ والولد، وأيُّ لذّةٍ في النّكاح، وهي قبل المُباشرةِ لا تحصُل، وفي حال المُباشرةِ قلقٌ لا يثبُتُ [و][1]عند انقِضائها كأن لم يكُن، ثُمّ يُثمِرُ الضعفَ في البدن؟! وأيُّ لذّةٍ في جمعِ المالِ فضلًا عن الحاجةِ؟ فإنّه مُستعبِدٌ للخازِن، يبيتُ حذِرًا عليه، ويدعُوه قليلُه إلى كثيرِه. وأيُّ لذّةٍ في المَطعم، وعِند الجُوعِ يستوي خشِنُهُ وحسنُه، فإنِ ازداد الأكلُ خاطرَ بنفسِه؟!

قال عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه: «بُنِيَتِ الفتنةُ على ثلاث: النِّساء وهُنّ فخُّ إبليسَ المنصُوب، والشرابُ وهو سيفُهُ المُرهَف، والدينارُ والدرهمُ وهُما سهماهُ المسمُومان». فمَن مالَ إلى النِّساءِ لم يصفُ له عيش، ومَن أحبَّ الشرابَ لم يُمتَّعْ بعقلِه، ومَن أحبَّ الدينارَ والدرهمَ كان عبدًا لهما ما عاش[2].

٣٢٠- فَصْلٌ
[الردُّ على المُجسِّمة والفلاسفة]

أصلُ كُلِّ مِحنةٍ في العقائدِ قياسُ أمرِ الخالِقِ على أحوالِ الخلقِ، فإنّ الفلاسفةَ لمّا رأوا إيجادَ شيءٍ لا مِن شيءٍ كالمُستحيلِ في العادات، قالُوا بقِدَمِ العالَم، ولمّا عظُم عِندهم في العادةِ الإحاطةُ بكُلِّ شيء، قالُوا: إنّه يعلمُ الجُمَلَ

---

(١) زيادة من المحقق ليستقيم السياق.

(٢) ذكره ابن عقيل في كتاب الفنون (٦٣).

لا التفاصيـل، ولمّـا رأوا تلفَ الأبـدانِ بالبِلى أنكرُوا إعادتَهـا، وقالُوا: الإعادةُ رُجُوعُ الأرواحِ إلى معادِنِها!

وكلُّ مَن قاسَ صِفةَ الخالِقِ على صفاتِ المخلوقِين خرجَ إلى الكُفر، فإنّ المُجسِّمةَ دخلُوا في ذلك؛ لأنّهم حملُوا أوصافهُ على ما يعقِلُون(١).

وكذلك تدبيرُه عز وجل، فإنّ مَن(٢) حملَه على ما يُعقَلُ في العادات، رأى ذبحَ الحيوانِ لا يُستحسَـن، والأمراضَ تُستقبَح، وقِسـمةَ الغِنى للأبلهِ، والفقرِ للجَلَدِ العاقِل، أمرًا يُنافي الحِكمة، وهذا في الأوضاع بين الخلق، فأمّا الخالِقُ سُـبحانه فـإنّ العقـلَ لا ينتهي إلـى حكمتِه، بلى قد ثبـتَ عِندَه وجـودُه وملكُه وحكمتُه، فتعرُّضُه بالتفاصيل على ما تجري بِهِ عاداتُ الخلقِ جهلٌ.

ألا تـرى إلـى أوّلِ المُعترِضيـن ـ وهو إبليسُ ـ كيف ناظرَ فقـال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٌ مِّنۡهُ﴾ [الأعراف: ١٢]، وقولِ خليفتِه ـ وهو أبو العلاءِ المَعرِّي ـ(٣): [الطويل]

.... رأى مِنكَ ما لا يَشتَهي فتَزَندَقا

ونسـألُ الله عـز وجـل توفيقًـا للتسـليم، وتسـليمًا للحكيـم، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا﴾ [آل عمران: ٨]. أتُـرى نقـدِرُ علـى تعليلِ أفعالِه، فضلًا عن مُطالعـةِ ذاتِـه؟! وكيف نقيسُ أمـرَهُ على أحوالِنا؟! فإنّا إذا رأينا نبيَّنا ﷺ يسـألُ في أُمّه(٤) وعمّه(٥)، فلا يُقبَلُ مِنه، ويتقلَّبُ جائعًا(٦)، والدُّنيا مِلكُ سيِّدِه، ويُقتَلُ

---

(١) في (ك، س، م): «يفعلون». (٢) عن (د).

(٣) معجم الأدباء (١: ٣٣٨)، وصدره:

فلا ذَنبَ يَا رَبَّ السَّـماءِ عَلى امرِئٍ ....

(٤) مسلم (٩٧٦) بمعناه، والمراد من السؤال هنا الاستغفار.

(٥) البخاري (١٣٦٠) بمعناه. (٦) مسلم (٢٩٧٧) بمعناه.

أصحابُه[١]، والنصرُ بيدِ خالِقِه، أوَليس هذا مِمّا يُحيِّر؟! فما لنا والاعتِراضِ على مالكٍ قد ثَبَتت حِكمتُه، واستقرَّ ملكُه[٢]؟

٣٢١- فَصْلٌ
[ثمنُ العلياء]

تأمَّلتُ عجبًا، وهو أنّ كُلَّ شيءٍ نفيسٍ خطيرٍ يطُولُ طريقُهُ ويكثُرُ التعبُ في تحصيلِهِ، فإنّ العِلمَ لمّا كان أشرفَ الأشياءِ لم يُحصَّلْ إلا بالتعبِ والسهرِ والتَّكرارِ وهجرِ اللذّاتِ والراحة، حتّى قال بعضُ الفُقهاء: «بقيتُ سِنين أشتهِي الهريسة، لا أقدِر؛ لأنّ وقتَ بيعِها وقتُ سماعِ الدرس»[٣]!

ونحوُ هذا تحصيلُ المال، فإنّه يحتاجُ إلى المُخاطَراتِ والأسفارِ والتعبِ الكثير، وكذلك نَيلُ الشرفِ بالكرمِ والجُود، فإنّه يفتقرُ إلى جِهادِ النفسِ في بذلِ المحبوب، ورُبّما آلَ إلى الفقر، وكذلك الشجاعة، فإنّها لا تحصُلُ إلا بالمُخاطَرةِ بالنفس. [البسيط]

لَولا المَشَقّةُ سادَ الناسُ كُلُّهُمُ ... الجُودُ يُفقِرُ والإقدامُ قَتّالُ[٤]

ومن هذا الفنِّ تحصيلُ الثوابِ في الآخِرة، فإنّه يزيدُ على قدرِ قُوّةِ الاجتِهاد والتعبُّد، أو على قدرِ وقعِ[٥] المبذُولِ مِن المالِ في النفس، أو على قدرِ الصبرِ على فقدِ المحبوبِ ومنعِ النفسِ مِن الجزع، وكذلك الزُّهدُ يحتاجُ إلى صبرٍ عنِ الهوى، والعفافُ لا يَكُونُ إلا بكفِّ كفِّ الشَّرَه.

---

(١) البخاري (٤٠٧٨) بمعناه. (٢) زاد في (ح): «في الدارين».
(٣) هو أبو الفضل عيسى بن موسى الهاشمي كما ذكر الخطيب في تاريخه (١٢: ٥١٣).
(٤) ديوان المتنبي (ص٤٩٠). (٥) سقطت من (ك، س، م).

ولولا ما عانى يُوسُفُ عليه السلام ما قيل له: ﴿أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ [يوسف:٤٦].

ولله أقـوامٌ مـا رضُـوا مِن الفضائلِ إلا بتحصيـلِ جميعِها، فهـم يُبالِغُون في كُلِّ عِلم، ويجتهدون في كُلِّ عمل، ويُثابِرُون على كُلِّ فضيلة، فإذا ضعُفتْ أبدانُهم عن بعضِ ذلك قامتِ النيّاتُ نائبةً وهم لها سابِقُون، وأكملُ أحوالِهم إعراضُهم عـن أعمالِهم، فهـم يحتقِرُونها مع التمـامِ ويعتذرون من التقصيـر، ومِنهم مَن يزيدُ على هذا، فيتشاغلُ بالشكرِ على التوفيقِ لذلك، وهم مَن لا يرى ما عمِلَ أصلًا؛ لأنّه يرى نفسَه وعملَهُ لسيِّدِه.

وبالعكـسِ مِـن المذكُورِ عن أربـابِ الاجتِهادِ حالُ أهلِ الكسـلِ والشَّـرَهِ والشـهوات، فلئنِ الْتَذُّوا بعاجِلِ الراحةِ لقد أوجبَت ما يزيدُ على كُلِّ تعبٍ مِن الأسفِ والحسرة، ومَن تلمَّحَ صبرَ يُوسُفَ عليه السلام وعَجَلةَ ماعِزٍ[1] بانَ له الفـرقُ وفهِمَ الرِّبحَ مِن الخُسـرانِ، ولقد تأمَّلتُ نَيـلَ الدُّرِّ في البحر، فرأيتُه بعد مُعاناةِ الشدائد.

ومَن تفكَّر فيما ذكرتُه مثلًا بانَت له أمثال، فالمُوفَّقُ مَن تلمَّحَ قِصَرَ الموسِمِ المعمُـولِ فيـه، وامتـدادَ زمـانِ الجـزاءِ الذي لا آخِـرَ له، انتهبَ حتّـى اللحظة، وزاحمَ كُلَّ فضيلة، فإنّها إذا فاتَت فلا وجهَ لاسـتدراكِها، أوَليس في الحديث: «يُقـال للرجُـل: اقـرأ وارقَ، فمنزِلُكَ عند آخرِ آيـةٍ تقرؤُها»؟[2]. فلـو أنّ الفِكرَ عملَ في هذا حقَّ العملِ حفِظَ القُرآن عاجِلًا.



(١) بمعناه البخاري (٦٨٢٤).
(٢) تقدم في الفصل ١٧٥.

٣٢٢- فَصْلٌ
[التسليمُ كمال الإيمان]

ليس المُؤمِنُ بالذي يُؤدِّي فرائضَ العِباداتِ صُورةً ويجتنبُ المحظُوراتِ فحسبُ، إنّما المُؤمِنُ الكامِلُ الإيمانِ مَن لا يختلِجُ في قلبِهِ اعتِراض، ولا يُساكِنُ نفسَهُ[1] فيما يجري وسوسة، وكُلَّما اشتدَّ البلاءُ عليهِ زاد إيمانُهُ وقويَ تسليمُه.

وقد يدعُو فلا يرى للإجابةِ أثرًا، وسِرُّهُ لا يتغيَّر؛ لأنّه يَعلمُ أنّه مملُوك، وله مالكٌ يتصرَّفُ بمقتضى إرادتِه، فإنِ اختلجَ في قلبِهِ اعتِراضٌ خرجَ مِن مقامِ العُبُوديةِ إلى مقامِ المُناظَرةِ كما جرى لإبليس، والإيمانُ القويُّ يَبينُ أثرُه عند قُوّة البلاء.

فأمّا إذا رأينا مِثلَ يحيى بنِ زكريا عليه السلام، تسلَّطَ عليهِ فاجر، فيأمرُ بذبحِه، فيُذبَح، ورُبّما اختلجَ في الطبعِ أن يقول: فهلّا ردَّ عنهُ مَن جعلهُ نبيًّا! وكذلك كُلُّ تسلُّطٍ مِن الكُفّارِ على الأنبياءِ والمُؤمِنين، وما وقعَ ردٌّ عنهم!

فإن هجَسَ بالفكرِ، أنّ القُدرةَ تعجزُ عن الردِّ عنهم، كان كُفرًا، وإن علِمَ أنّ القُدرةَ مُتمكِّنةٌ مِن الردِّ وما ردَّت، ويَجُوعُ المُؤمِنون، ويَشبَعُ الكُفّار، ويُعافى العُصاة، ويَمرَضُ المُتّقون؛ لم يبقَ إلا التسليمُ للمالِك، وإن أمضَّ وأرمضَ[2].

وقد ذهبَ يُوسُفُ من يعقوبَ عليهما السلام، فبكى ثمانين سنةً[3]، ثُمّ[4] لم ييئَسْ، فقال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف: ٨٣].

---

(١) سقطت من (ص، د، م).

(٢) أمضَّ: أوجع، وأرمضَ: أحرق.

(٣) تقدم في الفصل ١٣٥.

(٤) سقطت من (ك، س).

وقد دعا مُوسى عليه السلام على فِرعونَ، فأُجيبَ بعد أربعين سنة[(١)]، وكان يذبَحُ الأبناء، ولا ترُدُّه القُدرةُ القديمةُ العظيمة، وصلَبَ السَّحَرة، وقطَّع أيديَهم.

وكم من بليّةٍ نزلَت بمُعظَّمِ القَدْر، فما زادهُ ذلك إلا تسليمًا ورِضًا، فهُناك يَبينُ معنى قولِه: ﴿وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾ [البينة: ٨]، وهاهُنا يظهرُ قَدْرُ قُوّةِ الإيمان، لا[(٢)] في ركعات؛ قال الحسنُ البصريُّ: «استوى الناسُ في العافية، فإذا نزلَ البلاءُ تباينُوا»[(٣)].

٣٢٣- فَصْلٌ
[الردُّ على علماء الكلام]

أضرُّ ما على العوامِّ المُتكلِّمُون؛ فإنّهم يَخبِطون عقائدَهُم بما يسمعُونهُ مِنهم، ومِن أقبحِ الأشياءِ أن يحضُرَ العامّيُّ الذي لا يَعرِفُ أركانَ الصلاةِ ولا الربا في البيع مجلِسَ الوعظ، فلا ينهاهُ عنِ التواني في الصلاة، ولا يُعلِّمُهُ الخلاصَ مِن الربا، بل يقولُ له: القُرآنُ قائمٌ بالذّات، والذي عِندنا مخلُوقٌ! فيهونُ القُرآنُ عند ذلك العامّيّ، فيحلِفُ بِهِ على الكذِب.

ويحَ المُتكلِّم! لو كان له فهمٌ لَعلِمَ أنّ الله سبحانه وتعالى نصبَ أعلامًا تأنَسُ بها النفُوسُ وتطمئنُّ إليها، كالكعبةِ وسمّاها بيتَه، والعرشِ وذكرَ استواءَه عليهِ، وذكرَ من صفاته: اليدَ، والسمعَ، والبصرَ، والعينَ، وينزِلُ إلى السماءِ الدنيا، ويضحكُ، وكُلُّ هذا لتأنَسَ النفُوسُ[(٤)] بالعادات، وقد جَلَّ عمّا تضمَّنتهُ هذه الصِّفاتُ مِن الجوارِح.

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (١٢: ٢٧٣).
(٢) عن (د).
(٣) تقدم في الفصل ٨٧.
(٤) سقطت من (ح، ص).

وكذلك عظَّمَ أمرَ القُرآن، ونهى المُحدِثَ أن يمسَّ المُصحف، فآلَ الأمرُ بقومٍ مِن المُتكلِّمين إلى أن أجازُوا الاستنجاءَ به(١)، فهؤُلاءِ على مُعاندةِ الشريعة؛ لأنّهم يُهينُون ما عظَّم الشرعُ، وهل الإيغالُ(٢) في الكلامِ مِمّا يُقرِّبُ إلى معرفةِ الحقائقِ التي لا يُمكنُ خِلافُها؟! هيهات، لو كان كذلك ما وقعَ بين المُتكلِّمين خلافٌ.

أوَليس الشَّربُ الأوّلُ ما تكلَّمُوا في شيءٍ مِن هذا، وإن كانُوا تعرَّضوا ببعضِ الأُصُول؟ ثُمّ جاء فُقهاءُ الأمصارِ فنهَوا عنِ الخوضِ في الكلام، لعِلمِهم ما يُجلَبُ وما يُجتنَب(٣)، ومَن لم يقنعْ بعقيدةٍ مِثلِ عقيدةِ الصحابة، ولا بطريقٍ مِثلِ طريقِ أحمدَ والشافِعيِّ في تركِ الخوض، فلا كان مَن كان.

ثُمّ بالله تأمَّلُوا، أليس قد وجبَ علينا هجرُ الرِّبا بقولِه تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾ [آل عمران: ١٣٠]، وهجرُ الزِّنا بقولِه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٣٢]؟ فأيُّ فائدةٍ لنا في ذكرِ قراءةٍ ومقروء، وتلاوةٍ ومتلوّ، وقديمٍ ومُحدَث؟!

فإن قيل: «فلا بُدَّ مِن اعتِقادٍ»، قُلنا: طريقُ السلفِ أوضحُ مَحجّة؛ لأنّا لا نقُولُه تقليدًا بل بالدليل، ولكِنّا لم نستفِدهُ عن جوهرٍ وعَرَضٍ وجُزءٍ لا يتجزَّأ، بل بأدلّةِ النقل، مع مُساعدةِ العقل، من غيرِ بحثٍ عمّا لا يُحتاجُ إليه، وليس هذا مكانَ الشرح.



---

(١) في (ك، س، م، ح، ص): «الاستجابة»، والمثبت عن (د).

(٢) الإيغال في الشيء: التعمُّق والإمعان.

(٣) «وما يجتنب» عن (س).

٣٢٤- فَصْلٌ

[حقيقةُ الموت]

ما زِلتُ على عادةِ الخلقِ في الحُزنِ على مَن يمُوتُ مِن الأهلِ والأولاد، ولا أتخايلُ إلا بِلى الأبدانِ في القُبُور، فأحزنُ لذلك، فمرَّتْ بي أحاديثُ قد كانت تمرُّ بي ولا أتفكَّر فيها، منها قولُ النبيِّ ﷺ: «إنّما نفسُ المُؤمِنِ طائرٌ تعلُقُ في شجرِ الجنّةِ حتّى يردَّهُ الله عز وجل إلى جسدِهِ يومَ يبعثُه»[1]، فرأيتُ أنّ الرحيل[2] إلى الراحة، وأنّ هذا البدنَ ليس بشيء؛ لأنّه مَركَبٌ تفكَّكَ وفسد، وسيُبنى جديدًا يومَ البعث، فلا ينبغي أن يُتفكَّرَ في بِلاه، ولتسكُنَ النفسُ إلى أنّ الأرواحَ انتقلَت إلى راحة، فلا يبقى كبيرُ حُزن، وأنّ اللقاءَ للأحبابِ عن قُرب.

وإنّما يبقى الأسفُ لتعلُّقِ الخلقِ بالصُّوَر، فلا يرى الإنسانُ إلا جسدًا مُستحسَنًا قد نُقِض، فيحزنُ لنقضِه، والجسدُ ليس هو الآدميَّ، وإنّما هو مَركَبُه، فالأرواحُ لا ينالُها البِلى، والأبدانُ ليست بشيء. واعتبِر هذا بما إذا قلعتَ ضِرسَكَ فرميتَه في حُفرة، فهل عِندك خبرٌ مِمّا[3] يلقى في مُدّةِ حياتِك؟ فحُكمُ البدنِ حُكمُ ذلك الضرس، لا تدري النفسُ ما يلقى.

ولا ينبغي أن تغتمَّ بتمزيقِ جسدِ المحبوبِ وبِلاه، واذكُر تنعُّمَ الأرواح، وقُربَ التجديد، وعجلَ اللقاءِ، والفكرُ في تحقيقِ هذا يُهوِّنُ الحُزنَ ويُسهِّلُ الأمر.



---

(١) تقدم في الفصل ٢١٠.

(٢) في (ك، ح، س، ص): «الرجل»، والمثبت عن (د).

(٣) في (ك، م): «ما»، وفي (س): «بما».

٣٢٥- فَصْلٌ
[حفظُ اللسان]

ينبغي للعاقلِ ألّا يتكلَّمَ في الخَلوةِ عن أحدٍ بشيءٍ حتّى يمثُلَ ذلك الشيءُ ظاهِرًا مُعلَنًا به، ثُمّ ينظُرَ فيما يجني، فرُبَّ رجُلٍ وثِقَ بصديق، فتكلَّم عن سُلطانٍ بأمرٍ فبلغهُ فأهلكَه، أو عن صديقٍ فبلغهُ فوقعتِ الواقِعة. وكذلك ينبغي كتمُ المذاهب، فإنّه ما يربحُ مُظهِرُها إلا بالمُعاداة، ولمّا صرَّحَ الشريفُ أبو جعفرٍ في زمانِ المُقتدي[1] بمُخالفةِ الأشاعِرة، أُخِذَ وحُبِسَ حتّى مات، وكان المقصودُ قطعَ الفِتَنِ وإصلاحَ الرعيّة، فإنّه أهمُّ إلى السُّلطانِ مِن التعصُّبِ لمذهبٍ.

٣٢٦- فَصْلٌ
[حكمةُ الأقدار]

رأيتُ كثيرًا مِن المُغفَّلين يظهرُ عليهم السُّخطُ بالأقدارِ، وفيهِم مَن قلَّ إيمانُه، فأخذَ يعترضُ، وفيهم مَن خرجَ إلى الكُفرِ ورأى أنّ ما يجري كالعبث، وقال: ما فائدةُ الإعدامِ بعد الإيجاد، والابتلاءِ مِمَّن هو غنيٌّ عن أذانا؟!

فقلتُ لبعضِ مَن كان يرمزُ إلى هذا: إنْ حضرَ عقلُك وقلبُك حدَّثتُك، وإن كُنتَ تتكلَّمُ بمُجرَّدِ واقعِك من غيرِ نظرٍ وإنصافٍ فالحديثُ معك ضائع، ويحَك! أحضِرْ عقلَك، واسمعْ ما أقول: أليس قد ثبتَ أنّ الحقَّ سُبحانه وتعالى مالك، وللمالكِ أن يتصرَّفَ كيف شاء؟! أليس قد ثبتَ أنّه حكيم، والحكيمُ

---

(١) المقتدي هو الخليفة العباسي المقتدي بالله، وأبو جعفر هو عبد الخالق بن أبي موسى عيسى الهاشمي، العباسي، الحنبلي، البغدادي، تُوفي سنة ٤٧٠هـ. سير أعلام النبلاء (١٨: ٥٤٦).

لا يعبث؟! وأنا أعلمُ أنّ في نفسِك مِن هذه الكلِمة شيئًا، فإنّه قد سمِعنا عن جالينُوسَ أنّه قال: ما أدري[١]: أحكيمٌ هو أم لا؟!

والسببُ في قولِه هذا أنّه رأى نقضًا بعد إحكام، فقاسَ الحالَ على أحوالِ الخلق، وهو أنّ مَن بنى ثُمّ نقضَ لا لمعنًى، فليس بحكيم.

وجوابُه لو كان حاضِرًا أن يُقال: بماذا بانَ لكَ أنّ النقضَ ليس بحِكمة؟ أليس بعقلكَ الذي وهبهُ الصانعُ لك؟ وكيف يهَبُ لك الذهنَ الكامِلَ ويفوتُه هو الكمال؟!

وهذه المحنةُ التي جرتْ لإبليس، فإنّه أخذَ يعيبُ الحِكمةَ بعقلِه، فلو تفكَّرَ علِمَ أنّ واهِبَ العقلِ أعلى من العقل، وأنّ حِكمتَه أوفى مِن كُلِّ حكيم؛ لأنّه بحكمتِهِ التامّةِ أنشأ العُقُول، فهذا إذا تأمَّلهُ المُنصِفُ زال عنهُ الشكّ.

وقد أشار سُبحانه إلى نحوِ هذا في قولِه تعالى: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ [الطور: ٣٩]؛ أي: جعلَ لنفسِهِ الناقِصاتِ وأعطاكُم الكامِلِين؟! فلم يبقَ إلا أن نُضيفَ العجزَ عن فهمِ ما يجري إلى أنفُسِنا، ونقول: هذا فعلُ عالِمٍ حكيم، ولكِن ما يَبِينُ لنا معناه. وليس هذا بعجب، فإنّ مُوسى عليه السلام خفيَ عليهِ وجهُ الحِكمةِ في نقضِ السفينةِ الصحيحة، وقتلِ الغُلامِ الجميل، فلمّا بيَّنَ له الخَضِرُ وجهَ الحِكمةِ أذعن، فلنكن مع الخالِقِ كمُوسى مع الخَضِر.

أوَلسنا نرى المائدةَ المُستحسَنةَ بما عليها مِن فُنونِ الطعامِ النظيفِ الظريفِ يُقطَعُ ويُمضَغُ، ولسنا نملكُ الأفعال[٢]، ولا يُنكَرُ الإفسادُ له؛ لِعلمِنا بالمصلحةِ

(١) سقط «ما أدري» من (ك، س).

(٢) قوله: «ولسنا نملك الأفعال» كذا في (س)، وبقية النسخ مضطربة.

الباطِنةِ فيه، فما المانِعُ أن يكُونَ فِعلُ الحقِّ سُبحانَه له باطنٌ لا نعلمُه؟!

ومِن أجهلِ الجُهّالِ العبدُ المملوكُ إذا طلبَ أن يطَّلِعَ على سِرِّ مولاه، فإنّ فرضَهُ التسليمُ لا الاعتراضُ، ولو لم يكُن في الابتلاء بما تُنكِرُه الطباعُ إلا أن يُقصَدَ إذعانُ العقلِ وتسليمُه، لكفى.

ولقد تأمَّلتُ حالةً عجيبة، يجُوزُ أن يكُونَ المقصُودُ بالموتِ هي[1]، وذاك أنّ الخالِقَ سُبحانه غيبٌ في غيب، لا يُدركُه الإحساسُ، فلو أنّه لم ينقُض هذه البِنية، لتخايَلَ للإنسانِ أنّه صُنِعَ لا بصانع، فإذا وقعَ الموتُ عرَفتِ النفسُ نفسَها التي كانت لا تعرِفُها، لكونها في الجسدِ وتُدرِكُ عجائبَ الأُمُورِ بعد رحيلِها، فإذا رُدَّت إلى البدنِ عرَفت ضرورةً أنّها مخلوقةٌ لمَن أعادها، وتذكَّرت حالَها في الدنيا، فإنّ الأفكارَ تُعادُ كما تُعادُ الأبدان، فيقولُ قائلُهم: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: ٢٦]، ومتى رأتْ ما قد وُعِدتْ بهِ مِن أمُورِ الآخِرة، أيقنتْ يقينًا لا شكَّ معه، ولا يحصُلُ هذا بإعادةِ ميِّتٍ سِواها، وإنّما يحصُلُ برُؤيةِ هذا الأمرِ فيها، فيُبنى بِنيةً تقبلُ البقاء، وتسكُنُ جنّةً لا ينقضي دوامُها، فيصلُحُ بذلك اليقينِ أن تُجاوِرَ الحقّ؛ لأنّها آمنتْ بما وعدَ، وصبرتْ بما ابتلى، وسلَّمتْ لأقدارِه، فلم تعترض، ورأتْ في غيرِها العِبَر، ثُمّ في نفسِها، فهذه هي التي يُقال لها: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى * وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٨-٣٠].

فأمّا الشاكُّ والكافِرُ فيحقُّ لهُما الدُّخولُ إلى النارِ واللُّبثُ فيها؛ لأنّهما رأيا الأدِلّةَ ولم يستفيدا، ونازعا الحكيمَ واعترضا عليه، فعاد شُؤمُ كُفرِهما بطمسِ

(١) سقطت من (ك، س).

قُلوبهمـا، فبقيـتْ على ما كانت عليه، فلمّـا لم تنتفِع بالدليلِ في الدنيا لم تنتفِع بالموتِ والإعادة، ودليلُ بقاءِ الخُبثِ في القُلُوبِ قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨].

فنسـألُ الله عـز وجـل عقلًا مُسـلِّمًا، يقِـفُ على حـدِّه، ولا يعتـرضُ على خالِقِـه، ثُـمّ الويلُ للمُعترِض، أيـردُّ اعتراضُه الأقدارَ؟ فما يسـتفيدُ إلا الخِزيَ، نعُوذُ بالله مِمَّن خُذِل.

٣٢٧- فَصْلٌ

[الصبرُ على البلاء]

لا ينبغـي للمُؤمِـنِ أن ينزعِجَ مِن مرض، أو نُزُولِ موت، وإن كان الطبعُ لا يُملَكُ إلا أنّه ينبغي له التصبُّرُ مهما أمكن، إمّا لطلبِ الأجرِ بما يُعاني، أو لبيانِ أثرِ الرِّضا بالقضاء، وما هي إلا لحظاتٌ ثُمّ تنقضي.

وليتفكَّـرِ المُعافى مِن المرضِ في السـاعاتِ التـي كان يقلقُ فيها: أين هي فـي زمـانِ العافيـة؟ ذهبَ البـلاءُ وحصلَ الثـواب، كما تذهبُ حـلاوةُ اللذّاتِ المُحرَّمـةِ ويبقى الوِزر، ويمضي زمانُ التسـخُّطِ بالأقدارِ ويبقى العِتاب، وهل الموتُ إلا آلامٌ تزيد، فتعجِزُ النفسُ عن حملِها، فتذهب؟!

فليتصوَّرِ المريضُ وُجُودَ الراحةِ بعد رحيلِ النفس، وقد هانَ ما يلقى، كما يتصوَّرُ العافيةَ بعد شُـربِ الشَّـربةِ[1] المُرَّة، ولا ينبغي أن يقعَ جَزَعٌ بذِكرِ البِلى، فـإنّ ذاك شـأنُ المَركَب، أمّا الراكِبُ[2] ففي الجنـةِ أو في النار، وإنّما ينبغي أن يقعَ الاهتمامُ الكُلّيُّ بما يزيدُ في درجاتِ الفضائلِ قبل نُزُولِ المُعوِّقِ عنها.

---

(١) الشَّربة: اسم لأنواع من السوائل تُشرَب للتَّداوي. (٢) المَركَب: الجسد، والراكب: الرُّوح.

فالسعيدُ مَن وُفِّقَ لاغتنام العافية، ثُمّ يختارُ تحصيلَ الأفضلِ فالأفضلِ في زمنِ الاغتنام، وليعلمْ أنّ زيادةَ المنازِلِ في الجنّةِ على قدرِ التزيُّدِ مِن الفضائلِ هاهُنا، والعُمرُ قصير، والفضائلُ كثيرة، فليبالِغْ في البِدار، فيا طُولَ راحةِ التعِب، ويا فرحةَ المغمُوم، ويا سُرورَ المحزُون، ومتى تخايَلَ دوامَ اللذّةِ في الجنّةِ مِن غيرِ مُنغِّصٍ ولا قاطِعٍ، هان عليهِ كُلُّ بلاءٍ وشِدّة.

٣٢٨- فَصْلٌ

[صلاحُ الدِّين بصلاح الدنيا]

حضَرنا يومًا جِنازةَ شابٍّ ماتَ أحسنَ ما كانتِ الدنيا له، فرأيتُ مِن ذمِّ الناسِ للدُّنيا، وعيبِ مَن يسكنُ إليها، والتقبيحِ للغافِلين عن الاستعدادِ لهذا المَصرَعِ أمرًا كبيرًا مِنَ الحاضِرين، فقُلتُ: نِعمَ ما قُلتُم! ولكِنِ اسمعُوا مِنّي ما لم تسمعُوه: أعجبُ الأشياءِ أنّ العاقِلَ إذا علِمَ قُربَ هذا المَصرَعِ مِنهُ، أوجبَ عليهِ عقلُهُ البِدارَ بالعملِ والقلقَ مِن الخوفِ، وقد اشتدَّ ذلك بأقوامٍ فهامُوا في البراريّ، وطوَوُا الأيّامَ بالمجاعة، وداموا على سهرِ الليل، ولازمُوا المقابِر، فهلكُوا سريعًا.

ولَعَمري إنّ ما خافُوه يستحقُّ أكثرَ مِن هذا الفِعل، ولكِن نرى العقلَ الذي أوجبَ هذا القلقَ قد أمرَ بما يُوجِبُ السُّكون، فقال: إنّما خُلِقَ هذا البدنُ ليحملَ النفسَ كما تحملُ الناقةُ الراكبَ، ولا بُدَّ مِن اللُّطفِ بالناقةِ ليحصُلَ المقصُودُ مِن السير، ولا يحسُنُ في العقلِ دوامُ السهرِ وطُولُ القلق؛ لأنّه يُؤثِّرُ في البدن، فيُفوِّتُ أكثرَ المقصود، كيف وقد خُلِقَ بدنُ الآدميِّ خلقًا لطيفًا؟ فإذا هجرَ الدَّسَمَ نشفَ الدماغُ، فإذا دامَ على السهرِ قوِيَ اليُبس، فإذا لازمَ الحُزنَ

مـرضَ القلـب، فلا بُدّ من التلطُّـفِ بالبدنِ بتنـاولِ ما يُصلِحُـه، وبالقلبِ بدفعِ الحُزنِ المُؤذي له، وإلا فمتى دام المُؤذي عجِلَ التلفُ.

ثُـمّ يأتِـي الشـرعُ بما قد قاله العقل، فيقولُ: «إنّ لنفسِـكَ عليـكَ حقًّا، وإنّ لزوجِـكَ عليكَ حقًّا، فصُـمْ وأفطِرْ، وقُمْ ونَمْ»[١]، يقـولُ: «كفى بالمرءِ إثمًا أن يُضيِّعَ من يقُوتُ»[٢]، ويحثُّ على النِّكاح.

ودوامُ القلـقِ واليُبـسِ يتـركُ الزوجـةَ كالأرملة، والولدَ كاليتيـم، ولا وجهَ للتشاغُل بالعِلمِ مع هذا القلق.

ومَـن أرادَ مِصـداقَ مـا قُلتُه فليتأمَّلْ حالةَ الرسُـولِ ﷺ، فإنّـه كان يُعدِّلُ ما عِندهُ من الخوف، فيُمازِحُ، ويُسابِقُ عائشة رضي الله عنها، ويُكثِرُ من التزويج، وكان يَلطُفُ ببدنِه، فيختارُ الماءَ البائتَ، ويُحبُّ الحلوى واللحم.

ولـولا مُسـاكنةُ نـوعِ غفلةٍ لَما صنَّـفَ العُلماء، ولا حُفِظَ العِلـم، ولا كُتِبَ الحديـث؛ لأنّـه مَـن يقُـول: «رُبّمـا مِـتُّ اليـوم» كيـف يكتُـب؟ وكيف يسـمعُ ويُصنِّف؟!

فـلا يَهُولَنَّكُـم ما تـرون مِن غفلةِ الناسِ عـنِ ذكرِ الموتِ حـقَّ ذِكرِه، فإنّها نِعمةٌ مِن الله سُبحانه، بها تقومُ الدنيا ويصلُحُ الدين.

وإنّمـا تُـذَمُّ قُـوّةُ الغفلـةِ المُوجِبـةِ للتفريطِ والإهمـالِ للمُحاسـبةِ للنفس، وتضييعِ الزمانِ فـي غيرِ التزوُّد، ورُبّما قَويتْ فحمَلتْ على المعاصي، فأمّا إذا كانـت بِقَـدَرٍ كانت كالمِلحِ في الطعامِ لا بُدَّ مِنه، فإن كثُرَ صار الطعامُ زُعاقًا[٣]،

(١) تقدم في الفصل ١٩.
(٢) تقدم في الفصل ٢١.
(٣) طعام زُعاق: كثير المِلح.



فالغفلةُ تُمدَحُ إذا كانت بقَدَرٍ كما بيَّنّا، ومتى زادت وقع الذمّ، فافهم ما قُلتُه، ولا تقل: فُلانٌ شديدُ اليقظةِ ما ينامُ الليل، وفُلانٌ غافِلٌ ينامُ أكثرَ الليل، فإنّ غفلةً تُوجِبُ مصلحةَ البدنِ والقلبِ لا تُذَمُّ، والسلام.

٣٢٩- فَصْلٌ
[الزهدُ الحقيقي]

ما يكادُ يُحِبُّ الاجتماعَ بالناسِ إلا فارِغ؛ لأنّ المشغُولَ القلبِ بالحقِّ يفِرُّ مِن الخَلق، ومتى تمكَّنَ فراغُ القلبِ مِن معرِفة الحقِّ امتلأ بالخَلق فصارَ يعملُ لهُم، ومن أجلِهم، ويهلِكُ بالرياءِ ولا يعلم.

إنّي لأتأمَّل على بعضِ مَن يتزيّا بالفقرِ والتصوُّف، وهو يلبَسُ ثيابًا لا تُساوي دينارًا، وعندهُ المالُ الكثير، وقد أمرحَ نفسَهُ في المطاعِمِ الشهِيّة، وهو عامِلٌ بمقتضى الكِبرِ والتصدُّر، فيتقرَّبُ إلى أربابِ الدنيا، ويستزري أربابَ العِلم، ويزُورُ أولئك دُونهم، وإنّما يرُدُّ ما يُعطَى ليشيعَ له اسمُ زاهِد، فتراهُ يُربِّي الناموسَ، فهُو في احتيالِه كثعلبٍ، وفي نُهُوضِه على أغراضِهِ في الباطِن كلبُ شَرًى، فأقولُ: سُبحان الله، ما يَزهَدُ إلا الثيابَ، أتُرى ما سمعَ هذا قولَ النبيِّ ﷺ: «إنّ الله يُحِبُّ أن يرى أثرَ نعمتِه على عبدِه»[1]؟

وأعوذُ بالله مِن رُؤيةِ النفس، ورُؤيةِ الخَلق، فإنّ مَن رأى نفسَهُ تكبَّر، والمُتكبِّرُ أحمق؛ لأنّه ما مِن شيءٍ يتكبَّر بهِ إلا ولغيرِه أكثرُ منه، ومَن راءى الخَلقَ عَبَدَهم وهو لا يعلم، فأمّا المُعامِلُ لله سبحانه وتعالى، فهو بعيدٌ مِن الخَلق، فإن تقرَّبوا إليهِ سترَ حالَهُ بما يُوجِبُ بُعدَهم عنه.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك وصحَّحه ووافقه الذهبي (٧٢٦٨).

وقد رأينا مَن يُرائي ولا يدري، فيمتنعُ مِن المشي في السُّوق، ومن زيارةِ الإخوان، ومِن أن يشتريَ شيئًا بنفسِه، وتُوهِمُهُ نفسُه أنِّي أكرهُ مُخالطةَ السُّوقة، وإنّما هذا يُربِّي جاهًا بين العلماء؛ إذ لو خالطَهم لَامتُحِيَ جاهُه، وبَطَلَ تقبيلُ يدِه، وقد كان بشرٌ الحافي يجلِسُ عِندَ العطّار.

وأبلغُ مِن هذا كُلِّه أنّ نبيَّنا ﷺ كان يشتري ويحمِلُه، وخرجَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه ـ وهو أميرُ المُؤمِنين ـ إلى السوق فاشترى ثوبًا، وقد كان طلحةُ بنُ مُصَرِّفٍ قارئَ أهلِ الكُوفةِ، فلمّا كثُرَ الناسُ عليهِ مشى إلى الأعمشِ فقرأ عليه، فمالَ الناسُ إلى الأعمش وتركُوا طلحة.

هذا ـ والله ـ الكِبريتُ الأحمرُ والإكسِيرُ[1]، لا ما يُظَنُّ إكسيرًا في الكيمياء، والمعاملةُ مع الله تعالى هكذا تكون، فأمّا ضِدُّ هذه الحال، فحالةُ عابِدٍ للخلقِ مُنمِّس[2]، وقد عمَّ هذا جُمهورَ الخلق، حاشا السَّلَف. [البسيط]

أفـدِي ظِبـاءَ فَـلاةٍ مـا عَرَفـنَ بها مَضغَ الكَلامِ ولا صَبغَ الحَواجِيبِ[3]

٣٣٠- فَصْلٌ

[دركات المعاصي]

كلُّ المعاصي قبيحة، وبعضُها أقبحُ مِن بعضٍ، فإنّ الزِّنا مِن أقبحِ الذُّنُوب، فإنّه يُفسِدُ الفرش، ويُغيِّرُ الأنساب، وهو بالجارةِ أقبح، فقد رُوِيَ في «الصحيحَين» من حديثِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه قال: قُلتُ: يا رسُولَ الله،

(١) الكبريت الأحمر: يقال: هو من الجوهر، ويُضرَب به المَثَل في النُّدرة فيقال: «أعزُّ من الكبريت الأحمر»، والإكسير: مادة مركَّبة زعم الأقدمون أنها تُحوِّل المعدن الرخيص إلى ذهب وشراب ـ في زعمهم ـ يطيل الحياة.

(٢) المُنمِّس: المحتال.

(٣) ديوان المتنبي (ص٤٤٨).

أيُّ الذنبِ أعظم؟ قال: «أن تجعلَ لله نِدًّا وهو خلقَك»، قُلتُ: ثُمّ أيّ؟ قال: «أن تقتـلَ ولـدَك مِن أجلِ أن يطعَمَ معك»، قُلـتُ: ثُمّ أيّ؟[١] قال: «أن تُزانيَ حليلةَ جارِك»[٢].

وقد روى البُخاريُّ في «تاريخِه» من حديثِ المِقدادِ بنِ الأسودِ، عنِ النبيِّ ﷺ أنّه قال: «لَأن يزنيَ الرجُلُ بعشرِ نِسوةٍ أيسرُ مِن أن يزنيَ بامرأةِ جارِه، ولَأن يسـرِقَ مِن عشـرةِ أبياتٍ أيسرُ عليهِ مِن أن يسـرِقَ مِن بيتِ جارِه»[٣]، وإنّما كان هذا لأنّه يضُمُّ إلى معصيتِه اللهَ عز وجل انتهاكَ حقِّ الجار.

ومِن أقبحِ الذُّنُوبِ أن يزنيَ الشيخ، ففي الحديث: «إنّ الله يُبغِضُ الشيخَ[٤] الزانـيَ»[٥]؛ لأنّ شـهوةَ الطبـعِ قـد ماتَـت وليس فيها قُـوّةٌ تغلِب، فهـو يُحرِّكُها ويُبالغ، فكانت معصيتُه عِنادًا.

ومن المعاصي التي تُشبِهُ المُعاندةَ لُبسُ الرجُلِ الحريرَ والذهب، خُصُوصًا خاتمَ الذهبِ الذي يتحلّى بِهِ الشيخ، وإنّه مِن أبردِ الأفعالِ وأقبحِ الخطايا.

ومن هذا الفنِّ الرياءُ والتخاشُعُ وإظهارُ التزهُّدِ للخَلق، فإنّه كالعبادةِ لهم، مـع إهمالِ جانِـبِ الحقِّ عز وجل، وكذلك المُعامَلـةُ بالرِّبا الصريحِ خُصُوصًا مِنَ الغنيِّ الكثيرِ المال.

ومن أقبحِ الأشـياءِ أن يطُولَ المرضُ بالشـيخِ الكبيـرِ ولا يتُوبَ مِن ذنب، ولا يعتذِرَ مِن زلّة، ولا يقضيَ دَينًا، ولا يُوصيَ بإخراج حقٍّ عليه.

---

(١) في (د): «ثم قلت: أي؟».

(٢) البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) رواه أحمد (٢٣٨٥٤).

(٤) سقطت من (ح، ص).

(٥) رواه أحمد (٢١٣٥٥).

ومن قبائحِ الذُّنُوبِ أن يَتُوبَ السارِقُ والظالِمُ ولا يرُدَّ المظالِم، والمُفرِّطُ فـي الـزكاةِ أو في الصلاةِ ولا يقضيَ، ومن أقبحِهـا أن يحنثَ في يمينِ طلاقِه، ثُمّ يُقيمَ مع المرأة، وقِسْ على ما ذكرتُه، فالمعاصي كثيرة، وأقبحُها لا يخفى.

وهذه المُستقبَحاتُ ـ فصلًا من(١) القبائح ـ تُشبِهُ العِنادَ للآمِر، فيستحِقُّ صاحِبُهـا اللعـنَ ودوامَ العُقُوبـة، وإنّي لأرى شُـربَ الخمرِ مِـن ذلك الجِنس، ليست مُشتهاةً لذاتِها، ولا لريحِها، ولا لطعمِها ـ فيما يُذكَرُ ـ، إنّما لذّتُها ـ فيما يُقـال ـ بعـد تجرُّعِ مرارتِها، فالإقدامُ على ما لا يدعُـو إليهِ الطبعُ مُعاندةٌ إلى أن يصـلَ التنـاولُ إلى اللذة. نسـألُ الله عز وجل إيمانًا يحجِزُ بيننـا وبين مُخالفتِه، وتوفيقًا لما يُرضيه، فإنّما نحنُ به وله.

٣٣١- فَصْلٌ

[داءُ الكِبر]

اعتبـرتُ علـى أكثرِ العُلمـاءِ والزُّهّـادِ أنّهم يُبطِنـون الكِبر، فهـذا ينظُرُ في موضِعِـه وارتفـاعِ غيـرِه عليه، وهذا لا يعـودُ مريضًا فقيرًا يرى نفسَـه خيرًا مِنه، حتّـى إنّي رأيـتُ جماعةً يُومَأ إليهم، منهم مَن يقول: لا أُدفَنُ إلا في دِكّةِ أحمدَ ابـنِ حنبـل، ويعلمُ أنّ في ذلك كسـرَ عِظـامِ الموتى، ثُمّ يرى نفسَـه أهلًا لذلك التصدُّر، ومِنهم مَن يقول: ادفِنُوني إلى جانِبِ مسجِدي، ظنًّا مِنهُ أنّه يصيرُ بعد موتِهِ مَزُورًا كمعرُوفٍ.

وهـذه خَلّـةٌ مُهلِكةٌ ولا يعلمُون؛ قال النبيُّ ﷺ: «مَن ظنَّ أنّه خيرٌ مِن غيرِه فقد تكبَّر»(٢)، وقلَّ مَن رأيتُ إلا وهو يرى نفسَه!

---

(١) كذا في النسخ، وفي (ط): «فضلًا عن».

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٧: ٢٧٢) من قول سفيان بن عيينة رحمه الله.

والعجبُ كُلُّ العجبِ مِمَّن يرى نفسَه، أتُراهُ بماذا رآها؟ إن كان بالعِلمِ فقد سبقَه العُلماء، أو بالتعبُّدِ فقد سبقَه العُبّاد، أو بالمالِ فإنّ المالَ لا يُوجِبُ بنفسِه فضيلةً دينيّة.

فإن قال: قد عرَفتُ ما لم يعرِفْ غيري مِن العِلمِ في زمني، فما عليَّ مِمَّن تقدَّم؟! قيل له: ما نأمرُكَ يا حافِظَ القُرآنِ أن ترى نفسَك في الحِفظِ كمَن يحفظُ النصف، ولا يا فقيهُ أن ترى نفسَك في العِلم كالعامِّيّ، إنّما نحذَرُ عليكَ أن ترى نفسَك خيرًا مِن ذلك الشخصِ المُؤمِنِ وإن قلَّ عِلمُه، فإنّ الخيريةَ بالمعاني لا بصُوَرِ العِلمِ والعِبادة.

ومَن تلمَّحَ خِصالَ نفسِهِ وذُنوبَها علِمَ أنّه على يقينٍ مِن الذُّنُوبِ والتقصير، وهو مِن حالِ غيرِه على شكٍّ، فالذي يُحذَرُ مِنهُ الإعجابُ بالنفس، ورُؤيةُ التقدُّمِ في أحوالِ الآخِرة، والمُؤمِنُ لا يزالُ يحتقِرُ نفسَه.

وقد قيل لعُمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رضي الله عنه: إن مِتَّ ندفِنُكَ في حُجرةِ رسُولِ الله ﷺ؟ فقال: «لَأن ألقى الله بكُلِّ ذنبٍ غيرِ الشِّركِ أحَبُّ إليَّ مِن أن[1] أرى نفسي أهلًا لذلك»[2].

وقد رُوينا أنّ رجُلًا مِن الرُّهبانِ رأى في المنامِ قائلًا يقولُ له: فُلانٌ الإسكافُ[3] خيرٌ مِنك، فنزل مِن صَومعتِه فجاء إليه، فسأله عن عملِه، فلم يذكُرْ كبيرَ عملٍ، فقيل له في المنام: عُدْ إليهِ وقُل له: مِمَّ صُفرةُ وجهِكَ؟ فعاد فسأله، فقال: ما رأيتُ مُسلمًا إلا وظننتُه خيرًا مِنّي، فقيل له: فبذاك ارتفعَ!

---

(١) سقطت من (س، ص).

(٢) تقدم في الفصل ١٧١.

(٣) الإسكاف هو الإسكافي، وكلاهما بمعنى: صانع الأحذية ومُصلِحها.

٣٣٢- فَصْلٌ
[الغضبانُ كالسكران]

متى رأيتَ صاحِبَكَ قد غضِبَ وأخذَ يتكلَّمُ بما لا يصلُحُ فلا ينبغي أن تعقِدَ على ما يقُولُهُ خِنصرًا، ولا أن تُؤاخِذَهُ به، فإنّ حالَه حالُ السكران، لا يدري ما يجري، بل اصبِر لفَورتِه، ولا تُعوِّل عليها، فإنّ الشيطانَ قد غلبَه، والطبعَ قد هاج، والعقلَ قدِ استتر، ومتى أخذتَ في نفسِك عليه، أو أجبتَه بمُقتضى فِعلِه، كُنت[1] كعاقِلٍ واجَهَ مجنُونًا، أو كمُفيقٍ عاتبَ مُغمًى عليه، فالذنبُ لك، بلِ انظُر إليه بعينِ الرحمة، وتلمَّحْ تصريفَ القدَرِ له، وتَفَرَّجْ في لَعِبِ الطبعِ به، واعلم أنّه إذا انتبهَ ندِمَ على ما جرى، وعرَفَ لك فضلَ الصبر.

وأقلُّ الأقسامِ أن تُسلِمَهُ فيما يفعلُ في غضبِه إلى ما يستريحُ به، وهذه الحالةُ ينبغي أن يتلمَّحَها الولدُ عِندَ غضبِ الوالِد، والزوجةُ عند غضبِ الزوج، فتتركَه يشتفي بما يقول، ولا تُعوِّل على ذلك، فسيعُودُ نادِمًا مُعتذِرًا، ومتى قُوبِلَ على حالتِه ومقالتِه صارتِ العداوةُ مُتمكِّنة، وجازى في الإفاقةِ على ما فُعِلَ في حقِّهُ وقتَ السُّكر.

وأكثرُ الناسِ على غيرِ هذه الطريق، متى رأوا غضبانَ قابلُوهُ بما يقُولُ ويعملُ على مُقتضى الحِكمة، هذا بلِ الحِكمةُ ما ذكرتُه، ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].



---
(١) سقطت من (ك، س، ص، م).

٣٣٣- فَصْلٌ
[مدرسةُ الحياة]

ليس في الدنيا أبلهُ مِمَّن يُسيءُ إلى شخص، ويعلمُ أنّه قد بلغ إلى قلبِه بالأذى، ثُمّ يصطلِحانِ في الظاهِر، فيعلمُ أنّ ذلك الأثرَ مُحِيَ بالصُّلح! وخُصوصًا المُلوك، فإنّ لذّتَهم الكُبرى ألّا يرتفعَ عليهم أحد، ولا ينكسِرَ لهُم غرض، فإذا جرى شيءٌ مِن ذلك لم ينجبِر. واعتبِر هذا بأبي مُسلِمِ الخُراسانيّ، فإنّه غضَّ مِن قدرِ المنصُورِ قبلَ ولايتِه، فحصلَ ذلك في نفسِه فقتلَه، ومَن نظر في التواريخِ رأى جماعةً قد جرى لهم مِثلُ هذا.

ولا ينبغي لمَن أساء إلى ذي[1] سُلطانٍ أن يقعَ في يدِه، فإنّه إذا رامَ التخلُّص لم يقدِر، فيبقى ندمُهُ على تركِ احتِرازِه، وحسرتُه على مُساكَنةِ الضمان للسلامة، أشدَّ عليهِ مِن كُلِّ ما يلقى بهِ مِن الهوانِ والأذى.

ومن هذا الجنسِ الأصدقاءُ المُتماثلون، فإنّك متى آذيتَ شخصًا وبلغَ إلى قلبِه أذاك، فلا تثِقْ بمودَّتِه، فإنّ أذاك نُصبُ عينِه، فإن لم يحتَلْ عليكَ لم يصفُ لك.

ولا تُخالِطْ إلا مَن أنعمتَ عليهِ بحَسَبٍ، فهو لم يرَ مِنك شيئًا فيكُونَ في نفسِه، وكذلك الولدُ والزوجةُ والمُعاملُون.

ويلحقُ بهذا أن أقول: لا ينبغي أن تُعاديَ أحدًا ولا تتكلَّمَ في حقِّه، فربما صارت له دولةٌ فاشتفى، ورُبّما احتيجَ إليه فلم يُقدَرْ عليه.

فالعاقلُ يُصوِّرُ في نفسِه كُلَّ مُمكنٍ، ويستُرُ ما في قلبِهِ مِن البُغضِ والوُدِّ، ويُداري مع الغيظِ والحقدِ. هذه مَشاوِرُ العقل، إن قُبِلَت.

---

(١) سقطت من (ك، ح، ص، د، م).

٣٣٤- فَصْلٌ

[تلمُّح العواقب]

كُلُّ مَن لا يتلمَّحُ العواقِبَ ويستعِدُّ لما يجُوزُ وُقُوعُه، فليس بكامِلِ العقلِ، واعتبِر هـذا في جميع الأحوال، مِثلَ أن يغترَّ بشـبابِه، ويـدُومَ على المعاصي، ويُسـوِّفَ بالتوبـة، فرُبّمـا أُخِذ بغتةً ولـم يبلُـغْ بعضَ ما أمَّل، وكذلك إذا سـوَّفَ بالعمـل أو بحفـظ العِلـمِ فإنّ الزمـانَ ينقضي بالتسـويف، ويفُـوتُ المقصُود، ورُبّما عزمَ على فعلِ خيرٍ، أو وقفِ شيءٍ مِن مالِه، فسوَّفَ، فبُغِتَ.

فالعاقِـلُ مَـن أخـذَ بالحزم فـي تصويرِ ما يجُـوزُ وقُوعُه، وعمِـلَ بمُقتضى ذلك، فإنِ امتدَّ الأجلُ لم يضُرَّه، وإن وقعَ المَخُوفُ كان مُحترِزًا.

ومما يتعلَّق بالدُّنيا أن يميلَ مع السُّـلطان ويُسـيءَ إلى بعضِ حواشـيه، ثِقةً بقُربهِ مِنه، فرُبّما تغيَّر ذلك السُّلطان، فارتفع عدوُّهُ فانتقم مِنه، وقد يُعادي بعضَ الأصدِقـاءِ ولا يُبالـي به؛ لأنّه دُونه فـي الحالِ الحاضِرة، فرُبّمـا صعِدَت مرتبةُ ذلك، فاستوفى ما أسلفَهُ إليهِ مِن القبيح وزاد.

فالعاقِـلُ مَـن نظـرَ فيما يجُـوزُ وُقُوعُـه ولم يُعادِ أحـدًا، فـإن كان بينهُما ما يُوجِـبُ المُعـاداةَ كتمَ ذلك، فإن صحَّ له أن يثبَ علـى عدُوِّه، فينتقِمَ مِنهُ انتِقامًا يُبيحُه الشرعُ، جاز، على أنّ العفوَ أصلَحُ في بابِ العيش، ولهذا ينبغي أن يُخدَمَ البطّال، فإنّه رُبّما عمِلَ فعرَفَ ذلك لمَن خدم، وقِسْ على أنمُوذجِ ما ذكرتُه مِن جميعِ الأحوال.



٣٣٥- فَصْلٌ
[مغبّة مُخالطة السلاطين]

بقـدرِ صُعُودِ الإنسـانِ في الدنيا تنـزِلُ مرتبتُه في الآخِـرة، وقد صرَّح بهذا ابنُ عُمرَ رضي الله عنهما فقال: «والله لا ينالُ أحدٌ مِن الدنيا شيئًا إلا نقصَ مِن درجاتِه عند الله، وإن كان عِنده كريمًا».

فالسـعيدُ مَـنِ اقتنـعَ بالبُلغة[١]، فإنّ الزمانَ أشـرفُ مِـن أن يضيعَ في طلبِ الدنيـا، اللهـمَّ إلا أن يكُونَ مُتورِّعًا في كسـبِه، مُعينًا لنفسِـه عـن الطمع، قاصِدًا لإعانة أهلِ الخيرِ والصدقةِ على المُحتاجين، فكسبُ هذا أصلحُ مِن بطالتِه.

فأمّا الصُّعُودُ الذي سببُه مُخالطةُ السلاطين فبعيدٌ أن يسلَمَ معهُ الدين، فإن وقع سلامتُه ظاهِرًا فالعاقِبةُ خطِرةٌ في الدنيا والآخرة.

قـال أبو مُحمّـدٍ التميميُّ: ما غَبَطتُ أحدًا إلا الشـريفَ أبا جعفرٍ يومَ ماتَ القائـمُ بأمـر الله، فإنّه غسَّـلهُ وخرجَ ينفُـضُ أكمامَه، فقعدَ في مسـجِدِه لا يُبالي بأحدٍ، ونحنُ مُزعَجُون لا ندري ما يجري علينا. وذاك أنّ التميميَّ كان مُتعلِّقًا على السُّلطان يمضي له في الرسائل، فخاف مَغبّةَ القُرب.

وقـد رأينـا جماعةً مِـن العُلمـاء خالطوا السُّـلطان، فكانت مغبّتُهم سـيِّئة، ولَعَمرِي إنّهم طلبُوا الراحةَ فأخطؤوا طريقَها؛ لأنّ غُمُومَ القلبِ لا يُوازيها لذّةُ مال، ولا لذّةُ مطعم، هذا في الدنيا قبل الآخِرة.

ومَن أشـرفُ وأطيبُ عيشًـا مِن مُنفرِدٍ في زاوية، لا يُخالِطُ السلاطين، ولا يُبالـي أطـابَ مطعمُه أم لم يَطِـبْ؟ فإنّه لا يخلُو من كِسْـرةٍ وقَعْبِ[٢] ماء، وهو

(١) البُلغة: ما يبلِّغ المرءَ حاجتَه كثيرًا كان أو قليلًا. (٢) القَعْبُ: قدح من خشب مقعَّرٌ.

سليمٌ من أن يُقال له كلِمةٌ تُؤذيه، أو يعيبَهُ الشرعُ حين دُخُولِه عليهم أو الخَلقُ.

ومَن تأمَّلَ حالَ أحمدَ في انقِطاعِه، وحالَ ابنِ أبي دُؤادَ، ويحيى بنِ أكثم، عرَفَ الفرقَ في طِيبِ العيشِ في الدنيا، والسلامةِ في الآخِرة.

وما أحسنَ ما قال ابنُ أدهمَ: «لو علمَ المُلوكُ وأبناءُ المُلوكِ ما نحنُ فيهِ مِن لذيذِ العيش، لجالدُونا عليهِ بالسُّيوفِ»[1].

ولقد صدقَ ابنُ أدهم، فإنّ السُّلطانَ إن أكلَ شيئًا خافَ أن يكُونَ قد طُرِحَ له فيهِ سُمّ، وإن نام خاف أن يُغتال، وهو وراءَ المغاليقِ لا يُمكنُه أن يخرجَ لفُرجة، فإن خرج كان مُزعَجًا مِن أقربِ الخَلقِ إليه، واللذّاتُ التي ينالُها تبرُدُ عنده، ولا يبقى له لذّةُ مَطعَمٍ ولا مَنكَح، وكلَّما استظرفَ المطاعمَ أكثرَ منها ففسدَت مَعِدتُه، وكُلَّما استجدَّ الجواريَ أكثرَ منهنّ فذهبَت قوّتُه، ولا يكادُ يُبعِدُ ما بين الوطءِ، ولا يجدُ في الوطءِ كبيرَ لذّة؛ لأنّ لذّةَ الوطءِ بقدرِ بُعدِ ما بين الزمانَين، وكذلك لذّةُ الأكل، فإنّ مَن أكلَ على شِبَعٍ، ووطِئَ مِن غيرِ صِدقِ شهوةٍ وقلقٍ، لم يجدِ اللذّةَ التامّةَ التي يجدُها الفقيرُ إذا جاع، والعَزَبُ إذا وجدَ امرأة، ثُمّ إنّ الفقيرَ يرمي نفسَه على الطريق في الليل فينام، ولذّةُ الأمنِ قد حُرِمَها الأمراء، فلذّتُهم ناقصة، وحسابُهم زائد.

والله ما أعرِفُ مَن عاش رفيعَ القدر، بالغًا مِن اللذّاتِ ما لم يبلُغْ غيرُهُ إلا العُلماءُ المُخلصون، كالحسنِ، وسُفيانَ، وأحمدَ، والعُبّادُ المُحقِّقون كمعرُوف، فإنّ لذّةَ العِلم تزيدُ على كُلِّ لذّة، وما ضرَّهم إذا جاعُوا أو أُنِيلُوا بأذًى، فإنّ ذلك زاد في رِفعتِهم، وكذلك لذّةُ الخَلوةِ والتعبُّد.

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٧: ٣٧٠).

فهـذا معـرُوفٌ كان مُنفرِدًا بربِّه، طيِّبَ العيشِ معـه، لذيذَ الخَلوةِ به، ثُمّ قد مات منذُ نحوِ أربعِمئة سنة، فما يخلُو أن يُهدى إليهِ كُلَّ يومٍ ما تقديرُ مجمُوعِه أجزاءٌ مِن القُرآن، وأقلُّ مَن يقفُ على قبرِه فيقرأ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، ويُهديها له، والسـلاطينُ تقفُ بين يدَي قبرِه ذليلة، هذا بعد الموت، ويومَ الحشـرِ تُنشَرُ الكراماتُ التي لا تُوصَف، وكذلك قُبورُ العُلماءِ المحقِّقين.

ولمّـا بُلِيَـت أقوامٌ بمُخالطةِ الأمـراء، أثَّرَ ذلك التكديرُ فـي أحوالِهم كُلِّها، فقـال سُـفيانُ بنُ عُيينة: «مُنذُ أخذتُ مِن مالِ فُـلانٍ الأميرِ، مُنِعتُ ما كانَ وُهِبَ لي مِن فهمِ القُرآن». وهذا أبو يُوسُفَ القاضي لا يزورُ قبرَه اثنان.

فالصبـرُ عن مُخالطة الأمراء، وإن أوجبَ ضِيـقَ العيشِ من وجهٍ، يُحصِّلُ طيبَ العيشِ من[1] جهات، ومع التخليطِ لا يحصُلُ مقصُود، فمَن عزَم جزَم.

كان أبو الحسنِ القزوينيُّ[2] لا يخرجُ من بيته إلا وقتَ الصلاة، فرُبّما جاء السُّلطانُ فيقعدُ لانتظارِه ليُسلِّمَ عليه، ومدُّ النَّفَسِ في هذا رُبّما أضجرَ السامِعَ، ومَن ذاقَ عرَف.

٣٣٦- فَصْلٌ
[أكثر الناس مُفرِّطون]

مَـن عرَفَ الشـرعَ كما ينبغـي، وعلِمَ حالةَ الرسـولِ ﷺ وأحوالَ الصحابةِ وأكابرِ العُلماء، علِمَ أنّ أكثر الناسِ على غيرِ الجادّة، وإنّما يمشُـون مع العادة،

---

(١) سقطت من (ك، ح، ص، م).

(٢) هو أبو الحسن علي بن عمر، شيخ العراق، البغدادي الحربي الزاهد، تُوفي سنة ٤٤٢هـ. سير أعلام النبلاء (١٧: ٦٠٩).

يتزاورون فيغتابُ بعضُهم بعضًا، ويطلبُ كُلُّ واحِدٍ مِنهم عورةَ أخيه، ويحسُدُه إن كانت نِعمةٌ، ويشمَتُ بهِ إن كانت مُصيبةٌ، ويتكبَّرُ عليهِ إن صحَّ له، ويُخادِعُهُ لتحصيلِ شيءٍ مِن الدنيا، ويأخذُ عليهِ العثراتِ إن أمكن، هذا كُلُّه يجري بين المُنتمِين إلى العِلم والزُّهد، لا الرَّعاع[1].

فالأَولى بمَن عرَف الله سُبحانه، وعرَف الشرعَ وسِيَرَ السلفِ الصالِحين، الانقِطاعُ عنِ الكُلِّ، فإنِ اضطُرَّ إلى لقاءِ مُنتسِبٍ إلى العِلمِ والخيرِ تلقّاه وقد لبسَ دِرعَ الحذر، ولم يُطِلْ معهُ الكلام، ثُمّ عجَّلَ الهربَ مِنهُ إلى مُخالَطةِ الكُتُبِ التي تحوي تفسيرًا لنطاقِ الكمال.

٣٣٧- فَصْلٌ
[دلائلُ الكمال وأسبابُه]

الكمالُ عزيز، والكامِلُ قليلُ الوُجُود، فأوّلُ أسبابِ الكمال: تناسُبُ أعضاءِ البدن، وحُسنُ صُورةِ الباطِن، فصُورةُ البدنِ تُسمّى خَلقًا، وصُورةُ الباطِنِ تُسمّى خُلُقًا، ودليلُ كمالِ صُورةِ البدن: حُسنُ السَّمتِ، واستِعمالُ الأدب، ودليلُ صُورةِ الباطن: حُسنُ الطبائعِ والأخلاق، فالطبائعُ: العِفّةُ، والنزاهةُ، والأَنَفةُ مِن الجهل، ومُباعَدةُ الشَّرَه. والأخلاقُ: الكرمُ، والإيثارُ، وسترُ العُيُوب، وابتداءُ المعرُوف، والحِلمُ عنِ الجاهِل.

فمَن رُزِقَ هذه الأشياءَ رقَّتْهُ إلى الكمال، وظهر عنهُ أشرفُ الخِلال، وإن نقصَت خَلّةٌ أوجبتِ النقص.



(١) الرَّعاع بفتح الراء: السّفلة من الناس، والواحد رَعاعة.

٣٣٨- فَصْلٌ

[الرضا بالقضاء والقَدر]

ليس في الدنيا أبلهُ مِمَّن يُريدُ مُعاملةَ الحقِّ سُبحانهُ على بُلُوغِ الأغراضِ، فأين تكُونُ البلوى إذًا؟! لا والله، بل لا بُدَّ من انعكاسِ المُرادات، ومن توقُّفِ أجوبـةِ السُّـؤالات، ومِن تشـفِّي الأعداءِ فـي أوقات، فأمّا مَن يُريـدُ أن تدومَ له السـلامةُ والنصرُ على مَـن يُعاديه، والعافيةُ مِن غير بـلاء، فما عرَفَ التكليف، ولا فهِـمَ التسـليم، أليس الرسُـولُ ﷺ يُنصَرُ يومَ بـدر، ثُمّ يجري عليه ما جرى يومَ أُحُد؟! أليس يُصَدُّ عن البيت، ثُمّ قَهَرَ بعد ذلك؟!

فـلا بُـدَّ مِـن جيِّـدٍ ورديءٍ، والجيِّـدُ يُوجِبُ الشُّـكر، والرديءُ يُحـرِّكُ إلى السُّوالِ والدُّعاء، فإن امتنعَ الجوابُ أُريدَ نُفوذُ البلاء والتسليمُ للقضاء.

وهاهُنـا يَبِيـنُ الإيمـان، ويظهَـرُ في التسـليم جواهِـرُ الرِّجال، فـإن تحقَّقَ التسـليمُ باطنًـا وظاهرًا فذلك شـأنُ الكامل، وإن وُجِدَ فـي الباطِنِ انعِصارٌ مِن القضاء لا مِن المَقضيّ ـ فإنّ الطبعَ لا بُدَّ أن ينفِرَ مِن المُؤذي ـ دلَّ على ضعفِ المعرِفة، فإن خرجَ الأمرُ إلى اعتراضٍ باللسـان فتِلك حالُ الجُهّال، نعُوذُ بالله منها.

٣٣٩- فَصْلٌ

[الابتلاءُ بالحاجة]

مـن الابتـلاءِ العظيـمِ إقامةُ الرجُـلِ في غيرِ مُقامِـه، مِثلَ أن يُحـوَجَ الرجُلُ الصالِـحُ إلـى مُـداراةِ الظالمِ والتـردُّدِ إليه، وإلـى مُخالَطةِ مَـن لا يصلُح، وإلى أعمـالٍ لا تليـقُ بـه، أو إلى أمـورٍ تقطعُ عليـهِ مُرادَه الـذي يُؤثِرُه، مِثـلَ أن يُقال

للعالِـم: تـردَّد إلى الأميـرِ وإلا خِفنا عليك سـطوتَه، فيتردَّدُ فيـرى ما لا يصلُحُ ولا يُمكنُـه أن يُنكِـر، ويحتـاجُ إلى شـيءٍ مِن الدنيا، وقد مُنِـعَ حقَّه، فيحتاجُ أن يُعرِّضَ بذكرِ ذلك، أو يُصرِّحَ لينالَ بعضَ حقِّه، ويحتاجُ إلى مُداراةِ مَن يصعُبُ مُداراتُه، بل يتشتَّتُ همُّه لتِلك الضرُورات.

وكذلك يفتقرُ إلى الدخول في أمورٍ لا تليقُ به، مِثلَ أن يحتاجَ إلى الكسب، فيتردَّدَ إلى السُّـوق، أو يخدُمَ مَن يُعطيه أُجرتَه، وهذا لا يحتملُه قلبُ المُراقِبِ لله سُبحانه، لأجل ما يخالطُه من الأكدار، أو يكُونَ له عائلةٌ وهو فقير، فيتفكَّرُ في إغنائهم، فيدخُلُ في مداخِلَ كُلُّها عِنده عظيم.

وقـد يُبتلى بفقـدِ مَن يُحِبُّ، أو ببلاءٍ في بدنِه، وبعكسِ أغراضِه، وتسـليطِ مُعادِيه عليه، فيرى الفاسـقَ يقهَرُه، والظالِمَ يُذِلُّه، وكلُّ هذه الأشـياءِ تُكدِّرُ عليهِ العيش، وتكادُ تُزلزِلُ القلبَ، وليس في الابتلاءِ بقوّةِ الأشياءِ إلا التسليمُ واللَّجأُ إلى المُقدِّرِ في الفرج.

فيُـرى الرجُـلُ المُؤمِـنُ الحازمُ يثبُـتُ لهذه العظائـم، ولا يتغيَّـرُ قلبُه، ولا ينطقُ بالشكوى لسانُه، أوَليس الرسُولُ ﷺ يحتاجُ أن يقولَ: «مَن يُؤويني؟ مَن ينصُرُني؟»[1]، ويفتقرُ إلى أن يدخُلَ مكّةَ في جوارِ كافِر، ويُشَـقُّ السَّلى[2] على ظَهرِه[3]، ويُقتَلُ أصحابُه، ويُدارِي المُؤلَّفةَ، ويشتدُّ جوعُه، وهو ساكنٌ لا يتغيَّر، وما ذاك إلا أنّه علِمَ أنّ الدنيا دارُ ابتِلاء، لينظُرَ كيف تعملُون.

ومما يُهوِّنُ هذه الأشياءَ عِلمُ العبدِ بالأجر، وأنّ ذلك مُرادُ الحقّ: [البسيط]

---

(١) أحمد (١٤٤٥٦).

(٢) السلى: الجلد الرقيق الذي يخرج فيه الولد من بطن أمه ملفوفًا فيه.

(٣) البخاري (٢٤٠)، ومسلم (١٧٩٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

.... فما لِجُـرحٍ إذا أرضاكُمُ أَلَمُ(١)

٣٤٠- فَصْلٌ

[عُبّاد المال]

لا يُنكَرُ أنّ الطباعَ تُحِبُّ المال؛ لأنّه سببُ بقاءِ الأبدان، لكنّه يزيدُ حُبُّهُ في بعـضِ القُلُـوب، حتّى يصيرَ محبُوبًا لذاتِه، لا للتوصُّـلِ به إلى المقاصِدِ، فترى البخيـلَ يحملُ على نفسِـه العجائب، ويمنعُها اللـذّات، وتصيرُ لذّاتُه في جمعِ المال، وهذه جِبِلّةٌ في خَلقٍ كثير.

وليـس العجـبُ أن تكُونَ فـي الجُهّال، وينبغـي أن يُؤثِّرَ فيها عنـد العُلماءِ المُجاهَـدةُ للطبـعِ ومُخالفتُه، خُصُوصًا في الأفعالِ اللازمـةِ في المال، فأمّا أن يكُونَ العالِمُ جامِعًا للمالِ مِن وجُوهٍ قبيحة، مِن شُبُهاتٍ قويّة، وبحرصٍ شديدٍ، ويَـذِلُّ فـي الطلب، ثُمّ يأخذُ مِن الزكواتِ ـ ولا تحـلُّ له مع الغِنى ـ، ثُمّ يدَّخِرُه ولا ينتفـعُ بـه، فهذه بهيميّةٌ، فخرجَ عن صفاتِ الآدميّة، بلِ البهيمةُ أعذَرُ؛ لأنّها بالرياضةِ تتغيَّرُ طباعُها، وهؤلاء ما غيَّرتهُم رياضة، ولا أفادهُم العِلم.

وقد كان أبو الحسـنِ البسـطاميُّ مُقيمًا في رِباطِ البسطاميِّ الذي على نهرِ عيسى، وكان لا يلبَسُ إلا الصُّوفَ شتاءً وصيفًا، وكان يُحترَمُ ويُقصَد، فخلَّفَ مالًا يزيدُ على أربعةِ آلافِ دينارٍ!

ورأينا بعضَ أشياخِنا وقد بلغَ الثمانين، وليس له أهلٌ ولا ولدٌ، وقد مرِضَ، فألقى نفسَه عِندَ بعضِ أصدقائه، فتكلَّفَ له ذلك الرجُلُ........

(١) للمتنبي في ديوانه (ص٣٣٣)، وصدره:

إن كانَ سَـرَّكُمُ ما قالَ حاسِدُنا ....

ما يشتهيه[١]، فمات فخلَّفَ أموالًا عظيمة.

ورأينا صدقةَ بنَ الحُسينِ الناسِخ[٢]، وكان على الدوامِ يذُمُّ الزمانَ وأهلَه، ويبالغُ في الطلبِ مِن الناس، ويتخفَّفُ، وهو في المسجِد وحدَه، ليس له مَن يقومُ بأمرِه، فمات فخلَّفَ ـ فيما قيل ـ ثلاثَمئةِ دينار.

وكان يصحبُنا أبو طالبِ بنُ المُؤيَّدِ الصُّوفيّ، وكان يجمعُ المال، فسُرِقَ مِنهُ نحوُ مئةِ دينار، فتلهَّفَ عليها، وكان ذلك سببَ هلاكِه.

ومن أعجبِ أحوالِ الناسِ أنّكَ ترى أقوامًا جلسُوا على صُفّة القوم، يطلبُون الفُتُوح، فيأتيهم منها الكثيرُ الذي يصيرُون بهِ مِن الأغنياء، وهم لا يمتنعُون مِن أخذِ زكاةٍ ولا من طلبٍ. وكذلك القُصّاصُ يخرُجُون إلى البلادِ ويطلبون، فيحصُلُ لهم المالُ الكثير، ولا يترُكون الطلبَ عادةً. فيا سُبحانَ الله! أيَّ شيءٍ أفاد العِلمُ؟! بل الجهلُ كان لهؤُلاءِ أعذَر!

ومن أقبحِ أحوالِهم لزُومُهم الأسبابَ التي تجلِبُ لهم الدنيا، من التخاشُع والتنسُّك في الظاهِر، ومُلازمةِ خشنِ العُزلةِ[٣] عنِ المُخالَطة، وكلُّ هؤُلاء بمعزِلٍ عن الشرع، ولقد تأمَّلتُ على بعضِهم مِن القَدْحِ في نظيرِه إلى أن يبلغَ بهِ إلى التعرُّضِ بهِ للهلاك.

فالويلُ لهم، ما أقلَّ ما يتمتَّعُون بظواهرِ الدنيا! وإن كان مُقلِّبُ القُلُوبِ قد صرَفَ القُلُوبَ عن محبَّتِهم؛ لأنّ الحقَّ عز وجل لا يميلُ بالقُلُوبِ إلا إلى

---

(١) في (ي): «يشفيه».

(٢) هو أبو الفرج بن الحداد البغدادي، الحنبلي، الناسخ، الفرَضي، المتكلِّم، المُتَّهَم في دينه، تُوفي سنة ٥٧٣هـ. سير أعلام النبلاء (٢١: ٦٦).

(٣) في (ط): «حث العزلة».

المُخلصِين، فقد فاتَتهم الدنيا على الحقيقة ـ وهي مسكُ القلوب ـ والآخرةُ بالاتفاق، وما حصّلُوا إلا[١] صُورةَ الحُطام. نسألُ الله عز وجل عقلًا يُدبِّرُ دُنيانا، ويُحصِّلُ لنا[٢] آخِرتَنا، والرازقُ قادر.

٣٤١- فَصْلٌ
[أنفسُ الأشياء معرفة الحقّ]

ينبغي لمَن عرَف شرفَ الوجودِ أن يُحصِّلَ أفضلَ ما في الموجود، هذا العُمرُ موسمٌ والتجاراتُ تختلفُ، والعامّةُ تقول: «عليكُم بما خفَّ حملُه وكثُرَ ثمنُه»، فينبغي للمُتيقِّظ ألّا يطلبَ إلا الأنفس، وأنفَسُ الأشياءِ في الدنيا معرِفةُ الحقِّ عز وجل.

فمِن العارِفين السالِكين مَن وافى في طريقِه بُغيتَهُ في السفر، ومِنهُم مَن هِمّتُهُ مُتعلِّقةٌ بطلبِ ربحِه، ومِنهُم مَن ينظرُ إلى ما يُرضي الحبيب، فيجلبُه إلى بلدِ المعاملةِ ويرضى بالقبُولِ ثمنًا، ويرى أنّ كُلَّ البضائعِ لا تَفِي بحقِّ الخفارة[٣]، ومِنهُم مَن يرى لُزُومَ الشُّكرِ في اختيارِه هذا للسُّلُوكِ دون غيرِه، فيُقِرُّ بالعجز.

وقد ارتَفع قومٌ عن هذه الأحوال، فرأوا مُجرَّدَ التوفيقِ يشغلُهم عن النظرِ إلى العمل، أولئك الأقلُّون عددًا الأعظمُون قدرًا، أقلُّ نَسلًا مِن عَنقاءِ مُغرِبٍ[٤].



---

(١) سقطت من (ح، ص).
(٢) سقطت من (ك، س).
(٣) الخفارة: مثلثة الخاء، وهي بمعنى الحراسة.
(٤) العنقاء: طائر يُضرَب به المَثَل في انقطاع العقب والنسل. انظر: مجمع الأمثال (١: ٤٢٩).

٣٤٢- فصل
[منزلة التوبة]

مَن علِم قُربَ الرحيلِ عن مكّةَ استكثرَ مِن الطواف، خُصوصًا إن كان لا يُؤمِّلُ العَودَ؛ لكِبَرِ سنِّه وضعفِ قُوّتِه، فكذلك ينبغي[1] لمَن قاربَ قاربُه ساحِلَ الأجلِ بعُلُوِّ سِنِّه أن يُبادِرَ اللحظات، وينتظرَ الهاجِمَ بما يصلُحُ له، فقد كان في قوسِ الأجلِ مِنزَعٌ[2] زمانَ الشباب، واسترخى الوترُ للمَشيبِ عن سِيَةِ القوس[3]، فانحدر إلى القاب[4]، وضعُفتِ القُوى أن يُوتَر، وما بقيَ إلا الاستسلامُ لمُحارِبِ التلف.

فالبِدارَ البِدارَ إلى التنظُّفِ؛ ليكونَ القُدومُ على طهارة، وأيُّ عيشٍ في الدنيا يَطِيبُ لمَن أيّامُهُ السليمةُ تُقرِّبُه إلى الهلاك، وصُعُودُ عُمُرِه نُزُولٌ عنِ الحياة، وطُولُ بقائِهِ نقصٌ مدى المُدّة؟! فليتفكّرْ فيما بين يدَيه، وهو أهمُّ مِمّا ذكرناه. أليس في «الصحيح»: «ما مِنكُم أحدٌ إلا ويُعرَضُ عليهِ مَقعَدُه بالغداةِ والعشيِّ مِن الجنّةِ أو النّارِ غُدوةً وعشيًّا، فيُقال: هذا مَقعَدُكَ حتى يبعثَكَ الله»[5]؟!

فوا أسفَ المُهدَّدِ! كم يُقتَلُ قبلَ القتلِ، ويا طِيبَ عيشِ الموعُودِ بأزيَدِ المُنى! وليعلَمْ مَن شارفَ السبعين أنّ النَّفَسَ أنينٌ، أعانَ الله مَن قد قطعَ عقبةَ العُمُرِ على رملِ زَرُودِ[6] الموت.

---

(١) سقطت من (ك، س).

(٢) المِنزَع بكسر الميم وفتح الزاي: السهم. شمس العلوم (١٠: ٦٥٥٧).

(٣) سِيَة القوس: ما عُطِف من طرفاها.

(٤) القاب: ما بين المقبض وطرف القوس.

(٥) البخاري (١٣٧٩)، ومسلم (٢٨٦٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٦) زرود: صحراء بين الثعلبية والخزيمية للقادم إلى مكة من العراق.

٣٤٣- فَصْلٌ

[فضل النبيّ ﷺ على سائر الأنبياء]

مَـن أراد أن يعلـمَ حقيقةَ الرضا عنِ الله عز وجل في أفعالِه، وأن يدريَ مِن أين نشـأ الرضـا، فليتفكَّرْ في أحوالِ رسُـولِ الله ﷺ، فإنّه لمّـا تكاملَت معرفتُه بالخالـقِ سُـبحانَه رأى أنّ الخالِقَ مالكٌ، وللمالـكِ التصرُّفُ في مملُوكِه، ورآهُ حكيمًـا لا يصنعُ شـيئًا عبثًا، فسـلَّم تسـليمَ مملـوكٍ لحكيم، فكانـتِ العجائبُ تجري عليه، ولا يوجدُ مِنهُ تغيُّرٌ، ولا مِن الطَّبعِ تأفُّفٌ، ولا يقولُ بلسانِ الحال: «لو كان كذا»، بل يَثبُتُ للأقدارِ ثُبوتَ الجبلِ لعواصِفِ الرياحِ.

هـذا الرجُـلُ[١] ﷺ بُعِثَ إلى الخلقِ وحدَه، والكُفرُ قد ملأ الآفاق، فجعلَ يفِرُّ مِن مكانٍ إلى مكان، واستترَ في دارِ الخيزُران[٢]، وهم يضرِبُونه إذا خرج، ويُدمُونَ عَقِبَيه، وشُقَّ السَّلَى على ظهرِه وهو ساكتٌ ساكنٌ، ويخرجُ كُلَّ موسمٍ فيقولُ: «مَن يُؤوِيني؟ مَن يَنصُرُني؟»[٣]، ثُمّ خرجَ مِن مكّةَ، فلم يقدِرْ على العَودِ إلا في جوارِ كافرٍ.

ولم يُوجد مِن الطبع تأفُّف، ولا مِن الباطِنِ اعتراض، إذ لو كان غيرَه لقال: يا ربِّ أنتَ مالكُ الخَلق، وقادرٌ على النصر، فلِمَ أُذَلُّ؟! كما قال عُمرُ رضي الله عنه يومَ صلحِ الحديبية: ألسـنا على الحقّ؟ فلِمَ نُعطي الدَّنِيّةَ في دينِنا؟ ولمّا قال هذا

(١) على حاشية (ص) بقلم مغاير: «مطلب في قول الشيخ: (هذا الرجل)، عن سيد الأولين ﷺ. فكيف يُعترَض على من قال: (قال الرجل)، في حق غيره من الأولياء؟! وفَّق الله من اعترض وهداه».

(٢) هي التي كانت تُسـمّى دار الأرقم بن أبي الأرقم، والخيزران هي زوجة الخليفة العباسي المهدي. انظر: المنتظم (٢: ٣٨٠).

(٣) تقدم في الفصل ٣٣٩.

قال له رسـول ﷺ: «إنّي عبدُ الله، ولن يُضيِّعَني»[١]، فجمعتِ الكلمتانِ الأصلَينِ اللذَيـنِ ذكرناهُمـا، فقولـه: «إنّي عبدُ الله» إقـرارٌ بالمُلك، وكأنّهُ قـال: أنا مملوكُه يفعلُ بي ما شاء، وقوله: «لن يُضيِّعَني» بيانُ حِكمتِه، وأنّهُ لا يفعلُ شيئًا عبثًا.

ثُمّ يُبتلى بالجُوعِ فيشُدُّ الحَجَر[٢]، ولله خزائنُ السماواتِ والأرض، ويُقتَلُ أصحابُه، ويُشَـجُّ وجهُه، وتُكسَـرُ رَباعِيَتُه، ويُمثَّلُ بعمِّه، وهو ساكت. ثُمّ يُرزَق ابنًـا ويُسـلَب مِنـه، فيتعلَّلُ بالحسـنِ والحُسـين، فيُخبَـرُ بما سـيجري عليهما، ويسـكُنُ بالطبعِ إلى عائشـةَ رضي الله عنها، فيُنغَّصُ عيشُـه بقذفِها، ويبالِغُ في إظهارِ المعجزاتِ، فيُقامُ في وجهِه مُسيلِمةُ والعَنسيُّ وابنُ صائدٍ، ويُقِيمُ ناموسَ الأمانةِ والصدق، فيقال: كذّابٌ ساحرٌ.

ثُمّ يُقلِقُهُ المرضُ كما يُوعَكُ رجُلان[٣]، وهو ساكنٌ ساكت، فإن أخبرَ بحالِه فليُعلِّمَ الصبر، ثُمّ يُشدَّدُ عليهِ الموتُ، فيُسلَبُ رُوحَه الشريفةَ وهو مُضطجعٌ في كِساءٍ مُلبَّد، وإزارٍ غليظ، وليس عِندهم زيتٌ يُوقَدُ بِهِ المِصباحُ لَيلَتَئذٍ.

هـذا شـيءٌ مـا قدرَ علـى الصبرِ عليه ـ كما ينبغـي ـ نبيٌّ قبلَه، ولـو ابتُليتْ به الملائكةُ ما صبرَت، هذا آدمُ عليه السلام يُباحُ له[٤] الجنّةُ سوى شجرةٍ، فلا يقعُ ذُبابُ حِرصِهِ إلا على العَقر[٥]، ونبيُّنا ﷺ يقولُ في المُباح: «ما لي وللدُّنيا؟!»[٦].

---

(١) البخاري (٣١٨٢)، ومسلم (١٧٨٥) من حديث سهل بن حنيف رضي الله عنه.

(٢) مسلم (٥٣٧٣) من حديث أنس رضي الله عنه، بمعناه.

(٣) البخاري (٥٦٤٧)، ومسلم (٢٥٧١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٤) سقطت من (ك، ح، ص، د، م).

(٥) العقر: الجرح، وذباب حرصه: شـبَّه الحرص بالسـيف، وذبابه: رأسـه الذي يجرح، فكأن الحرص ينكأ جرحًا قديمًا.

(٦) تقدم في الفصل ٢٦٢.

وهـذا نُوحٌ عليه السـلام يَضـجُّ مِمّا لاقى، فيَصِيحُ من[1] كَمَـدِ وَجدِه: ﴿لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[2] [نوح: ٢٦]، ونبيُّنا ﷺ يقُول: «اللهمَّ اهدِ قومي، فإنّهم لا يعلمُون».

هذا الكَلِيمُ ﷺ، يستغيثُ عند عِبادةِ قومِه العِجلَ على القدَر: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، ويُوجَّهُ إليهِ مَلَكُ الموتِ فيقلعُ عينَه.

وعيسى ﷺ يقُول: «إن صرفتَ الموتَ عن أحدٍ فاصرِفْه عنّي»، ونبيُّنا ﷺ يُخيَّرُ بين البقاءِ والموت، فيختارُ الرحيلَ إلى الرفيقِ الأعلى[3].

هذا سليمانُ ﷺ يقول: ﴿وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا﴾ [ص: ٣٥]، ونبيُّنا ﷺ يقُول: «اللهمَّ اجعلْ رِزقَ آلِ مُحمّدٍ قُوتًا»[4].

هذا ـ والله ـ فِعلُ رجُلٍ عرَف الوجُودَ والمُوجِد، فماتَتْ أغراضُه، وسكنتِ اعتِراضاتُه، فصار هواهُ فيما يجري.

٣٤٤ـ فَصْلٌ
[فتنةُ الشهوات]

أكثرُ شـهواتِ الحِسِّ النِّسـاءُ، وقد يرى الإنسـانُ امرأةً في ثيابِها، فيتخايَلُ له أنّها أحسـنُ مِن زوجتِه، أو يتصوَّرُ بفكرِه المُستحسَـناتِ، وفكرُهُ لا ينظرُ إلا إلى الحَسَـنِ مِن المرأة، فيسـعى في التزويجِ والتسرِّي، فإذا حصلَ له مُرادُه لم يزلْ ينظُرُ في عُيوبِ الحاصِلِ التي ما كان يتفكَّرُ فيها، فيمَلُّ ويطلبُ شيئًا آخرَ،

(١) عن (د).
(٢) «من الكافرين» عن (د).
(٣) البخاري (٤٤٦٦) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.
(٤) البخاري (٦٤٦٠)، ومسلم (١٠٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ولا يدري أنّ حُصُولَ غرضِهِ في الظاهِرِ رُبّما اشتملَ على مِحَنٍ؛ منها: أن تكُونَ الثانيةُ لا دينَ لها، أو لا عقل، أو لا محبّةَ له، أو لا تدبيرَ، فيُفوِّتُ أكثرَ مِمّا حَصَّلَ. وهذا المعنى هو الذي أوقَعَ الزُّناةَ في الفواحِش؛ لأنّهُم يُجالِسُون المرأةَ حالَ استتارِ عُيوبِها عنهُم وظهورِ محاسِنِها، فتلَذُّ لهم تِلك الساعةَ، ثُمّ ينتقِلُون إلى أُخرى.

فليعلَمِ العاقِلُ أنّه لا سبيلَ إلى حُصُولِ مُرادٍ تامٍّ كما يُريد: ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِۚ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، وما عِيبَ نِساءُ الدنيا بأحسنَ مِن قوله عز وجل: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌۖ﴾ [البقرة: ٢٥]، وذو الأنَفة يأنَفُ مِنَ الوسَخِ صُورةً، وعَيبِ الخُلُقِ معنًى، فليقنَعْ بما باطنُه الدين، وظاهِرُه السترُ والقناعة، فإنّه يعيشُ مُرفَّهَ السِّرّ، طيِّبَ القلب، ومتى ما استكثر فإنّما يستكثِرُ مِن شُغلِ قلبِه ورِقّةِ دينِه.

٣٤٥- فَصْلٌ
[تعدُّد الصناعات]

سبحان مَن شغلَ كلَّ شخصٍ بفنٍّ؛ لتنامَ العيونُ في الدنيا، فأمّا في العلومِ فحبَّبَ إلى هذا القرآنَ، وإلى هذا الحديثَ، وإلى هذا النحوَ؛ إذ لولا ذلك ما حُفِظَتِ العلومُ.

وألهمَ هذا المُتعيِّشَ أن يكُونَ خبّازًا، وهذا أن يكُونَ هرّاسًا، وهذا أن ينقُلَ الشوكَ مِن الصحراء، وهذا أن يُنقِّيَ البِئار[1]؛ ليلتئمَ أمرُ الخَلق، ولو ألهمَ أكثرَ الناسِ أن يكُونوا خبّازين مثلًا بات الخُبز وهلكَ، أو هرّاسِين جافَتِ[2]

(١) البئار: جمع بئر.
(٢) جافت: أنتنَت.

الهَرايِس، بل يُلهِمُ هذا بقَدَرٍ، لينتظمَ أمرُ الدنيا وأمرُ الآخِرة.

ويندُرُ مِن الخَلقِ مَن يُلهِمُهُ الكمالَ وطلبَ الأفضل، والجمعَ بين العُلومِ والأعمال، ومُعاملاتِ القُلوب، وتتفاوَت أربابُ هذه الحال، فسُبحانَ مَن يخلُقُ ما يشاءُ ويختار، نسألُه العفوَ إن لم يقعِ الرضا، والسلامةَ إن لم نصلُح للمعاملة.

٣٤٦- فَصْلٌ
[أحاديث الزُّهد]

عِلمُ الحديثِ هو الشريعة؛ لأنّه مُبيِّنٌ للقرآن، ومُوضِّحٌ للحلالِ والحرام، وكاشفٌ عن سِيَرِ الرسُول ﷺ وسِيَرِ أصحابه، وقد مزجُوه بالكذب، وأدخلُوا في المنقولات كُلَّ قبيح، فإذا وُفِّقَ الزاهِدُ والواعظُ لم يذكُرا إلا ما شُهِد بصحتِه، وإن حُرِما التوفيقَ عمِلَ الزاهِدُ بكُلِّ حديثٍ يسمعُه لحُسنِ ظنِّه بالرُّواة، وقال الواعظُ كُلَّ شيءٍ يراه لجهلِه بالصحيح، ففسدَت أحوالُ الزاهد، وانحرفَ عن جادّةِ الهُدى وهو لا يعلَم.

وكيف لا وعُمومُ الأحاديثِ الدالّةِ على الزُّهدِ لا تثبُتُ؟! مِثلَ حديثِ ابنِ عُمرَ رضي الله عنهما: «أيّما امرئٍ مُسلِمٍ اشتهى شهوة، فردَّ شهوتَه، وآثرَ على نفسِه، غُفِرَ له»(١)، وهذا حديثٌ موضوع، يمنعُ الإنسانَ ما أُبيحَ له مِمّا يتقوّى بهِ على الطاعة. ومِثلَ قوله: «مَن وضعَ ثيابًا حِسانًا»(٢)، وكذلك ما رَوَوا: أنّ رسُولَ الله ﷺ قُدِّمَ له أُدمانِ(٣)، فقال: «أُدمانِ في قَدَحٍ! لا حاجةَ لي فيه،

---

(١) رواه ابن عدي في الكامل في ضعفاء الرجال (٦: ٢٢٣).

(٢) رواه الترمذي (٢٤٨١) بمعناه، قال ابن الجوزي في العلل المتناهية (١١٢٩): هذا حديث لا يصح.

(٣) الأُدم: ما يُؤكَل بالخبز، أيَّ شيء كان.

أكـرهُ أن يسـألَني الله عن فُضولِ الدنيا»[١]، وفي «الصحيح» أنّ رسُـول الله ﷺ أكلَ البِطّيخَ بالرُّطَبِ[٢]. ومثلُ هذا إذا تُتُبِّعَ كثير، فقد بَنَوا على فسـادِه، فتفسُـدُ أحوالُ الواعِظِ والموعوظ؛ لأنّه يبني كلامَه على أشياءَ فاسدةٍ ومُحالاتٍ.

ولقـد كان جماعـةٌ مِـن المُتزهِّدين يعملُـون على أحاديـثَ ومنقُولاتٍ لا تصحُّ، فيضيعُ زمانُهم في غيرِ المشـرُوع، ثُمّ يُنكرُون على العُلماءِ اسـتِعمالَهم للمباحاتِ، ويرون أنّ[٣] التجفُّفَ هو الدين.

وكذلك الوُعّاظُ يُحدِّثون الناسَ بما لا يصِحُّ عنِ الرسُولِ ﷺ ولا أصحابِه، فقد صار المُحالُ شريعةً عِندهُم. فسُبحان مَن حفِظَ هذه الشريعةَ بأحبارٍ أخيارٍ، ينفُون عنها تحريفَ الغالين، وانتِحالَ المُبطِلين.

٣٤٧- فَصْلٌ
[مُسندُ أحمد]

كان قـد سـألني بعـضُ أصحـابِ الحديث: هل في مُسـندِ أحمـدَ ما ليس بصحيحٍ؟ فقُلتُ: نعم، فعظُمَ ذلك على جماعةٍ يُنسَبون إلى المذهب، فحملتُ أمرَهـم على أنّهُم عوامّ، وأهملـتُ فِكرَ ذلك، وإذا بهم قد كتبُوا فتاوى، فكتبَ فيهـا جماعـةٌ مِن أهلِ خُراسـان ـ مِنهُم أبو العـلاءِ الهَمَذانـيّ[٤] ـ يعظِّمُون هذا القولَ، ويردُّونه ويُقبِّحُون قولَ مَن قاله!

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٤٨٩٤)، وفيه نعيم بن مورّع العنبري، وهو منكر الحديث.

(٢) تقدم في الفصل ١٦١.

(٣) سقطت من (ح، ص، م).

(٤) هـو الحسـن بـن أحمد بن الحسـن، الإمـام، الحافظ، المقرئ، شـيخ الإسـلام، وشـيخ همذان بلا مدافعة، توفي سنة ٥٦٩هـ. سير أعلام النبلاء (٢١: ٤٠).

فبقِيتُ دَهِشًا مُتعجِّبًا، وقلتُ في نفسي: وا عجبًا! صار المُنتسبُون إلى العِلمِ عامّةً أيضًا، وما ذاك إلا لأنّهُم سمِعُوا الحديثَ ولم يبحثُوا عن صحيحِه وسقيمِه، وظنُّوا أنّ مَن قال ما قلتُه قد تعرَّضَ للطعنِ فيما أخرجَهُ أحمدُ، وليس كذلك، فإنّ الإمامَ أحمدَ روى المشهُورَ والجيِّدَ والرديءَ، ثُمّ هو قد ردَّ كثيرًا مِمّا رَوى، ولم يقُلْ به، ولم يجعلْهُ مذهبًا له، أليس هو القائلَ في حديثِ الوضوءِ بالنبيذ[1]: مجهول؟!

ومَن نظرَ في كِتابِ «العِلل» الذي صنَّفه أبو بكرِ الخَلّالُ، رأى أحاديثَ كثيرةً، كُلُّها في «المُسنَدِ»، وقد طعنَ فيها أحمدُ.

ونقلتُ مِن خطِّ القاضي أبي يعلى مُحمّدِ بنِ الحُسينِ بنِ الفرّاءِ في «مسألة النبيذ» قال: إنّما روى أحمدُ في «مُسندِه» ما اشتهر، ولم يقصِدِ الصحيحَ ولا السقيم، ويدلُّ على ذلك أنّ عبدَ الله قال: قُلتُ لأبي: ما تقولُ في حديثِ ربعيِّ بنِ حِراشٍ عن حُذيفةَ؟ قال: الذي يرويه عبدُ العزيزِ بنُ أبي رَوّادٍ؟ قُلتُ: نعم. قال: لا، الأحاديثُ بخلافِه. قُلتُ: فقد ذكرتَه في «المُسند»؟ قال: قصدتُ في «المُسنَدِ» المشهُورَ، فلو أردتُ أن أقصدَ ما صحَّ عِندي لم أُورِدْ من هذا المُسنَدِ إلا الشيءَ بعد الشيءِ اليسير، ولكنّكَ يا بُنيَّ تعرِفُ طريقتي في الحديث، لستُ أُخالِفُ ما ضعُفَ مِن الحديثِ إذا لم يكُنْ في البابِ شيءٌ يدفعُه[2].

قال القاضي رحمه الله: وقد أخبرَ عن نفسِه كيف طريقُه في «المُسند»، فمَن جعلَه أصلًا للصحةِ فقد خالفَه وتركَ مقصدَه.

---

(١) رواه الترمذي (٨٨)، وقال: وأبو زيد رجُل مجهول.

(٢) ذكره أبو موسى المديني في خصائص مسند الإمام أحمد (ص٢١).

قُلـتُ: قـد غمَّني في هذا الزمانِ أنّ العُلماءَ ـ لتقصيرِهم في العِلمِ ـ صاروا كالعامّـة، وإذا مـرَّ بهِم حديثٌ موضوعٌ قالوا: قد رُوِيَ! والبُكاءُ ينبغي أن يكُونَ على خساسةِ الهِمَم، ولا حولَ ولا قُوّةَ إلا بالله العليِّ العظيم.

٣٤٨- فَصْلٌ

[الأنفةُ من الرذائل]

بلغني عن بعضِ فُسّاقِ القُدماءِ أنّه(١) كان يقول(٢): [الخفيف]

مـا أرى العَيشَ غيرَ أنْ تُتبِعَ النَّفـ ـسَ هَواها، فمُخطِئًا أو مُصِيبا!

فتدبَّـرتُ حـالَ هـذا، وإذا بـهِ ميِّتُ النفس، ليـس له أَنَفةٌ علـى عِرضِه، ولا خـوفُ عـارٍ، ومِثـلُ هذا ليـس في مِسـلاخِ(٣) الآدميين! فإنّ الإنسـانَ قـد يُقدِمُ علـى القتـلِ لئلّا يُقـال: جبان، ويحمِلُ الأثقـالَ ليُقال: ما قصَّـر، ويخافُ العارَ فيصبرُ على كُلِّ آفةٍ مِن الفقر، وهو يستُرُ ذلك حتّى لا يُرى بعينٍ ناقصة، حتّى إنّ الجاهِـلَ إذا قيـل له: يـا جاهِل، غضِب، واللُّصـوصُ المُتهيِّئُون للحرام، إذا قـال أحدُهم للآخرِ: لا تتكلَّـم، فإنّ أُختَك تفعلُ وتصنع! أخذتْهُ الحَمِيّة، فقتلَ الأُخت. ومَن له نفسٌ لا يقفُ في مقام تُهمة، لئلّا يُظَنَّ به.

فأمّا مَن لا يُبالي أن يُرى سكران، ولا يُهِمُّه إن شُهِرَ بين الناس، ولا يُؤلِمُه ذِكرُ الناسِ له بالسُّوء، فذاك في عِدادِ البهائم.

وهـذا الـذي يُريدُ أن يُتبِعَ النفسَ هواها لا يلتذُّ به إلا ألا يخافَ(٤) عَنتًا ولا لومًا، ولا يكُونُ له عِرضٌ يحذَرُ عليه، فهو بهيمةٌ في مِسلاخِ إنسانٍ.

---

(١) سقطت من (ح، ص).

(٢) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٣: ٤٢٠).

(٣) مِسلاخ: جِلد.

(٤) في النسخ: «إلا أن يخاف»، والمثبت عن (ط).

وإلا، فأيُّ عيشٍ لمَن شـرِبَ الخمر، فأُخِذَ عَقِيبَ ذلك[١] وضُرِب، وشـاع فـي النـاسِ ما قد فُعِلَ بـه؟! أما يَفي[٢] ذلك باللذّة؟ لا، بل يُرْبِي عليها أضعافًا، وأيُّ عيشٍ لمَن ساكنَ الكسلَ إذا رأى أقرانَهُ قد برزُوا في العِلمِ وهو جاهِلٌ؟! أوِ استغنَوا بالتجارة وهو فقير، فهل يبقى للالتذاذِ بالكسلِ والراحةِ معنًى؟! ولو تفكَّـر الزانـي في الأُحدوثة عنه، أو تصوَّر أخذَ الحدِّ مِنه، لكفَّ الكفَّ، غيرَ أنّه يرى لذّةً حاضِرةً كأنّها لمعُ برقٍ، ويا شُؤمَ ما أعقبَتْ مِن طُولِ الأسى!

هـذا كُلُّـهُ في العاجِـل، فأمّا فـي الآجِل فنغصـةُ العـذابِ دائمـة، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا﴾ [الشورى: ١٨]، نسألُ الله أنفةً مِن الرذائل، وهمّةً في طلبِ الفضائل، إنّه قريبٌ مُجيب.

٣٤٩- فَصْلٌ
[عاقبةُ الخطيئة]

قـد تبغَـتُ العُقُوبـات، وقـد يُؤخِّرُها الحِلـمُ، والعاقِلُ مَـن إذا فعلَ خطيئةً بادرها بالتوبة، فكم مغرُورٍ بإمهالِ العُصاةِ لم يُمهَل! وأسـرعُ المعاصي عُقُوبةً مـا خلا عن لذّةٍ تُنسـي النُّهـى، فتكونُ تلك الخطيئةُ كالمُعانَـدةِ والمُبارَزة، فإن كانـت تُوجِـبُ اعتراضًـا على الخالِـق، أو مُنازعةً له في عظمتِـه، فتلك التي لا تُتلافى، خصوصًا إن وقعتْ مِن عارِفٍ بالله، فإنّه ينذُرُ إهمالُه.

قال عبدُ المجيدِ بنُ عبدِ العزيزِ[٣]: كان عندنا بخُراسانَ رجُلٌ كتبَ مُصحفًا فـي ثلاثـةِ أيّـام، فلقيَـه رجُـلٌ فقال: فـي كم كتبـتَ هذا؟ فقـال وأومَأَ بالسـبّابة

(١) زاد في (س): «باللذة».
(٢) في (ك، ح، س، ص): «بقي».
(٣) هـو عبد المجيـد بـن عبد العزيـز بن أبي روّاد، شـيخ الحرم، وكان مـن علماء المُرجِئة، تُوفي سـنة ٢٠٦هـ. سير أعلام النبلاء (٩: ٤٣٤).

والوُسطى والإبهام وقال: في ثلاثٍ، ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، فجفَّتْ أصابعُه الثلاث، فلم ينتفعْ بها فيما بعد[١].

وخطرَ لبعضِ الفُصحاءِ أنّه يقدرُ أن يقُولَ مِثلَ القُرآن، فصعِدَ إلى غُرفة، فانفردَ فيها، وقال: أمهِلُوني ثلاثًا، فصعِدُوا إليهِ بعد الثلاث، ويدُه قد يبِسَتْ على القلم، وهو ميِّت.

قال عبدُ المجيد: ورأيتُ رجلًا كان يأتي امرأتَهُ حائضًا، فحاضَ[٢]، فلمّا كثُرَ الأمرُ بهِ تاب، فانقطعَ عنه.

ويلحقُ هذا أن يُعيِّرَ الإنسانُ شخصًا بفعل، وأعظمُه أن يُعيِّرَه بما ليس إليه، فيقول: يا أعمى، ويا قبيحَ الخِلقة. وقد قال ابنُ سيرين: «عيَّرتُ رجلًا بالفقر، فحُبِستُ على دَين»[٣].

وقد تتأخَّرُ العُقُوبةُ وتأتي في آخِرِ العُمر، فيا طُولَ التعثيرِ مع كِبَرِ السِّنِّ لذُنوبٍ كانت في الشباب!! فالحذرَ الحذرَ مِن عواقِبِ الخطايا، والبِدارَ البِدارَ إلى مَحوِها بالإنابة، فلها تأثيراتٌ قبيحةٌ إن أسرعَت، وإلا اجتمعَت وجاءت.

٣٥٠- فَصْلٌ

[الاستغناءُ عن الناس]

اعلم أنّ الآدميَّ قد[٤] خُلِقَ لأمرٍ عظيم، فهُو مُطالَبٌ بمعرِفةِ خالِقِهِ بالدليل، ولا يكفيهِ التقليد، وذلك يفتقرُ إلى جمعِ الهمِّ في طلبِه، وهو مُطالَبٌ بإقامةِ المفروضات،

---

(١) رواه ابن حبان في الثقات (٨: ١٠).

(٢) يعني: نزف دمًا لمرض ما، وإنما أطلقوا عليه لفظ الحيض مُشاكَلة. انظر: صيد الخاطر (ص٥٠١، هامش ١) من طبعة دار ابن خزيمة.

(٣) تقدم في الفصل ١٨.

(٤) سقطت من (س، م).

واجتنابِ المحارم، فإن سَمَتْ هِمّتُه إلى طلبِ العِلمِ احتاجَ إلى زيادةِ جمعِ الهمّ، فأسعدُ الناسِ مَن له قوتٌ دارٌّ بقدرِ الكِفاية، لا مِن مِنَنِ الناسِ وصدقاتِهم، وقد قنعَ به، فإنّه حينئذٍ يجتمعُ همُّه لمطلوباتِه مِن الدينِ والدنيا والعلم.

وأمّا إذا لم يكُن له قُوتٌ يكفي، فالهمُّ الذي يُريدُ اجتِماعَهُ في تِلك الأُمُور يتشتَّتُ، ويصيرُ طالبًا للتحيُّل في القُوت، فيذهبُ العُمُرُ في تحصيلِ قُوتِ البدن الذي يُريدُ مِن بقائه غيرَ بقائه، ويُفوِّتُ المقصُودَ ببقائه، ورُبّما احتاج إلى الأنذال! قال الشاعر[1]: [مخلع البسيط]

حَسبِي مِنَ الدَّهرِ ما كَفاني ... يَصُونُ عِرضِي عَنِ الهَوانِ
مَخافَةً أنْ يقُولَ قَومٌ ... فَضلُ فُلانٍ على فُلانِ

فينبغي للعاقلِ إذا رُزِقَ قُوتًا، أو كان له موادُّ أن يحفظَها، ليجتمعَ همُّه، ولا ينبغي أن يُبذِّر في ذلك، فإنّه يحتاجُ فيتشتَّتُ همُّه، والنفسُ إذا أحرزَتْ قُوتَها اطمأنَّت، فإن لم يكُنْ له مالٌ[2] اكتسبَ بقدرِ كِفايتِه، وقلَّلَ العُلَقَ[3] ليجمعَ همَّه، وليْقنَعْ بالقليل، فإنّه متى سَمَتْ هِمَّتُه إلى فضُولِ المالِ وقعَ المحذُورُ مِنَ التشتُّتِ؛ لأنّ التشتُّتَ في الأولِ للعدم، وهذا التشتُّتُ يكُونُ للحرص على الفُضُول، فيذهبُ العُمُرُ على البارِد: [الطويل]

ومَن يُنفِقِ الأيّامَ في حِفظِ[4] مالِهِ ... مَخافَةَ فَقرٍ فالذِي فَعَلَ الفَقرُ[5]

---

(١) ذكره ابن عبد البر في بهجة المجالس وأنس المجالس (٢: ٣١٣).

(٢) عن (س).

(٣) في (ط): «الغلو»، وفي (ي): «العلف»، والعُلَق: جمع عُلْقة، وهي كل ما يُكتفى به من العيش.

(٤) في (د، ي): «جمع».

(٥) ذكره الصاحب بن عباد في الأمثال السائرة من شعر المتنبي (ص٣١).

فافهَم هـذا يـا صاحِبَ الهِمّـةِ في طلبِ الفضائـل، فإنّكَ ما لم تعـزِلْ قُوتَ الصبيانِ شتَّتوا قلبَك، وطبعُكَ طِفلٌ، ففرِّغْ همَّكَ مِن استعانتِه، واعرِفْ قدرَ شرفِ المـالِ الـذي أوجبَ جمعَ همِّك، وصانَ عِرضَك عنِ الخلق، وإيّاك أن يحملَك الكرمُ على فَرطِ الإخراج، فتصيرَ كالفقيرِ المُتعرّضِ لكَ بالتعرُّضِ لغيرك.

وفي الحديث: أنّ رجلًا أتى رسُولَ الله ﷺ، فرأى عليهِ آثارَ الفقر، فعرَّضَ به، فأُعطِيَ شيئًا، فجاء فقيرٌ آخرُ، فآثرَه الأوّلُ ببعضِ ما أُعطِيَ، فرماهُ النبيُّ ﷺ إليه[١]، ونهاهُ عن مِثلِ ذلك[٢].

والقناعةُ بما يكفي، وتركُ التشوُّفِ إلى الفُضُولِ أصلُ الأصول، ولما آيسَ الإمامُ أحمدُ بنُ حنبلٍ رحمه الله نفسَه مِن قَبولِ الهدايا والصِّلاتِ اجتمعَ همُّه، وحسُنَ ذِكرُه، ولمّا أطمعَها ابنُ المدينيِّ وغيرُه سقطَ ذكرُهم.

ثُمّ فيمن يطمع؟! إنّما هو سُلطانٌ جائر، أو مُزَكٍّ مَنّانٌ، أو صديقٌ مُذِلٌّ بما يُعطي، والعزُّ ألذُّ مِن كُلِّ لذّة، والخروجُ عن رِبقةِ المِنَنِ ولو بسَفِّ التُّراب.

٣٥١- فَصْلٌ

[التجلُّد عند النكبات]

قـد رُكِـزَ في الطباعِ حُبُّ التفضُّلِ على الجِنسِ، فما أحدٌ إلا وهو يُحِبُّ أن يكُـونَ أعلـى درجةً مِـن غيرِه، فإذا وقعتْ نكبةٌ أوجبتْ نُزُولَهُ عن مرتبةِ سـواه، فينبغي له أن يتجلَّدَ بسَترِ تِلك النكبةِ لئلا يُرى بعينِ نقصٍ، وليتحمَّلِ المُتعفِّفُ حتّى لا يُرى بعينِ الرحمة، وليتحاملِ المريضُ لئلّا يشمَتَ بهِ ذو العافية.

---

(١) سقطت من (س، م).

(٢) أبو داود (١٦٧٥) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه بمعناه.

وقد قال ﷺ لأصحابه حين قَدِموا مكةَ، وقد أخذَتهم الحُمّى، فخاف أن يشمتَ بهم الأعداءُ حين ضعفِهم عنِ السعي، فقال: «رحِمَ الله مَن أظهرَ مِن نفسِه الجَلَد»(١)، فرَمَلُوا ـ والرَّمَلُ: شِدّةُ السعيِ ـ وزال ذلك السببُ، وبقيَ الحُكم؛ ليُتذكَّرَ السببُ، فيُفهَمَ معناه.

واستأذنُوا على مُعاويةَ وهو في الموت، فقال لأهلِه: أجلِسوني! فقعدَ مُتمكِّنًا يُظهِرُ العافية، فلمّا خرجَ العُوّاد، أنشد(٢): [الكامل]

وتَجَلُّدِي لِلشامِتِينَ أُريهِمُ ... أنّي لِرَيبِ الدَّهرِ لا أتَضَعضَعُ

وإذا المَنِيّةُ أنشَبَتْ أظفارَها ... ألفَيتُ كُلَّ تَميمَةٍ لا تَنفَعُ

وما زال العُقلاءُ يُظهِرُون التجلُّدَ عند المصائبِ والفقرِ والبلاء، لئلّا يحمِلُوا مع النوائبِ شماتةَ الأعداء، وإنّها أشدُّ مِن كُلِّ نائبة، وكان فقيرُهم يُظهِرُ الغِنى، ومريضُهم يُظهِرُ العافية.

بلى، ثَمّ نُكتةٌ ينبغي أنْ تُفهَمَ: رُبّما أظهَر الإنسانُ كثرةَ المالِ وسُبوغَ النِّعَم، فأصابه عدُوُّه بالعين، فلا يَفِي ما تبجَّحَ بهِ بما يُلاقِي من انعكاسِ النعمة، والعينُ لا تُصيبُ إلا ما يُستحسَنُ(٣) للشيء، ولا يكفي الاستِحسانُ في إصابةِ العينِ حتّى يكُونَ مِن حاسِد، ولا يكفي ذلك حتّى يكُونَ مِن شِرِّيرِ الطبع، فإذا اجتمعَتْ هذه الصِّفاتُ خِيفَ مِن إصابةِ العين(٤).

---

(١) بمعناه رواه البخاري (٤٢٥٦)، ومسلم (١٢٦٦) من غير قوله: «رَحِم الله مَن أظهرَ مِن نفسه الجَلَد».

(٢) رواه محمد بن سعد في الطبقات الكبير (٦: ٣١)، والبيتان لأبي ذؤيب الهذلي في شرح أشعار الهذليين (١: ٨، ١٠).

(٣) في النسخ: «من يستحسن»، والمثبت عن (ط).

(٤) هذا الكلام فيه نظر؛ فقد يصيب المرء نفسه بالعين كما ورد فيما صحَّ عن النبي ﷺ عند الحاكم =

فليكـنِ الإنسـانُ مُظهِـرًا للتجمُّـل مِقدارَ ما يأمـنُ إصابةَ العيـن، ويعلمُ أنّه فـي خيـر، وليحـذرِ الإفراطَ في إظهـارِ النِّعَم، فـإنّ العينَ هُناك محـذورة، وقد قـال يعقـوبُ لبنِيه عليهم السـلام: ﴿لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ [يوسـف: ٦٧]، وإنّمـا خـافَ عليهِم العين[1]، فليُفهَمْ هـذا الفصل، فإنّه ينفعُ مَن له تدبُّر.

٣٥٢- فَصْلٌ[2]

[درجاتُ الإيمان]

إنّما خُلِقنا لنحيا مع الخالقِ في معرِفتِه ومُحادثتِه ورُؤيتِه في البقاءِ الدائم، وإنّمـا ابتُـدِئ كونُنا فـي الدنيا؛ لأنّها في مِثالِ مَكتَبٍ نتعلّـمُ فيهِ الخطَّ والأدب، ليصلُـحَ الصبـيُّ عند بلُوغِه للرُّتَب، فمِنَ الصبيانِ بعيـدُ الذِّهن، يطُولُ مُكثُه في المَكتَب، ويخرُجُ وما فهِمَ شيئًا، وهذا مثالُ مَن لا يعلمُ وُجُودَه، ولا نال المُرادَ مِن كونِه[3].

ومِـن الصبيـانِ مَن يجمعُ ـ مع بُعـدِ ذهنِه، وقلّةِ فهمِه، وعـدمِ تعلُّمِه ـ أذى الصبيان، فهو يُؤذِيهم، ويسـرقُ مطاعمَهم، ويسـتغيثون مِن يدِه، فلا هو صلحَ، ولا فهِمَ، ولا كفَّ الشرّ، وهذا مَثَلُ أهلِ الشرِّ والمُؤذِين.

ومِن الصبيانِ مَن عَلِقَ بشـيءٍ مِن الخطّ، لكنّه ضعيفُ الاستخراج، رديءُ

= في المستدرك (٧٥٧٩): «إذا رأى أحدكم من نفسه وأخيه ما يُعجِبُه فليدعُ بالبركة، فإن العين حق». وانظر: صيد الخاطر (ص٥٠٦ هامش ١) طبعة ابن خزيمة.

(١) رواه الطبري في تفسيره (١٣: ٢٣٦).

(٢) هنا وقع تداخُل بين الفصول في (س).

(٣) سقط «من كونه» من (ك، س).

الكتابـة، فخـرجَ ولـم يعلقْ إلا بقدرِ ما يعلقُ بهِ حسـابُ مُعاملتِه، وهذا مَثَلُ مَن فهِمَ بعضَ الشيء وفاتَته الفضائلُ التامّة.

ومِنهُـم مَـن جوَّدَ الخـطَّ ولـم يتعلَّمِ الحِسـاب، وأتقـنَ الآدابَ حِفظًا، غيرَ أنّه قاصرٌ في أدبِ النفس، فهذا يصلُحُ أن يكُونَ كاتبًا للسُّـلطانِ على مُخاطرة؛ لسوءِ ما في باطنِه مِنَ الشَّرَهِ وقِلّةِ التأدُّب.

ومِنهُـم مَـن سَـمَتْ هِمّتُـه إلـى المعالـي الكامِلة، فهـو مُقـدَّمُ الصبيانِ في المَكتَب، ونائبٌ عن مُعلِّمِهم، ثُمّ يرتفِعُ عنهم بعِزّةِ نفسِه، وأدبِ باطِنِه، وإكمالِ صناعـةِ الآدابِ الظاهِـرة، ولا يـزالُ حاثٌّ من باطنِه يحثُّـه على تعجيلِ التعلُّم، وتحصيـلِ كُلِّ فضيلـة؛ لعِلمِه أنّ المَكتَبَ لا يُرادُ لنفسِـه، بـل لأخذِ الأدبِ مِنه والرحلـةِ إلـى حالةِ الرجوليّةِ والتصرُّف، فهو يُبـادِرُ الزمانَ في نَيلِ كُلِّ فضيلة، فهـذا مَثَلُ المُؤمِنِ الكامل، يسبقُ الأقرانَ يومَ التخايُـر[1]، ويعرِضُ لوحَ عملِه جيِّدَ الخطِّ، فيقولُ بلِسانِ حالِه: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾ [الحاقة: ١٩].

وكذلـك الدنيـا وأهلُها: مِن النـاس هالكٌ بعيدٌ عنِ الخالـق، وهُم الكُفّار، ومنهـم خاطـئٌ مع قليلٍ مـن الإيمان، فهو مُعاقَبٌ، والمصيـرُ إلى خير، ومنهم سليمٌ لكنّه قاصر، ومنهم تامٌّ لكنّه بالإضافة إلى مَن دُونَه، وهو ناقصٌ بالإضافة إلى مَن فوقه.

فالبِـدارَ البِـدارَ يا أربابَ الفُهوم، فإنّ الدنيا معبرٌ إلى دارِ إقامة، وسـفرٌ إلى القُـربِ من السُّـلطانِ ومُجاورتـه، فتهيَّؤوا للمجالسـة، واسـتعدُّوا للمخاطبة، وبالِغُوا في استعمالِ الأدب، لتصلُحُوا للقُربِ مِن الحضرة، ولا يشغلَنَّكُم عن

(١) يقال: تخايروا: تحاكموا في أيهم أخيَر.

تضميرِ الخيلِ[١] تكاسلٌ، وليحمِلْكُم على الجِدِّ في ذلك تذكُّركُم يومَ السِّباق، فإنّ قُربَ المُؤمِنين مِن الخالِقِ على قدرِ حَذَرِهم في الدنيا، ومنازلُهم على قدرِهم، فما منزلُ النَّفَّاطِ[٢] كمنزِلِ الحاجِب، ولا منزِلُ الحاجِبِ كمكانِ الوزير.

جنّتانِ مِن ذهبٍ آنيتُهما وما فيهما، وجنّتانِ من فضّةٍ آنيتُهما وما فيهما[٣]، والفردوسُ الأعلى لآخرين[٤]، والذين في أرضِ الجنّةِ ينظُرُون إلى أهلِ الدرجاتِ كما يرون الكوكبَ الدُّرِّيَّ[٥].

فليتذكَّرِ الساعي حلاوةَ التسليمِ إلى الأمين، وليتذكَّرْ في لذاذةِ المدحِ يومَ السباق، وليحذَرِ المُسابِقُ مِن تقصيرٍ لا يمكنُ استدراكُه، وليخفْ مِن عيبٍ يبقى قُبحُ ذِكرِه، هؤلاء الجَهَنَّمِيُّون عُتقاءُ الرحمنِ[٦]، وليُصبِّرِ الهوى عنِ المُشتهى، فالأيّامُ قلائل، «يدخُلُ فُقراءُ المُؤمِنين قبلَ الأغنياءِ إلى الجنّة بخمسِمئةِ عام»[٧]. فالجِدَّ الجِدَّ بإقدامِ المُبادرة، فقد لاحَ العِلم، خُصوصًا لمَن بانتْ له بانةُ الوادي، إمّا بالعِلمِ الدالِّ على الطريق، وإمّا بالشَّيبِ الذي هو عَلَمُ الرحيل، وهو يأمَلُه أهلُ الجِدّ.

وكان الجُنيدُ[٨] يقرأُ وقتَ خروجِ رُوحِه، فيُقالُ له: في هذا الوقت؟!

---

(١) تضمير الخيل: إعدادها للسباق. (٢) النفّاط: مُستخرِج النفط وبائعه.
(٣) البخاري (٤٨٧٨)، ومسلم (١٨٠) من حديث أبي موسى رضي الله عنه، بمعناه.
(٤) البخاري (٢٧٩٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، بمعناه.
(٥) البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، بمعناه.
(٦) البخاري (٦٥٥٩) من حديث أنس رضي الله عنه، بمعناه.
(٧) الترمذي (٢٣٥٥).
(٨) سقطت من (ح، ص).

فيقـول: أُبادِرُ طيَّ صحيفَتـي[1]. وبعد هذا، فالمُرادُ مُوفَّـق، والمطلُوبُ مُعان، وإذا أرادك لأمرٍ هيَّأك له.

٣٥٣- فَصْلٌ

[تفاوُت الهِمم]

تأمَّلـتُ حالـةً عجيبـةً، وهو أنّ أهلَ الجنّةِ السـاكِنين فـي أرضِها في نقصٍ عظيـمٍ بالإضافـةِ إلى مَن فوقهُم، وهُم يعلمُون فضـلَ أُولئك. فلو تفكَّرُوا فيما فاتهُم مِن ذلك وقعتِ الحسرات، غيرَ أنّ ذلك لا يكون؛ لأنّ ذلك لا يقعُ لهُم لطيـبِ منازِلهـم، ولا يقـعُ في الجنّةِ غـمٌّ، ويرضى كُلٌّ بما أُعطِـيَ مِن وجهَين؛ أحدهمـا: أنّـه لا يظـنُّ أن يكُـونَ نعيـمٌ فوقَ ما هو فيـه، وإن علَت منزِلـةُ غيرِه، والثاني: أنّه يُحبَّبُ إليهِ كما يُحبَّبُ إليهِ ولدُه المُسـتَوحِشُ الخِلقة، فيُؤثِرُهُ على الأجنبيِّ المُستحسَن.

إلا أنّ تحت هذا معنًى لطيفًا، وهو أنّ القومَ خُلِقَت لهُم هِمَمٌ قاصِرةٌ في الدنيا عـن طلبِ الفضائل، ويتفاوتُ قُصورُهـا، فمنهم مَن يحفظُ بعضَ القُرآنِ ولا يتُوقُ إلى التمام، ومنهم مَن يسمعُ يسيرًا مِن الحديث، ومنهم مَن يعرِفُ قليلًا مِن الفِقه، ومنهم مَن قد رضيَ مِن كُلِّ شيءٍ بيسير، ومنهم مُقتصِرٌ على الفرائض، ومنهم قَنوعٌ بصـلاةِ ركعتينِ في الليل، ولو علَت بهِـم الهِمَمُ لجدَّت في تحصيلِ كُلِّ الفضائل، ونَبَتْ[2] عن النقص، فاستخدمَتِ البدنَ، كما قال الشاعِر: [الكامل]

ولِـكُلِّ جِسـمٍ فـي النُّحُـولِ بَلِيّةٌ ... وبَلاءُ جِسمي مِن تَفاوُتِ هِمَّتِي[3]

---

(١) تقدم في الفصل ١٤.

(٢) نَبَتْ: تجافت وابتعدت.

(٣) تقدم في الفصل ١٦٩.

ويـدلُّ علـى تفـاوُتِ الهِمَم أنّ في الناسِ مَن يسـهرُ في سـماعِ سَـمَر، ولا يسهُلُ عليهِ السهرُ في سماعِ القُرآن.

والإنسـانُ يُحشَـرُ ومعـهُ تِلـك الهِمّة، فيُعطى علـى مِقدارِ مـا حصَّلتْ في الدنيـا، فكمـا لم تتُقْ[1] إلـى الكمال وقنعَت بالـدُّون، قنعَت فـي الآخِرةِ بمِثل ذلك، ثُمّ إنّ القومَ يتفكَّرون بعُقُولِهم، فيعلمُون أنّ الجزاءَ على قدرِ العمل، ولا يطمعُ مَن صلّى ركعتَينِ في ثوابِ مَن صلّى ألفًا.

فـإن قـال قائـل: فكيف يُتصوَّرُ لهـا أن ترُومَ مـا نالهُ مَن هو أفضـلُ منها؟! قلـتُ: إن لـم يُتصوَّر نيلُه يُتصـوَّرُ الحُزنُ على فوتِه؟! وهل رأيـتَ عامّيًا يحزنُ علـى فـواتِ الفقهِ حُزنًا يُقلِقُه؟! هيهاتَ، لـو كان ذلك الحُزنُ عِنده لحرَّكه إلى التشـاغُل، فليس عِندهُم هِمّةٌ تُوجِبُ الأسـف، مع أنّهم قد رضُوا بما هم فيه، فافهم ما قلتُه وبادِر، فهذا مَيدانُ السِّباق.

٣٥٤- فَصْلٌ[2]

[حكمةُ بقاء أهل الكتاب]

تفكَّـرتُ فـي إبقاءِ اليهُودِ والنصارى بيننا، وأخـذِ الجِزيةِ مِنهُم، فرأيتُ في ذلـك حِكَمًـا عجيبة، منها ما قد ذُكِر من أنّ الإسـلامَ كان ضعيفًا، فتقوّى[3] بما يُؤخَذُ مِن جزيتهم، ومنها ظُهور عِزّهِ بذُلِّهم، إلى غيرِ ذلك مِمّا قد قيل.

ووقـع لـي فيهِ معنًى عجيبٌ، وهو أنّ وُجُودَهم وتعبُّدَهم وحِفظَهم لشـرعِ نبيِّهِـم ﷺ دليـلٌ علـى أنّه قـد كان أنبياءُ وشـرائع، وأنّ نبيَّنا ﷺ ليـس ببِدعٍ مِن

(١) تاقت نفسه للشيء: اشتاقت.
(٢) بياض قدر كلمة في (ك).
(٣) في (س، م): «فيقوى».

الرُّسُل، فقدِ اجتمعَت الجِنُّ وهُم على إثباتِ صانع، وإقرارٍ برُسُل، فبان أنّنا ما ابتدعنا ما لم يكُن.

وهُم يصبِرُون على باطِلِهم ويؤدُّون الجزية، فكيف لا نصبِرُ على حقٍّ والدَّولةُ لنا؟ وفي بقائهم احترامٌ لما كان صحيحًا مِن الدين، ولِيرجعَ مُتبصِّر، ويُستعمَلَ فِكرٌ.

٣٥٥- فَصْلٌ

[أهمية التخصُّص]

قد ثبتَ بالدليل شرفُ العِلم وفضلُه، إلا أنّ طُلّاب العِلمِ افترقُوا، فكُلٌّ تدعُوهُ نفسُهُ إلى شيءٍ، فمِنهُم مَن أذهبَ عُمرَه في القراءات، وذاك تفريطٌ في العُمُر؛ لأنّه إنّما ينبغي أن يُعتمَدَ على المشهُورِ منها لا على الشاذِّ، وما أقبحَ بالقارئ أن يُسألَ عن مسألةٍ في الفِقهِ ولا يدري، وليس ما شغلَه عن ذلك إلا كثرةُ الطُّرُقِ في رِواياتِ القِراءات.

ومِنهُم مَن يتشاغلُ بالنحوِ فحسبُ وعِلَلِه، ومِنهُم مَن يتشاغلُ باللُّغةِ فحسب، ومِنهُم مَن يكتُبُ الحديثَ ويُكثِر، ولا ينظُرُ في فهمِ ما كتب، وقد رأينا في مشايِخِنا المُحدِّثين مَن كان يُسألُ عن مسألةٍ في الصلاة، فلا يدري ما يقُول، وكذلك القُرّاء، وكذلك أهلُ اللُّغةِ والنحو.

وحدَّثني عبدُ الرحمنِ بنُ عيسى الفقيهُ، قال: حدَّثني ابنُ المنصوري، قال: حضرْنا مع أبي مُحمّدِ بنِ الخشّابِ - وكان إمامَ الناسِ في النحو واللُّغةِ - فتذاكرُوا الفِقهَ، فقال: سلُوني عمّا شِئتُم، فقال له رجل: إن قيل لنا: رفعُ اليدَين في الصلاة ما هو؟ فماذا نقُول؟ فقال: هو رُكنٌ. فدُهِشَتِ الجماعةُ مِن قِلّةِ فقهِه!!

وإنّما ينبغي أن يأخُذَ مِن كُلِّ عِلمٍ طرفًا، ثُمّ يهتمَّ بالفِقه، ثُمّ ينظُرَ في مقصودِ العُلُوم، وهو المُعاملةُ لله سُبحانه، والمعرِفةُ به، والحُبُّ له.

وما أبلهَ مَن يقطعُ عُمُرَه في معرِفة عِلمِ النُّجُوم، وإنّما ينبغي أن يعرِفَ مِن ذلك التسييرَ[1] والمنازِلَ لعِلمِ الأوقات، فأمّا النظرُ فيما يُدَّعى أنّه القضاءُ والحُكمُ فجهلٌ محضٌ؛ لأنّه لا سبيلَ إلى عِلمِ ذلك حقيقةً، وقد جُرِّبَ فبانَ جهلُ مُدَّعيه، وقد تقعُ الإصابةُ في وقت، وعلى تقديرِ الإصابةِ لا فائدةَ فيهِ إلا تعجيلُ الغمِّ، فإن قال قائل: يُمكِنُ دفعُ ذلك، فقد سلَّم أنّه لا حقيقةَ له.

وأبلهُ مِن هؤُلاء مَن يتشاغلُ بعِلمِ الكيمياء[2]، فإنّه هذيانٌ فارغٌ، وإذا كان لا يُتصوَّرُ قلبُ الذَّهبِ نُحاسًا، لم يُتصوَّرْ قلبُ النُّحاسِ ذهبًا، وإنّما فاعِلُ هذا مُستحِلٌّ للتدليسِ على الناسِ في النُّقود، هذا إذا صحَّ له مُرادُه.

وينبغي لطالبِ العِلم أن يُصحِّحَ قصدَه؛ إذ فَقدُ الإخلاصِ يمنعُ قبولَ الأعمال، وليجتهِدْ في مُجالسةِ العُلماء، والنظرِ في الأقوالِ المُختلِفة، وتحصيلِ الكُتُب، فلا يخلُو كِتابٌ مِن فائدة، وليجعلْ هِمَّتَه للحِفظ، ولا ينظُر ولا يكتُب إلا وقتَ التعبِ مِن الحِفظ، وليحذَرْ صُحبةَ السُّلطان، ولينظُرْ في مِنهاجِ الرسولِ ﷺ والصحابةِ والتابِعين، وليجتهدْ في رياضةِ نفسِه، والعملِ بعِلمِه، ومَن تولّاهُ الحقُّ وفَّقَه.



---

(١) في معجم مقاليد العلوم للسيوطي (ص١٧٤): التسيير: أن ينظر كم بين الهيلاج وبين السعد والنحس، فيؤخذ لكل من جزء سنة.

(٢) كان الغالب على صنعة الكيميائيين في عصر المصنّف تحويل المعادن الخسيسة إلى نفيسة؛ ولذلك ذمّ عملهم. انظر صيد الخاطر (ص٥١٤، هامش ١) طبعة ابن خزيمة.

٣٥٦- فَصْلٌ

[الأصنامُ والحجارة]

طالَ تعجُّبي مِن أقوامٍ لهم أنفة، وعِندهُم كِبرٌ زائدٌ في الحدِّ، خُصُوصًا العربَ الذين مِن كلِمةٍ ينفِرُون، ويُحارِبُون، ويرضَون بالقتل، حتّى إنّ قومًا مِنهم أدركُوا الإسلام، فقالُوا: كيف نركعُ ونسجُدُ فتعلُونا أستاهُنا[١]؟! فقال رسُولُ الله ﷺ: «لا خيرَ في دينٍ ليس فيهِ رُكوعٌ»[٢].

ومع هذه الأنَفةِ يذِلُّون لمَن هُم خيرٌ مِنه، وهذا يعبُدُ حجَرًا، وهذا يعبُدُ خشبة، وقد كان قومٌ يعبُدون الخيلَ والبقر! وإنّ هؤلاء لأخسُّ مِن إبليس، فإنّ إبليسَ أنِفَ ـ لادّعائهِ الكمالَ ـ أنْ يسجُدَ لناقصٍ، فقال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ [ص: ٧٦]، وفِرعونُ أنِفَ[٣] أن يعبُدَ شيئًا أصلًا! فالعجبُ مِن ذُلِّ هؤلاءِ المُفتخِرين المُتعظِّمين المُتكبِّرين لحجرٍ أو خشبة، وإنّما ينبغي أن يذِلَّ الناقصُ للكامِلين!

وقد أُشيرَ إلى هذا في ذمِّ الأصنام، في قوله[٤] تعالى: ﴿أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ﴾ [الأعراف: ١٩٥]، والمعنى: أنتم لكم هذه الآلاتُ المُدرِكةُ وهم ليس لهم، فكيف يعبُدُ الكامِلُ الناقص؟!

غيرَ أنّ هوى القومِ في مُتابعةِ الأسلاف، واستِحلاءِ[٥] ما اخترعُوهُ بآرائهم،

---

(١) جمع است، وهو العجيزة، وهذا أحد الأسماء العشرة التي سُمِعت بهمزة وصل.

(٢) رواه أبو داود (٣٠٢٦) عن الحسن، عن عثمان بن أبي العاص.

(٣) سقط «لادعائه الكمال... وفرعون أنف» من (ح، ص).

(٤) في النسخ: «وقوله» مكان «في قوله»، والمثبت عن (ط).

(٥) في (ك، ح، س): «واستجلاء».

غطّى على العُقُول، فلم تتأمّلْ حقائقَ الأمور! ثُمّ غطّى الحسدُ على أقوام، فتركُوا الحقَّ وقد عرَفُوه، فأُميةُ بنُ الصَّلتِ يُقِرُّ برسُولِ الله ﷺ، ويقصدُه ليُؤمِنَ به، ثُمّ يعودُ فيقُول: لا أُؤمِنُ لرسولٍ ليسَ مِن ثقيف[1]! وأبو جهلٍ يقُول: والله ما كذبَ مُحمّدٌ قطّ، ولكِن إذا كانتِ السِّدانةُ والحِجابةُ في بني هاشِم، ثُمّ النُّبُوّة، فما بقِيَ لنا؟! وأبو طالبٍ يرى المُعجزات، ويقُول: إنّي لأعلمُ أنّكَ على الحقّ، ولولا أن تُعيِّرَني نِساءُ قُريشٍ لأقرَرتُ بها عينَك[2]. فنعُوذُ بالله مِن ظُلمةِ حسد، وغَيابةِ كِبر، وحماقةِ هوًى يُغطِّي على نورِ العقل، ونسألهُ إلهامَ الرُّشد، والعملَ بمُقتضى الحقّ.

٣٥٧- فَصْلٌ

[درجاتُ الصالحين]

قد سمِعنا بجماعةٍ مِن الصالِحين، عاملُوا الله عز وجل على طريقِ السلامةِ والمحبّةِ واللُّطف، فعاملَهم كذلك؛ لأنّهم لا يحتمِلُ طبعُهم غيرَ ذلك، ففي الأوائل: برخٌ العابِد، خرجَ يستسقي، فقال: «ما هذا الذي لا نعرِفُهُ مِنك؟ اسقِنا الساعة»، فسُقُوا[3].

وفي الصحابة أنسُ بنُ النَّضرِ، يقُولُ: «والله لا تُكسَرُ سِنُّ الرُّبيِّع»، فجرى الأمرُ كما قال، فقال النبيُّ ﷺ: «إنّ مِن عِبادِ الله مَن لو أقسمَ على الله لأبرّه»[4].

وهؤلاءِ قومٌ غلبَ عليهم مُلاحظةُ اللُّطفِ والرفق، فلطفَ بهم، وأُجرُوا

---

(١) رواه أبو نعيم في معرفة الصحابة (٣٨٤١).

(٢) مسلم (٢٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، بمعناه.

(٣) ذكره أبو طالب المكي في قوت القلوب (٢: ١٠٧).

(٤) تقدم في الفصل ٨٩.

علـى مـا اعتقـدُوا، وهُناكَ أعلى مِـن هؤلاء يَسـألُون فلا يُجابُـون، وهُم بالمنعِ راضُـون، ليـس لأحدِهـم انبسـاط، بل قـد قَيَّدَهُم الخـوف، ونكَّسَ رؤوسَـهم الحذرُ، ولـم يروا ألسـنتَهم[1] أهلًا للانبسـاطِ، فغايةُ آمالِهم العفو، فإنِ انبسـطَ أحدُهم بسؤالٍ فلم يرَ الإجابةَ عاد على نفسِه بالتوبيخِ فيُقال: مِثلُكِ لا يُجابُ، ورُبّما قال: لعلّ المصلحةَ في منعي، وهؤلاء الرِّجالُ حقًّا.

والأبلهُ الذي يرى له مِن الحقِّ أن يُجاب، فإن لم يُجَبْ تذمَّر في باطِنِه كأنّه يطلُبُ أُجرةَ عملِه، وكأنّه قد نفعَ الخالِقَ بعِبادتِه، وإنّما العبدُ حقًّا مَن يرضى ما يفعلُهُ الخالِق، فإن سـأل فأُجيبَ رأى ذلك فضلًا، وإن مُنِعَ رأى تصرُّفَ مالِكٍ في مملوك، فلم يَجُلْ في قلبِهِ اعتراضٌ بحال.

٣٥٨- فَصْلٌ

[العلم خَصمُ العلماء]

رأيـتُ جماعـةً مِن العُلماءِ ينقسـمون، ويظُنُّون أنّ العِلـمَ يدفعُ عنهم، وما يدرُون أنّ العِلمَ خصمُهم، وأنّه يُغفَرُ للجاهِل سـبعُون ذنبًا قبل أن يُغفَرَ للعالِمِ ذنب؛ وذاك لأنّ الجاهِلَ لم يتعرَّضْ بالحقّ، والعالِمَ لم يتأدَّبْ معه.

ورأيتُ بعضَ القوم يقُول: أنا قد ألقَيتُ مِنجَلي بين الحصّادِين، ونمتُ، ثُمّ كان يتفسَّحُ في أشياءَ لا تجُوز، فتفكَّرتُ فإذا العِلمُ - الذي هو معرِفةُ الحقائق، والنظـرُ في سِـيَرِ القُدمـاء، والتأدُّبُ بآدابِ القوم، ومعرِفـةُ الحقِّ وما يجبُ له - ليس عند القوم، إنّما عِندهم صُوَرُ ألفاظٍ يعرِفُون بها ما يحِلُّ وما يحرُم، وليس ذاك العِلمَ النافع.

---

(١) في (س): «أنفسهم».

إنّما[1] فهمُ الأصول، ومعرِفةُ المعبُودِ وعظمتِه وما يستحقُّه، والنظرُ في سِيَرِ الرسُولِ ﷺ وصحابتِه، والتأدُّبُ بآدابهم، وفهمُ ما نُقِلَ عنهُم؛ هو العِلمُ النافِع، الذي يَدَعُ أعظمَ العُلماءِ أحقرَ عند نفسِهِ مِن أجهلِ الجُهّال.

ورأيتُ بعضَ مَن تعبَّد مُدّةً، ثُمّ فترَ، فبلغني أنّه قال: قد عبدتُه عِبادةً ما عبدَهُ بها أحدٌ، والآن قد ضعُفتُ. فقُلتُ: ما أخوفَني أن تكُونَ كلمتُه هذه سببًا لردِّ الكُلِّ؛ لأنّه قد رأى أنّه عمِلَ مع الحقِّ شيئًا، وإنّما وقفَ يسألُ النجاةَ بطلبِ الدرجات، ففي حقِّ نفسِهِ فعلَ، وما مَثَلُه إلا كمَثَلِ مَن وقفَ يُكدِي، فلا ينبغي أن يمُنَّ على المُعطِي[2]، وإنّما سببُ هذا الانبساطِ الجهلُ بالحقائق، وأين هو مِن كبارِ عُلماءِ المُعاملةِ الذين كان فيهم مِثلُ صِلةَ بنِ أشيمَ، إذا رآهُ السَّبُعُ هربَ مِنه، وهو يقولُ - إذا انقضى الليلُ عند صلاة -: يا ربِّ، أجِرني من النار، أوَمِثلي يسألُ الجنّة[3]؟!

وأبلغُ من ذا قولُ عُمرَ رضي الله عنه: وَدِدتُ أن أنجُوَ كَفافًا لا لي ولا عليّ[4]! وقولُ سُفيانَ - عند موتِه - لحمّادِ بنِ سلمةَ: أترجُو لِمثلي أن ينجُوَ مِن النار؟! وقولُ أحمدَ: لا بعدُ[5].

فأنا أحمدُ الله عز وجل، إذ تخلّصتُ مِن جهلِ المُتَسَمِّين بالعِلمِ مِن هؤلاءِ الذين ذممتُهم، وبالزُّهدِ مِن هؤلاء الذين عِبتُهم، فإنّي قد اطّلعتُ مِن عظمةِ الخالِقِ وسِيَرِ المُحقِّقين ما يُخرِسُ لسانَ الانبساط، ويمحُو النظرَ إلى كُلِّ فِعل.

---

(١) زاد في (م، ك، س): «هو».

(٢) شبَّه من يعبد الله على حرف برجل يطلب نوالًا، فحريٌّ بمثله ألا يمُنَّ على من تصدَّق عليه.

(٣) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق (٨٦٣).

(٤) البخاري (١٣٩٢).

(٥) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٨٢٦).

وكيف أنظُرُ إلى فِعلي المُستحسَن، وهو الذي وهبَه لي، وأطلعَني على ما خفيَ عن غيري؟! فهل حصلَ ذلك بي أو بلُطفِه؟ وكيف أشكُرُ توفيقي للشُّكر؟! ثُمّ أيُّ عالِمٍ إذا سبرَ أمورَ القُدماءِ مِن العُلماءِ لا يحتقرُ نفسَه؟! هذا في صُورة العِلم، فدعْ معناه، وأيُّ عابِدٍ يسمعُ بالعُبّاد، ولا يجري في صُورة التعبُّد؟ فدعِ المعنى.

نسألُ الله عز وجل معرِفةً تُعرِّفنا أقدارَنا، حتّى لا يبقى للعُجبِ بمُحتقَرِ ما عِندنا أثرٌ في قلوبنا، ونرغبُ إليهِ في معرِفةٍ بعظمتِه تُخرِسُ الألسُنَ أن تنطقَ بإدلالٍ، ونرجُو مِن فضلِهِ توفيقًا يُلاحَظُ بِهِ آفاتُ الأعمالِ التي بها نزهُو، حتّى تُثمِرَ الملاحظةُ لعيوبها الخجلَ مِن وجُودِها، إنّه قريبٌ مُجيب.

٣٥٩- فَصْلٌ
[العيش عيشُ الآخرة]

سببُ تنغيصِ العيشِ فواتُ الحُظُوظِ العاجِلةِ، وليس في الدنيا طِيبُ العيشِ على الدوامِ إلا للعارِفِ الذي شغلهُ رِضا حبيبِهِ والتزوُّدُ للرحيلِ إليه، فإنّه إن وجد راحةً في الدنيا استعانَ بها على طلبِ الآخِرة، وإن وجدَ شِدّةً اغتنمَ الصبرَ عليها لثوابِ الآخِرة، فهو راضٍ بكُلِّ ما يجري عليهِ، يرى ذلك مِن قضاءِ الخالِقِ، ويعلمُ أنّه مُرادُه، كما قال قائلُهم[1]: [المتدارك]

إنْ كانَ رِضاكُم في سَهرِي فسَلامُ الله عَلى وَسَنِي

فأمّا مَن طلبَ حظَّه فإنّه يقلقُ لفَوتِ مُرادِه، ويتنغّصُ لبُعدِ ما يشتَهي، فلو افتقرَ تغيَّرَ قلبُه، ولو ذلَّ تغيَّر؛ وهذا لأنّه قائمٌ مع غرضِهِ وهواه، وما أحسنَ قولَ

---

(١) تقدم في الفصل ٥٤.

الحُصَرِيّ: أيشٍ عليَّ مِنّي؟! وأيشٍ لي فيَّ[1]؟!

وهذا كلامُ عارفٍ؛ لأنّه إن كان ينظرُ إلى حقيقةِ المِلكِيّة، فعبدٌ يتصرَّفُ فيهِ مولاه، فاعتراضُه لا وجهَ له، وإرادتُه أن يقعَ غيرُ ما يجبُ، فُضُولٌ في البَين، وإن نظرَ أنّ النفسَ كالمِلكِ له، فقد خرجتْ عن يدِهِ مِن يوم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ﴾ [التوبة: ١١١]، أفيحسُنُ لمَن باع شاةً أن يغضبَ على المُشتري إذا ذبحَها، أو يتغيَّرَ قلبُه؟!

والله لو قال المالكُ سُبحانه: إنّما خلقتُكم ليُستدَلَّ على وجُودي، ثُمّ أنا أُفنِيكم ولا إعادة، لكان يجبُ على النفوسِ العارِفة بهِ أن تقُول: سمعًا لما قُلتَ وطاعةً، وأيُّ شيءٍ لنا فينا حتّى نتكلَّم؟! فكيف وقد وعدَ بالأجرِ الجزيل، والخُلودِ في النعيمِ الذي لا ينفَد؟!

لكنّ طريقَ الوُصُولِ يحتاجُ إلى صبرٍ على المشقّة، وما يبقى لتعبِ رملِ زَرُودٍ أثرٌ إذا لاحَ الحَرَمُ، فالصبرَ الصبرَ يا أقدامَ المُبتدئين! لاحَ المنزل، والسُّرورَ السُّرورَ[2] يا مُتوسِّطين! ضُرِبَتِ الخِيَم، والفرحَ الكاملَ يا عارفينَ، فقد تُلُقِّيتُم بالبشائر.

زالت - والله - أثقالُ المُعاملاتِ عنكُم، فكانت معرفتُكُم بالمُبتلي حلاوةً تعقَّبتْ شربةَ المُجاهدة، فلم يبقَ في الفم للمُرِّ أثر، تخايلُوا قُربَ المُناجاة، ولذّةَ

---

(١) الحصري هو أبو الحسن علي بن إبراهيم، الصوفي الواعظ، بصري الأصل، سكن بغداد، تُوفي سنة ٣٧١هـ. المنتظم لابن الجوزي (١٤: ٢٨٥)، وانظر مقولته في: الفتح الرباني لعبد القادر الجيلاني (ص٢٦٦)، ومعناها: أيُّ شيء عليَّ من تلقاء نفسي؟! وأيُّ شيء في نفسي؟! لا شيء من ذلك، فأنا عبد مملوك لله تعالى.

(٢) سقطت من (ح، ص).

الحضور، ودوارَ كؤوسِ الرِّضا عنكم، فقد أخذَت شمسُ الدنيا في الطَّفَل[١]:

[مجزوء الكامل]

مـــا بَينَنـــا إلا تَصـــرْ رُمُ هَذِهِ السَّـبعِ البَواقِي
حَتَّـى يَطُـولَ حَدِيثُنـا بصُنُوفِ ما كُنَّا نُلاقِي[٢]

٣٦٠- فَصْلٌ[٣]
[التلطُّف بالأعداء]

مِن التغفيل أن تُعاقِبَ شـخصًا أو تُسـيءَ إليهِ إساءةً عظيمة، وتعلمَ أنّ مِثلَ ذلك يُجدِّدُ الحقد، فتراه ذليلًا لك طائعًا تائبًا مُقلِعًا عمّا فعل، فتعودَ فتستطيبَه، وتنسى ما فعلتَ، وتظُنَّ أنّه قد انمحى مِن قلبه، فرُبّما عمِلَ لك المِحَن، ونصبَ لك المكايدَ، كما جرى لقَصِيرٍ مع الزَّبّاءِ، وأخبارُه مُعروفة[٤]، فإيّاكَ أن تُساكِنَ مَن آذيتَه، بل إن كان ولا بُدّ فمِن خارِجٍ، فما تُؤمَنُ الأحقاد.

ومتـى رأيتَ عـدُوَّك فيهِ غفلة، لا يُثنِيه مِثلُ هذا، فأحسِـنْ إليه، فإنّه ينسـى عداوتَـك، ولا يظـنُّ أنّك قد أضمرتَ له جزاءً على قُبـحِ فعلِه، فحينئذٍ تقدرُ[٥] على بلوغ كُلِّ غرضٍ مِنه، ومن الخَورِ إظهارُ العداوةِ للعدوّ.

---

(١) الطَّفَل: الظُّلمة.

(٢) ذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق (٦٠: ٤٥٥).

(٣) سقطت الخاطرة من (س).

(٤) هـو قَصِير بن سـعد بن عمرو اللخمـي، الذي احتال ليثأر لمَلِك العراقِ جذيمـةَ الأبرش من الزَّبّاء، والزَّبّاء هي بنت عمرو بن حسان، مَلِكة تدمُر والشام والجزيرة في الجاهلية، تُوفيت سنة ٣٥٨ قبل الهجرة. انظر: الأعلام للزركلي (٥: ١٩٩)، و(٣: ٤١)، وخبرهما من الشهرة بمكان في الاحتيال والمكر، وقد حكاه صاحب مجمع الأمثال (٢: ١٧).

(٥) زاد في (ك): «لك».

ومِن أحسنِ التدبيرِ التلطُّفُ بالأعداء إلى أن يُمكَّنَ، ولو لم يُمكَّنْ كان اللُّطفُ سببًا في كفِّ أكُفِّهم عن أذًى، وفيهم مَن يستحيي لحُسنِ فعلِك، فيتغيَّرُ قلبُه لك.

وقد كان جماعةٌ من السلفِ إذا بلغَهم أنّ رجلًا قد شتمَهم، أهدَوا إليهِ وأعطَوه، فهم بالعاجِل يُكفَوْن شرَّه، ويحتالُون في تقليبِ قلبِه، ويقعُ بذلك لهم مُهلةٌ لتدبيرِ الحِيَلِ عليه، إن أرادُوا، وكفى بالذهنِ الناظرِ إلى العواقِب والتأمُّلِ لكُلِّ مُمكِنٍ مُؤدِّبًا.

٣٦١- فَصْلٌ
[حكمة المنع]

تفكَّرتُ في قولِ شيبانَ الراعي لسُفيانَ: «يا سُفيانُ، عُدَّ منعَ الله إيّاك عطاءً مِنهُ لك، فإنّه لم يمنعْك بُخلًا، إنّما منعَك لُطفًا»(١)، فرأيتُه كلامَ مَن قد عرَفَ الحقائق، فإنّ الإنسانَ قد يُريدُ المُستحسَناتِ الفائقاتِ فلا يقدِر، وعجزُه أصلحُ له؛ لأنّه لو قدرَ عليهِنّ تشتَّتَ قلبُه، إمّا بحفظِهِنّ، أو بالكسبِ عليهِنّ، فإن قويَ عِشقُه لهنَّ ضاعَ عُمُرُه، وانقلبَ همُّ الآخِرةِ إلى الاهتمامِ بهنَّ، فإن لم يُرِدنَهُ فذاك الهلاكُ الأكبر، وإن طلبنَ نفقةً لم يُطِقْها كان سببَ ذَهابِ مُروءتِه وهلاكِ عِرضِه، وإن أردنَ الوطءَ وهو عاجز، فرُبّما أهلكنَهُ أو فجرنَ، وإن ماتَ معشُوقٌ هلكَ هو أسفًا، فالذي يطلبُ الفائقَ يطلبُ سِكِّينًا لذبحِه، وما يعلَم.

وكذلك إنفاذُ قَدرِ القُوت، فإنّه نعمة، وفي «الصحيحَين» أنّ رسُولَ الله ﷺ قال: «اللهمَّ اجعلْ رِزقَ آلِ مُحمّدٍ قُوتًا»(٢)، ومتى كثُرَ تشتَّتَ الهمُّ، فالعاقِلُ من علِم أنّ الدنيا لم تُخلَقْ للتنعيم، فقنعَ بدفعِ الوقتِ في كُلِّ حال.

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٨: ٢٨٨). (٢) تقدم في الفصل ٣٤٣.

٣٦٢- فَصْلٌ

[التعلُّل بالأقدار]

رأيتُ جماعةً مِن الخلقِ يتعلَّلُون بالأقدار، فيقولُ قائلُهم: إن وُفِّقتُ فعلتُ، وهذا تعلُّلٌ بارِد، ودفعٌ للأمرِ بالراح، وهو يُشيرُ إلى ردِّ أقوالِ الأنبياءِ والشرائعِ جميعِها، فإنّه لو قال كافِرٌ للرسُولِ: «إن وفَّقني أسلمتُ»، لم يُجِبْهُ إلا بضربِ العُنُق. وهذا من جِنسِ قولِ الناسِ لعليٍّ رضي الله عنه: «ندعُوكَ إلى كِتابِ الله»، فقال: «كَلِمةُ حَقٍّ أُرِيدَ بها باطلٌ»(١).

وكذلك قولُ المُتعلِّلين عن الصدقة: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ [يس: ٤٧]. ولَعَمري إنّ التوفيقَ أصلُ الفِعلِ، ولكِنّ التوفيقَ أمرٌ خفيّ، والخطابَ بالفعلِ أمرٌ جليّ، فلا ينبغي أن يُتشاغَلَ عن الجليِّ بذِكرِ الخفيّ.

ومما يقطعُ هذا الاحتجاجَ أن يُقالَ لهذا القائل: إنّ الله سُبحانه وتعالى لم يُكلِّفْكَ شيئًا إلا وعِندكَ أدواتُ ذلك الفِعل، ولك قدرةٌ عليه، فإن كانتِ القُدرةُ عليهِ معدومة، والأدواتُ غيرَ مُحصَّلة، فلا أمرَ ولا تكليفَ، وإن كُنتَ تسعى بتلك الأدواتِ في تحصيل غرضِك وهواك، فاسعَ بها في إقامةِ مفروضِك.

مثال ذلك: أنّك تسافرُ في طلبِ الربح، وتُسألُ الحجَّ فلا تفعل، ويثقُلُ عليك الانتباهُ بالليل، فلو أردتَ الخُروجَ إلى العيد، انتبهتَ سَحَرًا، وتقفُ في بعضِ أغراضِك مع صديقٍ تُحادثُه ساعات، فإذا وقفتَ في الصلاةِ استعجلتَ وثَقُل عليك.

فإيّاك إيّاك أن تتعلّقَ بأمرٍ لا حُجّةَ لكَ فيه، ثُمّ مِن نصيبِك ينقُصُ، ومِن حظِّك يضيعُ، فإنّما تُحرَّكُ لك، وإنّما تُحرَّضُ لنفعِك، فبادِر فإنّكَ مُبادَرٌ بك.

---

(١) مسلم (١٠٦٦).

ومِمّـا يُزيلُ كَسـلَكَ ـ إن تأمَّلتَه ـ أن تتخايلَ ثـوابَ المُجتهدين وقد فاتكَ، ويكفي ذلك في توبيخِ المُقصِّر، إن كانت له نَفس، فأمّا الميِّتُ الهِمّةِ فـ:

[الخفيف]

.... ما لِجُـرحٍ بمَيِّـتٍ إيلامُ[1]

كيف بكَ إذا قُمتَ مِن قبركَ وقد قرُبتْ نجائبُ[2] النجاةِ لأقوامٍ وتعثَّرتَ، وأسـرعَتْ أقدامُ الصالِحيـن على الصِّراط وتخبَّطتَ؟ هيهـاتَ، ذهبتْ حلاوةُ البطالة، وبقِيَتْ مرارةُ الأسف، ونَضَبَ ماءُ كأسِ الكسل، وبقيَ رسوبُ الندامة.

وما قدرُ البقاء في الدنيا بالإضافةِ إلى دوامِ الآخِرة؟! ثُمّ ما قدرُ عُمُرِك في الدنيا، ونِصفُهُ نوم، وباقيه غفلةٌ؟!

فيا خاطبًا حُورَ الجنّة، وهو لا يملكُ فَلسًا مِن عزيمة، افتحْ عينَ الفكرِ في ضوء العِبَر، لعلّك تُبصِرُ مواقعَ خطابِك، فإن رأيتَ تثبيطًا مِن الباطِنِ فاستغِث بعـونِ اللُّطف[3]، وتنبَّه في الأسـحار، لعلّك تتلمَّحُ مَركَـبَ الأرباح[4]، وتعلَّق على قِطارِ المُستغفِرين ولو خُطوات، وانزِل في رباعة[5] المُجتهِدين ولو منزِلًا.



(١) عجز بيت للمتنبي في ديوانه (ص١٦٤)، وصدره:
مَن يَهُن يَسهُلِ الهَوَانُ عَلَيهِ ....

(٢) نجائب الخيل: خيارها.

(٣) في (س): «اللطيف».

(٤) في (ي): «ركب الأرباح».

(٥) الرباعة: الحالة والأمر والشأن.

٣٦٣- فَصْلٌ
[الانحرافُ عن الشريعة]

نظرتُ في قولِ أبي الدَّرداء رضي الله عنه: «ما أعرفُ شيئًا مِمّا كُنّا عليهِ اليومَ إلا القِبلة»[(١)]، فقُلتُ: وا عجبًا، كيف لو رآنا اليومَ وما علينا[(٢)] مِن الشريعةِ إلا الرسم؟! والشريعةُ هي الطريق.

وإنّما تُعرَفُ شريعةُ رسُولِ الله ﷺ إمّا بأفعالِه أو بأقوالِه، وسببُ الانحرافِ عن طريقِه ﷺ: **إمّا الجهلُ بها**، فيجري الإنسانُ مع الطبع والعادات، ورُبّما اتَّخذَ ما يُضادُّ الشريعةَ طريقًا، وقد كان الصحابةُ شاهدَته وسمِعَت مِنه، فقلَّ أن ينحرفَ أحدٌ مِنهم عن جادَّتِه، إلا أنّ أبا الدرداءِ رضي الله عنه رأى بعضَ الانحرافِ **لميلِ الطباعِ** فضجَّ، فإنّه قد يعرِفُ الإنسانُ الصوابَ، غيرَ أنّ طبعَه يميلُ عنه.

وما زالتِ الأحاديثُ المنقُولةُ عن الرسُولِ ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، يقلُّ الإسعادُ[(٣)] بها والنظرُ فيها إلى أن أُعرِضَ عنها بالكُلّيةِ في زمانِنا هذا، وجُهِلَت إلا النادر، واتُّخِذَت طرائقُ تُضادُّ الشريعة، وصارَت عاداتٍ، وكانت أسهلَ عند الخلقِ من اتّباع الشريعة، وإذا كان عامّةُ مَن يُنسَبُ إلى العِلمِ قد أعرضَ عن علوم الشريعة، فكيف العوامُّ؟!

ولمّا أعرضَ كثيرٌ من العُلماءِ عنِ المنقولات، ابتدعوا في الأُصولِ والفُرُوع، فالأصوليون تشاغلُوا بالكلام، وأخذُوه مِن الفلاسفةِ وعُلماءِ المنطِق،

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٦: ٨٥).

(٢) في (ك، س، م): «علمنا».

(٣) في (ك، س، م): «الإشعار».

ودخلَت أيدي الفُرُوعيّين في ذلك، فتشـاغلُوا بالجدل، وتركُوا الحديثَ الذي عليهِ يدورُ الحُكم.

ثُمّ رأى القُصّاصُ أنّ النَّفاقَ بالنِّفاق(١)، فأقبلَ قومٌ مِنهُم على التلبيسِ بالزُّهد، ومقصُودُهم الدنيا، ورأى جُمهورُهم أنّ القُلُوبَ تميلُ إلى الأغاني، فأحضروا المُطرِبيـن مِـنَ القُرّاء، وأنشـدُوا أشـعارَ الغـزل، وتركُوا الاشـتغالَ بالحديث، ولـم يلتفتـوا إلى نهيِ العوامّ عـنِ الرّبا والزّنا، وأمرِهم بـأداءِ الواجِبات، وصار مُتكلِّمُهـم يقطـعُ المجلِسَ بذِكرِ ليلى والمجنُـونِ والطُّورِ ومُوسـى وأبي يزيدَ والحلّاجِ، والهَذيانِ الذي لا محصولَ له.

وانفـردَ أقـوامٌ بالتزهُّد والانقطـاع، فامتنعُوا من عيادةِ المرضى، والمشـيِ بين الناس، وأظهرُوا التخاشُع، ووضعوا كُتُبًا للرياضات، والتقلُّلِ مِن الطعام، فصارتِ الشـريعةُ عِندهُم كلامَ أبي يزيدَ والشِّـبليِّ والمُتصوِّفة، ومعلومٌ أنّ مَن سبرَ الشريعةَ لم يرَ فيها مِن ذلك شيئًا.

وأمّـا الأمـراءُ فجـرَوْا مع العادات، وسـمَّوْا مـا يفعلُونهُ مِن القتـلِ والقطعِ سياسـاتٍ، لـم يعملُوا فيها بمُقتضى الشـريعة، وتبِعَ الأخيرُ فـي ذلك المتقدِّمَ، فأيـن الشـريعةُ المُحمَّديّة؟! ومـن أين تُعرَفُ مع الإعراضِ عـنِ المنقولات؟! نسألُ الله عز وجل التوفيقَ للقيام بالشريعة، والإعانةَ على ردِّ البدع، إنّه قادِر.



(١) يقصد أن الشهرة عند القُصّاص إنما تكون بمُداراة الناس على حساب الشريعة. انظر: صيد الخاطر (ص٥٢٧، هامش ١) طبعة ابن خزيمة.

٣٦٤- فَصْلٌ

[كفُّ العين عن التطلُّع]

كُنتُ أسمعُ عليَّ بنَ الحُسينِ[١] الواعِظَ يقولُ على المِنبر: «والله لقد بكيتُ البارِحةَ مِن يدِ نفسي». فبقيتُ أنا أتفكَّر، وأقول: أيَّ شيءٍ قد فعلتْ نفسُ هذا حتّى يبكي؟! هذا رجُلٌ مُتنعِّم، له الجواري التُّركيّات، وقد بلغني أنّه تزوَّجَ في السِّرِّ بجُملةٍ مِن النِّساء، ولا يطعَمُ إلا الغايةَ مِن الدجاجِ والحَلوى، ولهُ الدخلُ الكثير، والمالُ الوافر، والجاهُ العريضُ والأفضالُ على الناس، وقد حصَّلَ طرَفًا مِن العِلم، واستعبدَ كثيرًا مِن العُلماءِ بمعرُوفِه، وراحتُه دائمةٌ، فما الذي يُبكيه؟!

فتفكَّرتُ فعلِمتُ أنّ النفسَ لا تقفُ على حدٍّ، بل ترُومُ مِن اللذّاتِ ما لا مُنتهى له، وكُلَّما حصلَ لها غرضٌ بردَ عِندها وطلبتْ سِواه، فيفنى العُمُر، ويضعُفُ البدن، ويقعُ النغص، ويرِقُّ الجاه، ولا يحصُلُ المُراد.

وليس في الدنيا أبلهُ مِمَّن يطلبُ النهايةَ في لذّاتِ الدنيا، وليس في الدنيا - على الحقيقةِ - لذّةٌ، إنّما هي راحةٌ مِن مُؤلم، فالسعيدُ مَن إذا حصلَتْ له امرأةٌ أو جارية، فمالَ إليها ومالَتْ إليه، وعلِمَ سِترَها ودينَها أن يعقِدَ الخِنصرَ على صُحبتِها.

وأكثرُ أسبابِ دوامِ محبَّتِها ألا يُطلِقَ بصرَه، فمتى أطلقَ بصرَه أو أطمعَ نفسَه في غيرِها، فإنّ الطمعَ في الجديدِ يُنغِّصُ الخُلُق، وينقُصُ ملَلَ المُخالطةِ، ويستُرُ عُيوبَ الخارج، فتميلُ النفسُ إلى المُشاهَدِ الغريب، ويتكدَّرُ العيشُ

---

(١) هو أبو الحسن الغزنوي، الواعظ المحسن الشهير، تُوفي سنة ٥٥١هـ. سير أعلام النبلاء (٢٠: ٣٢٤).

مع(١) الحاضِرِ القريب، كما قال الشاعِر(٢): [البسيط]

والمَــرءُ مــا دامَ ذا عَيــنٍ يُقلِّبُهــا ... في أعيُنِ الناسِ مَوقُوفٌ عَلى الخَطَرِ
يَسُــرُّ مُقلَتَــهُ مــا ضَــرَّ مُهجَتَــهُ ... لا مَرحَبًــا بسُــرُورٍ عــادَ بالضَّــرَرِ

ثُمّ تصيرُ الثانيةُ كالأولى، وتطلبُ النفسُ ثالثة، وليس لهذا آخِر، بلِ الغَضُّ عـن المُشـتهيات، ويأسُ النفسِ عن طلبِ المُستحسَنات، يُطيِّـبُ العيشَ مع المُعاشَر.

ومَـن لـم يقبَـلْ هـذا النُّصـحَ تعثَّـرَ في طريـقِ الهـوى وهلكَ علـى البارد، ورُبّمـا سـعى لنفسِـه في الهـلاكِ العاجل، أو في العـارِ الحاضر، فـإنّ كثيرًا مِن المُستحسَـناتِ لسـنَ بصَيِّنـاتٍ، ولا يَفِي التمتُّـعُ بهنَّ بالعـارِ الحاصِل، ومنهنَّ المُبذِّراتُ في المال، ومنهنَّ المُبغِضةُ للزوج، وهو يحبُّها كعابدِ صنم.

وأبلَهُ البُلهِ الشيخُ الذي يطلُبُ صَبيّةً، ولَعَمري إنّ كمالَ المُتعةِ إنّما يكُونُ بالصِّبا، كما قال القائل(٣): [الوافر]

.... لَقُلتُ: بنفْسِيَ النَّشءُ الصِّغارُ

ومتـى لم تكنِ الصبيّةُ بالغةً لم يكمُل الاستِمتاعُ، فـإذا بلغتْ أرادتْ كثرةَ الجِماع، والشيخُ لا يقدِرُ، فإنْ حملَ على نفسِه لم يبلُغْ مُرادَها، وهلكَ سريعًا.

ولا ينبغي أن يغترَّ بشهوتِه الجِماع، فإنّ شهوتَه كالفَجرِ الكاذِب، وقد رأينا

---

(١) في (ك، ح، م): «في».

(٢) لعبد المحسن بن محمد الصوري في ديوانه (ص٢١٦).

(٣) عجز بيت لنُصيب بن رباح في ديوانه (ص٨٨)، وصدره:

وَلَــولا أنْ يُقَالَ: صَبَــا نُصَيْبٌ ... .

شيخًا[١] اشترى جاريةً، فباتَ معها، فانقلبَ عنها ميتًا. وكان في المارِستانِ شابٌّ قد بقيَ شهرَين بالقيام، فدخلَتْ عليهِ زوجتُه فوطِئها، فانقلبَ عنها[٢] ميتًا.

فبانَ أنّ النفسَ باقيةٌ بما عِندها مِنَ الدمِ والمَنيِّ، فإذا فرَغا ولم تجِدْ ما تعتمدُ عليهِ ذهبَت، وإن قنعَ الشيخُ بالاستمتاعِ مِن غيرِ وطءٍ فهي لا تقنعُ، فتصيرُ كالعدُوِّ له، فرُبّما غلبَها الهوى ففجرَت، أوِ احتالَتْ على قتلِه، خصوصًا الجواريَ اللواتي أغلبُهنَّ قد جئنَ مِن بلادِ الشِّرك، ففيهِنَّ قسوةُ القلبِ.

وقبيحٌ بمَن عبرَ السِّتين أن يتعرَّضَ بكثرةِ النساءِ، فإنِ اتَّفقَ معهُ صاحِبةُ دِينٍ قبلَ ذلك فليَرعَ لها مُعاشرتَها، وليُتمِّمْ نقصَه عِندها، تارةً بالإنفاق، وتارةً بحُسنِ الخُلُق، وليزِدْ في تعريفِها أحوالَ الصالِحاتِ والزاهِدات، وليُكثرْ مِن ذِكرِ القيامةِ وذمِّ الدنيا، وليُعرِّضْ بذكرِ محبّةِ العرب، فإنّهم كانُوا يعشَقون ولا يرون وطءَ المعشوق، كما قال قائلهم[٣]: [الرجز]

.... إنْ نُكِحَ الحُبُّ فَسَدْ

فإنْ قدرَ أنْ يشغلَها بحملٍ أو ولدٍ عَرقلَها به، فاستبقى قُوّتَه في مُدّةِ اشتغالِها بذلك، فإن وطئَ فليصبر عنِ الإنزال حِفظًا لقُوّتِه وقضاءً لحقِّها، وقد قيل لبِشرٍ: لمَ لم[٤] تتزوَّج؟ فقال: على ماذا أغرُّ مُسلِمةً، وقد قال الله عز وجل:

---

(١) في (ح، ص، د): «شيخنا».
(٢) عن (د).
(٣) عجز بيت لأعرابية في اعتلال القلوب للخرائطي (١: ٦٤)، وصدره:
مـا الحُبُّ إلا هكـذا ....
(٤) سقطت من (ح، ص).

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]؟ والمِسكينُ مَن دخلَ في أمرٍ لم يتلمَّحْ عواقِبَهُ قبل الدخُول، ورأى حبّةَ الفَخِّ، فبادر طالبًا لها، ناسيًا تعرقُلَ الجَناحِ والذَّبح.

ومجموعُ ما قد بسطتُه حِفظُ البصرِ عنِ الإطلاق، ويأسُ النفسِ عنِ التحصيل، قنوعًا بالحاصِل، خُصوصًا من قد عَلَتْ سِنُّه، وعلِمَ أنّ الصبيّةَ عدوٌّ له ومُتمنِّيةٌ هلاكَه، وهو يُربِّيها لغيره، وفي بعض ما ذكرتُه ما يزَعُ العاقِلَ عن التعرُّض لهذه الآفات. نسألُ الله عز وجل توفيقًا من فضلِه، وعملًا بمُقتضى العقلِ والشرع، إنّه قريبٌ مُجيب.

٣٦٥- فَصْلٌ
[طولُ الأمل]

أعجبُ الأشياءِ اغترارُ الإنسانِ بالسلامة، وتأميلُه الإصلاحَ فيما بعد! وليس لهذا الأملِ مُنتهًى ولا للاغترار، فكُلّما أصبحَ وأمسى مُعافًى زاد الاغترارُ وطالَ الأمل، وأيُّ موعظةٍ أبلغُ من أن ترى ديارَ الأقرانِ وأحوالَ الإخوانِ وقبورَ المحبُوبين، فتعلَمَ أنّكَ بعد أيّامٍ مِثلُهم، ثُمّ لا يقعُ انتباهٌ حتّى ينتبهَ الغيرُ بك؟ هذا ـ والله ـ شأنُ الحَمقى، وحُوشِيَ مَن له عقلٌ أن يسلُكَ هذا المسلك.

بل ـ والله ـ إنّ العاقِلَ ليُبادرُ السلامة، فيدَّخِرُ مِن زمنِها للزمن، ويتزوَّدُ عند القُدرةِ على الزادِ لوقتِ العُسرةِ خُصوصًا لمَن قد علمَ أنّ مراتِبَ الآخِرةِ إنّما تعلُو بمِقدار علُوِّ العملِ لها، وأنّ التدارُكَ بعد الفوتِ لا يُمكن.

وقدِّرْ أنّ العاصيَ عُفِيَ عنه، أينالُ مراتِبَ العُمّال؟ ومَن أجالَ على خاطِره ذِكرَ الجنّة ـ التي لا موتَ فيها ولا مرضَ ولا نومَ ولا غمَّ، بل لذّاتُها مُتّصلةٌ مِن

غيـرِ انقطـاع، وزيادتُها على قدرِ زيادةِ الجِدِّ هاهُنا ـ انتَهَبَ هذا الزمانَ، فلم يَنَمْ إلا ضرورةً، ولم يغفلْ عن عِمارةِ لحظة.

ومَـن رأى أنّ ذنبًـا قد مضَت لذَّتُـه، وقد بقيَت آفاتُه دائمةً، كفاه ذلك زجرًا عن مِثله، خُصوصًا الذُّنوبَ التي تتصلُ آثارُها، مِثلَ أن يزنيَ بذاتِ زوجٍ فتحملَ مِنـه، فيلحقَ بالـزوج، فيمنَعَ الميراثَ أهلَه، ويأخذَهُ مَـن ليس مِن أهلِه، وتتغيَّرَ الأنسـابُ والفُرُش، ويتَّصلَ ذلك أبدًا، وكلُّه شـؤمُ لحظة. فنسـألُ الله عز وجل توفيقًا يُلهِمُ الرشاد، ويمنعُ الفساد، إنّه قريبٌ مُجيب.

٣٦٦ـ فَصْلٌ
[أفعالُ الخالق وأفعالُ المخلوق]

تأمَّلتُ سـببَ تخليطِ العقائدِ، فإذا به الميلُ إلـى الحِسِّ، وقياسُ الغائباتِ على الحاضِر، فإنّ أقوامًا غلبَ عليهِم الحِسُّ، فلمّا لم يُشاهِدوا الصانعَ جحدُوا وُجُـودَه، ونسُـوا أنّه قد ظهر بأفعاله، وأنّ هذه الأفعـالَ لا بُدَّ لها مِن فاعِل، فإنّ العاقـلَ إذا مـرَّ على صحراءَ خالية، ثُمّ عـاد وفيها غرسٌ وبناء، علِم قطعًا أنّه لا بُدَّ مِن غارسٍ وبانٍ[1]؛ إذ الغرسُ لا يكُونُ بنفسه، ولا البناءُ.

ثُمّ جاء قومٌ فأثبتوا وُجُودَ الصانِع، ثُمّ قاسُوه على أحوالِهم، فشبَّهوا، حتّى إنّ قائلهم يقُولُ في قولِه: «ينزِلُ إلى السـماء»[2]: «ينتقلُ»، ويستدلُّ بأنّ العربَ لا تعرِفُ النُّزُولَ إلا الانتقالَ!

وضـلَّ خَلـقٌ كثيرٌ في صفاتِه، كما ضلَّ خلقٌ في ذاتِه، فظـنَّ أقوامٌ أنّه يتأثَّرُ حين سمِعُوا أنّه يغضبُ ويرضى، ونسُوا أنّ صفتَه تعالى قديمة، لا يحدُثُ منها

---

(١) سقطت من (ح، ص).
(٢) تقدم في الفصل ٤٩.

شيء، وضلَّ خَلقٌ في أفعالِه، فأخذُوا يُعلِّلُون، فلم يقعُوا[١] بشيء، فخرجَ مِنهُم قومٌ إلى أن نسبُوا فِعلَه إلى ضدٍّ تعالى عن ذلك.

ومَن رُزِقَ التوفيقَ فليُحضِر قلبَه لِما أقُولُ: اعلم أنّ ذاتَه سُبحانه لا تُشبِهُ الذوات، وصفاتَه ليست كالصِّفات، وأفعالَه لا تُقاسُ بأفعالِ الخلق. أمّا ذاته سُبحانه فإنّا لا نعرفُ ذاتًا إلا أن تكُونَ جسمًا، وذاك يستدعي سابقةَ تأليف، وهو مُنزَّهٌ عن ذلك؛ لأنّه المُؤلِّف، أو أن يكُونَ جوهرًا، فالجوهرُ مُتحيِّزٌ وله أمثال، وقد جلَّ عن ذلك سبحانه، أو عَرَضًا، فالعرَضُ لا يقُومُ بنفسِه بل بغيره، وقد تعالى عن ذلك، فإذا أثبتنا ذاتًا قديمةً خارجةً عمّا يُعرَف، فليُعلَمْ أنّ الصفاتِ تابعةٌ لتِلك الذات، فلا يجُوزُ لنا أن نقيسَ شيئًا منها على ما نعقلُه ونفهمُه[٢]، بل نُؤمِنُ بهِ ونُسلِّمُه.

وكذلك أفعاله، فإنّ أحدَنا لو فعلَ فعلًا لا يجتلبُ بهِ نفعًا، ولا يدفعُ به عنه ضرًّا، عُدَّ عابثًا، وهو سُبحانهُ أوجدَ الخلقَ لا لنفعٍ يعودُ إليه، ولا لدفعِ ضرر؛ إذ المنافعُ لا تصلُ إليه، والمَضارُّ لا تتطرَّقُ عليه.

فإن قال قائل: إنّما خلقَ الخلقَ لينفعَهُم، بطلَ هذا القولُ، ثُمّ خلقَه للكفرِ وعذَّبَه[٣]، ثُمّ نراهُ يؤلِمُ الحيوانَ والأطفال، ويخلُقُ المَضارَّ، وهو قادر ألا يفعلَ ذلك.

فإن قال قائل: إنّه يُثيبُ على ذلك. قُلنا: هُو قادرٌ أن يُثيبَ بلا هذه الأشياء، فإنّ السُّلطانَ لو أراد أن يُغنيَ فقيرًا، فجرحَهُ ثُمّ أغناه، لِيمَ على ذلك؛ لأنّه قادرٌ أن يُغنيَه بلا جراح.

---

(١) في (ح، ص): «يقفوا».

(٢) في (د، ي): «ونعلمه».

(٣) في (ط): «إنه خلق منهم للكفر وعذَّبه».

ثُـمّ مَـن يرى ما جرى لرسـولِ الله ﷺ وعلى أصحابِه مِـن الجُوعِ والقتل، مع قدرةِ الناصِر، ثُمّ يسألُ في أُمّه فلا يُجابُ، لو كان المسؤولُ بعضَنا قُلنا: لِمَ تمنعُ ما لا يضُرُّك؟!

غيرَ أنّ الحقَّ سُبحانه لا تُقاسُ أفعالُهُ على أفعالنا، ولا تُعلَّل، والذي يُوجِبُ علينـا التسـليمَ أنّ حكمتَه فوقَ العقل، فهـي تَقضي على العُقُـول، والعُقُولُ لا تَقضـي عليهـا، ومَن قاس فِعلَه على أفعالنا غلِطَ الغلطَ الفاحِش. وإنّما هلكتِ المُعتزلةُ مِن هذا الفنّ، فإنّهُم قالُوا: كيف يأمُرُ بشيءٍ ويقضي بامتناعِه؟ ولو أنّ إنسانًا دعانا إلى دارِه، ثُمّ أقام مَن يصُدُّ الداخِل، لَعِيبَ.

ولقـد صدَقـوا فيما يتعلَّقُ بالشـاهِد[1]، فأمّـا مَن أفعالُه لا تُعلَّـلُ ولا تُقاسُ بشاهِد، فإنّا لا نصلُ إلى معرفةِ حِكمتِه.

فإن قال قائل: فكيف يُمكِنُني أن أقُودَ عقلي إلى ما يُنافيه؟ قلنا: لا مُنافاة؛ لأنّ العقـلَ قـد قطعَ بالدليل الجلـيِّ أنّه حكيم، وأنّه مالـك، والحكيمُ لا يفعلُ شـيئًا إلا لحِكمـة، غيـرَ أنّ تِلك الحِكمـةَ لا يبلغُها العقل. ألا تـرى أنّ الخَضِرَ خرقَ سفينةً وقتلَ شخصًا، فأنكرَ عليهِ موسى عليهما السلام بحُكمِ العِلم، ولم يطَّلعْ على حِكمةِ فِعلِه، فلمّا أظهرَ له الحِكمةَ[2] أذعَن؟ ولله المَثَلُ الأعلى.

فإيّاكَ إيّاكَ أن تقيسَ شيئًا مِن أفعالِه على أفعالِ الخَلق، أو شيئًا مِن صِفاتِه أو ذاتِه سبحانه وتعالى، فإنّك إن حفِظتَ هذا سلِمتَ مِن التشبيهِ الذي وقع فيهِ مَن رأى الاسـتواءَ اعتمادًا، والنزولَ نُقلةً، ونجوتَ مِن الاعتِراضِ الذي أخرج قومًا إلى الكُفر، حتّى طعنُوا في الحِكمة.

---

(١) في (ك، س، م): «بالمشاهد».

(٢) سقطت من (ك، س، م).

وأولُ القومِ إبليس، فإنّه رأى تقديمَ الطينِ على النارِ ليس بحِكمة، فنسيَ أنّه إنّما علِم ذلك - بزعمِه - بالفهمِ الذي وُهِبَ له، والعقلِ الذي مُنِحَه، فنسيَ أنّ الواهِبَ أعلمُ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

ولقد رأيتُ لابنِ الريونديّ(١) اعتراضًا على مَن يقولُ بتخليدِ الكُفّارِ في النار، ينبغي أن يُقبَلَ كُلُّ ما يقولُه العقل، ولا يُرَدَّ بعضُه؛ إذ ليس ردُّ بعضِه بأولى مِن ردِّ الكلِّ، وتخليدُ الكُفّارِ لا غرضَ فيهِ للمُعذَّبِ ولا للمُعذِّب، فلا يجُوزُ أن يكون! فقلتُ: العجبُ مِن هذا الذي يدَّعي وُجُودَ العقلِ ولا عقلَ عنده!

وأوّلُ ما أقولُ له: أصحَّ عِندكَ الخبرُ عنِ الخالِقِ سُبحانهُ أنّه(٢) أخبرَ بخُلُودِ أهلِ النار، أم لم يصحَّ؟ فإن كان ما صحَّ عنهُ فالكلامُ إذًا في إثباتِ النُّبوّة وصحةِ القُرآن، فما وجهُ ذِكرِ الفرعِ مع جَحدِ الأصل؟ وإن قال: قد ثبتَ عِندي، فواجِبٌ عليهِ أن يتمحَّلَ لإقامةِ العُذر لا أن يقفَ في وجهِ المُعارضة. وإنّما يُنكِرُ هذا مَن يأخذُ الأمرَ مِن الشاهد(٣)، وقد بيَّنّا أن ذاتَ الحقِّ سبحانه لا كالذَّوات، وأنّ صفتَه لا كالصفات، وأنّ أفعالَه لا تُعلَّل.

ولو تلمَّحنا شيئًا مِن التعليل(٤) لخُلودِ الكُفّار لبانَ؛ إذ مِن الجائز أن يكُونَ دوامُ تعذيبِهم لإظهارِ صِدقِ الوعيد، فإنّه قال: مَن كفرَ بي خلَّدتُه في العذاب، ولا جنايةَ كالكُفر، ولا عُقُوبةَ كدوامِ الإحراق، فهُو يدومُ ليُظهِرَ صدقَ الواعد.

---

(١) المثبت عن (ح)، وفي بقية النسخ: «لابن الرومي»، وهو تحريف، وانظر: المدخل إلى كتاب صيد الخاطر، للدكتور أحمد بن مسفر العتيبي (ص١٦٤)، وابن الريوندي أو الراوندي هو أحمد بن يحيى بن إسحاق، معتزلي زنديق، تُوفي سنة ٢٩٨هـ. انظر ترجمته وخبره في: المنتظم (١٣: ٨، ١٢).

(٢) سقطت من (ح، ص).

(٣) في (ك، س، م): «المشاهد».

(٤) زاد في (س): «لا».

ومِن الجائزِ أن يكُونَ ذلك لتتمّةِ تنعُّم المُؤمِنين، فإنّهُم أعداءُ الكُفّار، وقد قال سُبحانهُ: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤]، وكم مِن قلقٍ في صدر بلالٍ[1] وحَنَقٍ على أبي جهلٍ فيما فعل به[2]، وكم غَمٍّ في قلبِ عَمّارٍ وأُمِّهِ سُميّةَ رضي الله عنهم وغيرهم من أفعالِ الكُفّار بهِم، فدوامُ عذابِهم شفاءٌ لقُلوبِ أهلِ[3] الإيمان.

ومِن الجائزِ أن يدُومَ العذابُ لدوامِ الاعتراض، وذكرِ المُعذِّبِ بما لا يَحسُن، فكُلَّما زاد عذابُهم زاد كُفرُهم واعتراضُهم، فهُم مُعذَّبون لذلك.

ودليلُ دوامِ كُفرِهم به: ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١٨]، فإذًا[4] كُفرُهم ما زال، ومعرفتُهم بهِ ما حصَلت، والشرُّ كامِنٌ في البواطِن، وعلى ذاك يقعُ التعذيب، ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨].

٣٦٧- فَصْلٌ
[منزلةُ التسليم]

ينبغي للمُؤمنِ بالله سبحانهُ إذا نظرَ في الفصلِ الذي قد تقدَّم هذا: ألا يعترضَ على الله سبحانهُ في شيء لا في باطِنِه ولا في ظاهِرِه، ولا يطلُبَ تعليلاتِ أفعالِه، فإنّ المُتكلِّمين أعرضُوا عن السُّنن، وتكلَّموا بآرائهم، فما صفا لهُم شِربٌ، بدليلِ اختلافِهم، وكذلك إضمارُ القياس، لمّا أعملُوهُ جاءت أحاديثُ تُعكِّر عليهم، والصوابُ التعليلُ لما يُمكِنُ، والتسليمُ لما يخفى.

---

(١) سقطت من (ح، ص، د).

(٢) سقطت من (ح، ص).

(٣) سقطت من (ح، ص).

(٤) في (ك، س، م): «فإن».

وكذلك سُؤالُ الحقِّ سُبحانه، فإذا دعا المُؤمِنُ ولم يرَ إجابةً سلَّمَ وفوَّضَ وتأوَّلَ للمنع، فيقول: رُبّما يكُونُ المنعُ أصلح، ورُبّما يكُونُ لأجلِ ذنُوبي، ورُبّما يكُونُ التأخيرُ أولى، ورُبّما لم يكُن هذا مصلحة. وإذا لم يجِد تأويلًا لم يختلجْ في باطنِه نوعُ اعتراض، بل يرى أنّه قد تُعُبِّدَ بالدعاء، فإن أنعمَ عليه فبفضل، وإن لم يُجِبْ فمالكٌ يفعلُ ما يشاءُ، على أنّ أكثرَ السُّؤالِ إنّما يقعُ في طلبِ أغراضِ الدنيا التي إذا رُدَّتْ كان أصلح.

فليكُن همُّ العاقلِ في إقامةِ حقِّ الحقِّ والرضا بتدبيرِه، وإن ساءَ[1]، فمتى أقبلتَ عليهِ أقبلَ على إصلاحِ شأنِك، وإذا عرَفتَ أنّه كريمٌ قَلِّدْ له ولا تسأل، ومتى أقبلتَ على طاعتِه فمُحالٌ أن يُجَوِّدَ صانعٌ وينصحَ في العمل، ثُمّ لا يُعطى الأُجرة.

٣٦٨- فصل
[الاستعدادُ لنعيم الجنة]

والله إنّي لأتخايَلُ دُخُولَ الجنّة ودوامَ الإقامةِ فيها مِن غيرِ مرضٍ ولا بُصاقٍ ولا نومٍ ولا آفةٍ تطرأ، بل صِحّةٌ دائمة، وأغراضٌ مُتَّصِلةٌ لا يعتورُها مُنغِّصٌ في نعيمٍ مُتجدِّدٍ في كُلِّ لحظةٍ إلى زيادةٍ لا تتناهى، فأطيشُ ويكادُ الطبعُ [يضيقُ][2] عن تصديقِ ذلك لولا أنّ الشرعَ قد ضمِنه.

ومعلومٌ أن تلك المنازلَ إنّما تكُونُ على قدرِ الاجتِهادِ هاهُنا، فوا عجبًا مِن مُضيِّعٍ لحظةٍ يقعُ فيها، فتسبيحةٌ يُغرَسُ بها في الجنّة نخلةٌ، أُكُلُها دائمٌ وظِلُّها.

فيا أيُّها الخائفُ مِن فوتِ ذلك، شجِّعْ قلبكَ بالرجاء، ويا أيُّها المُنزعِجُ لذِكرِ

---

(١) يقصد: وإن ساءَ التدبيرُ العبدَ.
(٢) عن (ط).

الموتِ، تلمَّحْ ما بعد مرارةِ الشَّـربةِ مِن العافية، فإنّه مِن سـاعةِ خروجِ الرُّوح، لا بل قبل خروجِها، تنكشـفُ المنازلُ لأصحابِها، فيهُونُ سيرُ المجذُوبِ للذّةِ المُنتقـلِ إليـه، ثُـمّ «الأرواحُ في حواصِلِ طيرٍ تعلُقُ في شـجرِ الجنّـةِ»[1]، فكلُّ الآفاتِ والمَخافاتِ في نهارِ الأجل، وقد اصفرَّت شمسُ العُمر، فالبِدارَ البِدارَ قبل الغُروب.

ولا مُعِيـنَ يُرافـقُ على تِلـكَ الطريقِ إلا الفِكرُ إذا جلسَ مـع العقلِ فتذاكرَ العواقِب، فإذا فرغَ ذلك المجلِسُ فالنظرُ في سِيَرِ المُجدِّين، فإنّه يعودُ مُستجلِبًا للفِكر منها للفضائل، والتوفيقُ مِن وراءِ ذلك، ومتى أرادك لشيءٍ هيَّأكَ له. فأمّا مُخالطـةُ الذيـن ليس عِندهم خبرٌ إلا مِـن العاجِلة فهُو مِن أكبرِ أسـبابِ مرضِ الفَهمِ وعِلَلِ العقلِ، والعُزلةُ عن الشرِّ حِمية، والحِميةُ سببُ العافية.

٣٦٩- فَصْلٌ
[سرُّ الهموم والغموم]

رأيتُ سـببَ الهُموم والغُموم الإعراضَ عـنِ الله عز وجل، والإقبالَ على الدنيا، وكُلَّما فاتَ منها شيءٌ وقعَ الغمُّ لفواتِه، فأمّا مَن رُزِق معرِفةً بالله تعالى؛ لأنّه يستغني بالرضا بالقضاء، فمهما قُدِّرَ له رضيَ، وإن دعاه فلم يرَ أثرَ الإجابةِ لم يختلِجْ في قلبِه اعتراض؛ لأنّه مملوكٌ مُدبَّر، فتكونُ هِمّتُه في خِدمةِ الخالِق.

ومَـن هـذه صفتُـه لا يُؤثِرُ جمـعَ مـال، ولا مُخالطـةَ الخَلـق، ولا الالتذاذَ بالشـهوات؛ لأنّـه إمّـا أن يكُـونَ مُقصِّـرًا فـي المعرِفـة، فهُـو مُقبِلٌ علـى التعبُّد المحض، يزهدُ في الفاني لينالَ الباقي، وإمّا أن يكُونَ له ذوقٌ في المعرِفة، فإنّه

(١) تقدم في الفصل ٢٠.

مشغُولٌ عن الكُلِّ بصاحِبِ الكُلّ، فتراه مُتأدِّبًا في الخَلوة به، مُستأنِسًا بمُناجاتِه، مُستوحِشًا مِن مُخالطة خَلقِه، راضيًا بما يُقدَّرُ له، فعَيشُهُ معهُ كعَيشِ مُحِبٍّ قد خلا بحبيبِه، لا يُريدُ سواه، ولا يهتمُّ بغيره.

فأمّا مَن لم يُرزَقْ هذه الأشياء، فإنّه لا يزالُ في تنغيص، مُتكدِّرَ العيش؛ لأنّ الذي يطلبُه مِن الدنيا لا يقدِرُ عليه، فيبقى أبدًا في الحسرات، مع ما يفوتُه مِن الآخِرة بطِيبِ المعاملة. نسألُ الله عز وجل أن يستصلِحَنا له، فإنّه لا حولَ ولا قُوّةَ إلا به.

٣٧٠- فَصْلٌ
[العيش عيشُ الآخرة]

تفكَّرتُ في نفسي، فرأيتُني مُفلِسًا مِن كُلِّ شيءٍ! إنِ اعتمدتُ على الزوجةِ لم تكنْ كما أُريدُ، إن حسُنتْ صُورتُها لم تكمُلْ أخلاقُها، وإن تمَّتْ أخلاقُها كانت مُريدةً لغرضِها لا لي، ولعلَّها تنتظرُ رحيلي، وإنِ اعتمدتُ على الولدِ فكذلك، والخادمُ والمُريدُ لي كذلك، فإن لم يكُن لهما مِنّي فائدةٌ لم يُريداني، وأمّا صديقٌ فليس، وأخٌ في الله كعَنقاءِ مُغرِب، ومعارِفُ يفتقدون أهلَ الخير، ويعتقدون فيهم، فقد عُدِمُوا وبقِيتُ وحدي، وعُدتُ إلى نفسي، وهي لا تصفُو لي أيضًا، ولا تُقيمُ على حالٍ سليمة، فلم يبقَ لي إلا الخالِقُ سُبحانه.

فرأيتُ أنّي اعتمدتُ على إنعامِه، فما آمَنُ قطعَ ذلك بالبلاء، وإن رجوتُ عفوَه فما آمَنُ عُقوبة، فوا أسفًا! لا طمأنينةَ ولا قرارَ، وا قلقي مِن قلقي! وا حرقي مِن حرقي! بالله ما العيشُ إلا في الجنّة، حيثُ يقعُ اليقينُ بالرضا والمُعاشَرةِ لمَن لا يخُونُ ولا يُؤذي، فأمّا الدنيا فما هي دارُ ذاك.

٣٧١- فَصْلٌ

[شروط مُنادمة السلاطين]

ينبغي لمَن صَحِبَ سُلطانًا أو مُحتشِمًا أن يكُونَ ظاهِرُه معهُ وباطِنُه سواء، فإنّه قد يدُسُّ إليهِ مَن يختبِرُه، فرُبّما افتُضِحَ في الابتلاءِ، وقد كان جماعةٌ مِن المُلوك يقصِدُون تقريبَ المُنادِم، ويجعلون له حُجرةً في دُورهم، فإذا أرادُوا أن يختصُّوه اختبرُوه باطنًا، وذاك لا يدري، فيظهَرُ مِنهُ ما لا يصلُح، فيُطرَد.

ولقد امتحنَ أبرويزُ[١] رجلًا مِن خاصَّته، فدسَّ إليهِ جاريةً معها ألطافٌ[٢]، وأمرها ألا تقعُدَ عنده، فحملَتها، ثُمّ أنفذها مرّةً أُخرى وأمرها أن تقعُدَ بعد التسليم هُنَيهةً، ففعلَت، فلاحظها الرجُل، ثُمّ بعثها ثالثةً، وأمرها أن تُطيلَ القُعودَ عِنده وتُحدِّثَه، فأطالتِ الحديثَ معه، فأبدى لها شيئًا مِن الميل إليها، فقالت: أخافُ أن يُطَّلَعَ علينا، ولكن دعني أُدبِّر في هذا. فذهبتْ فأخبرتِ المَلِكَ بذلك، فوجَّه غيرَها مِن خواصِّ جواريه بمِثلِ ذلك، فلمّا جاءتهُ قال: ما فعلتْ فُلانة؟ قالت: مريضة، فاربدَّ لونُه[٣]، ثُمّ فعلَتِ الجاريةُ الثانيةُ مِثلَ ما فعلتِ الأولى، فقالت له: «إنّ المَلِكَ يمضي إلى بستانِه فيُقيمُ هُناك، فإن أرادكَ على أن تمضيَ معه فأظهِرْ أنّك عَلِيل، فإن خيَّركَ بين الانصرافِ إلى دُورِ نسائك أو المُقام هاهنا، فاختَرِ المُقامَ هاهُنا، وأخبِرهُ أنّك لا تقدِرُ على الحركة، فإن أجابكَ إلى ذلك جئتُ إليكَ كُلَّ ليلةٍ ما دامَ المَلِكُ غائبًا»، فسكنَ إلى قولها، ثُمّ مضتْ فأخبرتِ المَلِكَ بذلك.

---

(١) أبرويز: أحد أكاسرة الفرس.

(٢) ألطاف: هدايا.

(٣) اربدَّ وجهُه: احمرَّ حُمرة فيها سوادٌ عند الغضب.

فلمّا كان بعد ثلاثٍ استدعاه المَلِك، فقال[١]: إنّي مريض، فعاد الرسولُ فأخبره[٢]، فتبسَّم وقال: هذا أوّلُ الشرّ، فوجَّه إليهِ مِحَفّةً[٣] حُمِلَ فيها إليه، فلمّا بصرَ بهِ أبرويزُ قال: والمِحَفّةُ الشرُّ الثاني، فرأى العِصابةَ على رأسِه، قال: والعصابةُ الشرُّ الثالث، فقال له المَلِك: أيّما أحبُّ إليك: الانصرافُ إلى نِسائك ليُمرِّضنكَ أو المُقامُ هاهُنا إلى وقتِ رُجُوعي؟ قال: المُقامُ هاهُنا أرفَقُ بي؛ لقلّةِ الحركة، فتبسَّم[٤] وقال: حركتُكَ هاهُنا إن تُرِكتَ أكثرُ مِن حركتِك إلى منزِلك!

ثُمّ أمرَ له بعصا الزُّناةِ التي كان يُوسَمُ بها مَن زنى، فأيقنَ الرجُلُ بالأمر، وأمرَ أن يُكتَبَ ما كان مِن أمرِهِ حرفًا حرفًا، فيُقرَأ على الناسِ حرفًا حرفًا إذا حضروا، وأن يُنفى إلى أقصى المملكة، وتُجعَلَ العصا على رأسِ رُمحٍ يكُونُ معهُ حيثُ كان؛ ليحذَرَ مِنهُ مَن لا يعرِفُه، فلمّا نُفِيَ أخذَ مِن بعضِ المُوكَّلين[٥] مُدية، فجَبَّ بها ذَكَره وقال: مَن أطاع عُضوًا صغيرًا أفسدَ عليهِ جميعَ أعضائه. وماتَ مِن ساعتِه.

قلتُ: وقد كان جماعةٌ مِن الأمراء يتنكَّرُون، ويسألُون العوامَّ عن سيرتهم، فيتكلَّمُ العامّيُّ بما لا يصلُح، فيضبِطُونه عليه[٦]، ورُبّما بعثُوا دسيسًا.

ورُبَّ كلماتٍ قالها مُسترسِل، فبلَّغها فُضوليّ. ورأى عمرُ بنُ عبدِ العزيز رجلًا مِن العُمّال كثيرَ الصلاة، فدسَّ عليهِ مَن قال لـه: إن أخذتُ لكَ الولايةَ الفُلانيّة، فما تُعطيني؟ قال: أُعطيكَ كذا وكذا، قال عمر: غَرَرتَنا بصلاتِك!

---

(١) زاد في (س): «النديم».
(٢) في (س): «فأخبر الملك بما قاله النديم».
(٣) المِحَفّة: مَركَب كالهودج إلا أنه لا قُبّة له.
(٤) زاد في (س): «الملك».
(٥) زاد في (س): «به».
(٦) في (ح، ص، د، م): «فيصطنعونه عليه».

وقـد بلغَنـا أنّ رجلًا كلَّم امرأة، فأجابَتْه، فاستدعَته إلـى دارِها، فلمّا دخلَ أقامَـت مَـن قتلَـه! فقد يَنحَلُّ مِن هـذه الحِكايةِ أنّه لا ينبغي أن يُسـكَنَ إلى قولِ امرأةٍ أو رجلٍ يجُوزُ أن يكُونَ جاسُوسًا ومُختبِرًا.

وكذلـك لا يُظهِـرُ مـا ينبغي إخفـاؤُه مِن مـالٍ، أو مذهبٍ، أو سـبِّ رجُل، فرُبّمـا كان له في الحاضرِين قريـب، ولا يُوثَقُ بمودَّةٍ لا أصلَ لها، فرُبّما كانت تحتها آفةٌ تُقصَدُ.

وليحذَرْ من كُلِّ أمرٍ يُحتمَل، ورُبَّ كلِمةٍ نقلَها صديقٌ إلى صديق، فتحدَّثَ بهـا مَن لا يقصِدُ أذًى للقائـل، فبُلِّغت، فتأذّى، ورُبَّ مُظهِرٍ للمحبّةِ مُبالِغٌ حتّى يسـتمكنَ[1] مِـن مُـرادِه، فالحذرَ الحذرَ مِـن الطُّمانينةِ إلى أحـدٍ، خُصوصًا مِن عـدُوٍّ مُؤذيـه أو آذيتَه، أو قتلتَ له قريبًا، فرُبّما أظهرَ الجميلَ شـبكةً لاصطيادِك كحديثِ الزَّبّاء[2].

٣٧٢- فَصْلٌ
[الحرصُ والأمل]

رأيـتُ النفسَ بعد عُلُوِّ السِّـنِّ يقوى أملُها، ويـزدادُ حِرصُها، كما قال النبي ﷺ: «يشـيبُ ابنُ آدمَ وتشِـبُّ مِنهُ خَصلتانِ: الحرصُ والأملُ»[3]. ورأيتُ أكثرَ أسبابِ ذلك فراغَ اليدِ مِن الدنيا، وكثرةَ العائلة، وقوّةَ الحاجة، فيحتاجُ الإنسانُ إلى التعرُّض بما يَشِينُ العِرضَ ليَحصُلَ الغَرض!

فقُلتُ: إلهي! أبعدَ رُؤيةِ جِبالِ عرفةَ أضِلّ؟! أبعدَ مُشـارفةِ الحرمِ تأخذُني

(١) في (ك، س): «يتمكن».
(٢) تقدم في الفصل ٣٦٠.
(٣) البخاري (٦٤٢١)، ومسلم (١٠٤٧) من حديث أنس رضي الله عنه بمعناه.

أعـرابُ الباديـة؟! وا أسـفًا، أيطلُعُ فجـرُ النَّحرِ وما وصلتُ إلـى عَرفات؟! ويا ضياعَ سفرِ العُمرِ وما حصلَ المقصُود! [السريع]

قَد كُنتُ أرجُوكَ لِنيلِ المُنى واليَومَ لا أطلُبُ إلا الرِّضا[1]

ثـم قُلـتُ: يـا نفسُ، ما لكِ ملجأٌ إلا اللَّجأُ واسـتغاثةُ الغريـق، فإن رُحِمتِ وإلا فكم مِن حسرةٍ تحت التُّراب.

٣٧٣- فَصْلٌ
[علاجُ الرغبة]

شـكا لي بعضُ الأشـياخ، فقال: قد علَت سِـنِّي، وضعُفَت قُوّتي، ونفسـي تطلُبُ مِنّي شِـراءَ الجواري الصغارِ، ومعلُومٌ أنّهنَّ يُردنَ[2] النِّكاح، وليس فيّ، وما تقنَعُ مِنّي النفسُ بربّةِ البيت، إذ قد كبِرت، فقُلتُ له: عِندي جوابان:

أحدهما: الجوابُ العامّيّ، وهو أن أقُولَ: ينبغي أن تشـتغِلَ بذِكر الموت، وما قد توجَّهتَ إليه، وتحذَرَ مِن اشـتراءِ جاريةٍ لا تقدِرُ على إيفاءِ حقِّها، فإنّها تُبغِضُك، فإن أجهدتَ نفسَـك استعجلتَ التلف، وإنِ استبقيتَ قُوّتَكَ غضِبتْ هـي، علـى أنّها لا تُريدُ شـيخًا كيف كان. وقد أنشـدنا عليُّ بـنُ عبيد الله، قال: أنشدنا أبو مُحمّدٍ التميميّ: [الطويل]

أفِقْ يا فُؤادِي مِن غَرامِكَ واسـتمِعْ مَقالـةَ مَحـزُونٍ عَلَيـكَ شَـفِيقِ
عَلِقْـتَ فَتـاةً قَلبُهـا مُتَعَلِّـقٌ بغَيـرِكَ فاسـتوثَقتَ غَيـرَ وَثِيـقِ
فأصبَحـتَ مَوثُوقًا وراحَـتْ طَلِيقةً فكَم بَيـنَ مَوثُـوقٍ وبَيـنَ طَلِيقِ[3]

---

(١) للشريف الرضي في ديوانه (١: ٥٧٦). (٢) في (ك، س): «عُوّدن».
(٣) مرآة الزمان (١٩: ٤٧٠).

فاعلـم أنّها تعُدُّ عليـكَ الأيّام، وتطلُبُ مِنكَ فضلَ المال، لتسـتعِدَّ لغيرِك، ورُبّما قصدَتْ حتفَك، فاحذر! والسلامةُ في التركِ، والاقتناعِ بما يدفعُ الزمان.

والجـواب الثانـي: فإنّـي أقُـول: لا يخلُـو أن تكُونَ قـادرًا على الـوطءِ في وقـت، أو لا تكـون، فإن كُنتَ لا تقدرُ فالأَولى مُصابَـرةُ التركِ للكُلّ، وإن كان يُمكـنُ فالحـازمُ ينبغي له أن يُداريَ المرأةَ بالنفقةِ وطِيبِ الخُلُقِ إلا أنّه يُخاطِر، وإن كُنتَ تقدِرُ في أوقاتٍ على ذلك، ورأيتَ مِن نفسِـكَ تَوقًا شـديدًا، فعليك بالمُراهِقـات فإنّهـنَّ ما عرَفنَ النِّكاح، ومـا طلبنَ الـوطء، واغمُرْهُنّ بالإنفاق، وحُسـنِ الخُلُـق، مع الاحتياطِ عليهِـنّ، والمنعِ مِن مُخالطةِ النِّسـوة، وإذا اتَّفقَ وطء، فتصبَّر عنِ الإنزالِ ريثما تقضي المرأةُ حاجتَها.

واعتمِد وعظَها وتذكيرَها[1] بالآخِرة، واذكُر لها حِكاياتِ العُشّاقِ مِن غير نكاح، وقبِّحْ صُورةَ الفِعل، والفِتْ قلبَها إلى ذكرِ الصالِحين، ولا تُخلِ نفسَـك مِن الطِّيبِ والتزيُّنِ والكِياسةِ والمُداراةِ والإنفاقِ الواسِع، فهذا رُبّما حرَّكَ الناقةَ للمسير مع خطرِ السلامة.

٣٧٤- فَصْلٌ
[النظرُ في المآلات]

أبلهُ الناسِ مَن عمِلَ على الحالِ الحاضِرةِ ولم يتصوَّر تغيُّرَها، ولا وُقُوعَ ما يجُوزُ وُقُوعُهُ، مثاله: أن يغترَّ بدولة، فيعملَ بمُقتضى مُلكه، فإذا تغيَّرتْ هلك، ورُبّما عادى خَلقًا اغترارًا بأنّه مُتسلِّط، أو أنّه صاحِبُ سُلطان، فإذا تغيَّرتْ حالُه أكلَ كفَّيه ندمًا عند فواتِ التدارُك.

---

(١) في (ك، ح، س، ص، د): «وتذكرها».

وكذلك مَن له مالٌ يُبذِّره سُكونًا إلى وُجودِ المال، وينسى حالَه عند العُدم، وكذلك مَن يتناولُ الشهوات، ويُكثِرُ مِن المآكِلِ والمشارِب والنكاحِ ثقةً بعافيتِه، وينسى ما يعقُبُ ذلك مِن الأمراضِ والآفات.

ومِن أظرفِ الأحوالِ أن يُحبَّ جاريتَه، فيعتقَها ويهبَ لها، أو امرأةً فيسكُنَ إليها ويهبَ لها، فتتمكَّن، ولا تمضي الأيّامُ حتّى يسلُوَها، أو يطلبَ غيرَها، ولا يجدُ طريقًا للخلاص، فإن تخلَّصَ منها أخذَتْ ما غنِمَت مِنه، فلقيَ مِن الغيظِ أضعافَ ما يلتذُّ به.

فلا ينبغي أن يُوثَقَ بامرأة، ولا بمحبّةِ الإنسانِ امرأةً، فإنّه قد يُحبُّ امرأةً ويظنُّ أنّه لا يسلُوها أبدًا، فيسترسلُ إليها، والسُّلُوُّ يحدُث، ورُبّما أحبَّ غيرَها، فينسى الأُولى، فيصعُبُ عليهِ الخلاصُ مِن الأُولى. فالعاقِلُ لا يدخُلُ في شيءٍ حتّى يُهيِّئَ الخُروجَ مِنه، فإنّ الأشياءَ لا تثبُتُ، والمحبّةَ لا تدُوم، والتغيُّرَ مقرونٌ بكلِّ حال.

وكذلك يُعطِي مالَه ولدَه، ثُمّ يبقى كَلًّا[1] عليه، فيتمنّى الولدُ هلاكَه، ورُبّما عذَّبه في النفقة. وكذلك قد يثقُ بالصديق، فيبُثُّ أسرارَه إليه، فرُبّما أظهرَت ذلك، فكان منها ما يُوجِبُ هلاكَه. وكذلك يغترُّ الإنسانُ بالسلامة، وينسى طُروقَ الموت، فيأتيه بغتةً، فيبهتُه وقد فات الاستدراك، ولم يبقَ إلا الندم.

فالعاقِلُ مَن كانت عينُهُ مُراقِبةً للعواقِب، مُحترِزةً مِمّا يجُوزُ وقُوعُه، عاملةً على الاحتياط في كُلِّ حال، حافظةً للمالِ والسِّرّ، غيرَ واثقةٍ بزوجةٍ ولا ولدٍ ولا صديق، مُتأهِّبةً للرحيل، مُتهيِّئةً للنُّقلة، هذه صِفةُ أهلِ الحزم والتفريط المدى يتبعُ البذر[2].

---

(١) كلًّا: عِبئًا.

(٢) كذا قرأتُها، ولعل المعنى: والتفريط أبدًا يتبعُ البذر.

٣٧٥- فَصْلٌ

[تعليلُ أفعال الله مستحيل]

مِن أعجبِ الأُمورِ طلبُ الاطِّلاعِ على تحقيقِ العِرفانِ لذاتِ الله عز وجل وصفاتِه وأفعالِه، وهيهاتَ ليس إلا المعرِفةُ بالجُملة، ولقد أوغلَ المُتكلِّمون، فما وقعوا بشيء، فرجع عُقلاؤهُم إلى التسليم، وكذلك أصحابُ الرأيِ مالوا إلى القياس، فإذا أشياءُ كثيرةٌ تعكسُ مُرادَهم، فلم يجِدُوا ملجأً إلا التسليم[١]، فسمَّوا ما خالَفهم استِحسانًا.

فالفقيهُ مَن علَّلَ بما يُمكِن، فإذا عجزَ استطرحَ للتسليم، هذا شأنُ العبيد، فأمّا مَن يقُول: لِمَ فعلَ كذا؟ وما معنى كذا؟ فإنّه يطلُبُ الاطِّلاعَ على سِرِّ المَلِك، وما يجدُ إلى ذلك سبيلًا لوجهَين؛ **أحدهما**: أنّ الله تعالى سترَ كثيرًا مِن حِكَمِه عن الخلق. **والثاني**: أنّه ليس في قوى البشرِ إدراكُ حِكَمِ الله تعالى كُلِّها.

فلا يبقى مع المُعترِضِ سوى الاعتراضِ المُخرِجِ إلى الكُفر، ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: ١٥]، والمعنى: مَن رضيَ بأفعالي، وإلا فليَخنُقْ نفسَه، فما أفعلُ إلا ما أريد.

٣٧٦- فَصْلٌ

[أثر المُخالطة]

مَن رزقَهُ الله تعالى العِلمَ والنظرَ في سِيَرِ السلفِ، رأى أنّ هذا العالَمَ ظُلمةٌ، وجمهورَهم على غيرِ الجادّة، والمُخالطةَ لهُم تضُرُّ ولا تنفعُ، فالعجبُ لمَن ترخَّصَ في المُخالطة، وهو يعلمُ أنّ الطبعَ لصٌّ يسرِقُ مِن المُخالطة،

---

(١) زاد في (ص) هنا: «وكذلك أصحاب الرأي».

وإنّما ينبغي أن تقعَ المُخالطةُ للأرفع والأعلى في العِلمِ والعمل، ليُستفادَ مِنه. فأمّا مُخالطةُ الدُّون فإنّها تُـؤذي إلا أن يكُونَ عامّيًّا يقبَلُ من مُعلِّمِه، فينبغي أن يُخالَطَ بالاحتراز.

وفـي هذا الزمانِ إن وقعَـتِ المُخالطةُ للعوامِّ فهُم ظُلمةٌ مُستحكِمة، فإذا ابتُليَ العالِمُ بمُخالطتِهم فليُشمِّرْ ثيابَ الحذر، ولتكنْ مجالستُه إياهم للتذكرةِ والتأديبِ فحسب.

وإن وقعَـتِ المُخالطـةُ للعُلمـاء فأكثرُهـم علـى غيـرِ الجـادّة، مقصُودُهم صُـورةُ العِلـمِ لا العملُ به، فلا تـكادُ ترى مَن تُذاكِرُه أمرَ الآخِرة، إنّما شُـغلُهُم الغِيبةُ وقصدُ الغلبةِ واجتلابُ الدنيا، ثُمّ فيهم مِن الحسدِ للنُّظراء ما لا يُوصَف.

وإن وقعَتِ المُخالطةُ للأمراء فذاك تعرُّضٌ لفسادِ الدين؛ لأنّه إن تولّى لهم ولايةً دنيويةً فالظُّلمُ من ضروراتِها؛ لغلبةِ العادةِ عليهم والإعراضِ عنِ الشرع، وإن كانـت ولايةً دينية كالقضاء فإنّهم يأمُرُونه بأشـياءَ لا يكادُ يُمكِنُه المُراجعةُ فيهـا، ولـو راجعَ لـم يقبلُوا، وأكثرُ القومِ يخـافُ على منصِبه، فيفعـلُ ما أُمِرَ به وإن لم يجُز. ورُبّما رأيتُ في هذا الزمان أقوامًا يبذُلون المالَ ليكونوا قُضاةً أو شُهُودًا، ومقصُودُهم الرِّفعة، ثُمّ أكثرُ الشُّهودِ يشهدُ على مَن لا يعرِفُه، ويقول: مُعـرَّفٌ، يـدري أنّه كذّابٌ وأنه إنّمـا عَرَّفَ لأجلِ حَبّةٍ يُعطاهـا، وكم قد وقعَت شهادةٌ على غيرِ المشهُودِ عليه وعلى مُكرَهٍ!

وإن وقعَتِ المُخالطةُ للمُتزهِّدين فأكثرُهم على غيرِ الجادّة، وعلى خلافِ العِلم، قد جعلُوا لأنفُسِهم نواميسَ، فلا يتنسَّمُون[1]، ولا يخرُجون إلى سُوق،

(١) يتنسَّمون: يخرجون للتنزُّه والترويح عن أنفسهم.

ويُظهِرون التخشُّعَ الزائد، وكلُّه نفاق، وفيهم مَن يَلبَسُ الصُّوفَ تحت ثيابِه، ورُبّما لوَّحَ[١] بكُمِّه ليُرى!

وقد حُكِيَ عن طاهرِ بنِ الحُسينِ أنّه قال لبعضِ المُتزهّدين: مُذ كم قَدِمتَ العراق؟ قال: دخلتُها منذ عِشرين سنة، وأنا منذ ثلاثين سنةً صائم! فقال: سألناكَ عن مسألة، فأجبتَ عن اثنتين[٢]!

وبَنَتِ الصُّوفيةُ أربطةً، فهي خوارجُ على المساجِد، وهي دكاكينُ كُدْيَةٍ[٣] تقعدُ فيها الكُسالى عن الكسبِ مع القُدرة عليه، ويتعرَّضون بالقُعود للصدقات، ولأموال[٤] الظَّلَمة، وقد أراحُوا أنفُسَهم من إعادة العِلم، وأكثرُهم لا يُصلِّي نافلة، ولا يقومُ الليل، بل هِمَّتُهم المأكولُ والمشروبُ والرقص. وقد اتَّخذُوا سُننًا تُخالِفُ الشريعةَ، فهُم يَلبَسُون المُرقَّعَ لا مِن فقر، وهذا قبيح؛ لأنّه ليس عِندهم مِن أماراتِ الزُّهدِ سوى المَلبسِ الدُّون، فثيابهم تصيحُ: نحنُ زُهّاد، وباقي أفعالِهم المستورةِ تفضحُهم إذا اطُّلِع عليها، فالمطبخُ دائرٌ، والحَمامُ والحلوى كثيرة، والطِّيبُ والدَّعةُ والكِبرُ حاصِلٌ بذلك الكبر. وقد قال النبيُّ ﷺ لمالِكِ بنِ نَضلةَ - وقد رآه[٥] أشعثَ الهيئة -: «أمَا لكَ مالٌ؟» قال: بلى، مِن كُلِّ المالِ آتاني الله عز وجل، قال: «فإنّ الله عز وجل إذا أنعمَ على عبدٍ نعمةً أحبَّ أن تُرى عليه»[٦].

---

(١) زاد في (س): «له».

(٢) ذكره الجاحظ في البيان والتبيين (٢: ٢١٨).

(٣) الكُدْيَة: حِرفة السائل المُلِح.

(٤) في (ح، ص): «ولأحوال».

(٥) في (ك، ح، ص، د، م): «ورآه».

(٦) رواه الترمذي (٢٠٠٦).

ومِن أخلاقِهم تنفيرُ الناسِ عنِ العِلم، ويزعُمون أن لا حاجةَ إلى الوسائط، وإنّما هو قلبٌ وربٌّ، ولهم مِن الأقوالِ والأفعالِ المُنكراتِ ما قد ذكرتُه في «تلبيس إبليس».

آهِ لو كانَ للزمانِ عُمَرُ لاحتاجَ كُلَّ يومٍ إلى مئةِ دِرَّة، لا بل كان يستعملُ السيفَ في حقِّ هؤُلاء الخوارج، وهم داخِلَ البلدِ لا قُدرةَ للعُلماء عليهم؛ إذ قولُهم فيهم لا يُقبَلُ! فمَن رزقهُ الله سُبحانه النظرَ في سِيَرِ السلف، ووفَّقه للاقتداء بهم، أن يعتزلَ عن أكثرِ الخَلق، ولا يخالطَهم، فإنّه مَن خالطَ دارى، ومَن دارى لم يسلَمْ منَ المُداهنة، فالنُّصحُ اليومَ مردود.

٣٧٧- فَصْلٌ
[مُداراة الأعداء]

مِن البَلَهِ أن تُبارزَ عدُوًّا أو حسُودًا بالمُخاصمة، وإنّما ينبغي إن عرَفتَ حالَه أن تُظهِرَ له ما يُوجِبُ السلامةَ بينكُما، إنِ[١] اعتذرَ قبلتَ[٢]، وإن أخذَ في الخُصُومةِ صفَحتَ، وأريتَه أنّ الأمرَ قريبٌ، ثُمّ تُبطِنُ في الحذرِ مِنه، فلا تثقْ بهِ في حال، وتتجافاهُ باطنًا مع إظهارِ المُخالطةِ في الظاهِر.

فإذا أردتَ أن تُؤذيَه فأوّل[٣] ما تُؤذيه به: إصلاحُك نفسَك، واجتِهادُك فيما يرفعُك، ومِن أعظم العُقُوبةِ له العفوُ عن زَلَلِه، وإن بالغَ في السبِّ فبالِغْ في الصفح، تَنُبْ عنكَ العوامُّ في شتمِه، ويحمَدْكَ العُلماءُ على حِلمِك، وما تُؤذيه بهِ مِن ذلك وغيره في الباطِن أضعاف، وما تُؤذيه بهِ مِن كلمةٍ إذا قُلتَها له سمِعتَ أضعافَها[٤].

---

(١) في (س، د، م): «وإن».
(٢) في (س): «قبلت عذره».
(٣) في (ك، س، م): «فأقل».
(٤) زاد في (س): «منه».

ثُـمّ بالخُصُومـة تُعلِمُـه أنّـك عـدُوٌّ، فيأخـذُ الحذرَ ويبسُـطُ اللسـانَ دائمًا، وبالصفحِ يجهلُ ما في باطِنك، فيُمكِنُكَ حينئذٍ أن تشتفيَ مِنه بما يُؤذي دينَك، فيكُـونُ هـو الذي قد اشـتفى مِنك! ومـا ظفِرَ قطُّ مَن ظفِرَ بـه الإثم، بل الصفحُ المُطلَـقُ مـن غير إضمارِ جزاءٍ عقوبةُ الكـرام، وهو الصفحُ الجميل. وإنّما يقعُ هذا مِمَّن يرى أنّ تسـليطَه[1] عليه إمّا عُقُوبةٌ لذنب، أو لرفعِ درجةٍ أو للابتلاء، فهو لا يرى الخصم، وإنّما يرى القُدرة[2].

٣٧٨- فَصْلٌ
[كيفيةُ الخلاصِ من المِحن]

إذا وقعتَ في مِحنةٍ يصعُبُ الخلاصُ منها، فليس لك إلا الدعاءُ واللُّجوءُ بعـد أن تُقـدِّمَ التوبـةَ مِن الذنوبِ، فـإنّ الزللَ يُوجِـبُ العُقُوبة، فـإذا زال الزللُ بالتوبة مِن الذنوبِ[3] ارتفعَ السبب، فإذا تُبتَ[4] ودعوتَ ولم ترَ للإجابة أثرًا، فتفقّـد أمـرك، فرُبّما كانتِ التوبـةُ ما صحَّت، فصحِّحها، ثُـمّ ادعُ، ولا تمَلَّ مِن الدعاء، فرُبّما كانتِ المصلحةُ في تأخيرِ الإجابة، ورُبّما لم تكنِ المصلحةُ في الإجابـة، فأنتَ تُثابُ وتُجابُ إلـى منافِعك، ومِن منافِعك ألا تُعطى ما طلبتَ، بل تُعوَّضُ غيرَه.

فإذا جاء إبليسُ فقال: كم تدعُوه ولا ترى جوابًا؟ فقُل له: أنا أتعبَّدُ بالدعاء، وأنا مُوقِنٌ أنّ الجوابَ حاصل، غيرَ أنّه رُبّما كان تأخيرُه لبعضِ المصالِح على ما بيَّنتُ، ولو لم يحصُلْ حصلَ التعبُّدُ والذلّ.

---

(١) في (ك، س، م): «تسلطه». (٢) زاد في (س): «الإلهية».
(٣) قوله: «فإن الزلل...» إلى هنا سقط من (س).
(٤) في (ك، ص، م): «ثبت».

فإيّاكَ أن تسألَ شيئًا إلا وتقرِنُه بسؤالِ الخِيَرة، فرُبَّ مطلُوبٍ مِن الدنيا كان حصولُه سببًا للهلاك، وإذا كُنتَ قد أُمِرتَ بالمُشاورة في أُمورِ الدنيا لجنسِك، ليَبِينَ لكَ في بعض الآراءِ ما يُعجِزُ رأيَك، وترى أنّ ما وقعَ لك لا يصلُحُ، فكيف لا تسألُ الخِيَرةَ ربَّك وهو أعلمُ بالمصالِح؟ والاستخارةُ مِن حُسنِ المُشاورة.

٣٧٩- فَصْلٌ

[أكثرُ الناس فاسدون]

نظرتُ إلى الناس فرأيتُهم ينقسِمُون بين عالِمٍ وجاهِلٍ، فأمّا الجُهّالُ فانقسمُوا: فمنهم سلطانٌ قد رُبِّيَ في الجهلِ، ولُبسِ الحرير، وشُربِ الخُمور، وظُلمِ الناس، وله عُمّالٌ على مِثلِ حالِه، فهؤُلاءِ بمَعزِل عن الخيرِ بالجُملة.

ومنهم تُجّارٌ هِمّتُهم الاكتسابُ وجمعُ الأموال، وأكثرُهم لا يُؤدّي الزكاة، ولا يتحاشى مِن الرِّبا، فهؤلاء في صُوَرِ الناس.

ومنهم أربابُ معاشٍ يُطفِّفُون ويبخَسُون ويتعاملُون بالرِّبا، وهُم في الأسواقِ طُولَ النهار، لا هِمّةَ لهم إلا ما هم فيه، فإذا جاء الليلُ وقعُوا نيامًا كالسُّكارى، فهِمّةُ أحدِهِم ما يأكُلُ ويلتذُّ به، وليس عِندَهم مِن الصلاةِ خبر، فإن صلّى أحدُهم نَقَرَها، أو جمعَ بينها، فهؤُلاءِ في عِدادِ البهائم.

ومن الناسِ رُذالةٌ[١] في جميعِ أحوالِهم، فهذا كنّاس، وهذا زَبّال، وهذا نَخّالٌ، وهذا يكسَحُ الحُشّ[٢]، فهؤُلاء أَرذَلُ القوم.

ومنهم مَن يطلُبُ اللذّات، ولا يُساعِدُه المعاش، فيخرُجُ إلى قَطعِ الطريق، وهؤُلاء أحمقُ الجماعة؛ إذ لا عيشَ لهُم، فإنِ التذُّوا لحظةً بأكلٍ وشُربٍ،

---

(١) الرُّذالة: الرديء من كل شيء. (٢) الحُشّ: الكنيف.

فحرَّكـتِ الريـحُ قَصَبـةً، هرَبوا خوفًا مِن السُّـلطان، وما أقلَّ بقاءَهـم! ثُمّ القتلُ والصَّلب، مع إثمِ الآخرة.

ومنهم: أربابُ قُرًى، قد عمَّهُم الجهل، وأكثرُهُم لا يتحاشـى مِن نجاسـة، فهُم في زُمرةِ البقر.

ورأيتُ النِّسـاءَ ينقسِـمن أيضًا: فمنهُنَّ المُستحسَـنةُ التي تَبغِـي[١]، ومنهنَّ الخائنةُ لزوجِها في مالِه، ومنهُنَّ مَن لا تُصلِّي ولا تعرِفُ شيئًا مِن الدين، فهؤُلاءِ حشـوُ النـار، فإذا سـمِعنَ موعِظةً فإنّهـا ماءٌ مرَّ علـى حَجَر، وإذا قُـرِئ عندهنَّ القرآنُ فكأنّهُنَّ يسمعنَ السَّمَر.

وأمّا العُلماءُ فالمُبتدِئون مِنهُم ينقسـمون إلـى ذي نيّةٍ خبيثة، يقصِدُ بالعِلمِ المُباهـاةَ لا العمل، ويميلُ إلى الفسـقِ ظنًّا أنّ العِلـمَ يدفعُ عنه، وإنّما هو حُجّةٌ عليه. وأمّا المتوسِّـطون والمشـهورُون[٢] فأكثرُهم يَغشى السلاطين، ويسكُتُ عن إنكارِ المُنكر، وقليلٌ مِن العُلماءِ مَن تسلَمُ له نيّتُه ويحسُنُ قصدُه.

فمَـن أراد الله بـهِ خيـرًا رزقَهُ حُسـنَ القصدِ فـي طلبِ العِلم، فهُـو يُحصِّلُه لينتفـعَ بـهِ وينفع، ولا يُبالي بعملٍ مِمّا يدلُّه[٣] عليـهِ العِلم، فتراه يتجافى أربابَ الدنيا، ويحذَرُ مُخالطةَ العوامّ، ويقنَعُ بالقليل خوفًا مِن المُخاطرةِ في الدنيا في تحصيلِ الكثير، ويُؤثِرُ العُزلة، فليس مُذكّرًا بالآخِرةِ مثلُها.

وليس على العالِمِ أضرُّ مِن الدخُولِ على السـلاطين، فإنّه يُحسِّـنُ للعالِمِ الدنيا، ويُهوِّنُ عليهِ المُنكَر، ورُبّما أراد أن يُنكِرَ فلا يصِحُّ له، فإن عدِمَ القناعةَ،

---

(١) تبغي: تمتهن البغاء.

(٢) في (ك، س، د): «المشهورون» بلا واو قبلها.

(٣) في (ك، س، م): «يدل».

وغلبَتْه نفسُه في طلبِ فُضُولِ الدنيا، يُسلِّم عليه(١)؛ لأنّه يتعرَّض بأربابِها.

وإنّ الإنسانَ ليمشي في السُّوق ساعةً، فينسى ـ بما يرى ـ ما يعلَمُ، فكيف إذا انضمَّ إلى ذلك التردُّدُ إلى الأغنياء والطمعُ في أموالِهم؟! فأمّا الوَحدةُ فإنّها سببُ رُجوعِ القلب، وجمعِ الهمّ، والنظرِ في العواقِب، والتهيُّؤِ للرحيل، وتحصيلِ الزاد، فإذا انضمَّتْ إليها القناعةُ جلبَتِ المُستحسَنة.

ولا تحسُنُ اليومَ المُجالَسةُ إلا لكتابٍ يُحدِّثُكَ عن أسرارِ السلف، فأمّا مُجالَسةُ العُلماءِ اليومَ فمُخاطَرة؛ إذ لا يجتمعون على ذِكرِ الآخِرةِ في الأغلب، ومجالَسةُ العوامِّ فتَلَفٌ للدين، إلا أن يحترزَ مُجالِسُهم، ويمنعَهم من القول، فيقولَ هو ويُكلِّفَهُم السماعَ، ثُمّ يستوفِزَ(٢) للبُعد عنهم.

ولا يمكنُ الانقطاعُ الكُلّيّ إلا بقطعِ الطمع، ولا ينقطِعُ الطمعُ إلا بالقناعةِ باليسير، أو تمييزِ تجارة، أو أن يكونَ له عقارٌ يستغلُّه(٣)، فإنّه متى احتاجَ تشتَّتَ الهمُّ، ومتى انقطعَ العالِمُ عنِ الخَلق، وقطعَ طمعَهُ فيهم، وتوفَّر على ذِكرِ الآخِرة، فذاك الذي ينفعُ ويُنتفَعُ به، والله الموفِّق.

٣٨٠ـ فَصْلٌ
[الاستعداد للجنة والردُّ على المُتصوِّفة]

مَن تأمَّل بعينِ الفِكرِ دوامَ البقاءِ في الجنّةِ، في صفاءٍ بلا كَدَرٍ(٤)، ولذّاتٍ بلا انقطاع، وبُلوغِ كُلِّ مطلُوبٍ للنفس، والزيادةِ بما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ

(١) أي: اغسل يديك منه، فلا اعتداد به. (٢) يستوفز: يستعدّ ويتحفَّز.
(٣) في (ح، د، ص، س): «يشغله»، ويستغله: يأخذ غلّته.
(٤) في (ح، ص): «كد».

سمِعَت، ولا خطرَ على قلبِ بشر، مِن غيرِ تغيُّرٍ ولا زوال، ولا يُقالُ: ألفُ ألفِ سنة، ولا مئةُ ألفِ ألف[١]، ولو أنّ الإنسانَ عدَّ الألوفَ ـ ألوفَ سنين ـ لا ينقضي عددُه ولا كان له نهاية[٢]، وبقاءُ الآخِرةِ لا نفادَ له، إلا أنّه لا يحصُلُ ذلك إلا بنَفَدِ[٣] هذا العُمُر.

وما مِقدارٌ[٤] غايتُه مئةُ سنةٍ، منها خمسَ عشرةَ صبوةٌ وجهلٌ، وثلاثون[٥] بعد السبعين ـ إن حصلَت ـ ضعفٌ وعجزٌ، والتوسُّطُ نِصفُهُ نوم، وبعضُهُ زمانُ أكلٍ وشُربٍ وكسبٍ، والمُتنخَّلُ منه للعِباداتِ يسير؟! أفلا يُشترى ذلك الدائمُ بهذا القليل؟! إنّ الإعراضَ عنِ الشرُوعِ في هذا البيعِ والشراءِ لَغَبنٌ فاحِشٌ في العقل، وخَلَلٌ داخلٌ في الإيمانِ بالوعد.

فإنّما يُدرى كيف يُعقَدُ البيعُ بالعِلم، فهو الذي يدُلُّ على الطريق، ويُعرِّفُ ما يصلُحُ لها، ويُحذِّرُ مِن قُطّاعِها. ولقد دخلَ إبليسُ على طائفةٍ مِن المُتزهِّدين بآفات، أعظمُها أنّه صرفَهم عن العِلم، فكأنّه شرعَ في إطفاءِ المِصباحِ ليسرِقَ في الظُّلمة، حتّى إنّه أخذَ قومًا مِن كبارِ العُلماء، فسلكَ بهم مِن ذلك ما ينهى عنه العِلم.

فرأيتُ أبا حامدٍ الطُّوسيَّ يحكي عن نفسِه في بعضِ مُصنَّفاتِه قال: شاورتُ متبوعًا مُقدَّمًا مِن الصُّوفيةِ في المُواظبةِ على تلاوةِ القُرآن، فمنعني منه! وقال: السبيلُ أن تقطعَ علائقَكَ مِنَ الدنيا بالكُلّية، بحيثُ لا يلتفِتُ قلبُكَ إلى أهلِ

---

(١) زاد في (س): «سنة».

(٢) في النسخ: «لا يقضي عددَه وكان له نهاية»، والمثبت عن (ط).

(٣) النَّفَد: الفَناء.

(٤) في (ي): «مقدار عُمر».

(٥) في (ك، س): «ثلاثون» بلا واو قبلها.

وولـدٍ ومـالٍ وعِلم، بل تصيرُ إلى حالةٍ يستوي عِندك وُجُودُ ذلك وعدمُه، ثُمّ تخلُو بنفسِك في زاوية، فتقتصِرُ مِن العِبادةِ على الفرائضِ والرواتب، وتجلِسُ فارغَ القلب، ولا تزالُ تقُولُ: الله الله! إلى أن تنتهيَ إلى حالةٍ لو تركتَ تحريكَ اللِّسانِ رأيتَ كأنّ الكلِمةَ جاريةٌ على لسانِك، ثُمّ تنظرُ ما يُفتَحُ عليك مِمّا فُتِحَ مِثلُه على الأنبياءِ والأولياء[1]!

قُلتُ: وهذا أمرٌ لا أتعجَّبُ أنا فيهِ مِن المُوصي به، وإنّما أتعجَّب مِن الذي قبِلهُ مع معرفتِه وفَهمِه! وهل يُقطَعُ الطريقُ بالإعراضِ عن تلاوةِ القُرآن؟! وهل فُتِحَ للأنبياء ما فُتِحَ بمجاهدتِهم ورياضاتِهم؟ وهل يُوثَقُ بما يظهَرُ؟! ثُمّ ما الذي يُفتَحُ؟ أثَمّ اطِّلاعٌ على عِلمِ غيبٍ أم وحيٌ[2]؟!

فهذا كُلُّه من تلاعُبِ إبليسَ[3] بالقوم، ورُبّما كان ما يتخايَلُ مِن أثر الماليخوليا ومن إبليس. فعليكَ بالعِلم، وانظر في سِيَرِ السلف: هل فعلَ أحدٌ مِنهُم مِن هذا شيئًا أو أمر به؟! وإنّما تشاغلُوا بالقُرآن والعِلم، فدلَّهم على إصلاحِ البواطِن وتصفيتِها. نسألُ الله عز وجل علمًا نافعًا ودفعًا للعدوِّ مانِعًا، إنّه قادر.

٣٨١- فَصْلٌ
[الكِتمان]

مَن أراد اصطِفاءَ محبوبٍ فالمحبُوبُ نوعان: امرأةٌ يُقصَدُ منها حُسنُ الصُّورة، وصديقٌ يُقصَدُ مِنهُ حُسنُ المعنى، فإذا أعجبَكَ صُورةُ امرأةٍ فتأمَّلْ خِلالَها الباطِنةَ مُدَيدةً قبلَ أن يتعلَّقَ القلبُ بها تعلُّقًا مُحكَمًا، فإن رأيتَها كما تُحبُّ ـ وأصلُ ذلك

---

(١) ميزان العمل للغزالي (ص٢٢٢، ٢٢٣). (٢) في (ك، س، م): «على علم يكتب أم وحي».
(٣) في (ك، س، م): «فهذا كله من تلاعب النفس».

كُلّه الدين، كما قال: «عليكَ بذاتِ الدِّين»[1] - فمِلْ إليها واستولِدْها.

وكُنْ في مَيلكَ مُعتدِلَ المَيل، فإنّه مِن الغلطِ أن تُظهِرَ لمحبُوبِك المحبّة، فإنّه يشتطُّ عليك، وتلقى مِنهُ الأذى من التجنّي والهِجرانِ والإذلالِ وطلبِ الإنفاقِ الكثيرِ، وإن كانت تُحبُّك؛ لأنّ هذا إنّما يجتلِبُه حبُّ الإذلالِ لمقهُور[2].

ثَمّ نُكتةٌ عجيبةٌ، وهو أنّك رُبّما عمِلتَ بمُقتضى الحالِ الحاضِرة، وهي تحكُمُ بكمالِ الحُبّ، ثُمّ إنّ ذلك لا يثبُتُ إليك، تقعُ فتبقى مقهُورًا ويصعُبُ عليك الخلاص، ورُبّما تمكّنَتْ بمعرِفةِ سِرِّك، أو بأخذِ كثيرٍ مِن مالِك.

ومِن أحسنِ ما بلَغني في هذا أنّ جاريةً لبعضِ الخُلفاءِ كانت تُحِبُّه حُبًّا شديدًا، ولا تُظهِرُ له ذلك، فسُئلَت عن هذا، فقالت: لو أظهرتُ ما عِندي فجفاني هلكتُ. قال الشاعر: [الكامل]

لا تُظهِرَنَّ مَوَدَّةً لِحَبِيبِ[3] فتَرَى بعَينِكَ مِنهُ كُلَّ عَجِيبِ
أظهَرتُ يَومًا لِلحَبِيبِ مَوَدَّتِي فأَخَذتُ مِن هِجرانِهِ بنَصِيبِي

وكذلك ينبغي أن تكتُمَ بعضَ حُبِّكَ للولد؛ لأنّه يتسلّطُ عليك، ويُضيِّعُ مالَك، ويبالغُ في الإدلال، ويمتنعُ عن التعلُّمِ والتأديب.

وكذلك إذا اصطفَيتَ صديقًا وخبِرتَه، فلا تُخبِرْه بكُلِّ ما عِندَك، بل تَعاهَدْهُ بالإحسانِ كما تتعاهدُ الشجرة، فإنّها إذا كانت جيِّدةَ الأصلِ حسُنَت ثمرتُها بالتعاهُد، ثُمّ كُنْ مِنهُ على حذرٍ، فقد تتغيَّرُ الأحوالُ، وقد قيل[4]: [مجزوء الكامل]

---

(١) البخاري (٥٠٩٠)، ومسلم (١٤٦٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بمعناه.

(٢) في (ط): «الإدلال لمقهور». (٣) في (ص): «بحبيب».

(٤) تقدم في الفصل ١١٢.

احـــذَرْ عَـــدُوَّكَ مَـــرَّةً　　واحذَرْ صَدِيقَكَ ألفَ مَرَّهْ
فلَرُبَّمــا انقلَــبَ الصَّدِيــ　　ــقُ فكانَ أدرى بالمَضَرَّهْ

وأمّا إذا أبغضتَ شخصًا فلا تُظهِرَنَّ ذلك له، فإنّك تُنبِّهُه على أخذِ الحذرِ منك، وتدعوه إلى المُبارزة، فيبالغُ في حربكَ والاحتيالِ عليك، بل ينبغي أن تُظهِرَ له الجميلَ إن قدَرتَ، وتَبَرَّه ما استطعَت، فانكسرت عادتُه جِبلّةً بالحياء مِن بُغضِك، فإن لم تُطِقْ فهجرٌ جميلٌ لا تُبيِّن فيهِ ما يُؤذي، ومتى سمِعتَ مِنهُ[1] كلِمةً قذِعةً فاجعلْ جوابَها كلِمةً جميلة، فهي أقوى في كفِّ لسانِه.

وكذلك جميعُ ما يُخافُ إظهارُه فلا تتكلَّمَنَّ به، فرُبّما وقعَتْ كلِمةٌ أسقطتَ بها عزَّ سلطانٍ فنُقِلَتْ[2] إليه، فكانت سببَ هلاكِك، أو عن صديقٍ فكانت سببَ عداوتِه، أو صِرتَ رهينًا لمَن سمِعَها، خائفًا أن يُظهِرَها، فالحزمُ كِتمانُ الحُبِّ والبُغضِ.

وكذا ينبغي أن تكتُمَ سِنَّك، فإن كُنتَ كبيرًا استهرمُوك، وإن كُنتَ صغيرًا استحقرُوك، وكذلك مِقدارُ مالك، فإنّه إن كان كثيرًا نسبُوكَ في نفقتِكَ إلى البُخل، وإن كان قليلًا طلبوا الراحةَ منك، وكذلك المذهبُ، فإنّك إن أظهرتَه لم تأمَنْ أن يسمعَهُ مُخالِفٌ فيقطعَ بكُفرِك، وقد أنشَدنا مُحمّدُ بنُ عبدِ الباقي البزّاز[3]:　[الكامل]

احفَظْ لِســانَكَ لا تَبُحْ بثَلاثَةٍ:　　سِنٍّ ومالٍ ما استطَعْتَ ومَذهَبِ
فعَلَــى الثَّلاثــةِ تُبتَلَــى بثَلاثَةٍ　　بمُمَــوِّهٍ ومُمَخــرِقٍ ومُكَذِّبِ

(١) في (س، د، م): «عنه».
(٢) عن (د، ي).
(٣) تقدم في الفصل ٧٨.

٣٨٢- فَصْلٌ
[خدمة الظَّلمة]

طال تعجُّبي مِن مُؤمِنٍ بالله عز وجل، مُؤمِنٍ بجزائه، يُؤثِرُ خِدمةَ السُّلطانِ، مع ما يرى مِن الجَورِ الظاهِر، فوا عجبًا ما الذي يُعجِبُه؟! إن كان الذي يُعجِبُه دُنيويًّا فليس ثَمّ إلا أن يُصاحَ بين يدَيهِ باسمِ الله، وأن يتصدَّرَ في المجالِس، ويلويَ عُنُقَه كِبرًا على النُّظَراء، ويأخُذَ الأسحات[1]، وهو يعلمُ مِن أين حصل، ورُبّما انبسطَ في البرطِيل[2].

ثُمّ يقابِلُ هذا أن يُصادَرَ ويُعزَل، فتستخرجُ تلك المرارةُ منه كلَّ حلاوةٍ كانت في الولاية، ورُبّما كان قريبَ الحال، فافتقرَ بالمُصادرةِ جِدًّا، ثُمّ تنطلقُ الألسُنُ المادِحةُ بالذمّ. ثُمّ لو سلِم مِن هذا فإنّه لا يسلَمُ مِن الرقيبِ له والحذرِ مِنه، فهُو كراكِبِ البحرِ، إن سلِمَ بدنُه مِنَ الغرقِ لم يسلَمْ قلبُه مِنَ الخوف! وإن كان ديِّنًا فإنّه يعلَمُ أنّهم لا يُمكِّنُونه ـ في الغالِب ـ مِن العمل بمُقتضى الدين، فإنّهم يأمُرُونه بتركِ ما يجِبُ وفِعلِ ما لا يجُوز، فيذهبُ دينُه على البارِد، ولَعِقابُ الآخِرةِ أشقُّ.

٣٨٣- فَصْلٌ
[عزَّة النفس]

العجبُ مِن الذي أنِفَ من الذلّ، كيف لا يصبِرُ على جِلْفِ[3] الخبز، ولا يتعرَّضَ لمِنَنِ الأنذال؟! أتراه ما يعلمُ أنّه ما بقيَ صاحِبُ مُرُوءةٍ وأنّه إن سأل سأل بخيلًا لا يُعطي، فإن أعطى نزرًا فإنّه يستعبِدُ المُعطى باقيَ العُمُر بذلك؟!

---

(١) الأسحات: جمع سُحت، وهو المال الحرام.
(٢) البرطيل: الرشوة.
(٣) الجِلْف: الخبز اليابس بلا أُدْم.

ثُـمّ ذاك القـدرُ النزرُ يذهـبُ عاجلًا، وتبقى المِنَنُ والخجـلُ ورُؤيةُ النفسِ بعينِ الاحتقار؛ إذ صارت سائلة، ورُؤيةُ المُعطِي بعينِ التعظيمِ أبدًا. ثُمّ يُوجِبُ ذلك السُّكوتَ عن معايبِ المُعطِي، والبِدارَ إلى قضاءِ حُقوقِهِ وخدمتِه[1] فما يَفِي! وأعجبُ مِن هذا مَن يقدرُ أن يستعبِدَ الأحرارَ بقليلِ العطاءِ الفاني ولا يفعلُ، فإنّ الحُرَّ لا يُشترى إلا بالإحسان. قال الشاعر: [الطويل]

تَفَضَّلْ على مَن شِئتَ واعنَ[2] بأمرِهِ ... فأنتَ - ولَو كانَ الأميرَ - أميرُهُ
وكُنْ ذا غِنًى عمَّن تَشاءُ مِنَ الوَرى ... ولَو كانَ سُلطانًا فأنتَ نَظِيرُهُ
ومَن كُنتَ مُحتاجًا إليهِ وواقِفًا ... عَلى طَمَعٍ مِنهُ فأنتَ أسِيرُهُ

٣٨٤- فَصْلٌ
يتضمَّن وصيةَ الشباب

ينبغي للصبيِّ إذا بلغَ أن يحذرَ كثرةَ الجِماع ليبقى جوهرُه، فيُفيدهُ ذلك في الكِبَر؛ لأنّه مِن الجائزِ كِبَرُه، والاستعدادُ للجائزِ حزمٌ، فكيف للغالب؟! فكما ينبغي أن يستعدَّ للشتاءِ قبل هجومِه، ومتى أنفقَ الحاصِلَ وقتَ القُدرةِ تأذّى بالفقرِ إليهِ وقتَ الفاقة.

وليعلمْ ذو الدينِ والفَهمِ أنّ المُتعةَ إنّما تكُونُ بالقُربِ مِن الحبيب، والقُربُ يحصُلُ بالتقبيلِ والضمّ، وذلك يُقوِّي المحبّة، والمحبّةُ يَلِذُّ وُجُودُها، والوطءُ ينقُصُ المحبّـةَ، ويُعدِمُ تِلك اللذّة! وقد كان العربُ يعشقُون ولا يرون وطءَ المعشُوق! قال قائلهم[3]: [الرجز]

(١) المثبت عن (ص)، وفي سائر النسخ: «وحدسه».
(٢) في (ح، ص): «واغن».
(٣) تقدم في الفصل ٣٦٤.

. . . . إن نُكِـحَ الحُـبُّ فَسَـدْ!

فأمّـا الالتِذاذُ بنفسِ الوطء فشـأنُ البهائم. ولقد تأمَّلـتُ المُرادَ مِن الوطء، فوجدتُ فيهِ معنًى عجيبًا يخفى على كثيرٍ مِن الناس، وهو أنّ النفسَ إذا عشِقَت شـخصًا أحبَّـتِ القُربَ مِنه، فهي تُؤثِرُ الضـمَّ والمُعانقة؛ لأنّها غايةٌ في القُرب، ثُمّ تُريدُ قُربًا[1] يزيدُ على هذا، فيُقبِّلُ الخدَّ، ثُمّ تطلبُ القُربَ مِن الرُّوح، فيُقبِّلُ الفم؛ لأنّه مَنفَذٌ إلى الرُّوح[2]، ثُمّ تطلُبُ الزيادة، فيمُصُّ لسانَ المحبوب، وقد كان رسُـولُ الله ﷺ يتوشَّـحُ[3] عائشـةَ ويُقبِّلُهـا ويمُصُّ لسـانَها[4]، فإذا طلبتِ النفسُ زيـادةً فـي القُربِ إلى النفسِ اسـتعملتِ الـوطء، فهذا سِرُّهُ المعنوي، ويحصُلُ مِنهُ الالتِذاذُ الحِسّيّ.

٣٨٥- فَصْلٌ
[رأيٌ في علم الكلام]

ليـس علـى العوامِّ أضرُّ مِن سـماعِهم عِلـمَ الكلام، وإنّما ينبغـي أن يُحذَّرَ العـوامُّ مِـن سـماعِهِ والخوضِ فيهِ كمـا يُحذَّرُ الصبـيُّ مِن شـاطِئ النهَرِ خوفَ الغرق، ورُبّما ظنَّ العامّيُّ أنّ له قُوّةً يُدرِكُ بها هذا، وهو فاسـد، فإنّه قد زلَّ في هذا خلقٌ[5] مِن العُلماء، فكيف العوامُّ؟!

ومـا رأيـتُ أحمقَ مِن جُمهُـورِ قُصّاصِ زمانِنا، فإنّه يحضُـرُ عِندهم العوامُّ الغُتـم[6]، فـلا ينهَوْنهـم عن خمـرٍ وزِنًـا وغِيبـة، ولا يُعلِّمُونهـم أركانَ الصلاةِ

(١) سقط «تريد قربًا» من (ح، ص). (٢) سقط «ثُمّ تطلب القُرب... الروح» من (ص).
(٣) التوشُّح: الجماع، وما ألطفَ استعارةَ ابن الجوزي هنا!
(٤) تقدم في الفصل ١٦١. (٥) زاد في (س): «كثير».
(٦) في (ح، د): «العُتم»، والغُتم بالغين: جمع الأغتم، وهو من لا يُفصِح شيئًا.

ووظائفَ التعبُّد، بل يملؤُون الزمانَ بذِكرِ الاستواءِ وتأويلِ الصفات، وأنّ الكلامَ قائمٌ بالذّات، فيتأذّى بذلك مَن كان قلبُه سليمًا.

وإنّما على العامّيّ أن يُؤمنَ بالأُصُولِ الخمسة: بالله، وملائكتِه، وكتبِه، ورُسُلِه، واليومِ الآخِر، ويقنعَ بما قال السلفُ: القُرآنُ كلامُ الله غيرُ مخلُوقٍ، والاستواءُ حقٌّ، والكيفُ مجهول.

وليعلَمْ أنّ رسُولَ الله ﷺ لم يُكلِّفِ الأعرابَ سِوى مُجرَّدِ الإيمان، ولم يتكلَّمِ الصحابةُ في الجواهِرِ والأعراض، فمَن مات على طريقِهم ماتَ مُؤمِنًا سليمًا مِن بدعة، ومن تعرَّضَ لساحِلِ البحرِ، وهو لا يُحسِنُ السباحةَ، فالظاهِرُ غرقُه.

٣٨٦- فَصْلٌ
[الاستعدادُ للآخرة]

أشدُّ الناسِ جهلًا منهُومٌ باللذّاتِ، واللذّاتُ على ضربَين: مباحةٌ، ومحظُورةٌ. فالمباحةُ لا يكادُ يحصُلُ منها شيءٌ إلا بضياعِ ما هو مُهِمٌّ مِن الدين، فإذا حصلَت منها حَبّةٌ قارَنها قِنطارٌ مِن الهمّ، ثُمّ لا تكادُ تصفُو في نفسِها، بل مُكدِّراتُها ألوف، فإذا صوَّرَ عدمَها الألوف، صار التصويرُ مُغلصِمًا[١] للهوى مُحزِنًا للنفس[٢]، فإذا أنِفَت أنِفَت من الأسفِ على الدوام ما لا تحويه صفةٌ، فهي تغرُّ الغَمْرَ[٣]، وتهدمُ العُمرَ، وتُديمُ الأسى.

ومع هذا فالمنهُومُ كُلَّما عَدَّ مِن لذّةٍ طلبَ أُختَها، وقد عرَفَ خيانةَ الأُولى

---

(١) مغلصمًا للهوى: أي قاطعًا له، والغَلْصَمة: رأس الحلقوم، وهو الجزء الناتئ من الحلق.

(٢) في (ط): «مجزّئًا للنفس».

(٣) الغمر: من لم يُجرّب الأمور.

وجنايتَها، وهذا مرضُ العقل، وداءُ الطبع، فلا يزالُ صاحبُ هذا كذلك إلى أن يُختطَفَ بالموت، فيبقى لَقًى[1] على بساطِ ندمٍ لا يُستدرَكُ.

فالعجبُ مِمَّن هِمّتُه هكذا مع قِصَرِ العُمُر، ثُمّ لا يهتمُّ بآخِرتِه التي لذّاتُها سليمةٌ من شامتٍ، مُنزَّهةٌ عن معايبَ، دائمةٌ إلى الأمد، باقيةٌ ببقاء الأبد، وإنّما يحصُلُ تقريبُ هذه بإبعادِ تلك، وعُمرانُ هذه بتخريبِ تلك، فوا عجبًا لعاقلٍ حَصِيفٍ[2] حَسَنِ التدبير، فاتهُ النظرُ في هذه الأحوال، وغفلَ عن تمييز ما بين هذَين الأمرَين!

وإن كانتِ اللذّةُ معصيةً انضمَّ إلى ما ذكَرناه عارُ الدنيا، والفضيحةُ بين الخَلق، وعُقُوبةُ الحُدود، وعِقابُ الآخِرة، وغضبُ الحقِّ سُبحانه. بالله إنّ المُباحاتِ تشغلُ عن تحصيلِ الفضائل، فذُمَّ ذلك لبيانِ الحزم، فكيف بالمُحرَّماتِ التي هي غايةُ الرذائل؟! نسألُ الله عز وجل يقظةً تُحرِّكنا إلى منافِعِنا، وتُزعِجُنا عن خوادِعِنا، إنّه قريبٌ مجيب[3].

٣٨٧- فَصْلٌ
[أسبابُ التراخي في العمل]

تأمَّلتُ على الخَلقِ وأنا في الأولِ حالة[4] عجيبة، يكادُ يُقطَعُ معها بفسادِ العقل، وذلك أنّ الإنسانَ يسمعُ المواعِظ، وتُذكَرُ له الآخِرة، فيعلمُ صِدقَ القائل، فيبكي وينزعِجُ على تفريطِه، ويعزِمُ على الاستدراك، ثُمّ يتراخى عملُه بمُقتضى ما عزمَ عليه.

---

(١) لَقًى: بمعنى مُلقًى.

(٢) في (ك، ح، ص، د، م): «خصيف».

(٣) سقطت من (ح، ص).

(٤) في (ط): «وإذا هم في حالة».

فإذا قيل له: أتشكُّ فيما وُعِدتَ به؟ قال: لا والله، فيُقالُ: فاعملْ، فينوي ذلك، ثُمّ يتوقَّفُ عنِ العمل، ورُبّما مالَ إلى لذَّةٍ مُحرَّمة، وهو يعلمُ النهيَ عنها!

ومن هذا الجِنس تأخُّرُ الثلاثةِ الذين خُلِّفوا ولم يكُن لهم عُذر[١]، وهم يعلمُون قُبحَ التأخُّر، وكذلك كُلُّ عاصٍ ومُفرِّط.

فتأمَّلتُ السببَ في أنّ الاعتقادَ صحيح، والفِعلَ بطيء، فإذا له ثلاثةُ أسباب؛ أحدُها: رُؤيةُ الهوى العاجِل، فإنّ رؤيتَه تشغلُ عن الفكرِ فيما يجنيه. والثاني: التسويفُ بالتوبة، ولو حضرَ العقلُ لحذَّرَ مِن آفاتِ التأخير، فرُبّما هجمَ الموتُ ولم تحصُلِ التوبةُ، والعجبُ مِمَّن يُجوِّزُ سلبَ رُوحِه قبل مُضيِّ ساعةٍ، لا يعملُ على الحزم! غيرَ أنّ الهوى يُطيلُ الأمل. وقد قال صاحِبُ الشرع ﷺ: «صلِّ صلاةَ مُودِّع»[٢]، وهذا نهايةُ الدواءِ لهذا الداء، فإنّه مَن ظنَّ أنّه لا يبقى إلى صلاةٍ أُخرى جدَّ واجتهد. والثالث: رجاءُ الرحمة، فيُرى العاصي يقولُ: «ربّي رحيمٌ»، وينسى أنّه شديدُ العِقاب، ولو[٣] علِمَ أنّ رحمتَه ليست رِقّةً ـ إذ لو كانت كذلك[٤] لمّا ذبحَ عُصفُورًا، ولا آلمَ طِفلًا ـ وعقابَه غيرُ مأمُونٍ ـ فإنّه شرعَ قطعَ اليدِ الشريفةِ بسرِقةِ خمسةِ قراريط، فنسألُ الله عز وجل أن يهبَ لنا حزمًا يبتُّ المصالحَ جزمًا.



(١) البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩) من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه، بمعناه.

(٢) رواه ابن ماجه (٤١٧١)، وهو ضعيف.

(٣) جواب الشرط محذوف؛ لأنه معلوم.

(٤) سقطت من (ك، س).

٣٨٨- فَصْلٌ
[ذمُّ لباس الخُيَلاء]

نظرتُ في قولِ رسُولِ الله ﷺ، لمّا لبِسَ الخاتمَ ثُمّ رمى به، وقال: «شغلني نظرةٌ إليكُم ونظرةٌ إليه»(١)، وقولِه: «بينما رجُلٌ يتبختَرُ في حُلّتِهِ، مُرجِّلًا جُمَّتَه، خُسِفَ بِهِ الأرضُ، فهو يتجَلجَلُ فيها إلى يوم القيامة»(٢)، فرأيتُ أنّه لا ينبغي لأحدٍ أن يلبَسَ ثوبًا مُعجِبًا، ولا شيئًا مِن زينة؛ لأنّ ذلك يُوجِبُ النظرَ إلى النفسِ بعينِ الإعجاب، والنفسُ ينبغي أن تكُونَ ذليلةً للخالِق.

وقد كان قدماءُ الأحبارِ في بني إسرائيلَ يمشُون على العِصيّ، لئلا يقعَ مِنهُم بَطَرٌ في المشي، ولبِست أُمُّ المُؤمِنين عائشةُ رضي الله عنها دِرعًا لها، فأُعجِبت به، فقال: «إنّ الله لا ينظُرُ إليكِ في حالتِك هذه»(٣). ولمّا لبِسَ رسُولُ الله ﷺ خَميصةً لها أعلامٌ قال: «ألهتْني هذه عن صلاتي»(٤)، وهذا كلُّهُ يُوجِبُ الإعراضَ عن الزينة، وما يُحرِّكُ إلى الفخرِ والزهوِ والعُجب، ولهذا حُرِّمَ الحرير.

وأقولُ على أسبابِ هذا: إنّ المُرقَّعاتِ التي يتنوَّقُ فيها المُتصوِّفةُ بالشوازك(٥) والتلميع، رُبّما أوجبَت زهوَ اللابس؛ إمّا لحُسنِها في ذاتِها، أو لعِلمِهِ أنّها تُنبِئُ عنهُ بالتصوُّفِ والزُّهد، وكذلك الخاتمُ في اليد، وطرزُ(٦) الأكمام، والنِّعالُ

---

(١) صحيح ابن حبان (٥٤٩٣).

(٢) البخاري (٥٧٨٩)، ومسلم (٢٠٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) موقوف؛ رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١: ٣٧)، من قول أبي بكر الصديق لعائشة رضي الله عنهما بمعناه.

(٤) البخاري (٣٧٣)، ومسلم (٥٥٦) من حديث عائشة رضي الله عنها بمعناه.

(٥) الشوازك: أشرطة مصنوعة من الحرير الملوّن تكون في المرقّعات. انظر: العامة ببغداد في القرن الخامس لبدر محمد فهد (ص١٤٨).

(٦) الطرز: الشكل والهيئة.

الصـرّارة[١]. ولا أقـول: إنّ هـذه الأشـياءَ تحرُم، بـل رُبّما جلبتْ ما يحـرُمُ مِنَ الزهـو. فينبغـي للعاقِـلِ أن يتنبَّـهَ بما قُلتُ في دفـعِ كُلِّ ما يُحذَرُ مِن شـرِّه. وقد ركِبَ ابنُ عُمرَ نَجِيبًا، فأعجبهُ مشيُه، فنزل، وقال: يا نافِعُ، أدخِلْه في البُدن[٢].

٣٨٩- فَصْلٌ
[الحذر من مُخالطة الناس]

مَـن أراد اجتمـاعَ همِّـهِ وإصلاحَ قلبـهِ فليحذَرْ مِن مُخالطـةِ الناسِ في هذا الزمـانِ، فإنّـه قـد كان يقعُ الاجتماعُ علـى ما ينفعُ ذِكرُه، فصـار الاجتماعُ على مـا يضُرُّ! وقد جرَّبتُ على نفسـي مِرارًا أنّـي أحصُرُها في بيتِ العُزلة، فيجتمِعُ همّي، ويُضافُ إلى ذلك النظرُ في سِيَرِ السلف، فأرى العُزلةَ حِميةً، والنظرَ في سِيَرِ القومِ دواء، واستعمالُ الدواءِ مع الحِميةِ عنِ التخليطِ[٣] نافع.

فإذا فسَـحتُ لنفسي في مُجالسـةِ الناسِ ولِقائِهم فشُتِّتَ القلبُ المُجتمِعُ، ووقـعَ الذهـولُ عمّـا كُنتُ أراعيـه، وانتقشَ فـي القلبِ ما قد رأتـه العين، وفي الضميـرِ مـا تسـمعُه الأُذُن، وفي النفسِ ما تطمـعُ في تحصيلِه مِـن الدنيا، وإذا جُمهُورُ المُخالِطين أربابُ غفلة، والطبعُ بمُجالستِهم يسرِقُ مِن طِباعِهم، فإذا عُـدتُ أطلُـبُ القلبَ لـم أجِـدْه، وأرُومُ ذاك الحُضُورَ فأفقِـدُه، فيبقى في غِمارِ ذلك اللقاءِ للناسِ أيامًا حتّى ما يسلُو الهوى.

وما فائدةُ تعرُّضِ البناءِ للنقض؟! فإنّ دوامَ العُزلةِ كالبناء، والنظرُ في سِيَرِ السلفِ يرفعُه، فإذا وقعَتِ المُخالطةُ انتقضَ ما بُنِيَ في مُدّةٍ في لحظة، وصعُبَ

---

(١) نعل صرّارة: لها صوت وصرير.

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (١: ٢٩٤)، والنجيب: السريع من الإبل.

(٣) مكانها بياض في (ص).

التلافـي، وضعُـفَ القلب، ومَن له فهـمٌ يعرِفُ أمراضَ القلـب، وإعراضَهُ عن صاحِبِـه، وخـروجَ طائـرِه مِـن قفصِـه، ولا يُؤمَنُ علـى هذا المريـضِ أن يكُونَ مرضُه هذا سببَ التلف، ولا على هذا الطائرِ المحصُورِ ألا يقعَ في الشبكة.

وسـببُ مـرضِ القلب أنّـه كان محميًّا عنِ التخليـط، مُغذَّيًا بالعِلم وسِـيَرِ السـلف، فخلَّطَ بالمُخالطة، فلم يحتمِلْ مِزاجُـه، فوقع المرض. فالجِدَّ الجِدَّ، فإنّما هي أيّامٌ، وما نرى مَن يُلقى، ولا مَن يُؤخَذُ مِنه، ولا مَن تنفعُ مُجالستُه إلا أن يكُونَ نادِرًا ما أعرِفُه. [البسيط]

ما في الصِّحابِ أخُو وَجْدٍ نُطارِحُهُ حَدِيثَ نَجْدٍ ولا صَـبٌّ نُجارِيهِ[1]

فالزمْ خلوتَك، وراعِ ما بقيت، وإذا قلِقتِ النفسُ مُشتاقةً إلى لقاءِ الخلق، فاعلـم أنّهـا بَعدُ كَدِرةٌ، فَرِضِّها ليصيرَ لقاؤهم عندهـا مكرُوهًا، ولو كان عندها شُـغلٌ بالخالِقِ لَما أحبَّتِ الزحمة، كما أنّ الذي يخلُو بحبيبِـهِ لا يُؤثِرُ حُضُورَ غيرِه، ولو أنّها عشِقَتْ طريقَ اليمنِ لم تَلتَفِت إلى الشام.

٣٩٠- فَصْلٌ
[هدايةُ الغافلين]

تفكَّـرتُ فـي سـببِ هِدايةِ مَن يهتـدي، وانتِباهِ مَـن يتيقَّظُ مِن رُقـادِ غفلتِه، فوجدتُ السـببَ الأكبرَ اختيارَ الحقِّ عز وجل لذلك الشـخص، كما قيل: إذا أرادك لأمرٍ هيَّأكَ له.

فتـارةً تقعُ اليقظـةُ بمُجرَّد فِكرٍ يُوجِبُـه نظرُ العقل، فيتلمَّحُ الإنسـانُ وُجُودَ

(١) لمحمد بن علي بن فارس في مرآة الزمان (٢٢: ٥٠).

نفسِـه، فيعلـمُ أنّ لهـا صانعًا، وقـد طالبَه بحقِّه، وشُـكرِ نعمتِـه، وخوَّفه عِقابَ مُخالفتِه، ولا يكُونُ ذلك بسببٍ ظاهِر.

ومـن هـذا مـا جـرى لأهـل الكهـف: ﴿إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الكهف: ١٤]، وفـي التفسـير: أنّ كُلَّ واحِـدٍ مِنهُم أُلقِـيَ في قلبِهِ يقظة، فقال: لا بُدَّ لهذا الخَلقِ مِن خالِق، فاشـتدَّ كربُ بواطِنِهم مِن وقودِ نارِ الحذر، فخرجُوا إلى الصحراء، فاجتمعُوا عن غيرِ موعِد، فكُلُّ واحِدٍ يسـأَلُ الآخرَ: ما الذي أخرجَك؟ فتصادقُوا.

ومِـن النـاسِ مَن يجعلُ الخالِقَ سـبحانه وتعالى لذلك السـببِ ـ الذي هو الفكرُ والنظرُ ـ سببًا ظاهِرًا، إمّا مِن موعِظةٍ يسمعُها أو يراها، فيُحرِّكُ هذا السببُ الظاهِرُ فِكرةَ القلبِ الباطِنة.

ثُمّ ينقسِمُ المُتيقِّظُون به[1]: فمِنهُم مَن يغلِبُهُ هواه، ويقتضيهِ طبعُه ما يشتهي مِمّـا قد اعتاده، فيعُودُ القَهقـرى، ولا ينفعُه ما حصلَ له مِن الانتباه، فانتباهُ مِثلِ هذا زيادةٌ في الحُجّةِ عليه.

ومِنهُم مَن هو واقفٌ في مقامِ المُجاهدةِ بين صفَّين: العقلِ الآمِرِ بالتقوى، والهـوى المُتقاضي بالشـهوات؛ فمِنهُم مَـن يُغلَبُ بعد المُجاهـداتِ الطويلة، فيعودُ إلى الشرّ، ويُختَمُ له به، ومنهُم مَن يَغلِبُ تارةً ويُغلَبُ أُخرى، فجِراحاتُه لا فـي مَقتَـل، ومنهـم مَن يقهَـرُ عدُوَّهُ فيسـجِنُه في حبس، فلا يبقـى للعدُوِّ مِن الحيلةِ إلا الوساوِس.

ومِـن الصفـوةِ أقـوامٌ مُـذ تيقَّظُوا ما نامـوا، ومُذ سـلكُوا ما وقفُـوا، فهمُّهُم

---

(١) سقطت من (ح، ص، د، م).

صُعودٌ وتَرَقٍّ، كُلّما عبرُوا مقامًا إلى مقام رأوا نقصَ ما كانُوا فيه، فاستغفرُوا.

ومِنهُم مَن يرقى عن الاحتياجِ إلى مُجاهدة، إمّا لخسّةِ ما يدعُو إليهِ الطبعُ عِنده ولا وقعَ له، وإمّا لشرفِ مطلُوبه، فلا يلتفِتُ إلى عائقٍ عنه.

واعلم أنّ الطريقَ المُوصِّلةَ إلى الحقِّ سُبحانه ليسَت مِمّا يُقطَعُ بالأقدام، وإنّما يُقطَعُ بالقُلُوب، والشهواتُ العاجِلةُ قُطّاعُ الطريق، والسبيلُ كالليلِ المُدلهِمّ، غير أنّ عينَ المُوفَّقِ بَصَرُ فَرَسٍ؛ لأنّه يرى في الظُّلمةِ كما يرى في الضوء، والصِّدقُ في الطلب: أين أجودُها[1]؟ يدلُّ على الجادّة، وإنّما يتعثَّرُ مَن لم يُخلِص، وإنّما يمتنِعُ الإخلاصُ مِمَّن لا يُراد، فلا حولَ ولا قوّةَ إلا بالله.

٣٩١- فَصْلٌ

[العُجب بالنفس]

عجِبتُ لمَن يُعجَبُ بصُورتِه، ويختالُ في مِشيتِه، وينسى مبدأ أمرِه! إنّما أوّلُه لُقمةٌ ضُمَّتْ إليها جَرعةُ ماء، فإن شِئتَ فقُل: كِسرةُ خُبزٍ معها تمراتٌ[2]، وقطعةٌ مِن لحم، ومَذقةٌ مِن لبن، وجَرعةٌ مِن ماء، ونحوُ ذلك، طبخَته الكبدُ فأخرجتْ مِنهُ قطراتِ مَنِيٍّ، فاستقرَّت في الأُنثيَينِ فحرَّكَتها الشهوة، فصُبَّ[3]، فبقِيَتْ في بطنِ الأُمِّ مُدّةً حتّى تكاملت صُورتُها، فخرجَت طِفلًا، يتقلّب في خَرقِ البول.

وأمّا آخِرُه فإنّه يُلقى في التراب، فيأكُلُه الدُّود، ويصيرُ رُفاتًا تسفيهِ

---

(١) في (ط): «والصِّدقُ في الطلب إينارٌ، أين وُجِدَ».

(٢) في (ك، ح، ص): «ثمرات».

(٣) كذا في (ك، س)، ومكانها بياض قدر كلمة في (ح، د، ي)، وسقطت من (ص).

السوافي[1]، وكم يخرجُ تُرابُ بدنِهِ مِن مكانٍ إلى مكانٍ آخر، ويُقلَّبُ في أحوالٍ إلى أن يعُودَ فيُجمَع.

هذا خبرُ البدن، إنّما الرُّوحُ عليها العمل، فإن تجوهرَتْ بالأدب، وتقوَّمَتْ بالعِلم، وعرَفَتِ الصانِع، وقامتْ بحقِّه، فما يضُرُّها نقضُ المَركَب، وإن هي بقيَتْ على صِفتِها مِن الجهالةِ شابهَتِ الطين، بل صارت إلى أخسِّ حالةٍ منه.

٣٩٢- فَصْلٌ
[الحذرُ من الزمان وأهله]

هيهاتَ أن يجتمِعَ الهمُّ مع التلبُّسِ بأُمورِ الدنيا، خُصوصًا بالشابِّ[2] الفقيرِ الذي قد ألِفَ الفقر، فإنّه إذا تزوَّجَ وليس له شيءٌ مِن الدنيا، اهتمَّ بالكسب، أو بالطلب مِن الناس، فتشتَّتتْ هِمَّتُه، وجاءهُ الأولادُ فزادَ الأمرُ عليه، ولا يزالُ يُرخِّصُ لنفسِه فيما يُحصِّلُ إلى أن يتلبَّسَ بالحرام.

ومَن يُنكِرُ فهِمَّتُه ما يأكُلُ وما يأكُلُه أهلُه، وما ترضى بهِ الزوجةُ مِن النفقةِ والكِسوة، وليس له وجهُ ذلك[3]، فأيُّ قلبٍ يحضُرُ له؟! وأيُّ هَمٍّ يجتمِع؟! هيهاتَ والله لا يجتمعُ الهمُّ والعينُ تنظرُ إلى الناس، والسمعُ يسمعُ حديثَهم، واللسانُ يُخاطِبُهم، والقلبُ مُتوزِّعٌ في تحصيلِ ما لا بُدَّ مِنه.

فإن قال قائل: فكيف أصنع؟! قُلتُ: إن وجدتَ ما يكفيكَ مِن الدنيا، أو معيشةً تكفُّك، فاقنعْ بها، وانفرِدْ في خَلوةٍ عن الخَلقِ مهما قدرتَ، وإن تزوَّجتَ فبفقيرةٍ تقنعُ باليسير، وتصيرُ أنتَ على صُورتِها وفقرِها، ولا تتركْ نفسَكَ تطمحُ

(١) السوافي: الرياح التي تسفي التراب.
(٢) سقطت من (ح، ص)، وفي (د، م): «الشاب».
(٣) في (ط): «وليس له ذلك».

إلـى مَـن تحتاجُ إلى فضـلِ نفقة، فإن رُزِقتَ امرأةً صالِحـةً جمعَتْ همَّك، وإن لم تقدِرْ فمُعالجةُ الصبرِ أصلَحُ لك مِن المُخاطرة، وإيّاك والمُستحسَناتِ، فإنّ صاحِبَهنَّ - إذا سلِم - كعابدِ صنم، وإذا حصلَ بيدِك شيءٌ فأنفِقْ بعضَه، فبِحفظِ الباقي تحفَظُ شتاتَ قلبِك.

واحـذرْ كُلَّ الحـذرِ هـذا الزمانَ وأهلَه، فما بقِيَ مُـواسٍ ولا مُؤثِر، ولا مَن يهتمُّ لسدِّ خَلّة، ولا مَن لو سُئل أعطى، إلا أن يُعطيَ نزرًا بتضجُّرٍ ومِنّة، يستعبِدُ بها المُعطى بقيّةَ العُمُر، ويستثقِلُه كُلَّما رآه، ويستدعي خِدمتَه له ويتردَّدُ إليه.

وإنّما كان في الزمانِ مِثلُ أبي عمرِو بنِ نُجَيد، سـمِعَ أبا عُثمانَ الحِيريَّ[1] يقولُ يومًا على المِنبر: «عليَّ ألفُ دينارٍ وقد ضاق صدري». فمضى أبو عمرٍو إليـهِ فـي الليل بألـفِ دينار، وقـال: اقضِ دَينَـك. فلمّا عاد وصعِـد المِنبر قال: «نشكرُ الله لأبي عمرٍو، فإنّه أراح قلبي وقضى دَيني»، فقام أبو عمرٍو فقال: أيُّها الشيخ، ذلك المالُ كان لوالِدتي، وقد شقَّ عليها ما فعلتُ، فإن رأيتَ أن تتقدَّمَ بردِّه فافعل. فلمّا كان في الليل عاد إليهِ وقال له: لماذا شهَرتَني بين الناس، وأنا ما فعلتُ ذلك لأجل الخَلق؟! فخُذه ولا تذكُرني.

[الكامل]

ماتُوا وغُيِّبَ في التُّرابِ شُخُوصُهُم   والنَّشــرُ مِســكٌ والعِظامُ رَمِيمُ[2]

فالبُعـدَ البُعـدَ عمَّن هِمّتُه الدنيـا، فإنّ زاهِدَهم اليومَ إلـى أن يُحصِّلَ أقربُ مِنه إلى أن يُؤثِرَ، ولا تكادُ ترى إلا عدوًّا في الباطِنِ، صديقًا في الظاهِر، شامِتًا بباطنه، حسُودًا على نعمة.

---

(١) في النسخ: «المغربي»، والتصويب عن سير أعلام النبلاء (١٦: ١٤٦) والخبر فيه بتمامه.

(٢) الدر الفريد (٥: ١٢٥).

فاشترِ العُزلةَ بما بِيعَت، فإنّ مَن له قلبٌ إذا مشى في الأسواق، وعاد إلى منزِله، تغيَّر قلبُه، فكيف إن عرقلَه بالمَيلِ إلى أسبابِ الدنيا؟! واجتهِد في جمعِ الهمِّ بالبُعدِ عنِ الخَلق، ليخلُوَ القلبُ بالتفكُّرِ في المآب، وتتلمَّحَ عينُ عينِ البصيرةِ[1] خِيَمَ الرحيل.

٣٩٣- فَصْلٌ

[العُزلة خيرٌ من جليس السوء]

كان المُريدُ في بدايةِ الزمانِ إذا أظلمَ قلبُهُ أو مرِضَ لُبُّه، قصَدَ زيارةَ بعضِ الصالِحين، فانجلى ما أظلمَ، واليومَ متى حصَلت ذَرّةٌ مِن الصّدقِ لمُريد، فردَّتهُ في بيتِ عُزلة، ووجد نسيمًا مِن رَوحِ العافية، ونورًا في باطِنِ قلبِه، وكاد همُّهُ يجتمِع، وشتاتُهُ ينتظِم، فخرجَ فلقيَ مَن يُومَأ إليهِ بعِلمٍ أو زُهد، رأى عِنده البطّالِين، وهو يجري معهم مسلكَ الهَذيانِ[2] الذي لا ينفعُ، ورأى صُورتَه صُورةَ مُنمِّسٍ[3]، وأهوَنُ ما عليهِ تضييعُ الأوقاتِ في الحديثِ الفارغ، فما يرجِعُ المُريدُ عن ذلك الوطنِ إلا وقد اكتسبَ ظُلمةً في القلب، وشتاتًا في العزمِ، وغفلةً عن ذِكرِ الآخِرة، فيعُودُ مريضَ القلب، يتعبُ في مُعالجتِهِ أيّامًا كثيرة، حتّى يعودَ إلى ما كان فيه، ورُبّما لم يعُد؛ لأنّ المُريدَ فيهِ ضعف، فإذا رأى شيخًا قد جرَّبَ وعرَف، ثُمّ يُؤثِرُ البطالة، لم يأمَنْ أن يتبعَه الطبع.

فالأَولى للمريدِ اليومَ ألا يزورَ إلا المقابِر، ولا يُفاوِضَ إلا الكُتُبَ التي قد

(١) في (د، ي، ط): «وتتلمح عين البصيرة».

(٢) في (ح، د، ص، م، ك، ي): «سلك الهذيان»، وفي (س): «بتلك الهذيان»، والمثبت عن (ط).

(٣) مُنمّس: مُراوِغ.

حوتْ محاسِنَ القوم، وليستعِنْ بالله تعالى على التوفيقِ لمَراضيه، فإنّه إن أرادهُ هيَّأهُ لِما يُرضيه.

٣٩٤- فَصْلٌ
[صفة أولياء الله]

تأمَّلتُ الذين يختارُهم الحقُّ عز وجل لوِلايتِهِ والقُربِ مِنهُ، فقد سمِعنا أوصافَهم ومَن نظنُّه منهم مِمَّن رأيناه، فوجدتُه سُبحانهُ لا يختارُ إلا شخصًا كاملَ الصُّورة، لا عيبَ في صُورتِه، ولا نقصَ في خِلقتِه، فتراهُ حسنَ الوجه، معتدلَ القامة، سليمةً[1] مِن آفةٍ في بدنِه، ثُمّ يكُونُ كاملًا في باطِنِه، سَخيًّا، جَوادًا، عاقلًا، غيرَ خِبٍّ، ولا خادِعٍ، ولا حقودٍ، ولا حسودٍ، ولا فيه عيبٌ من عُيوبِ الباطِن.

فذاك الذي يُربِّيه مِن صِغَرِه، فتراهُ في الطُّفُولةِ مُعتزِلًا عن الصبيان، كأنّه في الصِّبا شيخٌ ينبُو[2] عن الرذائل، ويفزَعُ مِن النقائص، ثُمّ لا تزالُ شجرةُ هِمَّتِهِ تَنمِي حتّى يُرى ثمرُها مُتهدِّلًا[3] على أغصانِ الشباب، فهو حريصٌ على العِلم، مُنكمِشٌ على العمل، مُحافِظٌ للزمان، مُراعٍ للأوقات، ساعٍ في طلبِ الفضائل، خائفٌ مِن النقائص.

ولو رأيتَ التوفيقَ والإلهامَ الربّانيَّ كيف يأخُذُ بيدِهِ إن عثر، ويمنعُهُ مِن الخطأ إنْ همَّ، ويستخدِمُه في الفضائل، ويستُرُ عملَه عنهُ حتّى لا يراهُ منه.

ثُمّ ينقسِمُ هؤُلاء؛ فمِنهُم مَن تفقَّه على قدمِ الزُّهدِ والتعبُّد، ومنهم مَن تفقَّه

---

(١) أي: صورته.

(٢) نبا عن الشيء ينبو: تجافى وابتعد.

(٣) في (ح، ص، د): «مهتدلًا».

على العِلم واتِّباعِ السُّنّة، ويندرُ منهم مَن يُجمَعُ له[١] الكُلُّ ويُرقِّيه إلى مُزاحمةِ الكامِلين.

وعلامةُ إثباتِ الكمالِ في العلمِ والعمل: الإقبالُ[٢] بالكُلّيةِ على مُعاملةِ الحقِّ ومحبَّتِه، واستيعابُ الفضائلِ كُلِّها، فلو تُصُوِّرتِ النُّبوّةُ أن تُكتسَبَ لدخلَت في كسبِه. ومراتبُ هذا لا يحتملُها الوصف، لكنه دُرّةُ الوجُودِ التي لا تكادُ تنعقدُ في الصَّدَفِ إلا في كُلِّ كَورٍ ودَورٍ. نسألُ الله عز وجل توفيقَنا لمراضيهِ وقُربِه، ونعُوذُ بهِ مِن طردِهِ وإبعادِه.

٣٩٥- فَصْلٌ
[أكثرُ الناس في غفلة]

أكثرُ الخلائقِ على طبعٍ رديءٍ لا تُقوِّمُه الرياضةُ، لا يَدْرُون لِمَا[٣] خُلِقُوا، ولا ما[٤] المُرادُ مِنهم؟! وغايةُ هِمَّتِهم حُصُولُ نَهمتِهم مِن أغراضِهم، ولا يسألُون عند نيلِها ما اجتلبَت لهم مِن ذمٍّ، يبذلُون العِرضَ دُون الغَرض، ويُؤثِرُون لذّةَ ساعةٍ وإن اجتلبَت زمانَ مرض، يَلبَسُون عند التجاراتِ ثيابَ مُحتالٍ في شعارِ مُختال[٥]، ويُلبِّسون في المُعاملات، ويستُرون الحال، إن كسبُوا فشُبهة، وإن أكلُوا فشهوة، ينامُون الليلَ وإن كانُوا نيامًا بالنهارِ في المعنى، ولا نومَ بهذي الصُّورة، فإذا أصبحُوا سعَوا في تحصيل شهواتِهم بحرصِ خِنزيرٍ، وتبصبُصِ

(١) في (ك، س، م): «السنة. ومنهم من تجمع له».
(٢) في النسخ: «والإقبال» بواو قبلها!
(٣) لما: بإثبات الألف في جميع النُّسخ مع «ما» الاستفهامية، لغة قليلة. انظر: مغني اللبيب لابن هشام (ص٣٧٧).
(٤) سقطت من (ص، د، م).
(٥) في (ك، ح، ص، م): «محتال».



كلبٍ[١]، وافتراسِ أسدٍ، وغارةِ ذئبٍ، ورَوَغانِ ثعلبٍ، ويتأسَّفون عند الموتِ على فقدِ الهوى لا على عدمِ التقوى! ﴿ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ﴾ [النجم: ٣٠].

كيف يُفلِحُ مَن يُؤثِرُ ما يراهُ بعينه على ما يُبصِرُه بعقلِه، وما يُدركُهُ ببصرِه أعزُّ عِندَه مِمّا يراهُ ببصيرتِه؟! تالله لو فتحوا أسماعَهُم لسمِعُوا هاتِفَ الرحيلِ في زمانِ الإقامةِ يصيحُ في عَرَصاتِ الدنيا: تلمَّحوا تقويضَ خِيامِ الأوائلِ، لكن غمرَهُم سُكرُ الجهالِة، فلم يُفيقُوا إلا بضربِ الحدِّ.

٣٩٦- فَصْلٌ
[صدقات الظَّلمة]

رأيتُ بعضَ المُتقدِّمين سُئل عمَّن يكسِبُ حلالًا وحرامًا مِن السلاطينِ والأُمراءِ، ثُمَّ[٢] يبني المساجِدَ والأربِطةَ، هل له فيها ثواب؟! فأفتى بما يُوجِبُ طِيبَ قلبِ المُنفِق، وأنّ له في إنفاقِ ما لا يملِكُه نوعَ سَمسَرة؛ لأنّه لا يعرِفُ أعيانَ المغصُوبين فيرُدَّ!

فقُلتُ: وا عجبًا مِن مُتصدِّين للفتوى لا يعرفُون أُصُولَ الشريعة! ينبغي أن يُنظَرَ في حالِ هذا المُنفِقِ أوّلًا؛ فإن كان سُلطانًا، فما يخرُجُ مِن بيتِ المالِ قد عُرِفتْ وجُوهُ مصارِفِه، فكيف يمنَعُ مستحِقَّهُ ويشغلُه بما لا يُفيدُ من بناء مدرسةٍ ورباطٍ؟ وإن كان المُنفِقُ مِن الأمراءِ ونُوّابِ السلاطين، فإنّه يجبُ أن يرُدَّ ما يجبُ ردُّه إلى بيتِ المال، وليس فيهِ إلا ما فُرِضَ مِن إيجابٍ يليقُ به، فإن تصرَّفَ في غيرِ ذلك كان مصروفًا فيما ليس له، ولو أُذِنَ له كان الإذنُ جائزًا.

---

(١) زاد في (س): «وتملُّق هِرّة»، وبصبصة الكلب: تحريك ذَنَبه.

(٢) سقطت من (ح، ص).

وإن كان قد أُقطِعَ ما لا يُقاوِمُ عملَه، كان ما يأخُذُهُ فاضِلًا مِن أموالِ المُسلِمين، لا حقَّ له فيه، وعلى مَن أطلقَه في ذلك إثمٌ أيضًا.

هـذا إذا سلِم المـالُ وكان مِـن حِلِّـه، فأمّـا إذا كان حرامًا أو غصبًـا، فكُلُّ تصـرُّفٍ فيـهِ حرام، والواجـبُ ردُّه على مَن أُخِـذَ مِنهُ أو علـى ورثتِهم، فإن لم يُعرَفْ طريقٌ إلى الردِّ كان في بيتِ مالِ المُسـلِمين، يُصرَفُ في مصالِحِهم، أو يُصرَفُ في الصدقة، ولـم يحظَ آخِذُهُ بغيرِ الإثم.

أنبأنـا أحمدُ بنُ الحسـنِ بنِ البنّاء، قال: أخبرنا مُحمّـدُ بنُ عليٍّ الزجّاجيُّ، قال: أخبرنا عبدُ الله بنُ مُحمّدٍ الأسـديّ[1]، قال: أخبرنا عليُّ بنُ الحسنِ، قال: حدَّثنا أبو داود، قال: حدَّثنا مُحمّدُ بنُ عوفٍ[2] الطائيّ، قال: حدَّثنا أبو المُغيرةِ، قال: حدَّثنا الأوزاعيّ، قال: حدَّثني موسى بنُ سليمان، قال: سمِعتُ القاسمَ بنَ مُخيمِرةَ يقول: قال رسـولُ الله ﷺ: «مَن اكتسبَ مالًا مِن مأثم، فوصلَ رحِمًا، أو تصدَّقَ به[3]، أو أنفقَه في سبيلِ الله، جُمِعَ ذلك جميعًا، فقُذِفَ بهِ في جهنَّم».

فأمّـا إذا كان البانـي تاجِـرًا مُكتسِـبًا للحلال، فبنى مسـجِدًا، أو وقفَ وقفًا للمتفقِّهة، فهذا مِمّا يُثابُ عليه.

ويبعُـد مَن يكسِـبُ الحلالَ حتّى يفضُلَ عنـهُ هذا القَدرُ[4] ويُخـرِجُ الزكاةَ مُسـتقصاةً، ثُـمّ يطيبُ قلبُه بمِثلِ هذا البنـاءِ والنفقة؛ إذ مِثلُ هذا البُنيانِ لا يجُوزُ أن يكُونَ مِن زكاة، وأين سلامةُ النيّة وخُلوصُ المقصد؟!

---

(١) سقط «قال: أخبرنا مُحمّدُ بنُ عليٍّ... الأسدي» من (م).

(٢) في النسخ: «عون»، والتصويب عن المراسيل لأبي داود (١٣١)، وقد روى الحديث بسنده.

(٣) سقطت من (ح، ص).

(٤) في (ك، ح، س، ص، م): «المقدّر».

وإنّ بناءَ المدارسِ اليومَ مُخاطَرة؛ إذ قد انعكفَ أكثرُ المُتفقِّهةِ على عِلمِ الجَدل، وأعرضُوا عن علومِ الشريعة، وترَكوا التردُّدَ إلى المساجِد، واقتنَعوا بالمدارس والألقاب. وأمّا بناءُ الأربطةِ فليس بشيءٍ أصلًا؛ لأنّ جُمهُورَ[1] المُتصوِّفةِ جُلُوسٌ على بساطِ الجهلِ والكسل، ثُمّ يدَّعي مُدَّعِيهم المحبّةَ والقُرب، ويكرهُ التشاغُلَ بالعِلم، وقد تركُوا سيرةَ سَرِيٍّ وعاداتِ[2] الجُنيد، واقتنعوا بأداءِ الفرائض، ورَضُوا بالمُرقَّعات، فلا تحسُنُ إعانتُهم على بطالتِهم وراحتِهم، ولا ثوابَ في ذلك.

٣٩٧- فَصْلٌ
[منزلةُ الإخلاص]

عجِبتُ لمَن يتصنَّعُ للناسِ بالزهد، يرجُو بذلك قُربَهُ مِن قُلُوبِهم، وينسى أنّ قلوبَهم بيدِ مَن يعملُ له! فإن رضيَ عملَه، ورآهُ خالصًا، ألفَتَ القُلُوبَ إليه، وإن لم يرَه خالصًا أعرضَ بها عنه. ومتى نظر العامِلُ إلى التفاتِ القُلُوبِ إليه، فقد زاحمَ الشرك؛ لأنّه ينبغي أن يقتنعَ بنظرِ مَن يعملُ له، ومن ضرورةِ الإخلاصِ إلفاتُ القُلُوبِ إليه، فذاك يحصُلُ لا بقصدِه بل بكراهتِه لذلك.

وليعلَمِ الإنسانُ أنّ أعمالَه كُلَّها يعلمُها الخَلقُ جُملةً، وإن لم يطَّلِعُوا عليها، فالقُلُوبُ تشهدُ للصالحِ بالصلاحِ وإن لم يُشاهَدْ مِنه ذلك، وتشهدُ للطالحِ بحالِه وإن لم يُشاهَدْ منه ذلك. فأمّا مَن يقصِدُ رُؤيةَ الخَلقِ بعملِه، فقد مضى العملُ ضائعًا؛ لأنّه غيرُ مقبُولٍ عِندَ الخالق، ولا عِندَ الخلق؛ لأنّ قُلُوبَهم قد التفتَتْ عنه، فقد ضاعَ العمل، وذهبَ العُمُر.

---

(١) في (م): «أكثر جمهور».

(٢) في (ح، ص، د، م): «وعادة».

ولقد أخبرنا ابنُ الحُصين، قال: أخبرنا ابنُ المُذهِب، قال: أخبرنا أحمدُ بنُ جعفر، قال: حدَّثنا عبدُ الله بنُ أحمد، قال: حدَّثني أبي، قال: حدَّثنا حسنُ بنُ موسى، قال: حدَّثنا ابنُ لهيعةَ، قال: حدَّثنا درّاجٌ، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيدٍ الخُدريّ، عن رسُول الله ﷺ أنّه قال: «لو أنّ أحدَكُم يعملُ في صخرةٍ صمّاء، ليس لها بابٌ ولا كُوَّةٌ، لَخرجَ عملُه[١] للناسِ كائنًا ما كان». فليتَّقِ الله العبدُ، وليقصِدْ مَن ينفعُه قصدُه، ولا يتشاغلْ بمدحِ مَن عن قليلٍ بِلَى، هو وهُم.

٣٩٨- فَصْلٌ

[مُخالطة العالِم للسلاطين]

قدِمَ علينا بعضُ الفُقهاء مِن بلادِ الأعاجِم، وكان قاضيًا ببلدِه، فرأيتُ على دابّتِهِ الذهب، ومعهُ أتوارُ[٢] الفِضّة، وأشياءُ كثيرةٌ مِن المُحرَّماتِ، فقُلت: أيَّ شيءٍ أفاد هذا العِلمُ؟! بل - والله - قد كثُرتْ عليهِ الحُجَج.

وأكبرُ الأسبابِ قِلّةُ عِلمِ هؤُلاء بسيرةِ السلفِ وما كان عليهِ رسولُ الله ﷺ، إلا أنّهم يجهلُون الجُملة، ولكنهم يتشاغلُون بعِلم الخِلاف، ويقصِدُون التقدُّمَ، ولا سماعَ حديثٍ ولا نظرًا في سِيَر السلف[٣]، ويُخالِطُون السلاطين، فيحتاجُون إلى التزيِّي بزيِّهم، فرُبّما خطرَ لهم أنّ هذا قريب، وإن لم يخطرْ لهم فالهوى غالبٌ بلا صادٍّ، ورُبّما خطر لهُم أنّ هذا يُحتمَلُ ويُغفَرُ في جانِبِ تشاغُلِنا بالعِلم، ثُمّ يرون العُلماءَ يُكرِمُونهم[٤] لنيلِ شيءٍ مِن دُنياهُم، ولا يُنكِرون عليهم.

---

(١) سقطت من (ح، ص)، والحديث رواه أحمد (١١٢٣٠)، من طريق دراج أبي السمح، وهو ضعيف.

(٢) الأتوار: جمع تَور، وهو الإناء يُشرَب فيه.

(٣) في النسخ: «ولا سماع حديث، ولا بالنظر في سير السلف»، والمثبت عن (ط).

(٤) في (ك): «يرون العلماء يكرهون»، وفي (س): «يرون يكرهونهم».

ولقد رأيتُ مِن الذين ينتسِبُون إلى العِلم مَن[1] يستصحِبُ المُردان[2]، ويشتري المماليك، وما كان مَن يفعلُ هذا إلا مَن قد يئسَ مِن الآخِرة، ورأيتُ مَن قد بلغَ الثمانين مِن العُلماء، وهو على هذه الحالة.

فالله الله يا مَن يُريدُ حِفظَ دينِه، ويُوقنُ بالآخِرة، إيّاكَ والتأويلاتِ الفاسِدة، والأهواءَ الغالبة، فإنّك إن ترخَّصتَ بالدخُول في بعضها جرَّكَ الأمرُ إلى الباقي، ولم تقدِرْ على الخُروج لموضِعِ إلفِ الهوى. فاقبلْ نُصحي، واقنعْ بالكِسرة، وابعُدْ عن أربابِ الدنيا، فإذا ضجَّ الهوى فدَعْه لهذا[3]، ورُبّما قال لك: فالأمرُ الفلانيُّ قريبٌ. فلا تفعلْ[4]، فإنّه يدعُو إلى غيرِه، ويصعُب التلاقي[5].

فالصبرَ الصبرَ على شظفِ العيش، والبُعدِ عن أربابِ الهوى، فما يتمُّ دينٌ إلا بذلك، ومتى وقعَ الترخُّصُ حمَلَ إلى غيرِه، كالشاطِئِ إلى اللُّجّة، وإنّما هو طعامٌ دون طعام، ولباسٌ دون لباس، ووجهٌ أصبحُ مِن وجه، وإنّما هي أيّامٌ يسيرة.

٣٩٩- فَصْلٌ
[منزلةُ التسليم]

مَن تفكَّر في عظمةِ الله عز وجل، طاشَ عقلُه؛ لأنّه يحتاجُ أن يُثبِتَ موجُودًا لا أوّلَ لوجُوده، وهذا شيءٌ لا يعرِفُه الحِسّ، وإنّما يُقِرُّ بِهِ العقلُ ضرورةً، وهو مُتحيِّرٌ بعد الإقرار، ثُمّ يرى مِن أفعالِه ما يدُلُّ على وُجُودِه، فلا يخفى وجودُه، ثُمّ تجري في أقدارِه أمور، لولا ثبوتُ الدليلِ على وُجُودِه لأوجبتِ الجحد،

(١) سقطت من (ك، س).
(٢) المُردان: جمع أمرد، وهو الذي لم تنبُت لحيته.
(٣) في (د، م): «فدعه يهدي».
(٤) في (س): «تغفل».
(٥) في (س، د): «التلافي».

فإنّه يفرُقُ البحرَ لبني إسرائيل، وذلك شيءٌ لا يقدِرُ عليهِ سِوى الخالِق، ويُصيِّر العصا حيّةً، ثُمّ يُعيدُها عصًا، وتتلقَّفُ ما صنعُوا، ولا يزيدُ فيها شيء، فهل بعد هـذا بيان؟! فإذا آمنتِ السَّحَرةُ تركَهم مع فِرعـونَ يصلُبُهم ولا يمنَعُ، والأنبياءُ يُبتلَون بالجوع والقتل، وزكريا يُنشَر، ويحيى تقتُلُه زانية، ونبيُّنا[١] ﷺ يقولُ كُلَّ عـام: «مَـن يُؤوِيني؟ مَن ينصُرُني؟» فيكادُ الجاهِلُ بوُجُـودِ الخالِقِ[٢] يقولُ: لو كان موجُودًا لنصر أولياءَه!

فينبغـي للعاقِـلِ ـ الذي قد ثبـت عِندهُ وُجُودُه بالأدِلّة الظاهِـرةِ الجليّةِ ـ ألا يُمكِّـنَ عقلَـه مِن الاعتراضِ عليهِ فـي أفعالِه، ولا يطلُبَ لها علّة، إذ قد ثبتَ أنّه مالكٌ وحكيم، فإذا خفيَ عليه وجهُ الحِكمةِ في فعلِه نسبنا العجزَ إلى فُهُومِنا.

وكيـف لا وقد عجزَ مُوسـى عليه السـلام أن يعرِفَ حِكمةَ خرقِ السـفينةِ وقتـلِ الغُـلام، فلمّـا بانَ لـه حِكمةُ ذلك الفسـادِ فـي الظاهِر أقرَّ، فلـو قد بانتِ الحِكمةُ في أفعالِ الخالِقِ [ما][٣] جَحَدَ العقلُ جَحْدَ مُوسى يومَ الخَضِر.

فمتـى رأيـتَ العقـلَ يقُول: لِمَ؟! فأخرِسْـهُ بأن تقُـولَ له: يا عاجِـزُ أنتَ لا تعـرِفُ حقيقةَ نفسِـك، فما لكَ والاعتراضِ على المالِـك؟! ورُبّما قال العقل: أيُّ فائدةٍ في الابتلاء وهو قادرٌ أن يُثيبَ ولا بلاء، وأيُّ غرضٍ في تعذيبِ أهلِ النارِ وليس ثَمّ تَشَـفٍّ؟! فقيل له[٤]: حِكمتُه فوقَ مرتبتِك، فسـلِّمْ لِما لا تعلمُ، فإنّ أوّلَ مَن اعترضَ بعقلِه إبليس، فرأى فضلَ النارِ على الطين، فأعرضَ.

---

(١) زاد في (س): «محمد»، والحديث بعدُ تقدم في الفصل ٣٣٩.

(٢) زاد في (س): «أن».

(٣) زيادة من المحقق ليستقيم السياق.

(٤) في (ط): «فقل له».

وقـد رأينـا خَلقًا كثيرًا وسـمِعنا عنهـم، أنّهم يقدَحُون فـي الحكمة؛ لأنهم يُحكِّمُـون العُقُـولَ علـى مُقتضاها، وينسَـون أنّ حِكمـةَ الخالِـقِ وراءَ العُقُول. فإيّـاك أن تُفسِـحَ لعقلِـكَ في تعليل، أو أن تطلُبَ له جـوابَ اعتِراض، وقُل له: سـلِّم تسـلَم، فإنّك لا تدري غورَ البحرِ إلا وقد أدركك الغرقُ قبل ذلك. هذا أصلٌ عظيم، متى فاتَ الآدميَّ أخرجهُ الاعتراضُ إلى الكُفر.

٤٠٠- فَصْلٌ
[الإنسانُ مقبرة]

العجـبُ مِمَّـن يقول: «اخـرُجْ إلى المقابـرِ فاعتبِرْ بأهلِ البِلـى»، ولو فطِنَ علِـمَ أنّـه مقبرة، يغنيـه الاعتِبارُ[١] بما فيهـا عن غيرِها، خُصوصًـا مَن قد أوغلَ في السِّـنّ، فإنّ شـهوتَه ضعُفت، وقُواهُ قلَّت، والحواسَّ كلَّت، والنشـاطَ فتَر، والشَّعرَ ابيضَّ، فليعتبِر بما فقدَ، وليستغنِ عن ذِكرِ مَن فقدَ، فقد استغنى[٢] بما عِنده عنِ التطلُّعِ إلى غيرِه.

٤٠١- فَصْلٌ
[اللّذة لأهل الغفلة]

متى تكاملَ العقلُ فُقِدَت لذّةُ الدنيا، فتضاءلَ الجِسمُ وقويَ السُّقم، واشتدَّ الحُـزن؛ لأنّ العقـلَ كُلَّمـا تلمَّـحَ العواقِبَ أعرضَ عـن الدنيا، والتفَـتَ إلى ما تلمَّح، ولا لذّةَ عِنده بشيءٍ مِن العاجِل، وإنّما يلتذُّ أهلُ الغفلةِ عن الآخِرة، ولا غفلـةَ لكامِلِ العقل، ولهـذا لا يقدِرُ على مُخالطةِ الخَلق؛ لأنّهم كأنّهم مِن غيرِ جِنسِه، كما قال الشاعر: [البسيط]

(١) المثبت عن (س، ط)، وفي سائر النسخ: «بعينه الاعتبار».
(٢) في النسخ: «وقد أغنى»، والمثبت عن (ط).

ما في الدِّيارِ أخُـو وَجدٍ نُطارِحُهُ حَدِيثَ نَجـدٍ ولا صَبٌّ نُجارِيهِ[١]

٤٠٢- فصل

[البعث]

ادَّعى الطبائعيّون أنّ مادّةَ الموجُوداتِ: الماءُ والترابُ والنارُ والهواء، فإذا كان فـي القيامـةِ أذهبَ الأُصُولَ ثُمّ أعاد الحيوان، ليُعلَـم أنّها كانت بالقُدرةِ لا عن تأثيرِ الكُلّيات. ومَن قدحَ في البعثِ فقد بالغَ في القدحِ في الحِكمة، ومَن قال: «الرُّوحُ عَرَضٌ» فقد جحدَ البعث؛ لأنّ العَرَضَ لا يبقى، والأجسادَ تصيرُ تُرابًـا، فإن وُجِدَ شـيءٌ فهُـو ابتداءُ خَلق، كلا والله بل يُعيـدُ النفسَ بعينِها بدليلِ إعادةِ مذكُوراتِها: ﴿قَالَ قَآيِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ [الصافات: ٥١].

وعِزّتِه إنّ لُطفَه في البدايةِ دليلٌ على النهاية، حنَّنَ الوالِدَين، وأجرى اللبنَ في الثدي، وأنشأ الأطعِمة، وأطلعَ العقلَ على العواقِب، أفيحسُنُ أن يُقالَ بعد هذا التدبير: إنّه يُهمِلُ بعد الموت، فلا يبعَثُ؟!

أتُـرى[٢] مَن أحبَّ أن يُعرَفَ، فأنشـأ الخَلقَ، وقال: «كُنـتُ كنزًا لا أُعرَف، فأحببتُ أن أُعرَفَ»[٣] يُؤثِرُ أن يُعدِمَهم، فيُجهَلَ قدرُه؟! سُبحانَ مَن أعمى أكثَرَ القُلُوبِ عن معرفته.



---

(١) تقدم في الفصل ٣٨٩.

(٢) سقطت من (ك، س).

(٣) قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٨: ١٢٢): هذا ليس من كلام النبي ﷺ، ولا أعرف له إسنادًا صحيحًا ولا ضعيفًا.

٤٠٣- فَصْلٌ
[دلائلُ التوحيد]

سُبحان مَن ظهرَ لخلقِهِ حتّى لم يبقَ خفاء، ثُمّ خفيَ حتّى كأنّهُ لا ظُهُور! أيُّ ظُهُورٍ أجلى مِن هذه المصنُوعاتِ التي كُلُّها تنطِقُ بأنّ لي صانعًا صَنعني، ورتَّبني على قانونِ الحِكمة، خُصُوصًا هذا الآدميَّ الذي أنشأهُ مِن قطرة، وبناهُ على أعجبِ فِطرة، ورزقهُ الفهمَ والذهنَ واليقظةَ والعِلم، وبسطَ له المِهاد، وأجرى له الماءَ والريح، وأخرجَ له الزرع، ورفعَ مِن فوقِه السماء، وأوقدَ له مِصباحَ الشمسِ بالنهار، وجاء بالظُّلمةِ ليسكُنَ، إلى غير ذلك مِمّا لا يخفى؟! وكلُّه ينطِقُ بصوتٍ فصيحٍ يدُلُّ على خالِقِه، وقد تجلّى الخالِقُ سُبحانهُ بهذِه الأفعال، فلا خفاء.

ثُمّ بعثَ الرُّسُلَ فُقراءَ مِن الدنيا، ضِعافَ الأبدان، فقهرَ بهم الجبابرة، وأظهر على أيديهم مِن المُعجزاتِ ما لا يدخُلُ تحت مقدُورِ بشر، وكُلُّ ذلك ينطقُ، وقد تجلّى سُبحانه بذلك.

ثُمّ يأتي مُوسى عليه السلام إلى البحر، فينفرِق، فلا يبقى شكٌّ في أنّ الخالقَ فعلَ هذا، ويُكلِّمُ عيسى عليه السلام الميتَ فيقوم، ويبعثُ طيرًا أبابيلَ تحفظُ بيتَه، فيُهلِك قاصِديه، وهذا أمرٌ يطُولُ ذِكرُه، كُلُّه يدُلُّ على تجلِّي الخالقِ سبحانه بغيرِ خفاء.

فإذا ثبتَ عند العُقولِ ذلك مِن غيرِ ارتيابٍ ولا شكّ، جاءت أشياءُ كأنّها تستُرُ الظاهِر، على ما سبق مِن تسليطِ الأعداءِ على الأولياء، وإذا ثبتَ التجلّي بأدلةٍ لا تحتمِلُ التأويل، علِمتَ أنّ لهذا الخفاءِ سِرًّا لا يعلمُه مُعترِضٌ، على العقلِ فيه التسليمُ للحكيم، فمَن سلَّمَ سلِم، ومَن اعترضَ هلك.

٤٠٤- فصل

[الاجتهادُ من غير أهله]

قد يدَّعي أهلُ مذهبِ الاجتِهادَ في طلبِ الصواب، وأكثرُهم لا يقصِدُ إلا الحقّ، فترى الراهِبَ يتعبَّدُ ويتجوَّع، واليهُوديَّ يذِلُّ ويُؤدِّي الجِزية، وصاحِبَ كُلِّ مذهبٍ يُبالِغُ فيهِ ويحتمِلُ الضيمَ والأذى طلبًا للهدى وتحصيلِ الأجرِ، ومع هذا فيُقطَعُ بضلالِ الأكثرين، وهذا قد يُشكِل، وإنّما كشفُه أنّه ينبغي أن يُطلَبَ الهُدى بأسبابِه، ويُستعمَلَ الاجتهادُ بآلاتِه.

فأمّا من فاتَته الأسباب، أو فقدَ بعضَ الآلاتِ، فلا يُقالُ له: مُجتهد، فاليهودُ والنصارى بين عالِمٍ قد عرَفَ صِدقَ نبيِّنا[١] ﷺ ثم يمسكُ لرئاستِه، فهذا مُعانِد، وبين مُقلِّدٍ لا ينظرُ، فهذا مُهمِل، فهو يتعبَّدُ مع إهمالِ الأصل، وهذا لا ينفع، وبين ناظرٍ مِنهم لا ينظُرُ حقَّ النظر، فيقول في التوراة: إنّ دينَنا لا يُنسَخ! وهو على غيرِ ثقةٍ أنّ هذا غيرُ معمولٍ ولا مُدخَلٍ فيها، ويقول: النسخُ ذا[٢]، ولا ينظُرُ في الفرق، فينبغي أن ينظُرَ حقَّ النظر.

ومِن هذا الجِنسِ تعبُّدُ الخوارج، مع اقتناعِهم بعِلمِهم القاصر، وقولِهم: «لا حُكمَ إلا لله»، ولم يفهَمُوا أنّ التحكيمَ مِن حُكمِ الله، فجعلُوا قتالَ عليٍّ رضي الله عنه وقتلَه مبنيًّا على ظنِّهم الفاسِد!

ولمّا نهبَ مُسلمُ بنُ عقبةَ المدينةَ، وقتلَ الخَلق، قال: «إن دخلتُ النارَ بعد هذا إنّني لشقيٌّ»، فظنَّ بجهلِه أنّهم لمّا خالفُوا بَيعةَ يزيدَ يجُوزُ استباحتُهم وقتلُهم! فالويلُ لعاميٍّ قليلِ العِلمِ لا يتَّهِمُ نفسَه في واقعة، ولا يُذاكِرُ به مَن هو أعلمُ منه، بل يقطعُ بظنِّه ويُقدِمُ.

---

(١) زاد في (س): «محمد».

(٢) كذا في النسخ!

وهـذا أصـلُ ينبغي تأمُّلـه، فقد هلكَ فـي إهمالِه خَلـقٌ[1] لا تُحصى، وقد رأينا خَلقًا مِن العوامِّ إذا وقع لهم واقِعٌ لم يقبَلُوا فتوى، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ * تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية: ٢-٤].

٤٠٥- فَصْلٌ

[ذخائرُ البدن والنفس]

للنفسِ ذخائرُ في البدن، منها الدمُ والمنيُّ وأشياءُ تتقوّى بها، فإذا فُقِدَتِ الذخائـر، ولـم يبقَ منها شـيءٌ، ذهبَت، ومـن ذخائرها: التقوّي بالمـالِ والجاهِ ومـا يُوجِـبُ الفـرح، فإذا فقدَت ذلـك، وكانت[2] عزيـزةً ذاتَ أنَفـة، حَرِجَت، وقد يهجُمُ عليها الخوف، فلا تجِدُ ذخيرةً مِن الرجاءِ يُقاومُه، فتذهبُ، ويغلِبُ عليها الفرح، فلا تجدُ مِن الحُزنِ ما يُقاومُه، فتذهبُ.

فاجتهِـد فـي حفظِ ذخائرهـا، وخُصوصًا الشيخَ، فإنّه ينبغي لـه ألا يُفرِطَ بإخـراجِ الـدم، ولا يـرى إخراجَ المنيِّ وإن وجدَ شَـبَقًا[3]، إلا أن يكُونَ الشَّـبَقُ زائـدًا في الحـدِّ، فيُخرِجُ المُؤذيَ في كُلِّ حين. وعلامـةُ أن يكُونَ مُؤذيًا وُجُودُ الراحةِ عند خُروجِه، فمتى وجدَ ضعفًا فقد آذى خُروجُه.

وليحفظْ ذو الأنَفةِ على نفسِه حِشمتَه، بألا يقفَ في موقِفٍ يُعابُ به، فإنّه يتمتَّـعُ بذخيرةِ العِزِّ والأنفة، ويُضادُّ النفسَ وُجُودُ ضدِّ ذلك. وكذلك ينبغي أن يستعدَّ[4] لآخِرِ عُمرِه المالَ، مخافةَ أن يحتاجَ فيذِلَّ، أو يسعى وقد كلَّتِ الآلة،

---

(١) زاد في (س): «كثير».

(٢) في (ح، ص): «كانت» بلا واو قبلها.

(٣) الشَّبَق: شدة الرغبة للنكاح.

(٤) «استعدّ» يأتي بمعنى «أعدّ»، فيتعدى بنفسه، وفي البخاري: «باب من استعد الكفن في زمن النبي...».

ولَأن يُخلِّفَ لعدُوِّه أولى مِن أن يحتاجَ إلى صديقِه.

ولا يلتفتْ إلى مَن يذمُّ المال، فإنّهم الحمقى الجُهّالُ الذين اتَّكلُوا على خُبز[1] الراحة، فاستطابوا الكسلَ والدَّعةَ، ولم يأنَفُوا مِن تناولِ الصدقة، ولا من التعرُّض للسؤال، وقد كان لكلِّ نبيٍّ معاشٌ، ولجميع الصحابة، وخلَّفُوا أموالًا كثيرةً، فافهم هذا الأصل، ولا تلتفِتْ إلى كلامِ الجُهّال.

٤٠٦- فَصْلٌ
[رياء الزُّهّاد]

رأيتُ في زُهّاد زماننا من الكِبرِ وحفظِ الناموس ورتبةِ الجاه في قلوب العامّة ما كدتُ أقطعُ به على أنهم أهلُ رياءٍ ونفاق! فترى أحدَهم يلبَسُ الثوب الذي يُرى بعينِ الزهد، ويأكلُ أطايبَ الطعام، ويتكبَّرُ على أبناء الجنس، ويُصادقُ الأغنياء، ويُباعدُ الفقراء، ويحبُّ الخِطابَ بـ«مولانا»[2]، ويمشي بحاجب، ويُضيِّعُ الزمانَ في الهَذَيان، ويتقوَّتُ بخدمةِ الناسِ له والتسليمِ عليه.

ولو أنّه لبِسَ ثوبًا يخلطُه بالفُقهاء، لذهبَ[3] الجاهُ ولم يبقَ لهُ مُتعلَّق، ولو أنّ أفعالَه ناسبتْ ثيابَه لهانَ الأمر، لكِن بَهرَجُوا على مَن لا يخفى عليه مِن الخلق، فكيف الخالِق سبحانه وتعالى؟!



(١) في (ح، ص): «خبر».
(٢) في (ك، س، ص، م): «المولانا».
(٣) في (ك، ح، ص، د): «ذهب».

٤٠٧- فَصْلٌ
[السعيُ على الرزق]

كثيـرًا ما أُعيدُ هـذا المعنى الذي أنا ذاكرُه في هذا الكتاب بعباراتٍ: ينبغي للمُؤمنِ أن يتشاغلَ بمعاشٍ، ويرفُقَ في نفقتِه، فإنّه قد كان للعلماء شيءٌ مِن بيتِ المالِ، ورفقٌ من الإخوان، ومعونةٌ من العوامِّ، فانقطعَ الكُلُّ، وبقي المُتشـاغِلُ بالعِلمِ أو بالتعبُّدِ مِسكينًا، خُصوصًا ذا العائلة.

ومـا رأينـا مِثـلَ هـذا الزمـانِ القبيـح، فما بقـيَ مَن يُومَـأ إليـه بمعونة، ولا باستقراضٍ منه، فيحتاجُ الإنسانُ أن يدخُلَ في مداخِلَ لا تليقُ به، وأن يتعرَّضَ بمـا لا يصلُح، فينبغي تقليـلُ العائلة، وتقويتُ القُـوت[١]، وترقيعُ الخَلِق، وإن أمكنَ معاشٌ فهو أولى مِن التشـاغُل بالتعبُّدِ والتعلُّمِ لفضولِ العِلم، وإلا ضاعَ الدينُ في مداخلَ لا تصلُح، أو التعرُّضِ لبذلِ نذل.

٤٠٨- فَصْلٌ
[الاحترازُ والإيمان بالقَدر]

ينبغـي للعاقـل أن يحتـرزَ غايةَ ما يُمكِنُـه، فإذا جرى القدرُ مـع احترازِه لم يُلَـم، والاحتـرازُ مِن كُلِّ شـيءٍ يُمكنُ وقُوعُه، وأخذُ العُـدّةِ لذلك، وهذا يكُونُ في كُلِّ حال، فقد قصَّ رجلٌ ظُفرَه، فجارَ عليه، فخبُثتْ يدُه فمات. ومرَّ شيخُنا أحمـدُ الحربـيُّ وهُو راكِبٌ بمكانٍ ضيِّق، فتطأطأ على السـرج، فانعصرَ فُؤادُه، فمرض، فمات. وكان يحيى بـنُ نزارٍ شيخًا يحضُرُ مجلِسي، قد طرأ عليه ثِقَلُ الأُذُن، فاستدعى طُرُقيًا[٢]، فمصَّ أُذُنَه، فجـرى شيءٌ مِن مُخِّه، فمات. وانظر

(١) تقويت القوت: الاقتصاد فيه.

(٢) الطُّرُقِيّ: هو الدَّجّال أو المُشعوِذ من الجرّاحين والمُنجِّمين وضاربي الرمل ومن لفَّ لفَّهم.

إلى احترازِ رسُولِ الله ﷺ حين مرَّ على حائطٍ مائلٍ فأسرع[١].

وينبغي أن يحترِزَ بالكسبِ في زمنِ شبابِه، ادِّخارًا لزمنِ شَيبِه، ولا ينبغي أن يثقَ بمُعامَلٍ إلا بوثيقة، ويُبادِرَ بالوصية مخافةَ أن يطرُقَه الموت، ويحترِزَ مِن صديقه فضلًا عن عدُوِّه، ولا يثقَ بمودّةِ مَن قد آذاهُ هُو، فإنّ الحِقدَ في القُلُوبِ لا يزُول، وليحترِزْ مِن زوجتِه، فرُبّما أطلعَها على سِرٍّ ثُمّ طلَّقها، فيتأذّى بما تفعلُ به.

وقد كان ابنُ أفلحَ الشاعِرُ[٢] يُكاتِبُ رئيسًا في زمنِ المُسترشِد، فعلِم بذلك بوّابُه، واتَّفق أنّه صرفَ بوّابَه، فنمَّ عليه، ونُقِضَت دارُه.

فهذه المذكُوراتُ أمثلةٌ تُنبِّهُ على ما لم يُذكَر، وأهمُّ الكُلِّ أن يحترِزَ بأخذِ العُدّةِ وتحقيقِ التوبةِ قبلَ أن يهجُمَ ما لا يُؤمَنُ هُجومُه، وليحذَرْ مِن لصِّ الكسل، فإنّه مُحتالٌ على سرِقةِ الزمان.

٤٠٩- فَصْلٌ
[القناعةُ باليسير]

تأمّلتُ خُصوماتِ المُلُوك، وحِرصَ التجّار، ونِفاقَ المُتزهِّدين، فوجدتُ جمهورَ ذلك على لذّاتِ الحِسِّ! وإذا تفكَّر العاقِلُ في ذلك علِمَ أنّ أمرَ الحِسِّياتِ قريب، يندفِعُ بأقلِّ شيء، وأنّ الغايةَ لا يُمكِنُ نيلُها، وإن بالغَ عاد بالأذى على نفسِه أضعافَ ما ناله مِن اللذّة، كمَن يأكُلُ كثيرًا، أو ينكِحُ كثيرًا، فالسعيدُ مَن اهتمَّ لحِفظِ دينِه، وأخذَ مِن ذلك بمِقدارِ الحاجة.

---

(١) رواه أحمد (٨٦٦٦)، تفرَّد به إبراهيم بن الفضل المخزومي أبو إسحاق المدني، وهو منكر الحديث.

(٢) هو أبو القاسم علي بن أفلح العبسي جمال الملك، كان شاعرًا حسن المدح كثير الهجاء، تُوفي سنة ٥٣٥هـ. وفيات الأعيان (٣: ٣٩٠)، والخبر ذكره ابن الجوزي في المنتظم (١٧: ٢١٧).

وا عجبًا! هذا الملبُوس، إذا كان وسطًا خَدَم، وإذا كان مُرتفعًا خُدِم، فإن نظرَ اللابِسُ إليه مُعجَبًا به، فإن الله لا ينظرُ إليهِ حينئذٍ[1]، وفي «الصحيح»[2]: «بينا رجُلٌ يتبخترُ في بُردتِه، خُسِفَ به».

وهو أنّ المشروبَ[3] إن كان حرامًا فعِقابُه أضعافُ لذّته، وهتكُهُ العِرضَ بين الناسِ عِقابٌ آخر، وإن كان مباحًا فالشَّرَهُ فيه يُؤذي البدن.

وأمّا المنكُوحُ فمُداراةُ المُستحسَنِ يؤذي فوق كُلِّ أذًى، ومقاساةُ المُستقبَحِ أشدُّ أذًى، فعليك بالمتوسِّط.

وتفكَّر في أحوالِ السلاطين، كيف قَتلُوا ظُلمًا! وكم ارتكبُوا حرامًا! وما نالُوا إلا يسيرًا من لذّاتِ الحِسّ، فانقَشع غَيمُ العُمُرِ عن حسراتِ الفضائلِ وحُصُولِ العقاب.

فليس في الدنيا أطيَبُ عيشًا مِن مُنفرِدٍ عن العالَم بالعِلم، فهو أنيسُه وجليسُه، قد قنعَ بما يَسلَمُ به دينُه مِن المُباحاتِ الحاصِلة، لا عن تكلُّفٍ ولا تضييعِ دين، وارتدى بالعزِّ عنِ الذُّلِّ للدُّنيا وأهلِها، والْتَحفَ بالقناعةِ باليسير، إذا لم يقدِرْ على الكثير، فوجدتُه يَسلَمُ دينُه ودنياه، واشتِغالُه بالعِلم يدُلُّه على الفضائل، ويُفرِّجُهِ في البساتين، فهو يَسلَمُ مِن الشيطانِ والسلطانِ والعوامِّ بالعُزلة، ولكِن لا يصلُحُ هذا إلا للعالِم، فإنّه إذا اعتزلَ الجاهِلُ فاتَه العِلم، فتخبَّط.

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١: ٣٧)، من قول أبي بكر الصديق لعائشة رضي الله عنهما بمعناه.

(٢) تقدم في الفصل ٣٨٨.

(٣) في (ط): «والمشروب» مكان «وهو أن المشروب».

٤١٠- فَصْلٌ
[آدابُ طالب العلم]

تأمَّلتُ حالةً تدخلُ على طُلّابِ العِلم، تُوجِبُ الغفلةَ عن المقصود، وهو حِرصُهم على كتابةِ العِلم، خصوصًا المُحدِّثين، فيستغرقُ ذلك[١] زمانَهُم عن أن يحفظُوا ويفهمُوا، فيذهبُ العُمرُ وقد عرَوا عنِ العِلمِ إلا اليسير.

فمَن وُفِّقَ جعلَ مُعظمَ الزمانِ مصرُوفًا في الإعادةِ والحِفظ، وجعلَ وقتَ التعبِ من التَّكرارِ للنَّسخ، فيحصُلُ لهُ المُراد. والمُوفَّقُ مَن طلبَ المُهِمّ، فإنّ العُمُرَ يعجِزُ عن تحصيلِ الكُلّ، وجُمهورُ العلومِ الفقهُ. وفي الناسِ مَن حصلَ له العِلم، وغفلَ عنِ العملِ بمُقتضاه، وكأنّه ما حصَّلَ شيئًا، نعُوذُ باللهِ مِن الخِذلان.

٤١١- فَصْلٌ
[خَميرُ الرأي خيرٌ من فَطيره]

ما اعتَمد أحدٌ أمرًا إذا همَّ بشيءٍ مِثلَ التثبُّت، فإنّه متى عمِلَ بواقِعةٍ مِن غيرِ تأمُّلٍ للعواقِب، كان الغالِبُ عليه الندم، ولهذا أُمِر بالمُشاورة؛ لأنّ الإنسانَ قد يرى ما ليس برأيٍ، والتثبُّتُ من جنسِ المشاورة؛ لأنّ الإنسانَ بالتثبُّتِ يَفتكِر، فيعرِضُ على نفسِه بالتفكُّر للأحوال، فكأنّه شاوَر، وقد قيل: «خَميرُ الرأيِ خيرٌ مِن فَطيرِه»[٢].

وأشدُّ الناسِ تفريطًا مَن عمِلَ مُبادرةَ واقِعةٍ مِن غيرِ تثبُّتٍ ولا استِشارة،

---

(١) سقطت من (ك، س).

(٢) ذكره ابن قتيبة في عيون الأخبار (١: ٨٦).



خصوصًا فيما يُوجِبُه الغضب، فإنّه يجلبُ[1] طلبَ الهلاكِ أو الندمَ العظيم، وكم مَن غضِبَ، فقتلَ وضرب، ثُمّ لمّا سكنَ غضبُه بقيَ طُولَ دهرِه في الحُزنِ والبُكاءِ والندمِ، والغالِبُ في القاتلِ أنّه يُقتَل، فتفُوتُ الدنيا والآخِرة.

فكذلك مَن عرضَتْ له شهوة، فاستعجلَ لذّتَها ونسيَ عاقِبتَها، فكم مِن ندمٍ يتجرَّعُه في باقي عُمُرِه، وعِقابٍ يستقبلُه بعدَ موتِه، وعِقابٍ لا يُؤمَنُ وقُوعُه، كُلُّ ذلك للَذّةِ لحظةٍ كانت كبَرق. فالله الله، التثبُّتَ التثبُّتَ في كُلِّ الأُمُورِ، والنظرَ في عواقِبها، خصوصًا الغضبَ المُثيرَ للخُصومة وتعجيلِ الطلاق.

٤١٢- فَصْلٌ
[الاحترازُ من العقل]

سألني سائلٌ فقال: قد قال بعضُ الحُكماء: «مَن لم يَحترز بعقلِه من عقلِه[2] هلكَ بعقلِه»، فما معنى هذا؟ فبقيتُ مُدّةً لا ينكشِفُ لي المعنى، ثُمّ اتَّضح، وذلك أنّه إذا طُلِبتْ معرفةُ ذاتِ الخالقِ سُبحانَه مِن العقل، فزِعَ إلى الحِسِّ فوقعَ التشبيه، فالاحترازُ مِن العقلِ بالعقلِ هو أن ينظُرَ فيعلمَ أنّه لا يجوزُ أن يكُونَ جِسمًا ولا شبهًا لشيء.

وإذا نظرَ العاقلُ إلى أفعالِ البارئ سُبحانه وتعالى، رأى أشياءَ لا يقتضيها [العقل][3]، مثلَ الآلام، والذبحِ للحيوان، وتسليطِ الأعداءِ على الأولياءِ مع القُدرةِ على المنع، والابتلاءِ بالمجاعةِ للصالِحين، والمُعاقبةِ على الذنبِ بعد البُعدِ بزلّة، وأشياءَ كثيرةٍ مِن[4] هذا الجِنسِ يعرِضُها العقلُ على العاداتِ في

---

(١) سقطت من (ح، ص، د).
(٢) سقط «من عقله» من (ص، م).
(٣) زيادة من (ط).
(٤) في النسخ: «ومن» بواو قبلها، والتصويب عن (ط).

تدبيـرِه، فيـرى أنّه لا حِكمةَ تظهرُ لـه فيها. فالاحترازُ مِنَ العقـلِ به أن يُقال له: أليـس قـد ثبتَ عندك أنّه مالك، وأنّـه حكيم، وأنّه لا يفعلُ شـيئًا عبثًا؟ فيقول: بلـى، فيُقـال: فنحنُ نحترزُ مِن تدبيرِك الثاني بما ثبـتَ عندك في الأوّل، فلم[1] يبـقَ إلا أنّـه خفيَ عليـك وجهُ الحِكمةِ في فِعلِه، فيجبُ التسـليمُ لـه لعِلمِنا أنّه حكيمٌ، فحينئذٍ يُذعِنُ ويقول: قد سلَّمتُ.

وكثيـرٌ من الخَلـقِ نظرُوا لمُقتضى واقعِ العقـلِ الأوّل فاعترضُوا، حتّى إنّ العامّـيَّ يقـول: كيف قضى عليَّ سُـوءَ عاقِبتـي؟! ولِمَ ضيَّقَ رِزقـي؟! وما وجهُ الحِكمـةِ فـي ابتلائي بفنونِ البلاء؟ ولـو أنّه تلمَّحَ أنّه مالـكٌ حكيم، لم يبقَ إلا التسليمُ لِما خفيَ.

ولقد أنِسَ ببديهةِ العقلِ خلقٌ مِنَ الأكابِر، أولُهم إبليسُ، فإنّه رأى تفضيلَ النارِ على الطين، فاعترض، ورأينا خَلقًا مِمَّن نُسِبَ إلى العِلمِ قد زلُّوا في هذا، واعترضُوا، ورأوا أنّ كثيرًا مِن الأفعالِ لا حِكمةَ تحتها!

والسببُ ما ذكَرنا، وهو الأُنسُ بنظرِ العقلِ في البديهةِ والعادات، والقياسُ لأفعـالِ المخلُوقيـن، ولـو استَخرجوا عِلـمَ العقلِ الباطـن، وهو أنّـه قد أثبتَ الكمالَ للخالِق، ونفى عنه النقائص، وعلِمَ أنّه حكيمٌ لا يعبَث، لبقيَ التسـليمُ لِما لا يُعقَل.

واعتبِر هذا بحالِ الخَضِرِ ومُوسـى عليهما السـلام، فإنّـه لمّا فعلَ الخَضِرُ أشياءَ تخرُجُ عن العادات، أنكر مُوسى ﷺ، ونسيَ إعلامَه له بأنّي أنظُر فيما لا تعلمُهُ مِن العواقِب، فإذا خفِيَتْ مصلحةُ العواقِبِ على مُوسى عليه السلام مع

(١) في (ك، ح، س، د): «لم».

مخلـوق، فأولـى أن يخفى علينا كثيرٌ مِن حِكمةِ الحكيم[1]. وهذا أصل، إن لم يثبُت عند الإنسان أخرَجه إلى الاعتراضِ والكُفر، وإن ثبتَ استراح عند نُزولِ كُلِّ آفة.

٤١٣- فَصْلٌ

[مناجاة]

بلغَني عن بعضِ الكُرَماءِ أنّ رجُلًا سـأله فقال: أنا الذي أحسـنتَ إليه يومَ كـذا وكـذا، فقال: مرحبًا بمَن يتوسَّـلُ إلينا بنـا، ثُمّ قضى حاجتَـه، فأخذتُ مِن ذلـك إشـارة، فناجيتُ بها، فقُلـت: أنا الذي هديتَه مِن زمـنِ الطُّفُولة، وحفِظتَه مِـن الضـلال، وعصَمتَـه عن كثيرٍ مِـن الذنـوب، وألهمتَهُ طلبَ العِلـم لا بفهمٍ لشرفٍ لموضِعِ الصِّغَر، ولا بحُبِّ والدِه، ورزقتَه فهمًا لتفقُّهه وتصنيفِه، وهيَّأتَ لـه أسـبابَ جمعِه، وقُمـتَ برزقِهِ مِن غيرِ تعـبٍ مِنه، ولا ذُلٍّ للخلقِ بالسُّـؤال، وحاميتَ عنه الأعداءَ فلم يقصِدْهُ جبّارٌ فسَـلِم، وجمعتَ له ما لم تَجمَع لأكثرِ الخلـقِ مِـن فُنونِ العِلمِ التـي لا تكادُ تجتمِعُ في شـخص، وأضفتَ إليها تعلُّقَ القلبِ بمعرفتِك ومحبَّتِك، وحُسنَ العِبارةِ ولُطفَها في الدلالةِ عليك، ووضعتَ لـه فـي القُلُوبِ القبول، حتّـى إنّ الخلقَ يُقبِلُـون عليه، ويَقبَلُون مـا يقُولُه، ولا يشُـكُّون فيه، ويشتاقُون إلى كلامِه، ولا يُدرِكُهُم الملَلُ مِنه، وصُنتَه بالعُزلةِ عن مُخالَطـةِ مَـن لا يصلُح، وآنسـتَهُ في خَلوتِـه، بالعِلمِ تـارةً، وبمناجاتِك أُخرى، وإن ذهبتُ أعُدُّ لم أقدِرْ على إحصاءِ عُشَـيرِ العُشَـير، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم: ٣٤]. فيا محسـنًا إليّ قبل أن أطلُب، لا تُخيِّبْ أملي فيك وأنا أطلُب، فبإنعامِك المتقدِّمِ أتوسَّلُ إليك.

---

(١) زاد في (س): «الخالق جل جلاله».

٤١٤- فَصْلٌ

[قصصُ البخلاء]

سُبحان مَن جعلَ الخلقَ بين طرفَي نقيض، والمتوسِّطُ منهم ينذُرُ، منهم مَن يغضبُ فيقتُلُ ويضرِب، ومنهم مَن هو أبلهُ بقُوّةِ الحِلم، لا يُؤثِّرُ عندهُ السبُّ، ومنهم شرِهٌ يتناولُ كُلَّ ما يَشتهي، ومنهم مُتزهِّدٌ يتجفَّفُ فيمنعُ النفسَ حقَّها!

وكذلك سائرُ الأشياء، المحمُودُ منها المتوسِّطُ، فالمُنفِقُ كُلَّ ما يجِدُ[1] مُبذِّر، والبخيلُ يُخبِّىءُ المالَ ويمنعُ نفسَه حظَّها. ومعلومٌ أنّ المالَ لا يُرادُ لنفسِه بل للمصالِح، فإذا بذَّرَ الإنسانُ فيهِ احتاجَ إلى بذلِ وجهِهِ ودينِهِ ومِنّةِ البُخلاءِ عليه، وهذا لا يصلُح، ولأن يُخلِّفَ الإنسانُ لعدُوِّه أحسنُ ما يحتاجَ إلى صديقِه.

وفي الناسِ مَن يبخَل، ثُمّ يتفاوتُون في البُخل، حتّى ينتهيَ بالبخلاءِ الأمرُ إلى عِشقِ عينِ المال، فرُبّما مات أحدُهم هَزِلًا ولا يُنفِقُه، فيأخُذُهُ الغير، فيُذمُّ المُخلِّف!

ولقد بلغَني في هذا ما ليس فوقهُ مزيدٌ، ذكرتُهُ لتعتبرَ به: فحدَّثني شيخُنا أبو الفضلِ بنُ ناصِرٍ، عن شيخِهِ عبدِ المُحسِنِ الصُّوريّ، قال: كان بصُور[2] تاجِرٌ في غُرفةٍ له، يأخُذُ كُلَّ ليلةٍ مِن البَقّالِ رغيفَينِ وجَوزة، فيدخُلُ إلى غُرفتِهِ وقتَ المغرِب، فيضرِبُ النارَ في الجَوزة، فتُضيءُ بمِقدارِ ما ينزِعُ ثوبَه، وفي زمانِ إحراقِ القِشرِ تكُونُ[3] قد استوت، فيمسحُ بها الرغيفَين ويأكلُهُما، فبقيَ

---

(١) زاد في (س): «فهو».

(٢) صور: مدينة مُشرِفة على بحر الشام، وهي الآن في لبنان. معجم البلدان (٣: ٤٣٣).

(٣) سقطت من (ك، ح، س، د).

على هذا مُدّة، فمات، فأخذَ منه مَلِكُ صُور ثلاثين ألفًا[١]!

ورأيتُ أنا رجُلًا مِن كِبارِ العُلماءِ قد مرِض، فاستَلقى عند بعضِ أصدِقائه، ليس له مَن يخدُمُه ولا يُرافِقُه، وهو مُضِرٌّ[٢]، فلمّا مات وجدُوا بين كُتُبِهِ خمسَمئة دينارٍ!

وحدَّثني أبو الحسنِ البَراندسيّ[٣] قال: مرِضَ رجُلٌ[٤] عندنا، فبعثَ إليَّ فحضرتُ، فقال: قد ختمَ القاضي على مالي. فقُلتُ: إن شئتَ قمتُ وفتحتُ الختمَ وأعطيتُك الثُّلُثَ تُفرِّقُه وتعملُ بهِ ما تشاءُ. فقال: لا والله، ما أُريدُ أن أُفرِّقَه، بل أُريدُ مالي يكُونُ عندي. فقُلت: ما يُعطُونك، بلى أنا آخُذُ لك الثُّلُثَ، فقال: لا أُريدُ، فمات وأُخِذ مالُه!

قال: وجاء رجُل فحدَّثني بعجيبة، قال: مرِضَتْ حماتي، فقالت لي[٥]: أُريدُ أن تشتريَ لي خَبيصًا[٦]، فاشتريتُ لها، وكانت مُلقاةً في صُفّة، ونحنُ في صُفّةٍ أُخرى، فجاءني ولدي الصغيرُ وقال: يا سيِّدي، إنّها تبلعُ الذهب، فقُمتُ وإذا بها تجعلُ الدينارَ في شيءٍ مِنَ الخَبيصِ فتبلعُه، فأمسكتُ يدَها وزجرتُها عن هذا! فقالت: أنا أخافُ أن تتزوَّجَ على ابنتي. فقُلتُ: ما أفعلُ.

---

(١) في حاشية (ح) تعليقًا: «كذا ابن الخشاب النحوي رحمه الله».

(٢) المُضِرّ: هو الذي له ضَرّة من المال، وهي المال الكثير.

(٣) في النسخ: «الراندسي»، والتصويب عن المدخل إلى كتاب صيد الخاطر، للدكتور أحمد بن مسفر العتيبي (ص١١١ وما بعدها)، والبراندسي هو أبو الحسن علي بن محمد بن علي، الحنبلي المقرئ الفقيه الضرير، تُوفي سنة ٥٨٦هـ. المنتظم (١: ٢٧).

(٤) في هامش (م): «هو ابن الخشاب النحوي رحمه الله».

(٥) سقطت من (ك، س).

(٦) الخَبيص: طعام يُصنَع من سمن وعسل ونقيّ الدقيق.

فقالـت: احلِفْ لي. فحلفـتُ، فأعطَتني باقيَ الذهب، ثُـمّ ماتت ودفنتُها، فلما كان بعد أشهُرٍ مات لنا طفل، فحملناه إليها، وأخذتُ معي خرقةَ خام[١]، وقلتُ للحفّـار: اجمـعْ لي عِظامَ تلك العجـوز، فجمعَها في الخِرقـة، فجئتُ بها إلى البيت، وتركتُها في إجانة[٢]، وصببتُ عليها الماء وحرَّكتُها، فأخرجتُ ثمانين دينارًا أو نحوَها، كانت قد ابتلعتْها!

وحكـى لـي صديقٌ لنـا، أنّ رجُلًا مات ودُفِـنَ في الدار، ثُمّ نُبِـشَ بعد مُدّةٍ ليُخرَج، فوجدوا تحت رأسِه لَبِنةً مُقيَّرة[٣]، فسُئل أهلُه عنها فقالوا: هُو قيَّرَ هذه اللَّبِنة، وأوصى أن تُترَكَ تحت رأسِه في قبرِه، وقال: إنّ اللَّبِنَ يبلى سريعًا، وهذه لموضِعِ القارِ لا تبلى، فأخذُوها، فوجدُوها رزينة[٤]، فكسـرُوها، فوجدُوا فيها تِسعَمئةِ دينار، فتولّاها أصحابُ الترِكات!

وبلغني أنّ رجلًا كان يكنُسُ المساجِدَ ويجمعُ تُرابَها، ثُمّ ضربَه لَبِنًا، فقيل لـه: هذا لأيِّ شـيء؟ فقال: هـذا تُرابٌ مُبارك، وأُريـدُ أن يجعلُوهُ على لَحدِي! فلمّا ماتَ جُعِلَ على لحدِه، ففضلَ مِنه لَبِنات، فرمَوها في البيت، فجاء المطرُ فتفسَّـختِ اللَّبِنـات، فإذا فيهـا دنانير، فمضَوا وكشـفُوا اللَّبِنَ عن لحـدِه، وكُلُّه مملُوءٌ دنانير!

ولقـد مات بعضُ أصدقائنا، وكنتُ أعلمُ لـه مالًا كثيرًا، وطال مرضُه، فما أطلَعَ أهلَه على شيء، ولا أكاد أشكُّ أنّه من شُحِّه وحرصِه على الحياةِ ورجائه أن يبقـى، لـم يُعلِمْهم بمدفونه، خوفًا أن يؤخذَ فيحيا هُـو وقد أُخِذَ المال، وما يكُونُ بعد هذا الخزيِ شيءٌ.

---

(١) الخام من الثياب: الذي لم يُغسَل ويُبيَّض.
(٢) الإجانة: وعاء تُغسَل فيه الثياب.
(٣) مُقيَّرة: مطليّة بالقار.
(٤) الرزينة: الثقيلة.

وحدَّثني بعضُ أصحابنا عن حالةٍ شاهدَها في هذا الفنّ، قال: كان فُلانٌ له وَلَدانِ ذَكرانِ وبنتٌ وله ألفُ دينارٍ مدفونة، فمرِضَ مرضًا شديدًا، فاحتوشتْهُ[1] أهله، فقال لأحدِ ابنَيه: لا تبرحْ مِن عندي. فلمّا خلا قال له: إنّ أخاك مشغُولٌ باللعِب بالطُّيُور، وإنّ أُختَك لها زوجٌ تُركيّ، ومتى وصلَ مِن مالي إليهما شيءٌ أنفَقُوهُ في اللعب، وأنتَ على سيرتي وأخلاقي، ولي في الموضِعِ الفُلانيِّ ألفُ دينار، فإذا أنا مِتُّ فخُذْها وحدَك. فاشتدَّ بالرجُلِ المرض، فمضى الولدُ فأخذ المال، فعُوفيَ الأب، فجعلَ يسألُ الولدَ أن يرُدَّ المالَ إليه، فلا يفعل، فمرضَ الولدُ وأشفى[2]، فجعلَ الأبُ يتضرَّعُ إليه ويقُول: ويحكَ! خَصَصتُك بالمالِ دونهم، فتموتُ فيذهبُ المال، ويحَك! لا تفعلْ! فما زال به حتّى أخبرَه بمكانِه، فأخذه، ثُمّ عُوفيَ الولد، ومضَت مُدّة، فمرِضَ الأب، فاجتهد الولدُ أن يُخبرَه بمكانِ المال، وبالغ، فلم يُخبِرْه، ومات وضاع المال!

فسُبحان مَن أعدَمَ من[3] هؤلاءِ العُقُولَ والفُهُومَ، ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

٤١٥- فَصْلٌ
[أين الخِلُّ الوفيّ؟]

كان لنا أصدقاءُ وإخوانٌ أعتدُّ بهم[4]، فرأيتُ منهم مِن الجفاءِ وتركِ شروطِ الصداقةِ والأُخُوّة عجائبَ، فأخذتُ أعتِب، ثُمّ انتبهتُ لنفسي، فقُلتُ: وما ينفعُ العِتاب؟! فإنّهم إن صلَحوا فللعِتابِ لا للصفاء، فهممتُ بمُقاطعتِهم،

(١) احتوشته: أحاطت به.
(٢) أشفى: أشرف على الموت.
(٣) سقطت من (ك، ح، د).
(٤) سقط «أعتد بهم» من (ك، س).

ثُـمّ تفكَّرتُ فرأيـتُ الناسَ بين معـارِفَ وأصدقاءَ في الظاهرِ وإخـوةٍ مُباطِنين، فقُلت: لا تصلُحُ مُقاطعتُهم، إنّما ينبغي أن تنقُلَهُم مِن ديوانِ الأُخُوّةِ إلى ديوانِ الصداقـة الظاهرة، فإن لم يصلُحُـوا لها نقلتَهم إلى جُملةِ المعارِف، وعاملتَهم مُعاملةَ المعارف، ومِنَ الغلطِ أن تُعاتِبَهم، فقد قال يحيى بنُ معاذ[١]: بئسَ الأخُ أخٌ تحتاجُ أن تقُولَ له: اذكُرني في دُعائك[٢].

وجمهورُ الناسِ اليومَ معارِف، ويندُرُ فيهم صديقٌ في الظاهِر، فأمّا الأُخُوّةُ والمُصافاةُ فذاك شيءٌ[٣] نُسِخ، فلا يُطمَعُ فيه، وما أرى الإنسانَ تصفُو له إخوةٌ مِـن النسـبِ ولا ولدُه ولا زوجتُه، فـدعِ الطمع في الصفاء، وخُـذْ[٤] عنِ الكُلّ جانبًا، وعامِلْهم مُعاملةَ الغُرباء.

وإيّـاك أن تنخـدِعَ بمَن يُظهِرُ لك الوُدَّ، فإنّه مع الزمانِ يبينُ لكَ الحالُ فيما أظهرَه، ورُبّما أظهرَ لك[٥] ذلك لسببٍ ينالُه مِنك! وقد قال الفُضَيلُ بنُ عياض: إذا أردتَ أن تُصادِقَ صديقًا فأغضِبْه، فإن رأيتَه كما ينبغي فصادِقْه. وهذا اليومَ مُخاطرة؛ لأنّك إذا أغضبتَ أحدًا صار عدوًّا في الحال.

والسـببُ في نسـخِ حُكمِ الصفاء أنّ السـلفَ كان هِمَّتُهم الآخِرةَ وحدَها، فصفَت نيّاتُهم في الأُخُوَّة والمُخالطة، فكانت دِينًا لا دُنيا، والآنَ فقدِ استولى حُبُّ الدنيا على القُلُوب، فإن رأيتَ مُتملِّقًا في بابِ الدين، فاخبُرْهُ تَقْلِه[٦].

---

(١) أبو زكريا الرازي الواعظ، ترجم له الخطيب في تاريخ بغداد (١٦: ٣٠٦).

(٢) ذكره أبو حيان التوحيدي في الصداقة والصديق (ص٩٨).

(٣) زاد في (س): «قد».

(٤) في (ك، س، م): «وصد».

(٥) عن (د).

(٦) اخبُره تَقلِه: أي إن جَرَّبتَه قليتَه؛ أي: أبغضته؛ لما يظهَر لك من مَسَاويه. مجمع الأمثال (٢: ٣٦٣).

٤١٦- فَصْلٌ
[منزلةُ الرضا]

رأيتُ المُعافى لا يعرِفُ قدرَ العافية إلا في المرض، ولا[1] يعرِفُ شُكرَ الإطلاقِ إلا في الحبس. وتأمَّلتُ على الآدميِّ حالةً عجيبةً، وهو أن يكُونَ معهُ امرأةٌ لا بأسَ بها، إلا أنّ قلبَه لا يتعلَّقُ بمحبَّتها تعلُّقًا يلتذُّ بِهِ ـ ولذلك سببان؛ **أحدهما:** أن تكُونَ غيرَ غايةٍ في الحُسنِ، **والثاني:** أنّ كُلَّ مملُوكٍ مملُول، والنفسُ تطلُبُ ما لا تقدِرُ عليه ـ فتراهُ يضِجُّ ويشتهي شيئًا يُحبُّه، وامرأةً يعشقُها، ولا يدري أنّه إنّما يطلبُ قيدًا وثيقًا يمنعُ القلبَ مِن التصرُّفِ في أُمورِ الآخِرة، أو في عِلمٍ أو عملٍ، ويُخبِّطُه في تصرُّفِ الدنيا، فيبقى ذلك العاشِقُ أسيرَ المعشُوقِ، همُّه كُلُّهُ معه! فالعجبُ بمُطلَقٍ يُؤثِرُ القيد، وبمُستريحٍ يُؤثِرُ التعب!

فإن كانت تِلك المرأةُ تحتاجُ أن تُحفَظ، فالويلُ له، لا قرارَ له ولا سُكون، وإن كانت مِن المُتبرِّجاتِ اللواتي لا يُؤمَنُ فسادُهُنّ، فذاك هلاكُه بمرّة، فلا هُو إن نام يلتذُّ بنومِه، ولا إن خرجَ مِن الدار يأمَنُ مِحنة، وإن كانت تُريدُ نفقةً واسعةً وليس له، فكم يدخُلُ مدخلَ سُوءٍ لأجلِها، وإن كانت تُؤثِرُ الجماعَ وقد عَلَتْ سِنُّه، فذاك الهلاكُ العظيم، وإن كانت تُبغِضُه فما بقيَت مِن أسبابِ تلفِه بقيّة، فيكُونُ هذا ساعيًا في تلفِ نفسِه! كما قال القائل[2]: [المتقارب]

نُحِبُّ القُدُودَ ونَهوى الخُدُودَ ... ونَعلَمُ أنّا نُحِبُّ المَنُونا

وهذا على الحقيقةِ كعابِدِ صنم. فليتَّقِ الله مَن عنده امرأةٌ لا بأسَ بها،

(١) «لا» عن (د).
(٢) لأبي منصور علي بن الحسن المعروف بصَرّ دُرّ في ديوانه (ص١٧).

وليُعرِضْ عن حديثِ النفسِ ومُناها، فما له منتهًى، ولو حصلَ له غرضُه كما يُريدُ وقعَ المللُ وطلبَ ثالثةً، ثُمّ يقعُ المللُ ويطلبُ رابعة، وما لهذا أخير، إنّما يُفيدُه بالعاجِل تعلُّقَ قلبه وأسرَ لُبّه، فيبقى كالمبهوت، فِكرُه كُلُّه في تحصيلِ ما يُريدُ محبُوبُه، فإن جرتْ فُرقةٌ أو آفةٌ فتِلكَ الحسراتُ الدائمةُ إن بقي، أو التلفُ عاجِلًا.

وأين المُستحسَنُ المصُونُ الدينِ القنُوعُ المُحِبُّ لمَن يُحِبُّه؟! هذا أقلُّ مِن الكِبريتِ الأحمرِ، فلينظُر في تحصيلِ ما يجمعُ مُعظمَ الهمِّ، ولا يلتفِتْ إلى سوادِ الهوى وغايةِ المُنى، وقد سلِم.

٤١٧- فَصْلٌ
[منزلةُ الحياء]

إذا تمَّ عِلمُ الإنسانِ لم يَرَ لنفسِه عملًا، وإنّما يرى إنعامَ المُوفِّقِ لذلك العملِ الذي يمنعُ العاقِلَ أن يرى لنفسِهِ عملًا، أو يُعجَبَ به.

بأشياء[(١)]، منها: أنّه وُفِّقَ لذلك العمل: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧]، ومنها: أنّه إذا قِيسَ بالنِّعَمِ لم يَفِ بمِعشارِ عُشيرِها، ومنها: أنّه إذا لُوحِظَتْ عظمةُ المخدومِ احتُقِرَ كُلُّ عملٍ وتعبُّد.

هذا إذا سلِم مِن شائبة، وخلصَ مِن غفلة، فأمّا والغفلاتُ تُحيطُ به فينبغي أن يغلِبَ الحذرُ مِن ردِّه، ويخافَ العِتابَ[(٢)] على التقصيرِ فيه، فيشتغِلُ عن النظرِ إليه.

---

(١) في (ك، ح، د، م، ي): «أشياء».

(٢) في (ك، س، م): «القلب».

وتأمَّـلْ على الفُطنـاءِ أحوالَهُم في ذلك: فالملائكةُ الذيـن ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠] قالوا: «ما عبدناكَ حقَّ عِبادتِكَ»، والخليلُ عليه الصلاة والسلام يقول: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي﴾ [الشعراء: ٨٢]، وما أدلَّ بصبرِه على النار[١]، وتسـليمِه الولدَ إلى الذبح. ورسـولُ الله ﷺ يقول: «ما مِنكُم مَن يُنجِّيـهِ عملُه»، قالـوا: ولا أنت؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمَّدَني الله برحمتِه»[٢]، وأبو بكـرٍ رضـي الله عنه يقـول: «وهل أنا ومالـي إلا لكَ يا رسُـولَ الله؟!»[٣]، وعُمـرُ رضـي الله عنه يقول: «لو أنّ لي طِـلاعَ الأرضِ[٤] لافتَديتُ بها مِن هَولِ ما أمامي، قبل أن[٥] أعلمَ ما الخبر»، وابنُ مسـعُودٍ يقول: «ليتني[٦] إذا مِتُّ لم أُبعَثْ»، وعائشـةُ رضي الله عنها تقول: «ليتني كُنتُ نسـيًا منسيًّا»[٧]، وهذا شأنُ جميعِ العُقلاء، فرضيَ الله عنِ الجميع.

وقـد رُويَ عـن قومٍ مِن صُلحاءِ بني إسـرائيلَ ما يدُلُّ علـى قِلّةِ الأفهامِ لِما شرحتُـه؛ لأنّهم نظـرُوا إلى أعمالِهم، فأدلُّوا بها:

فمنه: حديثُ العابِدِ[٨] الذي تعبَّد خمسَمئة سنةٍ في جزيرة، وأُخرِجَ لهُ كُلَّ

---

(١) يقصد أن سيدنا إبراهيم لم يُدِلَّ ولم يفتخر بصبره على النار.

(٢) في (ك، ح، د): «يتغمدني منه برحمة»، والحديث رواه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه أحمد (٧٤٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) طِلاع الأرض: ما تطلُع عليه الشمس من الأرض. مصابيح الجامع (٧: ٢٨٤).

(٥) سقطت من (ك، ح، س، د)، والحديث رواه البخاري (٣٦٩٢) من حديث المسور بن مخرمة رضي الله عنه.

(٦) سقطت من (ح، ص)، وفي (د): «تمنيت»، والأثر رواه وكيع في الزهد (١٦٣).

(٧) رواه عبد الرزاق في مصنفه (٢١٦٩٢).

(٨) رواه العقيلي في الضعفاء الكبير (٢: ١٤٤)، وفيه سليمان بن هرم، وهو مجهول في الرواية.

ليلةٍ رُمّانة، وسـألَ الله تعالى أن يُميتَهُ في سُـجُودِه، فإذا حُشِـر قيل له[١]: ادخُلِ الجنّـة برحمتـي، قال: بل بعملـي، فيُوزَنُ جميعُ عملِهِ بنِعمـةٍ واحدة، فلا يفي، فيقول: يا ربِّ، برحمتِك.

وكذلـك أهـلُ الغارِ الذين انطبقَتْ عليهم الصخرة، فإنّ[٢] أحدَهم توسَّـل بعمـلٍ كان ينبغـي أن يستحييَ مِـن ذِكـرِه، وهـو أنّه عزمَ علـى الزِّنا، ثُـمّ خافَ العُقُوبة، فتركهُ، فليت شِعري، بماذا يُدِلُّ مَن خافَ أن يُعاقَبَ على شيءٍ فتركَه لخـوفِ العقوبـة؟! إنّمـا لـو كان مُباحًـا فتركَه كان فيـهِ ما فيه، ولو فهِمَ لشـغلَه خجلُ الهَمّةِ عن الإدلال، كما قال يوسـفُ عليه الصلاة والسـلام: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾[٣] [يوسف: ٥٣]، والآخرُ تركَ صِبيانَه يتضاغَون إلى الفجرِ ليسـقيَ أبوَيهِ اللبـن، وفـي ضمنِ هذا البِـرِّ أذًى للأطفال، ولكِنَّ الفهمَ عزيـزٌ[٤]، وكأنّهم لمّا أحسنُوا قال لسانُ الحال: أعطُوهم ما طلبُوا؛ فإنّهم يطلُبون أُجرةَ ما عمِلُوا.

ولولا عِزّةُ الفَهمِ ما تكبَّر مُتكبِّرٌ على جِنسِه، ولكان كُلُّ كامِلٍ خائفًا مُحتقِرًا لعملِه، حذِرًا مِنَ التقصيرِ في شُـكر ما أُنعِمَ عليه، وفهمُ هذا المشـرُوحِ يُنكِّسُ رأسَ الكِبر، ويُوجِبُ مُساكنةَ الذُّلّ، فتأمَّله، فإنّه أصلٌ عظيم.

---

(١) سقطت من (ك، ح، د).

(٢) فـي النسـخ: «قـال»، والتصويب عن غذاء الألباب شـرح منظومـة الآداب للسـفاريني (٢: ١٧٧) يحكيه عن ابن الجوزي. والحديث تقدم في الفصل ٧٠.

(٣) الآية ليست في (ح، ص).

(٤) هاهنا مسـألتان؛ الأولى: أن الثلاثة أصحاب الغار لم يتوسَّـلوا بأعمالهم، وإنما سـألوا الله إن كانت أعمالهـم خالصـة وقُبلت أن يجعـل جزاءهـا الفـرج عنهـم. والثانيـة: أن تـرك الأطفـال يكون له توجيهـات، مـن أحسـنها أنهم كانوا يطلبـون زيادة على سـدّ الرمق. انظر: فتح البـاري (٦: ٥١٠)، وصيد الخاطر (ص٦١٨، هامش ٢)، طبعة ابن خزيمة.

٤١٨- فَصْلٌ
[الخوفُ بعد التوبة]

ينبغي للعاقلِ أن يكُونَ على خوفٍ مِن ذنوبه، وإن تاب منها وبكى عليها، وإنّـي رأيـتُ أكثـرَ الناسِ قد سـكنُوا إلى قَبـولِ التوبة، وكأنّهم قـد قطعُوا على ذلك، وهذا أمرٌ غائب، ثُمّ لو غُفِرت بقيَ الخجلُ مِن فِعلِها.

ويُؤيِّـدُ الخوفَ بعد التوبـة أنّه في «الصحاح»(١): «أنّ الناسَ يأتُون إلى آدمَ عليه السلام، فيقولون: اشفعْ لنا! فيقول: ذنبي، وإلى نوحٍ عليه السلام، فيقول: ذنبي، وإلى إبراهيمَ، وإلى موسـى، وإلى عيسـى صلواتُ الله وسلامُه عليهم»، فهـؤُلاءِ إذا اعتُبِـرت ذُنوبُهم لم يكُن أكثرُها ذُنوبًا حقيقةً، ثُمّ إن كانت فقد تابُوا منها واعتذرُوا، وهم بعدُ على خوفٍ منها.

ثُمّ إنّ الخجلَ بعد قبولِ التوبةِ لا يرتفِع، وما أحسنَ ما قـال الفُضَيلُ بـنُ عياضٍ: «وا سوْءَتاهُ مِنك وإن عفوتَ!»(٢)، فأُفٍّ ـ والله ـ لمُختارِ الذنوبِ ومُؤثِرِ لذّةِ لحظةٍ تُبقي حسرةً لا تزُولُ عن قلبِ المُؤمِن، وإن غُفِر له.

فالحذرَ الحذرَ مِن كُلِّ ما يُوجِبُ خجلًا(٣)، وهذا أمرٌ قلَّ أن ينظُرَ فيهِ تائبٌ وزاهـد؛ لأنّـه يرى أنّ العفوَ قد غمرَ الذنـبَ بالتوبةِ الصادقة، وما ذكرتُه يُوجِبُ دوامَ الحذرِ والخجل.



---

(١) البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤).
(٢) تقدم في الفصل ٢٦٤.
(٣) زاد في (س): «وكدرًا».

٤١٩- فَصْلٌ

[سوءُ الفهم في العلم]

نعوذُ بالله من سوءِ الفَهم، وخُصُوصًا مِن المُتَّسِمِين بالعِلم. روى أحمدُ في «مُسندِه»: أنّه تنازعَ أبو عبدِ الرحمنِ السُّلميُّ وحِبّانُ بنُ عطية، فقال أبو عبدِ الرحمنِ لِحبّانَ: قد علِمتَ ما الذي جَرَّأَ صاحِبَك - يعني عليًّا - قال: ما هو؟ قال: قولُ النبيِّ ﷺ: «لعلَّ الله اطَّلعَ إلى أهلِ بدرٍ فقال: اعملُوا ما شِئتُم، فقد غفرتُ لكم»[١].

وهذا سوءُ فهمٍ مِن أبي عبدِ الرحمنِ حين ظنَّ أنّ عليًّا قاتلَ وقتلَ اعتِمادًا على أنّه قد غُفِر له!

وينبغي أن يعلمَ معنى الحديث، إنما معناه: لتكُن أعمالُكُم المُتقدِّمةُ ما[٢] كانت، فقد غفَرتُ لكُم. فأمّا غُفرانُ ما سيأتي، فلا يتضمَّنُه ذلك، أتُراهُ لو وقعَ مِن أهلِ بدرٍ - وحاشاهُم - الشِّركُ - إذ ليسوا بمُعصومِين - أمَا كانوا يُؤاخَذون به؟! فكذلك المعاصي[٣]، ثُمّ لو قُلنا: إنّه يتضمَّنُ غُفرانَ ما سيأتي، فالمعنى[٤]: أنّ مآلَكُم إلى الغُفران.

ثُمّ دعنا مِن معنى الحديث، كيف يحِلُّ لمُسلِمٍ أن يظُنَّ في أميرِ المُؤمِنين عليٍّ رضي الله عنه أنّه فعلَ ما لا يجُوزُ اعتمادًا على أنّه سيُغفَرُ له؟! حُوشِي مِن هذا، وإنّما قاتلَ بالدليلِ المُضطرِّ له إلى القِتال، فكان على الحقّ، ولا يختلفُ

---

(١) رواه أحمد (٨٢٧)، وفي النُّسخ: «حبان بن عبدِ الله»، والتصويب عن المسند، وفيه: «جرأ صاحبك» مكان «حدا صاحبك».

(٢) سقطت من (ك، س).

(٣) في (ك، س): «العاصي».

(٤) في النسخ: «والمعنى»، والمثبت عن (ط).

العُلماءُ أنّ عليًّا رضي الله عنه لم يُقاتِلْ أحدًا إلا والحقُّ مع عليّ، كيف وقد قال رسولُ الله ﷺ: «اللهمَّ أدِر معهُ الحقَّ كيفما دار»[١]؟! فقد غلِطَ أبو عبدِ الرحمنِ غلطًا قبيحًا، حملَهُ عليهِ[٢] أنّه كان عثمانيًّا.

٤٢٠- فَصْلٌ

[رياء الزهّاد]

تأمَّلتُ على مُتزهّدي زمانِنا أشياءَ تدلُّ على النفاقِ والرياء، وهُم يدَّعُون الإخلاص!

منها: [أنّهم][٣] يَلزَمُون زاوية، فلا يزُورُون صديقًا، ولا يعُودُون مريضًا، ويدَّعُون أنّهم يُريدُون الانقِطاعَ عنِ الناسِ اشتغالًا بالعبادة، وإنّما هي إقامةُ نواميس، ليُشارَ إليهم بالانقِطاع؛ إذ لو مشَوا بين الناسِ زالت هيبتُهم! وما كان الناسُ كذلك، كان رسُولُ الله ﷺ يعودُ المريضَ ويشتري الحاجةَ من السوق، وأبو بكرٍ رضي الله عنه يتَّجِرُ في البَزِّ[٤]، وأبو عبيدةَ بنُ الجرّاحِ رضي الله عنه يحفِرُ القبور، وأبو طلحةَ رضي الله عنه أيضًا[٥]، وابنُ سيرينَ يُغسِّلُ الموتى، وما كان عند القومِ إقامةُ ناموس، وأصحابُنا يَلزَمُون الصمتَ بين الناسِ والتخشُّعَ والتماوُت، وهذا هو النفاق، فقد كان ابنُ سيرينَ يضحكُ بالنهارِ وبين الناس، ويبكي بالليل[٦].

---

(١) رواه الترمذي (٣٧١٤)، فيه المختار بن نافع، وهو منكر الحديث.

(٢) سقطت من (ك، س).

(٣) زيادة من (ط).

(٤) في (ك، ح): «يتَّجر في البرّ»، وفي (س): «يتَّجر بالبُرّ ـ أي الحِنطة ـ».

(٥) أبو طلحة هو زيد بن سهل الأنصاري، وهو الذي كان لَحَدَ القبور في عهد النبي ﷺ. انظر: تلقيح فهوم أهل الأثر لابن الجوزي (ص٥٠٦).

(٦) تقدم في الفصل ٣٦.

وقد رأيتُ مِن المُتزهِّدين مَن يَلزَمُ المسجِدَ ويُصلِّي، فيجتمعُ الناسُ فيُصلُّون بصلاتِه ليلًا ونهارًا، وقد شاع هذا له، فتقوى نفسُه عليهِ بحُبِّ المَحمَدة، والنبيُّ ﷺ قال في صلاةِ التطوُّع: «اجعلُوا هذه في البُيوتِ»[١].

وفي أصحابِنا مَن يُظهِرُ الصومَ الدائم، ويتقوَّتُ بقولِ الناس: فُلانٌ ما يُفطِرُ أصلًا! وهذا الأبلهُ ما يدري أنّه لأجلِ الناسِ يفعلُ ذلك، ولولا هذا كان يُفطِر، والناسُ يَرَونه يومَينِ أو ثلاثة، حتّى يذهبَ عنه ذلك الاسم، ثُمّ يعُودُ إلى الصوم! وقد كان إبراهيمُ بنُ أدهمَ إذا مرضَ يتركُ عنده مِن الطعامِ ما يأكُلُهُ الأصِحّاء.

ورأيتُ في زُهّادِنا مَن يُصلِّي الفجرَ يومَ الجُمُعةِ بالناسِ ويقرأُ المُعوِّذتَين، والمعنى: قد ختَمتُ! فإنّ هذه الأعمالَ[٢] هي صريحةٌ في النفاقِ والرياء.

وفيهم: مَن يأخُذُ الصدقاتِ وهُو غنيّ، ولا يُبالي أخذَ مِن الظَّلَمةِ أو مِن أهلِ الخير، ويمشي إلى الأُمَراءِ يسألُهم، وهُو يدري مِن أين حصلَتْ أموالهم.

فاللهَ اللهَ في إصلاحِ النيّات، فإنّ جُمهُورَ هذه الأعمالِ مردُودة. قال مالِكُ ابنُ دينار: «وقُولُوا لمَن لم يكُن صادِقًا: لا يَتعَنّى!»[٣]. وليعلمِ المُرائي أنّ الذي يقصِدُه يفُوتُه، وهُو إلفاتُ القُلُوبِ إليه، فإنّه متى لم يُخلِصْ حُرِمَ[٤] محبّةَ القُلُوب، ولم يُلتفَتْ إليه، والمُخلِصُ محبُوب، فلو علِمَ المُرائي أنّ قُلُوبَ الذين يُرائيهم بيدِ مَن يعصِيه، لَما فعل.

---

(١) رواه الترمذي (٦٠٤)، وفيه إسحاق بن كعب بن عجرة؛ قال ابن حجر في التقريب (٣٨٠): مجهول.

(٢) زادوا هنا في النسخ عدا (ط) كلمة: «التي»، ولعله تحريف.

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢: ٣٦٠).

(٤) سقطت من (ك، ح، س، ص).

وكم[1] قد رأينا مَن يلبَسُ الصُّوفَ ويُظهِرُ النُّسُكَ لا يُلتفَتُ إليه، وآخَرَ يلبَسُ جيِّدَ الثيابِ ويبتسِم والقُلُوبُ تُحِبُّه. نسألُ الله عز وجل إخلاصًا يُخلِّصنا، ونستعيذُ بهِ مِن رياءٍ يُبطِلُ أعمالَنا، إنّه قادر[2].

٤٢١- فَصْلٌ

[مُراد التكليف]

من الجهلِ أن يخفى على الإنسان مُرادُ التكليف، فإنّه موضُوعٌ على عكسِ الأغراض! فينبغي للعاقلِ أن يأنَسَ بانعِكاسِ الأغراض، فإن دعا وسألَ بلوغَ غرضٍ تعبَّدَ بالدعاء، فإن أُعطِيَ مُرادَه شكر، وإن لم يَنَلْ مُرادَه فلا ينبغي أن يُلِحَّ في الطلب[3]؛ لأنّ الدنيا ليست لبلوغِ الأغراض، وليقُل لنفسِه: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢١٦].

ومِن أعظمِ الجهلِ أن يتمغَّصَ[4] في باطِنِه لانعكاسِ أغراضِه، ورُبّما اعترضَ في الباطِن، ورُبّما قال: حُصُولُ غرضي لا يضُرّ، ودُعائي لم يُستجَب! وهذا كُلُّه دليلٌ على جهلِهِ وقِلّةِ إيمانِه وتسليمِه للحِكمة، ومَن الذي حصلَ له غرضٌ ثُمّ لم يُكدَّر؟!

هذا آدمُ طاب عيشُه في الجنّةِ وأُخرِجَ منها، ونوحٌ سأل في ابنِهِ فلم يُعطَ مُرادَه، والخليلُ يُبتلى بالنار، وإسحاقُ بالذبح[5]، ويعقُوبُ بفقدِ الولد،

---

(١) زاد في (ك، ح، س): «من».   (٢) زاد في (ح): «على ذلك».

(٣) بل الإلحاح في الدعاء مطلوب بلا نكير.

(٤) في (ك، س): «يبغض»، وفي (ح، ص): «يغض»، وتمغَّص من الشيء: تأذّى به.

(٥) هذه مسألة خلافية، والراجح أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام وليس إسحاق. انظر: زاد المعاد (١: ٧١) وما بعدها.

ويُوسُفُ بمُجاهـدةِ الهوى، وأيـوبُ بالبلاء، وداودُ وسـليمانُ بالفتنة، وجميعُ الأنبياءِ على هذا. وما لقيَ نبيُّنا ﷺ مِن الجُوعِ والأذى وكَدَرِ العيش فمعلُوم.

فالدنيا وُضِعت للبلاء، فينبغي للعاقِلِ أن يُوطِّنَ على الصبر، وأن يعلَمَ أنّ ما حصلَ مِن المُرادِ فلُطفٌ، وما لم يحصُلْ فعلى أصلِ الخَلقِ والجِبلّةِ للدُّنيا، كما قيل(١): [الكامل]

طُبِعَتْ على كَدَرٍ وأنتَ تُرِيدُها ... صَفـوًا مِنَ الأقـذاءِ والأكدارِ
ومُكَلِّـفُ الأيّامِ ضِـدَّ طِباعِها ... مُتَطَلِّـبٌ في الماءِ جَـذوةَ نارِ

وههنا تبينُ قُوّةُ الإيمان وضعفُه، فليستعملِ المُؤمِنُ مِن أدويةِ هذا المرضِ التسـليمَ للمالك، والتحكيمَ لحِكمتِه، وليقُل: قد قيل لسـيِّد الكُلّ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، ثُمّ ليُسَلِّ نفسَه بأنّ المنعَ ليس عن بُخل، وإنّما هُو لمصلحةٍ لا يعلمُها، وليُؤجَرَ الصابِرُ عن أغراضِه، وليعلمَ الله الذين سلَّموا ورضُـوا، وأنّ زمـنَ الابتلاءِ مِقدارٌ يسير، والأغراضَ مُدَّخَـرةٌ تُلقى بعد قليل، وكأنّه بالظُّلمةِ قد انجلَت، وبفجرِ الأجرِ قد طلَع.

ومتـى ارتقـى فهمُه إلـى أنّ ما جرى مُرادُ الحقِّ سُـبحانه، اقتضاه إيمانُه أن يُريـدَ مـا يُريـد، ويرضى بما يُقـدِّر؛ إذ لو لم يكُـن كذلك كان خارِجًـا عن رِبقةِ العُبُوديـةِ فـي المعنى. وهذا أصلٌ ينبغي أن يُتأمَّـلَ، ويُعمَلَ عليهِ في كُلِّ غرضٍ انعكس.



(١) لأبي الحسن التهامي في ديوانه (ص١٥٥).

٤٢٢- فَصْلٌ
[مُخالطة العلماء للسلاطين]

رأيتُ خَلقًا من العلماءِ والقُصّاصِ تضيقُ عليهم الدنيا، فيَفزَعون إلى مخالطةِ السلاطينِ لينالوا من أموالِهم! وهم يعلمُون أنّ السلاطينَ لا يكادون يأخذُون الدنيا مِن وجهِها، ولا يُخرِجُونها في حقِّها، فإنّ أكثرَهُم إذا حصلَ له خراجٌ ينبغي أن يُصرَفَ إلى المصالِح، وهَبَهُ لشاعرٍ، ورُبّما كان معهُ جُنديٌّ يصلُحُ أن تكُونَ مُشاهَرتُه[1] عشرةَ دنانير، فأعطاهُ عشرةَ آلافٍ، ورُبّما غزا فأخذَ ما ينبغي أن يُقسَّمَ على الجيشِ فاصطفاه لنفسِه! هذا غيرُ[2] ما يجري مِن الظُّلمِ في المُعاملات.

وأوّلُ ما يجري[3] على ذاك العالِمِ أنّه قد حُرِمَ النفعَ بعِلمِه، وقد رأى بعضُ الصالِحين رجلًا عالِمًا يخرُجُ مِن دارِ يحيى بنِ خالِدٍ البرمكيّ[4]، فقال: «أعوذُ بالله مِن عِلمٍ لا ينفع». لِمَ ترى المُنكراتِ ولا تُنكِر، وتتناولُ مِن طعامِهم الذي لا يكادُ يحصُلُ إلا بظُلم؟! فينطمِسُ قلبُه ويُحرَمُ لذّةَ المُعامَلةِ للحقِّ سُبحانه، ولا يُقدَّرُ له أن يهتديَ بِهِ أحدٌ، بل[5] رُبّما كان فِعلُه هذا سببًا لإضلالِ الناسِ في الاقتِداءِ به!

---

(١) المشاهرة: الراتب الشهري.

(٢) سقطت من (ك، س، م).

(٣) سقط «ما يجري» من (س)، ومن قوله: «الجيش» إلى هنا سقط من (ص).

(٤) هو أبو علي يحيى بن خالد بن برمك وزير المهدي المشهور، تولى تربية الرشيد، فأحسن سياسته وأدّبه، تُوفي سنة ١٩٠هـ. تاريخ الإسلام (٤: ٩٩٩)، والخبر رواه ابن أبي الدنيا في حلية الأولياء (١٠: ٢٢٥).

(٥) زاد في (س): «كان».

فهو يُؤذي نفسَه، ويُؤذي أميرَه؛ لأنّه يقول: «لولا أنّني على صوابٍ ما صَحِبني هذا ولا يُنكِرُ عليّ»، ويُؤذي العوامَّ تارةً بأن يروا أنّ ما فيه الأميرُ صواب، وأنّ الدخُولَ والسُّكُوتَ عن الإنكارِ جائز، ويُحبِّبَ إليهم الدنيا، ولا خيرَ - والله - في سَعةٍ مِن الدنيا ضيَّقَتْ طريقَ الآخِرة.

وأنا أفدِي أقوامًا صابَرُوا عطشَ الدنيا في هَجِيرِ الشهواتِ زمانَ العُمُرِ حتّى رَوَوا يومَ الموتِ مِن شربِ الرِّضا، وبقيَت أذكارُهُم تُروى فتَروِي صدأ القُلُوبِ وتجلُو صداها. هذا الإمامُ أحمدُ[(١)] يحتاج، فيخرُجُ إلى اللَّقاط، ولا يقبَلُ مالَ سُلطان. هذا إبراهيمُ الحربيّ[(٢)] يتغذّى بالبَقل، ويرُدُّ على المُعتضِدِ[(٣)] ألفَ دينار. هذا بشرٌ الحافي[(٤)] يشكو الجوع، فيُقالُ له: يُصنَعُ لك حِساءٌ من دقيق؟ فيقول: أخافُ أن يقولَ لي: هذا الدقيقُ مِن أين لك؟!

بقِيَتْ - والله - أذكارُ القوم، وما كان الصبرُ إلا غفوةَ نوم، ومضَتْ لذّاتُ المُرخِّصِين، وبَلِيَتِ الأبدان، ووهنَ الدين، فالصبرَ الصبرَ يا مَن رُزِق[(٥)]! ولا تغبطنَّ مَن اتَّسعَ له أمرُ الدنيا، فإنّك إذا تأمَّلتَ تِلك السَّعةَ رأيتَها ضِيقًا في بابِ الدين! ولا تُرخِّصْ لنفسِك في تأويل، فعُمرُك في الدنيا قليل. [الخفيف]

وسَواءٌ إذا انقَضى يَومُ كِسرى ... في سُرُورٍ ويَومُ صاحِبِ كِسرَهْ

(١) تقدم في الفصل ٣٠٧.
(٢) ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٠: ٤٢٥).
(٣) في النسخ: «المعتصم»، والتصويب عن المنتظم لابن الجوزي (١٢: ٣٨٤)، وسير أعلام النبلاء (١٣: ٣٦٠).
(٤) ذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة (١: ٤٧٥).
(٥) في (س، ط): «وُفِّق».



ومتى ضجَّتِ النفسُ لقلّةِ الصبر، فاتْلُ عليها أخبارَ الزُّهّاد، فإنّها تَرعَوي وتَستَحِي وتنكَسِرُ إن كانت لها هِمّةٌ أو فيها يقظةٌ، ومَثِّلْه[1] بين ترخُّصِ عليِّ ابنِ المدينيِّ وقبولِه مالَ ابنِ أبي دُؤاد[2]، وصبرِ أحمدَ، وكم بين الرجُلَين والذِّكرَين، وانظُر قدرَ ما يُروى عن كُلٍّ واحِدٍ منهما وما يُذكَرانِ به، وسيندمُ ابنُ المديني إذا قال أحمد: سَلِمَ ديني.

٤٢٣- فَصْلٌ

[أكثرُ الناس على غير الجادّة]

تأمَّلتُ أحوالَ الناس، فرأيتُ جمهُورَهُم مُنسلًّا من رِبقةِ العبُودية، فإن تعبَّدُوا فعادةٌ، أو فيما لا يُنافي أغراضَهم مُنافاةً تُؤذي القُلُوب، فأكثرُ السلاطين يُحصِّلون الأموالَ مِن وُجوهٍ رديّة، ويُنفِقُونها في وجُوهٍ لا تصلُح، وكأنّهم قد تملَّكُوها، وليست مالَ الله! الذي إذا غزا أحدُهم، فغَنِمَ الأموال، اصطفاها لنفسِه، وأعطاها أصحابَه كيف اشتهى!

والعُلماءُ - لقوّةِ فقرِهم وشِدّةِ شَرَهِهم - يُوافقون الأُمراء، وينخرِطُون في سِلكِهم، والتجارُ على العُقُودِ الفاسِدة، والعوامُّ في المعاصي والإهمالِ لجانبِ الشريعة، فإن فاتَ بعضُ أغراضِهم فرُبّما قالوا: ما نُريدُ نُصلِّي! لا صلّى الله عليهم، وقد منعُوا الزكاة، وتركُوا الأمرَ بالمعرُوف! فمِن الناسِ مَن يغُرُّه تأخيرُ العُقُوبة، ومنهم مَن كان يقطعُ بالعفو، وأكثرُهم مُتزلزِلُ الإيمان، فنسألُ الله أن يُميتَنا مُسلِمين[3].

---

(١) في (ط): «ومثِّل لها».

(٢) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (٦: ٥٣٤).

(٣) زاد في (ح): «آمين».

٤٢٤- فَصْلٌ

[نعمةُ المال]

من العجيبِ سلامةُ دينِ ذي العيالِ إذا ضاق به الكسب، فما مَثَلُه إلا كمَثَلِ الماء، إذا ضُرِب في وجهِهِ سِكرٌ فإنّه يعملُ باطنًا، ويُبالغُ حتّى يفتحَ فتحةً، فكذلك صاحِبُ العيال، إذا ضاق به الأمرُ لا يزالُ يحتال، فإذا لم يقدِرْ على الحلالِ ترخَّصَ في تناوُلِ الشُّبُهات، فإن ضعُفَ دينُهُ مَدَّ يدَهُ إلى الحرام.

فالمُؤمِنُ الموفَّقُ إذا علِمَ ضعفَه عن الكسب، اجتَهد في التعفُّفِ عنِ النكاح، وتقليلِ النفقةِ إذا حصَّل الأولاد، والقناعةِ باليسير، فأمّا مَن ليس لهُ كسبٌ ـ كالعُلماء والمُتزهِّدين ـ فسلامتُهم ظريفة؛ إذ قد انقطعَت موادُّ السلاطينِ ومُراعاةُ العوامِّ، فإذا كثُرت عائلتُهم لم يُؤمَنْ عليهم شرٌّ مما يجري على الجُهّال.

فمَن قدرَ منهم على كسبٍ بالنَّسخ وغيرِه، فليجتهدْ فيه، مع تقليلِ النفقة، والقناعةِ باليسير، فإنّه مَن ترخَّصَ منهم اليومَ أكلَ الحرام؛ لأنّه يأخُذُ مِن الظَّلَمة، خصوصًا إن أخذَ بحُجّةِ التنمُّسِ[1] والتزهُّد، ومَن كان له منهم مال، فليجتَهِدْ في تنميتِه وحفظِه، فما بقيَ مَن يُؤثِرُ ولا مَن يُقرِض، وقد صار الجُمهُورُ ـ بل الكُلُّ ـ كأنّهم يعبُدون المال، فمَن حفِظهُ حفِظَ دينَه، ولا يلتفِتُ إلى قولِ الجهلةِ الذين يأمُرُون بإخراجِ المال، فما هذا وقتَه.

واعلم أنّه إذا لم يَجتمعِ الهمُّ لم يحصُلِ العِلمُ ولا العملُ ولا التشاغُل بالفكرِ في عظمةِ الله، وقد كان همُّ القُدماءِ يجتمعُ بأشياءَ جُمهُورُها: أنّه كان لهُم

(١) التنمُّس: مأخوذ من الناموس، يحتال به الرجل.

من بيتِ المالِ نصيبٌ في كُلِّ عام، وكان يصِلُهم فيفضُلُ عنهم. وفيهم: مَن كان له مالٌ يتَّجرُ بهِ كسعيدِ بنِ المسيِّبِ وسُفيانَ وابنِ المُبارك، وكان همُّه مُجتمِعًا.

فقال سفيانُ في الدِّيانة: «لولاكَ لتمَندَلُوا بي»[١]، وفُقِدَت بِضاعةٌ لابنِ المُبارك، فبكى وقال: «هُو قِوامُ ديني»[٢]، فكان جماعةٌ يسكُنون إلى عطاءِ الإخوانِ الذين لا يمنُّون، وكان ابنُ المُباركِ يبعثُ إلى الفُضَيلِ وغيرِه، وكان الليثُ بنُ سعدٍ[٣] يتفقَّدُ الأكابر، فبعثَ إلى مالكٍ ألفَ دينار، وإلى ابنِ لَهِيعةَ ألفَ دينار، وأعطى منصُورَ بنَ عمّارٍ ألفَ دينارٍ وجاريةً بثلاثِمئةِ دينار.

وما زال الزمانُ على هذا، إلى أن آلَ الأمرُ إلى انمِحاقِ ذلك، فقلَّت عطايا السلاطين، وقلَّ مَن يُؤثِرُ مِن الإخوان، إلا أنّه كان في ذلك القليلِ ما يدفعُ الزمان. فأمّا زمانُنا هذا، فقد انقبضَتِ الأيدي كُلُّها، حتّى قلَّ مَن يُخرِجُ الزكاةَ الواجِبة، فكيف يجتمعُ همُّ مَن يُريدُ مِن العُلماءِ والزُّهّادِ أن يُعمِلَ همَّه ليلًا ونهارًا في وُجُوهِ الكسب، وليس مِن شأنِه، ولا يهتدي له؟!

فقد رأينا الأمرَ أخرجَ إلى التعرُّضِ بالسلاطين، والترخُّصِ في أخذِ ما لا يصلُح، وأخرجَ المُتزهِّدين إلى التصنُّعِ لتحصيلِ الدنيا.

فالله يا مَن يُريدُ حِفظَ دينه! قد كرَّرتُ عليك الوصيةَ بقليلِ جهدِك[٤]، وخفِّفِ العلائقَ مهما أمكنَك، واحتفِظْ بدرهمٍ يكُونُ معك، فإنّه دِينُك، وافهَم ما قد شرَحتُه.

---

(١) تقدم في الفصل ١٤٩.

(٢) رواه ابن حبان في روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (ص٢٢٥).

(٣) ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء (٧: ٢١٣).

(٤) في (ط): «بالتقليل جُهدَك».

فإن ضجَّتِ النفسُ لمُراداتِها، فقُل لها: إن كان عندكِ إيمانٌ فاصبري، وإن أردتِ التحصيلَ لما يَفنى ببذلِ الدين، فما نفعُكِ؟ فتفكَّري في العُلماءِ الذين جمعُوا مِن غيرِ وجهِه، وفي المُنمِّسين؛ ذهبَ دينُهم، وزالت دُنياهُم، وتفكَّري في العُلماءِ الصادقِين ـ كأحمدَ وبِشرٍ ـ اندفعتِ الأيّام، وبقيَ لهُم حُسنُ الذِّكر.

وفي الجُملة: ﴿مَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا * وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، ورزقُ الله تعالى تارةً بإيقادِ الصبرِ على البلاء، والأيّامُ تندفِع، وعاقِبةُ الصبرِ الجميلِ جميلةٌ.

٤٢٥ـ فَصْلٌ

[الصبرُ على الزوجة]

شكا رجلٌ من بُغضِه لزوجتِه، وقال: ما أقدِرُ على فِراقِها لأمور، منها: كثرةُ دَينِها عليّ، وصبري قليل، ولا أكادُ أسلَمُ مِن فلتاتِ لساني في الشكوى، وفي كلِماتٍ تعلَمُ بُغضي لها.

فقُلتُ له: هذا لا ينفع، وإنّما تُؤتى البيوتُ مِن أبوابِها، فينبغي أن تخلوَ بنفسِك، فتعلَمَ أنّها إنّما سُلِّطتْ عليك بذنوبِك، فتُبالِغَ في الاعتذارِ والتوبة. فأمّا التضجُّرُ والأذى لها، فما ينفعُ كما قال الحسنُ: «إنّ الحَجّاجَ عُقُوبةٌ مِن الله لكُم، فلا تُقابِلُوا عقُوبتَهُ بالسيف، وقابِلُوها بالاستغفار»[1].

واعلم أنّكَ في مقام مُبتلًى، ولك أجرٌ بالصبر: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢١٦]، فعامِلِ الله سُبحانه بالصبرِ على ما قضى، وسَلْهُ

---

(١) ذكره محمد بن سعد في الطبقات الكبير (٩: ١٦٥).

الفـرج. فـإذا جمعتَ بين الاسـتغفارِ وبين التوبـة مِن[1] الذنُـوبِ والصبرِ على القضاءِ وسؤالِ الفرجِ، حصلَت ثلاثةُ فنونٍ مِن العِبادة، تُثابُ على كُلٍّ منها.

ولا تُضيّـعِ الزمـانَ في شـيءٍ لا ينفـع، ولا تَحتَـلْ ظانًّا منك أنّـك تدفعُ ما قُدِّر: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ﴾ [الأنعام: ١٧]. وقد رُوينا أنّ جُنديًّا نزلَ يومًا[2] في دارِ أبي يزيد، فجاء أبو يزيدَ[3] فرآه، فوقفَ وقال لبعضِ أصحابِـه: ادخُـلْ إلـى المكانِ الفُلانيّ، فاقلـعِ الطينَ الطريّ، فإنّـه مِن وجهٍ فيهِ شُبهة، فقلعَه، فخرجَ الجُندي.

وأمّا أذاكَ للمرأةِ فلا وجهَ له؛ لأنّها مُسـلَّطة، فليكنْ شـغلُكَ بغيرِ هذا. وقد رُوِيَ عن بعضِ السلفِ أنّ رجلًا شتمَه، فوضعَ خدَّه على الأرضِ وقال: اللهمّ اغفِر لي الذنبَ الذي سلَّطتَ هذا به عليّ.

قال الرجل: وهذه المرأةُ تُحِبُّني زائدًا في الحدِّ، وتُبالغُ في خِدمتي، غيرَ أنّ البُغضَ لها مركُوزٌ في طباعي.

قلتُ له: فعامِلِ الله سبحانه بالصبرِ عليها، فإنّك تُثاب. وقد قيل لأبي عُثمانَ النيسـابوري: مـا أرجى عملِكَ عندك؟ قال: كُنتُ فـي صبوتي يجتهِدُ أهلي أن أتزوَّج، فآبى، فجاءتني امرأة فقالت: يا أبا عُثمان، إنّي قد هويتُك، وأنا أسألُكَ بـالله أن تتزوَّجَنـي، فأحضرتْ أباها ـ وكان فقيرًا ـ فزوَّجني، وفرحَ بذلك، فلمّا دخلـتْ إلـيّ رأيتُها عوراءَ عرجاءَ مُشـوَّهةً، وكانت ـ لمحبّتِهـا لي ـ تمنعُني مِن الخروج، فأقعُدُ حِفظًا لقلبِها، ولا أُظهِرُ لها مِن البُغضِ شيئًا، وكأنّي على جَمرِ

---

(١) سقط «التوبة من» من (ح، ص، م).

(٢) سقطت من (ك، س، د، م).

(٣) سقط «فجاء أبو يزيد» من (ك، س).

الغَضـى⁽¹⁾ مـن بُغضِها، فبقِيتُ هكذا خمسَ عشـرةَ سـنةً حتّى ماتـت، فما مِن عملي شيءٌ هُو أرجى عندي مِن حِفظي قلبَها⁽²⁾.

قلـتُ له: فهـذا عملُ الرِّجال، وأيَّ شـيءٍ ينفعُ ضجيـجُ المُبتلى بالتضجُّرِ بإظهارِ البغض؟! وإنّما طريقُه ما ذكرتُه لك مِن التوبةِ والصبرِ وسـؤالِ الفرج، ويذكـرُ ذنوبًـا كانـت هـذه عُقوبتَها، وبالِـغ، فإن وقعَ فـرجٌ في الحِسـاب، وإلا فاسـتِعمالُ الصبـرِ على القضاءِ عِبادة، وتكلُّفْ إظهـارَ المودّةِ لها، وإن لم يكُن في قلبِك ثَبَتٌ⁽³⁾ على هذا، وليسَ للقيدِ ذنبٌ فيُلام، إنّما ينبغي التشاغُلُ مع مَن قيَّدَه به، والسلام.

٤٢٦- فَصْلٌ

[قمعُ النفس والإياسُ من الناس]

لا ريـبَ أنّ القلبَ المُؤمِنَ بالإلهِ سُـبحانه وبأوامـرِه يحتاجُ إلى الانعِكافِ على ذِكرِه وطاعتِه وامتثالِ أوامرِه، وهذا يفتقرُ إلى جمعِ الهمِّ، وكفى بما وُضِع في الطبعِ مِن المُنازعةِ إلى الشهواتِ مُشتِّتًا للهمِّ المُجتمِع. فينبغي للإنسانِ أن يجتهِـدَ في جمعِ همِّه، لينفرِدَ همُّه بذِكرِ الله سـبحانه وتعالـى وأوامِرِه، والتهيُّؤ للقائه، وذلك إنّما يحصُلُ بقطعِ القواطع، والامتناعِ مِنِ الشـواغِل، وما يُمكِنُ قطعُ القواطِعِ جُملةً، فينبغي أن يقطعَ⁽⁴⁾ ما يُمكِن. وما رأيتُ مُشتِّتًا للهمّ، مُبدِّدًا للقلب، مِثلَ شيئين:

---

(١) الغَضى: شجر يُستعمَل في صناعة الأثاث وغيره، وجمره يبقى زمانًا طويلًا لا ينطفئ.

(٢) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (١٠: ١٤٦).

(٣) في (ط): «تثبُّتٌ».

(٤) من قوله: «والامتناع» إلى هنا سقط من (ص).

أحدهما: أن تُطاعَ النفسُ في طلب كُلِّ شيءٍ تشتهي، وذلك لا يقفُ على حدٍّ، فيذهبُ الدينُ والدنيا، ولا يُنالُ كُلُّ المُراد، مِثلَ أن تكُونَ الهِمّةُ في المُستحسَنات، أو في جمعِ المالِ، أو في طلبِ الرياسة، وما يُشبِهُ هذه الأشياء! فيا له مِن شتاتٍ لا جامِعَ له، يذهبُ العُمرُ ولا يُنالُ بعضُ المُراد!

والثاني: مُخالطةُ الناسِ خُصوصًا العوامَّ، والمشيُ في الأسواق، فإنّ الطبعَ يتقاضى بالشهوات، وينسى الرحيلَ عنِ الدنيا، ويحبُّ الكسلَ عنِ الطاعة، والبطالةَ، والغفلةَ، والراحةَ، فيثقُلُ على مَن ألِفَ مُخالطةَ الناسِ التشاغُلُ بالعِلمِ أو بالعبادة، ولا يزالُ مُخالِطَهم حتّى تهُونَ عليه الغِيبة، وتضيعَ الساعاتُ في غيرِ شيء.

فمَن أراد اجتماعَ همِّه فعليهِ بالعُزلةِ بحيثُ لا يسمعُ صوتَ أحد، فحينئذٍ يخلُو القلبُ بمعارفِه، ولا تجدُ النفسُ رفيقًا مِثلَ الهوى يُذكِّرُها ما تشتهي، فإذا اضطُرَّ إلى المُخالَطة، كان على وِفازٍ[1] كما يتهوّى الضِّفدعُ لحظة، ثُمّ يعودُ إلى الماء، فهذه طريقُ السلامة، فتأمَّلْ فوائدَها تطِيبُ لك.

٤٢٧- فَصْلٌ
[حُكم سبِّ الدهر]

ما رأتْ عَينِي مُصيبةً نزلَت بالخَلقِ أعظمَ مِن سبِّهم للزمانِ وعيبِهم للدهر، وقد كان هذا في الجاهِلية، ونهى رسُولُ الله ﷺ عن ذلك، فقال: «لا تسبُّوا الدهرَ، فإنّ الله هُو الدهر»[2]، ومعناه: أنتُم تسبُّون مَن فرَّقَ شملَكُم، وأماتَ

(١) الوِفاز: العَجَلة.
(٢) البخاري (٦١٨١)، ومسلم (٢٢٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أهالِيَكُم، وتنسِبُونه إلى الدهر، والله تعالى هُو الفاعِلُ لذلك.

فتعجَّبتُ، كيف أُعلِمَ أهلُ الأسقام بهذه الحال؟ وهُم على ما كان أهلُ الجاهِليةِ عليهِ ما يتغيَّرون، حتّى رُبّما اجتمعَ الفُطناءُ الأدباءُ الظِّرافُ على زعمِهم، فلم يكُن لهُم شُغلٌ إلا ذمَّ الدهر، ورُبّما جعلُوا الله الدنيا، ويقولُون: فعَلَتْ وصنَعَتْ! حتّى رأيتُ لأبي القاسِمِ الحريريّ يقول(١): [الطويل]

ولَمّا تَعامَى الدَّهرُ وهْوَ أبو الوَرى ... عَنِ الرُّشدِ في أنحائهِ ومَقاصِدِهْ
تَعامَيتُ حَتّى قيلَ: إنّي أخو عَمًى ... ولا غَروَ أن يَحذُوَ الفَتَى حَذوَ والِدِهْ

وقد رأيتُ خَلقًا يعتقدُون أنّهم فُقهاءُ وفُهماء، ولا يتحاشَون مِن هذا، وهؤُلاءِ إنما أرادُوا بالدهرِ مُرورَ الزمان، فذاكَ لا اختيارَ له ولا مُراد، ولا يعرِفُ رُشدًا مِن ضلال، ولا ينبغي أن يُلام، فإنّه زمانٌ مُدبَّرٌ لا مُدبِّر، فيُتصرَّفُ فيه ولا يتصرَّف، وما يُظَنُّ بعاقِلٍ أنّه يُشيرَ إلى أنّ المذمُومَ المُعرِضَ عنِ الرُّشدِ السيِّئَ الحُكمِ، هُو الزمان!

فلم يَبقَ إلا أنّ القومَ خرجُوا عن رِبقةِ الإسلام(٢)، ونسبُوا هذه القبائحَ إلى الصانع، فاعتقدُوا فيهِ قُصورَ الحِكمةِ وفِعلَ ما لا يصلُحُ عمّا اعتقَده إبليسُ في(٣) تفضيلِ آدم! وهؤُلاءِ لا ينفعُهم - مع هذا - اعتِقادُ إسلام، ولا فِعلُ صلاة، بل هُم شرٌّ مِن الكُفّار، لا أصلحَ لهُم شأنًا، ولا هداهُم إلى رشاد.



---

(١) هو أبو القاسم عبد الله بن القاسم بن علي الحريري، ابن الإمام الحريري صاحب المقامات. معجم الأدباء (٤: ١٥٤٤)، والبيتان في مقامات الحريري (ص٧٥).

(٢) زاد في (ح): «والإيمان».

(٣) زاد في (س): «عدم».

٤٢٨- فَصْلٌ
[العُمر فرصة]

مِن عجائبِ ما أرى مِن نفسي ومِن الخلقِ كُلِّهم: الميلُ إلى الغفلةِ عمّا في أيدينا، مع العِلمِ بقِصَرِ العُمر، وأنّ زيادةَ الثوابِ هناك(١) بقدرِ العملِ ههُنا. فيا قصيرَ العُمر، اغتَنِم يومِي مِنّي، وانتظِر ساعةَ النَّفْر، وإيّاك أن تشغلَ قلبَكَ بغيرِ ما خُلِقَ له، واحمِل نفسَكَ على المُرّ، واقمَعْها إذا أبتْ، ولا تبرحْ لها في الطِّوَل(٢)، فما أنتَ إلا(٣) في مرعًى، وقبيحٌ بمَن كان بين الصَّفَّينِ أن يتشاغلَ(٤) بغيرِ ما هو فيه.

٤٢٩- فَصْلٌ
[الكتمانُ منجاة]

قد كرَّرتُ هذا المعنى في هذا الكتاب، وهو الأمرُ بحفظِ السرِّ والحذرُ من الانبساطِ فيما لا يصلُحُ بين يدَيِ الناس، فرُبَّ مُنبسطٍ بين يدَي مَن يظنُّه صديقًا يقُولُ في صديق أو في سُلطانٍ: إنّه لا يُتَّهمُ في ذلك، فيكُونُ سببَ هلاكِ ذاك. فأنا أُوصِي سليمَ الصدرِ الذي يظنُّ في الناسِ الخيرَ أن يحترزَ مِن الناس، وألا يقُولَ في الخَلقِ كلمةً لا تصلُحُ للخلق، ولا يغترَّ بمَن يُظهِرُ الصداقةَ أو التديُّن، فقد عمَّ الخَبَث.



---

(١) في (ح، ص): «يلقاك».
(٢) الطِّوَل: الحبل الذي تُشَدُّ به الدابة.
(٣) سقطت من (ك، ح، س، م).
(٤) في (ك، ح، س، د): «الصفَّين إذا تشاغل»، ويقصد بالصفَّين صفَّي المعركة.

٤٣٠- فصل

[التسبيحُ والاستغفارُ على الحقيقة]

تأمَّلتُ على أكثرِ الناسِ عبادتَهم، فإذا هي عادات، فأمّا أربابُ اليقظة، فعادتُهم عِبادةٌ حقيقية. فإنّ الغافِلَ يقول: «سُبحان الله» عادةً، والمُتيقِّظَ لا يزالُ فِكرُه في عجائبِ المخلوقات، أو في عظمةِ الخالِق، فيحرِّكُه الفكرُ في ذلك، فيقول: «سُبحان الله!».

ولو أنّ إنسانًا تفكَّر في رُمّانةٍ، فنظر في تصفيفِ حَبِّها، وحِفظِه بالأغشيةِ لئلّا يتضاءل، وإقامةِ الماءِ على عَظْمِ العَجَم[1]، وجعلِ الغِشاءِ عليهِ يحفظُه، وتصويرِ الفرخِ في باطنِ البيضة، والآدميِّ في حشا الأُمّ، إلى غيرِ ذلك مِن المخلوقات؛ أزعجَه هذا الفكرُ إلى تعظيمِ الخالِق، فقال: سُبحانَ الله! وكان هذا التسبيحُ ثمرةَ الفكرِ، فهذا تسبيحُ المُتيقِّظين، وما تزالُ أفكارُهم تجُول، فتقعُ عِباداتُهم بالتسبيحاتِ مُحقَّقة.

وكذلك يتفكَّرُون في قبائحِ ذُنوبٍ قد تقدَّمت، فيُوجِبُ ذلك الفكرُ حياءً للباطنِ وقلقَ القلبِ وندمَ النفس، فيُثمرُ ذلك أن يقولَ قائلُهم: أستغفِرُ الله.

فهذا هو التسبيحُ والاستغفار، فأمّا الغافِلُون فيقولون ذلك عادةً، وشتّانَ ما بين الفريقَين.



---

(١) العَجَم: نَوَى كلّ شيء كالزَّبيب والرُّمّان والبَلَح.

٤٣١- فَصْلٌ
[راحة العُزلة]

لا يصفُو التعبُّدُ والتزهُّدُ والاشتغالُ بالآخرةِ إلا بالانقطاعِ الكُلّيِّ عن الخَلق، بحيثُ لا يُبصِرُهم، ولا يسمعُ كلامَهم إلا في وقتِ ضرورة، كصلاةِ جُمُعةٍ أو جماعة، ويحترزُ في تلك الساعاتِ منهم. وإن كان عالِمًا يُريدُ نفعَهم، وعَدَهُم وقتًا معرُوفًا، واحترزَ في الكلامِ معهم[١].

وأمّا مَن يمشي في الأسواق اليوم، ويبيعُ ويشتري مع هذا العالَمِ المُظلِم، ويرى المُنكَراتِ والمُستحسَنات، فما يعُودُ إلى البيتِ إلا وقد أظلمَ القلب، فلا ينبغي للمريدِ أن يكُونَ خُروجُهُ إلا إلى الصحراءِ والمقابر.

وقد كان جماعةٌ مِن السلفِ يبيعُون ويشترُون ويحترزُون، ومع هذا فما صفا لصافيهم وقتٌ[٢] حتى قاطعَ الخَلق. قال أبو الدَّرداء: «زاولتُ العِبادةَ والتجارةَ، فلم يجتمعا، فاخترتُ العِبادة»[٣]، وقد جاء في الحديث: «الأسواقُ تُلهِي وتُلغِي»[٤]. فمَن قدرَ على الحِميَةِ النافِعة، واضطُرَّ إلى المُخالطةِ والكسبِ للعائلة، فليحترِزِ احترازَ الماشي في الشَّوك، وبعيدٌ سلامتُه.



(١) سقطت من (ك، ح، س).

(٢) في (ك، ح، د): «وقته».

(٣) ذكره أبو نعيم في حلية الأولياء (١: ٢٠٩) بمعناه.

(٤) رواه أحمد في الزهد (٧٢١) عن أبي الدرداء رضي الله عنه من قوله.

٤٣٢- فَصْلٌ
[الورعُ عن الشبهات]

مَـن رُزِقَ قلبًـا طيِّبًـا، ولـذّةَ مُناجاة، فليُـراعِ حالَه، وليحتـرز[١] مِن التغيير، وإنّمـا تدُومُ لـه حالُه بدوام التقوى، وكُنتُ قد رُزِقتُ قلبًا طيِّبًا، ومُناجاةَ خَلوة، فأحضرنـي بعـضُ أربـابِ المناصِـب إلى طعامِه، فمـا أمكن خِلافُـه، فتناولتُ وأكلـتُ مِنـه، فلقيـتُ الشـدائدَ، ورأيـتُ العُقُوبةَ في الحـال، واسـتمرَّت مُدّةً، وغضِبتُ على قلبي، وفقدتُ كُلَّ ما كنتُ أجده.

فقلـتُ: وا عجبًا! كُنتُ فـي هذا كالمُكرَه، فتفكَّرتُ، وإذا به قد كان يُمكِنُ مُـداراةُ الأمـرِ بلُقيمـاتٍ يسيرة، وإنّمـا التأويـلُ تنـاوُلٌ بشـهوةٍ أكثرَ مِمّـا يُدفَعُ بالمُداراة.

وقـال: ومِـن أين لـي أنّ عينَ هذا حـرامٌ؟ فقالتِ اليقظة: وأيـن الورعُ عنِ الشُّبُهات؟ وإن تنـاول بالتأويـل لقمةً اسـتجلبتُها بالطبع، فلقد لقيـتُ الأمرَّين بفقدِ القلب، فاعتبِرُوا يا أُولي الأبصار!

٤٣٣- فَصْلٌ
[المؤمن مُعلَّق بالآخرة]

همّـةُ المؤمـنِ متعلّقةٌ بالآخرة، فكُلُّ ما في الدنيا يُحرِّكُـهُ إلى ذِكرِ الآخِرة، وكُلُّ مَن شـغلهُ شـيء، فهمُّه شُـغلُه. ألا ترى أنّه لو دخلَ أربابُ صنائعَ إلى دارٍ معمورة، رأيتَ البزّازَ ينظُرُ إلى الفُرُش، ويحزِرُ قيمتَه، والنجّارَ إلى السقفِ[٢]،

(١) في (ك، ح، س): «وليحذر».
(٢) زاد في (س): «والأبواب».

والبنّاءَ إلى الحيطان، والحائكَ إلى نسج الثياب؟! والمُؤمِنُ[١] إن رأى ظُلمةً ذكرَ ظُلمةَ القبر، وإن رأى مُؤلِمًا ذكر العِقاب، وإن سمعَ صوتًا فظيعًا ذكرَ نفخةَ الصُّور، وإن رأى الناسَ نيامًا ذكرَ الموتى في القُبُور، وإن وجد لذّةً ذكرَ الجنّة، فهِمّتُه مُتعلّقةٌ بما ثَمّ، وذلك يشغلُه عن كُلِّ مأثم.

وأعظـمُ مـا عندهُ أنّه يتخايَلُ دوامَ البقـاءِ في الجنّة، وأنّ بقاءَه لا ينقطِعُ ولا يزال، ولا يعتريه نغصة، فيكادُ إذا تخايَلَ نفسَـه مُتقلّبًا في تِلك اللذّاتِ الدائمةِ التي لا تفنى، يطيشُ فرحًا، ويسـهُلُ عليهِ ما في الطريقِ إليها مِن ألمٍ، ومرضٍ، وابتلاءٍ، وفقدِ محبوب، وهجومِ الموت، ومُعالجةِ غُصَصِه.

فإنّ المُشتاقَ إلى الكعبةِ يهونُ عليهِ رملُ زرُودٍ، والتائقَ إلى العافيةِ لا يُبالي بمـرارةِ الـدواء، ويعلَمُ أنّ جودةَ الثمرِ ثَمّ[٢] على مِقـدارِ جودةِ البذرِ ههُنا، فهُو يتخيَّرُ الأجود، ويغتنمُ الزرعَ في تِشرينِ العُمرِ مِن غيرِ فُتور. ثُمّ يتخايَلُ المُؤمِنُ دُخُولَ النارِ والعُقُوبة، فيتنغَّصُ عيشُـه، ويقوى قلقُه، فعنده بالحالَين شُغلٌ عنِ الدنيا وما فيها، فقلبُه هائمٌ في بَيداءِ الشوقِ تارةً، وفي صحراء الخوفِ أُخرى، فما يرى البُنيان.

فـإذا نازلَه الموتُ قوِيَ ظنُّه بالسـلامة، ورجا لنفسِـهِ النجـاة، فيهونُ عليه، فـإذا نزلَ إلى القبر، وجاءهُ الملائكةُ يسـألُونه، قـال بعضُهم لبعض: دعُوه، فما اسـتراحَ إلا الساعة. نسـألُ الله عز وجل يقظةً تامّةً تُحرِّكُنا إلى طلبِ الفضائل، وتمنعُنا من اختيار الرذائل، فإنّه إن وَفَّقَ، وإلا فلا نافع.

---

(١) في (س): «والمؤمن الزاهد».

(٢) سقطت من (س، م).

٤٣٤- فَصْلٌ
[علاماتُ الاصطفاء]

لقد اعتبرتُ على مولاي سبحانه وتعالى أمرًا عجيبًا، وهو أنّه تعالى لا يختارُ لمحبّتِه والقُربِ منه إلا الكاملَ صُورةً ومعنًى، ولستُ أعني حُسنَ التخاطيط، وإنّما كمالُ الصُّورةِ اعتدالُها، والمُعتدِلةُ ما تخلو من حُسن، فيتبعُها حُسنُ الصُّورةِ الباطِنة، وهو كمالُ الأخلاق، وزوالُ الأكدار، ولا يرى في باطِنِه خبثًا ولا كدرًا، بل قد حسُنَ باطنُه كما حسُن ظاهِرُه.

وقد كان مُوسى عليه السلام كُلُّ مَن رآهُ يُحِبُّه(١)، وكان نبيُّنا ﷺ كالقمرِ ليلةَ البدرِ(٢). وقد يكُونُ الوليُّ أسودَ اللون، لكِنّهُ حسنُ الصُّورةِ لطيفُ المعاني. فعلى قدرِ ما عندَ الإنسانِ مِنَ التمامِ في كمالِ الخِلقةِ والخُلُقِ يكُونُ عملُه، ويكُونُ تقريبُه إلى الحضرةِ بحسبِ ذلك، فمنهم كالخادِمِ على الباب، ومنهم حاجِب، ومنهم مُقرَّب، ويندرُ مَن يتمُّ له الكمال، ولعله لا يوجدُ في مئة سنة منهم غيرُ واحِد.

وهذه حِكايةٌ ما تحصُلُ بالاجتهاد، بل الاجتهادُ يحصلُ منها؛ لأنّه إذا وقع تمامٌ حثَّ على الجِدّ على قدر نُقصانِه، وهذا لا حيلةَ في أصلِه، إنّما هُو جِبلّة، وإذا أرادك لأمرٍ هيَّأك له.



(١) بمعناه رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٤٠٠٨).

(٢) بمعناه رواه البخاري (٣٥٥٢) عن البراء بن عازب رضي الله عنه.

٤٣٥- فَصْلٌ
[الردُّ على من يعترضُ على حِكمة الخالق]

تأمَّلتُ على قومٍ يدَّعُون العُقُولَ ويعترِضُون[١] على حِكمةِ الخالِق! فينبغي أن يُقال لهم: هذا الفهمُ الذي دلَّكُم على ردِّ حِكمتِه، أليس هو مَن منحه؟! أفأعطاكُم الكمالَ ورضيَ لنفسِه بالنقص؟! هذا الكُفرُ المحضُ الذي يزيدُ في القُبحِ على الجحد.

فأوّلُ القوم: إبليس، فإنّه رأى بعقلِه أنّ جوهرَ النارِ أشرفُ مِن جوهرِ الطين، فردَّ حِكمةَ الخالِق! ومرَّ على هذا خلقٌ كثيرٌ مِن المُعترِضين، مثلَ ابنِ الراوَندِيّ والبصريّ[٢].

وهذا المَعَرِّيُّ اللَّعِينُ يقول: كيف يُعابُ ابنُ الحجّاج[٣] بالسُّخَفِ والدهرُ أقبحُ فِعلًا منه؟! أترى يعني به الزمان؟! كلّا فإن مَمَرَّ الأوقاتِ لا يفعلُ شيئًا، وإنّما هو تسفيفٌ[٤]، وكان يستعجِلُ الموتَ ظنًّا مِنه أنّه يستريح، وكان يُوصي بتركِ النكاحِ والنُّسُك، ولا يرى في الإيجادِ حِكمةً إلا العناءَ والتعب! ومصيرُ الأبدانِ إلى البِلى.

وهذا لو كان كما ظنَّ كان الإيجادُ عبثًا، والحقُّ مُنزَّهٌ عن العبث، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ﴾ [ص: ٢٧]. فإذا كان ما

---

(١) في (ك، س، د، م): «يعترضون» بلا واو قبلها.

(٢) لعله قصد أبا إسحاق النظّام، وهو أحد أئمة المعتزلة.

(٣) المَعَرِّي هو الشاعر المعروف أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان، صاحب رسالة الغفران، تُوفي سنة ٤٤٩هـ. وابن الحجّاج هو أبو عبد الله الحسين البغدادي، وكان شيعيًّا رقيعًا، ماجنًا مزّاحًا، هجّاءً، أُمّةً وحده في نظم القبائح وخِفّة الروح، تُوفي سنة ٣٩١هـ. سير أعلام النبلاء (١٨: ٢٣)، و(١٧: ٥٩).

(٤) في النسخ: «تسقيف»، وهو تصحيف، والصواب: «تسفيف» من الإسفاف.

خُلِقَ لنا لم يُخلَقْ عبثًا، أفنكونُ نحنُ ـ ونحنُ مَواطِنُ معرِفتِه، ومَحالُّ تكليفه ـ قد وُجِدنا عبثًا؟!

ومِثلُ هـذا الجهلِ إنّما يصدُرُ مِمَّن ينظرُ في قضايا العُقُولِ التي يُحكَمُ بها على الظواهِر، مِثلَ أن يرى مبنيًّا ينقَضُّ والعقلُ بمُجرَّدِه لا يرى ذلك حكمة، ولـو كُشِفَت له حِكمـةُ ذلك لعلِـمَ أنّه صواب، كما كُشِـفَ لمُوسـى ﷺ مُرادُ الخَضِرِ في خرقِ السفينة وقتلِ الغُلام.

ومعلـومٌ أنّ ذبـحَ الحيـوان، وتقطيعَ الرغيـف، ومضغَ الطعـامِ لا يظهَرُ له فائدةٌ سـوى الإطلاق، فإذا عُلِمَ أنّه غذاءٌ لبدنِ مَن هُو أشـرفُ بدنًا مِن المذبوح حسُنَ ذلك الفِعل.

وا عجبًـا! أوَمـا تقضـي العُقُـولُ بوجُوبِ طاعـةِ الحكيمِ الـذي نعجزُ عن معرِفةِ حِكَمِ مخلُوقاتِه؟! فكيف نُعارِضُه في أفعالِه؟! نعُوذُ بالله مِن الخِذلان.

٤٣٦- فَصْلٌ
[أدبياتُ وعظِ السلاطين]

ينبغـي لمَـن وعظَ سُـلطانًا أن يُبالِغَ في التلطُّـف، ولا يُواجِهَه بما يقتضي: «إنّك ظالِمٌ»، فإنّ السلاطينَ حظُّهم التفرُّدُ بالقهرِ والغَلبة، فإذا جرى نوعُ توبيخٍ لهم كان إذلالًا، وهم لا[1] يحتملون[2]، وإنّما ينبغي أن يمزُجَ وعظَهُ بذِكرِ شرفِ الوِلاية، وحُصُولِ الثوابِ في رِعايةِ الرعايا، وذِكرِ سِيَرِ العادِلين مِن أسلافِهم.

ثُـمّ لينظُـرِ الواعِظُ في حالِ الموعُوظِ قبلَ وعظِه: فإن كانت سـيرتُه جميلةً

(١) في (س): «إذلالًا لهم فإنهم لا».
(٢) في (س): «يحتملون ذلك».



ـ كما كان منصورُ بنُ عمّارٍ[١] وغيرُه يعِظُون الرشيدَ وهُو يبكي[٢] ـ وقصدُه الخيرَ، زاد في وعظِهِ ووصيتِه. وإن رآه ظالمًا لا يلتفِتُ إلى الخير، وقد غلبَ عليهِ الجهلُ، اجتهَد في ألا يراهُ ولا يعِظَه؛ لأنّه إن وعظَه خاطرَ بنفسِه، وإن مدحَه كان مُداهِنًا، فإن اضطُرَّ إلى موعِظتِه كانت كالإشارة.

وقد كان أقوامٌ مِن السلاطينِ يَلِينون عند الموعِظة، ويحتملُون الواعظِين، حتّى إنّه قد كان المنصُورُ[٣] يُواجَهُ بـ: «إنّك ظالِم»، فيصبِر.

وقد تغيَّر الزمان، وفسد أكثرُ الوُلاة، وداهنهُم العُلماء، ومَن لا يُداهِنُ لا يجِدُ قبولًا للصواب، فيسكُتُ، وقد كانت الولاياتُ لا يسألُها إلا مَن أحكمتْهُ العُلوم، وثقَّفتهُ التجارِب، فكان أكثرُ الوُلاةِ يتشاورون في الجهل، فتأتي الولايةُ على مَن ليس مِن أهلِها، ومِثلُ هؤُلاء ينبغي الحذرُ منهم والبُعدُ عنهم، فمَنِ ابتُلِيَ بوعظِهم فليكُن على غايةِ التحرُّزِ فيما يقول، ولا ينبغي أن يغترَّ بقولِهم: عِظْنا! فإنّه لو قال كلِمةً لا تُوافِقُ أغراضَهُم ثارت حراراتُهم.

وليحذَرْ مُذكِّرُ السُّلطانِ أن يُعرِّضَ له بأربابِ الولايات، فإنّهُم إذا سمِعُوا بذلك صار الواعِظُ مقصُودًا لهم بالإهلاك، خوفًا مِن أن يعتبرَ السُّلطانُ أحوالَهم، فتفسُدَ أُمورُهم.

والبُعدُ في هذا الزمانِ عنهم أصلح، والسُّكُوتُ عنِ المواعِظِ لهم أسلم، فمَنِ اضطُرَّ تلطَّفَ غايةَ التلطُّف، وجعلَ وعظَهُ للعوامِّ وهم يسمعُون، ولا يُغنيهم منه بشيء، والله الموفِّق.

---

(١) هو منصور بن عمار الخراساني، الواعظ البليغ المشهور، كان عديم النظير في الموعظة والتذكرة، تُوفي في حدود المئتين. سير أعلام النبلاء (٩: ٩٣).

(٢) بمعناه رواه الخطيب في تاريخ بغداد (١٦: ١٣).

(٣) يقصد أبا جعفر المنصور الخليفة العباسي المعروف.

٤٣٧- فَصْلٌ
[أدعياء النبوّة]

الحقُّ لا يشتبهُ بباطل، إنما يُموَّهُ الباطلُ عند مَن لا يفهمُ له، وهذا في حقِّ مَن يدَّعي النبوّات، وفي حقِّ مَن يدَّعي الكرامات.

أمّا النبوّاتُ فإنّه قد ادَّعاها خلقٌ كثيرٌ ظهرَت قبائحُهم، وبانَت فضائحُهم، ومنهم: ما تُوجبُه خِسّةُ الهِمّة والتهتُّكُ في الشهوات، والتهافُتُ في الأقوال والأفعال، حتّى افتُضِحوا. فمنهم: الأسودُ العَنسيُّ، ادَّعى النُّبوَّة، ولقَّبَ نفسَهِ ذا الخمار؛ لأنّه كان يقول: يأتيني ذو الخمارِ، وكان في أوّلِ أمرِه كاهنًا يُشعبِذُ، فيُظهِرُ الأعاجيب، فخرجَ في أواخرِ حياةِ النبيِّ ﷺ، فكاتَبَتْه مَذْحِج، وواعدوا نَجرانَ، وأخرَجُوا عمرَو بنَ حزمٍ وخالِدَ بنَ سعيدٍ، صاحِبَي رسُولِ الله ﷺ، وصفا له اليمن، وقاتلَ شهرَ بنَ باذامَ، فقتلَه وتزوَّج بنتَه، فأعانت على قتلِه، فهلكَ في حياةِ رسُول الله ﷺ، وبان للعقلاءِ أنّه كان يُشعبِذ[١].

ومنهم: مُسيلِمةُ[٢]، ادَّعى النُّبوَّة، وتَسمّى رحمانَ اليمامة؛ لأنّه كان يقول: الذي يأتيني رحمانُ، فآمنَ برسُولِ الله ﷺ، وادَّعى أنّه قد أُشرِكَ معه! فالعجبُ أنّه يُؤمِنُ برسولٍ ويقُول: إنّه كذّابٌ! ثُمّ جاء[٣] بقُرآنٍ يُضحِكُ الناس، مِثلَ قولِه: «يا ضِفدعَ بنتَ ضِفدعَين، نقّي ما تنقّين، أعلاكِ في الماءِ وأسفلُكِ في الطين، ومن العجائبِ شاةٌ سوداء، تحلبُ لبنًا أبيض». فانهتكَ سِترُه في هذه الفصاحة.

---

(١) ذكره المطهر بن طاهر المقدسي في البدء والتاريخ (٥: ١٥٥).

(٢) ذكر خبره الطبري في تاريخه (٣: ٢٨٤).

(٣) زاد في (س): «مسيلمة».

ثُـمّ مسـحَ بيـدِه علـى رأسِ صبيٍّ فذهبَ شـعرُه، وبصـقَ في بئرٍ فيبِسَـت! وتـزوَّجَ سَـجاحَ التي ادَّعَتِ النُّبـوَّة، فقالوا: لا بُدَّ لها مِن مهر، فقال: مهرُها أنّي قد أسقطتُ عنكُم صلاة الفجرِ والعَتَمة!

وكانت سَـجاحُ هذه قد ادَّعَتِ النُّبوَّة بعد موتِ رسُـولِ الله ﷺ، فاستجابَ لهـا جماعـة، فقالـت: أعِـدُّوا الـرِّكاب، واستعدُّوا للنِّهـاب، ثُـمّ اعبُـرُوا على الرِّباب[1]، فليس دونهم حِجاب، فقاتِلُوهم!

ثُمّ قصدتِ اليمامة، فهابها مُسيلِمة، فراسَلها وأهدى لها، فحضرَت عنده، فقالت: اقرأ عليَّ ما يأتيك بهِ جِبريلُ، فقال: «إنّكُنّ معشرَ النِّساءِ خُلِقتُنَّ أفواجًا، وجُعِلتُـنَّ لنـا أزواجًا، نُولِجُـهُ فيكُنَّ إيلاجًا». فقالت: صدقـتَ، أنتَ نبيّ. فقال لها[2]: [الهزج]

أَلَا قُومِي إلـى المَخدَعْ   فقَد هُيِّـئ لَكِ المَضجَعْ
فـإن شِـئتِ سَـلَقناكِ   وإن شِـئتِ عَلـى أربَعْ
وإن شِـئتِ بثُلُثَيـهِ   وإن شِـئتِ بـهِ أجمَـعْ

فقالت: بل به أجمع، فهو أجمعُ للشملِ وأنفَع[3].

فافتُضِحَتْ عند العُقلاءِ مِن أصحابِها، فقال منهم عطارِدُ بنُ حاجب[4]: [البسيط]

---

(١) الرِّبـاب: خمـس قبائل تجمَّعـوا فصاروا يدًا واحدة على من سـواهم. ويقال: إنما سُـمُّوا رِبابًا أنهم جاؤوا برُبٍّ فغمسوا أيديهم فيه، ثم تعاقدوا على ذلك، وهم ضَبّة وثَور وعُكل وتَيم وعَدِيّ. معجم ديوان الأدب (٣: ٨٩).

(٢) تاريخ الطبري (٣: ٢٧٣).

(٣) عن (س).

(٤) عطـارد بـن حاجب التميمي، لـه صحبة. معرفة الصحابـة (٤: ٢٢٥٣)، والأبيات في ربيع الأبرار للزمخشري (٢: ٢٥٤).

أضحَــتْ نَبيَّتُنا أُنثــى يُطافُ بها وأصبَحَتْ أنبيــاءُ الناسِ ذُكرانا
فلَعنــةُ الله رَبِّ النــاسِ كُلِّهِــمُ على سَجاحَ ومَن بالإفكِ أغوانا
أعنِي مُسَيلِمةَ الكَذّابَ لا سُقِيَتْ أصداؤُهُ مِن رُعَيثٍ[1] حَيثُما كانا

ثُمّ إنّها رجعَت عن غيِّها وأسلمَت، وما زالت تُبيِّنُ فضائحَ مُسيلِمةَ حتّى قُتِل.

ومنهم: طُلَيحةُ بنُ خُوَيلد[2]، خرجَ بعد دعوى مُسيلِمةَ النُّبوَّة، فادَّعى النُّبوَّةَ وتبعَه عوامّ، ونزل سَمِيراء[3]، فتسمّى بذي النُّون، يقول: إنّ الذي يأتيهِ يُقال له: ذُو النُّون، وكان مِن كلامه: «إنّ الله تعالى لا يصنعُ بتعفيرِ وجُوهِكم ولا قُبحِ أدبارِكم شيئًا، فاذكُروا الله أعِفّةً قيامًا». ومِن قُرآنِه: «والحمامِ واليمام، والصُّرَدِ[4] الصَّوّام، ليبلُغَنَّ مُلكُنا العراقَ والشام»[5]!

وتبعهُ عُيَينةُ بنُ حِصنٍ، فقاتلَه خالِدُ بنُ الوليد، فجاء عُيينةُ إلى طُليحة، فقال: وَيحَك! جاءك المَلَك؟ قال: لا، فارجِع فقاتِل[6]، فقاتل ثُمّ عاد، فقال: جاءك؟ فقال: لا، فعاد فقاتل، ثُمّ عاد[7] فقال: جاءك؟ قال: نعم، قال: ما قال لك؟ قال[8]: قال: إنّ لك جيشًا لا تنساه. فصاح عُيينة: الرجُلُ ـ والله ـ كذّاب. فانصرف الناسُ منهزِمين، وهربَ طُليحةُ إلى الشام، ثُمّ أسلمَ وصحَّ إسلامُه، وقُتِل بنهاوند.

---

(١) الرعثة: وِعاء يُتَّخَذ من غِلاف الطَّلعة للشُّرب.
(٢) طليحة بن خويلد الأسدي، ارتدَّ بعد وفاة النبي ﷺ، وكان فارسًا مشهورًا، الاستيعاب (٣: ٢٣٥).
(٣) سَمِيراء: منزل بطريق مكة. معجم البلدان (٣: ٢٥٥).
(٤) الصُّرَد: نوع من الطيور.
(٥) ذكره الطبري في تاريخه (٣: ٢٦٠).
(٦) سقطت من (ك، س).
(٧) سقط «ثم عاد» من (ك، ح، د).
(٨) سقطت من (ك، ح، س).



وذكـرَ الـواقديُّ أنّ رجُلًا مـن بني يَربُوعٍ يُقال له: جُندبُ بنُ كُلثوم[١]، كان يُلقَّبُ كردانًا، ادَّعى النُّبوَّةَ على عهدِ رسُـولِ الله ﷺ، وكان يزعُم أنّ دليلَه على نُبوَّتـه أنّـه يُسـرِجُ مسـاميرَ الحديدِ والطيـن؛ وهذا لأنّـه كان يطلي ذلـك بدُهنِ البَلَسان[٢]، فتعملُ فيه النار.

وقد تنبَّأ رجُلٌ يُقال له: كهمسٌ الكلابيُّ[٣]، وكان يزعمُ أنّ الله تعالى أوحى إليـه: «يـا أيُّها الجائع، اشـربْ لبنًا تشـبع، ولا تضربِ الـذي لا ينفع، فإنّه ليس بمَقنـع»! وزعـمَ أنّ دليلَـه على نُبوَّتِه أنّه يُطرَحُ بين السـباعِ الضاريـةِ فلا تأكلُه، وحِيلتُه في ذلك أنّه يأخُذ دُهنَ الغارِ، وحجرَ البُرسان[٤]، وقُنفذًا مُحرَّقًا، وزُبدَ البحر، وصَدَفًا مُحرَّقًا مسحُوقًا، وشيئًا مِن الصَّبرِ والخَبَط[٥]، فيطلي بهِ جِسمَه، فإذا قرُبَت منه السباع فشمَّت تلك الأرياحَ وزُفُورتَها، نفَرَت.

وتنبَّـأ بالطائف رجُلٌ يُقال لـه: أبو جَعوانة[٦] العامِري، وزعم أنّ دليلَه: أنّه يطرحُ النارَ في القُطنِ فلا يحترق؛ وهذا لأنّه يدهنُه بدُهنٍ معروفٍ فلا يحترقُ[٧].

ومنهـم: هُذيلُ بنُ يَعفُورٍ[٨]، من بني سـعدِ بنِ زُهير، حكى عنه الأصمعيُّ أنّـه عارضَ سـورةَ الإخـلاص، فقال: «قُل هُـو الله أحد، إلهًا كالأسـد، جالسٌ على الرَّصَد، لا يفوتُه أحد»!

---

(١) لم أقف على ترجمته.

(٢) البَلسان: شجر من الفصيلة البَخُورية، له زهر أبيض كالعناقيد، يُستخرَج من بعض أنواعه دُهن عَطِر.

(٣) لم أقف على ترجمته.

(٤) كذا، ولعله: «حِبر البرسان»، وهو يُعمل من ورد شقائق النُّعمان. عمدة الكُتّاب للصنهاجي (ص٤٩).

(٥) الصَّبِر بكسر الباء: عصارة شجر مُرّ، والغار: شجر له حمل أسود يستخرج منه زيت، والخبَط: ورق شجر يُخبَط عليه حتى يسقط ويُجفَّف ويُطحَن ويُخلَط بدقيق وماء.

(٦) في (ك، س، م): «جعرانة»، ولم أقف على ترجمته.

(٧) «فلا يحترق» عن (س).

(٨) لم أقف على ترجمته.

ومنهم: هُذيلُ بنُ واسع، كان يزعُم أنّه من ولدِ النابغةِ الذُّبياني، عارضَ سورةَ الكوثر، فقال له رجلٌ: ما قُلتَ؟ فقال: «إنّا أعطيناكَ الجواهِر، فصلِّ لربِّك وجاهِر، فما يرُدُّك إلا كُلُّ فاجِر». فظهرَ عليه القَسرِيُّ[1] فقتله، وصلبهُ على العمُود[2]، فعبرَ عليهِ الرجُل فقال: «إنّا أعطيناكَ العمُود، فصلِّ لربِّك مِن قُعود، بلا ركوعٍ ولا سُجود، فما أراك تعُود»!

ومِمَّن ظهرَ فادَّعى أنّه يُوحى إليه: المُختارُ بنُ أبي عُبيدٍ[3]، وكان مُتخبِّطًا في دعواه، وقتلَ خَلقًا كثيرًا، وكان يزعُمُ أنّه ينصُرُ الحُسينَ رضي الله عنه، ثُمّ قُتِل.

ومنهم: حنظلةُ بنُ يزيدَ الكُوفيّ[4]، كان يزعُمُ أنّ دليلَه أنّه يُدخِلُ البيضةَ في القِنّينةِ[5] ويُخرجُها منها صحيحةً؛ وذاك أنّه كان ينقعُ البيضةَ في الخَلِّ الحامضِ أيّامًا، فيلينُ قشرُها، ثُمّ يصُبُّ ماءً في قِنّينة، ثُمّ يدسُّ البيضة[6] فيها، فإذا لقيتِ الماءَ صلُبت.

وقد تنبَّأ أقوامٌ قبل نبيِّنا ﷺ: كزَرادِشتَ وماني، وافتُضِحوا، وما مِن المُدَّعِين إلا مَن خُذِل. وقد جاءتِ القَرامِطةُ بحِيَلٍ عَجيبةٍ، وقد ذكرتُ جُمهُورَ

---

(١) في النسخ: «النسوي»، والتصويب عن أخبار الظراف والمتماجنين لابن الجوزي (ص١٣٠) والخبر فيه بتمامه، والقسري هو أبو يزيد خالد بن عبد الله البجلي، أحد ولاة الأمويين على العراق، توفي سنة ١٢٦هـ. وفيات الأعيان (٢: ٢٢٦).

(٢) في (ك، ح، د، م): «النجف».

(٣) هو المختار بن أبي عبيد الثقفي الكذاب، وكان أبوه من كبار الصحابة، ونشأ المختار فكان من كبراء ثقيف، وذوي الرأي، والفصاحة، والشجاعة، والدهاء، وقلة الدين، قتله مصعب بن الزبير سنة ٦٧هـ. سير أعلام النبلاء (٣: ٥٣٨).

(٤) لم أقف على ترجمته.

(٥) القِنّينة: إناء من زجاج.

(٦) من قوله: «في الخل الحامض» إلى هنا سقط من (ح).

هؤلاء وحِيَلهم في كتابي التاريخ المُسمّى بـ«المُنتظَم»، وما فيهم مَن يتِمُّ له أمرٌ إلا ويُفتضَح.

ودليلُ صحّةِ نُبوّةِ نبيِّنا ﷺ أجلى مِن الشمس؛ فإنّه ظهرَ فقيرًا، والخلقُ أعداؤه، فوُعِدَ بالمُلكِ فملَك، وأخبرَ بما سيكونُ فكان، وصِينَ مِن[1] زمنِ النُّبوّةِ عن الشَّرَهِ وخساسةِ الهمّةِ والكذبِ والكِبر، وأُيِّدَ بالثقةِ والأمانةِ والنزاهةِ والعِفّة، وظهرَت مُعجزاتُه للبعيدِ والقريب.

وأُنزِل عليهِ الكِتابُ العزيز، الذي حارت فيهِ عُقُولُ الفُصحاء، ولم يقدِرُوا على الإتيانِ بآيةٍ تُشبِهُه، فضلًا عن سُورة، وقد قال قائلُهم وافتُضِح، ثُمّ أخبرَ أنّه لا يُعارَضُ فيه، فكان كما قال، وذلك قوله تعالى: ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ﴾ [البقرة: ٢٣]، ثُمّ قال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ [البقرة: ٢٤]، وكذلك قوله: ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ﴾ [البقرة: ٩٤]، ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ﴾ [البقرة: ٩٥]، فما تمنّاه أحد؛ إذ لو قال قائل: قد تمنّيتُه لبطلَت دعواه.

وكان يقُولُ ليلةَ غزاةِ بدر: «غدًا مَصرَعُ[2] فُلانٍ ههُنا»، فلا يتعدّاه، وقال: «إذا هلكَ كِسرى فلا كِسرى بعده، وإذا هلكَ قَيصَرُ فلا قَيصَرَ بعده[3]»، فما ملَك بعدهُما مَن له كبيرُ قدر، ولا مَن استتبَّ له حال.

ومن أعظمِ دليلِ صدقِهِ أنّه لم يُرِدِ الدنيا، فكان يبيتُ جائعًا، ويُؤثِرُ إذا وجد، ويلبَسُ الصُّوف، ويقومُ الليل، وإنّما تُطلَبُ النواميسُ لاجتلابِ الشهوات،

---

(١) سقطت من (ك، س).

(٢) في (م): «هذا مصرع». والحديث رواه مسلم (٢٨٧٣) من حديث أنس رضي الله عنه بمعناه.

(٣) سقطت من (ك، س، م). والحديث أخرجه البخاري (٣١٢٠)، ومسلم (٢٩١٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.



فلمّا لم يُرِدْها دلَّ على أنّه يدُلُّ على الآخِرةِ التي هي حقٌّ.

ثُـمّ لم يـزلْ دينُه يعلُو حتّى عمَّ الدنيا، وإن كان الكُفرُ في زوايا الأرضِ إلا أنّه مخذول. وصار في تابعِيه من أُمّتِه الفُقهاءُ، الذين لو سـمِعَ كلامَهُم الأنبياءُ القُدماءُ تحيَّروا في حُسنِ استخراجِهم، والزُّهّادُ الذين لو رآهُم الرُّهبانُ تحيَّرُوا في صِدقِ زُهدِهم، والفُطناءُ الذين لا نظيرَ لهم في القُدماء. أوَليس قومُ مُوسى يعبُـدون بقـرةً، ويتوقَّفون في ذبحِ بقرة، ويعبُـرُون البحر، ثُمّ يقولون: اجعل لنا إلهًـا؟! وقـومُ عيسـى يدَّخرُون مِن المائـدةِ وقد نُهُوا، والمُعتدُون في السـبت، يعصون الله تعالى لأجل الحيتان؟!

وأُمّتُنا ـ بحمدِ الله تعالى ـ سـليمةٌ مِن هذه الأشـياء، وإنّما في بعضِها مَيلٌ إلى الشهواتِ المنهيِّ عنها، وذلك في الفُرُوعِ لا في الأُصُول، فإذا ذُكِّرُوا بكَوا وندِمُوا على تفريطِهم، فنحمدُ الله تعالى على هذا الدين، وعلى أنّنا مِن أُمّةِ هذا الرسُولِ ﷺ.

وقـد كان جماعـةٌ من المُتصنِّعِين بالزُّهد مالُوا إلى طلب الدنيا والرياسـة، فاسـتَغواهم الهـوى، فمَخرَقـوا[١] بإظهـارِ مـا يُشـبِهُ الكرامـات، كالحَلّاجِ وابنِ الشبّاسِ وغيرِهما مِمَّن ذكرتُ حالَ تلبيسِه في كتابِ «تلبيس إبليس»[٢]، وإنّما فعلُوا ذلك لاختلافِ أغراضِهم.

ولـم يزلِ الله يُنشئ في هذا الدينِ مِن الفُقهاءِ مَن يُظهِرُ ما سترَه المُتعلّمون، كما يُنشِئُ مِن عُلماءِ الحديثِ مَن يهتِكُ ما أخفاه الواضِعُون؛ حِفظًا لهذا الدين، ودفعًا للشُّبُهاتِ عنه.

---

(١) المَخرَقة: افتعال الكذب.

(٢) تلبيس إبليس (ص٣٤١).

فلا يزالُ الفقيهُ والمُحدِّثُ يُظهِرانِ عوارَ كُلِّ مُلبِّسٍ بوضعِ حديثٍ أو بإظهارِ دعوى تزهُّدٍ وتنميس، فلا يؤثِّرُ ما ادَّعياهُ إلا عند جاهِلٍ بعيدٍ عن العِلمِ والعمل، ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٨].

٤٣٨- فَصْلٌ
[الغايةُ من الوجود]

وا عجبًا مِن موجودٍ لا يفهمُ معنى الوجود، فإن فهِم لم يعملْ بمُقتضى فهمِه! يعلمُ أنّ العُمرَ قصيرٌ، وهُو يُضيِّعُه بالنومِ والبطالةِ والحديثِ الفارغِ وطلبِ اللذّات، وإنّما أيامُه أيامُ عملٍ لا زمانُ فراغ، وقد كُلِّف بذلَ المالِ بمُخالفةِ الطبعِ مِن الشرع، فبخِل به إلى أن تضايقَ الخِناق، فيقول حينئذٍ: فرِّقُوا عنّي بعد موتي، وافعلُوا كذا! فأين يقعُ هذا لو فُعِل؟! وبعيدٌ أن يُفعَل، وإنّما يُرادُ بإنفاقِك في صحتك مُخالفةٌ للطبعِ في تكلُّفِ مشاقِّ الإخراجِ في زمنِ السلامة، فافرُق بين الحالتَين، إن كان لك فهمٌ!

فالسعيدُ مَن انتبهَ لنفسِه، وعمِلَ بمُقتضى عقلِه، واغتنمَ زَمَنًا نِهايتُه الزَّمَن[١]، وانتهبَ عُمُرًا يقرُبُ انقِطاعُه. ويحكَ! ما تصنعُ بادِّخارِ مالٍ لا يؤثِّرُ حسنةً في صحيفة ولا مكرُمةً في تاريخ؟! أما سمِعتَ بإنفاقِ أبي بكرٍ[٢] وبُخلِ ثعلبة[٣]؟! أما رأيتَ تأثيرَ مدحِ حاتِمٍ وبُخلِ الحُباحِب[٤]؟! وَيحَك! لو ابتلاكَ في مالِك

---

(١) الزَّمَن: المرض المُقعِد الذي يدوم زمنًا طويلًا.
(٢) بمعناه رواه البخاري (٤٦٦).
(٣) بمعناه رواه الطبري في تفسيره (١١: ٥٧٩)، وهو ضعيف.
(٤) الحُباحِب: كان رجلًا من العرب في سالف الدهر بخيلًا، لا تُوقَد له نار بليل مخافة أن يُقتبَس منها، فإن أوقدها ثُم أبصرها مستضيء أطفأها، فضربَت العرب بناره في الخُلف المَثَل، وضربوا به في البُخل المَثَل حتى قيل: أخلَفُ من وقودِ أبي حُباحِب. مجمع الأمثال (١: ٢٥٣).

فقلَّ لا استَغثتَ، أو في بدنِك ليلةً بمرضٍ شكوتَ، فأنت تستوفي مطلُوباتِك منه، ولا تستوفي حقَّه عليك، ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١]!

ولتعلَم أنَّه بهذا القدرِ المُفرَّطِ فيه يَحُلُّ الخلودُ الدائمُ في ثوابِ العملِ فيه، فسُبحانَ مَن مَنَّ على أقوامٍ فهِمُوا المُرادَ فأتعبُوا الأجساد، وغطَّى على قُلُوبِ آخرِين، فوُجُودُهم كالعدم، وكيف لا يُتعِبُ العاقِلُ بدَنَه إتعابَ البُدنِ والمقصُودُ منَّى؟!

أتُرى، ما بالُ الحقِّ مُتجلِّيًا في إيجادِك أيها العبد؟! بلى - والله - إنّ وجُودَك دليلُ وُجُودِه، وإنّ نِعَمَه عليكَ دليلُ جُودِه، فكما قدَّمكَ على سائرِ الحيوانات، فقدِّمْهُ في قلبِك على كُلِّ المطلُوبات. وا خيبةَ مَن جَهِلَه، وا فقرَ مَن أعرضَ عنه، وا ذُلَّ مَنِ اعتزَّ بغيرِه، وا حسرةَ مَن اشتغلَ بغيرِ خِدمتِه!

٤٣٩- فَصْلٌ
[الاستعدادُ للموت]

إنِّي لأعجبُ مِن عاقلٍ يرى استيلاءَ الموتِ على أقرانِه وجيرانِه، كيف يطيبُ عيشُه؟! خُصُوصًا إذا علَتْ سِنُّه! وا عجبًا لمَن يرى الأفاعيَ تدُبُّ إليه وهو لا ينزَعِج! أما يرى الشيخُ دبيبَ الموتِ[١] في أعضائه قد أخرجَ سِكِّينَ القُوى، وأنزلَ مُتغَشرِم[٢] الضعف، وقلبَ السواد بياضًا، ثُمّ[٣] في كُلِّ يومٍ يزيدُ الناقص[٤]؟

---

(١) زاد في (س): «إليه».

(٢) المُتغشرِم: الجريء الماضي.

(٣) سقطت من (ك، س، م).

(٤) في (ك، س): «الناقص».

ففـي نظرِ العاقِلِ إلى نفسِـهِ ما يشـغلُه عن النظرِ إلى خـرابِ الدنيا، وفِراقِ الأقـران، وإن كان ذلـك مُزعِجًا، ولكِنَّ شُـغلَ مَن أُحرِقَ بيتُـه بنقلِ متاعِهِ يُلهيهِ عن ذكرِ بيوتِ الجيران.

وإنّهُ لمِمّا يُسـلِّي عن الدنيا، ويُهوِّنُ فِراقَها اسـتبدالُ المعارِف بمَن يُنكِرُه، فقـد رأينـا أغنياءَ كانـوا يُؤثِرُون، وفُقراءَ كانوا يصبرون، ومُحاسِـبينَ لأنفُسِـهم يتورَّعون، فاستُبدِل السُّـفهاءُ عنِ العُقـلاء، والبخلاءُ عنِ الكُرماء. فيا سُـهولةَ الرحيل، لعلَّ النفسَ تلقى مَن فقدَت، فتلحقَ بمَن أحبَّت.

٤٤٠- فَصْلٌ

[عُبودية الكائنات]

نظـرتُ فـي قولِ الله تعالـى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ ثُـمّ قـال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ١٨]، فرأيتُ الجماداتِ كُلَّها قد وُصِفَتْ بالسُّجود، واستُثني مِنَ العُقلاء! فذكرتُ قولَ بعضِهم(١): [السريع]

مـا جَحَدَ الصامِتُ مَن أنشَـأه ... ومِن ذَوِي النُّطقِ أتى الجُحُودُ!

فقُلـتُ: إنّ هذه لَقُدرةٌ عظيمةٌ، يُوهَبُ عقلٌ للشـخص، ثُمّ يُسـلَبُ فائدتَه، وإنّ هذا لأقوى دليلٍ على قادرٍ قاهِرٍ، وإلا فكيف يحسُـنُ مِن عاقلٍ ألا يعرِفَ بوجُودِه وُجُودَ مَن أوجَده؟ وكيف ينحتُ صنمًا بيدِه ثُمّ يعبُدُه؟! غير أنّ الحقّ سبحانه وتعالى وهبَ لأقوامٍ مِن العقل ما يُثبِتُ عليهم الحُجّة، وأعمى قُلوبَهم ـ كما شاء ـ عن المَحَجّة.

---

(١) ذكره ابن الجوزي في المدهش (ص٣٧٢).

٤٤١- فَصْلٌ
[وجوب العُزلة وذمُّ الصوفية]

ما رأيتُ أكثرَ أذًى للمُؤمنِ مِن مُخالطةِ مَن لا يصلُحُ، فإنّ الطبعَ يسرِق، فإن لم يتشبَّه بهم، ولم يسرِقْ منهم، فترَ عن عملِه، فإنّ رُؤيةَ الدنيا تحثُّ على طلبِها، وقد رأى رسولُ الله ﷺ سِترًا على بابه فهتكَه[1]، وقال: «ما لي وللدنيا؟»[2]، ولبِسَ ثوبًا له طراز، فرماه، وقال: «شَغَلَتْني أعلامُه»[3]، ولبِسَ خاتمًا ثُمّ رماه، وقال: «نظرةٌ إليكُم ونظرةٌ إليه»[4].

وكذلك رُؤيةُ أربابِ الدنيا ودُورِهم وأحوالِهم، خُصوصًا لمَن له نفْسٌ تطلُبُ الرِّفعة. وكذا سماعُ الأغاني ومُخالطةُ الصُّوفيةِ اليوم[5] الذين لا نظرَ لهم في الرِّزقِ الحاصِل، بل لو كان من أين كان قَبِلُوه، ولا يتورَّعون أن يأخُذُوا مِن ظالِم، وليس عندهم خوفٌ كما كان أوائلُهم، فقد كان سَرِيٌّ السَّقَطِيُّ يبكي طُولَ الليل، وكان يبالغُ في الورع، ولا لهم تعبُّدُ الجُنيد. وإنّما ثَمّ أكلٌ ورقصٌ وبطالةٌ وسماعُ أغانٍ مِن المُرْدان، حتّى قال بعضُ مَن يُعتبَرُ قوله: حضرتُ مع رجُلٍ كبيرٍ يُومَأُ إليهِ مِن مشايخِ الرُّبُطِ ومُغنِّيهم أمردُ، فقام الشيخُ ونقَّطَهُ بدينارٍ على خدِّه!

وادِّعاؤُهُم «أنّ سماعَ هذه الأشياءِ يدعُو إلى الآخِرة» فوق الكذب، وليس العجبُ منهم، إنّما العجَبُ مِن جُهّالٍ يَنفُقُون[6] عليهم، فيُنفِقُون عليهم.

(١) البخاري (٥٩٥٤)، ومسلم (٢١٠٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٢) تقدم في الفصل ٢٦٢.
(٣) البخاري (٣٧٣)، ومسلم (٥٥٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٤) تقدم في الفصل ٣٨٨.
(٥) زاد في (ح، د): «اليوم».
(٦) ينفُقُون عليهم: يَرُوجُون عليهم.

ولقد كان جماعةٌ مِن القدماء يرون أوائلَ الصُّوفيةِ يتعبَّدُون ويتورَّعون، فيُعجِبُهم حالُهم، وهم معذُورُون في إعجابِهم بهم، وإن كان أكثرُ القومِ في تعبُّدِهم على غيرِ الجادّة، كما ذكرتُ في كتابي المُسمّى بـ«تلبيس إبليس».

فأمّا اليومَ[١] فقد برحَ الخفاء، أحدُهم يتردَّدُ إلى الظَّلَمة، ويأكُلُ أموالَهم، ويُصانعُهم بقميصٍ ليس فيهِ طِراز، هذا هو التصوُّفُ فحسب! أوَلا يستحيي مِن الله تعالى مَن يزهدُ في ترقيع الأثوابِ لأجلِ الخلائقِ لا لأجل الحقِّ[٢]، ولا يزهدُ في مطعمٍ ولا في شبهة! فالبُعدُ عن هؤلاء لازمٌ.

وينبغي للمنفردِ لطاعةِ الله تعالى عن الخلقِ ألا يخرُجَ إلى سُوقِ جُهدَه، فإن خرجَ ضرورةً غضَّ بصرَه، وألا يزورَ صاحِبَ منصبٍ ولا يلقاه، فإنِ اضطُرَّ دارى الأمر، ولا يُخالِطَ عامّيًا إلا لضرورة، مع التحرُّز، ولا يفتحَ على نفسِه بابَ التزويج، بل يقنعُ بامرأةٍ فيها دِين؛ فقد قال الشاعر[٣]: [البسيط]

والمَرءُ ما دامَ ذا عَينٍ يُقَلِّبُها ... في أعيُنِ العِينِ مَوقُوفٌ على الخَطَرِ
يَسُرُّ مُقلَتَهُ ما ضَرَّ مُهجَتَهُ ... لا مَرحَبًا بسُرُورٍ عادَ بالضَّرَرِ

فإن كان يغلِبُ عليهِ العِلمُ، انفردَ بدراستِه، واحترزَ مِنَ الأتباعِ المتعلِّمين. وإن غلبتْ عليهِ العِبادة، زاد في احترازِه، وليجعلْ خلوتَه أنيسَه، والنظرَ في سِيَرِ السلفِ الصالحِ جليسَه، وليكُن له وظيفةٌ مِن زيارةِ قُبورِ الصالِحين والخلوةِ بها.

ولا ينبغي أن يفوتَه وِردُه من قيامِ الليل، وليكُنْ بعد النصفِ الأوّل، فليُطِلْ مهما قدَر، فإنّه زمانٌ بعيدُ المِثل، وليُمثِّلْ رحيلَه عن قُربٍ ليقصُرَ أملُه، وليتزوَّدْ

---

(١) سقط «فأما اليوم» من (ك، س).
(٢) زاد في (س): «الخالق».
(٣) تقدم ذكرهما في الفصل ٣٦٤.

في الطريقِ على قدرِ طُولِ السفر! نسألُ الله عز وجل يقظةً مِن فضلِه، وإقبالًا على خِدمتِه، وألا يخذلَنا بالالتفاتِ عنه، إنّه قريبٌ مُجيب.

٤٤٢- فَصْلٌ
[نعمُ الله لا تُحصى]

كُلَّما نَظرتُ في تواصُلِ النِّعَمِ عليَّ تحيَّرتُ في شُكرِها! وأعلمُ أنَّ الشكرَ مِن النِّعَم، فكيف أشكُر؟! لكنّي مُعترِفٌ بالتقصير، وأرجُو أن يكُونَ اعترافي قائمًا ببعضِ الحُقوق. وعندي خَلّةٌ[1] أرجُو بها كُلَّ خير، وهو أنّ مَن يصومُ ويصلِّي يرى أنّه تعبَّدَ، ويخدُمُ كأنّه يقضي حقَّ المخدُوم، وأنا أرى أنّي إذا صلَّيتُ ركعتَين فإنّما قُمتُ أُكدِي، فلنفسي أعمل؛ إذ المخدومُ غنيٌّ عن طاعتي، وكان بعضُ المشايخِ يقول: جاء في الحديث: «الدُّعاءُ عِبادة»[2]، وأنا أقول: العِبادةُ دعاءٌ.

فالعجبُ مِمَّن يقفُ للخدمةِ يسألُ حظَّ نفسِه، كيف يرى أنّه قد فعلَ شيئًا؟! إنّما أنتَ في حاجتِك، ومِنّةُ مَن أيقظني لا تُقاومُها خِدمتي، فأنا أقولُ كما قال الأول: [مجزوء الكامل]

يا مُنتَهى الآمالِ أنـ ـتَ كَفَلتَني وحَفِظتَني
وعَدا الزَّمانُ عَلَيَّ كَي يَجتاحَني فمَنَعتَني
فانقادَ لي مُتخشِّعًا لمّا رآكَ نصرتَني
وكَسَوتَني ثَوبَ الغِنى ومِن المَطالِبِ صُنتَني

---

(١) الخَلّة: الخَصلة.

(٢) رواه الترمذي (٢٩٦٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

فـإذا سَـكَـتُّ بَدأتَنـي وإذا سَــألتُ أجَبتَنــي
فـإذا شَـكَرتُكَ زِدتَني فمَنحتَنــي وبَهَرتَنــي
أو إن أجُــدْ بالمالِ فالــ أمــوالَ أنــتَ أفدتَنــي

٤٤٣- فَصْلٌ
[نقائضُ العلماء]

رأيـتُ أكثرَ العلماءِ يتشـاغلُون بصُـورةِ العِلم، فهمُّ الفقيـهِ التدريس، وهمُّ الواعظِ الوعظ، فهذا يُراعِي درسَه فيفرحُ بكثرة مَن يسمعُه، ويقدحُ في كلامِ مَن يُخالفُه، ويُمضِي زمانَه في التفكُّرِ في المُناقضاتِ ليقهرَ مَن يُجادِلُه، وعينُه إلى التصـدُّرِ والارتفاعِ في المجالِس، ورُبّما كانـت هِمّتُه جمعَ الحُطام، ومُخالطةَ السـلاطين. والواعِظُ هِمَّتُه ما يُزوِّقُ بِهِ كلامَه، ويُكثِّرُ جمعَه، ويجلِبُ بِهِ قلوبَ الناسِ إلى تعظيمِه، فإن كان له نظيرٌ في شُغلِه أخذَ يطعنُ فيه.

وهـذه قلـوبٌ غافلةٌ عنِ الله عز وجل؛ إذ لو كانت لها به معرِفةٌ لاشـتغلَت به، وكان أنسُـها بمناجاتِه، وإيثارُها لطاعته، وإقبالُها على الخلوةِ به، لكنّها لمّا خلـتْ مِن هذا تشـاغلَت بالدنيا، وذاكَ دُنيا مِثلُها، فـإذا خلتْ بخِدمةِ الله تعالى لم تجِد لها طعمًا، وكان جمعُ الناسِ أحبَّ إليها، وزيارةُ الخلقِ لها آثَرَ عندها، وهذه علامةُ الخِذلان.

وعلى ضِدِّ هذا، متى كان العالِمُ مُقبِلًا على الله سُـبحانه، مشغُولًا بطاعتِه، كان أصعبُ الأشياءِ عنده لقاءَ الخلقِ ومُحادثتَهم، وأحبُّ الأشياءِ إليه الخَلوة، وكان عنده شغلٌ من القَدحِ في النُّظراءِ ومن طلبِ رياسة؛ فإنّ ما علَّق به هِمَّته مِن الآخِرةِ أعلى مِن ذلك.

والنفسُ لا بُدَّ لها مِمّا تُشاغَلُ به، فمَن اشتغلَ بخدمةِ الخلقِ أعرضَ عنِ الحقّ، فإنّما يُربِّي رياستَه، وذلك يُوجِبُ الإعراضَ عن الحقّ، و﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٤].

٤٤٤- فَصْلٌ
[حقيقةُ الشهوات]

قد جاء في الأثر: «اللهمَّ أرِنا الأشياءَ كما هي»(١)، وهذا كلامٌ حسنٌ غاية الحسن(٢)، وأكثرُ الناسِ ما يرون الأشياءَ بعينِها، فإنّهُم يرون الفانيَ كأنّه باقٍ، ولا يكادون يتخايَلُون زوالَ ما هم فيه، وإن علمُوا ذلك إلا أنّ عينَ الحِسّ مشغولةٌ بالنظرِ إلى الحاضر، ألا ترى زوالَ اللذّةِ وبقاءَ إثمِها؟! ولو رأى اللصُّ قطعَ يدِه هان عليه المسروقُ عنده.

فمَن جمعَ الأموالَ ولم يُنفِقْها فما رآها بعينِها؛ إذ هي آلةٌ لتحصيلِ الأغراض، لا تُرادُ لِذاتِها، ومَن رأى المعصيةَ بعينِ الشهوةِ فما رآها؛ إذ فيها مِن العُيُوبِ ما شِئتَ، ثُمّ(٣) ثمرتُها عُقُوبةٌ آجِلة، وفضيحةٌ عاجلة.

وانظُر إلى أكبرِ شهواتِ الحِسّ، وهو الوطء، فإنّ الماءَ لا يحصُلُ إلا بعد مطعمٍ ومشرب، ومَن تفكَّرَ في المطعمِ نظرَ إلى حرثِ الأرض، وأنّها تفتقِرُ إلى بقرٍ للحراثة، عليهنَّ المِحراثُ، وهُو حديدٌ ومعه خشبٌ وتتعلَّقُ بهِ حِبال، فمَن تفكَّر في عملِ الحبالِ نظرَ في زرعِ القِنَّبِ(٤) وتسريحِه وفَتلِه، والحديدِ وجلبهِ

---

(١) أورده الرازي في مفاتيح الغيب (١٣: ٣٧).

(٢) عن هامش (ح).

(٣) سقطت من (ك، س، م).

(٤) القِنَّب: ضرب من الكَتّان، يؤخذ لِحاؤه وتُفتَل منه الحبال.

وضربِه، والخشبِ ونباتِه ونجارتِـه، ودورانِ الدُّولابِ وعملِه، ثُمّ استحصادِ الـزرعِ وحصـدِه وتَذريتِـهِ وطحنِـه وعجنِـه وخبزِه، ومِـن عملِ التنُّـورِ وجلبِ الشـوكِ، ومِن هذا الجِنسِ إذا نظرَ فيهِ كثُر جدًّا، حتّى قالوا: لا تتناولُ لقمةً إلا وقد عمِلَ فيها ثلاثُمئةِ نفسٍ أو نحوُهم.

فـإذا أكلـتَ تلك اللُّقمـةَ فلتتفكَّر في خلقِ الأسـنانِ بقطعِهـا، والأضراسِ بطحنِهـا، وعُذُوبـةِ ماءِ الفمِ بخلطِها، واللسـانِ بقلبِها، وعضلاتُ الفمِ يصعـدُ منهـا شـيءٌ ويُترَكُ شـيءٌ حتّى يصلُـحَ البلع، ثُـمّ يتناولُها المِعَـى فيُوصلُها إلى الكبِد، فتقومُ طابخةً لها، فإذا صارت دمًا نَفَتْ رُسـوبَها إلى الطِّحال، ومائيَّتَها إلـى المثانة، واسـتخلصَت مِن أخلـصِ الدم وأصفاه للكبِـدِ والدماغِ والقلب، وأخذَت أجوَدَ ذلك، فحدرَته إلى الأُنثيين مُعَدًّا لخلقِ آدميٍّ.

فإذا تحرَّكَتْ نيرانُ الشهوةِ تُورِثُ تلك النُّطفة، وقد حكمَ الشرعُ بطهارتها، وحكـمَ لهـا بطهـارة الرحِمِ والمحلِّ الذي يُباشـرُه الذَّكَر، فيخلـقُ منها الآدميَّ المُوحِّد، فما جاء هذا الشـخصُ إلا بأغلى الغلاء، وبعد عجائبَ أشَـرنا إليها، لا أنّا عدَدناها!!

أفمَـن فهِـم هذا يحسُـنُ منـه أن يُبدِّدَ تلـكَ النُّطفةَ في حـرام، أو أن يطأ في محلٍّ نجسٍ فتضيع؟! فكم يتعلَّقُ[1] بالزِّنا مِن مِحَنٍ لا يَفِي مِعشارُ عُشرِها بلذّةِ لحظـة؟! منها: هتكُ العِرضِ بين الناس، وكشـفُ العـوراتِ المُحرَّمة، وخيانةُ الأخِ المُسـلم في زوجتِهِ إن كانت مُتزوِّجةً، وفضيحةُ المَزنيِّ بها وهي كأختٍ أو بنت، فإن علِقتْ منه ولها زوجٌ ألحقَتهُ بذلك الزوج، وكان هذا الزاني سـببًا في ميراثِ مَن لا يستحقّ، ومنعِ مَن يستحقّ، ثُمّ يتسلسلُ ذلك مِن ولدٍ إلى ولد.

---

(١) في (ك، ح، س): «تتعلق».

وأمّا سخطُ الحقّ سُبحانه فمعلوم، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقال ﷺ: «ما مِن ذنبٍ بعد الشِّركِ أعظمُ عند الله تعالى مِن نُطفةٍ وضعَها رجُلٌ في رحِمٍ لا تحِلُّ له»[١]، ومَن لهُ فهمٌ فهو يعلمُ أنّ المُرادَ مِن النُّطفةِ إيجادُ المُوحّدين.

ولولا تركيبُ الشهوةِ لم يقعِ الوطء؛ لأنّه التقاءُ عُضوَينِ غيرُ مُستحسَنَين، ولا صُورتُهما حسنة، ولا ريحُهما طيّبة، وإنّما الشهوةُ تُغطّي عينَ الناظرِ ليحصُلَ الولدُ أصلًا، إنما هي عارض، فمَن طلبَ الشهوةَ ونسيَ جِنايتَه[٢] بالزّنا فما رأى الأشياءَ على ما هي، وقِسْ على هذا المطعمَ والمشربَ وجمعَ المالِ وغيرَ ذلك.

٤٤٥- فَصْلٌ
[الحِكمة من خلق ما يؤذي]

إن قال قائل: أيُّ فائدةٍ في خلقِ ما يُؤذي؟! فالجواب: أنّه قد ثبتَ حِكمةُ الخالِق، فإذا خفِيَتْ وجبَ التسليم. ثُمّ إنّ المُستحسَناتِ في الجُملةِ أنموذجُ ما أُعِدّ مِن الثواب، والمُؤذياتِ أنمُوذجُ ما أُعِدَّ مِن العِقاب، وما خُلِق شيءٌ يضرُّ إلا وفيه منفعة.

قيل لبعضِ الأطباء: إنّ فُلانًا يقول: أنا كالعقربِ أضُرُّ ولا أنفع، فقال: ما أقلَّ عِلمَه! إنّها لتنفعُ إذا شُقَّ بطنُها ثُمّ شُدَّت على موضعِ اللسعة، وقد تُجعَلُ في جوفِ فَخّارٍ مشدُودِ الرأسِ مُطبَقِ الجوانِب، ثُمّ يُوضَعُ الفَخّارُ في تنُّور، فإذا

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الورع (١٣٧)، وهو ضعيف.

(٢) في (ك، س، م): «خيانته».

صارتْ رمادًا سُقِيَ مِن ذلك الرمادِ مِقدارَ نِصفِ دانِقٍ أو أكثرَ مَن بهِ الحصاة، يفتُّها مِن غيرِ أن يضُرَّ بشيءٍ مِن سائرِ الأعضاء.

وقد تلسعُ العقربُ مَن بهِ حُمّى عنيفةٌ فتزول، ولسعتْ رجُلًا مفلُوجًا فزالَ عنهُ الفالج، وقد تُلقى في الدُّهنِ حتّى يجتذِبَ قُواها، فيُزيلُ ذلك الدُّهنُ الأورامَ الغليظة، ومِثلُ هذا كثير، فالجاهِلُ عدوٌّ ما جهِله، وأكبرُ الحماقةِ ردُّ الجاهلِ على العالِم.

٤٤٦- فَصْلٌ

[الحبُّ على قدر زيادة الإيمان]

كُلّما أوغلَتِ الفُهُومُ في معرفةِ الخالِق، وشاهَدَت عظمتَه ولُطفَه ورِفقَه، تاهَت في محبَّتِه، فخرجَتْ عن حدِّ الثبوت، وقد كان خلقٌ مِن الناسِ غلبَت عليهم محبَّتُه، فلم يقدِرُوا على مُخالطةِ الخَلق، ومنهم مَن لم يقدِرْ على السُّكوتِ عنِ الذِّكر، وفيهم مَن لم ينَمْ إلا غلبة، وفيهم مَن هامَ في البراريّ، وفيهم مَنِ احترقَ في بدنِه! فيا حُسنَ مخمُورِهم ما ألذَّ سُكرَه، ويا عيشَ[1] قلقِهم ما أحسنَ وَجْدَه!

كان أبو عُبيدةَ الخوّاصُ قد غلبَه الوَجدُ، فكان يمشي في الأسواقِ ويقول: «وا شوقاهُ إلى مَن يراني ولا أراهُ»[2]، وكان فتحُ بنُ شَخرَف[3] يقول: «قد طالَ شوقي إليك، فعَجِّلْ قُدُومي عليك»[4]، وكان قيسُ بنُ الربيعِ[5] كأنّهُ مخمُورٌ

(١) في (ك، س، م): «ويا عطش».

(٢) رواه ابن الجوزي في المنتظم (٨: ٢٥٩).

(٣) هو أبو نصر الكشي نزيل بغداد، جُلّ رواياته حكايات، تُوفي سنة ٢٧٣هـ. تاريخ الإسلام (٢٠: ٤١٢).

(٤) رواه ابن الجوزي في صفة الصفوة (١: ٥١١).

(٥) هو أبو محمد الكوفي الأسدي، من ولد الحارث بن قيس الذي أسلم وله تسع نسوة، تُوفي =

مِـن غيـرِ شـراب، وكان ابنُ عقيـلٍ يقـول: «إنّ التبذُّلَ فيهِ سُـبحانهُ أحسـنُ مِن التجمُّلِ في غيرِه».

هـل رأيتَ قطُّ عُراةً أحسـنَ مِن المُحرِمين؟! هل رأيـتَ للمتزيِّنين برياشِ الدنيا كأثوابِ الصالِحين؟! هل رأيتَ خِمارًا أحسـنَ مِن نُعاسِ المُتهجِّدِين؟! هل رأيتَ سُـكرًا أحسـنَ مِن صعقِ الواجِدين؟! هل شاهدتَ ماءً صافيًا أصفى مِـن دُمـوعِ المُتأسِّـفِين؟! هل رأيتَ رُؤوسًـا مائلةً كرُؤوسِ المُنكسِـرِين؟! هل لُصِـقَ بالأَرضِ أحسـنُ مِـن جِباهِ المُصلِّين؟ هل حرَّكَ نسـيمُ الأسـحارِ أوراقَ الأشجارِ فبلغَ مبلغُ تحريكِه أذيالَ المتهجِّدين؟! هل ارتفعَت أكُفٌّ وانبسطَتْ أيدٍ فضاهَتْ أكُفَّ الراغِبين؟ هل حرَّكَ القُلُوبَ صوتُ ترجيعِ لحنٍ أو رنّةُ وَتَرٍ كما حرَّكَ حنينُ المُشتاقِين؟!

وإنّما يحسُنُ التبذُّلُ في تحصيلِ أوفى الأغراض، فلذلك حسُنَ التبذُّلُ في خدمةِ المُنعِم[١].

٤٤٧- فَصْلٌ
في سبب تبذير الوُلاة

أكثرُهـم لا يعـرفُ، ولا يتأدَّبُ بآدابِه بمَرّة، يتَّفِقُ لـهُ قِلّةُ[٢] العقلِ في أصلِ الوضـع، ثُـمّ ذلك القليـلُ لا يُعاون، بل يُعانُ عليـه! وذاك أنّ الجارحـةَ إذا دامَ تعطُّلُهـا عـن عملِهـا الـذي هُيِّئت لـه، تعطَّلَت وخمـدَت، ولهذا نقـصَ أبصارُ

= سنة ١٦٧هـ. تاريخ بغداد (١٤: ٤٦٩).

(١) زاد في (س): «جل جلاله سبحانه».

(٢) في (ك، م): «ولا ينفق قلة»، وفي (ح، د): «ينفق قلة»، ومكانها بياض في (س).



النُّسّاخِ والرفّائين[١]، وتحتدُّ أبصارُ أهلِ البوادي؛ لأنّه لا صادِمَ لأبصارِهم.

وشغلُ العقلِ التفكُّر، والنظرُ في عواقِبِ الأحوال، والاستدلالُ بالشاهدِ على الغائب، وهم يمتلؤُون مِن الطعامِ دائمًا، وذلك يُؤذِي العقل، ثُمّ يُطيلُون[٢] النوم، فإذا انتبهوا شربُوا المُسكِر، فاتَّفق للعقلِ تعطيلٌ وتغطية، فساء التدبير.

٤٤٨- فَصْلٌ
[مُراعاة حال المُخاطَب]

مِن المُخاطراتِ العظيمةِ تحديثُ العوامِّ بما لا تحتمِلُه قلوبُهم أو بما قد رسخَ في نُفوسِهم ضِدُّه، مِثالُه: أنّ قومًا قد رسخَ في قُلوبِهم التشبيهُ، وأنّ ذاتَ الخالقِ سُبحانه مُلاصِقةٌ للعرش، وهي بقدرِ العرش، ويفضُلُ مِن العرشِ أربعُ أصابع، وسمِعُوا مِثلَ هذا مِن أشياخِهم، وثبتَ عندهم أنّه إذا نزلَ انتقلَ إلى السماءِ الدنيا فخلَت منه ستُّ سماوات!

فإذا دُعِيَ أحدُهم إلى التنزيه، وقيل له: ليس كما خطرَ لك، إنّما ينبغي أن تُمرَّ الأحاديثَ كما جاءت مِن غيرِ مُساكَنةِ ما يتوهَّمُه، صعُبَ هذا عليه، لوجهَين؛ **أحدهما**: لغلبةِ الحِسِّ عليه، والحِسُّ على العوامِّ أغلبُ، **والثاني**: لِما قد[٣] سمِعهُ مِن ذلك من الأشياخِ الذين كانوا أجهلَ مِنه.

فالمُخاطِبُ لهذا مُخاطِرٌ بنفسِه، ولقد بلغَني عن بعضِ مَن كان يتديَّنُ أنّه مِمَّن قد رسخَ في قلبِه التشبيهُ أنّه سمِع مِن بعضِ العُلماءِ شيئًا مِن التنزيه، فقال: والله، لو قدرتُ عليهِ لقتلتُه! فالله الله أن تُحدِّثَ مخلُوقًا مِن العوامِّ بما لا

---

(١) الرفّاء: الذي يُصلِح الثياب.

(٢) في (ك، س، م): «يطلبون».

(٣) سقطت من (ك، س).

يحتمِلهُ، فإنّه لا يزولُ ما في نفسِه، ويُخاطِرُ المُحدّثُ له بنفسِه، فكذلك كُلُّ ما يتعلّقُ بالأُصول.

٤٤٩- فَصْلٌ

[ميزان الرجُولة]

لا يَغُرَّنّـك مِـن الرجُلِ طَنطَنتُه ولا ما تراهُ يفعلُ مِـن صلاةٍ وصومٍ وصدقةٍ وعُزلةٍ عنِ الخَلق، إنّما الرجُلُ هو الذي يُراعي شيئين: حِفظَ الحُدُود، وإخلاصَ العمل، فكم قد رأينا مُتعبّدًا يخرِقُ الحُدُودَ بالغِيبةِ وفِعلِ ما لا يجُوزُ مِمّا يُوافِقُ هـواه! وكم قد اعتبَرنـا على صاحِبِ دِينٍ أنّه يقصِدُ بفعلِه غيرَ الله تعالى، وهذه الآفةُ تزيدُ وتنقُصُ في الخلق.

فالرجُلُ كُلُّ الرجُلِ هُو الذي يُراعي حُدودَ الله تعالى، وهي ما فُرِضَ عليه وأُلزِمَ به، ولا يتعدّاها إلى هواه، ويُحسِنُ القصد، فيكُونُ عملُه وقولُه خالِصًا لله تعالى، لا يُريدُ بِهِ الخلقَ ولا تعظيمَهم له، فرُبّما خاشعٌ ليُقال: ناسكٌ، وصامتٌ ليقال: خائفٌ، وتارِكٌ للدُّنيا ليقال: زاهِدٌ!

وعلامـةُ المُخلِصِ أن يكُونَ في جَلوتِـه كخَلوتِه، ورُبّما تكلّفَ بين الناسِ التبسُّمَ والانبساطَ لينمحيَ عنه اسمُ زاهِد، فقد كان ابنُ سيرينَ يضحكُ بالنهار، فإذا جَنَّ الليلُ فكأنّهُ قتلَ أهلَ القرية[1].

واعلم أنّ المعمُولَ معهُ لا يُريدُ الشُّـركاء، فالمُخلِصُ[2] مُفرِدٌ له بالقصد، والمُرائي قد أشـركَ[3] ليحصُلَ له مدحُ الناس، وذلك ينقلِب؛ لأنّ قلوبَهم بيدِ

---

(١) تقدم في الفصل ٣٦.

(٢) زاد في (س): «له».

(٣) في (د): «أشرك معه».

مَن أشركَ معه، فهو يُقلِّبُها عليه لا إليه. فالمُوفَّقُ مَن كانت مُعاملتُه باطنة، وأعمالُه خالصة، وذاك الذي تُحبُّه الناسُ وإن كرِهوا، كما يمقُتُون المُرائيَ وإن زاد تعبُّدُه.

ثُمّ إنّ الرجُلَ الموصُوفَ بهذه الخِصالِ لا يتناهى عن كمالِ العُلوم، ولا يقصُرُ عن طلبِ الفضائل، فملأ الزمانَ أكثرَ مما يسعُه مِنَ الخير، وقلبُهُ لا يفتُرُ عنِ العملِ القلبيِّ إلى أن يصيرَ شُغُلُه بالحقِّ سبحانه وتعالى.

٤٥٠- فَصْلٌ
[كبرُ المُتعبدين]

رأيتُ خلقًا[١] يُفرِّطُون في أديانِهم، ثُمّ يقولون: احمِلُونا إذا مِتنا إلى مقبرةِ أحمدَ. أتُراهُم ما سمِعُوا أنّ رسُولَ الله ﷺ امتنعَ مِن الصلاةِ على مَن عليهِ دَين[٢]، وعلى الغالِّ، وقال: «ما ينفعهُ صلاتي عليه»؟!

ولقد رأيتُ أقوامًا مِن العُلماء، حملَهم حُبُّ الصِّيتِ على أنِ استخرجُوا إذنًا من السلطان، فدُفِنوا في دكّةِ[٣] أحمدَ بنِ حنبل، وهُم يعلمُون أنّ هُناك خلقًا بعضُهم على بعض، وما فيهم إلا مَن يعلَمُ أنّه ما يستحقُّ القُربَ مِن مِثلِ ذاك!

فأين احتقارُ النفُوس؟! أما سمِعُوا أنّ عُمرَ بنَ عبدِ العزيزِ قيل له: تُدفَنُ في الحُجرة؟ فقال: «لَأن ألقى الله تعالى بكُلِّ ذنبٍ ما خلا الشِّركَ أحَبُّ إليّ مِن[٤]

(١) زاد في (س): «كثيرًا».
(٢) البخاري (٢٢٩١) من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه.
(٣) زاد في (س): «الإمام».
(٤) سقطت من (ك، ح، س).

أن أرى نفسي أهلًا لذلك»(١)؟ لكِنّ العاداتِ وحُبَّ الرياسةِ غلبَ على هؤلاء، فبقيَ العِلمُ يجري على الألسُنِ عادةً لا للعمل به.

ثُمّ آلَ الأمرُ إلى جماعة، خالَطوا السلاطين، وباشَروا الظُّلم، يُزاحِمون على الدفنِ بمقبرةِ أحمدَ، ويُوصُون بذلك، فليتهُم أوصَوا بالدفنِ في موضعٍ فارغ، إنّما يُدفَنون على موتى، وتخرجُ عِظامُ أولئك، فيُحشَرُون على ما أَلِفوا مِن الظُّلمِ حتّى في موتِهم، وينسَون أنّهم كانوا مِن أعوانِ الظَّلَمة!

أتُرى ما علِمُوا أنّ مُساعِدَ الظالمِ ظالم؟! وفي الحديث: «كفى بالمرءِ خيانةً أن يكُونَ أمينًا للخَوَنة»(٢)، قال السَّجّانُ لأحمدَ بنِ حنبل: هل(٣) أنا مِن أعوانِ(٤) الظَّلَمة؟ فقال: لا، أنتَ مِن الظَّلَمة، إنّما أعوانُ الظَّلَمةِ مَن أعانَكَ في أمرٍ(٥).

٤٥١- فَصْلٌ

[حقيقة الحسَد]

رأيتُ الناسَ يذمُّون الحاسدَ ويبالغون، ويقولون: لا يَحسُدُ إلا شِرِّيرٌ يُعادي نعمةَ الله ولا يرضى بقضائه، ويبخَلُ على أخيهِ المُسلِم. فنظرتُ في هذا، فما رأيتُه كما يقولون، وذاك أنّ الإنسانَ لا يُحِبُّ أن يرتفعَ عليهِ أحدٌ، فإذا رأى صديقَه قد علا عليهِ تأثَّر هو ولم يُحِبَّ أن يرتفعَ عليه، وودَّ أن لو لم ينَلْ

(١) تقدم في الفصل ١٧١.

(٢) رواه أحمد في الزهد (١٨٨٣) من قول مالك بن دينار رحمه الله.

(٣) سقطت من (ك، م).

(٤) سقطت من (ح).

(٥) ذكره إسماعيل الأصبهاني في سير السلف الصالحين (٣: ١٠٥٩).

صديقُـهُ مـا ينال، أو أن ينـالَ هو ما نال ذاك، لئلّا يرتفعَ عليه، وهذا معجونٌ في الطين، ولا لومَ على ذلك، إنّما اللومُ أن يعملَ بمُقتضاهُ مِن قولٍ أو فِعل.

وكُنتُ أظُنُّ أنّ هـذا قد وقـعَ لي عـن [سَبرِي][1] وفَحصِي، فرأيتُ في الحديثِ عن الحسنِ البصريِّ أنّه كان قد سبقَني إليه.

أخبرَنا عبدُ الخالقِ بنُ عبدِ الصمدِ، قال: أخبرَنا ابنُ النقُّور[2]، قال: أخبرَنا المُخلِّصُ، قـال: حدَّثنا البغَويّ، قـال: حدَّثنا أبو رَوحٍ، قـال: حدَّثنا مَخلَدُ بنُ الحُسين، عن هِشـام، عنِ الحسـن، قال: «ليس مِن ولَدِ آدمَ أحدٌ إلا وقد خُلِقَ معهُ الحسدُ». فمَن لم يُجاوِزْ ذلك بقولٍ ولا بفعل، لم يتبَعْه شيء.

٤٥٢- فَصْلٌ
[ضررُ كثرة النساء]

مِن أعظمِ الضررِ الداخلِ على الإنسـانِ كثرةُ النسـاء. إنّه أولًا يَتشتَّتُ همُّه فـي محبَّتِهنَّ، ومُداراتِهـنَّ، وغَيرتِهنَّ، والإنفاقِ عليهـنَّ، ولا يَأمنُ إحداهُنَّ أن تكرهَه وتُريدَ غيرَه فلا تتخلَّصُ إلا بقتلِه. ولو سلِمَ مِن جميعِ ذلك لم يسلَمْ في الكسبِ لهُنّ، فإن سلِمَ لم ينجُ مِن السآمةِ لهنَّ أو لبعضِهنَّ، ويطلبُ ما لا يقدِرُ عليهِ مِن غيرِهنّ، حتى إنّه لو قدرَ على نِساءِ بغدادَ كُلِّهِنّ، فقدِمتِ امرأةٌ مُستتِرةٌ مِـن غيـرِ البلدِ، ظنَّ أنّه يجِـدُ عندها ما ليس عندهُنّ! ولَعَمـري إنّ في الجديدةِ لذّةً، ولكِن رُبَّ مستورٍ إذا انكشفَ افتُضِح.

---

(١) في النسخ: «سري»، والمثبت من المحقق، ولعله الصواب.

(٢) في النسخ: «ابن النقود»، وهو تحريف، والتصويب من المصادر، وابن النقور هو أحمد بن محمد بن أحمد البغدادي البزاز مُسنِد العراق، تُوفي سنة ٤٧٠هـ. سير أعلام النبلاء (١٨: ٣٧٢). والحديث رواه ابن عبد البر في التمهيد (٤: ١١٣).

وإذا سلِمَ مِن كُلِّ أذًى يتعلَّقُ بهِنّ أنهَكَ بدنَه في الجِماع، فيكُونُ طلبُه للالتذاذِ مانِعًا مِن دوامِ الالتذاذ، ورُبَّ لُقمةٍ منعتْ لُقماتٍ، ورُبَّ لذّةٍ كانت سببًا في انقطاعِ لذّاتٍ.

والعاقِلُ مَن يقتصِرُ على الواحِدةِ إذا وافقتْ غرضَه، ولا بُدَّ أن يكُونَ فيها شيءٌ لا يُوافِق، إنّما العملُ على الغالِب، فتُوهَبُ الخَلّةُ الرديّةُ للجيِّدة، وينبغي أن يكونَ النظرُ إلى بابِ الدِّينِ قبل النظرِ إلى الحُسن، فإنّه إذا قلَّ الدينُ لم ينتفِعْ ذو مُروءةٍ بتلك المرأة.

وممّا يُهلِكُ الشيخَ سريعًا الجِماعُ، فلا يغترَّ بما يرى مِن انبساطِ الآلةِ وحُصُولِ الشهوة، وذلك مُستخرِجٌ مِن قُوّتِه ما لا يعودُ مِثلُه، فلا ينبغي أن يغترَّ بحركةٍ وشهوة، ولا يقرُب مِن النِّساءِ إن كان له رأيٌ في البقاء.

٤٥٣- فَصْلٌ
[لا خيرَ في قليل العقل]

إذا رأيتَ قليلَ العقلِ في أصلِ الوضعِ فلا ترجُ خيرَه، فأمّا إذا كان وافِرَ العقل، لكِنّه يغلِبُ عليه الهوى، فارجُه، وعلامةُ ذلك: أنّه يُدبِّرُ أمرَه في جهلِه، فيستتِرُ مِن الناسِ إذا أتى فاحِشةً، ويراقِبُ في بعضِ الأحوال، ويبكي عند الموعِظة، ويحترِمُ أهلَ الدين، فهذا عاقلٌ مغلوبٌ بالهوى، فإذا انتبه بالندمِ انبَسط شيطانُ الهوى وجاء مَلَكُ العقل. فأمّا إذا كان قليلَ العقلِ في أصلِ الوضعِ ـ وعلامتُه: أنّه لا ينظُرَ في عاقِبةٍ عاجِلةٍ ولا آجِلة، ولا يستحِي مِن الناسِ أن يَروهُ على فاحشة، ولا يدبِّرُ أمرَ دُنياه ـ فذاك بعيدُ الرجاء. وقد يندُرُ مِن هؤلاءِ مَن يُفلِح، ويكُونُ السببُ فيهِ خَميرةً مِن العقلِ غطّى عليها كثرةُ الهوى، فمَثَلُهم كمَثَلِ مصرُوعٍ أفاق.

٤٥٤- فَصْلٌ
[الحيطةُ للمستقبل]

ينبغي الاحترازُ مِن كلِّ ما يجوزُ أن يكونَ، ولا ينبغي أن يقال: الغالبُ السلامة، وقد رأينا مَن نزلَ مع الخيلِ في سفينة، فاضطربَت، فغرق مَن في السفينة، وإن كان الغالِبُ السلامة. وكذا ينبغي أن يَقدِرَ[1] الإنسانُ في نفقتِه، وإن رأى الدنيا مُقبلةً؛ لجوازِ أن تنقطِعَ تلك الأسباب، وحاجةُ النفسِ لا بُدَّ مِن قضائها، فإذا بذَّرَ وقتَ السَّعة، فجاء وقتُ الضيق، لم يَأمَنْ أن يدخُلَ في مداخِلِ سُوء، أو أن يتعرَّضَ بالطلبِ مِن الناس. وكذلك ينبغي للمُعافى أن يُعِدَّ للمرض، وللقويِّ[2] أن يتهيَّأ للهَرَم.

وفي الجُملةِ فالنظرُ في العواقِب وفيما يجُوزُ أن يقعَ شأنُ العُقلاء، فأمّا النظرُ في الحالةِ الراهنةِ فحسبُ فحالةُ الجهلةِ الحمقى، مِثلَ أن يرى نفسَهُ مُعافًى وينسى المرضَ، أو غنيًّا وينسى الفقر، أو يرى لذّةً عاجِلةً وينسى ما تَجنِي عواقِبُها. وليس للعقلِ شُغلٌ إلا النظرَ في العواقِب، وهو يُشيرُ بالصواب: أين مَن يَقبَلُ؟!

٤٥٥- فَصْلٌ
[الصبرُ على قَدر الله]

يَبِينُ إيمانُ المؤمنِ عند الابتلاء، فهو يُبالغُ في الدعاءِ ولا يرى أثرًا للإجابة، ولا يتغيَّرُ أملُه ورجاؤُه، ولو قوِيَت أسبابُ اليأس؛ لعِلمِه أنّ الحقَّ أعلمُ بالمصالح، أو لأنّ المُرادَ منه الصبرُ أو الإيمان، فإنه لم يحكُم عليه بذلك

(١) يقدِر: يقتصد.

(٢) في (ك، ح، س، د): «ويتقوى».

إلا وهـو يريـدُ[١] مِن القلبِ التسـليم، لينظُرَ كيف صبرُه، أو يُريـدُ كثرةَ اللَّجاجِ والدعاء.

فأمّا مَن يُريدُ تعجيلَ الإجابة، ويتذمَّرُ إن لم تتعجَّل، فذاك ضعيفُ الإيمان، يرى أنّ له حقًّا في الإجابة، وكأنّه يتقاضى بأُجرةِ عملِه!

أمـا سـمِعتَ قِصّـةَ يعقُـوبَ عليه السـلام[٢]؟ بقيَ ثمانينَ سـنةً فـي البلاء، ورجـاؤُه لا يتغيَّـر، فلمّـا ضُمَّ إلى فقدِ يُوسُـفَ فقدُ ابنِه بنيامين، لـم يتغيَّر أملُه، وقال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ﴾ [يوسف: ٨٣].

وقـد كشـفَ هـذا المعنـى قولُـه تعالـى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [البقرة: ٢١٤]، ومعلُومٌ أنّ هذا لا يصدُر مِن الرسُولِ ﷺ والمُؤمِنين إلا بعد طُولِ البلاءِ وقُربِ اليـأسِ مِـن الفـرج. ومِن هذا قـولُ رسُـولِ الله ﷺ: «لا يزالُ العبـدُ بخيرٍ ما لم يَستعجِل»، قيل له: وما يَستعجِل؟ قال: «يقول: دعوتُ فلم يُستجَب لي»[٣].

وإيّاك إيّاك أن تستطيلَ زمانَ البلاء، أو تَضجَرَ مِن كثرةِ الدعاء، فإنّك مُبتلًى بالبلاء، مُتعبَّدٌ بالصبرِ والدعاء، ولا تيئسْ مِن رَوحِ الله تعالى وإن طال البلاء.



(١) في النسخ: «فإن لم تحكم له إلا هو يريد»، والمثبت عن (ط).
(٢) تقدم في الفصل ١٣٥.
(٣) تقدم في الفصل ٣٨.

٤٥٦- فَصْلٌ
[اللذة عُملة زائفة]

تفكَّرتُ في سببِ دخولِ جهنّمَ، فإذا هو المعاصي، فنظرتُ في المعاصي، فإذا هي حاصِلةٌ مِن طلبِ اللذّات، فنظرتُ في اللذّاتِ فرأيتُها خُدَعًا ليست بشيء، وفي ضمنِها مِن الأكدارِ ما يُصيِّرُها نغصًا، فتخرُجُ عن كونِها لذّات، فكيف يبيعُ العاقِلُ نفسَه ويرضى بجهنَّمَ لأجلِ هذه الأكدار؟! فمِن اللذّاتِ الزِّنا، فإن كان المُرادُ إراقةَ الماءِ فقد يُراقُ في حلال، وإن كان في معشوقٍ فمُرادُ النفسِ دوامُ البقاءِ مع المعشوق، فإذا هو ملَكَه فالمملوكُ مملولٌ، وإن هو قارَبهُ ساعةً ثُمّ فارقَه فحسرةُ الفِراقِ تربُو على لذّةِ القُرب، وإن كان ولدٌ مِن الزِّنا فالفضيحةُ الدائمة، والعقوبةُ التامّة، وتنكيسُ الرأسِ عند الخالقِ والمخلوق، وأمّا الجاهِلُ فيرى لذّتهُ في بُلوغِ ذلك الغرض، وينسى ما يجني مِمّا يُكدِّرُ عيشَ الدنيا والآخِرة.

ومن ذلك شُربُ الخمر، فإنّه تنجيسٌ للفمِ والثوب، وإبعادٌ للعقل، وتأثيراتُه معلومةٌ عند الخالِقِ والمخلوق، فالعجبُ مِمَّن يُؤثِرُ لذّةَ ساعةٍ تجني عِقابًا وذَهابَ جاهٍ، ورُبّما خرجَ بالعربدةِ إلى القتل. وعلى هذا فقِسْ جميعَ المَذُوقات، فإنّ لذّاتِها إذا وُزِنَت بميزانِ العقلِ لا يَفِي بمِعشارِ عُشَيرِ عواقِبها القِباحِ في الدنيا والآخِرة، ثُمّ هي في نفسِها ليست بكبيرِ شيء، فكيف تُباعُ الآخِرةُ بمِثلِ هذا؟!

سُبحانَ مَن أنعمَ على أقوام كُلَّما لاحَت لهُم لذّةٌ نصَبُوا ميزانَ العقل، ونظرُوا فيما يجني، وتلمَّحوا ما يُؤثِّرُ تركُها، فرجَّحُوا الأصلح، وطمسَ على قلوب، فهي ترى صُورةَ الشيء وتنسى جِناياتِه!

ثُـمّ العجـبُ أنّـا نرى مَن يبعُـدُ عن زوجتِه وهُو شـابٌّ ليعـدُوَ في الطريق، فيُقـال: سـاعٍ! فيغلـبُ هواهُ لطلبِ مـا هو أعلى ـ وهو المـدحُ ـ فكيف لا يتركُ مُحرَّمًـا ليُمـدَحَ فـي الدنيا والأخـرى؟! ثُمّ قَـدِّر حُصُولَ ما طلبتَ مـن اللّذاتِ وذَهابَها، واحسَـبْ أنّها قد كانت وقد هانَت وتخلَّصتَ مِن مِحَنِها. وأين تعبُ عالِـمٍ قد درسَ العِلمَ خمسين سـنة؟! ذهـبَ التعبُ وحصلَ العِلـمُ، وأين لذّةُ البطّال؟! ذهبتِ الراحةُ وأعقبتِ الندم!

٤٥٧ ـ فَصْلٌ

[عاقبةُ الشهوات]

مَن وقفَ على مُوجِبِ الحِسِّ هلَك، ومَن تبعَ العقلَ سلِمَ. إنّ مُجرَّدَ الحِسِّ لا يـرى إلا الحاضِر، وهو الدنيا، وأمّا العقلُ فإنّه ينظرُ إلى المخلوقات، فيعلمُ وُجُودَ الخالِق، قد منعَ وأباحَ، وأطلقَ وحظر، وأخبرَ أنّي مُسـائلُكم ومُبتلِيكُم، ليظهرَ دليلُ وجُودي عندكُم بتركِ ما تشتهُون طاعةً لي، وأنّي قد بنيتُ لكُم دارًا غيرَ هذه، لثوابِ مَن يُثاب، وعُقُوبةِ مَن يُخالِف.

ثُـمّ لو تُرِكَ الحِسُّ وما يَشـتهِي مع أغراضِه قـرُبَ الأمر! إنّما يزني فيُجلَد، ويشـربُ الخمـرَ فيُعاقَـب، ويسـرِقُ فيُقطَـع، ويفعلُ زلّـةً فيُفضَحُ بيـن الخلق، ويُعـرِضُ عـنِ العِلـمِ إلى البطالـةِ فيقعُ الندمُ عنـد حُصُولِ الجهل. ثُـمّ إنّا نرى الكثيـرَ مِمَّـن عمِـلَ بمُقتضى عقلِهِ قد سـلِمَتْ دُنيـاهُ وآخِرتُه، ومُيِّـز بين الخلقِ بالتعظيم، وقد كان عيشُـه في لذّاتِه غالِبًا خيرًا مِن عَيشِ مُوافِقِ الهوى. فليعتبرْ ذو الفهمِ بما قُلت، وليَعمَلْ بمُقتضى الدليل، وقد سلِم.



٤٥٨- فَصْلٌ

[الاقتصادُ في العلاقة الزوجية]

العجبُ لمُؤثِرِ شهواتِ الدنيا، ألا يتدبَّرُ أمرَها بالعقلِ قبل أن يصيرَ إلى منقولاتِ الشرع؟! إنّ أعظمَ لذّاتِ الحِسِّ الوطء، فالمرأةُ المُستحسَنةُ إنّما يكونُ حالُ كمالِها مِن وقتِ بلوغِها إلى الثلاثين، فإذا بلغَت أثَّر فيها، ورُبّما ابيضَّت شَعراتٌ مِن رأسِها فيَنفِرُ الإنسانُ منها، وقد يقعُ المللُ قبل ذلك، وطولُ الصُّحبةِ يكشِفُ العيوب.

وما عِيبَ نِساءُ الدنيا بأبلغَ مِن قوله تعالى: ﴿لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [النساء: ٥٧]، فلو تفكَّرَ الإنسانُ في جسدٍ مملوءٍ بالنجاسةِ ما طابَ له ضمُّه، غيرَ أنّ الشهوةَ تُغطِّي عينَ الفكر، فالعاقِلُ مَن حفِظَ دينَه ومُروءتَه بتركِ الحرام، وحفِظَ قُوّتَهُ في الحلال، فأنفقَها في طلبِ الفضائلِ مِن عِلمٍ أو عمل، ولم يَسعَ في إفناءِ عُمُرِه وتشتيتِ قلبِه في شيءٍ لا تحسُنُ عاقِبتُه: [البسيط]

ما في هَوادِجِكُم مِن مُهجَتي عِوَضٌ ... إنْ مِتُّ شَوقًا ولا فِيها لَها ثَمَنُ(١)

وعمُومُ مَن رأينا مِن الكبارِ غلبَت عليهم شهوةُ الوطء، فانهدمَت أعمارُهم، ورحلُوا سريعًا، وقد رأينا مِن العُقلاءِ مَن زجرَ نفسَه عن هذه المِحنة، ولم يستعمِلْها إلا وقتَ الحاجة، فبقيَ لهم سوادُ شُعورِهم وقُوّتُهم، حتّى تمتَّعُوا بها في الحياة(٢)، وحصَّلوا المناقب، وعرَفَتْ منهم النفُوسُ قُوّة العزيمة، فلم تُطالِبْهم بما يُؤذي.



(١) للمتنبي في ديوانه (ص٤٧١).

(٢) زاد في (س): «الدنيا».

٤٥٩- فصل
[معنى رُؤيا الرسول]

قد أشكلَ على بعضِ الناسِ رؤيةُ النبيِّ ﷺ منامًا، وقولُه: «مَن رآني في المنامِ فقد رآني»(١)، فقال: ظاهِرُ الحديثِ أنّه يراهُ حقيقة، وفي الناسِ مَن يراهُ شيخًا وشابًّا ومريضًا ومعافًى! فالجواب: أنّه مَن ظنَّ أنّ جسدَ رسُولِ الله ﷺ المُودَعَ في المدينةِ خرجَ مِن القبرِ وحضرَ في المكانِ الذي رآهُ فيه، فهذا جهلٌ لا جهلَ يُشبِهُه، فقد يراهُ في وقتٍ واحِدٍ ألفُ شخصٍ في ألفِ مكانٍ على صُوَرٍ مُختلِفة، فكيف يُتصوَّرُ هذا في شخصٍ واحد؟! وإنّما الذي يُرى مِثالُه لا شخصُه، فيبقى «مَن رآني فقد رآني» فمعناه: قد رأى مِثالي الذي يُعرِّفُهُ الصواب، ويحصُلُ به الفائدةُ المطلُوبة.

فإن قيل: فما تقولون في رُؤيةِ الحقِّ سُبحانه؟ فنقُول: يُرى مِثالًا لا مِثلًا، والمِثالُ لا يفتقرُ إلى المُساواةِ والمُشابهة، كما قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧]، فضربهُ مِثالًا للقرآنِ وانتفاعِ الخلقِ به.

ويُوضِّحُ هذا أنّه إنّما يرى مَن رأى الحقَّ سبحانه وتعالى على هيئةٍ مخصوصة، والخالقُ سبحانه وتعالى مُنزَّه، قد توَحَّد، فوضحَ ما قُلناه.

٤٦٠- فصلٌ غزير الفائدة
[أولوياتُ طالب العلم]

اعلم أنّه لو اتَّسعَ العُمرُ لم أمنعْ مِن الإيغالِ في كُلِّ عِلمٍ إلى مُنتهاه، غيرَ أنّ العُمرَ قصير، والعِلمَ كثير! فينبغي للإنسانِ أن يقتصِرَ مِن القِراءاتِ إذا حفظَ القُرآنَ

(١) البخاري (٦٩٩٤) من حديث أنس رضي الله عنه.

على العشرة، ومِن الحديثِ على الصِّحاحِ والسُّنَنِ والمسانيدِ المُصنَّفة، فإنّ علومَ الحديثِ قدِ انبسطَت زائدةً في الحدِّ، وما في هذا الجزء[١]، وإنّما الطُّرُقُ تختلف.

وعِلمُ الحديثِ يتعلَّقُ بعضُه ببعض، وهو مُشتهًى، والفُقهاءُ يُسمُّونه عِلمَ الكُسالى؛ لأنّهم يتشاغلُون بكتابتِه وسماعِه، ولا يكادُون يُعانُون حِفظَه، ويفُوتُهم المُهِمّ، وهو الفِقه.

وقد كان المُحدِّثون قديمًا هُمُ الفُقهاءَ، ثُمّ صار الفقهاءُ لا يعرِفُون الحديث، والمُحدِّثون لا يعرفون الفقه، فمَن كان ذا هِمّة، ونصحَ نفسَه، تشاغلَ بالمُهِمِّ مِن كُلِّ عِلم، وجعلَ جُلَّ شغلِهِ الفِقهَ، فهو أعظمُ العُلومِ وأهمُّها.

وقد قال أبو زُرعةَ: كتبَ إليَّ أبو ثورٍ: فإنّ هذا الحديثَ قد رواهُ ثمانيةٌ وتسعون رجلًا عن رسُولِ الله ﷺ، الذي صحَّ منه طُرُقٌ يسيرة.

فالتشاغُلُ بغيرِ ما صحَّ يمنعُ التشاغُلَ بما هو أهمّ، ولوِ اتَّسعَ العُمرُ كان استيفاءُ كُلِّ الطُّرُقِ في كُلِّ الأحاديثِ غايةً في الجودة، ولكِنَّ العُمرَ قصير. ولمّا تشاغلَ بالطُّرُقِ أقوامٌ مِثلُ يحيى بنِ معينٍ فاتهُ مِن الفِقهِ كثير، حتّى إنّه سُئلَ عنِ الحائض: يجُوزُ أن تُغسِّلَ الموتى؟ فلم يَعلَم حتّى جاء أبو ثَورٍ، فقال: يجُوز؛ لأنّ عائشةَ رضي الله عنها قالت: كُنتُ أُرجِّلُ رأسَ رسُولِ الله ﷺ وأنا حائض[٢]. فيحيى أعلمُ بالحديثِ منه، ولكِن لم يَتشاغلْ بفهمِه، فأنا أنهى أهلَ الحديثِ أن يشغلَهُم كثرةُ الطُّرُق.

---

(١) يعني: أنه ليس في هذا من المتون الصحيحة إلا الجزء اليسير، وإنما الكثرة في الطرق. انظر: صيد الخاطر (ص٦٩٠، هامش ١)، طبعة ابن خزيمة.

(٢) البخاري (٢٩٥)، ومسلم (٢٩٧)، وخبر ابن معين ذكره الرامهرمزي في المحدث الفاصل (١٤٥)، وهو دالّ على أن الإمام ابن معين لا يستحيي من أن يتوقف في مسألة لا يعلمها.

ومِن أقبحِ الأشياءِ أن تجريَ حادثة، يُسألُ عنها شيخٌ قد كتبَ الحديثَ ستّينَ سنة، فلا يعرِفُ حُكمَ الله عز وجل فيها. وكذلك أنهى مَن يتشاغلُ بالتزهُّدِ والانقطاعِ عنِ الناسِ أو يُعرِضُ عنِ العلم، بل ينبغي أن يجعلَ لنفسِهِ مِنه حظًّا، ليعلمَ إن زلَّ كيف يتخلَّص.

٤٦١ـ فَصْلٌ

[العقلُ السليم في الجسم السليم]

معرفةُ الله سبحانه وتعالى لا تحصُلُ إلا لكاملِ العقلِ صحيحِ المِزاجِ، والترقّي إلى محبّتِه بذلك يكونُ، وإنّ أقوامًا قلَّت عُقُولُهم، وفسدَت أمزِجتُهم، فساءت مطاعِمُهم وقلَّت، فتخايلَت لهم الخيالاتُ الفاسِدة، فادَّعوا معرِفةَ الحقِّ ومحبّتَه، ولم يكُن عندَهم مِن العِلمِ ما يصدُّ عمّا ادَّعوا، فهلكُوا. وليُعلَمْ أنّ في المأكُولاتِ إفسادَ العقل، وفيها ما يزيدُ في السّوداءِ[1] فيُوجِبُ المالخوليا، فترى صاحِبَها يحِبُّ الخلوة، ويهربُ مِن الناس، ويُقلِّلُ المطعم، فيقوى مرضُه، فيتخايلُ له خيالاتٌ يظنُّها حقًّا، فمنهم مَن يقول: رأيتُ الملائكة، وفيهم مَن يُخرِجُه الأمرُ إلى دعوى محبّةِ الحقِّ والوَلَهِ[2] فيه، ولا يكُونُ ذلك عن أصلٍ مُعتمَدٍ عليه.

وإنّما العاقِلُ العالِمُ يسري في الطريقِ بين الرفيقَين: العِلمِ والعقل، فإن تقلَّلَ مِن الطعامِ فبعقل، وحدُّ التقلُّلِ تركُ فُضُولِ المطعم، وما يُخافُ شرُّه مِن شُبهةٍ أو شهوةٍ يحذَرُ تعوُّدَها، وأمّا زيادةُ التقلُّلِ مع القُدرة، فليس لعقلٍ ولا شرع، إلا أن يكُونَ الفقرُ قد عمَّ، فيتقلَّلُ ضرورةً.

---

(١) السّوداء: أحد الأخلاط الأربعة التي زعم الأقدمون أن الجسم مُهيَّأ عليها، بها قوامه، ومنها صلاحه وفساده.

(٢) الوَلَهُ: التحيُّر وذهاب العقل.

ومَن تأمَّلَ حالَ رسُولِ الله ﷺ وأصحابِه، وجدهم يأخُذُون بمِقدار، ولا يتركون حُظُوظَ النفسِ التي تُصلِحُها، وأحسنُ الأمرِ وأعدلُه قولُ رسُولِ الله ﷺ: «ثُلُثٌ طعامٌ، وثُلُثٌ شرابٌ، وثُلُثٌ نَفَسٌ»(١)، وقد قال لعليِّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه وهو مريض: «أصِبْ من هذا الطعام، فهو أوفَقُ لكَ من هذا»(٢)، وكان ﷺ يُشاوِرُ الأطباء(٣)، ويحتجِمُ، ويحثُّ على التداوي، ويقول: «ما أنزلَ الله داءً إلا وأنزَلَ له شفاءً، فتَداوَوا»(٤).

فجاء أقوامٌ جهِلُوا العِلمَ والحِكمةَ في بُنيانِ الأبدان، فمنهم مَن أقام في الجِبالِ يأكُلُ البَلُّوطَ(٥) فأصابه القُولَنج، ومنهم مَن قلَّلَ المطعمَ إلى أن ضعُفت قُواهُ، ومنهم مَنِ اقتَصر على نباتِ الصحراء، ومنهم مَن كان لا يتقوَّتُ إلا الباقِلّاء والشَّعير، فأوجبَت هذه الأفعالُ أمراضًا في البدن، وترقَّت إلى إفسادِ العقل.

واتَّفقَ لهُم قِلّةُ العلم؛ إذ لو علِموا لَفهِموا أنّ الحِكمةَ تنهى عن مِثلِ هذا، فإنّ البدنَ مبنيٌّ على أخلاط، إذا اعتدلَت وقعَتِ السلامة، وإذا زاد بعضُها وقعَ المرض، وأكثرُ هؤلاء مرِضُوا وتُعُجِّلَ لهم الموت، وفيهم مَن خرجَ إلى التسَودُن(٦)، وفيهم مَن لاحَت له لوائح، فادَّعى رُؤيةَ الملائكة، إلى غيرِ ذلك.

فأمّا أهلُ العِلمِ والعقل، فهربُهم مِن الخَلقِ لخوفِ المعاصي ورُؤيةِ المُنكر، وفيهم مَن قد قوِيَت معرفتُه فشغلَته معرِفةُ الحقِّ ومحبَّتُه عن مُلاقاةِ

(١) تقدم في الفصل ١٩.
(٢) تقدم في الفصل ٥١.
(٣) روى مسلم (٢٢٠٧) عن جابر، قال: بعث رسول الله ﷺ إلى أبيّ بن كعب طبيبًا، فقطع منه عرقًا، ثم كواه عليه.
(٤) تقدم في الفصل ٥١.
(٥) البَلُّوط: شجر له حمل يؤكل، ويُدبَغ بقشره.
(٦) التسودُن: الماليوخوليا.

الخَلق، فهذه هي الخَلواتُ الصافيةُ؛ لأنّها تصدُرُ عن علمٍ وعقلٍ، فتحفظُ البدن؛ لأنّه ناقةُ تُوصيل.

ولا ينبغي أن يتهاونَ بالمأكُولات، خُصُوصًا مَن لم يَعتَدْ، ولا يلبَسَ الصُّوفَ على البدن مَا لم يَعتَد، ولينظرْ في طريقِ رسولِ الله ﷺ وصحابتِه، فإنّهم القُدوة، ولا يلتفِت إلى بُنَيّاتِ الطريق، فيقال: فُلانٌ الزاهِدُ قد أكلَ الطين، وفُلانٌ كان يمشي حافيًا، وفُلانٌ بقيَ شهرًا ما أكل، فإنّ المُحقِّقين مِن هؤلاءِ المُخلِصين لله تعالى على غيرِ الجادّة؛ لأنّ الجادّةَ اتّباعُ رسُولِ الله ﷺ وأصحابِه، وما كانوا يفعلُون هذا.

ولَعَمري إنّه قد كان فيهم مَن يقنعُ بالمَذقةِ مِن اللبن، ويصبرُ الأيامَ عنِ الطعام، ولكِن إمّا لضرورة، أو لأنّه معتادٌ لذلك، كما يعتادُ البدويُّ شُربَ اللبن وحدَه، ولا يُؤذيهِ ذلك، وفي الحديث: «عوِّدُوا كُلَّ بدنٍ ما اعتاد»[١].

وفي المُتزهِّدين مَن أخرجَ مالَه كُلَّه عن يدِه زُهدًا، ومعلومٌ أنّ الحاجاتِ لا تنقضي، فلمّا احتاج تعرَّضَ للطلب، وافتقرَ إلى أخذِ مالٍ مِن يدِ مَن[٢] يعلمُ أنّه ظالم، وبذلَ وجهَه! وقد كانتِ الصحابةُ تتّجِرُ وتحفظُ المال، وجُهّالُ المُتزهِّدين يرون أنّ[٣] جمعَ المالِ يُنافي الزهد!

فمِمخَضةُ[٤] هذا الفصلِ أن أقول: ينبغي لمَن رُزِقَ فهمًا أن يسعى في

---

(١) ذكره ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء (ص١٦٥) من كلام طبيب العرب الحارث بن كلدة.

(٢) سقط «يد من» من (د).

(٣) سقطت من (ح).

(٤) المِمخَضة: اسم آلة، وهي الوعاء الذي يُحرَّك فيه اللبن، يريد: جملة القول في هذا الباب وخلاصته.

صلاح بدنِه، ولا يحمِلَ عليهِ ما يُؤذيه، ولا يُناولَه مِن القُوتِ ما لا يُوافِقُه، ولا يُضيِّعَ مالَه، وليجتهِدْ في استثمارِه؛ لئلّا يحتاج، فإنّه ما نافَقَ زاهِدٌ إلا لأهلِ الدنيا[١]. ولينظُرْ في سِيَرِ الكامِلين مِن السلف، وليتشاغلْ بالعلم، فإنّه الدليل، فحينئذٍ يحملُه الأمرُ على الخلوةِ بربِّه، والاشتغالِ بحُبِّه، فيكُونُ ما ظهرَ منه ثمرةً نضيجةً لا فجّةً، والله الموفِّق.

٤٦٢- فَصْلٌ

[الصبرُ على الفقر]

ما رأيتُ أظرفَ من لَعِبِ الدنيا بالعقول، وقد سمِعنا ورأينا جماعةً مِن الفُطناءِ الكامِلي العقلِ لعبَت بهم الدنيا حتّى صارُوا كالمجانين، فوُلُّوا الولايات، فخرجُوا إلى القتلِ والضربِ والحبسِ والشتمِ وذَهابِ الدين والمُباشرةِ للظُّلم[٢]؛ كُلُّه لأجل دُنيا تذهبُ سريعًا، وفي مُدّةِ إقامتِها هي[٣] معجونةٌ بالنغص.

فيا أيُّها المرزُوقُ عقلًا! لا تبخسْه حقَّه، ولا تُطفئ نُورَه، واسمعْ ما نُشيرُ به، ولا تلتفِتْ إلى بكاءِ طفلِ الطبع لفواتِ غرضِه، فإنّك إن رحِمتَ بكاءَه لم تقدِرْ على فِطامِه، ولم يُمكِنْك تأديبُه، فيبلُغُ جاهِلًا فقيرًا: [مجزوء الكامل]

لا تَسْهُ عَن أدَبِ الصَّغِيـ ـرِ ولو شَكا أَلَمَ التَّعَبْ
ودَعِ الكَبِيرَ لِشَأنِهِ كَبِرَ الكَبِيرُ عَنِ الأدَبْ[٤]

(١) كذا في النسخ، ولعل الصواب: «لأجل الدنيا».
(٢) عن (د، ط)، وفي بقية النسخ: «والظلم». (٣) سقطت من (د).
(٤) رواه الخطيب في الزهد والرقائق (٥٦).

واعلـم أنّ زمـانَ الابتـلاءِ ضيفٌ قِراهُ الصبـر، كما قال[١] أحمـدُ بنُ حنبلٍ رحمه الله: «إنّما هو طعامٌ دُون طعام، ولباسٌ دون لباس، وإنّها أيامٌ قلائل»[٢]. فلا تنظُر إلى لذّة المُترَفِين، وتلمَّحْ عواقبَهم، ولا تضِقْ صدرًا بضيقِ المعاش، وعلِّلِ الناقةَ بالحدوِ تسِر: [البسيط]

طاولْ بهـا الليلَ مالَ النَّجمُ أم جَنَحَا ... وماطِلِ النَّومَ ضَنَّ الجَفنُ أم سَـمَحَا
فإن تَشَـكَّتْ فعَلِّلْهـا المَجَـرَّةَ مِن ... ضَوءِ الصَّباحِ وعِدْها بالرَّواحِ ضُحَى[٣]

وقد كان أُهدِيَ إلى أحمدَ بنِ حنبلٍ هديّةٌ فردَّها، ثُمّ قال بعد سنةٍ لأولادِه: لو كُنّا قبِلناها كانت قد ذهبَت[٤].

ومرَّ بِشرٌ على بئر، فقال له صاحبُه: أنا عطشان. فقال: البئرُ الأُخرى، فمرَّ عليها، فقال له: الأُخرى، ثُمّ قال: كذا تُقطَعُ الدنيا[٥].

ودخَلوا إلى دارِ بشرٍ الحافي، وليس في دارِه حصير، فقيل له: ألا بذا تُؤذى؟ فقال: هذا[٦] أمرٌ ينقضي.

وكان لداودَ الطائيِّ دارٌ يأوِي إليها، فوقعَ سـقف، فانتقلَ إلى سـقف، إلى أن مات في الدِّهليز[٧].

فهؤلاء الذين نظَروا في عواقبِ الأمور، وبعد هذا فلا أُطالِبُكَ بهذه الرتبة، بـل أقـولُ لـك: إن حصـلَ لك[٨] شـيءٌ مِـن المُباح، لا مَـنَّ فيـهِ ولا أذى، ولا

(١) زاد في (س): «الإمام».
(٢) رواه المروذي في الورع (٢٤٥).
(٣) تقدم هذا البيت فقط في الفصل ٥٩.
(٤) رواه صالح بن أحمد في سيرة الإمام أحمد بن حنبل (ص٤٥).
(٥) تقدم في الفصل ٥٩.
(٦) سقطت من (ك، س).
(٧) الدِّهليز: المَدخل بين الباب والدار.
(٨) في (ك، س): «كل».

نِلتَه بسُـؤال، ولا مِن يدِ ظالمٍ تعلَمُ أنّ مالَه حرامٌ أو شُـبهة، فافسَـحْ لنفسِكَ في مُباحاتِهـا بمِقـدارِ ما تحتاجُ إليـه، وكُن مُقدِّرًا للنفقةِ غيرَ مُبـذِّر، فإنّ الحلالَ لا يَحتمِـلُ السَّـرَف، ومتى أسـرَفتَ احتَجتَ إلـى التعرُّضِ للخَلـق، والتناوُلِ مِن الأكدار.

وإن ضـاقَ بـك أمرٌ فاصبِـر، فإن ضعُفَ الصبرُ فسَـلْ فاتِـحَ الأبواب، فهو الكريـمُ وعنـدهُ مفاتِحُ الغيـب، وإيّاك أن تبذُلَ دينَك بتصنُّـعٍ للخَلق، أو بتقرُّبٍ إلى الأُمراء، أو تستعطيَ أموالَهم، واذكُر طريقَ السلف.

كان ابنُ سَـمعُونَ لـه ثيـابٌ يجلسُ فيها للنـاس، ثُمّ يطويهـا إلى المجلِسِ الآخـر، وَرِثَهـا عـن أبيه، بقيَت له[1] أربعين سـنة، وكانت ميمونةُ بنتُ شـاقُولةَ تعِظُ الناسَ ولها ثيابٌ قد[2] بقيَت أربعين سنة[3].

ومَـن صفـا نظرُه وتهـذَّبَ لفظُه، نفعَ وعظُـه، ومَن كَدَّرَ كُـدِّرَ عليه. والحالةُ العاليـةُ فـي هذا إقبـالُ القلـبِ على الله عز وجـل، والتـوكُّلُ عليه، والنظـرُ إليه، والتِفـاتُ القلـبِ عـن الخلق، فـإنِ احتجتَ فاسـأله، وإن ضعُفـتَ فارغبْ إليه، ومتى ساكَنتَ الأسبابَ انقطعتَ منه، ومتى استقام باطِنُكَ استقامَتْ لك الأمور.



---

(١) سـقطت من (ح، د). وابن سـمعون هو أبو الحسـين محمد بن أحمد بن إسماعيل البغدادي، شيخ زمانه ببغداد، تُوفي سنة ٣٨٧هـ. سير أعلام النبلاء (١٦: ٥٠٥).

(٢) سقطت من (ك، س).

(٣) سـقط مـن قولـه: «وكانـت ميمونة» إلى هنـا من (ح). وميمونة بنت شـاقولة ـ أو سـاقولة بالسـين، وهـو تصحيـف ـ هي الواعظة التي هي للقرآن حافظة، تُوفيت سـنة ٣٩٣هـ. المنتظم لابن الجوزي (١٥: ٤٢)، والبداية والنهاية (١٥: ٥٠٢).

٤٦٣- فصل

[أين الصداقة ؟]

رأيتُ نفسي تأنَسُ بخُلطاءَ نُسمِّيهم أصدقاء، فبحثَتِ التجاربُ عنهم، فإذا أكثرُهم حُسّادٌ على النِّعَم، وأعداءٌ لا يسترون زلّة، ولا يعرِفون لجليسٍ حقًّا، ولا يُواسُون مِن مالِهم صديقًا! فتأمَّلتُ الأمرَ، فإذا الحقُّ سبحانه يَغارُ على قلبِ المُؤمِنِ أن يجعلَ له شيئًا يأنَسُ به، فهو يُكدِّرُ عليهِ الدنيا وأهلَها؛ ليكونَ أُنسُهُ به. فينبغي أن يعُدَّ الخلقَ كُلَّهم معارِفَ، ليس فيهم صديق، بل تحسبُهم أعداءً.

ولا تُظهِر سِرَّك لمخلوقٍ منهم، ولا تعُدَّنَّ مَن يصلُح لشِدّة، لا ولدًا ولا أخًا ولا صديقًا، بل عامِلْهم بالظاهِر، ولا تُخالِطْهم إلا حالةَ الضرُورةِ بالتوقِّي لحظة، ثُمّ انفِرْ[1] عنهم وأقبِلْ على شأنِك، مُتوكِّلًا على خالقِك، فإنّه لا يجلِبُ الخيرَ سِواه، ولا يصرِفُ السُّوءَ إلا إيّاه، فليكُن جليسَك وأنيسَك، وموضِعَ توكُّلِك وشكواك، فإن ضعُفَ صبرُك فاستغِثْ به، وإن قلَّ يقينُك فسَلْه القُوّة، وإيّاك أن تميلَ إلى غيرِه، فإنّه غيُور، وأن[2] تشكُوَ مِن أقدارِه، فربما لم يحتمل.

أوحى الله[3] عز وجل إلى يُوسُفَ عليه السلام: مَن خلَّصَكَ مِن الجُبِّ؟ مَن فعل؟ مَن فعل؟ قال: أنتَ. قال: فلِمَ ذكرتَ غيري؟! فلأُطِيلَنَّ حبسَك، أو كما قال[4].

هذا، وإنّما تعرَّضَ يُوسُفُ عليه السلام بسببٍ مباح: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]، ﴿وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ﴾ [التوبة: ٢٥].

---

(١) في (د): «انفرد».

(٢) في (ك، د): «أو أن».

(٣) لفظ الجلالة ليس في (ح، د).

(٤) رواه السيوطي في الدر المنثور (٨: ٢٦٠).

وما أعرِفُ العيشَ إلا لمَن يعرِفُه ـ جلَّ شأنه ـ ويعيشُ معه، ويتأدَّبُ بين يديهِ في حركاتِه وكلماتِه كأنَّهُ يراه، ويقفُ على بابِ طَرْفِهِ حارِسًا مِن نظرةٍ لا تصلُح، وعلى بابِ لسانِه حافِظًا له مِن كلِمةٍ لا تحسُن، وعلى بابِ قلبِه حمايةً لمسكنِه مِن دُخُولِ الأغيار، ويستوحِشُ مِنَ الخلقِ شُغلًا به، وهذا يكونُ على سيرةِ الرُّوحانيِّين، فأمّا المُخلِّط فالكَدَرُ غالِبٌ عليه، والمُحِقُّ لا يطلُبُ إلا الأرفعَ. قال القائل[1]: [الطويل]

ألا لا أُحِبُّ السَّيرَ إلا مُصاعِدًا ... ولا البَرقَ إلا أنْ يَكُونَ يَمانِيَا

٤٦٤ـ فَصْلٌ

[علماء السُّوء]

رأيتُ أكثرَ العلماء مُشتغِلين بصُورة العِلم دون فهم حقيقتِه ومقصُودِه، فالقارئ مشغولٌ بالروايات، عاكفٌ على الشواذِّ، يرى أنّ المقصُودَ نفسُ التلاوة، ولا يتلمَّحُ عظمةَ المُتكلِّم، ولا زجرَ القُرآن ووعدَه، ورُبّما ظنَّ أنّ حِفظَ القُرآنِ يدفعُ عنه، فتراه يترخَّصُ الذنوب، ولو فهِم لعلِم أنّ الحُجّةَ عليهِ أقوى مِمَّن لم يقرأ!

والمُحدِّثُ يجمعُ الطُّرُق، ويحفظُ الأسانيد، ولا يتأمَّلُ مقصُودَ المنقُول، ويرى أنّه قد حفظَ على الناسِ الأحاديثَ، فهو يرجُو بذلك السلامة، ورُبّما ترخَّصَ في الخطايا، ظنًّا منه أنّ ما فعلَ في الشريعةِ يدفعُ عنه!

والفقيهُ قد وقعَ له أنّه بما قد عرَفَ مِن الجدلِ الذي يُقوِّي بهِ خِصامَه، والمسائلِ التي قد عرَفَ فيها المذهبَ، قد حصَّلَ بما يُفتِي به الناسَ ما يرفعُ

---

(١) ديوان مجنون ليلى (ص٢٣٨).

قـدرَه، ويمحُـو ذنبَـه، فربّما هجـمَ على الخطأ، ظنًّـا مِنه[1] أنّ ذلـك يدفعُ عنه، وربّمـا لـم يحفَظِ القـرآن، ولم يعرِفِ الحديـث، وأنّهما ينهيانِ عـنِ الفواحِشِ بزجـرٍ وترقيـق، وينضافُ إليه مع الجهلِ بهما حُبُّ الرياسـة، وإيثـارُ الغلبةِ في الجدل، فتزيدُ قسـوةُ قلبِه! وعلى هذا أكثرُ الناس، صُوَرُ العِلمِ عندهم صِناعة، فهي تُكسِبُهم الكِبرَ والحماقة!

وقد حَكى بعضُ المُعتبِرين عن شـيخٍ أفنى عُمرَه في عُلُومٍ كثيرة، أنّه فُتِنَ في آخرِ عمرِه بفسقٍ أصرَّ عليه، وبارَزَ الله به، وكانت حالُه تُعطِي بمضمونِها أنّ عِلمي يدفعُ عنّي شرَّ ما أنا فيه، ولا يبقى له أثرٌ، وكان كأنّه قطعَ لنفسِهِ بالنجاة، فلا يُرى عنده أثرٌ لخوفٍ، ولا ندمٌ على ذنب. قال: فتغيّر في آخِرِ عُمرِه ولازمَهُ الفقـر، فـكان يلقى الشـدائدَ، ولا ينتهي عن قُبحِ حالِه، إلـى أن جُمِعَت له يومًا قراريطُ على وجهِ الكُدْية، فاستحيا مِن ذلك، وقال: يا ربِّ إلى هذا الحدِّ؟!

قال الحاكي: فتعجَّبتُ مِن غفلتِه، كيف نسِـيَ الله عز وجل وأراد منه حُسـنَ التدبيـرِ له والصيانةَ وسـعةَ الرزق؟! وكأنّه ما سـمعَ قولـه تعالـى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا﴾ [الجن: ١٦]، ولا عَلِمَ أنّ المعاصيَ تسُـدُّ أبوابَ الـرزق، وأنّ مَـن ضيّع أمـرَ الله ضيَّعهُ الله، فما رَأيتُ عِلمًا ما أفـاد كعِلمِ هذا؛ لأنّ العالِمَ إذا زلَّ انكسر، وهذا مُصِرٌّ لا تُؤلِمُهُ معصية، وكأنّه يجوزُ له ما يفعل، أو كان له التصرُّفُ في الدينِ تحليلًا وتحريمًا، فمرضَ عاجلًا، ومات على أقبحِ حال.

قال الحاكي: ورأيتُ شيخًا آخرَ حصَّلَ صُوَرَ عِلمٍ فما أفادته، كان أيُّ فسقٍ أمكنَـه لـم يَتحـاشَ مِنه، وأيُّ أمرٍ لم يُعجِبْهُ مِن القَـدَرِ عارَضَه بالاعتراضِ على

---

(١) سقطت من (ك، س).

المُقدِّرِ واللوم، فعاش أكدَرَ عيش، وعلى أقبحِ اعتِقاد، حتّى درَجَ[١].

وهؤلاء لم يفهمُوا معنى العِلم، وليس العِلمُ صُوَرَ الألفاظ، إنّما المقصودُ فهـمُ المُـرادِ منه، وذاك يُورثُ الخشـيةَ والخوف، ويُري المِنّـةَ للمُنعِمِ بالعِلم، وقوّةَ الحُجّةِ له على المُتعلِّم.

نسألُ الله عز وجل يقظةً تُفهِمُنا المقصُود، وتُعرِّفُنا المعبُودَ، ونعوذُ بالله مِن سـبيلِ رَعاعٍ يتسـمَّون بالعلماء، لا ينهاهُم ما يحملُون، ويعلمُون ولا يعملُون، ويتكبَّـرون علـى الناسِ بما يعلمـون، ويأخذون عَـرَضَ الأدنى وقـد نُهُوا عمّا يأخُـذُون، غلبتْهم طباعُهم وما راضَتْهم[٢] عُلومُهم التي يدرُسـون، فهم أخسُّ حالًا مِن العوامِّ الذين يجهلون، ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

٤٦٥- فَصْلٌ

[موسوعيةُ الفقيه]

ينبغـي للفقيـهِ أن يُطالِـعَ من كلِّ فـنٍّ طرفًا، من تاريخٍ وحديـثٍ ولُغةٍ وغيرِ ذلك، فإنّ الفِقيهَ يحتاجُ إلى جميعِ العُلُوم، فليأخُذ مِن كُلِّ شيءٍ منها مُهِمًّا.

ولقـد رأيـتُ بعـضَ الفُقهـاءِ يقـول: اجتمـعَ الشِّـبلِيُّ وشَـرِيكٌ القاضـي! فاستَحييتُ له كيف لا يدري بُعدَ ما بينهما[٣]؟!

وقـال آخرُ فـي مُناظرة: كانت الزوجيّةُ بين فاطمـةَ وعليٍّ رضي الله عنهما

---

(١) درج: مات.

(٢) راض نفسه يروضها: درَّبها.

(٣) الشِّبلي هو أبو بكر الشبلي، وُلِد سنة ٢٤٧هـ، وشريك هو شريك بن عبد الله النَّخَعي، تُوفي سنة ١٧٧هـ فكيف يلتقيان؟!

غيرَ مُنقطعةِ الحُكم، فلهذا غسَّلها، فقلتُ له: «ويحكَ! فقد تزوَّجَ أُمامةَ بنتَ زينب، وهي بنتُ أُختِها»! فانقطع.

ورأيتُ في كتاب «إحياء علوم الدين» للغَزاليِّ مِن هذا ما يُدهِشُ مِن التخليطِ في الأحاديثِ والتواريخ، فجمعتُ مِن أغاليطِه في كتاب.

وقد ذكرَ في كتابٍ له سمّاه «المُستَظهِريّ»، وعرضَه على المُستَظهِرِ بالله: أنّ سليمانَ بنَ عبدِ الملكِ بعثَ إلى أبي حازم، فقال له: ابعثْ لي مِن فُطورِك! فبعثَ إليهِ نُخالةً مَقلُوَّةً، فأفطرَ عليها، ثُمّ جامعَ زوجتَه، فجاءت بعبدِ العزيز، ثُمّ وُلِدَ له عُمرُ[1]!

وهذا تخليطٌ قبيح، فإنّه جعلَه عُمرَ بنَ عبدِ العزيزِ، ابنَ سُليمانَ بنِ عبدِ الملك! فجعل سُليمانَ جدَّه، وإنّما هو ابنُ عمِّه!

وقد ذكر أبو المعالي الجُوينيُّ في أواخرِ كتابِ «الشامل في الأُصُول»، قال: قد ذكرتُ طائفةٌ مِن الثقاتِ المُعتنِين بالبحثِ عن البواطنِ أنّ الحلّاجَ والجَنّابيَّ[2] القَرمَطيَّ وابنَ المُقفَّعِ تواصَوا على قلبِ الدُّوَل، وإفسادِ المملكة، واستعطافِ القُلُوب، وارتادَ كُلٌّ منهم قُطرًا، فقطنَ الجَنّابيُّ في الأحساء، وتوغَّلَ ابنُ المُقفَّعِ في أطرافِ بلادِ التُّرك، وقطنَ الحلّاجُ ببغداد، فحكمَ عليهِ صاحِباه بالهلكةِ والقُصورِ عن بلوغ الأُمنيّة؛ لبُعدِ أهلِ بغدادَ عن الانخداع، وتوفُّرِ فطنتِهم، وصدقِ فِراستِهم.

---

(١) ذكر الخبر أبو حامد الغزالي في فضائح الباطنية (ص٢١٧).

(٢) في (ح، د): «الجبائي» هنا وفيما بعد من هذه الخاطرة. وانظر القصة بتمامها في وفيات الأعيان (٢: ١٤٦).



قُلتُ: ولو أنّ هذا الرجلَ - أو مَن حكى عنه - عرَف التواريخ، لعلِمَ أنّ الحلّاجَ لم يُدركِ ابنَ المُقفَّع، فإنّ ابنَ المُقفَّع[1] أمرَ بقتلِه المنصُورُ، فقُتِلَ في سنةِ أربعٍ وأربعين ومئة، وأبو سعيدٍ الجَنّابيُّ القَرمَطيُّ ظهرَ في سنةِ ستٍّ وثمانين ومئتين، والحَلّاجُ قُتِلَ سنةَ تسعٍ وثلاثِمئة، فزمانُ القَرمَطيِّ والحَلّاجِ مُتقارب، فأمّا ابنُ المُقفَّع فكلّا.

فينبغي لكلِّ ذي عِلمٍ أن يُسامَ[2] بباقي العُلوم، فيُطالِعَ منها طرفًا؛ إذ لكُلِّ عِلمٍ بعِلمٍ تعلُّق، وأقبِحْ بمُحدِّثٍ يُسألُ عن حادثةٍ فلا يدري، وقد شغَلَه عنها جمعُ طُرُقِ الأحاديث، وقبيحٌ بالفقيهِ أن يُقالَ له: ما معنى قولِ رسُولِ الله ﷺ كذا؟ فلا يدري صِحةَ الحديثِ ولا معناه. نسألُ الله عز وجل هِمّةً عاليةً لا ترضى بالنقائصِ بمنِّه وكرمِه[3] ولطفِه.

٤٦٦- فَصْلٌ

[علوُّ همة العلماء]

كانت هِمَمُ القدماءِ من العلماءِ عَلِيّة، تدلُّ عليها تصانيفُهم التي هي زُبدةُ أعمارِهم، إلا أنّ أكثرَ تصانيفِهم دثَرَت؛ لأنّ هِمَمَ الطلابِ ضعُفت، فصارُوا يطلبون المُختصَرات، ولا يَنشَطُون للمُطوّلات، ثُمّ اقتَصرُوا على ما يدرُسُون به مِن بعضِها، فدَثَرَتِ الكُتُبُ ولم تُنسَخ.

فسبيلُ طالِبِ الكمالِ في طلبِ العِلمِ الاطِّلاعُ على الكُتُبِ التي قد تخلَّفت

(١) عبد الله بن المقفع، أحد البلغاء والفصحاء، من نظراء عبد الحميد الكاتب، تُوفي سنة ١٤٥هـ. سير أعلام النبلاء (٦: ٢٠٨).

(٢) يُسام: أي: يرعى ويسرح بنظره في بقية العلوم.

(٣) سقطت من (ح، د).

مِـن المُصنَّفات، فليُكثِرْ مِن المُطالعة، فإنّه يـرى مِن عُلومِ القومِ وعُلُوِّ هِمَمِهم ما يشحذُ خاطِرَه، ويُحرِّكُ عزيمتَه للجِدِّ، وما يخلُو كِتابٌ مِن فائدة. وأعوذُ بالله مِن سِيَرِ هؤلاء الذين نُعاشِرُهم، لا نرى فيهم ذا هِمّةٍ عاليةٍ فيقتديَ بها المُبتدي، ولا صاحِبَ ورعٍ فيستفيدَ مِنه الزاهِد.

فـالله الله، عليكم بمُلاحظةِ سِـيَرِ السـلفِ ومطالعةِ تصانيفِهـم وأخبارِهم، فالاستكثارُ من مطالعةِ كُتُبِهم رُؤيةٌ لهم، كما قال القائل[١]: [الخفيف]

فاتَنِي أنْ أرى الدِّيارَ بطَرْفِي فلَعَلِّي أرى الدِّيارَ بسَـمعِي

وإنّـي أُخبِـرُ عن حالي: ما أشـبعُ مِـن مُطالعةِ الكتـب، وإذا رأيـتُ كتابًا لم أرَه فكأنّـي قـد وقعـتُ علـى كنـزٍ، ولقد نظـرتُ في ثَبَـتِ الكتـب الموقوفة في المدرسةِ النِّظاميّة[٢]، فإذا به يحتوي على نحوِ ستةِ آلافِ مجلدٍ، وفي ثَبَتِ كتبِ أبي حنيفـة، وكتبِ الحُميديّ، وكتبِ شـيخِنا عبدِ الوهّـابِ وابنِ ناصر، وكتبِ أبي مُحمدِ بنِ[٣] الخشّابِ وكانت أحمالًا، وغيرِ ذلك مِن كُلِّ كتابٍ أقدرُ عليه، ولو قُلتُ: إنّي طالعتُ عِشرين ألفَ مجلدٍ، كان أكثر، وأنا بعدُ في الطلب.

فاسـتفدتُ بالنظـرِ فيهـا مُلاحظـةَ سِـيَرِ القـومِ وقـدرِ هِمَمِهـم وحفظِهـم وعباداتِهم، وغرائب عُلومِهم ما لا يعرِفُه مَن لم يُطالِع[٤]، فصِرتُ أسـتزرِي ما الناسُ فيه، وأحتقِرُ هِمَمَ الطُّلاب، ولله الحمد.

---

(١) عن (س، د)، والبيت تقدم في الفصل ٢٧١.

(٢) هي المدرسة الكبرى ببغداد، بناها الوزير نظام الملك الحسن بن علي الطوسي، وبدأ التدريس بها سنة ٤٥٩هـ. سير أعلام النبلاء (١٩: ٩٤).

(٣) سقطت من (ك، س).

(٤) في النسخ: «لا يعرفها من لم يطالع»، والمثبت عن (ط).

٤٦٧- فَصْلٌ
[حماقة الكُفر]

ليس للآدميِّ أعزُّ مِن نفسِه، وقد[1] عجِبتُ مِمَّن يُخاطِرُ بها، ويُعرِّضُها للهلاك، والسببُ في ذلك قِلّةُ العقلِ وسُوءُ النظر! فمنهم مَن يُعرِّضُها للتلف، ليُمدَحَ بزعمِه، مِثلَ قومٍ يخرُجُون إلى قتلِ السَّبُع، ومنهم مَن يصعدُ إلى إيوانِ كِسرى، ليُقال: شاطرٌ، وساعٍ يمشي ثلاثين فرسخًا، وهؤلاءِ إذا تلِفُوا حُمِلُوا إلى النار، فلا ينفعُ قولُ المادحِ لهم بعدهم. وممَّن قلَّ عقلُه: راكبُ البحرِ للتجارةِ يغترُّ بمَن سلِم[2]، فإن هلكَ ذهبتِ النفسُ التي يُرادُ المالُ لأجلِها.

وأعجبُ مِن الكُلِّ مَن يُخاطِرُ بنفسِه في الهلاكِ الأبديّ، مِثلَ أن يغضبَ فيقتُلَ المُسلِمَ، فيشفيَ غيظَه لحظةً بالتعذيبِ في جهنَّم!

وأظرفُ مِن هذا اليهودُ والنصارى، فإنّ أحدَهم يبلُغ، فيجِبُ عليه أن ينظُرَ في نبوّةِ نبيِّنا ﷺ، فإذا فرَّطَ فمات، فله الخُلُودُ في جهنّم.

ولقد قُلتُ لبعضِهم: ويحك! تُخاطِرُ بنفسِك في عذابِ الأبد! نحن نُؤمِنُ بنبيِّكم، فنقول: لو أنّ مُسلمًا آمَنَ بنبيِّنا، وكذَّبَ بنبيِّكم أو بالتوراة، خُلِّدَ في النار، فما بيننا وبينكم خلافٌ؛ إذ نحنُ مُؤمِنون بصِدقِه وكتابِه، فلو لَقِيناه لم نخجل، ولو عاتبَنا مثلًا قال: هلّا قُمتُم بالسَّبت؟ والسَّبتُ مِن الفُرُوع، والفُرُوعُ لا يُعاقَبُ عليها بالخُلود. فقال لي رئيسُ القوم: ما نُطالبُكم بهذا؛ لأنّ السَّبتَ إنّما يلزَمُ بني إسرائيل. فقُلتُ: فقد سلَّمنا بإجماعِكم، وأنتم هالِكون؛ لأنّكم[3]

(١) سقطت من (ك، س).
(٢) من قوله: «فلا ينفع» إلى هنا سقط من (ح).
(٣) زاد في (ح): «لا».



تُخاطِرون بأرواحِكم في العذابِ الدائمِ، والعجبُ ممَّن يُهمِلُ النظرَ فيما إذا توانى فيه أوجبَ الخُلودَ في العقابِ الدائم!

وأعجبُ مِن الكلِّ جاحِدُ الخالِق، وهو يرى إحكامَ الصنعة، ويقول: لا صانع!

والسببُ في هذه الأشياءِ كُلِّها: قِلّةُ العقل، وتركُ إعمالِه في النظرِ والاستدلال.

٤٦٨ـ فَصْلٌ
[كتمان السرّ]

لا ينبغي لعاقلٍ أن يُظهِرَ سِرًّا حتى يعلمَ أنّه إذا ظهرَ لا يتأذّى بظهورِه، ومعلومٌ أنّ السببَ في بثِّ السِّرِّ طلبُ الاستراحةِ ببثِّه، وذاك ألمٌ قريب، فليصبِرْ عليه، فرُبَّ مُظهِرٍ سِرًّا لزوجتِه فإذا طُلِّقتْ بثَّته وهلَك، أو لصديقِه فيُظهِرُ عليهِ حسدًا له إذا كان مُماثلًا، وإن كان عاميًّا فالعامّيُّ أحمقُ، ورُبَّ سِرٍّ أُظهِرَ فكان سببَ الهلاكِ.

٤٦٩ـ فَصْلٌ
[الصبرُ على العلم]

ما يتناهى في طلبِ العِلمِ إلا عاشِقٌ للعِلم، والعاشِقُ ينبغي أن يصبرَ على المكاره، ومِن ضرُورةِ المُتشاغِلِ به البُعدُ عن الكسب، وقد فُقِدَ التفقُّدُ لهم مِن الأمراءِ ومن الإخوان، فلازَمَهم الفقرُ ضرورةً، والفضائلُ تُنادي: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١١]، فكُلَّما خافَت مِن ابتلاء قالت[١]:

[البسيط]

لا تَحسَبِ المَجدَ تَمرًا أنتَ آكِلُهُ ... لَن تَبلُغَ المَجدَ حَتّى تَلعَقَ الصَّبِرا

(١) ذكره القالي في أماليه (١: ١١٣).

ولمّـا آثَـر(١) أحمـدُ بنُ حنبلٍ طلـبَ العِلـم، وكان فقيرًا، بقيَ أربعين سـنةً يَتشـاغلُ بـه ولا يتـزوَّج، فينبغي للفقيـرِ أن يُصابِـرَ فقرَه كما فعـلَ أحمد! ومَن يُطيقُ ما أطاق؟! فقد ردَّ مِنَ المالِ خمسين ألفًا، وكان يأكُلُ الكامخ(٢)، ويتأدَّمُ بالمِلـح، فمـا شـاعَ له الذِّكرُ الجميـلُ جُزافًا، ولا تـردَّدتِ الأقدامُ إلـى قبرِه إلا لمعنًى عجيب! فيا له ثناءً ملأ الآفاق، وجمالًا زيَّنَ الوجُود، وعِزًّا نسخَ كُلَّ ذُلٍّ، هذا في العاجِل، وثوابُ الآجِلِ لا يُوصَف.

وتلمَّحْ قبورَ أكثرِ العلماء، لا تُعرَفُ ولا تُزار، ترخَّصُوا وتأوَّلُوا، وخالطُوا السـلاطينَ، فذهبَـت بركـةُ العِلم، ومُحِيَ الجـاه، ووردُوا عنـد الموتِ حياضَ النـدم! فيـا لها حسـراتٍ لا تُتلافى، وخُسـرانًا لا ينجبِرُ. كانت صُحبـةُ اللذّاتِ طرفةَ عين، فلازَمَ الأسفُ دائمًا.

فالصبرَ الصبـرَ أيُّها الطالِبُ للفضائل، فإنّ لـذّةَ الراحةِ بالهوى أو بالبطالةِ تذهَب، ويبقى الأسى. وقد قال الشافعيُّ(٣): [البسيط]

يـا نَفسُ ما هِـيَ إلا صَبـرُ أيّامِ ... كَأنّ مُدَّتَهـا أضغـاثُ أحـلامِ
يا نَفسُ جُوزِي عَنِ الدُّنيا مُبادِرةً ... وخَـلِّ عَنها فإنّ العَيـشَ قُدّامِي

ثُمّ أيُّها العالِمُ الفقير، أيسُرُّك مُلكُ سُلطانٍ مِن السلاطينِ، وأنّ ما تعلمُه مِن العِلمِ لا تعلمُه؟! كلّا، ما أظُنُّ بالمُتيقِّظِ أن يُؤثِرَ هذا، ثُمّ أنتَ إذا وقعَ لكَ خاطِرٌ مُستحسَنٌ أو معنًى عجيبٌ تجِدُ لذّةً لا يجِدُها مُلتذٌّ باللذّاتِ الحِسّية، فقد حُرِمَ مَن رُزِقَ الشـهواتِ ما قد رُزِقتَ، وقد شـاركتَهم في قِوامِ العيش، ولم يبقَ إلا

---

(١) زاد في (س): «الإمام». وخبر الإمام أحمد بعدُ حكاه الذهبي في سير أعلام النبلاء (١١: ١٨٥).
(٢) الكامخ: ما يُؤتدَم به.
(٣) ديوان الإمام الشافعي (ص١٥٣).

الفُضُـولُ الـذي إذا أُخِذَ لم يكَـدْ يضُرّ. ثُمّ هم على المُخاطـرةِ في بابِ الآخِرةِ غالبًا، وأنتَ على السلامةِ في الأغلب.

فتلمَّحْ يا أخي عواقِبَ الأحوال، واقمَعِ الكسلَ المُثبِّطَ عنِ الفضائل، فإنّ كثيرًا مِن العلماءِ الذين ماتوا مُفرِّطِين يتقلَّبُون في حسراتٍ وأسفٍ!

رأى رجُلٌ شيخَنا ابنَ الزاغُونيِّ في المنام، فقال له الشيخ: أكثرُ ما عندكُم الغفلةُ، وأكثرُ ما عندنا الندامة.

فاهـرُبْ وفَّقـكَ الله تعالـى قبـل الحبسِ، وافسـخْ عقدَ الهوى علـى الغبنِ الفاحِش، واعلم أنّ الفضائلَ لا تُنالُ بالهُوَينى، وأنّ يسـيرَ التفريطِ يَشـينُ وجهَ المحاسِـن! فالبِـدارَ البِـدارَ ونَفَسُ النَّفْسِ يتـردَّد، ومَلَكُ المـوتِ غائبٌ ما قدِم بعد، وانهضْ بعزيمة عازم: [الطويل]

إذا هَـمَّ ألقـى بَيـنَ عَينَيـهِ عَزمَـهُ ... ونكَّـبَ عَن ذِكـرِ العَواقِـبِ جانِبا
ولـم يَستَشِـرْ في أمـرِهِ غَيرَ نَفسِـهِ ... ولم يَرضَ إلا قائمَ السَّيفِ صاحِبا[1]

وارفُـضْ فـي هذه العزيمـةِ الدنيـا وأربابَها، فبـاركَ الله تعالى لأهـلِ الدنيا فـي دُنياهُـم، فنحنُ الأغنياء، وهم الفُقراء، كما قـال إبراهيمُ بنُ أدهم: «لو علِمَ المُلوكُ وأبناءُ المُلوكِ ما نحنُ فيه، لجالدُونا عليه بالسُّيوفِ»[2].

فأبنـاءُ الدنيـا، أحدُهم لا يكادُ يأكلُ لُقمةً إلا حرامًا أو شُـبهة، وهو وإن لم يُؤثِرْ ذلك فوكيلُه يفعلُه، ولا يُبالِي هو بقِلّةِ دينِ وكيلِه، وإن عمَّرُوا دارًا سخَّرُوا الفَعَلـة، وإن جمعُـوا مالًا فمِن وُجوهٍ لا تصلُح، ثُمّ كُلٌّ منهم خائفٌ أن يُقتَلَ أو يُعزَلَ أو يُشتَمَ، فعيشُهُم نغصٌ.

---

(١) البيتان لسعد بن ناشب العنبري في الشعر والشعراء (٢: ٦٨٥).

(٢) تقدم في الفصل ٣٣٥.

ونحنُ نأكُلُ ما ظاهِرُ الشَّرعِ يشهدُ له بالإباحة، ولا نخافُ[1] مِن عدُوّ، ولا وِلايتُنا تقبَلُ العـزل، والعِزُّ في الدنيا لنـا لا لهم، وإقبالُ الخلـقِ علينا، وتقبيلُ أيدِينا وتعظِيمُنا عندهم كثير، وفي الآخِرة بيننا وبينهم تفاوُتٌ إن شاء الله تعالى.

فإن لفتَ أربابُ الدنيا أعناقَهم يعلمُون قدرَ مراتبِنا، وإن غُلَّتْ أيديهم عن إعطائنـا، فلـذّةُ العفافِ أطيَبُ، ومرارةُ المنِّ لا تَفِـي بالمأخُوذ، وإنّما هو طعامٌ دون طعام، ولباسٌ دُون لباس، وإنّها أيامٌ قلائلُ.

والعجبُ لمَن شرُفتْ نفسُه حتّى طلبَت العِلم ـ إذ لا يطلبُه إلا نفسٌ شريفةٌ ـ كيف يذِلُّ لبذلِ مَن لا عِزُّه إلا بالدنانير، ولا فخرُه إلا بالمُكنة؟! ولقد أنشدني أبو عليٍّ العَلَوِيّ[2]: [المديد]

رُبَّ قَـومٍ فـي خَلائقِهِم عُـرَرٌ قَـد صُيِّـرُوا غُرَرا
سَـتَرَ المالُ القِبيـحَ لَهُم سَـتَرى إنْ زالَ ما سَـتَرا

أيقظنـا الله مِـن رقـدةِ الغافِلين، ورزقنـا فِكـرَ المُتيقِّظين، ووفَّقنـا للعملِ بمقتضى العِلمِ والعقل، إنّه قريبٌ مجيب.

٤٧٠ـ فَصْلٌ
[الرفقُ بالبدن]

لا ينبغي للإنسانِ أن يحمِلَ على بدنِه ما لا يُطيقُ، فإنّ البدنَ كالراحِلة، إن لم يرفُقْ بها لم تصِلْ بالراكِب. فترى في التائبين مَن يتزهَّدُ وقد ربّى جسدَه على

(١) في (ك، ح، س): «يخاف».

(٢) البيتـان لأبي علـي العلوي، نقيـب العلويين بالكوفة، في الكامـل لابن الأثيـر (٩: ٤٤٥)، والعُرَر: جمع عُرّة، وهو القَذِر، يقال: هو عُرّة قومِه.

الترفِ، فيُعرِضُ عمّا أَلِفهُ فتتجدَّدُ له الأمراض، فتقطعُه عن كثيرٍ مِن العبادات. وقد قيل: «عَوِّدوا كُلَّ بدنٍ ما اعتاد»[١].

وقد قُرِّبَ إلى رسُولِ الله ﷺ ضبٌّ، فقال: «أَجِدُني أعافُه؛ لأنّه ليس بأرضِ قومي»[٢]، وفي حديثِ الهجرة: أنّ أبا بكرٍ رضي الله عنه طلبَ لرسولِ الله ﷺ الظلّ، وفرشَ له فروةً، وصبَّ على القَدَحِ الذي فيهِ اللبنُ ماءً حتّى برد[٣]، وجاء رسُولُ الله ﷺ على قوم فقال: «إن كان عندَكم ماءٌ باتَ في شَنٍّ وإلا كَرَعنا»[٤]، وكان ﷺ يأكُلُ لحمَ الدجاج، وفي «الصحيح»: أنّه كان يُحِبُّ الحلوى والعسل[٥]، وكان إذا لم يقدِرْ أكلَ ما حضر.

ولَعَمري، إنّ في العربِ وأهلِ السوادِ مَن لا يُؤثِّرُ عنده التخشُّنُ في المَطعم والمَلبس، وذاكَ إذا جرى بعد توبتِهِ على عادتِه لم يستضِرّ، فأما مَن قد أَلِفَ اللُّطفَ فإنّه إذا غيَّر حالتَه تغيَّر بدنُه وقلَّتْ عِبادتُه.

وقد كان الحسنُ يُديمُ أكلَ اللحم، ويقول: «لا رغيفَي مالِكٍ، ولا صَحنَي فَرقَدٍ»[٦]. وكان ابنُ سيرينَ لا يُخلي منزلَه مِن حلوى. وكان سفيانُ الثوريُّ يُسافِرُ وفي سُفرتِه الحَمَلُ المشويُّ والفالُوذج[٧]. وقالت رابعة: ما أرى لبدنٍ يُرادُ به العملُ لله إذا أكلَ الفالُوذجَ عيبًا.

فمَن أَلِفَ الترفَ فينبغي أن يتلطَّفَ بنفسِه إذا أمكَنه. وقد عرَفتُ هذا من نفسي، فإنّي رُبِّيتُ في ترفٍ، فلمّا ابتدأتُ في التقلُّلِ وهجرِ المُشتهى أثَّر معي

---

(١) تقدم في الفصل ٤٦١.
(٢) البخاري (٥٣٩١)، ومسلم (١٩٤٦) من حديث خالد بن الوليد رضي الله عنه بمعناه.
(٣) تقدم في الفصلين ١٩، ١٥٢.
(٤) تقدم في الفصل ١٥٢.
(٥) تقدم في الفصل ١٦١.
(٦) تقدم في الفصل ١٩.
(٧) تقدم في الفصل ٣٦.

مرضًا قطعَني عن كثيرٍ مِن التعبُّد، حتّى إنّي قرأتُ في أيّامٍ كُلَّ يومٍ خمسةَ أجزاءٍ مِـن القُـرآن، فتناولتُ يومًا ما لا يصلح، فلم أقـدِرْ في ذلك اليومِ على قِراءتِها، فقُلت: إنّ لُقمةً تُؤثِّرُ قِراءةَ خمسةِ أجزاء، بكُلِّ حرفٍ عشرُ حسنات، إنّ تناوُلَها طاعةٌ عظيمة، وإنّ مطعمًا يُؤذي البدن، فيفوتُه فِعلُ خير، ينبغي أن يُهجَر!

وقـد رأى رسُـولُ الله ﷺ رجـلًا مِـن أصحابـهِ حضرَ عنـده وقد تغيَّـرَ مِن التقشُّـف، فقال له: «مَن أمرَك بهذا؟!» فالعاقلُ يُعطي بدنَه مِن الغذاء ما يُوافِقُه كما يُنقِّي الغازي شعيرَ الدابّة.

ولا تظُنَّـنَّ أنّـي آمُـرُ بأكلِ الشـهواتِ، ولا بالإكثـارِ مِن الملـذُوذ، إنّما آمُرُ بتناوُلِ ما يحفظُ النفس، وأنهى عمّا يُؤذي البدن، فأمّا التوسُّعُ في المطاعِم فإنّه سببُ النوم، والشِّـبَعُ يُعمي القلب، ويُرهِّلُ[1] البدنَ ويُضعِفُه. فافهم ما أشرتُ إليه، فالطريقُ هي الوسطى.

٤٧١ـ فَصْلٌ
[منزلةُ الغفلة]

إذا تكامـلَ العقـلُ قوِيَ الذكاءُ والفِطنةُ، والذكـيُّ يتخلّصُ إذا وقعَ في آفة، كمـا قـال الحسـنُ: «إذا كان اللصُّ ظريفًا لـم يُقطَع، فأمّا المُغفَّـلُ فيجني على نفسِهِ المِحَنَ»[2].

هؤلاءِ إخوةُ يُوسُـفَ، أبعدُوهُ عن أبيه، ليتقدَّمُوا عنده، وما علمُوا أنّ حُزنَه عليـه يشـغلُه عنهم، وتُهمتُـه إيّاهُم تُبغِّضُهم إليـه، ثُمّ رمَوهُ في الجُـبِّ، فقالوا:

---

(١) رهلَ البدنُ: استرخى.

(٢) ذكره المفضل بن سلمة في الفاخر (ص١٣٣).

﴿يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ [يوسف: ١٠]، وليس بطفل، إنّما هو صبيٌّ كبير، أفما علموا أنّه إذا التُقِطَ يُحدِّثُ بحالِه، فيبلُغ الخبرُ إلى أبيه؟ وهذا تغفيل، ثُمّ إنّهم قالوا: ﴿أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ﴾ [يوسف: ١٧]، وجاؤوا بقميصه صحيحًا، ولو خرقُوه احتملَ الأمر، ثُمّ لمّا مضوا إليه يمتارون[1] قال: ﴿ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم﴾ [يوسف: ٥٩]، فلو فطنُوا علِمُوا أنّ مَلِكَ مِصرَ لا غرضَ له في أخيهم، ثُمّ حبسَه بحُجّة، ثُمّ قال: هذا الصُّواعُ يُخبِرُني أنّه كان كذا وكذا. هذا كُلُّه وما يفطنُون!

فلمّا أحسَّ بهذه الأشياءِ يعقُوبُ قال: ﴿ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٧]، وكان يُوسُفُ قد نُهِيَ بالوحيِ أن يُعلِمَ أباهُ بوجودِه، ولهذا لمّا التَقيا قال له: هلّا كتبتَ إليّ. فقال: إنّ جبريلَ عليه السلام منعَني. فلمّا نُهِيَ أن يُعرِّفَه خبرَه لينفُذَ البلاء، كان ما فعلَ بأخيهِ تنبيهًا، فصار كأنّه عَرَّضَ بخِطبةِ المُعتدَّة، وعلى فهمِ يُوسُفَ ـ والله ـ بكى يعقوب، لا على مُجرَّدِ صُورتِه.

٤٧٢- فَصْلٌ
[مُشتِّتات الهمّ]

الآدميُّ موضوعٌ على مطلوباتٍ تُشتِّتُ الهَمَّ، فالعينُ تطلبُ المنظور، واللسانُ يطلبُ الكلام، والبطنُ يطلبُ المأكول، والفرجُ المنكُوحَ، والطبعُ يُحِبُّ جمعَ المال، وقد أُمِرنا بجمعِ الهمِّ لذِكرِ الآخِرة، والهوى يُشتِّتُه!

فكيف إذا اجتمعَت إليه حاجاتٌ لازِمةٌ مِن طلبِ قوتِ البدنِ وقوتِ العيال؟!

وهذا يُبكِّرُ إلى دُكّانِه، ويتفكَّرُ في التحصيل، ويستعملُ آلةَ الفهمِ في نيلِ

(١) الضمير في «إليه» يعود إلى سيدنا يوسف عليه السلام، ويمتارون: يطلبون المِيرة من الطعام ونحوه.

مـا لا بُـدّ منـه، فأيُّ همٍّ يجتمـعُ منه[١]؟! خُصوصًـا إنْ أخذه الشَّـرَهُ في صُورة، فيَمضِي العُمُر، فينهضُ من الدُّكّانِ إلى القبر، فكيف يحصُلُ العِلمُ أو العملُ أو إخلاصُ القصدِ أو طلبُ الفضائل؟!

فمَن رُزِقَ يقظةً فينبغي أن يُصابِرَ لنَيلِ الفضائل، فإن كان مُتزهِّدًا بغيرِ عائلةٍ فقد كان السَّبتيُّ[٢] يعملُ يومَ السبت، فيكتفي بهِ طُولَ الأُسبوع، فإن كان له مالٌ باضَـعَ[٣] بـه مَن يكفيهِ بدينِهِ وثِقتِه أن يهتمَّ هو، وإن كان له عائلةٌ جمعَ همَّه في نيّةِ الكسبِ عليهم، فيكُونُ مُتعبِّدًا، أو أن يكُونَ [له][٤] قِنيةُ مالٍ كعقارٍ، تلطَّف به في نفقتِه، ليكفيَه دخلَه، وليُقلِّلِ الهمَّ على مِقدارِ ما يُمكِنُه مِن حذفِ العلائقِ جُهـدَه، ليجمـعَ الهمَّ فـي ذِكرِ الآخِرة، فإن لـم يفعلْ أُخِذَ في غفلتِـه، وندِمَ في حُفرته.

وأقبحُ الأحوالِ حالُ عالِمٍ فقيه، كُلَّما جمعَ همَّهُ لذِكرِ الآخِرة، شتَّتهُ طلبُ القُـوتِ للعائلـة، ورُبّمـا احتاجَ إلـى التعـرُّضِ بالظَّلَمةِ وأخذِ الشـبهات، وبذلِ الوجه، فيلزَمُ[٥] هذا التقديرَ في النفقة، وإذا حصلَ له شيءٌ مِن وجهٍ دبَّر فيه.

ولا ينبغـي أن يحملَـه قِصَـرُ الأملِ على إخـراجِ ما في يـدِه، فقد قال ﷺ: «لَأن تترُكَ ورثتَكَ أغنياءَ خيرٌ مِن أن تتركَهم عالةً يتكفَّفُون الناسَ»[٦].

---

(١) سقطت من (ك، س، د).

(٢) هو أبو العباس أحمد بن هارون الرشيد، كان عبدًا صالحًا، ترك الدنيا في حياة أبيه مع القدرة، ولم يتعلق بشيء من أمورها، وأبوه خليفة الدنيا، وآثر الانقطاع والعزلة، تُوفي سنة ١٨٤هـ. المنتظم (٩: ٩٣)، ووفيات الأعيان (١: ١٦٨).

(٣) باضعَ: شاركَ.

(٤) عن (ط).

(٥) زاد في (س): «من».

(٦) تقدم في الفصل ٣٤.

وأذلُّ مِن كُلِّ ذُلِّ التعرُّضُ للبخلاءِ والأُمَراء، فليُدبِّرْ أمرَه، ويُقلِّلِ العلائق، ويحفظْ جاهَه، فالأيامُ قلائل.

وقد بُعِثَ إلى أحمدَ بنِ حنبلٍ مالٌ، فسأله ابنُه قَبُولَه، فقال: يا صالِحُ صُنِّي! ثُمّ قال: أستخيرُ الله. فأصبحَ فقال: يا بُنيَّ قد عُزِمَ لي ألا أقبلَه[1]. هذا، وكان العطاءُ هنيئًا، وجاءته مِن وُجوه، فانعكَس الأمرُ اليوم!

٤٧٣- فَصْلٌ

[العُزلة]

العزلةُ عن الخلقِ سببُ طيبِ العيش، ولا بدَّ من مخالطةٍ بمقدار، فدارِ العدُوَّ واستمِلْه فرُبّما كادَكَ فأهلكَك، وأحسِنْ إلى مَن أساء إليك، واستعِنْ على أُمُورِكَ بالكتمان، وليكنِ الناسُ عندك معارف، فأمّا أصدقاءُ فلا؛ لأنّ أعزَّ الأشياءِ وُجودُ صديق؛ لأنّ الصديقَ ينبغي أن يكُونَ في مرتبةٍ مُماثِل، فإن صادَقتَ عاميًّا لم تَنتفِعْ به لسُوءِ أخلاقِه وقِلّةِ علمِه وأدبِه، وإن صادَقتَ مُماثِلًا أو مُقارِبًا حسدَك، وإذا كان لكَ يقظةٌ تلمَّحتَ مِن أفعالِه وأقوالِه ما يدُلُّ على حسدِك، ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾ [محمد: ٣٠]، وإذا أردتَ تأكيدَ ذلك فضعْ عليه مَن يضعُك عنده، فلا يخرُجُ إليه [إلا][2] بما في قلبِه.

فإن أردتَ العيشَ فابعُد عنِ الحسود؛ لأنّه يرى نِعمتَك، فرُبّما أصابها[3] بالعين، فإنِ اضطُرِرتَ إلى مخالطتِه فلا تُفشِ إليه سِرَّك ولا تُشاوِرْه، ولا يغُرَّنَّكَ تملُّقُه[4] لك، ولا ما يُظهِرُه من الدينِ والتعبُّد، فإنّ الحسدَ يغلِبُ الدين،

---

(١) ذكره ابن الجوزي في مناقب الإمام أحمد (ص٣١٣).

(٢) زيادة من المحقق ليستقيم السياق.

(٣) سقطت من (ك، ح، س).

(٤) التملُّق: التودُّد والتقرُّب.

وقد عرَفتَ أنّ قابيلَ أخرجهُ الحسدُ إلى القتل، وأنّ إخوةَ يُوسُفَ باعُوهُ بثمنٍ بخسٍ! وكان أبو عامرٍ الراهِبُ من المُتعبِّدين العُقلاء، وعبدُ الله بنُ أبيّ مِنَ الرؤساء، أخرجَهما حسدُ رسُولِ الله ﷺ إلى النفاقِ وتركِ الصواب.

ولا ينبغي أن تطلُبَ لحاسِدِكَ عُقُوبةً أكثرَ مِمّا هُو فيه، فإنّه في أمرٍ عظيمٍ متَّصل، لا يُرضيهِ إلا زوالُ نِعمتِك، وكُلَّما امتدَّتِ امتدَّ عذابُه، فلا عيشَ له، وما طابَ عيشُ أهلِ الجنّةِ إلا حين نُزِعَ الحسدُ والغِلُّ مِن صُدُورِهم، ولولا أنّه نُزِعَ تحاسدُوا وتنغَّص عيشُهم.

٤٧٤- فَصْلٌ

[العقل سياجُ الدين والدنيا]

مَن سار مع العقل، وخالَف طريقَ الهوى، ونظرَ[1] إلى العواقب، أمكنهُ أن يتمتَّعَ مِن الدنيا أضعافَ ما تمتَّعَ مَنِ استعجلَ الشهواتِ. فأمّا المُستعجِلُ فيُفوِّتُ نفسَه حظَّ الدنيا والذِّكرَ الجميل، ويكونُ ذلك سببًا لفواتِ مُرادِه مِن اللذّات.

وبيانُ هذا مِن وجهين:

أحدهما: أنّ مَن مالَ إلى شهوةِ النِّكاحِ وأكثرَ منها، قلَّ التِذاذُه، وفنِيَتْ حرارتُه، وكان ذلك سببًا في عدمِ مطلُوبِه منها، ومَن استعملَ ذلك بمِقدارِ ما يجيزُه العقلُ ويحتملُه، كان التِذاذُه أكثر؛ لبُعدِ ما بين الجِماعَين، وأمكَنَه التردُّدُ لبقاءِ الحرارة. وكذلك مَن غشَّ في مُعاملتِه أو خان، فإنّه لا يُعامَل، فيفوتُه ربحُ المُعاملةِ الدائمة؛ لخيانتِه مرّةً، ولو عُرِفَ بالثقةِ دامتْ معاملةُ الناسِ له، فزادَ ربحُه.

---

(١) في (ك، ح، س، د): «نظر» بلا واو قبلها.

والثانـي: أنّـه مَن اتّقى الله، وتشـاغلَ بالعِلـمِ أو تحقيقِ الزهـد، فُتِحَ له مِنَ المُباحـاتِ مـا يلتـذُّ به كثيـرًا، ومَن تقاعدَ به الكسـلُ عنِ العِلـم، أوِ الهوى عن تحقيقِ الزهد، لم يحصُلْ له إلا اليسيرُ مِن مُرادِه، قال عز وجل: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦].

٤٧٥- فَصْلٌ

[منزلةُ الإخلاص]

ينبغـي أن يكـونَ العملُ كلُّـه لله ومعه ومِن أجله، وقد كفـاكَ كُلَّ مخلُوق، وجلـبَ لكَ كُلَّ خيـر، وإيّاكَ أن تميلَ عنه بمُوافقةِ هوًى وإرضاءِ مخلوق، فإنّه يعكِـسُ عليكَ الحـال، ويفوتُك المقصُود، وفي الحديـث: «مَن أرضى الناسَ بسـخطِ الله عادَ حامِدُه مِنَ الناسِ ذامًّا»(١)، وأطيَبُ العيشِ عيشُ مَن يعيشُ مع الخالقِ سُبحانه.

فـإن قيل: كيف العيشُ معه؟ قلتُ: بامتثالِ أمـرِه، واجتنابِ نهيِه، ومُراعاةِ حُدُودِه، والرضا بقضائه، وحُسـنِ الأدبِ في الخلوةِ به، وكثرةِ ذِكرِه، وسـلامةِ القلبِ مِن الاعتراضِ في أقدارِه، فإنِ احتجتَ سـألتَه، فإن أعطى وإلا رضيتَ بالمنـع، وعلِمـتَ أنّـه لم يمنعْ بُخـلًا، وإنّما نظرًا لك، ولا تنقطعْ عنِ السـؤال؛ لأنّـكَ تتعبَّـدُ بـه، ومتـى دُمتَ على ذلـك رزقكَ محبّتَـه وصِدقَ التـوكُّلِ عليه، فصارتِ المحبّةُ تدُلُّكَ على المقصود، وأثمَرتْ لك محبّتهُ إيّاك، فحينئذٍ تعيشُ عيشَ الصِّدِّيقين، ولا خيرَ في عيشٍ لم يكُن كذا.

فإنّ أكثرَ الناسِ مُخبّطٌ في عيشِه، يُداري الأسبابَ ويميلُ إليها بقلبِه، ويتعبُ

(١) صحيح ابن حبان (٢٧٦) عن عائشة رضي الله عنها.

في تحصيلِ الرزقِ بحرصٍ زائدٍ على الحدِّ، ويرغبُ إلى الخَلق، ويعترضُ عند انكسارِ الأغراض، والقدرُ يجري ولا يُبالي بسخط، ولا يحصُلُ له إلا ما قُدِّر، وقد فاته القُربُ مِن الحقِّ، والمحبّةُ له، والتأدُّبُ معه، فذلك العيشُ عيشُ البهائم.

٤٧٦- فَصْلٌ
[شرُّ الإسراف]

نظرتُ في حِكمةِ المَطعمِ والمَشربِ والمَلبسِ والمَنكح، فرأيتُ أنّ الآدميَّ لمّا خُلِقَ مِن أُصُولٍ تتحلَّل ـ وهي الماءُ والترابُ والنارُ والهواء، وبقاؤه إنّما يكونُ بالحرارةِ والرُّطُوبة، والحرارةُ تُحلِّلُ الرُّطُوبة دائمًا ـ فلم يكُنْ له بدٌّ مِن شيءٍ يُخلِفُ ما بطَل.

ولمّا كان اللحمُ لا ينُوبُ عنه إلا اللحم، أباحَ ذبحَ الحيوان، ليتقوّى به مَن هو أشرفُ منه، ولمّا كان بدنُه يحتاجُ إلى كسوةٍ ـ وله قدرةٌ تُميِّز، وقدرةٌ يصنعُ بها ما يقيهِ الأذى مِن القُطنِ والصُّوف ـ لم يجعلْ على جِلدِه ما يقيهِ خِلقةً، بخِلافِ الحيوانِ البهيم، فإنّه لمّا لم يكُنْ له قُدرةٌ على ما يغطِّي جِلدَه عوَّضه بالرِّيشِ والشَّعرِ والوبر، ولمّا لم يكُن بدٌّ من فناءِ الآدميِّ والحيوان، هيَّج شهوةَ الجِماع، لتُخلِفَ النَّسل.

فمقتضى العقلِ الذي حُرِّكَ على طلبِ هذه المصالحِ أن يكُونَ التناولُ للمطعمِ والمشربِ بمِقدارِ الحاجةِ والمصلحة؛ ليقعَ الالتذاذُ بالعافية، ومِن البليّةِ طلبُ الالتذاذِ بالمطعمِ وإن كان غيرَ صالحٍ، أو التكثُّر منه، والشَّرَهُ في تناوُلِه، وكذلك الكِسوةُ والنكاح.

ومِنَ الحزمِ جمعُ المالِ وادِّخارُه لعارضِ حاجةٍ مِن ذلك، ومِن التغفيلِ إنفاقُ الحاصِل، فرُبّما عرضَت حاجةٌ فلم يقدِرْ عليها، فأثَّر عدمُها في البدنِ أو في العِرضِ بطلبِها مِن الأنذال!

ومِن أقبحِ الأُمُورِ الانهماكُ في النكاحِ طلبًا لصُورةِ اللذّة، ناسيًا ما يَجنِي ذلك من انحلالِ القُوّة، ويزيدُ في الحرامِ بالعُقُوبة. فمَن مالَ إلى تدبيرِ العقلِ سلِمَ في دنياه وآخِرتِه، ومَن أعرضَ عن مُشاورتِه أو عنِ القبولِ منه تعجَّل عطبَه. فليُفهَم مقصُودُ الموضُوعات، وحِكَمُها، والمُرادُ منها، فمَن لم يفهَم، ولم يعمَل بمُقتضى ما فهِم، كان كأجهلِ العوامِّ، وإن كان عالِمًا.

٤٧٧- فَصْلٌ
في مُخالطة الأمراء

العجبُ مِمَّن له مُسكةٌ[١] مِن عقلٍ أو عنده قليلٌ مِن دين، كيف يُؤثِرُ مُخالطتَهم؟! فإنّ المخالطةَ لهم أو العملَ معهم يكونُ صاحبُه خائفًا مِن عزلٍ أو قتلٍ أو سُمّ، ولا يُمكنُه أن يعملَ إلا بمُقتضى أوامرِهم، فإن أمَروا بما لا يجوزُ لم يقدِرْ أن يُراجِعَ، فقد باعَ دينَه قَطْعًا بدُنياه، فمنعَه بالخوف، ولم يَبقَ بيدِه إلا عاجلُ التعظيم، وأن يُقالَ بين يدَيه: باسم الله! وأن يُنفِذَ أوامرَه، وذلك بعيدُ السلامةِ في بابِ الدين، وما يلتذُّ به منه في الدنيا ممزُوجٌ بخوفِ العزلِ أو القتل.



(١) يقال: فيه مُسكة من خير، أو مُسكة من عقل؛ أي: بقيّة منه.

٤٧٨- فَصْلٌ

[تلمُّح العواقب]

مِن الغلطِ العظيم أن يُتكلَّمَ في حقِّ معزُولٍ بما لا يصلُحُ، فإنّه لا يُؤمَنُ أن يلـيَ فينتقِـمَ. وفي الجُملـة، لا ينبغي أن يُظهِرَ العداوةَ لأحـدٍ أصلًا، فقد يرتفعُ المُحتقَر، وقد يتمكَّنُ مَن لا يُعَدُّ، بل ينبغي أن يُكتَمَ ما في النفوس على الأعداء، فـإن أمكنَ الانتقامُ منهم كان العفوُ انتقامًا؛ لأنّه يُذِلُّهم، وينبغي أن يُحسَـنَ إلى كُلِّ أحـدٍ خُصوصًـا مَن يجُوزُ أن يكُونَ له ولاية، وأن يُخدِمَ المعزُولَ[1]، فرُبّما نفعَ في ولايتِه.

وقد رُوينا أنّ رجلًا استأذنَ على قاضي القُضاةِ ابنِ أبي دُؤاد، وقال: قولوا لـه: أبو جعفـرٍ بالباب، فلمّا سـمِع هـشَّ لذلك وقـال: ائذنوا له، فدخـلَ، فقام وتلقّاه وأكرمَه، وأعطاه خمسةَ آلافٍ، وودَّعَه، فقيل له: رجُلٌ مِنَ العوامِّ فعلتَ بـه هـذا؟ قال: إنّي كُنـتُ فقيرًا، وكان هذا صديقًا لي، فجِئتُـه يومًا فقلتُ له: أنا جائع، فقال: اجلِسْ، وخرجَ فجاء بشِواءٍ وحلوى وخُبز، فقال: كُلْ، فقلتُ: كُلْ معي، قال: لا، قلتُ: والله لا آكُلُ حتّى تأكلَ معي[2]، فأكل، فجعلَ الدمُ يَجرِي مـن فمِـه، فقُلت: ما هذا؟ فقـال: مرضٌ، فقلتُ: والله لا بُـدَّ أن تُخبِرَني، فقال: إنّك لمّا جِئتَني لم أكُن أملِكُ شيئًا، وكانت أسـناني مُضبَّبةً بشـريطٍ مِن ذهب، فنزعتُه واشتريتُ به! فهل أُكافِئُ مِثلَ هذا؟!

وعلى عكسِ هذه الأشـياء: كان ابنُ الزيّاتِ وزيرًا للواثق، وكان يضعُ مِنَ المُتوكِّل، فلمّا وَلِيَ عذَّبه بأنواعِ العذاب!

---

(١) يُخدِمَ المعزُولَ: يصيِّره خادمًا.

(٢) سقطت من (ك، ح، س).

وكذلك ابنُ الخَزَرِيّ[1]، كان لا يُوقِّرُ المُسترشِدَ قبل الولاية، فجرتْ عليهِ الآفاتُ لمّا وَلِيَ.

فالعاقِـلُ مَـن تأمَّلَ العواقِـبَ ورعاها، وصـوَّر كُلَّ ما يجُـوزُ أن يقعَ فعمِلَ بمقتضى الحزم.

وأبلـغُ مِـن هذا تصويرُ وُجُودِ الموتِ عاجِلًا؛ لأنّـه يجوزُ أن يأتيَ بغتةً مِن غيـرِ مـرض، فالحازمُ مَن اسـتعدَّ له وعمِـلَ عمَلَ مَن لا يندمُ إذا جـاءه، وحذِرَ مِن الذنوب، فإنّها كعدُوٍّ مُراصِدٍ بالجزاء، وادَّخرَ لنفسِـه صالحَ الأعمال، فإنّها كصَدِيقٍ صِدِّيقٍ ينفعُ وقتَ الشدة.

وأبلغُ مِن كُلِّ شـيءٍ أن يعلمَ المُؤمِنُ أنّه كُلَّما زاد عملُه في الفضائلِ عَلَتْ مرتبتُه في الجنّة، وإن نقصَ نقصَت، فهو وإن دخلَ الجنّة ـ ما يُحِبُّ ـ في نقصٍ بالإضافةِ إلى كمالِ غيرِه، غيرَ أنّه قد رضيَ به ولا يشـعرُ بذلك. فرحِمَ الله مَن تلمَّحَ العواقِبَ وعمِلَ بمقتضى التلمُّح، والله تعالى المُوفِّق.

٤٧٩ـ فَصْلٌ
[أصحابُ الدنيا وأصحابُ الآخرة]

لمّا جَمعتُ كِتابي المُسمّى بـ«المُنتظَم في تاريخ المُلُوكِ والأُمَم»، اطَّلعتُ علـى سِـيَرِ الخلقِ مِـن الملوكِ والخلفاءِ والـوزراءِ والعلماءِ والأدبـاءِ والفقهاءِ والمُحدِّثين والزُّهّادِ وغيرِهم، فرأيتُ الدنيا قد تلاعَبت بالأكثرين تلاعُبًا أذهَب أديانَهم، حتّى كانوا لا يؤمنون بالعقاب!

---

(١) هو عبد الوهاب بن الحسن الحربي، تُوفي سنة ٤٣٣هـ. تاريخ بغداد (٩: ٥٢٨).



فمـن الأمراءِ مَن يقتـلُ ويُصادِرُ ويقطعُ ويحبِسُ بغيرِ حـقٍّ، ثُمّ ينخرِطُ في سِلكِ المعاصي كأنّ الأمرَ إليه، أو قد جاءه الأمنُ مِن العقاب، فربّما تخايلَ أنّ «حِفظي للرعايا يردُّ عنّي»! وينسـى أنّه قد قيل لرسـول الله ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٥]. وقدِ انخرطَ جماعةٌ مِمَّن يتَّسمُ بالعلمِ في سلكِ المعاصي، لتحصيلِ أغراضِهم العاجِلة، فما نفعَهم العِلم!

ورأينا خَلقًا[١] مِن المُتزهِّدين لنَيلِ أغراضِهم! وهذا لأنّ الدنيا فخّ، والناسُ كعصافير، والعصفورُ يُريدُ الحَبّة، وينسى الخَنق.

فقـد نسـيَ أكثرُ الخلـقِ مآلَهم مَيـلًا إلى عاجِـلِ لذّاتِهم، فأقبلُوا يُسـامِرون الهـوى، ولا يلتفِتـون إلى مُشـاورةِ العقل، فلقد باعُوا بلذّةٍ يسـيرةٍ خيـرًا كثيرًا، واستبَدلوا بشهواتٍ مرذُولةٍ عذابًا عظيمًا، فإذا نزلَ بأحدِهم الموتُ قال: ليتني لـم أكُنْ، ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ﴾ [النبأ: ٤٠]! فيُقالُ له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ [يونس: ٩١]؟! فوا أسفًا لفائتٍ لا يُمكِنُ استدراكُه، ولمُرتهَنٍ لا يصلُحُ فَكاكُه[٢]، ولندمٍ لا ينقطِعُ زمانُه، ولمُعذَّبٍ عزَّ عليهِ إيمانه!

بـالله مـا نفعَتِ العُقُولُ إلا لمَن يلتفِتُ إليها ويعوِّلُ عليها، ولا يُمكِنُ قبولُ مَشـاورِها إلا بعزيمةِ الصبرِ عمّا يشـتهي. فتأمَّلْ في الأُمراءِ: عمرَ بنَ الخطّابِ وابنَ عبدِ العزيزِ رضي الله عنهما، وفي العُلماء: أحمدَ بنَ حنبلٍ رحمةُ الله عليه، وفي الزُّهّادِ: أُويسًا القَرنيّ، لقد أعطوُا الجِدَّ حقَّه، وفَهِمُوا مقصُودَ الوُجُود. وما هلـكَ الهالكُـون إلا لقلّـةِ الصبرِ عـنِ المُشـتهى، ورُبّما كان فيهم مَـن لا يُؤمِنُ

---

(١) في (ك، س، د): «ورُئِيَ خلق».

(٢) الفكاك بفتح الفاء وجاء بالكسر: الخلاص.



بالبعثِ والعقاب. وليس العجبُ مِن ذاك[1]، إنّما العجبُ مِن مُؤمِنٍ يُوقِنُ ولا ينفعُه يقينُه، ويعقلُ العواقِبَ ولا ينفعُه عقلُه!

٤٨٠- فَصْلٌ

[علوُّ الهمة]

مَن رُزِق هِمّةً عاليةً يُعذَّبُ بِمقدارِ عُلُوِّها، كما قال الشاعر[2]: [الخفيف]

وإذا كانَــتِ النُّفُوسُ كِبارًا ... تَعِبَتْ في مُرادِها الأجسامُ

وقال الآخر[3]: [الكامل]

ولِكُلِّ جِســمٍ في النُّحُــولِ بَلِيّةٌ ... وبَلاءُ جِسمِي مِن تَفاوُتِ هِمَّتِي

وبيـانُ هـذا أنّ مَن عَلَت هِمَّتُه طلبَ العُلومَ كُلَّهـا ولم يقتصِرْ على بعضِها، وطلـبَ مِـن كُلِّ علمٍ نهايتَه، وهـذا لا يحتمِلُهُ البدن. ثُمّ يـرى أنّ المُرادَ العمل، فيجتهدُ في قيامِ الليل، وصيامِ النهار، والجمعُ بين ذلك وبين العِلمِ صعبٌ. ثُمّ يرى تركَ الدنيا، ويحتاجُ إلى ما لا بُدّ مِنه، ويحبُّ الإيثارَ، ولا يقدرُ على البُخل، ويتقاضاه الكرمُ البذلَ، ويمنعُه عزُّ النفسِ عنِ الكسبِ، فإن هو جرى على طبعِه مِن الكرم، احتاجَ وافتقرَ وتأثّر بدنُه وعائلتُه، وإن أمسكَ فطبعُه يأبى ذلك.

وفـي الجُملـةِ يحتاجُ إلى مُعاناةٍ وجمعٍ بين أضـداد، فهو أبدًا في نَصَبٍ لا ينقضـي، وتعـبٍ لا يفرُغُ، ثُمّ إذا حقّقَ الإخـلاصَ في الأعمالِ زاد تعبُه، وقويَ وَصَبُـه[4]! فأيـن هو ومَن دنَت هِمَّتُه؟! إن كان فقيهًا فسُئل عن حديثٍ قال: ما

---

(١) سقط «من ذاك» من (د).
(٢) ديوان المتنبي (ص٢٦١).
(٣) تقدم في الفصل ١٦٩.
(٤) الوَصَب: المرض.

أعرِفُه، وإن كان مُحدِّثًا فسُئل عن مسألةٍ فِقهيّةٍ قال: ما أدري! ولا يُبالي إن قيل عنه: مُقصِّر.

والعالي الهِمّةِ يرى التقصيرَ في بعضِ العلومِ فضيحةً قد كشفَت عيبَه، وقد رأتِ الناسُ عورتَه! والقصيرُ الهِمّةِ لا يُبالي بمِنَنِ الناس، ولا يستقبحُ سُؤالَهم، ولا يَأنَفُ مِن ردٍّ، والعالي الهِمّةِ لا يحمِلُ ذلك. ولكِنّ تعبَ العالي الهِمّةِ راحةٌ في المعنى، وراحةَ القصيرِ الهِمّةِ تعبٌ وشَينٌ، إن كان ثَمّ فَهمٌ. والدنيا دارُ سباقٍ إلى أعالي المعالي، فينبغي لذي الهِمّةِ ألا يُقصِّرَ في شَوطِه، فإن سبقَ فهو المقصود، وإن كبا[1] جوادُه مع اجتِهادِه لم يُلَم.

٤٨١- فَصْلٌ
[العُجب بالنفس]

المُصيبةُ العُظمى رضا الإنسانِ عن نفسِه واقتناعُه بعِلمِه! وهذه مِحنةٌ قد عمَّتْ أكثرَ الخلق، فترى اليهوديَّ أو النصرانيَّ يرى أنّه على الصواب، ولا يبحثُ ولا ينظُرُ في دليلِ نُبوّةِ نبيِّنا ﷺ، وإذا سمِعَ ما يُليِّنُ قلبهُ مِثلَ القُرآنِ المُعجِزِ هربَ لئلّا يسمعَ!

وكذلك كُلُّ ذي هوًى يثبُتُ عليه؛ إمّا لأنّه مذهبُ أبيهِ وأهلِه، أو لأنّه نظر نظرًا أوّلًا فرآه صوابًا، ولم ينظرْ فيما يناقِضُه، ولم يُباحِثِ العُلماءَ ليُبيِّنُوا له خطأه.

ومِن هذا حالُ الخوارجِ على أميرِ المؤمِنين عليٍّ رضي الله عنه، فإنّهم استحسنُوا ما وقعَ لهم، ولم يَرجِعوا إلى مَن يعلمُ، ولمّا لقيَهم عبدُ الله بنُ عبّاسٍ رضي الله عنهما فبيّنَ لهم خطأهم، رجعَ عن مذهبِه منهم ألفان[2].

---

(١) كبا الجواد يكبو: سقط.

(٢) رواه عبد الرزاق في مصنفه (١٩٨٧٧).

ومَن لم يَرجِع عن هواه: ابنُ مُلجِم، فرأى مذهبَه هو الحقَّ، فاستحلَّ قتلَ أميرِ المُؤمِنين عليٍّ[١] رضي الله عنه، ورآه دينًا، حتّى إنّه لمّا قُطِّعَت أعضاؤه لم يُمانِعْ، فلمّا طُلِب لسانُه ليُقطَعَ انزعَج، وقال: كيف أبقى ساعةً في الدنيا لا أذكُرُ الله تعالى[٢]؟! ومِثلُ هذا ما له دواء.

وكذلك كان الحجّاجُ يقول: «والله ما أرجُو الخيرَ إلا بعد الموتِ»[٣]، هذا قولُه! وكُم قد قتلَ مَن لا يحِلُّ قتلُه! منهم سعيدُ بنُ جُبير[٤].

وقد أخبرَنا عبدُ الوهّابِ وابنُ ناصِرٍ الحافظُ، قالا: أخبرَنا المُباركُ بنُ عبدِ الجبّارِ، قال: أخبرَنا الحُسينُ بنُ مُحمّدٍ النَّصِيبيّ، قال: أخبرنا إسماعيلُ بنُ سعيد، قال: حدَّثنا أبو بكرِ بنُ الأنباريّ، قال: حدَّثنا أبو عيسى الخُتُّلِيُّ، قال: حدَّثنا أبو يَعلى، قال: حدَّثنا الأصمعيُّ، قال: حدَّثنا أبو عاصِمٍ، عن عبّادِ بنِ كَثِيرٍ، عن قَحْذَمٍ، قال: وُجِدَ في سجنِ الحجّاجِ ثلاثةٌ وثلاثون ألفًا، ما يجِبُ على أحدٍ منهم قطعٌ، ولا قتلٌ، ولا صلبٌ.

قلتُ: وعُمومُ السلاطينِ يقتلُون ويقطعُون ظنًّا منهم جوازَ ذلك! ولو سألوا العُلماءَ بيَّنوا لهم. وعمومُ العوامِّ يُبارِزُون بالذنوبِ اعتمادًا على العفو، وينسَون العقاب، ومنهم مَن يعتمدُ: أنّي مِن أهلِ السُّنّة، أو أنّ له حسناتٍ تدفع؛ وكُلُّ هذا لقوّةِ الجهل. فينبغي للإنسانِ أن يُبالغَ في معرفةِ الدليل، ولا يُساكِنَ شُبهة، ولا يثِقَ بعِلمِ نفسِه، نسألُ الله تعالى السلامةَ مِن جميعِ الآفات.

---

(١) ليس في (ح، د).

(٢) الطبقات الكبير (٣: ٣٨).

(٣) رواه أبو الحسن المدائني في التعازي (٧٨).

(٤) أبو محمد الوالبي الإمام الكبير المفسر، قتله الحجّاج سنة ٩٥هـ. سير أعلام النبلاء (٤: ٣٢١).

٤٨٢- فصلٌ ينبغي تأمُّله
[الجزاء بالمِرصاد]

اعلم أنّ الجزاءَ بالمرصاد، إن كانت حسنةً، أو كانت سيئةً، ومن الاغترارِ أن يظُنَّ المُذنِبُ - إذا لم يرَ عُقُوبةً - أنّه قد سُومِح، ورُبّما جاءتِ العُقُوبة بعد مُدّة، وقلَّ مَن فعلَ ذنبًا إلا وقُوبِلَ عليه، قال عز وجل: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣].

هذا آدمُ عليه السلام أكلَ لقمة، فقد عرفتُم ما جرى عليه. قال وهبُ بنُ مُنبِّه: أوحى الله تعالى إليه: ألم أصطنِعْكَ لنفسي، وأحللتُك داري، وأسجدتُ لك ملائكتي؟! فعصيتَ أمري، ونسيتَ عهدي! وعِزَّتي لو ملأتُ الأرضَ كلَّها مِثلَكَ يعبدون ويسبِّحون الليلَ والنهار، ثُمّ عصَوني، لأنزلتُهم منازِلَ العاصِين. فنزعَ جبريلُ التاجَ عن رأسِه، وحَلَّ ميكائيلُ الإكليلَ عن جَبينِه، وجذبَ بناصيتِه، فأُهبِطَ، فبكى آدمُ ثلاثَمئةِ عامٍ على جبلِ الهند، تجري دموعُه في أوديةِ جبالِها، فنبتَتْ بتلكَ المدامعِ أشجارُ طِيبِكم هذا.

وكذلك داودُ عليه السلام نظرَ نظرةً، فأوجبتْ عتابَه وبُكاءَه الدائم، حتّى نبتَ العُشبُ مِن دُموعِه.

وأمّا سليمانُ عليه السلام فإنّ قومًا اختصمُوا إليه، فكان هواهُ مع أحدِ الخصمَين، فعُوقِب وتغيَّر في أعيُنِ الناس، وكان يقول: أطعِمُوني، فلا يُطعَم.

وأمّا يعقوبُ عليه السلام فإنّه يقال: إنّه ذبحَ عِجلًا بين يدَي أُمِّه، فعُوقبَ بفراقِ[1] يُوسُف.

---

(١) زاد في (س): «ولده»، والخبر ذكره السمعاني في تفسيره (٣: ٥٩).

وأمّا يُوسُفُ عليه السلام فأُخِذَ بالهَمّ، وكُلُّ واحِدٍ مِن إخوتِه وُلِد له اثنا عشرَ ولدًا، ونُقِصَ هو ولدًا لأجل تلك الهَمّة[1].

وأما أيوبُ عليه السلام فإنّه قصَّر في الإنكار على مَلِكٍ ظالِمٍ لأجلِ خَيلٍ كانت له في ناحيتِه، فابتُلِيَ.

وأمّا يونسُ عليه السلام فخرجَ عن قومِهِ بغيرِ إذنٍ، فالتقمَهُ الحُوت.

وأوحى الله عز وجل إلى أَرْمِيَا: إنّ قومَك تركُوا الأمرَ الذي أكرمتُ به آباءَهم، وعِزَّتي لأُهيِّجَنَّ عليهم جُنودًا لا يرحمُون بكاءَهم. فقال: يا ربِّ، هُم ولدُ خليلِك، وأُمّةُ صَفيِّكَ مُوسى، وقُومُ نبيِّك داود. فأوحى الله تعالى إليه: إنّما أكرمتُ مُوسى وإبراهيمَ وداودَ بطاعتي، ولو عصَوني لأنزلتُهم منازِلَ العاصين[2].

ونظرَ بعضُ العُبّادِ إلى شخصٍ مُستحسَن، فقال له شيخُه: ما هذا النظر؟! ستجِدُ غِبَّه، فنسيَ القُرآنَ بعد أربعين سنة[3].

وقال آخر: عِبتُ شخصًا قد ذهبَ بعضُ أسنانِه، فانتثرَت أسناني، ونظرتُ إلى امرأةٍ لا تحِلُّ، فنظرَ إلى زوجتي مَن لا أُريد!

وكان بعضُ العاقِّين ضربَ أباهُ وسحبَه إلى مكان، فقال له الأبُ: حسبُكَ، إلى ههُنا سَحَبتُ أبي!

وقال ابنُ سيرين: عيَّرتُ رجلًا بالإفلاس، فأفلستُ[4]! ومِثلُ هذا كثير.

---

(١) تقدم في الفصل ٢٩.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٦٩).

(٣) تقدم في الفصل ١٨.

(٤) تقدم في الفصل ١٨.



ومِن عجيبِ ما سمِعتُ فيه عن الوزيرِ ابنِ حصيرٍ المُلقَّبِ بالنِّظام: أن المُقتفيَ غضِبَ عليه، وأمرَ بأن يُؤخذَ منه عشرةُ آلافِ دينار، فدخلَ عليه أهلُه محزُونين، وقالوا له: مِن أين لكَ عشرةُ آلافِ دينار؟! فقال: ما يُؤخَذُ مِنّي عشرةٌ ولا خمسةٌ ولا أربعة. قالوا[1]: مِن أين لك؟ قال: إنّي ظلمتُ رجُلًا، فألزمتُه ثلاثةَ آلاف، فما يُؤخذ مِنّي أكثرُ منها. فلمّا أدّى ثلاثةَ آلافِ دينارٍ وقّعَ الخليفةُ بإطلاقِه ومُسامحتِه في الباقي.

وأنا أقولُ عن نفسي: ما نزلتْ بي آفةٌ أو غمٌّ أو ضيقُ صدرٍ إلا بزللٍ أعرِفهُ، حتّى يُمكنَني أن أقول: هذا بالشيءِ الفُلانيّ، ورُبّما تأوّلتُ فيه بعد، فأرى العُقُوبة.

فينبغي للإنسانِ أن يرتقبَ جزاءَ الذنوب، فقلَّ أن يسلَمَ منه، وليجتهدْ في التوبة، فقد رُوِيَ في الحديث: «ما مِن شيءٍ أسرعُ لحاقًا بشيءٍ مِن حسنةٍ حديثةٍ لذنبٍ قديم»[2].

ومع التوبةِ يكونُ خائفًا مِن المُؤاخذة، مُتوقِّعًا لها، فإنّ الله تعالى قد تابَ على الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام، وفي حديثِ الشفاعة: «يقُولُ آدم: ذنبي، ويقول نوح: ذنبي، ويقولُ إبراهيمُ ومُوسى: ذنبي»[3].

فإن قال قائل: قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣] خبرٌ، فهو يقتضي ألا يُجاوزَ عن مُذنب، وقد عرَفنا قبولَ التوبة والصفحَ عن الخاطِئين، فالجوابُ مِن وجهَين؛ **أحدهما**: أن يُحمَلَ على مَن مات مُصِرًّا ولم يتُب، فإنّ

---

(١) زاد في (س): «له».

(٢) رواه وكيع في الزهد (٢٧٤) من قول فضيل بن زيد الرقاشي رحمه الله.

(٣) تقدم في الفصل ٤١٨.

التوبةَ تجُبُ ما قبلها. **والثاني**: أنّه على إطلاقه، وهو الذي أختارُه أنا، وأستدلُّ بالنقل والمعنى، أما النقل: فإنّه لما نزلَت هذه الآيةُ قال أبو بكرٍ رضي الله عنه: يا رسُـولَ الله، أوَنُجازى بكلِّ ما نعملُ؟ فقال: «ألستَ تمرضُ؟ ألستَ تحزنُ؟ أليسَ يُصيبُكَ اللأواءُ؟ فذلك ما تُجزَونَ بـه»(١). وأمّا المعنى: فإنّ المُؤمِنَ إذا تابَ وندمَ كان أسفُه على ذنبِه في كُلِّ وقتٍ أقوى مِن كُلِّ عقوبة. فالويلُ لمَن عرَفَ مرارةَ الجزاءِ الدائم، ثُمّ آثرَ لذّةَ المعصيةِ لحظة!

٤٨٣- فَصْلٌ
[منزلة المُحاسبة]

تفكَّرتُ في نفسي يومًا تفكُّرَ مُحقِّقٍ، فحاسبتُها قبل أن تُحاسَبَ، ووزنتُها قبل أن تُوزَنَ، فرأيتُ اللطفَ الربانيَّ قد ربّاني منذ الطفولة، وإلى الآن أرى لُطفًا بعد لُطفٍ، وسترًا على قبيحٍ، وعفوًا عمّا يُوجِبُ عقوبةً، وما أرى لذلك شُكرًا إلا باللسان!

ولقد تفكّرتُ في خطايا، لو عُوقبتُ ببعضِها هلكتُ سريعًا، ولو كُشِفَ بعضُها للناس لاستحيَيتُ.

ولا يعتقدُ مُعتقِدٌ عند سماعِ هذا أنّها مِن كبائرِ الذنوب، حتّى لا يُظَنَّ فيَّ ما يُظَنُّ في الفُسّاق، بل هي ذنوبٌ قبيحةٌ في حقِّ مِثلي، وقعتْ بتأويلاتٍ فاسدة، فصِرتُ إذا دعوتُ أقول: اللهمَّ بحِلمِك عني وسترِك عليَّ اغفرْ لي! ثُمّ طالبتُ نفسي بالشُّكر على ذلك، فما وجدتُه كما ينبغي.

ثُمّ أنا أتقاضى القدَرَ مُراداتي ولا أتقاضى نفسي بصبرٍ على مكروه، ولا

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٢٩٢٦).

بشكرٍ على نعمة، فأخذتُ أنوحُ على تقصيري في شُكرِ المُنعِم، وكوني أتلذَّذُ بإيرادِ العِلمِ مِن غير تحقيقِ عملٍ به.

وقد كنتُ أرجو مقاماتِ الكبار، فذهبَ العُمرُ وما حصلَ المقصُود، فوجدتُ أبا الوفاءِ عليَّ بنَ عَقِيلٍ قد ناحَ نحوَ ما نُحتُ، فأعجبتْني نياحتُه، فكتبتها ههُنا: قال لنفسه: يا رَعناءُ! تُقوِّمين الألفاظَ ليُقال: مُناظِر، وثمرةُ هذا: يا مُناظِر، كما يُقالُ للمُصارع: الفارِه[1]!

ضيَّعتِ أعزَّ الأشياء وأنفسَها عند العُقلاء، وهي أيّامُ العُمر، حتّى شاعَ لكِ بين مَن يمُوتُ غدًا اسم: مُناظِر! وينسى الذاكِرُ والمذكُورُ إذا درستِ القلوبُ، هذا إن تأخَّرَ الأمرُ إلى موتِك، بل رُبّما نشأ شابٌّ أفرَهُ مِنكِ فموَّهُوا له، وصار الاسمُ له، والعُقلاءُ عنِ الله[2] تشاغلُوا بما إذا انطَوَوا نَشَرَهم[3]، وهو العملُ بالعِلم، والنظرُ الخالصُ لنفوسِهم.

أُفٍّ لنفسي وقد سطَرتُ ما بين مُجلَّداتٍ[4] في فنونِ العلوم، وما عبقَ بها فضيلة، إن نُوظِرتُ شَمَخَتْ، وإن نُوصِحتُ تعجرفَتْ، وإن لاحَتِ الدنيا طارَت إليها طيرانَ الرَّخَم[5]، وسُقوطَ الغُرابِ على الجِيَف، فليتها أخذتْ أخذَ المُضطرِّ مِنَ المَيتة، توفِّرُ في المُخالطةِ عُيوبًا تبلى، ولا تحتشِمُ[6] نظرَ الحقِّ إليها، وإنِ انكسر لها غرضٌ تضجَّرَت، فإن أُمِدَّت بالنِّعَمِ اشتغلَت عنِ المُنعِم!

أُفٍّ - والله - مِنّي، اليومَ على وجهِ الأرضِ وغدًا تحتها! والله إنّ نَتْنَ جسدي

(١) الفاره: الحاذِق بالشيء.

(٢) قوله: «عن الله» ليس في (ك، س).

(٣) نشرَهم: أحيا ذِكرَهم.

(٤) في (ط): «سطرت عدة مجلدات».

(٥) الرَّخَم: جنس من الكواسر النهارية من الفصيلة البازيّة.

(٦) تحتشم: تستحيي.



بعـد ثـلاثٍ تحت التُّـرابِ أقلُّ مِن نَتْنِ خلائقي وأنا بيـن الأصحاب! والله إنّني قـد بهرنـي حِلمُ هـذا الكريم عنّي، كيف سـترني وأنا أتهتَّـكُ؟! ويجمُعني وأنا أتشتَّتُ[١]؟! وغدًا يُقال: مات الحبرُ العالِمُ الصالِح، ولو عرفُوني حقَّ معرِفتي بنفسي ما دفنُوني!

والله لأنادِينَّ على نفسـي نداءَ المُتكشِّـفين معايبَ الأعداء، ولأنوحَنَّ نَوحَ الثاكِلين للأعدّاء[٢]؛ إذ لا نائحَ لي ينُوحُ عليَّ لهذه المصائبِ المكتُومة، والخِلالِ المُغطّاةِ التي قد سترها مَن خبرَها، وغطّاها مَن علِمَها. والله ما أجِدُ لنفسي خَلّةً أستحسِـنُ أن أقولَ مُتوسِّـلًا بها: اللهمَّ اغفِرْ لي كذا بكذا. والله ما التفتُّ قطُّ إلا وجدتُ منه سبحانه بِرًّا يكفيني، ووقايةً تحميني مع تسلُّطِ الأعداء، ولا عرضتْ حاجـةٌ فمـددتُ يـدي إلا قضاها. هذا فِعلُـه معي وهو ربٌّ غنيٌّ عنّـي[٣]، وهذا فِعلي وأنا عبدٌ فقيرٌ إليه، ولا عُذرَ لي فأقول: ما دريتُ، أو سهوتُ!

والله، لقـد خلقَنـي خلقًـا صحيحًا سـليمًا، ونـوَّرَ قلبـي بالفِطنـة، حتّى إنّ الغائباتِ المكتوماتِ تنكشِفُ لفهمي.

فوا حسرتاهُ على عُمرٍ انقضى فيما لا يُطابقُ الرِّضا[٤]! وا حِرماني لمقاماتِ الرِّجالِ والفُطناءِ، يا حسرتى على ما فرَّطتُ في جنبِ الله، وا شماتةَ العدُوِّ بي! وا خيبةَ مَن أحسـنَ الظنَّ بي إذا شـهِدَتِ الجوارِحُ عليَّ! وا خِذلاني عند إقامة الحُجّة عليَّ! سَخِرَ ـ والله ـ مِنّي الشيطانُ وأنا الفطِن!

---

(١) في (ك، س، د): «أتبدد».

(٢) الأعدّاء: كذا في النسخ، وبعضها مضبوط بتشديد الدال، ولعلها جمع «عديد»، مثل: خليل وأخلّاء، والعديد: النِّدُّ والقِرنُ ومن يُعَدُّ في القوم وليس منهم.

(٣) سقطت من (ك، س).

(٤) في (ك، س): «المرض».

اللهـمَّ توبـةً خالِصةً مِن هـذه الأقذار، ونهضـةً صادقةً لتصفيةِ مـا بقيَ مِن الأكـدار، وقـد جِئتُكَ بعد الخمسـين وأنا مِن خَلَـقِ المَتاع، وأبـى العِلمُ إلا أن تأخُـذَ بيدي إلـى معدِنِ الكرم، وليس لي[1] وسـيلةٌ إلا التأسُّـفُ والندم، فوالله ما عصيتُك جاهِلًا بمِقدارِ نِعَمِك، ولا ناسيًا لما أسلفتَ مِن كرمِك، فاغفِر لي سالِفَ فِعلي.

٤٨٤- فَصْلٌ
[عداوةُ الأقارب]

عداوةُ الأقاربِ صعبةٌ! ورُبّما دامَت كحربِ بكرٍ وتغلِبَ ابنَي وائل، وعبسٍ وذُبيـانَ ابنَي بغيـض، والأوسِ والخـزرجِ ابنَي قَيْلةَ. قال الجاحِـظ: «تعدَّت[2] هذه الحربُ أربعين عامًا».

قلـتُ: والسـببُ في هذا أنّ كُلَّ واحِـدٍ مِنَ الأقارِبِ يكـرهُ أن يفُوقَه قريبُه، فيقعُ التحاسُـد، فينبغي لمَن فُضِّلَ حتى علـى أقاربِه أن يتواضعَ لهم، ويرفعَهم جُهدَه، ويَرفُقَ بهم، لعلَّه يسـلَمُ! قال رجُلٌ لرسـولِ الله ﷺ: لي أقارِبُ أصِلُهم فيقطعُوني، فقال: «فكأنّما تُسِفُّهم المَلَّ، ولن يزالَ معكَ مِن الله ظهيرٌ ما دُمتَ على ذلك»[3].



(١) سقطت من (ح).

(٢) في (ك، ح، س، د): «ركدت». الحيوان (١: ٤٠).

(٣) مسلم (٢٥٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، والمَلُّ: الرماد الحارّ.

٤٨٥- فَصْلٌ
[آثارُ الأدب]

رأيتُ كِلابَ الصيدِ إذا مرَّتْ بكلابِ المحلّةِ نبحتْها وبالغَت وأسرعَت خلفَها، وكأنّها تراها مُكرَّمةً مُجلَّلةً، فتحسُدُها على ذلك، ورأيتُ كلابَ الصيدِ حينئذٍ لا تلتفتُ إليها، ولا تُعيرُها الطَّرْف، ولا تعُدُّ نُباحَها شيئًا، فرأيتُ أنّ كلابَ الصيدِ كأنّها ليست مِن جِنسِ تلك الكِلاب؛ لأنّ تلك غليظةُ البدنِ، كثيفةُ الأعضاء، ولا أمانةَ لها، وهذه لطيفةٌ دقيقةُ الخِلقة، ومعها آدابٌ قد ناسبَت خِلقتَها اللطيفة، وأنّها تحبِسُ الصيدَ على مالكِها خوفًا من عقابِه، أو مُراعاةً لشُكرِ نِعمتِه عليها.

فرأيتُ أنّ الأدبَ وحُسنَ العِشرةِ يتبعُ لطافةَ البدنِ وصفاءَ الرُّوح. وهكذا المُؤمِنُ العاقِلُ، لا يلتفتُ إلى حاسدِه، ولا يعُدُّه شيئًا؛ إذ هو في وادٍ وذاك في وادٍ، ذاك يحسُدُه على الدنيا، وهذا هِمّتُه الآخِرة، فيا بُعدَ ما بين الواديَين!

٤٨٦- فَصْلٌ
ملاحظته من أهمّ الأشياء
[منزلةُ التسليم]

ينبغي لمَن آمنَ بالله تعالى أن يُسلِّمَ له في أفعالِه، ويعلمَ أنّه حكيمٌ ومالِك، وأنّهُ لا يغيب، فإن خفِيَتْ عليهِ حِكمةُ فِعلِه نسبَ الجهلَ إلى نفسِه، وسلَّم للحكيمِ الملِك[1]، فإذا طالبَه العقلُ بحكمةِ الفعلِ قال: ما بانَت لي، فيجِبُ عليَّ تسليمُ الأمرِ لمالِكِه.

---

(١) في (ك، س): «وسلَّم الحكم للمالك الحكيم».

وإنّ أقوامًا نظرُوا بمُجرَّدِ العقلِ إلى كثيرٍ مِن أفعالِ الحقِّ[1] سُبحانه، فرأوها لو صدرَت مِن مخلُوقٍ لنُسِبَ فيها إلى ضِدِّ الحِكمة، فنسبُوا الخالِقَ إلى ذلك، وهذا الكُفرُ المحضُ، والجُنونُ البارد، والواجِبُ نِسبةُ الجهلِ إلى النفُوس، فإنّ العُقُولَ قاصِرةٌ عن مُطالعةِ حكمتِه، وأوّلُ مَن فعلَ ذلك إبليسُ، فإنّه قد رآهُ قد فضَّلَ طينًا على نار، والعقلُ يرى النارَ أفضل، فعاب حِكمتَه.

وعمَّتْ هذه المِحنةُ خَلقًا مِمَّن يُنسَبُ إلى العِلم، وكثيرًا مِن العوامّ، فكم قد رأينا عالِمًا يعترضُ وعامِّيًا يردُّ[2] فيكفرُ! وهذه مِحنةٌ قد شمِلتْ أكثرَ الخلق، يرون عالِمًا يُضيَّقُ عليه، وفاسِقًا قد وُسِّعَ عليه، فيقولون: هذا لا يليقُ بالحِكمة!

وقد علِم العلماءُ أنّ الله تعالى قد فرضَ الزكواتِ والخراجَ والجزيةَ والغنائمَ والكفّاراتِ ليستغنيَ بها الفقراء، فاختصّوا بذلك الظَّلَمة، وصانَعَ مَن تجِبُ عليهِ الزكاةُ بإخراجِ بعضِها، فجاعَ الفقير! فينبغي أن نذُمَّ هؤلاء الظَّلَمة، ولا نعترِضَ على مَن قدَّر الكفايةَ للفقراء.

وقد حصلَ في ضمنِ هذا عقوبةُ الظالِمين في حبسِهم الحقوق، وابتلاءُ الفقراءِ بصبرِهم عن حُظُوظِهم، وأكثرُ هؤُلاءِ المُعترِضين لا يكادُون يسلَمُون وقتَ خُرُوجِ الرُّوحِ مِن اعتراضٍ يُخرِجُ إلى الكُفر، فتخرجُ النفْسُ كافِرةً، فكم عامّيٍّ يقول: فُلانٌ قد ابتُليَ وما يستحِقُّ! ومعناه: أنّه قد فُعِلَ معه ما لا يليقُ بالصواب. وقد قال بعضُ الخُلَعاء[3]: [المتقارب]

أيا رَبِّ تَخلُقُ أقمارَ لَيلٍ ... وأغصانَ بانٍ وكُثْبانَ رَملِ
وتَنهَى عِبادَكَ أن يَعشَقُوا ... أيا حاكِمَ العَدلِ ذا حُكمُ عَدلِ؟!

---

(١) في (س، د): «الخالق».
(٢) زاد في (س): «عليه».
(٣) حماسة الخالديين (ص٣٨).

ومِثلُ هذا يُنشِدُه جماعةٌ مِن العُلماء ويَستَحسِنونه، وهو كفرٌ محضٌ!

وما فَهِمَ هؤلاء الثلاثةُ[١] القائلةُ لهذا؛ لأنّه ما نهى عنِ العِشق، إنما نهى عن العملِ بمقتضى العِشقِ مِن الأشياءِ المُحرَّمة، كالنظرِ واللمسِ والفِعلِ القبيح، وفي الامتناعِ عنِ المُشتهى دليلٌ على وجودِ الناهي، كصبرِ العطشانِ في رمضانَ عنِ الماء، فإنّه دليلٌ على الإيمانِ بوجُودِ مَن أمرَ بالصوم، وتسليمُ النفُوسِ إلى القتلِ في الجهادِ دليلٌ على اليقينِ بالجزاء، ثُمّ المُستحسَنُ أُنمُوذجُ ما قد أُعِدَّ، فأين العقلُ المتأمِّل؟! كلّا لو تأمَّلَ لصبرَ قليلًا ليربَحَ كثيرًا.

ولو ذهبتُ أذكُرُ ما قد عرَفتُ مِن اعتراضِ العلماءِ والعوامِّ لطال! ومِن أحسنِ الناسِ حالًا في ذلك ما يُحكى عنِ ابنِ الراوَنديِّ أنّه جاعَ يومًا واشتدَّ جُوعُه، فجلسَ على الجِسرِ وقد أمضَّهُ الجُوع، فمرَّت خيلٌ مُزيَّنةٌ بالحريرِ والدِّيباج، فقال: لمَن هذه؟ فقالوا: لعليِّ بنِ بَلْتَق، غُلامِ الخليفة، فمرَّت جوارٍ مُستحسَناتٌ، فقال: لمَن هذه؟ فقالوا: لعليِّ بنِ بَلْتَق، فمرَّ بهِ رجُل، فرآهُ وعليهِ أثرُ الضُّرّ، فرمى إليه رغيفَين، فأخذهما ورمى بهما، وقال: هذه لعليِّ بنِ بَلْتَق، [وهذانِ لي][٢]؟! ونسيَ الجاهِلُ الأحمقُ ما يقولُ ويعترضُ ويفعلُ قبل هذه المجاعة.

فيا مُعترضِين وهُم في غاية النقص، على مَن لا عيبَ في فعلِه، أنتم في البدايةِ من ماءٍ وطين، وفي الثاني من ماءٍ مَهين، ثُمّ تحمِلُون الأنجاسَ على الدوام، ولو حبسَ عنكم الهواءَ صِرتم جِيَفًا، ولو أُلِيقَ[٣] منكم أهلكَكُم، وكم

---

(١) يعني: فئة العوام، وبعض العلماء، والخلعاء.

(٢) زيادة عن صيد الخاطر (ص٧٤٤) طبعة دار ابن خزيمة، والخبر بتمامه تقدم في الفصل ١٥٣.

(٣) أُلِيقَ: أي حُبِسَ.



مِـن رأيٍ يـراه حازِمُكُـم، فإذا عرضَه على غيرِه تبيَّنَ له قُبـحُ رأيِه، ثُمّ المعاصي مِنكُم زائدةٌ في الحدِّ، فما فيكم إلا الاعتراضُ على المالكِ الحكيم!

ولو لم يكُن في هذه البلاوي إلا أن يُرادَ التسـليم[١]، ولو أنّه أنشَـأ الخلقَ ليدُلُّوا على وجُودِه، ثُمّ أهلكَهم ولـم يُعِدهم، كان ذلك له؛ لأنّه مالِك[٢]، لكنّه ـ بفضلِـه ـ وعـدَ بالإعادةِ والجزاءِ والبقـاءِ الدائمِ في النعيم، فمتى ما جرى أمرٌ لا تعـرِفُ عِلَّتَه فانسُـبْ ذلـك إلى قُصورِ عِلمِك، وقد تـرى مقتُولًا ظُلمًا، وكم قد قتلَ وظلمَ حتّى قُوبِلَ ببعضِه، وقلَّ أن يجريَ لأحدٍ آفةٌ إلا ويسـتحقُّها، غيرَ أنّ تلك الآفاتِ المُجازى بها غابَتْ عنّا، ورأينا الجزاءَ وحده[٣]، فسـلِّم تَسلَم، واحذرْ من كلمةِ اعتراضٍ أو إضمارٍ، فرُبّما أخرجَتكَ مِن دائرةِ الإسلام.

٤٨٧ـ فَصْلٌ

[يومُ العيد ويومُ القيامة]

رأيـتُ النـاسَ يومَ العيد، فشـبَّهتُ الحـال بالقيامـة، فإنّهم لمّـا انتبهوا مِن نومهم[٤] خرجُوا إلى عيدِهم كخُروجِ الموتى مِن قبورِهم إلى حشرِهم، فمنهم مَن زِينتُه الغايةُ ومَركبُه النهاية، ومنهم المتوسِّـط، ومنهم المرذُول، وعلى هذا أحـوالُ النـاسِ يومَ القيامـة. قـال تعالـى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥] أي: رُكبانًا، ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦] أي: عِطاشًا،

(١) جواب الشرط محذوف دلَّ عليه السياق؛ أي: لكفى.

(٢) سقط «لأنه مالك» من (ك، س).

(٣) سقطت من (ك، ح، س).

(٤) عن هامش (س)، وفي (ك، ح، س، د): «قبورهم»، ولا يستقيم مع السياق؛ ولذا استشكلها ناسخ (د) وأثبت تحتها كعادته عند الاستشكال ثلاثَ نقاط هرمية.

وقال ﷺ: «يُحشرُون رُكبانًا ومُشاةً وعلى وجوهِهم»[(١)].

ومن الناسِ مَن يُداسُ في زحمةِ العيد، وكذلك الظَّلَمةُ يطؤهُم الناسُ بأقدامِهم في القيامة. ومِن الناسِ يومَ العيد الغنيُّ المتصدِّق، كذلك يومَ القيامة «أهلُ المعرُوفِ في الدنيا هُم أهلُ المعرُوفِ في الآخرة»[(٢)]، ومنهم الفقيرُ السائلُ فقد يُعطى، «أعددتُ شفاعتي لأهلِ الكبائر»، ومنهم مَن لا يُعطَفُ عليه[(٣)]، ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠-١٠١].

والأعلام منشورةٌ في العيد، كذلك أعلامُ المُتَّقين في القيامة، والبُوقُ يُضرَبُ كذلك يُخبِرُ بحالِ العبد، فيُقال: يا أهلَ الموقِفِ إنّ فُلانًا قد سعِدَ سعادةً لا شقاوةَ بعدها أبدًا، وإن فلانًا قد شقيَ شقاوةً لا سعادةَ بعدها أبدًا.

ثُمّ يرجِعُون من العيد بالخواصِّ إلى باب الحُجرة، يُخبِرون بامتثالِ الأوامر، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١١]، فيخرجُ التوقيعُ إليهم: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان:٢٢]، ومَن هو دُونهم يختلفُ حالُه، فمنهم مَن يرجعُ إلى بيتٍ عامِر، ﴿بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]، ومنهم مُتوسِّط، ومنهم مَن يعودُ إلى بيتٍ قَفرٍ، ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢].



(١) رواه الترمذي (٢٤٢٤) وصحَّحه.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٢٧٠٧١)، وهو ضعيف.

(٣) سقطت من (د).

٤٨٨- فَصْلٌ
يتضمَّن نصيحةً للعلماء والزهّاد

يـا قـومُ، قد علِمتُـم أنّ الأعمالَ بالنيّات، وقد فهمتُم قولَـه تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، وقـد سـمِعتُم عنِ السـلف أنّهم كانوا لا يعملُون ولا يقولون حتّى تتقدَّمَ النيّةُ وتصِحَّ.

أيذهـبُ زمانُكم ـ يـا فُقهاءُ ـ في الجدلِ والصِّيـاح، وترتفعُ أصواتُكم عند اجتمـاع العوامِّ تقصدون المُغالبة؟! أوَما سـمعتُم: «مَـن طلبَ العِلمَ ليباهيَ به العُلمـاء، أو ليُمـاريَ بِهِ السُّـفهاء، أو ليصرِفَ وُجوهَ الناسِ إليـه، لم يَرَحْ رائحةَ الجنّـة»[1]؟! ثُـمّ يُقدِمُ أحدُكم على الفتوى وليس مِن أهلِها، وقد كان السـلفُ يتدافعُونها!

ويا معشرَ المُتزهِّدين، إنّه يعلمُ السِّرَّ وما خفي، أتُظهِرُون الفقرَ في لباسِكُم وأنتم تستوفُون شـهواتِ النفوس؟! وتُظهِرون التخاشُعَ والبُكاءَ في الجَلواتِ دُون الخَلـوات؟! كان ابنُ سـيرينَ يضحكُ ويُقهقِهُ، فـإذا خلا بكى أكثرَ الليل. وقال سفيانُ لصاحبِه: ما أوقحَكَ! تُصلِّي والناسُ يرونك[2]؟! [البسيط]

أَفــدِي ظِبــاءَ فَــلاةٍ ما عَرَفــنَ بها ... مَضغَ الكَلامِ ولا صَبغَ الحَواجِيبِ

آهٍ للمُرائـي مِـن يـوم ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات: ١٠]، وهي النيّات. فأفيقُـوا مِـن سُـكرِكم، وتُوبُوا مِن زلِلكم، واسـتقيمُوا على الجـادّة، ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٢٩٣).

(٢) تقدم في الفصل ١٨٧.



٤٨٩- فَصْلٌ

[طريق العِلم والعمل][١]

رأيتُ جمهورَ الناسِ حائدِين عنِ الشريعة، جارِين على ما أَلِفُوا مِن العادة، وقد يخلُصُ منهم فريقان: عُلماءُ وعُبّادٌ.

فتأمَّلتُ **جمهورَ العُلماء**، فرأيتُهم في تخليط: منهم مَن يقتصرُ على عِلمِ مُعاملاتِ الدنيا، ويُعرِضُ عن مُعاملاتِ الآخِرة؛ إما لجهلِه بها أو لثِقَلِ أمرِها عليه، فهو يجري على ما لا يثقُلُ عليهِ مِمّا يُوجِبُه العِلمُ، ويتَّبِعُ في الباقي العاداتِ، ورُبّما تخايلَ أنّه يُسامَحُ في الخطأ لكونِه عالِمًا، وقد نسيَ أنّ العِلمَ حُجّةٌ عليه، ومنهم مَن هو واقفٌ مع صُورةِ العِلم، غافلٌ عنِ المقصُود بالعلم!

وفيهم مَن يُخالِط السُّلطان، فيتأذّى المُخالِطُ بما يرى مِن الذنوبِ والظُّلم، ولا يمكنُه الإنكار! ورُبّما مدح، ويتأذّى السُّلطانُ، فيقول: لولا أنّي على صوابٍ ما جالسَني هذا، ويتأذّى العوامُّ، فيقولون: لولا أنّ أمرَ السُّلطانِ قريبٌ ما خالطَ هذا العالِم!

ورأيتُ الأشرافَ يثِقُون بشفاعةِ آبائهم، وينسَون أنّ اليهودَ مِن بني إسرائيل!

وأمّا الفريقُ الثاني، **وهم العُبّاد**، فرأيتُ أكثرَهم في تخليط: أمّا الصحيحُو القصدِ منهم، فعلى غيرِ الجادّةِ في أكثر عملِهم، قد وضعَ لهم جماعةٌ مِن المُتقدِّمين كُتُبًا فيها دفائنُ قبيحة، وأحاديثُ غيرُ صحيحة، ويأمُرُون فيها بأشياءَ تُخالِفُ الشريعة، مِثلَ كُتُبِ الحارِثِ المُحاسبي، وأبي عبدِ الله الترمذيّ، و«قوتِ القُلُوب» لأبي طالبٍ المكّيّ، وكتابِ «الإحياء» لأبي حامِدٍ الطُّوسيّ.

---

(١) جمهور الأحاديث والمعلومات في هذا الفصل تقدمت في الفصل ١٩.

فـإذا فتـحَ المُبتـدِئُ عينَه، وهَمَّ بسُـلوكِ الطريقِ بهذه الكُتُـب، فحملَته إلى الخطايـا؛ لأنّهُم قـد بنَوا على أحاديثَ مُحالة[1]، ويذمُّـون الدنيا ولا يدرُون ما المذمُـومُ منها، فيتصـوَّرُ المُبتدِئُ ذمَّ ذاتِ الدنيا، فيهـربُ المُنقطِعُ إلى الجبل، ورُبّمـا فاتَتـه الجماعـةُ والجُمُعـة، ويقتصِـرُ علـى البَلُّـوطِ والكُمَّثـرى، فيُورثُه القُولَنجَ، ويقنعُ بعضُهم بشُرب اللبن، فينحلُّ الطبع، أو بأكلِ الباقِلّاءِ والعَدَس، فيحدُثُ له قَراقِر[2]!

وإنّمـا ينبغـي لقاصدِ الحجِّ أن يرفُقَ أوّلًا بالناقةِ ليصلَ، ألا ترى الفَطِنَ مِن الأتراكِ يهتمُّ بفرسِه[3] قبلَ تحصيلِ قُوتِ نفسِه؟!

ورُبّما تصدّى القاصُّ لشرحِ أحوالِ قومٍ مِـن السلفِ والمُتزهِّدين، فيتبعُهم المُريدُ، فيتأذّى بذلك! ومتى رَدَدنا ذلك المنقُولَ وبيَّنّا خطأَ فاعِله، قال الجُهّال: أترُدُّ على الزُّهّاد؟! وإنّما ينبغي اتِّباعُ الصوابِ ولا يُنظَرُ إلى أسـماءِ المُعظَّمِين في النفُوس، فإنّا نقول: قال أبو حنيفةَ، ثُمّ يُخالِفُه الشافِعي! وإنّما ينبغي أن يُتَّبعَ الدليلُ.

قال المَرُّوذِيّ: مدحَ أحمدُ بنُ حنبلٍ النكاح، فقُلتُ له: «قد قال إبراهيمُ بنُ أدهـم»، فصاحَ وقال: وقعنا في بُنَيّاتِ الطريقِ، عليكَ بما كان عليهِ رسُـولُ الله ﷺ وأصحابُه.

وتكلَّم أحمدُ في الحارثِ المُحاسبيّ، وردَّ على سَرِيٍّ السَّقَطِيِّ حين قال: لمّا خلقَ الله تعالى الحُروفَ وقفَ الألفُ وسـجدَتِ الباء، فقال: نفِّرُوا الناسَ عنه.

---

(١) مُحالة: ضعيفة.

(٢) القرقرة: صوت البطن.

(٣) في (ح): «بقرينته».

فالحقُّ لا ينبغي أن يُحابى، فإنّه جِدٌّ. وإنّي أرى أكثرَ الناسِ قد حادُوا عنِ الشريعة، وصار كلامُ المُتزهّدين كأنّه شريعةٌ لهم، فيقول: قال أبو طالبٍ المكّيّ: كان مِن السلفِ مِن يزِنُ قُوتَه بكَرَبَةٍ[1]، فينقُصُ كُلَّ يومٍ، وهذا شيءٌ ما عرفَه رسولُ الله ﷺ ولا أصحابُه، وإنّما كانوا يأكلُون دون الشِّبَع، فأمّا الحملُ على النفس بالجوع فمنهيٌّ عنه.

ويقول: قال داودُ الطائيُّ لسُفيانَ: إذا كُنتَ تشربُ الماءَ البارد، متى تُحِبُّ الموت؟! وكان ماؤُه في دَنٍّ[2]، وما علم أنّ للنفس حظًّا، وأنّ شُربَ الماءِ الحارِّ يُرهِّلُ المَعِدةَ ويُؤذي، وأنّ رسُولُ الله ﷺ كان يُبرَّدُ له الماء[3].

ويقولُ آخرُ منهم: مُنذُ خمسين سنةً أشتهي الشِّواء، ما صفا لي درهم، ويقولُ آخرُ: أشتهي أن أغمِزَ جزرةً في دِبسٍ[4]، فما صحَّ لي! أتُراهُم أرادُوا حَبّةً مُنذُ خرجَت مِن المَعدِنِ ما دخلَت في شُبهةٍ؟! هذا شيءٌ ما نظرَ فيه رسولُ الله ﷺ ولا أصحابُه رضي الله عنهم، وإن كان الورعُ حسنًا، ولكِن لا على حملِ المَشاقِّ الشديدة.

وهذا بشرٌ يقول: لا أُحدِثُ؛ لأنّي أشتهي أن أُحدِثَ، وهذا تعليلٌ لا يصلُحُ؛ لأنّ الإنسانَ مأمورٌ بالنكاح، وهو مِن أكبرِ المُشتهى.

وكان بشرٌ حافيًا، حتّى قيل له: الحافي، ولو سترَ أمرَه بنعلَين كان أصلح، والحفاءُ يُؤذي العين، وليس مِن أمرِ الدنيا في شيء، فقد كان لرسُولِ الله ﷺ نعلانِ.

---

(١) الكَرَبة: واحدةُ الكَرَب، وهي الأصل العريض لسَعَف النخيل إذا يَبِسَ.

(٢) الدَّنُّ: وعاء يوضع فيه الماء ويُدفَن لئلا يبرد. (٣) مسلم (٣٠١٣).

(٤) الدِّبس: العسل.

وما كانت سيرةُ رسُولِ الله ﷺ وأصحابِه على ما المُتزهِّدُون عليهِ اليوم، فقد كان رسُولُ الله ﷺ يضحكُ ويمزحُ ويختارُ المُستحسَنات، وسابقَ عائشةَ رضي الله عنها، وكان يأكلُ اللحم، ويحبُّ الحَلوى، ويُستعذَبُ له الماءُ. وعلى هذا كان طريقةُ أصحابِه.

فأظهرَ المُتزهِّدُون طرائقَ كأنّها ابتداءُ شريعة، وكُلُّها على غيرِ الجادّة، ويحتجُّون بقولِ المُحاسِبيّ والمَكّيّ، ولا يحتجُّ أحدٌ[1] منهم بصحابيّ، ولا تابعيّ، ولا بإمامٍ من أئمةِ الإسلام، فإن رأوا عالمًا لبِسَ ثوبًا جميلًا، أو تزوَّجَ مُستحسَنةً، أو أفطرَ بالنهار، أو ضحِكَ، عابُوه!

فينبغي أن يُعلَمَ أنّ أكثرَ مَن صحَّ قصدُه على غيرِ الجادّة؛ لقِلّةِ علمِهم، حتّى إنّ بعضَهم يقول: منذ ثمانين سنةً ما اضطَجَعتُ، ويقولُ آخرُ: حلفتُ لا أشربُ الماءَ سنة! وهؤلاءِ على غيرِ الصواب، فإنّ للنفسِ حقًّا.

فأمّا مَن ساء قصدُه مِمَّن نافقَ وراءى لاجتلابِ الدنيا وتقبيلِ الأيدي، فلا كلامَ معه، وهُم جُمهُورُ المُتصوِّفة، فإنّهم رقَّعُوا الثيابَ المُلوَّنة، ليراهُم الناسُ بعينِ التَّركِ للزينة، وما معهم أحسنُ مِن السَّقْلاطُون[2].

وإنّما رقَّعَ القُدماءُ للفقر، فهم في اللذّاتِ وجمعِ المالِ وأخذِ الشُّبُهاتِ واستِعمالِ الراحةِ واللعِبِ ومُخالطةِ السلاطين، وهؤُلاء قد كشفُوا القِناع، وباينُوا زُهدَ أوائلِهم! بل أعجبُ منهم مَن يُنفِقُ عليه!

---

(١) سقطت من (ك، س).

(٢) السقلاطون: نوع من النسيج مصنوع بالحرير المُوشّى بالذهب، كان يُصنَع في بغداد، وكانت له شهرة ذائعة.

٤٩٠- فصل

[أمثلةٌ للاعتبار]

إنّ الله عز وجل جعلَ لأحوالِ الآدميِّ أمثلةً ليعتبرَ بها، فمن أمثلةِ أحوالِه: القمرُ الذي يبتدئُ صغيرًا، ثُمّ يتكاملُ بدرًا، ثُمّ يتناقصُ بالمُحاق، وقد يطرأُ عليهِ ما يُفسِدُه كالكُسوف، فكذلك الآدميُّ، أوّله نُطفة، ثُمّ يترقّى مِن الفسادِ إلى الصلاح، فإذا تمَّ كان بمنزِلةِ البدرِ الكامل، ثُمّ تتناقصُ أحوالُه بالضعف، فربّما هجمَ الموتُ قبل ذلك هجومَ الكُسوفِ على القمر. قال الشاعِر[1]:

[البسيط]

والمَرءُ مِثلُ هِلالٍ عِندَ طَلعَتِهِ ... يَبدُو ضَئيلًا لَطِيفًا ثُمّ يَتَّسِقُ
يَزدادُ حتّى إذا ما تَمَّ أعقَبَهُ ... كَرُّ الجَدِيدَينِ نَقصًا ثُمَّ يَنمَحِقُ

ومن أمثلةِ حالِه: دُودُ القَزِّ، فإنّه يكُونُ حبًّا[2] إلى أن يبتدئ نباتُ قُوتِه، وهو ورقُ الفِرصاد[3]، فإذا اخضرَّ الورقُ دبَّتِ الرُّوحُ فيه، ثُمّ ينتقلُ مِن حالٍ إلى حالٍ كانتقالِ الطفل، ثُمّ يرقُدُ كغفلةِ الآدميِّ عنِ النظرِ في العواقِب، ثُمّ ينتبِهُ فيحرِصُ على الأكلِ كحِرصِ الشَّرِهِ على تحصيلِ الدنيا، ثُمّ يَسدِي[4] على نفسِه كما يَحطِبُ الآدميُّ الأوزارَ على دينِه، فيرتهنُ في ذلك الحبسِ كما يرتهِنُ الميِّتُ في قبرِه، ثُمّ يقرُضُ فيخرجُ خلقًا آخرَ كما تُنشَرُ الموتى غُرْلًا بُهْمًا.

وقد دلَّه على البعثِ تكَوُّنُ النُّطفةِ كالميِّتِ ثُمّ تصيرُ آدميًّا، وإلقاءُ الحبِّ

---

(١) لأبي الحسين بن أبي البغل في نهاية الأرب (١: ٤٦)، وكرُّ الجديدين: تتابُع الليل والنهار.
(٢) في النسخ: «حيًّا» بالياء، ولعله تصحيف.
(٣) الفِرصاد: التوت.
(٤) السَّدى بفتح السين: ما يُمَدّ طُولًا في النسيج، والمعنى أنه يُكثِر الخيوط على نفسه ويقيِّدها بها.

تحت الأرضِ فيفسدُ ثُمّ يهتزُّ خضِرًا. [المتقارب]

إذا المَــرءُ كانَــت لَــهُ فِكرَةْ ففِي كُلِّ شَــيءٍ لَهُ عِبــرَةْ[1]

٤٩١- فَصْلٌ
[الهوى العاجل]

إنّمـا فَضَـلَ العقـلُ بتأمُّـلِ العواقـب، فأمّـا القليلُ العقـلِ فإنّه يـرى الحالَ الحاضِرة، ولا ينظُرُ إلى عاقِبتِها. فإنّ اللصَّ يرى أخذَ المالِ وينسـى قطعَ اليد، والبطّالَ يرى لذّةَ الراحةِ وينسـى ما تَجنِي مِن فواتِ العِلمِ وكسـبِ المال، فإذا كبِـرَ فسُـئلَ عن عِلمٍ لم يَدرِ، وإذا احتاج سـألَ فذلَّ، فقـد أربى ما حصل له مِن التأسُّفِ على لذَّة البطالة، ثُمّ يفُوتُه ثوابُ الآخِرةِ بتركِ العملِ في الدنيا. وكذلك شارِبُ الخمرِ يلتذُّ تلك الساعةَ، وينسى ما يَجنِي مِن الآفاتِ في الدنيا والآخِرة. وكذلك الزنا، فإنّ الإنسـانَ يرى قضاءَ الشـهوة، وينسى ما تَجنِي فضيحةُ الدنيا والحَدُّ، ورُبّما كان للمرأةِ زوج، فألحقَتِ الحملَ مِن هذا به، وتسلسـلَ الأمر. فقِسْ على هذه النُّبذة، وانتبِه للعواقِب، ولا تُؤثِرْ لذةً تُفوِّتُ خيرًا كثيرًا، وصابِرْ مشقّةً، تُحصِّلْ ربحًا وافرًا.

٤٩٢- فَصْلٌ
[اللّذاتُ المعنوية]

ليس في الدنيا عيشٌ إلا لعالِمٍ أو زاهِد، بلى قد يقعُ في صفاءِ حالِهما كَدَر، وهو أنّ العالِمَ يشـتغِلُ بالعِلم، أو بالانقطاعِ عنِ الكسـب، وقد تكونُ له عائلة، فرُبّما تعرَّضَ بالسُّلطانِ ففسدَ حالُه، وكذلك الزاهِد. فينبغي للعالِمِ والعابِدِ أن

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٧: ٣٠٦).

يَحُوكا(١) في معاشٍ كنَسخٍ بأُجرةٍ أو عملِ الخُوص(٢)، أو إن فُتِحَ له شيءٌ اقتنعَ باليسير، فلا يستعبدُه أحدٌ، كما كان(٣) أحمدُ بنُ حنبلٍ له أجرةٌ لعلَّها لا تبلغُ دينارًا يتقوَّتُ بها، ومتى لم يقنعْ أفسدَت مُخالطةُ السلاطينِ والعوامِّ دينَه.

وفي الناسِ مَن يُريدُ التوسُّعَ في المطاعِم، ومنهم مَن لا يُوافِقُه خَشِنُ العيش، وهيهاتَ أن يصِحَّ الدينُ مع تحصيلِ اللذّات!

وإذا قنِعَ العالِمُ والزاهِدُ بما يكفي لم يتبذَّلْ للسلطان، ولم يُستخدَمْ بالتردُّدِ إلى بابِه، ولم يحتجِ الزاهِدُ إلى تصنُّع، والعيشُ اللذيذُ للمُنقطعِ الذي لا يُتمَندَلُ به، ولا يُحمَّلُ مِنّةً.

٤٩٣- فَصْلٌ
[تفاوُت الفُهوم]

ما أكثرَ تفاوُتَ الناسِ في الفُهوم! حتّى العُلماءُ يتفاوتون التفاوُتَ الكثيرَ في الأُصولِ والفُرُوع؛ فترى أقوامًا يسمعُون أخبارَ الصفات، فيحمِلُونها على ما يقتضيه الحِسّ، كقولِ قائلهم: «ينزِلُ بذاتِه إلى السماءِ وينتقِل». وهذا فهمٌ رديء؛ لأنّ المُنتقِلَ يكُونُ مِن مكانٍ إلى مكان، ويُوجِبُ ذلك كونَ المكانِ أكبرَ مِنه، ويلزَمُ منه الحركة، وكلُّ ذلك مُحالٌ على الحقِّ عز وجل. وأمّا في الفُرُوع فكما يُروى عن داودَ(٤) أنّه قال في قولِه ﷺ: «لا يبُولَنَّ أحدُكُم في الماءِ الدائمِ ثُمّ يتوضَّأُ منه»(٥)، فقال: إن بالَ غيرُه جاز! فما يفهمُ المُرادَ مِن التنجيس، بل

---

(١) يحوكا: أي يسعيا. (٢) الخُوص: ورق النخل.

(٣) زاد في (س): «الإمام».

(٤) داود بن علي الأصبهاني الظاهري، إمام أهل الظاهر، تُوفي سنة ٢٧٠هـ. ميزان الاعتدال (٢: ١٤).

(٥) البخاري (٢٣٩)، ومسلم (٢٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.



يأخُذُ بمُجرَّدِ اللفظ! وكذلك يقول: «لحمُ الخِنزيرِ حرامٌ لا جِلدُه»! نعُوذُ بالله مِن سُوءِ الفهم.

وكذلك يتفاوَتُ الشُّعراءُ الذين شغلَهم التفطُّنُ لدقائقِ الأحوال، كقولِ قائلهم[1]: [الطويل]

لَنا الجَفَناتُ الغُرُّ يَلمَعنَ بالضُّحى وأسيافُنا يَقطُرنَ مِن نَجدَةٍ دَما

والجَفناتُ: عددٌ يسير، فلو قال: «الجِفان» لكان أبلغ، ولو قال: «بالدُّجى» لكان أحسن، و«يقطُرن» دليلٌ على القِلّة.

وكذلك قولُ القائل[2]: [الخفيف]

همُّها العِطرُ والفِراشُ ويَعلُو ها لُجَينٌ ولُؤلُؤٌ مَنظُومُ

وهذا قاصِر، فإنّه لو فعلَتْ هذا سوداءُ لحسَّنها!

إنّما المادِحُ هو القائل[3]: [الطويل]

ألَمْ تَرَياني كُلَّما جِئتُ طارِقًا وَجَدتُ بِها طِيبًا وإنْ لَمْ تُطيَّبِ؟!

وكذا قولُ القائل[4]: [البسيط]

أدعُو إلى هَجرِها قَلبي فيَتبَعُني حَتّى إذا قُلتُ: هذا صادِقٌ نَزَعا

ولو كان صادِقًا في المحبّةِ لَما كان له قلبٌ يُخاطبُه، وإذا خاطَبه في الهجرِ لم يُوافِقْه، إنّما المُحِبُّ الصادِقُ هو القائل[5]: [الطويل]

---

(١) البيت لحسان بن ثابت في ديوانه (١: ٣٥). (٢) البيت لحسان بن ثابت في ديوانه (١: ٤٠).
(٣) ديوان امرئ القيس (ص٤١). (٤) البيت لقيس بن الملوح في ديوانه (ص١٥٧).
(٥) البيت لبشار بن برد في ديوانه (١: ٢١٣).

يَقُولُونَ: لَو عاتَبتَ قَلبَكَ لارعَوى فقُلتُ: وهَل لِلعاشِـقِينَ قُلُوبُ؟!

ومِثـلُ هذا إذا نُوقِشَ كثير، فأقـلُّ موجُودٍ في الناسِ الفهمُ، والغوصُ على دقائقِ المعاني.

٤٩٤- فَصْلٌ
[لذّات الدنيا منقوصة]

مَن تأمَّل الدنيا عِلِم أنّه ليس فيها لذّةٌ أصلًا، فإن وُجِدَت لذّةٌ شِيبَتْ بالنُّغَصِ التي تزيدُ على اللذّةِ أضعافًا، فمن اللذّاتِ النِّساء، فرُبّما لم تثبُتِ المُستحسَنة، ورُبّما لـم تُحِـبَّ الـزوج، فمتى عِلِم ذلـك انفرقَ منهـا، ورُبّمـا خانَت، وذلك الهلاك، فإن تمَّتِ المُراداتُ فذِكرُ الفِراقِ زائدٌ في التألُّم على الالتِذاذ.

ومِـن اللذّاتِ الولد، ومقاسـاةُ البِنـتِ إلى أن تتزوَّجَ ومـا تلقى مِن زوجِها وخـوفُ عارِها مِحَنٌ قبيحة. والابنُ إن مـرضَ ذابَ الفُؤاد، وإن خرجَ عن حدِّ الصلاحِ زادَ الأسف، وإن كان عدوًّا فمُرادُه هلاكُ الأب، ثُمّ إن تمَّ المُرادُ فذِكرُ فِراقِهِ يُذيبُ القُلُوب.

ولو أنّ فاسقًا أحبَّ بعضَ المُردان، انهتكَ عِرضُه في الدنيا، وذهبَ دينُه، ثُمّ لا يلبثُ أن تتغيَّرَ حِليتُه، فيصيرَ مبغُوضًا، مع ما سبقَ مِن الهُتكةِ[١] والإثم. وكم قد غلبَت شـهوةُ رجُل، فوطئَ الجواريَ السُّـود، فجاء الولدُ أسـودَ، فبقيَ عـارًا عليـه. ومن هـذا الجِنس الالتِذاذُ بالمـال، وفي تحصيله آثـام، وفي فِراقِه حسـرة، وذَهابُ العُمرِ فيه غَبِينة[٢]. وهذا أُنمُوذجٌ لِما لم[٣] يُذكَر، فينبغي لمَن

(١) الهُتكة: الفضيحة.
(٢) الغَبِينة: من الغبن، وهي الخديعة.
(٣) سقطت من (د).

وفَّقَـهُ الله سُـبحانه أن يأخُـذَ الضـروريَّ الذي يميلُ إلى سـلامةِ الديـنِ والبدنِ والعافية، ويهجُرَ الهوى الذي نُغَصُه تتضاعفُ على لذّتِه.

ومَن صبرَ على ما يكرهُ قصدًا للنفع في العاقِبة التذَّ أضعافًا، كطالبِ العِلم، فإنّـه يتعـبُ يسـيرًا، وينالُ خيرَ الدارَين مع سـلامة العاقبة، ولـذّةُ البطالةِ تُعقِبُ عدمَ العِلمِ والعمل، فيزيدُ الأسـى على اللذّةِ أضعافًا! فالله الله أن يغلبَكَ هواكَ العاجِـل، ومتى همَّ الهـوى بالتوثُّبِ فامنعْه، وزِنْ عاجلَـه بآجِلِه، وما يتذكَّرُ إلا أُولُو الألباب.

٤٩٥- فَصْلٌ

[الردُّ على المبتدعة]

رأيتُ إبليسَ قد احتال بفنونِ الحِيَلِ على الخَلق، وأمالَ أكثرَهم عن العِلمِ الـذي هُـو مِصباحُ السـالك، فتركهم يتخبَّطُـون في ظُلُماتِ الجهل، وشـغلَهم بأمور الحسِّ، فهم يُحسِّنُون ما يُحسِّنُه الحِسّ، ولا يلتفِتُون إلى مشُورة العقل، فإذا[1] ضاقَ بأحدِهم عيشُه أو نُكِب أعرضَ فكفر.

فمنهم مَن ينسُبُ ذلك إلى الدهر! ومنهم مَن يسُبُّ الدنيا، وهذا تسفيفٌ؛ لأنّ الدهرَ والدنيا لا يفعلانِ، وإنّما هو عيبٌ للمُقدِّر! ومنهم مَن يُخرِجُه الأمرُ إلى جحدِ الحِكمة، فيقول: أيُّ فائدةٍ في نقضِ المبنى؟!

وزعمَ بعضُهم أنه لا يُتصوَّرُ عَودُ المنقُوض، وأنكَروا البعث، ويقولون: ما جاء مِن ثَمّ أحدٌ! ونسُـوا أنّ الوجُودَ ما انتهى بعدُ، ثُمّ لو خلَّفتَ لصار الإيمانُ بالغيبِ عِيانًا، ولا يصلحُ أن يدلَّ على الإحياءِ بالأحياء.

(١) هنا خرم سقطت به الورقتان ٤٨٦ و٤٨٧ من (س).

ثُمّ نظرَ إبليس، فرأى في المُسلِمين قومًا فيهِم فِطنة، فأراهُم أنّ الوقُوفَ مع ظواهِرِ الشريعةِ حالةٌ يشاركُونكم فيها العوامّ، فحسَّنَ لهم عُلومَ الكلام، وصارُوا يحتجُّون بقولِ بُقراطَ وجالِينوسَ وفيثاغُورسَ، وهؤلاء ليسوا بمُتشرِّعين، ولا تَبِعُوا نبيّنا ﷺ، إنّما قالوا بمُقتضى ما سوَّلَت لهم أنفُسُهم.

وقد كان السلفُ إذا نشأ لأحدِهم ولدٌ شغلَه بحفظِ القُرآنِ وسماعِ الحديث، فيثبُتُ الإيمانُ في قلبه، فقد توانى الناسُ عن هذا، فصار الولدُ الفطِنُ يتشاغلُ بعلومِ الأوائل، وينبذُ أحاديثَ الرسولِ ﷺ، ويقول: أخبارُ آحادٍ، وأصحابُ الحديثِ عندهم يُسمَّون: حَشوِيّةً!

ويعتقِدُ هؤلاء أنّ العِلمَ الدقيقَ عِلمُ الطفرة[1] والهَيُولَى والجزءِ الذي لا يتجزَّأ، ثُمّ يتصاعدُون إلى الكلامِ في صِفاتِ الخالِق، فيدفعُون ما صحَّ عن رسولِ الله ﷺ بواقعاتهم، فتقولُ المُعتزلة: إنّ الله لا يُرى؛ لأنّ المَرئيَّ يكُونُ في جِهةٍ! ويُخالِفون قولَ رسُولِ الله ﷺ: «إنّكم لَترون ربَّكُم كما ترون القمرَ، لا تُضامُون في رُؤيتِه»[2]، فأوجبَ هذا الحديثُ إيثارَ رُؤيتِه، وإن عجزنا عن فهم كيفيتِها.

وقد عُزِلَ هؤلاء الأغبياءُ عن التشاغُلِ بالقرآن، وقالوا: مخلوق! فردَّتْ[3] حُرمته في القُلُوب، وعن السُّنّةِ، وقالوا: أخبارُ آحادٍ، وإنّما مذاهبُهم السرِقةُ من بُقراطَ وجالينوسَ.

---

(١) في (ك، ح، د): «الظفرة».

(٢) رواه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣) عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه، ولا تُضامُون: أي لا ينالكم ضَيم ولا تتزاحمون، ورُوِي بتشديد الميم؛ أي: لا ينضمُّ بعضكم إلى بعض مزدحمين وقت الرؤية. انظر: شرح المصابيح لابن الملك (٦: ١٢٢).

(٣) في (ط): «فزالت».

وقد استفاد مَن تبِعَ الفلاسفةَ أنّه يُرفِّهُ نفسَه عن تعبِ الصلاةِ والصوم!
وقد كان كبارُ العُلماءِ يذمُّون علمَ الكلام، حتى قال الشافِعيّ: حُكمي فيهم أن يُركَبُوا على البِغال ويُشهَرُوا، ويُقال: هذا جزاءُ مَن تركَ الكِتابَ والسُّنَّةَ واشتغلَ بالكلام.

وقد آلَ بهم الأمرُ إلى أنِ اعتقدُوا أنّ مَن لم يعرِفْ تحريرَ دليلِ التوحيدِ فليس بمسلم! فالله الله مِن مُخالطةِ المُبتدِعة، وعليكُم بالكتابِ والسُّنّة ترشُدُوا[١].

٤٩٦- فَصْلٌ
[قيمة الزمن]

رأيتُ العاداتِ قد غلبتِ على الناس في تضييعِ الزمان[٢]، وكان القُدماءُ يُحذِّرون مِن ذلك. قال الفُضَيل: أعرِفُ مَن يَعُدُّ كلامَهُ مِن الجُمُعةِ إلى الجُمُعة.

ودخلُوا على رجُلٍ مِن السلف، فقالوا: لعلَّنا شغلناك، فقال: أصدُقُكم، كُنتُ أقرأ، فتركتُ القِراءةَ لأجلِكُم[٣].

وجاء رجُلٌ مِن المُتعبِّدين إلى سَرِيٍّ السَّقَطيّ، فرأى عنده جماعةً، فقال: صِرتَ مُناخَ[٤] البطّالين، ثُمّ مضى ولم يَجلِسْ!

ومتى أَلانَ المزُورُ طمِعَ فيهِ الزائر، فأطالَ الجُلوس، فلم يسلَمْ مِن أذًى.

---

(١) زاد في (ح) بقلم مغاير: «وتسعدوا».
(٢) نهاية السقط المشار إليه من (س).
(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٦: ٢٣٩)
(٤) المُناخ بضم الميم: الموضع الذي تُناخ فيه الناقة، والخبر ذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة (١: ٥٠٦).

وقد كان جماعةٌ قعودًا عند معرُوفٍ[١]، فأطالُوا، فقال: إنّ مَلَكَ الشمسِ لا يفتُرُ في سَوقِها، أفما تُريدون القيام؟!

وممَّن كان يحفظُ اللحظاتِ عامرُ بنُ عبدِ قيس، قال له رجُل: قِفْ أكلِّمْكَ. قال: فأمسِكِ الشمسَ!

وقيل لكُرزِ بنِ وَبرةَ: لو خرجتَ إلى الصحراء؟ فقال: يبطُلُ الرُّوزْجارُ!

وكان داودُ الطائيُّ يستفُّ الفَتيتَ، ويقول: بين سَفِّ الفَتيتِ وأكلِ الخُبزِ قِراءةُ خمسين آية[٢].

وكان عُثمانُ الباقلانيُّ[٣] دائمَ الذكرِ لله تعالى، فقال: إنّي وقتَ الإفطارِ أُحِسُّ برُوحي كأنّها تخرجُ؛ لأجل اشتغالي بالأكلِ عن الذِّكر.

وأوصى بعضُ السلفِ أصحابَه، فقال: إذا خرَجتُم مِن عندي فتفرَّقُوا، لعلَّ أحدَكم يقرأُ القُرآنَ في طريقِه، ومتى اجتمعتُم تحدَّثتُم[٤].

واعلم أنّ الزمانَ أشرفُ من أن يُضيَّعَ منه لحظة، فإنّ في «الصحيح» عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «مَن قال: سُبحانَ الله العظيمِ وبحمدِه، غُرِسَت له بها نخلةٌ في الجنّة»[٥]، فكم يُضيِّعُ الآدميُّ مِن ساعاتٍ يفوتُه فيها الثوابُ الجزيل؟!

---

(١) زاد في (س): «الكرخي قدّس الله سرّه».
(٢) رواه الدينوري في المجالسة (٥٤).
(٣) هو عثمان بن عيسى، كان أحد الزُّهّاد المتعبّدين، منقطعًا عن الخلق، ملازمًا للخلوة، تُوفي سنة ٤٠٢هـ. انظر ترجمته وخبره في: تاريخ بغداد (١٣: ٢٠٧).
(٤) حديث أبي سعيد الأشج (١٣٦).
(٥) رواه الترمذي (٣٤٦٤).

وهـذه الأيّامُ مِثلُ المزرعة، فكأنّه قيل للإنسـان: كُلّما بـذرتَ حبّةً أخرجنا لك ألفَ كُرٍّ[١]، فهل يجُوزُ للعاقِل أن يتوقَّفَ في البذرِ أو يتوانى؟!

والـذي يُعينُ على اغتنامِ الزمان: الانفِـرادُ والعُزلةُ مهما أمكَن، والاختصارُ على السلامِ أو حاجةٍ مُهِمّةٍ لمَن يَلقى، وقلّةُ الأكل، فإنّ كثرتَه سببُ النومِ الطويلِ وضياعِ الليل. ومَن نظرَ في سِيَرِ السلف، وآمنَ بالجزاء، بان له ما ذكرتُه.

٤٩٧- فَصْلٌ
في مُعاشرة النساء

ينبغـي للعاقـلِ أن يتخيَّرَ امرأةً صالحةً مِن بيتِ صالـح، يغلُبُ عليه الفقر، لترى ما يأتيها به كثيرًا، وليتزوَّجْ لُمَتَهُ[٢] مَن تُقارِبُه في السِّـنّ، فأمّا الشـيخُ فإنّه إذا تـزوَّج صبيـةً آذاها، ورُبّما فجرَت، أو قتلَتْـه، أو طلبتِ الطلاقَ وهو يُحِبُّها، فيتأذّى، وليُتمِّم نقصَه بحُسنِ الأخلاقِ وكثرةِ النفقة. ولا ينبغي للمرأةِ أن تقرُبَ مِـن زوجِهـا كثيرًا فتُمَلَّ، ولا تبعُدْ عنه فينساها، ولتكُنْ وقـتَ قُربِها إليه كامِلةَ النظافةِ مُتحسِّـنةً. ولتحذَرْ أن يرى فرجَها أو جِسـمَها كُلَّه، فإنّ جِسـمَ الإنسـانِ ليس بمُستحسَن، وكذلك ينبغي له ألا يُريَها جِسمَه، وإنّما الجِماعُ في الفِراش.

ورأى كِسرى[٣] يومًا كيف يُسلَخُ[٤] الحيوانُ ويُطبَخ، فتقلَّبتْ نفسُه، ونفى اللحم. فذكرَ ذلك لوزيرِه، فقال: أيها الملِكُ، الطبيخُ على المائدة، والمرأةُ في الفِراش. ومعناه: لا تُفتِّشْ على ذلك.

---

(١) الكُرّ: مكيال لأهل العراق أو ستون قفيزًا أو أربعون إردبًا.

(٢) اللُّمَة: التِّرب، والمِثل، والشَّكل؛ يقال: ليتزوَّجْ كلُّ إنسان لُمَته.

(٣) زاد في (س): «أنوشروان من ملوك الفرس».

(٤) في (ك، ح، س): «يذبح».

قالت عائشةُ رضي الله عنها: «ما رأيتُه مِن رسول الله ﷺ، ولا رآه منّي»[١]، وقام ليلةً عُريانًا، فما رأيتُ جسمَهُ قبلَها[٢].

وهـذا الحـزم، وكذلك تُعجِبُ الرجلَ المـرأةُ؛ لأنّه لم يـرَ عُيوبَها، وليكُنْ للمرأةِ فراشٌ وله فراشٌ، فلا يجتمعانِ إلا في حالِ الكمال.

ومِـن الناسِ مَن يستهينُ بهذه الأشياء، فيرى المـرأةَ مُبتذلَـةً، تقول: هذا أبو أولادي، ويبتذلُ هو! فيرى كُلُّ واحِدٍ مِن الآخرِ ما لا يشتهي، فينفرُ القلب، وتبقى المعاشـرةُ بغيـرِ المحبّة. وهذا فصلٌ ينبغي تأمُّله والعمـلُ به، فإنّه أصلٌ عظيم.

٤٩٨- فَصْلٌ

[فائدةُ القناعة للعالم والزاهد]

لا عيشَ في الدنيا إلا للقَنُوعِ باليسير، فإنّه كُلَّما زادَ الحِرصُ على فُضُولِ العيش زاد الهمُّ، وتشتَّتَ القلب، واستُعبِد العبد، وأمّا القَنُوعُ فلا يحتاجُ إلى مُخالَطةِ مَن فوقَه، ولا يُبالي بمَن هو مِثلُه؛ إذ عنده ما عنده.

وإنّ أقوامًا لم يقنعُوا، وطلبُوا لذيذَ العيش، فأزرَوا بدينِهم، وذلُّوا لغيرِهم، وخصوصًا أربابَ العِلمِ؛ فإنّهم تردَّدُوا إلى الأمراءِ فاستعبَدُوهم، ورأوا المُنكرَ فلم يقدرُوا على إنكارِه، ورُبّما مدحُوا الظالِمَ اتقاءً لشرِّه، فالذي نالهم مِن الذُّلِّ وقِلّةِ الدينِ أضعافُ ما نالُوا مِن الدنيا.

ومِـن أقبـحِ الناسِ حالًا مَن تعرَّضَ للقضاءِ والشـهادة، ولقد كانتا مرتبتَينِ

(١) تقدم في الفصل ١٤١.

(٢) تقدم في الفصل ١٩٢.

حسنتَين، وكان عبدُ الحميدِ القاضي[١] لا يُحابي، فبعثَ إلى المُعتضدِ، وقال له[٢]: قدِ استأجرتَ وُقوفًا، فأدِّ أُجرتَها، ففعلَ.

وقال له المُعتضِدُ: قد ماتَ فُلانٌ ولنا عليه مال، فقال: أنتَ تذكُر لمّا ولَّيتَني قُلتَ لي: قد أخرجتُ هذا الأمرَ مِن عُنُقي ووضعتُه في عُنُقِك، ولا أقبلُ هذا إلا بشاهِدَين.

وكذلك كان الشُّهود: دخلَ جماعةٌ على بعضِ الخُلفاء، فقال الخادم: اشهَدُوا على مولانا بكذا، فشهدُوا[٣]! فتقدَّم الجُذُوعيُّ إلى السِّترِ فقال: يا أميرَ المُؤمِنين، أشهدُ عليكَ بما في هذا الكتاب؟ فقال: اشهَد. قال: إنّه لا يكفي في ذلك، لا[٤] أشهدُ حتّى تقولَ: نعم. قال: نعم.

فأمّا في زمانِنا فتغيَّرتْ تِلك القواعِدُ مِن الكُلّ، خُصوصًا مَن يُتقرَّبُ بالمالِ ليُستشهَد، فتراهُ يُسحَبُ ليشهدَ على ما لا يريدُ! قال لي أبو المعالي بنُ شافع[٥]: كُنتُ أُحمَلُ إلى بعضِ أهلِ السوادِ وهُو محبُوسٌ وأشهدُ عليه، فأعلمُ أنّه لولا أنّه مُكرَهٌ لجاء إليّ بقدمَيه، وأنا أستغفرُ الله مِن ذلك.

وليس للشهودِ جِرايةٌ[٦] فيحمِلُون ذلك لأجلِها، وإنّما الذي يحصُلُ لهم جرُّ الطيلَسان، وطرقُ الباب، وقولُ المُعرَّف: حرسَ الله نِعمتَك، شهادةٌ!

---

(١) هو الفقيه العلامة قاضي القضاة، أبو خازم، عبد الحميد بن عبد العزيز السكوني البصري، ثم البغدادي الحنفي، تُوفي سنة ٢٩٢هـ. سير أعلام النبلاء (١٣: ٥٣٩).

(٢) سقط «وقال له» من (ك، س).

(٣) سقطت من (د).

(٤) سقطت من (ك، ح، س)، وسقط من «أشهد» الأولى إلى هنا من (د).

(٥) أحمد بن صالح بن شافع، أبو المعالي الجيلي، مفيد العراق، تُوفي سنة ٥٦٥هـ. ذيل طبقات الحنابلة (٢: ٢٣١).

(٦) الجِراية: الجاري من الرواتب.

ولما قيل لإبراهيمَ النَّخَعي: تكُونُ قاضيًا! لبِسَ قميصًا أحمر، وجلسَ في السُّوق، فقالوا: هذا لا يصلُح!

ودخلَ بعضُ الكِبارِ على الرشيدِ ـ وقد أحضرَه ليُولِّيَه القضاءَ ـ فسلَّم، وقال له: كيف أنت وكيف الصبيان؟ فقيل: هذا مجنون!

فيا لله! جنونٌ هو العقل، وما أظُنُّ الإيمانَ بالآخِرةِ إلا مُتزلزِلًا في أكثرِ القُلُوب، فنسأل الله سُبحانه سلامةَ الدين، فإنّه قادِر.

٤٩٩ـ فَصْلٌ
[لكلِّ أفعاله حِكمة]

قد تكرَّر معناهُ في هذا الكتابِ، إلا أنّ إعادتَه على النفُوسِ مُهِمّة؛ لئلّا يُغفَلَ عن مِثلِه. ينبغي للمُؤمِنِ أن يعلمَ أنّ الله سُبحانه وتعالى مالِكٌ حكيمٌ لا يعبثُ، وهذا العِلمُ يُوجِبُ نفيَ الاعتِراضِ على القدَر.

وقد لهِجَ خلقٌ بالاعتراضِ قدحًا في الحِكمة، وذلك كُفر، وأوّلُهم إبليسُ في قوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦]، ومعنى قوله: أنّ تفضيلَكَ الطينَ على النارِ ليس بحِكمة! وقد رأيتُ مَن كان فقيهًا دأبُه الاعتِراض! وهذا لأنّ المُعترِضَ ينظُرُ إلى صُورةِ الفِعل، ولو أنّ صُورةَ الفِعلِ صدرتْ مِن مخلوقٍ مِثلِنا حسُنَ أن يُعترَضَ عليه، فأمّا مَن نقصَتِ[1] الأفهامُ عن مُطالعةِ حِكمتِه، فاعتراضُ الناقِصِ الجاهِلِ عليهِ جُنونٌ.

فأمّا اعتراضُ الخُلَعاءِ فدائم؛ لأنّهم يُريدُون جريانَ الأُمُورِ على أغراضِهم،

---

(١) في النسخ: «نقص».

فمتى انكَسر لأحدِهم غرضٌ اعترض، وفيهم مَن يتعدّى إلى ذِكرِ الموت، فيقول: بنى ونقض! وكان لنا رفيقٌ قرأ القُرآنَ والقراءاتِ، وسمِعَ الحديثَ الكثيرَ، ثُمّ وقعَ في الذُّنوب، وعاشَ أكثرَ مِن سبعين سنةً، فلمّا نزلَ بهِ الموتُ ذُكِر لي أنّه قال: قد ضاقَتِ الدنيا إلا مِن رُوحي! ومِن هذا الجِنسِ سمِعتُ شخصًا يقولُ عند الموت: ربّي يظلِمُني! وهذا كثير.

ويُكرَهُ أن يُحكى كلامُ الخُلَعاءِ في جُنُونِهم واعتِراضاتِهم البارِدة، ولو فهِمُوا أنّ الدنيا ميدانُ مُسابقةٍ ومارستانُ[1] صبرٍ ليبينَ بذلك أثرُ الخالِق، لَما اعترضُوا، والذي طلبُوه مِن السلامةِ وبلُوغِ الأغراضِ أمامهم، لو فهِمُوا، فهم كالرُّوزْجارِيِّ يتلوَّثُ بالطين، فإذا فرغَ لبسَ ثيابَ النظافة.

ولمّا أُريدَ نقضُ هذا البدنِ الذي لا يصلُحُ للبقاء، نُحِّيَتْ عنه النفسُ الشريفة، ثُمّ بُنِيَ بناءً يقبلُ الدوام. وبعد هذا فقُل للمُعترِض: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: ١٥]. قل له[2]: إنِ اعترضَ لم يمنعْ ذلك جريانَ القدَر، وإن[3] سلَّمَ جرى القدَر[4]، فلأنْ يجريَ وهو مأجُورٌ خيرٌ مِن أن يجريَ وهو مأزُورٌ. وما أحسنَ سُكوتَ وضّاحِ اليمنِ لمّا اختبأ في صُندوق، فقال السُّلطان: أيها الصندوق! إن كان فيكَ ما نظُنُّ فقد محَونا أثرَك، وإن لم يكُنْ فليس بدفنِ خشبٍ مِن جُناح. فلو أنّه صاحَ ما انتفعَ بشيء، ولرُبّما أُخرجَ فقُتِلَ أقبحَ قِتلة[5].

---

(١) المارستان: المستشفى.

(٢) قوله: «قل له» في (ك، ح، س): «فله».

(٣) في (ك، ح، س): «إن» بلا واو قبلها.

(٤) سقط «وإن سلم جرى» من (د).

(٥) رواه الخرائطي في اعتلال القلوب (٥٧٤).

٥٠٠- فَصْلٌ
[مع كلِّ فرحة تَرحة]

مَن تلمَّح أحوالَ الدنيا علِم أنّ مُرادَ الحقِّ سُبحانه اجتِنابُها، فمَن مالَ إلى مُباحِهـا ليلتـذَّ وجدَ مع كُلِّ فَرحةٍ تَرحةً، وإلى جانِـبِ كُلِّ راحةٍ تعبًا، وآخِرَ كُلِّ لذّةٍ نغصًا يزيدُ عليها، وما رُفِعَ شـيءٌ مِن الدنيا إلا ووُضِع. أحبَّ الرسُـولُ ﷺ عائشةَ رضي الله عنها، فجاء حديثُ الإفك، ومالَ إلى زينبَ فجاء: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

ثُـمّ يكفـي أنّـه إذا حصَّلَ محبُوبَـه، فعينُ العقـلِ ترى فِراقَـه، فيتنغَّصُ عند وجُودِه، كما قال الشاعر(١): [الوافر]

أتـمُّ الحُزنِ عِندِيَ في سُـرُورٍ تَيَقَّـنَ عَنـهُ صاحِبُـهُ انتِقـالا

فيعلـمُ العاقِـلُ أنّ مُـرادَ الحقِّ بهذا التكديـرِ التنفيرُ عنِ الدنيـا، فيبقى أخذُ البُلغةِ ضرُورةً، وتركُ الشـواغِل، فيجتمعُ الهمُّ في خِدمةِ الحقّ، ومَن عدلَ عن ذلك ندِمَ يوم الفوات.

٥٠١- فَصْلٌ
[تدبيرُ المعيشة]

العاقلُ يُدبِّرُ بعقلِه عيشَه في الدنيا، فإن كان فقيرًا اجتهدَ في كسبٍ وصناعةٍ تكفُّهُ عنِ الذُّلِّ للخَلق، وقلَّلَ العلائق، واستعملَ القناعة، فعاش سليمًا مِن مِنَنِ الناس، عزيزًا بينهم. وإن كان غنيًّا فينبغي له أن يُدبِّرَ في نفقتِه، خوفَ أن يفتقِر، فيحتـاجَ إلى الذُّلِّ للخَلق، ومِن البليّـةِ أن يُبذِّرَ في النفقة، ويُباهيَ(٢) بها ليكمِدَ

(١) البيت للمتنبي في ديوانه (ص١٤٠). (٢) في (ك، س): «أو يباهي».

الأعداء، كأنّه يتعرَّضُ بذلك - إن أكثرَ[1] - لإصابتِه بالعين!

وينبغي التوسُّطُ في الأحوال، وكتمانُ ما يصلُحُ كتمانُه، ولقد وجدَ بعضُ الغسّالين مالًا فأكثرَ النفقة، فعُلِم به، فأُخِذ منه المال، وعاد إلى الفقر، وإنّما التدبيرُ حِفظُ المال، والتوسُّطُ في الإنفاق، وكِتمانُ ما لا يصلُحُ إظهارُه.

ومِن الغلط إطلاعُ الزوجةِ على قدرِ المال، فإنّه إن كان قليلًا هان عندها الزوج، وإن كان كثيرًا طلبَتْ زيادةَ الكسوةِ والحُليّ! قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ [النساء: ٥]، وكذلك الولدُ، وكذلك الأسرارُ ينبغي أن تُحفَظَ منها ومن الصديق، فرُبّما انقلب، فقد قال الشاعر[2]: [مجزوء الكامل]

احذَرْ عَدُوَّكَ مَرَّةً ... واحذَرْ صَدِيقَكَ ألفَ مَرَّهْ

فلَرُبَّما انقَلَبَ الصَّدِيـ ... ـقُ فكانَ أدرى بالمَضَرَّهْ

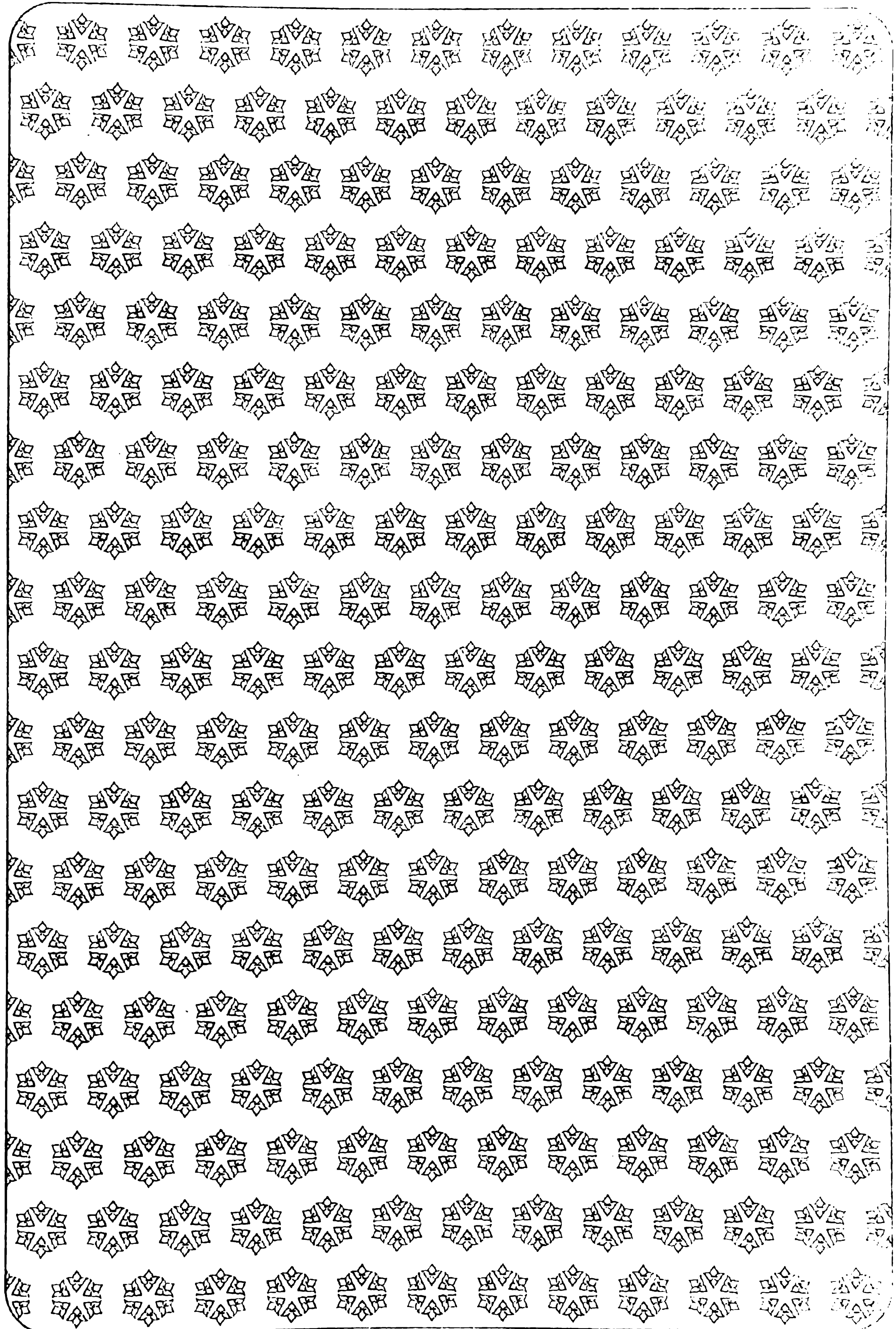
* * *

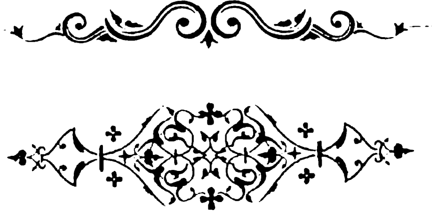
بحمدِ الله تعالى قد نجزَ ما توخّاه الفِكرُ الفاتِر، مِن تقييدِ ما جمعهُ القلمُ مِن صيدِ الخاطِر، مُقتصِرًا فيهِ على ما به التخلّي من الأمراض النفسيّة، والتحلّي بالآداب الشرعيّة، والأخلاقِ المَرضيّة، جعله الله تعالى خيرَ هادٍ على مِنبرِ الوعظِ والإرشاد، وأنفعَ كِتابٍ تجلّى في مرايا الظهور لهداية العباد، والحمد لله أوّلًا وآخرًا، وصلّى الله على سيدنا محمدٍ وعلى آلِه وصحبِه وسلَّم.



(١) في (ك، ح، س): «كثر».

(٢) تقدم البيتان في الفصل ١١٢.





الفهارس الفنية

١ـ فهرس الآيات القرآنية الكريمة.

٢ـ فهرس الأحاديث النبوية الشريفة.

٣ـ فهرس الآثار.

٤ـ فهرس الأشعار.

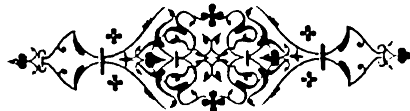
٥ـ فهرس الأعلام.

٦ـ فهرس الأقوام والجماعات والمذاهب.

٧ـ فهرس البلدان والأماكن.

٨ـ فهرس الكتب.

٩ـ فهرس المصادر والمراجع.



فهرس الآيات القرآنية الكريمة





فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

فهرس الآثار





فهرس الأشعار



فهرس الأعلام







فهرس الأقوام والجماعات والمذاهب

فهرس البلدان والأماكن



فهرس الكتب



فهرس المصادر والمراجع

- آثار البلاد وأخبار العباد: لزكريا بن محمد القزويني، دار صادر، بيروت، ١٣٨٠هـ= ١٩٦٠م.
- آداب الشافعي ومناقبه: لابن أبي حاتم، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ١٤٢٤هـ= ٢٠٠٣م.
- الآداب الشرعية الكبرى: لشمس الدين بن مُفلح المقدسي الحنبلي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، عمر القيام، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٩٩٩م.
- الإبانة الكبرى: لابن بطة، تحقيق: جماعة من المحققين، دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١٥هـ= ١٤٢٦هـ.
- أخبار الظِّراف والمُتماجنين: لابن الجوزي، دار ابن حزم بيروت، ١٩٩٧م.
- الإخلاص والنية: لابن أبي الدنيا، دار البشائر، ١٤١٣هـ.
- أدب النساء: لعبد الملك بن حبيب، دار الغرب الإسلامي، ١٤١٢هـ= ١٩٩٢م.
- الأذكياء: لابن الجوزي، مكتبة الغزالي، ١٤٢٤هـ= ٢٠٠٣م.
- الأربعون في شيوخ الصوفية: للماليني، دار البشائر الإسلامية، بيروت لبنان، ١٤١٧هـ= ٢٠١٧م.
- الأسماء والصفات: للبيهقي، مكتبة السوادي، جدة المملكة العربية السعودية، ١٤١٣هـ= ١٩٩٣م.
- إصلاح المال: لابن أبي الدنيا، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت لبنان، ١٤١٤هـ= ١٩٩٣م.
- اعتلال القلوب: للخرائطي، تحقيق: حمدي الدمرداش، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ= ٢٠٠٠م.
- الإعجاز والإيجاز: لأبي منصور الثعالبي، مكتبة القرآن القاهرة، ١٤٢٢هـ= ٢٠٠١م.
- الأعلام: لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشرة، ٢٠٠٢م.
- اقتضاء العلم العمل: للخطيب البغدادي، المكتب الإسلامي بيروت، ١٤٠٤هـ= ١٩٨٤م.
- أمالي القالي: لأبي علي القالي، دار الكتب المصرية، ١٣٤٤هـ= ١٩٢٦م.
- الأمثال السائرة من شعر المتنبي: للصاحب بن عباد، مكتبة النهضة، بغداد، ١٣٨٥هـ= ١٩٦٥م.
- أمثال العرب: للمُفضَّل الضبي، تحقيق: إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت لبنان، ١٤٠٣هـ= ١٩٨٣م.
- أنساب الأشراف: للبلاذري، دار الفكر بيروت، ١٤١٧هـ= ١٩٩٦م.
- الأولياء: لابن أبي الدنيا، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت، ١٤١٣هـ.
- البداية والنهاية: لابن كثير، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

- **بدائع الفوائد:** لابن قيم الجوزية، تحقيق: د. علي بن محمد العمران، دار عطاءات العلم، الطبعة الخامسة، ١٤٤٠هـ= ٢٠١٩م.
- **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة:** للسيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، عيسى البابي الحلبي، ط١، ١٣٨٤هـ= ١٩٦٤م.
- **بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس:** لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر القرطبي، تحقيق محمد مرسي الخولي، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية.
- **البيان والتبيين:** للجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ.
- **تاج العروس من جواهر القاموس:** للزَّبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، وزارة الإعلام الكويتية، ١٣٥٨هـ= ١٩٦٥م.
- **تاريخ ابن معين رواية ابن محرز:** ليحيى بن معين، مجمع اللغة العربية دمشق، ١٤٠٥هـ= ١٩٨٥م.
- **تاريخ أصبهان = أخبار أصبهان:** لأبي نعيم الأصبهاني، دار الكتب العلمية بيروت، ١٤١٠هـ= ١٩٩٠م.
- **تاريخ الإسلام:** للذهبي، تحقيق: بشار عواد، دار الغرب الإسلامي بيروت، ١٤٢٤هـ= ٢٠٠٣م.
- **التاريخ الأوسط:** للبخاري، دار الوعي حلب، مكتبة دار التراث القاهرة، ١٣٩٧هـ= ١٩٧٧م.
- **تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري:** دار المعارف بمصر، ١٣٨٧هـ= ١٩٦٧م.
- **التاريخ الكبير:** للبخاري، الناشر المتميز للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٤٠هـ= ٢٠١٩م.
- **تاريخ بغداد = تاريخ مدينة السلام:** للخطيب البغدادي، تحقيق: د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ= ٢٠٠٢م.
- **تاريخ داريا:** لعبد الجبار الخولاني، المجمع العلمي العربي بدمشق، ١٣٦٩هـ = ١٩٥٠م.
- **تاريخ دمشق:** لابن عساكر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ = ١٩٩٥م.
- **تالي تلخيص المتشابه:** للخطيب البغدادي، دار الصميعي الرياض، ١٤١٧هـ.
- **تحقيق المخطوطات بين الواقع والنهج الأمثل:** للدكتور عبد الله عُسيلان، مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٩٩٤م.
- **التذكرة الحمدونية:** لمحمد بن الحسن بن حمدون، تحقيق: إحسان عباس، بكر عباس، دار صادر، ط١، ١٩٩٦م.
- **التعازي:** لأبي الحسن المدائني، دار البشائر، ١٤٢٢هـ = ٢٠٠١م.
- **تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن:** للثعلبي، دار التفسير، جدة المملكة العربية السعودية، ١٤٣٦هـ= ٢٠١٥م.
- **تفسير السمعاني:** دار الوطن، الرياض السعودية، ١٤١٨هـ= ١٩٩٧م.
- **تفسير الطبري جامع البيان:** لابن جرير الطبري، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان القاهرة، مصر، ١٤٢٢هـ= ٢٠٠١م.
- **تفسير عبد الرزّاق:** دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ.



- تقريب التهذيب: لابن حجر العسقلاني، دار الرشيد سوريا، ١٤٠٦هـ= ١٩٨٦م.
- تلبيس إبليس: لابن الجوزي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ١٤٢١هـ= ٢٠٠١م.
- التمثيل والمحاضرة: لأبي منصور الثعالبي، الدار العربية للكتاب، ١٤٠١هـ= ١٩٨١م.
- التمهيد: لابن عبد البر، تحقيق: بشار عواد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي لندن، ١٣٨٧هـ.
- تهذيب الأجوبة: لابن حامد الحنبلي، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، ١٤٠٨هـ= ١٩٨٨م.
- التوبة: لابن أبي الدنيا، تحقيق: مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن، مصر.
- الثقات: لابن حبان، دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند، ١٣٩٣هـ= ١٩٧٣م.
- الجامع الصحيح: للإمام البخاري، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، ١٤١٤هـ= ١٩٩٣م.
- جامع بيان العلم وفضله: لابن عبد البر، دار ابن الجوزي السعودية، ١٤١٤هـ= ١٩٩٤م.
- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع: للخطيب البغدادي، مكتبة المعارف الرياض، ١٤٤٤هـ.
- الجرح والتعديل: لابن أبي حاتم، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، بحيدر آباد الدكن الهند، ١٢٧١هـ= ١٩٥١م.
- ابن الجوزي الإمام المربي والواعظ البليغ والعالم المتفنن: لعبد العزيز سيد هاشم الغزّولي، دار القلم، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.
- الحاوي في الطب: لأبي بكر الرازي، تحقيق: هيثم خليفة طعيمي، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ= ٢٠٠٢م.
- الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه: لأبي هلال العسكري، المكتب الإسلامي بيروت، ١٤٠٦هـ= ١٩٨٦م.
- حديث أبي سعيد الأشج: دار المغني للنشر والتوزيع، ١٤٢٤هـ= ٢٠٠١م.
- حفظ العمر: لابن الجوزي، دار البشائر الإسلامية، ١٤٢٥هـ= ٢٠٠٤م.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: لأبي نعيم الأصفهاني، مطبعة السعادة، ١٣٩٤هـ= ١٩٧٤م.
- حماسة الخالديين = الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهليين والمخضرمين: لأبي بكر محمد ابن هاشم الخالدي، وأبي عثمان سعيد بن هاشم الخالدي، تحقيق: د. محمد علي دقة، وزارة الثقافة، الجمهورية العربية السورية، ١٩٩٥م.
- الحيوان: للجاحظ، دار الكتب العلمية بيروت، ١٤٢٤هـ.
- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب: لعبد القادر البغدادي، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤١٦هـ= ١٩٩٦م.
- خصائص مسند الإمام أحمد: لأبي موسى المديني، مكتبة التوبة، ١٤١٠هـ= ١٩٩٠م.
- الخصائص: لأبي الفتح عثمان بن جني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٨٥هـ.
- الدر الفريد وبيت القصيد: للمستعصمي، تحقيق: د. كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٣٦هـ= ٢٠١٥م.

- دقائق التفسير: لابن تيمية، مؤسسة علوم القرآن دمشق، ١٤٠٤هـ.
- ديوان ابن أبي حصينة: المجمع العلمي العربي بدمشق.
- ديوان ابن المعتز: دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦١م.
- ديوان أبي الحسن التهامي: تحقيق: عثمان صالح الفريح، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، ١٤٠٥هـ= ١٩٨٥م.
- ديوان أبي العتاهية: دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٦هـ= ١٩٨٦م.
- ديوان أبي تمام: قدم له: عبد الحميد يونس، عبد الفتاح مصطفى، ١٣٦١هـ= ١٩٤٢م.
- ديوان أبي منصور علي بن الحسن المعروف بصرّ دُرّ: مطبعة دار الكتب المصرية، الطبعة الأولى، ١٣٥٣هـ= ١٩٣٤م.
- ديوان الإمام الشافعي: تحقيق محمد أديب الجادر، دار الفتح للدراسات والنشر بالأردن، الطبعة الأولى، ٢٠٢٤م.
- ديوان الحلّاج: تحقيق محمد باسل عيون السود.
- ديوان الحماسة: لأبي تمام، رواية أبي منصور الجواليقي، شرحه وعلق عليه: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٨هـ= ١٩٩٨م.
- ديوان الشريف الرضي: منشورات مطبعة وزارة الإرشاد الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.
- ديوان المتنبي: دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٣هـ= ١٩٨٣م.
- ديوان امرئ القيس: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، الطبعة الخامسة.
- ديوان أمية بن أبي الصلت: جمعه ووقف على طبعه: بشير يموت، المكتبة الأهلية، ط١، ١٣٥٣هـ= ١٩٣٤م.
- ديوان بشار بن برد: جمع وتحقيق: العلامة الطاهر بن عاشور، وزارة الثقافة العربية، الجزائر، ٢٠٠٧هـ.
- ديوان حسان بن ثابت: تحقيق وليد عرفات، دار صادر، ٢٠٠٦م.
- ديوان حميد بن ثور الهلالي: جمعه وحققه: الدكتور محمد شفيق البيطار، دار الكتب الوطنية، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.
- ديوان عبد المحسن بن محمد الصوري: تحقيق: مكي السيد جاسم وشاكر هادي شكر، مكتبة الحرية للطباعة، بغداد.
- ديوان عدي بن زيد العبادي: جمعه وحققه: محمد جبار المعيبد، شركة دار الجمهورية للنشر والطبع، بغداد، ١٣٨٥هـ= ١٩٦٥م.
- ديوان كثير عزة: جمعه وشرحه: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٣٩١هـ= ١٩٧١م.
- ديوان لبيد بن ربيعة: دار صادر، بيروت.
- ديوان ليلى الأخيلية: عُني بجمعه وتحقيقه: خليل إبراهيم العطية، جليل العطية، دار الجمهورية، بغداد، ١٣٨٦هـ= ١٩٦٧م.

- ديوان مجنون ليلى: تحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار مصر للطباعة.
- ديوان مهيار الديلمي: مطبعة دار الكتب المصرية، الطبعة الأولى، ١٣٤٤هـ= ١٩٢٥م.
- ذمُّ الهوى: لابن الجوزي، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، مراجعة محمد الغزالي.
- ذيل طبقات الحنابلة: لابن رجب الحنبلي، تحقيق عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.
- ربيع الأبرار: للزمخشري، تحقيق: عبد الأمير مهنا، مؤسسة الأعلمي، ط١، ١٤١٢هـ= ١٩٩٢م.
- الرد على الجهمية: للدارمي، تحقيق: الشوامي، المكتبة الإسلامية، القاهرة مصر، ١٤٣١هـ= ٢٠١٠م.
- الرسالة القشيرية: لعبد الكريم القشيري، دار المعارف، القاهرة، ١٤٤١هـ= ٢٠٢٠م.
- الرسائل: للجاحظ، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٨٤هـ= ١٩٦٤م.
- الرضا عن الله بقضائه: لابن أبي الدنيا، الدار السلفية بومباي، ١٤١٠هـ.
- روضة العقلاء ونزهة الفضلاء: لابن حبان، دار الكتب العلمية بيروت.
- الزاهر في معاني كلمات الناس: لأبي بكر بن الأنباري، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط٢، ١٩٨٧م.
- الزهد الكبير: للبيهقي، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت، ١٩٩٦م.
- الزهد والرقائق: لابن المبارك، تحقيق: الأعظمي، نشره: محمد عفيف الزعبي.
- الزهد: لأبي داود، دار المشكاة للنشر والتوزيع، حلوان مصر، ١٤١٤هـ= ١٩٩٣م.
- الزهد: لأحمد بن حنبل، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ١٤٢٠هـ= ١٩٩٩م.
- الزهد: للمعافى بن عمران الموصلي، دار البشائر الإسلامية بيروت، ١٤٢٠هـ= ١٩٩٩م.
- الزهد: لهناد بن السري، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي الكويت، ١٤٠٦هـ.
- الزهد: لوكيع بن الجراح، تحقيق: عبد الرحمن الفريوائي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ= ١٩٨٤م.
- سراج الملوك: لأبي بكر الطرطوشي، من أوائل المطبوعات العربية مصر، ١٢٨٩هـ= ١٨٧٢م.
- السنة: لعبد الله بن أحمد بن حنبل، دار ابن القيم الدمام، ١٤٠٦هـ= ١٩٨٦م.
- سنن ابن ماجه: تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي.
- سنن أبي داود: تحقيق: شعيب الأرنؤوط وزميله، دار الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ= ٢٠٠٩م.
- سنن الترمذي: تحقيق: أحمد محمد شاكر، طبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ= ١٩٧٥م.
- السنن الصغير: للبيهقي، جامعة الدراسات الإسلامية، كراتشي باكستان، ١٤١٠هـ= ١٩٨٩م.
- سير أعلام النبلاء: للذهبي، تحقيق الدكتور بشار عواد معروف وزميله، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م.
- سير السلف الصالحين: لإسماعيل الأصبهاني، دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.

- سيرة الإمام أحمد بن حنبل: لابنه صالح بن أحمد، دار الدعوة الإسكندرية، ١٤٠٤هـ.
- سيرة عمر بن عبد العزيز: لابن الجوزي، نسخه وصححه ووقف على طبعه: محب الدين الخطيب، مطبعة المؤيد، مصر، ١٣٣١هـ.
- شرح أشعار الهذليين: لأبي سعيد السكري، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، راجعه: محمود محمد شاكر، دار العروبة، ١٣٨٤هـ= ١٩٦٥م.
- شرح المصابيح: لابن الملك، تحقيق: لجنة مختصة من المحققين بإشراف: نور الدين طالب، وزارة الأوقاف، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ= ٢٠١٢م.
- شرح حديث «مَثل الإسلام»: لابن رجب الحنبلي، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، ١٤٢٤هـ= ٢٠٠٣م.
- شرح ديوان الحماسة: للمرزوقي، تحقيق: أحمد أمين، عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١١هـ= ١٩٩١م.
- شرح شواهد المغني: للسيوطي، مذيلًا بتصحيحات العلامة محمد محمود ابن التلاميد التركزي الشنقيطي، لجنة التراث العربي.
- شعب الإيمان: للبيهقي، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، ١٤٢٣هـ= ٢٠٠٣م.
- شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم: لنشوان الحميري، تحقيق: د. حسين بن عبد الله العمري، مطهر بن علي الأرياني، يوسف محمد عبد الله، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٠هـ= ١٩٩٩م.
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: للجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة، ١٩٨٧م.
- صحيح البخاري: عناية محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، مصورة عن الطبعة السلطانية، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- صحيح مسلم: لأبي الحسين مسلم بن الحجاج، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، عيسى البابي الحلبي، ط١، ١٤١٢هـ= ١٩٩١م.
- الصداقة والصديق: لأبي حيان التوحيدي، تحقيق: الدكتور إبراهيم الكيلاني، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى معادة، ١٤١٩هـ= ١٩٩٨م.
- صفة الصفوة: لابن الجوزي، دار الحديث، القاهرة، مصر، ١٤٢١هـ= ٢٠٠٠م.
- الصناعتين: الكتابة والشعر: لأبي هلال العسكري، المكتبة العصرية بيروت، ١٤١٩هـ.
- الضعفاء الكبير: للعقيلي، تحقيق: قلعجي، دار المكتبة العلمية بيروت، ١٤٠٤هـ= ١٩٨٤م.
- طبائع النساء وما جاء فيها من عجائب وأخبار وأسرار: لابن عبد ربه الأندلسي، مكتبة القرآن القاهرة.
- طبقات الأولياء: لابن الملقن، تحقيق: نور الدين شريبة، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ= ١٩٩٤م.

- طبقات الحنابلة: لابن أبي يعلى، تحقيق: الفقي، مطبعة السنة المحمدية القاهرة، ١٣٧١هـ= ١٩٥٢م.
- طبقات الشعراء: لابن المعتز، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، مصر.
- طبقات الصوفية ويليه ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات: لأبي عبد الرحمن السلمي، دار الكتب العلمية بيروت، ١٤١٩هـ= ١٩٩٨م.
- الطبقات الكبير: لابن سعد، تحقيق: د. محمد علي عمر، مكتبة الخانجي، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ= ٢٠٠١م.
- طبقات المفسِّرين: لشمس الدين الداودي المالكي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- طبقات فُحول الشعراء: لابن سلام الجمحي، دار المدني جدة.
- العقد الفريد: لابن عبد ربه الأندلسي، دار الكتب العلمية بيروت، ١٤٠٤هـ.
- العقوبات: لابن أبي الدنيا، دار ابن حزم، بيروت لبنان، ١٤١٦هـ= ١٩٩٦م.
- علل الدارقطني = العلل الواردة في الأحاديث النبوية: دار طيبة الرياض، ١٤٠٥هـ= ١٩٨٥م.
- العلل الكبير = ترتيب علل الترمذي الكبير: للترمذي، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية بيروت، ١٤٠٩هـ.
- العلل المتناهية في الأحاديث الواهية: لابن الجوزي، إدارة العلوم الأثرية، فيصل آباد، باكستان، ١٤٠١هـ= ١٩٨١م.
- العلل ومعرفة الرجال: لأحمد بن حنبل، رواية ابنه عبد الله، دار الخاني، الرياض، ١٤٢٢هـ= ٢٠٠١م.
- العلل: لابن أبي حاتم، تحقيق: الحميد، مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان الرياض، ١٤٢٧هـ= ٢٠٠٦م.
- العلم: لزهير بن حرب، المكتب الإسلامي بيروت، ١٤٢١هـ= ٢٠٠١م.
- عيون الأخبار: لابن قتيبة الدينوري، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤١٨هـ.
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء: لابن أبي أصيبعة، دار مكتبة الحياة بيروت.
- العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري: لبدري محمد فهد، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٦٧م.
- غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب: لشمس الدين أبي العون السفاريني الحنبلي، مؤسسة قرطبة، الطبعة الثانية، ١٩٩٣م.
- الفاخر: للمفضل بن سلمة، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، ١٣٨٠هـ.
- الفتح الرباني: لسيدي عبد القادر الجيلاني، منشورات الجمل، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.
- فُتيا فقيه العرب: لأبي الحسين أحمد بن فارس، تحقيق: د. حسين علي محفوظ، مطبوعات المجمع العلمي، دمشق، ١٣٧٧هـ= ١٩٥٨م.
- الفقيه والمتفقه: للخطيب البغدادي، دار ابن الجوزي السعودية، ١٤٢١هـ.
- الفوائد والأخبار: لابن حمكان، دار البشائر الإسلامية [ضمن سلسلة الأجزاء والكتب الحديثية ١٧].
- القانون في الطب: لابن سينا، تحقيق: محمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ= ١٩٩٩م.
- القُصّاص والمُذكِّرين: لابن الجوزي، تحقيق محمد لطفي الصباغ، المكتب الإسلامي، ١٩٨٨م.

- **قصر الأمل**: لابن أبي الدنيا، دار ابن حزم، بيروت لبنان، ١٤١٧هـ= ١٩٩٧م.
- **قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد**: لأبي طالب المكي، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ١٤٢٦هـ= ٢٠٠٥م.
- **الكامل في التاريخ**: لابن الأثير، تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.
- **الكامل في اللغة والأدب**: للمبرد، عارضه بأصوله وعلق عليه: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٣، ١٤١٧هـ= ١٩٩٧م.
- **الكامل في ضعفاء الرجال**: لابن عدي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ١٤١٨هـ= ١٩٩٧م.
- **كتاب الفنون**: لابن عقيل، دار المشرق، بيروت، ١٩٧٠م.
- **كتاب بغداد**: لابن طيفور، مكتبة الخانجي، القاهرة مصر، ١٤٢٣هـ= ٢٠٠٣م.
- **كتاب سيبويه**: تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط٣، ١٤٠٨هـ= ١٩٨٨م.
- **لطائف المعارف فيما لمواسم العام من اللطائف**: لابن رجب الحنبلي، تحقيق: ياسين محمد السواس، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٢٠هـ= ١٩٩٩م.
- **لفتة الكبد إلى نصيحة الولد**: لابن الجوزي، تحقيق عبد الحميد محمد الدرويش، طبعة دار المقتبس، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م.
- **المجالسة وجواهر العلم**: لأحمد بن مروان الدينوري، جمعية التربية الإسلامية، البحرين أم الحصم، دار ابن حزم، بيروت لبنان، ١٤١٩هـ= ١٩٩٨م.
- **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**: لنور الدين الهيثمي، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٤١٤هـ= ١٩٩٤م.
- **مجموع الفتاوى**: لابن تيمية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف المدينة المنورة السعودية، ١٤٢٥هـ= ٢٠٠٤م.
- **محاسبة النفس**: لابن أبي الدنيا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٦هـ= ١٩٨٦م.
- **المحاسن والأضداد**: للجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ.
- **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء**: للراغب الأصفهاني، تحقيق: د. عمر الطباع، دار الأرقم، لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ= ١٩٩٩م.
- **المُحدِّث الفاصل**: للرامهرمزي، تحقيق: محمد محب الدين أبو زيد، دار الذخائر، ٢٠١٦هـ.
- **مختصر تاريخ دمشق**: لابن منظور، تحقيق: روحية النحاس، رياض عبد الحميد مراد، محمد مطيع الحافظ، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ= ١٩٨٤م.
- **المدخل إلى السنن الكبرى**: للبيهقي، تحقيق: محمد عوامة، دار اليسر، دار المنهاج، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ= ٢٠١٧م.
- **المدخل إلى كتاب الإكليل**: لأبي عبد الله الحاكم، دار الدعوة الإسكندرية.
- **المدخل إلى كتاب صيد الخاطر**: للدكتور أحمد بن مسفر العتيبي، دار اللؤلؤة، الطبعة الأولى، ٢٠٢٠م.

ـ المدهش: لابن الجوزي، بعناية: عبد الكريم محمد منير، خلدون عبد العزيز، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٣٥هـ= ٢٠١٤م.
ـ مرآة الزمان في تواريخ الأعيان: لشمس الدين سبط ابن الجوزي، تحقيق مجموعة من المحققين، طبعة الرسالة العالمية، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م.
ـ المراسيل: لأبي داود، مؤسسة الرسالة بيروت، ١٤٠٨هـ.
ـ مسائل الإمام أحمد رواية ابنه أبي الفضل صالح: الدار العلمية دلهي، الهند، ١٤٠٨هـ= ١٩٨٨م.
ـ مسائل الإمام أحمد رواية أبي داود السجستاني: مكتبة ابن تيمية، مصر، ١٤٢٠هـ= ١٩٩٩م.
ـ المستدرك على الصحيحين: لأبي عبد الله الحاكم، دار الرسالة العالمية، ١٤٣٩هـ= ٢٠١٨م.
ـ المستفاد من ذيل تاريخ بغداد لابن النجار: انتقاء الحافظ الدمياطي، تحقيق: محمد مولود خلف، إشراف: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ= ١٩٨٦م.
ـ مسند ابن الجعد: مؤسسة نادر بيروت، ١٤١٠هـ= ١٩٩٠م.
ـ مسند أحمد: تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ= ٢٠٠١م.
ـ مسند إسحاق بن راهويه: مكتبة الإيمان المدينة المنورة، ١٤١٢هـ= ١٩٩١م.
ـ مسند البزار = البحر الزخار: مكتبة العلوم والحكم المدينة المنورة.
ـ مسند الروياني: مؤسسة قرطبة القاهرة، ١٤١٦هـ.
ـ مشارق الأنوار على صحاح الآثار: للقاضي عياض، دار الكمال المتحدة، تمويل مؤسسة سليمان بن عبد العزيز الراجحي، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ= ٢٠١٦م.
ـ مشيخة يعقوب بن سفيان الفسوي: دار العاصمة الرياض، ١٤٣١هـ.
ـ مصابيح الجامع: للدماميني، تحقيق: نور الدين طالب، دار النوادر، سوريا، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ= ٢٠٠٩م.
ـ مصارع العشاق: لجعفر بن أحمد السراج القارئ، دار صادر، بيروت.
ـ مصنف ابن أبي شيبة: دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الرياض السعودية، ١٤٣٦هـ= ٢٠١٥م.
ـ مصنف عبد الرزاق: دار التأصيل، الطبعة الثانية، ١٤٣٧هـ = ٢٠١٣م.
ـ معالم السنن شرح سنن أبي داود: للخطابي، طبَعهُ وصححه: محمد راغب الطباخ، في المطبعة العلمية بحلب، الطبعة الأولى، ١٣٥١هـ= ١٩٣٢م.
ـ معجم ابن المقرئ: مكتبة الرشد، الرياض، شركة الرياض للنشر والتوزيع، ١٤١٩هـ= ١٩٩٨م.
ـ معجم الأدباء: لياقوت الحموي، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٣م.
ـ المعجم الأوسط: للطبراني، دار الحرمين القاهرة، ١٤١٥هـ= ١٩٩٥م.
ـ المعجم الذهبي: للدكتور محمد التونجي، دار العلم للملايين، الطبعة الثانية، ١٩٨٠م.
ـ المعجم الكبير: للطبراني، مكتبة ابن تيمية القاهرة، ١٤١٥هـ= ١٩٩٤م.
ـ معرفة الصحابة: لأبي نعيم الأصبهاني، دار الوطن للنشر، الرياض، ١٤١٩هـ= ١٩٩٨م.
ـ المعرفة والتاريخ: ليعقوب بن سفيان الفسوي، تحقيق: العمري، مطبعة الإرشاد بغداد، ١٣٩٣هـ= ١٩٧٤م.

- المغـرب فـي ترتيب المعرب: للمطرِّزي، تحقيق: محمود فاخوري، عبد الحميد مختار، مكتبة أسـامة بن زيد، حلب، ط١، ١٣٩٩هـ= ١٩٧٩م.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: لابن هشـام الأنصاري المصري، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة، دار اللباب، الطبعة الثالثة، ٢٠١٩م.
- مقامات الحريري: مطبعة المعارف، بيروت، ١٨٧٣م.
- مناقب الإمام أحمد: لابن الجوزي، دار هجر، ١٤٠٩هـ.
- مناقب الشافعي: للبيهقي، تحقيق: السيد أحمد صقر، مكتبة دار التراث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٩٠هـ= ١٩٧٠م.
- مناقب بغداد: لابن الجوزي، تحقيق محمد بهجت الأثري البغدادي، مطبعة دار السلام، بغداد، ١٣٤٢هـ.
- المنتخب من علل الخلال: لابن قدامة، دار الراية للنشر والتوزيع.
- المنتظَـم فـي تاريخ الملـوك والأمم: لابن الجوزي، تحقيـق: محمد عبد القادر عطـا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٢هـ= ١٩٩٢م.
- منهاج السـنة النبوية في نقض كلام الشـيعة القدرية: لابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م.
- الموشى = الظرف والظرفاء: للوشاء، مكتبة الخانجي، شارع عبد العزيز، مصر مطبعة الاعتماد، ١٣٧١هـ= ١٩٦=٥٣م.
- موطـأ مالـك روايـة يحيى بن يحيى الليثي: تحقيـق: محمد فؤاد عبـد الباقـي، دار إحياء التـراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٦هـ= ١٩٨٥م.
- ميزان الاعتدال: للذهبي، دار المعرفة، بيروت، ١٣٨٢هـ= ١٩٦٣م.
- ميزان العمل: للغزالي، تحقيق: د. سليمان دنيا، دار المعارف، مصر، الطبعة الأولى، ١٩٦٤م.
- نثر الدر في المحاضرات: للآبي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ١٤٢٤هـ= ٢٠٠٤م.
- نزهـة الأبصـار بطرائـف الأخبار والأشـعار: لعبد الرحمن بن عبـد الله بن أحمد بن درهـم، طُبع على نفقة صاحب السمو العالم الجليل الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني، المكتب الإسلامي، دمشق.
- نزهة المجالس ومنتخب النفائس: للصفوري، المطبعة الكاستلية مصر، ١٢٨٣هـ.
- نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة: للمحسن بن علي التنوخي، تحقيق: عبود الشالجي، الطبعة الثانية ١٩٩٥م.
- النفقة على العيال: لابن أبي الدنيا، دار ابن القيم السعودية الدمام، ١٤١٠هـ= ١٩٩٠م.
- نهاية الأرب في فنون الأدب: للنويري، تحقيق: د. مفيد قميحة، د. حسـن نور الدين، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٤هـ= ٢٠٠٤م.
- الورع: للمرُّوذي، دار الصميعي الرياض السعودية، ١٤١٨هـ= ١٩٩٧م.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: لابن خلكان، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، ١٣٩٧هـ= ١٠٧٧م.
- يتيمة الدهر: لأبي منصور الثعالبي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ١٤٠٣هـ= ١٩٨٣م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة



الموضوع — الصفحة

